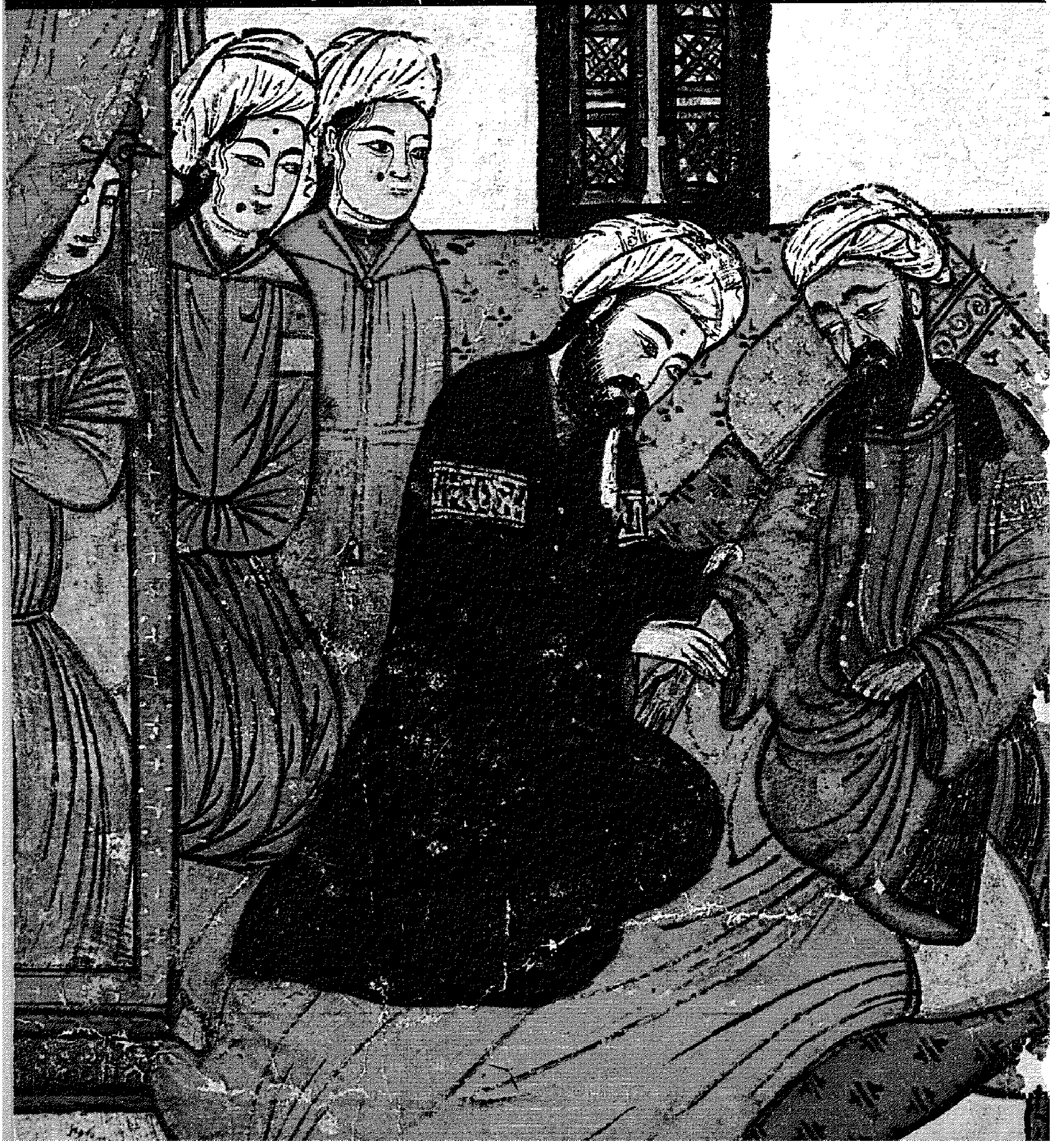
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة . العدد ٥٧ . تموز (يوليو) ١٩٨٣ م .. الموافق شوال ١٤٠٣ هـ .





مدينة تازة، في المغرب، تقع بالقرب من وادي ايناون. وهي تحتل آخر سلسلة جبال الأطلس المتوسط قبالة سلسلة الريف.



الغلاف الأول

□ استشارة طبية، من مخطوطة قديمة تعود إلى القرن الرابع عشر.
(المتحف الوطني — القاهرة).

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية تعنى بشؤون التاريخ

العدد ٥٧ ـ تموز ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5 No. 57 July 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

□ **تطور حياة البدو في الجزيرة العربية في ضوء المادة الأثرية**
فالتر دوستال ٢

□ **النظام السياسي اللبناني في ديالكتيك الحرب والسلام**
د. جوزيف مغيزل ١٨

□ **الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ (الحلقة الثالثة والأخيرة)**
بقلم: د. أدمون رباط
تعريب: د. محمد المجذوب ٢٥

□ **من قصص العرب**
في يوم القادسية ٣٨

□ **مخطوط «تاريخ الملك الأشرف قايتباي» وغزوات المماليك إلى قبرص**
د. عمر عبد السلام تدمري ٣٩

□ **ازياء العرب**
انطوانيت أديب باسيلي ٤٨

□ **بعلبك صدرت حكامها البوريين ملوكا لدمشق**
د. حسن عباس نصر الله ٥٨

□ **رسالة في امراض الأطفال والعناية بهم**
تأليف: ابي بكر محمد بن زكريا الرازي
اعداد : د. محمود الحاج قاسم محمد ٦٨

□ **اغتيال ملك يوغوسلافيا**
د. رياض العالي ٧٨

□ **القراء يكتبون: موقعة العقاب**
محمد عبد العزيز عثمان ٨٥

□ **اخبار التراث** ٨٩

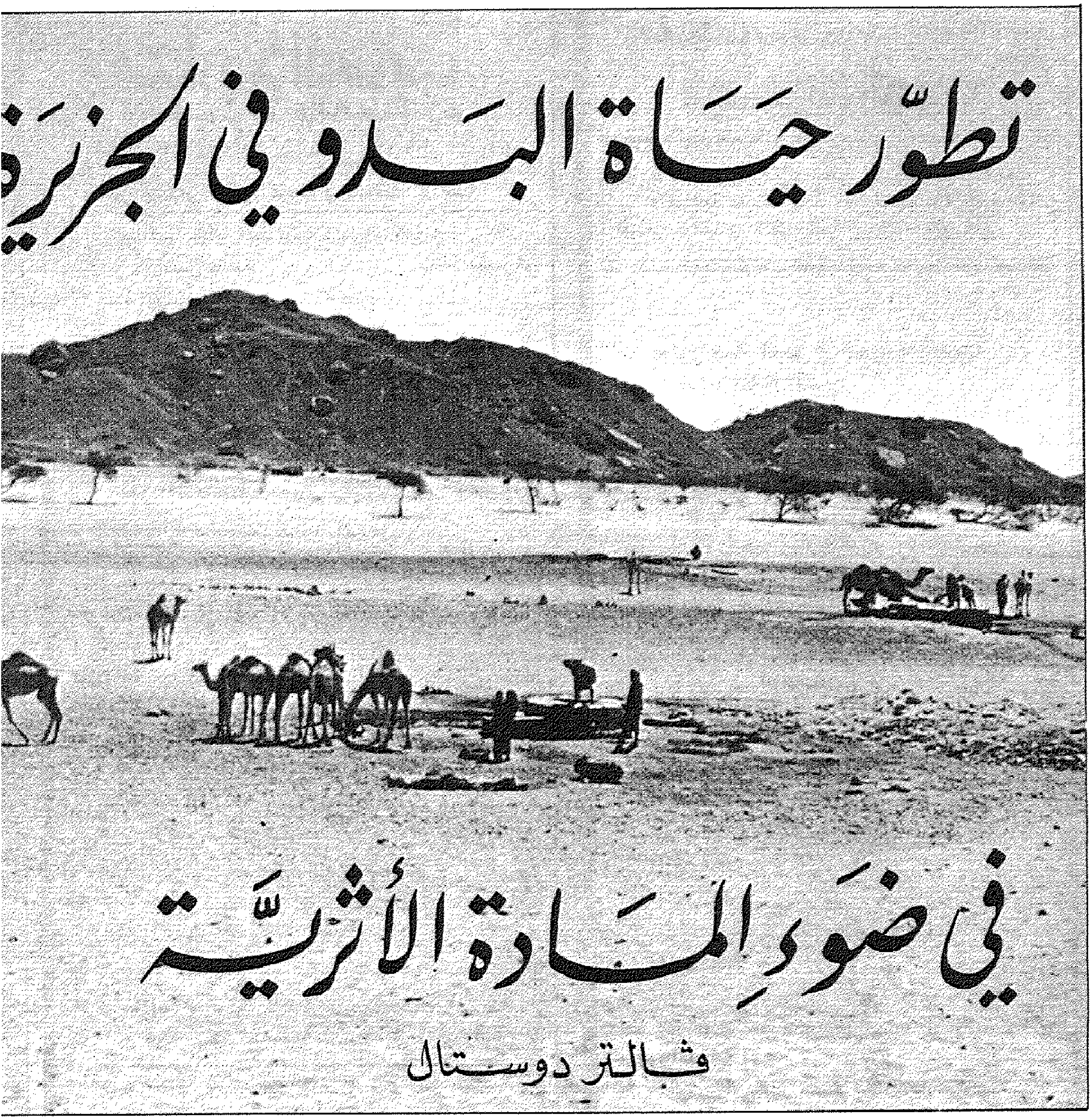
□ **كتب وردتنا** ٩١

□ **مراجعة كتاب:**
الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان
د. إبراهيم فريد الدر ٩٢

تطوّر حياة البدو في الجزيرة

في ضوء المادة الأثرية

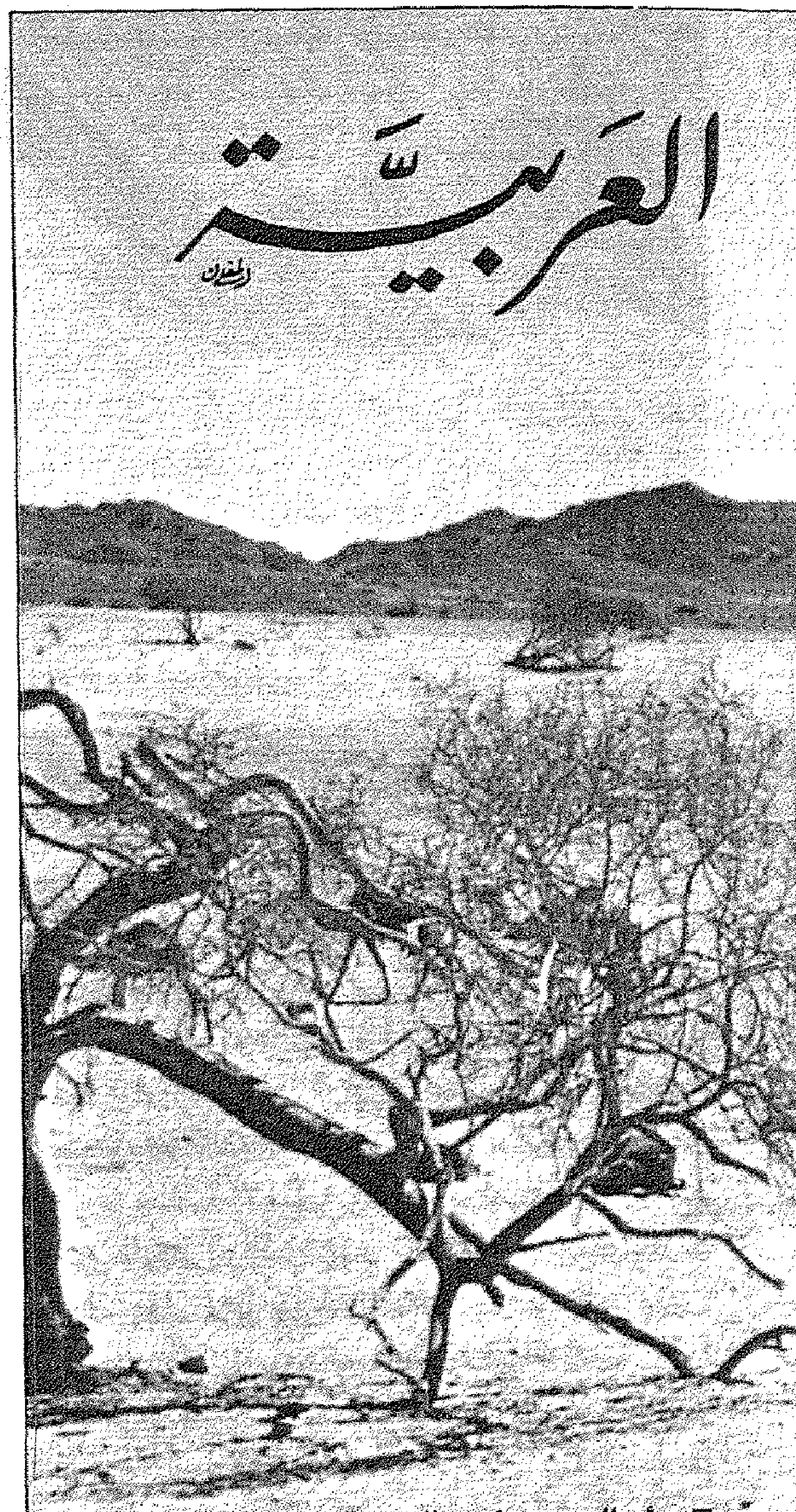
ڤالتر دوستال



تحاول هذه الدراسة أن تتبع تطور تراث رعاية الإبل (للبدو) في الجزيرة العربية، وذلك من خلال المعلومات المتوفرة والتي يمكن الاستناد إليها[1]. وتقضي الأمانة العلمية أن أعترف بالثغرات التي شابت النتائج التي توصلت إليها وبقصور هذه النتائج، وذلك بسبب عدم ثبوت المقدمات التي بنيت عليها هذه النتائج، ومن ثم فإنه يجب اعتبارها مجرد احتمالات. وبصراحة فإن الحقائق وراء هذه المقدمات تعتمد على الحالة الراهنة لدراسة الآثار، وهي دراسة قد تؤكدها أو تظهر تناقضها الاكتشافات التي قد تستجد في المستقبل... هذا وأنا أدرك نقص الأسس التي بنيت عليها نتائجي فيما يختص بالأنواع المختلفة من الرحال (جمع رحل)[2] والأوضاع وأساليب الركوب الخاصة بها. وإنني لأسجل في هذا المقام المثير للجدل:

١ — أنه ليس لدينا في الوقت الحاضر طرق أخرى.

٢ — أن إقامتي بين قبيلتي مطير وعجمان — وهما من القبائل البدوية — أتاحت لي فرصة الاطلاع على الكثير من دقائق ركوب الجمال وأوضحت لي بالذات الأهمية الأساسية لهذين



□ بئر العبر، جنوب الجزيرة العربية.

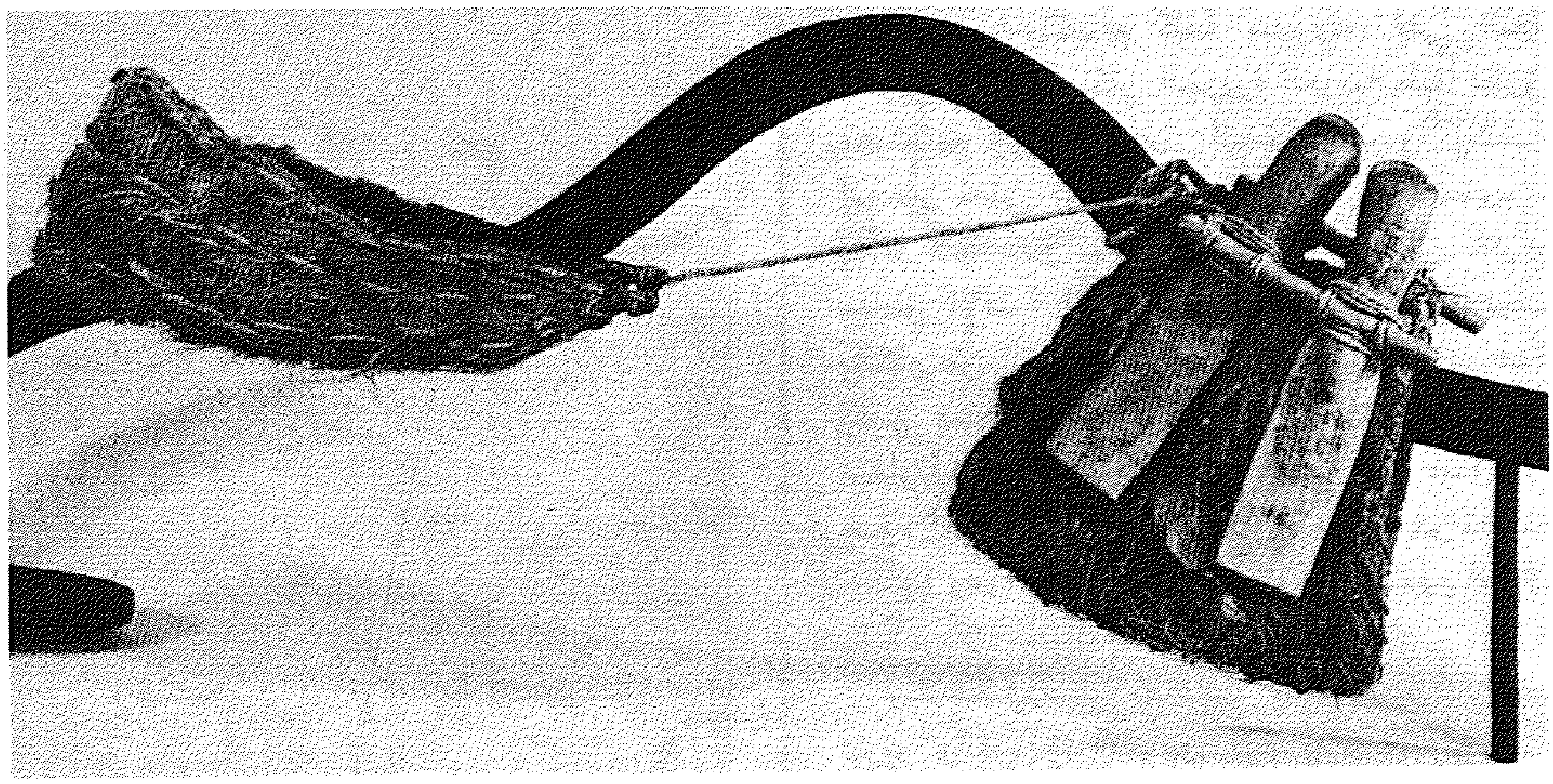
العنصرين. وعندما يعترض البعض بأن هذه «الرحال» كانت منتشرة على نطاق واسع بحيث يمكن القول إنها لابد وأن تكون قد اكتشفت على حدة في عصور مختلفة وأماكن مختلفة، فإني أتساءل ببساطة لماذا أدخل الرومان سرج خيل الفرسان القائم على قبو السرج (منحنى السرج) أولاً في القرن الأول بعد الميلاد أي بعد احتكاكهم مع البارثيين (Parthians)[٣].

وحتى نتجنب اللبس الذي قد ينشأ عن المعاني المتشعبة التي تعنيها الكلمة العربية «بدو»، أعتقد أنه من الأفضل أن أبدأ بتحديد ما أعنيه باستخدام كلمة «بدوي»، ففي اللغة العربية ينقسم سكان الجزيرة العربية طبقاً لطرق معيشتهم إلى قسمين: الحضر والبدو، وكلمة الحضر تعني بصيغة عامة السكان المستقرين، بينما كلمة بدو تطلق على الذين يعيشون خارج مناطق الإقامة الدائمة... وهذا التعريف محفوف بالكثير من الصعوبات، حيث إن مفهوم البدو هذا يضم مجموعات مختلفة تمثل مراحل حضارية متفاوتة. وفي سبيل إعادة تعريف لفظ «بدو» في ضوء المادة الأثرية، اقترحت في مقام آخر تعريفاً محددا وهو: رعاة الإبل، الذين من عادتهم القتال كالمحاربين الخيالة.

ونلاحظ في كتاب «النقائض» للشاعرين العربيين جرير والفرزدق أنه من بين ثلاثمائة وثلاثة وتسعين كلمة وردت في وصف رعاة الإبل الرحل وحياتهم، نحو ٣٧ ٪ في مجال الحرب وأساليبها... هذا التقسيم إلى بدو وحضر هو حقيقة اجتماعية معقدة، يمكن تقديرها على نحو أفضل إذا ما نظرنا إلى التعارض الذي يوحي به بين الاصطلاحين، هذا إذا ما تجاهلنا مؤقتاً كل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الفعلية.

وتتضح في كتاب «النقائض» قوة هذا التعارض، على النحو الذي يشعر به البدو أنفسهم، من استخدام كلمة قعود للجمل الذي يركبه من يرعى المواشي ذوات القرون... والأصل الثلاثي هو «قعد» بمعنى جلس وأقعى، ومن هذه الكلمة تشتق أيضاً كلمة «قعاد» (بكسر القاف وفتح العين) للإشارة إلى أولئك الذين لا يذهبون للحرب والقتال. وقد حدد عالم الاجتماع العراقي «علي حسين الوردي» هذا التضاد بقدر أوفر من الوضوح في المحاضرة التي القاها عام ١٩٥١ عن شخصية العراقي، فهو يرى أن ثمة نظامين أو نسقين مختلفين للقيمة في المجتمع العراقي: «ثقافة بدوية تميل إلى الحرب من ناحية»، «وثقافة قروية مسالمة من ناحية أخرى».

«وقد ترتب على هذا وجود نسقين مختلفين للقيم في العراق: أحدهما أساسه الاعتقاد في القوة والشجاعة والغلو في تقدير الكبرياء، والثاني أساسه الاعتقاد في العمل والصبر وقبول الضرائب والطاعة والكد»[٤].



□ رحل حولاني، متحف الشعـوب، ڤينا، مجمـوعة فالتردوستال.

وكما ذكرت آنفا فإنني في منهج هذه الدراسة أبدأ من الأنواع المختلفة للرحال (جمع رحل أو سرج) وأوضاع الركوب المرتبطة بها، وفي الجزيرة العربية يستخدم رعاة الإبل حاليا نوعين مختلفين من الرحال، ومن ثم يمكن تصنيفها في قسمين: أحدهما خاص بالمحاربين وهو معد لهذا الغرض، والثاني معد بحيث يصلح للنقل فقط.

(أ) المجموعة الأولى وتوضع على سنام الجمل، ورحلها الخشبي معد وفقاً لمبدأ القبو (المنحني)، (أنظر ٣ ــ ١) ويتصل القبوان (زلاف) كل بعقدته المطولة (رأس) بالجانبين بواسطة دعامتين متقاطعتين (المسكبين). أما الرحل كله فيبلغ ارتفاعه ٥٨ سنتمترا، وعرضه ٥٢سنتيمترا وتوضع العقدة الأمامية على بعد ما بين ٤٨ سم إلى ٥٠ سم من العقدة الخلفية، في حين يتم ربط الأجزاء الخشبية بعضها مع البعض الآخر بواسطة شرائط من جلد الغزال ــ المعد قبل أن يجف، ويلف حول المفاصل بحيث يجعل الرحل في وضع يسمح ببعض المرونة. أما حزام الرحل (المحقب) والوسادة التي يجلس عليها (المفراي) ووسادة أخرى للقدم (مرقا) فتربط بالقبو الأمامي، وجميع هذه الوسائد من الجلد المحشو بصوف الأغنام... وقد أطلق على المجموعة التي تستخدم هذا النوع مجموعة «الشداد»، من الإسم العربي لهذا النوع من الرحال... وتنتمي إلى هذا النوع معظم قبائل رعاة الإبل الموجودة حالياً في الجزيرة العربية.

(ب) والمجموعة الثانية تجلس على عجيزة الجمل أو (المذيلة) (وهي الحزام الذي يربط تحت رباط الذيل) وذلك على وسادة (حاوية) توضع خلف السنام وتثبت بواسطة حبل مع قبوي الرحل والذي يتم تثبيتها بواسطة حزام الرحل حول أعلى كاهل الجمل... وهذا النوع من الرحل يطلق عليه في الجزيرة العربية لفظ «حولاني» ولهذا فأنا أطلق على هذه القبائل المجموعة الحولانية.

ويكشف هذان النوعان من الرحال الاختلاف في تطور الركوب عند القبائل المستخدمة للابل... وسأحاول من خلال فحص الرحال التي عثر عليها ضمن البقايا الأثرية المتخلفة عن الشرق القديم أن أعطي فكرة عن هذا التطور، ونظرا لقلة ما عثر عليه من هذه البقايا التي أمكن التوصل إليها من بعض الأماكن، فإن ذلك يحتم علينا أن ندرس من حيث المبدأ قيمتها من حيث إنها دليل وبرهان مع مراعاة أن يشمل هذا الفحص، بالإضافة إلى التماثيل، عظام الدواب من فصيلة الإبل، وبعض الخطوط والنقوش التي تشير إليها... وتتكون هذه المادة من حيث الكمية والمصدر من بقايا متفرقة خلال المراحل المختلفة

العديدة لمراكز الحضارة المتقدمة في العراق وفيما بين النهرين وما يجاوره، وتعتبر المخلفات دليلاً بالغ الأهمية على وجود اتصال بين شعوب الحضارات المتقدمة وبين غيرها من الجماعات التي تقتني الإبل، ومع أن هذه البقايا تدل على أن هذا الاتصال لم يكن وثيقاً، إلا أن ذلك لا ينفي وجود الجماعات التي تقتني الجمل العربي وحيد السنام خلال العصر الألفي الثالث قبل الميلاد، والتي نمت وبرزت في فترات غير منتظمة على مشارف وداخل المنطقة ذات الحضارة المتقدمة. وهذه المقولة العامة هي كل ما نستطيع أن نستخلصه من هذه المخلفات، ربما مع استثناء أن بعض هذه الآثار يبين كيف كان ركاب الجمال يمتطون جمالهم وكيف كانوا يستقرون فوقها. كذلك يجب أن نتذكر:

(أ) أن شبه الجزيرة العربية كانت تعتبر أرضاً مجهولة في الفترة السابقة لظهور المؤرخين.

(ب) أنه من الصعب الحصول على دليل أثري لثقافة القبائل الرحل، حيث إن معداتهم صنعت من مواد لا تتحمل البقاء لأمد طويل، وبناء على ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول الكثير عن الأصول السلالية لمالكي الإبل، أو القول فيما إذا كانت هذه السلالات عبارة عن شكل متطور من أشكال الاقتصاد الزراعي المختلط، أو أنها نشأت من مرحلة أكثر سموا من مراحل مجتمع الصيد، كذلك فإننا لا نستطيع أن نحدد بشكل قطعي مكان وزمان هذا التطور لتاريخ الجزيرة الثقافي[٥]، وكل ما يمكننا أن نقوله في الوقت الحاضر هو أنه منذ العصر الألفي الثالث قبل الميلاد حتى النصف الأول من الألف الثاني كانت توجد جماعات مالكة للإبل قد اتصلت عرضياً وبصورة غير منتظمة بسكان الحضارة المتقدمة، ولا نعرف هذه الجماعات من حيث أصولها السلالية أو لغتها، ويصعب جغرافيا تحديد أراضيها على وجه الدقة.

ومن العسير تحديد قيمة المصادر التي ناقشناها من قبل، وذلك أن المادة الأثرية المتوفرة كان مصدرها الوحيد أصحاب الحضارة المتقدمة، ولم تكن من نتاج رعاة الإبل أنفسهم، وبالتالي فإن هذه المادة الأثرية تتحدث فقط عن رعاة الإبل الذين ارتبطوا بصلات مع أصحاب هذه الحضارات المتقدمة. وعلى الرغم من هذا التحفظ، فإننا سنمضي في فحص المادة الأثرية من حيث ما قد تدل عليه من عادات الركوب، والأسلوب الفني (التكنيك) الخاص بالركوب، ومن حيث تكوين الرحل. ومن هذا المنطلق سنحاول مناقشة بضعة أسئلة هامة، منها على سبيل المثال: كيف يمكن ــ لأغراض الدراسة المقارنة ــ تقييم جماعات رعاة الإبل التي لم تترك دليلا ما ينبىء عن أنها كانت يوما من فئات «المحاربين الراكبين». والملاحظة الأولى، وهي أن الإبل تمتطى حتى عصرنا الحاضر على السنام وعلى العجز على حد سواء، تثير عدة أسئلة:

(أ) أين يمكن لراكب الجمل أن يأخذ مكانه؟

(ب) أي مقعد من المقاعد يحقق الركوب الأفضل؟

(ج) أي مقعد كان الأسبق في الاستخدام؟

يستخدم الراكب في ركوبه ثلاثة مقاعد هي: أعلى الكاهل ــ السنام ــ العجز (المنطقة الخلفية). وبشكل عام يستعمل النوع الأول في المسافات القصيرة، ويكون غالباً وسط قطيع من الدواب أثناء الرغي، ويمكننا اعتبار كل من العجز والسنام من المقاعد.

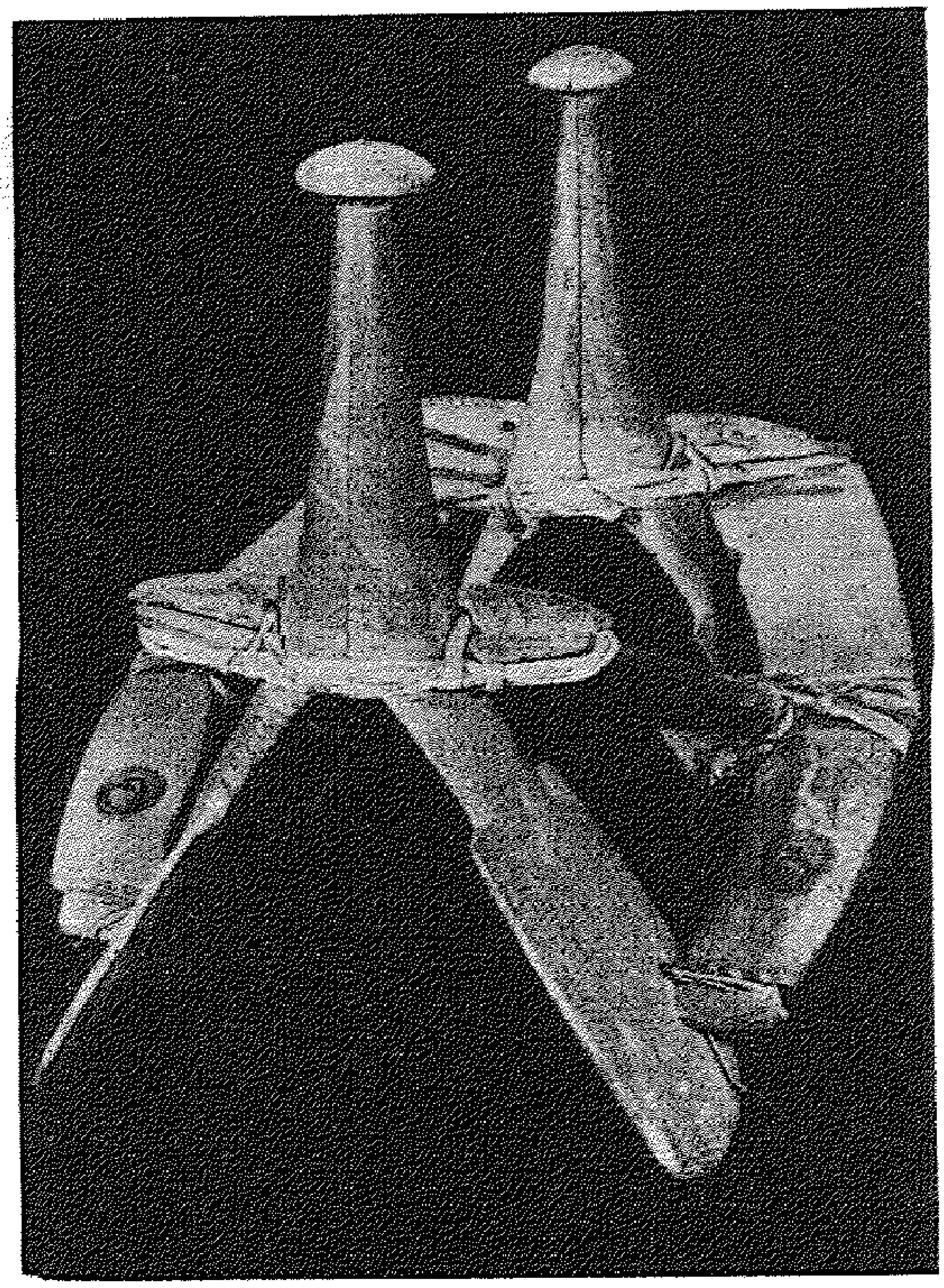
وفيما يلي بعض البقايا والمتخلفات الأثرية التي توضح وضع بعض الرجال وهم يمتطون عجز الجمال:

١ ــ أثر من الحجر الجيري لراكب جمل من تل الأسمر (العصر الألفي الثالث قبل الميلاد).

٢ ــ تمثال صغير لرجل يمتطي جملاً سريعاً من «تل تاناخ» (العصر الألفي قبل الميلاد).

٣ ــ تمثال صغير لجمل من اليمن (العصر الألفي الأول قبل الميلاد)[٦].

وتشير هذه الآثار إلى أن الرعاة كانوا يمتطون الإبل من عند عجزها، وذلك في العصر الألفي الثاني والثالث قبل الميلاد، أما بالنسبة للجنوب فكانوا يتبعون هذه الطريقة في العصر الألفي الأول. ويرجع الدليل الأثري على امتطاء سنام الجمل إلى النصف الأول من العصر الألفي الأول، ويتضح على سبيل المثال من الرسم البارز لراكب جمل «تل حلف» (القرن التاسع قبل



□ رحل شداد، متحف الشعوب، فينا، مجموعة فالتر دوستال.

الميلاد) ومن رسوم راكبي الجمال السريعة في عصر الأشوريين المحدثين، ومن ثم فمما لا شك فيه أن الركوب على العجز كان الطريقة الأولى لركوب الجمال بين قبائل رعاة الإبل، ويتضح من الأدلة الأثرية أن الركوب على السنام كان مرحلة تالية، وهنا يواجهنا أول تباين أثنوجرافي[٧]. فقد كان راعي الإبل في شمال الجزيرة العربية أول من يركب على السنام، في حين استمرت القبائل في جنوب الجزيرة في ركوب العجز وذلك حسبما تنبىء الأدلة الأثرية والأثنوجرافية. وكما ذكرت من قليل فإن التحول في الشمال من طريقة إلى أخرى في الركوب، حدث في النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد.

ومما لاشك فيه أن الطريقة الثانية كانت تطورا حاسما جداً في وقتها في أساليب الركوب، حيث إنها على النقيض من الطريقة القديمة، أتاحت للراكب تحقيق أعلى معدل للسرعة بواسطة جمله، ويعد هذا عاملا أساسيا في تطور رعاة الإبل كقوات محاربة راكبة، ومنذ ذلك الوقت أصبح في مقدور راكب الجمل في شمال الجزيرة العربية أن يقطع مسافات كبيرة على نحو أسرع، وترتب على ذلك اكتشافه للمراعي بطريقة ايسر، وأن يشرف على رعي أعداد من الإبل اكبر من ذي قبل. وهذا التفسير لا يعتمد على أرقام مقارنة عن مدى السرعة في كلتا الحالتين، وإنما يعتمد في المقام الأول على أقوال البدو أنفسهم، أي على التقدير الذاتي. ومع ذلك فإنه لا يتعارض مع البيانات التاريخية القليلة المتاحة عن غزو رعاة الإبل للأراضي الخصبة وإنني أميل كذلك لهذا الحكم استنادا إلى عدد البقايا الأثرية التي تبين راكب السنام في مقابل راكب العجز)، وهي كبيرة بدرجة غير عادية، وأرجع ذلك إلى التطور الذي طرأ على أسلوب الركوب، لأنه منذ ذلك الحين أصبح رعاة الإبل يشكلون تهديداً لسكان المدن الذين بدأوا يهتمون بهذه الظاهرة. ومن الدلالة بمكان في هذا المقام أن نجد تقريرا في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ رعاة الإبل يرجع تاريخه إلى عام ٨٥٤ قبل الميلاد. عن المساعدة التي وضعها الجندوبي العربي تحت تصرف الأمير الحاكم لإحدى المدن السورية، وهي عبارة عن (١٠٠٠) ألف من الإبل السريعة[٨].

وترجع الآثار الأولى التي توضح تركيب الرحل إلى الألف الأول قبل الميلاد وهي تكشف عن هوية الرحال ذات الوسائد، أو نوع هذه الوسائد، ومن أقدم الآثار المتوفرة في هذا المجال (من آثار «تل حلف» كما سبق الإشارة) نرى الوسادة قائمة الزاوية مثبتة بواسطة حزامي السرج المتقابلين. ويتضح من الرسوم الآشورية الحديثة أن هذا النوع كان مستخدما خلال الفترة التي تعنينا، حيث يبدو أنه مماثل لتلك الأنواع المستخدمة اليوم في حزام الرحال. كذلك فإن هذه الرسوم تعد أفضل دليل إثنوجرافي حيث إنها توضح أول أثر ثقافي خارجي يطرأ على قبائل رعاة الإبل الشماليين (من القرن الثامن حتى السابع قبل الميلاد). وبالنسبة للرحل ذي الوسادة في صورته التي عثر عليه فيها من قبل مزوداً بحزام يلتف حول بطن الجمل، فقد أضيفت إليه ثلاثة عناصر جديدة نشأت عن الفروسية المعاصرة: قماش الرحل والشرائط المرتبط به حول الصدر وذيل الحيوان، ولربما وصلت هذه الإضافات المتعلقة بالإبل إلى الرعاة عبر احتكاكهم بالحضارة

المتقدمة. ومن هذا المصدر نفسه تلقى رعاة الإبل ما حفزهم على التوصل إلى العديد من الاختراعات التكنيكية، وعلى سبيل المثال، يوضح الرسم ١٠ ــ ١١ من نسميه براكب العجز (المؤخرة) الذي يمتطي الجمل خلف الراكب تماماً، ويطلق السهام على العدو من مكانه وكأنه يركب عربة حربية. وهذا الشكل يظهر في الشعر العربي القديم مثل «الرديف» و «الزامل»، ولكن الرديف تغيرت وظيفته على النقيض من راكب العجز (المؤخرة) في العصور الآشورية الحديثة، فقد استخدم هجينه (جمله) فقط في الوصول إلى مسرح المعركة، وهناك يستبدله بحصان قد أحضره معه ليخوض به القتال. وهذا الاختلاف بالنسبة لراكبي المؤخرة يمكن أن يتطور في حالة ما إذا ما صار لدى قبائل الإبل جياد أيضا[٩].

وثمة دليل آخر من هذه الحقبة، وهو تمثال صغير لجمل من اليمن يوضح رحلا مماثلا للرحل الحولاني الأخير، ولكن ينقصه القبوان الصغيران للشكل الحديث. ونستخلص من هذا أن قبوي الرحل الحولاني قد أضيفا إلى الرحل اليمني القديم ذي الوسادة، وأن الشداد لا يمكن أن يكون قد اقتبس من قبوي الحولاني. وبهذه النتيجة ينتهي تحليلي لآثار راكب الجمال من الألف سنة الأولى قبل الميلاد.

والموضوع الثاني الذي أتناوله هو ظهور «الشداد». ومعرفتنا بالشداد ــ وهو نوع من الرحال ــ ترجع من الناحية الأثرية إلى المخلفات التي وجدت في تدمر «بالميرا» (شمالي الجزيرة العربية) والتي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، ومما يؤيد ذلك ظهورها على ألواح القرابين في نفس الفترة في تدمر أيضاً. وكما أشرت في مقدمتي فإن المصدر الرئيسي للشداد هو قبو الرحل الذي اخترعه خياله وسط آسيا[١٠]... ولنحاول أن نعد تصنيفا للرحل المقوس، وهو عامل مساعد ذو فائدة غير عادية بالنسبة للركوب، باعتبار أن الرحل المقوس لم يطور على مراحل وإنما اكتشف مرة واحدة، كما تشير الأدلة الأثرية، ومن هذا الرحل نشأت ــ كما أوضح يوهانسن بشكل مقنع ــ أشكال عديدة متباينة. وفي هذه الحالة ننتهي إلى أن الشداد هو عبارة عن تعديل لسرج الحصان ذي القبو بحيث يصلح للإبل. يؤكد هذه المسألة شيء لا يمكن أن نتجاهله في هذه المناقشة هو أن أول ظهور للشداد في الآثار يرجع تاريخه إلى نفس الفترة التي ظهر فيها أول أثر لخيالة الشرق الأدنى وهم يمتطون ظهر السرج المقوس (ذي القبو)، إن الفرق في التركيب بين رحال الإبل في الألف الأول قبل الميلاد والشداد يستبعد الافتراض البديل لنشوء شداد مستقل عند رعاة الإبل. ومن حيث الأدلة الأثرية فليس لدينا تفسير آخر لنشأة الشداد، فعلى ضوء المعلومات المتاحة يمكن القول أن البارثيين هم الذين أدخلوا الرحل المقوس (ذا القبو) إلى مشارف الجزيرة العربية. ومن ثم فإن الشداد يمثل التجديد الهام الثاني الذي تلقاه رعاة الإبل الشماليون من الفرسان. وهذا الرحل الجديد هو ثمرة الاحتكاك الثقافي بين الإيرانيين والساميين، ويعد أقوى العوامل في تطوير النواحي الحربية في حياة رعاة الابل. فلأول مرة يتوفر لراكب الإبل رحل يهيء له كل الاستقرار اللازم والمساندة المرجوة في القتال وهو فوق ظهر الجمل. وواكب ذلك تغير مماثل في أسلحته، فبدلا من القوس والسهام التي كان يستخدمها في مرحلة الرحل ذي الوسادة نجده الآن يستطيع أن يستخدم الرمح الذي يستخدمه الفرسان في حربهم.

وبقدر ما نرى الآن فإن هذه التطورات الفنية: الركوب على السنام، تطور إعداد الرحل نتيجة عناصر مستعارة من ركوب الخيل، تطور في أساليب الحرب عن طريق اقتباس مبدأ عربة الحرب وملاءمته (تكييفه) مع ركوب الإبل، استخدام القبو (المقوس) في رحال الإبل، فإن هذه التطورات قد تركزت في قبائل رعاة الإبل الشماليين. أما القبائل الجنوبية فقد تمسكت بنوع من الرحال ذات الوسادة التي ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا، كما كان الحال في الألف سنة الأولى. وعلى ذلك، واستنادا إلى مراحل التطور المختلفة كما أثبتناها، يمكن تقسيم رعاة الإبل المختلفة إلى مجموعتين: الشمال المتقدم والجنوب المحافظ.

وتبين من الدليل الأثري وعلم الإثنوجرافيا الحديثة أن الركوب على العجز (المؤخرة) كان



□ تصوير لراكب جمل في تل خلف، القرن التاسع قبل التاريخ.

الأسلوب الشائع بين كل رعاة الإبل في مرحلة ما من تطور هذه القبائل، ولا يمكن حتى الآن تحديد تاريخها على وجه الدقة. وظهرت بوادر تغيير بين رعاة الإبل حوالي نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول انتهت بتقسيم شبه الجزيرة إلى قسمين. ومن المحتمل أن يرجع ذلك التقسيم إلى الاحتكاكات المتعددة بين قسم المجموعة الشمالية ومنطقة الحضارة المتقدمة. وقد ورد في أحد النصوص وجود مركز لتربية الحيوان قريبا من «نيبور» يرتاده المشترون من بلاد ما بين النهرين وأيضاً من إيران، حيث كان هذا العمل يشكل جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد إذ ذاك، وهذا يشير إلى أن الحضارة المتقدمة في هذا المجال كان لها بعض الأثر فيما وراء حدودها المباشرة. ولذلك ــ وتحت ظروف معينة ــ يمكن تفسير التحول من الركوب على العجز (المؤخرة) إلى الركوب على السنام، بأنها وليدة هذه الاحتكاكات، ولكنني لا أستطيع إثبات ذلك، فلا يمكن إثبات أن رعاة الإبل الشماليين كانوا على اتصال مع الحضارة المتقدمة خلال موجات التوسع، وإن كان ذلك ممكناً، هذا بخلاف رعاة الإبل في الجنوب فلم يتح لهم الاحتكاك مع مراكز الحضارة المميزة، ومن ثم افتقدوا هذا الحافز الهام للتطور. وتكمن الأسباب الرئيسية لذلك في جغرافية جنوب الجزيرة العربية والوضع الثقافي هناك، وفي التطور المتأخر نسبياً للحضارة المتقدمة. في العصور القديمة ظهرت بعد ذلك بنحو ألف سنة تقريباً النتائج الأولى للحضارة المتقدمة في بلاد ما بين النهرين، فإذا ما رجعنا إلى تاريخ المرحلة الثانية لبلاد ما بين النهرين المتقدمة فعلا مع تأسيس المملكة السامرية (قبل عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد) وبداية الحضارة المتقدمة لجنوب شبه الجزيرة العربية خلال القرون الأخيرة من الألف سنة الثانية، فإن هذه الفترة تؤكد التأخير في التطور الثقافي في الجنوب الذي يمكن أن يرجع إلى العوامل الجغرافية فقط. وفي التحليل النهائي فإن حضارة بلاد ما بين النهرين هي نتاج احتكاكات حضارية وتأثرات حضارية عديدة، وهو أمر لا يمكن حدوثه إلا حيث تحول جغرافية المكان دون تكون جيوب ثقافية محلية منعزلة. ومن ناحية أخرى فإن شبه الجزيرة العربية كانت منعزلة تماما. ولم تشكل أي نوع من الجسور التي تصل آسيا بجيرانها في القارة بحيث تسهل الاحتكاك الضروري للإنجاز الابداعي، بل على العكس فقد كانت تعزلها عن المراكز الثقافية في الشمال مفازات وقفار وعرة (صعبة الاختراق).

لهذا السبب فقد بدأت التأثيرات الحضارية الحاسمة في زمن متأخر نسبياً ــ في السنوات الألف الأولى السابقة للميلاد ــ وراحت تخترق شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب، وكان لهذا أهميته الكبرى بالنسبة لرعاة الإبل الجنوبيين. وكانت البداية المتأخرة نسبياً للحضارة العربية الجنوبية عنصراً له أهميته في اتجاهاتها المتحفظة، لكن العامل الأكثر أهمية تمثل في نقص الاحتكاك المباشر لهم بالمجتمعات التي قامت بتربية الخيول، تلك التي استمدت

القبائل الشمالية منها أعظم دوافعها الكامنة. وإذا ما عدنا إلى تعريفنا للبدوي باعتباره راعياً للابل اعتاد على خوض القتال على صهوة جواده، يمكننا أن نصنف أولئك الذين ينتمون إلى الألف الثالث قبل الميلاد ـــ وحينما لم تكن أسس المجتمع المحارب ذي المستوى الرفيع قد وضعت بعد .. بدوا أول، ويقصد من هذا الإسم أن نظهر كيف تولدت مرحلة عن أخرى. هذا التاريخ للانتقال من البدو الأول للبدو الخلص، تؤيده أبحاث ف. جاسكل (W. Gaskel)[١١]. فقد أكد في أبحاثه التي أقامها على مادة أخرى ومن منطلق مخالف لذلك الذي بدأنا منه ما يماثل هذا الذي ذهبنا إليه، وهو لم يتتبع تكوين المجتمع البدوي إلى تلك الفترة التي مضينا نحن إليها فحسب، وإنما أكد أيضاً نموه على يد رعاة الإبل الشماليين وتلك بالتأكيد ليست محض مصادفة.

لقد بدأت المرحلة البدوية المبكرة حينما بدأت القبائل للمرة الأولى في رعي الإبل (في تاريخ لا يمكن تحديده على نحو دقيق)، ودامت حتى القرن الثالث أو الثاني بعد الميلاد. وتشمل تلك المرحلة كلتا المجموعتين: المتطورة والمحافظة، وأعقبت ذلك مباشرة المرحلة البدوية الخالصة، ولكنها اقتصرت على المجموعة المتطورة وحدها، ويمكن أن يقرر علم الإثنوجرافيا اليوم موعد وجودها، بالطبع هنالك مخلفات لتأثير البداوة الخالصة يمكن اكتشافها داخل الجماعة المحافظة مثل تقوية السرج الحولاني بدعامتين عبر أعلى الكاهل على نحو ما وجد لدى هذه المجموعة، ولكن لماذا أصرت هذه المجموعة على الجلوس على العجز، واستخدام سرج غير مناسب للقتال حتى رغم معرفتهم بالشداد الذي يعطي لراكبه مثل هذه المزايا في الحرب؟ إن هذا الاتجاه الواضح للعادات القديمة للتشبث بالبقاء، بالإضافة إلى التمسك بالسمات المميزة للمرحلة البدوية المبكرة، يشير إلى أنه يمكن افتراضا وحتى اليوم أن نجد بعضنا من مخلفات مرحلة البداوة المبكرة.

انطلاقا من الدور الرئيسي الذي لعبته أنماط الرحال يجب أن نسأل أولاً عما إذا كانت هناك عناصر أخرى مميزة قد ارتبطت بالرحل الحولاني في منطقة استخدامه الحديث؟ إن الجزء الثاني



□ تصوير لراكب جمل اشوري، القرن الثامن والسابع قبل التاريخ.

من هذه الدراسة مخصص لبحث هذه المشكلة ضمن غيرها من المشاكل، ولسوف نقتصر هنا على النتائج الأساسية. إن المعلومات الإثنوجرافية تظهر الرحل الحولاني مرتبطا ببعض العناصر الحضارية وهو ارتباط أطلق عليه «وحدة الحولاني» (Hawlani unit). وهي تشمل: رحل للحمل (قتب)، ورحل مخصص للنساء يعرف باسم الطمة يقوم على فكرة الرحل الحولاني، وأنماط خاصة من السلال نشير منها إلى أوعية اللبن بصفة خاصة، وبعض الجاويات الجلدية مثل الركائب والأجولة المعدة لحمل الطعام والعقالات الجلدية والأنسجة البدائية، وكسمة سلبية: لا توجد الخيام إلا بين قبائل الصيار والكرب وآل رشيد الذين تبنوا جميعاً السكنى في الخيام من خلال الاحتكاك بقبائل الشداد. وقد أظهرت من خلال التحليل المقارن أهمية هذه

الوحدة الحولانية، وعبرت عن احتمال أن تكون هذه الوحدة ظاهرة أصلية. ومن منطلق الحقائق التي لخصتها من قبل، يمكن للمرء أن يجيب على ذلك السؤال بالايجاب. ولكن إلى أي مدى يمكن ان تشرح هذه الوحدة الحولانية باعتبارها من بقايا مرحلة البداوة الأولى؟

تعتمد الإجابة على العثور على عناصر حولانية بين قبائل الشداد، لهذا السبب فإننا يجب ألا نعتمد فحسب على الدليل الإثنوجرافي بل أيضاً على المؤلفين اللغويين العرب الذين يقدمون في بعض الأحيان إشارات مفيدة عن حياة القبائل العربية القديمة.

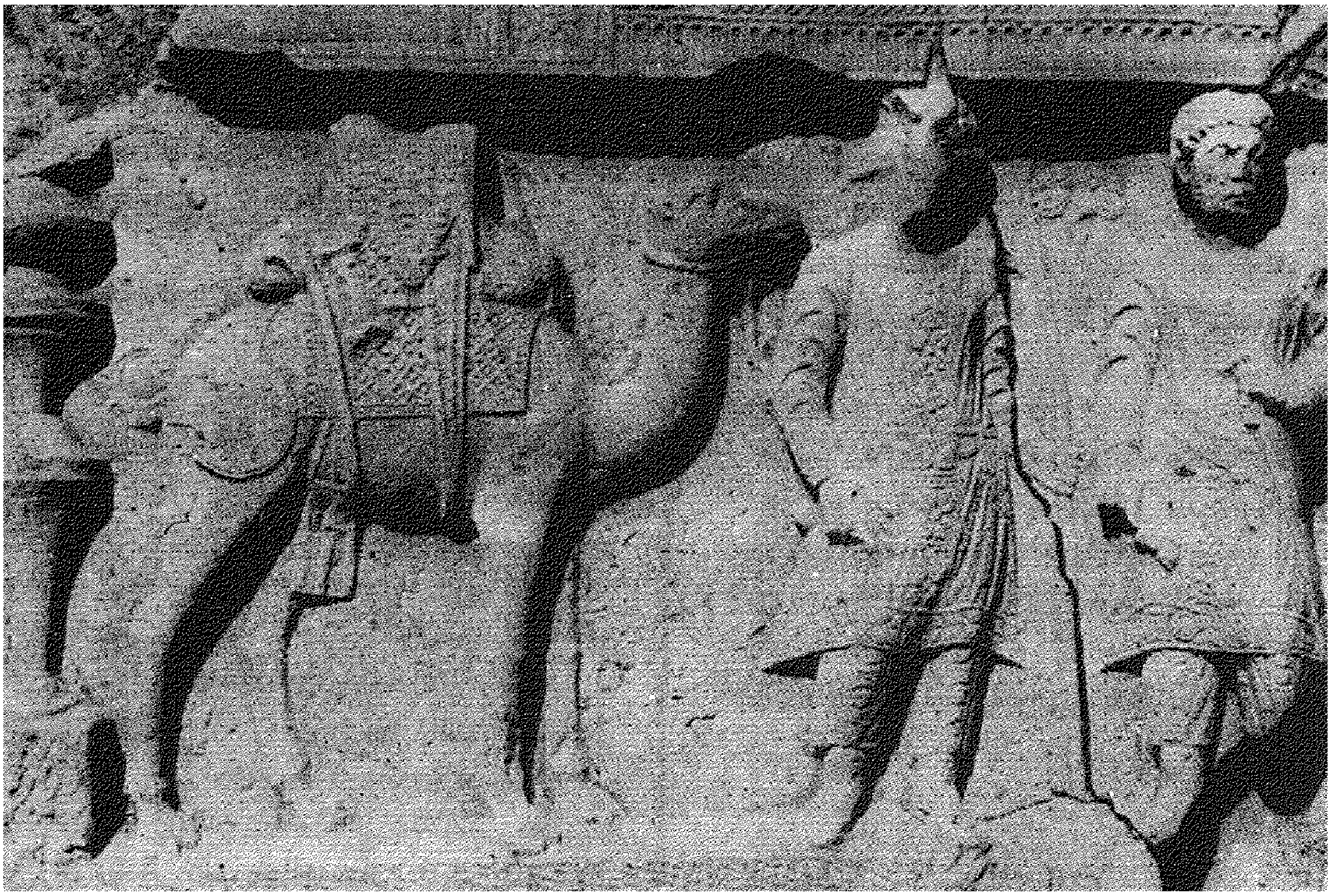
لا يجد المرء أي أثر أو إشارة في شعر الجزيرة العربية لأي من الأواني ذات القيمة التي ترتبط بالوحدة الحولانية، تلك الأواني المعدة من خوص زعف النخيل والمطرزة بالجلد، ولكن هناك نوعين من الرحال من النوع الحولاني هما القتب والطمة وجدا في قبائل الشداد.

(أ) ورد ذكر القتب في الشعر العربي القديم (انظر النقائض ص ٨٠٤) وفي لسان العرب، ولكن لسوء الحظ بدون وصف تفصيلي، فقد ذكر لسان العرب (في الجزء الثاني ص ١٥٤) أن النسوة الحوامل كن يستخدمن القتب للتعجيل بالوضع، وفي العصر الحديث يشمل التجهيز النموذجي «للروالا» صورة أكثر تطوراً من القتب، وهي عبارة عن وسادة على شكل حدوة حصان تسمى «وثرا أو ميثارا» توضع حول السنام، وثمة نمط خاص منها يسمى «الحيداجا» يستخدم في «الروالا» وهي توضع على الوسادة المسماة «بالوثر»، و «الحيداجا» تختلف عن الرحل الحولاني، وهذا «الوثر» يذكر المرء بالوسادة التي يطلق عليها إسم «الحاوية» في الشعر العربي القديم في الجزيرة العربية (انظر النقائض ص ٩٥٨ ولسان العرب ٢٢٨/٩) والتي قيل أن الرجال والنساء كانوا يستخدمونها على حد سواء.

وهناك صورة فنية لهذا السرج في إحدى مقامات الحريري التي يرجع تاريخها إلى عام ١٢٢٥ ــ ١٢٣٥، وقد أوردت هذه المصادر أنواعاً عديدة من السروج والرحال وذكرتها بالإسم، وربما ينتمي بعضها إلى النمط المعروف بالقتب وهي «الكفل، والكور، والرحل»، والكفل سرج يشبه الوسادة يوضع حول السنام ليكون بمثابة مقعد للراكب (لسان العرب ١٠٧/١٤) والكور يوصف بأنه مماثل للرحل ويستخدم في حالة ركوب المهور. ويثير وصف الرحل ذاته كثيراً من اللبس، فهو يشبه حسب وصف الجوهري (لسان العرب ٢٩٣/١٣) القتب وإن كان أصغر منه قليلاً، وإذا ما اكتفينا بإشارة الجوهري تعين علينا أن نسوق دليلا آخر على وجود النمط المعروف بالقتب حيث أن وصف الجوهري لهما يجعلهما متماثلين، غير أن الرحل يستخدم بصفة عامة لوصف سروج الرحال وهكذا نجد في لسان العرب (٣٩/١١) أن الشداد كان منذ وقت مبكر يسمى رحل «الزلافات»، وهو ما يعني في الحقيقة سرج الحيوان الحافر ويشير إلى أن الشداد قد استخدم بعد ذلك بوقت طويل للإشارة للسرج المنحني.

(ب) أما سرج النساء المعروف باسم الطمة فقد أورده اللغويون كسرج تحت نقاله بدون مظلة يعد للنساء، ويتفق هذا الوصف في جوانبه الأساسية مع الطمة الموجودة حالياً في جنوب الجزيرة العربية، لكن الإشارات التي وردت في لسان العرب لا تسمح باستخلاص أية نتائج عن تركيب الطواما، ونلاحظ أن هذه الأخيرة تشبه سرج المشاجير وهو ــ أي المشاجير ــ فيما ذكره لسان العرب نقالة للنساء أصغر من الهودج وذات بنية علوية لا سقف لها، وتعلو الهودج تركيبة على شكل قبة تصنع من الألواح الخشبية (انظر لسان العرب ٢١١/٢). ومن الجدير بالذكر لخدمة اغراض بحثنا أن نلاحظ أنه رغم هذه الأوصاف غير المتسمة بالدقة فإن الطمة والطواما اللتين ورد وصفهما في لسان العرب يمكن تمييزهما باعتبارهما سرجين تستخدمهما النساء ولا تحيط بهما الستائر، وتستخدمهما قبائل وسط وشمال شبه الجزيرة العربية.

وقد وجد في تمثال أثري لجمل (يرجع تاريخه إلى فترة تتراوح بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد) تكوين مشابه للطمة له تركيبة إضافية مماثلة يمكن أن ترجع إلى مرحلة البدو الأول من المجموعة المتقدمة. وإن لم يكن ذلك التكوين



□ نقوش بارزة لجمل عليه رحل من نوع الشداد، نحو القرن الثاني او الثالث بعد التاريخ.

مماثلاً بالضرورة أو مشابهاً لسرج المرأة، ومع ذلك ففي العصر اليوناني الروماني عثر على تماثيل فخارية في سوريا تبين مثل هذه التركيبة الإضافية متصلة بسرج المرأة ــ وهذا يثبت أنه قد وجد في مرحلة البداوة الأولى سرج للنساء مبني على فكرة السرج ذي الوسادة، ومن ثم يمكن الاعتماد على الدليل السابق الذكر لتقرير أن السروج المنتمية للنوع الذي يرجع إلى الوحدة الحولانية كانت منتشرة على نطاق واسع بين رعاة الإبل في الجزيرة العربية، ومع ذلك فإن القبائل المتقدمة أدخلت تطويرا على هذا النوع في تاريخ لاحق، بأن جعلت من الوسادة التي كانت تستخدم على الحزام وسادة طويلة تستخدم عند الركوب على السنام، وهذا الميل إلى التطوير معدوم لدى مجموعة القبائل المحافظة، ويقودنا انتشار السرج الحولاني إلى افتراض وجود تطور عام في مرحلة البداوة الأولى، وهكذا يتوفر لدينا تفسير أفضل لسلسلة من أوجه الشبه بين المجموعتين (أساليب وحدات الرعي، وتكتيكات القتال).

ويمكن للمرء أن يميز بضعة عناصر فحسب من الوحدة الحولانية في ثقافة قبائل الشداد، ولكن هذه العناصر كافية ــ إذ أن عددها بالطبع تحدده مصادر المعلومات المتاحة ــ نقول كافية لإعطاء درجة من إمكانية ترجيح افتراضنا بوجوب تصنيف الوحدة الحولانية القريبة العهد كبقايا من مرحلة التطور العامة للبداوة الأولى.

وكذلك يساعدنا تحليل الأصول الإثنوجرافية، ابتداء من الملابس المختلفة التي كان يرتديها الرجال من مجموعات الشداد والحولاني، في إلقاء بعض الضوء على ما أدى إليه قيام رعاة الإبل الشماليين المتطورين باستخدام الشداد، وقد وجدنا أن الغالبية الساحقة من رجال القبائل الجنوبية ممن درسناهم كانت ترتدي المئزر بينما كانت قبائل الشداد ترتدي قمصاناً سابغة تصل إلى الكعب وعباءات، وفي بعض المناسبات كانت ترتدي السراويل. هذا وقد أشرنا في مقام آخر إلى صعوبة التوصل إلى أية نتائج إثنولوجية حول الانتشار الكبير للمئزر في جنوب شبه الجزيرة العربية، ويبدو أن هذا النوع من الملابس قديم

جداً بين كل من الرحل والقاطنين في هذه المنطقة، فهل يمكن أن نأتي بدليل على وجود المئزر كذلك بين المجموعة المتطورة من رعاة الإبل؟ ولنصغ علاوة على ذلك في موضع التساؤل: إلى أي تاريخ يرجع الدليل على استخدام قبائل الشداد لملابسهم الحالية وما هو أصل هذا الرداء؟ إن السؤال الأول يعد نسبياً سؤالاً سهلاً. فراكبو الجمال حسب ما تظهره مخلفات الآشوريين الجدد كانوا يرتدون المئزر (انظر من ١١٠، ١١١). ومن الصعب الحصول على دليل فيما يتعلق بالملابس الحالية لقبائل الشداد وإن كان أقدم شاهد أدبي يرجع إلى الشعر العربي القديم ــ وعلى الأخص القصص الملحمية التي وردت في أيام العرب وحول البدو في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. إن بعض المصطلحات المستخدمة بالنسبة للملابس ما زالت مستعملة حتى الآن، على سبيل المثال لفظ «العباء» الذي يستخدم للرداء الذي يعلو باقي الملابس و(الثوب) للملابس بشكل عام، «والسروال» (وكان قبل ذلك لفظ السربال) للإشارة إلى ما نعرفه بالبنطلونات أن هذه المصادر ليست فقط دليلاً فيما يتعلق بالملابس، ولكنها تسمح بتحقيق بعض المدركات النفسية ذات القيمة لعلماء الإثنولوجيا، لأنها أظهرت بعض الفوارق الدقيقة التي غالبا ما تغفل (خلال مراحل التحول الحضاري)، هكذا يداخلنا العجب إذ ندرك من خلال ما ورد في «أيام العرب» إلى أي حد كان ارتداء الملابس بين البدو ــ كما هو الحال الآن ــ دليلاً على المكانة الاجتماعية، ولإيضاح هذا يمكننا أن نستشهد بعدة فقرات. فقد ذهب وفد للسلام من قبيلة عبس إلى الحارث بن عوف. وسأله أعضاء الوفد عما إذا كان قد رأى الحارث بن عوف، فأجاب وهو منهمك في العمل مرتديا رداء جلديا قصيرا، قائلا: إنه مع أهله ــ ثم ارتدى ملابسه. وذهب الوفد للبحث عنه ورجع أعضاؤه بعد أن ارتدى الحارث ملابسه، ولم تبدأ محادثتهم إلا بعد ذلك[١٢]. إن الدلالة الاجتماعية للملابس يمكن شرحها تفصيليا بصعوبة، إن حارث بن عوف بالتأكيد لم يكن عاريا. ولكنه كان يرتدي قطعة ملابس حول خاصرته أثناء عمله في خيمته. ولكن هذا كان مخالفاً لأسلوب حياة العرب إذ ذاك، تماماً كما هو الحال الآن إذا ما استقبل الوفد بالحالة التي كان عليها. وتوضح الفقرة التالية من الهجاء الشعور بالاحتقار حيال العري: «وتصفر الرياح حول خاصرتيه إذ سرق البعض قميصه»[١٣]. والقميص شأنه شأن الرداء الذي ورد في قصائد أخر. «كان أحد رجال بني زياد قد وقع في الأسر ولارجاعه فإن عمارة بن زياد استخدم الخديعة الحربية التالية ضد هبيرة بن عامر بن قشير بن كعب. فقد قال له: يقول الناس عنك إنك نحيل، فقال الآخر: لا سمح الله. فتحداه عمارة أن ينزع جبته، وبالفعل جذب هبيرة قميصه تمهيدا لخلع ملابسه، وفي هذه اللحظة بالذات انقض عليه عمارة وأخذه أسيرا»[١٤]. والتأكيد لوجود الملابس السابغة التي تغطي الأرجل أقل رسوخاً.

وعلى سبيل المثال يصف قاتل دريد بن الصمة ما صنعه فيقول: «وحين ضربته بسيفي خر صريعا على الأرض عاري الجسم وبدا باطن فخذيه وردفاه خشنا من أثر ركوبه الخيل عاريا»[١٥]. «ويروى عن الجساس انه بعد مصرع كليب مر بقومه وقصبتا ساقيه عاريتان وهنا أدركوا أن ثمة كارثة قد حلت»[١٦] وفي موضع آخر من «أيام العرب» نجد إشارة مباشرة للسراويل: «لقد رأيت المحاربين بشعر متجعد وسراويلهم مصبوغة بالزعفران». وهناك إشارات عدة إلى العباءة.

وفيما يتعلق بأصل هذه الملابس فإن آثار العهد الآشوري الجديد التي تحمل صور المئزر، بالإضافة إلى ذكر ملابس «النهار» في القصص الملحمية، تحدد على الأقل الحدود الخارجية للفترة التي تغيرت خلالها ملابس رعاة الجمال في شمال شبه الجزيرة العربية، بالرغم من أنها دامت حوالي الف عام، وذلك بسبب الدلالة الاجتماعية المرتبطة بهذه الملابس، فهي تمثل نوعية من الحياة تختلف عن تلك التي ترتبط بالمئزر. وإذا استعدنا قصة الحارث بن عوف افترضنا أنه من المحتمل أن هذه الملابس لم تنشأ بين رعاة الإبل، وإذا بحثنا عن دليل أثري على هذا الافتراض من خلال الفترة المعنية، نجد نماذج مماثلة مدهشة لهذه الملابس في

المكتشفات الفنية من فترة حكم البارثيين الفرس في تدمر (بالميرا) التي كانت مركزاً أساسياً للتجارة في شمال شبه الجزيرة العربية حيث كان السكان قريبين من مجال التأثر بالحضارة الفارسية. ونحن نستخدم كلمة «مدهش» عن قصد، إذ إنه بالتحديد. من خلال تلك الجيرة، وفي هذه الفترة، نجد الأدلة الأثرية الأولى للشداد، وهذا كله يلقي ضوءا جديدا على عملية الاستعارة تلك. وقد نبه فيدينجرين (Widengren) إلى تأثير الإيرانيين على بالميرا (تدمر)، ليس فقط من حيث المعدات الفنية ولكن أيضاً بالنسبة لأسلوب الحياة والدين. وكما أكد سيريج (Seyrig) فقد كان سكان بالميرا يرتدون إلى جانب الملابس الأخرى، الزي الفارسي المكون من السروال والقميص والعباءة. وانتشر ذلك الزي بصفة خاصة بين أبناء الطبقة العليا[١٧]. وقد استعير السروال والعباءة من المحاربين الفارسيين، وأما القميص الذي يلبسه البدو فيمكن إرجاعه إلى ملابس الطقوس الدينية التي اكتشفت لوحة معمارية تمثلها في دورا ايروبوس (Dura-Europos)، ويعتقد أنها تماثل الأردية التي كان الحكام الايرانيون يستخدمونها لأداء طقوس معينة[١٨]. ونحن نعلق أهمية كبرى على تفضيل الطبقة العليا من سكان مدينة بالميرا للملابس الفارسية، حيث يرمز هذا التفضيل إلى مستوى أرقى من الحياة تتأثر كثيراً بالمعتقدات الايرانية. وتوجد على سبيل المثال لوحة تمثل أحد أبناء بالميرا من ذوي المكانة الكبيرة يرتدي ملابس حامل النبال الفارسي. وكان الفرس يضعون الفروسية والرماية في مرتبة عالية، وذلك لأنهما مثال للفضائل الفارسية، ثم تبنتهما العناصر غير الفارسية المتصلة بالحاشية[١٩]. ومن خلال هذا كله، يمكننا أن نفترض بمزيد من الثقة أن الفرس قد نقلوا هذه الأشياء إلى الثقافة الحضرية للعالم الإغريقي السامي، ثم انتقلت بعد ذلك مع السرج المنحني إلى رعاة الإبل.

□ مناحيل اثناء الرقص، جنوب الجزيرة العربية.



وهناك لوحة أخرى من بالميرا تؤكد هذا الاعتقاد بقوة، حيث نشاهد جملا ذا سنام واحد عليه شداد يعتليه رجلان، أحدهما يتولى قيادته، وكلاهما يرتدي الزي الفارسي النموذجي على نحو ما أسلفنا ذكره. ونستطيع أن نتعرف على التأثير الفارسي بوضوح أكبر في «أيام العرب» حيث على سبيل المثال تصور لنا مطاردة أحد الجيوش لجيش آخر كما لو كانت سباقا للخيل، وهكذا فإنه في نهاية قصة حرب داحس والغبراء يقول قيس: «سوف أسمح بثلاثة اختيارات لشروط سباقنا، فإذا ما اخترت أنت أولاً فلي خياران زيادة عنك، والعكس صحيح إذا ما اخترت أنا أولا». ويجيبه حذيفة: «فلتبدأ أنت». فيقول قيس: «فليكن الهدف على مبعدة مائة رمية سهم». ويقول حذيفة: «سنسمح بالتدريب أربعين ليلة وسيكون المنطلق منطقة ذات الإصاد»[٢٠]. ومن المدهش كذلك أن نرى عمارة في قصة يوم الطلوح وقد ارتدى عمامة حمراء (وقد كان اللون الأحمر اللون الذي يرمز لطبقة المحاربين الفرس)[٢١].

ومن المحتمل أن هذه الرموز والعادات الفارسية التي ميزت الشريحة العليا من الجماعة المحاربة قد أدت إلى التطور الكامل بعناصر الفروسية بين رعاة الإبل، على الصعيد التجهيزي، من خلال السرج الجديد، وعلى المستوى الرمزي عبر تنظيم الرماية والسباق، للذين كانا على صلة وثيقة بأسلوب الحياة الجديدة والملابس التي مثلتها. وربما يمكن أيضاً إرجاع الشخصيات المثالية في الملاحم العربية القديمة إلى أنماط فارسية، فمن المؤكد أن فكرة الدم النبيل الراسخة بقوة بين قبائل الشداد لها جذور في عالم الفروسية الفارسي.

وأخيرا نود أن نشير إلى الارتباط الهام من الناحية الإثنولوجية بين المجموعة المتطورة والعرب العاربة، فإذا ما رجعنا إلى تطور الحياة البدوية كما أجملناها يجد المرء أن رعاة الإبل من المجموعة المتطورة الذين وجد لديهم أول أثر لمجتمع الفرسان هم من العرب العاربة، الذين كانوا، مرة أخرى، الفئة التي نقلت الفكرة الفارسية عن المحاربين الراكبين بين رعاة الإبل. هذا الارتباط الواضح يلقي ضوءا جديدا على الأصول العرقية للعرب، ويصور العناصر الثقافية والتاريخية التي حولت جماعة كان يطلق عليها أصلا الرعاة العاربة إلى طبقة حاكمة توسعت وشكلت أساس العرب على نحو ما نعرفهم الآن بمصطلحات علم الأجناس البشرية.

ملاحظات ختامية

لم يكن بوسعنا نظرا لعدم توفر المادة أن نناقش الزمان والمكان للذين بدأ فيهما رعي الإبل في شبه الجزيرة العربية، وكذلك لم يكن في مقدورنا الجزم بما إذا كان رعاة الإبل يشكلون فرعا متخصصا انبثق من مرحلة مختلطة بالاقتصاد الزراعي، أو أنهم انحدروا مباشرة من مرحلة كانوا يمارسون فيها الصيد، فما يذكره ما قبل التاريخ لنا عن الهيكل الاقتصادي الأساسي في مستوطنات العصر الحجري الحديث يحبذ فيما يبدو الافتراض الأول، لكن المكتشفات المادية تؤكد محسب الاحتفاظ بالماعز والأغنام والأبقار والخنازير، والجياد في بعض الحالات، في حين نظل نبحث عبثا عن أي أثر للإبل، وأنه لما يتفق مع الكشوف الأثرية، ومع ما يجمع عليه علماء الأجناس اليوم أن البدو قد انطلقوا في غمار شكل ثانوي للتطور من اقتصاد زراعي مختلط، وأن المجتمعات التي عاشت على هوامش مثل هذا الاقتصاد ذي التركيز الأساسي للحيوانات قد حفزتها التجربة التي استمدتها داخل هذه المناطق على البدء في رعي الإبل. هذا الافتراض، وهو أن عمليات النقل والتقليد قد نتجت عن طريق الاحتكاك، هو احتمال وارد بشكل أقوى من إمكان التطور نظريا من مرحلة الصيد. ومن سوء الحظ أنه ليس بوسعنا من خلال الأدلة المتاحة في الوقت الحالي أن نحدد مجرى الأحداث التي أدت إلى رعي الإبل. وفي ضوء نقص المعلومات وعجزنا عن حسم المسألة يتعين علينا التزام الحذر البالغ من التعميمات التي تماثل تلك التي توصل إليها باتيمور (Battimore) إذ يقول «أن أجداد البدو — سواء العرب أو الأتراك أو المغول — كانوا جماعة من البشر قررت استخدام هذه الحيوانات للتخلص من الفقر الذي حل بساحة القائمين بالزراعة، واللجوء إلى حياة أكثر أمنا باعتبارهم رعاة»[٢٢]. إن مثل هذه الصياغات تعطي فكرة

زائفة فحسب عن القرائن والأدلة المتاحة حاليا في شبه الجزيرة العربية، وهي قرائن لا تبرر مثل هذه المقولات ذات المضمون الشامل. وبالإضافة إلى ذلك، يتعين على المرء أن يتجنب خلق مقولات جامدة جديدة، ويجب عليه ببساطة أن يتقبل النقص القائم حالياً في مصادرنا. كذلك ليس بمقدورنا أن نحدد السمات العرقية واللغوية المميزة لرعاة الإبل الأوائل، إذ من الثابت أن رعي الإبل لا يقتصر على مجموعة بعينها من الساميين، فقد وجد رعي الإبل بين المجموعات الناطقة بلغة الضاد، وكذلك بين المتحدثين باللهجات الحديثة للغات السامية الجنوبية.

ويتعين على المرء هنا أن يذكر بصورة عابرة شيئاً عن أهمية رعاة الإبل داخل الجماعات السامية المختلفة من البدو وأشباه البدو. لقد أودت دراسة ج. هيننجر ــ J. Henninger النقدية المتأنية «مساكن وأسلوب حياة الساميين القدامى» بأسس أسطورة الساميين باعتبارهم بدوا، وأضفت المزيد من الوضوح على حقيقة أنه إلى جوار شرائح معينة من النمط البدوي تجب الإشارة إلى الزراعة باعتبارها نمطا مبكرا للحياة السامية. ونحن نعتقد أننا بحاجة إلى النظر بمزيد من الدقة إلى الأهمية التي علينا أن نعطيها لرعي الإبل طبقا لمختلف الصياغات الممكنة. وبوسعنا أن نقوم بهذا بأن نعود بأذهاننا إلى المدى الواسع للأشكال المتباينة للحياة البدوية، فهي تشمل رعاة:

(أ) الأبقار والأغنام.
(ب) الحمير والأغنام.
(ج) الإبل والأغنام والماعز.
(د) الأبقار والماعز[٢٣].

والتكوينات السالفة هي بشكل أو بآخر داخل نسق زمني ــ طبقا لما تذكره مصادر الأدلة ــ لكنها لا ينبغي أن تؤخذ كما لو كانت تمثل جدولا زمنيا تقريبيا للتطور الفعلي، حيث إن المصادر لا تسمح لنا بتقديم شيء يتسم بمثل هذا الطموح. هذا التعدد، يعكس ببساطة من وجهة نظرنا، أنماطا مختلفة للتكيف مع الظروف المناخية المختلفة أو مع المناطق المتباينة في شبه الجزيرة العربية. إنني في الحقيقة أحاول تجريب منهاج جديد فيما يتعلق بالمراكز المحتملة التي نبعت منها الجماعات السامية المختلفة. فالنظر إلى هذه القضية من وجهة المناخ من شأنه أن ينهي التكهنات حول ما يسمى بوطن الساميين، إذ إن الأقرب إلى الواقع، في ضوء الظروف المناخية والمعلومات التاريخية المتاحة، أن نأخذ بامكانية التغيير المختلف والدائب للموطن بالنسبة للجماعات السامية.

وبوسع المرء أن يشير في كلتا المجموعتين من رعاة الإبل اللتين سبق لنا أن ميزنا بينهما ــ إلى عدد من الأساليب المتماثلة والظواهر الثقافية المتشابهة التي تسمح لنا بافتراض أنه في مرحلة محددة من النمو ولكن غير مميزة على وجه دقيق زمنيا، شكلت ثقافة رعاة الإبل في شبه الجزيرة العربية وحدة متسقة نسبيا. هذا يفترض أن الاتساق الثقافي قد تحطم من خلال تركز التقدم الفني في جملة واحدة ــ هي المتمثلة في عرب الشمال ــ كنتيجة للاحتكاك بالحضارة المتقدمة، وقد حاولنا أن نشرح هذا فالتمييز بين نمطين ثقافيين مختلفين بين رعاة الإبل، نمط متطور ونمط آخر محافظ.

وتبدو لنا مكتشفاتنا حول الظروف التي نمت من خلالها الجماعة المتطورة ذات أهمية اثنولوجية فمنذ البداية ذاتها، قادت الدفعات التي تلقاها رعاة الإبل من احتكاكاتهم المتعددة بالمناطق المتقدمة حضاريا إلى نشوء نمط خاص للنمو. وهذا مثال بارز على كيفية اكتساب المجموعات البدوية داخل المنطقة المتأثرة بالحضارة المتقدمة للشكل الذي سيميزها فيما بعد ــ كمجموعة بدوية تستخدم الإبل في القتال (كالمحاربين الخيالة) ولكن لذلك قيمة محدودة، إذ أن المصادر المادية التي بين أيدينا لا تسمح بأكثر من نظرة متواضعة على التبادل الثقافي المتضمن. ولعل الأبحاث التالية تستطيع ملء فراغ هذه الصورة القاصرة الوضوح، وليس ذا أهمية كبيرة في هذا المضمار ما إذا كانت الاختراعات التي أخذها البدو قد كانت أصلاً من صنع الحضارة المتقدمة ذاتها (مثل العربة التي ترجع المعرفة بها إلى عهد السومريين) أو ما إذا كانت هذه الحضارات قد نقلتها فحسب (مثل السرج المنحني الذي أصبح يشكل في الحياة البدوية وحدها بعد انبثاثها في المنطقة المتقدمة

حضارياً ــ جزءاً ثابتاً من حضارتها في ذلك الوقت).

ذلك هو تلخيصنا للعلاقة بين رعاة الإبل والحضارة المتقدمة: إن رعاة الإبل قد قاموا بدور المستقبل (أو المتلقي)، وأثبت السكان الحضريون صلابة جمة جعلتهم يصدون النزعة العدوانية الأكيدة لدى البدو. ولكن ذلك يدوم فحسب طالما بقي النظام السياسي للمنطقة المتقدمة حضاريا متماسكا. ولا يمكن فهم نشأة الحضارة البدوية الخالصة والدور القيادي الذي اضطلعت به إلا إذا رأينا هذا في ضوء ضعف «دويلات المدن» الواقعة بين روما وفارس. لقد تأثر التاريخ الحضاري لشبه الجزيرة العربية تأثرا حاسما بالعلاقات الوثيقة بين المجموعة المتطورة، التي بلغت سمتها في مجتمع من المحاربين الراكبين (الخيالة)، وبين العرب العاربة. ومن هذا الارتباط البارز يمكننا أن نخلص إلى أن اللغة العربية قد انتشرت بصورة مطردة مع انتشار الحضارة البدوية الكاملة التي قدمت من الشمال، أي أنه قد حدث تمثل أو تكيف لغوي تحت تأثير لغة الطبقة الحاكمة الجديدة. وليس بوسعنا أن نكون أكثر دقة وتحديدا في بيان عملية «التعريب» هذه. ولابد أن العرب قد ارتقوا ادرج السلطة في الدول التي تدخل ضمن منطقة الحكومة المنظمة قبل الإسلام، عن طريق الانتظام في سلك الخدمة الحربية. اما في المنطقة الحرة خارج هذا النطاق، فلابد أن التحول والتكيف قد بدأ بفرض عناصر جديدة على السكان الموجودين بالفعل. وللتشكل (التكون) الحديث نسبيا للحضارة البدوية الخالصة أهمية كبيرة من وجهة النظر الإثنولوجية، إذ إنه يوضح أن النظام الاجتماعي الطبقي في الأجزاء البدوية من شبه الجزيرة العربية نظام حديث نسبيا[٢٤]. ■

الهوامش

(١) العرض التالي يستند إلى مؤلفي المنشور عام ١٩٦٧ عن «البدو في جنوب الجزيرة العربية» (انظر قائمة المراجع)، كما يتضمن إضافات وحقائق جديدة.

(تفصيل عناوين الكتب المشار إليها في الهوامش في ثبت المراجع).

(٢) المقصود كور أو رحل الجمل، وهو السرج بالنسبة للفرس.

(٣) البارثيون (Parthians): شعب عاش بين بحر قزوين وإيران.

(٤) الوردي: ص ٩.

(٥) Bibby: 1964: 108, 1965, 148.

(٦) Dostal: 1967: 15 passim.

(٧) اثنوجرافيا (Ethnographie)، المعنى العام هو «وصف الشعوب»، ويعرفه هوبل (Hoebel) بأنه «ذلك القسم من علم الانثروبولوجيا الذي يختص بالتسجيل الوصفي للثقافات»، والبعض يقصر «الإثنوجرافيا على الوصف العلمي للأنساق الاقتصادية والاجتماعية، وللتراث الثقافي للشعوب ذات المستويات التكنولوجية المختلفة»، ويختلف معنى المصطلح من ثقافة إلى أخرى (انظر «قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور» تأليف إيكه هولتكرانس، الترجمة العربية، ١٩٧٢ نشر دار المعارف بالقاهرة، ص ١٥ ــ ١٧.

الإثنولوجيا (Ethnology) هو علم الإنسان ككائن ثقافي، وهي الدراسة المقارنة للثقافة، ووفقا لتعريف ستيرن (Stern) هي «التحليل العلمي ــ القائم على الإثنوجرافيا ــ للأنساق الاجتماعية الاقتصادية وللتراث الثقافي للشعوب ذات المستوى التكنولوجي المتخلف، ويستهدف الكشف عن أصول ووظائف، وعمليات التغير في سماتها الثقافية». عليه فالإثنوجرافيا ــ على خلاف الاثنولوجيا ــ علم ذو نظرة مقارنة ووجهة واسعة.

(انظر «قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور»، ص ١٨ ــ ٢٠).

(٨) Petraeek, 1959, 1960.

(٩) Dostal: 1967: 17.

(١٠) Dostal: 1959: 19.

(١١) Caskel: 1953: 7, 1954: 42 passim

(١٢) Caskel: 1930: 76.

(١٣) Caskel: ibid: 64.

(١٤) Caskel: ibid: 55.

(١٥) Caskel: ibid: 42.

(١٦) Caskel: ibid: 32.

(١٧) Seyrig: 1950: 6.

(١٨) Dostal: 1967: 160.

(١٩) Widengren: 14.

(٢٠) Caskel: 1930: 51.

(٢١) Dostal: 1967, 161 Note 222. Caskel: 1930, 95.

(٢٢) Dostal: 1967: 163.

(٢٣) Dostal: 1968.

(٢٤) Dostal: 1964: 190-198.

المراجع

Altheim, F.:

1943 Die Krise der Alten Welt im 3. Jahrhundert n. Zw. und ihre Ursachen. Vol. I. Berlin-Dahlem.

Bibby, G.:

1964 Arabian Gulf Archaeology. The Eighth Campaign of the Danish Archaeological Expedition 1961/62. Kuml, p. 101–111.

1965 Arabian Gulf Archaeology. The tenth Campaign of the Danish Archaeological Expedition 1964. Kuml, p. 101–111.

Bossert, H. Th.:

1951 Altsyrien. Kunsthandwerk und Handwerk in Cypern, Syrien, Palästina, Transjordanien und Arabien nach den Anfängen bis zum völligen Aufgehen in der griechisch-römischen Kultur. In: Die ältesten Kulturen des Mittelmeerkreises. Tübingen.

Caskel, W.:

1930 Aijam al-'Arab. Islamica III, Suppl. Fasc. 5. Leipzig.

1953 Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, 4.8. Geisteswissenschaften. Köln–Opladen.

1954 The bedouinization of Arabia. In: Studies in Islamic Cultural History, edit. G. E. von Grunebaum. American Anthropologist Vol. 56 Part 2. Memoir Nr. 76 p. 36–46.

Dostal, W.:

1959 The Evolution of Bedouin Life. L'Antica Società Beduina. Studii Semitici 2 p. 1–34. Roma.

1964 Zur Problematik der Paria-Gruppen in Vorderasien. Zeitschrift für Ethnologie. Vol. 89 p. 190–203.

Dostal, W.:

1967 Die Beduinen in Südarabien. Eine ethnologische Studie zur Entwicklung der Kamelhirten-Kultur in Arabien. Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik XVI. Horn–Wien.

1968 The Significance of Semitic Nomads in Asia. Proceedings VIIIth International Congress of Anthropological and Ethnological Sciences 1968, III. p. 312–316.

Ettinghausen, R.:

1954 Notes on the luster-ware of Spain. Ars Orientalis I p. 133–156.

Frankfort, H.; Loyd, S. and Jacobsen, Th.:

1940 The Gimislin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmar. Oriental Institute Publications. Vol. XLIII. Chicago.

Jarir and al-Farazdaq:

1908–12 Kitab al-Naqa'id. Edit. A. A. Bevan. 3 Vol. Bairut/Leiden.

جرير والفرزدق
١٩٠٨ - ١٩١٢ كتاب النقائض
تحقيق ا . ا . بيفان Bevan
٣ أجزاء . بيروت / ليدن

Michalowski, K.:

1962 Palmyre. Fouilles Polonaises 1960. Université de Varsovie. Centre d'Archéologie Méditerrannéenne dans la République Arabe Unie au Cairo. Warzawa 1962.

Oppenheim, Frhr. v. M.:

1943, 1950, 1955 Tell Halal. 3 Vol. Berlin.

Petracek, K.:

1959 Gindibu Arbaija-EinSafa-Araber. Archiv Orientalni 27. p. 44–53.

1960 Probleme der ältesten Geschichte der Araber. Archiv Orientalia 28. p. 659–660.

Rathjens, C.:

1953/55 Sabaeica. Bericht über die archäologischen Ergebnisse seiner zweiten, dritten und vierten Reise nach Südarabien. Mitteilungen aus dem Museum für Völkerkunde in Hamburg. XXIV: 2 Teile. Hamburg.

Sellin, E.:

1904 Tell Ta'annek. Bericht über eine mit Unterstützung der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften und des K. K. Ministeriums für Kultus und Unterricht unternommene Ausgrabung in Palästina. Denkschriften der K. Akademie der Wissenschaften in Wien. Phil. Inst. Kl. Bd. I. Wien.

Seyrig, H.:

1937 Antiquités Syriennes. Syria Vol. XVIII p. 1–35.

1946 Antiquités Syriennes. Troisième Série. Extrait de Syria 1939–1940–1941. Institut Français d'Archéologie de Beyrouth. Publications hors Série Nr. 7. Paris.

1950 Palmyra and the East. The Journal of Roman Studies. Vol. XL p. 1–7.


Al-Wardi, 'A.:

1961 Die Persönlichkeit des Irakers. Ein Beitrag zur Sozialpsychologie, eingeleitet und übersetzt von G. Krotkoff. bustan H. 1 p. 7–11.

Widengren, G.:

1960 Iranisch-semitische Kulturbegegnungen in parthischer Zeit. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen H. 70. Geisteswissenschaften. Köln–Opladen.

هذا المقال ماخوذ عن مجلة فكروفن، العدد ٣١، ١٩٧٨



النّظامُ السّياسِي اللبْناني في ديالكتيك الحَرب وَالسّلام

د. جوزيف مغيزل

ابدأ بحثي المقتضب بالتذكير بملامح نظامنا السياسي الرئيسية. وسأحاول بعد ذلك أن أبرز الثغرات التي أحدثها فيه التطبيق منذ الاستقلال، والتي تفسر، وإن جزئياً، التطورات المأساوية في السنوات الأخيرة. وسأحاول، في النهاية، أن أشير، قدر المستطاع، إلى عوامل البقاء، وإمكانات السلام، والاستقرار والنهوض.

ملامح نظامنا السياسي الرئيسية

سأسعى إلى رسمها كما تتبدى خلال:

١ ــ الدستور

٢ ــ الميثاق الوطني

٣ ــ البنية الاجتماعية ــ السياسية.

١ ــ الدستور:

نعيش، حسب دستورنا وقوانيننا، في ظل نظام ديمقراطي برلماني يرتكز على القواعد التالية:

(أ) الشعب مصدر كل السلطات.

(ب) يحكم الشعب عبر نوابه الذين ينتخبهم بحرية، في انتخابات عامة، مباشرة، في دورة واحدة، بالأغلبية النسبية.

وهكذا تتوطد في البرلمان والحكم تعددية الميول السياسية وما يتصل بها.

(ج) فصل السلطات الثلاث: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، مكرس. والعلاقات بينها ينتظمها احترام دورها واستقلال كل منها.

(د) تناط السلطة التنفيذية برئيس الجمهورية يساعده وزراء يسميهم، ويعين من بينهم رئيس الحكومة. ويستطيع إقالتهم. وليس مسؤولاً عن أفعاله إلا في حالات انتهاك الدستور والخيانة العظمى. الحكومة هي المسؤولة عن أفعال الرئيس، وتجيب عنها أمام البرلمان. ويستطيع حل البرلمان في حالات غير محدودة.

وهكذا نجد أنفسنا عملياً، في نصف الطريق بين النظام الرئاسي والنظام البرلماني الكلاسيكي.

(هـ) يسود القانون والشرعية العلاقات بين الدولة والمواطنين، وبين المواطنين أنفسهم، وكل عسف من هذا الطرف أو ذاك يعاقب عليه القانون العقاب الملائم.

(و) الحريات العامة مصونة. وكذلك مساواة الجميع، رجالا ونساء، في القوانين المدنية، والوظائف العامة، والحقوق السياسية.

(ز) والحريات الشخصية مضمونة: حرية التنقل، والعائلة، والملكية الخاصة، والاستثمار، والمعتقد والعبادة، والتعليم، والنشر، والتعبير، والاجتماعات، والجمعيات.

غير أن هذه القواعد، الموسومة بالتقليد الجمهوري الأوروبي المحض، خلال القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، اعتراها بعض التحوير الذي فرضته الوقائع المتراكمة على مدى تاريخ البلاد، خاصة بين ١٨٤٠ و ١٩٢٠.

تطالعنا في الدستور المواد الثلاث ٩، ١٠، و٩٥

المادة التاسعة: حرية الاعتقاد مطلقة والدولة بتأديتها فروض الاجلال لله تعالى تحترم جميع الأديان والمذاهب وتكفل حرية اقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها، على أن لا يكون في ذلك اخلال في النظام العام، وهي تضمن أيضاً للأهلين، على اختلاف مللهم، احترام نظام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية.

المادة العاشرة: التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافي الآداب أو يتعرض لكرامة احد الأديان أو المذاهب ولا يمكن أن تمس حقوق الطوائف من جهة إنشاء مدارسها الخاصة، على أن تسير في ذلك وفاقاً للأنظمة العامة التي تصدرها الدولة في شأن المعارف العمومية.

المادة الخامسة والتسعون (كما تعدلت بالقانون الدستوري الصادر في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣، المادة ٥): بصورة مؤقتة، والتماساً للعدل والوفاق، تمثل الطوائف، بصورة عادلة، في الوظائف العامة، وبتشكيل الوزارة، دون أن يؤول ذلك الى الاضرار بمصلحة الدولة.

هذا خروج صريح على المبادىء الديموقراطية. إنما كان يجب، مع التحديث، عدم صدم الحقائق كثيراً، وعدم تجاهلها بدافع من هاجس الأمن الداخلي، والعدالة والوفاق.

وانطلاقاً من وعي الأخطار التي أملتها هذه الاجراءات القاهرة، سعى المشترعون إلى الحد من آثارها، مشددين على ضرورة عدم إضرارها بمصلحة الدولة، أو في سياستها العامة، في أي حال من الأحوال، أو عدم استمرارها.

٢ ـ الميثاق الوطني:

بهذه الروحية، وكأنما لدعم الدستور ارتأى بناة الجمهورية المستقلة الحديثة، ضرورة ضمانته باتفاق سياسي، غير مدون، يؤلف بين اللبنانيين خارج انتمائهم الطائفي، في مصير مشترك. ذلك كان الميثاق الوطني الذي سيسهم بموجبه المسيحيون والمسلمون في العمل على بناء الجمهورية الناشئة، وتحديث مؤسساتها، فيتخلى المسيحيون عن حماية الغرب، والمسلمون عن الوحدة مع سوريا.

هذا هوالهدف الذي عبرت عنه بصراحة، حكومة الاستقلال، في بيانها الوزاري، في ٧تشرين الأول١٩٤٣، الذي انطوى على برنامج طموح للاصلاح والتنمية، جدير بأن يحد من المساوىء الطائفية، وأن يضع البلاد على طريق التقدم والنجاح والوحدة.

٣ ـ البنية الاجتماعية ـ السياسية:

من جهة ثانية، نعلم أن من خواص النظام الديموقراطي الهامة والأساسية، الاسهام الشعبي في ممارسة السلطة.

تتحقق هذه الممارسة، على نحوخاص، في الانتخابات (البرلمانية والبلدية) من جهة، وبالأحزاب السياسية والنقابات، من جهة ثانية.

تعترف القوانين اللبنانية، في الواقع، بحرية انشاء الأحزاب والنقابات، إلى أية عقيدة أو ميول انتمت.

ولكن، هنا كذلك، تعرقلت المساهمة الشعبية، بالظروف الخاصة نفسها التي فرضت على الدستور.

إذ تجلت أيضاً في أساس التمثيل الشعبي، والأحزاب السياسية، تعددية الطوائف الدينية.

لقد كان اللبناني، سواء في المجلس، او الحكم، أو الادارة، أو الأحزاب، عضواً في



□ بريشة الفنانة جوليان ساروفيم.

طائفتـه الدينية، قبـل أن يكـون مـواطنـاً في الجمهورية.

٤ ــ ثغرات النظام

عند التطبيق، لم يكن ممكناً السيطرة على البنى والاجـراءات الاستثنائيـة التي لحظهـا الدستور والميثاق الوطني والقوانين. وما ظن أنه تدابير ترمي إلى التعقل والواقعيـة، تحول إلى مفجر، وعامل اختلاف وعدم استقرار.

ومعادلات التوازن التي أمّـل في أن تكون مؤقتة، ووسيلة اتفاق وانسجام، دامت، وتحولت إلى حجر عثرة، وأسباب توتر.

كـان النظام الحـافل بـالوعود ملغـوماً من الداخل. والتعددية تبدلت إلى انقسامات، وعوض أن تتيح ولادة التكامـل والتجانس، ضـاعفت التباين والاختلاف.

وغلب طابع النزاع على التدابير الاستثنائية الانتقالية.

والمدرسة الخاصة الدينية فرضت على الدولة سياسة تعليمها بدل أن تخضع لرقابتها وتتلقى منها التوجيه والاتجاه.

والخـير العام الذي افتـرض أنـه في رأس مصالح الطوائف، التبس بها وخضع لها.

وعام ١٩٥٩، أي بعد ربع قرن، تقريباً، من التدابير المؤقتة، في المادة ٩٥ من الدستور، جاء قانون الوظيفـة العامـة (١١٢/١/٢) ليكرس اقتسام الوظائف الادارية، بالتناسب مع كوتا الانتمـاء الديني، أي ليكـرس عـدم تسـاوي المواطنين في بلوغ الوظائف العامة.

وخضع التمثيل الشعبي بدوره، كذلك، لداء الطائفية. بل حدث تراجع في هذا المجال بالقياس إلى التـدابـير الدسـتوريـة الأصليـة إذ كـان نص ١٩٢٦ يلحظ مجلسين، مجل الشيوخ الذي ينتخب جـزء من أعضائـه، ويسمى الآخرون حسب القاعدة المذهبية. ومجلس النواب الذي ينتخب أعضاؤه انتخاباً حراً بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية. وقد الغي مجلس الشيوخ بعد ذلك، واصبح البرلمان مجلساً واحداً، ينتخب على الأساس الطائفي. وهذا تشويه كامل للنظام الجمهوري الديموقراطي، والمبادىء نفسها التي يمليها الدستور، خاصة المادة ٢٧ التي تنص على ان عضو المجلس يمثل كل الأمة، ولا تربط وكالته بقيد أو شرط من قبل منتخبيه.

كيف يمكن احترام مثل هذه القاعدة، إذا كان ترشيح النائب، منذ البـدء، مرتبـطاً بانتمـائه الديني، وبالتالي، فإنه، عملياً، لا يمثل كل الأمة، وإنما طائفته وحـدها. ثم إن تقسيم الدوائـر الانتخابية وضع ليعطي هذا التمثيل المذهبي كل مداه. إذن، لقدتحولنا من النـظام الجمهوري البـرلماني، الى نـظام مجلس ممثـلي الطوائف الدينيـة. والمرشحـون الأكثر حـظاً ليسوا من يمثلون الأمة عامة، وإنما أولئك الممثلين الأصيلين لجماعاته الطائفية. ومن هنـا فتح البـاب على مصراعيه للديماغوجية المذهبية، والمزاودات بين المرشحين، وتدخل الجمـاعات الدينيـة. وهكذا زيفت اللعبة الديموقراطية وحرية الاختيار.

التمثيـل الطائفي على مستـوى البـرلـمان، والحكم، والادارات العامة، والمدارس المذهبية، وقانون الأحوال الشخصية، الذي يشمل نطاقاً واسعاً من القوانين المتصلة بالعائلة وحياة المواطن الخاصة، والأحزاب السياسية المذهبية الطابع، هذه هي المنابع التي يمكن أن تنشأ التناقضات منهـا وتنمو. هـذه التناقضـات ستحول دون الانـدماج الاجتمـاعي ــ الوطني، فإذا بلغت اقصى مـداها، غـدت عوامـل تفكك، حـولتهـا السياسة وظروف المنطقة إلى عوامل اقتتال.

عبر ثغرات النظام، وجدت التدخلات الأجنبية ممرات لها سهلة. ومصالح الأفراد والجماعات ومطامعها، لقيت حقل نشاط ميسراً وطليقاً.

كانت طريق الحرب، اذن، مرسومة ومعبدة.

كل الأحزاب الطائفية، بل حتى الأحزاب ذات العقيدة اللادينية أو غـير الدينية، كـانت وقت الأزمة أو جرت إلى مواقع الانقسامات الدينية. أما التي قاومت التيار فعزلت، وسحقت، أو في أقل تقديـر همّشت. من هنا صـراع ١٩٥٨، وحـروب ١٩٦٩ و١٩٧٣ الصغيـرة والحـرب المأساة التي تستنزفنا منذ ١٩٧٥.

٥ ــ المخرج والمصير:

ولكن، هل نستطيع الخروج من الحرب، وبدء عهد السلام؟ أجل نستطيع ذلك ولكن بشروط:

١ ــ ان ننتقل من دولة الطوائف المتنازعة إلى

دولة الأمة الواحدة في التعليم المدرسي والنظام السياسي. وأن نوحد قوانين الأحوال الشخصية، ونلغي التمثيل المذهبي، أو على الأقل، نستبدله بالتمثيل في لائحة وطنية واحدة، ونسبية.

٢ ــ أن نبني دولة قوية، مع السهر بتيقظ على حماية وتطور الحريات العامة، وحقوق الانسان.

٣ ــ ألا نعبر من وطن لا حواجز فيه، إلى وطن الحواجز، ولو كان القفص من ذهب. ذلك أن مما يقضي على لبنان أن يغدو أرضاً تحيط بها الأسوار أو الأسلاك الشائكة، كما قضى عليه ان يكون أرضاً دون أي سور ودون أي حرس. الفوضى، مثل الانفلات والعزلة قاتلة للبنان.

وإذا كانت الحرب تنشأ من غياب السلطة ومن الانقسام، فان السلام لا يقدر أن يولد في مناخ الاضطهاد والتجزئة. السلام صنو الوحدة، والسلطة العادلة، والحرية، والحريات وعدم انجراف الدولة وراء الميول والجماعات السياسية.

٤ ــ أن نكتشف هويتنا الثقافية الخاصة، الثقافة التي نستوجبها من انتمائنا الاقليمي والكوني معاً لأننا لسنا امتدادا للثقافة الاوروبية، وإنما أعضاء مبدعون للثقافة العربية، برسالة كونية، تغتني من ينابيع الثقافات الاخرى، والثقافة الأوروبية في رأسها.

٥ ــ أن نحدد دورنا في هذه البقعة من العالم، ومدى انخراطنا في قضاياها وطموحاتها الى العدالة، والحرية والتطور، ومواجهة انتمائنا الى العالم، كأناس أحرار، وأمة راشدة.

هل نستطيع أن نأمل الوفاء بهذه الشروط؟ نعم، في ما أعتقد. لأن الحرب لم تئد كل الآمال وثمة ظواهر ومؤشرات ايجابية ما تزال مرئية. أتوقف عند بعضها:

٦ ــ ظواهر ومؤشرات:

١ ــ إخفاق محاولات تكريس طائفية النظام تكريساً نهائياً ناجزاً في الدستور. فالوثيقة الدستورية، عام ١٩٧٦، التي تقضي بأن ينص الدستور على مذهب رئيس الدولة ورئيس الحكومة ورئيس المجلس لم تقر.

٢ ــ إخفاق مشاريع التقسيم أو الفيديرالية أو الاستقلال الذاتي في المناطق.

٣ ــ إخفاق محاولات جعل الصراع المسلح مذهبياً تماماً، وإن كان الاخفاق نسبياً.

٤ ــ مقاومة عدد لا يتسهان به من المواطنين، الهجرة الدينية من منطقة من البلاد الى أخرى.

٥ ــ الموقف المشرف، والشجاع احيانا، الذي وقفه عدد من المواطنين من كل المذاهب، ضد المجازر الوحشية التي حدثت على أساس الانتماء الديني.

٦ ــ الحفاظ على عدة تشكيلات مهنية أساسية خارج الصراعات الحزبية أو المذهبية: نقابات المحامين، والمهندسين، والاتحادات العمالية ومحرري الصحف وأصحابها..الخ..

٧ ــ موقف بعض الصحف الكبرى المسؤول.

٨ ــ عمل المجلس اللبناني الوطني خلال الأزمة.

٩ ــ الحفاظ على رموز الشرعية. إجراء الانتخابات الرئاسية على نحو شبه طبيعي. احترام الطريقة الدستورية في تشكيل الحكومة.

وهكذا فإن بنى الدولة التي تعرضت لأقسى الامتحانات، رغم سقوط بعض الأجهزة بقيت في رموزها الأساسية، كرئاسة الجمهورية والحكومة والمجلس، والجسم القضائي. والآن بدأت هذه السلطات تأدية وظائفها. إنها تصعد المنحدر.

ربما استطاعت سنوات الحرب بما خلفته من خراب أن تهز صحة بلادنا الاقتصادية، ولكن الأزمة السياسية لم تؤد إلى أزمة اقتصادية، وذلك بفضل اقتصادنا الحر، وطبقة من رجال الاعمال تتحلى بروح المبادرة والدينامية الأسطورية.

١١ ــ رغم التقاتل بين اشياع الأديان المختلفة، فقد كان يعلن، في الوقت ذاته، أن الحرب ليست دينية.

وهكذا ظلت إرادة الحياة المشتركة أقوى من كل أفعال القطيعة.

١٢ ــ المذهبية ضعف نظامنا الديموقراطي، غير أن ثمة من رأى فيه، في بعض اللحظات مخلصاً. أو هذا على الأقل الانطباع الذي أوحى به اليهم. فنشأ تساؤل عما إذا لم تلعب

الطوائف، في بعض اللحظات، وهي تواجه بعضها بعضاً، دور لجم المجانين، والحيلولة دون المغامرة، والاغراءات الانتحارية، ومحاولات الهيمنة.

أتكون المذهبية الاله جانوس ذا الوجهين النقيضين؟ أحدهما وجه الشر والحرب، والآخر وجه الخير والسلام (بتوازن القوى؟).

ملامح الأمل هذه، وهذه المعطيات الايجابية التي صمدت للعاصفة ليست في الواقع كافية بحد ذاتها، لتطمئننا على المستقبل، لأننا ما زلنا معرضين لأفدح الأخطار، فثمة في جسدنا جراثيم تنذر بالشر.

وإذا كنا نريد لهذه العوامل الايجابية أن تغدو عوامل نهوض، فإن علينا أن نوظفها انطلاقاً من رؤية تمهد لتطورها.

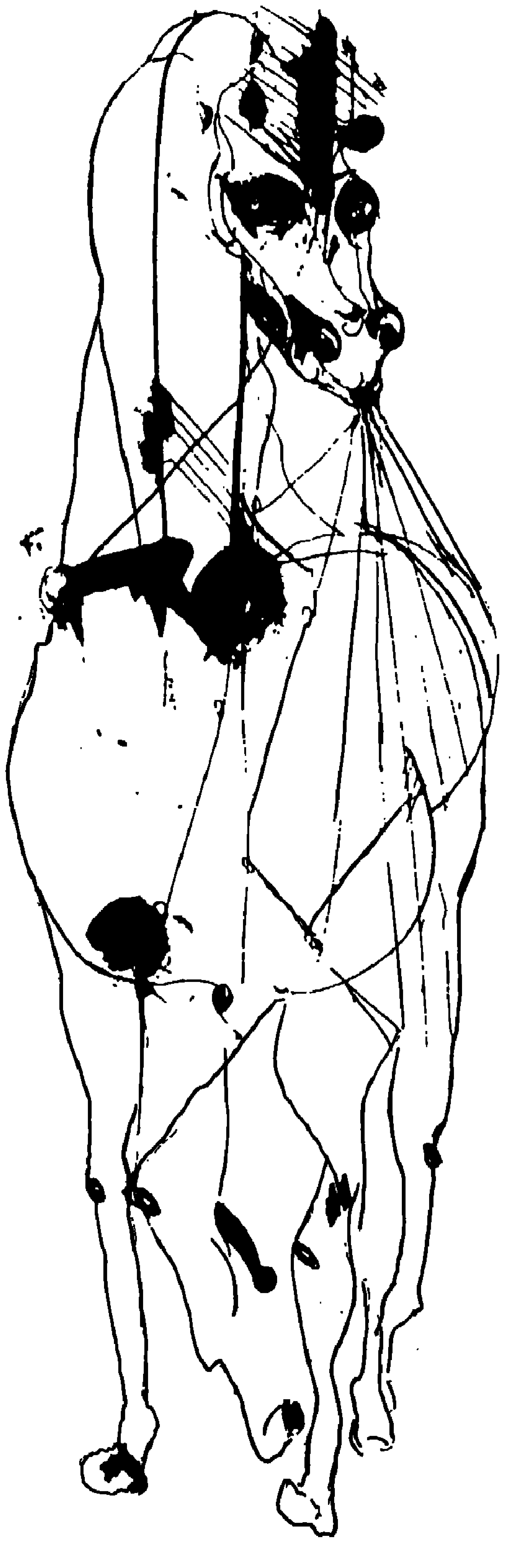
٧ ـــ الواقع أن كل نظام سياسي بحاجة إلى رؤية سياسية:

الواقع أن المهمة الملحة، التي يجب أن نقوم بها وفي مقدمتنا الدولة، هي تحديد رؤيتنا لمستقبل الوطن. لأننا بهدي هذه الرؤية فحسب، نستطيع تقرير مستقبل نظامنا السياسي، وخطنا السياسي.

ليس النظام السياسي إلا الاطار الذي يختار من أجل توفير تحقيق الأهداف القومية.

إن مجتمعاً هاجسه الوحدة والديموقراطية! متعلقاً بالحريات العامة والشخصية، وبحقوق الانسان، متشبثاً بدوره كمركز للاشعاع الثقافي، راغباً في حماية وتشجيع روح المبادرة والاقدام بين مواطنيه، مقتنعاً بالعلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية مع محيطه الاقليمي مؤمناً بأن تطوره متصل، بعمق، بعلاقاته الاقليمية، والموارد التي تدرها عليه تلك العلاقات.

إن مجتمعاً مؤمناً أن وضعه الجغرافي يؤهله للانفتاح والاتصال، وأن التقدم الذي حققه على مدى اجيال ليس خيراً له وحده فحسب، وإنما هو منبع التزام ورسالة عليه حملها إلى الآخرين، وأن وحدة الجبهة الداخلية شرط لا بد منه لكل تقدم، وأن التنوع يجب ـــ ويستطيع ـــ ان يتلاءم مع الانسجام الاجتماعي، وأن التعددية



□ بريشة الفنانة جوليان ساروفيم.

تجد شرط بقائها وفعاليتها في الحوار والمشاركة والعقل.

إذا كانت هذه رؤية لبنان، فإن علينا أن نحرص على أن يعكسها نظامنا السياسي، ويحققها، ويحميها، ويضمن لها الاستمرار.

علينا أن، نحرص على أن تخلق سياسة الدولة، على كل صعيد وبكل الوسائل، المناخ الملائم الخصب، لحسن سير النظام حتى يخدم خدمة أصيلة، الرؤية الوطنية التي تؤمن بها.

انطلاقاً من هذا المنظور أدعو حكوماتنا الى انشاء فريق فكري مهمته: ١ ـ اعادة تحديد اهدافنا القومية ورؤيتنا للبنان. ٢ ـ تحديد ما في نظامنا مما يعوق أو يمنع تحقيق هذه الأهداف، وهذه الرؤية. ٣ ـ اقتراح التعديلات او المكملات.

نتيجة لكل هذا، تستطيع الدولة رسم سياستها القومية التي يجب أن تخلص لها، لا مدة ست سنوات، وإنما إلى أبعد مدى طالما تظل فيه الرؤية واهدافها صالحة ومقبولة.

بغير هذا تبقى السياسة على كف عفريت رهناً بتبدل الأشخاص والطباع، معرضة لعدم الاستمرار وتقلبات التاريخ، كما خبرنا مأساتها حتى اليوم. ■

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن اي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة اقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة

الثورة السورية الكبرى



د . ادمون رباط

تعريب : د . محمد المجذوب

١٩٢٥ - ١٩٢٧

الحلقة الثالثة والأخيرة

تحدث الدكتور رباط في القسم الثاني من دراسته (المنشور في العدد الماضي) عن أعمال القمع التي تعرضت لها مدينة حماة، وعن تجمع الثوار في الغوطة وغاراتهم على الجنود الفرنسيين. ووصف ما لاقته دمشق من خراب ودمار، نتيجة القصف الوحشي الذي أمر به الحاكم الفرنسي انتقاماً من صمودها وبسالة ثوارها، مما جعل عميد السلك القنصلي فيها، يرفع باسم زملائه، رسالة احتجاج إلى المفوض السامي تتضمن تنديدا بسلطة الانتداب وتحميلها مسؤولية ما حدث.

سادساً ــ امتدادات واضطرابات

وهذا الوضع لن يزول إلا مع التطهير الكامل للغوطة الذي سيتم في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦. وبانتظار ذلك، اكتفت القيادة بارسال بعثات في النهار، تسمى تأديبية، كانت تجوب القرى المجاورة، غير المحتلة من الثوار، فتبتز أموالها، وتدكها حتى تسويها بالأرض، وتصرع المشبوهين فيها، وتعود مساء إلى قواعدها مكللة بأوراق الغار. ونادراً ما كان يجري اشتباك مهم بين القوات المتناحرة. وبقي الثوار أسيادا، هنا أيضا، كما كانوا في جبل الدروز.

وبعد أحداث دمشق، توجهت الأنظار نحو

مراكز أخرى للمقاومة حيث كانت الثورة (التي لم تكن حتى الآن إلا كامنة) تعزز نفسها بعناصر محلية وتسجل انتصارات جمة.

وعلى السفح الشرقي من سلسلة جبال لبنان حيث ظهرت، منذ شهر آب (أغسطس)، أولى الجماعات المسلحة، بدت الثورة فاعلة، وخصوصا حول مدينة النبك حيث شكلت حكومة ثورية. وانطلقت، من هناك، وإلى الغرب، غزوات باتجاه سكة حديد رياق ــ حمص، عطلتها عدة مرات، وهاجمتها غالباً، ونهبت قاطرات الذخيرة والمؤن فيها.

واستطاعت الثورة التي أحسنت تنظيم صفوفها، هنا أكثر من أي مكان آخر، الصمود فترة طويلة، وتأمين سلطة ثابتة شملت كل سلسلة جبال لبنان وغذت في منطقة القصير وحمص، وحتى حماة، حالة دائمة من الاضطراب أزعجت السلطات ولم تتمكن قوات الانتداب الهزيلة من تبديدها. ولم يرفع الحصار عن هذا المركز الذي أبدى مقاومة خاصة إلا عند وصول التعزيزات اللازمة في شهر شباط (فبراير) ١٩٢٦. ولم يسرح فيه، فيما بعد، إلا جماعات مسلحة ضعيفة تمكنت، رغم ذلك، من عرقلة السير بين حلب والجنوب، وتشكيل تهديد متواصل لحمص التي كانت، كدمشق، محاطة بحزام طويل من الأسلاك الشائكة.

وعلى سفحي جبل حرمون، كانت تجري، في هذه الفترة، اشتباكات شديدة حول حاصبيا وراشيا ومرجعيون ومجدل شمس، حيث أنجزت، من قبل أنصار الطرفين، أعمال بطولية، وكذلك، ويا للأسف، أعمال مؤسفة حاولوا إلقاء تبعتها على كاهل الدروز.

وكانت هذه المنطقة التي تضم واديين، وادي التيم ووادي العجم، قد ألحقت بلبنان في عام ١٩٢٠. وتسكن هذين الواديين ثلاث طوائف مهمة مكونة من الدروز والشيعة والمسيحيين (الروم الأرثوذوكس)، وكلهم يتحدرون من أصل عربي، والعربية لغتهم. ويستخدم الواديان كهمزة وصل بين «الجبل» والقسم الأوسط من لبنان، أي الشوف، حيث يعيش ٦٠ ألف درزي.

وكان من المقدر أن يعمد الثوار، بمجرد أن يصبح «الجبل» حرا، إلى توجيه نشاطهم، على امتداد هذا الطريق الدرزي، حتى عمق لبنان، حيث كانوا يستطيعون القيام بهجمات ضد دولة الانتداب، على أبواب بيروت نفسها.

ولكن سلطات الانتداب التي أدركت الخطر، منذ بداية أحداث حوران، سعت إلى كسب تأييد السكان. وباستثناء الدروز، المتضامنين بشكل طبيعي مع أبناء طائفتهم في «الجبل»، والشيعة الذين لن ينسوا أبداً قمع عام ١٩٢٠، فقد وزعت الأسلحة على المسيحيين فيما كان يجري تجريد الدروز، والشيعة المقيمين في نفس الأمكنة، من السلاح بالقوة. وتم، على غير هدى، تجميع وحدات من المتطوعين وتنظيمها على شكل عصابات مسلحة لمقاومة العدو.

ولم يتوان وجهاء الطوائف الأخرى، الذين أوجسوا خيفة من الأخطار المتفاقمة، عن تنبيه المفوضية السامية إلى النتائج الوخيمة التي قد تترتب على مثل هذه التدابير. وروي أن الجنرال، المفوض السامي بالنيابة، أدلى، في اجتماع عقد في بيروت، أمام بعض الشخصيات، منها الأميران سعيد وتوفيق أرسلان، بالاعتراف التالي: «صحيح اننا وزعنا أسلحة على المسيحيين، ولكننا فعلنا ذلك لأنهم توعدوا».

وتكهن الزعماء الروحيون للطوائف المسيحية بالمآسي التي قد تتمخض عنها حرب أهلية،إذا أثيرت بهذا الشكل وعصفت بلبنان، فنصحوا بعدم توزيع الأسلحة وألحوا إلى أن الأفضل، لتأمين الدفاع عن السكان ضد الثوار، يكون بتغطية الأماكن المهددة بقوات كافية. وقيل ــ وتلك مجرد إشاعة ــ أن الجنرال (ساراي) حاول، قبل رحيله، أن يثير هبة شعبية مسيحية ضد الاسلام. ويبدو أنه، بفضل المعارضة العنيفة التي أبداها غبطة البطريرك الماروني، لم يطلق أي نداء كهذا.

وظهرت الجماعات الدرزية المسلحة، في وادي التيم ووادي العجم، منذ الأيام الأولى لشهر تشرين الأول (اكتوبر). وحلقت الطائرات فوق الواديين وطهرت الأجزاء المرئية منها(٥٩). وكانت النتيجة رحيلا درزيا جماعيا نحو «الجبل» وانخراط الرجال في صفوف الجماعات المسلحة.

وبعد أيام، اجتاحت قواتهم، بقيادة **زيد الأطرش**، شقيق سلطان، الواديين دون أن تلقى



□ **الباب الشرقي في دمشق.**

مقاومة. وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر)، احتلت حاصبيا بسهولة[٦٠].

وتشكلت حكومة استقلال محلية برئاسة **نسيب بك جبريل**، الذي اختير عن قصد من بين المسيحيين بغية توفير الثقة لهم وتهدئة الخواطر. وعلى الرغم من أعمال التحريض التي لم تنقطع أبداً، فإنه لم يسجل على الثوار أي تنكيد أو تعسف ضد السكان، لاسيما المسيحيين. بل ان الثوار كانوا عادلين ومنصفين، فسمحوا باجلاء النساء والأطفال خوفاً من عودة القوات النظامية[٦١].

وتحت شعار سيصبح محور المصالحة الوطنية: «الدين لله والوطن للجميع»، خاطب زيد الأطرش المسيحيين بهذه الكلمات:

«بلغنا أن بعضكم قلق من وجود قوات وطنية في هذه المنطقة، وانه يغادر البلد خوفاً من تعرضه لهجوم من قبلنا. إننا مذهولون لتلقي هذا الخبر لأنكم إخوتنا ولا فرق بيننا وبينكم...».

وفي بيان آخر، موجه بشكل خاص إلى دروز المنطقة وشيعتها، عبر عن رأيه بقوله:

«إننا نسارع إلى الكتابة إليكم لأننا نشعر أن بوسع السلطات التي تجردكم من السلاح وتسلح أخوتكم أن توقظ فيكم غرائز ذميمة تجاههم قد تباعد بينكم وبينهم... وقد ينجم عنها حوادث تسيء إلى البلد، وتضر ضررا شديدا بمصالح قضيتنا المقدسة...

«أيها الدروز، إننا نتوجه إليكم بشكل خاص باعتباركم فئة خاصة من الأمة، لتحذروا سياسة السلطات تجاهكم وتقتربوا من بقية أخوتكم، من الطوائف الأخرى الذين هم من أبناء جنسكم ووطنكم...».



□ طلال باشا عامر.

وأضاف بيان آخر، وجه إلى اللبنانيين بشكل عام، وتضمن، مرة أخرى، عرضا لأهداف الحرب التي يخوضها الثوار:

«... أما بالنسبة إلى مسالة الحدود بين سوريا الداخلية ولبنان فإنها إحدى المسائل التي لا يمكن معالجتها إلا عندما يحرر البلد من العدوان الأجنبي. وعندما تضطرنا الضرورات العسكرية إلى احتلال مواقع معينة، فلا تقلقوا، لأن تسويتها النهائية مرهونة بالقرارات التي ستتخذ فيما بعد...».

وفيما يتعلق بمسألة لبنان الدقيقة تعهد زيد نفسه للأمير فؤاد أرسلان، عضو المجلس التمثيلي للبنان الكبير، بما يلي: «اننا لن نهاجم لبنان القديم، انسجاما مع نصائحك».

وهذا ما تم. فلو وضعنا جانبا الحركات غير المنضبطة لتي كانت تندلع في بعض المواقع المعزولة في الجبل، وباستثناء المناطق التي ضمت إلى لبنان عام ١٩٢٠ والتي تشكل عودتها إلى سوريا أحد الأهداف الأساسية للثورة، فإن لبنان الأصلي ظل بعيداً عن هجمات الثوار. وقد ضحى هؤلاء، للحفاظ على السلام الديني، بمكاسب استراتيجية مهمة.

ومع ذلك، فقد كان من المقدر للمسألة الطائفية أن تخفق. فبعد أيام من احتلال حاصبيا، انفجرت تلك الحوادث التي حاول القادة تفاديها بأي ثمن. لقد حصلت اشتباكات مسلحة بين المسيحيين والثوار، خصوصا في كوكبا، على بعد عدة كيلومترات من مرجعيون. فهل هي مجازر أم معارك؟ إن سلطات الانتداب انحازت بالطبع إلى وجهة النظر الأولى[٦٢]. وبدا أن هذه المجابهة بين الفريقين لا مفر منها: بين فريق مسلح كانت دولة الانتداب تحثه رسميا على الدفاع، وفريق (مكوّن من الدروز) وجد نفسه مشدودا إلى الحرب بحدتها الوحشية المحتومة. واغتنم عدة ثوار هذه الفرصة السانحة لإشباع ضغائنهم الشخصية وحل منازعات قروية بهذا الشكل. وكان معظم الدروز المهاجمين يأتي بالفعل من بين هاربي المنطقة الذين وصلوا «الجبل» منذ ظهور الطائرات الأولى.

وقدم زيد الأطرش نفسه التفسير التالي للمجابهة التي حدثت في كوكبا:

«... ان الحادثة المؤسفة التي وقعت في كوكبا هي نتيجة سياسة الانتداب... التي سمحت بتشكيل عصابات مسلحة وتحريضها على مناهضة حركتنا الوطنية. لقد هوجم رجالنا، لدى مرورهم بكوكبا، من قبل العصابات. واراد احد الزعماء، بصحبة كاهن من حاصبيا، ان يقترب منها ليتفاهم معها، فقتل الكاهن مع أحد الرجال. واعقب ذلك ما تعلمون...»[٦٣].

ولكن الرواية التي سردها زيد للأمير فؤاد ارسلان تختلف اختلافاً بينا. لقد كتب زيد إليه يقول حرفياً:

«أما بالنسبة إلى حادثة كوكبا، فإن سببها يعود إلى هجوم السكان انفسهم علينا. وقد أوقفنا مسيرتنا باتجاه مرجعيون خشية الوقوع في فخ آخر مماثل».

ولم تعرف الحقيقة إلا فيما بعد، عندما استسلم حمزة درويش، المسؤول الرئيسي عن حادثة كوكبا، للفرنسيين، وشارفت الثورة على الانهيار. واستطاع الثوار حينئذ، بحرية، توجيه التهمة إلى هذا المغامر وتوضيح مسؤوليته في قضية كوكبا. ويبدو أن مناقشات حامية جرت بين سلطان وحمزة حول هذا الموضوع. ولتجنيب القضية الوطنية الانقسامات التي قد تكون قاتلة في هذه الفترة، تقرر خنق التذمر الذي أثاره سلوك حمزة[٦٤].

إن قضية كوكبا، التي تراجعت إلى حجمها المعقول (حوالي العشرين قتيلا من السكان)[٦٥]، والتي تشبه الحوادث التي ترتكبها دائما الجماهير الثائرة، في بعض المناسبات، لم تحل أبداً دون تقدم قوات زيد التي اندفعت، بعد احتلال حاصبيا ومرجعيون[٦٦] والمنطقة المجاورة، نحو راشيا. «لقد طوقت في القلعة

حامية، مكونة من سريتين، كانت قد احتلت راشيا وتلقت الأمر بالحفاظ على هذا الموقع مهما يكن الثمن. وتحملت الحامية، بشجاعة، حصارا أحكم الدروز طوقه ببسالة»[٦٧]. ومع ذلك، فقد استسلمت. غير أن احتلال راشيا وحاصبيا من قبل الجماعات السورية المسلحة كان لفترة قصيرة، ولكنه سجل الحد الأقصى لتقدم الثورة في جبل لبنان، وذروة انتصاراتها، فقد استعادت جحافل دولة الانتداب راشيا في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، وحاصبيا في ٥ كانون الأول (ديسمبر). وابتداء من هذه الفترة أخذت الثورة بالتراجع. ومع ذلك، وعلى الرغم من عودة ظهور الفرق النظامية في المنطقة، فإن الجماعات المسلحة بقيت ثابتة في المرتفعات المجاورة. وأثار وجودها العنيد حماسة المقاومة في البؤر المنتشرة في الغوطة والنبك حيث كان نشاطها يتسع وينتشر بشكل مروحي ما بين حماة وحمص ودمشق.

وفي الشمال، لم يفقد الثوار الأمل في مد نشاطهم نحو حلب، على الرغم من حادثة حماة ومراقبة مناطق السهل هذه بواسطة الطيران الذي لا يرحم. ومن جهة ثانية، فقد بذلت فيه جهود أخرى لتنظيم جماعات مسلحة مستقلة، مكونة من عناصر كانت تختار من الولاية نفسها، ولكنها كانت تسلح في تركيا، وتحاول تهييج المناطق الجبلية في الشرق والجنوب الشرقي، لاسيما في جبل الزاوية وأرياف أورم وأريحا. غير أن الحركة لم تتمكن من إثارة حماسة السكان في هذه المنطقة، إما لأنهم ما زالوا يتذكرون القمع الذي تعرضوا له في عام ١٩٢١، وإما لأن الجماعات المسلحة الوافدة من تركيا لم توح إليهم أبداً بالثقة.

وفي حلب نفسها، أدى اعتقال عدة وجهاء، اتهموا بالتحريض على مقاطعة الانتخابات الفرعية التي دعا إليها المفوض السامي الجديد، هنري دو جوفنال (H. de Jouvenel)، إلى قيام السكان بتظاهرة أمام السجن المدني. وعلى الرغم من الطابع السلمي الواضح لهذه الحركة الشعبية، فإن النقيب المسؤول عن حامية القلعة التي تشرف على المدينة وجه إلى الجموع رشاشه، دون إخطار نظامي، ودون الاصغاء إلا لصوت نزواته، فكانت الحصيلة: حوالى الاثني



□ صورة ترجع لعام ١٩٢٣ ويبدو فيها من اليمين شقيق الشيخ خليل صعب، سلطان باشا، خليل صعب مفوض البوليس في بيروت، زيد بك الاطرش شقيق سلطان ومدير «القرية» سابقا وقائد القواد في منطقة حاصبيا.

عشر قتيلا والخمسين جريحا. واضطر المتظاهرون العاجزون عن إبداء أدنى مقاومة إلى التفرق (وكان ذلك في ١٩٢٦/١/٩). ولم تكن حلب جاهزة للانتفاضة. وقد فضل **إبراهيم هنانو**، الذي كان عرضة لاغراءات الجماعات المسلحة، اعتبار نفسه سجينا. ولكنه بقي طليقا بناء على كلمة شرف منه[٦٨].

وتخلص موريس ركلو (M. Reclus)، مندوب المفوض السامي في حلب، الذي أدت سياسته الحكيمة إلى هذه النتيجة، من كابوس امتداد الثورة إلى شمال سوريا. ولو امتدت لكان ذلك، حكماً، كارثة لدولة الانتداب. لقد بقيت الثورة اذن، مرة أخرى، محصورة في الجنوب.

سابعاً ــ الانهيار

في بداية عام ١٩٢٦، كان نطاق عمل الثورة محصورا، في الشمال والشرق، بسهوب حمص، حيث لم تكن تجازف فيها إلا جماعات مسلحة

جريئة. وكانت الطائرات تردها، فلا تترك لها الوقت للاتصال ببعض القبائل البدوية التي كانت تخيم هناك، رغم فصل الشتاء.

وبقيت الثورة متماسكة في كل المنطقة، إلى الجنوب من حمص، أي في جبل الدروز، وفي قسم من حوران (قضاء دوما)، وفي كل سنجق دمشق تقريبا (باستثناء أطراف الحدود مع شرق الأردن)، ومنه أقضية النبك وجيرود والزبداني، وقضاء القريتين في سنجق حمص.

وفي لبنان الكبير، بقيت منطقة راشيا وحاصبيا، رغم إعادة احتلال هاتين البلدتين، في حالة من فقدان الأمن يرثى لها، ترعاها جماعات مسلحة وجدت في مرتفعات حرمون ملجأ أمينا. وكانت بعلبك والبقاع، كذلك، يعيشان تحت رحمة الغزوات المستمرة التي كانت تقوم بها جماعات **توفيق هولو حيدر** (شيعي).

وكان الوضع، في بداية عام ١٩٢٦، على الشكل التالي: نصف البلاد تحول إلى ساحة حرب، والنصف الآخر كان متواطئاً أو متعاطفاً، والصحراء لم تعد مضيافة، والمواصلات بالسيارات مع بغداد قطعت، والمواصلات بين فلسطين ودمشق غدت متقطعة، ومصادر الإنتاج (الزراعة والتجارة) نضبت وأتلفت.

وانخرط السكان، الذين أضناهم الجوع أو السخط أو الكراهية، في جماعات مناضلة كان القنوط يدفعها إلى ارتكاب أشنع التجاوزات. وكان يتزعم هذه الجماعات مئات من فتية المدارس وبورجوازيو المدن. وفي جبل الدروز، كان الشعب بأسره يناضل من أجل ما كان يعتبره حقه في الحياة. ولم تسفر أعمال القمع الشرسة إلا عن مضاعفة عدد المحاربين الذين كانت ذكرى آبائهم ومساكنهم، بعد تحولها إلى رماد بسبب لهيب القذائف، تلقي بهم إلى احضان موت أكيد، لأنهم كانوا يدركون، رغم الانتصارات الباهرة والمتكررة، صعوبة التغلب على فرنسا.

وفي عام ١٩٢٦، وفرت عملية التهدئة في المغرب بعض الراحة لدولة الانتداب، فتأهبت هذه الدولة، التي تدنت هيبتها واصيبت كبرياؤها، لتوجيه الضربة الحاسمة. ولكنها، رغم التعزيزات المتعددة واللجوء إلى تطبيق احسن أسلوب هجومي، لم تتمكن من إعادة النظام كليا إلى نصابه إلا بتكبد خسائر فادحة نسبيا، وبعد أشهر من الانتظار. ولن تستطيع سحق الثورة نهائيا إلا في ربيع عام ١٩٢٧.

وفي بداية عام ١٩٢٦، «كان على القيادة خلال فترة الشتاء التي تجعل الميادين غير صالحة للاستعمال، وتجعل العمليات الضخمة مستحيلة بالتالي، أن تقتصر على توفير الأمن للمدن، خصوصا لدمشق، وحماية طرق المواصلات المهمة لحياة البلد وتموين الفرق العسكرية. وتأتي، بعد ذلك، عملية التهدئة رويدا رويدا بالتقليص التدريجي للمناطق التي كانت تجوبها الجماعات المسلحة، وبمطاردة هذه الجماعات ومنعها من العودة إليها بإقامة مراكز ووضع قوات متحركة تعتمد عليها. وكانت الخطة تقضي، بعد هذا، وحتى في آن واحد في بعض الحالات، بالتأثير في البؤر الثانوية للثورة (الغوطة، وحرمون، وسلسلة جبال لبنان)، في الوقت الذي يجري فيه إعداد لعملية حاسمة في جبل الدروز مع بداية فصل الربيع»(٦٩).

وبدأ، منذ شهر شباط (فبراير)، تنفيذ هذه الخطة. وطبقت التدابير الأولى للخطة على لبنان حيث عزت انتصارات الدروز في حرمون وراشيا مكانتهم وعرضت للخطر «استقلال» الدولة اللبنانية. وكان طابوران قد انطلقا، من الغرب والشمال، ومنذ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، واستعادا راشيا. وأدى دخول الجند إليها إلى تعريضها للنهب والحرق. واضطر سكانها من المسيحيين والدروز، بعد تدمير ثلاثة أرباعها، إلى مغادرتها.

واستولى طابور ثالث انطلق في نفس الوقت من دمشق على حرمون من الشرق. وتراجع الدروز شيئا فشيئا، رغم المقاومة المستمرة والصلبة. وأعيد احتلال حاصبيا في ٥ كانون الأول (ديسمبر). «ولجأت الجماعات الدرزية المسلحة إلى الجبل العالي، بعد انخفاض عددها بسبب الخسائر وانتقال قسم مهم من افرادها الملاحقين إلى فلسطين. وانشئت مراكز، ونظمت جولات لنزع السلاح، واعيدت السلطات النظامية إلى مراكزها»(٧٠). وليس بالامكان، وبشكل طبيعي، تحقيق ذلك دون ارتكاب الكثير من التعسف والتجاوز من كل نوع.

بيد أن الجماعات المسلحة التي احتمت بمغاور حرمون المنيعة استمرت في عبور الوديان وخوض حرب العصابات ضد الفرق النظامية دون هوادة. وأوجب تحرير مناطق راشيا وحاصبيا، نهائيا تقريبا، وتطهير الجوانب المرتفعة في حرمون، الاعتماد مرات عديدة، على طوابير قمع قوية، كان أهمها الطابور الذي أرسل في شباط (فبراير) ١٩٢٦، وآخرها الطابور الذي أرسل في نهاية صيف تلك السنة(٧١). وظهرت، على أثر ذلك، جماعات مسلحة لا أهمية لها، كان نشاطها، المعدوم تقريباً، يتقلص مع عنفوان الثورة نفسها.

ومع ذلك فقد ظل الاقليم اللبناني، ولفترة طويلة، مسرحاً للعمليات التي كانت تقوم بها جماعات مسلحة محلية يقودها لبنانيون، من عائلة حيدر في البقاع على وجه الخصوص. وأصبحت الحالة لا تطاق في بعلبك التي تعرضت، في عدة مناسبات، لهجمات العنيد **توفيق هولو حيدر**.

وفي نفس الوقت تقريبا، فإن الحركة التي امتدت إلى الأقضية المحيطة بطرابلس جعلت من الثورة سيدة الأكروم، وهي منطقة جبلية وعرة ورأس شمالي في سلسلة جبال لبنان، وسيدة الضنية، وهي مجموعة سهول ووديان مغطاة بالقرى المزدهرة. وقطعت الثورة المواصلات بين لبنان وجبل العلويين وكادت، بذلك، تشعل انتفاضة جديدة في هذا الاقليم الأخير الذي تمت تهدئته بصعوبة في عام ١٩٢٢. «وكان الوضع في الأكروم والضنية صعبا لفترة ما، لاسيما أن تمركز الجماعات المسلحة في هذه المناطق كان يتزامن مع قيام هيجان وحيد في طرابلس... وأخفقت عملية أولى لطرد الجماعات المسلحة من الأكروم. ولكن عملية تنظيف قام بها سلاح الفرسان ما لبثت، ما بين ٩ و ١٢ حزيران (يونيو)، أن طهرت منطقة النبك وسلسلة جبال لبنان، ودفعت الجماعات المسلحة إلى غوطة دمشق، وعزلت هذه المنطقة تماماً عن اقاليم الشمال والغرب. وفورا بعد ذلك (من ٢٨ حزيران/يونيو إلى ٥ تموز/يوليو) طردت قوات متجمعة في طرابلس الثوار من الضنية التي تمركزوا فيها لشهر خلا وطهرت، وهي تتابع عملها نحو الشرق، كل منطقة الهرمل الجبلية، واجتازت كل مرتفعات الأكروم المشهورة، منذ عهد الأتراك، بصعوبة الاختراق من قبل الجنود النظاميين»(٧٢).

وحدث ذلك في الوقت اللازم. ولو حصل بعض التأخر لهزت الثورة من جديد جبل العلويين حيث يقيم الشيخ صالح، ولما بقي هذا الشيخ غير مكترث لنداءات أنصاره، ولنزل مرة أخرى من جبل الزاوية وفجوة انطاكية في الشمال واتجه نحو سهول حلب.

ومع هذا، فإن الأقاليم التي ضمت إلى لبنان، حيث التهبت هذه الشرارات ذات المغزى، لم تسترد هدوءها، سواء في طربلس أو في البقاع، إلا خلال صيف عام ١٩٢٦، حينما عجزت الجماعات المسلحة التي كانت تظهر فيها ويتعذر الامساك بها عن العثور على ملجأ أو مساندة فيحرمون وسلسلة جبال لبنان المكبلة.

وفي هذه الجبال، كانت النبك دائما القاعدة التي تنطلق منها عمليات الثوار، والتي أصبحت، منذ سبعة أشهر، مركز قيادتهم. وفي شباط (فبراير)، ومع إعادة احتلال راشيا وحاصبيا ومجدل شمس وبانياس وينطا... وعندما تحررت أطراف حرمون نهائيا، بدأ التفكير في إخضاع مركز الجبل الذي ما زال ثائراً.

وقام طابور قوي، يعتمد على حمص ويسانده الطيران، بإعادة النظام إلى المنطقة، وباستعادة النبك بعد اشتباك عنيف. ولكن الجماعات المسلحة كانت تنحدر من شعب جبال لبنان إلى السهل وتصر على مهاجمة الخط الحديدي بين حمص ورياق، الذي بقيت القوافل مدة طويلة لا تستعمله إلا تحت حماية الطائرات والقاطرات المصفحة. ومع ذلك، فقد توارت هذه الجماعات ببطء مع تنظيف الغوطة. لقد ضعف نشاطها ووهن تلاحمها مع الهزائم التي أصابت بشدة آخر معاقل الأنصار في ضواحي دمشق.

ولم يبق بالفعل، في هذه الفترة، إلا الغوطة وجبل الدروز. وتقرر القيام بعمليات مشتركة ضد هذين الموقعين في الربيع والصيف. «وفي هذا الفصل، وبفضل التعزيزات المرسلة من المغرب، وجهت الضربة القاضية إلى الثورة المسلحة»(٧٣).

وبقيت الغوطة دوما ذلك المعسكر المسلح الشاسع حيث كانت قيادة الثورة تتمركز وتتضخم بانضمام العناصر التي هجرت النبك إليها. ولكن قوتها كانت تستمدها من دمشق، فأنصارها كانوا، وهم يتظاهرون بأنهم قرويون مسالمون منصرفون إلى مهنهم اليومية، يجدون فيها، عند الاقتضاء، ملجأهم الأخير. وحينما أصبحت الفرق النظامية في الغوطة نشيطة ومربكة، كانوا هنا، في الأحياء المتداخلة، يختبئون. وقد جرت فيها، عدة مرات، عمليات تطهير(٧٤). وكانت الواحة تحرر ثم لا تلبث، بعد عدة أيام، أن تتعرض من جديد للاغارة.

وفي هذه الظروف ندرك كم كان صعباً ضرب الحركة الثورية في القلب نفسه. ثم ان الخسائر التي تكبدتها الفرق الفرنسية في هذه الفترة كانت جسيمة وبلا نتيجة حاسمة.

وأدركت القيادة الفرنسية أهمية دمشق بالنسبة إلى حركات الثوار. وكانت العاصمة، منذ ليالي تشرين الأول (اكتوبر) المفجعة، خاضعة لنوع من الأحكام العرفية لا يطبق إلا في زمن الحرب. وكانت محاطة بالأسلاك الشائكة، ومغطاة بالخنادق المحصنة بالحجارة وأكياس الرمل، وصامدة أمام أشرس الهجمات.

ولم يشمل هذا الأسلوب الدفاعي حي الميدان الذي كان، بالنسبة إلى الجماعات المسلحة، أسهل الأحياء بلوغاً. ومن حي الميدان، الغارق في حدائق الجنوب، والممتد بشكل ذيل طويل لعدة كيلومترات، كانت تخرج بلا انقطاع مجموعات من المجندين للثورة. وحينئذ قررت القيادة الفرنسية إكمال عملية التدمير الكلي لهذا الحي. ونفذت الخطة على مرحلتين: في ١٧ شباط (فبراير)، وفي ٧ ــ ٩ أيار (مايو).

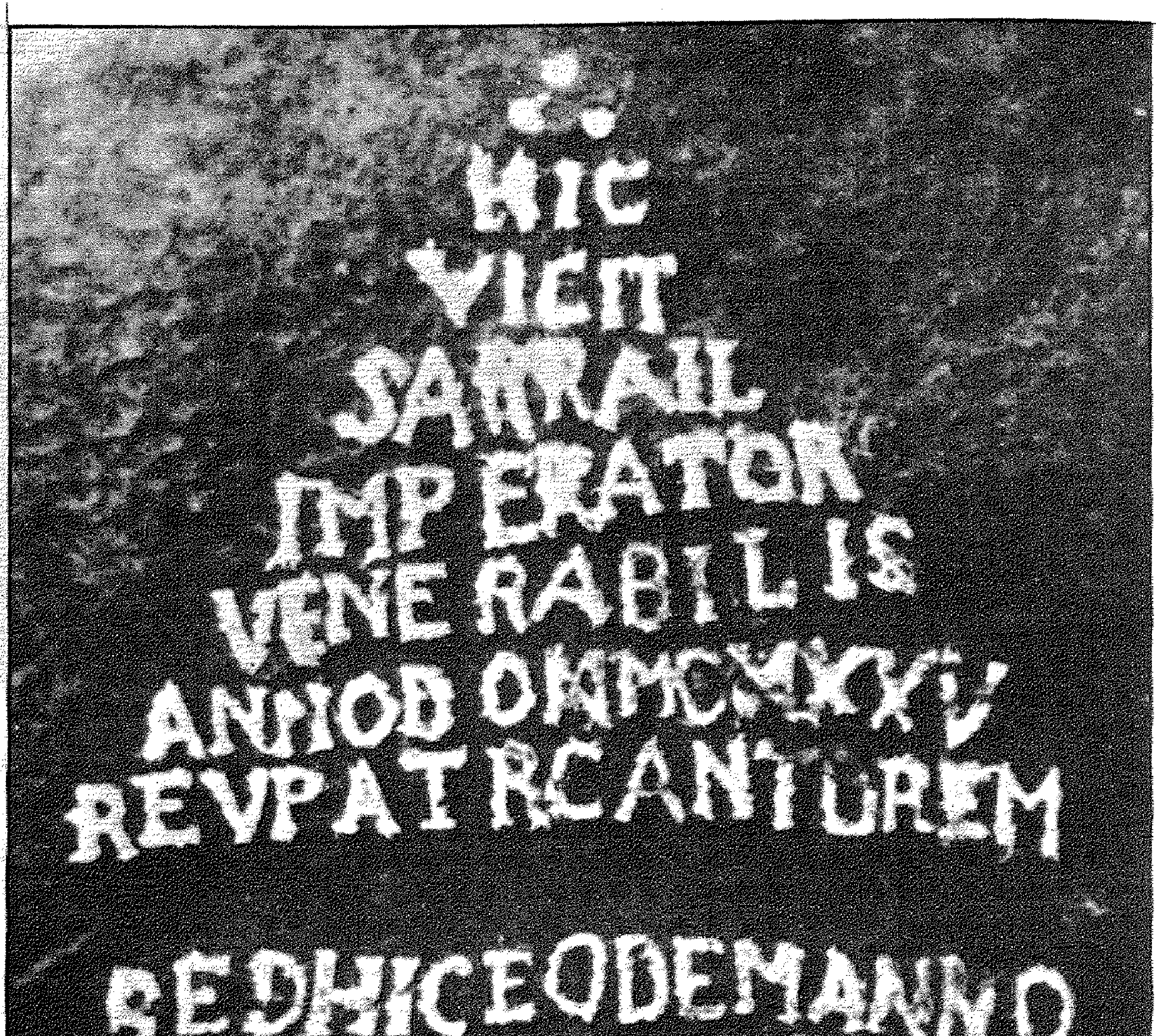
وكانت الواقعة البارزة للعملية الأولى الاقتحام المباغت لمنازل الحي الذي قام به المساعدون الجركس بدعم من الفرق النظامية. وقد سجلت عليهم تجاوزات عديدة ارتكبوها ضد السكان، خصوصاً ــ كما فعلوا في أمكنة أخرى ــ أعمال السلب التي كانت بمثابة ثمن مساعدتهم. غير «أن أعمال السلب هذه التي بولغ فيها... قد قمعت، ووضعت الأشياء المسروقة تحت تصرف مالكيها ممن أتوا يعرفون عن أنفسهم»(٧٥).

وفي ٧ أيار (مايو)، كان الاقتحام الثاني ضد حي الميدان شرساً. ففي الرابعة صباحاً، اجتاحت البيوت الخشبية في الحي نافورات النفط والصواريخ المحرقة، بشكل منتظم ودون توجيه أي إخطار إلى السكان غير المحاربين الذين كانوا ما يزالون يقطنون الحي. وخلال ساعات، تخللتها فترات من الراحة قصيرة، وحتى يوم ٩ أيار (مايو)، طوقت الفرق العسكرية البيوت البائسة لتؤجج فيها لهيب النار(٧٦). «أما بالنسبة إلى غير المحاربين، فقد حوفظ عليهم قدر المستطاع، وتم تجميع النساء، حينما أمكن ذلك، وعهد بهن إلى قوى الشرطة والدرك لاعادتهن إلى الوراء. وكان من المحتوم أن يكون ثمة ضحايا بين السكان»(٧٦). لقد كان هناك إذن، عند الهجوم، أشخاص غير محاربين ونساء وأطفال لم ينبهوا إلى خطر الموت الذي كان يترصدهم.

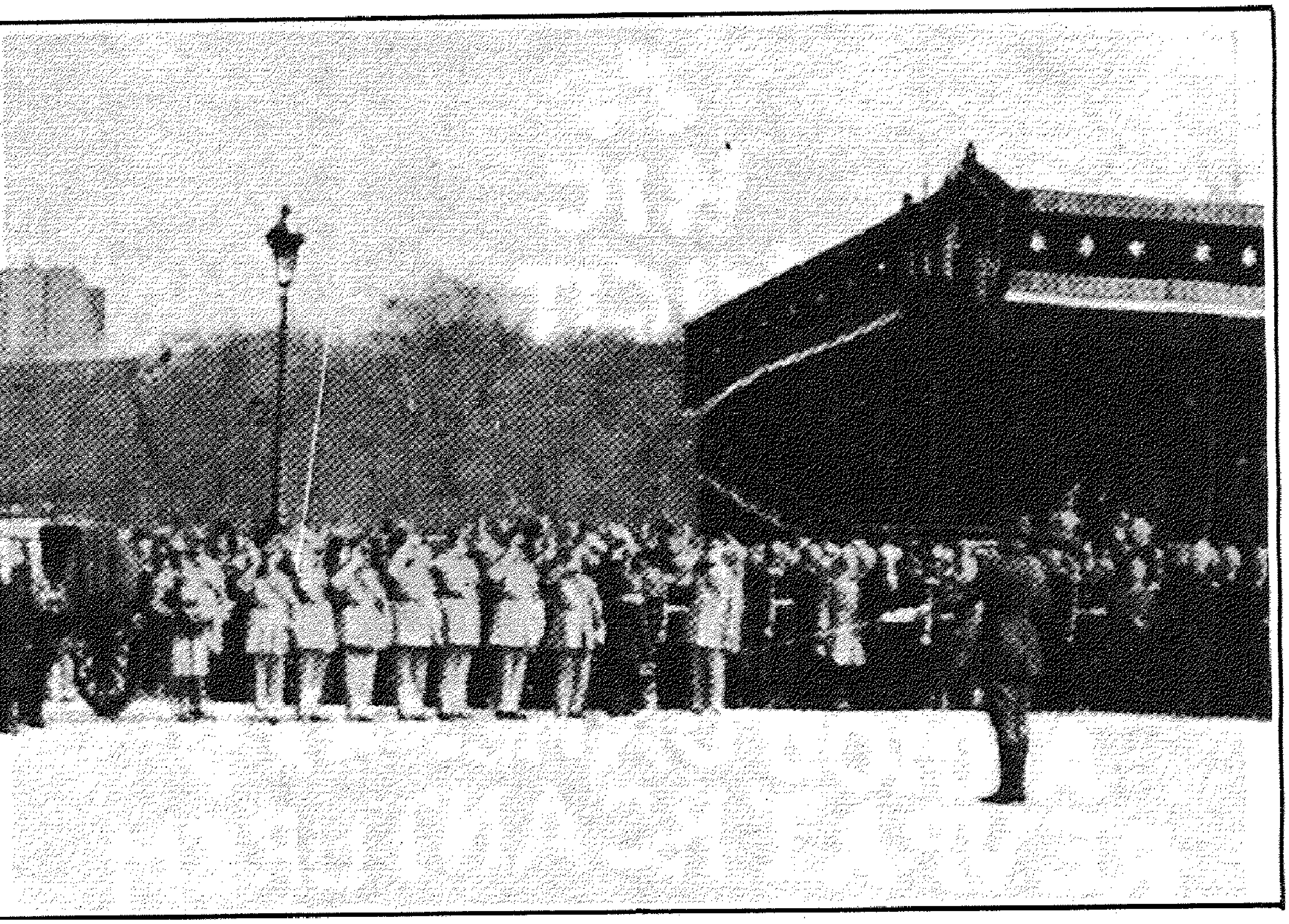
وحاولت السلطات أن تبرر هذه الفظائع: «... لقد وجدت الفرق العسكرية أمامها في حي الميدان منظمات دفاعية حقيقية. وللقضاء عليها كان ينبغي استخدام الوسائل الضرورية، أي دبابات الاقتحام والمدفعية».

وفي ١٥ تموز (يوليو)، حدد موعد للقيام بعملية حاسمة في الغوطة، فتجمعت طوابير في أطراف الواحة وهاجمت الحي، دفعة واحدة، من الشمال والجنوب والشرق، واتجهت نحو دمشق. وفوجىء الثوار الذين كانوا قد أقاموا خنادق لمقاومة أي هجوم آت من هذه المدينة. وتخلت جماعاتهم، التي تبعثرت خلال ٢٤ ساعة، عن الغوطة لتبحث عن ملجأ لها في المناطق الجبلية في سلسلة جبال لبنان، وجبل حرمون، والجزء الشرقي من جبل الدروز. وخلال ثلاثة أسابيع كانت طوابير صغيرة تجوب الغوطة في كل اتجاه، محطمة آخر حركات المقاومة التي كانت تجرؤ، بعد، على الظهور.

وفي آب وأيلول (اغسطس وسبتمبر)، أجبرت المعارك الأخيرة، التي دارت في حرمون وسلسلة جبال لبنان والبقاع، الجماعات المسلحة على التجمع في جبل الدروز حيث حافظت الثورة بقوة على تماسكها خلال أشهر طويلة، أي حتى أواسط عام ١٩٢٧.



□ كتابة منقوشة على الحجر مناهضة لسراي ولسياسته كتبها الثوار.

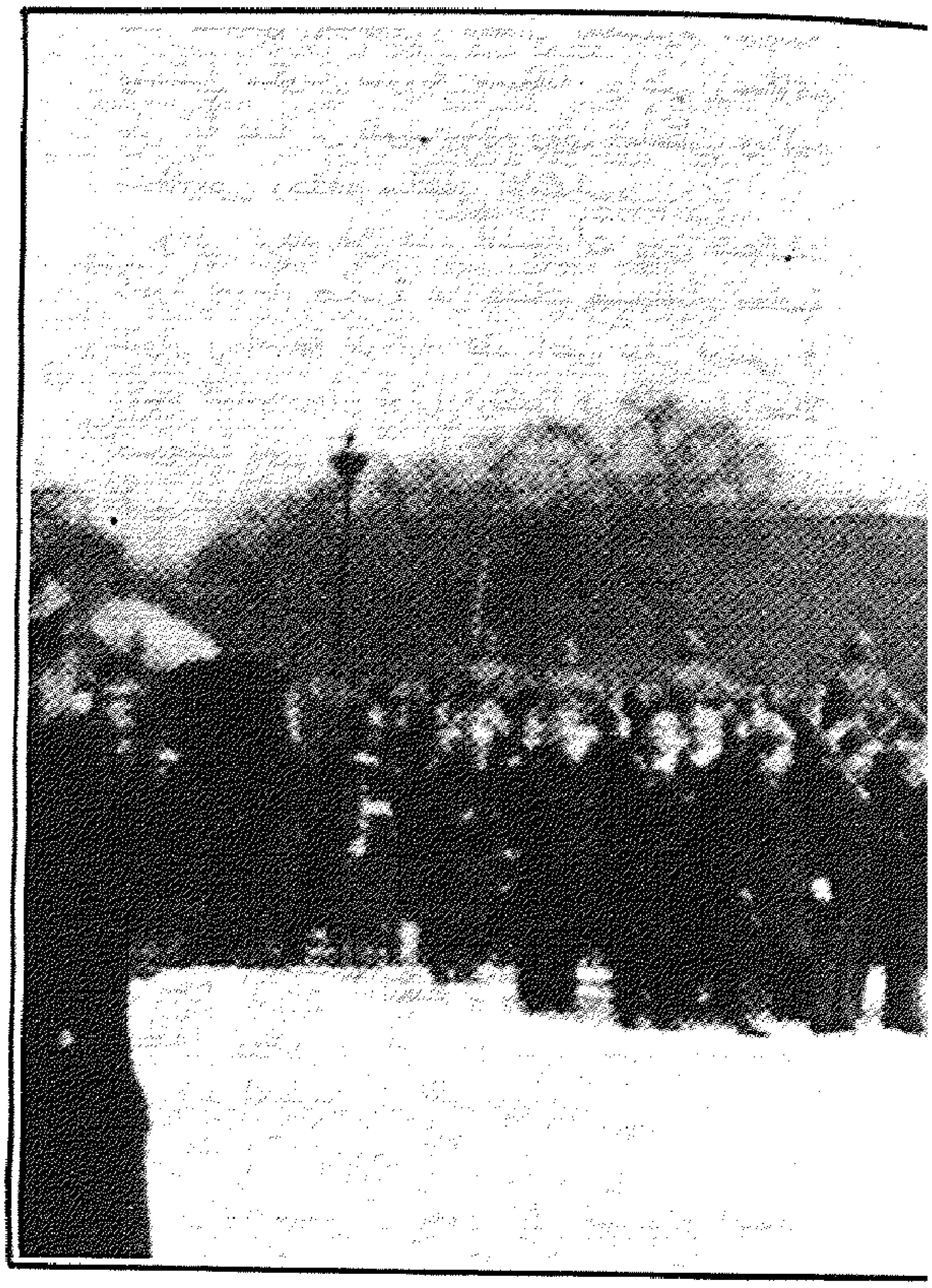


□ جنازة سراي في «الانفاليد» في باريس ويبدو في الصورة السيد بوان كاري رئيس الوزراء محاطا بوزرائه.

وابتداءً من ٢٣ نيسان (أبريل)، تحركت الجحافل الفرنسية نحو السويداء بعد أن وزعت نفسها على طابورين: الأول، وهو طابور الجنرال اندريا (Andréa)، أتى من الغرب، من خربة غزالة التي تقع على خط سكة حديد الحجاز، والثاني، وهو طابور العقيد **بيشو — دوكلو** (**Pichot-Duclos**)، انطلق من بصرى الشام. وأخرت عدة اشتباكات مع الدروز تقدمهما المتوازن. وأشد الاشتباكات عنفا وقع صباح ٢٥ نيسان (ابريل)، وكان مع سلطان نفسه الذي جمع، للمرة الأخيرة، عدداً من رجاله يتراوح بين خمسة وستة آلاف، لمجابهة هذا الاختبار الحاسم. وعلى الرغم من بسالتهم الخارقة، وبعد ست ساعات من المقاومة اليائسة، ووسط تلاحم جسدي غريب، فقد استطاع جيش الانتداب دحرهم ومتابعة تقدمه[٧٧]، وإعادة احتلال السويداء في المساء.

وبعد ذلك بعدة أيام، استغل الجنرال (اندريا)، الذي عين حاكما لجبل الدروز، هذا الانتصار لتقليص المناطق الثائرة بالقوة. وكانت هذه المناطق، المرهقة والقانطة، التي استمالتها سياسة المنتصر الانسانية، تستسلم. ومن الشمال إلى الجنوب هدأ «الجبل» الذي كانت تجوبه القوات العسكرية بانتظام وتسحق كل مقاومة وتفرض من جديد احترام القوة الفرنسية. وكانت دوريات القمع ودوريات نزع السلاح[٧٨] تفتش، من كل جهة، خبايا الجبل.

لقد مارس الجنرال (أندريا) عمله السياسي، في البداية، في الجزء الشمالي من «الجبل» الخاضع لنفوذ عائلة عامر، المنافسة لعائلة الأطرش، والتي خاضت، مع ذلك، الثورة معها. ومنذ شهر أيار (مايو)، طلب **طلال باشا عامر**، أحد أفراد الأسرة الأكثر طموحاً، الأمان من الجنرال (أندريا). وكان أول درزي يقدم على هذا العمل. وأعاد الجنرال إليه، من أجل استمالة الآخرين، وظيفته القديمة، وهي قائمقامية مقاطعة الشمال، التي لم تكن إلا وظيفة للزينة. وبفضل هذا الاذعان،



ستمر احتلال هذا الجزء من «الجبل» دون صعوبات ودون معارك تقريبا.

ويمم الجنرال ــ الحاكم، عندئذ، وجهه شطر لجنوب، الموقع الأكثر صمودا، والمأوى الأصلي لثورة حيث تسيطر عائلة الأطرش. وفي أول حزيران (يونيو)، انطلق من بصرى، على الحدود لأردنية، بطابور هائل، وتوغل في الجبل، ووصل في ٤ منه إلى صلخد. وحصلت معركة دامية في أم لرمان، في ضواحي المدينة، بعثرت رجال سلطان ن المحاربين. وبعد هذا الانتصار تعددت عمليات الاذعان. واختلفت نسبتها باختلاف ضع الثوار الذين كانوا يجابهون القوات لنظامية باللجوء إلى مناوشات متعددة.

وعلى الرغم من الجهود البطولية التي بذلها سلطان، وهذا الزعيم الآخر للثورة، عادل رسلان، فإن سيطرة الجنرال (أندريا) على الثوار كانت تشتد شيئا فشيئا. غير أن احتضارهم سيطول. وقريبا سيجبرهم احتلال المواقع لاستراتيجية الرئيسية في «الجبل» على الاكتفاء بغارات عابرة ليس بمقدورها إيقاف تقدم الفرنسيين شبرا واحدا.

وفي نهاية عام ١٩٢٦، يمكننا القول «أن عهد الطوابير الضخمة ولى ليحل محله عهد إنشاء شبكة من المراكز الثابتة المكرسة للسهر على القرى المحتلة وحمايتها. وكانت هناك سلسلة من الطوابير الصغيرة المتحركة تتنقل بين المراكز لملاحقة الجماعات المسلحة حيث تظهر... وفي كانون الأول (ديسمبر) تم تركيز عدد من المدافع ذات العيارات الضخمة في العديد من المراكز بحيث كان بمقدورها أن تطلق النار بكثافة وتسيطر على البلد، وتستخدم كمواقع ارتكاز للسرايا الدرزية الجديدة المكلفة، بشكل خاص، بمهمة المحافظة على النظام»(٧٩).

إن عمل الجنرال (أندريا)، المدعوم بهذا التكتيك الذي كان، بالتناوب، دفاعيا وهجوميا، قد تمكن، في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٧، من رد أنصار سلطان إلى الدهاليز البركانية للهضبة السوداء للجاة والصفا، التي تفصلها عن «الجبل» صحراء مخيفة من الحجارة. والتجأت جماعات عديدة إلى الأردن. وكانت آلاف العائلات الدرزية قد بحثت فيه عن مأوى لها منذ بداية الأعمال الحربية. ومن مخابئهم جدد المسلحون غاراتهم التي لا تكل فيما وراء الحدود(٨٠).

وهذه الحالة، كان بامكانها أن تستمر وتؤخر، لفترة طويلة، عملية تهدئة البلد، لولا التدخل المفاجىء، وغير المتوقع إلى حد ما، الذي قامت به بريطانيا، الدولة المنتدبة على فلسطين. لقد جردت الدروز من سلاحهم، فاضطروا إلى الغوص في الصحراء، آخر معقل لهم(٨١).

وعاشت الثورة. واعيد النظام إلى سوريا.

«وإذا كانت الحرب، حسب كلمة (Clausewitz)، ليست سوى السياسة التي تسيرها الوسائل العنيفة»، فإن تلك الحرب التي هزت سوريا لعامين متواصلين، وفككت اقتصادها، وكدست الأحقاد والضغائن فيها، كانت سياسة سيئة إلى أقصى درجة، بسبب فقدان الاعداد الأولي والتنظيم اللاحق لزعيم يحظى بطاعة إجماعية، ولأهداف تكون محددة بدقة. إن الثورة السورية لم تكن تمثل في الواقع إلا ردة فعل غير مدروسة ضد نظام الانتداب،

بمبدئه وتطبيقه، ولم تكن إلا فاصلاً مأساوياً في العلاقات الفرنسية السورية. وإخفاقها النهائي لم يكن موضع شك لدى أي إنسان. لقد كانت معركة أقزام ضد عملاق. وقد عرف **تروتسكي** الثورة بأنها **«لكمة المشلول»**، وكانت فرنسا، في عام ١٩٢٥، على أحسن ما يرام، رغم صعوباتها في المغرب وتقلبات عملتها. إن وضعها العسكري في المشرق، مع كل ما أصابه من عسر، كان بالإمكان ترسيخه بالتعزيزات. وقد استطاعت، بالفعل، في نهاية عدة أشهر، التغلب على بطولة الثوار.

ولكن هذه الحرب قد أسفرت، مع ذلك، عن هذه النتيجة التي لا تنكر، وهي التعجيل في تحقيق التطور السياسي والمعنوي للبلد، وطرح القضية السورية، بكل حدتها، على الرأي العام الفرنسي.

وكانت كذلك قرعة صنج، رهيبة وغير مرتقبة، نبه صداها، الذي ضخمته الصحافة الأجنبية مجاملة، القارة الاوروبية إلى شؤون سوريا. ولم تهمل مستشاريات بعض الدول هذه الشؤون، منذ ذلك التاريخ وحتى الحرب العالمية الثانية التي تحررت في نهايتها سوريا ولبنان واعترف عالميا بسيادة كل منهما. ■

الهوامش

(٥٩) في ١١ تشرين الأول (اكتوبر)، اعلن بيان رسمي ان «بعض الطائرات القت قنابلها على قرى الجنوب، خصوصاً على القرى الخالية من المسيحيين» (هكذا).

(٦٠) استطاع الموظفون الفرنسيون مغادرة المدينة تحت حماية زعيم درزي من المنطقة [البيان الرسمي الصادر في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)].

(٦١) «احتلت قوات زيد الأطرش، التي تقدر بألف ثائر، حاصبيا ولم ترتكب اي فعل ذميم ضد المسيحيين» [صحيفة الف باء، الدمشقية، في ١٢ نوفمبر].

«الثوار لم يهاجموا السكان» [صحيفة الأحرار، البيروتية،نفس التاريخ].

وهذا ما قالته صحيفة الصحافي التائه (زحلة — لبنان) الصادرة في نفس اليوم: «علينا الاعتراف بأن الثوار يتصرفون حسب مناهج منظمة، وبأنهم أظهروا للمسيحيين في حاصبيا الكثير من الرعاية. فقد سمحوا للنساء والأطفال بمغادرة المدينة. وشكلوا حكومة سورية مستقلة، واعلن زعماؤهم بأن أية فتنة لن تفرق بينهم وبين السكان، وبأنهم سيقاومون وحدهم سلطات الانتداب».

وعلى الرغم من هذه الشهادات ومن شهادات كثيرة غيرها، صادرة عن هيئات صحافية، معادية للثوار وخاضعة للرقابة، فقد اعلن بيان فرنسي في الايام التالية: «ان ثوارا ارتكبوا في حاصبيا اعمالا لصوصية دون اللجوء إلى العمليات العسكرية».

(٦٢) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٥١.

(٦٣) البيان المذكور الموجه إلى اللبنانيين.

(٦٤) عندما اعيد احتلال جبل الدروز كافأت سلطات الانتداب حمزة درويش على إذعانه بتعيينه قائمقاما لمدينة صلخد.

(٦٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٥١.

(٦٦) اضطر الثوار إلى مهاجمة هذه البلدة على اثر الأفعال التي قام بها المتطوعون اللبنانيون بقيادة بطرس كرم [صحيفة النهار في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر). راجع استطلاع مبعوثها الخاص إلى المنطقة]. ويبدو ان هذا ما حصل لقرية (جديدة) [بيان زيد الأطرش إلى اللبنانيين].

(٦٧) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٣٥.

(٦٨) هذا الموقف يجب ان يعزى إلى استحالة اعتماد هنانو، الذي تعلم درساًمن تجربة عام ١٩٢١، على الموالي، هذه المجموعة من القبائل البدوية التي تكون القوة المهمة الوحيدة في المنطقة، إلى الشرق من حلب، والتي استسلم شيخاها، الشايش وبرجس بن هديب، لسلطات الانتداب في حلب، في ١٤/١٢/١٩٢٥.

(٦٩) تقرير عام ١٩٢٧، ص ٣٦.

(٧٠) المرجع السابق، ص ٣٦.

(٧١) تقرير عام ١٩٢٦، ص ٧.

(٧٢) تقرير عام ١٩٢٦، ص ٨.

(٧٣) المرجع السابق، ص ٨.

(٧٤) ودائما وفقا للأساليب نفسها: تدمير القرى، والاعدام الفوري للمشبوهين. وهناك وثيقة ذات اهمية خاصة، صادرة عن قائمقام الزبداني، المحب الموثوق لفرنسا، تصف مرور إحدى فرق التطهير هذه بقرية من قرى قضائه، وتقول:

«البارحة، الثلاثاء، في ١٥/٢/١٩٢٦، حوالي العاشرة صباحا، كنت والموظفين وسكان المنطقة شهودا لمنظر مؤثر ترتعد من هوله الفرائص:

«قرية مسكينة... لم يصدر عنها يوما ما يعكر صفو الأمن العام، قد هدمت على رؤوس قاطنيها من النساء والأطفال والشيوخ، تحت نيران مدفع منقول من رياق. واستمر القصف الذي كان يوجهه القائد الفرنسي من قطاع الزبداني حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. أما القرية فهي مضايا...

«... عندما قابلت القائد الفرنسي سألته عن نوع الجرم الذي اقترفته هذه القرية حتى تستحق مثل هذا العقاب، فأجابني بأنها آوت جماعة جمعة (Jama Sausok).

«لقد تسللت ليلا إحدى الجماعات المسلحة إلى قرية عزلاء، وكانت مفرزة فرنسية على مسافة خمسة كيلومترات. ودخلت الجماعة القرية وبثت الرعب في نفوس قاطنيها، وأساءت معاملتهم، ولم توفر المختار علي محرز الذي أصابته البارحة شظية قذيفة فشطرته قطعتين... ونهبت مؤنهم... وبقيت في القرية أكثر من ٤٨ ساعة، على مرأى منا ومن القائد الفرنسي نفسه. ووجه السكان إلينا رسلاً لابلاغنا ما حدث وطلب النجدة.

«وتوسلت إلى القائد الفرنسي، بالحاح، وبكل قواي، كي يطلب إرسال طائرة... أو يذهب بنفسه... وكان الجواب الوحيد الذي وجهه إلي هو: «ليس من مهامي المحافظة على هذه القرية أو تلك. ليس لي من مهمة إلا حراسة الخط الحديدي أو المحطات... وما على الجماعة المسلحة إلا أن تحاول الاقتراب مني».

«وخلال أيام أربعة بعد هذه الأحداث كان سكان مضايا يفدون إلي بحالة يرثى لها ويتقدمون بشكاوى حول ما تعرضت له قريتهم. وخلال هذه الأيام الأربعة بذلت جهداً لاقناع القائد الفرنسي بأن سكان القرية لا يمكن اعتبارهم مسؤولين عن مرور الجماعة بقريتهم.

«... وبدا لي أن القائد كان موافقاً على ما عرضته عليه وأنه كان يشاطرني العواطف حول هذا الموضوع. وقد اقتنعت بذلك إلى درجة انني رحت أهدىء من ورع السكان مؤكداً لهم انه لم يعد لدى المقاطعة ما تخشاه.

«ولكن البارحة صباحا وقعت المأساة. إن قرية مسكينة قد قصفت دون أي إخطار، لا من جانب الحكومة التي كانت تجهل كل شيء، ولا من جانب الفرنسيين. وهلك النساء والأطفال والشيوخ بالجملة

«وإزاء عمل كهذا... أعتبر، بصفتي رئيسا لهذه المقاطعة، أن واجبي المقدس يملي علىّ أن احتج على ما حدث.

«وبناء على ذلك، فإني اتوسل إليك (يا وزير الداخلية) بأن تتكرم بقبول استقالتي من الوظيفة في الدولة السورية التي ضحيت، من أجل خدمتها، بمنصبي في وزارة الخارجية في باريس...».

في ١٦/٢/١٩٢٦

الامضاء: نسيب مسلم الخياط

ومضايا ليست القرية الوحيدة التي تعرضت لهذا المصير الوحشي، فقد اعد السوريون لائحة بالقرى التي دمرت.

(٧٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٣٤.

(٧٦) هناك تفاصيل مؤلمة نجدها ــ كما نجد ذلك في كل التقارير التي سبق لنا ذكرها ــ في الملاحظات المخطوطة الواردة في محاضرة القاها السيد نحاس الذي كان، في الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث، مدير التجارة والصناعة في دولة سوريا.

(٧٧) «ان الفرق العسكرية الفرنسية، من كل سلاح، تحيي، وهي منتصرة، بسالة اخصامها التي جعلتهم يندفعون، دون أي تخاذل، إلى الموت تحت نيران مدفعيتنا ورشاشاتنا وبنادقنا... وبلغت خسائر الفرق الفرنسية خلال يومي المعركة (٢٤ و ٢٥/٤/١٩٢٦) ٨٤ قتيلا، في حين أن عدد الجثث الدرزية التي بقيت فوق أرض المعركة قد حددته بعض الساحات، بين غارية والسويداء، التي كانت كليا مغطاة بالخيول والفرسان... وإذا كانت هيئة الأركان الفرنسية قد قدرت عدد القتلى من الدروز المساكين، الذين تركوا فوق أرض المعركة او حملوا من قبل رفاقهم، بحوالى الألف على الأقل، فإن هذا الرقم هو بالتأكيد أدنى من الرقم الحقيقي».

[بيان رسمي صادر في ٤/٥/١٩٢٦].

(٧٨) لقد تسبب نزع السلاح، كما حدث في كل مكان تم فيه، في نشوء تجارة تهريب مثيرة، وهذا ما جعل البطريرك الماروني يقول، متوجها إلى السيد ريفي (de Reffye) الأمين العام للمفوضية السامية: «لماذا تفرضون على قرية ما غرامة من عشر بنادق؟ وإذا لم يكن لدى هذه القرية عشر بنادق، فلماذا يكره القرويون المساكين على شرائها من مكان آخر؟ إن البنادق غير متوافرة، فلماذا تلزمونهم بالحصول عليها من تجار السلاح الذين تحرصون على الارشاد إليهم سلفا؟». لقد أنشىء هذا النظام منذ بداية الانتداب، ولكنه بلغ خلال الثورة درجة فاضحة من الانتشار.

(٧٩) تقرير عام ١٩٢٧، ص ١٠.

(٨٠) لقد حصل آخر لقاء من هذا النوع في الجبال المتاخمة لدمشق، في منطقة (بصّيما ــ Bassima) وقد سحقت الجماعة السورية المسلحة (وكانت مكونة من ١٣٠ رجلا) بسبب التفاوت في العدد (مقابل ١٢٠٠ جندي). ولقي الأمير عز الدين الجزائري، من عائلة عبد القادر، مصرعه في المعركة (في ٧/٥/١٩٢٧) بعد إنجازه اعمالاً بطولية خارقة. وكان قد ناضل بلا انقطاع في صفوف الثورة منذ عام ١٩٢٥.

(٨١) لقد عاشوا شهورا طويلة تحت خيمهم المصنوعة من الوبر، مبعثرين فوق أرض الملك ابن سعود، بعد أن حصد الفقر والمناخ والعزلة أرواح معظمهم. وعادوا إلى «الجبل» بعد إذعانهم.

في يوم القادسية (*)

كان أبو محجن الثقفي[1] من المعاقرين للخمر، المحدودين في شربها، أقام عليه عمر بن الخطاب الحد مراراً، وهو لا ينتهي؛ فنفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه حرسياً، فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص، وهو في حربه مع الفرس وكانت حرب القادسية.

ولما بلغ عمر كتب الى سعد بحبسه، فحبسه في القصر، وتطلع أبو محجن إلى الحرب، فرآها مشتعلة، فذهب الى سلمى بنت ابي حفص ــ زوج سعد، فقال لها: هل لك في خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعيرينني البلقاء[3]؛ فلله علي إن سلمني الله أن ارجع إليك حتى تضعي رجلي في قيدي؛ فقالت: وما أنا وذاك؟ فرجع يرسف في قيوده، ويقول:

كفى حزناً ان تردي الخيل بالقنا
واترك مشدوداً علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت
مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة
فقد تركوني واحدا لا اخا ليا
وقد شف جسمي انني كل شارق[4]
اعالج كبلاً[5] مصمتاً قد برانيا
فلله دري يوم اترك موثقاً
وتذهل عني اسرتي ورجاليا!
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت
وإعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا اخيس[6] بعهده
لئن فرجت الا ازور الحوانيا[7]

* * *

فقالت له سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، وأطلقته.

فاقتاد ابو محجن الفرس، واخرجها ثم ركبها، ودب عليها، وفي ذلك اليوم اظهر من شجاعته عجبا. ولما تحاجز اهل العسكرين اقبل ابو محجن حتى دخل القصر، ووضع نفسه عن الدابة، واعاد رجليه في القيد وقال:

لقد علمت ثقيف غير فخر
بأنا نحن اكرمهم سيوفا
واكثرهم دروعا سابغات
واصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن احبس فقد عرفوا بلائي
وإن اطلق أجرعهم حتوفا

فقالت له سلمى: يا أبا محجن، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ فقال: أما والله ما حبسني بحرام اكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية؛ وأنا امرؤ شاعر، يدب الشعر على لساني، فينفثه أحيانا، فحبسني لاني قلت:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة
تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة[8] فإنني
اخاف إذا ما مت الا اذوقها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر ابي محجن، فدعا به وأطلقه، وقال: اذهب فما انا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، فقال: والله لا اجبت لساني إلى قبيح ابداً.

(*) مهذب الاغاني: ٢ ــ ٤٨، الخزانة: ٣ ــ ٥٥٢، الاغاني: ٢٠ ــ ١٣٨، الكامل لابن الاثير: ٢ ــ ٣٣٢، المسعودي: ١ ــ ٤٢٣.

(١) ابو محجن اسمه وكنيته على المشهور، أسلم سنة ٩هـ، وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه، وكان جواداً كريما من الفرسان المشهورين في الجاهلية والاسلام. مات سنة ٣٠هـ.

(٢) الحرسي: واحد حرس السلطان.

(٣) البلقاء: فرس سعد بن ابي وقاص.

(٤) اصل الشارق: اليوم الذي فيه الشمس، والمراد كل يوم.

(٥) الكبل: القيد.

(٦) خاس بالعهد: غدر ونكث.

(٧) الحانية: الدكان، وهو يريد امكنة بيع الخمر.

(٨) الفلاة: الارض المهلكة.

● قال تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراه والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم».

(صدق الله العظيم)



مخطوط «تاريخ الملك الأشرف قايتباي» وغزوات المماليك إلى قبرص

د. عمر عبد السلام تدمري

يرتبط تاريخ جزيرة قبرص في العصر الاسلامي إلى حد بعيد بتاريخ دول الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط عموما، وببلاد الشام ومصر خصوصا، وقد تميز هذا الارتباط بالاحتكاك الحربي من وقت لآخر، حيث بدأت بواكيره مع أول غزوة إسلامية إلى الجزيرة في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، قادها معاوية بن أبي سفيان حوالي سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩ م. ومنذ ذلك التاريخ سجلت المصادر والمراجع صفحات مليئة بوقائع العلائق السياسية والاقتصادية والعسكرية بين المسلمين وأهل الجزيرة، وتأرجحت تلك العلائق بين معاهدات ودّية، وحروب عدائية متبادلة.

وفي دراستنا هذه نعرض لنص تاريخي في كتاب مخطوط بعنوان **«تاريخ الملك الأشرف قايتباي»** لمؤرخ مجهول، يرجح أنه «جلال الدين السيوطي» المتوفي سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م. يتحدث عن غزوة المماليك إلى الجزيرة وفتحها في عهد الملك الأشرف «برسباي»، وتقوم بتحقيق الفاظه ومصطلحاته، والمخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٨٥٥٤ ح)، واستغرقت أخبار فتح الجزيرة من الصفحة (٥٠ ب) ـــ (٥٦ ب).

وقبل الشروع في عرض النصّ، تجدر الاشارة إلى أن ملك قبرص «بطرس دي لوزنيان بن هيو الرابع» قام بغزوتين كبيرتين إلى سواحل مصر والشام، استهدفت الأولى مدينة الاسكندرية في أوائل سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م. والثانية مدينة طرابلس الشام في أول سنة ٧٦٩هـ/٢٧ أيلول ١٣٦٧م[١]. ثم تعرّضت مدينة صيدا لغارة في شهر ذي القعدة سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م[٢]. وتعرّضت الاسكندرية في الشهر التالي (ذي الحجة) لغارة مماثلة[٣]. ولما كانت تلك الغارات لم تحقق أي نصر عسكري على المسلمين، فإنها ـــ على الأقل ـــ تسببت في زعزعة حركة التجارة البحرية بين دولة المماليك وبعض البلاد الأوروبية، وكان هذا داعيا لموافقة سلطان مصر على توقيع عقد الصلح مع القبارصة، وتم ذلك في سنة ٧٧٢هـ/ تشرين الأول ١٣٧٠م[٤]. بعد مقتل «بطرس» ملك قبرص، واستلام «بطرس الثاني» حكم الجزيرة من بعده.

ورغم توقيع عقد الصلح، فإن القبارصة لم يحترموا شروط الصلح احتراما كليا، إذ كانت موانىء قبرص تتخذ ملجأ لسفن الجنوية عندما كانوا يغيرون على سواحل الشام ومصر. كما أن القبارصة انفسهم كانوا يشاركون الكتلان والجنوية في غاراتهم منذ أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بل إن ملك قبرص الجديد قام بنفسه بغارة مع الكتلان في سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م[٥]. وتوالت غاراتهم بعد ذلك، مما دفع بالمماليك إلى الاغارة على الجزيرة في عامي ٨١٣ و ٨١٤هـ/ ١٤١٠ و ١٤١١م. ولكن القبارصة عادوا وأغاروا على ساحل الشام جنوبي بيروت في سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م[٦].

وعندما عزم السلطان المؤيد «شيخ المحمودي» (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٢ ـ ١٤٢١م) على غزو الجزيرة سارع ملكها إلى عرض الصلح، فأجابه «المؤيد» إلى ذلك، شرط أن يتعهد بالامتناع عن إيواء القراصنة في موانىء الجزيرة، وألا يسمح بالقيام بأي عمل من اعمال القرصنة ضد سواحل الشام، وأن يتعهد بألا يقدم الزاد أو المأوى للقراصنة في حالة إذا ما لجأوا إلى موانىء جزيرته، وأن يمتنع رعاياه من القبارصة عن شراء البضائع من القراصنة. وتم الاتفاق على فداء ثلاثمائة وخمسة وعشرين أسيرا من المسلمين كانوا في الجزيرة، وانعقد الصلح في ١٤ تشرين الثاني ١٤١٤م (٨١٧هـ)[٧].

ورغم انعقاد الصلح هذا، فإن القبارصة عادوا إلى سياستهم العدوانية في العام التالي، مما حدا بالسلطان «المؤيد» أن يطبق مبدأ المسؤولية الجماعية ضد جميع تجار الفرنج وقناصلهم في الاسكندرية ودمشق[٨]. وإذ كان البنادقة حريصين على مصالحهم التجارية وعلاقتهم مع المماليك، فقد سارعوا بإرسال سفير يحمل هدية للسلطان، مع كتاب ينفي أية علاقة لهم بأعمال القرصنة التي يقوم بها الفرنج، فقبل «المؤيد» هديته، وعقد مع البنادقة معاهدة مؤرخة في ١٧ أيلول ١٤١٥م (٨١٨هـ)[٩].

واستمر القبارصة في غاراتهم على ساحل مصر والشام حتى استقر الحكم في دولة المماليك للسلطان «الأشرف برسباي» في سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م. وفي عهده فتحت صفحة جديدة من صفحات الحروب بين المسلمين والقبارصة، وامتازت هذه الصفحات بأن المسلمين أخذوا زمام المبادأة وراحوا يكيلون الضربات للقبارصة في عقر دارهم بعد أن كانوا في موقف الدفاع خلال نصف قرن سبق.

ولقد واجه «الأشرف برسباي» بعد أيام قليلة من توليه مقاليد السلطنة، وبالتحديد في شهر شعبان ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م. غارة واسعة للقبارصة والكتلان شملت ساحل مصر، وبرقة، والشام، وسمح لهم عدم استعداد المماليك من الناحية البحرية بنجاح غارتهم على الاسكندرية. ويشير إلى ذلك المؤرخ «المقريزي» في روايته، حيث يقول: «وهجم في الليل غرابان فيهما طائفة من الفرنج على ميناء الاسكندرية، فوجدوا فيها مركبا للتجار فيه بضائع بنحو مائة ألف دينار، فاقتتلوا معهم عامة الليل، فخرج الناس من المدينة فلم يقدروا على الوصول إليهم لعدم وجود المراكب الحربية عندهم، ولا وصلت سهامهم إلى الفرنج بل كانت تسقط في البحر»[١٠]. وبعد أن أحرقوا المركب التجاري بكل ما فيه من بضائع، توجهوا نحو ساحل برقة، فاستولوا على البضائع والأموال وعادوا إلى الاسكندرية، ومنها ساروا إلى ساحل الشام فأغاروا على بيروت، ثم عادوا إلى قبرص بعد أن أصابوا كثيرا من البضائع والأموال، ووقع في قبضتهم عدد كبير من التجار والأهالي المسلمين[١١].

وجاءت هذه الغارة لتضع الانتقام من القبارصة والكتلان في أولى اهتمامات «الأشرف برسباي». وكان من الطبيعي أن يتخذ اجراءات انتقامية ضد الفرنج، فنقض الاتفاقية التي كانت قائمة بينه وبين البنادقة، وانقطعت العلاقة بينه وبين الكتلان الذين أرسلوا سفارة لهم قبل فترة إلى مصر[١٢]، بينما أخذ يعد العدة لغزو قبرص. وسبق ذلك قيام القبارصة والكتلان بغارة على نواحي دمياط في شهر رجب ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م. استولوا فيها على مركبين تجاريين فيهما بضائع كثيرة وما يزيد عن مائة رجل[١٣]. وفي رد انتقامي أمر الأشرف «برسباي» بايقاع الحوطة على أموال التجار التي في بلاد الشام والاسكندرية ودمياط، والختم عليها ومنعهم من السفر[١٤]. وبدأت السفن الحربية المصرية



□ المتحف الوطني في قبرص ويحتوي على بعض المخطوطات الاسلامية.

تتحرك للتصدي للفرنج...

ومن هنا يمكن البدء باثبات النص التاريخي حول غزوات المماليك لقبرص كما جاء في:

«تاريخ الملك الأشرف قايتباي»

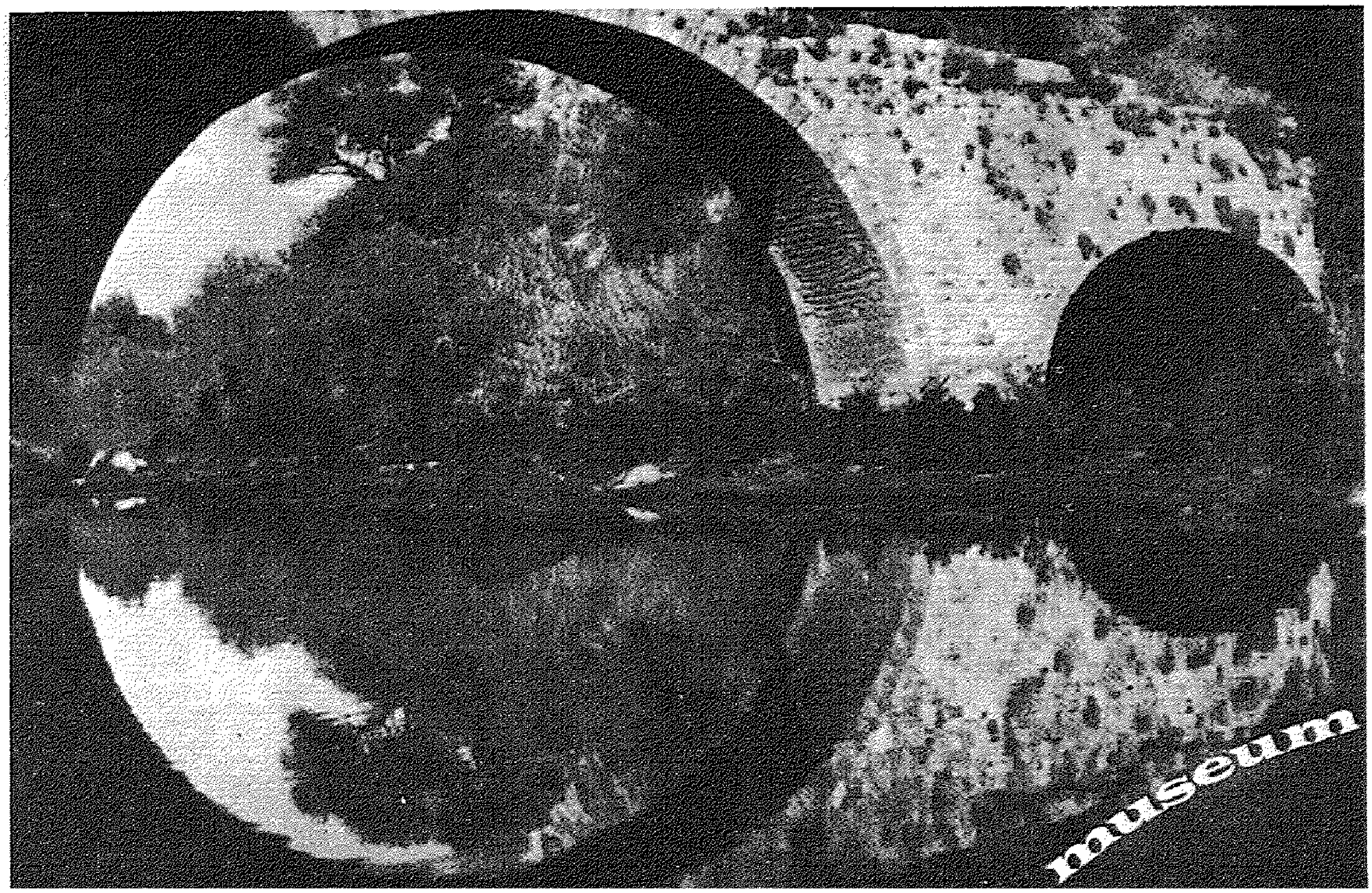
/ ٥٠ ب /

«.. في سنة سبع وعشرين وثمانماية جهز الملك الأشرف إلى الغزاة في سبيل الله لقتال الفرنج، من البلاد المصرية، مركبين، وخرج لهم من بيروت مركب، ومن صيدا مركب، فاجتمعوا وعدتهم ستماية مقاتل وثلاثماية فرس، ونازلوا جزيرة الماغوصة[١٥] فانتهبوها واحرقوا ما بها من القرى وما بساحلها من المراكب، وقدموا سالمين غانمين، وفرح الناس لذلك. وكان رجوعهم في شهر شوال منها، فقدموا إلى القاهرة في العشرين من ذي القعدة، وكان معهم من الأسرى ألف نفس وسبعمائة نفس.

ثم في سنة ثمان وعشرين وثمانماية، لما رجع العسكر من الغنيمة والأسرى عند توجههم في سنة.

/ ٥١ أ /

سبع وعشرين وثمانماية، أمر السلطان الأشرف بتجهيز الأغربة[١٦] والاستكثار منها لغزوة قبرص، وهي الغزوة الأولى لها، وجد الملك الأشرف في ذلك، وأرسل إلى طرابلس[١٧] والاسكندرية، ودمياط، وبيروت، وأمر بتركيز الجند في السواحل حفظاً لها من تعدي الفرنج عليها، فاتفق أن «جانوس»[١٨] صاحب قبرص جهز غرابين وسلورة[١٩] وشحنها بالرجال والعدد، وأمرهم بتتبع السواحل ونهب ما استطاعوا، وإفساد ما قدروا عليه، فلم يبلغوا من ذلك غرضا لحفظها بالجند. واتفق أنهم احتاجوا إلى الماء، فانتهوا إلى مكان يقال له «نهر الكلب»[٢٠]، فلما رآهم الحرس كمنوا لهم،



□ ملك قبرص، جانوس، حاول غزو منطقة نهر الكلب لقطع التجارة البحرية بين العرب واوروبا.

فلم يروا أحداً، فدخلت السلورة النهر، وهو ضيق، فخرج عليهم الكمين، فأحرقوها وأسروا من فيها، ورجع من في الغرابين إلى قبرص.

ولما تكاملت العمارة، جهز الملك الأشرف الجند، وتوجه صحبهم من المقاتلين تطوعا عدد كثير. وركب السلطان الأشرف إلى الساحل.

/٥١ ب/

فعرض الجميع وسافر إلى دمياط، وكان باشهم[٢١] الأمير «جرباش قاشق»[٢٢].

وكان «جانوس» صاحب قبرص جهز أميرا من أمرائه يقال له «باله»[٢٣] في تسعة أغربة، فوقف على فوهة دمياط يمنع أغربة المسلمين من الدخول في البحر الملح، فوقف هناك، فصادف مجيء العمارة[٢٤] من الاسكندرية، فقصدوهم، فانهزموا منهم بغير قتال. وسافر الجميع من فم دمياط إلى طرابلس، فانضم إليها المراكب المتجهزة منها ومن بيروت، واجتمع فيها من الأمراء والجند والمتطوعين بالقتال ومن العشير[٢٥] والزعر[٢٦] عدد كبير. ثم أرسل الأمير «جرباش» كبير عسكر المسلمين [إلى] «جانوس» صاحب قبرص في الدخول في الطاعة، فامتنع، فسافروا إلى جهته، فوصلوا إلى الماغوصة، فطلع الخيالة وأكثر المشاة، وضربوا خيامهم بالبر، فحضر رسول من صاحب الماغوصة ومعه ضيافة وقال إنه في الطاعة. وكان ذلك في رمضان. وأوقع الله الرعب في الذِينَ كَفَرُوا[٢٧]، حتى كان الثلاثة من المسلمين يدخلون.

/٥٢ ب/

الضيعة وفيها ما بين المـاية والخمسين، فلا يمتنع عليهم أحد.

ثم صادفهم أخو «جانوس» صاحب قبرص في ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، غير الكمناء. ثم إنه قذف الله في قلبه الرعب فرجع بمن معه.

ولما تمت لهم في «الماغوصة» أربعة أيام وقد أوسعوها نهبا وأسرا، قصدوا «الملاحة»[٢٨] وأحرقوا ما مروا عليه إلى مكان يقال له رأس العجوز[٢٩]، فوجدوا هناك أميرا فأسروا من معه وقتلوه، ثم صادفوا تسعة أغربة وقرقورة[٣٠] مشحونة مقاتلين، فلاقاهم المسلمون، فانكسر للنصارى غراب وزورق، وهرب من فيهما إلى البر، فأسرهم المسلمون.

وكان من تدبير صاحب قبرص أنه أرسل أخاه في الجبال، وأرسل المقاتلين في البحر، ووصل عسكر المسلمين إلى «الملاحة» وضربوا خيامهم بها، وشنوا بها الغارة في الضياع، وقتلوا الذي كان أميرا على «الملاحة»، ويقال إنه كان شديدا على أسرى المسلمين.

/٥٢ ب/

ويقال إنه كان اسمه «عين الغزال»[٣١]، وكان «جانوس» أمده بأربعة أحمال زردخاناه[٣٢] على عجل، فأحاط بها المسلمون، ثم جمعوا الغنائم والأسرى ورجعوا إلى المراكب إلى أن وصلوا إلى «اللمسون»[٣٣] فحاصروا الحصن الذي هناك، فأخذوه عنوة أي قهرا، وملؤا أيديهم من الغنائم والأسرى، وأحرقوا الحصن، وكان ذلك في يوم الخميس مستهل شهر شوال. وجهز الأمير «جرباش» مبشرا بالفتح.

ويقال إن جملة من قتل في مدة نصف شهر من الفرنج خمسة آلاف، ولم يقتل من المسلمين في هذه الغزوة إلا ثلاثة عشر نفسا. وكان طلوعهم إلى القلعة[٣٤] بالأسرى والغنائم يوما مشهودا، وكان بقية شوال منها.

ثم في سنة تسع وعشرين وثمانماية بلغ السلطان الملك الأشرف أن «جانوس» صاحب قبرص راسل ملوك الفرنج يستنصر بهم على المصريين المسلمين، ويشكو ما جرى على بلاده، فأرسل كل منهم له نجدة، وأرسل ملك الكيتلان[٣٥] ابن أخيه بمراكب وفرسان.

وجدَّ «جانوس» صاحب.

/٥٣ أ/

قبرص في عمارة المراكب والقراقير وغيرها على قصد الاسكندرية تشبها بأبيه، فإن والده كان طرق الاسكندرية في أواخر سنة ست وستين وسبعماية في أيام الأشرف «شعبان بن حسن»[٣٦] ودخلها عنوة في آخر المحرم وأوائل شهر صفر سنة سبع وستين وسبعماية، وانتهبها وأسر منها خلايق. والقصة مشهورة. فأمر السلطان الأشرف، لما بلغه ذلك، بعمارة الأغربة والحمالات، وجد في ذلك، وبذل الأموال. فلما تكاملت العمارة انحدرت إلى «فوه»[٣٧]، ويقال إنه بلغت عدة العمارة ماية قطعة وزيادة. وندب «أينال الجكمي» و«تغري بردي المحمودي»[٣٨] وغيرهما من الأمراء الكبار والصغار للغزاة، وأن يكون «أينال الجكمي» على من في البحر، و «تغري بردي» على من في البر، وأن لا يعارض أحدهما الآخر. وكان معهم من الأمراء «قرا مراد خجا الشعباني» و «يشبك الشاد» و «أينال العلائي الأجرود» وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدة طويلة[٣٩]، و «سودون اللكاش» و «جانم المحمدي»، وغيرهم.

/٥٣ ب/

وتلاقت المراكب من الاسكندرية مع المراكب المصرية بثغر «رشيد» في شهر رجب، فاتفق أن الريح هاجت في بعض الليالي فكسرت أربع حمالات، ومات فيها ماية فرس وتسعة أنفس. وبلغ السلطان الأشرف ذلك، فتطير جماعة من الأمراء، وثبت السلطان ولم يتطير. وقال له كاتب السر، وهو حين ذاك المرحوم القاضي «بدر الدين ابن مزهر»[٤٠] ــ تغمده الله برحمته: يا مولانا السلطان، ما كان أوله كسر آخره جبر.

ولما بلغ قراقر الاسكندرية ما جرى على الحمالات، راجع أميرهم إلى الاسكندرية فأقام بها يحث العساكر.

فلما كان مستهل شهر شعبان، هجم عليهم غراب وقرقورتان مملوءة[٤١] من المقاتلين، جهزهم صاحب قبرص ليأخذوا من يجدونه بساحل الاسكندرية لعلمه بسير القراقير الخمس إلى جهته، بإعلام من البلد من الفرنج له، فدخلوا وهم يظنون أن الخمس قراقر بـ «رشيد»، فواجهوهم، فأرشقوهم رميا بالنشاب إلى أن هزموهم.

/٥٤ أ/

فاتفقوا أنهم خرجوا مقلعين، فوافاهم أغربة أرسلها إليهم من بثغر «رشيد» من الجند[٤٢]. فلم تزل الجند والمراكب توافيهم من كل جهة إلى الرابع والعشرين من شهر شعبان. فساروا مقلعين حتى وصلوا إلى «اللمسون» فوجدوا الحصن الذي كانوا أخربوه قد عمر وشحن بالمقاتلين، فأحاطوا به في السابع والعشرين. وصعد «يشبك قرمش» وهو من الفرسان المعدودين ومن معه على سلم من خشب، ومعهم خلق كثير، فهرب الفرنج الذين في الحصن بعد أن كانوا أوقدوا قدور الزفت تغلي نارا ليصبوها على

من يصعد إليهم من المسلمين، فهزمهم الله تعالى، وملكوا البرج الأول، وأحاط بعض المسلمين بالأقلسية، وهي قرية خارجة عن حكم «جانوس» صاحب قبرص، نظير «الماغوصة» وهي من البنادقة، فطلبوا من المسلمين الأمان، فأمنوهم، فحملوا إليهم الهدايا والضيافات، فسألوهم عن «جانوس» ملك قبرص، فقالوا إنه مستعد في خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف.

/ ٥٤ ب/

راجل، فراسلوه أن يدخل تحت الطاعة ليؤمنوه على نفسه وجنده وبلده وإلا قاتلوه وخربوا قصره وأسروه وقتلوه. فلما بلغته الرسالة اخذته حمية الجاهلية، فقتل الرسول وأحرقه. فبلغ المسلمين الخبر في مستهل رمضان[٤٣]، فاقتسموا قسمين، النصف مع «تغري بردي المحمودي» في البر، والنصف مع «اينال الجكمي» في البحر، فلم يزل أهل البر سائرين حتى وصلوا موضع الكنيسة، فوجدوها خرابا والبئر التي بها قد هدم، فحفروا حوله فظهر الماء، فشربوا، بعد أن كانوا عطشوا، ثم ساروا في جبال وتلال وهم صوام والحر شديد، فنزل المقاتلون في ظل الشجر، وإذا بصارخ يصرخ: جاءكم العدو، فثاروا وركبوا، وحصلت زحمة عظيمة.

وكان «جانوس» لما قتل الرسول ركب في عساكره بعد عرضهم، وجهز قراقيره في البحر للاحاطة بمن في البحر، فلما تراءى الجمعان انحاز إلى بساتين هناك، وجعل بينه وبين المسلمين نهرا، وتقدمه نحو:

/ ٥٥ أ/

.. الخمسمائة من المقاتلين الفرنج، فبرز لهم من المسلمين خمسة: «تغري بردي الخزندار المؤيدي» و «قطلبغا المصارع» و «علان» وآخران اثنان. فلحق بهم «ابن القاق» مقدم جيش الشام، فنادوا: يا وجوه العرب، ويا آل جركس، إن أبواب الجنان فتحت، إن متم كنتم شهداء، وإن عشتم عشتم سعداء، بيضوا وجوهكم وأخلصوا لله العمل. فحملوا حملة واحدة، فنصرهم الله. وقاتل «قطلبغا» قتالا عظيما وفتر جواده، فقام عنه وقاتل راجلا إلى أن قُتل، رحمه الله. فلما رأى «جانوس» صاحب قبرص أن عسكره في إدبار وقد استظهر عليهم أهل الاسلام ركب إلى الهرب.

ثم إن عسكره خالفوه وحملوا، فصبر لهم المسلمون، واشتد الأمر. فاتفق أن «جانوس» صاحب قبرص وقع عن فرسه، فنزل أصحابه واركبوه غيره، فوقع ثانيا، فنزلوا فأركبوه ثانيا، فكبى به الفرس، فدهشوا وذهلوا عنه، فانكسر عسكره وولوا الأدبار، فرآه بعض الترك، فأراد قتله، فصاح: أنا الملك.

/ ٥٥ ب/

فأسروه. واستمر المسلمون خلف الفرنج فأوسعوهم قتلا، فلم يزالوا كذلك إلى أن غربت الشمس.

وقيل إن جملة من قتل منهم في ذلك اليوم ستة آلاف، ثم رجع المسلمون فنزلوا على الماء وباتوا على أهبة، فلما أصبحوا توجه الأمير «يشبك الشاد» ومن معه إلى جبل الصليب فخربه وما حوله من الديارات، وأحضروا الصليب الذي كان به، وكانوا يعظمونه، حتى سموه صليب الصلبان.

ثم صار «تغري بردي المحمودي» بالعساكر إلى جهة «الملاحة»، وتوجه بعض العسكر إلى من بالمراكب فأعلموهم بما وقع من المسلمين، وأن صاحب قبرص مقيد، وأن أخاه قتل، وأن ابن اخي صاحب الكيتلان الذي جاء نجدة له مقيد.

ثم وصل العسكر، وكان ثاني رمضان، فلما كان يوم الخميس خامسه ساروا إلى «الأفقسية»[٤٤] وهي كرسي المملكة، فلما رأى الفرنج الذين في القراقر [ذلك] خلوا البحر من الجند حطموا على مراكب المسلمين، فأمر «أينال الجكمي» من معه بمدافعتهم، وأرسل إلى «تغري بردي المحمودي».

/ ٥٦ أ/

يعلمه، فأعاد عليه أكثر العسكر، وتأخر معه طائفة. فلما رجعوا وجدوهم في وسط القتال، فأعلنوا بالتكبير، فأجابهم من في البحر، وبادروا إلى طلوع المراكب، وشنوا الغارة على مراكب الفرنج، فاشتد القتال إلى أن دخل الليل، فحجز بينهم. فلما طلع الفجر بعدت مراكب الفرنج عن المسلمين، فلما هربوا تفطن «أينال الجكمي». فلم يجد الريح يساعدهم، فتتبعهم «إياس

□ حضارة قبرص ترجع إلى آلاف السنين تمثال منّ البرونز من القرن الثاني عشر قبل المسيح.





□ تكية هالا سلطان في قبرص.

الجلالي» فقطع مركبا، ووقع القتال بينهم. وكان بالمركب ثلاثمائة مقاتل، غير الاتباع، فرمى عليهم بالسهام الخطائية[45] حتى ما بقي أحد منهم يجسر يخرج رأسه، فطلع المسلمون وملكوها وقتلوا أكثر من بها. واستمرت بقية مراكب الفرنج هاربة في البحر حتى غابوا عن الأعين، (وكفى الله المُؤْمِنِينَ القِتَالَ[46]) بهزيمة من في البحر من الفرنج.

وكان السبب لثباتهم في القتال [أنهم] لم يعلموا أن ملكهم أسر، وأن عسكره انهزم.

واستمر «تغري بردي المحمودي» حتى دخل المدينة هو ومن معه بغير قتال، وتلقاهم أكابر البلد ومن بها من القسيسين.
/٥٧/
والرهبان، وذلك يوم الجمعة خامس شهر رمضان، فخشي من مع «تغري بردي المحمودي» على أنفسهم لقلتهم، فشجعهم «المحمودي». ثم دخل القصر فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، فأقاموا بها صلاة الجمعة، وأذنوا على صوامع الكنائس.

ثم خرجوا يوم السبت معهم الغنائم الكثيرة والأسراء، فلما وصلوا إلى المراكب اجتمعوا وحصروا عدد الأسرى فكانوا ثلاثة آلاف وسبعمائة نفس. واختلف رأيهم في الاقامة والمطالعة بما وقع من الفتح، وانتظار وصول الرسول بالجواب، أو التوجه بالأسرى والغنائم والعود إذا أراد السلطان مرة أخرى لاستئصال بقية الفرنج والاستيلاء على بقية الغنائم، فغلب الرأي الثاني...». (انتهى).

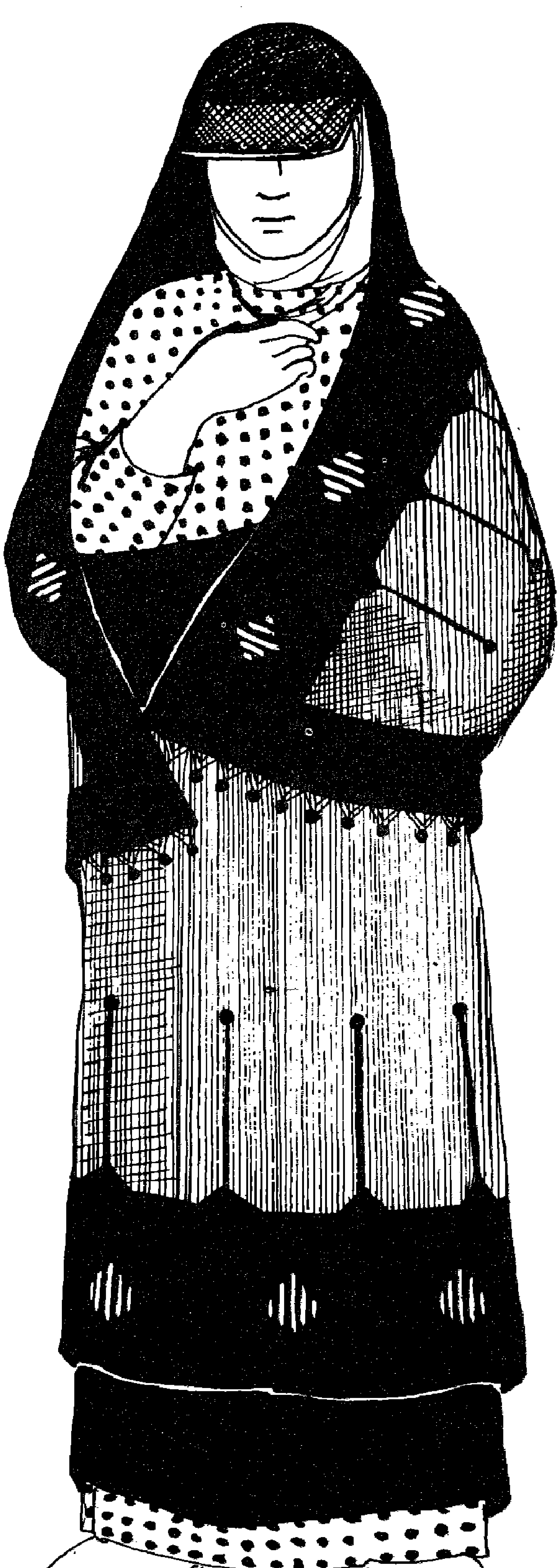
* * *

وهكذا سقطت جزيرة قبرص بيد المسلمين من جديد ربعد نحو تسعمائة عام من فتح العرب المسلمين لها في أول مرة. ■

الحواشي

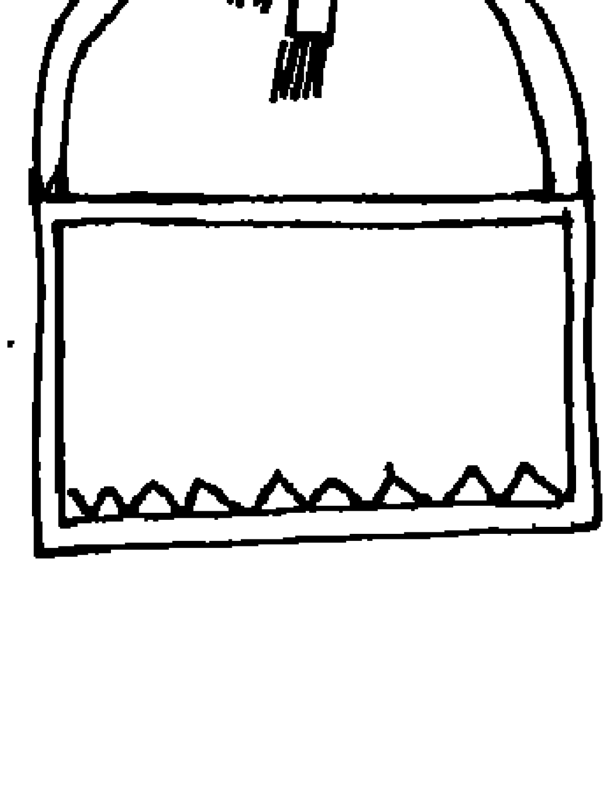
(١) راجع تفاصيل هاتين الغزوتين في مخطوط (الالمام بالاعلام، فيما جرت به الاحكام، والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية) لمحمد بن قاسم بن محمد النويري المالقي الاسكندراني، من رجال القرن الثامن الهجري، نسخة بخط محمود حمدي، في دار الكتب المصرية، رقمها ٤١٩٣ تاريخ، في جزءين.
وقد نشرنا تفاصيل الغزوة إلى طرابلس كاملة في ملاحق كتابنا (تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر دولة المماليك، الجزء الثاني)، انظر الملحق رقم (٤٥)، ص ٥٩٣ ــ ٦١١، نشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، ج ٢، ق ١/١٧٣.
(٣) السلوك...، ج ٢، ق ١/١٧٥.
(٤) السلوك...، ج ٢، ق ١/١٨٩.
(٥) المماليك والفرنج، د. أحمد درّاج، ص ٢٢، القاهرة ١٩٦١.
(٦) المماليك والفرنج، ص ٢٢ و ٢٣.
(٧) المماليك والفرنج، ص ٢٤.
(٨) السلوك، ج ٤، ق ١/٣٢٥، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
(٩) السلوك، ج ٤، ق ٢/٦١٧.

(١٠) السلوك، ج ٤، ق ٢/٦١٧.
(١١) المماليك والفرنج، ص ٣٢، Histoire du Liban, Nantet, p. 76
(١٢) إنباء الغمر في أنباء العمر، ابن حجر العسقلاني، تحقيق د. حسن حبشي، ج ٣/٢٧٠.
(١٣) السلوك، ج ٤، ق ٢/٦٦٥، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤/٢٦١، العصر المماليكي في مصر والشام، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٦٥.
(١٤) السلوك، ج ٤، ق ٢/٦٦٥ و ٦٦٦، النجوم ١٤/٢٦٦.
(١٥) هو تعريب لاسم ميناء «فماغوستا» المعروف الآن شرقي الجزيرة.
(١٦) الأغربة: جمع غراب، وتجمع على غربان أيضا. وهو نوع من المراكب سمي بهذا الاسم لأن مقدمه يشبه رأس الغراب أو الطائر ويمثل في الماء الطير في الهواء (البحرية في مصر الاسلامية، د. سعاد ماهر، ص ٣٥٩) وقد يطلق الاسم على الشيني ايضا. أنظر: (قوانين الدواوين، ابن مماتي، ص ٣٤٠).
(١٧) المقصود: طرابلس الشام وكانت عاصمة لنيابة السلطنة منذ أن استرجعها السلطان المنصور قلاوون من الصليبيين سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م. انظر كتابنا: (تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، عصر دولة المماليك).
(١٨) يرد اسمه في المخطوط «جابوس» بالباء بدل النون، وذلك في كل المواضع.
(١٩) سلورة: جمعها سلالير، وهي نوع من المراكب متوسط الحجم يستعمل في الحرب والسلم على السواء، له ثلاثة شرع، كما يحتوي عادة على اربعين مجدافا.
قال ياقوت الحموي: سلار نوع من الطير، وقال الأصفهاني: وأهل مصر يسمون الجري السلور، ويفهم من هذا أن السلورة سريعة الحركة حتى شبهت بالطائر الذي يحلق عاليا في السماء وبالشخص سريع الجري على سطح الاديم. (معجم البلدان، الأغاني ٨/٢٩٨، البحرية في مصر الاسلامية ٣٤٧).
(٢٠) النهر المعروف بين جونية وبيروت.
(٢١) باشهم: رئيسهم.
(٢٢) هو «جرباش الكريمي» ويعرف بـ «قاشوق». انظر: تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى، ص ٢٤٥ في الحاشية.
(٢٣) انظر: إنباء الغمر، ج ٣/٣٤٦.
(٢٤) العمارة: تعبير يقصد به الأسطول.
(٢٥) العشير، والجمع عشران، اسم يطلق على بدو الشام، ويطلق أيضا على سائر الدروز. (السلوك، نقلا عن معجم دوزي، ج ١، ق ٣/٨٦٩، حاشية رقم ٣).
(٢٦) أنظر عن هذه الطائفة الدراسة الممتعة للدكتور محمد رجب البخار (حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي) سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
(٢٧) قرآن كريم، سورة الانفال: الآية ١٢.
(٢٨) الملاحة: ميناء في الجنوب الغربي من لارينكا، بين لارينكا وخيروكيتا.
(٢٩) رأس العجوز: شرقي جزيرة قبرص في قاعدته الشمالية ميناء فماغوستا، وفي قاعدته الجنوبية ميناء لارينكا.
(٣٠) قرقورة: جمعها قراقير أو قراق. وهي من سفن العصر الوسيط متعددة الصواري والشرع، وهي كبيرة تستعمل في تموين الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة، ومنها ما كان يحتوي على ثلاثة ظهور ولا يخشى معها الرياح العاصفة. (البحرية في مصر الاسلامية، ص ٢٦٢ و ٢٦٣).
(٣١) انظر أيضا: إنباء الغمر، ج ٣/٣٤٧، زبدة كشف الممالك، غرس الدين الظاهري، ص ١٤١، وفيه إنهم أمسكوه.
(٣٢) الزردخاناه: يطلق هذا اللفظ أحيانا على السلاح نفسه، وهو المراد هنا.
(٣٣) اللمسون: هو ميناء «ليماسول» حاليا.
(٣٤) القلعة: قلعة جبل المقطم بالقاهرة.
(٣٥) الكيتلان: أو الكتلان، نسبة إلى قطالونية، الاقليم الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية في اسبانيا وعاصمته برشلونة على البحر الأبيض المتوسط.
(٣٦) الأشرف شعبان: تولى السلطنة بين ٧٦٤ ــ ٧٦٩هـ.
(٣٧) فوّه:
(٣٨) أنظر: إنباء الغمر، ج ٣/٣٦٦، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٢.
(٣٩) أينال العلائي: السلطان الملقب بالأشرف، تولى السلطنة سنة ٨٥٩هـ.
(٤٠) هو أبو بكر بن محمد بن محمد الأنصاري الدمشقي الأصل ثم المصري القاضي كاتب السر. لقبه السيوطي «تقي الدين»، ولد سنة ٨٣١ وتوفي ٨٩٣هـ. (أنظر عنه: الضوء اللامع ١١/٨٨، نظم العقيان ٩٧ و ٩٨، درر الحبب ٢/٢/٥٦٨ و ٥٦٩، ذيل رفع الاصر ٤٦٩، بدائع الزهور ٢/٢٥٣ وفيه ولد سنة ٨٣٢هـ).
(٤١) في الأصل: «مملوأة».
(٤٢) في الأصل: «الجنة».
(٤٣) سنة ٨٢٩هـ/ ١٠ حزيران ١٤٢٦م.
(٤٤) الأفقسية: هي نيقوسيا الحالية.
(٤٥) السهام الخطائية: نسبة إلى جيل الخطا من الصين، اشتهروا باستخدام السهام فنسبت إليهم. والخطا: بكسر الخاء.
(٤٦) قرآن كريم، سورة الأحزاب: الآية ٢٥.



أزياء العرب

أنطوانيت أديب باسيلي



ولادة الأزياء

منذ البدء لم يعتن الانسان كثيرا بالملابس، والأساطير القديمة تحدثنا عن ورقة التوت، وجلود الحيوانات، لباسا ونعلا، ويعود ذلك لطبيعة الانسان الاول الباحث عن قوته، مرورا بالانسان الصياد، الى الانسان المستقر، وتحويله الكهوف المقفرة الى بيوت امنة لسكنه وتزيين جدرانها وسقوفها بالرسوم والنقوش والالوان، مع هذا الانسان تبدأ مرحلة جديدة في نوعية الملابس واخراجها.

ومع اطلالة الالف الثالث قبل الميلاد تبدأ حضارة دولة المدينة التي هي نموذج مصغر لحضارة الدول والامم المعروفة في عصرنا الحاضر، فمن دولة المدينة بدأ تكوين المجتمع كالشعب وطبقاته.

وبما ان المجتمع يتكون من طبقات واجناس كذكور واناث، فان الملابس كانت تتبع بالضرورة هذا التكوين الطبقي والجنسي.

وبما ان موضوعنا محصور في الازياء العربية فيجدر بنا ان ننوه ان فئات المجتمع العربي تتكون من اهل البداوة واهل الحضرة، وملابس كل فئة مختلفة عن الأخرى، الا من نواح ضيقة ولكون المجتمع يتألف من جنسين الذكور والاناث فان كلا الجنسين تنقسم ملابسه الى ملابس البدن والملابس الخارجية، وملابس الرأس، وملابس القدم، وتخضع هذه الملابس الى نوعية الأقمشة التي تتماشى مع المناخ والعادات بصورة عامة، ولم تشذ الأزياء العربية عن المألوف الا فترة الحكم الأموي الذي أضاف الى ازيائه العربية ازياء فارسية وبيزنطية، واستمرت هذه الاضافات فترة الحكم العباسي الى جانب احتفاظهم بطابعهم العربي المميز، وتعتبر هذه الاضافات تطورا في شكل الازياء للتماشي مع تطور الزمن والمجتمع، المنتقل من حالة البداوة الى حالة الحضرة.

١ — ملابس اهل البدو:

وبدايتنا بأهل البدو تعود الى كون هذه الفئة ظلت محافظة على تقاليدها وملابسها دون تجديد يذكر، احتفاظا منها بطابعها المميز عن بقية الفئات، واثرت تأثيرا واضحا وكبيرا في حياة الرسول (صلعم) وبحياة كل من ابي بكر وابن الخطاب، وظلت قباؤها وعباءتها القاسم المشترك بينها وبين اهل الحضر.

فالبدو كانوا وما زالوا حتى يومنا هذا يرتدون القباء الطويل المشقوق من الوسط والذي يصل الى العقب ويربطونه من الوسط بحزام من الجلد، ويرتدون العباءة المصنوعة من وبر الجمل فوق القباء[١]. اما في الحرب فكان لباسهم الأردية القصيرة وهي عبارة عن سروال ورداء قصير يسهل عليهم الحركة وركوب الخيل بدلا من الأردية الطويلة الفضفاضة التي تعيق حركة ركوب الخيل والضرب بالسيف.

اما لباس الرأس فكان عبارة عن عمامة، يلقون الطيلسان فوقها ليتدلى على الكتفين ويقي الرقبة حرارة الشمس[٢].

واختلفت ملابس البدو باختلاف ثروتهم ومركزهم الاجتماعي، فكان شيوخ القبائل واشراف القبيلة يرتدون قباء يصل الى الركبتين يعلوه جلباب فضفاض يتدلى الى العقبين، ويشده حزام من الحرير، وفوق ذلك يرتدون الجبة، اما في أرجلهم فكانوا يلبسون النعال او الأحذية[٣].

اما المرأة البدوية فكانت ترتدي سروالا فضفاضا وقميصا مشقوقا عن الرقبة، وفي الشتاء كانت ترتدي فوق هذه الثياب رداء قصيرا ضيقا، واذا ارادت الخروج من بيتها وجب عليها ارتداء الحبرة وهي ضرب من برود اليمن، وهي عبارة عن ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها التراب وتلف راسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

وملابس اهل الريف تتبع الثروة، فالرجال الفقراء كان لباسهم كأهل البدو، أما النساء الفقيرات فكان لباسهن يتألف من حلة طويلة مشدودة من الوسط بنطاق ومن غطاء على الرأس لا يترك من الوجه شيئاً ظاهرا سوى العينين، أما الفلاحة المصرية فكان ثوبها يسمى جلبابا من اللون الأزرق المصنوع من القطن، ولا تعرف الفلاحة المصرية شيئا من الزينة ووسائل التجميل، ولكن ما يجملها حقا هي مشيتها المليئة بالبخترة والاغراء[٤].

اما ثياب اغنياء الريف فهي معقدة ولكنها



□ زي نسائي عربي قديم.

انيقة وهي مؤلفة من قميص من الحرير أو الشفوف ومن صدرات مطرزة بالذهب ومن سراويل واسعة، ونساؤهم اذا اردن الخروج من منازلهم كن يلبسن مآزر ويسترن وجوههن ببراقع[٥].

ولم تكن ازياء اهل البدو والريف واحدة في انحاء افريقية ومصر وسورية وجزيرة العرب ولكن القاسم المشترك بينهم ظل الجلباب والعباءة، فكانت العباءة الزرقاء أو السوداء في لباس أهل مصر والبيضاء في شمال افريقيا، والمخططة بخطوط بيضاء وسوداء في لباس اهل سوريا.

اما غطاء الرأس فكان العمامة والطربوش في مصر وشمال افريقيا والكوفية في سوريا، والكوفية عبارة عن منديل زاهي الالوان يلف به الراس والعقال وهو مصنوع من وبر الابل، وفي الجزائر والمغرب يستر الرأس بغطاء ابيض يستقر عليه بشطن (حبل) مماثل للعقال[٦].

٢ ـ ملابس اهل الحضر:

لم تتضح معالم أزياء أهل الحضر تماما، الا مع ولادة الدول بالمعنى الصحيح، ففي الفترة الأولى لبدء الدولة الاسلامية حيث ساد التصوف والتقشف في المآكل والملبس طيلة مدة حكم الرسول وأبي بكر وعمر، حتى بات الزهد والاعراض عن الدنيا ميزة من ابرز ميزات عصرهم، اقتدى بها عمالهم وقوادهم واصدقاؤهم من الدول المجاورة.

فقد اقتصر لباس الرسول محمد (صلعم) على العباءة والشملة، واقتصر لباس خليفتيه أبي بكر وعمر على الجبة الصوفية المرقعة بالاديم (جلد الماعز) وفوقها العباءة، حتى ان مرزبان الفرس لم يعرف خليفة المسلمين عمر بن الخطاب لبساطة ملبسه ومظهره[٧].

وعندما قدم زعماء العرب واشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل الموشاة بالذهب والتيجان المحلاة بالجوهر على أبي بكر الصديق الخليفة وشاهدوا ما هو عليه من الزهد والتواضع ذهبوا مذهبه ونزعوا ما عليهم من ملابس وحلى، حتى أن ذا الكلاع ملك حمير شوهد في سوق المدينة وهو يرتدي جلد شاة[٨]. وقد قلد العمال، الخلفاء في لباسهم وتقشفهم وزهدهم، فسليمان الفارسي عامل الخليفة عمر بن الخطاب على المدائن كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعة بغير اكاف، ويأكل خبز الشعير وأبو عبيدة بن الجراح كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي الخشن، وعندما لاموه ونصحوه بتغيير زيه ولباسه، قال لهم: ما كنت بالذي اترك ما كنت عليه في عصر الرسول[٩]. حتى ان سعيد بن عامر، عامل عمر بن الخطاب على حمص وصل به الزهد والفقر بأن اقتنى ثوبا واحدا في حياته يغسله بنفسه مرة في كل شهر يحتبس من اجل ذلك في داره حتى يجففه[١٠]. ولم يشذ عن هذه القاعدة من العمال سوى معاوية بن أبي سفيان عامل عمر بن الخطاب على دمشق، فقد استقبل

الخليفة عمر عند زيارته للشام وعليه من الخز وأبهة الملوك الشيء الكثير مما ادهش الخليفة عمر، وجعله يسأل: اكسرويه. فأجابه معاوية كلا، ولكن الأعداء يحيطون بنا ومن المصلحة أن يشعروا بقوتنا ليهابونا.

ومن شذ عن هذه القاعدة ايضا الخليفة عثمان بن عفان وكان في نهايةالجود والكرم والبذل والبذخ، فسلك عماله واهل عصره طريقته، فبنى داره في المدينة بالحجر والكلس، وجعل ابوابها من الساج والعرعر، واقتنى مالا كثيرا ولبس الثياب الموشاة وهو اول من شد اسنانه بالذهب(١١)، فقلده عماله في ذلك ومنهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن أبي وقاص وزيد بن ثابت(١٢).

وعاد الحال إلى ما كان عليه عندما تولى الامام علي بن أبي طالب الخلافة، فعاد بالدولة الاسلامية الى سيرتها الأولى مقتدياً بالرسول وقد وصفه عمر بن عبد العزيز إذ قال: ازهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب(١٣).

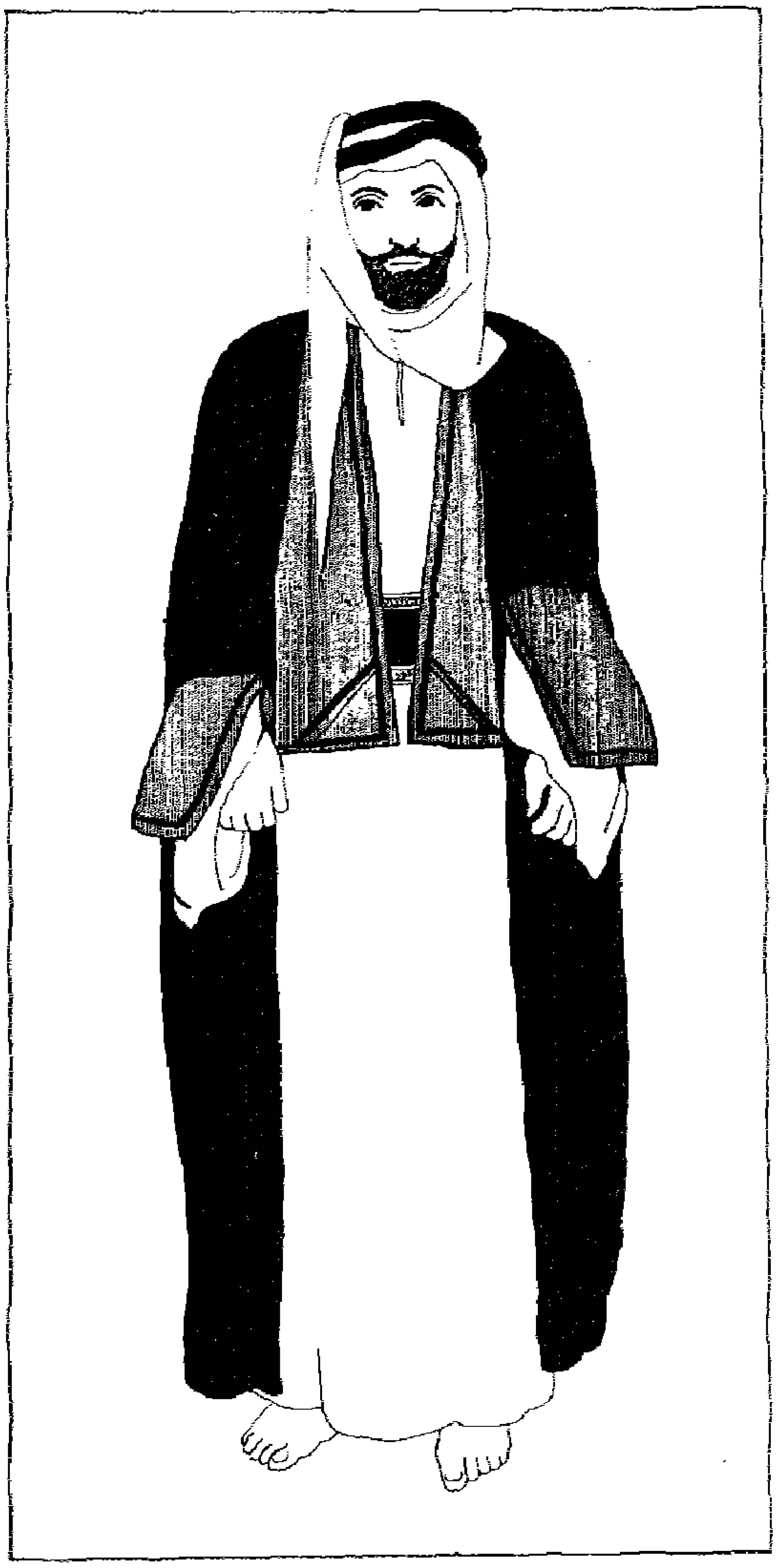
والى هنا تنتهي حياة التقشف والزهد في الدنيا والسعي للآخرة لتبدأ الحياة المترفة والاعتناء بالمظهر واقتناء الملابس الفاخرة في دولة الماديات دولة بني امية.

هذه الدولة كانت الحد الفاصل بين الحياة الدينية والدنيوية، بين طلب الآخرة وطلب الدنيا، ولهذا التطور والتحضر عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية لا مجال لذكرها لعدم ضرورتها.

بعد هذه المرحلة اتضحت معالم الأزياء العربية تماما تماشيا مع العصر والثروة وقسمت الى اقسام وانواع، فالأنواع كانت بين ملابس الرجال وملابس النساء، والاقسام كانت ثياب الرأس، وثياب البدن والثياب الخارجية بأشكالها.

١ — ملابس الرجال:

(أ) ثياب الراس: العمامة وهي لباس العرب منذ الجاهلية، والقلنسوة. لهذا قال عمر بن الخطاب «العمائم تيجان العرب»(١٤) وقيل لأعرابي: انك تكثر من لبس العمامة، فقال:



□ زي لبعض رجال البادية.

ان شيئا فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر(١٥).

وإذا كانت العمائم تيجان العرب فإن القلانس كانت تعتبر مظهراً من مظاهر الرجولة عند العرب وقد قال الامام علي رضي الله عنه «تمام جمال المرأة في خفها وتمام جمال الرجل في كمته (أي قلنسوته)(١٦).

(ب) ثياب البدن: الداخلية كالقمصان والسراويل — القمصان تصنع من الكتان الناعم الأبيض، أما السراويل فكانت تصنع من الكتان الأبيض المذيل.

(ج) الثياب الخارجية: تلبس فوق القمصان والسراويل ومنها الدراريع والطيالسة



□ الحلي العربية وخاصة الفضة منها كانت وما زالت عنصراً رئيسياً للاناقة العربية.

والجباب والاقبية.

□ **الدراريع**: جمل دراعة أو مدرعة وهي جباب مشقوقة من الصدر مصنوعة من الصوف أو الديباج الموشى أو الديبقي، وكانت اللباس الرسمي للكتاب، ثم شاع استخدامها حتى لبسها الخلفاء والوزراء وعامة الناس حتى ان هارون الرشيد كان اذا غزا لبس الدراعة، والربيع بن يونس كان يلبس دراعه وطيلسانا(١٧).

□ **الطيالسة**: جمع طيلسان وهو مربع الشكل يجعل على الراس فوق العمامة أو القلنسوة ويغطى به اكثر الوجه ثم يدار طرفان منه تحت الفم الى ان يحيط بالرقبة وطرفاه الاخران يسبلان على الظهر، وكانت الطيالسة لباس الخاصة من العلماء والمشايخ والقضاة(١٨).

□ **الجباب**: جمع جبة، تحيط بالبدن ولها كمان وكانت الجباب تصنع من الديباج الموشى أو الصوف وكان الخلفاء العباسيون يلبسون الجباب(١٩).

وكان الرجال ينتعلون النعال ويتركون للنساء الخف، وهي عادة فارسية، ثم شاع انتعال الخاصة للخفاف الحمر على عادة الفرس.

٢ ــ ملابس النساء:

(أ) **لباس الراس**: العصابة المكللة بالجوهر وهي متأخرة يعود الفضل في نتشارها الى علية بنت المهدي التي ابتكرتها وكانت ترصعها بالجوهر، ومنها ايضا البرنس الأسود المنظوم بالجوهر ويعرف اليوم بالفوطة(٢٠).

(ب) **الملابس الداخلية**: فهي من الغلائل

الرقيقة والسراويل والأقمصة الاسكندرانية[٢١].

(ج) الملابس الخارجية: فهي ملاحف أو اردية يقال لها الرشيدية أو الطبرية وكلها ملونة[٢٢] ونعالهن حمراء اللون كن يلبسنها فوق جوارب صوفية أو حريرية، واتخذت الخيزران زوجة المهدي الخفاف المرصعة بالجوهر واقتدت بها زبيدة زوجة الرشيد[٢٣].

وكانت بعض النساء يتقنعن بمقنعة حتى لا تبدو وجوههن سافرة، أو يعمدن الى التقنع تشبها بالفرسان والرؤساء كما فعلت البانوقة بنت المهدي عندما سارت على هيئة الفتيان وعليها قباء اسود ومنطقة وشاشية[٢٤].

ازياء الدولة الأموية

اعتبر المؤرخ نيكلسون[٢٥] ان انتصار بني امية بشخص معاوية هو انتصار للارستقراطية الوثنية، فلا غرو فيما قال، فقد كان معاوية يرمي الى جعل الخلافة ملكا كسرويا، وليس ادل على ذلك من قوله «انا أول الملوك»[٢٦].

ففي زمن هذه الدولة تخلى العرب عن ثيابهم الخشنة الصوفية المرقعة بالأديم وعن الأقبية الطويلة المربوطة بالزنانير كتخليهم عن عيش الكفاف والزهد، واقبلوا على التأنق في اللباس والأبهة والفخامة، وتبعا لذلك ازدهرت صناعة النسيج في ارجاء الدولة العربية، وعرفت مصانع النسيج بدور الطراز، وهي كلمة فارسية، اختصت هذه الدور بصناعة اثواب الملوك والسلاطين المعدة من الحرير أو الديباج أو الابريسم، والتي تميز بعلامات،فثياب الملوك تميزت عن ثياب السلاطين باشارات من خيوط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة، ومكان هذه الدور الخاصة في قصور الخلفاء والسلاطين، اما دور العامة فكانت تختص بثياب العامة من الرعية، والقائم على هذه الدور يسمى صاحب الطراز، ينظر في امور الصباغ والأنوال والحاكة.

فكانت ثياب الملوك والسلاطين تصنع من النسيج الموشى الذي تدخل في لحمته وسداه خيوط الذهب ويعرف ايضا بالمقصب، واشتهرت اليمن والكوفة والاسكندرية بعمل الوشي الجيد، كذلك اشتهر اقباط مصر بصنع نسيج معين عرف بالقباطي نسبة اليهم، وشاع هذا النوع من النسيج في عصر سليمان بن عبد الملك ولبس الناس جميعا الوشي جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس تبعا لتوصية عبد الملك، وذكر المسعودي انه لم يدخل عليه رجل من اهل بيته او من عماله أو اصحابه الا بالوشي، حتى الطباخ كان يجب ان يلبس الوشي، وقد اوصى سليمان ان يكفن بالوشي عند موته[٢٧].

وشاع ايضا في عصر سليمان لبس الطيلسان بين فئات مختلفة من الناس وأول من لبسه في الاسلام من العرب عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٥٩هـ) وجبير بن مطعم (ت ٥٤هـ) وكان عمر بن عبد العزيز قبل تولي الخلافة يصلي في جبة طيالسة ليس عليه ازار، وكان يشترى لعمر قبل خلافته ايضا الحلة بألف دينار فيستخشنها وعندما اصبح خليفة كان يستلين قميصاً بعشرة دراهم. ويقول السيوطي: ان عمر بن عبد العزيز كان يخطب بالناس وعليه قميص مرقوع[٢٨].

ازياء الدولة العباسية

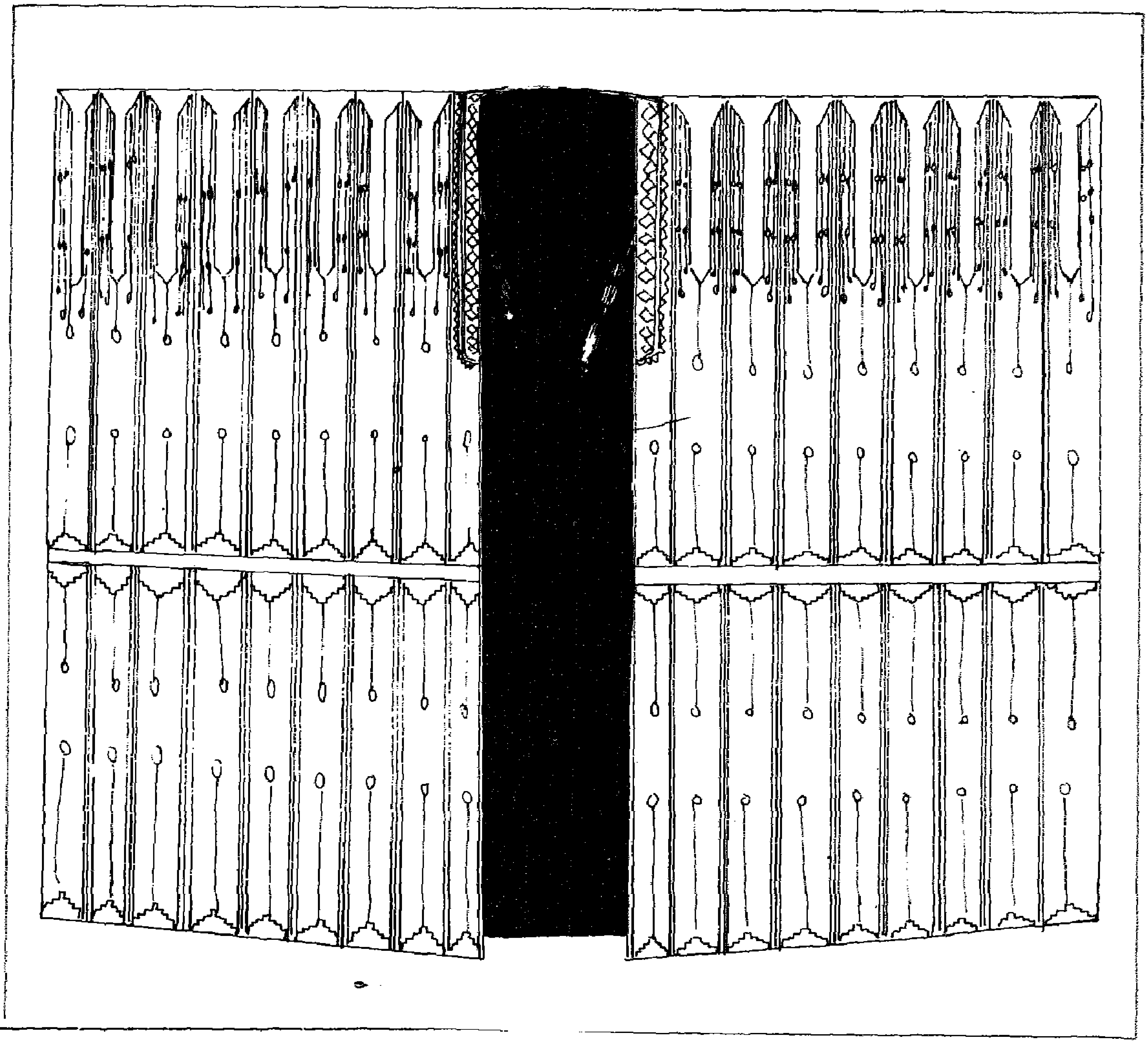
في عهد المنصور سنة ١٥٣هـ امر ان يلبس القلانس الطوال والدراريع المكتوب عليها بين كتفي الرجل «فسيكفيكهم الله» كما أمرهم بتعليق السيوف في أوساطهم.

وقد نقل اهل اوروبا في زمن الحروب الصليبية زي القلانس والخمر، وجعلوها لباس النساء في الغرب[٣١].

اما الرشيد فقد امر بلبس العمامة العظيمة الكور وخفان ومالقان واعاد المعتصم لبس القلانس تشبها بملوك العجم، وسميت المعتصميات[٣٢].

وعاد المستعين عام ٢٤٨هـ فأمر بتصغير القلانس بعد أن كانت طويلة كأقباع القضاة واحدث المستعين ايضاً لبس الأكمام الواسطة التي لم تكن تعهد من قبل، فجعل عرضها ثلاثة اشبار أو نحو ذلك فكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب[٣٣] يحفظ فيها الانسان كل ما يحتاج الى حفظه من دنانير وكتب، وميل المهندس؛ ورقاع الصيرفي، وجلم الخياط، وكراس القاضي.

والجوارب كانت من لباس الرجال والنساء على السواء ولبس الخفاف الأحمر معيبا، وإن كان قد



□ نموذج تفصيلي لعباءة تستخدم من قبل بعض البدو.

لبسها قيصر الروم وعامة المسلمين، وكان الامبراطور البيزنطي يلبس خفا احمر وخفا اسود، وقلده المخنثون والجهال في البلاد العربية(٣٤).

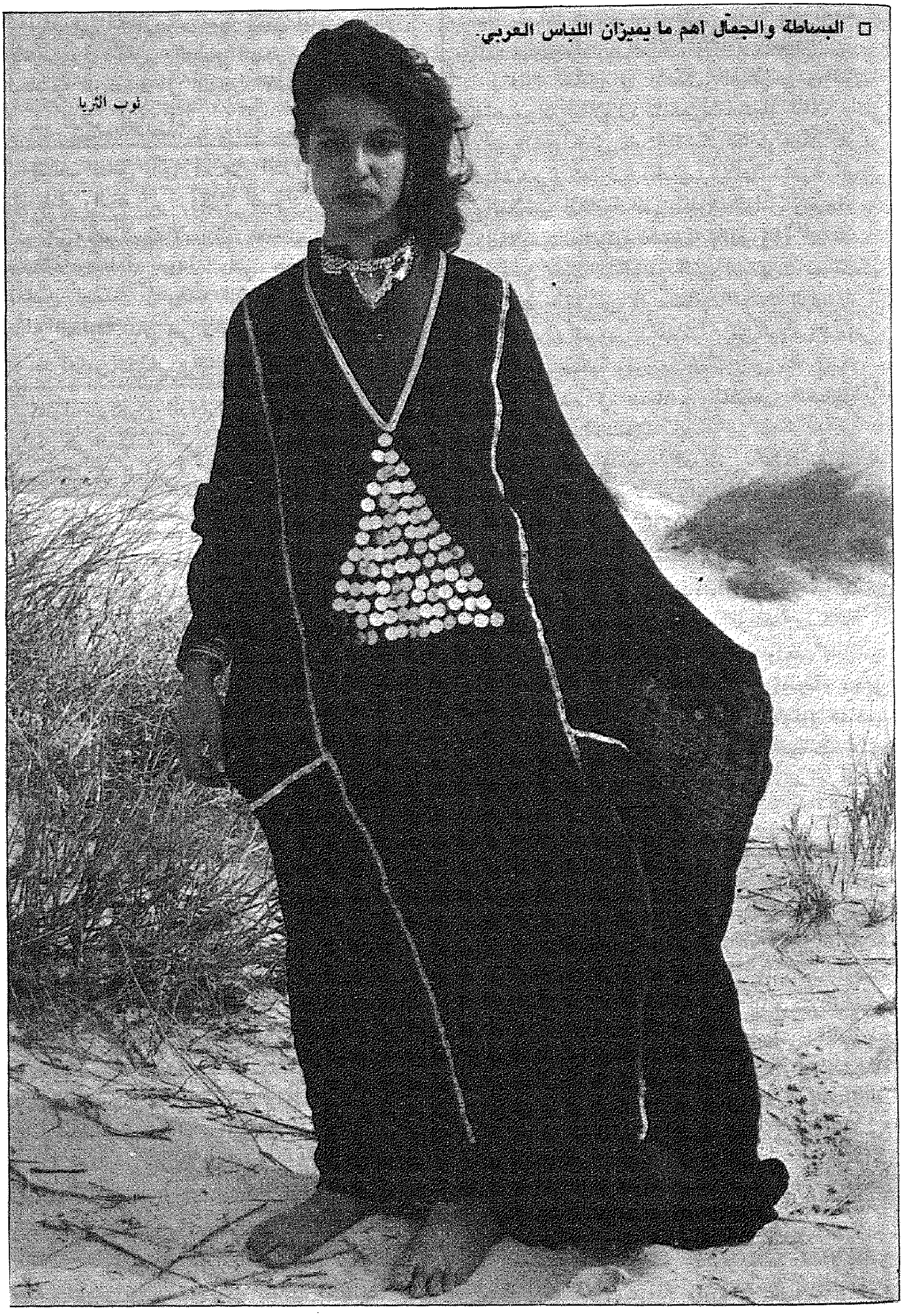
وحرم في القرن الرابع الهجري لبس الثياب الملونة لأنها اعتبرت من شأن النساء، واقتصر لبسها بين الرجال داخل البيوت وفي حلقات الشراب(٣٥).

وكان اللون الأبيض لباس الرجال والنساء المهجورات، أما باقي النساء فكن يصنعن سراويلهن من اللون الأبيض فقط، واللون الأزرق في المشرق كان يلبس في الحداد، اما الأبيض فكان لأهل الأندلس، وقد لبس الرشيد اللون الأزرق حدادا على امه الخيزران(٣٦).

وتميزت اردية الخلفاء والوزراء والعمال الثلاثة الكبار في الدولة العباسية كما يلي:

١ ـ لباس الخلفاء وحاشيته:

السواد هو شعار العباسيين الرسمي ولباس الخلفاء كان قلنسوة محددة وقباء اسود والتاج المرصع بالجوهر وكان الخليفة يلبس طوقا وسوارين من الذهب المنظوم بالجوهر(٣٧) وقد قلد الأمراء الخلفاء.فلبس سيف الدولة امير حلب تاجا مرصعا لما استقبل رسول ملك الروم، وأصبح الطوق الذي هو شعار المحاربين القدماء يخلع عند الخلفاء العباسيين على القواد المنتصرين وأول امير خلع عليه الطوق هو الأخشيد الى جانب السيف والتاج والوشاح، اما حاشية



□ البساطة والجمال أهم ما يميزان اللباس العربي.

الخليفة في المحافل الرسمية فكان لباسهم اللون الاحمر وفي القرن الرابع الهجري اعيد لباس الحاشية الرسمية الى اللونين الأسود والأبيض.

٢ ـ لباس الوزراء:

يتألف لباس الوزراء من الدراعة والقميص والمبطنة والخف[٣٨] وكان السواد هـو اللباس الرسمي وفي الاحتفالات كان يرتدي قباء وسيفاً بمنطقة وعمامة سوداء وهي جزء من لباسه العادي ايضا[٣٩] وهذه الثياب هي من هدايا وخلع الخليفة التي هي رسم الوزارة عند تقليده.

٣ ـ لباس الكتاب والعلماء:

كانوا يرتدون الدرايع والطيلسان ولباس الرأس هو العمامة التي يختلف حجمها باختلاف السن والمركز العلمي[٤٠].

٤ ـ لباس القضاة:

كان يلبس السواد على هيئة عمال بني العباس، ويعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة[٤١] وأصبح شعار القضاة ـ القلنسوة مع الطيلسان.

اما القواد فكانوا يلبسون الاقبية الفارسية القصيرة[٤٢].

ولن يغرب عن بالنا ان نذكر لباس قوم من رعايا الدولة العباسية كان لهم شأنهم في اعلاء كلمة واسقاط كلمة ـ الا وهم الخطباء، فقد كان لباسهم اللباس الحربي وهو عبارة عن الاقبية والمناطق والدراعة[٤٣]. اما في الدولة الفاطمية فكان لباسهم اللون الأبيض والعمامة الصفراء والسروال الاحمر من الديباج والخف الاحمر ويتقلدون السيف[٤٤].

اما النساك والمتصوفون فكان لباسهم عبارة عن رداء من الصوف وفوطة مدلاة على رؤوسهم تحيط بقلنسوة طويلة ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق، اما لأنه لباس الحداد وإما لأنه كما يقال ملائم لحالة قوم فقراء جوالين في البلاد[٤٥].

اما المماليك والسلاطين بصورة خاصة فكان لباسهم عمامة حرير لها عذبة مدلاة بين الكتفين وجبة حرير سوداء واسعة الكمين لا نقش عليها. وسيف عربي يحمل على طريقة البدو يعلق على الكتف الأيمن وهو مدلى على الجانب الأيسر[٤٦]

تطور الأزياء

تفنن الناس في اشكال القلانس ومادتها، واصبحت القلانس تتسمى بأسماء البلاد التي تصنع فيها فمن حيث الشكل كانت هناك قلانس مستديرة تعرف بالدنية لأنها تشبه الدن، والقلانس الطاقية التي تطوق الرأس وتمسك به، والقلانس الدورقية لشبهها بالدورق[٤٧].

ومن حيث المواضع التي اشتهرت بصناعتها وجدت القلانس الرصافية (من الرصافة) والقلانس السود الشاشية (من بلاد الشاش) والقلانس المكية (من مكة)[٤٨].

واستخدم في صناعة القلانس الكاغد[٤٩] والقصب أو السمور[٥٠].

ومن تفنن العصر العباسي ايضا وتأنقه، ما ابتكرته كل من الخيزران زوجة المهدي وزبيدة زوجة الرشيد من الخفاف المرصعة بالجواهر المختلفة والالوان المختلفة، تلبسانها في القصور والمخادع. وأضافت زبيدة الى ابتكارها ابتكارا واتخذت لوصائفها الثياب المرصعة بالدر[٥١] بينما اتخذت علية بنت المهدي واخت الرشيد غطاء لرأسها، العصبة المرصعة والملونة، تخفي تحتها صلعة اصابتها، والبرنس الأسود المنظوم بالجوهر ويعرف اليوم بالفوطة، فجاءت هذه العصبة موضة قلدتها بها نساء القصر العباسي[٥٢].

وتفنن نساء القصر العباسي ايضا بالزينة والتبرج والحلي فاقتنين الخلاخيل والاساور والخواتم المرصعة باليواقيت والفصوص وعقود اللؤلؤ والمسابح، وكانت لزبيدة زوج الرشيد مسبحة فريدة من نوعها[٥٣] واتخذت ايضا التيجان المرصعة بالنرجس من الذهب والفضة.

واستعمل نساء العصر العباسي الاصباغ كالحناء لصبغ اطرافهن والخدود والشفاه والشعر والكحل لتكحيل اجفان العيون والاهداب، وتمخطن بالطيوب والدهون المركبة من العنبر والمسك والبان[٥٤].

اصناف الأزياء ومصادرها

صنعت الملابس من خيوط متعددة الاجناس واشتهرت مدن عربية وفارسية في انتاج نوع

معين من الملابس والخيوط، فكانت الملابس تصنع من القطعن والكتان والحرير والصوف والموشى والقصب.

فاشتهرت كل من الفيوم وتنس ودمياط بالأقمشة المسماة بالديبقي وهو غالي جدا، واليمن بالقماش المعرق والشبيه بأزهار الربيع(٥٥)، والموشى من صنع اهل تنيس وسمي بالبدنة وهو خليط من الخيوط النسيجية وخيوط الذهب، وبتنيس ايضا كانت تصنع الثياب الرقيقة المسماة بالقصب ويعمل منها عمائم الرجال وملابس النساء، وتوفرت في فارس وفي مدينة كازرون بالذات نفس صناعات مصر من الأقمشة وغيرها.

اما الهند والصين فكانت تصدر الى البلاد العربية قماش لولوما وهو مصنوع من صوف نباتي(٥٦).

ومرو اشتهرت بالعمائم والثياب المروية نسبة اليها وكانت خشنة ثقيلة.

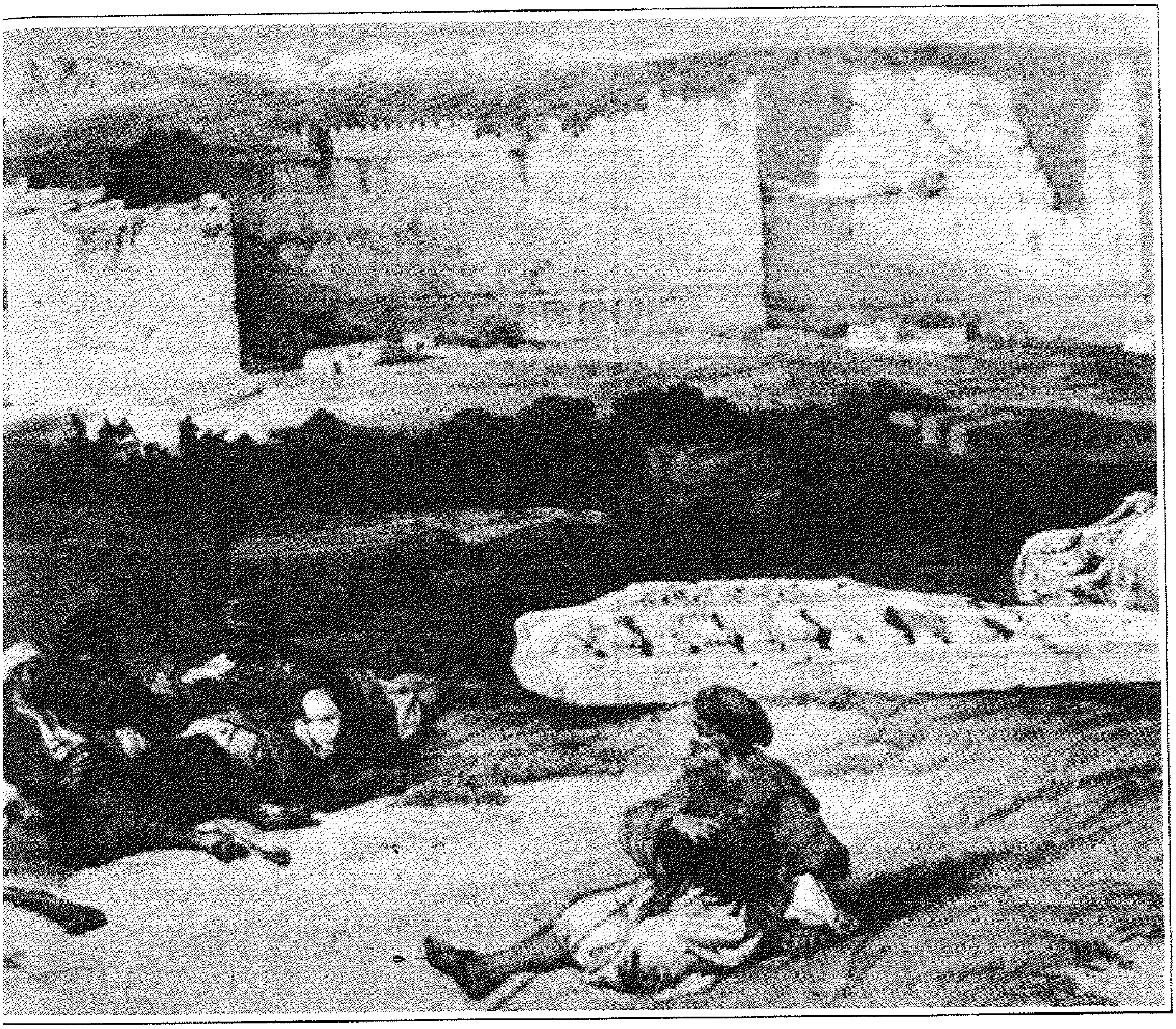
اما الحرير فكان يأتي من بلاد الروم، ثم نقلت زراعته الى بلاد فارس، والحرير انواع من الديباج والخز والستور، اما الابريسم فكان يأتي من الصين وحدها(٥٧).

واشتهرت الموصل بصناعة الموسلين (الموصلي نسبة اليها) ودمشق بصناعة الدومستك. ■

الهوامش

(١) حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٥٤٥.
(٢) نفس المرجع.
(٣) نفس المرجع.
(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٤٣٦.
(٥) نفس المرجع، ص ٤٣٧.
(٦) نفس المرجع.
(٧) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠٥.
(٨) نفس المصدر، حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٥٤٤.
(٩) المسعودي: ج ٢، ص ٣١٥.
(١٠) المروج، ج ٢، ص ٣١٤.
(١١) حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٢٦٤.
(١٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٢.
(١٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٠١.
(١٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣، ص ٩٦.
(١٥) نفس المصدر.
(١٦) نفس المصدر.
(١٧) الجهشياري: الوزراء، ص ١٦١ و ٨٩.
(١٨) الجهشياري: الوزراء، ص ١٦١.
(١٩) نفس المرجع، ص ١٨٣.
(٢٠) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣، ص ٩٦ و١٥٤.
(٢١) الطبري: ج ١٠، ص ١١٩، الأبشهي: ج ١٨٨/٢.
(٢٢) ابن طيفور: ص ١٠١، الابشهي: ج ٢، ص ١٨٩.
(٢٣) الشابشتي: الديارات، ص ١٠١.
(٢٤) ابن طيفور: ص ١٠١، الطبري: ج ٩، ص ٢١.
(٢٥) Nicholson A. Reynold: Literary History of the Arab. Cambridge, 1930, P. 139.
(٢٦) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٦.
(٢٧) عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة الاسلامية، ص ٦٨٦.
(٢٨) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ض ٢٤١.
(٣١) نفس المرجع، ص ٢٢٦.
(٣٢) ادم متز: الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٢٦، الارشاد: لياقوت، ج ٢، ص ٤٩ وج ١، ص ٣٩٩.
(٣٣) نفس المرجع.
(٣٤) ادم متز: ج ٢، ص ٢٣٠.
(٣٥) نفس المرجع، ص ٢٢٧ و٢٢٨.
(٣٦) الاربلي: ص ١١٧.
(٣٧) ادم متز: ج ٢، ص ٢٥٥ و٢٥٦.
(٣٨) الجهشياري: الوزراء، ص ٥٠، مسكويه: ج ٥، ص ٢١٤.
(٣٩) شابشتي: الديارات، ص ٦٦، مسكويه: ج ٦، ص ٤٤ و٤٥ و٤٦.
(٤٠) حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٥٤٥.
(٤١) الكندي: الوزراء والكتاب، ص ٣٧٨.
(٤٢) ادم متز: ج ٢، ص ٢٢٩.
(٤٣) نفس المرجع، ص ١٠٩.
(٤٤) نفس المرجع، ص ١٠٨.
(٤٥) نفس المرجع، ص ٣٠.
(٤٦) مروج الذهب، ج ٨، ص ١٦٩ و٣٧٧.
(٤٧) صلاح حيدري: ص ١٤٠.
(٤٨) الجهشياري: ص ١٢٤ و١٧١، ابن طيفور: ص ٩٣.
(٤٩) ابن العماد: الشذرات، ج ١، ص ٢٣٤.
(٥٠) مروج الذهب: ج ٣، ص ٤٣٥.
(٥١) بين الخلفاء والخلعاء: صلاح المنجد، ص ٥٨.
(٥٢) البيان والتبيين: الجاحظ ج ٣، ص ٩٦ و١٤٥.
(٥٣) الطبري: ج ١٠، ص ١٩١.
(٥٤) الطبري: ج ١٠، ص ٣٠ و٤٣ و١١٥، المسعودي: ج ٢، ص ٢٩٨ و٣١٠.
(٥٥) العقد الفريد: ج ١، ص ٤٦.
(٥٦) ادم متز: ج ٢، ص ٣٥٦.
(٥٧) نفس المرجع، ص ٣٦٠.

● نأسف لحذف الهامش رقم ٢٩، ٣٠

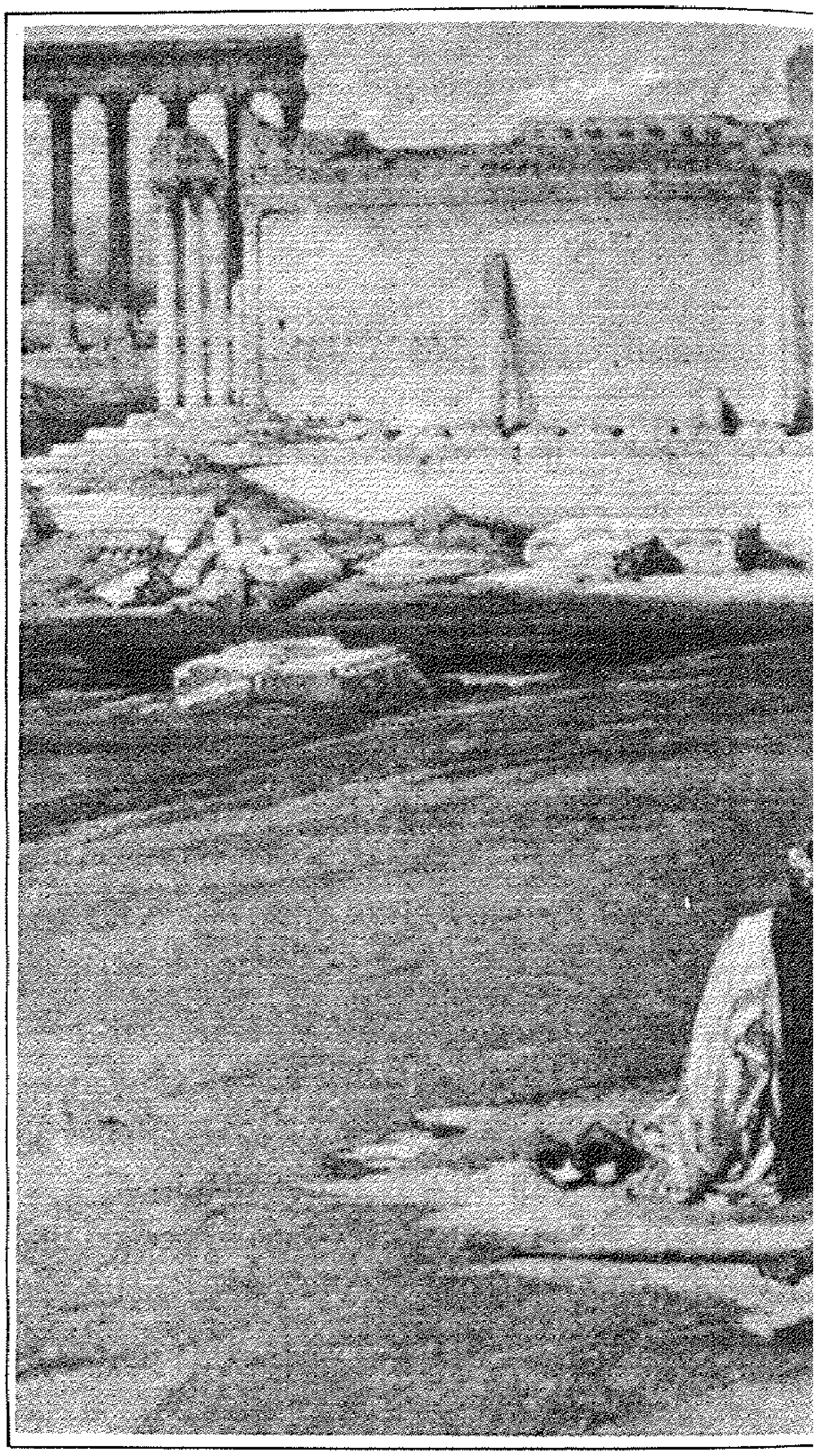


بعلبك

صَدَّرَت حكَّامَهَا البُوريِّين

مُلوكًا لدمشق

د. حسن عبّاس نصر الله



ان ثلاثة من اصل خمسة تعاقبوا على ملك دمشق باسم الدولة البورية، كانوا حكاما لبعلبك، وأولياء عهد لملك الشام.

١ ــ تاج الملوك بوري بن طغتكين: ملك دمشق (٥٢٢ ــ ٥٢٦هـ) (١١٢٧ ــ ١١٣١م) حكم بعلبك من سنة ٥٠٣هـ الى سنة ٥٢٢هـ. وكان طيلة هذه الحقبة ولي عهد والده الاتابك طغتكين.

٢ ــ شمس الملوك اسماعيل بن بوري: (٥٢٦ ــ ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م).

٣ ــ شهاب الدين محمود بن بوري: (٥٢٩ ــ ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م).

٤ ــ شمس الدولة محمد بن بوري: (٥٣٣ ــ ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م). حكم بعلبك منذ سنة ٥٢٢هـ وحتى ٥٣٣هـ.

٥ ــ مجير الدين ارتق بن محمد بن بوري: (٥٣٤ ــ ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م). حكم بعلبك سنة ٥٣٣ وكان ولي عهد والده شمس الدولة.

مد ملك البوريين جذوره منذ مقتل (تتش السلجوقي) في صفر سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، إذ ملك الشام ابنه دقاق، وجعل كبير امرائه ظهير الدين الاتابك طغتكين الذي تزوج من والدة دقاق[١]. وبعد تسع سنوات توفي دقاق فتولى الاتابك طغتكين تصريف الاعمال باسم ابن دقاق الصغير، وعمره سنة واحد، ثم قطع خطبته في شهر ذي الحجة سنة ٤٩٧هـ/١١٠٥م. وخطب لبكتاش (أرتاش) بن تتش الذي كان مسجونا في قلعة بعلبك، أطلق سراحه، ونصّبه ملكا على دمشق. وما لبث الخلاف ان دب بين الملك ومدبره، فخرج أرتاش من ملك دمشق في صفر سنة ٤٩٨هـ/١١٠٦م، وأعاد طغتكين خطبة الطفل ولد دقاق[٢]. واستقام الأمر لظهير الدين أتابك تعضده زوجه الخاتون (صفوة الملك). كان على الاتابك ان يؤدب حاكم بعلبك (كمشتكين) ــ وقد تولى شؤونها لتتش السلجوقي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[٣] ــ لأنه اخذ يراسل الفرنج التماسا للمصافاة. وكان يحرضهم على مهاجمة دمشق، ويطلعهم على عورات المسلمين. وجه الأتابك ولده تاج الملوك بوري على رأس قوة

لمداهمة بعلبك. لكن كشمتكين تحصن في المدينة واصر على المقاومة، ورفض المفاوضات. امام هذا العناد جمع الأتابك عساكر دمشق وخف لنجدة ولده تاج الملوك، فحاصرا المدينة ونصبا عليها المجانيق. واتصل طغتكين بأحداث المدينة واستمالهم، وزحف الى سورها، ونشبت معارك يومية قتل فيها جماعة من حراس الأسوار، ولما اشتد الحصار هرع السكان الى الدخول في الطاعة، وجنح (كمشتكين) الى الصلح. فانفذ ظهير الدين الأمير بلتاش للمفاوضة. فسلم كمشتكين بعلبك في ٢٢ شهر رمضان سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م بعد حصار دام خمسة وثلاثين يوما، وعوض عنها (بصرخد).

اقام طغتكين اياما في بعلبك، فدبر شؤونها، وسلمها الى ولده تاج الملوك بوري، وامره برفع المظالم عن سكان المدينة، فأعاد اليهم أملاكا اغتصبت منذ ايام كمشتكين واسلافه[٤].

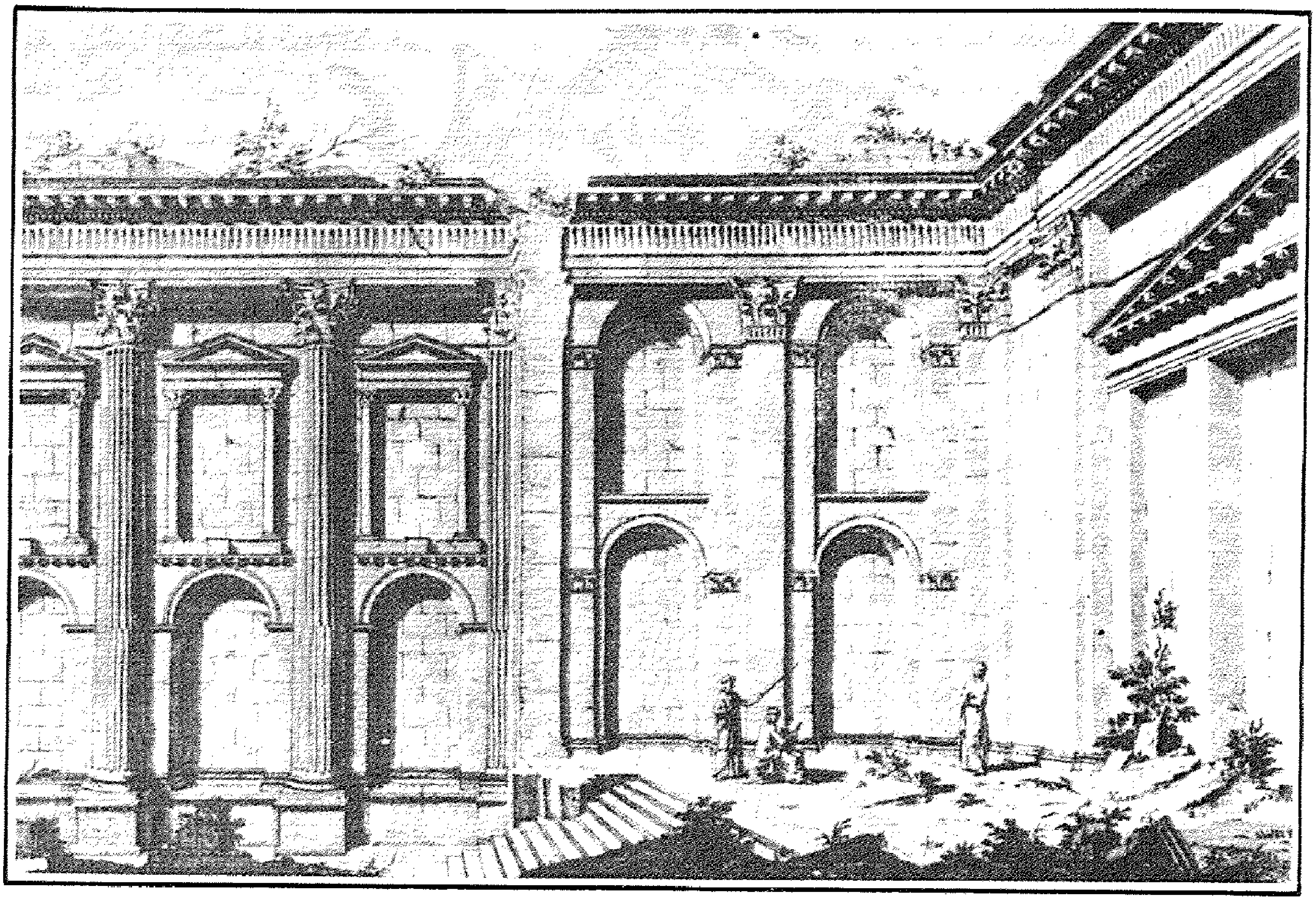
وفي العام نفسه تقدم بغدوين صاحب بيت المقدس لاحتلال بعلبك، فحاصرها بلا جدوى، وعبث بقرى البقاع. فسار اليه (طغتكين) وأجرى صلحا معه، على أن يأخذ المسلمون ثلثي غل البقاع، وتأخذ الفرنجة الثلث الباقي[٥].

بعلبك ودولة البوريين

ان الأتابك طغتكين هو مؤسس دولة البوريين لكنها اخذت اسم ولده تاج الملوك بوري الذي غادر بعلبك ــ وقد خلف عليها ابنه شمس الدولة محمد ــ يوم وفاة والده في ٨ صفر سنة ٥٢٢هـ/١١٢٧م، لتسلم ملك دمشق[٦]. وهو أول حاكم لبعلبك ارتقى عرش دمشق.

وفي عام ٥٢٦هـ/١١٣١م توفي تاج الملوك بوري صاحب دمشق وقد أوصى بالملك لولده، شمس الملوك اسماعيل، وخص بعلبك وأعمالها بولده شمس الدولة محمد[٧]. ووقعت النفرة بين الأخوين، حين طمع (محمد) بحصني اللبوة ورأس بعلبك، وكانا من نصيب اسماعيل، فاستمال مستحفظيهما، وتسلمهما واقام فيهما الجند لدرء الأعداء. فغضب اسماعيل وأنب اخاه على فعله، وكاتبه في اعادتهما فرفض. تظاهر اسماعيل بالمسالمة وأعد جيشا للانتقام، وأراد ان يأخذ اخاه على حين غرة. فسار آخر ذي القعدة «طلب جهة الشمال، ثم عاد مغربا فلم يشعر من بحصن اللبوة الا وقد نزل عليهم، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فطلبوا الأمان، فبذله لهم، وتسلم الحصن من يومه»[٨].

ومال الى رأس بعلبك وفاجأ حاميته وتسلمه، ثم اوكل امرهما الى من يحفظهما، وقصد بعلبك، وقد استعدت لمقاومته، وجمع شمس الدولة الذخائر والمؤن في القلعة وشحنها بالرجال، فحصرهم شمس الملوك وقاتل اهل البلد على السور، فملك البلد بعد قتال عنيف وضحايا كثيرة، لكن القلعة صمدت أمام جيوشه، ولم تسقط تحت ضربات المجانيق. واستعر القتال، حتى أدرك شمس الدولة محمد شدة الأمر، فأرسل الى أخيه يطلب الصلح، مقرونا بحفظ حقه الذي ورثه من والده. فأجاب اسماعيل مطالبه وأقره على بعلبك واعمالها، وقفل شمس الملوك الى دمشق مؤيدا منصورا[٩]، فساسها بسوء تدبير، وأظهر من الظلم ومصادرات العمال، وسلب الأموال، واشاعة الفتن والدسائس ما أقلق اصحاب ابيه وجده، فتآمروا عليه، ونفذت والدته المؤامرة، اذ اشارت الى غلمانها فقتلوه سنة ٥٢٩هـ. وتملك بعده اخوه (شهاب الدين محمود)[١٠] الذي أبقى أمر بعلبك بيد اخيه (شمس الدولة محمد). وبعد عام وقعت فتنة بدمشق بين صاحبها شهاب الدين والجند بقيادة الأمير (بزاوش)، فحاصروا دمشق ثم ساروا الى شمس الدولة في بعلبك يحرضونه على اخذ الملك من اخيه. وعاثوا فسادا في النواحي المحيطة بالشام ولما خشي شهاب الدين ان تسير اليه جيوش بعلبك بقيادة اخيه شمس الدولة يسانده (بزاوش) مع المماليك والتركمان، اخذ يراسل المتمردين ويلاطفهم، ورضخ لشروطهم ومطالبهم، فغادروا بعلبك في شعبان سنة ٥٣٠هـ. وعادوا الى دمشق[١١]. وفي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م قتل شهاب الدين محمود بن بوري غيلة في فراشه. فكتب اعيان دمشق ورؤساء الجند الى اخيه جمال الدين (شمس الدولة) محمد بن بوري صاحب بعلبك، يطلعونه على الحدث، ويستدعونه ليملك بعد اخيه. ودّع جمال الدين بعلبك وسلمها الى ابنه مجير الدين ارتق، وما أن دخل دمشق وجلس للعزاء بشقيقه حتى وفد اليه الجند، وأعيان الرعية، وبايعوه



ملكا عليهم وانصرف الى توطيد حكمه، فاختار (معين الدين أتز) مدبرا لشؤونه[١٢]. وكانت والدة محمود بن بوري الملك المقتول (زمرد خاتون) قد تزوجت من أتابك زنكي. فلما بلغها النعي وهي بحلب أرسلت الى زوجها زنكي في الجزيرة الفراتية تنبئه الأمر، وتمنت عليه ان يقصد دمشق ويثأر لولدها. ولاقى التمني هوى في نفسه لأنه كان يطمع بدمشق وبعلبك فجهز جيشه واتجه الى بلاد الشام. وسبقته اخبار الغزو الى دمشق وبعلبك فاستعد الناس في المدينتين «واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئا مما يحتاجون اليه، الا وبذلوا الجهد في تحصيله»[١٣].

لجأ زنكي الى الرشاوى، والمراوغة، وتحريض «مقدمي الأحداث والزناطرة»[١٤] واطمعهم في الصلات والهدايا. ومع ان بعضهم قد استجاب له، وجد وضعه حرجا امام دمشق فتركها ويمم الى بعلبك.

روى ابن الأثير ان السبب الذي حمل الاتابك زنكي على العدول عن دمشق الى بعلبك هو طلبه لجارية جميلة كانت محظية معين الدين أنز سيرها الى بعلبك بعد ان تزوج أم جمال الدين (شمس الدولة) محمد بن بوري ارضاء لها. ولما قصد زنكي دمشق ارسل الى انز الهدايا والوعود المعسولة مقابل تسليم المدينة فأبى ان يخون سيده ابن بوري. واراد زنكي ان يكيد له بسبي محظيته فتوجه الى بعلبك ليأخذ المدينة والجارية. وقف زنكي امام اسوار بعلبك في العشرين من ذي الحجة سنة ٥٣٣هـ. فأغلقت ابوابها دونه[١٥]. وجد في محاصرتها، ونصب عليها اربعة عشر منجنيقا ترمي ليلا ونهارا حتى شارف سكانها على الهلاك. فطلبوا الأمان، وسلموا المدينة، وبقيت القلعة، وفيها حامية من شجعان الأتراك. قاتلوا اياما بلا جدوى. اذ لم تصلهم امدادات من دمشق، وطلبوا الأمان من زنكي فأقنعهم فسلموا اليه القلعة[١٦] ولما نزلوا منها، وملكها غدر بهم، وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم الا القليل.

فصل أبو شامة عملية الغدر، ونجاة القلة من الأمراء رواية عن يحيى بن ابي طي الحلبي قال: «واتفق ان الأمراء لما نزلوا من (قلعة) بعلبك افسدوا ذخائرها فقبض عليهم اتابك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولي قتلهم (صلاح الدين



محمد بن ايوب الناغيساني) فحكى انه احضر اليه في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة ومعه ولد له امرد كأنه فلقة قمر. فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك الا صلبتني قبل ولدي لئلا اراه يعالج سكرات الموت. وبكى. وكان نجم الدين ايوب واقفا، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين في اطلاقه. فقال: ما افعل خوفا من المولى اتابك. فذهب نجم الدين الى اتابك وسأله في الشيخ وولده وقص عليه ما قاله فاذن بإطلاقه واطلاق من بقي من الجماعة. ووهبه نصف بعلبك، وقيل ان نجم الدين ورد على اتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكا، واستقر فيها هو وأهله..»[١٧].

نال زنكي مبتغاه فأخذ الجارية وتزوجها، ونقلها الى حلب، فلم تزل بها الى ان قتل زنكي فأعادها ابنه نور الدين محمود الى انز فكانت عاملا مهما في المودة بين الاثنين[١٨].

لا بد من مقارنة تتابع الأحداث في فتح بعلبك بين رواية ابن الأثير في (الكامل) وبين أبي شامة في (الروضتين):[١٩]

١ ــ في الكامل: وقع حصار بعلبك في العشرين من ذي الحجة سنة ٥٣٣هـ. وسقطت في غرة محرم ٥٣٤هـ. وهذا يعني ان الحصار دام بضعة عشر يوما. اما أبو شامة فجعله من احداث سنة ٥٣٤هـ ودام شهورا عدة[٢٠].

٢ ــ في الكامل تم احتلال بعلبك في عهد شمس الدولة محمد بن بوري في الروضين احتلال بعلبك وقع بعد وفاة شمس الدولة وفي عهد ولده (مجير الدين أرتق).

٣ ــ ان سبب مهاجمة بعلبك لدى ابن الأثير هو طلب جارية (معين الدين انز). في حين علله أبو شامة بقوله «لما دخل مجير الدين دمشق اقطع بعلبك معين الدين آيز (انز) فأرسل إليها نائبه، وتسلمها، فلما علم زنكي ذلك سار الى بعلبك وحصرها عدة شهور فملكها عنوة..»[٢١].

إن التأمل المتعمق في سير الأحداث لاستجلاء غوامض التناقضات يكشف ان الأسباب التالية تضافرت كلها فدفعت بالأتابك زنكي عن دمشق الى بعلبك:

١ ــ مناعة دمشق لكثرة الجند المدافعين عنها.

٢ ــ قلة الجند المدافعين عن بعلبك.

٣ ــ الضغط على معين الدين انز، واغاظته بسبي جاريته. وسلب اقطاعاته في بعلبك.

٤ ــ الرغبة في نوال الجارية الفاتنة (والمرأة الجميلة لعبت دورا في حروب العالم (طروادة)).

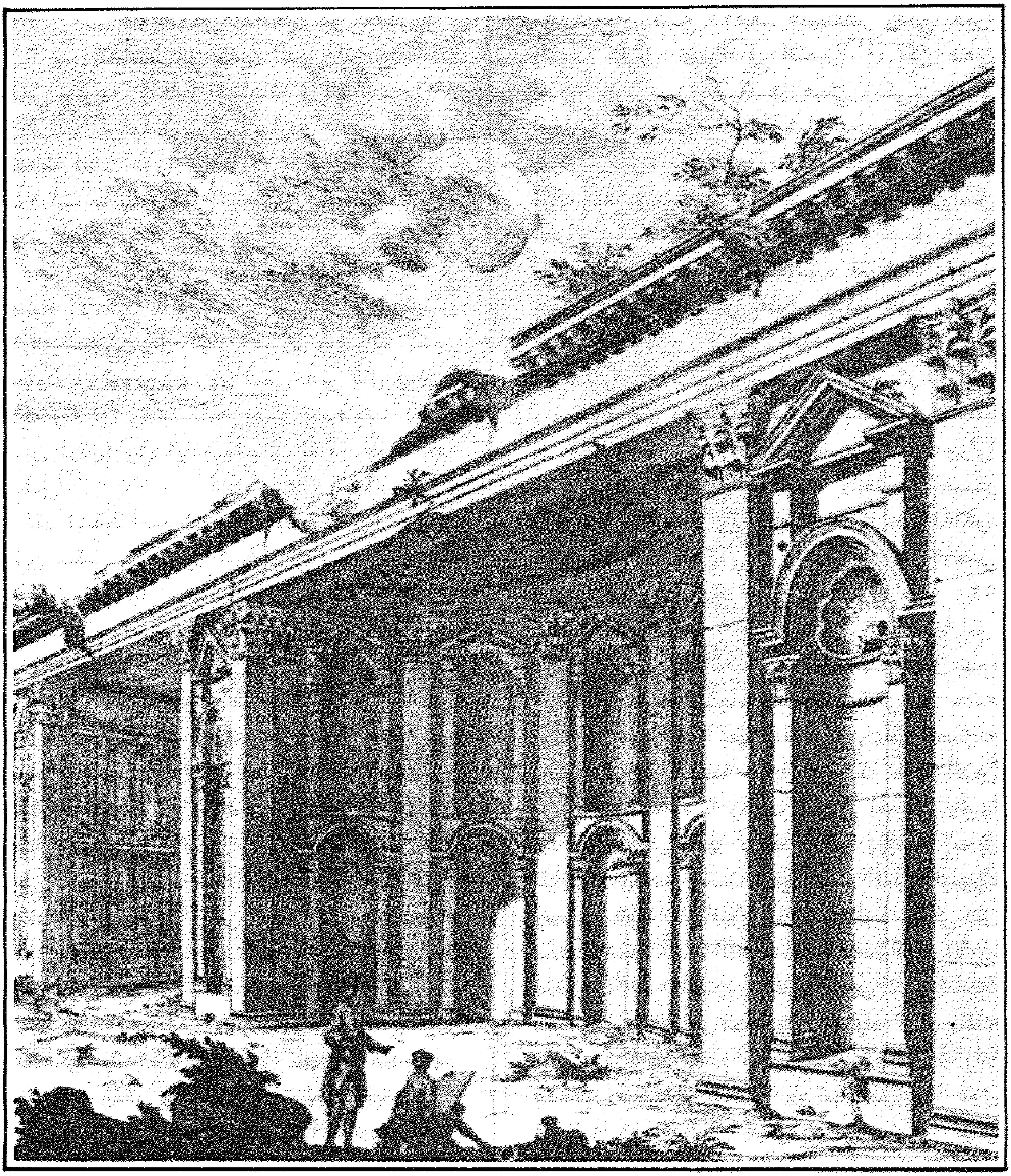
٥ ــ بعلبك مفتاح دمشق وخصوصا اذا غدت قاعدة عسكرية لمهاجمة الشام.

وهناك شبهة ثالثة لا بد من كشفها وردت في (صبح الأعشى) للقلقشندي اذ قال: بعد شمس الملوك اسماعيل ملك اخوه شهاب الدين محمود بن ثوري (بوري) فبقي حتى قتل في سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية، وملك بعده ابنه (مجير الدين ارتق) وفي ايامه تغلبت الفرنج على ناحية دمشق[٢].

لقد اسقط اسم شمس الدولة محمد بن بوري الذي حكم بعد اخيه شهاب الدين محمود. ثم اخطأ مرة ثانية عندما جعل مجير الدين ارتق، ابن شهاب الدين محمود، بينما هو ابن شمس الدولة محمد.

اقام زنكي في بعلبك حتى ربيع الأول[٢٣] يدبر شؤونها، ويعمر ما تشعث من اسوارها، ليدرأ عنها اخطار الفرنجة، ومحاولات البوريين لاستردادها. وهكذا انفصلت بعلبك عن دمشق، وهذا الانفصال ارتدى أبعادا استراتيجية، لأن زنكي اتخذ بعلبك قاعدة عسكرية ينطلق منها لمهاجمة دمشق. عبأ زنكي قواته في بعلبك، وقادها باتجاه دمشق، فنزل على داريا في الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٣٤هـ وهناك التقت طلائع الجيشين. وبعد مناوشات انهزم الدمشقيون وانكفأوا يتحصنون داخل اسوار مدينتهم. فطاردهم زنكي وحصرهم. فخرجت اليه جموع من جند المدينة واحداثها ورجالة الغوطة فأوقع بهم وقتل منهم كثيرا،وأسر بعضهم. وهم لامتلاك دمشق[٢٤] لكنه تردد في دخولها حرباً. وفضل المفاوضات. فأوفد الى صاحب دمشق شمس الدولة، وبذل له بعلبك وحمص مقابل تسليم دمشق. اجتمع اعيان الدولة، وحذروا محمد بن بوري عاقبة الصلح لأن شيمة زنكي الغدر والقتل[٢٥]. ومافعله في أهل لعلبك ما زال يرهبهم ويخيفهم، ويشهد على سوء نواياه. وصدف ان مات شمس الدولة محمد ابان الحصار في الثامن من شعبان سنة ٥٣٤هـ فاستبشر زنكي خيرا وشدد القتال طمعا في النصر[٢٦]. لكن معين الدين انز ــ الحاقد على زنكي، بسبب الجارية ــ نصب على دمشق مجير الدين آبق (ارتق) ابن شمس الدولة، وهو ثالث حاكم لبعلبك تملك دمشق، وتولى انز تدبير دولته، «وراسل الفرنج واستدعاهم الى نصرته»[٢٧]. مل زنكي الانتظار امام اسوار دمشق، فتركها وقصد حوران، ثم عاد الى بعلبك ليدفع عنها خطر الصليبيين الذين وصلوا البقاع[٢٨]. ارتاح في بعلبك، ومنها اخذ يرصد تحركات عسكر دمشق، ويستعد ثانية لمفاجأتها، فنازلها سحرا، ولا يعلم به أحد من اهلها، فلما اصبح الناس ورأوا عسكره، خافوا، وارتج البلد، واجتمع العسكر والعامة على السور، وخرج الجند والرجالة فقاتلوه ودحروه فعاد خائبا[٢٩]. وظلت دمشق هاجس زنكي الأول يتشوق لدخولها فشرع سنة ٥٤٠ يحشد المجانيق في بعلبك، ويستعد لمهاجمتها لكن تحركات الفرنج واتصالات معين الدين انز بهم، جعلته ينسحب باتجاه حمص، ويتخلى عن حلمه الهاجس[٣٠]. ظلت بعلبك مع زنكي حتى مصرعه سنة ٥٤١هـ. عندها اهتبل الفرصة مجير الدين ارتق لاستردادها، وكانت موطن صباه وفيها ولد[٣١]. سار اليها برفقة مدير دولته (معين الدين)، وحصر مستحفظها نجم الدين ايوب، ونصب عليها المجانيق، ولما ابطأ أبناء زنكي عن نصرته سلم القلعة في جمادى الأولى سنة ٥٤١هـ مقابل بعض القرى من ناحية دمشق، مع الاقرار لحقه بثلث بعلبك الذي تملكه ايام زنكي[٣٢]. اقام مجير الدين في بعلبك اياما يستعيد ذكريات الماضي، ويرتب شؤونها فولى قلعتها ضحاكا بن قيس بن جندل بن قيس البقاعي، وأبقى على المدينة نجم الدين ايوب[٣٣]. ثم قفل عائدا الى عاصمة ملكه في الثامن عشر من جمادى الآخرة.

هكذا رجعت بعلبك الى سلطة البوريين، ودام حكمهم لها هذه المرة تسع سنوات تقريبا (٥٤١ ــ ٥٤٩هـ) (١١٤٧ ــ ١١٥٥م). وقد زارها معين الدين انز سنة ٥٤٣هـ، والتقى فيها نور الدين محمود بن زنكي الذي قدم على رأس نجدة لدفع الصليبيين عن حصار دمشق[٣٤]. وفي



هذه المقابلة تسلم (انز) محظيته التي سباها زنكي من بعلبك فأعادها اليه نور الدين محمود في المدينة نفسها. وكانت فاتحة عهد جديد بين الاثنين، فتحالفا وسارا معا الى حصن (العريمة) واستعاداه من الفونس الفرنجي[٣٥]. ويبدو ان معين الدين قد خلف على بعلبك ابان زياته مستحفظاً جديدا هو عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، ذكر القلانسي انه «في سنة ٥٤٥هـ، ابعد يوسف حاجب مجير الدين ارتق من دمشق الى بعلبك، فأكرمه عطاء واليها»[٣٦].

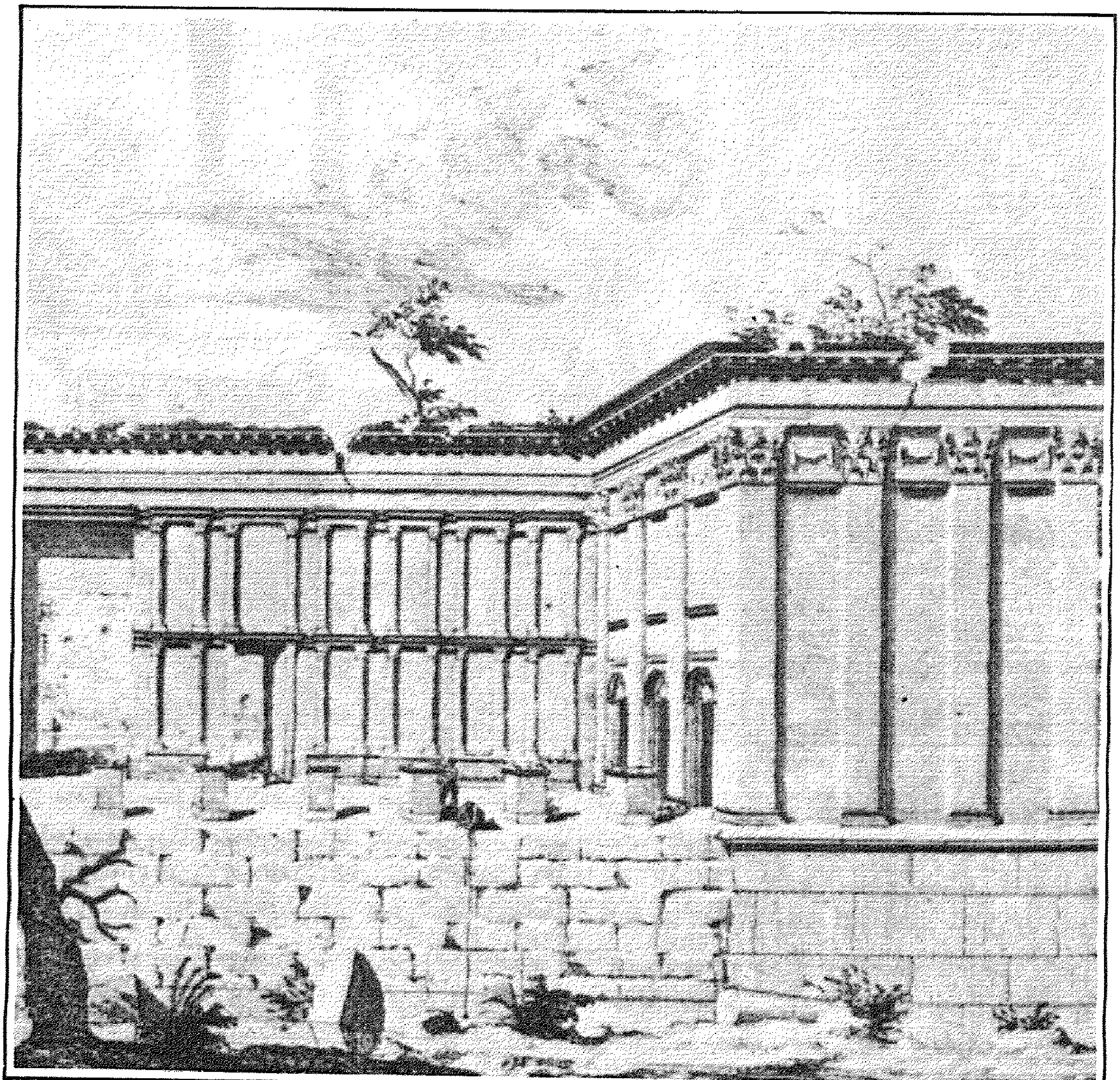
وفي اوائل شهر رمضان سنة ٥٤٦هـ، أواخر كانون الأول ١١٥٢م، هاجم الفرنج بجموع غفيرة قرى البقاع، واستباحوها، ونهبوا المواشي وأسروا الرجال، فتصدى لهم والي بعلبك عطاء وتكاثر عليه المسلمون وصدف ان سقط ثلج عظيم ثبط الافرنج وشل حركتهم، فأدركهم جند بعلبك،

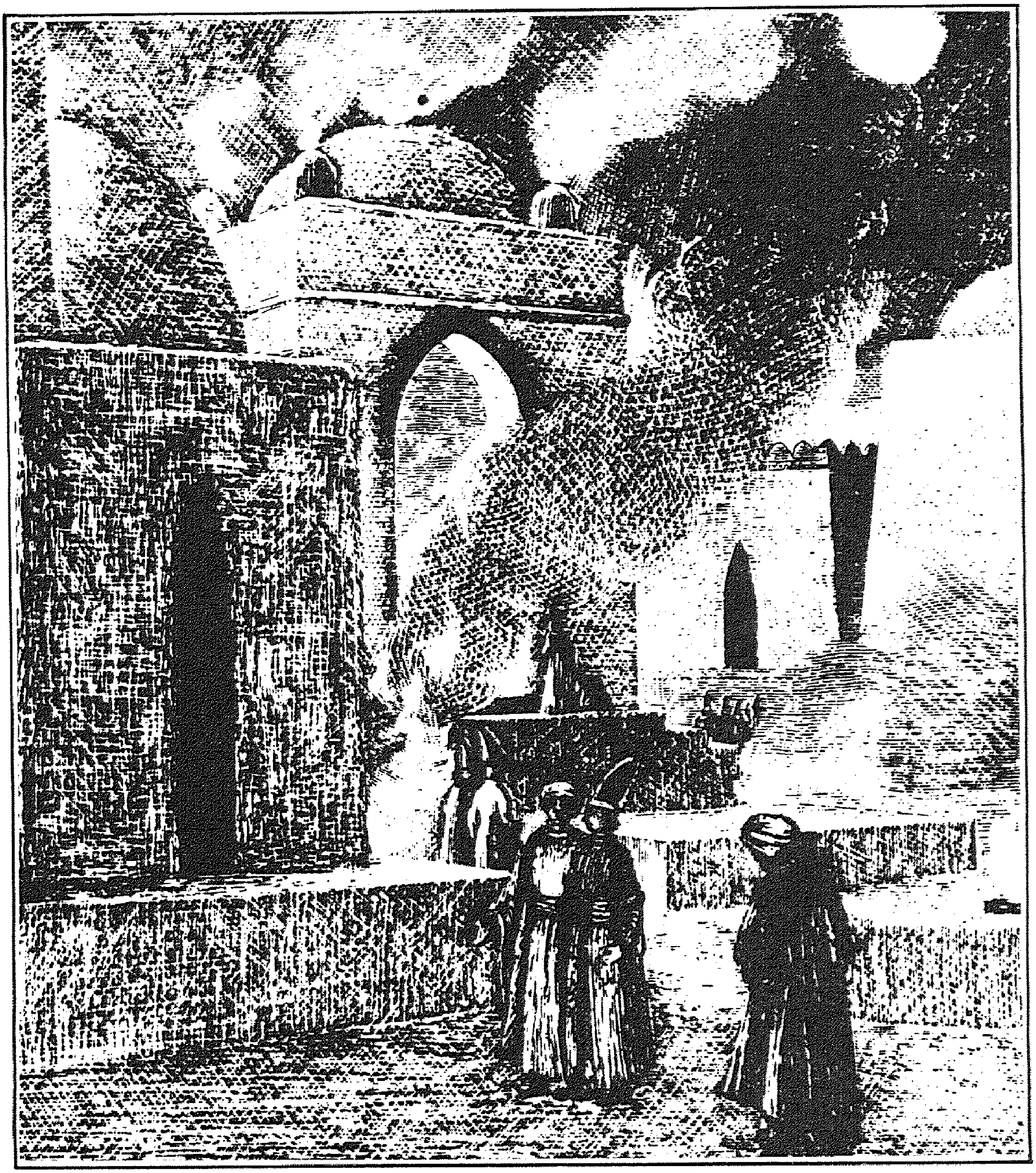
وفتكوا بهم، واستخلصوا من الأسرى والمواشي بقية سلمت من الهلاك بالثلوج(٣٧). هذه الحادثة أوردها ابو شامة لكنه لم يذكر إسم عطاء بل قال: «وصدف وجود فرقة من عسكر دمشق في بعلبك عند نجم الدين ايوب، فضم اليهم جماعة من اصحابه وامر عليهم ولده شمس الدين، فخرجوا يطاردون الغزاة واتفق ان سقط ثلج كثيف، فتورط فيه الفرنج، وادركهم شمس الدولة بجنوده فقتل معظمهم وخلص الأسرى»(٣٨).

أرى التناقض بين الروايتين كامناً في الشكل وليس في المضمون. لأن عطاء كان والي القلعة، ونجم الدين على المدينة وابان الغارة الصليبية اتفق الرجلان على خروج الجيش بقيادة شمس الدلة بن نجم الدين ايوب، ومكثا في المدينة ولم يخرجا لأن الغارة لم تكن من الحجم الذي يقتضي خروجهما.

ظل عطاء على بعلبك حتى جمادي الثانية سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م. عندما زاره مجير الدين واتفق معه على أن يزر له(٣٩) واستصحبه الى دمشق لينوب عنه في تدبير الأمور والأعمال، ويعاونه على مصالح البلد(٤٠). وخلف على بعلبك ضحاكا البقاعي للمرة الثانية.

في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م رغب نور الدين محمود في احتلال دمشق التي صدت والده مرارا، فتودد الى مجير الدين وأكثر من بعث الوفود التي تحمل الهدايا. وكان نور الدين يعلم



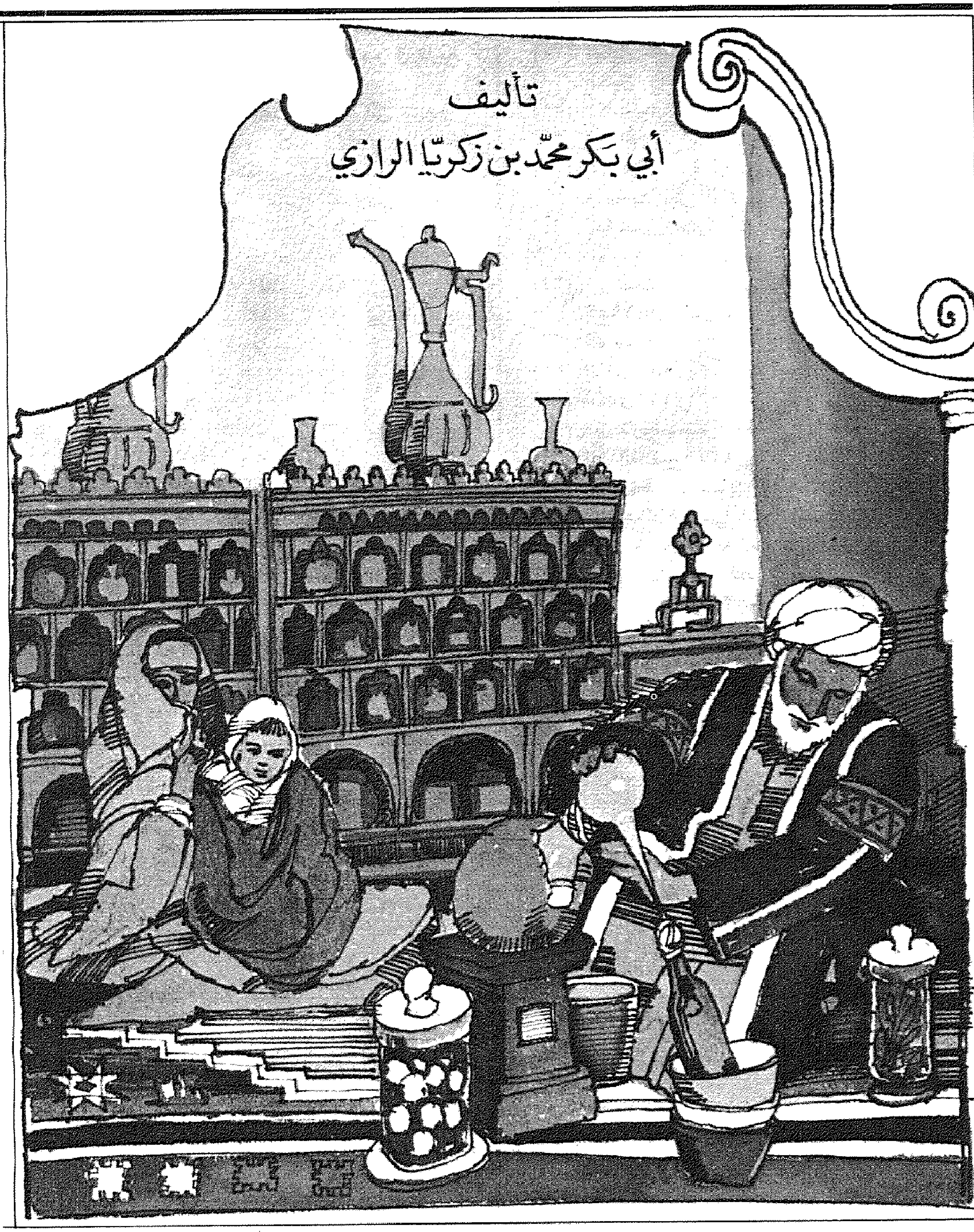


أن مفتاح دمشق هو القضاء على صاحب بعلبك عطاء السلمي،وكان شهما شجاعا. عمد نور الدين الى الحيلة وأفسد بدهائه ما بين مجير الدين ووزيره عطاء اذ كتب الى مجير الدين «قد فقر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه»[٤١] لعلم نور الدين انه لا يتم له امر في دمشق مع وجود عطاء. انطلت الحيلة على مجير الدين واستدعى عطاء ليقتله فقال له: لا تقتلني فان الحيلة قد تمت عليك، وذهب ملكك وسيظهر لك ما أقول. لكن مجير الدين نفذ وعيده[٤٢] ولما خلا الجو لنور الدين حاصر دمشق فاستنجد صاحبها بالفرنج وبذل لهم بعلبك مقابل ردع نور الدين عن دمشق. وبعد عشرة ايام من الحصار سقطت دمشق، وغادرها مجير الدين الى حمص ومنها الى بغداد حيث أشاد داراً قرب المدرسة النظامية، وأقام هناك حتى وفاته[٤٣]. ■

الهوامش

(١) ابن الأثير: الكامل، ١٠/٣٧٥.
(٢) نفسه: ١٠/٣٧٦.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٥/١٢٨.
(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ١٦٦ ــ ١٦٧.
(٥) ذيل تاريخ دمشق: ١٧١.
(٦) الكامل: ١٠/٦٨٠؛ ابو الفداء: المختصر في تاريخ البشر: ٢/٢٤٠.
(٧) الكامل: ١٠/٦٨٠؛ ابو الفداء: ٣/٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر: ٢/٦٠.
(٨) ابن القلانسي: ٢٣٥؛ الكامل: ١٠/٦٨٠.
(٩) الكامل: ١٠/٦٨١؛ ابن القلانسي: ٢٣٦؛ ابو الفداء: ٣/٧.
(١٠) الكامل: ١١/٢٠؛ ابو الفداء: ٣/٩.
(١١) الكامل: ١١/٣٩؛ ابن القلانسي: ٢٥٤.
(١٢) الكامل: ١١/٦٨؛ ابو الفداء: ٣/١٤، ابن الوردي: تتمة المختصر: ٢/٦٧.
(١٣) الكامل: ١١/٦٩.
(١٤) ابو شامة: الروضتين: ١/٣٣.
(١٥) الكامل: ١١/٦٩؛ القلانسي: ٢٦٩؛ ابن الوردي: ٢/٦٧.
(١٦) ابو شامة: ١/٣٣؛ القلانسي: ٢٧؛ ابن الوردي: ٢/٦٨.
(١٧) ابو شامة: ١/٣٤.
(١٨) الكامل: ١١/٦٩؛ ابو الفداء: ٣/١٥، ابن الوردي: ٢/٦٨.
(١٩) ابو شامة: الروضتين: ١/٣٣.
(٢٠) نفسه: ١/٣٤.
(٢١) ان روايات ابن القلانسي (٢٧٠)؛ وأبي الفداء (٣/١٥)، وابن الوردي (٢/٦٨) تتوافق جميعها مع رواية الكامل.
(٢٢) القلقشندي: صحيح الاعشى: ٤/١٦٥.
(٢٣) الكامل: ١١/٧٣.
(٢٤) نفسه: ١١/٧٤.
(٢٥) ابو شامة: ١/٣٣.
(٢٦) ابو الفداء: ٣/١٥، ابن الوردي: ٢/٦٨.
(٢٧) الكامل: ١١/٧٤.
(٢٨) الكامل: ١١/٧٤.
(٢٩) الكامل: ١١/٧٥.
(٣٠) ابن القلانسي: ٢٨٢.
(٣١) ولد المظفر مجير بن شمس الدولة محمد بن بوري، في بعلبك ابان امرة ابيه عليها. وولي دمشق بعد أبيه خمس عشرة سنة. توفي سنة ٥٦٤هـ (الذهبي، العبر ٤/١٨٥).
(٣٢) ابو شامة: ١/٤٧؛ ابن القلانسي: ٢٨٧؛ ابو الفداء: ٣/١٩؛ ابن الوردي: ٢/٧٣.
(٣٣) ابو شامة: ١/٩٩.
(٣٤) الكامل: ١١/١٣١.
(٣٥) الكامل: ١١/١٣١.
(٣٦) ذيل تاريخ دمشق: ٣١١.
(٣٧) ابن القلانسي: ٣١٧.
(٣٨) ابو شامة: الروضتين: ١/٨٤.
(٣٩) كان عطاء السلمي شهما شجاعا فوض اليه مجير الدين شؤون دولته بعد ابي البيان حيدرة بن علي الصوفي (الذهبي: العبر في خبر من عبر: ٤/١٨٦).
(٤٠) ابن القلانسي: ٣٢١.
(٤١) ابن القلانسي: ٣٢٦.
(٤٢) الروضتين: ١/١٩٥؛ الذهبي: العبر: ٤/١٨٦.
(٤٣) الكامل: ١١/١٩٨.

رسالة في أمراض الأطفال



□: عملية تحضير الأدوية، برع العرب في إعدادها خلال عصور طويلة.

وَالعِنَايَة بِهِم

نقلها للانكليزية: صوموئيل اكس. رادبل
نقلها للعربية وعلق عليها:
د. محمود الحاج قاسم محمد



□ صورة زجاجية للرازي.

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي

ولد بالري سنة (٢٥١هـ/ ٨٦٥م). وعاش في بغداد ودفن في الري سنة (٣١٣هـ/ ٩٢٥م)، اشتهر بالطب والكيمياء، أعظم اكلينيكي انجبته الحضارة العربية الاسلامية، ظل حجة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي وتولى رئاسة بيمارستان الري في اول عهده ونزح الى بغداد، حيث عينه عضد الدولة رئيسا للبيمارستان العضدي، وكان دقيق الملاحظة معنيا بتدوين المشاهدات والتجارب، بارعا في التشخيص المقارن. الف نحو ٢٢٤ كتابا ضاع منها الكثير. اشهر تاليفه في الطب النظري، كتاب المرشد أو الفصول. رسالة في الجدري والحصبة والمنصوري ورسالته في طب الأطفال. أما أشهر كتبه في الطب العملي فهو كتابه الحاوي.

مقدمة تاريخية

يجمع المؤرخون على أن الرازي كان اول من فصل بين طب الأطفال والأمراض النسائية وجعله يأخذ شكلاً مستقلا بذاته عندما الف هذه الرسالة في حدود ٩٠٠م وأن هذه الرسالة تعتبر وثيقة هامة في تاريخ طب الاطفال وتطوره ليس لكونها اول مؤلف في طب الأطفال يؤلف على شكل مستقل فحسب، بل لأنها تعكس بوضوح المستوى الرفيع الذي كان قد وصله هذا العلم عند الأطباء العرب ولاحتوائها التجارب التي خاضها الرازي مؤلفا وطبيبا ممارسا.

لقد عولج موضوع امراض الأطفال قبل الرازي عرضيا من قبل ابقراط (٤٥٠ق.م.)، وجالينوس (٢٠٠ ب.م.)، أما سورانوس من معاصري جالينوس عندما كتب كتابه الكلاسيكي في الامراض النسائية والتوليد فأدخل فيه علاج الاطفال، ومنذ ذلك التأريخ حصل الارتباط التقليدي بين طب الاطفال والامراض النسائية في المؤلفات الطبية، الى أن جاء الرازي برسالته هذه وجعل علم طب الاطفال علما مستقلا بذاته.

إن هذه الرسالة لا توجد منها على علمنا اية نسخة باللغة العربية الان ولا نعلم فيما اذا كان الرازي الفها باللغة العربية أم الفارسية، كما يقول رادبل (Radbill)[1] وإن كنا نميل الى كونها الفت بالعربية إذ أن الرازي، كما هو معروف، قد الف أغلب كتبه القيمة في الطب بالعربية.

ترجمت هذه الرسالة للاتينية قبل ظهور الطباعة من قبل سومون في مدرسة جيراد كريمونا (١١١٤ ــ ١١٨٧م)، الا انها نسبت الى جيراد كريمونا. كما ترجمت الى العبرية. اول كتاب مطبوع ظهر في طب الاطفال، كان كتاب

(بيكالادوس) واسمه (De Egitudinium Infantium) في سنة ١٤٧٢م الذي اعتمد كليا في تاليفه على رسالة الرازي هذه.

رسالة الرازي نفسها ظهرت في الطباعة في سنة ١٤٨١م وبعد ذلك اعيد طبعها عدة مرات وفي العادة كانت تدمج مع كتابه المنصوري او فصول الطب لابن الهيثم.

ومن الحقائق الأكيدة ان جميع كتب الأطفال التي الفت في اوروبا من القرن العاشر حتى السابع عشر سارت على غرار النسخة اللاتينية لرسالة الرازي. في العصر الحديث ترجم بايبر (Peiper) بعض فقراتها للألمانية، وستيل (Still) وروهرا للانكليزية إلا أنه ليس هناك ترجمة كاملة منشورة في الطباعة.

سنة ١٩٥٩، ترجمت الى الايطالية في جملتها هذه الترجمة التي اعتمدنا عليها، قام بها رادبل، هي اول واكمل ترجمة انكليزية لرسالة الرازي في طب الأطفال، وترجمها عن النسخة الايطالية، مانزا (Manza) لسنة ١٤٩٧م، والتي هي بحوزته، ونشرها في مجلة طب الأطفال الاميركية سنة ١٩٧١.

وإنه لما حز في نفسي ونحن نقترب من نهاية سنة الطفل الدولية ومن بداية القرن الخامس عشر الهجري، ان اللغة العربية لغةالأم، بالنسبة لهذا السفر الثمين لا زالت تفتقر لها وان لغات عالمية مختلفة احتوت ترجمات لها منذ امد بعيد، الأمر الذي دفعني الى خوض غمار الترجمة لأول مرة، على الرغم من معرفتي المتواضعة لفقه اللغة الانكليزية.

لقد كانت ترجمة الاصطلاحات الطبية واسماء العلاجات الى اللغة العربية من الصعوبات التي لاقيتها، فقد كان لزاما علي أن اقارن مدلولها مع كتب اخرى في نفس الموضوع لأنتقي الكلمات التي اعتاد الأطباء العرب في تلك الحقبة استعمالها، وارجو أن اكون قد وفقت في مسعاي، وإلا فحسبي انني قمت برسم صورة قريبة لكتاب فقد أصله العربي لأملأ بذلك فراغا في المكتبة العربية ولتكون هذه الصورة بديلا للقارىء العربي، لحين العثور على الأصل العربي إن شاء الله، والله من وراء القصد.

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

الرسالة

□ الباب الأول ــ في القروح التي تعرض في الصبيان:

تعرض القروح (السعفة) في الصبيان على الأكثر في الوجه والراس، وتتولد نتيجة زيادة الدم والرطوبة في الجلد[٢]، علامته: قرحة صغيرة يسيل منها ماء فتفترش في الوجه والراس. ويصحب ذلك حكة وصراخ وسهر مما يدفع الصبي الى تمزيق جلده.

ابتدىء في معالجة هؤلاء الأطفال باصلاح غذاء المرضعة، ثم احلق رأس الطفل بالنورة وضع عليه (Atriplex) لأنه على الأغلب تشفى كلية بذلك وحده، حيث أن الأوراق تسحب السم الى الخارج..

او آخر، ضع على الراس مرهم، مرهم للقروح التي تعرض في رؤوس الصبيان، خذ:

اسفيداج الرصاص (٣)	٥ دراهم
مرداسنج	٥ دراهم
رماد حطب الكرم	٣ دراهم
شمع	نصف اوقية

اذب الشمع بدهن الورد ثم دقه مع العلاج واخلطه مع بيضتين مشويتين واطلي به رأس الطفل.

□ الباب الثاني ــ في الجرب في الصبيان:

ان المرض المسمى الجرب هو نوع من القروح، يظهر فيها نوع من القشور، ويكون الجلد مخدشا نتيجة للحكة الشديدة، ويجرى من هذه القروح مادة شبيهة بالعسل

العلاج، يكون بقشط الراس يوميا وغسله بحبق الماء ونبات المرزنجوش ثم طلائه بالدهن التالي، خذ:

مرداسنج	مثقالين
اسبيذاج	مثقالين
كبريت	مثقال
بورق	مثقال
دهن الورد	جزئين
خل	جزء واحد

اخلطهم وأذبهم مع دهن الورد والخل حتى

يحصل لديك مرهم، واطلي به صباحا ومساء واغسل الرأس بالسائل المذكور سابقاً.

□ الباب الثالث ــ في كبر الراس في الصبيان:

يولد الصبيان براس كبير وبعد الولادة يزداد في الكبر أكثر مما يجب، وقد شاهدت طفلا كبير الرأس طولا، وسعة لدرجة ان كان من الصعوبة حمل الرأس على الجسم ولم يتوقف تضخم الرأس حتى توفي الطفل. ان مثل هذا الكبر يعرض في الراس، اما من ريح ينتشر في عظم الرأس(٤) أو من تجمع ماء محصور داخل الرأس لا يجد له منفذا للخروج(٥). في معالجة ذلك، ابدأ بتنقية المرضعة بمادة (Artriplex) وتؤمر باجتناب كل غذاء يولد ريحا وفضلا غليظا، ثم تبدأ في معالجة الطفل بأن تسعفه بهذه الأشياء مثل دهن اللوز المر أو دهن اليانسون والأحسن دهن الناردين أو محلول السماق. إذا برىء الطفل بذلك اكتفي به.

وإذا لم يتشاف فعندئذ تتخذ له عصائب من اللبان والاسكنجبين والعنزروت وصمغ اللون، اذا برىء لا تعمل شيئاً آخر وإذا لم يبرأ، خذ القصب ودقه مع قشوره حتى يحصل نوع من المرهم، وامزج مع هذا قليلا من اللبان وضعه على الراس كله بعد حلاقته واتركه عليه عدة ايام. هذا العلاج يصلب الراس ويرجعه الى خلقه الاعتدال، ثم اسعط الطفل بمرارة الذئب أو دماغه وقليلا من المر أو العنبر، اعمل ذلك في أي شهر ترغب.

صغر الرأس اذا حدث من الولادة ليس إلى برئه حيلة(٦).

□ الباب الرابع ــ في انتفاخ البطن في الصبيان:

يحدث انتفاخ البطن في أغلب الأحيان لدى الصبيان الذين لديهم تضخم في الراس(٧).

علاج ذلك، هو أن تأخذ، المر والصبر والزعفران وتمزجها مع ماء الهندباء وتطلي به الرأس، اما اذا هزل الجسم في حالة انتفاخ البطن المصحوب مع تضخم الرأس، خذ:

سمسم	٥ دراهم
جوز ولوز	٧ دراهم لكل منهما
رازيانج	مثقال واحد

تدق جميعها ويستخلص منها الدهن ويسعط منه الصبي ربع درهم(٨) ويدهن رأسه. وكذلك تسعط المرضعة به وتسقى منه شيئاً مع الحليب.

□ الباب الخامس ــ في العطاس في الصبيان(٩):

العطاس يحدث من الدماغ أو من أغشيته. وعلامته ان تغور العينان بافراط ويتبعه حمى عالية.

علاجه، يكون بأن يوضع على هامته اوراق البقلة الحمقاء أو قصاصة قرع مع دهن الورد وطحين الشعير أو اطلي الرأس بمح البيض والدهن.

□ الباب السادس ــ السهر في الأطفال:

يعرض السهر في الصبيان في الدرجة الأولى من أسنانهم من رداءة اللبن.

علاج ذلك، يكون بأن يسعط الطفل بدهن البنفسج ودهن الزعفران. أو دهن الشبث مع عصير الخس وأن يطلي الرأس والمعدة ببعض هذه الدهون. ويجب أن تهتم باصلاح اللبن، اعطي الطفل من شراب الخشخاش واطلي صدغيه وجبهته بدهن الافيون والزعفران.

□ الباب السابع ــ في الصرع في الصبيان:

الصرع يكون على نوعين، اما يولد الطفل مصابا به بسبب سوء مزاج طبيعي يغلب على الدماغ رطب أو عفن. أو يحدث عرضيا لهؤلاء الأطفال. وعلامة كونه طبيعيا، ان الطفل يولد مصابا به. وعلامة كونه عرضيا هو حدوثه بعد الولادة. علاج النوع الولادي يكون بملاحظة الغذاء لأن الطفل حينما يتجاوز هذا الدور يشفى منه ولكن اذا لم تتحسن حالته فإن هذا البلاء يرافق الطفل حتى الممات. وعلاج النوع العارض يكون بالحذر من فساد اللبن، فعلى سبيل المثال يجب ان يعنى بتنقية رأس وجسم المرضعة وأن تجنب الأغذية التي تولد البلغم، وان لا يرضع الطفل الا مقدار ما يستطيع هضمه أو حتى أقل



□ طبيب يعاين مريضاً يعاني من لسعة حية، عن طريق قتلها ومن ثمَّ اكلها مع بعض الثمر.
«كتاب الادوية» لبسدوجالين.

من ذلك وسعطه بسعوطات حارة ودعه يشم حلتيت وقطران وادلكه بدهون حارة وعلق حول عنقه نبات الفاوينا واربط حجرة خضراء على رجله وإذا ما استمر ذلك فأعط الترياق الكبير.

□ الباب الثامن ــ ام الصبيان:

يتابع هنا الكلام حول علة خاصة تسمى القرين الولادي أم الصبيان. تحدث هذه العلة للأطفال في الدور الأول من حياتهم. علامته صراخ أو خوف شديد عند النوم وحمى عالية بسبب قلة النوم وتفوح من فم الطفل عفونة وسبب ذلك هو رضاعة الطفل اكثر مما يستطيع هضمه.

علاجه: اصلاح الحليب وأن يعطى الطفل سدس الدرهم من الـ (Diasmuscum Diapliris) مع الحليب يومياً. وأحسن علاج في هذه الحالة الترياق الكبير.

□ الباب التاسع ــ في الرطوبة العارضة في اذان الصبيان:

يتابع هنا عن سيلان الرطوبة في اذان الصبيان تحدث هذه العلة في الادوار الأولى من الحياة من رطوبة الدماغ.

علاج ذلك: يوضح فتيلة من السلك القديم في اذن هؤلاء الأطفال وعندما تتشرب بالافرازات، ارمها وابدلها بأخرى. قد يشفى بصورة جيدة نهائياً بذلك. وإذا لم يشف خذ صوفا مبلولا بشيء من شب مذاب، وضعه في الاذن فإن الرطوبة تجف. وخذ الزعفران والبارود، أو خذ زعفران ونطرون وأذبهما في شيء من خل وماء وقطره في الأذن.

□ الباب العاشر ــ في جريان السم من الأذن:

هنا يعقب للتحدث عن السم. ويحدث ذلك للأطفال من بثرة أو قرحة في الأذن، لذلك يكتفي بتقطير عسل مغلي مع الماء لأن ذلك ينظف السم في الأذن. أو خذ اوراق الآس والعفص وانقعه مع الخل وقطره في الأذن.

□ الباب الحادي عشر ــ في امراض العين في الأطفال:

يعقب هنا للتحدث عن اوجاع العين في الأطفال تحدث امراض مختلفة في أعين الأطفال

من بينها انتفاخ في العين وانسداد الأجفان. يحدث ذلك عرضيا من تأثير المواد التي تضعها الأم على رأس الطفل مثل الحناء وما شابه ذلك فيسيل قسم من الفائض الى الأسفل من الرأس الى العين. ويحدث في الصدفة احيانا نتيجة سيلان القيح الساخن أو البارد الى العين.

علاج النوع الذي يصحبه احمرار في الوجه وحمى في الجبهة ان تأخذ:

عصير عنب الثعلب	درهم
اوراق الورد	درهم
زعفران	درهم ونصف
مرة	درهم ونصف

اسحقها وامزجها مع ماء الهندبان وحليب المرأة. وضعها فوق العين والجبهة. غير ذلك يوميا حتى تنفتح العين ان ذلك يعطي نتائج حسنة في الأطفال. إذا لم يكن اي احمرار في العين وحمى في الجبهة خذ المر، والزعفران، والصبر وورق الورد وامزجها مع شراب جيد وضعها فوق العين..

وقد حصلت على نتائج افضل بالتجربة(١٠) وذلك بادخال قليل من العنبر في الأنف وطلائه بحليب المرأة. اذا احدثت إصابات اخرى في عين الطفل مثل الجرب والبهق وما شابه عالجه في العلاجات المذكورة والموصوفة للبالغين والشباب ولكن بمقادير اقل.

□ الباب الثاني عشر ـــ في الحول:

يعقب هنا للتحدث عن العلة التي يبان فيها الطفل أو ينظر محولا قائلا هذه الحالة اما تكون ولادية أو تحدث بعد الولادة.

علاج ذلك يكون بوضع سراج في الليل في الجهة المعاكسة للعين. وان تعلق دمية جميلة ملونة بألوان مختلفة فوق السرير عندما يكون راقدا أو جالسا في السرير حتى يستقيم النظر.

□ الباب الثالث عشر ـــ في امراض الأسنان:

يتكلم هنا عن الأوجاع التي تحدث للأطفال اثناء خروج الأسنان.

قال جالينوس: ان الأسنان اذا نبتت سريعا كان نباتها أيسر وأقل وجعا غير انها تكون رديئة ضعيفة وإذا نبتت ببطء كان نباتها شاقا موجعا الا انها تكون قوية، وإن كان نبات الأسنان في الربيع نبتت بسرعة وبأذى قليل وان كان في الشتاء اشتد عليهم الا ان اللثة لا ترم وإن كان في فصل القيظ عرضت لهم الام قليلة. وقد يحدث في هذا الوقت خراج صغير للأطفال في اللثة أو الفك أو الأنسجة الرخوة. وحكة في الأذن مع سيلان رطوبة ودم. ومن يحدث له مثل ذلك من الأطفال يصحب ذلك فيهم حمى، واختلاف أو اعتقال الطبيعة.

علاج ذلك: عندما تكون اللثة متورمة يجب تدليكها بالاصبع قليلا ثم بزيت الزيتون أو دهن الدجاج أو مخ الأرنب أو لبن كلبه وضع بابونج ويانسون على رأس الطفل وضمد فك الطفل بلزقة محللة.

اما اذا زاد الوجع عند نبات الأسنان: خذ زبدة طرية، دهن الأمجاد امزجها مع بعضها وضعها فوق الموضع. أو خذ زبدة من حليب البقر ونخاع عظم الفخذ واطل بها الموضع. عندما يظهر رأس السن ضع صوف نظيف على الرأس كله مع الرقبة ورش ماء ساخنا على الصوف يوميا. اذا حدث اختلاف عالجه كما سنقول.

□ الباب الرابع عشر ـــ في القروح العارضة في افواه الصبيان:

يعرض للصبيان في الدرجة الأولى من اسنانهم قروح في الفم لرداءة الحليب أو غلظه. هذه التقرحات إما تزداد بصورة حادة سريعة وشديدة أو تبقى كما هي. علامة النوع الشديد هو احمرار مع وجع شديد وسيلان اللعاب. وعلامة النوع البسيط هو أن التقرحات تنقلب الى لون ابيض مع وجع بسيط ويكون اللعاب الذي يسيل داخل الفم كثيرا.

علاج النوع الشديد من التقرحات: هو اصلاح لبن المرضعة بالأطعمة الباردة والرطبة أو خذ قليلا من النشا وحله بماء الورد واطلي به. وضع في فم الطفل ماء التفاح البري أو ماء الرمان. اذا كان النوع الحاد اقل شدة، امزج مع هذه عصارة الخس أو البرتقال او البزرقطونا.

علاج التقرحات القليلة الصديد والمائلة الى البياض هو أن تأخذ:

المر	درهم واحد
الزعفران	درهم واحد
سكر	ضعف ذلك

دقه وضعه في الفم.

اذا اسودت التقرحات او تعفنت يجب أن تعالج بالأدوية التي توصف للكبار.

□ الباب الخامس عشر — في القيء في الصبيان:

يحدث القيء في الصبيان في الدرجة الأولى من اسنانهم من أسباب متعددة؛ اما لكثرة ما يتناولونه من اللبن عما يستطيعون هضمه، أو لرداءة اللبن، وإضافة لذلك اذا كان الطفل ذا معدة رطبة أو ضعيفة[11].

علاج ذلك، هو أن تقلل رضاعهم وأن تفحص القيء إذا كان فيه رائحة حادة أو اخلاط، فخذ اللبان سدس درهم مع شراب (الفجل) ثلث درهم. دقها وامزجها مع شراب الورد واعطه للطفل أو دع الأم تأخذ قليلا من الكمون والسماق وتضعها في فم الطفل. او ما عدا ذلك انصحها ان تعطي الطفل شراب الرمان المتخذ بالنعناع.

اواخر / جربته / خذ

عو	نصف درهم
مصطكي	نصف درهم
عفص	سدس درهم

اطحنها مع بعضها وامزجها مع شراب الورد وقليلا من الطحلب واعطه للطفل قبل الرضاعة. وضع على معدة الطفل اللبائخ التالية:

مصطكي، صبر، شجر النط، عفص، لبان ذكر، خبز محمص، من كل منها كميات متساوية امزجها وضعها فوق المعدة. فانها علاج مجرب للقيء وسيلان اللعاب من افواه الصبيان.

اذا لم تكن رائحة القيء حامضا بل حاد والحرارة مائلة للطبيعة، أو اللون للشحوب أعط الطفل: رب السفرجل أو التين أو أقراص، منها: أقراص مفيدة لقيء الأطفال، خذ:

ورد	٤ دراهم
سخام	٤ دراهم
عفص	درهمين
حبوب نبات الحميض	درهم
حبوب الرجلة	درهم
خرنوب	نصف درهم

اطبخها في قدر فيه ماء من ساقية الحقل أو ماء الرمان لحد درهم واحد، وأعط الحبوب للطفل مع شراب الورد وضع فوق المعدة لبيخة من النوع المفيد للقيء والاختلاف الذي يحدث في الأطفال.

خذ طحين الشعير، وعوسج، قشور الرمان من كل واحد كمية متساوية، امزجها مع ماء الورد وضعها فوق المعدة.

□ الباب السادس عشر — في الاختلاف (١٣) العارض للصبيان:

يعرض الاختلاف في الصبيان على الوجه الأكثر عند قرب نبات الأسنان كما ذكرنا سابقا، أو من سبب البرد عند لفه بالقماط أو من سبب تعفن الحليب من الصفراء أو البلغم علامة كونه من الصفراء هو إذا كان لون براز الطفل ليمونيا ذا رائحة حادة ويخرج بدون توقف. علامة للبرد والبلغم ان يكون البراز أبيض وفيه فقاعات واذا لم يكن البلغم لزجا فان البراز يأتي سريعا.

العلاج: هو أن يسقى الطفل شراب الورد، أو عصير التفاح أو الرمان مع النعناع وأن يسقى الطفل (Spodium) موضوع في ماء أو بأخذ خميرة ويحلل في ماء ويرشح، ويضاف سدس درهم (Spodium)، ثلث درهم عفص، ونصف درهم زعفران ويسقى للطفل.

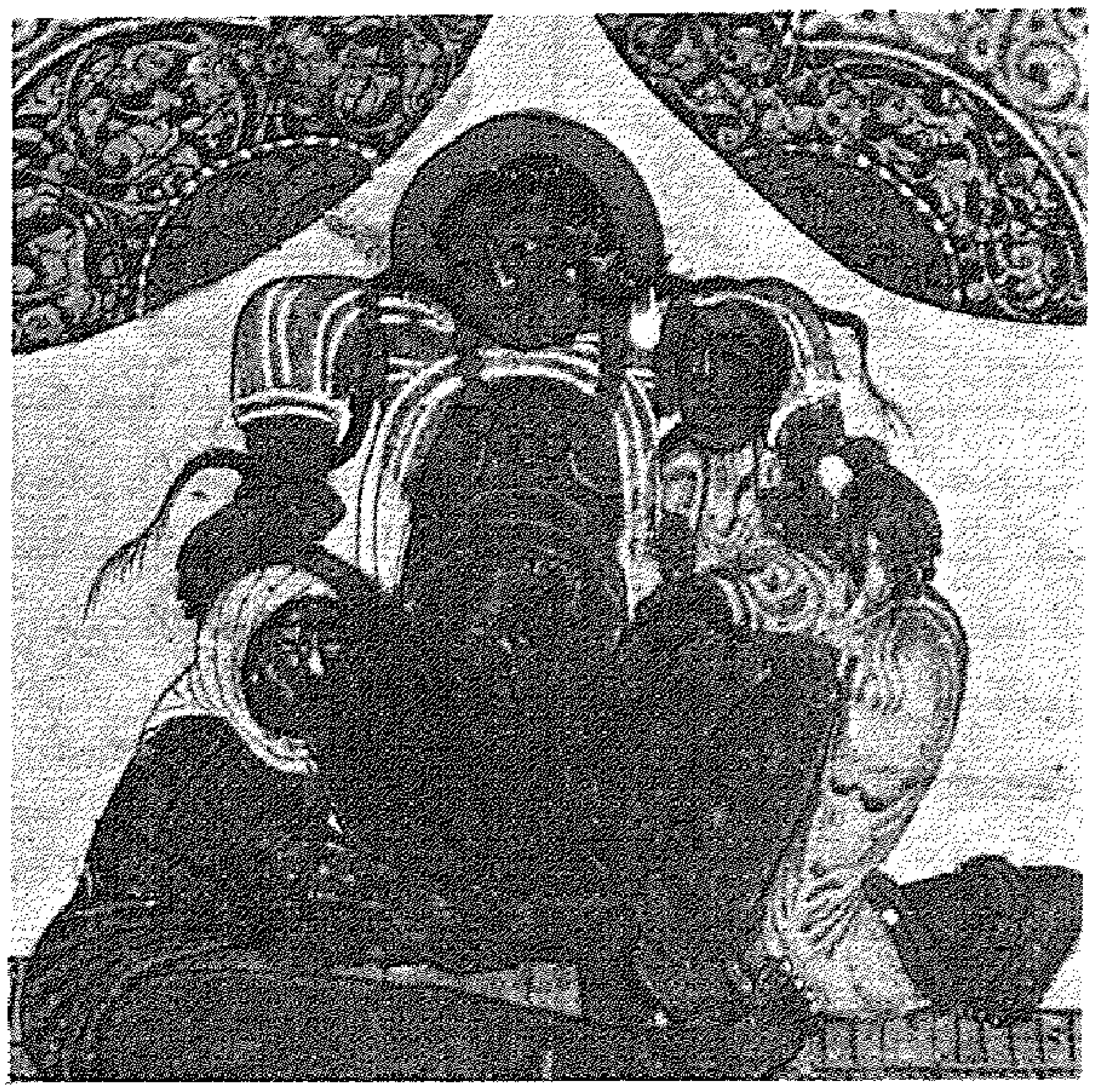
آخر: خذ بذور الحميض والبنفسج وامزجها مع البيض المشوي واسقها للطفل. أو أعط بعض العلاجات التالية: خذ

بزر الحماض	٤ دراهم
قشور بزر الزبيب المقلو بالبلوط	٤ دراهم
حب الخشخاش الأبيض	درهمين
اوراق زعفران	درهمين

دقها وأعط الطفل منها مع رب السفرجل او شراب الورد.

اوضع على المعدة لبائخ قابضة، خذ:

خلاصة السماق ودبس مع طحين الشعير



□ إن أكثرية الوثائق المصورة التي تعكس لنا الحياة اليومية العباسية خلال القرن الثالث عشر تعود إلى رسوم منمنمات الرسام العربي «الواسطي» الذي أبدع في تصوير «مقامات الحريري» وهنا نموذج يمثل «عملية الولادة». (المقامة ٣٩).

أو طحين الذرة مع ماء وضعها، إذا بطل الاستطلاق ذلك جيد وإلا فخذ:

طلح	درهم
اسبيداج	درهم
افيون	سبع دراهم

اعطها على شكل لبيخة وضعها فوق المعدة وفي الحال يتوقف الاستطلاق.

ومهما كان سبب الاختلاف سواء من البرد أو البلغم أسق الطفل ثمن درهم عفص مع عصير التين أو ربع درهم لبان ذكر. لبيخة تعمل على الامساك وتفيد جيدا معدة الطفل: خذ زعفران، مر، شمع، امزجها مع بعضها مع شراب وضعها فوق المعدة.

□ الباب السابع عشر — في اعتقال الطبيعة[١٥] في الاطفال:

يعرض الاعتقال كثيرا للأطفال.

علاج ذلك: أن تعطي المرضعة قليلا من الخيار البري وفي اليوم التالي امرها ان ترضع الطفل. أو خذ أجرا ترابيا واعمل منه مراهم وضعه على الطفل. أو خذ روث فأر الحقل ودقه مع دهن كلية العنزة واعمل منه شياف وادخله. واذا حدث ميل للاعتقال في الشهر الثاني وكان مصحوبا بحمى ولم يستطع القيء، فخذ عنزروت ثلث درهم واسحقه مع حليب امه، أو احقنه بدهن البنفسج.

□ الباب الثامن عشر — في سعال الأطفال:

يعرض السعال للأطفال في الدرجة الأولى من اسنانهم لأنهم غير قادرين على سد الحنجرة واللسان لعدم نضوج الصدر والأعضاء. علاج ذلك بالمداواة والحمية. وان هؤلاء الأطفال لا يعالجون بالعلاجات القوية والحادة.

خذ بدلا من ذلك لوزة الأرض الحلوة، ذوبها مع الشمار وامزجها مع الحليب واسقها للطفل. اما إذا كان مع السعال بحة ويبوسة فخذ طحين السفرجل وانقعه في ماء ساخن ثم افصل القسم الجيلاتيني واغله على نار مع دهن اللوز واحفظه اذا كان مصحوبا مع حمى. امزج معه الرمان الحلو.

علاج الأطفال للسعال المصحوب بحمى، خذ:

الخشخاش الأبيض	نصف درهم
كثيراء بيضاء	نصف درهم
قثاء مقشور	درهم واحد

امزجه مع محلول خلاصة المواد.

علاج آخر لسعال الأطفال: خذ الزبيب اليابس منزوع العجو. اغله في مغرفة حديد واحرص عليه من أن يحترق، وحركه حتى يبرد ثم دقه، وخذ منه جزءا ومن الفانيذ جزءا فاخلطهما واطعم منه الطفل صباحا ومساء بمقدار البندقة.

اخر السعال البرد: خذ المر، امزجه مع دهن اللوز واعطه للطفل. اذا كان الصدر محتقنا بالسوائل خذ صمغ الكثيراء والقثاء بمقدار متساوي من كل واحد واخلطه مع البيض المشوي واستعمله. واذا حدث ضيق في التنفس خذ بزر الكتان دقه واعجنه مع العسل. أو خذ بزر القطن وامزجه مع البيض المشوي. إذا كان مع السعال اختلاف أعط شراب الآس المغلي بالحليب أو مغلي التمر مع الغذاء العادي أو الحليب وأعطه للطفل[١٦].

□ الباب التاسع عشر — في الحكة والسحج في الأطفال:

الحكة والسحج تعرض في الأطفال في منطقة الورك من حدادية البول. وقد يظهر على جسم الطفل احيانا قروح مختلفة من رداءة اللبن نفسه. بعض هذه القروح تكون بيضاء وبعضها سوداء وتكون قسم منها مؤلمة جدا وقسم اخر غير مؤلمة اطلاقا. اذا كان النوع ا سود مصحوبا بحمى فان ذلك ينذر بالموت.

العلاج المعتاد هو أن تبدأ باصلاح اللبن، وان تضع الطفل في حوض ماء حار لاخراج الفضول من داخل الجسم الى سطح الجلد. واعط الطفل ايضا علاجات تخرج الفضول من داخل الجسم الى سطح جلد الطفل مثل خلاصة التمر أو التين أو ماء الفينول. وعندما تتأكد ان جميع الفضول خرجت، حمم الطفل يوميا بمحلول خلاصة ورق الورد والآس وما أشبه، ثم أخرج الطفل من الحمام وادهنه بدهن الورد.

واذا كانت القروح يابسة، حممه بدهن البنفسج، واذا كانت رطبة من الافرازات المؤذية الكثيرة ضع عليها اسفيداج ممزوجا مع شمع ودهن الورد.

اذا كان هناك حكة والطفل أكبر من ٦ — ٧ أشهر حممه في محلول من خلاصة البنفسج اليابس والشعير الصدفي والخطمية وحلبه، وفينول والقرع. ولكن لا تدهن الطفل بأي نوع من الدهان، واسق المرضعة عصير أو تمر الأملج أو الحمضيات وحذرها من كل ما هو حلو ومالح من الأكل وكذلك المأكولات التي تسخن الدم.

اذا حدث اصابات اخرى اثناء المعالجة، رشهم ببودرة الذرة، السخام، الحلبة، الورد، الآس وطحين الشعير.

□ الباب العشرون — في الدود العارض للأطفال:

ليس من الصواب اعطاء الأطفال علاجات قوية ليشربها ضد هذه الافات، ولكن يجب ان يختار من بينها تلك التي تستعمل خارجيا.

علاج لاخراج الدود من الأمعاء: خذ كمون، دقه مع مرارة ثور ولطخ به السرة.

آخر: خذ ترمس درهم واحد، شيح، توت الخليج، مقادير متساوية من كل واحد، وحللها مع صفراء الثور واعط منها درهم يشربها يوميا، أو زيت الزيتون، أو دع الطفل يأكل اللوز الحلو.

□ الباب الحادي والعشرون — في ورم السرة ونتوها العارض للصبيان:

يعرض ورم السرة في الصبيان من بكائهم بكثرة وعصرهم أو من السعال الشديد، أو صدفة، وقد يحدث من حادثة أو عند ضربه عمدا.

علاجه: أن تأخذ ترمس وأن تعمل قطعا من الكتان وتحرقها وتمزجها مع الشراب وتلطخها على السرة وتضع قطعة قماش عليها تحت الملابس. وإذا كانت من النوع التي تصغر أكو السرة حول حلقتها[١٧] وليس في المكان الذي تصغر منه لسبب رقة الجلد. اذا لم ترغب في علاجات قوية استعمل العلاجات التي سوف نذكرها في باب الفتق.

□ الباب الثاني والعشرون — في فتق الأطفال:

سبق وأن تكلمنا في الباب السابق عن الطرق التي يحدث فيها الفتق لا نحتاج لاعادة القول وسوف نتكلم عن العلاجات المهمة للأطفال.

لزقة تساعد على التئام الفتق في الأطفال: خذ خمسة عشر مثقال من الشب، مثقالين من العفص، دقهم وامزجهم مع الشراب حتى يثخن وضعه على المكان وضع عليه اسفنجة مبلولة في

الخل والماء. عند سقوطها ابدلها بأخرى.

علاج آخر لطيف: ضع قليلا من الغراء على قماش وضعه على المكان واجعله يلتصق اطول ما يمكن، وإذا سقطت ابدلها بأخرى.

□ الباب الثالث والعشرون ـ في الحصى المتولد في مثانات الصبيان:

الحصى الذي يتولد في مثانة الأطفال يحدث حرقة وشدة الوجع وعسر البول ويجد الصبي حكة في احليله وغالبا يكون الاحليل قائما.

علاج ذلك: ان تحمم الصبي يوميا بماء حار وأن تعطيه العلاج التالي:

علاج مدرر ومفتت الحصى: خذ لبان ذكر، سعد مقدار متساوي من الاثنين واعجنه بالعسل واعـط منها بمقدار البندقة صباحا ومساء.

علاج أكيد ضد اوجاع الحصى وعسر البول: خذ سبع جوزات واسحقها بقشرهن وخذ باقة كرات غيرمغسول فدقها عليه واعصر ماءه في قدح زجاج وصفه واسقه للطفل كل صباح لسبعة ايـام. اذا سكن الألم ونـام، ادهن الاحليـل والخصي بـزيت زيتون قـديم أو بدهن الحبـة الغالية.

□ الباب الرابع والعشرون ـ في الشلل في الأطفال:

يحدث الشلل في الأطفال اما في طرف واحد أو في الجسم كله، وتمنع الطفل من المشي أو أي نوع من الحركة. ويحدث من سبب رطوبة لطيفة تشل العصب.

علاج ذلك: اذا لم تكن ولادية هو أن تسقي المرضعة شروب معمول من أدوية لاذعة واجعل غذائها يابسا، مثل اشياء مشوية وأن لا تتناول الحليب أو لحم ضأن أو سمك أو شراب وقبل أن يرضع الطفل آمرها ان تضع الطفل في حمام وأن تدهن مفاصله بدهن الخروع واستعمل يوميا المعاجين التالية:

معجون ركبة جالينوس للأطفـال المصابـين بتشنج في جميع الجسم، خذ حبق الماء، الورد، قرفة، مستكي، مسمار، ارتيكا، جـدوار، كبش قرنفل، من كل واحد مثقال، عود الصندل، مقدار درهم واحد، مسك نصف درهم.

اخلط هذه العلاجات مع البلسم وامزجها مع العسل أعـط درهما أو درهما ونصفا يوميا.

إذا كان التشنج في كل الجسم: ضع فوق الجزء الخلفي للعمود الفقري لزقة والتي يمكن عملها هكذا:

خـذ شمع درهم واحـد (   ) درهم واحد، زيت الزيتون قدر الحاجة وامزجها.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش

(١) مقال: The first treatise on pediatrics, by Samuel X. Radbill, American Journal of Disease of Children, November 1971, Vol. 122, No. 5.

(٢) بالنسبة للرازي جميع انواع الطفح يحدث نتيجة التخمر في الدم والذي ينتج عنه مواد غريبة تقذف للخارج خلال مسام الجلد في شكل طفح. نظريته هذه تطورت فيما بعد الى النظرية الحديثة حول الانزيمات والخمائر.

(٣) الرازي أول من استعمل الرصاص في الأمراض الجلدية واستمر استعماله حتى اليوم علما بأنه قد يؤدي احيانا للتسمم بالرصاص.

(٤) على الاغلب يقصد بذلك ما نسميه اليوم الارتشاح المصلي أو الدموي والذي يتقعر اثناء الكبس.

(٥) يكـون بذلك الرازي قـد ميز استسقـاء الدماغ الداخلي.

(٦) ملاحظة صائبة ودليل على تميزه بين الولادي منه والمكتسب.

(٧) ربما يشير بذلك للمصابين بالكساح.

(٨) جاء في الترجمـة الانكليزيـة ٤ دراهم والصحيح ما ذكرنا قياسا لما جاء في الكتب المماثلة وفي نفس المرض والوصفة.

(٩) على الاكثر يقصد بذلك التهاب الدماغ أو التهاب السحايا.

(١٠) اشارة صريحة لقيامه بتجربـة العلاجـات وعدم التقيد بآراء السابقين.

(١١) الأسباب التي ذكرها صحيحة ومطابقة لما نقوله اليوم ولكن بتعابير مختلفة.

(١٢) مثال آخر على تجربة العلاج عند الرازي.

(١٣) الاختلاف، الاستطلاق = الاسهال.

(١٤) علاج حسن وصحيح.

(١٥) اعتقال الطبيعة = الامساك.

(١٦) تقسيمه لانواع السعال ووصف العلاجات المختلفة لكل نوع تقسيم جيد.

(١٧) مع كون هذه الطريقة اهملت علميا الا انها لا زالت مستعملة في بعض قطاع العالم.

اغتيال ملك ي



□ الملك بعد أن صرع.

وغوسلافيا

د. رياض العالي

٩ تشرين الأول ١٩٣٦ الساعة الرابعة والربع، في مرسيليا!.. كان موكب ملك يوغوسلافيا، اسكندر الأول، يتقدم على الكانوبيير وكان في سيارة ديلاج سوداء فخمة، ينكشف غطاء قسمها الخلفي، وجلس فيه، الى اليمين الملك، وإلى شماله لوي بارتو وزير الخارجية، ويقابله، على مقعد معكوس، الجنرال جورج. وعلى جانبي الشارع، حشود ضخمة، ترقص وتهتف: «عاش الملك».

فجأة، انبثق من الرصيف رجل يهتف «عاش الملك!»، واندفع نحو العربة. لم يفكر احد في ايقافه. كان على كل حال، قد صعد درجة السيارة، واستل مسدساً، وراح يطلق على الملك، الذي انزلق سريعاً من الحياة الى الموت.

لماذا اريد قتل ملك يوغوسلافيا؟ ولماذا قتل بهذه السهولة؟ تلك هي الأسئلة التي طرحها الكثيرون، عشية حادث الاغتيال!

الحكاية قديمة جدا! إنهم سلاف الجنوب، الذين يشكلون اليوم جمهورية يوغسلافيا! في يوغسلافيا شعوب قلما اتفقت في ما بينها. من هذه الشعوب: الصرب، والكروات والسلوفين. ولم يكن يؤلف بينهم، في القرن التاسع عشر، الا الرغبة الجامحة في التخلص من السادة الحكام، سواء كانوا أتراكا أو نمساويين.

عام ١٨٠٤، تزعم ثورة الصرب الوطنية، رجل يدعى جورج كاراجورجيفيتش. وقد اغتيل بعد أعوام من ذاك. وقد أمر باغتياله ميلوش اوبرينوفيتش الذي كان يدعي امارة الصرب وراثياً. ومنذ ذلك الحين والعائلتان في حرب مستمرة، مما أتاح لعدة انقلابات واغتيالات.

عام ١٨٨٩ اعلن اسكندر أوبرنوفيتش الأول ملكا على صربيا. عام ١٩٠٠ تزوج دراغا الجميلة، وهي ابنة مهندس تشيكي. وكان الصرب يكرهون الاثنين. عام ١٩٠٣ اغتيلا في قصرهما في بلغراد. وبعد أربعة ايام اعلن بيير كاراجورجيفيتش ملكاً.

في عهد بيير الأول ملك صربيا، اغتيل الأرشيدوق فرنسوا فرديناند في ساراجيفو. فوجدت صربيا نفسها تواجه عدوين هما النمسا وهنغاريا. واندلعت الحرب العالمية الأولى وانفجر الخلاف بين سلاف الجنوب. وقاتل الصرب الى جانب فرنسا والانكليز والروس، بينما قاتل الكروات والسلوفين الى جانب النمسا. مع ذلك كان الجميع يطمحون الى الاستقلال، ولكن بطرق



□ الكولونيل بيولي على فرسه يضرب القاتل فلادا بسيفه. بعد ان صرع القاتل الملك ووزير الخارجية الفرنسية بارتو والجنرال جورج.

مختلفة، فالصرب يحاولون الحفاظ على شخصيتهم، بينما الطرفان الآخران يريدان ضم صربيا اليهما.

حين أعلنت الهدنة، عام ١٩١٨، صفق العالم لولادة المملكة الجديدة المكونة من الصرب والكروات والسلوفين، تحت اسم يوغسلافيا. وتوج عليها بيير الأول ملك صربيا. ولكن المرض حال دون استطاعة هذا الملك الحكم، فتولى ابنه الكسندر كل المسؤوليات، وكان يتمتع بمحبة كبيرة بين الفرنسيين، منذ الحرب.

لقد نشأت مملكة فدرالية، ولكن الكسندر لم يكن لينسى انه صربي. كان الكروات يشعرون بهذا الواقع، لذلك لم تنقطع انتفاضاتهم، توكيدا لشخصيتهم المستقلة. وقد زاد من حدة موقفهم ضد الملك الأمر الذي صدر عنه باعدام بعض المتمردين في زغرب. فرد الكروات بمحاولات اغتيال وانتفاضات عنيفة. فتفاقم الاضطهاد، بالمقابل، وجرى الدم غزيرا. فشعرت بلغراد ان العنف لا يجر الا العنف، وأطلقت سراح المساجين. ولكن كرواتيا طالبت باستقلال ذاتي، ضمن نطاق الفدرالية اليوغسلافية.

توفي بيير الأول، وأعلن الكسندر الأول ملكا. وسارت يوغسلافيا على طريق البرلمانية، وبدا ان العقبات زالت من مجال تقدمها، حتى كان يوم ٢٨ حزيران ١٩٢٨، حين أطلق النائب الصربي راشيشتش، الرصاص على خمسة نواب كروات، بينهم القائد راديتش، فأرداهم قتلى.

ترك النواب الكروات بلغراد الى غير رجعة، احتجاجا على مقتل رفاقهم، وتوكيدا على انه لا لقاء بينهم وبين الصرب.

هل قام راشيشتش بهذا الاغتيال الجماعي، في قلب البرلمان، من تلقاء ذاته؟ يقال ان الملك الكسندر كان وراء الحادث، أو على الأقل بموافقته. لأنه كان يبغي التوحيد التام لا الفدرالية، ولأنه كان يكره الديمقراطية — في ما يقال — والواقع انه اتخذ حادث البرلمان حجة ليلغي الدستور ويحل البرلمان، ويحكم حكما مطلقا.

الارهاب

كان على الكروات الخضوع التام، عن رضى أو قهرا، وقد اعتقل قادتهم، ومنعت صحفهم، وبدا انه قضي على حلم الاستقلال الذاتي. وحرموا حق المطالبة بحقوقهم، أو الكتابة الى السلطات، أو الحوار حولها. ولم يجدوا امامهم الا الارهاب. وهم يعرفون معنى ذلك، فقد جربوه في تأسيس عدة جمعيات ارهابية، ابرزها (O.R.I.M.)، والكف السوداء. وكان زعيم (O.R.I.M.) ميخايلوف، الذي عرف ببطشه وجرأته. وقد أعيد الاتصال به لتنظيم الصفوف، بواسطة آنتي بافليتش.

كان بافليتش محامياً برجوازياً متزوجاً وله ثلاثة اطفال. وكان يشعر انه كرواتي فحسب، لا يشده الى يوغسلافيا شيء. انتخب نائباً عام ١٩٢٥، وعرف بميله الى الاستقلال الذاتي. ولكنه بعد مجزرة البرلمان، غدا يدعو الى الاستقلال التام، فحسب. ثم انصرف الى قيادة المقاومة. وقد اضطر الى الهرب الى فيينا، وحكم عليه بالاعدام غيابيا. وانشأ هناك «أوستاشا» (الثورة) وراح ينظم الصفوف في هدوء واتقان، وجعل على رأسها قائدا اعلى، وكان هو القائد. وكان على الثوار ان يطيعوه طاعة عمياء، وأن يقسموا يمين الولاء المطلق في الحياة والموت.

التقى بافليتش ميخايلوف في صوفيا. عرض ميخايلوف عليه المال والسلاح، والمدربين. وقد بدأت (O.R.I.M.) تدرب الثوار على القتل. وقدم لبافليتش مرافقاً، هو سائقه فلادا جورجيف، المشهور بعنفه وشراسته وقدرته على القتل دون رحمة.

طالب الملك بطرد بافليتش من النمسا، فعبر الحدود الى ايطاليا، والتقى الكونت شيانو، وزير الدولة للدعاية، وصهر موسوليني. فرحب به ترحيبا كبيرا، ذلك ان العلاقات بين ايطاليا ويوغوسلافيا كانت سيئة جدا. وقد قدرت السلطات الايطالية ان قيام كرواتيا مستقلة، ستضعف حكم الكسندر.

في تلك الفترة هاجر اكثر من مليون ونصف المليون من الكروات الى النمسا وهنغاريا، وأميركا اللاتينية، وأميركا الشمالية. وتدفق المال على بافليتش من المتبرعين. وبدأ رفاقه يتدربون في ايطاليا وهنغاريا، على هدف، هو عبارة عن دمية تمثل الكسندر الأول.

وخلال عامي ١٩٣١ ـــ ١٩٣٢ انفجرت قنابل في كل انحاء يوغسلافيا. وعام ١٩٣٣ اجتاز فصيل من الثوار حدود يوغسلافيا لاثارة الجمهور، ولكن الجيش صدهم الى ما وراء الحدود.

المحظية الغيورة

١٩٣٣، تسلم هتلر السلطات في المانيا، ولم يكن يخفي اهدافه. كان يود ان يلغي معاهدة فرساي. وبالتالي فان كل دولة انشئت بموجب تلك المعاهدة، لا يعترف هتلر بقيامها. ويوغسلافيا احدى تلك الدول. وقد استقبل بافليتش في المانيا استقبالا حافلا، ورحب به روزنبرغ فيلسوف النازية، وسهل له فتح مكتب لحركة «الثورة» الكرواتية. واصبح من السهل على بافليتش ان ينشىء حكومة منفى، ووكالة صحافة، وصحيفتين، واحدة بالكرواتية، وأخرى بالالمانية. وأعلن في الصحيفتين ان الكسندر الأول محكوم بالاعدام. وحدد موعد الاعدام، يوم ١١ أيلول ١٩٣٣، ومكان الاعدام في زغرب، ومن سيقوم به، وقد درب السائق فلادا اثنين للقيام بالاعدام، وذلك في احد معسكرات «الثورة» في ايطاليا. وكان رئيس المعسكر شخص يدعى برسيك، وكانت له محظية، كان يخدعها، فحملتها الغيرة على افشاء السر. وما كاد الثائران يصلان الى زغرب حتى اعتقلا، فاضطرا تحت التعذيب الى الافصاح عن كل ما يحدث، وعن كل ما يعرفانه عن تنظيم بافليتش. وقد أعدما شنقا. ووجهت يوغسلافيا احتجاجا شديدا الى روما وبرلين. فأقسم موسوليني انه سيمنع عمل جماعة بافليتش، الذي غادر ايطاليا الى المانيا، وأدرك ان عليه ان يبدأ من الصفر.

تغير جديد

حدث تغير في الخطط، فقد تسلم أمر اغتيال الكسندر، أوجين كفاترنيك ـــ المدعو ديو ـــ حفيد أوجين الأول، ملك كرواتيا في القرن التاسع عشر. وقد رأى أوجين ان اغتيال اسكندر في يوغسلافيا

شبه مستحيل، لذلك لا بد من الاتجاه الى موضع آخر.

في هذا الوقت اعلن عن رحلة لالكسندر الى فرنسا. فلماذا لا يضرب الثوار ضربتهم هناك؟

اختير للاغتيال السائق فلادا، الذي عرف باسم جيورجيف، ولكن اسمه الحقيقي فلاديمير ديمتري كريم، وقد ولد في ١٨ تشرين الأول ١٨٩٦ في كامينيكا، في مقدونيا.

استدعاه اوجين، وأطلعه على رغبته في اغتيال الكسندر في فرنسا، ووظف معه ثلاثة مساعدين، اختارهم مساعد بافليتش من معسكر ناجي كانيتزا، وكانوا معروفين بتجارب سابقة في الاغتيال والقاء المتفجرات. وأمرهم ان يسافروا الى زوريخ حيث سيلقاهم رئيسه لمهمة صعبة! ولم يسأل اي منهم عن المهمة، بل تقبلوها بكل طاعة. وسافروا عبر ميونيخ الى زوريخ.

اللقاء في زوريخ

على رصيف زوريخ، يوم ٢٨ ايلول ١٩٣٤، كان ثمة رجل يراوح خلال مائة متر، وينتظر، وقد ارتدى معطفا طويلا، واعتمر بقبعة رخوة رمادية. وكان اوجين كفاترنيك نفسه. قريبا منه، كان يقف فلادا السائق.

ولكن، لماذا قرر الكسندر الأول زيارة فرنسا؟ تقررت الزيادة اثر اقتراح وزير الخارجية الفرنسية لوي بارتو، الذي كان هاجس الخطر الألماني يقلقه، لذلك حاول توثيق الصلات بكل القوى المعادية لألمانيا. وشاء أن يقيم حلفا للدول المحيطة بألمانيا من كل جهاتها. لهذا أيدت فرنسا ترشيح الاتحاد السوفياتي لعصبة الأمم. ورغب بارتو في التقارب بين السوفيات ويوغسلافيا. ولكن الكسندر كان يكره السوفيات لانهم اعدموا صهره رومانوف، كما يكره الايطاليين. غير ان بارتو نصحه ان يتجاوز احقاده في سبيل المصلحة المشتركة. وكان من شأن زيارته باريس ان تضع النقاط على الحروف.

نزل بوسبيشيل وريتش وكرايل، الثوار الثلاثة، على رصيف زوريخ، فتقدم منهم اوجين وفلادا وسلما عليهم. ومضى الجميع الى لوزان ونزلوا في فندق بالمبي، وسلم أوجين كل واحد جواز سفر جديدا، تشيكيا.

قرر اوجين ان يسافر فلادا وكرايلي الى فرنسا بالقطار، بينما يجتاز الآخران بحيرة ليمان الى ايفيان، يرافقهما اوجين.

التقى الجميع في بلغارد، وانطلقوا منها الى فونتينبلو. وفي ممر القطار اعلنهم اوجين الهدف الحقيقي للرحلة.

سافر الجميع الى باريس، وحلوا في فنادق مختلفة، وذلك في ٣٠ أيلول. وكان الملك سيصل الى مرسيليا في التاسع من تشرين الأول.

اما الأسلحة فقد ابلغهم اوجين انه سيلقاهم في فندق سانت — آن، ليسلمهم اياها. اما من سينقلهما فزوجان هما جان وماريا فوندراسك. كما ابلغهم ان فلادا وكرايلي من سيقومان بالاغتيال، بينما يتولى الآخران الحراسة، أو الاغتيال عندما يفشل الأولان. وحتى لو نجا الملك في مرسيليا فان على روسبيشيل وريتش اغتياله في باريس.

مساء السادس من تشرين الأول، سافر كفاترنيك، وفالدا، وكرايلي بالقطار الى افينيون. ومع فجر السابع سلكوا بالسيارة طريق اكس ان بروفانس. ونزلوا في فندق مودرن.

الثامن من تشرين الأول ركبوا القطار الى مرسيليا. وكان كفاترنيك قد حصل على مسار موكب الملك في مرسيليا من احدى الصحف. لذلك عمد منذ وصوله الى درس الأماكن على الطبيعة. وحدد مكان الانطلاق قرب البورصة، في شارع كانبير.

المساء، ترك كفاترنيك مرسيليا الى اكس آن بروفانس بعد ان وجه الى فالدا وكرايلي الكلمات الحاسمة التالية: «غدا تقضيان على الكسندر. غدا تتحرر كرواتيا».

الساعة ٢٢ ترك اوجين كفاترنيك اكس الى افينيون، وركب القطار الى باريس، ولكنه نزل من القطار، وركب قطارا آخر الى سويسرا.

ماذا فعل الملك

السادس من تشرين الأول، كان الملك على وشك ركوب الطراد «دوبروفنيك»، أجمل قطع البحرية اليوغسلافية. وكانت الى جانبه، زوجته الجميلة الفتية، ولكنها كانت خائفة، فسألته ان يصحبها الى دير قريب لتطلعه على هواجسها،



□ فلادا قاتل الملك.

فقد كانت تشعر بهاجس قتله كلما سافر الى مكان. ولما كانت تعاني من اضطرابات في المرارة، وكان دوار البحر يثير تلك الاضطرابات، فقد فضلت السفر بالقطار، على ان يلتقيا في ديجون.

وبعد ان غادر الملك المرفأ تلقى برقية من زوجته ترجوه فيها ان يكون حذرا. فأجاب: «مهنتنا ان نواجه المؤامرات».

حين ظهر الطراد في المياه الفرنسية، استقبل على ظهر الطراد الملحق الفرنسي السيد كنوبل، الذي كان شديد التفاؤل، وقد خاطب الملك بقوله: «ستجد في فرنسا اربعين مليون صديق». ورد الملك: «وربما بعض اعدائي الأكثر شراسة».

في مرفأ بونيفاسيو تقدمت البحرية الفرنسية لاستقبال الطراد. وكان مشهدا بديعا تمتع فيه كل من كانوا على أرصفة المرفأ.

كان وزير الخارجية بارتو يتساءل: ايجب عليه ان يسافر الى مرسيليا لاستقبال الملك، ما دام وزير البحرية فرانسوا بيتري سيكون هناك؟

فجأة، تناول بارتو سماعة الهاتف واتصل ببيتري وكلفه ان ينوب عن الحكومة في استقبال

الملك. وقبل في البداية. ولكنه بعد قليل اتصل ببارتو وقال له: «علي ان استقبل الملك في البحر، اما على البر فيجب عليك انت ان تستقبله».

وهكذا حل بيتري وبارتو والجنرال جورج، صباح التاسع من تشرين الأول الساعة العاشرة وعشر دقائق. وكان مدير الأمن العام قد سبقهم الى مرسيليا مساء الثامن من الشهر نفسه. اما الجنرال بيتوار فكان متشائما. كان كولونيلا حين جرى الاغتيال، وكان ملحقا عسكريا في يوغسلافيا، وقد أغرق وزارة الحربية الفرنسية ببرقيات يؤكد فيها ان ثمة مؤامرة اغتيال تحاك ضد الملك، وأنها ستنفذ في فرنسا. ولكن احدا لم يكترث.

ابعدت السلطات الفرنسية اكثر من مائتي اجنبي عن مرسيليا. ومنح المفتش العام سيسترون الصلاحيات الكاملة لحماية الملك. وقد استعرض صور عدد ممن اشتركوا في اغتيالات سابقة، من الكرواتيين، ومن بينهم فلادا كريم.

وكان مسار الملك قد حدد. يصل حوالي الساعة السادسة عشرة. ينزل من الطراد، يركب سيارة، يتجه ليضع باقة ورد على نصب جنود جيش الشرق الفرنسي. ثم يحضر حفلة كوكتيل في المحافظة، ثم يركب القطار الى باريس.

وقد وضع سيسترون رجل امن كل مترين، في مواجهة الجمهور. ولكن تبين ان المسافة كانت من خمسة الى ستة امتار. كما وضع عدد كبير من الفرسان على طول طريق الموكب. كما عين مرافقان للملك، هما الكولونيل بيولي والكومندان فيغورو.

كان فلادا وكرايلي قد استيقظا باكرا. الواحدة صعدا الى غرفتهما وأخذا سلاحهما، ومن جملته بعض القنابل. وقبل مغادرة الفندق، قالا لمديرته: «نرجو ان تعدي لنا عشاء ممتازاً، فسنعود جائعين».

وصول الملك

وصل الطراد دوبريفنيك. ونزل الملك في ثياب اميرال. وكان قد رفض لبس درع تحت ثيابه يقي من الرصاص.

كان السفير اليوغسلافي قد صعد الى الطراد وقابل الملك، وقال له: «سيدي لا تنزل، لدي معلومات وثيقة ان مؤامرة قد أعدت لاغتيالك». ولكن الملك قال: إن الجماهير في مرسيليا تنتظرني، وبارتو ينتظرني. والكاراجورجيفيتش لا يتراجع.

في هذا الوقت كانت الجماهير تحتشد على الأرصفة حتى تغص بها، وكان فلادا وكرايلي يتجهان نحو المكان الذي حدده لهما أوجين.

وكان بارتو ينتظر على رصيف البلجيك. وجورج ميجا، المصور من قبل وكالة فوكس موفيتون يتخذ مكانه خلف اغصان احدى الأشجار.

اذن، نزل الملك يصحبه وزير خارجيته جيفتش، ويتبعه بيتري. فتقدم بارتو، والأميرال برتلو، والجنرال جورج الذي سيرافقه في الزيارة.

همس الملك في اذن وزير خارجيته، وهو يتقدم من السيارة: «السيارة مكشوفة جدا. مما يسهل الأمر على من يريد اغتيالي».

ركب السيارة، وجلس بارتو عن شماله وجلس في مواجهته الجنرال جورج.

تأخرت السيارة اكثر من عشر دقائق عن الانطلاق. ثم تحركت لتنطلق حسب المسار المرسوم، وكانت سيارة برتوان وسيسترون تمضي امامها. بينما يتبعها فصيل من الفرسان. كان الجمهور يهتف بحماسة منقطعة النظير، والمصور ميجا يلتقط الصور، وقد بلغت السيارة مكان البورصة الساعة السادسة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة.

اضطرت السيارة ان تستدير قليلاً لتحيد عن كوخ صغير، اقيم هناك للمراقبة. مما جعلها تقترب كثيرا من الجمهور.

في هذه اللحظة خرج رجل عاري الرأس، أصلع، من بين الجمهور، ومر بسرعة، نحو السيارة وهو يهتف «يحيا الملك»، وصعد «رفراف» السيارة، وأطلق من مسدس اوتوماتيكي، على الملك وبارتو والجنرال جورج. وفي اللحظة ذاتها كان سيف بيولي يضرب الرجل (وكان فلادا) فيخر صريعا. ولكن الشرطة اخذت تطلق في كل اتجاه، فذهب ضحية ذلك عدد غير قليل من الجرحى والقتلى. اما كرايلي الذي كان ينتظر ليطلق قنابله اذا اخفق فلادا، فقد رأى الملك ميتا، واستطاع الهرب خلال الجمهور، حاملا معه قنابله. ■

موقعة العُقاب أو هضاب تولوسا

بداية النهاية لدولة الإسلام في الأندلس

محمد عبدالعزيز عثمان

بعد أن فتح العرب المسلمون شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال) سنة ٩٢هـ/٧١١م وتوغلوا في داخلها، تراجعت أمام جيوشهم فلول من جيوش الأسبان المندحرة، لجأت هذه الفلول القليلة إلى الجبال الشمالية المنيعة الوعرة وتحصنت بها، ولم يعر العرب المسلمون هذه الفلول في البداية اهتماما يذكر، مما جعلها تأخذ بأسباب القوة أولا بأول، حتى كونت لها دولا وممالك منها (مملكة قشتالة ومملكة ليون، ومملكة نافار «نباره» ومملكة (راغون).

لم تكن هذه الممالك تستطيع التحرش بالعرب المسلمين في الأندلس (اسبانيا الجنوبية الاسلامية) أيام قوتهم، لا بل أن الدولة الأموية في قرطبة كثيرا ما كانت تتدخل في الشؤون الداخلية لهذه الممالك، التي كان بعضها يدفع الأموال لدولة العرب المسلمين. لكن الحال تغيرت بعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة وضعف دولة أبناء المنصور بن أبي عامر وقيام دويلات الطوائف في المدن الأندلسية (٤٠٠ ــ ٤٨٤هـ/ ١٠٠٩ ــ ١٠٩١م) حيث بدأت الممالك الاسبانية ما يعرف في التاريخ الأندلسي باسم حركة الاسترداد.

سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هـ/١٠٨٥ بداية حركة الاسترداد

كان سقوط مدينة طليطلة التي كانت عاصمة قديمة للقوط قبل الفتح العربي الاسلامي على يد الفونسو السادس ملك مملكة قشتاله الاسبانية بداية حركة الاسترداد، لا بل كانت بداية النهاية لدولة الاسلام في الأندلس، لما لهذه المدينة من أهمية استراتيجية، فكان سقوطها سنة ٨/٤٧هـ واتخاذها عاصمة لمملكة قشتالة عامل دفع قوي للممالك الشمالية في مواصلة الحرب ضد اسبانيا الجنوبية، حيث أخذ الفونسو السادس يهدد مدينة أشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد أشهر ملوك الطوائف وأكثرهم قوة، ولما لم يكن المعتمد يمتلك المقدرة على مجابهة قوة الفونسو استنجد هو وبقية ملوك الطوائف بزعيم المرابطين في المغرب العربي يوسف بن تاشفين، الذي عبر على رأس جيش ضخم إلى الأندلس تمكن بواسطته من إيقاف الخطر المهدد للأندلس وذلك بعد الانتصار الرائع الذي أحرزته القوات الاسلامية في معركة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩/١٠٨٦م. ثم خلف الموحدون المرابطين في الدفاع عن الأندلس ضد تحديات الممالك الشمالية التي أخذت تنحى في صراعها مع العرب المسلمين منحى جديدا ألا وهو اضفاء الطابع الديني على هذا الصراع مستعينة بالأمم الاوروبية، مستغلة العاطفة الدينية، فبدأ الصراع يأخذ طابع حروب صليبية مقدسة، لا تقل في نظر الغربيين المعاصرين عن الحروب الصليبية الدائرة في الشرق.

أظهر الموحدون صلابة عنيفة أمام تحديات الممالك الشمالية وتمكنوا من إنزال هزيمة بالفونسو الثامن ملك قشتالة وحليفيه ملكي مملكة ليون ومملكة نبارة (نافار) في موقعة الأرك سنة ٥٩١/١١٩٥ التي خاضها خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب، والتي زادت من قوة معنوية العرب المسلمين في الأندلس وأخرت محاولات الأسبان في الاستمرار بتنفيذ خطتهم إلى حين.

الفونسو الثامن يستعد لمعركة قادمة

لم يكن انتصار الموحدين في موقعة الأرك حاسما إذ لم يستفد العرب من هذا الانتصار في مواصلة الضغط على الممالك الأسبانية، بل اكتفى الخليفة الموحدي بهذا النصر ورجع إلى مقر ملكه في مراكش بعد أن عقد هدنة مع ملك قشتالة أمدها عشر سنوات، فكانت هذه الهدنة بالنسبة لملك قشتالة بمثابة الاستعداد للجولة القادمة، لذلك عمل على تكوين حلف قوي يضم الممالك الاسبانية الشمالية بالاضافة إلى المساعدات التي طلبها من الدول الاوروبية المجاورة، كما طلب مساعدة البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ ــ ١٢٢٦م).

وما أن شعر الفونسو الثامن باستعادة قوته حتى بدأ يتحرش بحدود الدولة الاسلامية قبل انتهاء أجل الهدنة، ففي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٩م سار على رأس جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى حدود اسبانيا الاسلامية وعمل على نسف الحقول ونهب القرى، وفي العام التالي سار مرة أخرى الى الأندلس وخرَّب أراضي جيان وبياسة ووصل إلى مشارف مرسيه ثم عاد إلى طليطله مثقلا بالغنائم.

استعداد محمد الناصر أمير الموحدين وفتح قلعة شلبطره

لدرء الخطر القادم من الشمال توجه أهل الأندلس من جديد بأنظارهم إلى الموحدين الذين يحكمون الأندلس من أجل نجدتهم، فتأهب محمد الناصر لذلك وأعلن الجهاد مؤملاً أن يستطيع بواسطة ما يتجمع لديه من جيش ضخم من تحقيق انتصار ساحق على الممالك الاسبانية، بحيث تقدر الرواية العربية الجيش الذي تجمع تحت إمرته بعد اعلانه الجهاد وعبوره إلى الأندلس سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م بأكثر من ستمائة الف مقاتل، في حين تقدر الروايات الحديثة الجيش العربي الاسلامي ما بين (٥٠٠ الف إلى ٢٠٠ الف مقاتل بين راجل وفارس.

توجه محمد الناصر بعد عبوره إلى الأندلس إلى مدينة أشبيلية حيث أقام فيها إلى بداية سنة ٦٠٨هـ ومن ثم اتجه صوب قلعة شلبتره أو شلبطره (معناها الأرض البيضاء) جنوب قلعة رباح فافتتحها بعد حصار شديد ثم عاد إلى أشبيليه حيث حل فصل الشتاء المطير.

وهكذا كان فتح هذه القلعة بمثابة ناقوس الخطر الذي نبه الفونسو الثامن فاندفع يعد العدة لملاقاة هذه الجيوش الضخمة مستعينا بحلفائه.يصف المراكشي التجمع الذي تكون تحت إمرة الفونسو الثامن بقوله: «وخرج الأدفنش... إلى قاصية بلاد الروم مستنفرا من إجابه من غطاء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن المأن، حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية».

اتجهت هذه الجموع الكبيرة بقيادة الفونسو الثامن إلى قلعة رباح التي دخلوها سلما بعد حصار طويل واضطر قائدها وهو أبو الحجاج يوسف بن قاوس إلى تسليم القلعة والانسحاب هو وجنده من دون قتال. وما أن بلغ محمد الناصر خبر سقوط قلعة رباح حتى بدأ بتعبئة جيشه وغادر مدينة جيان باتجاه الضفه اليمنى لنهر الوادي الكبير نحو مدينة بياسه، وقد تمكنت مجموعة جيش المسلمين من احتلال الممرات الجبلية المؤدية إلى مدينتي أبدة وبياسه، كما استطاعوا احتلال الممر المؤدي إلى سهل كولوسا، حيث تجمعت القوات الاسلامية الرئيسية.

تشكيل الجيشين قبل المعركة

قسم محمد الناصر جيشه إلى خمس فرق أو جيوش بشكل أصح. فرقة أمامية تضم عددا ضخما من الجنود المتطوعة. أما القلب فقد ضم خيرة الجند من القوات الاحتياطية من الجند المغاربة والقوات الموحدية النظامية. وكانت الميمنة تضم القوات الأندلسية والميسرة تضم قوات القبائل البربرية، وفي وسط الجيش الاسلامي ضرب محمد الناصر قبته الحمراء يحيط بها حرسه الخاص من المشاة والفرسان والعبيد الشاهرين حرابهم، ومدت من حول هذا السور البشري نصف دائرة من السلاسل الحديدية، حتى أصبح محمد الناصر وكأنه يجلس في حصن منيع دون اختراقه الموت.

أما جيوش الفونسو الثامن المتحالفة فقد قسمت بشكل مشابه حيث كان القلب يحتله ملك

قشتالة الذي عسكر بجيشه في مكان مرتفع يهيمن فيه على حركة الجيش كلها. أما الجناح الأيمن فقد عسكر فيه سانشو ملك ناڤار وقواته، وأما الجناح الأيسر فقد عسكرت فيه مجموعة من القوات. كما وزعت مجموعة من الجند على مجموعة التلال والروابي المحيطة بسهل تولوسا.

نشوب المعركة الحاسمة

وقعت المعركة الحاسمة التي تعرف في المراجع الغربية باسم هضاب تولوسا (Navas-di Tolosa) وتذكرها المصادر العربية باسم العقاب أو حصن العقبان في منتصف صفر من سنة ٦٠٩هـ/١٦ تموز ١٢١٢م وابتدأت المعركة بهجوم الفرق الأمامية من المتطوعة المسلمين باتجاه قلب جيش العدو، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق صفوف الفرسان القشتاليين الذين تقدموا باتجاه قلب الجيش الاسلامي، إلا أنهم لقوا مقاومة عنيفة اضطرتهم إلى التراجع والفرار أمام الفرسان المسلمين، لما رأى ملك قشتالة من موقعه المرتفع فوق التلال تطور المعركة على هذا النحو السيء أراد أن يقتحم الميدان بنفسه على رأس صفوة من جنده لينقذ الموقف وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة «أن الساعة قد حانت لتلقى الموت المجيد» تدل على أنه لم يكن يؤمل النصر بعد. ولكن اعتراض المطران والقوامس، اضطرته إلى الاكتفاء بارسال قوات من أشجع الجنود لدعم الجيش المرتد وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة يثيرون الحماسة في نفوس المقاتلين وانتهزت جماعات من الفرسان الجبليين فرصة وصول الامدادات الجديدة التي أعطتهم معنوية جديدة فواصلوا صمودهم وركزوا هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التي احتشدت وراءها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين السلاح بعد أن تحطمت قوة الجيش الاسلامي في كل من الميمنة والميسرة وهرب من المعركة الجند الأندلسيون ولم يثبت في المعركة غير جند الموحدين النظاميين وحرس محمد الناصر الخاص من العبيد والمغاربة، الذين ثبتوا من وراء السلاسل الحديدية بشجاعة فائقة، لكن المهاجمين ضاعفوا جهودهم لتحطيم الدائرة الحديدية حيث تمكن بعضهم من اقتحام الدائرة وتحطيمها، لكن الأمير محمد الناصر استمر يذكي الحماسة في نفوس جنده حتى آخر لحظة على الرغم من علمه أن جناحي جيشه قد حطما. يقول المراكشي أن محمد الناصر «ثبت في ذلك اليوم ثباتا لم يُرَ لملك قبله ولولا ثباته هذا لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلا وأسرا». لكنه قرر أخيرا الانسحاب من ميدان الحرب، فاتجه مع مجموعة من أتباعه صوب مدينة بياسة، ولكنه لم يقف بها وتركها تواجه مصيرها على أيدي قوات الممالك الاسبانية التي استمرت في ملاحقة الفارين من أرض المعركة، فكان عدد القتلى من الفارين أكثر بكثير من القتلى في ساحة المعركة، ذلك أن الملوك الأسبان أنذروا بالموت كل جندي أسباني يأسر مسلما، فأعمل الجند القتل بالمسلمين، الذين اذهلتهم الصدمة ولاذوا بالفرار وهكذا نرى مدى الانكسار النفسي الذي أصيب به الجيش العربي الاسلامي في هذه المعركة، فحاقت عليهم الهزيمة والموت الذي كانوا يفرون منه، على خلاف ما كانت عليه الحال في حروبهم السابقة التي شهدت اندفاعهم واستماتتهم في تحقيق أهدافهم.

نتائج المعركة

واصلت الجيوش المتحالفة تقدمها بعد انتصارها في معركة العقاب وسيطرت على مدينتي بياسة وأبده وعاث الجند في المدينتين قتلا ونهبا وتخريبا. تؤكد كل من الروايات العربية والاوروبية على أن عدد القتلى من المسلمين كان كبيرا وصل إلى حدود (٨٥ — إلى ١٠٠ ألف مقاتل) حسب تقدير الروايات الاوروبية التي تقلل من خسائر الجيوش الاسبانية بقدر لا يمكن تصديقه عن معركة ضارية مثل معركة العقاب.

نستطيع أن نرجع أسباب هذه الهزيمة التي أجمع المؤرخون المسلمون على أنها كانت بداية النهاية لدول الاسلام في الأندلس إلى عوامل عدة منها:

١ — ما أصاب العرب المسلمين من تمزق وانقسامات مما أعطى أعداءهم الفرصة على الأخذ بأسباب القوة والقيام بحرب الاسترداد إذ أخذت المدن الأندلسية الاسلامية تتساقط الواحدة بعد الأخرى بحيث لم يبق للعرب

المسلمين في اسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادي سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية، والتي ما لبثت هي الأخرى أن سقطت سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وبهذا زالت دولة الاسلام في الأندلس نهائيا.

٢ ــ ان الأمير محمد الناصر كانت تنقصه الخبرة والكفاية لمجابهة الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها الأندلس، وبخاصة فيما يتعلق باختياره لقادته ومستشاريه، فكثيرا ما كان يعهد بأهم شؤون دولته إلى رجال عاجزين يوليهم كل ثقته مثل وزيره ابن جامع الذي كان يشك في ولائه للموحدين. كما أنه لم يتبع الخطة التي كان يسير عليها والده في الدفاع عن الأندلس، والتي تعتمد على خطين رئيسيين الخط الأول تقوية الجيش وبناء القلاع والحصون في مناطق الحدود وشحنها بالامدادات من الجند والمؤن. أما الخط الثاني فهو استغلال الخلافات والمنازعات القائمة بين الممالك الاسلامية والتوسل بمحالفة الضعفاء منهم لضرب الأقوياء وإضعافهم. وكادت خطة أبي يوسف يعقوب هذه تنجح لو أن الأيام امتدت به. كما أن محمد الناصر أخطأ في معاملة أهل الأندلس من جيشه، فقد أقدم على قتل ابن قادس قائد قلعة رباح بسبب تسليمه القلعة من دون أن يسمع حجته، مما أوغر صدور الأندلسيين لأن ابن قادس منهم.

٣ ــ وعلى هذا فقد كان جيش العرب المسلمين على الرغم من ضخامته يحمل أسباب هزيمته، فلم يكن جيشا موحدا الأهداف حيث تسربت الروح الانهزامية بين أفراده وبخاصة جنود الأندلس الذين ساءهم قتل ابن قادس فأضمروا الحقد فتركوا ساحة المعركة عند بدايتها.

٤ ــ أما جيوش الممالك الاسبانية والعناصر المتحالفة معها فقد كانت على الضد من ذلك تماما، حيث كانت هذه المعركة التي تخوضها معركة حياة أو موت بالنسبة لها، فملك قشتالة كان يعلم أن تكرار مأساة معركة الأرك معناه الاندحار النهائي للممالك الأسبانية، لهذا أخذ للأمر أهبته وعدته من أجل الانتصار في هذه المعركة.

٥ ــ أما في أرض المعركة فقد سيطرت الجيوش المتحالفة على التلال المحيطة بسهل تولوسا وبهذا أصبحوا في وضع استراتيجي أفضل من العرب المسلمين الذين كانوا في أسفل السهل. وكان هذا بعد أن أرشد الراعي القوات الاسبانية على الطريق الفرعي المؤدي إلى سهل تولوسا.

وهكذا كان انتصار جيوش الممالك الاسبانية في موقعة العقاب نذير شؤم، حيث أدخلت الخوف واليأس إلى قلوب العرب المسلمين في الأندلس وأيقنوا بأن النهاية باتت وشيكة. ■

المصادر والمراجع

(١) اخبار المجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، مؤلف مجهول مدريد ١٨٦٧.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ــ عبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣.

(٣) صفة جزيرة الأندلس، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧.

(٤) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٤٩. الأجزاء الأول والسادس.

(٥) أوروبا العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء الأول، التاريخ السياسي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٤.

(٦) التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة. د. عبد الرحمن علي الحجي، بيروت ١٩٧٦.

(٧) الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة، بيروت ١٩٧٤.

(٨) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد السعيد، بغداد ١٩٨٠.

(٩) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، المؤرخ الألماني يوسف أشباخ، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨، الطبعة الثانية.

(١٠) مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، عبد الكريم التواتي، الدار البيضاء ١٩٧٦.

(١١) الدعوة إلى توحيد الأندلس في أيام ملوك الطوائف، محمد عبد العزيز عثمان، مجلة الجامعة، جامعة الموصل، العدد السابع ١٩٨٠.

(١٢) وقعة الأرك من معارك العرب المسلمين في الأندلس مجلة آفاق جامعية، جامعة السليمانية، العدد الثاني ١٩٨٠.

ندوة حول اسهامات العلماء العرب في علوم «النبات والري والفلاحة»

يستعد قسم التراث العربي التابع للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي في حلب لعقد الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، وذلك في العاشر من شهر ديسمبر المقبل، ولمدة خمسة أيام، في الكويت.

وسيتقدم المشاركون في الندوة ببحوث تبيّن اسهامات العلماء العرب في علوم النبات والري والفلاحة.

وتهدف الندوة التي ستجمع عدداً من العلماء والباحثين المعنيين بالتراث العلمي العربي إلى ابراز دور العرب في علم النبات، وهندسة الري، وأعمال الزراعة.

العثور على مخطوطات قيمة في صنعاء

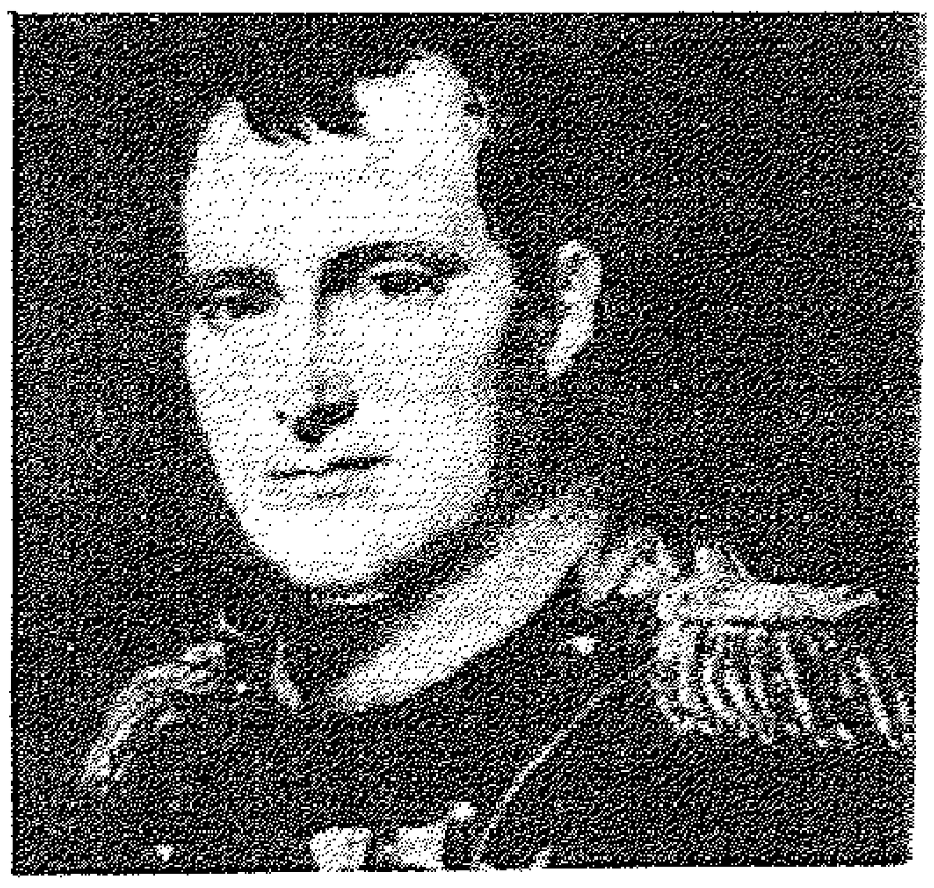
تقوم لجنة برئاسة القاضي اسماعيل الأكوع مدير الهيئة العامة للآثار ودور الكتب في الجمهورية العربية اليمنية وعضو المجلس الاستشاري لمعهد المخطوطات العربية بدراسة مخطوطات قيّمة يعود تاريخها الى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وكان خبراء آثار قد عثروا خلال حفريات أثرية في مدينة صنعاء على ثلاثة اكياس كبيرة قرب جامع صنعاء تضم حوالي عشرين ألف صفحة من الآيات القرآنية الكريمة منسوخة بالخط الكوفي.

هذا، ويساعد اللجنة اليمنية في عملها فريق عمل من الخبراء الألمان المتخصصين بترميم المخطوطات.

معارض فرنسية تتحدث عن التاريخ

افتتح في الشهر الماضي في مارسيليا ١٧ معرضا، مكرسة كلها للعلاقات بين مارسيليا ومقاطعة بروفاس الفرنسية والشرق الأوسط. وأوضح جاستون ديفيد عمدة مارسيليا ووزير الداخلية في اطار تقديمه لهذه المعارض انها سوف تروي تاريخ سبعة قرون من التبادل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط. وقال عمدة مارسيليا لقد شعرنا بالحاجة الى معايشة تاريخنا مرة اخرى، وأشار إلى أن كل شيء قد بدأ مع فرانسوا الأول الذي قرر غداة هزيمة مني بها أن يعيد تنظيم تحالفاته وأرسل مبعوثا الى الخديوي سليمان ومنذ ذلك التاريخ أقامت مارسيليا بواسطة غرفتها التجارية علاقات متميزة مع الامبراطورية العثمانية وقد اكد كولبير فيما بعد امتيازات غرفة التجارة التي كانت ترفع مرتبات السفراء والقناصلة لدى الباب العالي. وكان التجار في مارسيليا بدافع من روحهم وطموحاتهم التجارية يبعثون بأبنائهم الى تركيا لتعلم اللغة ليقوموا فيما بعد بدور المترجمين، وكان احد اهالي مارسيليا هو الذي تولى مهمة الترجمة لبونابرت اثناء الحملة الفرنسية على مصر وكان مملوك لجأ إلى مارسيليا هو الذي علم اللغة القبطية لشامبوليون. وازدهرت التجارة في القرن التاسع عشر وأقيمت مصانع الزيتون والصابون في مارسيليا وكان شاب من مارسيليا يدعى جون شارل (٣٤ عاما) هو الذي أرسل الى مصر لدراسة جدوى شق قناة السويس وقد أتاحت معلوماته امكانية تشجيع مشروع فرديناند دوليسبس.



نابليون بونابرت

افتتاح متحف للفن الاسلامي في القاهرة

القاهرة: أعلن الدكتور أحمد قدري رئيس هيئة الاثار في القاهرة اثناء افتتاح متحف الفن الاسلامي، وذلك بعد اعادة تجديده وترميمه وتطويره ان المتحف يضم ٨٢ ألف قطعة اثرية. وأضاف انه تم مضاعفة مساحات العرض الداخلي للمتحف حيث زادت المساحة من الف و٥٠٠ متر مربع إلى أربعة الاف متر مربع كما تم اجراء تغيير شامل في أسلوب العرض المتحفي ومسارات الجمهور داخل المتحف.

وأشار الدكتور أحمد قدري إلى أنه تم تخصيص القاعات العلوية للمتحف لعرض حوالي ألف قطعة من النسيج معظمها مصري عثر عليه في حفائر مدينة الفسطاط القديمة وبعضها ايراني وتركي بالاضافة الى مجموعة من السجاد والنجف من العصر المملوكي والتركي.

وقال انه تم انشاء حديقة أثرية اسلامية لعرض المنحوتات، عرضت بها ٣٠ قطعة من القطع الأثرية من اعمدة وتيجان ويتوسط الحديقة نافورة اثرية تم ترميمها وسلسبيل وواجهة جامع مملوكي.

وأضاف رئيس هيئة الاثار انه تم أيضاً اعداد بطاقات عرض جديدة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية لشرح المعروضات، كما اعدت قاعة جديدة للروائع عرضت فيها مختارات من التحف الاسلامية وتمثل جميع عصور الفن والحضارة الاسلامية.

وذكر انه اقيمت دائرة موسيقية مركزية لاذاعة الموسيقى الكلاسيكية ودائرة تلفزيونية للمعروضات.



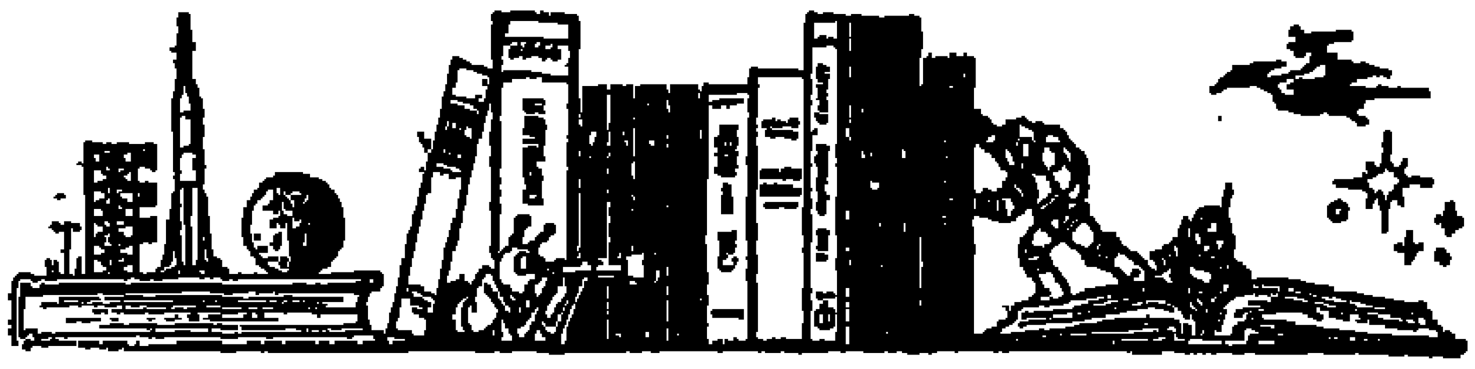
ضريح محمد علي

تنظيف وترميم ضريح محمد علي

حتى يعود ضريح محمد علي إلى ما كان عليه عند دفنه.. تقوم هيئة الآثار حاليا في القاهرة بتنظيف وترميم الضريح من الداخل والخارج واستكمال جميع الأجزاء المفقودة داخله، وذلك ضمن أعمال الترميم التي تتم للقلعة كلها.

يقول محمد فوزي مراقب عام قسم الترميم بالمتاحف اننا أثناء ازالة الأتربة من على رخام الضريح نقوم أيضاً بازالة بعض المواد التي كانت تستخدم منذ فترة والتي ساعدت على لصق الأتربة مستخدمين في ذلك بعض المواد الحمضية غير الضارة بالرخام.

كما نقوم بتنظيف وترميم الترابيزات الخشبية المطعمة بالصدف والموجودة داخل الضريح، وذلك انتظاراً لوصول كمية من الصدف الطبيعي ستكمل بها الأجزاء الناقصة منها..



كتب وردتنا

☐ **قضايا التنمية والتحديث في الوطن العربي**
مصر والمغرب العربي
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... خيري عزيز

☐ **قضايا الزوجين النفسانية**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... إميل خليل بيدس

☐ **حزن الأرض**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... شعر: مي ناصر بدوي

☐ **تساؤلات كونية على دروب البحث العلمي**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... يمنى زهار

☐ **الجنى الداني في حروف المعاني**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... الحسن بن قاسم المرادي

☐ **كتاب سير الأئمة واخبارهم**
المعروف بتاريخ أبي زكرياء
دار الغرب الاسلامي ــ بيروت .... تأليف: أبي زكريا يحيى بن أبي بكر
حققه: اسماعيل العربي

☐ **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**
دار الغرب الاسلامي ــ الطبعة الثانية ــ
بيروت ١٩٨١ .... صنعة: حازم القرطاجي
تقديم وتحقيق:
محمد الحبيب ابن الخوجة

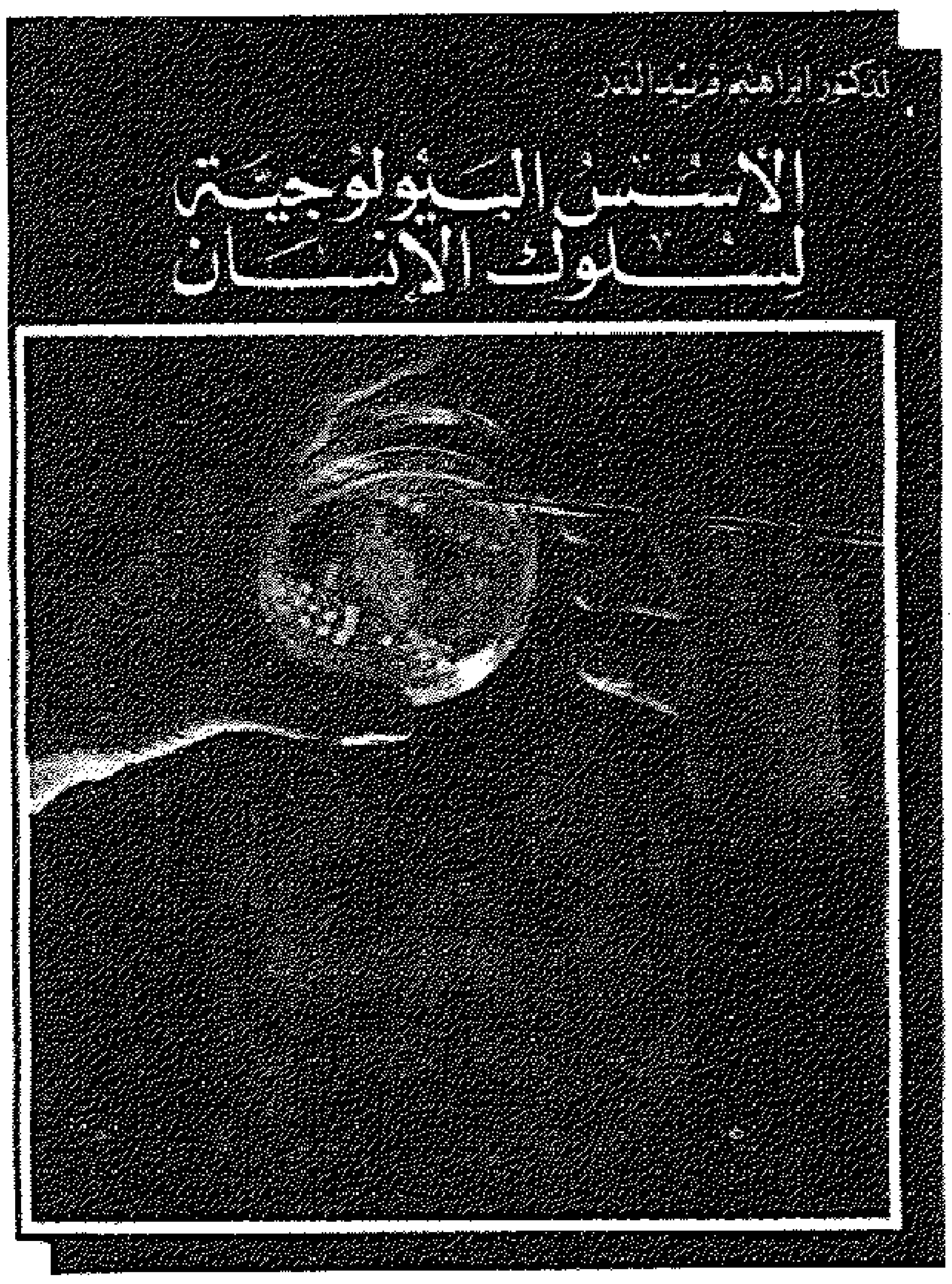
☐ **كتاب المحن**
دار الغرب الاسلامي ــ الطبعة الأولى
بيروت ١٩٨٣ .... تأليف: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي
تحقيق: الدكتور يحيى وهيب الجبوري

☐ **الأسس النظرية لعلم الاجتماع السياسي**
دار الطليعة ــ بيروت ١٩٨٣ .... د. محمد فايز عبد أسعيد

☐ **المنطق والنحو الصّوري**
دار الطليعة ــ بيروت .... د. طه عبد الرحمان

☐ **تحليل المدخلات ــ المخرجات**
دار الطليعة ــ بيروت ١٩٨٣ .... د. عصام عزيز شريف

☐ **المتنبي والثورة**
دار الفكر اللبناني .... انعام الجندي



الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان

د. ابراهيم فريد الدّر

هل الشر نزعة في الإنسان أم بدعة؟ وهل يجري حب القتل في عروقنا؟ أصحيح أن الانسان أثيم بالتربة، أم أنه مظلوم بالتربية؟ الانسان طبيعة ثابتة؟ هل تهرب من خطأ لأنك خائف، أم أنك خائف لأنك هارب.

جواب هذه الأسئلة وغيرها من مواضيع تمس الانسان في عمق طبيعته هو مدار هذا الكتاب، أول مصنف في اللغة العربية يعالج شؤون الانسان وشجونه من ناحية علمية، فيقدم الأسس البيولوجية والتربوية المؤثرة في تصرفات الانسان.

في الكتاب اثنان وعشرون بابا، بالإضافة إلى فصول حول (أحكام السلوك) و (تاريخ علم السلوك) و (نهج المقابلة) ذلك النهج العلمي الجديد والذي راده الجاحظ قبل ١١٠٠ سنة، وهو أول عالم بالمقياس العلمي الحديث لعلم السلوك وتصرفات الكائنات.

بعد استعراض أحكام السلوك وتاريخه ومنجزات الجاحظ يبدأ الكاتب بتعريف السلوك ودوافعه وآلياته العصبية (الباب الأول) كما يشرح أنواع التعلم التي يستطيعها الوليد خلال نضجه إلى الرشد. ثم يوجز المؤلف أقسام الدماغ وخلاياه، التي تضبط دوافع السلوك العاطفي (الغرائز) والفكرية (التعليم والاقتباس والخبرة والتجريب) مرفقا صورا ملائمة للبحث (الباب الثاني).

اما الباب الثالث فهو تعريف علمي لمعنى الغرائز وصفاتها. يصحح المؤلف الفكرة الشائعة حول العواطف فيقول (لا تخجل من عواطفك)، ثم يبين المصنف الأجهزة العصبية التي تصوغ عواطف الانسان، ولقد سماها (جهاز الارب) مع صور في (الباب الرابع)، ثم يستعرض المؤلف شأن الهرمونات والناقلات والأدوية المؤثرة في سلوك الانسان في الباب الخامس.

بعد شرح الأسس العضوية العصبية لسلوك الانسان يبدأ المؤلف في بناء الأطر المقررة لتآليف البشر، فيشرح الحركات والاشارات الهادفة إلى تنمية العلائق بين الكائنات (الباب السادس) ولقد سماها المؤلف بالتقاليد الفطرية.

تفسر هذه الحركات أسباب احتكارنا لمقعد أو طاولة في الأماكن العامة، ولماذا تكثر الزوجة من أسئلتها إلى زوجها كسؤالها (هل تحبني، وماذا نطبخ غدا)، كما تفسر هذه التقاليد القواعد التي بها انطلقت النزعات الاجتماعية.

النزعات الاجتماعية هي غرائز ثابتة قادت إلى بناء العائلة والمجتمع، وحين تفاعلت هذه الغرائز الايجابية مع الفكر تقدمت الحضارة فانتقل الإنسان من مخلوق اجتماعي بالخلقة إلى مخلوق حضاري سياسي بالتدبر والارادة، الأنانية والغيرة (الايثار) وغيرهما من صفات أصلية هي مدار الباب السابع، الذي يوجز أيضاً أسس علم السوسيوبيولوجي، وما يعرضه من تفسير للتنافس بين الأخوة والوالدين. ويستعرض المؤلف في هذا الباب بعض عواقب تطور غريزة الجنس في الإنسان، حتى صارت سبيلا إلى المودة وبناء العائلة والمجتمع. من الطريف ما يذكره المؤلف من اكتشافات جديدة تدل على أن الدماغ يحمل جنس صاحبه، فدماغ الذكر دماغ ذكر، ودماغ الأنثى دماغ أنثى. لكن المؤلف يطمئننا أن الفروق لا تعني فروقا في الذكاء أو المهارات، ولربما كانت العواقب في نواح مسلكية أو مزاجية.

مطلع الحياة الاجتماعية وأنواعها هو مدار الباب الثامن، الذي يتبعه بحث عميق في معنى الأبوة والأمومة، فيشرح أن لا غريزة للأمومة، لكن هناك حركات فطرية ترسخ العلاقة الحميمة بين الطفل ووالديه. وفي الأبواب التالية يستعرض المؤلف قدرات الوليد ومراحل نضجة الذهني والخلقي أو العاطفي، كما أثبتها العالم بياجيه وغيره. الذكاء، والتعلم، والذاكرة، والثواب والعقاب، وأنواع من السلوك المكتسب التي تتحجر، كلها مشروحة بأسلوب هين ومشوق.

ثم يبين المؤلف أثر المحيط والتربية والمنبهات في نمو شخصية الانسان، فيستعرض عواقب الحضارة وتعقدها، وماتسببه من علل وأمراض.

يقول المؤلف «الانسان معجزة، لكنها قابلة للصدع». في هذه الأبواب شرح لبعض أمراض النفس، والمواد الكيماوية الفاعلة في كيان الإنسان.

الأبواب الخمسة الأخيرة هي تمهيد لتفسير أسباب التخبط والدوخان في تصرفات البشر، وما يظنونه يقينا وهو أوهام أو سراب. يبين المؤلف الفرق بين أسباب السلوك ودوافعه، ومعنى الحرية والكرامة، ولماذا يسعى الإنسان أبداً إليهما، ولماذا نسج أدبا بطوليا رائعا. ويحذر المؤلف من مزالق الادراك، ذلك أن الدماغ يعمل بالترجيح والمغامرة والمساومة فتبقى آلية عمله ناقصة أو محدودة، مما يوجب علينا التأني والترفق في معاملة البشر، وأن لا نلوم أو نسرع إلى الظن.

ثم يستعرض المؤلف الصراع التاريخي الفلسفي بين أهل العصر الغابر امثال كنط وفولتير وروسو. ويتوجه بعد ذلك إلى الوعي وعواقبه، وما توهمه الانسان من معضلات. ويشرح المؤلف الموقف العلمي من فلسفات كالجبرية والارادة.

موضوع الباب الحادي والعشرين (النزعات الاجتماعية، مالها وما عليها). وهنا يسأل المؤلف (إذا كان الانسان محبا الوفا بالنزعة فلماذا العنف والكره بين فئات من البشر؟) جواب هذا السؤال هو في (باب العنف) آخر المواضيع، وفيه يثبت المؤلف أن الشر والقتل والفتنة هي ليست من غرائز الانسان، إنما تحريف لفطرته، بالتلقين وبالتدريب وبالتربية فيبقى (الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره).

«الأسس البيولوجية لسلوك الانسان» مصنف فريد، وأول محاولة علمية لتلخيص ما ثبت حول طبيعة الانسان وتصرفاته. الكتاب دليل علمي لمن يريد التوسع، وهو وثيقة اجتماعية تدل على مواقع الصدع والخلل في موازين المجتمع، وما ينبغي علينا أن نفعله إذا شئنا بناء المجتمع السويّ. فيه من الحقائق ما يسليك وما يغضبك وما لا يعجبك، فأولى بك أن تواجهها، وتمحص فيها وفي نفسك، لعلك تبلغ إلى سكينةٍ ويقينٍ لا غنى عنهما للشخصية السوّية. ■

العددان ٦ ـ ٧
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣
ايار (مايو) ١٩٨٣


مجلة الإنماء العربي

الفكر الاستراتيجي العربي

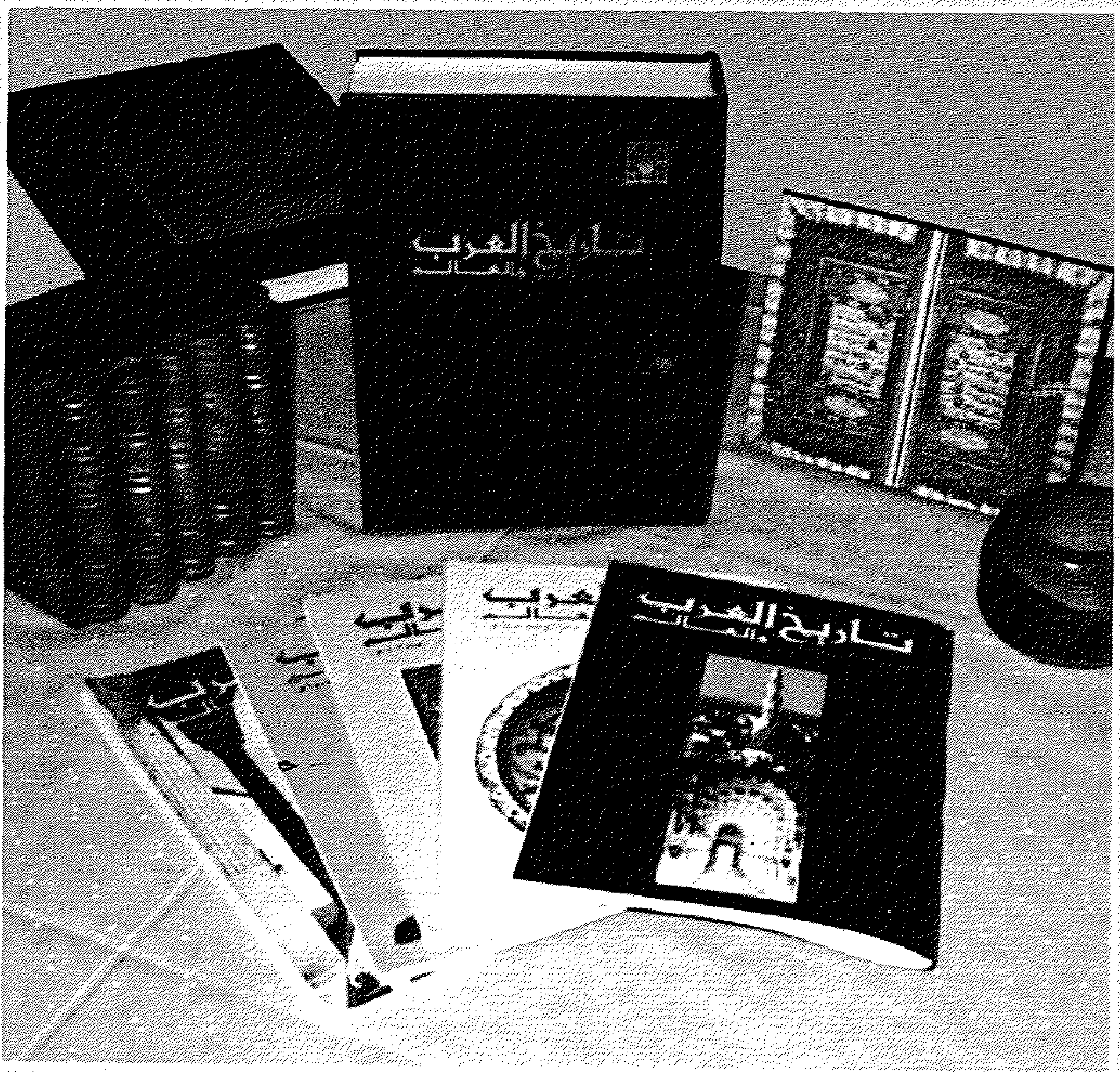
- الدفاع الجوي العربي ١٩٧٣ ـ ١٩٨٣ — محمود عزمي
- المواجهة الجوية السورية ـ الاسرائيلية ١٩٨٢ — قاسم جعفر
- نحو استراتيجية عربية لمواجهة المأزق الراهن — د. أحمد يوسف أحمد
- مشكلة الصواريخ المتوسطة في اوروبا — هدى حوا
- مصر وتجربة قروض صندوق النقد الدولي — د. رمزي زكي
- «سام ـ ٥»: المغزى السياسي ـ العسكري — «تقرير خاص»

الآفاق الجديدة
بيروت

صدر حديثاً عن :



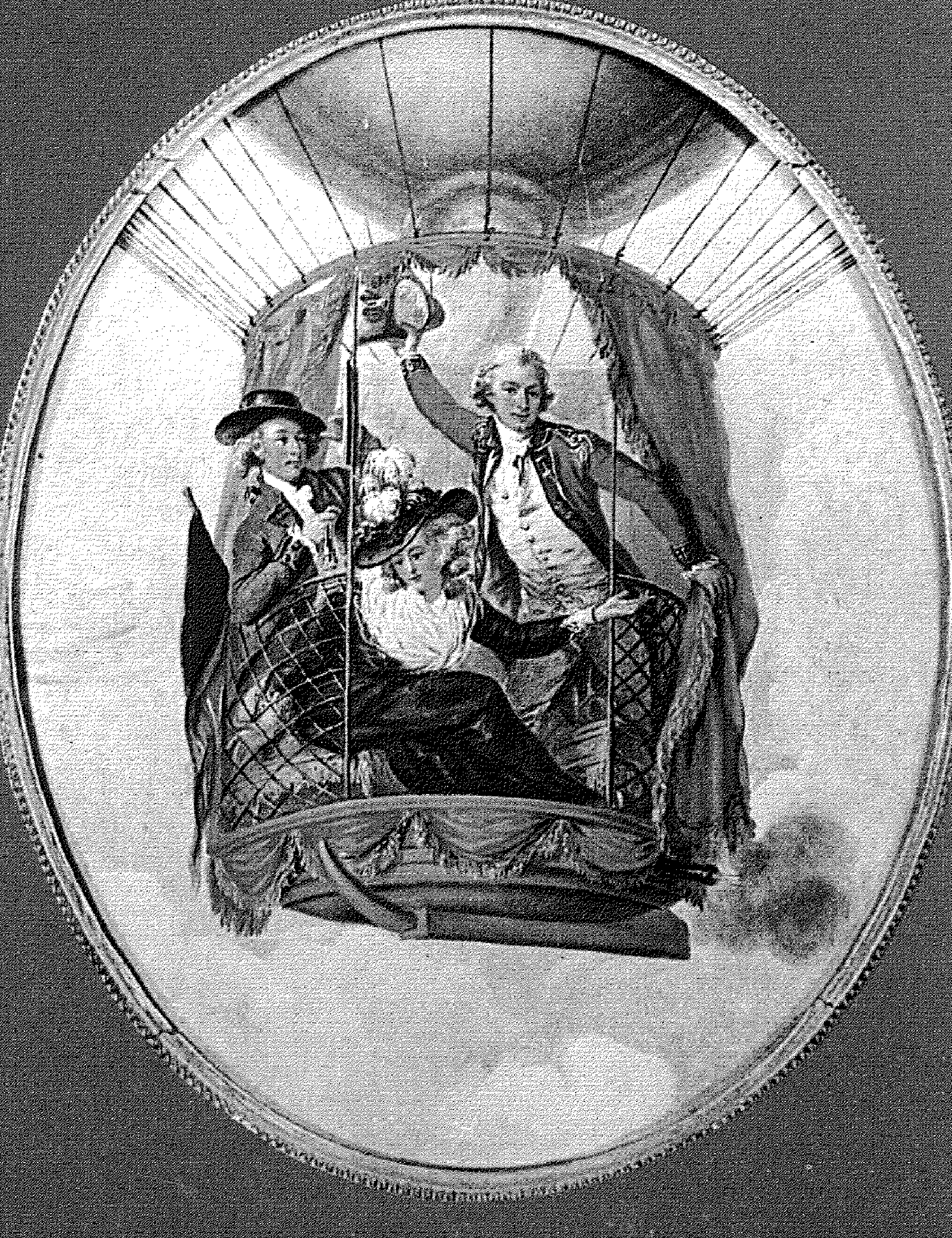
مسجد
الرسول (صلعم)
في المدينة المنورة



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٨ • آب (اغسطس) ١٩٨٣م • الموافق ذو القعدة ١٤٠٣هـ.





السوق الشعبي في مراكش



الغلاف الأول

□ لوحة تمثل اطلاق منطاد وعلى متنه اول امراة انكليزية «لاتيليا آن سيج» عام ١٧٨٥.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بشؤون التاريخ

العدد ٥٨ آب ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط. ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5 No. 58 August 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

□ **الأحزاب السياسية الدينية مثل الخوارج والشيعة في القرن الأول الهجري**
د. رضوان السيد ٢

□ **النزاعات الدولية: أثرها وتأثيرها على لبنان**
د. باسم الجسر ١٠

□ **الطب العربي في نظر العلماء والمؤرخين (الحلقة الأولى)**
د. اسماعيل سرور شلق ١٥

□ **من قصص العرب:** ٢٧

□ **من رسائل نهرو إلى ابنته: كيف فرضت انكلترا الأفيون على الصين؟**
جواهر لآل نهرو ٢٨

□ **المبادلات التجارية لبلدان المشرق والمغرب العربي الربع الأول من القرن التاسع عشر**
د. حسين سلمان سليمان ٣٨

□ **تحف تعرض لأول مرة في الذكرى المئوية الثانية لأول منطاد**
د. سامي زكي ٤٦

□ **ابحاث هاينريش بارت في تاريخ الإسلام وانتشار اللغة العربية في افريقيا (الحلقة الأولى)**
ميلكس كلاين فرانكه ٥١

□ **علماؤنا: الشيخ محمد كامل البابا**
فضل المقدم ٦٣

□ **تاريخ الألعاب الأولمبية الحديثة**
د. يوسف شبل ٧٢

□ **معركة واترلو**
د. رياض العالي ٨٠

□ **مجال التوثيق والمعلومات في مكتب التابعة**
عائشة خليفة مطر ٨٨

□ **أخبار التراث** ٨٩

□ **المعاهدة الأنكلو ــ مصرية وولادة دولة السودان ١٩ ك ٢ ١٨٩٩**
قسم «التوثيق والأبحاث» ٩٠

□ **مراجعة كتاب: المتنبي**
قسم «التوثيق والأبحاث» ٩٢

□ **كتب وردتنا** ٩٣



الأحزاب السياسية الدينية

مثل الخوارج والشيعة في القرن الأول الهجري

د. رضوان السيد

٢ — تاريخ العرب والعالم

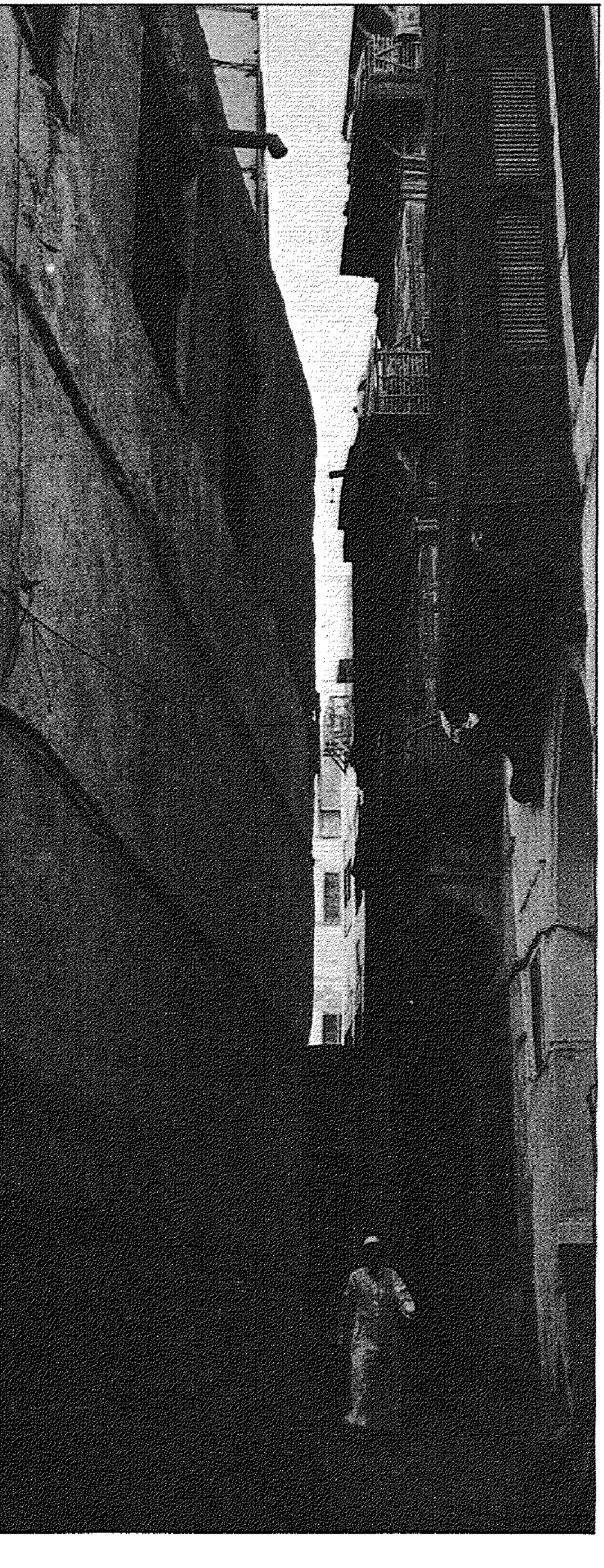


ـ ١ ـ

سمى سليمان بن صرد الخزاعي (زعيم التوابين) أتباعه الذين خرجوا معه إلى الخازر لقتال عبيد الله بن زياد والجند الأموي: حزب الله.لكن أبا بلال مرداس بن أدية (ـ ٦١هـ) كان قد فعل ذلك فيما يتصل بأتباعه منذ العام ٥٩هـ. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ تكررت التسمية من جانب الفريقين (الشيعة والخوارج) منذ مقتل سليمان بن صرد (ـ ٦٥هـ) وحتى آخر القرن الأول مرات كثيرة. بيد أن التسمية هذه كانت من جانب رجال الاتجاهين أنفسهم من جهة، ثم لم تكن تسميتهم الوحيدة من جهة ثانية، ففي النصوص التاريخية، ونصوص التقارير شبه المعاصرة للحركتين أو للحركات الشيعية والخارجية يسمى الشيعة تارة «شيعة» وطورا «شيعة علي بن أبي طالب» أو «شيعة آل علي» أو «شيعة آل محمد» في حين يسمى الآخرون «خوارج» و «حرورية» و «أهل النهروان». حتى إذا ظهرت الاتجاهات الراديكالية في منتصف الستينات من القرن الأول في الاتجاهين بدأت تتسلل إلى المصادر تسميات من مثل «الغالية» و «الغلاة» بالنسبة للشيعة، و «الأزارقة» و «القعدة» و «القائلون بالاستعراض»، و «النجدات» بالنسبة للخوارج. وليس لهذه التسميات جذر واحد حتى داخل الاتجاه الواحد. كما أن بعضها أطلق من جانب الخصوم، وبعضها الآخر من جانب أتباع الاتجاه أنفسهم. ومع أن المجتمع كان يغص في الأمصار (خصوصا البصرة والكوفة) بمجموعات تكاد تستعصي على الحصر ذات أصول قبلية أو دينية أو سياسية أو جغرافية فما من شك في أن «الخوارج» و «الشيعة» هم وحدهم الذين يمكن الحديث عنهم كاتجاهين؛ إن لم تكن بنيتهما الداخلية واحدة؛ فلا شك أن الاطار واحد من الناحيتين الاجتماعية والسياسية.

الأصل التاريخي ـ وبإيجاز ـ لهاتين الحركتين يكمن في نظري في ثلاث مسائل رئيسية تتحاور في علاقة جدلية ملحوظة، فهناك «الأمصار» التي نشأت ونمت بسرعة هائلة وهناك قضايا التنظيم الاجتماعي الداخلي. وهناك أخيرا مسألة السلطة الناشئة في المدينة وعلاقتها بقريش الأنصار من ناحية، وبالقبائل العربية من ناحية ثانية.

فقد بدأ العرب يتدفقون الى العراق والشام على صورة كتائب مسلحة حوالي العام ١٢ للهجرة. وكانوا في البداية من الحواضر الحجازية والقبائل المحيطة، والقبائل المقيمة على التخوم أصلاً من مثل بعض البطون التي تنتسب إلى اليمن بالشام، وبكر وتميم بسواد العراق. وعندما حققت هذه الكتائب نجاحات مبدئية في العراق على الخصوص؛ بدأ التفكير بخلق مستقرات لها فأسست البصرة والكوفة على عجل كمركزين عسكريين مؤقتين. ولم يكن المقران مناسبين. فالبصرة ظلت تعاني من الجفاف لفترة طويلة، والكوفة غرقت بالوخامة وانتشار الأمراض منذ البداية. ونمت المدينتان بشكل سريع جدا إذ كادت الجزيرة العربية بأكملها تجتمع فيهماحوالي العام ٥٠ للهجرة. وغلب على البصرة العرب الشماليون (تميم وقيس وبكر) كما غلب على الكوفة اليمنيون أو المنتسبون إلى اليمن (همدان وكندة والنخع وحمير والأزد). وكان عمر (في النصف الثاني من عهده قد بدأ يعطي المقاتلين من أبناء هذه القبائل أعطيات منتظمة سنوية بالاضافة إلى الرزق (مواد عينية)، ونصيبهم المقرر من الغنائم. لكن الفتوحات التي كانت المصدر الرئيسي للدخل عن طريق الغنائم بدأت تقل منذ العام ٣٠ للهجرة. في الوقت نفسه كانت البادية ما تزال تلفظ مجموعات بدوية جديدة إلى الأمصار لم تعد السلطة تستطيع استيعابها في «الديوان» لعدم حاجتها إليها، وللنفقات الباهظة المترتبة على ذلك، لكن قبائل هؤلاء (في البصرة على الخصوص) كانت مضطرة لتبنيهم والتضامن معهم وتأمين موارد لهم بانتظار تغير سياسة السلطة. في الوقت نفسه كانت الزعامات القبلية التقليدية تعاني من ضغوط مختلفة من جانب السلطة في المدينة المنورة والمصر من أجل ضبط الأمور بطريقة أشد، ثم من جانب مشايخ البطون الصغيرة الذين شاركوا في الفتوحات، وثبتوا اقدامهم في الاسلام، وكانوا يطمحون إلى أهمية اكبر في القبيلة والمصر. ولم تستطع السلطة الإسلامية المركزية أن تعطي الأمصار اهتماما



كافيا في مطالع الثلاثينات بسبب اضطراب الأمور في الحجاز على الخليفة الشيخ عثمان؛ إذ لم يتمكن من إرْضاء «الأنصار» بالمدينة في حين كانت الزعامات المكية والمدنية الغنية من قريش تتطلع كلها إلى الخلافة. وتحوّل قلق زعامات الأمصار الوسطى والصغرى إلى تمرد اتجه نحو المدينة من البصرة والكوفة ومصر انتهى بمقتل عثمان وارتفاع الآمال بتحقيق المطالب:

— في إشراك رجال الفتوحات بالأمصار أكثر في شؤون السلطة.

— وفي تقسيم الأرض بين الفاتحين لتستطيع القبائل الاستمرار في دعم أبنائها الآتين من الصحراء؛ ولتحصل هي على مورد ثابت وكاف لا يتزعزع إذا انخفضت وتيرة الفتوحات.

ويمكن القول إن عليا لم يستطع أن يحقق غير المطلب الأول وبشكل جزئي؛ في حين أثار عليه القرشيين الذين رأوا أن اختياره تم من جانب الثائرين لا من جانبهم. فكان صراع علي مع المكيين (وقعة الجمل)، ثم كان صراعه الطويل مع معاوية (٣٦ — ٤٠هـ) الذين لم ينته إلّا بمقتله بالكوفة.

— ٢ —

اما المجموعة الأولى التي بدأت بمعارضة علي (عام ٣٧هـ) فقد ركزت معارضتها له في شعار: لا حكم إلا لله. وتذكر المصادر أن عليا أجابهم: «بل لابد من إمارة» أو «لابد للناس من أمير يؤمن السبل، ويجاهد العدو، ويأخذ للضعيف من القوي...».

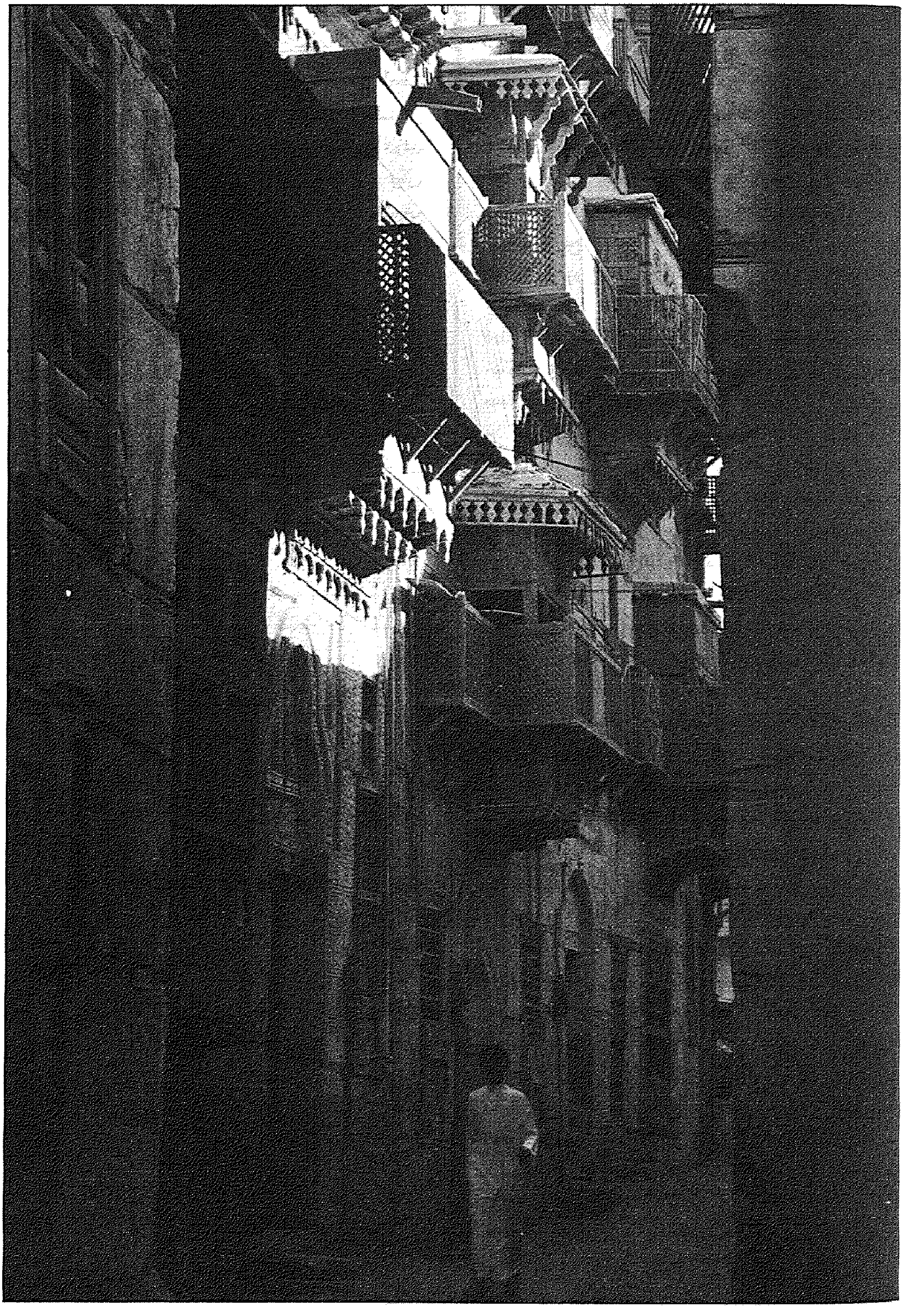
لكن يبدو أن هؤلاء الذين سموا «القراء» تارة و «أهل حروراء» فيما بعد تارة أخرى لم يكونوا يقصدون إلغاء السلطة بقدر ما كانوا يريدون أن تكون الشريعة (العرف، السنة) هي السلطة والحاكم. بينما لا يكون الخليفة أكثر من أمير، أو أول بين متساوين. بدليل أنهم عينوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي أميرا في صراعهم مع علي بالنهروان. وتختلف تقارير المصادر حول أعدادهم (ما بين أربعين إلى اثني عشر ألفا)، لكن يبدو أن عددهم لم يكن ثابتا، وقد اختلف علي مع فئات كثيرة في جيشه، وبدا لأول وهلة أنهم جميعا من الخوارج، ثم تركوا «جماعة»

الخوارج لأسباب مختلفة ولم يبق في النهاية غير «أهل حروراء» وأكثرهم من قبائل تميم وبكر والأزد.

والملاحظ في هؤلاء أنهم كانوا في أكثرهم ذوي أصول بدوية، ولم يكن البارزون بينهم من زعماء القبائل المعروفين، وكان «قراؤهم» و «زهادهم» هم الذين يعيّنون قادة الحرب من بينهم. ولم يكن لهم في البداية أمير في السلم ثم بدأ ذلك في منتصف القرن الأول الهجري، وقد دارت نقاشات كثيرة حول سبب تسميتهم «خوارج» منذ القديم، لكن يبدو أنه اسم نبزوا به وهو من أصل قبلي يعني أولئك الذين تنفيهم القبلية أو تطردهم من مثل صعاليك الجاهلية. ومعلوماتنا عن أوائلهم أنهم كانوا في العادة يجتمعون في أحد مساجد القبائل المغمورة حتى يبقوا بعيدين عن عيون السلطة والخصوم فإن رأوا أن قسوة السلطة لم يعد يمكن تحملها خرجوا من «عهد الكتمان» إلى «عهد الظهور» فغادروا المصر «متبرئين» من «الظالمين» و «متولين» أهل النهروان إما ليعتزلوا الظلمة، وإما ليؤسسوا «جماعة» مضادة. وكانوا في مثل هذه الحالات يعينون «إمام ظهور » أو «إمام أحكام» أو «إمام بيعة»، ويبدو أن هذا التحديد في «الإمامة» كان للتأكيد على تأقيتها، ولإظهار مخالفتها لطبيعة «إمامة» الجماعات الأخرى. ويبدو أنهم لم يكونوا يفكرون في البداية بانشاء «جماعات» بديلة، بيد أن تمرداتهم الصغيرة التي كان يضربها «أهل المصر» أو «جند المصر» دون رحمة، ودون توجيه أمير المصر أحيانا اقنعتهم بأن أهل المصر هؤلاء ليسوا بالضرورة أناسا مضطهدين مثلهم بل هم متآمرون أو في أحسن حالاتهم «غافلون». من هنا بدأ مصطلح «البراءة» القبلي يمتد عندهم ليشمل من عداهم من المسلمين، فإذا هم تارة «مشركون» وطورا «كفار». أما أولئك الذين يوافقونهم في الرأي فإنهم كانوا يستحثونهم على «الخروج» إليهم فإن لم يفعلوا كانوا من «المخلطين» و«القعدة». وكان مثل أبي بلال مرداس بن أدية (ــ ٦١هـ) هو الذي اقنعهم بأن المسألة لا تفيد. فقد أصر مرداس على عدم «الخروج» طوال الأعوام ما بين ٤٩ و٦٠ هـ لكن ولاة البصرة (خصوصا زياد بن أبيه) كانوا يصرون على سجنه وتعذيبه واضطهاده، فترك المصر مع بعض الذين آزروه عام ٦٠هـ. لينشىء «جماعة» جديدة لا تقاتل بالضرورة «الجماعة» القائمة غير أن عبيد الله بن زياد أصر على قتاله وقتله وعددا من رجاله أثناء صلاة الجمعة. وقد تحول أبو بلال إلى مثل أعلى للخوارج، وبدأت «الهجرة» إلى موطن مقتله، كما بدأ من ناحية أخرى: «الاستعراض» الذي يعني إبادة الخصوم أو غير المنتمين إليهم دون تمييز في غارات مفاجئة تشبه غارات القبائل العربية قبل الإسلام. والواقع أن هذه الأشكال المتطرفة للأيدلوجية الخارجية هي التي شرذمت الحركة أو الاتجاه، إذ نلحظ منذ بدايات الستينيات مصطلحات مثل «دار التقية» و «دار العلانية» و «إمام الدفاع». ويبدو أن غير المتطرفين من هؤلاء الثوار هم الذين يكمنون وراء هذه المفاهيم والمصطلحات. وقد كان هؤلاء الذين انشأوا أول سلطة خارجية مستقرة نسبيا (٦٧ ــ ٦٩هـ) باليمامة والبحرين بزعامة نجدة بن عامر الحنفي. ومن الملاحظ أن بني حنيفة الذي نشأت السلطة الخارجية على أرضهم وأرض بني عمهم عبد القيس كانوا فلاحين ولم يكونوا بدوا. ثم كان الجناح المعتدل الآخر (الإباضية) هو الذي أنشأ «إمامة» في عمان التي اتخذت «دار هجرة» ثم بتاهرت. وهم الباقون إلى اليوم مجموعات صغيرة بليبيا والجزائر وعمان.

منذ مقتل أبي بلال بدأ مفهوما «الجماعة» و «الهجرة» يلعبان دورا كبيرا في الأيديولوجية الخارجية. وإذا كان المصطلح الأول قبليا في الأساس فإنه لا يمكن زعم ذلك بالنسبة للمصطلح الثاني. لكن «الحالة» القبلية (حالة التقلب والتغير الدينامي السريع) سيطرت حتى فيما يتصل بمفهوم «الجماعة» طوال القرن الأول الهجري. فلم تنشأ جماعة خارجية شاملة.

إن الحركة كلها كانت تلتقي فقط على رموز قليلة أهمها تعليل بدايات التمرد بتغير عثمان ثم علي، والتأكيد على سيرة الشيخين، وعلى وجوب الخروج على الظلمة. لكن هذه القبلية التى كانت تسود التنظيم الاجتماعي الخارجي كله وتحتضن بداخلها الإسلام أيضاً، كانت تحاول تجاوز نفسها فيما يتصل بمسألة «العصبية»؛ فقد كان رجال حركات التمرد الخارجية في القرن



الأول يصرون على أن الايمان هو الذي جمعهم، والظلم هو الذي أخرجهم، والايمان هو الشرط الأول والأخير للانتماء إلى «الجماعة». هكذا أمكن أن يكون في الحركة أناس من قبائل مختلفة، ومتناحرة في العادة مثل تميم وبكر، وتميم والأزد، وطيء وقيس. لكن هذا «التناصر» لم يكن يتجاوز في الحقيقة درجة الحلف القبلي القديم. وقد جرى أحياناً بين أتباع نافع بن الأزرق وشبيب ونجدة تبادل التهم حول العصبية القبلية كما أنه كان من المعروف أن خوارج تميم وقفوا مع قبيلتهم ضد الأزد أثناء النزاع بالبصرة بين القبيلتين (٦٥ ـ ٦٦هـ). وكان من المنتظر أن تستوعب الحركة كل «الموالي» المسلمين الجدد والذين كانوا يعانون من ضغوط السلطة وضغوط قبائل المصر، لكن هذه «المساواة» الشديدة في الأيديولوجية لم تسيطر على مستوى واقع وتصرف «جماعة» الخوارج، فقد كانوا يعيرون عربية تزوجت بمولى. وقد انقسمت حركة نافع بن الأزرق في النهاية إلى عرب وموالي ثم إلى قيسين وربعيين. وكان من المنتظر أن تنتهي الحركة تماما لتعود فئاتها إلى القبائل من جديد لولا خروجها من البصرة إلى مستقرات حضرية في عمان والمغرب.

ـ ٣ ـ

اما الحركة الشيعية الأولى فقد بدات بالكوفة لا بالبصرة. والكوفة كما قلنا ذات تنظيم اجتماعي قبلي ذي أصول يمنية أي فلاحية لا بدوية. وإذا كان ممكنا بالنسبة للخوارج أن نقول إنهم بدأوا بالخروج عام ٣٧هـ فليس ممكنا بالنسبة للشيعة الأوائل أن نفعل مثل ذلك. كل ما يمكن فعله هنا هو ملاحظة الأسر التي ثبتت مع علي وظلت مخلصة له ولأبنائه بعد مقتله. نعرف من هذه الأسر بالكوفة أسرة سعيد بن قيس الهمذاني،وأسرة حجر بن عدي الكندي. فقد قاتل كلا الرجلين مع علي وبطنهما القبلي. وعندما انفصل عنه الخوارج أصرت الأسرتان على البقاء معه. ثم كان انضمام أسرة الأشتر (مالك) من قبيلة النخع القوية بالكوفة.

والملاحظ أن الأسر الثلاث كانت تتزعم قبائلها أو بطونا مهمة في تلك القبائل. وكان ولاء هؤلاء الرجال، للإمام علي ولاءً نضالياً إذا صح التعبير. فقد شاركوه في معاركه كلها ضد قريش وضد الشاميين ثم ضد البصريين الثائرين عليه عام ٣٨هـ وضد الخوارج. لذلك (بالاضافة إلى أسرة الأشج العبدي بالبصرة) كان هؤلاء بعد وصول معاوية إلى السلطة موضع سخط وحقد الأمويين. وقد استطاع العبديون بالبصرة بعد لأي تسوية أمورهم مع السلطة الجديدة في حين عجز عن ذلك الكوفيون تماماً رغم محاولاتهم المستمرة. وبدا لسنوات أن «شيعة علي» وشرطة «الخميس» انتهتا حتى كان تحرك حجر الكندي بمسجد الكوفة عام ٥١هـ. بدأ التحرك على شكل تذمر بسبب لعن علي على المنبر من جانب زياد بن أبيه والأمويين. وكانت بين حجر وزياد أحقاد قديمة إذ كان زياد شيعياً بالبصرة ثم تحول أمويا تماما حتى آخاه معاوية. اعتزل حجر بمنزله وبدأ بجمع بعض أبناء عشيرته لتصعيد حركة الاحتجاج. وقد أيدته عناصر شيعية من همدان والنخع فسارع زياد للاستعانة بزعماء الكوفة القبليين التقليديين الذين كانوا بعكس البصرة ما يزالون مسيطرين في قبائلهم تماماً. وهكذا جرى تسليم المحتجين ومنهم حجر إلى زياد الذي ارسلهم إلى معاوية فقطع رؤوس ستة منهم. وبهم بدأ شهداء الحركة الشيعية. وقتل الحسين بن علي عام ٦٣هـ على أبواب الكوفة دون أن يستطيع الشيعة في الداخل بالمدينة أن يهبوا لنجدته. فلما توفي يزيد بن معاوية عام ٦٥هـ واضطر البصريون عبيد الله بن زياد على مغادرة العراق؛ تنادى رجالات الشيعة بالمدينة للأخذ بثأر الحسين وحجر بن عدي، فزعموا عليهم سليمان بن صرد الخزاعي (من خزاعة) بسبب صحبته للنبي وزحفوا نحو الشام في الوقت الذي كان الأمويون فيه هناك قد أعادوا ترتيب أمورهم وبدأو يفكرون بالعودة إلى العراق. وعند عين الوردة على حدود الجزيرة الفراتية التقى الطرفان فانهزم (التوابون) وقتل زعيمهم سليمان، وكان القاتل من جديد عبيد الله بن زياد وعادت قلة قليلة متشرذمة إلى الكوفة.

وجد العائدون إلى الكوفة امامهم تنظيما من طراز جديد. فقد وصل إلى المدينة رجل من اشراف ثقيف (القبيلة العربية المسيطرة

بالطائف) هو المختار بن أبي عبيد. وقد بدأ يدعو إلى أمرين اثنين: الأخذ بثأر شهداء آل البيت والشيعة، وإقامة سلطة باسم آل البيت (محمد بن الحنفية) في الكوفة. وقد توصل لذلك؛ بإرضاء الزعامات التقليدية المتنفذة، وبإرضاء الموالي والعبيد من غير العرب عن طريق نظمهم في جيشه وحرسه. ومع المختار في شهور عام ٦٦هـ بدأت أولى رموز الحركة الشيعية التي تتجاوز «التوبة» و «الثأر». وبسبب من هذه التصرفات المختارية المرتبطة بقضايا مثل الكرسي، والملائكة، والمعنى السري للإمامة، وغيبة الإمام بدأ الشيعة الأوائل يتركونه. ثم بسبب استعانته بالموالي والعبيد بدأ الأشراف يخافونه على نفوذهم ويهربون إلى البصرة حيث تجمع أنصار آل الزبير وأعادوا السيطرة على الكوفة للأشراف الزبيريين؛ لكن بعد أن حققت الحركة الشيعية أولى انتصاراتها المتعددة الجوانب: التنظيم السري ذي الرموز، والتصديق بإمكان إنشاء سلطة، والأخذ بالثأر للشهداء إذ انتصر جيش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر عام ٦٦هـ على عبيد الله بن زياد وقتله. واستمرت الحركة الشيعية سرية بعدئذ ضربها عسكريا الزبيريون ثم سيطر الأمويون منذ العام ٧٢هـ من جديد. وبدا أن كل شيء عاد إلى الهدوء لولا أنباء الجاحظ عن «شيعة» في أحياء الكوفة الداخلية كانوا يرون مقاتلة خصومهم بكل الوسائل حتى الاغتيال والاستعراض. ثم أنباء كتب الفرق خصوصا الأشعري في مقالات الإسلاميين عن رموز شيعية غامضة تمثل تيارات بالكوفة من مثل المغيرة بن سعيد وبيان بن سمعان، لكن في مطالع القرن الثاني الهجري.

— ٤ —

ومعلوماتنا عن التنظيم الشيعي الداخلي الأول قليلة. لكن رموزه الأولى عرب من أسر فلاحية ذات زعامة تقليدية مستقرة. والقيم التي سادت فيه بداية هي قيم معروفة في المجتمعات الفلاحية. قيم الحفاظ على شرف كبير الأسرة وبلورة الأسرة والعشيرة نفسها فيه. حتى عندما دخله الموالي وغيّروا من طبيعته ظل ترميز التنظيم واضحا؛ لكن بعكس بدايته سيطرت عليه فكرة «الطائفة» المنفصلة ومبدئياتها في حين كانت الدعوة الشيعية المعتدلة تريد دائماً في الخمسينيات ثم في النصف الأول من القرن الثاني الهجري الانتشار وكسب الانتصار.

وكان من المنتظر أن يصطدم الخوارج بالشيعة في القرن الأول، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل إن بعض الخوارج جاؤا إلى زيد بن علي عام ١٢١هـ وعرضوا عليه مساعدتهم ضد هشام بن عبدالملك. وفي حين نجح التيار الشيعي المعتدل (عن طريق انتهاج أسلوب الدعوة السرية الذي بدأ أيام المختار) في الوصول إلى السلطة أيام العباسيين ثم قلب أيديولوجيته رأسا على عقب؛ فشلت الجماعة الخارجية (رغم إصرارها المستمر على الدعوة) في السيطرة في غير بعض الأطراف.

مع ذلك يمكن القول إن التنظيم الخارجي (الذي بدأ قبليا عربيا) تحول في بيئات اليمامة وعمان والبحرين والمغرب تجاريا فلاحيا مقاتلاً؛ في حين ظل الاتجاه الشيعي فلاحيا في أكثر فتراته وفرقه وإن فقد العرب قيادته منذ أواخر القرن الأول الهجري. ■

«إنني رجل قد وضعت تحت تصرف عقلي واختباري وبياني، فإن استفادت الأمة من عملي فذلك ما يجعلني سعيداً، وإلا فهو واجب قد أخذته على نفسي، فأنا أقوم به لأريح ضميري.

سعد زغلول

النزاعات الدولية



□ الاحتفال للمرة الأولى بعيد الشجرة في اعقاب الاستقلال ويبدو من اليمين المحافظ نقولا رزق الله، الرئيس رياض الصلح، الرئيس الشيخ بشارة الخوري والأمير مجيد ارسلان.

المسألة اللبنانية، منذ نشأتها، كانت متعددة الأبعاد: نزاع داخلي، طائفي في الظاهر، واجتماعي ــ اقتصادي، في الواقع، معطوف على نزاع اقليمي، مرتبط، بدوره، أو محرك أو مستغل، من قبل نزاع دولي.

ففي عام ١٨٤٠، وقعت الأحداث الطائفية الدامية الأولى في تاريخ امارة جبل لبنان، بسبب الخلافات التي نشأت بين الأمير بشير والزعامات الدرزية التقليدية، والطبقة السياسية المسيحية الطالعة وهي خلافات سببها وأذكاها تحالف الامير بشير مع ابراهيم باشا، المصري الذي كانت قواته تحتل سوريا ولبنان وفلسطين في محاولة سلخها عن الامبراطورية العثمانية. هذا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا وفرنسا تتنافسان على طريق الهند (قبل قناة السويس) وبالتالي على فرض نفوذهما على الشرق الأوسط. ولقد ادت الأحداث الدامية التي نشبت بين دروز ومسيحيي الجبل، الى تدخل الدول الاوروبية وتغيير نظام جبل لبنان من امارة يحكمها امير لبناني، منتخب، الى نظام القائمقاميتين، (درزية ومسيحية) المرتبط مباشرة بالاستانة والذي ادخل الطائفية السياسية رسميا الى حياة لبنان الوطنية.

في عام ١٨٦٠، باستثناء الامارة والاحتلال المصري، نجد العوامل والعناصر ذاتها التي سببت أحداث ١٨٤٠، تلعب دورها من جديد: نزاع سياسي داخلي، بين نظام الاقطاع الذي كان

أثرها وتأثيرها على لبنان

د. باسم الجسر

يجسم الزعامة السياسية الدرزية وطبقة سياسية مارونية جديدة بقيادة رجال الدين المتعلمين، متحالفتين، احداهما مع فرنسا والثانية مع بريطانيا، اللتين كانتا، بدورهما، تتنازعان وراثة الامبراطورية العثمانية والسيطرة على المشرق. هذه النزاعات الثلاثة ادت، بترابطها وتفاعلها، الى احداث الفتن الطائفية بين المسيحيين والدروز التي امتدت الى كل جبل لبنان، وحتى دمشق، ولم تتوقف الا بعد انزال عسكري فرنسي في جونيه، جمده تهديد انكليزي بالتدخل، والا بعد عقد مؤتمر دولي جمع الدول الاوروبية وممثلا عن الاستانة وانتهى بانشاء «نظام جبل لبنان الخاص» (المتصرفية) وهو نظام متمتع رغم تبعيته للامبراطورية العثمانية، بحكم ذاتي خاص، (متصرف مسيحي عثماني تعينه الاستانة وتوافق عليه الدول الاوروبية). هذا النظام دام ستين عاما. (١٨٦١ ــ ١٩٢٠).

في عام ١٩٢٠، اعلن الجنرال غورو «دولة لبنان الكبير»، التي ضمت متصرفية جبل لبنان وقسما كبيرا من «ولاية بيروت» وبعض الأقضية التي كانت تابعة لولاية دمشق. وذلك بالرغم من ان مطلب اكثرية الموارنة كان قيام دولة في جبل لبنان ذات اكثرية مسيحية، محمية من فرنسا. وكان مطلب اكثرية المسلمين الالتحاق بدولة سورية عربية، يحكمها الأمير فيصل. ولا ريب في ان الأسباب التي ادت الى هذا الاعلان هي: اتفاق سايكس ــ بيكو بين فرنسا وبريطانيا على اقتسام المناطق الشرقية التي انتزعت من الامبراطورية العثمانية ثم اختلافهما في مؤتمر فرساي على مصير سوريا ومساندة السياسة البريطانية للحركة العربية الاستقلالية، بقيادة فيصل.

في عام ١٩٤٣، كان الاستقلال اللبناني واحداث تشرين ١٩٤٣، بل حتى «الميثاق الوطني»، نتائج مباشرة او غير مباشرة للنزاعات والاتفاقات الدولية. فاتفاق الحلفاء، اي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا، على بلوغ الشعوب العربية ومنها اللبنانيين، الاستقلال بعد الحرب (ميثاق الأطلسي) وتكليف بريطانيا (قبل ان يتحرك الاتحاد السوفياتي) بتنظيم منطقة الشرق الأوسط، كانا السبب المباشر لتلاقي الحركات الاستقلالية الوطنية في سوريا والعراق ومصر ولبنان، على انشاء جامعة الدول العربية وعلى صيغة «الكيان اللبناني المستقل ذي الوجه العربي». ولولا النزاع الفرنسي ــ البريطاني في صيف ١٩٤٣ على النفوذ في لبنان وسوريا، لما وقعت احداث تشرين ١٩٤٣ وادت الى الانفجار الوطني الذي كرس تبلور صيغة الميثاق الوطني وعجل في بلوغ لبنان سيادته الكاملة وانضمامه الى الأسرة العربية.

١٩٥٨: لم يكن الشعور بالغبن السياسي والاقتصادي لدى اللبنانيين المسلمين ولا انجذابهم القومي الى «القومية العربية» الناصرية، كافيين وحدهما لاشعال نار «ثورة ١٩٥٨». ولا أخطاء الحكم في محاولة الاستمرار وضرب المعارضة، كفيلة، وحدها، باشعال تلك النار. ولكن النزاع المحتدم، يومذاك، بين القاهرة وبغداد، من جهة، وارتباط هذا النزاع بمشاريع الدفاع العسكري عن الشرق الأوسط التي كانت بريطانيا تنظمها علنا والولايات المتحدة تدعمها، سرا، ويعارضها الاتحاد السوفياتي بقوة، من جهة ثانية، هو ما أدى الى تحويل لبنان الى ساحة للمجابهة، والى تضخيم النزاع اللبناني الداخلي، من معركة حول الحكم والاصلاح السياسي ــ الاجتماعي، الى ثورة صغيرة، او «شبه حرب» طائفية أهلية، ذات ابعاد اقليمية وايديولوجية. ولولا ثورة ١٤ تموز العراقية، وخوف الولايات المتحدة الاميركية من اختلال



□ الأمير بشير الشهابي.



□ ابراهيم باشا.

موازين القوى والدفاع في الشرق الأوسط، لما انزل الاسطول السادس الاميركي قواته على شواطىء بيروت واضعا حدا للعصيان والقتال. ولما تم الاتفاق بين الرئيس جمال عبد الناصر (ممثلا مصر وسوريا الموحدتين انذاك) والمبعوث الأميركي، مورفي، على خطوط حل الأزمة اللبنانية بل على تفاصيلها، وهو حل عاش اللبنانيون في ظله خمسة عشر عاما.

١٩٧٥ ــ ١٩٨٢: الاشتباكات الفلسطينية ــ اللبنانية، التي تحولت الى اقتتال طائفي ذي ابعاد ايديولوجية قومية وطبقية ووطنية، ثم الى دخول القوات السورية والعربية، ثم الى قتال بين القوات المسيحية المسلحة والجيش السوري، تخللها اجتياح اسرائيلي وارسال قوات دولية، ومشاريع تقسيم.. وانتهت (هذا اذا انتهت؟!) باجتياح واحتلال اسرائيليين، وخروج المقاومة الفلسطينية المسلحة من بيروت والجنوب وارسال قوات اميركية ــ واوروبية الى لبنان.. كل هذه الأحداث الكبيرة ما كانت لتقع لو لم تهيئها نزاعات اقليمية ودولية محتدمة منذ عام ١٩٦٧. اي منذ ان ادت هزيمة العرب العسكرية، وبنوع خاص هزيمة مصر، امام اسرائيل، الى انحراف آمال الأجيال العربية عن القومية العربية الناصرية نحو الكفاح المسلح وحرب التحرير المجسمين في المقاومة الفلسطينية. فهذا التحول في اتجاه وابعاد التفكير القومي العربي، زعزع احدى قاعدتي التوازن الوطني اللبناني اللتين كانتا قد ارسيتا منذ عام ١٩٥٨. كذلك خروج المقاومة الفلسطينية من عمان وتركيز قواعدها ونشاطها في لبنان، حولا لبنان الى جبهة قتالية، بين العرب واسرائيل، واخل بالقاعدة الثانية للتوازن الوطني والسياسي في لبنان وادى الى تبلور وبروز تيار المقاومة المسلحة المسيحية لتيار الثورية العربية ذات البعد الفلسطيني ــ اليساري ــ الاسلامي اللبناني، الذي كان قد تبلور وبرز في لبنان منذ عام ١٩٧٣.

ولكن هذين النزاعين اللبناني والعربي ما كانا ليحدثا ما احدثا من اقتتال وحروب لو لم يرتبطا بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي من جهة وبالحرب الباردة الاميركية السوفياتية، من جهة اخرى ولا سيما بالبعد الستراتيجي والاقتصادي لها.

ان حرب السبع سنوات التي جعلت من لبنان مسرحا وضحية لتلك النزاعات الاقليمية والدولية، قد ابرزت الوقائع التالية:

اولا: تدخل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي المباشر وغير المباشر في المصير اللبناني.

ثانيا: تقدم وطغيان النزاع العربي ــ الاسرائيلي على النزاع الطائفي او السياسي بين اللبنانيين.

ثالثا: انتقال الثقل السياسي في المنطقة من مصر وسوريا الى الخليج ودول النفط فيه.

رابعا: خروج مصر عن الالتزام النضالي القومي ضد اسرائيل الذي ادى الى تسليم

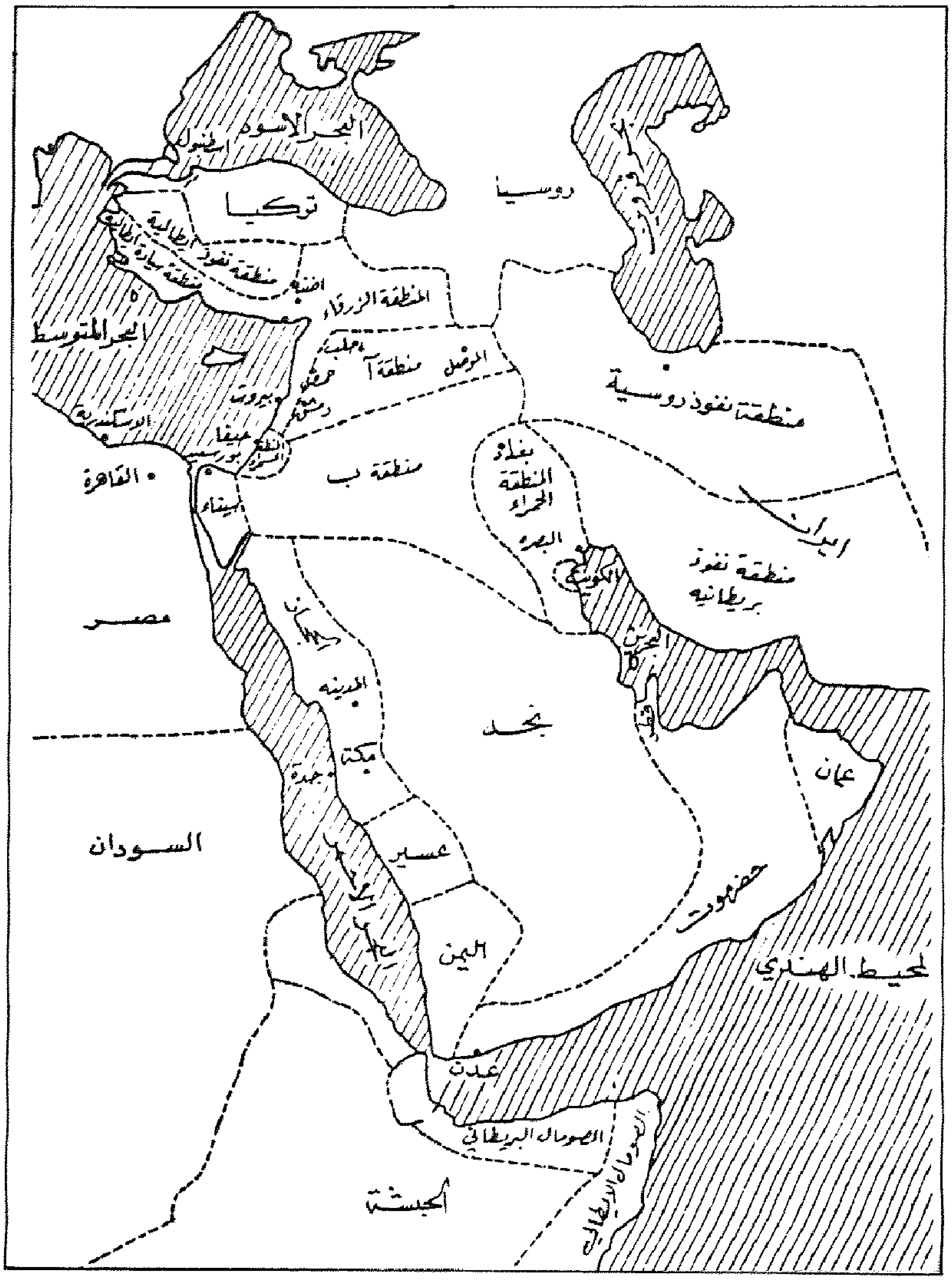
المصير العربي الى دول عربية كانت ثانوية الأهمية والتأثير في هذا المصير، متباينة الايديولوجيات والأهداف، الأمر الذي ادى الى اخفاق وشل القدرة العربية على مقاومة اسرائيل او ارغامها على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة منذ ١٩٦٧.

خامسا: بروز ثلاثة عوامل جديدة ذات اثر مباشرعلى تطور الأحداث ومجرى الحرب هي: كامب دافيد، قيام الثورة الايرانية، وتغيير الستراتيجية العسكرية الاميركية بعد وصول الرئيس ريغان وفريقه الى الحكم في واشنطن.

من هذا الاستعراض التاريخي للنزاعات الاقليمية والدولية وتأثيرها على لبنان ومصيره يمكن استخلاص ثلاثة استنتاجات:

اولا: ان تأثير النزاعات الدولية والاقليمية على لبنان يفوق في مداه وعمقه ونتائجه، اي تأثير على اي دولة عربية أو غير عربية في منطقة الشرق الأوسط. وذلك بسبب تعددية البنيات البشرية اللبنانية وضعف مناعتها ضد هذاالتأثير. كذلك بسبب الانفتاح الطبيعي العضوي والوظيفي لهذه البنيات على الشرق والغرب.

ثانيا: ان تأثير النزاعات الاقليمية والدولية على لبنان، قابل للامتصاص أو للمقاومة اذا كان لبنان يمر بمرحلة استقرار سياسي وتوازن وطني اقتصادي. اما اذا صادف أزمة لبنانية حادة، فانه يتحول الى عنصر توتر وعامل تفجير. وحالة الاستقرار أو الأزمة، مرهونان، بدورهما، بمدى



□ معاهدة سايكس ـ بيكو.

قدرة الحكم اللبناني على مسايرة التطور الاقتصادي والاجتماعي وملاءمة مصالحه معه. الا انه من الراهن أن بعض تلك النزاعات — لا سيما بعد قيام اسرائيل وبروز مخططاتها لتفكيك الشرق الأدنى — يفوق قدرة اللبنانيين على الصمود.

ثالثا: ان كل ازمة لبنانية داخلية، تسببها النزاعات الدولية أو الاقليمية مباشرة أو تغذيها وتزيد من تفاقمها، لا تلبث ان تتطيف وتتحول الى نزاع طائفي. فتطييف النزاعات هي ردة فعل غير منطقية وغير معقولة وخطرة من جهة.. ولكنها، من جهة اخرى، ردة فعل غريزية للدفاع عن النفس بمعنى ان ايصال الطوائف اللبنانية الى حافة التفكك الوطني او «تقسيم لبنان» هو الذي يحمل هذه الطوائف على اعادة النظر بمواقفها واندفاعها في النزاع كما يحمل الدول الاقليمية على وقف تدخلها في الأزمة اللبنانية، كما يحمل الدول الكبرى على التدخل لحماية مصالحها من نتائج تفاقم الأزمة اللبنانية.

فهذه الطريقة في تطييف النزاعات، ساعدت على «انقاذ» لبنان، اكثر من مرة في تاريخه الحديث.. ولكن بأي ثمن!

ان عام ١٩٨٢ كرس لبنان كنموذج مثالي لتداخل النزاعات الدولية والاقليمية في مصيره. فالاجتياح الاسرائيلي، ما كان ليقع لولا موافقة الولايات المتحدة والدول الأوروبية عليه لوضع حد للحركات الثورية أو ما تسميه تلك الدول «بالارهاب الدولي» وهي حركات كانت قد اتخذت من أرضه منطلقاً ومن الحرب اللبنانية ستاراً لها.

كذلك كرس عام ١٩٨٢ تجربة الأسلحة الاميركية المتطورة عن طريق اسرائيل، بالأسلحة السوفياتية المتطورة، عن طريق سوريا، في سماء لبنان. كما كرس اتفاق الدول العربية المحافظة (مصر، السعودية، دول الخليج..) على «انقاذ لبنان» وانهاء حربه واعادة توحيده، كرد على الثورة الايرانية وطموحاتها الثورية الدينية التي بدأت تتطلع الى لبنان كحقل تجارب لها.

ان وجود الأسطول السادس الاميركي على شواطىء لبنان والقوات الاميركية والاوروبية على ارض لبنان والصواريخ السورية السوفياتية الصنع في البقاع والرادار «الاميركي — الاسرائيلي» (؟!) في الباروك والقوات الاسرائيلية في الجنوب والبقاع — تؤكد الحقائق التالية:

١ — انتقال «الحرب الباردة الساخنة — الاميركية السوفياتية» الى ارض لبنان، وتحول لبنان الى جبهة حربية.

٢ — بروز اسرائيل كعامل تدخل مباشر في حياة لبنان الوطنية والسياسية وعلاقته بمحيطه العربي.

٣ — بروز النزاع العربي — الايراني، المتعدد الابعاد، كعامل جديد في النزاعات اللبنانية والاقليمية.

سؤال اخير: هل يمكن للبنان ان يحمي نفسه، اليوم، وفي المستقبل، من تأثير النزاعات الاقليمية والدولية على مصيره؟ وكيف؟

ان النزاعات الاقليمية والدولية لن تتوقف. كذلك النزاعات الداخلية اللبنانية. ومن السذاجة تصور الشرق الأوسط خاليا من النزاعات أو المجتمع اللبناني خاليا من الخلافات. ولكنه من الممكن بل من اللازم البحث عن طريقة تقي لبنان انعكاسات تلك النزاعات السلبية او العنيفة.

يرى البعض ذلك في اعلان حياد لبنان كما يراه البعض الآخر في تقوية الدولة وتعزيز الجيش اللبناني.. وثمة من يرى في تجاوز النظام الطائفي طريقا لصيانة الوحدة الوطنية ضد التأثيرات الخارجية. وثمة من يرى ذلك بتحقيق العدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقيقية.

الحلول عديدة وبديهي ان لبناناً محكوما بدولة صديقة ديمقراطية، يدعمها جيش قادر على الردع وحماية الحدود، وتعززها العدالة الاجتماعية ونظام اقتصادي انتاجي متطور، بإمكانه الصمود امام الهزات التي تحدثها النزاعات الدولية والاقليمية على ارضه وكيانه وأوضاعه الداخلية. ولكن.. لبلوغ هذه المرحلة المتقدمة من المناعة الوطنية والسياسية والاجتماعية.. يجب الابتداء بتحرير اللبنانيين من الرواسب السلبية النفسانية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي تعطل قيام هذا اللبنان الذي يتطلع الى قيامه كل اللبنانيين.. لا سيما بعد حرب السنوات السبع وتجاربها القاسية؟! ■

الطب العربي

في نظر العلماء والمؤرخين (دراسة نقدية)

د. اسماعيل سرور شلق

الحلقة الأولى



□ كتاب «الزهراوي».

لماذا يدرس الناس تاريخ العلم؟ أليس العلم مجموعة حقائق ثبتت بالبرهان القاطع، فيكون أحدثها أصدقها وأقربها إلى الحقيقة، وماذا يعنينا من ماضي العلم؟ إن كان مخالفاً لحاضره فهو خطأ، وإن كان مطابقا له فما أغنانا عنه.

هذا رأي كثير من المشتغلين بالعلوم، وهو يدل على نظرة سطحية بعيدة كل البعد عن طبيعة العلم. ولن تجد أحداً من كبار العلماء الباحثين يجهل ما كان عليه رأي سابقيه في موضوع بحثه، وكيف تطورت الآراء فيه حتى بلغت ما هي عليه. والذين يسعون إلى كشف جديد يجب عليهم أن يدرسوا علاقة الماضي بالحاضر ليتعرفوا الطريق التي يجب أن يسيروا فيها لكي يخرجوا من الحاضر إلى المستقبل، ومن المعلوم إلى المجهول.

□ د. اسماعيل سرور شلق: محاضر في جامعة الملك عبد العزيز آل سعود.

العلم مجموعة مشاهدات، وهو فوق ذلك الكشف عن العلاقات التي تربط هذه المشاهدات بعضها ببعض، إلى هذا الحد لا يكون العلم الماضي خطأ، وإنما يكون ناقصاً، ثم تأتي مشاهدات وقوانين جديدة تتم بعض هذا النقص الذي نشأ من قلة عدد المشاهدات وضيق مدى تطبيقها وتطبيق قوانينها. وإنما يأتي الخطأ إلى العلم من التفسيرات التي يضعها العلماء محاولين أن تكون نظرياتهم شاملة منطقية.

وعلى ذلك لا يكون علم القدماء خطأ إلا فيما تعرضوا له من كليات شاملة. أما المشاهدات والقوانين التي تربطها فهي دائماً صواب في حدود ما تعرض له، وقد تكون ناقصة. ويجب على دارس العلم أن يدرس تاريخه، مقتنعاً أن مشاهدات القدماء صحيحة، وإن أخطأوا في تفسيرها.

قد يقال إن هذا أمر لا يعني إلا كبار العلماء الذين يكشفون حقائق وقوانين جديدة. أما الباحث أو القارىء فماذا يعنيه من دراسة تطور الآراء العلمية في الوقت الذي ترهقه كثرة المعلومات التفصيلية الدقيقة التي يحتاج إليها في معرفة الفروع المتعددة للعلوم الحديثة؟ هذا الإرهاق لا يترك له من الجهد ما يستطيع به أن يعرف آراء العلماء القدماء، وكيف تطورت إلى الآراء الحديثة، بل قد يزيده هذا العلم بالماضي اضطراباً وشكاً وقلقاً.

وعندنا أن هذا خطأ، فالآراء الحديثة تكون أكثر ثبوتا واستقرارا في ذهن الباحث إذا عرف كيف كانت آراء العلماء بالأمس، وكيف اضطرتهم التجارب إلى البحث عن قوانين أكثر شمولا. ولا شك أن الطريقة التاريخية هي إلى حد ما خير الطرق لتثبيت الآراء الحديثة في أذهان الباحثين، بل إننا نعتقد أن الباحث يجب أن يدرس الآراء التي كانت معروفة في الماضي القريب قبل أن يدرس الآراء الحديثة جدا التي لم تثبت قيمتها بعد.

وقديما قال أحد كبار المفكرين (جوته): إن العلم هو تاريخ العلم. ولا شك أنه بغير هذا التاريخ تكون المعلومات الحديثة فوضى قلقة لا جذور لها.

نحن نقدم إلى الدارس في هذه الدراسة تاريخ الطب في فترة بعينها، ولنا أن نضع أوصافاً لها مختلفة، فهو من حيث قوميته يوناني — عربي، بدأ بأبقراط وانتهى بابن سينا. وهو من حيث تاريخ التفكير العلمي طب الكليات والاستنتاج، وهو العهد الذي سبق عهد الاستقراء والتجربة.

وهو من ناحية الزمن طب وسيط يقع بين الطب العتيق الذي انتهى بطب قدماء المصريين، وبين الطب الحديث الذي بدأ في عهد النهضة، وهو من حيث التطور الطبي يعد طب الخبرة المنظمة بعد أن كان الطب خبرة بحتة، وقبل أن يكون كما هو في العصر الحديث الطب التجريبي. وهو من حيث طبيعته يقوم على الصفات الفيزيقية للأشياء، حيث لم تكن الكيمياء معروفة، ولم يكن للأطباء سبيل إلى التفريق بين الأشياء إلا من حيث صفاتها الظاهرة. وهو على كل حال عهد من الطب ممتع، ولا يزال له أثر في التصورات الطبية الحديثة.

ويعوق الدارسين عن استيعاب هذا الطب اليوناني العربي، وما فيه من حقائق علمية، ومشاهدات قيمة اختلاف مصطلحاته، وتصوراته عما عليه الطب الحديث. لذلك رأينا أن نقدم لهذا الطب بعرض تصورات الأطباء القدماء للصحة والمرض وأسبابهما، وأن يكون ذلك بلغة الطب الحديث، فتبرز بذلك الحقائق العلمية دون أن يزهدنا فيها غرابة هذه التصورات وخصوصية لغتها.

مجمل تاريخ الطب العربي:

ظل الطب العربي قديما بدائيا بدويا يتناقله الناس مشافهة في غير نظام، فكان في الواقع طبا فولكلوريا. ثم حدث أن استدعى الخلفاء العباسيون الأولون مهرة الأطباء من السريان الذين كانوا يعلمون الطب ويمارسونه في بلدة جنديسابور في جنوب فارس، وكان أكثرهم من أسرة واحدة هم آل بختيشوع. ولهذه الأسرة على الطب العربي فضل لا ينكر. وكان فيهم من المهارة والذكاء وحسن التصرف والقدرة على إرضاء الخلفاء ما جعلهم أطباء البلاط المفضلين، وظلوا كذلك أكثر من قرن. ثم جاء المأمون فرأى بثاقب فكره أن يجعل الطب عربيا أصيلا، وأدرك



□ عملية قيصرية في مخطوطة للبيروني. رقم (١٦١) في أدينبورغ.

أن الترجمة المزدوجة من اليونانية إلى السوريانية ومن هذه إلى العربية مصدر أخطاء كثيرة وغموض واضطراب، فعمل على أن يكون من العرب مترجمون ينقلون الطب والعلم والفلسفة من اليونانية مباشرة، وكان على رأس هؤلاء المترجمين مترجم العرب الأكبر حنين بن إسحق، فأصبح للعرب علم أصيل، وعرفوا أرسطو وأبقراط وجالينوس، وصادف ذلك هوى في نفوسهم لأنهم كانوا معدين عقليا لاستقبال هذه العلوم. وسرعان ما أصبح الطب أصيلا فيهم، فتناولوه بالشرح والنقد، ومارسوه عملياً، وعرفوا منه ما هو صحيح، وما هو مخالف للواقع، وأصبح لعلمهم شخصية خاصة به، وإن ظل قائماً على الكليات التي وضعها الطبيعيون والفلاسفة. ولم يكن عندهم ما يدعوهم إلى الشك في صحة هذه الكليات، ولم يحاولوا التخلص منها أو تعديلها تعديلا ذا شأن، لأنها في نظرهم ثابتة ببراهين خارجة عن العلوم الطبية. ولم يكن للطبيب من جهة ما هو طبيب — على حد قول ابن سينا — أن يحاول إثبات هذه الكليات أو نفيها. واستقر العلم الطبي في أذهان العرب، فبدأ عهد جديد إزدهر فيه الطب إزدهاراً بالغاً، ونبغ فيه منهم كثيرون، ولم يبق الطب مقصوراً على النصارى النسطوريين[١].

ولم يكن في العالم المتحضر في ما بين منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) والقرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) علم طبي يعتد به إلا ما كان منه عند العرب. وما عند غيرهم لم يكن إلا نقلاً عنهم واحتذاءً لهم، ولم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب علماً وعملاً وتنظيماً. هذه حقيقة تاريخية لانزاع فيها.

بذل الرواد من مؤرخي العلوم جهدا بالغا في دراسة تاريخ الطب العربي. ووصفوا كيف نشأ في بغداد، وكيف نما وازدهر حتى بلغ أوجه في عهد الرازي وابن سينا، وكيف انتقل بعد ذلك إلى الأمم اللاتينية. وكانت الصورة العامة التي قدمها لنا أولئك الرواد واضحة ومقنعة، ولا تزال

مقبولة عند أكثر المشتغلين بتاريخ العلوم، لم يغير منها كثيرا ما كشف عنه المؤرخون المعاصرون على كثرة ما تعلمناه من هذه الكشوف.

وفي رأي كبار أساتذة الطب المحدثين أن ما عمله المؤرخون المحدثون عمل مجيد من الناحية التاريخية إلا أن فيه هنات وعيوبا من وجهة النظر الطبية. من ذلك أن مؤرخي العلوم — شأنهم في ذلك شأن علماء التاريخ العام — يقسمون موضوعات بحوثهم تقسيما زمنيا وقوميا. فتراهم يتحدثون عن الطب المصري القديم، والطب اليوناني الهلليني والهلينستي، والطب العربي. وهذا التقسيم يفيد كثيرا حين نريد أن نتتبع الأحداث العلمية، نربطها بعضها ببعض كي نتبين خطوات التطور العلمي في عصر بعينه عند أمة من الأمم. ولكننا نعتقد أن هناك أسلوبا آخر في كتابة تاريخ العلوم، أو على الأقل تاريخ الطب، قد يكون أعم وأقرب إلى إيضاح حقيقة التطور العلمي من الأسلوب الذي ألفناه. عندي أن الطب يصح أن يقسم إلى عصور يتميز كل عصر فيها بتفكير خاص. فيكون العصر الأول عصر الخبرة البحتة، والذي يليه عصر الخبرة المنظمة عقلياً، ثم يلي ذلك عصر التحليل والتجربة. ونكتفي هنا بالقول بأن الطب اليوناني والعربي يمثلان عصرا واحدا يتميز بتفكير متشابه جدا. والتشابه في التفكير لا يكون عرضا. وإنما حمل العرب لواء النهوض بالطب اليوناني لأنهم كانوا مهيئين لذلك من قبل علميا وعقليا.

ويخطىء المؤرخون الذين يقيسون التفوق الطبي بمقياس واحد هو عندهم جودة المؤلفات الطبية. والحق أن المؤرخين جميعا أشادوا بمؤلفات العرب الكبرى، لحسن تبويبها، ووضوح قضاياها، واستقرار منطقها. ولكن هذا الرأي قد يدعو إلى إغفال تفوق العرب في الطب الاكلينيكي. وقد يدعو إلى إغفال شأن البيمارستانات التي كان يعالج فيها المرضى، ويتدرب فيها الأطباء، فكانت بذلك مستشفيات تعليمية قريبة جداً من مثيلاتها في عصرنا الحديث. ولا يجوز لنا أن نغفل هذين الأمرين حين نحاول تقدير الطب العربي.

وهناك قضية أخرى خاض فيها قوم كثيرون، ولا أراها تستحق ما دار حولها من جدل: هل أضاف العرب شيئاً إلى الطب اليوناني؟

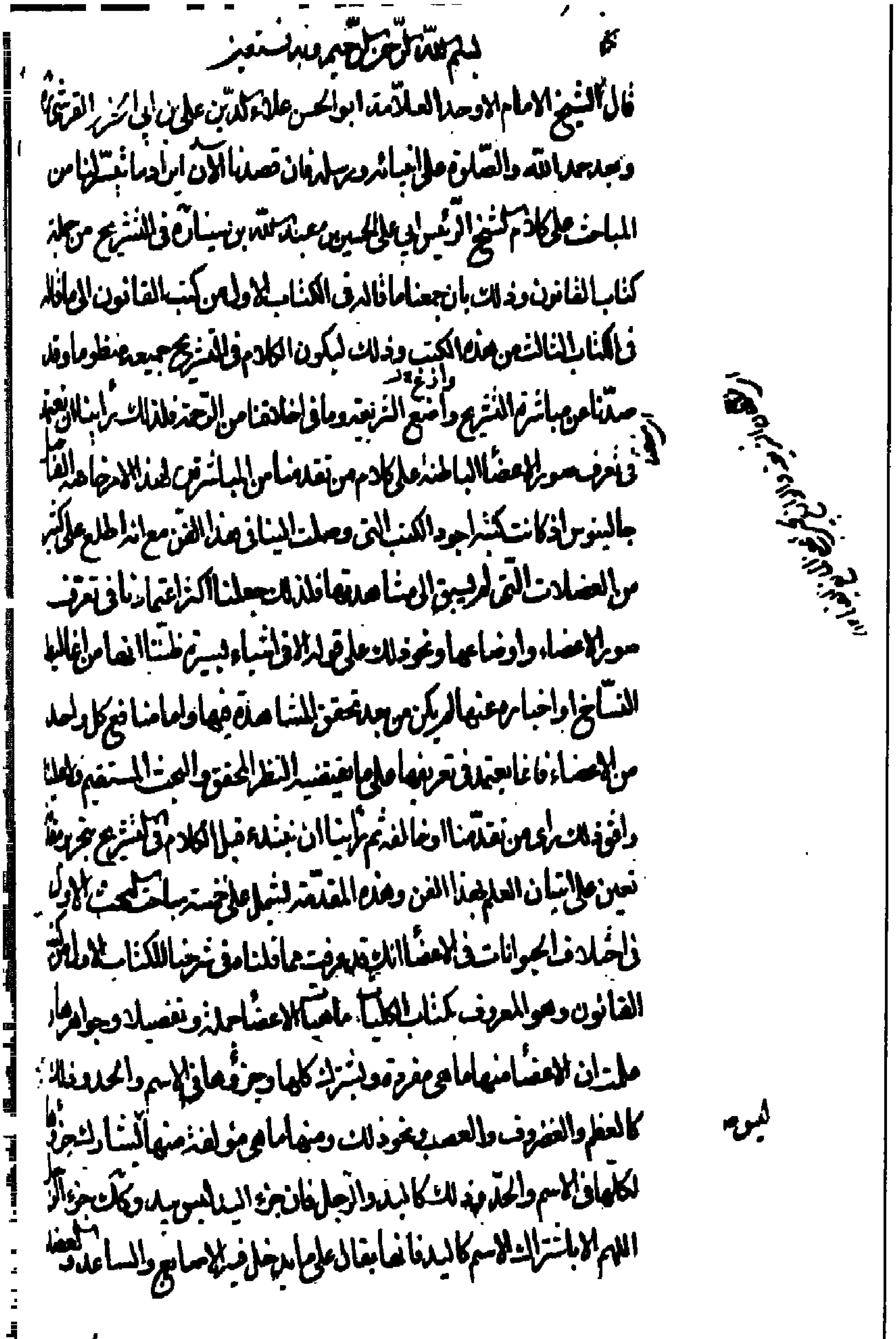
الواقع أن الأطباء العرب لم يحاولوا أن يغيروا من الأسس الفلسفية والطبيعية التي قام عليها الطب اليوناني. ويقول ابن سينا في كتابه القانون عند الحديث عن الأمزجة «يجب أن يتعلم الطبيب من الطبيعي أن المزاج المعتدل على هذا المعنى مما لا يجوز أصلاً»[٢]. ويقول في موضع آخر «والطبيب ليس عليه أن يتتبع المخرج إلى الحق من هذين الاختلافين بالبرهان. فليس له إليه سبيل من جهة ما هو طبيب، ولا يضيره في شيء من مباحثه وأعماله»[٣].

والأطباء اليونانيون أنفسهم لم يغيروا من أسس علومهم الطبية على مدى القرون التي خلت منذ أبقراط. فلماذا نريد من الأطباء العرب أن يغيروا منها؟ وخاصة أنهم لم يحفزهم شيء من خبرتهم إلى الشك في هذه الأسس، بل وجدوا فيها تعليلاً منطقياً ومعقولاً وواضحاً لكل ما عرض لهم من مشاكل.

الواقع أن كبار الأطباء العرب — مع إيمانهم بالكليات الطبية كما تصوروها الإغريق، ومع إعجابهم الشديد بالفاضلين (أبقراط وجالينوس) لم يترددوا من التنبيه على خطئهما حين يخطئان. وللرازي مواقف ثلاثة من جالينوس وأبقراط، فهو يخطىء أبقراط في صراحة عنيفة من قوله بأن ماء الاستسقاء يصل إلى الرئة فيزيد السعال، ويصف ذلك الرأي بأنه قول «سمج»[٤]. ويخطئه في أن ذبول الجسم يزيد رواسب البول[٥]، ويقول: «والذي عندي أن ذلك خطأ لا يجوز أبداً»، ويعلل رأيه هذا تعليلاً لطيفاً فيقول: «إن جرم القلب أرطب من العروق والعظم، فإذا بلغت الحرارة أن تدهمها فهي إلى أن تذيب جرم القلب أولى، والموت قبل ذلك».

وفي بعض المواضع يرى الرازي أن يجرب ما قال به الفاضلان قبل أن يقطع في قولهما برأي. ونراه يتفق مع جالينوس في قوله عن الحميات — إن بعضها يكون عن ورم، وبعضها بغير ورم. ولكنه يعلق على ذلك بقوله:

«هذا تحقيق رأينا في أنا قسمنا الحميات إلى قسمين فقلنا الحميات: إما مرض وإما عرض»[٦]، هذا التقسيم هو ما يقول به الطب اليوم، وهو من غير شك أوضح وأصدق من قول جالينوس. على أنه ذكر مرة في كتاب الفصول بعد



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الشيخ الامام الاوحد العلامة ابو الحسن علاء الدين علي بن ابي الحزم القرشي
وبعد حمد الله والصلوة على انبيائه ورسله فان قصدنا الآن ايراد ما تيسر لنا من
المباحث على كلام الشيخ الرئيس ابي علي الحسين بن عبد الله بن سينا في التشريح من جملة
كتاب القانون وذلك بان جمعنا ما فرقه في الكتاب الاول من كتب القانون الى ما قاله
في الكتاب الثالث من هذه الكتب وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه متواليا وقد
صدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة وما في اخلاقنا من الرحمة فلذلك رأينا ان نعتمد
في تعرف صور الاعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الامر خاصة الفاضل
جالينوس اذ كانت كتبه اجود الكتب التي وصلت الينا في هذا الفن مع انه اطلع على كثير
من العضلات التي لم يشاهدها من تقدمه فلذلك جعلنا اكثر اعتمادنا في تعرف
صور الاعضاء واوضاعها ونحو ذلك على قوله الا في اشياء يسيرة ظننا انها من اغاليط
النساخ او اخباره عنها لم يكن عن تحقق المشاهدة فيها واما منافع كل واحد
من الاعضاء فانا نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا
وافق ذلك رأي من تقدمنا او خالفه ثم رأينا ان نقدم قبل الكلام في التشريح مقدمة
تعين على اتقان العلم بهذا الفن وهذه المقدمة تشتمل على خمسة مباحث البحث الاول
في اختلاف الحيوانات في الاعضاء انك قد عرفت مما قلناه في شرحنا للكتاب الاول من
القانون وهو المعروف بكتاب الكليات ماهية الاعضاء جملة وتفصيلا وجواهرها
وعلمت ان الاعضاء منها ما هي مفردة وهي التي يشترك كلها وجزؤها في الاسم والحد وذلك
كالعظم والغضروف والعصب ونحو ذلك ومنها ما هي مؤلفة منها وهي التي لا يشترك
كلها في الاسم والحد وذلك كاليد والرجل فان جزء اليد لا يسمى يدا وكذلك جزء الرجل
الا باشتراك الاسم كاليد فانما يقال على ما يدخل فيه الاصابع والساعد والعضد
والكتف

□ الصفحة التمهيدية لتعليق «ابن نفيس» على تشريح القلب.

شرح رأي جالينوس «ينبغي أن يعمل على هذا فهو صحيح»، أما ما قد كتبناه فغلط»[7].

ويطول بنا القول إذا أردنا أن نقيم البرهان على استقلال الأطباء العرب بخبرتهم وتجاربهم وآرائهم، وإن ظلوا داخل الإطار النفسي العام الذي وضعه اليونان، والذي لم يجدوا فيه نقصاً ولا قصوراً.

قيل عن الطب العربي إنه ليس فيه جديد. ومن السهل أن ندحض هذه الدعوى بذكر عدد من الكشوف العربية المعروفة. وقد يدلنا البحث في بطون المخطوطات على كشوف أخرى. وعندنا أن هذا البحث عقيم. ذلك أن السعي إلى الكشف عن شيء جديد لمجرد الرغبة في ذلك أمر غير مقبول عند الأطباء إلا في حدود ما هو صالح، ولا يجوز أن يكون غرضاً لذاته. والشغف البالغ بالكشوف الجديدة نزعة خاصة بالمذهب التجريبي. إذ ليس من العسير أن نغير ظروف التجربة بطرق كثيرة، فيخرج لنا منها أشياء جديدة، وإن تكن غير ذات بال. والواقع أن العلم الحديث قد أسرف في هذا الاتجاه. وليس كله

خيرا. وقد تكون كثرة التفصيلات عائقا للتقدم العلمي الذي يجيء من طريق التركيب بعد التحليل. وتجربة كل جديد في الطب قد تجر إلى مزالق من سوء التقدير وفساد الحكم عند ممارسة علاج المرضى.

ولم يكن من أغراض الأطباء العرب أن يبرئوا القدماء في ما قالوه. وإنما عرضوا علم أبقراط وجالينوس على خبرتهم، فأبقوا على ما هو صواب، ونبذوا ما هو خطأ. وقد مضى العهد الذي كان فيه تاريخ العلوم ميدانا للمفاضلة بين الأمم. ويجب أن يكون تاريخ العلم تاريخا لتطور التفكير العلمي. والواقع أن جالينوس ظل في دائرة الكليات التي وضعها أبقراط إلا شيئا قليلا جدا.

وما فعله الرازي في الطب الأكلينكي، وما فعله ابن سينا في تنسيق العلم الطبي وإيضاحه أكثر كثيرا مما فعل «هيروفيليس» بطب أبقراط.

الطب اليوناني، والطب العربي يمثلان عصراً واحداً من التفكير الطبي، هو عصر الخبرة المنظمة عقليا، وهو عصر دام عشرين قرنا. وضع أبقراط كلياته ومنهجه، ثم فصله وفرع عليه جالينوس، ومارسه الرازي، ونسقه وأوضحه ابن سينا إيضاحاً ليس بعده مزيد، إلى أن عرف الناس العلم التجريبي وعلم الكيمياء.

عرف السريان طب أبقراط وجالينوس، ومارسوه عدة قرون، وكانت عندهم ترجمات لكتب الطب اليونانية، ولكن علمهم بهذا الطب ظل على ما هو عليه طوال تلك القرون.

أما العرب فقد عرفوا طب أبقراط وجالينوس، فازدهر فيهم، ونما نمواً كبيرا. وطبق الأطباء العرب العلم النظري تطبيقا جميلا. هذه ظواهر يجب أن نتدبرها لأنها لم تكن مصادفة، بل لها أسبابها ونتائجها.

وعندنا ما يحمل على الظن بأن الترجمات السوريانية لكتب أبقراط وجالينوس لم تكن دقيقة ولا واضحة. ولما بدأ العرب يتعلمون الطب نقلوا عن السوريانية بعض هذا العلم. والترجمات المزدوجة تدعو إلى الخلط والغموض. ولم يلبث العرب إلا قليلا ثم عرفوا ما في الترجمات السوريانية من ضعف، فعدلوا عنها، وأقبلوا على الكتب اليونانية ينقلونها إلى العربية مباشرة، وكان ذلك بدء استقامة التفكير العلمي عندهم. وسرعان ما ترك العرب طب السوريان واستقلوا عنهم وتفوقوا عليهم تفوقا ظاهرا من التأليف والممارسة.

شهد الناس في بغداد شيئا لم يعرفه التاريخ من قبل، شهدوا أمة فاتحة تملي شروط الصلح على المغلوبين فتطلب إليهم أن يقدموا لها كتب العلم والفلسفة والطب غرامة حربية، هذا ما فعله العرب في صلحهم مع الروم، وهذا وحده دليل قاطع على أن العرب كانوا على استعداد لقبول هذه العلوم. بل إني أذهب إلى أكثر من ذلك، فأقول إن التفكير العربي كان قد بلغ في تطوره حدا يجعله قريب الشبه جدا بالتفكير اليوناني، وهذا سر نموه عندهم. ولو لم يكن الأمر كذلك لبقى الطب اليوناني فيهم ضعيفاً قاصرا كما كان عند السوريان أو عند اللاتين في ساليرنو.

خيل إلى كثير من مؤرخي العلوم والفلسفة والطب أن الحضارة العربية كانت أرضاً جرداء حتى جاءها العلم اليوناني فرواها وأخصبها. وهذا خطأ. فالعرب كانت لهم علومهم الخاصة بهم. ساروا فيها شوطاً كبيراً ووضعوا لها أصولاً مستقرة ومناهج واضحة. وكان هذا من عملهم وحدهم على غير مثال.

من ذلك علمهم بالفقه، ولعله أتم العلوم العربية وأعرقها. ويدل تمكنهم من هذا العلم على نضج في الفكر لم يفطن إليه من تعرضوا لتاريخ العلوم الطبيعية وحدها عند العرب.

وكذلك علمهم باللغة والنحو والعروض. هذه علوم خاصة بالعرب، ولهم فيها بحوث عميقة وافية، وقواعد مستقرة، وشروح مستفيضة.

وعندي أن العرب أعدتهم علومهم الخاصة بهم، ومنهجهم فيها، وتقدمهم في أصولها وفروعها إلى استقبال العلوم التي لم يكن لهم بها عهد، والتي تقوم في جوهرها على تفكير قريب جدا من تفكيرهم. ومن هنا كان النجاح الذي أحرزته الفلسفة والطب والعلوم اليونانية لدى العرب. وليس صحيحا أنهم تعلموا هذا النوع من التفكير بعد أن عرفوا الحضارة الأغريقية. بل الصحيح أنهم عرفوا هذه الحضارة لتوافقها مع تفكيرهم حينذاك.

ومما زاد في إقبال العرب على الطب، وضوح مبادئه، ونجاح وسائل العلاج القائمة على هذه المبادىء. ولم يجدوا صعوبة في التوفيق بين خبرتهم العملية، والأسس الفكرية التي نقلوها فعلا من اليونان.

تاريخ الطب العربي تاريخ طبيعي يشبه في جوهره تاريخ النهضات العلمية عامة، سوى أن خطواته تعاقبت سراعاً. وكان تطوره على مراحل واضحة المعالم قام بها الأطباء العرب طبقة بعد طبقة. فكانت كل طبقة تبدأ من حيث انتهى علم من سبقوها وتزيد فيه. والتقدم العلمي في هذا التطور واضح ثابت، لا نحتاج في إثباته إلى ما روى القصاصون. وقد أفسد علينا هذا التاريخ ما رواه المؤرخون العرب من نوادر لا يمكن أن تكون صحيحة(٨). وأفسده كذلك مدح المادحين المسرفين الذين ظنوا أن الأطباء القدامى كانوا يعرفون من الطب ما لا نعرفه اليوم، وأفسده فوق ذلك قدح القادحين الذين ظنوا أنه كان علماً منقولاً لا حياة فيه ولا روح.

وأود أن أدلل على حياة الطب العربي، وقوته بدليل بيولوجي لا يدحض وهو النمو. والمطلع على طب حنا بن ماسويه، أو حنين بن إسحق (منتصف القرن الثامن الميلادي) وطب الرازي، وابن سينا لا يسعه إلا أن يعترف أن الطب العربي كانت له حياته القوية المستقلة.

سمع الخلفاء العباسيون الأولون الكثير عن الطب اليوناني، وخبروه فوجدوا علما عظيم الفائدة. ورأوا أنه علم لا يليق بالأمة العربية أن تغفله. ففعلوا ما تفعله كل أمة في أول نهضتها. استقدموا الخبراء، وأرسلوا البعثات إلى مواطن العلم الذي يريدون اقتباسه. فعلت مصر ذلك من أول القرن التاسع عشر، وتفعله كل الأمم الناهضة حتى الآن.

وسنقسم تاريخ الأطباء العرب إلى طبقات، ونذكر من كل طبقة أشهر رجالها وما اختصوا به.

الطبقة الأولى ــ عصر الرواد

أشهر رجال هذا العصر ــ فضلاً عن آل بختيشوع ــ حنا بن ماسويه. ترجم كتبا طبية نقلها عن ترجمات سوريانية، ولم يلبث العرب أن تركوها، وعكفوا على الترجمة من اليونانية رأسا. ورروى الرواة أنه شرح قردا. كل هذا بعيد غامض. ولعل أكبر فضل له أنه أول عربي تولى الترجمة والتأليف والعلاج، وإن لم يبلغ في أيها مبلغاً كبيراً.

أمر هارون الرشيد بجمع كل ما يمكن جمعه من الكتب اليونانية والسوريانية من الطب وغيره، محاولاً بذلك أن يتأصل العلم في بغداد، وأن يعلم العرب هذه العلوم، فلا يكون اعتمادهم في تقدمهم على من يستقدمونهم من الأجانب.

الطبقة الثانية ــ عصر الترجمة

كان هذا في عصر المأمون، ومن جاء بعده من الخلفاء، وكان في بغداد حينذاك ثلاثة رهط كل رهط ينسب إلى بلد بعينه، وكان لكل منهم في بغداد عمل محدد أما الرهط الأول، فكان قوامه أهل جند يسابور، وعلى رأسهم «جبرائيل بن بختيشوع»، كان عملهم مداواة الخلفاء والأمراء، وكانوا على ذلك قادرين.

أما الرهط الثاني فكانوا من أهل الحيرة وعلى رأسهم «حنين بن إسحاق»، وهو من أكبر نوابغ ذلك العصر، وكان معه ابنه إسحق وابن أخته حبيش.

أراد حنين بن إسحق، أن يتعلم الطب، وتتلمذ على حنا بن ماسويه فلما تبينت له قدرته على التفقه في اللغات عكف عليها وأتقن السوريانية، ثم رحل إلى اليونان وحذق لغتها، ثم ذهب إلى البصرة وتلقى العربية على خير علمائها. وكان طبيعياً أن يعهد إليه المأمون برئاسة بيت الحكمة، وقام حنين بترجمة الكتب الطبية اليونانية ترجمة متقنة دقيقة. والترجمة في مثل هذه الحالات عمل جليل يحتاج إلى كثير من الذكاء والعلم. ذلك أن المترجم لا يستطيع أن يترجم الكتب العلمية إلا إذا كان قادراً على فهم مادتها. فكان على حنين أن يفهم الطب حتى تكون ترجمته لأبقراط وجالينوس ترجمة صحيحة مفهومة.

ولم تكن الصعوبات التي واجهت حنين بن إسحق ورجاله الذين عملوا معه في بيت الحكمة بالشيء القليل، كان عليه أن يترجم المصطلحات العلمية، ولم يعجزه ذلك، فكان يختار الكلمات

العربية للمصطلحات التي لا يتم فهمها بغير تفهم معناها كالمزاج والأخلاط والقوى والأركان. أما المصطلحات التي لا يتوقف فهمها على فهم معنى الفاظها، فقد اختار أن يعربها فعرب لفيثاغورس والباسيليق والقيفال وغير ذلك. وكان موفقاً كل التوفيق في هذا العمل.

حفظ للعربية ما استطاعت أن تحتفظ به، وأبقى اللغة العلمية بعيدة عن لغة العامة فيما تتناول من أمور خاصة بها.

عرف أهل بغداد لحنين بن إسحق فضله على نهضتهم، وقدروه أكبر التقدير وبلغ من المجد العلمي غايته، وأصبح المرجع الأكبر للمترجمين جميعاً ـ بدا لنا على ذلك أن رجلا اسمه إسطفان بن بسيل ـ قام بترجمة كتاب «ديسقوريدس» في المادة الطبية «الأقرباذين»، وعرض الكتاب على «حنين بن إسحق» فأقره. ولعل كثيرا من المترجمين كانوا يفعلون ذلك، فكان إقرار «حنين» لترجمة كتاب ما خير دليل على صواب الترجمة. ويقال إن «حنين» مارس الطب والعلاج، ولا أحسبه فعل ذلك كثيرا. ولا أظن أن عمله في بيت الحكمة أتاح له من الوقت ما يسمح بفحص المرضى ومداواتهم. ولحنين مؤلفات طبية أشهرها عشر مقالات في طب العين. ولم يكن من عمل حنين أن يؤلف في الطب شيئاً يفوق ما عرفه اليونانيون، وما عرفه هو عندما نقل كتبهم إلى العربية.

أما الرهط الثالث فكان من أهل «حران» وكان على رأسهم «ثابت بن قرة» وابنه «سنان» وكلاهما كان طبيبا ممارسا. وكان «ثابت» واسع الاطلاع في كل علم. ولم يقصر همه على ترجمة الكتب الطبية. نقل إلى العربية كتبا في الهندسة. والفلك، ولعله لم يبلغ الغاية في علم بعينه، ولكن إلمامه بكثير من العلوم جعله موضع التقدير والاحترام عند معاصريه. أما ابنه «سنان» فكان أقدر منه، وأعلم بالطب. يدلنا على ذلك أن الخليفة المقتدر عهد إليه بامتحان الراغبين في تعاطي صناعة الطب قبل أن يباح لهم علاج المرضى، وهو أمر لا يعهد به إلا لكبار الأطباء الراسخين في العلم.

وليس من الاسراف أن نقارن هذه الطبقة برجال النهضة في مصر في أواسط القرن التاسع عشر. وعندي أن حنين بن إسحق يشبه إلى حد كبير «رفاعة الطهطاوي» في الذكاء والنشأة والدور الذي قام به في النهضة العلمية عن طريق الترجمة.

الطبقة الثالثة ـ عصر التأليف

استقرت العلوم والفلسفة في بغداد، ونشأ جيل من العرب فهم هذه العلوم فهما حقيقيا، وعلى رأس هذه الطبقة، سنان بن ثابت، وعلي بن زين الطبري، وبهما بدأ عهد التأليف العربي المستقل. وقد بدأ متعثرا قلقا ولكنه ما لبث أن تأصل واستقر ونما.

ولما استوثق الأطباء العرب من علمهم بالطب اليوناني، وأصبحوا يتحدثون بطلاقة عن الاستقصات وإيلاوس، وعلموا أنهم ادركوا كل ما في ذلك الطب من أسرار، رأوا أن يؤلفوا كتبا على غرار المؤلفات اليونانية لا تكون منقولة عنها. وكثير من هذا الذي نسميه تأليفاً لم يكن سوى مذكرات الطلبة ينقلونها عن أساتذتهم. وعندنا عدد كبير من هذه المؤلفات الصغيرة، ولسنا في حاجة إلى البحث فيها تفصيلا. وسنقصر الكلام على ما كتبه كبار المؤلفين.

كان أول المؤلفين العرب الذين نهجوا هذا المنهج علي بن زين الطبري كتب كتابه الذي سماه «فردوس الحكمة» وقسمه إلى أبواب ومقالات. وليس فيه تجديد كبير، ولكنه على كل حال تأليف يدل على ثقة المؤلف بعلمه، تلك الثقة التي ظهرت واضحة عند الأطباء العرب في ذلك العصر. وكانت هذه الكتب شيئاً جديداً على الثقافة لعلمية العربية.

الطبقة الرابعة ـ العصر الذهبي

الرازي (المتوفي حوالي عام ٩٣٢م) اكبر رجال هذه الطبقة، وإليه انتهى الطب الاكلينيكي عند العرب، ولعله يكون أكبر الأطباء الذين نشأوا على منهج الخبرة المنظمة عقلياً، وهو المنهج الذي بدأه أبقراط، دام عشرين قرنا، وهو ما يصح أن نسميه الطب اليوناني العربي أو العصر الوسيط في التفكير الطبي العالمي.

وسنقف قليلا عند الرازي، لا لنشيد بذكره فحسب، بل لأن حياته تبين لنا صفات الطب

العربي على أكمل صورة وأرقاها.

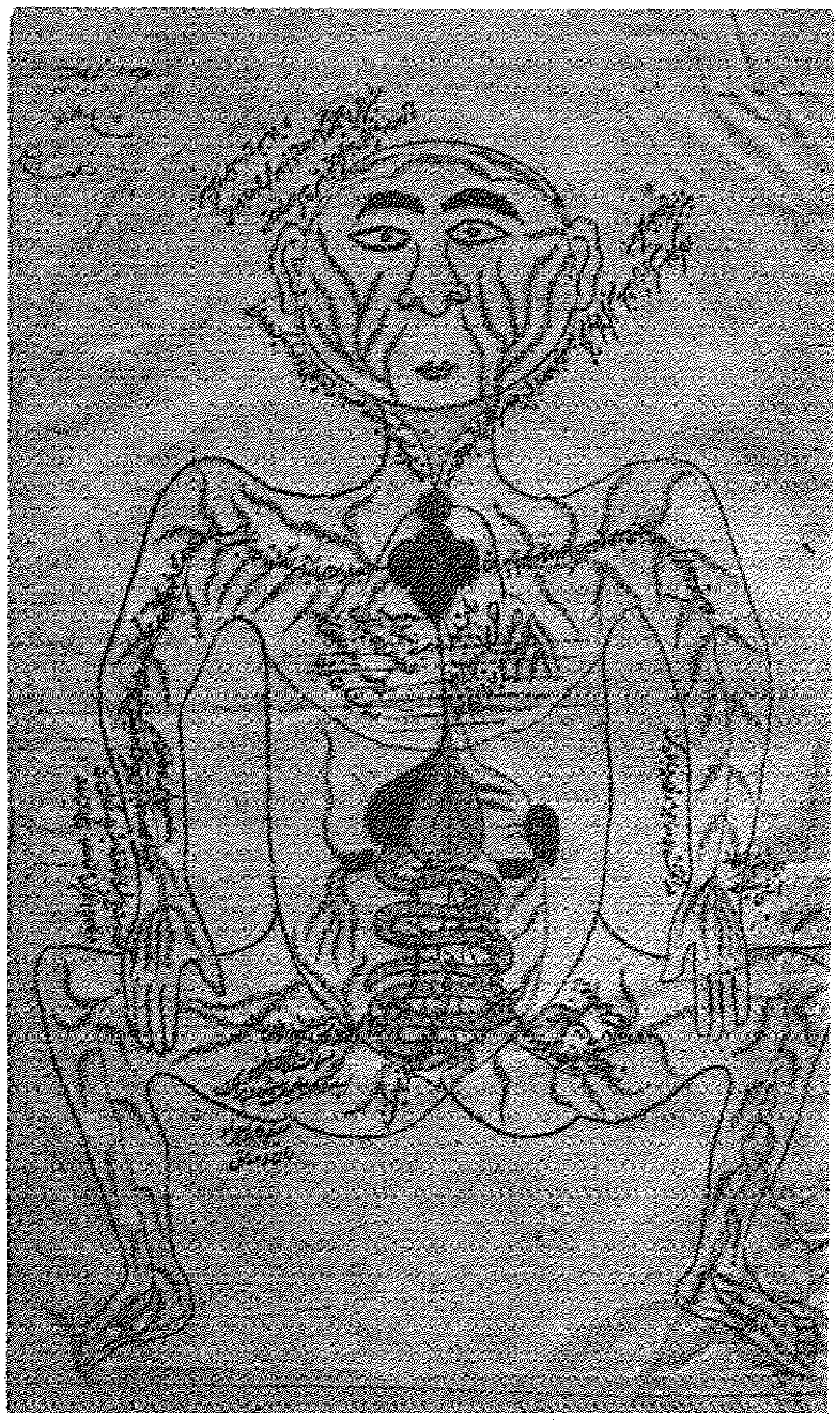
أعد الرازي نفسه إعداداً حسناً: درس الطب اليوناني دراسة وافية إذ كان رأيه أن العلم النظري أساس الطب التطبيقي، ويجب أن يسبقه، فهو يقول في كتاب الفصول «إن قليل المشاهدة المطلع على الكتب خير ممن لم يعرف الكتب على ألا يكون عديم المشاهدة»، ويقول: «من قرأ كتب أبقراط ولم يخدم خير ممن خدم ولم يقرأ كتب أبقراط»، ويقول في امتحان الطبيب «أول من تسأله عن التشريح[٩]، ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس، وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء. فإن لم يكن عنده فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى»؛ وكان كثير الاطلاع جداً، وكان ينصح الأطباء بذلك. وعلل قوله تعليلاً جميلاً حيث يقول: «إنما أدرك من هذه الصناعة إلى هذه الغاية في ألوف من السنين ألوف من الرجال. فإذا اقتدى المقتدي أثرهم صار كمن أدركهم كلهم في زمان قصير، وصار كمن قد عمر تلك السنين».

ونراه يضع قواعد للمفاضلة بين طبيب القياس وطبيب التجربة، أما هو فقد جمع بين الاطلاع والخبرة. ثم تولى إدارة البيمارستان العضدي الشهير فتجلت مواهبه أستاذاً ومؤلفاً وممارساً.

كان نظام العمل في البيمارستان مستقراً، تعرض الحالات على الناشئين من الأطباء، فإن لم يعرفوها عرضت على من هم أكبر منهم، فإن عجزوا عن تناولها عرضوها على الرازي. وكان يبدي رأيه في هذه الحالات الصعبة مسبباً.

كان له نظام مستقر في تعليم الطب النظري. فتراه يقول: «أطلب من كل من يرض هذه الرؤوس: التعريف، ثم أطلب العلة والسبب، ثم أطلب هل ينقسم لسببه أو نوعه، ثم أطلب تفصيل كل قسم من الآخر، ثم العلاج ثم الاستعداد».

وله رأي واضح في المتعنتين من المتحنين للأطباء فيقول: «إن الذي يروم من الطبيب بأن يبين له بالنبض بين الرجال والنساء، والخصيان والصبيان قد طلب أمداً غير ممكن في الأكثر. وكذلك أرى أن المتحن للطبيب بالتفرقة بين ماء الإنسان، وبعض المياه التي شبهت بها جاهل»[١٠].



□ رسم تفصيلي تشريحي لجسم الانسان.

أما الرازي المؤلف فيجب أن نعرف له نوعين من التأليف: كتبه في العلم النظري واضحة منسقة مبوبة، وكتبه في الطب الإكلينكي، وهي مجموعة مشاهداته، وهي بطبيعتها ليست منسقة. وقد عاب عليها اضطرابها والخلط الواضح فيها من ظنوا أنها كتب في علم الطب. وليست من هذه في شيء.

ذكر الرازي في أول كتابه «الفصول» «سبب تأليفه له فقال: «دعاني ما وجدت عليه فصول أبقراط من الاختلاط، وعدم النظام والغموض، والتقصير عن ذكر جوامع الصناعة كلها أو جلها، وما أعلمه من سهولة حفظ الفصول وعلقها بالنفوس، إلى أن أذكر جوامع الصناعة الطبية عن طريق الفصول ليكون مدخلا إلى الصناعة، وطريقا للمتعلمين»[١١]. ويقول عن جالينوس: «كتب الفاضل جالينوس ستة عشر مقالا في النبض. وقد جمعنا نحن أيضاً باختصار معاني



□ جدول بمحتويات كتاب «كامل الصناعات» لعلي بن عباس (٨٤١هـ).

هذا الكتاب، وطرحنا عنه ما حسبنا أنه يستغنى عنه»[١٢].

ويعيب على أبقراط غموضه وإيجازه. ويعيب على جالينوس إطنابه البالغ. وقد ردد تلميذه علي بن العباس هذا الرأي في أول كتابه «كامل الصناعة».

على أن مجد الرازي يقوم في الواقع على علمه بالطب العملي، وخدمته فيه، وما ابتدعه من تدوين المشاهدات والتعليق عليها. وهو عمل لم يسبق إليه من قبل. جمع ذلك كله في كتاب «الحاوي». وإذا قدرنا أن الحاوي ليس كتاباً بالمعنى المألوف، وأنه ليس إلا سجلاً لمشاهداته، فلن نجد غرابة في ضخامته، ونقص تربيته، واختلاف أسلوبه، فقد كان هو وتلاميذه يدونون المشاهدات دون ترتيب خاص.

ويكفي أن نشير هنا إلى الخصائص التي يتمتع بها الرازي من حيث هو طبيب معالج. ومن أظهر صفاته استقصاؤه أعراض المريض. وهو يغضب غضباً شديداً عندما يخطىء، ويكون خطأه راجعا إلى نقص من سؤال المريض ويقول عند ذلك: «يجب ألا نغفل غاية التقصي». ومن جميل قوله إنه «يضع ترتيبا للعلامات على قدر أهميتها»، وهو ما نسميه «هيراوشبة العلامات»، وهو يقول: «إن العلامات تختلف في دلالتها على قدر وقت حدوثها من تاريخ المرض». وهو يكبرأمر تقدمه المعرفة، ويضع لها قواعد فتراه يقول: «إجمع العلامات الجيدة والرديئة بمراتب قواها في ورقة وراقبها دواما».

وله عناية خاصة بالتشخيص المقارن. وله قول جيد في أمراض الجهاز البولي والقولنج والحميات، وهو أول من فرق بين مرض الحصبة، ومرض الجدري.

وليس لنا أن ننسب إلى الأطباء العرب معرفة بالعلم التجريبي كما نعرفه اليوم، ولكننا نرى في أقوال الرازي ما يدل على فهمه لبعض أسس التجربة بالمعنى الحديث. فنراه يقول: «فمتى رأيت هذه العلامات، فتقدم في القصد، فإني قد خلصت جماعة به. وتركت متعمدا جماعة أستدني بذلك رأيا فسر سموا كلهم»[١٣]. هذا القول يدل على إدراكه معنى (Controls) في العلم التجريبي، وإن يكن إدراكا غامضا.

على أننا يجب أن نذكر أن القدماء حين يتحدثون عن التجربة يعنون الخبرة.

ثم جاء علي بن العباس (المتوفي حوالي عام ٩٩٤م). وهو من تلاميذ الرازي، فوجد لديه علما نظريا غزيرا وعلما عمليا مستقرا. فبدا له أن يؤلف كتابا جامعا في الطب يكون أوضح من كتب أبقراط التي كان اختصارها سببا في غموضها، ويكون أقل إطنابا من كتب جالينوس. وهذا تطور طبيعي في تقدم الطب، ذلك أن كتب المراجع لا تكون لها قيمة إلا أن تكون مصداقا لخبرة مستقرة، وعلم غزير. وليس تأليفها بالأمر الهين لما تحتاج إليه من حسن الاختيار والتبويب والتنظيم، وخاصة ما يجب على مؤلفيها من تحديد ما هو نافع دائما فيؤكدونه، وما لا ينفع إلا نادرا فيتركونه.

كتب علي بن العباس كتابه «كامل الصناعة» وهو كتاب جيد. وكان أول ما ترجم إلى اللاتينية

من الكتب العربية حيث عرف بالكتاب الملكي.

ثم جاء ابن سينا (المتوفي حوالي عام ١٠٣٧م)، وهو من أذكياء العالم، وكتب كتاب «القانون»، وكان ابن سينا يفضل الأطباء بأنه فيلسوف ممتاز. ويفضل الفلاسفة بأنه طبيب ممتاز، جمع في كتابه بين أسلوب الفلسفة وحقائق الطب.

والواقع أن العرب كان فيهم الأطباء الفلاسفة، والفلاسفة الأطباء، ولا أريد أن أغض من قدر الفلسفة عند الأولين، ولا من قدر الطب عند الآخرين. ولكني أقول أن الفريق الأول كان شغلهم الشاغل — التشخيص — والعلاج، والتفريق بين الأمراض المتشابهة، وحسن تدبير المرضى، وتجنب الأخطاء في ذلك كله، يلتمسون ذلك عن طريق التفكير المنظم، والفريق الثاني كان أكبر همهم تنسيق الحقائق، واستقامة المنطق، وربط الأسباب بالمسببات، وصدق التقسيم والتبويب، ووضوح ذلك كله، يؤكدون أمورا قد لا يعنى بها الطبيب في عمله حين يرون ذلك ضروريا للعرض المنطقي الكامل.

وابن سينا بلغ الغاية في الفلسفة والطب، ولكنه مع ذلك كان أكثر ميلا بطبعه إلى الفلسفة. ومن هنا كان كتابه مقبولا عند المفكرين والدارسين، على حين أن كتب الرازي كانت أكثر قبولا عند الممارسين خاصة. ولعل ابن سينا لم يتفرغ لفحص الرضى واستنباط خير علاج لهم. ولا يعني هذا أن علمه بالطب كان ناقصا. ولكنه يعني أن تصوره للطب كان تصورا يليق بفيلسوف مثله. ولعله كان يرى ما كان يعتقده أكثر الناس إلى عهد قريب — أن ثقافة الطبيب الممارس ثقافة مهنية، وأن فلسفة الطب أصدق وأرقى من ممارسته.

وكتاب «القانون» من الكتب العالمية مثله كمثل فلسفة أرسطو، وهندسة أوقليدس، والماجسطي في الفلك، وكتاب سيبويه في النحو. هذه الكتب تمثل غاية العلم القائم على نوع خاص من التفكير. فيها حل لكل المشاكل المتعلقة بموضوعها بحيث لا يجد دارسوها حاجة إلى الزيادة فيها أو تغييرها. وهذه من خصائص العلم القويم القائم على كليات محدودة، فكان من الممكن للعباقرة أن يبلغوا غايته. أما العلم الحديث الذي يقوم على مشاهدات وتجارب فمن المستحيل أن يستوعبه عقل رجل واحد.

قصرنا بحثنا حتى الآن على المؤلفات الطبية، ولا يصح أن نهمل ما حققه المشتغلون بالعقاقير، فقد بدءوا هم كذلك بترجمة «ديوسقوريدس»، ثم فاقوه. جاب العشابون العرب الأمصار يصفون نباتاتها وخواصها. وكتبت كتب جيدة في العقاقير، وأشهرها ما كتبه ابن البيطار وداود الأنطاكي.

ولنذكر أن نهضة طبية مماثلة قامت في الأندلس، وتطورت على غرار طب الشرق، سوى أنهم عنوا عناية خاصة بالجراحة، وكتب فيها الزهراوي كتبا قيمة وصف فيها آلات جراحية من اختراعه، ووصف عمليات كثيرة وصفا دقيقا كالشق، والكي، والعقد، وتفتيت الحصى.

ومع أن الطب العربي لم يتقدم كثيرا بعد، ابن سينا وكتابه، إلا أن فن العلاج في البيمارستانات ظل يتقدم، وتحسنت حال المرضى في هذه المؤسسات وعني بها الأمراء والأطباء فبلغت مبلغاً تحدث به الرحالون.

ويلاحظ في النهضات العلمية أنها حين تبلغ الكمال تظهر فيها علامات الثورة على تعاليمها الكلاسيكية. ويبدأ الانتقاض عليها بالشك في بعض مسلماتها. من ذلك قول «البغدادي»: «إن جالينوس أخطأ في قوله أن الفك الأسفل عظمتان، وهو لا يكون إلا عظمة واحدة». وقال «ابن النفيس»: «إن جالينوس أخطأ في قوله إن بين البطين الأيمن من القلب والبطين الأيسر فتحة واحدة أو فتحات صغيرة» ووصف ابن النفيس — الدورة الدموية الصغرى وصفا صحيحا مخالفا في ذلك ما قال به الناس جميعا من قبله.

كان اعتراض العرب على جالينوس اكثره في أمور العلاج حين كانت خبرتهم تختلف عما قال به جالينوس. أما أن يكون جالينوس مخطئاً في وصف حقائق التشريح فالقول بذلك كان جرأة لم يقدم عليها أحد قبل ابن النفيس والبغدادي.

كانت هذه حال العلوم الطبية في الدولة الإسلامية الممتدة من فارس إلى الأندلس طوال سبعة قرون.

سمعت الأمم اللاتينية بتقدم الطب في هذه الدولة، وعلمت عنه الشيء الكثير. فجاءوا إلى

البلاد العربية يتعلمون فيها الطب على يد مشاهير الأساتذة في هذا الفن العظيم.

اتصلت الأمم اللاتينية بالحضارة العربية في ثلاثة مواضع:

في الشرق ـ أثناء الحروب الصليبية، ثم في صقلية، ثم في الأندلس. وتم هذا الاتصال في عصور مختلفة. وكان طبيعياً أن تفيد الأمم اللاتينية من الحضارة المزدهرة حينذاك. ولكنهم لم يفيدوا كثيرا من التقائهم بالعرب في أثناء الحروب الصليبية. أما في صقلية، فكان أثر العلوم العربية أكبر، ولكنه كان مضطرباً. أما في الأندلس فكان الاتصال وثيقا نافعا. ■

«الهوامش»

(١) يدل على ذلك ما ذكره الجاحظ في كتاب البخلاء من أن طبيبا اسمه أسد بن جاني قال له قائل: «السنة وبئة والأمراض فاشية وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى من هذا الكساد؟ فقال: أما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن اتطبب، لا بل قبل أن أخلف، أن المسلمين لا يفلحون في الطب، وأسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون صليبا، أو مرامل، أو يوحنا، وكنيتي أبو الحارث، وكان يجب أن تكون أبو عيسى أو أبو زكريا أو أبو ابراهيم، وعليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود، ولفظي لفظ عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور».

(٢) ابن سينا، القانون، جزء ١، ص ٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٢١.

(٤) مقالة «طب الرازي»، مجلة معهد المخطوطات العربية، الجزء الأول من المجلد السابع، ص ١٣٦.

(٥) نفس المصدر، ص ١٣٦.

(٦) الفصول، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد السابع، الجزء الأول، ص ٨٤.

(٧) نفس المصدر، ص ١٣٧.

(٨) روى في بعض الكتب العربية والفارسية أن الرازي جاءه مريض ينفث دما، فسأله عن رحلته وعلم منه أنه شرب من عين في الطريق. فقدر أنه شرب مع الماء علقة. فسقاه طحلبا حتى انصرفت العلقة عن الالتصاق بجدار معدته لتأكل الطحلب وهو غذاؤها الطبيعي. ثم سقاه مقيئاً شديدا فخرجت العلقة وشفي المريض. هذا بالطبع خرافة. ولكن له أصلا ذلك أن الرازي يروى في بعض مشاهداته أن رجلا كان يقيء دما. ثم استفرغ مدة استفراغا شديدا، فخرجت قطعة لحم من معدته. وقدر الرازي أن هذه القطعة كان لها ساق دقيقة انقطعت عند القيء.. وواضح أن الحالة على هذا الوصف لا تكون إلا ورمة: (Polyp). وتصور الرازي لها صحيح تماما. ولكن القصاصين جعلوا من هذه الحالة الطريفة خرافة تقوم على العلق والطحلب.

(٩) معهد المخطوطات العربية ـ الجزء الأول من المجلد السابع، ص ١٣٥.

(١٠) من كتاب «محنة الطبيب»، نقلا عن مقالة طب الرازي ـ مجلة معهد المخطوطات العربية، الجزء الأول من المجلد السابع، ص ١٤٠.

(١١) نفس المصدر، ص ١١.

(١٢) نفس المصدر، ص ٧٥.

(١٣) مقالة طب الرازي، المصدر السابق، ص ١٤٤.

تعلموا العلم

● قال معاذ بن جبل رضي الله عنه:

تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وعبادة، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء والضراء والزين عند الاخلاء، والقرب عند الغرباء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخلف قادة يقتدي بهم، وأئمة في الخلق تقتص اثارهم، وينتهي إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبهم بأجنحتها تمسحهم، حتى كل رطب ويابس لهم، يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه واسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأضرار، ومجالسة الملوك، والدرجات العلى، في الدنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، امام العمل والعمل تابعه، يلهمه الصداء ويحرمه الأشقياء.



كيف رأيتم فراستي في الأعرابي*

قدم على الحجاج ابن عم له من البادية، فنظر إليه يولي الناس؛ فقال له: أيها الأمير؛ لم لا توليني بعض هذا الحضر؟ فقال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب!

فغضب الأعرابي، وقال: بلى، إني لأحسب منهم حسباً[1]، وأكتب منهم كتباً! فقال الحجاج: فإن كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، فما زال يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة؛ ثلاثة بين أربعة، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء! كم هم أيها الأمير؟ قال: هم أربعة، قال: نعم! أيها الأمير، قد وقفت على الحساب، لكل واحد منهم درهم، وأنا أعطي الرابع منهم درهماً من عندي! وضرب بيده إلى تكته[2]، فاستخرج منها درهماً، وقال: أيكم الرابع؟ فوالله ما رأيت كاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين!

فضحك الحجاج ومن معه، وذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج: إن اهل أصبهان أخروا خراجهم ثلاث سنين، كلما أتاهم وال أعجزوه، فلأرمينهم بهذا، فأخلق به أن ينجب!

فكتب له عهده على اصبهان!

فلما خرج استقبله أهل اصبهان واستبشروا به وأقبلو عليه يقبلون يده ورجله وقالوا: أعرابي بدوي! ما يكون منه!

فلما أكثروا عليه، قال: أما يشغلكم ما اخرجني له الأمير؟

فلما استقر في داره بأصبهان جمع أهلها، فقال: ما لكم تعصون ربكم وتغضبون أميركم، وتنقصون خراجكم؟ فقال قائلهم: جور من كان قبلك وظلم من ظلم! قال: فما الأمر الذي فيه صلاحكم؟ فقالوا تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر، ونجمعه لك! قال: لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمناء.

فأتوه بهم، فلما توثق منهم أمهلهم؛ وكلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما ندبوا[3] إليه من الأجل! وطال به ذلك، فجمع الضمناء؛ وقال لهم: المال! فقالوا: أصابنا من الآفة ما نقض ذلك!

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر — وكان في شهر رمضان — حتى يجمع ماله أو يضرب أعناقهم!

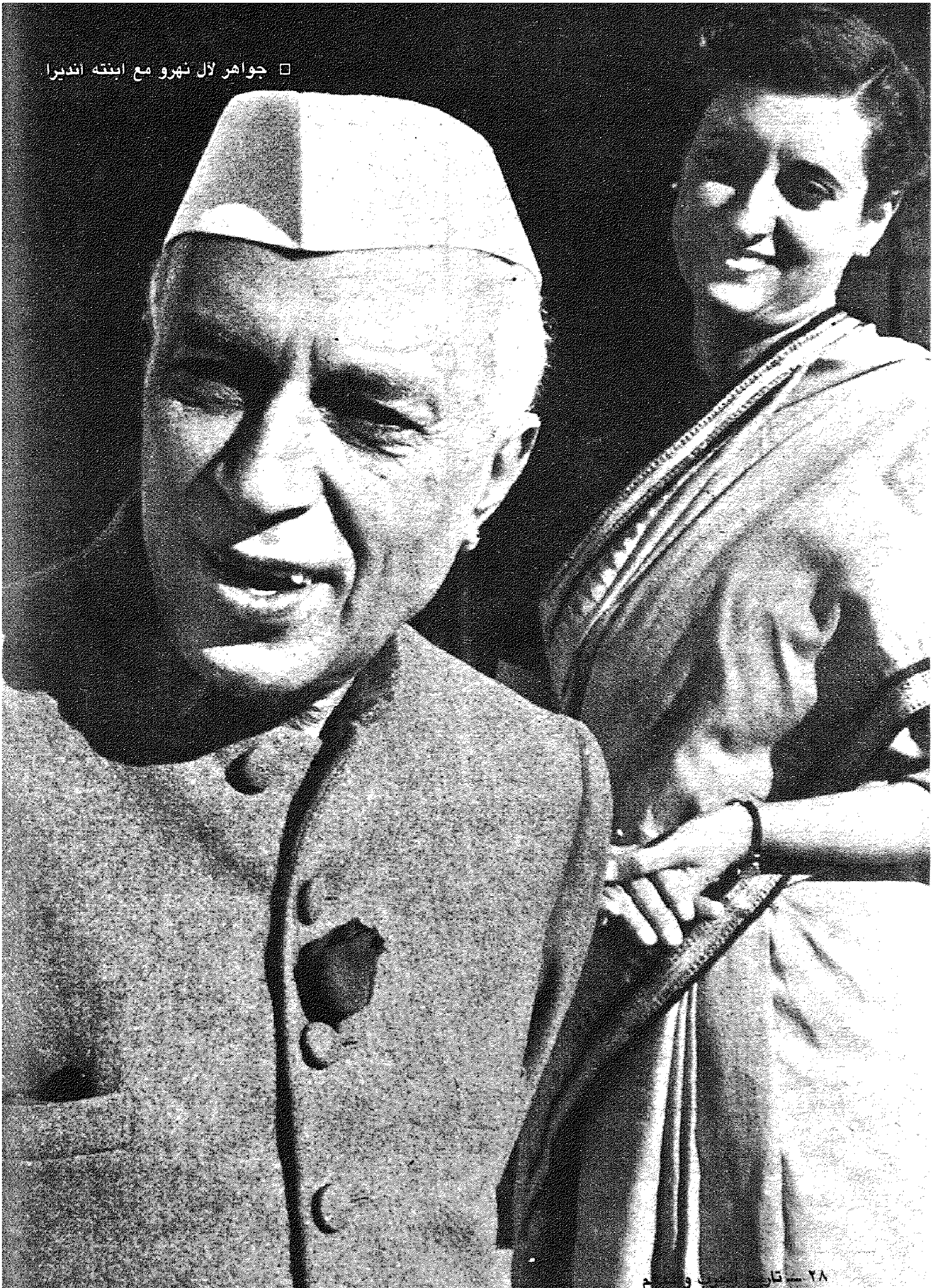
ثم قدم أحدهم وضرب عنقه، وكتب عليه. فلان ابن فلان أدى ما عليه! وجعل رأسه في بدرة[4]، وختم عليها، ثم قدم الثاني ففعل به مثل ذلك!

فلما رأى القوم الرؤوس تجز، وتجعل في الأكياس بدلاً من البدر، قالوا: أيها الأمير؛ توقف علينا حتى نحضر لك المال؛ ففعل، فأحضروه في أسرع وقت!

فبلغ ذلك الحجاج فقال. إنا معاشر آل محمد — يعني جدّه — ولدنا نجيب، فكيف رأيتم فراستي[5] في الأعرابي؟!

ولم يزل والياً عليها حتى مات الحجّاج! ■

* المسعودي: ٢ — ١٦٠.
(١) حساباً.
(٢) التكة: رباط السراويل.
(٣) ندب القوم إلى الأمر ندباً: دعاهم وحثهم.
(٤) البدرة: كيس يوضع فيه عشرة آلاف درهم.
(٥) الفراسة: البصر بالشيء والعلم به.



□ جواهر لال نهرو مع ابنته انديرا

مِن رسائِل نهرو إلى ابنتهِ

كيف فرضت إنكلترا الأفيون على الصين ؟

جواهر لال نهرو

لعل من المفيد وقد اصبح كلام نهرو الذي يمثل مرحلة تاريخية معينة في نضال شعوب العالم الثالث ـ وثيقة تاريخية بحد ذاته ـ لعل من المفيد ان نسترجع نموذجا من رؤية تاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب وكيف يتمثل التاريخ، تاريخ الاستعمار وتاريخ العالم الثالث في فكر القيادات السياسية الشعبية لتلك المرحلة من تاريخ نضال شعوب آسيا.

وما ننشره فيما يلي هو عبارة عن رسائل لنهرو موجهة الى ابنته انديرا بتاريخ ١٤ ك١ (ديسمبر) ١٩٣٢.

١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢

لقد حدثتك في اسهاب عن التأثير الذي احدثته الثورة الصناعية وثورة الآلات الحديثة في الهند، كما حدثتك عن اساليب الاستعمار البريطاني في بلادنا.

ولكوني هنديا فأنا وطني متعصب لوطني، ومن اجل ذلك لا أستطيع ان ارى الأشياء الا بعين الوطني المتشيع لوطنه. ولكني حاولت، كما اود لك ان تحاولي، النظر الى هذه القضايا نظرة العالم الذي يختبر الحقائق بلا محاباة، لا نظرة الوطني الذي يركز كل همه في البرهنة على القضية من جانب واحد.

فالوطنية أو القومية حسنة في موضعها،ولكنها صديق لا يعتمد عليه ومؤرخ خطر لا يؤمن جانبه، فهي تعمينا عن رؤية كثير من الأحداث، وتشوه الحقيقة.. احيانا، ولا سيما اذا كانت هذه الحقيقة تتصل بنا أو بوطننا. ولهذا علينا ان نكون في غاية اليقظة والحذر عندما ننظر في تاريخ الهند الحديث، فلا نلقي بكل اللوم والتبعة في ضعفنا وتخلفنا ومتاعبنا على الانجليز.

لقد رأينا من قبل كيف استغل الهند رجال الصناعة ورجال المال الانجليز في القرن التاسع عشر. والآن دعينا ننتقل الى الصين اكبر قطر في آسيا، وصديق الهند القديم، والذي يعتبر من اعرق الشعوب واقدمها. فهنا سيطالعنا نوع آخر من استغلال الغرب.

فالصين لم يقدر عليها ان تصير مستعمرة او تابعة لدولة اوروبية كما حدث للهند. اجل، نجت الصين من هذا القدر، بفضل ما اتيح لها من حكومةمركزية قوية نوعا ما، حكومة استطاعت ان تبقى على البلاد متماسكة حتى قبيل منتصف القرن التاسع عشر.

اما الهند، كما رأينا، فقد تفتتت الى اجزاء قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة، وعلى التحديد عندما سقطت الامبراطورية المغولية.

ومع ان الصين بدا عليها الضعف في القرن التاسع عشر، فانها ظلت متماسكة الى النهاية. وتحاسد الدول الأجنبية وغيرة بعضها من بعض منعتها من ان تتدخل في شؤون الصين وتنتفع كثيرا من ضعفها.

وقد اخبرتك في رسالتي الرابعة والتسعين ان الانجليز قاموا بمحاولات كثيرة لزيادة تجارتهم مع الصين. وفي هذه الرسالة ايضا اقتبست لك نبذة طويلة(١) من الرسالة الشامخة التي رد بها امبراطور الصين «تشين لون» على رسالة ملك الانجليز جورج الثالث التي بعث بها مع السفارة التي اوفدها لانشاء علاقات تجارية بين الصين وانجلترة.

لقد حدث ذلك عام ١٧٩٢. وهذا التاريخ سيذكرك بالفترات العاصفة التي مرت بها اوروبا وقتئذ. سيذكرك بفترة الثورة الفرنسية، وفترة نابليون والحروب النابليونية، وبانشغال انجلترة بقتالها المستميت ضد نابليون. ولهذا لم يكن هناك بالنسبة لانجلترة تفكير فالتوسع التجاري مع الصين حتى سقط نابليون وتنفست هي الصعداء.

وفي عام ١٨١٦ نرى انجلترة توفد بعثة اخرى الى الصين، ولكن حدث ان قامت صعوبة بسبب طريقة استقبال هذه البعثة، فقد كان مفروضا ان تسجد البعثة امام الامبراطور اظهارا للخضوع والذلة، ولكن المبعوث البريطاني لورد امهيرست امتنع عن ذلك فرفض امبراطور الصين مقابلته وامره بالرجوع الى بلاده. وعلى ذلك لم تكلل مهمة هذه البعثة بالنجاح.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك تجارة جديدة تنمو نموا سريعا، هي تجارة الافيون. وقد لا يكون صحيحا ان تسمى هذه تجارة جديدة، لأن الصين كانت تستورد الافيون من الهند منذ القرن الخامس عشر. وقد ارسلت الهند الى الصين في الماضي اشياء كثيرة حسنة، وكان الأفيون في الحقيقة احد الأشياء السيئة التي ارسلتها الهند اليها. ولكن هذه التجارة كانت محدودة، ثم اخذت تنمو وتنتشر في القرن التاسع عشر على ايدي الاوروبيين، ولا سيما شركة الهند الشرقية التي احتكرت التجارة البريطانية.

ويقال ان الهولنديين في الشرق اعتادوا ان يخلطوا الأفيون بتبغهم ثم يدخنوه وقاية من الملاريا. وعن طريقهم انتقلت عادة تدخين الأفيون الى الصين، ولكن على صورة اسوأ، لأن الصينيين كانوا يدخنونه نقيا غير مخلوط. ثم ارادت الحكومة ان تحول دون انتشار هذه العادة، فقد رأت ان للأفيون اثرا بالغا وخطرا شديدا على الشعب، وان تجارته ايضا تمتص جزءا كبيرا من ثورة البلاد الى الخارج.

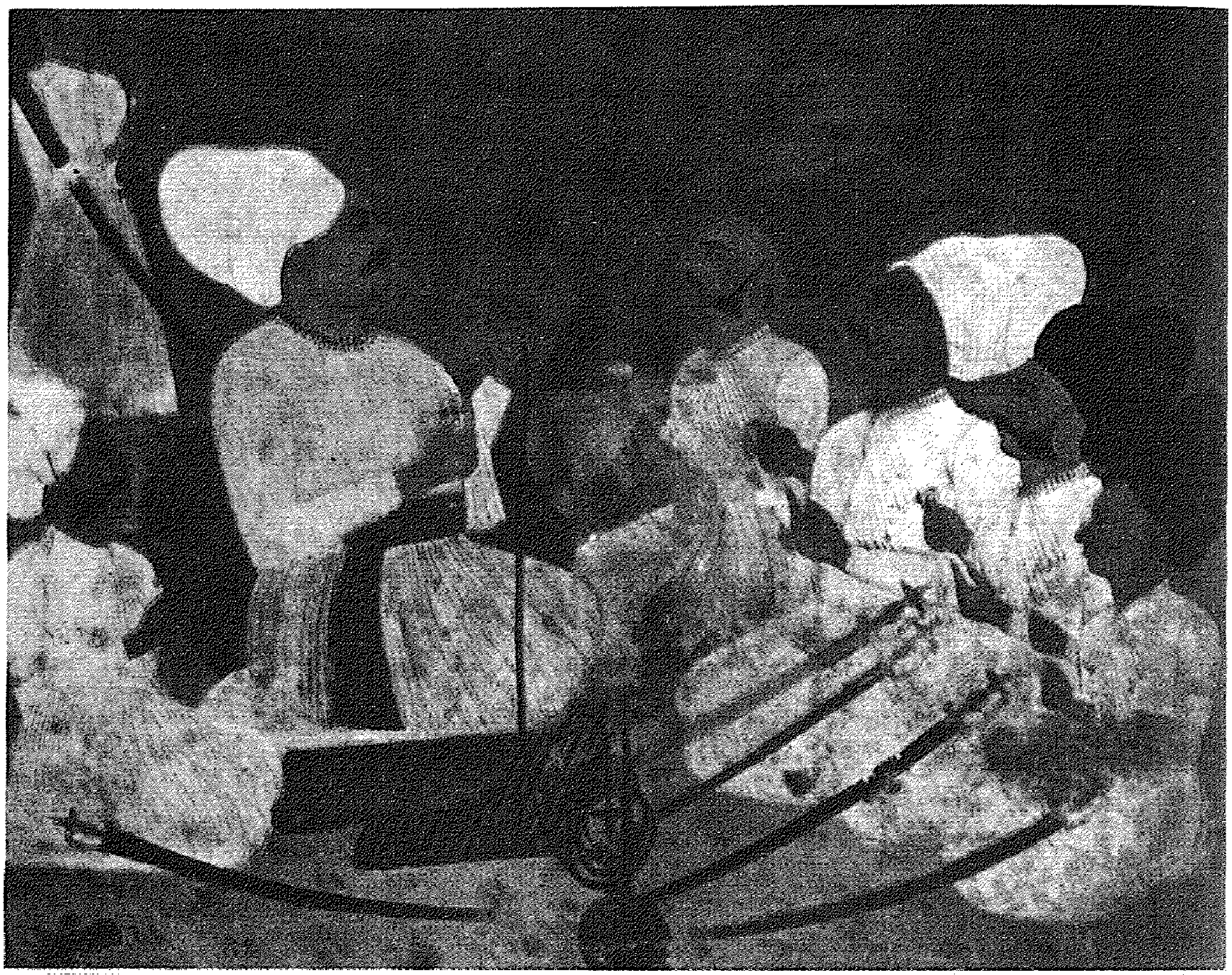
من أجل ذلك اصدرت الحكومة الصينية عام ١٨٠٠ مرسوما يقضي بتحريم استيراد الأفيون ودخوله الى الصين لأي غرض من الأغراض. ولما كانت تجارته رابحة جدا بالنسبة للأجانب فانهم اخذوا في تهريبه الى الصين، وفي رشوة الموظفين الصينيين ليتغاضوا عنه.

عندئذ اصدرت الحكومة الصينية امرا يحرم على موظفيها مقابلة التجار الأجانب ويفرض عقوبات صارمة على من يعلم اي اجنبي اللغة الصينية او لغات المانشو. ولكن ذلك لم يجد نفعا في مقاومة تجارة الأفيون، فقد استمرت على الرغم من هذه القيود والعقوبات مستعينة في وجودها بالرشوة والفساد.

وقد تطورت هذه المشكلة بالنسبة للصين من سيىء الى اسوأ بعد عام ١٨٣٤ حينما انهت الحكومة البريطانية احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الصين وجعلت هذه التجارة حرة لكل التجار البريطانيين. وترتب على ذلك ان ازدادت فجأة حركة تهريب الأفيون لدرجة اضطرت الحكومة الصينية معها ان تأخذ اجراء قويا لقمعها.

وقد تمثل هذا الاجراء في اختيار الحكومة لرجل قوي من رجالها يدعى «لين تسي شي» وتعيينه رئيسا لادارة مقاومة حركة تهريب

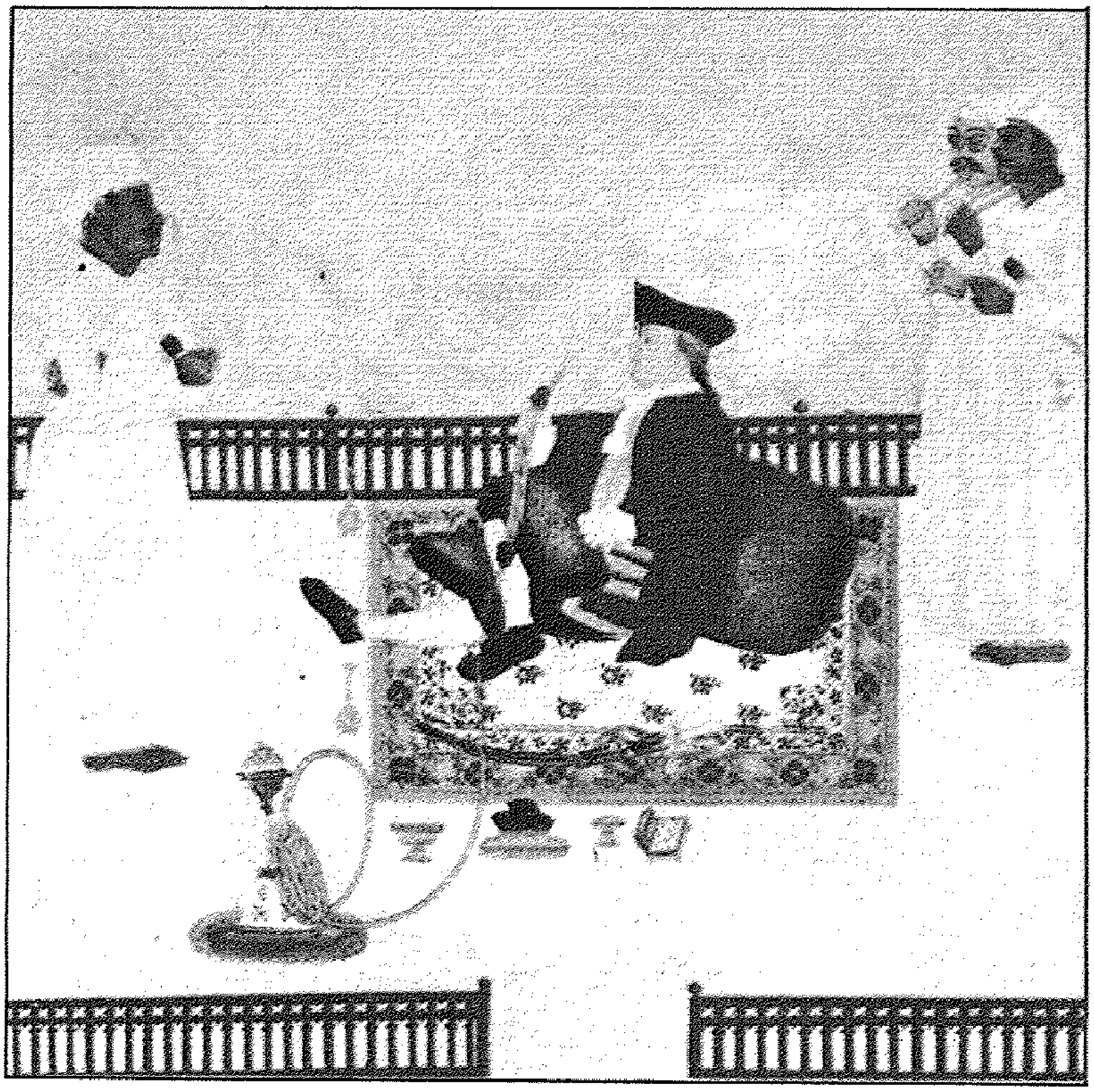
(١) هذه النبذة هي: «... انت أيها الملك الذي يعيش عبر بحار كثيرة مع ذلك تدفعك رغبة متواضعة للانتفاع من خيرات حضارتنا. أنت يا من اوفدت بعثة تحمل في احترام رسالتك، ولكي تظهر ولاءك ارسلت ايضا هدايا من منتجات بلادك. لقد قرأت رسالتك التي تظهر عباراتها الجادة ذلة محترمة من جانبك تستحق عليها الثناء. ومع تحكمي في الدنيا الواسعة ليس لي غير أمل واحد هو ان احافظ على حكمي الكامل وان اضطلع بواجبات الدولة. اما الاغراض الغريبة الباهظة الثمن فلا تهمني. ولست في حاجة إلى استعمال مصنوعات بلادك. وانه ليليق بك ايها الملك ان تحترم عواطفي، وان تظهر لي في المستقبل ولاء اكثر، ولعلك بالولاء الدائم لعرشنا تضمن السلام والرفاهية لشعبك بعد اليوم..
واطعني في خوف ولا تظهر الاهمال وعدم الاكتراث».



□ لوحة تعود إلى القرن الثامن عشر، تظهر امير هندي (راجا) يدخن النارجيله، ويعود اول ظهور للافيون في الهند إلى عام ١٥١١م.

الأفيون. ولم يكد «لين تسي شي» يكلف بهذه المهمة حتى قام بعمل سريع قوي. لقد انتقل في الحال الى «كانتون» في الجنوب حيث كانت مركزا رئيسيا لهذه التجارة غير المشروعة، وأمر كل التجار الأجانب هناك ان يسلموه كل ما عندهم من افيون. ورفض هؤلاء التجار ان يطيعوا هذا الأمر اولا، ولكن «لين» أجبرهم عى اطاعته بعزلهم في مصانعهم، وبحمل عمالهم وخدمهم الصينيين على ان يتركوهم، وبمنع الطعام من الوصول اليهم من الخارج. وازاء هذه الشدة والصرامة وهذا التصرف المحكم لم يسع التجار الأجانب الا ان يسلموا مكرمين للمسؤولين الصينيين عشرين الف صندوق من الأفيون. وقد اخذ «لين» هذه الكميات الهائلة التي كانت معدة للتهريب واتلفها. ولم يكتف «لين» بهذا، بل اخبر التجار الأجانب بانه لن يسمح لأي سفينة بالدخول الى كانتون حتى يعطي ضابطها تعهدا بانه لا يحمل افيونا عليها. فاذا نقض هذا التعهد فان الحكومة الصينية تكون في حل من مصادرة السفينة بما عليها. ومما لا شك فيه ان «لين» كان شخصا كفئا، وانه قام بما اسند اليه من عمل خير قيام، ولكنه لم يدرك ان نتائج تصرفاته ستعود بالوبال على الصين.

وتتلخص هذه النتائج في اشتباك الصين مع بريطانيا في حرب، وفي هزيمة الصين في هذه الحرب، وتوقيعها معاهدة مذلة، وفي دفع الأفيون الذي حاولت الحكومة الصينية تحريمه الى حلوق الصينيين كرها. وسواء أكان الأفيون خيرا او شرا للصينيين فان هذا لم يكن امراً مهما. انما كان المهم هو أن تهريب الأفيون كا عملا مربحا للتجار البريطانيين، وان بريطانيا لم تكن مستعدة لأن تتسامح في ضياع هذا الدخل.



□ مستوطن انجليزي في الهند، ومن الأرجح ان يكون من تجار شركة الهند الشرقية، يدخن الشيشة ومن المعروف ان اسطول شركة الهند الشرقية ساهم في تجارة الأفيون.

ولما كان معظم الأفيون الذي اتلفه «لين» يخص التجار البريطانيين فان بريطانيا اشتبكت عام ١٨٤٠ في حرب مع الصين باسم الدفاع عن الشرف الوطني، وقد سميت هذه الحرب بحق «حرب الافيون» لأنها حوربت وكسبت بغية الوصول الى حق فرض الافيون على الصين.

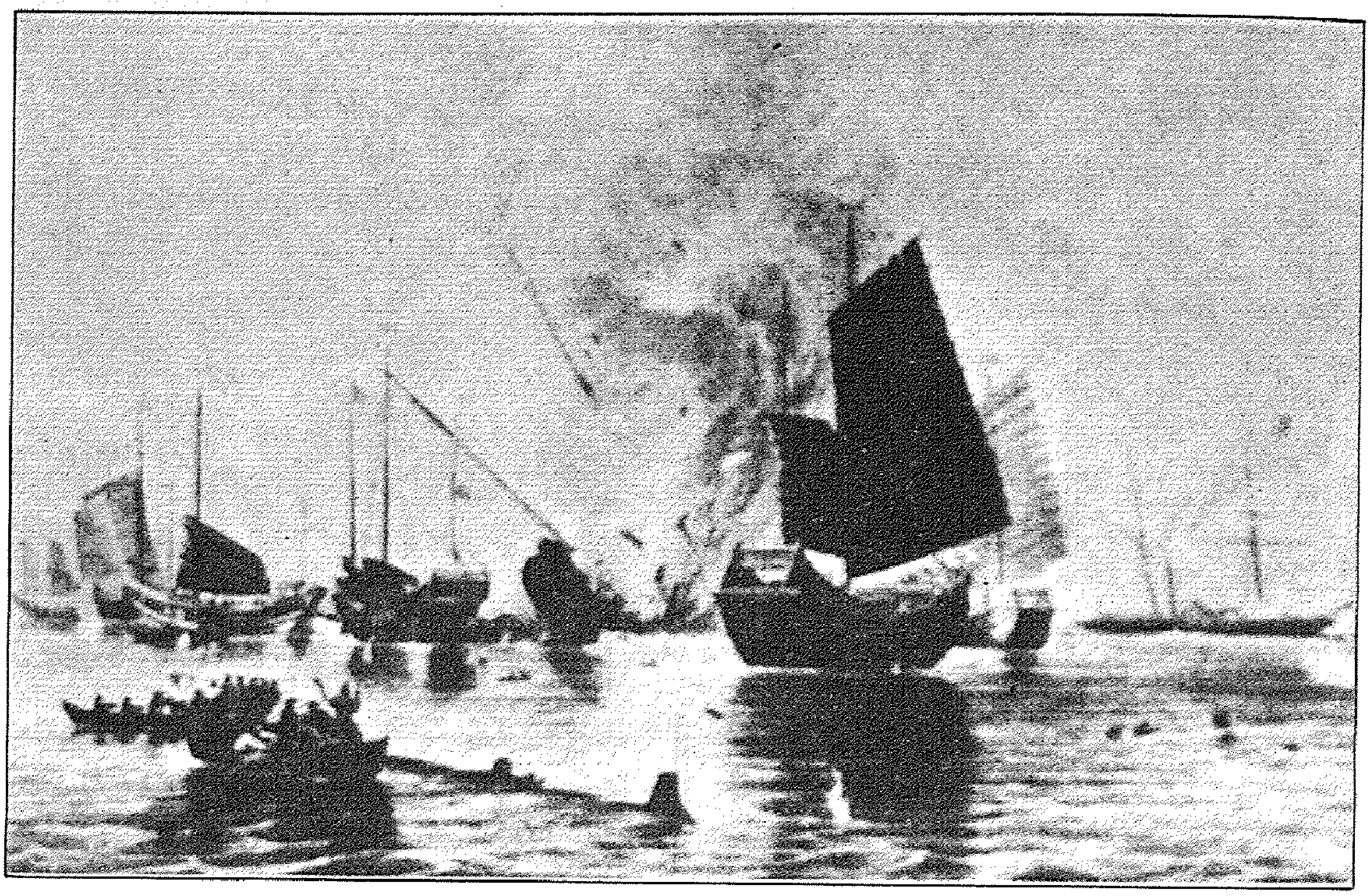
ولم تستطع الصين ان تفعل شيئا ضد الأسطول البريطاني الذي حاصر كانتون وموانىء اخرى. وقد اضطرت الصين بعد حرب دامت عامين ان تستلم. وفي عام ١٨٤٢ وقعت معاهدة نانكين التي نصت على جوب فتح خمس موانىء صينية للتجارة الأجنبية، وهذا يعني بوجه خاص فتحها لتجارة الأفيون حينئذ. وهذه الموانىء الخمس هي كانتون، وشنغهاي، واموي، وننجبو، وفوتشو. وقد سميت هذه بموانىء المعاهدة. ولم تكتف بريطانيا بذلك، بل استولت ايضا بمقتضى المعاهدة على جزيرة هونكونج بالقرب من كانتون، واغتصبت عنوة مبالغ طائلة كتعويض لأفيون تجارها الذي اتلف، ولتكاليف الحرب التي فرضتها فرضا على الصين.

وهكذا حقق البريطانيون انتصار الافيون. وقد بعث امبراطور الصين بالتماس خاص الى الملكة فيكتوريا ملكة انجلترة وقتئذ مبينا لها في ادب واحترام الآثار الشنيعة المنكرة الناشئة من فرض تجارة الافيون على الصين، ولكنه لم يتلق اي جواب من الملكة على التماسه. فما اعظم الفرق بين هذا الالتماس المهذب وبين الرسالة الشامخة التي بعث بها منذ نحو خمسين سنة احد اسلافه الامبراطور «تشين لون» الى ملك الانجليز جورج الثالث!

هذا كان بدء متاعب الصين ومشاكلها مع دول الغرب الاستعمارية. لقد انتهى عصر عزلتها، وصار عليها ان تقبل التجارة الأجنبية، وأن تقبل، بالاضافة الى ذلك، المبشرين المسيحيين الذين لعبوا دورا هاما في الصين، هو دور الطليعة في انتشار النفوذ الأجنبي.

ومعظم متاعب الصين التي تلت كا لها اتصال بالمبشرين. فكثيرا ما كان مسلك هؤلاء وتصرفهم وقحا مثيرا، ولكن لم يكن من المستطاع محاكمتهم امام المحاكم الصينية، لأن معاهدة

□ حرب الافيون فتحت الباب امام الاحتكارات والامتيازات الاجنبية.



نانكين الجديدة نصت على عدم محاكمة الأجانب الغربيين الموجودين في الصين امام المحاكم الصينية، أو بمقتضى قوانين الصين، وانما يحاكمون امام محاكمهم الخاصة، وقد سمي هذا بـ «الامتياز الخاص». ومن العجيب أن الصينيين الذين تحولوا الى مسيحيين على ايدي المبشرين ادعوا لأنفسهم هذه «الحماية الخاصة».. وهؤلاء لم يكن لهم بأي حال من الأحوال حق في هذه الحماية الخاصة، ولكن هذا لم يغير من الموقف في شيء، لأن المبشرين الكبار الذين يمثلون الشعب الاستعماري القوي كانوا يقفون من ورائهم.

وكان المبشرون احيانا يؤلبون قرية ضد قرية اخرى، وكان القرويون وغيرهم، اذا بلغ بهم الغيظ والسخط اقصاه، يثورون ويهجمون عى المبشرين، وفي بعض الأحيان كانوا يقتلونهم. عندئذ كانت الدولة الاستعمارية التي تقف من خلف هؤلاء المبشرين تنقض على الثوار وتأخذ منهم ما تشاء من تعويض.

وقد استغلت الدول الأوروبية الى اقصى الحدود بعض حوادث القتل التي وقعت في الصين على المبشرين من اجناسهم، فجعلت منها فرصا لمطالبة الصين بمزيد من الامتيازات والحصول عليها.

وثورة «تابن» التي تعتبر من افظع وأبشع الثورات التي ظهرت في الصين قد بدأها ايضا مرتد اعتنق المسيحية على ايدي المبشرين. وقد قام بها عام ١٨٥٠ شخص نصف مجنون يدعى «هن شو تشوان».. فهذا المجنون الديني نجح نجاحا بعيد المدى وانطلق في كل مكان يدعو الى الحرب صائحا: «اقتلوا عباد الأوثان». ونتيجة لذلك قتلت جموع كثيرة. وقد خربت هذه الثورة اكثر من نصف الصين، وقدر عدد من راحوا ضحيتها خلال اثني عشر عاما تقريبا بنحو عشرين مليونا من السكان. وليس من العدل في شيء ان نحمل المبشرين المسيحيين والدول الأجنبية وزر هذه الثورة ومن قتلوا بسببها، واذا كان يبدو ان المبشرين باركوها في اول الأمر فانهم يما بعد انكروا «هن شو تشوان».

ولكن الحكومة الصينية ظلت على اية حال



□ معاهدة نانكين لعام ١٨٤٢ فرضت على الصين تعويضات مالية ضخمة.

تعتقد ان المبشرين المسيحيين مسؤولون عنها. وهذا الاعتقاد يجعلنا ندرك مدى سخط الصينيين على نشاط المبشرين وقتذاك وبعد ذاك. فالمبشرون في نظر الصينيين لم يفدوا الى بلادهم كرسل دين ودعاة خير وسلام، وانما وفدوا اليها كعملاء للاستعمار، أو كما قال كاتب انجليزي: «المبشر اولا، ثم السفينة الحربية، ثم احتلال البلاد وخطفها». هكذا تنظر العقلية الصينية الى موكب الحوادث. وجدير بك ان تتذكري هذا لان المبشر كثيرا ما يتسلل اكثر مما ينبغي في شؤون الصين ومشاكلها.

ومن الغريب المدهش ان ثورة يقودها متعصب ديني مجنون يتاح لها كل هذا النجاح قبل القضاء عليها نهائيا. والسبب الحقيقي في هذا هو ان النظام القديم في الصين كان قد بدأ في التداعي والانهيار. واذكر اني اخبرتك في آخر رسالة عن الصين عن عبء الضرائب فيها، وعن احوالها الاقتصادية المتغيرة، وعن ضجر الشعب المتزايد. فالجمعيات السرية كانت تثور ضد حكومة المانشو في كل مكان، وكانت بوادر التمرد والثورة العامة تلوح في الجو.

وما من شك في ان التجارة الأجنبية، وتجارة الأفيون والسلع الاخرى قد زادت الأحوال سوءا. لقد كانت التجارة الأجنبية ترد طبعا الى الصين في الماضي، ولكن الأحوال كانت قد تغيرت في العصر الذي نتحدث عنه.

فمصانع الغرب الحديثة الآلات بدأت تنتج في سرعة كثيرا من السلع التي لا يمكن بيعها كلها في بلادها. لهذا كان على الدول الغربية ان تجد لمنتجات مصانعها اسواقا في اماكن مختلفة من العالم. فهذه المنتجات وبخاصة الأفيون قلبت نظم التجارة القديمة راسا على عقب، ومن ثم زاد الاضطراب الاقتصادي سوءا على سوء. وكما حدث في الهند بدأت اسعار السلع في الأسواق الصينية تتأثر بالأسعار العالمية. وكل هذا زاد من بؤس الصينيين وضجرهم وقوى من ثورة «تابن».

تلك كانت الأوضاع في الصين عندما بدأت الدول الغربية تتدخل في شؤونها وتدل عليها بقوتها وعظمتها. فليس عجيبا اذن ان ترى الصين نفسها غير قادرة على الصمود امامهم ورفض مطالبهم. ولم تكد الدول الغربية — واليابان حديثا جدا كما سنرى فيما بعد — يرون ما عليه الصين من حيرة واضطراب وما تعانيه من متاعب وقلاقل حتى استغلوا هذه الفرصة السانحة كل الاستغلال، بالاستيلاء على امتيازات جديدة منها واغتصاب اجزاء من اراضيها ايضا.

وكان من الممكن حقا ان تسير الصين في نفس الطريق التي سارت فيها الهند فتصبح



□ صورة زيتية لحرب الافيون، رسمها احد الانجليز، من الذين شاركوا في الهجوم البحري على «تشين ــ كيانغ».

امبراطورية لليابان ولدولة او أكثر من الدول الغربية لولا ما كان بين هذه الدول من المنافسة والتحاسد والغيرة المتبادلة.

لقد حدثتك عن حالة الصين العامة خلال القرن التاسع عشر، كما حدثتك عن انهيارها الاقتصادي، وعن ثورة «تابن»، وعن المبشرين والاعتداء الغربي عليها. وأشعر اني بذلك قد انحرفت عن مجرى القصة الرئيسي، ولكن يجب على الانسان ان يعرف شيئا عن هذا حتى يستطيع ان يتتبع بفهم سرد الحوادث. اقول ذلك لأن حوادث التاريخ لا تقع كالمعجزات، وانما تحدث لأن اسبابا شتى تتضافر على وجودها، وكثيرا ما تختفي هذه الأسباب وتكمن تحت سطح الحوادث.

ولا بد ان حكام الصين الذين كانوا الى عهد قريب في غاية القوة والعظمة قد اعترتهم الدهشة للتغيير المفاجىء الذي طرأ على عجلة الحظ بالنسبة لهم. ولعلهم لم يتبينوا ان جذور انهيارهم تمتد بعيدا في ماضيهم، ولعلهم ايضا لم يقدروا تقدم الغرب الصناعي ونتائجه الخطيرة على نظام الصين الاقتصادي.

ولم يملكوا ازاء كل ذلك الا ان يحنقوا كل الحنق على هجمات الأجانب «البرابرة» واعتداءاتهم عيهم. ويروى ان امبراطور الصين في ذاك العصر استعمل في معرض الاشارة الى هذه الهجمات والاعتداءات تعبيرا لطيفا من تعابير اللغة الصينية الفصحى معناه انه «لا يسمح لأحد ان يغط ويشخر بالقرب من سريره»! ولكن حكمة اللغات القديمة او فكاهتها لا تستطيع، مع ما تعلمه من ثقة مطمئنة وشجاعة فائقة وضبط للنفس في ساعات المحن والشدائد، ان تصد الأجنبي وترده.

لقد فتحت معاهدة نانكين الباب لبريطانيا في الصين، ولكن بريطانيا ما كان ليسمح لها ان تفوز بأطايب الغنيمة وحدها، ففرنسا والولايات المتحدة دخلتا الصين ايضا واكرهتاها على توقيع معاهدة تجارية معهما. لقد كانت الصين وقتئذ ضعيفة مغلوبة على امرها. ولكن هذا الاكراه الذي فرض عليها لم يجعلها تحب الأجانب او تحترمهم. اجل، كان حنقها وسخطها شديدين على وجود هؤلاء «البرابرة» بين ظهرانيها ، بيد ان الأجانب كانوا ابعد ما يكونون عن الرضا بما ظفروا. فشهوتهم في استغلال الصين قد بدأت تنمو وتقوى، وكانت بريطانيا اسبق الدول الأخرى في هذا المضمار.

وقد كان هذا الوقت مناسبا جدا للأجانب لتحقيق مآربهم منها، فقد كانت مشغولة بثورة «تابن»، ومن ثم لم يكن في مقدورها ان تقاوم هؤلاء الدخلاء. وحدث في عام ١٨٥٦ ان قبض والي كانتون على بحارة صينيين بتهمة القرصنة.

وكانت السفينة التي يعمل فيها هؤلاء البحارة سفينة صينية لا صلى لها بالدولة الأجنبية، ولكنها كانت ترفع العلم البريطاني بتصريح من حكومة هونكونج، ومع ان هذا التصريح كانت مدته قد انتهت فان الحكومة البريطانية ممثلة دور الذئب والحمل في القصة المشهورة، اعتبرت هذا الحادث عذرا كافيا للحرب.

لهذا ارسلت بريطانيا جنودها الى الصين، ولكن حدث وقتئذ ان قامت في الهند ثورة ١٨٥٧ فحولت بريطانيا هؤلاء الجنود من الصين الى الهند، واضطرت حرب الصين ان تنتظر حتى تفرغ بريطانيا من القضاء على ثورة الهند.

وفي عام ١٨٥٨ بدأت حرب الصين الثانية، وقد اكتشفت فرنسا في مقتل مبشر فرنسي في مكان ما في الصين تكأة وعذرا لها للاشتراك في هذه الحرب. ولهذا انقض الانجليز والفرنسيون على الصينيين الذين كانوا مشغولين بمكافحة ثورة «تابن».

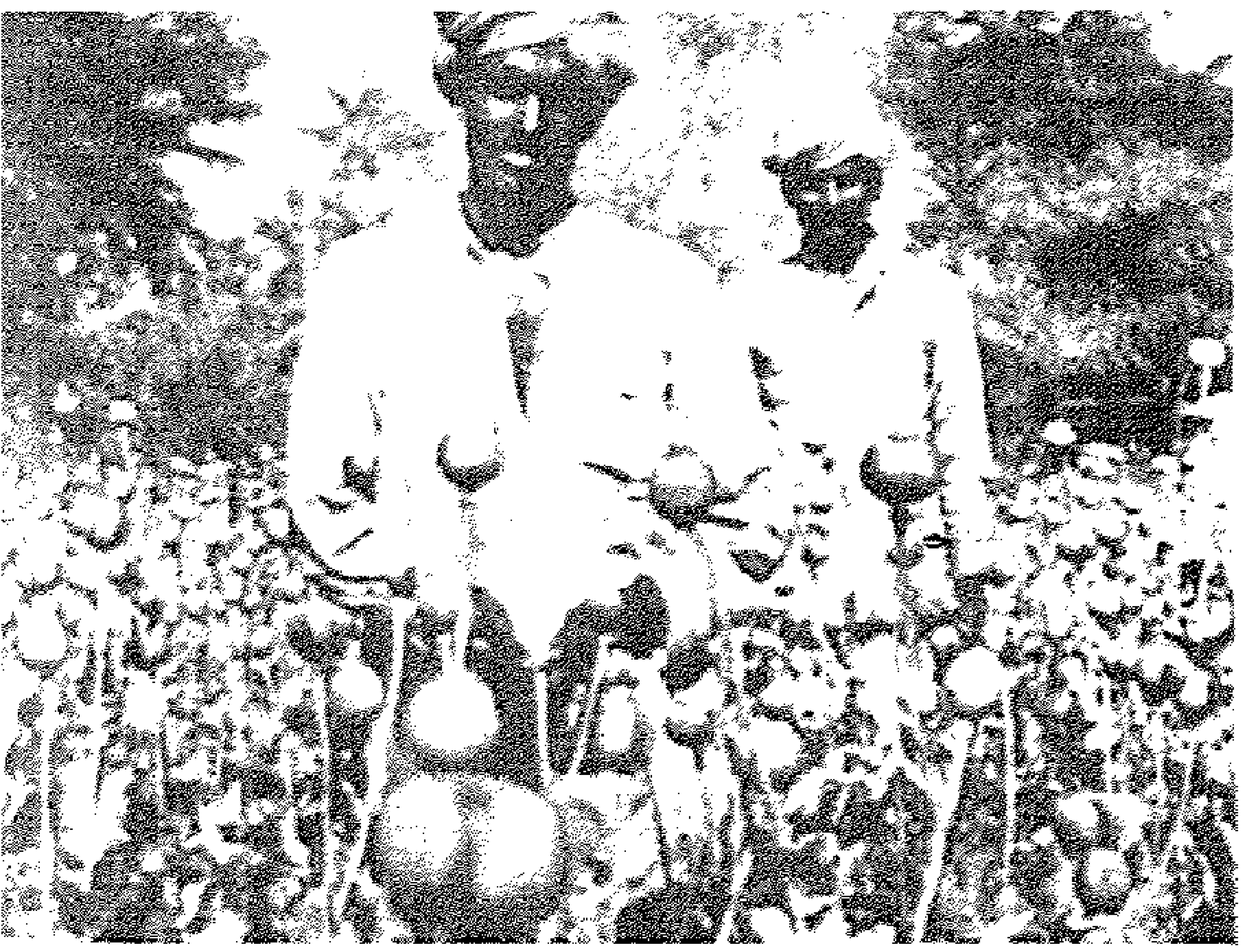
وحاولت حكومتا انجلترة وفرنسا ان تستميلا روسيا والولايات المتحدة الامريكية للاشتراك ايضا في هذه الحرب، ولكنهما لم توافقا، وان كان لم يكن لديهما مانع من المشاركة في الغنائم والأسلاب!

وقد اضطرت الصين ان تنزل في النهاية عل ارادة هذه الدول الأربع فتوقع معها معاهدات جديدة اكرهت بمقتضاها على ان تعطيهم امتيازات اكثر من قبل، وعلى ان تزيد في عدد الموانىء الصينية المفتوحة امام التجارة الأجنبية.

ولكن قصة حرب الصين الثانية لم تنته بعد الى هذا الحد، فقد كان لا يزال هناك فصل آخر من المأساة اثاره ونتائجه اشد ايجاعا وايلاما. فالعادة عندما تعقد معاهدات بين الحكومات ان تصدق عليها او تؤكدها الدول المتعاقدة، ولهذا اتفق عند عقد هذه المعاهدات الجديدة ان يتم التصديق عليها بين الصين من جهة، وانجلترة وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الامريكية من جهة اخرى في مدينة بكين. فلما حان موعد هذا التصديق حضر ممثل روسيا مباشرة الى بكين بطريق البر، بينما حضر ممثلو الدول الثلاث الأخرى بطريق البحر. وقد ارواد ان يحضروا بسفنهم الى بكين عن طريق نهر البيهو (Peiho)



□ حياة القصور، وما اتسمت به في انغماس في الترف والمجون ساهمت في سقوط الأسرة الحاكمة.



الذي اقيمت عليه وقتذاك استحكامات وتحصينات دفاعا عن هذه المدينة التي كانت مهددة بثوار تابن.

من أجل ذلك طلبت الحكوما الصينية الى ممثلي انجلترة وفرنسا والولايات المتحدة ان يتفادوا الحضور الى بكين عن طريق النهر وان يحضروا اليها عن طريق البر. ولم تكن الصين في طلبها هذا متعنتة أو غير معقولة.

وقد استجاب ممثل امريكا لهذا الطلب، اما ممثلا بريطانيا وفرنسا فرفضاه وحاولا ان يشقا



طريقهما بالقوة في نهر البيهو الى بكين غير عابئين بوجهة نظر الحكومة الصينية. عندئذ اطلق الصينيون النيران على سفنهما وأكرهوهما على العودة بعد خسائر فادحة.

ولكن حكومتي بريطانيا وفرنسا المتعجرفتين المتغطرستين اللتين لم تقبلا حتى مجرد الاصغاء الى التماس الحكومة الصينية لم تستطيعا ان تغتفرا لها هذا التصرف أو تحتملاه منها. ولهذا ارسلتا فرقا كثيرة من جنودهما للانتقام. وفي عام ١٨٦٠ زحفت هذه الجنود على مدينة بكين القديمة، وتمثل انتقامهما في صورة تدمير ونهب وحرق لمبنى من اجمل واعجب المباني في المدينة. ذلك المبنى هو قصر الصيف الامبراطوري المعروف باسم «يوان مين يوان» (Yuen-Ming-Yuen) والذي أكمل بناؤه في عهد «تشين لون». لقد كان هذا القصر حافلا بذخائر الفن والأدب النادرة، وبأعمال قديمة من البرونز ذات جمال فائق، وبقطع فنية من الخزف الصيني التي تستولي على الألباب، وبمخطوطات وصور نادرة. وعلى الاجمال كان حافلا بكل لون من الوان الفنون وبأرفع وارقى ما انتجته الصين واشتهرت به منذ الف سنة.

فهؤلاء الجنود البريطانيون والفرنسيون، او هؤلاء الونداليون الجهلة المغرمون بتخريب الآثار القديمة واعمال الفن النادرة قد نهبوا من هذه الذخائر القيمة ما نهبوا ثم دمروا ما بقي منها وأضرموا فيه النيران التي ظلت مشتعلة اياما كثيرة!

فهل يكون امرا عجبا ان ينظر الصينيون ومن خلفهم ثقافة الاف السنين، الى هذه الوندالية بألم مبرح في قلوبهم، وان يعتبروا هؤلا المحطمين جهلة برابرة لا يعرفون الا كيف يقتلون ويخربون؟ ولا بد ان ذكريات الهون (Huns) والمغول وكثيرين غيرهم من المخربين وبرابرة العصور القديمة قد عادت اليهم.

ولكن البرابرة الأجانب لم يهتموا اي اهتمام برأي الصينيين فيهم. لقد شعروا بالحماية والأمن في ظل سفنهم الحربية ومع اسلحة الحرب الحديثة. وماذا يهمهم اذا كانت الذخائر الثمينة النادرة اللتي جمعت خلال مئات السنين لم يعد لها وجود أي وجود؟ وماذا يعنيهم من امر الفن الصيني والثقافة الصينية؟ وكأني بهم يتمثلون بقول القائل: «مهما يحدث فقد حصلنا على حكمة المدفع، اما هم فلم يحصلوا على هذه الحكمة!». ■

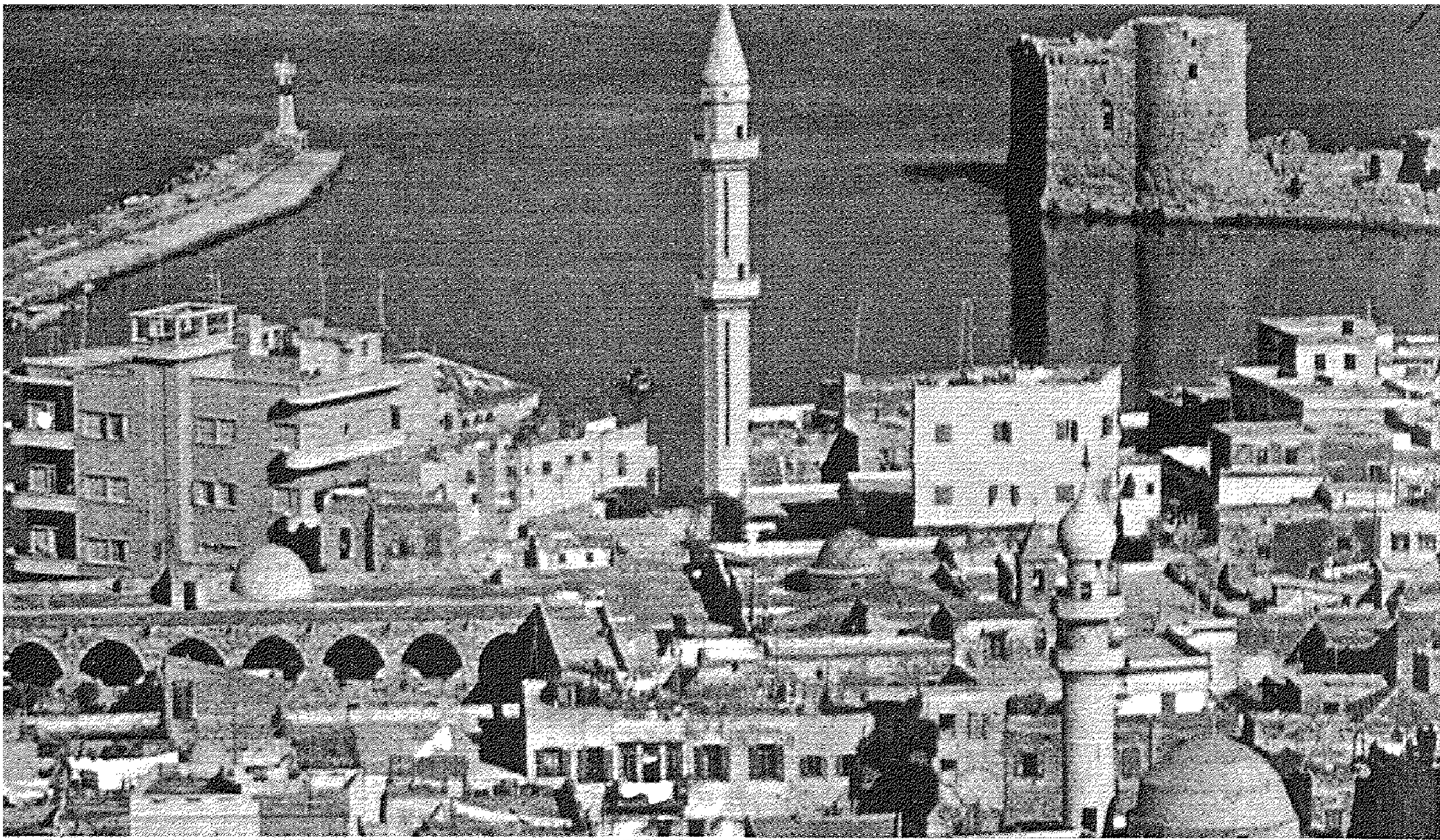


المبادلات التجارية لبلدان

(الربع الأول من القرن التاسع عشر)

منذ العصور الغابرة اشتهرت مدن الساحل السوري بتجارتها، المزدهرة نتيجة لموقعها المتوسط بين العالم المعروف آنذاك، واتصالها السهل بالقارات الثلاث، ووقوعها على طرق التبادل التجاري الكبرى. وكان لهذه الميزات الطبيعية دور فعال في دفع السكان لأن ينشطوا في ميدان تبادل السلع والبضائع، ونالوا شهرة واسعة في هذا المضمار. فقد عملوا منذ عهد الفينيقيين في تطوير سبل التجارة ووسائلها، وفتحوا بلادهم لمنتوجات العالم، وأجادوا العمل كوسطاء بين أجزائه المتباعدة. واستمرت البلاد قرونا طويلة محافظة على نشاطها التجاري المزدهر حتى مطلع القرن السادس عشر، حين توطدت الطرق التجارية الجديدة التي اكتشفها البرتغاليون عبر رأس الرجاء الصالح، فضعفت قيمتها التجارية بتحول الطرق الرئيسية لبضائع الهند عنها، وقد تم هذا التحول في الوقت نفسه الذي دخلها فيه العثمانيون فاتحين(١).

وكان جانب من التجارة الداخلية يتم محليا في المخازن الثابتة في القرى، حيث كان يجري تبادل المحاصيل الزراعية والحيوانية والمنتجات المعدنية الخام والمصنعة مباشرة من المنتج إلى المستهلك في الأسواق الأسبوعية التي كانت تقام في المدن والمراكز الزراعية، والتي كانت تعقد خلال أوقات زمنية معينة في مناطق التقاء القرى، وتتوزع هذه الأسواق وفقاً لمعطيات اقتصادية وجغرافية واجتماعية تتلاءم مع إمكانات وحاجات السكان.



المشرق والمغرب العربي

د. حسين سلمان سليمان

وفي بعض المناطق لا يزال حتى اليوم كما في الماضي، تقام الأسواق في المكان والوقت نفسيهما، الاثنين في النبطية والثلاثاء في خان حاصبيا والخميس في الخيام والجمعة في مرجعيون. وبالرغم من افتتاح مناطق مكشوفة في المدن الساحلية في القرن التاسع عشر، فلا تزال هذه الأسواق تشكل سلسلة تبادل ذات كثافة مرتفعة. ويقصدها سكان القرى المجاورة، وحتى تلك البعيدة عن السوق لمسافة يوم[٢]. ففي سوق النبطية كان يتم حوالي الخمسين ألف عقد بيع وشراء، وكل ذلك بالقول ويتم بكلمتين «بعت واشتريت»[٣].

كما كانت تتم التجارة الداخلية في الأسواق الرئيسية للمدن الكبرى، التي كانت مزودة بشكل دائم ومستمر بمنتجات الصناعات المختلفة والزراعات العديدة في المدينة والاقاليم، وما يحمل إلى تلك المدن من البلاد الخارجية[٤]. وامتلكت تلك المدن إقطاعات واسعة في الأرياف المجاورة، فلم تكن تدفع ثمن ما يصدر إليها، بل كانت تقتطعه كريع من الأرض التي تمتلكها، او كفائدة عن الدين المعطي للفلاح، وتحقق أرباحاً طائلة على حساب الأخير. فالمستثمر هو الذي كان يحدد الأسعار، في حين كان الفلاح مضطراً بدافع الدين والحاجة إلى تصريف إنتاجه بسرعة، وإذا اضطر لشراء حاجياته فإنما يتم ذلك في نهاية الموسم الزراعي وبأسعار مرتفعة. وعلى مر السنين وإذا كانت المواسم وفيرة اختق السوق المحلي، ولا ينال الفلاح سوى دخل ضئيل من محاصيله، وفي سنوات المحل كان مجبراً على شراء المؤن والبذار من المدينة وبأسعار مرتفعة قد تعرضه للجوع، وبذلك يضطر للاستدانة من جديد، ويسيطر سوق المدينة على الفلاح ويستعبده، بصورة دائمة[٥].

وبالرغم من ازدهار حركة التجارة الداخلية،

والتجارة القائمة بين الأقاليم المجاورة، كانت تعوقهما عوامل عدة من بينها:

* تأخر وسائل المواصلات والنقل، وعدم اطمئنان المسافرين باستمرار، بسبب تهديد قطاع الطرق واللصوص، مما جعل السفر لا يتم إلا بأوقات معينة وبمصاحبة القوافل(٧).

* الضرائب المفروضة على الاستيراد والتصدير، كانت بمثابة حملا ثقيلا حين تكون في أيدي مندوبين لا ضمير لهم في أوقات القلاقل السياسية(٨).

* المصاعب التي كانت تواجه التجار المسلمين، لعدم توفر النشاط المصرفي المنظم، فيضطر إلى التهرب من الشرع والاستدانة بالربا، في حين كان منافسه الأوروبي يستفيد من نظام المصارف الأكثر مرونة(٩) مما أدى إلى حلول هذا الأخير ومن يحتمون به، محل التجار المسلمين ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر(١٠).

اما بالنسبة إلى تنظيم طوائف التجار، فإن (جب وبون)(١١) يعتقدان بأنها في مصر وسوريا لم تكن جامدة مثل طوائف أرباب الحرف، فقد تجمع التجار في وحدات تنظيمية على نفس نمط نقابات أو أصناف الصناع، ولكن تنظيمهم لم يخضع لنفس القيود التزمتية والتقاليد المحافظة. فهناك مثلاً بائعو الصابون والطباق والأقمشة وتجار البن والبهارات والغلال، وقد كان تجار كل سلعة يتجمعون في أسواق خاصة بهم تسمى باسمهم ولكل سوق شيخه. ولكن لم يترك لنا المؤرخون معلومات عن إجراء احتفالات «الشد» عند قبول المرشحين في طوائف التجار، تماثل الاحتفالات التي كانت تجري في نقابات الحرف، وقد تكون هذه الطوائف مجرد تجمعات إدارية. وعادة يكون رئيس هيئة التجار من أغنى التجار ويعرف بالقاهرة باسم «الشهبندر»، في حين عرف بدمشق باسم «المتقدم بين التجار»، وكانت مهامه أن يباشر سلطانا على كل التجار وأرباب الحرف وتجار القطاعي، فيحل الخصومات بينهم وينظم أمورهم الداخلية.

وبرغم أن التجار لم ينجوا بأي حال من الابتزاز والمغارم من قبل السلطات الحاكمة بين فترة وأخرى، وبخاصة عندما تفتقر الخزينة إلى



□ تاجر عربي.

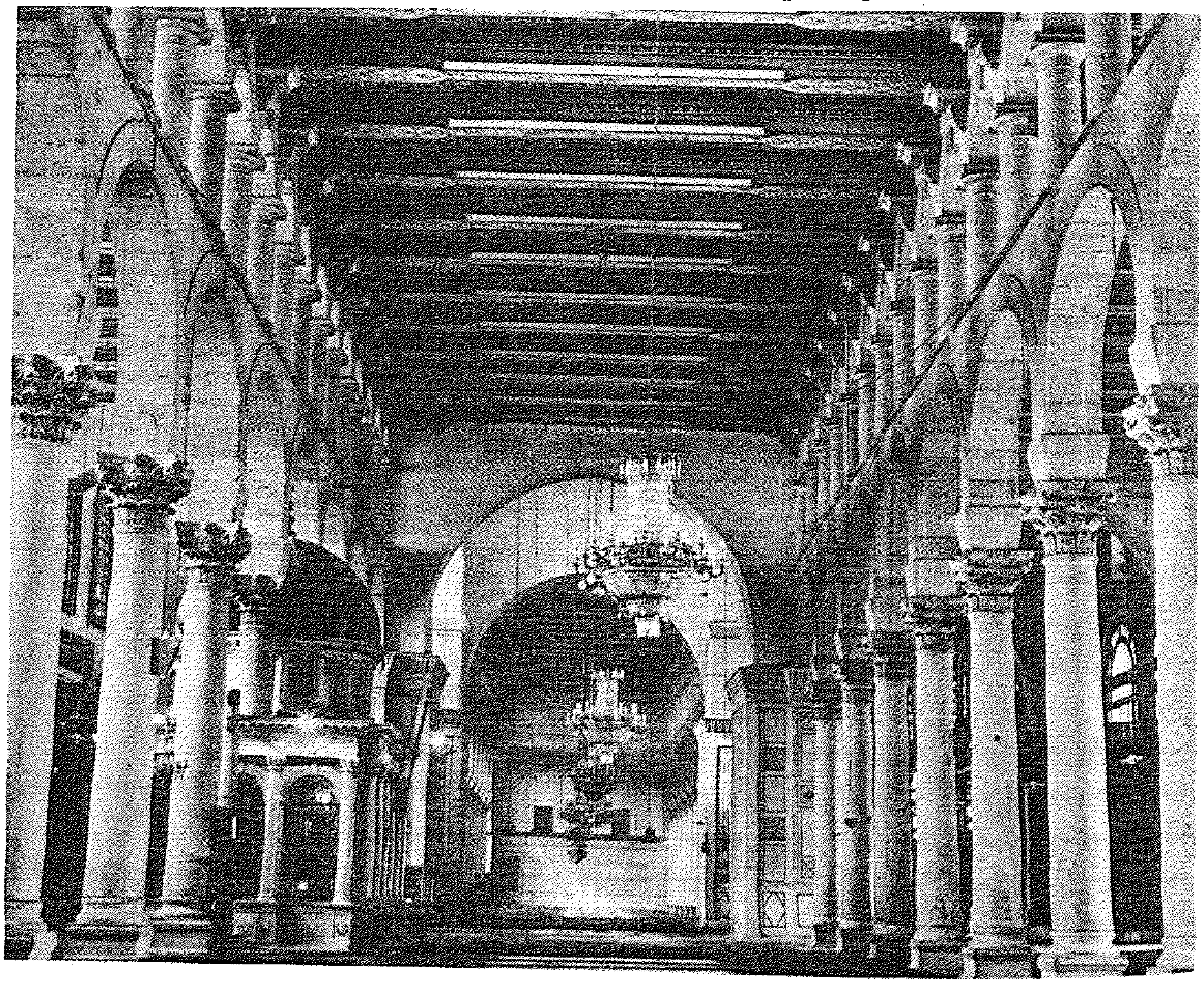
المال، فإنهم كانوا يكونون طبقة اجتماعية غنية ومحترمة ومتنفذة. فهم مع الكتبة وبعض العلماء يكونون الطبقة المتوسطة الحقيقية، التي يمكنها أن تؤثر في سير الحكم وتضغط على الحكومة في مناسبات معينة. وكان كبار التجار يعتبرون انفسهم من بين «أعيان» مدينتهم وتمكنت كثير من الأسر التجارية أن تكون ثروات ضخمة وأن ترتبط مع الاستقراطية الحربية الحاكمة وأسر المشايخ بصلات التزاوج والمصاهرة. وقد ترك مؤسس أسرة الشرايبي في القاهرة ــ وهو محمد الدادة (المتوفي في عام ١٧٢٤) ١,٤٨٠ كيساً ذهبياً وكمية من الأملاك الثابتة والمنقولة، بما في ذلك أسطول من ثلاث سفن في البحر الأحمر. وأقامت أسرة السفرجلاني في دمشق عدة مساجد وأوقفت عليها الأموال. ولذا فقد كان من الطبيعي جداً أن تكون لتلك الأسر التجارية فروع أو وكالات في مدن أخرى، كما كان بعضهم يسيّر قوافل خاصة بتجارته، يزودها بحراس أشداء مسلحين لتجنب مخاطر الطريق. لم يكن غريبا بالنسبة إلى أسر المشايخ أن تمارس العمل التجاري، وأن تجني من وراء ذلك أرباحاً طائلة، إلى حد أن بعض تلك الأسر وبخاصة أتباع مذهب ابن حنبل، كانت تفضل أن تقوم بالتجارة

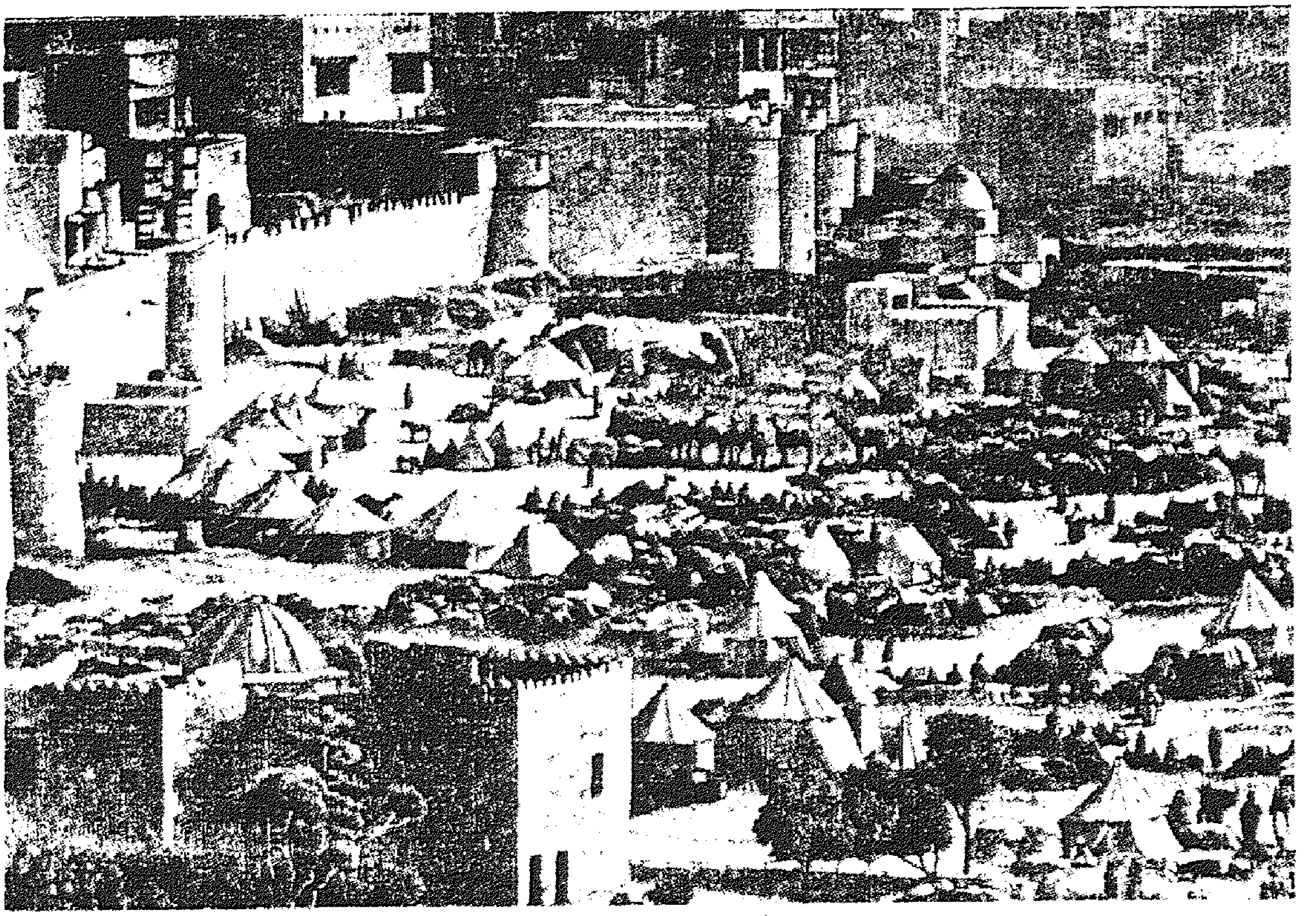
«الشريفة»، على شغل وظائف ينفق عليها من مداخيل يتم الحصول عليها، بطرق يشك أنها لا تتمشى مع أحكام الشرع(١٢).

وقد زودتنا الوثائق الدبلوماسية الفرنسية بلمحة عن حركة المبادلات التجارية، التي كانت تربط في الربع الأول من القرن التاسع عشر ما بين مصر وبلاد الشام والمغرب وبلاد العرب الجنوبية. فقد كان ميناء صور يستقبل سنويا من قرى جبل(١٣) عامل ما قيمته ٨٠٠ ألف قرش، ويصدر بحرا إلى دمياط التبغ وأخشاب البناء والفحم على متن أربعمئة مركب وسفينة، تعود محملة بالأرز والجلود والأنسجة المغربية والسكر والبن وقلانس تونس والبلح والحمص والقطران والفضة. كما كانت تصدر صور إلى مدينة دمشق القطن وخيوطه والزبدة والزيت والشمع والعسل والعفصة والعرق سوس وحجر الطاحون، ينقلها برأ بواسطته القوافل حوالي أربعة آلاف جمل وبغل وحمار(١٤).

وأشارت الوثائق الفرنسية المعاصرة إلى النشاط التجاري، الذي ربط كسروان وصيدا من جانب ومصر من جانب آخر، وقدرت قيمته سنة ١٨١٤ بحوالي ٢٥ مليون قرش(١٥). وكانت صيدا تستورد من دمياط الأرز والجلود والقمح والتمر والسكر، وتصدر إلى هذه أحجار الطاحون والتبغ والعرق سوس والقمصان(١٦)، ويتم التبادل التجاري لصيدا مع دمشق عن طريق القوافل البرية، فقد كان هناك حوالي ألفي بغل، تنقل إلى هذه الأخيرة ما تنتجه صيدا وجبل(١٧) الدروز من قطن وأعشاب وجذور للطبابة والصباغ(١٨)، وما يرد إلى ميناء هذه المدينة من سلع مستوردة من الخارج لصالح تجار دمشق، وتعود القوافل حاملة التنباك والسماق وجلود

□ الحرم مع الروضة ـ الجامع الأموي ـ دمشق.





□ موكب الحجاج عند ابواب المدينة المنورة نقلاً عن: Dr. Gustave Le Bon., A Civilizeo. Arabe.

الماعز والقهوة ما قيمته ٩٥٠٣٦ قرشاً لسنة ١٨١١[١٩].

وتزود المرتفعات اللبنانية الجبلية مدينة بيروت وفقاً لحساب دقيق بـ ١٨٠٠ قنطار حرير ثمن القنطار[٢٠] ٨٠٠ قرش، ويتم تصديرها بمراكب غربية أو محلية يذهب معظمها إلى دمياط والاسكندرية وأربعة إلى المغرب وتونس والجزائر. وتعود محملة بالأرز والأنسجة والكتان وجلود الأبقار والجواميس من القاهرة، والعباءات من تونس، والحصر والحمص والقهوة من مخا، وبضائع اوروبية، ويقدر مجموع ما كانت تستورده سنويا ما قيمته ٢٠٠ الف قرش تقريباً[٢١].

وتقوم من بيروت قوافل برية منظمة إلى المرتفعات الجبلية اللبنانية وإلى دمشق وحلب والمناطق الداخلية من جبال نابلس والقدس، يقوم بنقلها حوالي ٢٠٠ الف دابة من جمال وحمير وبغال، تستعمل جميعها في نقل البضائع المصدرة والمستوردة والمؤلفة من الحرير والقطن والحلي والزيت والنبيذ والقطران والتين المجفف والأخشاب والفحم والصوف وساتان دمشق وأحجار الطحن والمشمش المجفف وبقسماط[٢٢] دمشق والحامض والبرتقال والحديد والمربيات والزعفران وجميع أنواع الفاكهة. وكانت تشتري المغرب ما قيمته ثلاث ملايين قرش من حرير بيروت، وتصدر بالمقابل إلى المدينة من العباءات وباقي السلع ما قيمته مليون قرش تقريباً. وتستورد بيروت من أزمير بضائع بقيمة ثلاث ملايين قرش، كما كانت تمتلك الحكومة وأهالي البلاد حوالي مئة وخمسين مركباً وسفينة[٢٣].

وكانت تستورد طرابلس من مصر نسيج الكتان والجلود والجواميس والأبقار والأرز والقهوة وملح الأمونياك والصمغ وباقي الأدوية، وتبادل عليها بتصدير الحرير وخيوطه والأعلاف، وغالباً ما تكون هذه السلعة الأخيرة مربحة للغاية، وتعطي ارباحاً تتراوح من ١٥ ــ ٢٥٪[٢٤]. كما كانت تقوم من المدينة حركة تبادل تجاري بواسطة القوافل البرية مع بيروت وكسروان، وثلاث أو أربع قوافل سنوية مؤلفة

من ثلاثين إلى أربعين دابة تقوم بالرحلة بين حلب وطرابلس، وحاملة إلى حلب الحرير والصابون والزيت والبرتقال والأرز والليمون وكل سلع أوروبا والمستعمرات المطلوبة في المدينة، وتعود حاملة أقمشة حلب وبغداد وفارس والهند. وكان يصل إلى طرابلس ثلاث قوافل من دمشق تنقل أقمشة دمشق وبلاد فارس والهند من تنباك وثمار مجففة وبقسماط وتفاح وأجاص، وتعود حاملة من طرابلس كل السلع المصرية والاوروبية والمستعمرات المطلوبة في دمشق من حرير وليمون وأحياناً الصابون. وكان يقصد طرابلس من حمص حوالي اثني عشر قافلة سنوياً مؤلفة من ما يقارب الألف جمل، وتعود حاملة القلي والأرز والصابون والزيت والبرتقال والليمون لحمص وحماه. وكان هناك حوالي ستة قوافل صغيرة تنتقل بشكل مستمر بين طرابلس من جهة وحمص وحماه من جهة أخرى، حاملة إلى المدينة العدس والحمص وأثواب القطن الناعمة والخشنة، وتعود من طرابلس حاملة سلع مصر وأوروبا والمستعمرات والصابون والزيت والملح[٢٥].

ومما ينبغي الإشارة إليه بأن القوافل البرية كانت تسافر بطمأنينة تامة من طرابلس إلى عكا ودمشق واللاذقية وحماه، في حين كانت تلك القوافل تخشى عرب الصحراء عند الانتقال من حماه إلى حمص. ولذا قد كانت كل قافلة تتوجه من طرابلس إلى حلب، تنتظر في حماه قافلة دمشق الكبيرة العدد، فتسافران معا لكي تدخلا في الوقت نفسه إلى حلب، فغالباً ما كان الاعراب يتبعون هذه القوافل حتى أبواب المدينة[٢٦].

أما عن التبادل التجاري مع بلاد العرب الجنوبية فقد كان يتم عن طريق قافلة الحج الشامي، ففي كل سنة كان يتجمع في دمشق عشرات الألوف من الحجاج ليشكلوا القافلة الكبرى إلى مكة. وفي الأساس هذه الرحلة هدفها ديني فقط، ولكنها مع الوقت اتخذت طابعاً تجارياً وحضارياً، فهي سوق حقيقي مستمر يحمل كل مسافر منتجات بلاده الغذائية، التي يبادلها أما على الطريق أو في مكة مقابل الموسلين وأنسجة الهند وشالات كشمير، وأحياناً مقابل لؤلؤ سيلان وبهارات سومطرة وقهوة اليمن. وعدد كبير من هؤلاء الحجاج سماسرة قدماء للقوافل قطعوا ما يزيد عن عشرات مرات طريق الحج، وحققوا منها مكاسب ضخمة[٢٧].

وأشارت الوثائق الفرنسية المعاصرة بأنه كان يلتقي في دمشق كل سنة حوالي ثلاثين ألف مسلم، يقودهم والي دمشق إلى مكة ثم يعود بهم، وتقوم فرص للمتاجرة وإقامة علاقات نادرا ما تتمكن مدينة أخرى أن تقدمها بنفس الدرجة. وقد جاء في إحصاء جمعه دبلوماسي فرنسي من الجمرك سنة ١٨١٥، بأن المدينة استقبلت منتجات آسيوية بقيمة ١٨,٥٢٨,٠٠٠ فرنك فرنسي، ويساوي هذا المبلغ ضعف ما تستقبله كل سوريا من البضائع الأوروبية، ويستخدم في نقل هذه البضائع ٥٣٣٦ جملا و ٢٢٨٩ بغلا[٢٨] وأدى هذا النشاط التجاري إلى جعل مدينة دمشق، أكبر مدينة استهلاكية في سوريا[٢٩].

وإذا كانت قافلة الحج الشامي تلعب دورا فعالا، في تنشيط الحركة التجارية في دمشق ومدن سوريا الجنوبية، فإن قوافل الحج المسيحية القادمة من بلاد الامبراطورية العثمانية نفسها أو من بلاد أوروبا، لزيارة بيت المقدس أو الأماكن المقدسة الأخرى في فلسطين، كانت تلعب دوراً مماثلا وإن لم يكن بالاتساع والقوة نفسيهما. فقد كانوا يحملون معهم أحياناً بضائع من البلاد القادمين منها، كما كانوا يشترون من البلاد منتجاتها، وبخاصة البضائع الدينية كالمسابح والصلبان وغيرها[٣٠].

وهكذا رغم اكتشاف البرتغاليون لرأس الرجاء الصالح واستخدام الطريق التجارية الجديدة عقب الاكتشاف المذكور، ورغم جمود السلطات العثمانية الحاكمة لبلدان المشرق والمغرب العربي وابتعادها عن كل ما من شأنه تطوير الحياة الاقتصادية لم تفقد هذه البلدان أهميتها التجارية، وارتبطت فيما بينها بحركة واسعة للمبادلات التجارية. فحافظت على حياتها الاقتصادية كما كانت عليه في نهاية عهد المماليك، دون أن تتمكن من تحقيق ازدهارا اقتصاديا لامعا، كما كان ينظر منها بعد دخولها في نطاق امبراطورية شاسعة مترامية الأطراف.

■

مصدر الوثيقة: وزارة الخارجية الفرنسية.
وحدة حفظها: المراسلات التجارية والقنصلية (.C.C.C)، مجلد ٧٩ (Constantinople) صادرة عن ترابيا بتاريخ ١٨١٦/١٠/١٧.
موضوعها: من سفير فرنسا لدى الباب[١] العالي إلى رئيس وزراء فرنسا الدوق ريشيليو. والي عكا ووالي مصر يحتكران تجارة ولايتيهما، يجب إفشال مخطط محمد علي القاضي بإقامة صناعة وطنية في مصر.

صدرت أوامر من الباب العالي إلى ولاة المشرق لحماية وتشجيع تجارة فرنسا، فبالرغم من ان الزيت والحرير هما المحصولان الرئيسيان اللذان يصدران من اساكل[٢] شبه جزيرة المورة وقادش، فقد منع خروجهما. وليس ما يدعو إلى الدهشة، بان الولاة الذين يحكمون يمكن أن يحققوا دخلا حين يسمحون بالتصدير، لكن هؤلاء الباشاوات هم غرباء عن البلاد وليس لهم املاك.

والي عكا (أي سليمان باشا) غريب وهو اغنى ملاكي سوريا، وكل الأرض التي تنتج القطن هي ملكا له، وهو البائع الوحيد ويفرض القانون على المشترين. وحتى هذه الأثناء لم ينجح في التوصل إلى درجة إجبار وكلاؤنا على شرائها، في الأسعار التي تناسبه، ولا يمارس عليهم سوى ضغط معنوي لأنه يشعر جيداً ان مصلحته تفرض عليه ان يجاريهم، وان يعرف كيف يجب ان يمارس مهام سلطته. صار من المرغوب فيه لجني المكاسب الكبرى لتجارتنا، ضرورة عدم وجود هذه الأمور في سوريا. وبما ان تعليمات الباب العالي تمنع الاستغلال، فسوف احاول ان اجعله يوجه اوامر (أي الى باشا عكا) بان يقوم بالمهام الملقاة على عاتقه بطريقة لائقة، وان يوقف احتكار إنتاج اراضي ولايته، وعدم عرقلة تجارة الفرنسيين المقيمين في ولايته. ولكن لا اكتم عليك بان الباشا سوف يعرف كيف يتخلص من تنفيذ هذه الأوامر، وبانه لن يكون للباب العالي لا الوسيلة ولا القدرة على معارضته، لأنه بعيد عن متناول سلطته المباشرة.

وفي مصر يحتكر الباشا (أي محمد علي) شراء وبيع كل ما تنتجه وما تستورده مصر، ويرغب أن ينتزع من الأوروبيين العمولة، لأنه يقوم بالاستيراد والتصدير عن طريق وكلائه ومراكبه، ويحاول زيادة ثرائه لإنشاء جيش من عدة فرق لصد الأعراب[٣]، وقد فشل الباب العالي في ضربه.

ويمد محمد علي نظره ابعد من ذلك، وهو التخلص من صناعتنا، ويخطط لذلك بان يرسل مئات من الأطفال إلى فرنسا وايطاليا، لتعلم مختلف المهن والسلع المنتجة في معاملنا، يجب اتخاذ إجراءات في إيطاليا وفرنسا لإفشال هذه الخطط.

سفير فرنسا لدى الباب العالي
شارلز ماركيز دي ريفيار

وثيقة مترجمة عن الأصل الفرنسي من مجموعة الدكتور حسين سلمان سليمان

---

(١) الباب العالي، كناية عن مبنى كبير فخم اقيم في عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧)، خصص جناح منه ليقيم به الصدر الأعظم مع اسرته وخدمه وحرسه، وخصصت باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة الذين يقومون بتصريف مهامها. وغدا إسم هذا المبنى «باشي قابيسي» أي بوابة الباشا، و «بابي عالي» أي بوابة عليا، ثم اكتسب إسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي.

(٢) الأسكلة، من الايطالية (Scala) دخلت التركية بصيغة أسكلة، وتطلق في التركية على رصيف الميناء البحري، ثم صار تطلق على الميناء.

(٣) أي قهر الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥ ـ ١٨١٨) التي قامت في شبه الجزيرة العربية على التعاليم السلفية النجدية التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

الهوامش

(١) ليلى الصباغ. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣، انظر ص ٨٣.

(٢) إدوارد روبنصون. يوميات في لبنان، تاريخ وجغرافيا. فصول اختارها وترجمها عن الانجليزية اسد شيخاني. بيروت، ١٩٤٩. انظر ص ١٤٨.
Touma, toufic, paysants et institutions féodales chez les druses el les Marointes du Liban du XVIIe. Siécle a 1914. 2 t. Beyrouth 1971-1972. voir V. 2p. 419; Burckhardt, John Lewis; Travels in Syria and the Holly Land. London, 1822. See p. 34.

(٣) شاكر الخوري. مجمع المسرات. بيروت، ١٩٠٨، انظر ص ٣٧.

(٤) هاملتون جب وهاروله بون. المجتمع الإسلامي والغرب. جزءان، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ انظر ج ٢ ص ١٤٧.

(٥) Weuleresse, Jaques. Le pays des Alaouites tours, 1940. Voir p. 142.

(٦) جب وبون. مرجع سابق، ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٤٨.

(٧) فرنسوا شاسبوف فولني ــ سوريا ولبان وفلسطين في القرن الثامن عشر، جزءان، تر. حبيب السيوفي. المجلة المخليصية، صيدا، ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩، انظر ج ٢ ص ٩٣؛ دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (Acre) مجلد ٩٧٩ تاريخ ١٦/٧/١٨٨٣.

(٨) Perrier, Ferdinand, La Syrie sous le gouvernement de Mehemet Ali jusqu'en 1840 Paris,1842.,voir pp. (86-88).

(٩) Dambman et Noel, Verney. Les puissances étrangéres dans le Levant en Syrie et en Palestine. Paris, 1900. voir pp. (156-160).

(١٠) جب وبون. مرجع سابق، ج ٢ ص ١٤٩.

(١١) المجتمع الإسلامي والغرب. مرجع سابق، ج ٢ ص (١٥٠ ــ ١٥١).

(١٢) المرجع نفسه. ص (١٥١ ــ ١٥٢).

(١٣) أطلق إسم جبل عامل على المنطقة الممتدة من نهر الاولي شمال مدينة صيدا حتى الراس الابيض جنوبا، ومن البحر المتوسط غربا حتى بحيرة الحولة بعرض ثمانين كيلومترا شرقا، وهي منطقة منبسطة تشمل هضاباً وسهولاً داخلية وساحلية وتخترقها انهار وجداول.

(١٤) Ismail, Adel., Documents Diplomatiques et consulaires, relatif à L'histoires du Liban et des Pays du Proche-orient du XVII Siécles à nos-jours. 28 tomes, Editions les oeuvres politiques et historiques. Beyrouth, 1975-1983. voir t.3 pp. (96-97).

(١٥) Ibid. p. 114.

(١٦) Ibid pp. (62-65).

(١٧) لا يقصد بجبل الدروز هنا جبل الدروز الذي هو جزء من الجمهورية السورية حاليا، ويطلق عليه الآن إسم جبل العرب. وإنما يقصد به جبل لبنان وكان أكثر اهله يومئذ من الدروز. وهو يتألف من المرتفعات الغربية اللبنانية الممتدة من نهر الكلب شمالا حتى نهر الأولي جنوبا.

(١٨) Ibid p. 114.

(١٩) Ibid pp. (62-68).

(٢٠) وحدة وزن يختلف مقدارها وفقا للسلعة والمناطق المستخدمة فيها، كانت تعادل في موانىء بلاد الشام بين ١٨٠ إلى ١٩٠ كلغ في حين كان يزن في حلب ٢٢٨ كلغ وكذلك في حماة. لمزيد من المعلومات انظر: نوفان رجا الحمود. العسكر في بلاد الشام في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١.

(٢١) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (F 12 1850) صادرة عن قنصلية فرنسا في طرابلس تاريخ ٢٦/١١/١٨١٢.

(٢٢) البقسماط في التركية (بكسماد، بالباء المشربة وهو خبز جاف يابس يتزودو به المسافر.

(٢٣) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (F 12 1850) صادرة عن قنصلية فرنسا في طرابلس بتاريخ ٢٦/١١/١٨١٢.

(٢٤) Ismail op.cit. t. 3 p. 372.

(٢٥) Ibid t. 4 pp. (395-397).

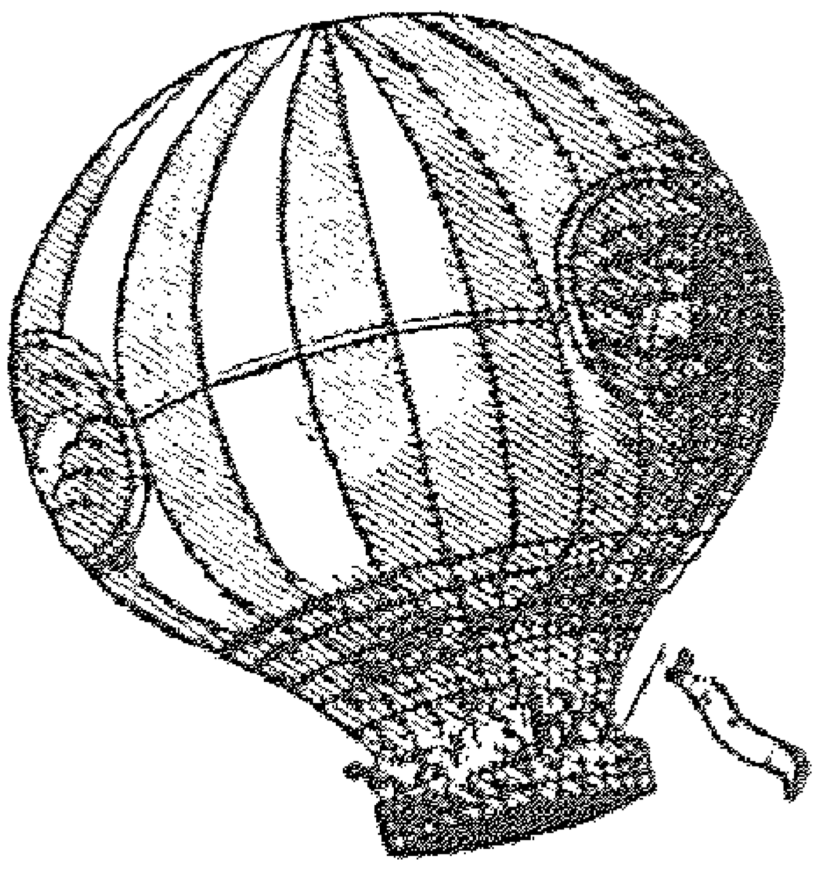
(٢٦) Ibid p. (397-398).

(٢٧) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D.) Turquie مجلد رقم ٢٠ وثيقة رقم ٣٦ تاريخ ١/٩/١٨٣٣.

(٢٨) (Ibid).

(٢٩) أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مرسيليا مجموعة (A.C.C.M.) Damas مذكرات عند تجارة دمشق تاريخ ٢٠/١/١٨٢٦.

(٣٠) ليلى صباغ. مرجع سابق ص ٩٠.

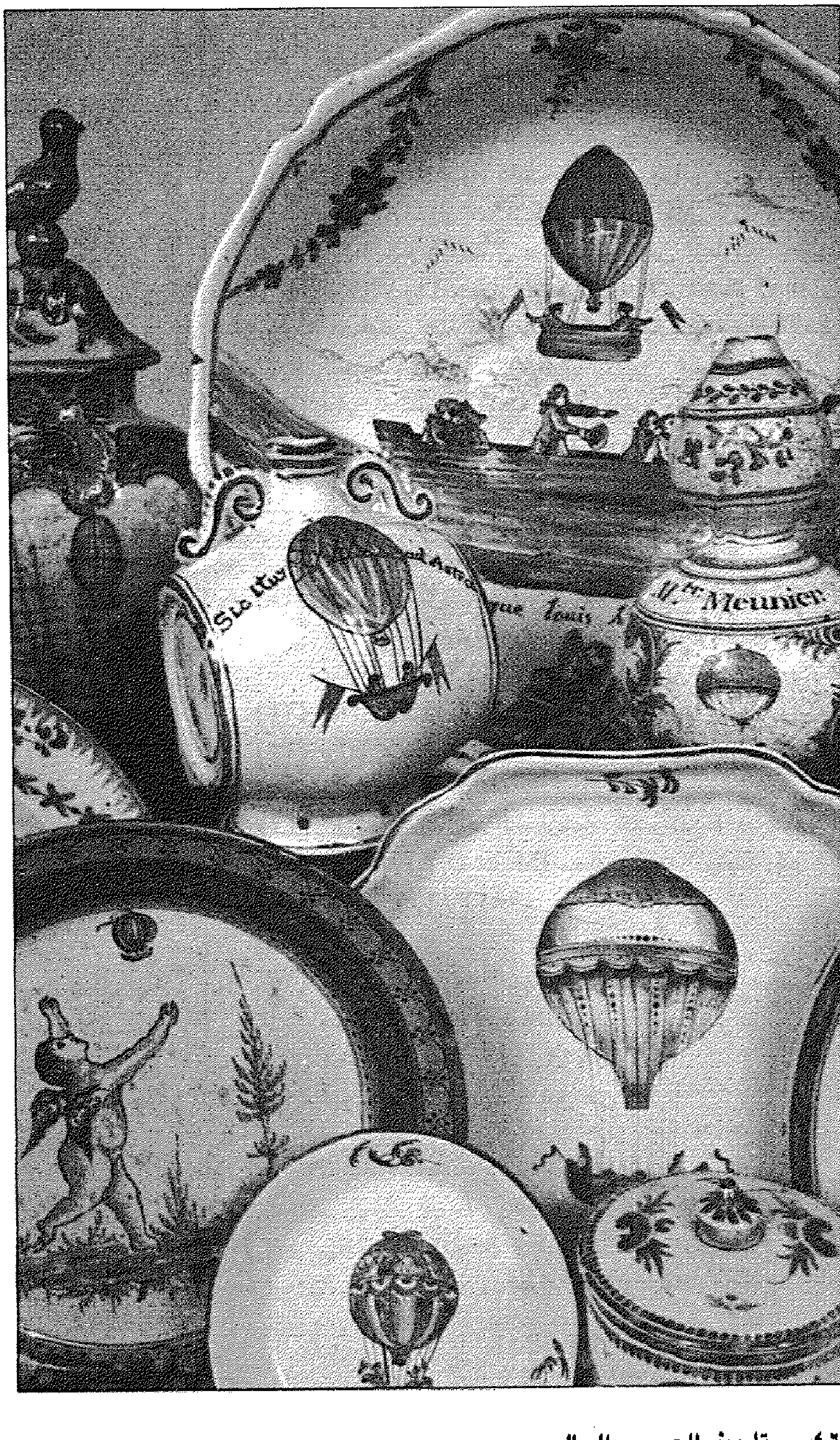


تحف تعرض لأوّل مرّة في الذكرى المئويّة الثانية لأول منطاد

الرابع من حزيران ١٧٨٣، في الحقل الواقع خلف الكنيسة، كان الأخوان مونغولفيي قد نفخا منطاداً، هو عبارة عن كرة كبيرة قطرها أحد عشر متراً،من نسيج مضاعف مبطن بالورق. وكانت القرية هناك، معلم المدرسة، وأطفال الكورس، والبواب.. الخ.. الواقع انه لم يبق احد في بيته. كان الجميع ينتظرون مشاهدة العجيبة، وأيديهم على قلوبهم، خوفاً على الأخوين مونغولفيي.

في الوقت المحدد، بدأت التجربة. ترجح المنطاد قليلا، ثم علا في الجو، وبقي هناك عشر دقائق، وكأنها الأبدية.

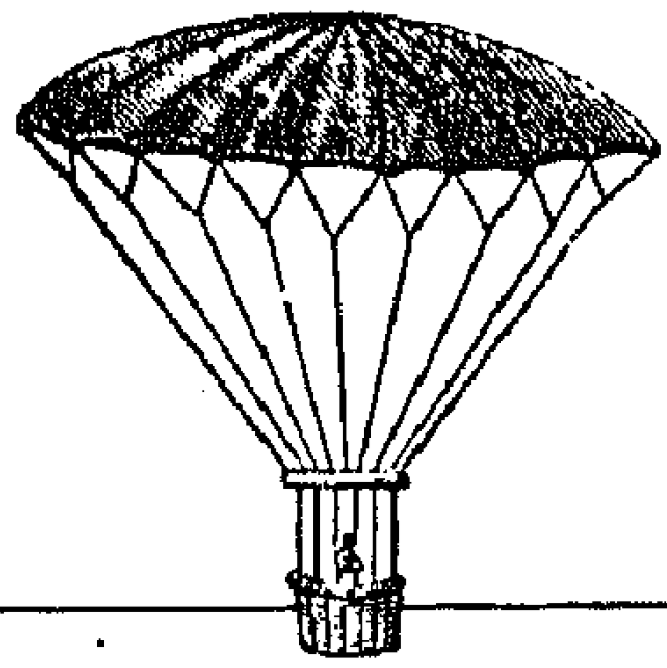
سار كل شيء بسرعة، بعد ذلك. لويس السادس عشر نفسه، أهمل واجباته وانشغل بالمنطاد. وأمر أن تعاد التجربة تحت اشرافه، في فرساي. وفي التاسع عشر من ايلول، الساعة الواحدة بعد الظهر، أعلن احد المسؤولين ان المنطاد سينفخ. ثم اعلن آخر، بعد احدى عشرة دقيقة ايقاف التجربة، ذلك ان



□ مجموعة من الخزفيات تعرض انواع المناطيد بين ١٧٨٣ و١٧٨٥.

احتفل العالم في اوائل ايار ـ ١٩٨٣ ـ بذكرى مرور مائتي عام على طيران أول انسان في المنطاد. وقد أقيم معرض هام جدا للتحف والأواني التي غلب على تزيينها أو شكلها، طابع المنطاد، الذي غدا نموذج العصر ـ قبل مائتي عام ـ للتحف والأعمال الفنية، بل النسيج نفسه.

فمتى كانت أولى تجارب الطيران بالمنطاد؟



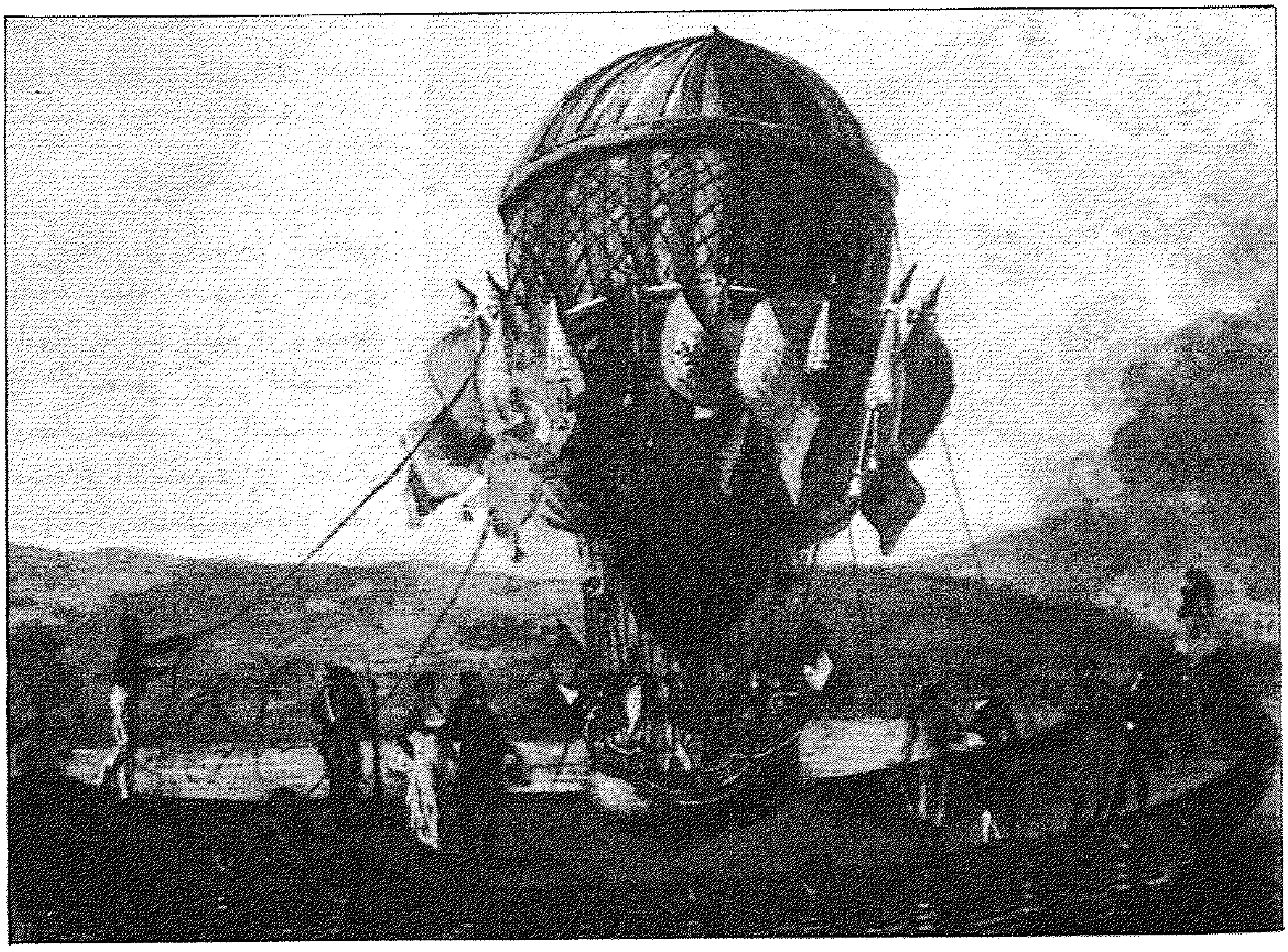
د. سامي زكي

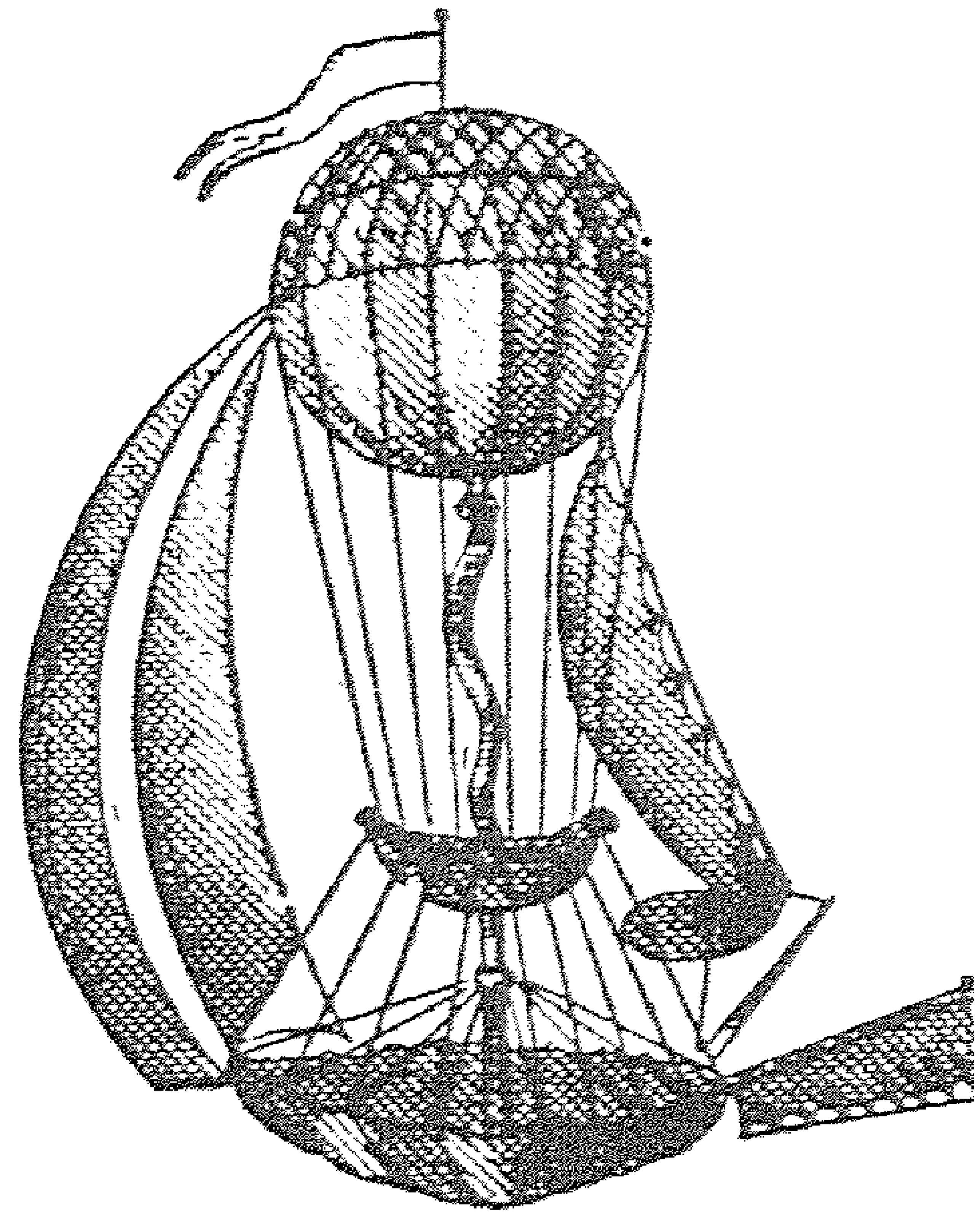
احد الأخوين (مونغولفييي) قرر ان يمتطي المنطاد. فاعترض لويس السادس عشر على ذلك، ونصح بتجربة ارسال حيوانات بدل الانسان (ديك، أو بطة، أو خروف).

كان بين الجمهور المحتشد في فرساي، رجل حالم النظرات، لا يكترث له احد، ولكنه كان يتأمل التجربة بدقة متناهية. كان اسمه مجهولا حتى ذلك الوقت. ولكنه بعد شهرين من ذلك، اصبح اسمه على كل لسان: انه بيلاتر دوروزي. فقد حقق، مع مغامر آخر، هو الماركيز دارلاند اول طيران انساني بالمنطاد.

في الساعة الثالثة عشرة وأربع وخمسين دقيقة، من ٢١ تشرين الثاني، ارتفع المنطاد ذو اللون السماوي المذهب، في الفضاء بكل جلال. ارتفع خمسين مترا، ثم مائة.. وراح الرائدان يحييان الجمهور. ثم أججا النار فصعّد المنطاد حتى صار على علو الف متر. وخلال خمس وعشرين دقيقة

□ صعود منطاد ١٨ برومير السنة العاشرة.





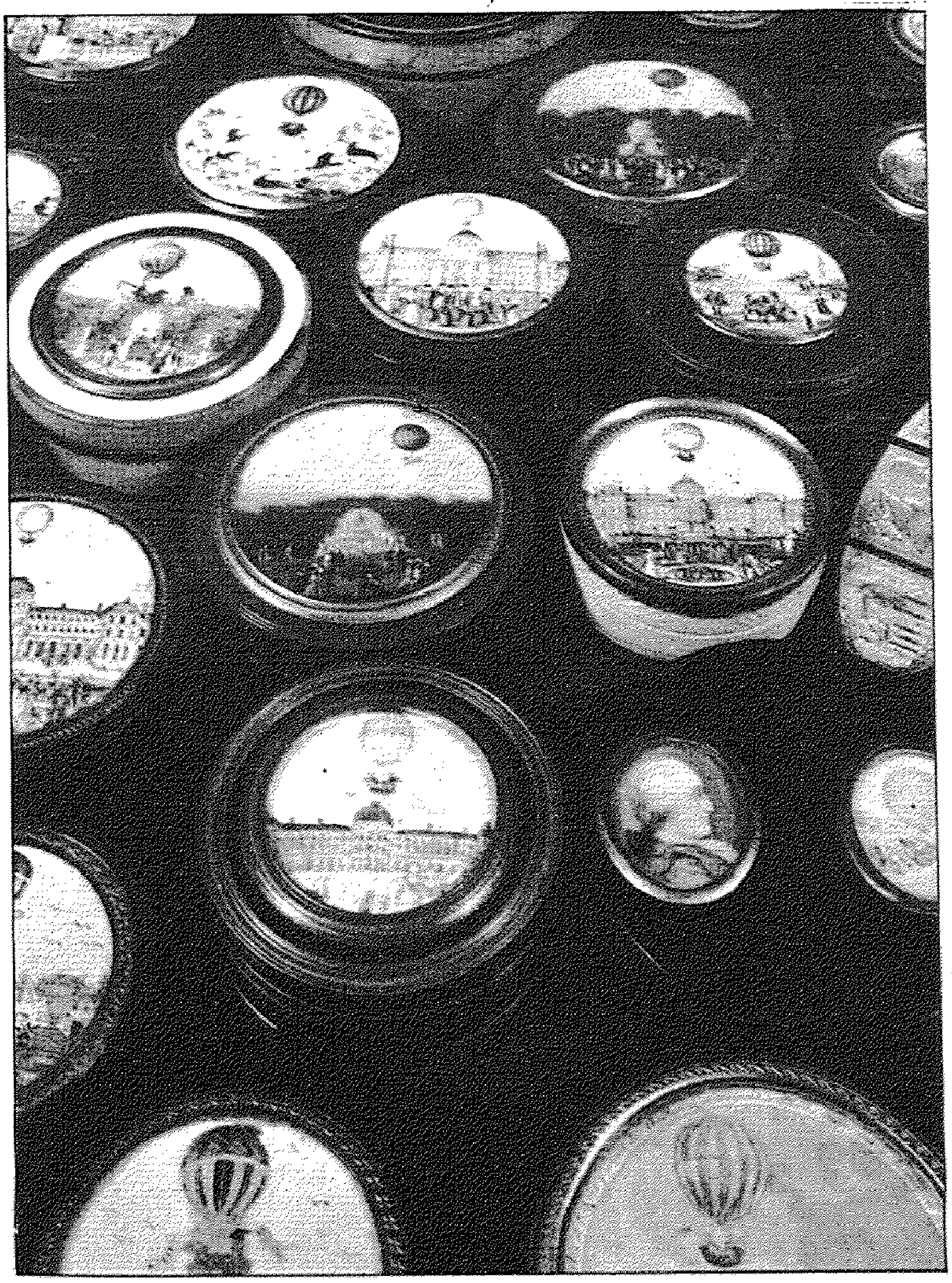
حلقا فوق السين، والمدرسة الحربية، وشارع سيفر، ثم حطا على (بوت اوكاي) (على بعد خطوات من باب ايطاليا).

بعد اسبوعين قام طياران آخران بالصعود بمنطاد نفخ بالهيدروجين. وكان اول منطاد تستخدم فيه هذه المادة.

الاحتفالات

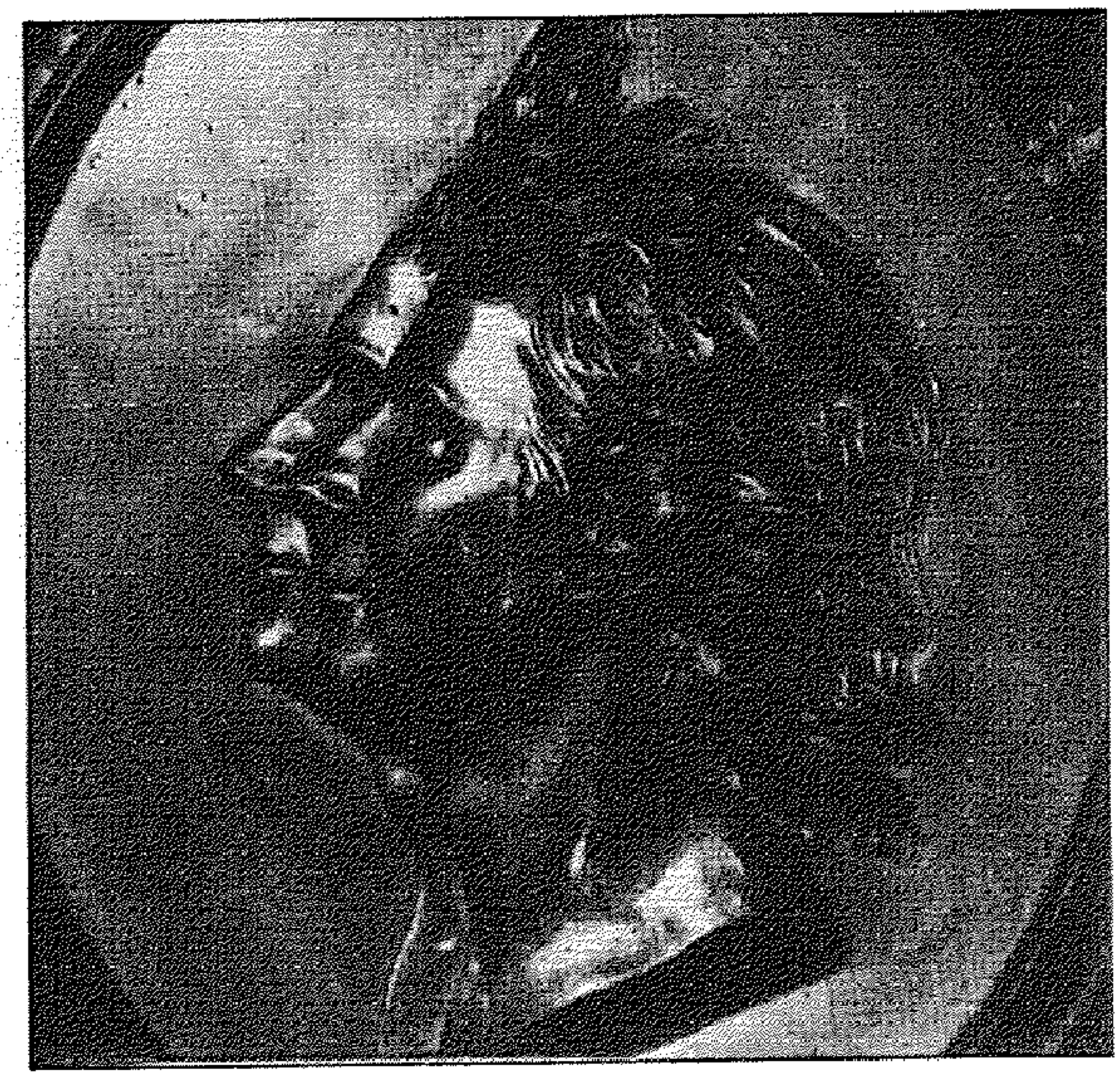
اكثر من اربعين تظاهرة علمية وفنية اعدت في الذكرى المئوية الثانية لقيام اول منطاد في الارتفاع عبر الفضاء: إرسال مناطيد الى الفضاء، مع ابطال المناطيد في العالم — إطلاق مناطيد بأنواع الغاز الت استعملت منذ الاطلاق الأول — حلقات علمية في اكاديمية العلوم — تدشين متحف البالونات في «مودون» — توزيع كاتالوج مجموعة شارل فولتون — عرض تحف أثرية لها علاقة بالمنطاد (أربعمائة قطعة: طوابع، لوحات، أوان، بورسلان، خزفيات..الخ). يتبع ذلك معرض في (غران بالي) على مساحة ١٣٠٠٠م٢، تعرض فيه نماذج لأدوات غزو الفضاء، منذ منطاد مونغولفيي حتى الأقمار الاصطناعية. وسيعرض نموذج مونغولفيي بالحجم الطبيعي الذي اطلقه الأخوان مونغولفيي، ومنطاد من عام ١٨٧٠ قطره ستة عشر مترا، والمنطاد (لافرانس) (١٨٨٤) الذي ما يزال على حاله تقريبا، وطوله ٥٤ مترا هذا بالاضافة الى تحف فنية استوحت المنطاد.

لقد كان المنطاد واوائل من صنعوه أو طاروا به مصدر وحي لكثير من الفنانين والحرفيين وصانعي الأواني: أثاث البيوت، الساعات، القماش، الخزفيات، البورسلان، اللوحات الجدارية، الطوابع. ثمة لوحات غدت نادرة الآن، ومرتفعة الأسعار. كذلك الطوابع والخزفيات. ذلك ان كل متحف يطمح الى ان يضم بعض تلك التحف. مع العلم ان

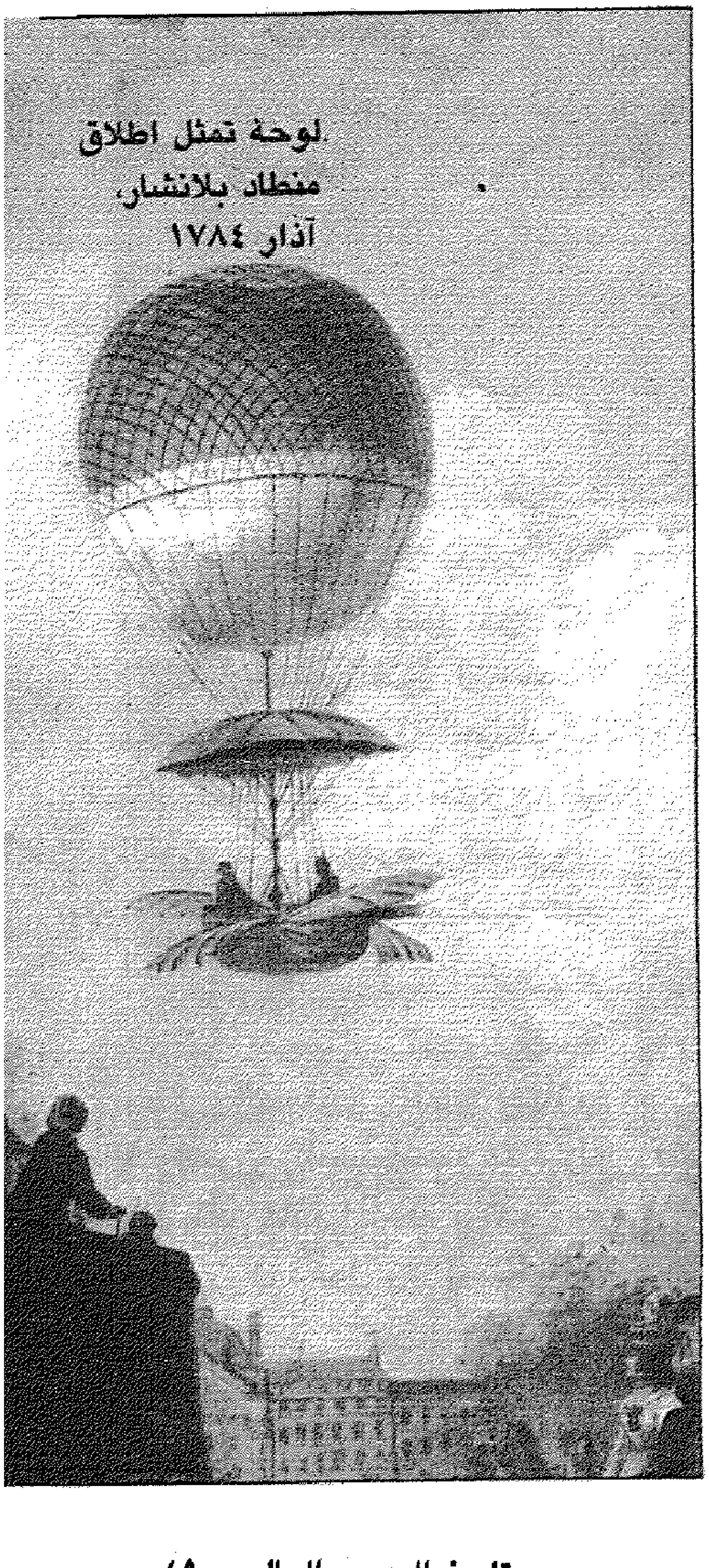


□ كل محاولات الطيران بالمنطاد منذ ١٧٨٣ مرسومة على علب خزفية في متحف بورجي.

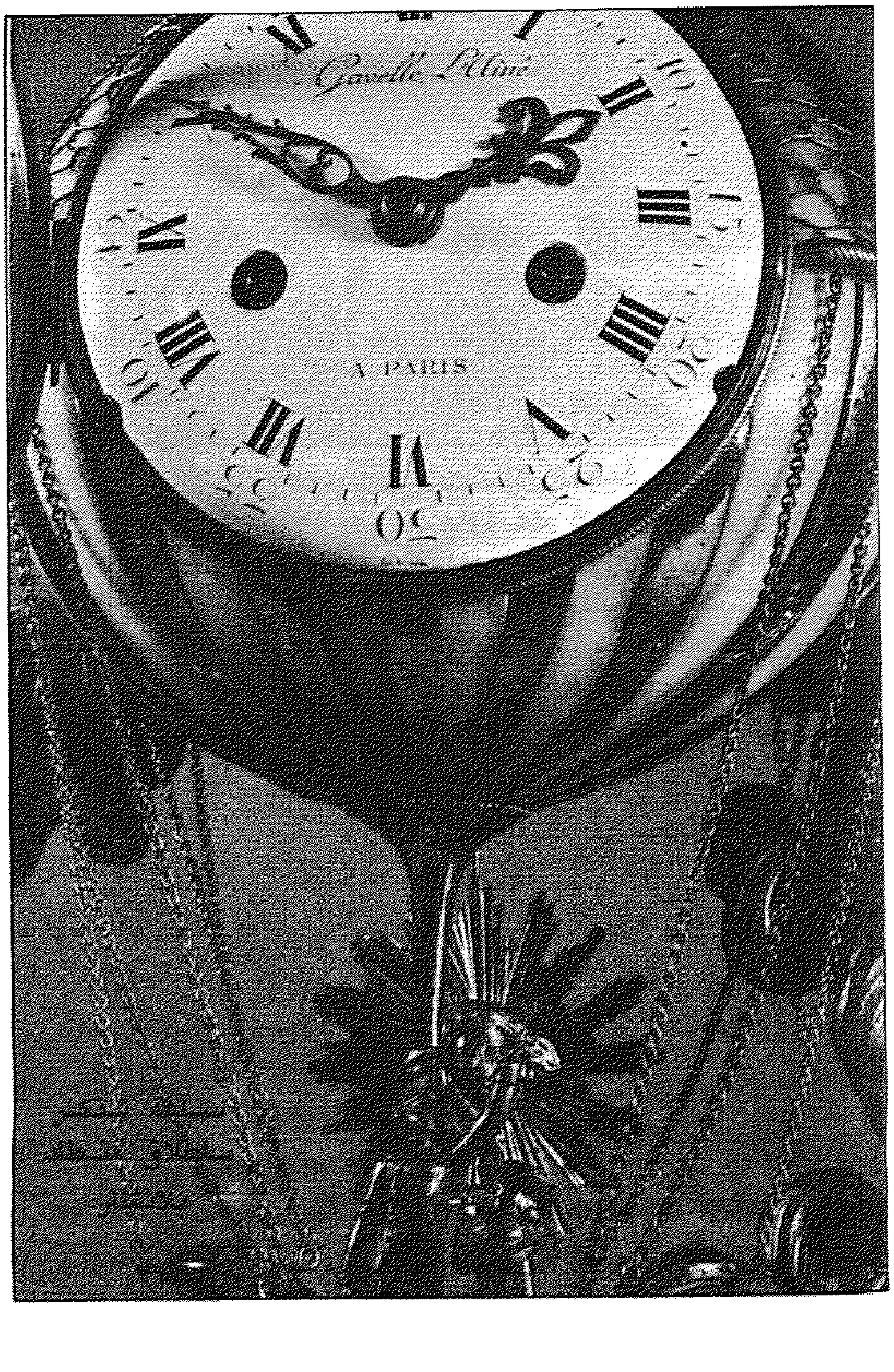


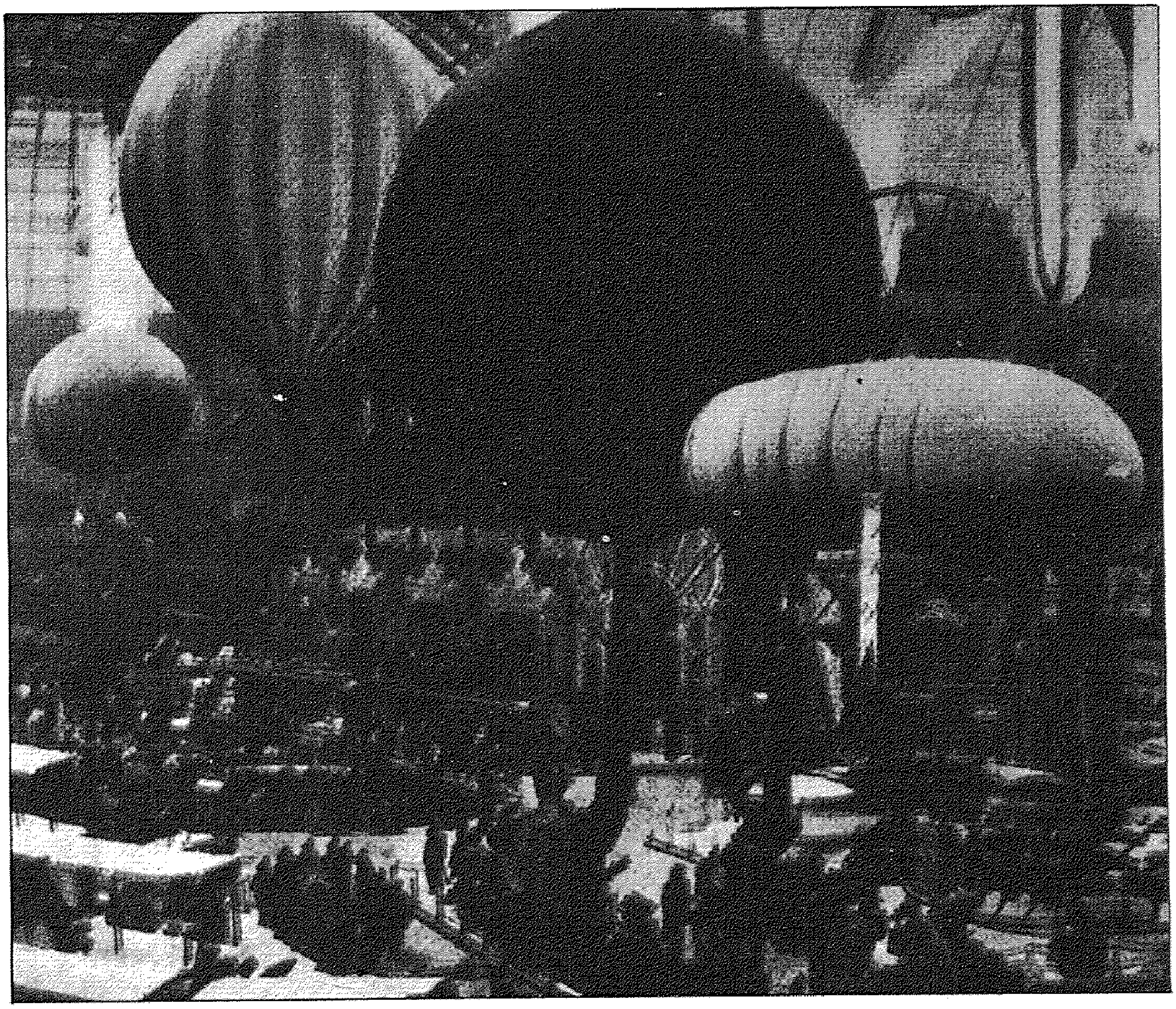


□ رواد الفضاء: الأخوان مونغولفيـي على ميدالية برونزية ـــ بيلاتر دوروزيي: تمثال نصفي.



لوحة تمثل اطلاق منطاد بلانشار، آذار ١٧٨٤



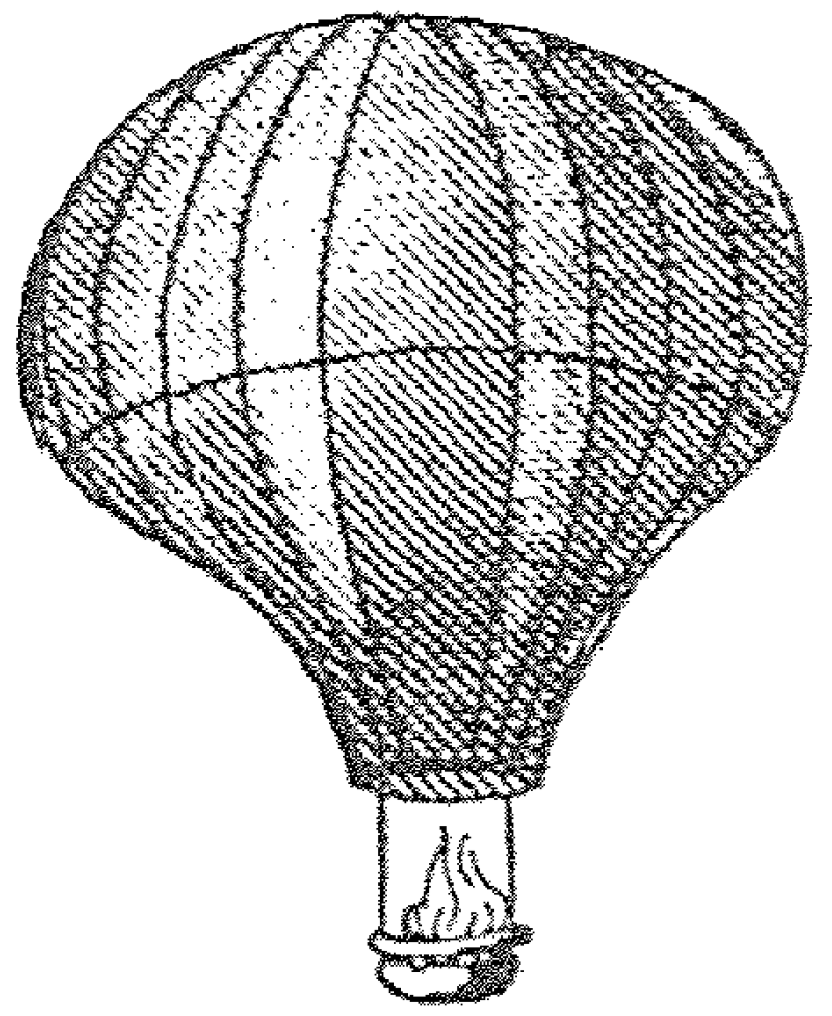


□ اول معرض في (غران بالي) عام ١٩٠٩، للمناطيد. في هذا المكان يقام المعرض الحالي في الذكرى المئوية الثانية لاطلاق المنطاد.

متحف بورجي لا يمكن ان يجارى في ما يضم من تلك الآثار الفنية. غير ان معظم مقتنياته ما تزال في الصناديق، ولم يتح لها ان تخرج الى النور، لذلك ستعرض كجزء من التظاهرات الفنية بمناسبة هذه الذكرى.

ثمة منحوتات تروي قصة رجال الجمارك الذين جاؤوا يراقبون البضائع المنقولة بالمنطاد، فاذا المنطاد يرتفع وهم واقفون في ذهول ولا يستطيعون أمرا.

وثمة منحوتات اخرى تصور احتفاء الجمهور مع الملك

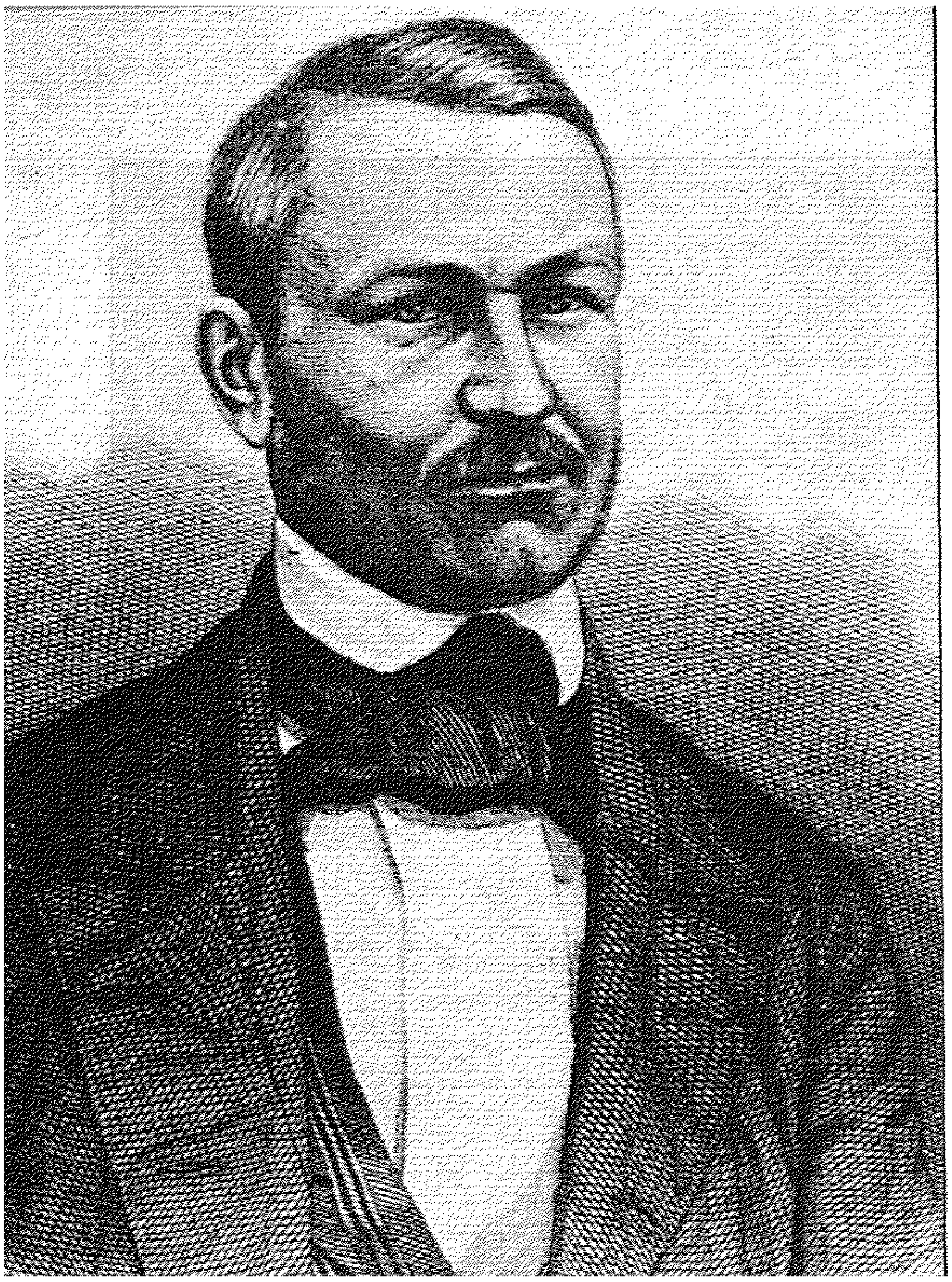


بطيران المنطاد، والوليمة على شرف الرواد، و«الكريما الفضائية» التي قدمت، وغير ذلك من الطرف التي اوحتها المناطيد.

من المجموعات الشهيرة الفنية، تلك التي امرت ماري انطوانيت بصنعها: واشهرها الساعة التي كانت تضعها الى جانب سريرها. كذلك ساعة مونغولفيي المصنوعة من المرمر الأبيض والبرونز المذهب، وقد رفعت على عمودين صغيرين.

هذا الى مجموعات كثيرة تصور حالات مختلفة: الغذاء، النزهة، الشراب، الخ.. وكلها ثمين جدا. ■

أبحاث هاينريش بارت في تاريخ الإسلام وانتشار اللغة العربية في افريقيا



☐ تصوير هاينريش بارت (Heinrich Barth) عن كتاب: Frühe Wege zum Herzen Afrikas Turris-Verlag, Darmstadt, 1969.

ميلكس كلاين فرانكه

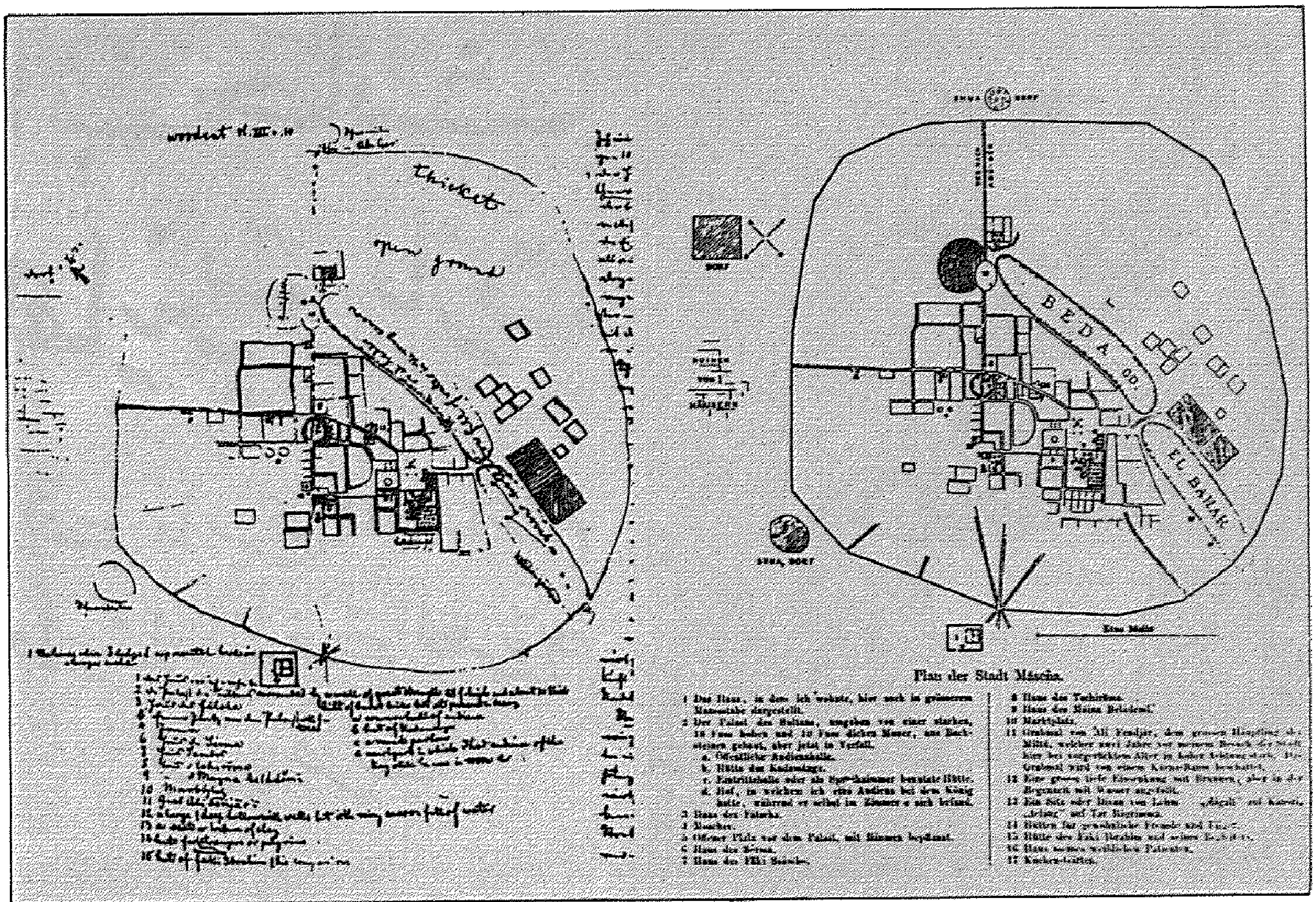
الحلقة الأولى

ولد هاينريش بارت البحاثة والرحالة الألماني عام ١٨٢١، وتوفي عام ١٨٦٥، وقد نشرت دار نشر فرانس شتاينر بقيسبادن في عام ١٩٦٧ كتاباتذكارياً لمناسبة مرور مائة سنة على وفاته. ومع أن بارت كان يكثر من التجول والترحال في الاناضول واوروبا الشرقية والجنوبية وقد ألف عن رحلاته ما ألف من الكتب والمقالات، فسياحته الأكثر شهرة هي الرحلة التي قام بها في افريقيا بين عامي ١٨٤٩ و١٨٥٥، والتي جمع اثناءها معلومات كثيرة حول تاريخ أهل افريقيا الشمالية والمركزية وعاداتهم وتقاليدهم كما انه جمع الأخبار الجغرافية والمتعلقة بالعلوم الطبيعية على العموم وهذا اول كتاب الف في اوروبا حول هذه المنطقة غير المعروفة.

ونظن ان اكتشافات بارت في افريقيا وملاحظاته في حضارة السكان المسلمين في منطقة تشاد والنيجر مهمة جدا في يومنا هذا حينما نشاهد الاسلام في افريقيا ينتشر ويزداد قوة. لذلك نود أن نقدم لقرائنا ورقة من تاريخ الاكتشافات الألمانية في افريقيا الغربية والشرقية.

وعلى القارىء الا ينسى ان كلمة «السودان» كانت تستعمل في زمان بارت لتشير الى المنطقة المركزية في افريقيا، اي ما يلي تشاد حتى مملكة نيجيريا غربا ومالي شمالا، ولم تطلق ابداً على السودان الذي نعرفه اليوم!(*)

(*) عن كتاب: *Heinrich Barth. Ein Forscher in Afrika. Leben. Werk. Lesitung* Herausgegeben von Heinrich Schiffers. Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1967.



□ خريطة لمدينة «ماسينيا» (Masena)، مركز الحكومة في مملكة باغرمي، عام ١٨٥٢؛ على اليسار صورة تخطيطية كما رسمها بارت في يومياته ١٨٥٢؛ على اليمين نسخة مصححة مطبوعة منها كما نشرت في كتاب بارت حول سياحته.

عندما جاب هاينرش بارت (Heinrich Barth) في منتصف القـرن المـاضي ربوع السودان وراح يستكشف بقاعه، لم تكن هذه البلاد الواسعة معروفة جيداً في اوروبا ولا تاريخها القديم والحديث ولا أوضاعها الاجتماعية والثقافية المعقدة. وكان علم اللغات الشرقية لا يزال حقلا علمياً فتيا، كما استطاع بارت أن يعتمد في حالات قليلة جداً على أبحاث ودراسات تمهيديـة سابقـة. فقبل بـارت كان الرحالون قد اخترقوا افريقيا حتى اواسطها. ولكن بارت يتفوق عليهم جميعا كعالم حق. فقد جمع ما بين البحث النظري والعملي على أحسن وجه.

— ١ —
سيرته

ولا نعرف الشيء الكثير عن دراسات بارت الشرقية. فكما كتب ستانلي ــ بول (Stanley Lane-Poole) عن حيـاة حميـه، المستشـرق المعـروف والمعاصر لبـارت، إدوارد ويليام لين (Edward William Lane)، فقد قام صهر بارت، شوبرت (Schubert)، بكتابة سيرة حياة حميه بارت، وفيما عدا خبراً مختصرا مفاده ان بارت كان قد درس مدة اربعة اشهر على يدي استاذ للاستشراق في لندن، فاننا لا نعرف شيئا اكثر من ذلك عن دراسته الشرقية. وكان بارت على صلة بعدد من المستشرقين: كجون نيكولسون (John Nicholson) في بنريث (Penrith)، وبلاو (Blau) ورالفس (Ralfs). ولا نعرف إن كان قد تعرف أيضاً على لين (Lane) في انكلترا. وكان بارت قد قرأ كتابه «عادات وتقاليد المصـريين الحديثين» (Manners and Customs of the Modern Egyptians) الذي كتبه بعد أن اقام عامين في مصر، كما اشار إليه واقتطف منه في كتابه «رحلات في افريقيا» (Reisen in Afrika) ويتشابه الباحثان كثيرا في موقفهما الذي ينطوي على احترام الحضـارات الغريبـة عليهما. وفي مقدمة كتاب لين المذكور، يقول المؤلف (ص XI):

«لقد عاشرت المسلمين من جميع طبقات المجتمع بوجه خاص: فكنت اعيش كما يعيشون واتكيف لعاداتهم العامة؛ ولكي اجعلهم يألفونني ويتخلون عن أي تحفظ تجاهي في كل موضوع، فقد كنت اظهر موافقتي لهم في الراي كلما سمح ضميري بذلك، وكنت، في أغلب الحالات الأخرى، أتحاشى التعبير عن مخالفتي في الرأي، كما أتحاشى القيام بأي عمل من شأنه أن يثير اشمئزازهم؛ فكنت امتنع عن تناول الطعام الذي يحرمه دينهم، وعن احتساء الخمر، وما شابه ذلك؛ كما كنت اتجنب العادات التي لا تروق لهم كاستعمال السكاكين والشوكات اثناء تناول الطعام».

وبطريقة مشابهة لذلك يتحدث بارت في مقدمته (ص XXIX وما تلاها)، فيقول إنه يرى أن من «الفطنة أن اتكيف في الملابس والأمور الأخرى لعادات أهل البلاد، وذلك بارتدائي زياً نصفه عربي ونصفه سوداني، يكون اكثر ملاءمة لمناخ البلاد، كما يبدو في نظر أهل البلاد أكثر حشمة من ملابس الأوروبيين. بل تبدو بعض التصرفات في حياة الأوروبيين اليومية عملا مشينا في نظر المسلمين، بحيث أن الرحالة المنفرد الذي لا حول له ولا قوة والذي يسعى إلى النجاح في مشروع لا يخلو من النبل، سيكون بعيداً عن الحكمة إذا رفض التكيف بهذا الخصوص مع مشاعر أهل البلاد وأعرافهم.. ومن الجهة الأخرى فإن بعض عادات المسلمين مليئة بالورع الحقيقي، بحيث انني اعتقد أن الرحالة المسيحي يستطيع ان يتكيف بازائها دون ان يؤثر بذلك على خلقه المسيحي بأي شكل من الأشكال».

اما ما يتعلق بدراسات بارت الشرقية، فقد كان، بوجه عام، وعلى ما يبدو، عصاميا. وكانت اللغة العربية بالنسبة له وسيلة للتعرف على البلاد وأهلها. ولو استخدم اللغة العربية الفصيحة في السودان لما استطاع التفاهم مع أهل البلاد، حيث أن السكان المسلمين لم يكونوا يتمتعون بوجه عام بمستوى ثقافي رفيع. ولذا فقد كان عليه أن يتعلم اللهجة العامية للوصول إلى غايته. وكان بوسع بارت التفاهم بدون جهد بالعربية. وبمناسبة مثوله بين يدي السلطان عبد القادر في ميسينيا، يكتب بارت(١): «ألقيت كلمتي بالعربية، بينما راح صديقي الأعمى سمبو يترجم حديثي إلى لغة البغرمي كلمة كلمة، كما كان يعطيني ايماءة بين حين وآخر، كلما بدا له انني استخدمت تعابير قوية جداً». أما هذه «التعابير القوية جداً» فهي على ما يبدو اصطلاحات لغوية من العربية الفصحى، ممزوجة باللغة العامية، كانت تبدو مثيرة جدا للمترجم.

وبالاضافة الى العربية كان بارت يتحدث كذلك لغات الفولبه والهاوسا(٢) والكانوري(٣). ورغم موهبته الكبيرة لتعلم اللغات فانه لم يقم بنشر النصوص العربية التي جمعها وإنما كلف المستشرقين المذكورين أعلاه بذلك. وبطبيعة الحال فان تصحيحات بارت لهذه الترجمات التي كلف بها غيره لم تكن صحيحة دائما؛ كما أن الوثائق والايصالات التي كتبها بارت بالعربية لا تخلو أحيانا من اخطاء تتنافى وقواعد اللغة العربية. ولكن بارت كان على أي حال قادرا على قراءة كتابات ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب وكذلك المخطوطات التي ذكرها، كتزيين الورقات(٤)، وتاريخ السودان(٥)، والانفاق الميسور(٦) مثلا، قراءة فاحصة نقادة ومتمكناً من تقييمها لأغراض أبحاثه الخاصة ــ وهذا مجهود لا يجوز الاستهانة به. وهناك عدد قليل من الرحالين العلماء الذين يستطيعون ان يتباهوا بميزة اتقان اللغات واللهجات المختلفة للبلاد التي يجوبونها لأغراض الاستكشاف ونذكر في هذا المجال بوجه خاص المستشرق ماكس فرايهر فون اوبنهايم (Max Freiherr von Oppenheim) الذي عين عام ١٨٩٤ رئيسا لبعثة استكشافية الى بحيرة تشاد، والذي أشاد في كتابه «رابح ومنطقة تشاد» (Rabeh und das Tschadgebiet) (Berlin, 1902) بأعمال بارت واكتشافاته(٧).

لقد قام بارت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة عن السودان. ولم يستفد من أبحاثه واكتشافاته حقلا الجغرافيا والاثنولوجيا فحسب، وانما افاد الاستشراق من ذلك بنفس القدر. فلم يبحث أحد من قبله تاريخ الاسلام في السودان كما فعل هو. ولكن كتابه «رحلات في افريقيا» لا يعتبر مصدرا لا ينضب بالنسبة للمؤرخ فحسب، بل وكذلك بالنسبة لعالم اللغة بين المستشرقين. ولو اعتبرنا الأمر من وجهة نظر

البحث العلمي الحديث فان لدينا اليوم، وخاصة في علم اللغة، معرفة تفصيلية اكثر دقة. وقد زادت المصادر الجديدة المكتشفة في عشرات السنين التالية من معرفتنا هذه. ومن الجهة الأخرى، لا بد أن نأخذ بنظر الاعتبار أن بارت اراد نتيجة الالحاح الشديد من جميع الجهات أن ينشر كتابه «رحلات في افريقيا» في أسرع وقت ممكن ــ فقد طبع عمله المكون من خمسة مجدات بعد عودته بعامين، بل ان النسخة الانجليزية من مؤلفه ظهرت قبل ذلك. ولذا فان بعض الأمور التي تستحق اهتماما اكبر لا تظهر الا في الهوامش.

ليس الغرض من هذه الدراسة سد الثغرات الموجودة في تفاصيل بارت بطريقة منظمة، ولا تصحيح هذه التفاصيل حيثما يبدو ذلك ضروريا. إذ يجب ان ينظر الى عمل بارت أولا من زاوية عصره، وإنه لمن غير المجدي قياس هذا المؤلف بمقياس غير المقياس التاريخي. وسأقتصر فيما يلي على معالجة الحقلين اللذين يعتبر استكشافهما على يدي بارت ذا أهمية قصوى بالنسبة للاستشراق، واعني بهما: تاريخ الاسلام، وانتشار اللغة العربية في السودان.

ــ ٢ ــ

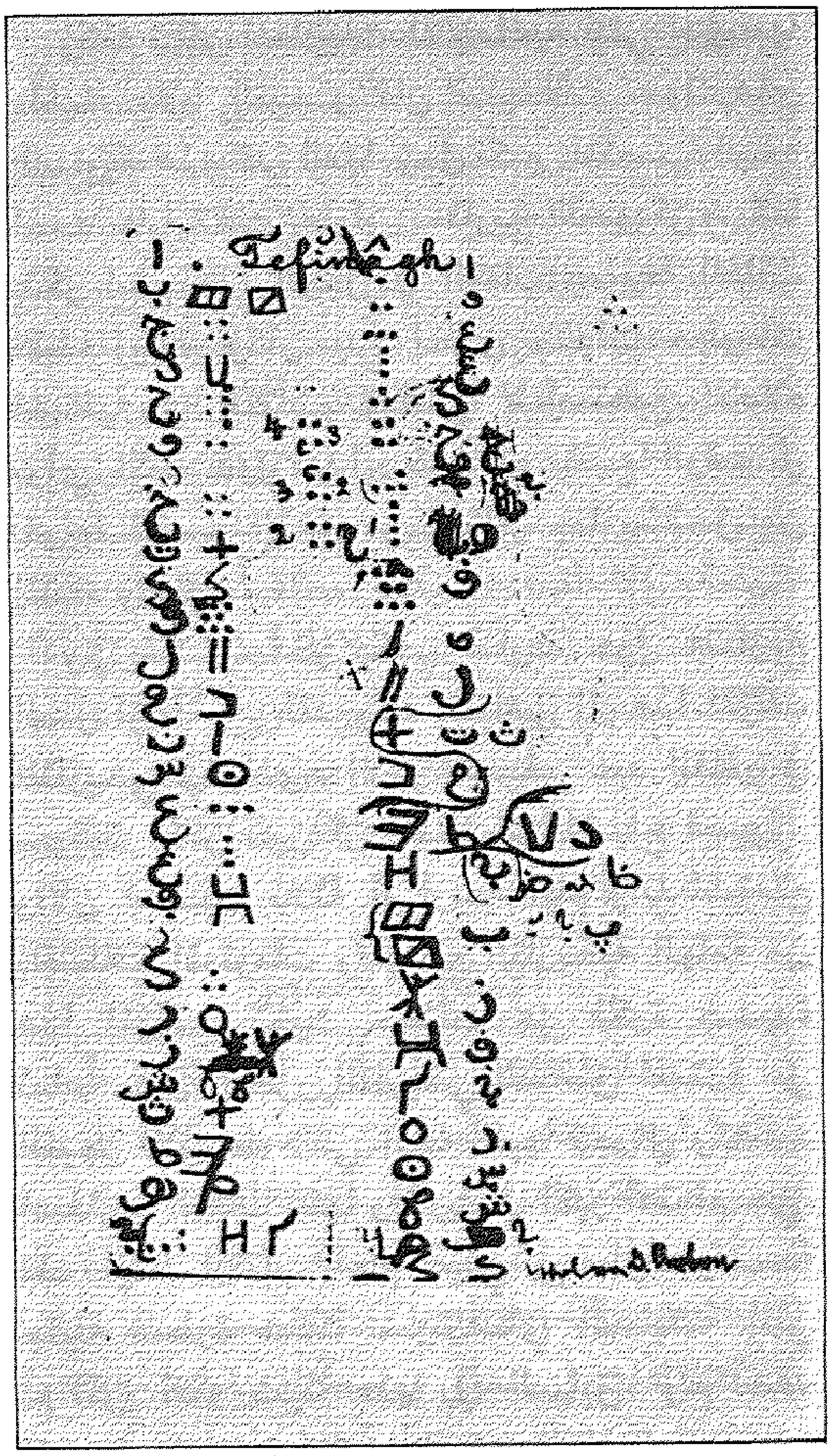
الدراسات الخاصة بالاسلام والمسلمين في السودان

عند ذكر كلمة الاسلام، يجب ان نميز هنا امرين مختلفين: الاسلام كدافع تاريخي سياسي، والاسلام كنظام ديني. ومنذ بدايته الأولى انطبع الاسلام بصلة قوية بالحياة الدنيا. فلم يكن الدين الجديد مجرد «صراط مستقيم» يسير عليه المؤمن بثقة وأمان إلى سعادة الآخرة وجنة الخلد فحسب، وانما تعهد بالاهتمام بحياة المؤمنين الدنيوية ونظم علاقاتهم ومعيشتهم الاجتماعية بنظم وقوانين دقيقة. وكانت المجتمعات الاسلامية الفتية منظمة تنظيما شديدا، كما أنها شكلت، بالنسبة للخارج على الأقل، جبهة موحدة ــ وصارت بذلك سلاحا قويا تجاه شعوب كانت وهي في ذروة تطورها متماسكة تماسكاً ضعيفا بفعل تقاليد قديمة، مما ادى الى انهيارها امام موجة الفتح الاسلامي.

وتمت الفتوحات الاسلامية بصورة عاصفة في شمالي افريقيا التي اعتنقت دين الفاتحين بسرعة. وبلغ سلطان الفاطميين في القرن العاشر من فلسطين حتى المغرب الأقصى. اما في اتجاه الجنوب، نحو قلب افريقيا، فقد كان تقدم الاسلام ابطأ بكثير. وظلت ممالك سونغاي وغانا وكانم القديمة ــ كما ظلت غيرها ايضا ــ في مأمن من التغيرات السياسية الجارية في شمالي افريقيا، تحميها صحار يصعب اختراقها. غير أن التجار والرحالين خلقوا شيئا من الاتصال منذ القرن التاسع بين العرب في الشمال والسكان السود في داخل القارة الافريقية. ولكن الغزوات الحربية لم تبدأ إلا بظهور المرابطين. وكان هؤلاء من البربر القاطنين في الصحراء الكبرى من قبائل اللمتونة، التي أخذت تزيد من عنف غزواتها الحربية باسم الجهاد في سبيل الله وتحت راية الدين الجديد. وأقام هؤلاء على امتداد الحدود الجنوبية للبقاع التي فتحوها لدين الاسلام حصونا وروابط[8] عسكرية، كانوا يتدربون فيها تدريبا دينيا وعسكريا، وكانت تخدمهم كقواعد ينطلقون منها في غزواتهم للبلاد المجاورة.

وحتى أيام حياة بارت كان بعض العرب في هذه البقاع يتفاخرون بكونهم من نسل المرابطين، ويذكر بارت نفسه كيف أنه قابل عربيا زعم انه سليل بربر اللمتونة المذكورين[9]: «... وبعد ذلك قابلتنا فئة اخرى من المسافرين، كان بينهم رجل لمتوني، وهو مغربي، مزيج من دم عربي وبربري من قبيلة اللمتونة القديمة، التي، بعد أن كانت في الماضي تشكل العنصر الرئيسي للمرابطين الاقوياء، استوطنت الآن في مجموعات صغيرة على شاطىء المحيط الأطلسي».

ويخبرنا بارت كذلك ان سلالة هذه القبيلة البربرية تعيش منفصلة عن بقية السكان، في أماكن سكنية خاصة. وبلغ بارت أثناء ركوبه في الصحراء أحد مرابع «المرابطين» ويقول حول ذلك[10]: «وكنا قد قطعنا ميلين في هذا الوادي عندما نزلنا في مكان فسيح مكشوف محاط بأشجار الأبيسكا الخضراء. وكان يقع في الجانب الآخر من تين طرح عوده، وهي قرية المرابطين أو الأينسلمين، وهي تمتد في صف طويل على امتداد الهضاب المنخفضة عند بداية السلسلة



□ حروف (Tefinagh) للطوارق في الصحراء الوسطى كما رسمها هاينرش بارت في يومياته وقايسها بالحروف العربية. وهذه اليوميات محفوظة الآن في باريس.

الجبلية. وتتألف القرية من حوالي المائة منزل، وهي في الغالب اكواخ بنيت من الاعشاب وسعف النخيل، بينما لم يبن الا القليل منها من الحجر. ورغم صغرها، الا ان القرية هامة بالنسبة للمواصلات بين شمالي افريقيا ووسطها، تلك المواصلات التي لا تتم الا بحماية اعتبار أولئك الرجال العلماء المتدينين وذلك بأمان يثير الدهشة اذا ما اعتبرنا الطبيعة الوحشية اللصوصية التي يمتاز بها سكان هذه البقاع... ورغم ان الاينسلمين يسمون أنفسهم «اتقياء ورعين»، إلا انهم لم يحرموا انفسهم من حاجات هذا العالم؛ بل على العكس من ذلك، فهم يحافظون على حياتهم ووجودهم بطموحهم، ومكائدهم وتصرفاتهم العامة بحيث يمارسون تأثيرا هاما على أوضاع البلاد».

وفي مكان آخر يصف بارت خلف المرابطين المزعومين اولئك على الشكل التالي[١١]: «وكانت ثياب اغلب الرجال بيضاء كذلك، ولكن اكثر صفة مميزة لهم كانت ان كثيرا منهم كانوا يرخون شعورهم في جدائل طويلة. وهذه علامة على انهم من الأينسلمين، أو المرابطين (أي الأولياء)، وهي صفة يدعونها لأنفسهم رغم عاداتهم البعيدة عن الصرامة والتزمت. ورغم انه لا مدرسة لهم، الا انهم فخورون بتنصيبهم معلماً في مسجدهم الذي لا حاجة به أن يكون فخماً عظيماً».

ولكن لنعد من النسل إلى المرابطين الأصليين في القرن العاشر الذين خضعت لغزواتهم وما تلاها من غزوات ممالك سونغاي وغانا وكانم القديمة. واعتنق رعايا هذه الممالك الوثنية العقيدةالجديدة — رسمياً على أي حال — سواء أتم ذلك بالاختيار أم بالقسر أم بالانتهازية. ونحصل على خبر حول ذلك في تاريخ البربر[١٢] لابن خلدون[١٣]. وبحث بارت باهتمام وعناية كبيرين التاريخ المتحرك للممالك القديمة في السودان وأثبت جداول اجمالية ادرجت فيها الأحداث التايخية في السودان الغربي من أول أخبار المصادر التاريخية حتى العصر الحاضر بشكل واضح شامل.

المصادر

واستخدم بارت كمصادر لتاريخ السودان القديم أعمال المؤرخين والجغرافيين العرب بالقدر الذي كانت منشورة فيه في عصره. وهي مؤلفات ابن حوقل[١٤]، والبكري[١٥]، والادريسي[١٦]، وابن بطوطة[١٧]، وابن سعيد[١٨]، والوزان الزياتي[١٩].

والى جانب هذه الأعمال النموذجية فقد استخدم بارت كمصادر له مؤلفات «رحالي القرن الرابع عشر»[٢٠] إلا أنه لا يذكر المؤلفين ولا عناوين الكتب مع الأسف.

إن ابحاث بارت في تاريخ السودان ذات قيمة لا تقدر لأنها تعتمد الى حد بعيد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد وكانت مجهولة في اوروبا تقريبا. وقد قام بارت بفحص النصوص ومقارنتها وبالتدقيق في صحة معلومات الجغرافيين العرب

وبتقديم افتراضات وتعليلات وتصويبات حيثما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف في المعلومات. اما هذه المخطوطات فهي ما سبق وذكرناه: «تاريخ السودان»، و«تزيين الورقات بجمع بعض ما لي من الأبيات»، و«الانفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرور»[٢١].

ولم تتح لبارت أثناء رحلته في افريقيا امكانية دراسة المخطوطات في جميع تفاصيلها. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الظروف الصعبة التي احاطت به للتمكن من القاء النظر على هذه المخطوطات لدهشنا لاقتطافه منها وتقييمها بهذا التفصيل والتوسع. وهذا ما يفسر ايضا الأخطاء التي وقع فيها بارت بسبب اسراعه في الاطلاع على المخطوطات، وهي الأخطاء التي نتعرض لها فيما بعد.

«تاريخ السودان»

يكتب بارت فيما يكتب حول هذا المؤلف[٢٢]: «قبل سفري في مناطق النيجر لم تكن تعرف أية معلومات تتعلق بتاريخ هذه البقاع المتسعة الهامة، باستثناء بعض الأوضاع المتفرقة القليلة التي جمعها الجغرافي الانجليزي الرفيع العلم والحاد النقد وليليام ديسبورو كولي (William Desborough Cooley) بكثير من النبوغ مما أوجزه واستقاه استاذي ومعلمي الممتاز كارل ريتر (Karl Ritter) من البكري، وتاريخ ابن خلدون، ورواية ليو الغامضة المشوشة عن الإيشيا الكبير ومن تلميح موجز جداً عن احتلال مولاي أحمد الذهبي لتمبوكتو وجارو مما أورده بعض الكتاب الاسبان[٢٣]. ولكنني كنت محظوظا جدا إذ سنحت لي فرصة الاطلاع على تاريخ مملكة سونرهاي الكامل ابتداء من اول اثار الوثائق التاريخية المسجلة حتى عام ١٦٤٠ من تاريخنا الميلادي. ولكن الظروف حالت لسوء الحظ دون حصولي على نسخة كاملة من هذه المخطوطة التي تشكل مجلداً من حجم رباعي ضخم، وكان بوسعي فقط خلال الايام القليلة التي اتيحت لي للاطلاع على هذا المؤلف اثناء اقامتي في غاندو ان اقتطف نصوصاً قصيرة من فصول الكتاب التي بدت لي الأكثر اهمية من الناحيتين التاريخية والجغرافية.

وكما تذكر المعلومات الاجماعية التي يدلي بها علماء بلاد النيجر فان سجلات سونرهاي السنوية هذه قد ألفها رجل كبير المنصب اسمه احمد بابا تحت عنوان: «تاريخ السودان»، كما يذكر اسم هذا الرجل في الكتاب بصيغة الغائب فقط. ويبدو وكأن يداً اخرى سجلت معلومات اضافية في الكتاب، ولكنني لا أستطيع الادلاء برأي اكيد حول هذا، حيث لم يتسع الوقت لي لقراءة القسم الأخير من المؤلف بما يستحق من انتباه وعناية».

وفي مكان آخر يكتب بارت حول «تاريخ السودان»[٢٤]: «لقد وجه انتباهي الى هذا المؤلف التاريخي في بادىء الأمر صديقي عبد القادر في سوكوتو ولكن دون أن يتمكن من اشباع فضولي. والآن امضيت ثلاثة أو أربعة ايام وأنا استمتع باقتطاف المعلومات والمقاطع التاريخية الهامة من هذا المؤلف، بحيث حصلت على فكرة جديدة تماماً حول التطور التاريخي للمناطق الممتدة على النيجر الأوسط، التي اتجه اليها تجوالي وكشفت أسفاري النقاب عنها واثارت في أكبر اهتمام حي. فقد أيقظ الكتاب امام عيني وبخطوط واضحة جليلة سطوة مملكة سونرهاي السابقة التي لم أكن أفقه شيئاً عنها في السابق، ولم آسف لشيء أسفي لعدم توفر الوقت الكافي لدي لنسخ المخطوط بكامله، بحيث اكتفيت باقتطاف المقاطع التي بدت لي الأهم من الناحية الجغرافية والتاريخية دون أن اتمكن من اعارة الاهتمام الكافي للترابط الخارجي بين هذه المقاطع»[٢٥].

اما مؤلف هذا الكتاب فليس أحمد بابا[٢٦]، كما اعتقد بارت خطأ[٢٧]، وإنما تلميذه السعدي من تمبوكتو[٢٨]. ويحتوي الكتاب اخباراً هامة عن شعوب السودان، السونغاي، والميللي والطوارق[٢٩].

تزيين الورقات

إن مؤلف هذا العمل هو عبد الله[٣٠]، اخ غير شقيق للمصلح الكبير عثمان بن فوديو. وبعد وفاة هذا عام ١٨١٧ ورث عبد الله المناطق الغربية لمملكة فولبه. وتزيين الورقات هو موجز لتاريخ مناطق فولبه هذه. وعندما مكث بارت في ربيع عام ١٨٥٣ في سوكوتو وقعت بين يديه

مخطوطة لهذا المؤلف. ويكتب حول ذلك(31): «وخلال هذه الفترة كلها كنت اقضي اوقات فراغي بقراءة نصوص مخطوط اتاح لي أول اطلاع على تاريخ الجزء الغربي من مناطق فلاني هذه. اما المؤلف فهو عبد الله، اخو عثمان، المصلح، الذي حصل على الجزء الغربي من المنطقة المفتوحة كنصيب له. ومع أن الكتاب(32)، الذي عنوانه «تزيين الورقات»، يحتوي بالاضافة إلى مادة دينية كثيرة، على بعض المعلومات التاريخية الهامة، إلا أنه لم يكف مطلقاً لارواء ظمئي الشديد إلى المعرفة». وخلافا لهذا القول، فان المؤلف موجز تاريخي يعالج تاريخ مملكة الفول سوكوتو منذ عام ١٧٨٤، بينما لا تلعب المادة الدينية فيه، كما يقول (A. Brass)(33)، إلا دوراً ثانوياً مع الأسف.

الانفاق الميسور

إن هذا المؤلف التاريخي الذي كتبه محمد بيللو، أحد أبناء عثمان بن فوديو، كان قد نشر بصورة مقتطفات على يد (A.V. Salame) مع ترجمة انجليزية في كتاب (Denham-Clapperton): «قصص الرحلات والاكتشافات في شمالي ووسط افريقيا»، (Narrative of travels and discoveries in Northern and Central-Africa)، لندن، ١٨٢٦، كملحق على الصفحة ١٦٦.

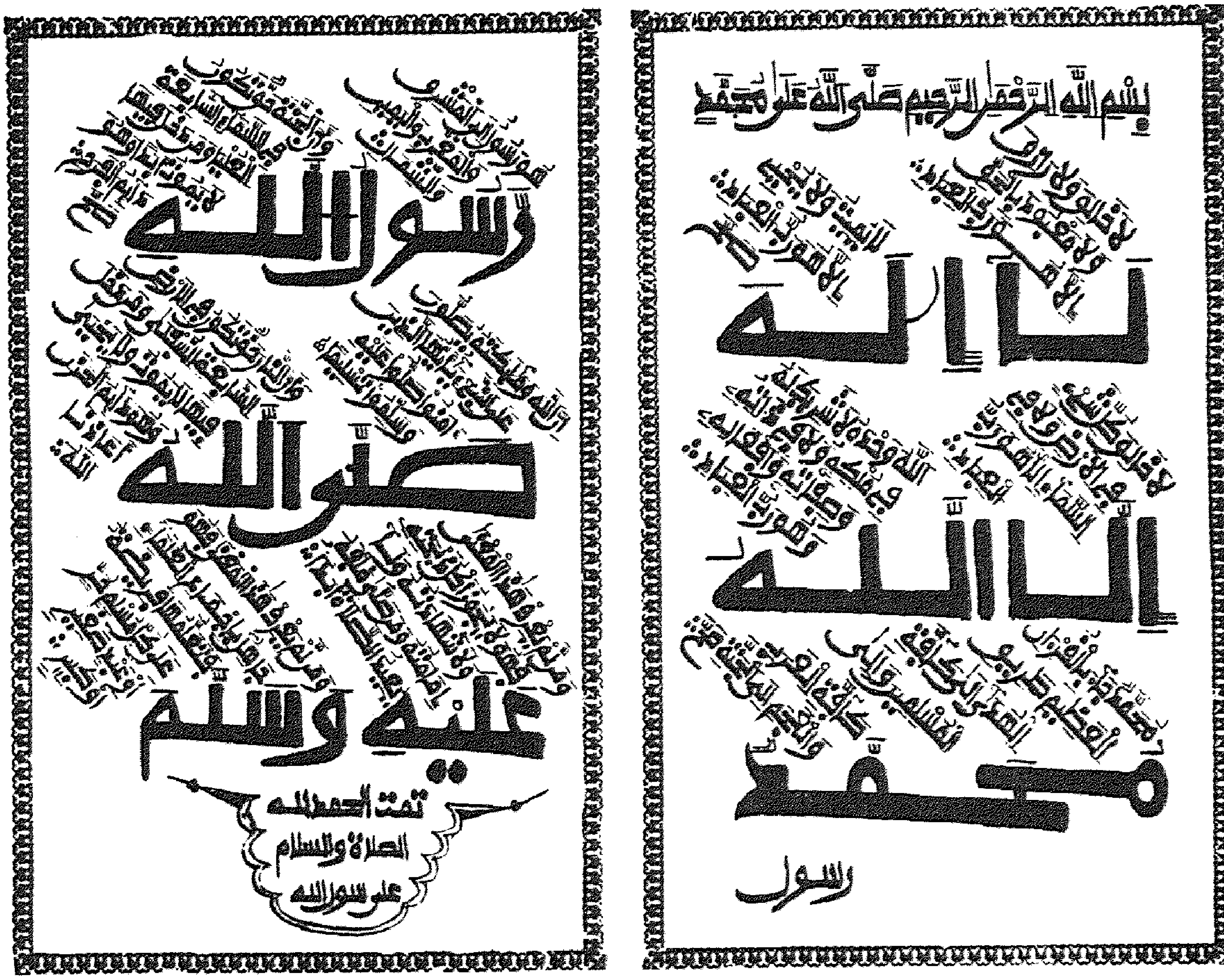
وقد اتيحت لبارت الفرصة في سوكوتو ايضا لدراسة المؤلف بكامله. وهو يكتب حوله(34): «بكثير من الجد سعيت الى الحصول على كتاب بيللو وعنوانه: «الانفاق الميسور في فتح بلاد التكرور»، وهو الكتاب الذي أوصاني به بكثير من التوكيد صديقي الفقيه عبد القادر في كتسنا؛ ولكنه لم يصل إلي إلا قبل مغادرتي المدينة ببضعة ايام. وعندها وجدت ان القسم الأكبر من محتوياته الذي يحمل اهمية تاريخية او جغرافية ينطبق على الوثائق التي احضرها الكابتن كلابرتون من رحلته الأولى والتي قام السيد سالام بترجمة جزء منها كملحق لقصة تلك الرحلة الهامة على الدوام».

ومن المخطوطات العربية فإن «تاريخ السودان» يعتبر أهمها جميعا كمصدر لتاريخ شعوب السودان كما أن بارت قد اهتم بمعالجتها بتفصيل خاص.

واعتمادا على مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب تمكن بارت بوجه عام من تحديد موعد ومكان انتشار الاسلام في السودان على وجه الدقة. فمنذ القرن التاسع ثبت أن الاسلام قد تغلغل في بعض مناطق السودان. ولم يتوقف تغلغل الاسلام في السودان حتى بعد ألف عام من هذا التاريخ. وتاريخ السودان زاخر بالحروب العقائدية والاضطرابات التي كانت تشتعل بشرارة التعصب الديني. وبوجه عام يمكن القول بأن الاسلام اصطحب معه تغيرات واضطرابات سياسية. ويصور بارت آخر ثورة دينية كبيرة اصبح شاهدا لتأثيراتها الثورية: وهي حركة عثمان بن فوديو الاصلاحية(35).

لقد أدى مطلب الجهاد في الاسلام الى عيش سكان السودان الوثنيين في اضطراب دائم. وتؤيد انطباعات بارت، الذي عاش بين القسمين من السكان، هذا الراي. وقد أيد الاسلام اقامة دول على أسس سياسية واجتماعية موحدة. إلا ان سكان السودان الوثنيين كانوا مقسمين الى قبائل وعشائر صغيرة، كانت متخاصمة فيما بينها في الغالب بحيث لم تكن قادرة على مقاومة المسلمين. وكان هذا هو الموقف عندما ثارت الفولبه في بداية القرن الماضي. ولكن قبل أن نتناول تاريخ السودان في القرن التاسع عشر، نود أن نذكر شيئاً حول التاريخ القديم كما سجل في تواريخ المؤلفين العرب.

ومن أقدم الممالك الاسلامية في السودان مملكة البورنو. ومن سجل بورنو التاريخي عرف بارت(36)، ان اول ملك لهذه المملكة اعتنق الاسلام كان هوميه (أو أوميه)، ابن عبد الجليل. وقد حكم في الأعوام ما بين ٤٧٩/١٠٨٦ و٤٩٠/١٠٩٧. وباعتناقه الاسلام فقد اسس اسرة مالكة جديدة. وقد وجد بارت هذه الملاحظة عند الجغرافي العربي المقريزي(37): «وكان اول ملوكهم الذي اعتنق الاسلام محمد بن جبل(38) بن عبد الله بن عثمان بن محمود بن ابي...، وهم يزعمون انهم من سلالة سيف بن ذي يزن». ولذا فقد افترض بارت — على خطأ طبعا، كما يقول بيكر(39) — أنه حدث اختلاط



□ تعويذة من «كانو» (Kano) (نجيريا).

هنا بين أول سيف في الاسلام وملك بلالا الاول[٤٠]. والاغلب أن يكون محمد بن جبل هو هوميه (أو أوميه) بن عبد الجليل. وفوق ذلك فمن التناقض أن يكون اسم والد اول ملك اعتنق الاسلام اسما اسلاميا هو عبد الجليل.

«إن مملكة كانم، وهي في الأصل جزء من مملكة بورنو، كان لها كذلك منذ القدم سكان كثيرون كانوا مسلمين في الغالب»[٤١].

ومن أقدم الممالك القديمة ايضا مملكة سونغهاي حيث ان البكري يتحدث عن تقاليدها الاسلامية[٤٢]. وحسب تاريخ السودان للسعدي فان تاريخ الاسلام في مملكة سونغهاي يعود الى بداية القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وقد تسرب الاسلام الى السودان من اتجاهات مختلفة: فبالنسبة لغانا نقله المرابطون من قبيلة اللمتونة وغيرها من قبائل البربر[٤٣] من الشمال.

وفي الممالك القديمة حول بحيرة تشاد يحتمل كثيرا ان يكون الاسلام قد جاء من الشرق من نفس الطريق التي جاء منها البدو القادمون من جنوبي شبه الجزيرة العربية، كما جاء فيما بعد عبر مصر أيضاً من خلال طرق التجارة. وكانت الطريق الى مكة تمر بمصر. وكما يذكر ابن خلدون[٤٤] فان مفتي غانا اتخذ عام ١٣٩٣/٧٩٦ طريق الحج التي مرت بمصر قبل بلوغ مكة. وكانت هذه الطريق نفسها طريق الحج المألوفة على زمن بارت ايضاً كما يؤكد لنا في كتابه. وهكذا فبفضل فريضة الحج الدينية قامت بين السودان ومصر صلة وتبادل دائمان لم يساعد على تطوير التجارة بين البلدين فحسب، بل وأثر تأثيراً كبيراً على المستوى الفكري والثقافي لشعوب السودان الاسلامية. وندرك هذه الصلة القديمة بمصر، كما يذكر بارت[٤٥]، من وضع مدينة كوكو (Gögö)، عاصمة سونغهاي،

التي «كانت في العهود الماضية تتألف من حيين منفصلين، أحدهما لعبدة الأوثان (على الشاطىء الغربي أو شاطىء كورما) والحي الملكي أو الاسلامي (على الشاطىء الشرقي، باتجاه مصر، المكان الذي جاء منه الاسلام وما صاحبه من مدنية)»[٤٦].

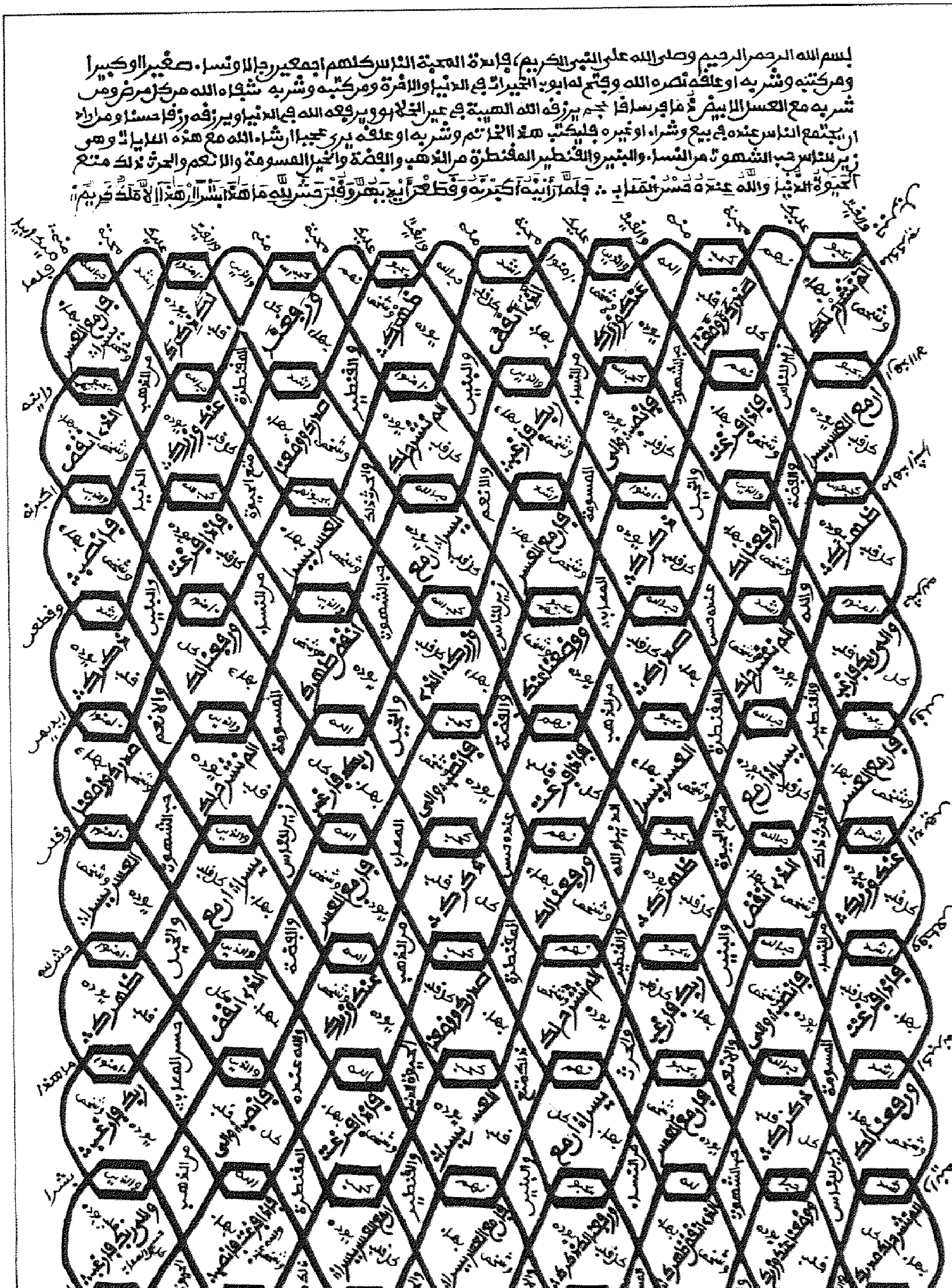
ولم ينتشر الاسلام في السودان بالنار والسيف. بل كثيرا ما كان من الأنفع لأهل البلاد أن يعتنقوا الاسلام؛ إذ أن من دخل في الدين الاسلامي لا يمكن أن يتخذ أو يصبح عبداً. وقد جلب الاسلام معه مستوى معيشيا رفيعا بحيث كان من هذه الناحية أيضا جديرا باعتناقه. وهناك امثلة على أن سيرة بعض الرجال الشبيهين بالقديسين اكسبت الدين الجديد كثيرا من الأنصار. وكانت باغرمي قبل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي منطقة وثنية تماماً. وكما يقول بارت[٤٧] فان انتشار الاسلام هنا تم بوجه خاص بفضل «شيخ من شيوخ الفيلاتا وقديس من بيد ديري (قرية على مسافة ٩ أميال شرقي ماسينيا) كان له، رغم انفراده وعزلته، تأثير كبير جداً في ادخال الاسلام الى هذه البقاع».

ويعود الفضل في نشر الاسلام في مناطق واسعة الى محمد بن عبد الكريم بن مرحيلي[٤٨]. ويسميه بارت رسول بلاد الزنج الوسطى[٤٩]. وكان صديقا للسيوطي، من اعظم عباقرة الكتاب العرب. واكثرهم تنوعا في حقول الثقافة[٥٠]. ويكتب بارت[٥١] انه اطلع في تمبوكتو على رسالة طويلة من ابن مرحيلي يعالج فيها مسائل دينية. ومن المؤسف ان بارت لا يفيدنا المزيد عن محتويات هذه الرسالة التي يقول إن لها اهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الاسلام في السودان. وكان ابن مرحيلي هو الذي أثر على ابرهيم ماكي، ملك كاتسينا، لاعتناق الاسلام[٥٢]. وبعد ذلك بقليل دخل ملك واداي الاسلام ايضا[٥٣].

وتنتهي مصادر بارت الأدبية مع «تايخ السودان» عام ١٦٥٥. ولم يكن يعرف المصادر التالية التي يذكرها (A. Brass)[٥٤]. وكان على بارت ان يعتمد بخصوص تاريخ السودان الحديث على الروايات الشفهية والانطباعات الشخصية.

وتشهد في نهاية القرن الثامن عشر حركات وثورات دينية خطيرة النتائج. فبينما لاقى الاسلام في دولة لوكونه استقبالا فاترا وسطحيا[٥٥]، أشعل الدين الجديد بين الفولبه في كوبر[٥٦] وادامإوا[٥٧] تعصباً شديداً ملتهباً. وبعد مرور فترة قصيرة على بدء الحركة الوهابية الرشيدة في جنوبي الجزيرة العربية، هبت الفولبة، وعلهم متأثرون بالأحداث الجارية في جنوبي الجزيرة العربية[٥٨]. ولم يكن قد مضى على دخولهم الاسلام زمن طويل حتى بدأوا بنشره باذلين في سبيل ذلك اقصى الجهود، حتى شنوا فيما بعد، عندما قويت شكيمتهم، حروباً دينية دموية، في سبيل ذلك. وكان الرجل الذي تزعم الفولبه، والذي فتح عهد مملكة للفولبة، والذي اعتبره انصاره نبياً وخصومه مستبداً مخيفاً، هو المصلح عثمان بن فوديو[٥٩]. وقد أيد أخوه عبد الله[٦٠] سياسته بخضوع وتفان زائدين، واستمر ابنه محمد بيللو على تلك السياسة وثبت دعائمها بتطرف أشد واعنف. وبعد أن نقل محمد لبيو الاسلام المجدد المصلح إلى قبائل الفولبه التي تقطن على ضفاف النيجر الأعلى[٦١]، أصبح الفولبه بوجه عام طلائع المجاهدين في سبيل الاسلام[٦٢].

وقد شهد بارت هذه الأحداث ونتائجها بصورة مباشرة، ولذا فان كتابه (رحلات في افريقيا) (Reisen in Afrika) يعتبر مصدراً لا يقدر بثمن بالنسبة لتاريخ الاسلام الحديث في السودان أيضاً. وكما تثبت روايات البكري والوزان الزياتي (ليو أفريكانوس)[٦٣] فإن للاسلام في السودان جذوراً في بعض اجزائه ولكنها ليست عميقة في كل انحائه. وكما ورد في كتاب بارت أيضاً[٦٤]، فقد كان الاسلام في عهده ايضاً تقليداً ظاهرياً في بعض الوجوه، ظلت العادات والتصورات الوثنية كامنة خلفه. وهناك حاجة الى مثل كتاب فيلهاوزن (wellhausen) «بقايا الوثنية العربية» (Reste Arabischen Heidentums) يعالج الموقف في السودان. ويقدم بارت هنا عدداً كبيراً من الملاحظات تقع مهمة تنسيقها وايضاحها وتفسيرها على عاتق المستشرقين. ونذكر في هذا المجال مثلا يشير الى ضرورة اعزاء بعض ملاحظات بارت الى اسبابها



□ تعويذة من كانو (Kano) (نيجيريا).

الدينية الثيولوجية الحقيقية: يوضح بارت بمثل[٦٥] «غرابة مبالغة سكان الصحراء المتمدنين هؤلاء في اعتبار الحشمة الاسلامية. فعند التبول يبتعدون على مسافة كبيرة من الطريق ويجلسون القرفصاء الى الجانب ويحفرون جحراً صغيراً في الأرض». والحقيقة ان ليس في الأمر حشمة ولا مبالغة وإنما التقيد باتباع مطلب اسلامي قديم يقول بأن يجلس المرء «لقضاء حاجاته فلا يقضيها قائماً»[٦٦].

وعند وصف فتاتين يقول بارت: «لقد ظهرتا بزي محتشم وذلك بارتداء مريلة من القماش القطني المخطط حول اردافهما. ولا شك ان ذلك جرى بتأثير الاسلام»[٦٧]. وتعود هذه العادة فعلا الى تعليم اسلامي يوجب «على المكلف ستر عورته»[٦٨].

■

الهوامش

(١) Reisen in Afrika (R.i.A.)، المجلد ٢، ص ٢٧٠.
(٢) R.i.A.، ١، ٤٤١.
(٣) R.i.A.، ٣، ٢٥٨.
(٤) R.i.A.، ٤، ١٨٨.
(٥) R.i.A.، ٤، ٢٠٢.
(٦) R.i.A.، ٤، ١٨٨.
(٧) لقد الغيت البعثة الاستكشافية لأسباب تكنيكية وسياسية؛ غير أن الكتاب يعتمد على أخبار الرحالين إلى افريقيا الوسطى الموجودين في مصر.
(٨) جمع (رباط) وهذا هو أصل تسميتهم.
(٩) R.i.A.، ٤، ٢٣٦.
(١٠) R.i.A.، ١، ٣٥٢ — ٣٥٣.
(١١) R.i.A.، ١، ٥٩٩.
(١٢) النص مقتطف من الترجمة الفرنسية: Histoire des Berbères, Paris 1927, II, 110.
(١٣) المتوفي في ١٤٠٦/٨٠٨ — تاريخ الأدب العربي GAL، ٢، ٢٤٢.
(١٤) المتوفي حوالي ٩٩٧.
(١٥) المتوفي ١٠٩٤/٤٨٧، GAL، SI، ٨٧٥.
(١٦) ١١٥٤/٥٤٨ — GAL، I، ٤٧٨.
(١٧) المتوفي ١٣٧٩/٧٧٩ — GAL، II، ٢٥٦.
(١٨) كما ورد في اعمال ابي الفداء المتوفي ١٣٣١/٧٣٢ — GAL، II٤٤؛ وعند ابن خلدون؛ وعند المقريزي المتوفي ١٤٤٢/٨٤٥ — GAL، II، ٣٨.
(١٩) المعروف بـ «ليو افريكانوس»؛ المتوفي حوالي ١٥٥٠ — GAL، SII، ٧١٠؛ ويرجع بارت كثيرا الى كتابه: Descrittione del l'Africa.
(٢٠) R.i.A.، I، ١٥.
(٢١) قام بنشره C.E.J. Whitting في لندن عام ١٩٥١.
(٢٢) R.i.A.، IV، ٤١٤ وما تلاها.
(٢٣) Cooley, Negroland of the Arabs, 1841.
(٢٤) R.i.A.، IV، ٢٠٢.
(٢٥) المكان نفسه.
(٢٦) المتوفي بعد ١٦٥٦/١٠٦٦ — GAL، II، ٤٦٧ وما بعدها.
(٢٧) راجع، بيكر: Becker, Zur Geschichte des östlichen Sudan, Der Islam I, 166.
(٢٨) ذيل الديباج.
(٢٩) بعد أن نشر المخطوط على شكل مقتطفات، كما سبق وذكرنا، قام (O. Houdas) بالتعاون مع (E. Benoist) بنشر العمل بكامله عام ١٨٩٨ مع ترجمته الفرنسية: Paris, Publ. de l'Ecole des langues or viv. XII, Documents arab. rel. à l'histoire du Soudan I.
راجع كذلك GAL، II، ٤٦٨.
(٣٠) المتوفي عام ١٨٢٩ — GAL، SII، ٨٩٤.
(٣١) R.i.A.، IV، ١٨٨.
(٣٢) قارن (A. Brass) المخطوطين الموجودين في مكتبة خاصة ثم نشر وترجم اجزاء مقتطفة منهما في مجلة (Der Islam) المجلد ١٠، الصفحات ١ — ٧٣ (١٩٢٠).
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٠.
(٣٤) R.i.A.، IV، ١٨٨.
(٣٥) R.i.A.، IV، ١٥٢ وما بعدها.
(٣٦) نفس المصدر، II، ٣٠٩.
(٣٧) Hamaker, specim. catalog. p. 206؛ راجع Der Islam، ١، ١٧١.
(٣٨) قل جيل.. كذلك بارت II، ٢٨٩.
(٣٩) Der Islam، I، ١٧١.
(٤٠) راجع بارت II، ٣٠٩.
(٤١) ١٥٩، Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 109.
(٤٢) بارت، ١٧، ٤١٧.
(٤٣) Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, II, 64.
(٤٤) نفس المرجع، ص ١١٠.
(٤٥) R.i.A.، V، ٢١٨.
(٤٦) نفس المصدر، ص ٤٣٤.

(٤٧) .R.i.A، III، ٢٨٧.
(٤٨) المتوفي ٩٤٠/١٥٣٣.
(٤٩) .R.i.A، IV، ٦٣٦.
(٥٠) ٨٤٩/١٤٤٥ — ٩١١/١٥٠٥؛ GAL، II، ١٤٣ وما بعدها.
(٥١) .R.i.A، II، ٨٣ (ملاحظة ٢).
(٥٢) نفس المصدر، II، ٨٣.
(٥٣) نفس المصدر، III، ٤٨٥ وما بعدها.
(٥٤) Der Islam X.
(٥٥) .R.i.A، III، ٢٧٠.
(٥٦) نفس المرجع، IV، ٢٥٨.
(٥٧) نفس المرجع، V، ٦٢٤.
(٥٨) Hitti, History of the Arabs, p. 741.
(٥٩) ١٧٩٤ — ١٨١٧؛ .R.i.A، IV، ١٥٢ وما تلاها؛ GAL، SII، ٨٩٤.
(٦٠) المتوفي عام ١٨٢٩.
(٦١) .R.i.A، IV، ٢٥٨.
(٦٢) نفس المرجع، II، ٢٠٨ — ٢٠٩.
(٦٣) نفس الرجع، IV، ٤٣٤.
(٦٤) نفى المرجع، II، ٥١٥؛ III، ٢٣٥؛ III، ٣٦٥.
(٦٥) .R.i.A، I، ٢٩١، ملاحظة.
(٦٦) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، القاهرة، ١٣٥٥/١٩٣٦، قسم العبادات، ص ٣٥.
(٦٧) .R.i.A، II، ٣٧٥/٣٧٦.
(٦٨) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، قسم العبادات، ص ١٤١.

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة

الشيخ محمد كامل البابا

١٢٩٧ - ١٣٩٠ هـ
١٨٨١ - ١٩٧١ م

فضل المقدم



الشيخ
محمد كامل البابا.

ما بين مولده ووفاته، رحمه الله، أخذت تبرز أسماء الرعيل الثاني من رجال النهضة الحديثة، حملة رسالة اساتذتهم الأقطاب[1]. وقد أثروا جميعهم الحياة العلمية والأدبية في طرابلس، والعالم الإسلامي. فكان منهم المفكر والعالم والأديب والشاعر والصحافي والمؤرخ... وجلهم كانوا (موسوعيين)، وكلهم كانوا متعلمين، في المدارس والمساجد. ولقد توافر على كتابة التاريخ، مؤلفين ومترجمين، عدد من النهضويين، لمعت فيه أسماء من آل نوفل وصدقة وبني وشريف يكن والبابا[2]. إلا أن اثنين من هؤلاء خصا تاريخ طرابلس بكتاب، هما حكمت شريف يكن والشيخ محمد كامل البابا، وكتاباهما ما زالا مخطوطين! وانقطع شيخنا موضوع هذه الدراسة، إلى تاريخ بلده، فعرف بمؤرخه الكبير[3].

أبوه الحاج محمود البابا، مثر بالوراثة، مجازف بالطبع، جمع ثروة من الاتجار ما بين طرابلس ومرسدين، من بلاد الأتراك، وبدد ما ورث وما جمع!

وأمه بهيجة غندور، من أسرة تقية ثرية، عرفت بالصدق والصبر وعفة النفس، صفات أورثتها الفتى كاملا، وستلازمه كل حياته، كما سنرى.

كانت هذه الأم الصبور تحسن القراءة والكتابة، على قلة من كن يحسنهما آنذاك، فكانت مربية أولادها، ومعلمتهم الأولى. فظهرت عليه في سن مبكرة مخايل الذكاء، تسعفها حافظة عجيبة! ثم دخل «الكتاب» على عادة أقرانه في ذلك الزمان. وسرعان ما اجتذبته الدروس التي تلقى في المساجد و (المدارس). فحضر على الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ ــ ١٩٠٩م)، والشيخ

عبد الفتاح الزعبي (؟ ــ ١٩٢٣)، والشيخ محمد الحسيني (١٨٦٠ ــ ١٩٤٠) والشيخ عبد الكريم عويضة (١٨٦٥ ــ ١٩٥٥)... وانقطع إلى هذا الأخير. وعرف الأستاذ النباهة في تلميذه فقربه إليه، فاتخذ سبيله إلى علوم الدين، وتبحر في اللغة والفقه والسيرة... ولما بلغ الحادية والعشرين، تزيا بزي المشايخ، وحج واعتمر. وفي زيارته المسجد النبوي الشريف عزم على (المجاورة)، وشرع في كتابة تاريخ لمدينة الرسول (صلعم)، ولم يتم. فقد حدث في أسرته في طرابلس ما أوجب عودته على وجه السرعة! عاد ليتابع (ما خلق له). ومما حدثتني به والدتي، رحمها الله، وهي كبرى شقيقاته، عن هذه الحقبة من التحصيل، أنه كثيرا ما كان يلتف حوله رفاقه الطلاب، إذا ما فرغ الشيخ الأستاذ من درسه ليجلو لهم بعض ما أشكل، أو ليزيدهم إيضاحاً فيما أجمل. فقد كان يحفظ أكثر القرآن الكريم بتفاسيره، والسنة الشريفة بأسانيدها، ويستظهر كل ما يلقى عليه من أخبار وأشعار، بأسماء رواتها وناظميها ونقلتها، لا ينسى تاريخا، ولا يغفل اسما، وهكذا ظل طول حياته، يجتذب الكافة للاستفادة، والخاصة للاستزادة.

ولكثرة تردده على المساجد والمدارس الأثرية، لفتت نظره تلك الكتابات التي تزدان بها، وكانت أحاجي لا تكاد تقرأ. فعمل بصبر وإناة على فك رموزها، وحل عقدها، حتى أصبح ذا ملكة فريدة في قراءة كل ما استعصى، مما نقش على الحجر، أو سطر في الطروس، وهي أنماط من الخط مختلفات. ومن كثرة ما قرأ من (حجج ووقفيات) تسنى له أن يطلع على جانب مهم من تاريخ آثار طرابلس وأوقافها وواقفيها، فكانت الخميرة الأولى لكتابه الكبير (تاريخ طرابلس وآثارها القديمة).

تجاوزت شهرته مدينة طرابلس، فدعاه الشيخ أحمد عباس الأزهري[٤] (١٨٥٣ ــ ١٩٢٧) قبيل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) إلى التدريس في (المدرسة العثمانية) التي عرفت بالكلية الإسلامية أو كلية الشيخ عباس[٥] وكان لها دور بارز في النهضة الحديثة. ولم يعد إلى بلده إلا وقد أعلنت الحرب، ليمضي سنيها الأربع العجاف متنقلاً ما بين المدينة والريف... وليعين بعد الاحتلال الفرنسي معلما في المدرسة السلطانية، الجديدة للصبيان حاليا[٦] وكان يدرس العلوم الدينية والعربية، والتاريخ والجغرافية. ويشهد له طلابه الكثر بأنه كان يتمتع بروح دينية ووطنية عالية. وكان كرهه للاستعمار الفرنسي لا يدانيه إلا كرهه (للاستعمار) التركي. وعندما كنت أسائله في هذا، كان يجيب: لو أنك رأيت ما رأيت لاقررت أنني لم أبلغ منهم ما كان علي أن أبلغه! فلقد شاهد في الفترة التي عاشها أواخر أيامهم، من عبث الموظفين، وعسف العمال، وطوارنية القادة، ما حمله على مثل هذا الرأي، فسحب حكمه على جميع العهود، وكل الرجال! ولكنها كانت دولة تحتضر!

ومما نذكره له، نحن الطلاب، ولزميليه الشيخ جميل عدرة والشيخ كامل الميقاتي، رحمهم الله، أنهم ما شاركوا قط باحتفالات الرابع عشر من تموز التي كانت تقام في ساحة التل، أيام الانتداب، الأمر الذي أحفظ عليه (المستشار الفرنسي) والمتفرنسين، فأبعد عن الوظيفة، مع من أبعد. فهاج الرأي العام الطرابلسي لهذا الاجراء التعسفي، فأعيد إلى الوظيفة، ولكن إلى ببنين (عكار). ثم اضطروا إلى إعادته إلى مدرسة النموذج للبنين في طرابلس، وعندما وليت إدارة مدرسة التربية (فخر الدين) طلب هو نقله إلى مدرسة يديرها تلميذه وابن أخته... ومنها، قبيل تقاعده، نقل مديرا إلى مدرسة القبة.

مدة اشتغاله بالتعليم الرسمي، وبعده، لم يقبل أي وظيفة دينية، وقد عرضت عليه مرات، وبإلحاح، الامامة والخطابة والتدريس، فكان يقوم بها احتساباً عند الله، مكتفياً بالراتب الرسمي الذي يؤمن له عيش الكفاف، وبما كانت تدره عليه مقالات له في الصحف والمجلات، وأحاديث في الإذاعة، وهو قليل، إلى ما بقي من إرث له عند أمه، وهو أقل من القليل. ولكن الكثير الذي ورثه عنها هو ما أشرنا إليه قبلا: فإذا حدث أو كتب، فما لسامع أو قارىء أن يرتاب! شأنه في هذا شأن (المحدثين) وقدامى المؤرخين، وليس هذا بالشيء القليل! يقول الدكتور كمال الصليبي: وأنا معجب جدا بالكتابة العربية التقليدية للتاريخ، وعدا الدقة والموضوعية فيها،



□ الشيخ عبد الفتاح بدر الدين الزعبي

هناك أسلوب البحث الممتاز... يرى البعض أن هذه الكتابات ظهرت في عصر سموه (الانحطاط)، لكن هذه المؤلفات تخجل كتابات أوربة في القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين[٧].

ولم يتعلم لغة أجنبية، فلم يتسن له الاطلاع إلا على ما كتب بلغة الضاد، أو ترجم إليها. والحق أنه كان شديد الحرص على استقصاء كل ما كتب عن طرابلس، فلهذا بند خاص في (ميزانيته)!

فبذلك، وبالقدرة التي أعطيها على قراءة الصعب مما نقش أو كتب، أصبح (مؤرخ طرابلس) الذي يرجع إليه كل من يروم الكتابة عنها، من وطنيين وأجانب. وهذا رئيس المجمع العلمي العربي في سورية، محمد كرد علي، يستكتبه فصلاً عن آثار طرابلس، ينشره بنصه في (خطط الشام)[٨].

وكذلك صاحب كتاب (طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، فقد أفاد كثيراً مما سمع منه، أو قرأ له، خصوصا ذلك المقال الضافي الذي نشرته مجلة (الارشاد الاجتماعي)[٩]، ويقول: ويضيف الشيخ كامل البابا، مؤرخ طرابلس الكبير، وأعظم خبرائها في الحجج والوقفيات القديمة، إن هذا البرج بني فيما بين عامي ١٤٤١ ـ ١٤٤٢... ونحن في ذلك نؤيد رأي الشيخ كامل البابا[١٠].

واقتبس الدكتور عمر تدمري بعضاً مما نقله الدكتور سالم عن الشيخ البابا[١١].

اتسعت له صلات، وتوطدت له صداقات بكبار المهتمين بالتاريخ، ليس فقط في لبنان، بل وفي العالم العربي، وبعض مؤسسات التاريخ في أوروبة وأميركة، والمؤرخين. وما أزال أذكر أن صاحب كتاب (Tripoli of Libanon)[١٢] لازمه قرابة عام كامل.

أما علاقته بأصحاب كتاب (تاريخ العرب المطول) الدكاترة فيليب حتي وجبرائيل جبور وإدوارد جورجي، فقد كانت عن طريق (النقد)، نقد المطول عندما نقل إلى العربية. فكان مؤلفه الأول:

١ ــ (نقد) كتاب تاريخ العرب (مطول) صدر عن (دار الفنون) في طرابلس ١٩٥٤ في ثمان وستين صفحة من القطع المتوسط، منها خمسون للرد على أصحاب (المطول) وما بقي لتاريخ اليهود في بلاد الحجاز!

عندما أصدر الأساتذة الثلاثة مؤلفهم القيم، وهو يتناول طبعا تاريخ صاحب الرسالة الإسلامية صلوات الله عليه، ومعجزته الخالدة، القرآن الكريم، ثارت في أعماق مؤرخنا الشيخ ثائرة الغضب لله، فراح يستقصي ما في الكتاب من أخطاء وهفوات، قد لا يخلو منها كتاب، خصوصاً إذا كان في التاريخ! فوجدها في خمسة عشر موضعاً، عددها، واخذ يرد عليها واحدا واحدا[١٣] وفي رأينا أنه وفق في تصحيح ما خالف نصاً ثابتاً، أما في مواضيع الاجتهاد والاستنتاج، فلم يحسم فيها الرأي بعد، وإليكم بعض الأمثلة.

(أ) (قال الأساتذة المؤرخون ص ٥٤ «وأن صح أن ملكة سبأ، وفي القرآن بلقيس، هي شخصية تاريخية وأنها قدمت إلى ملك إسرائيل الحكيم...» أقول: لم يذكر القرآن العظيم إسم بلقيس قط! وقال الأساتذة المؤرخون ص ٢٣١

«وكان شعار النبي العقاب» ويفهم القارىء بهذا اللفظ الموجز أن للرسول، عليه الصلاة والسلام شعارا خاصا له صورة طير العقاب... وليس هذا من الحقيقة بشيء، وهو إنما كان يمقت الصور والتماثيل... إنما العقاب إسم لاحدى رايات الرسول... اتخذها في إحدى غزواته، كانت سوداء من صوف... فالشعار غير الراية، وإنما غلط الأساتذة بوضعهم الشعار موضع الراية... ولم يبلغنا أن الرسول العظيم اتخذ شعارا قط! ولم يكن يقتني شيئا داخل بيته أو خارجه إلا وله اسم خاص به، سواء كان ذلك المتاع فراشاً أو غطاء أو جبة أو اي شيء آخر، فمن ذلك أنه كان إسم بعض راياته العقاب، ودروعه ذات الفضول، وذات الوشاح... وقوسه الكتوم، وخيوله السكب والسبحة والمرتجز...[١٤].

(ب) قال الأساتذة المؤرخون ص ١٧١ «ولا يذكر القرآن من أشخاص الانجيل ذكرا واضحا إلا زكريا ويوحنا المعمدان (يحيى) ويسوع (عيسى) ومريم. والاسمان الأخيران يغلب ورودهما معاً، ومريم أم عيسى هي بنت عمران وأخت هرون في وقت واحد»! لقد حملوا الأخيرة على النسب، وليس الأمر كذلك. كان هرون بن عمران، عليه السلام، يضرب به المثل في قومه بكثرة التقى والنشاط في العبادة، وكانت السيدة مريم البتول ابنة عمران كذلك، كثيرة العبادة، شديدة النسك والطهارة، بريئة عفيفة. فلما أتت قومها تحمل ولدها المسيح، عليه السلام، عجبوا منها لأنها غير ذات زوج، ولم يكن أحد ينتظر منها أن تأتي بفاحشة، فقالوا لها (يا أخت هرون) أي يا شبيهة هرون في العبادة والتقى.. ولو لم يكن المراد بالآية الكريمة أخوة التقوى والمماثلة في العبادة لم يقولوا لها: يا أخت هرون، لأنه لم تجر عادة الناس إذا ارادوا مناداة امرأة أن يقولوا لها يا اخت فلان... ولو مر بهذه الجملة أحد من نوابغ علماء العربية المسيحيين، كالشيخ إبراهيم اليازجي، والشيخ ناصيف اليازجي، أو بطرس البستاني أو سليمان البستاني، لما عنّ لهم مثل هذا الاعتراض. إن الأساتذة يعوزهم التوسع في الدراسات العربية. إن الأخوة التي لم يفهم منها الأساتذة غير أخوة النسب، يستعملها العربي الصميم بمعان كثيرة... أخوة الشبه والمماثلة، وأخوة الإنسانية، وأخوة الصداقة، وأخوة الدين)[١٥].

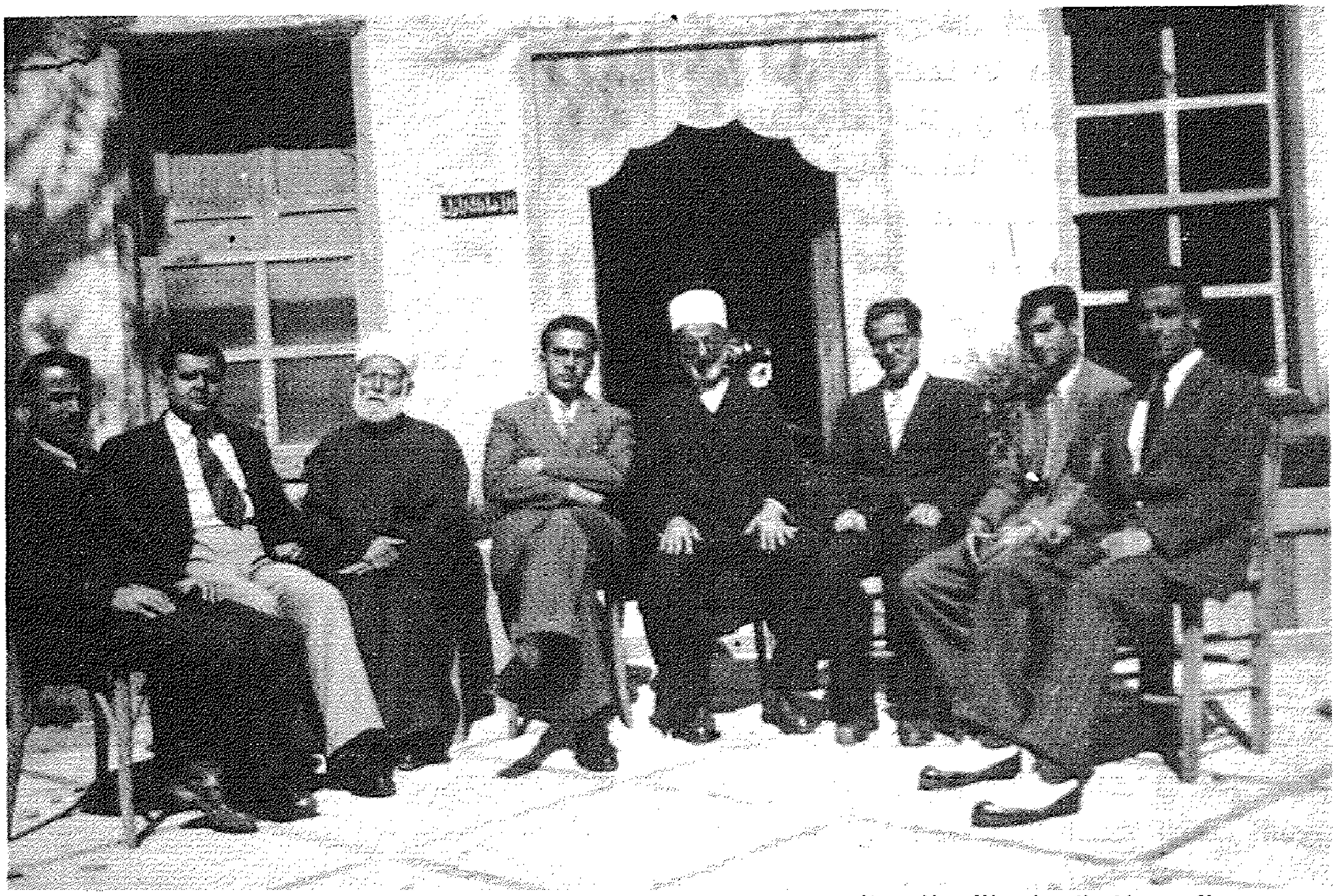
(ج) (قال الأساتذة ص ١٧٧ «وفي علم الآلهيات القرآني ليس محمد إلا بشرا لم يتم الله على يديه من (العجائب) المعجزات، غير إعجاز القرآن، إلا أن التقاليد والأساطير التي اصطنعتها العامة من بعد، نسجت حول هامة الرسول هالة من النور الإلهي، ودين محمد دين عملي صريح» لم ير أحد من العلماء المعتمدة أقوالهم، منذ عصر النبوة حتى الآن، إنكار المعجزات المحمدية. ولنا أن نسألهم كيف تمت معجزة القرآن الخالدة، وامتنع وقوع غيرها من المعجزات! أم كيف حصل هذا الشذوذ في الطبيعة؟ وما دام أنه حصل هذه المرة، فلا مانع من وقوعه مرة أخرى، فإن ما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر)[١٦].

والحق أن معجزات الرسول (صلعم) هي مسألة اجتهادية، وإن تكن أكثرية المفسرين تؤيدها. ففي تفسير الآية الكريمة (اقتربت الساعة وانشق القمر) يقول الفخر الرازي[١٧]: وقال بعض المفسرين سينشق القمر. ومثل هذا يقول أبو السعود في تفسيره[١٨] والزمخشري في كشافه[١٩]. وأكثر المفسرين المحدثين على ذلك. ولصاحب التفسير الكبير (الجواهر)[٢٠] رأي طريف وهو أن الانشقاق المقصود ربما حصل في زمن سحيق، عندما انشق القمر عن الأرض، كما يقول علماء الفلك.

وفي مرآة الإسلام للدكتور طه حسين[٢١] وفي العقيدة الإسلامية لنديم الملاح[٢٢] أن معجزة خاتم الأنبياء (صلعم) هي القرآن.

وفي الحديث الشريف: ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة (متفق عليه).

وللشيخ رشيد رضا بحث ممتع في الآيات (العجائب) فليرجع إليه. ولكن شيخنا البابا الذي كان يعد مؤلفه الثاني (كرامات الشيخ علي العمري) ما كان له أن يتساهل مع من ينكر معجزات الأنبياء!



□ من اليمين إلى اليسار: الأستاذ رجائي بارودي ــ الأستاذ ياسر كبارة ــ الأستاذ عبد الرحمن مرحبى ــ الشيخ كامل البابا ــ فضل المقدم ــ الشيخ علي الزعبي ــ الأستاذ محمد الصوفي ــ الأستاذ ناصر شهال.

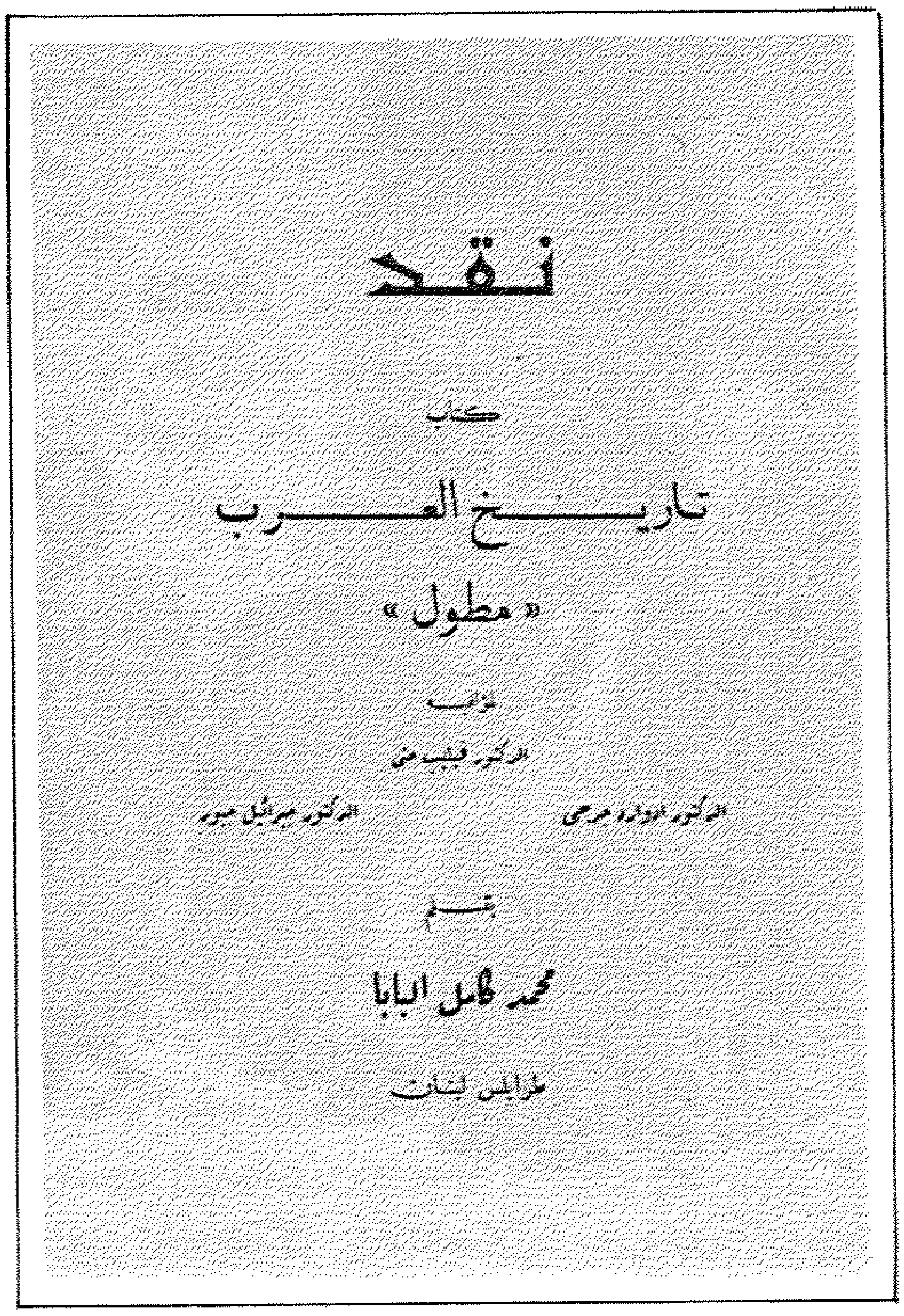
٢ ــ (كرامات الشيخ علي العمري) صدر عن (دار الفنون) بطرابلس عام ١٩٥٨ في مائتين وسبع وتسعين صفحة من القطع المتوسط. صدره بمقدمة ضافية (ستون صفحة) أورد فيها البراهين والأدلة التي تسند اعتقاده بإمكان حدوث (كرامات) أي خوارق للطبيعة. وأهمها أن الخالق سبحانه هو الذي وضع النواميس، وهو قادر على خرقها، بالمعجزات على أيدي أنبيائه، كما في الكتب السماوية، وبالكرامات لأوليائه، كما ثبت بالمشاهدة. وشيخنا البابا ليس مفردا بهذا الاعتقاد، فهو إنما يجاري بهذا كبار علماء الفيحاء، وغير الفيحاء من أمثال **الشيخ حسين الجسر** (١٨٤٥ ــ ١٩٠٩) في كتابه (نزهة الفكر في ترجمة مولانا (والده) **الشيخ محمد الجسر**)، **والشيخ محمد الحسيني** (١٨٦٠ ــ ١٩٤٠)[٢٣] **والشيخ عبد الكريم عويضة** (١٨٦٥ ــ ١٩٥٥)[٢٤] **والشيخ يوسف النبهاني** (١٨٤٩ ــ ١٩٣٢)[٢٥] وقبل هؤلاء، جاء في (جوهرة التوحيد)[٢٦] التي ظلت لحين تعتبر خلاصة عقيدة أهل السنة:

واثبتن للأولياء الكرامة
ومن نفاها فانبذن كلامه

وعلى طريقة (المحدثين) التي أشرنا إليها، يروي عن ثقات عرفهم وعرفتهم طرابلس، قرابة مائتي كرامة، بلغت عنده حد (التواتر)[٢٧] وأضاف: وأما الذين لا (أثق) بهم فقد ضربت عنهم صفحا.

والمؤلف يقول بامكان حصول الخوارق ممن (يمرنون أنفسهم بأنواع من الرياضة، ويوجهون قواهم النفسية إلى ما يشاؤون أن يدركوه، قد يكون لهؤلاء الأفراد، في بعض الأحوال، من قوة الروح ما يلمحون به بعض الأشياء أو الأشخاص البعيدة عنهم).. إلى أن يقول (ثبت هذا عند بعض الماديين في هذا الزمان، فمن ذلك ما يسمونه بقراءة الأفكار وبمراسلة الأفكار[٢٨]).

وهناك الكثير من الكتب والمجلات والصحف التي روت من هذه الأعاجيب الشيء المذهل. وينقل المؤلف عن (الوحي المحمدي) قصة فقير



□ غلاف كتاب تاريخ العرب «مطول» لمؤلفه محمد كامل البابا.

هندي دفن نفسه أربعين يوما، وشهد الطبيب المراقب بموته، ثم خرج من الصندوق وأنشأ يحدث الناس أحسن الحديث، ويطرفهم بما يحير العقول[٢٩] ويضيف المؤلف بعبارة ذكية (ولو أن الأشخاص الذين تولوا أمر الفقير الهندي صبروا عليه أربعين يوماً أخرى... لحقت عليه كلمة الموت)، ولكن كرامات الأولياء من أهل الإسلام تجري على (أسباب أخر) يقول المؤلف... (هي من آثار الرياضة الروحية التي تتم بتوجيه القلب إلى ربه، وتنويره بذكر الله تعالى).

وكل من أطلع على هذه (الكرامات) في كتاب شيخنا البابا، أو في (جامع كرامات الأولياء) او على ما رواه مؤلفا كتاب (ولاية بيروت)[٣٠] وهما علمانيان، اقول، كل من أطلع عليها وجد أن معظمها يندرج تحت مبدأين اثنين:

الأول ــ قراءة الأفكار، كما حصل للسياسي التركي الشهير مدحت باشا الذي دخل على الشيخ (بكامل عنجهيته، وهو والي سورية، ثم تراه عند انصرافه ينحني ليقبل عتبة الدار وعندما سئل عن ذلك أجاب بأن الشيخ أخبره عن أشياء لا يعلمها إلا الله...

الثاني ــ التأثير في الحواس، كأن يسقي من ماء البحر تراباً سائغا[٣١]. وبعد، لابد لسائل أن يسأل: لماذا طبع المؤلف كتاب (الكرامات) وأحجم عن طباعة كتاب عمره (تاريخ طرابلس وآثارها القديمة)، وأذكر أنني ألقيت عليه نفس السؤال، فكان جوابه: أن أهل طرابلس بشوق زائد إلى معرفة المزيد من كرامات العمري، لأنه ما ذكر في مجلس إلا وتبارى الحاضرون في ذكر مناقبه، ثم أن تكاليف (تاريخ طرابلس) أضعاف ما يكلفه هذا الكتاب الذي وفرت له من المال ما شق علي! ولك أن تعتبر، والكلام ما يزال للشيخ، أن هذا الكتاب ما هو إلا (نبذة) من تاريخي الكبير! ولقد قلت في سبب وضعه (حملني على وضع هذا الكتاب ما دأبت عليه منذ سنوات طويلة من كتابة تاريخ لبلدي طرابلس. فلما بلغت في عملي سنة ١٩٠٣ شدهت لوفاة هذا الشيخ العظيم الذي كانت تأتيه الدنيا مسخرة...)[٣٢].

٣ ــ تاريخ طرابلس وآثارها القديمة: أرانا قد أسهبنا في الكلام عن مضمون هذا الكتاب الذي ما زال مخطوطا كما قلنا، وقد آن لنا أن نحدث في الشكل: كتب هذا التاريخ بخط جميل، ولكن بقلم الرصاص، في عشرة دفاتر من مائة ورقة، عاشرها للفهارس المختلفة، لم يستعمل سوى وجه من كل ورقة. ولكنه في أثناء الكتابة، وقد استغرقت عشرات السنين، كان كلما وقع على شيء يراه جديرا بالذكر، اومرت به حادثة تستحق التسجيل، أوعنت له فكرة جديدة، كان يشير إلى ذلك في سياق الصفحات المكتوبة، ويخطها في الصفحة البيضاء، وليست دائماً هي الصفحة المقابل! ثم لم يعد إلى نسخ الكتاب في حياته!

فخط بقلم الرصاص الذي لا يثبت على الأيام، وإشارة إلى إضافات لا تعود إلى صفحات متقاربة، بل وأكثر من ذلك، فثمة مواضيع لم يتمها، عهد إلى أبنائه باتمامها، وأخرى اقترحها لتزاد في أماكن بعينها.

كل هذا يفرض على من يتصدى لتحقيق هذا الأثر النفيس أن يعمد إلى إعادة نسخة، ووضع كل شيء في موضعه، ولعلنا في (رابطة إحياء

التراث الفكري) نقوم بهذا الواجب، إذا ما دعينا إليه. فالمخطوط ما يزال في حوزة الورثة، وهو إرثهم الوحيد، وأكرم به من إرث. ولقد أعاروني‌ه منجما، وعلى مراحل. ولست أعلم أن أحداً اطلع عليه في حياة المؤلف سوى الأديب مارون عيسى الخوري[٣٣]. فقد كان، رحمه الله، ضنيناً بنتاج عمره المديد، ولولا شدة حرصه عليه سامحه الله، لرأى هذا المؤلف الفريد النور من أمد بعيد.

في الستينات، وبطلب من المؤلف، راجعت بشأن طباعته رئيس الجامعة اللبنانية، فرحب بالعرض، وطلب الاطلاع على المخطوطة، فما استجيب طلبه، وكذلك الحال مع رئيس بلدية طرابلس...

ولئن كان المؤلف ضنيناً بكتابه إلى هذا الحد، فلقد كان سخياً بعلمه إلى أقصى حد. فما من عالم أو طالب علم قصده إلا ووجد عنده التلبية والترحاب: فإذا سئل أجاب: وإذا استكتب كتب. بل هو يفيض بعلمه على قصاده وجلاسه دونما سؤال أو استكتاب. وكثيرا ما سار مع هؤلاء، متنقلا بهم بين الأماكن الأثرية، يقص عليهم حكاياتها، ويقرأ لهم كتابتها. ومن طريف ما حدثني به ان مستشرقا المانيا شابا طلب مساعدته في تحقيق أطروحته، وموضوعها (الكتابات الأثرية في طرابلس الشام) فاستجاب له، وأخذ هذا يلصق عصائب من قماش خاص، على ما يروم تصويره، ثم ينزعها عنه، فإذا هو مرسوم عليها. وعاد بهذه الثروة إلى بلده، وفاز بتقدير عال، ثم بعث يشكر الشيخ على كريم مساعدته.

وأرى أن خير ما يقال في هذا الكتاب وطريقة تأليفه هو ما كتبه المؤلف نفسه: «... وقد يأتي بنحو ألف صفحة، ويشتمل على خمسين صورة فوتوغرافية للأماكن الأثرية (جمعت فيه تاريخ هذه المدينة منذ بناها الفينيقيون، أتتبع شوادر أخبارها، وأجمع بين شتات وقائعها من شتى المؤلفات، ما بين مطبوعات ومخطوطات، وما تم على أرض هذه المدينة من حروب دموية وما حيك فيها من مؤامرات ودسائس سياسية، ونهضة عمرانية أيام بني عمار، وما أصيبت به بعدهم من ضربات أليمة أيام احتلال الفرنج لها الذي دام ١٨٥ سنة، وما مر في تاريخها من شدة ورخاء، وحروب دموية، وحكام ظلمة، وزلازل مدمرة، وإجلاء لأهلها محزن، وذبح سبعين من أشرافها كان له وقع مؤلم».

وكان ينثر من كتابه ما يسميه نبذا، وهي فصول منه مجزوءة، أو كاملة، وكلها قيمة ولدينا ست منها تحمل العناوين التالية:

١ ــ (مدينة طرابلس) في سبع عشرة صفحة، نبذة شديدة الاختصار لتاريخ المدينة وآثارها، ركز فيها على المقاطع التاريخية الهامة.

٢ ــ (صفحة من تاريخ الكرام بني كرامة) أكد فيها أن جدهم الأعلى هو زهر الدولة كرامة بن بحتر من أمراء الغرب التنوخيين. وفي ثمان وثلاثين صفحة لخص تاريخ هذه الأسرة، وألمع رجالاتها. وذكر أن أول من استقر منهم في طرابلس هو مصطفى بن جمال الدين بن يوسف كرامة، وأنه هو واقف الوقف الشهير بالبداوي سنة ١٠٢١هـ ــ ١٦١٢م ثم يختم هذه النبذة بذكر سلسلة النسب الكرامية[٣٤].

٣ ــ (الفكر العربي في طرابلس) في ثماني صفحات من الحجم الكبير، أتى فيه على أسباب النهضة الحديثة، وألمع رجالاتها، وهو بحث رائد جليل الفائدة.

٤ ــ (ولاية بني سيفا على طرابلس وملحقاتها ــ ملخصا عن تاريخ طرابلس) في أربع صفحات من الحجم الكبير، لخص فيه تاريخ هذه الأسرة التي كان لها دور بارز في تاريخ لبنان الحديث والتي ناصبها المعنيون العداء، وقضى عليها قضاء مبرما ولاة الأتراك. ويضيف: والذين بقوا منهم غيروا اسمهم السيفي... ولقد اتصل بنا عن المشايخ المعمرين، وفي بعض الحجج الشرعية بما لا شك فيه أن من ذرية بني سيفا في طرابلس بني الشهال وبني عويضة، وفي خارج طرابلس بني عوض الله).

وينقل عن (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)[٣٥] (أن كبير الأسرة السيفية يوسف باشا قد ابتنى جامعا خارج باب البحصة بمحلة السويقة، وكان يسمى جامع البياطرة، وإنه بحالة الاندثار) ثم اندثر كلياً بفعل فيضان ١٩٥٥.

٥ ــ (رحلة النابلسي لطرابلس) لخص فيها عن مخطوطة كانت لديه (التحفة النابلسية في الرحلة



الطرابلسية) للشيخ عبد الغني النابلسي ١٦٤١ ـ ١٧٣١، التي لبى فيها دعوة والي طرابلس أرسلان باشا المطرجي.

ش٦ ـ (الكتابات التاريخية) وهي مجموعة الكتابات الأثرية في طرابلس، في ثماني صفحات من القطع الكبير، وهي جليلة الفائدة.

وبعد، كان للمؤرخين والدارسين، في السبعينات، جولات متعمقة في تاريخ طرابلس، فظهرت كتب قيمة، ودراسات موفقة. وكان للجامعات، على اختلاف نزعاتها وأغراضها، في الشرق والغرب على السواء، الأثر البالغ في هذا التوجه، ومع ذلك فإن كتاب (تاريخ طرابلس وآثارها القديمة، لم يفقد قيمته. كيف وقد ضم بين دفتيه كل ما كتب عن طرابلس، من مخطوط ومطبوع ومحفور، وهو كثير كثير، وبذلك يوفر على الباحثين الرجوع إلى المصادر ذات العدد، وهيهات أن يوفق إليها، أو يعثر عليها، إذ هي موزعة بين عشرات الكتب والمكاتب والبلاد.

ولقد أرخت وفاة المؤلف، ولخصت حياته بهذه الأبيات التي نقشت على ضريحه، نور الله ضريحه:

عالماً عاش وعامل
يجتلي علم الأوائل
فاستقى منه وأسقى
عذبة تلك المناهل
كثر التاليف لكن
فاز بالخلد الأماثل
قارىء القرآن أرخ
ميز التاريخ كامل
١٣٩٠ ٩١ ١٢٤٢ ٥٧

الهوامش

(١) راجع مقالتنا في سلسلة علماء طرابلس بعنوان: العلامة الشيخ جميل عدرة، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الرابعة، العدد ٤٢ نيسان ١٩٨٢.



□ الشيخ علي العمري بميناء طرابلس في استقبال رشيد باشا والي بيروت التركي وإلى شماله الشيخ علي رشيد الميقاتي.

(٢) تراجم علماء طرابلس لعبد الله نوفل ص ١٢٦
(٣) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي للدكتور السيد عبد العزيز سالم، ص ٤٤٣، س ٣، مطابع رمسيس بالاسكندرية ١٩٦٧.
(٤) كنوز من الفكر العربي لاسامة عانوتي ص ٢١١.
(٥) المرجع السابق ص ٢١١ ايضا.
(٦) سجلات المدرسة الجديدة — شباط ١٩١٩.
(٧) من مقال في (نهار) الأحد ١٥ — ٥ — ٨٣ ص ١٠
(٨) الخطط — مطبعة المفيد في دمشق ١٩٢٦ ج ٦، ص ٥٢.
(٩) العدد ٢٧ — نيسان ١٩٦٢ ص ٨ وما يليها.
(١٠) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٤٤٣ وما يليها.
(١١) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج ٢ ص ٢٦٩ و٢٧٦ وبالمناسبة وللحق نقول ان جميع من كتب عن برج السباع من وطنيين وأجانب، وهم كثر، توهموا أن هذه التسمية إنما جاءته من أسدين كانا محفورين فوق المدخل، ولكن أحداً لم يقل انه رآهما، إلى ان جاء التدمري وبرهن بصورة مقنعة أن هذه التسمية إن هي إلا تحريف لاسم باني البرج الأمير برسباي.
(١٢) هو بروس كوندي (Bruce Condé) مطبعة البيان — بيروت. ومن طريق ما أخبر به الشيخ انه عربي الأصل من قبيلة كندة اليمنية، وانه زار اليمن وتعرف على قبيلته، فاعترفت به.
(١٣) النقد ص ٥ و٦.
(١٤) المرجع السابق ص ٣٢ و٣٣.
(١٥) المرجع السابق ص ٣٣.
(١٦) المرجع السابق ص ٨ وما يليها.
(١٧) تفسير الفخر الرازي. المجلد السابع ص ٧٤٨ — المطبعة العامرية الشرقية سنة ١٣٠٨هـ.
(١٨) هامش الفخر الرازي ج ٢ ص ٥٠.
(١٩) المجلد الرابع ص ٣٦ مكتبة الجابي الحلبي بمصر ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م.
(٢٠) للشيخ طنطاوي جوهري ج ٢٣ ص ٢٤٨.
(٢١) مرآة الإسلام — الطبقة الرابعة من دار المعارف بمصر ١٩٦٩، ص ١٢٩.
(٢٢) العقيدة الإسلامية — مطبعة دار الأيتام في ١٩٥٢ ص ٦٧.
(٢٣) راجع الوحي المحمدي للشيخ رشيد رضا ص ١٧١ إلى ١٨٣ الطبعة الثامنة وكتاب المنار والأزهر ص ١٤٨ الطبعة الأولى ١٣٥٣، مطبعة المنار بمصر.
(٢٤) كتاب نثر اللآلي في ترجمة ابي المعالي علامة الفيحاء ورئيس العلماء الشيخ عبد الكريم عويضة بقلم صبحي الصالح — طرابلس ١٩٥٦ ص ٤٠ و ٤١.
(٢٥) جامع كرامات الأولياء، دار الكتب بمصر ١٣٢٩هـ.
(٢٦) لناظمها ابراهيم بن حسن اللقاني (؟ — ١٠٤١هـ؟ — ١٦٣١م).
(٢٧) التواتر عند المحدثين هو ان يروي جمهور عظيم الحديث، ويحيل العقل تواطؤهم على الكذب.
(٢٨) كتاب الكرامات ص ١٦ و١٧.
(٢٩) المرجع السابق ص ١٥ — ١٨.
(٣٠) محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت — مطبعة الولاية ١٣٣٦هـ ١٣٣٣ مالية — المجلد الثاني ص ٢٤١.
(٣١) الكرامات ص ٢١٣ و٢١٤.
(٣٢) الشيخ علي العمري هو ابن الشيخ مصطفى من مواليد دمشق عام ١١٩٤ — ١٣٢١هـ ١٧٨٠ — ١٩٠٣م ويقول الشيخ عن نفسه: ثم توجهت إلى اللاذقية واختليت فيها بخلوة في جامع العويني، وبقيت سبع سنوات مختلياً مشتغلاً بالاذكار، ثم غلبني (الحال) أي ترقيت عن مقامي الأول، فخرجت هائما على وجهي في الجبال والقفار مدة سنوات ثم حصل لي الصحو (الكرامات ص ٦٢).
(٣٣) ملامح ثقافية — منشورات جروس برس — الطبعة الثانية طرابلس ١٩٨٣ ص ١٠.
(٣٤) النبذة المخطوطة ص ٣٧ وما يليها.
(٣٥) للمحبي — ج ٤ ص ٥٠٣.

■

تاريخ الألعا

د. يوسف شبل

□ اولمبياد اثينا ١٨٩٦

توقفت الألعاب الاولمبية التي كان يمارسها قدماء اليونان ي عام ٣٩٣ ميلادية. وفي القرن الثامن عشر بدأ الاهتمام من جديد في بعث التاريخ اليوناني بما فيه الألعاب الاولمبية. وفي عام ١٨٥٠ قام الدكتور «بروك» بتأليف «الجمعية الاولمبية» حيث التقى بعد ذلك بالبارون الفرنسي بيير دو كوبرتين (Pierre De Coubertin) الذي تبنى فكرة بعث الألعاب الاولمبية من جديد.

وكان من الطبيعي ان يثير هذا الاقتراح اهتمام الحكومة اليونانية، وقد قامت اللجنة التي تألفت برئاسة «كوبرتين» بالاتصال بالحكومة اليونانية التي لم تتحمس للفكرة كثيرا بسبب المتاعب المالية التي كانت ترزح تحتها. غير ان ولي عهد اليونان الأمير قسطنطين قام بتأليف لجنة ن اثني عشر عضوا واجتمعت في ١٣ كانون الثاني عام ١٨٩٠ للتحضير لأول اولمبياد بعد مئات السنين من التوقف. وقد قامت اللجنة بوضع شروط الاشتراك والرياضات المختلفة التي سيتضمنها الاولمبياد. وقامت الهيئات الشعبية ورجال الاعمال بجمع الاموال الضرورية لهذا الغرض. وقامت اللجنة باصدار طوابع خاصة ارصد ريعها لتمويل جزء من نفقات اول العاب اولمبية حديثة. وتبرع الثري اليوناني «جرجيوس آفيروف» بمبلغ ٩٢٠,٠٠٠ دراخما، بما يوازي قيمتها من الذهب لكي يكون لليونان شرف تنظيم اول دورة اولمبية، كما كان يفعل قدماء اليونان.

وكانت اللجنة الاولمبية الدولية قد تشكلت في باريس وعقدت أول اجتماع لها في قلب جامعة السوربون بعد مؤتمر شارك فيه ٧٩ عضوا و٤٩ اتحادا رياضيا. وقد وضع البارون «كوبرتين» اسس الألعاب الاولمبية كما كان يريد هيئة دولية مستقلة قادرة على الاستمرار. وبناء على ذلك قام بتشكيل لجنة قوامها خمسة عشر شخصا برئاسته من ١٢ بلدا في العالم. وحدد كوبرتين اربع مهمات رئيسية لهذه اللجنة:

(أ) تطوير القيم الأخلاقية والصفات الجسدية للمشتركين.

(ب) تثقيف الشباب من خلال ممارسة الرياضة بما يحقق التفاهم المشترك بين شعوب العالم.

(ج) نشر الشعار الاولمبي بين مختلف شعوب العالم.

(د) جمع رياضيي العالم في مهرجان كل اربع سنوات.

وحتى عام ١٩٦٦ كان الاعضاء ينتخبون مدى الحياة، اما بعد هذا التاريخ فقد تقرر ان يتقاعد العضو في سن الثانية والسبعين. كما كان يتوجب على العضو ان يكون مقيما في بلاده، لذا اضطر ولي عهد اليونان الذي غادر بلاده بعد الانقلاب العسكري في اليونان الى الاستقالة من منصبه.

وافتتحت اول دورة اولمبية في ٢٤ اذار من عام ١٨٩٦ في مدينة «اثينا» حيث اقيم تمثال لرجل الأعمال اليوناني الثري «آفيروف». وتجمع في يوم الافتتاح اكثر من ٨٠,٠٠٠ مشاهد حيث

ـب الأولمبيّة الحديثة



قام الملك وملكة اليونان بافتتاح الدورة رسميا. وقد شارك في الدورة الاولمبية الأولى ٣١١ رياضيا يمثلون ١٣ دولة وهي: استراليا، النمسا، بلغاريا، تشيلي، الدنمرك، المانيا، فرنسا، اليونان، بريطانيا، السويد، سويسرة، المجر، والولايات المتحدة الاميركية. وقد جاء معظم هؤلاء الرياضيين ببادرة شخصية منهم وعلى نفقتهم الخاصة. وتضمنت الدورة تسعة العاب وثلاث واربعون سباق، كان اهمها دون شك «الماراتون» حيث تنافس في العدو ١٦ عداءا لمسافة ٤٢ كيلومترا. وقد فاز في السباق العدّاء اليوناني «سبيروس لويس» الذي اصبح بطلا قوميا في بلاده.

اشتملت الألعاب على العاب القوى، رفع الأثقال، الجمباز، المصارعة، المبارزة، الرماية، السباحة، الدراجات، كرة المضرب. اما التجديف فقد الغي بسبب رداءة الاحوال الجوية، كما ان الكريكيت تم الغاؤها بسبب عدم اشتراك عدد كاف. وكان الاميركي «جيم كونولي» اول رياضي يفوز بميدالية اولمبية حيث فاز بمسابقة «الخطوتين وقفزة» حيث سجل ١٣,٧١ مترا، حيث نال ميدالية فضية في حين ان الثاني نال ميدالية برونزية (لم يكن قد بدأ منح ميدالية ذهبية للأول كما هو الآن). ولقد نجحت اول دورة اولمبية رغم تواضع مستواها الفني والاداري وكانت فرحة اليونانيين عظيمة لأن الحلم قد تحقق.

وفيما يلي مقارنة بين الأرقام التي سجلت في اولمبياد «اثينا» عام ١٨٩٦، وبين اولمبياد مونتريال ١٩٧٦، وفيها يتضح امرين: الاول، القفزات الكبيرة التي حققها الرياضيون في العالم خلال فترة ثمانين عاما، والثاني، ان كثيراً من البلدان النامية في الرياضة ومنها لبنان لا تزال ارقامها اقرب لتلك التي كانت في اولمبياد «اثينا».

□ اولمبياد باريس ١٩٠٠

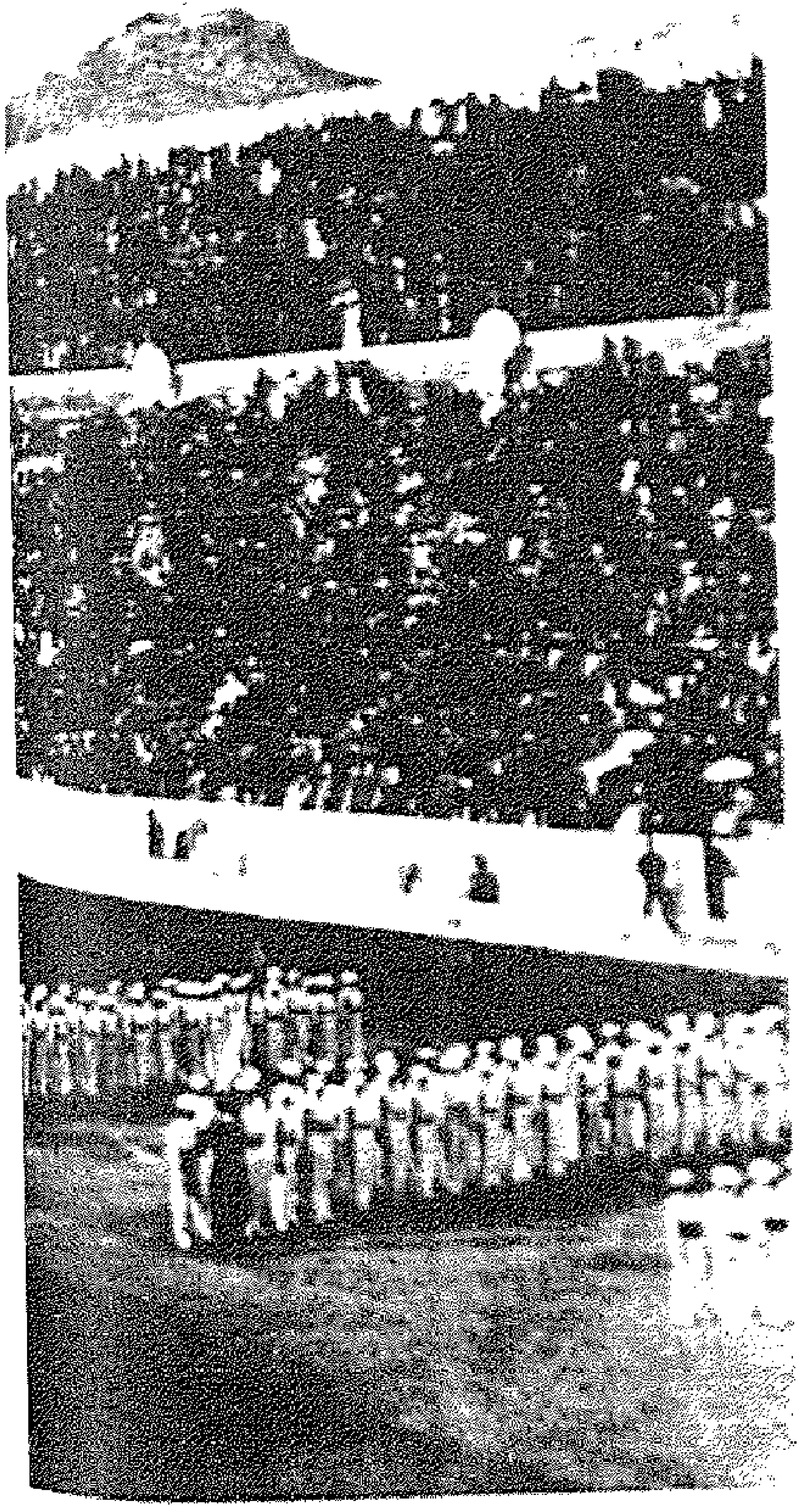
لقد حاول ملك اليونان جورج الأول احتكار الالعاب الاولمبية في مدينة «أثينا» غير ان البارون كوبرتين اعتذر بلباقة واستطاع ان يقنع الملك

مقارنة بين ارقام اولمبياد اثينا واولمبياد مونتريال (العاب القوى)

	١٨٩٦ (اثينا)	١٩٧٦ (مونتريال)
١٠٠ متر	١٢,٠٠ ثانية	١٠,٠٦ ثانية
٢٠٠ متر	٢٢,٢ ثانية	٢٠,٢٣ ثانية
٤٠٠ متر	٥٤,٢ ثانية	٤٤,٢٦ ثانية
٨٠٠ متر	٢,١١ دقيقة	١,٤٣,٥ دقيقة
١٥٠٠ متر	٤,٣٣ دقيقة	٣,٣٩,٢ دقيقة
الثلاث قفزات	١٣,٧١ متر	١٧,٢٩ متر
القفز الطويل	٦,٣٥ متر	٨,٣٥ متر
القفز العالي	١,٨١ متر	٢,٢٥ متر
القفز بالزانة	٣,٣٠ متر	٥,٥٠ مترا
الصحن	٢٩,١٥ متر	٦٧,٩٠ مترا

مقارنة بين ارقام السباحة

١٠٠ متر حرة	١٥,٢٢,٢ دقيقة	٤٩,٩ ثانية
٤٠٠ متر حرة	٦,١٦,٢	٣,٥١,٩
١٥٠٠ متر حرة	١٨,٢٢,٢ دقيقة	١٥,٠٢,٤
١٠٠ ظهر	١,١٦,٨ دقيقة	٥٥,٤٩ ثانية



بضرورة اقامتها بعد اربع سنوات أي في عام ١٩٠٠ في «باريس». وقد جوبه بمعارضة شديدة من بعض الهيئات الرياضية في فرنسا. وبعد جولة اوروبية تمكن البارون كوبرتين من الاتفاق على اقامة الألعاب الاولمبية الثانية على ملعب «الراسينغ» الكائن في غابة بولونيا الشهيرة. والطريف في هذه الدورة انها استمرت من ٢٠ ايار ــ ٢٨ تشرين الأول!! من عام ١٩٠٠. واشتملت على رياضات عديدة بعضها للهواة وبعضها للمحترفين. وكان عدد الرياضيين المشتركين ١٣١٩ منهم ١١ امرأة وعدد الدول المشتركة ارتفع الى ٢٢ دولة. وقد حدثت عدة حوادث طريفة منها انسحاب بعض الرياضيين دون سبب والتفاوت الكبير في النتائج كما كانت تظهر في الصحف الفرنسية. فقد تميزت هذه الدورة بفوضى في تنظيم برامج اللقاءات المختلفة وبالتشاجر بين اللاعبين الى درجة هددت على اثرها بعض الدول المشتركة بالانسحاب. اما نجم الدورة الاولمبية في باريس دون منازع فكان الاميركي «الفين كرنزلين» (Alvin Kraenzlein) الذي فاز بأربع مسابقات في العاب القوى وهي سباق ٦٠ مترا عدواً، سباق ١١٠ امتار حواجز، سباق ٢٢٠ مترا حواجز والقفز العريض. وهو حامل الرقم العالمي انذاك حيث قفز ٧,٤٣م (أي سبعة امتار وثلاث واربعون سنتمتراً). وقد اكتسح الامريكيون مسابقات العاب القوى حيث فازوا بـ ١٧ لقبا من اصل ٢٣ مسابقة.

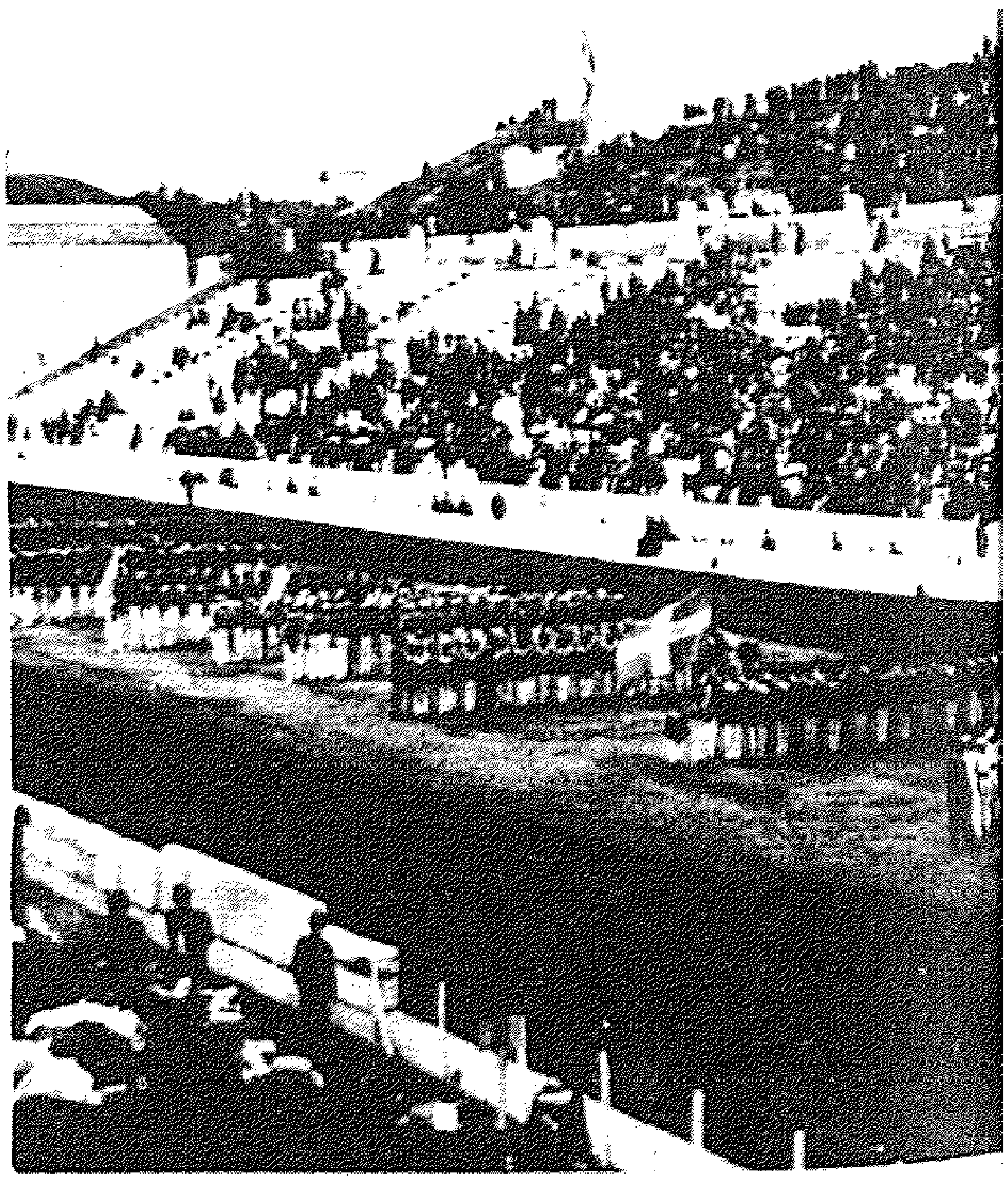
وفاز بسباق الماراتون الفرنسي «ميشال ثياتو» (M. Theato) الذي قطع مسافة الـ ٤٣ كيلومترا بـ ٢,٣٩,٤٥ (ساعتان وتسع وثلاثون دقيقة وخمس وأربعون ثانية). والطريف في الأمر انه لم يعلن فوزه رسميا الا بعد اثني عشر عاما!! اي في عام ١٩١٢ فقد طعن الاميركي «ديك غرانت» الذي حل سادساً بالنتيجة لأنه كما قال اصطدم بدراجة في شوارع باريس وهو يعدو واحتل المركز السادس!!

اما سباقات السباحة فكانت في منتهى الفوضى فقد جرت في مياه النهر الموحلة وأصبح من الصعب اكمال السباقات وبالتالي تحديد الفائز. وهكذا انتهت دورة باريس الاولمبية بكثير من الغموض والشجارات مفسحة الطريق امام



□ برنامج الألعاب الاولمبية لدورة اثينا ١٨٩٦.

□ حفلة افتتاح اولمبياد اثينا.



الاولمبياد الثالث الذي جرى في مدينة «سانت لويس» في الولايات المتحدة الاميركية في عام ١٩٠٤.

□ اولمبياد سانت لويس ١٩٠٤

رغم الاتفاق الذي تم في عام ١٨٩٦ على اختيار الولايات المتحدة مكانا للاولمبياد الثالث فان خلافا حادا حصل بين الامريكيين انفسهم حول مكان اقامة الالعاب الاولمبية. فالبعض طالب باقامتها في مدينة «شيكاغو» والبعض الآخر أصر على «سانت لويس» في ولاية ميسوري في الجنوب. وبعد جدال طويل دخل فيه «البارون كوبرتين» طرفاً حسم رئيس الولايات المتحدة الجدال باختيار مدينة سانت لويس حيث كان من المقرر اقامة معرض عالمي فيه الى جانب الالعاب الاولمبية.

غير ان اولمبياد «سانت لويس» كان فاشلاً بالنسبة لعدد الدول التي اشتركت فيه ١٢ دولة بالمقارنة لـ ٢٢ اشتركت في دورة باريس (١٩٠٠) وعدد الرياضيين ٦١٧ بالمقارنة مع ١٣١٩ في دورة باريس. ومعظم المشتركين كانوا اميركيين أو كنديين. الشيء الايجابي الوحيد في دورة «سانت لويس» كان تحديد ايام الدورة باثني عشر يوما فقط بعد ان طالت اشهرا عديدة في «باريس» كما تقرر التشدد في عدد المحترفين وفتح الباب امام الرياضيين الهواة فقط.

والمعروف ان مدينة «سانت لويس» عند افتتاح الدورة الاولمبية الثالثة فيها كانت تحتفل بمرور مئة عام على شراء ولاية «اريزونا» من قبل الرئيس توماس جيفرسون من الامبراطور نابليون الأول لقاء مبلغ ١٥ مليون دولار. وكان سكان سانت لويس في حدود ٦٠٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٠٤.

ولم يكن ذلك العام هادئا من الناحية السياسية في العالم فقد تحرك الأسطول البريطاني بسبب التهديد الذي حصل بالنسبة للملاحة في قناة السويس نتيجة الحرب الروسية اليابانية. وفي وسط هذا الجو المشحون لم تشترك بريطانيا سوى بعداء واحد وبالتالي كان اشتراكها رمزياً.



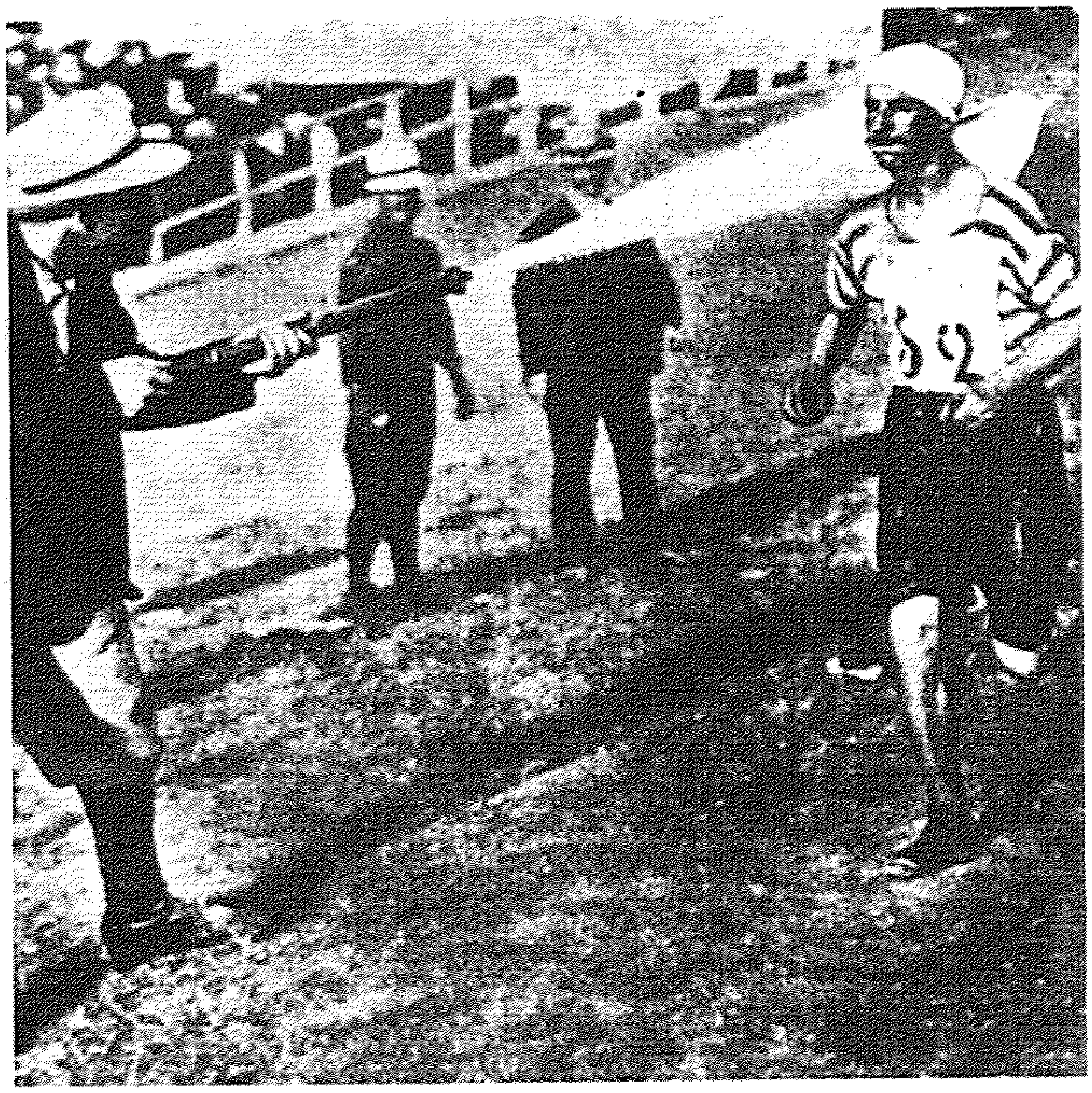
□ بدء سباق الماراتون وقد تجمع الصبية اليونان على سطو

وكانت نتائج المباريات بالنسبة للفرق كالتالي: (أ) كرة السلة (على سبيل العرض فقط)؛ (ب) كرة القدم: كندا؛ (ج) كرة الماء فازت بها الولايات المتحدة. والطريف في الأمر ان هذه الفرق لم تكن منتخبات وطنية وانما عبارة عن اندية مما اضفى على الالعاب الاولمبية الكثير من عدم الجدية. واستمرت الألعاب الاولمبية من ٢٩ آب حتى ٣ أيلول حيث كان معدل الحضور اليومي في حدود ٢٠٠٠ مشاهد تجمعوا بالقرب من جامعة واشنطن لمشاهدة العاب القوى حيث تألق فيها الأميركيون.

ومن الأبطال الذين احتفظوا ببطولاتهم السابقة في دورة باريس لعام ١٩٠٠ الرياضي الأميركي «جون فلانجان» الذي احتفظ ببطولة المطرقة وبطل القفز الشهير «راي إيوري» الذي فاز ببطولة القفز العالي (١,٥٠م) والقفز العريض (٣,٥٠ مترا) و١٠,٥٥م في القفزة الثلاثية. وهي كما يتضح أرقام متواضعة جدا. كما فازالعدّاء



لمنازل.



□ وسيلة طريفة لانعاش المتسابقين في اولمبياد اثينا..

الاميركي «آرشي هان» ببطولة الـ ١٠٠ متر عدواً بزمن قدره (١١) ثانية) وفي سباق ٢٠٠ متر عدواً بزمن قدره (٢١,٦) ثانية. والطريف في السباق الأخير ان اللجنة المشرفة على المباريات عاقبت بقية العدائين بتأخير انطلاقهم ياردة واحدة لأنهم تسرعوا بالانطلاق قبل اطلاق الصفارة ومع ذلك وصل «هان» قبلهم بثلاثة امتار!!

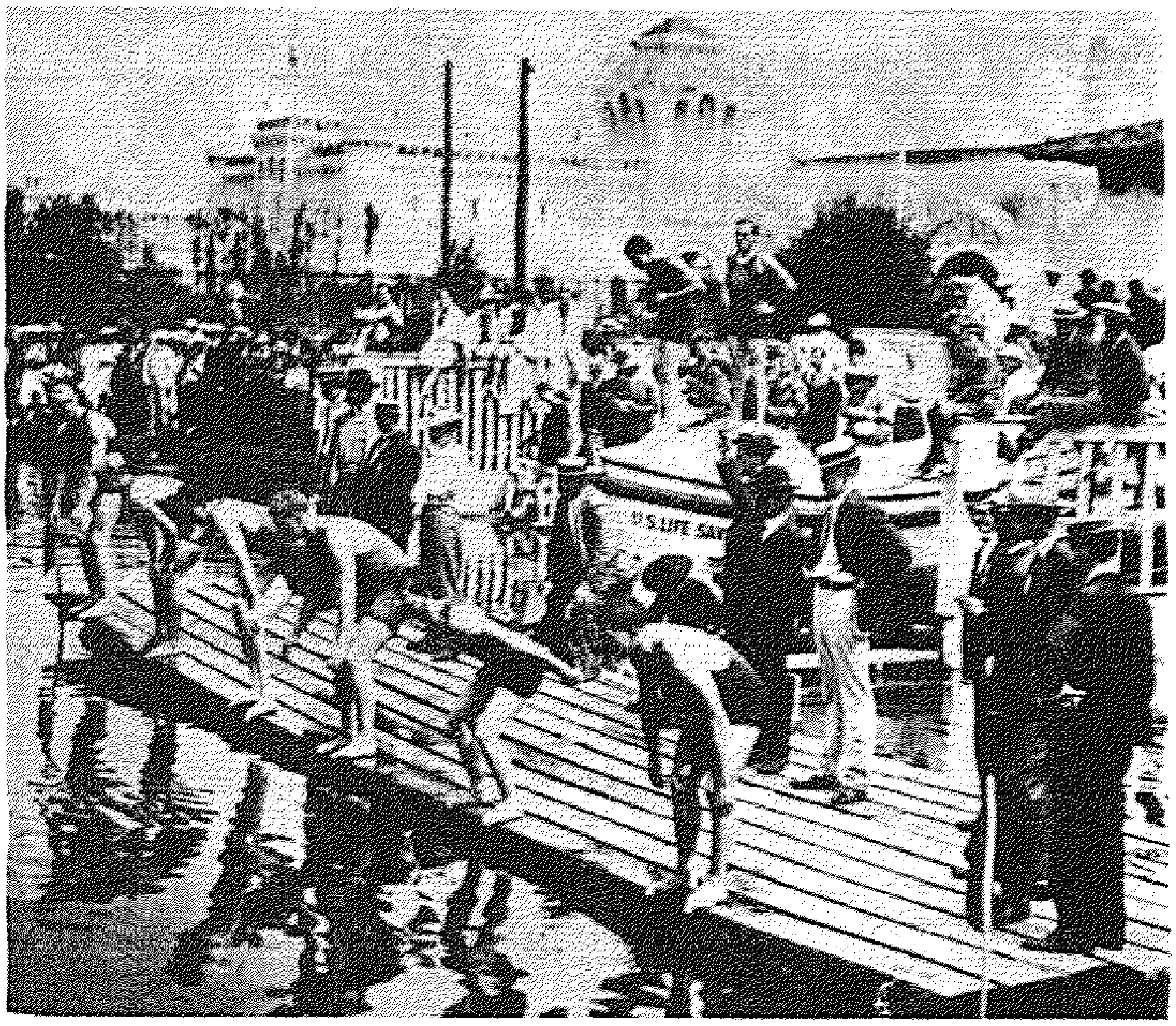
اما سباق الماراتوان فكان فاشلا تماما فقد تخلف عن اكمال السباق معظم المشتركين ووصل العداء الاميركي «توماس هيكس» بعد ان اسعفه اثنان من اعضاء اللجنة بشكل غير قانوني اذ القى بجسمه عليهما لكي يرتاح قليلاً وهذا بالطبع خطأ واضح كفيل بتعطيل النتيجة المشار اليها.

وفيما يتعلق بالملاكمة لم يشترك احد سوى الملاكمون الاميركيون وكذلك في المصارعة. وقد علّق «البارون كوبرتين» على اولمبياد سانت لويس بقوله «لم أكن حاضرا في مباريات رياضية فقط وانما كنت شاهدا على الغش والخداع في النتائج وكذلك شاهدا على اشتراك وحوش بشرية على سبيل الفكاهة»! وبذلك اختصر «كوبرتين» الفشل الذريع الذي احاط بدورة سانت لويس التي لم يكن فيها نقطة مضيئة واحدة.

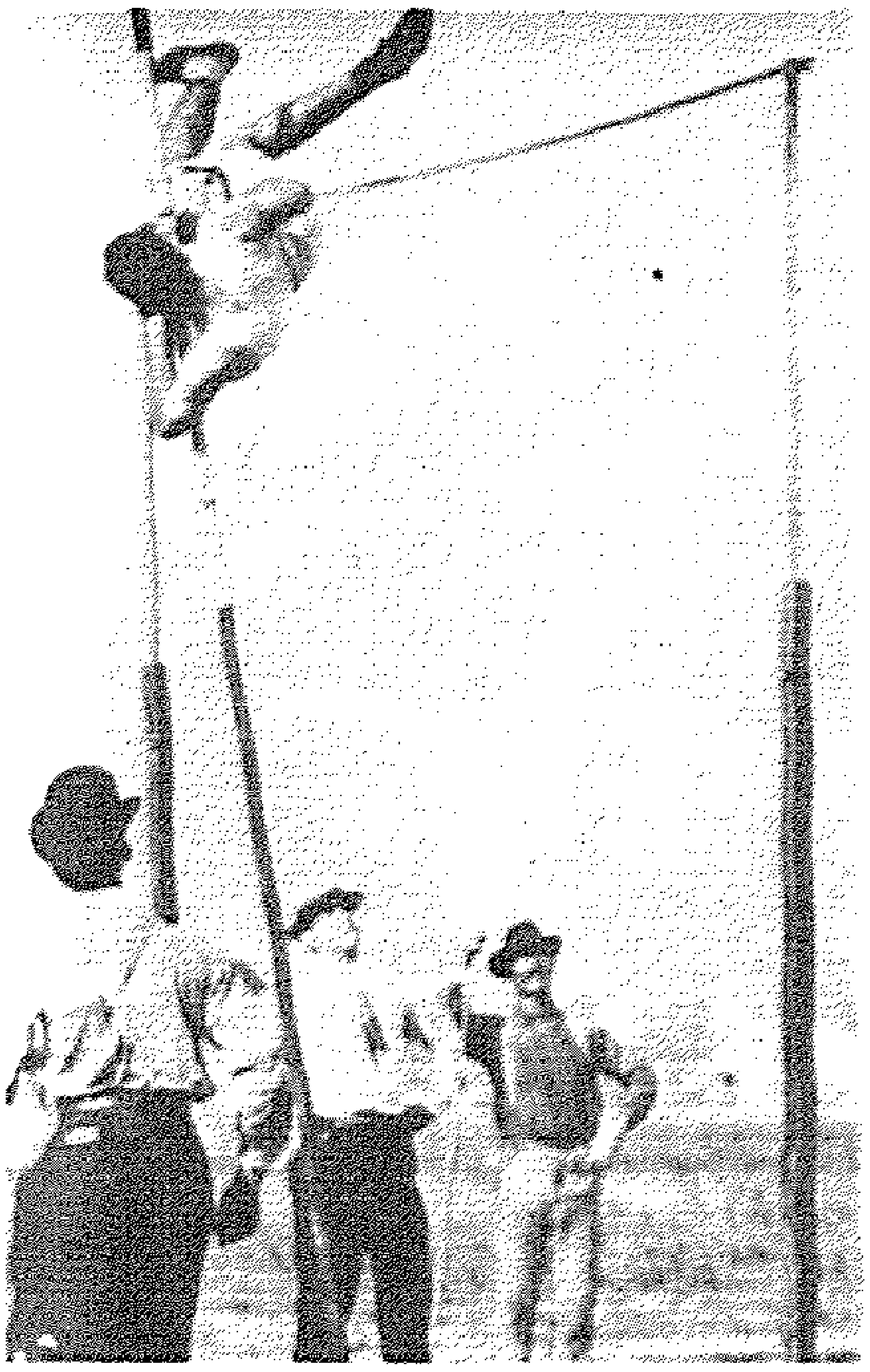
وبعد مداولات مطولة تقرر اقامة الدورة الرابعة في روما في عام ١٩٠٨ غير ان ايطاليا سحبت موافقتها لاحقا واستبدلت مكانها مدينة لندن التي جاءت على مستوى كبير من النجاح وكانت بمثابة نقطة تحول هامة في سيرة الألعاب الاولمبية.

□ اولمبياد لندن ١٩٠٨

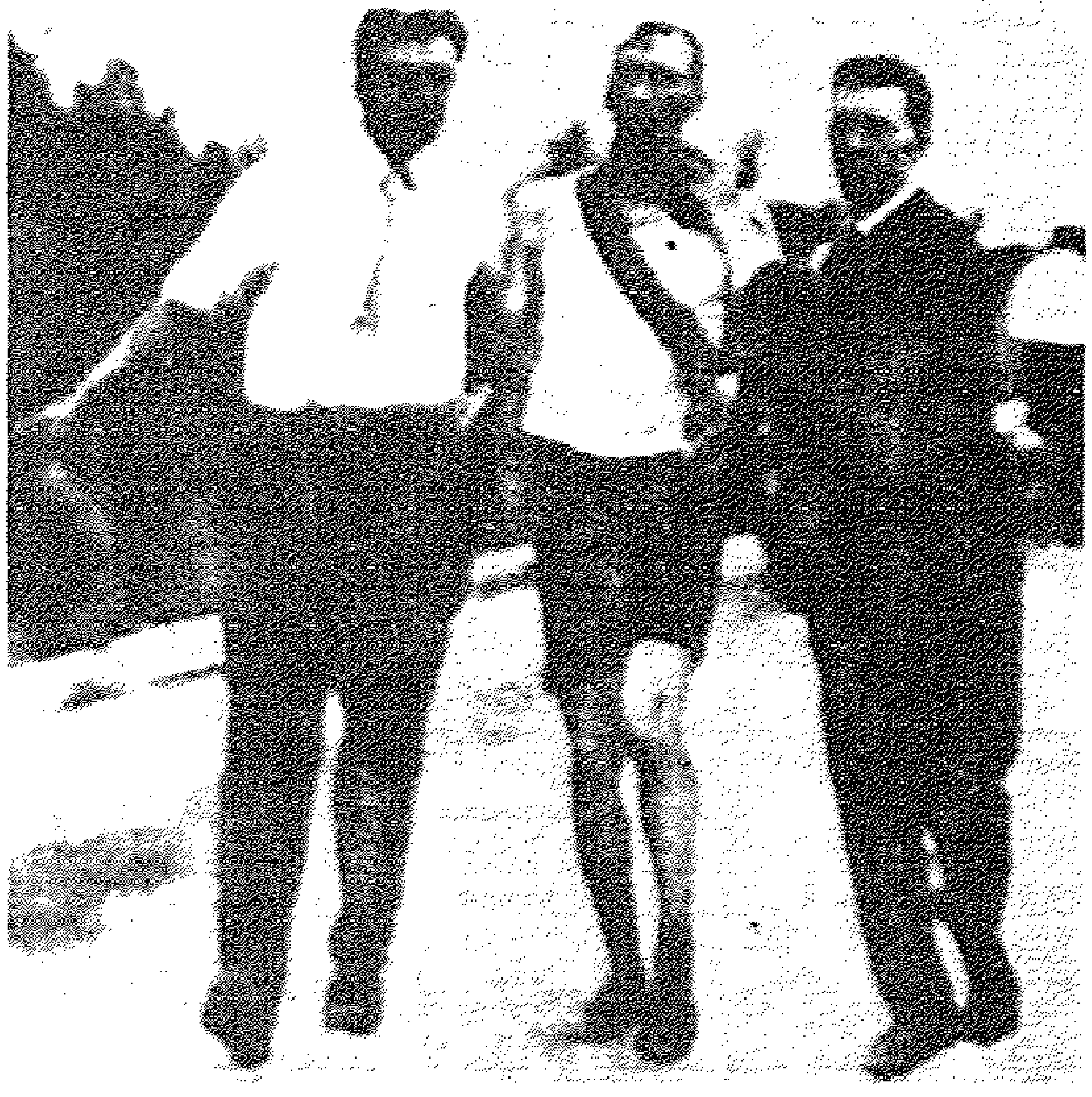
بعد فشل اولمبياد «سانت لويس» كان لا بد من نجاح كبير وإلّا انهارت الألعاب الاولمبية برمتها. فقد تميز اولمبياد لندن بالجدية والتنظيم حيث قامت اللجنة الاولمبية ببناء ملعب كبير يتسع



□ بدء سباق ١٠٠ ياردة سباحة حرة في دورة «سانت لويس».



□ شارلز دوفارك اللاعب الاميركي يقفز ٣,٥٠ في الزانة.



□ الفائز بسباق الماراتون تماس هيكس (الولايات المتحدة) يجفف عرقه بمساعدة بعض اعضاء اللجنة الرسمية!!

لـ ٩٠,٠٠٠ مشاهد بعد ان اتفقت مع المسؤولين عن المعرض البريطاني ــ الفرنسي. وقد بذلت اللجنة الاولمبية جهوداً جبارة لتنظيم المباريات وطبع الكراريس وحددت العدد الأقصى لكل فريق في كل لعبة على حدة بعد ان كانت الفوضى قد عمت في باريس وسانت لويس. وتم ادخال العاب جديدة مثل البولو والتنس كما تم تنظيم العاب القوى بكثير من الدقة والحزم. وقد كانت العائلة المالكة في بريطانيا في طليعة الحضور مما اضفى على الألعاب الاولمبية جوا من الاحترام والتنظيم الشديدين. وفي هذا الاولمبياد تم تحديد نهائي لسباق الماراتون على انه ٢٦ ميلاً و٣٨٥ ياردة ومنذل ذلك التاريخ وحتى العام ١٩٨٠ (اولمبياد موسكو) تكرست هذه المسافة نهائيا. والطريف ان العداء الايطالي «دوراندو بيتيري» فاز بالسباق رغم انه خالف الطريق القانونية لدخول الملعب في الأمتار الأخيرة من المسابقة وقد وجدت اللجنة انه من الظلم اعلان خسارته بسبب هذا الخطأ غير المقصود فاعلنت فوزه بعد ان سقط مغشيا عليه عند خط النهاية.

كما حدث اشكال في سباق ٤٠٠ متر عدواً فقد لجأ العداء الاميركي «كارنبتر» الى منع العداء البريطاني من تجاوزه وعندما قررت اللجنة الفنية استبعاد العداء الاميركي اصبح مدعيا بأن القانون في الولايات المتحدة يجيز له مثل هذا العمل!

وفي سباقات السباحة تم تشييد بركة ماء طولها ١٠٠ متر!! في حين ان القياس الذي يعتمد

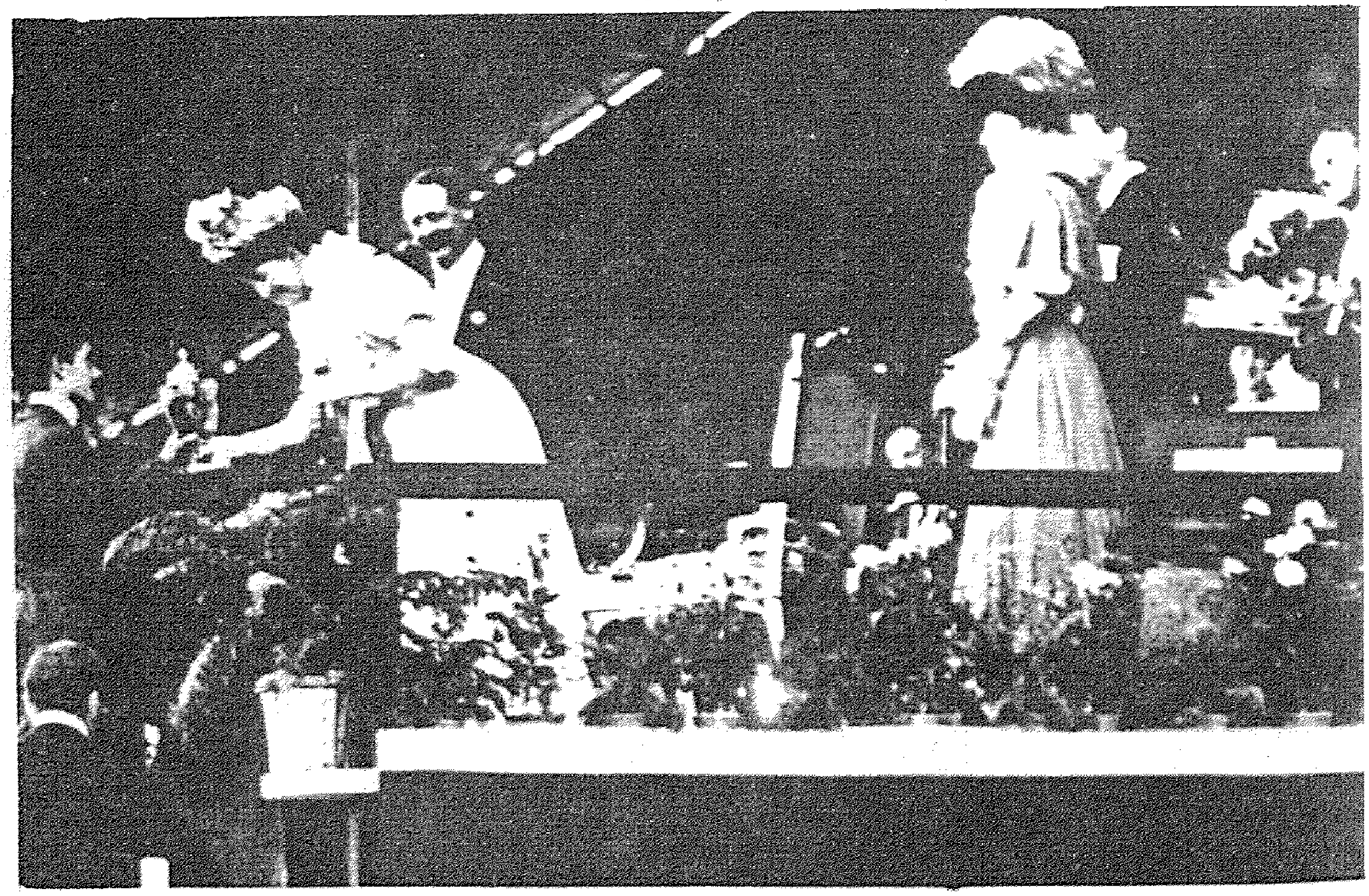
الآن هو ٥٠ مترا. وتفوق البريطانيون في سباق التجذيف في حين برز الأميركيون في العدو وألعاب القوى. ولم يعكر صفو اولمبياد لندن سوى سوء الطقس رغم أنه كان في تموز (الصيف) إذ ألغيت مسابقة الدراجات وتوقفت مباريات التنس وتضرر جسديا أكثر من لاعب.

وخلاصة القول كان اولمبياد لندن أكثر الدورات نجاحا وبالتالي أعطى هذه الدورة العالمية زخما جديدا بعد أن اعتقد كثير من الخبراء أن الألعاب الأولمبية ستتوقف حتما. ■



□ دوروندو بياتري (ايطاليا) الفائز بسباق الماراثون بمساعدة بعض «المراقبين» على خط النهاية!.. ولقد قررت اللجنة الفنية فيما بعد اعتبار الانكليزي «جون نيين» فائزاً بالسباق.

□ الملكة الكسندرة، ملكة انجلترة، تعطي الميدالية للفائز بالماراتون.



مَعْرَكَة واتَرْلو



تغيّر مصير التّحالفات والأحداث الأوروبّية

د. رياض العالي

ثمة معارك تاريخية، يعنى المؤرخون والكتّاب بتمجيدها، وينسون النتائج الحقيقية التي نجمت عنها، فغيرت احيانا علاقات، وتحالفات، واثّرت على مصير شعوب، وربما على تاريخ البشر احيانا. يعنون بالمنتصر، ويحصون خسائر المنكسر، ويغفلون عن الأساسي، والتغيرات العميقة التي جرها الانكسار على العلاقات الدولية. واترلو، من هذه المعارك التي اغفل المؤرخون نتائجها الحقيقية ويشددون على انكسار نابليون، وعلى بطولة بلوخر. وينسون ان النتيجة الأهم، هي ان واترلو وضعت نهاية للصراع الفرنسي ـــ البريطاني، وخلقت محله الصراع الفرنسي ـــ الألماني.

حل المسالة

على ابواب بروكسل، يرتفع باتجاه فرنسا، وعلى طريق شارلزوا القديمة، نصب اسد واترلو. إنه يذكر بانهيار حلم نابليون العائد من جزيرة البا، الثامن عشر من حزيران ١٨١٥، وفي نفس المكان. كان يحلم باستعادة امبراطوريته، ولكن الهضبة التي يقوم عليها النصب ما تزال تذكر بانهيار الحلم. كيف حدث ذلك؟ كيف قضي على اسطورة الامبراطورية التي بعثت من جديد؟ أسئلة كثيرة تطرح: لماذا لم ينتصر نابليون؟ لماذا لم ينكسر ولنغتون؟ أما كان نابليون انتصر لولا خيانة حالت دون تنفيذ مخططه الحربي؟ لماذا اقبل بلوخر لدعم ولنغتون الذي كان جيشه على وشك الانهيار، فوضع الجيش الفرنسي بين فكي كماشة، بينما كان يجب



□ نابليون ابان معركة واترلو.

ان يصل، في الوقت نفسه، غروشي بقواته، من خلف خطوط ولنغتون، فيفرض عليه الاستسلام، ويقضي على الحلف الرباعي ضد فرنسا.

غير ان هذه الأسئلة جميعا لا تعفي من الاقرار ان نابليون «الذي لا يقهر» قد كسر مرتين: مرة عام ١٨١٤ حين تحالفت ضده قوى اوروبا، ومرة عام ١٨١٥ حين تحالفت القوى ذاتها ضده.

على كل حال لم يختر نابليون ارض المعركة. لقد اختارها ويلنغتون. فحين عاد نابليون من جزيرة البا، آذار ١٨١٥، قدر انه يستطيع الاستفادة من انشقاق حلف مؤتمر فيينا، بسبب التعويضات التي كان يفترض دفعها لبروسيا، بدل مملكة الساكس. ولكن الامبراطور لم يدرك أن عودته لا بد ان تؤلب عليه الأعداء، فيحلوا المعضلة سياسيا بينهم، وعلى حساب فرنسا، باقتطاع اجزاء منها، اذا انتصروا عليها، وضمها الى بروسيا.

تحققت وحدة حلفاء ١٨١٤ سريعا. وتكونت قوة من انكلترا وبروسيا والنمسا وروسيا. وذلك في ٢٥ آذار ١٨١٥، اي بعد عودة نابليون بأيام قليلة. وقد قدر ولينغتون انه يكفي لحل المعضلة تدمير الجيش الفرنسي، دون القضاء على فرنسا. بينما كانت نوايا البروسيين القضاء على فرنسا ذاتها، لا نابليون وحده، ولا القوة الفرنسية وحدها. الا انه تم الاتفاق بين الحلفاء على تدمير القوة العسكرية اولاً.

وضع الحلفاء خطتهم خلال خمسة ايام. وقرروا تشكيل اربعة جيوش، تتجه جميعا نحو باريس: جيش نمساوي — الماني، ينطلق من الألب. وجيش نمساوي — سويسري — الماني عبر الرين الأعلى، وجيش روسي عبر الرين الأوسط، وجيش بروسي — انكليزي نيرلاندي عبرالبلاد الواطئة (هولندا). على ان يبدأ الهجوم العام في الأول من تموز.

ويلنغتون سيد اللعبة

تسلم ويلنغتون قيادة الجيش المنطلق من البلاد الواطئة. ومنذ أوائل نيسان نسق بين تحركات القوات البروسية والنيرلاندية والانكليزية، على نحو يحافظ فيه على المقاطعات البلجيكية، والرينانية، والبروسية، ضد أي هجوم مفاجىء يقوم به نابليون. ولقاء وعده بالقتال منسحباً — عند الضرورة — نحو ألمانيا، لا نحو البحر، تلقى من نيسنو، رئيس الأركان البروسي، بأن يتقدم في وادي الموز الى مستوى خط نامور — شارلروا. ورتب القوات البريطانية — النيرلاندية من مونس إلى البحر، مقدراً ان باستطاعته تجميع هذه القوى بسرعة في نيفيل. وهكذا تبدو طريق شارلروا — بروكسل خالية. وهذا ما خدع نابليون، الذي اعتقد انه اذا دفع بجيوشه في هذا الاتجاه، يستطيع فصل القوات البروسية عن البريطانية — النيرلاندية. ولم يكن يعلم ان ويلنغتون اختار هذه الطريق، وحتى مون سان جان، ارضا للمعركة، ليستدرج خصمه اليها، ويقطع عليه طريق بروكسل، ويدفع الجيش البروسي من ورائه، ليسحق الجيش الامبراطوري بين فكي السندان والمطرقة.

لتحضير ذلك، أجريت مناورات الحلفاء من برين — لالو الى واترلو، عند تقاطع طريق نيفيل — نامور مع طريق شارلروا — بروكسل. ثم ساد الصمت على طريق شارلروا، فيما انطلقت احاديث وبيانات تتحدث عن هجوم فرنسي متوقع على طريق مونس — بروكسل.

الضربة القاصمة

خلال هذه الفترة، كانت كل القوى الحليفة قد اتخذت امكنتها. ١٥ حزيران، كتب ويلنغتون الى قيصر روسيا انه يعتقد ان كل جيش لوحده قادر على تدمير قوة نابليون.

كان جيش نابليون قد اتم تركيز مواقعه في بومون، وبدأ الهجوم باتجاه بروكسيل عبر شارلروا. وعندما علم ويلنغتون بذلك، خشي ألا يندفع جيش نابليون باتجاه مونس. مما يجعل تدخل الجيش البروسي مستحيلاً. لذلك لم يوجه اية اوامر، طالما ان الجيش الامبراطوري لم يتقدم باتجاه شارلروا. ولكنه امر القوات البريطانية النيرلاندية بالتجمع في الخط ما بين نيفيل وطريق بروكسيل شارلروا. كان على القوة الخاصة، وحدها، وقد انشئت في نيسان، ان تتجه لتفتح تفرعات الطريق الأربع بقيادة قائد القوات النيرلاندية كونستان دوريبيك.



□ ويلنغتون يتلقى نبأ قدوم الجيش البروسي لدعمه.

كان بلوخر، من جهته، قد توقع الهجوم الفرنسي فركز قواته ليل ١٤ — ١٥ حزيران في مقاطعة فلوروس، على طريق نامور نيفيل، غير بعيد عن تقاطع فروع الطريق الأربعة.

وجه نابليون قواته ضد بلوخر، تاركاً لنيْ العناية باحتلال فروع الطريق، وانقض على البروسيين ودحرهم الى لينيي، ١٦ حزيران. وقد خيل اليه انه قضى على الجيش البروسي فأمر غروشي ان يلاحقه. ولكن ويلنغتون كان خلال النهار قد زار لينيي. ورغم انه لم يختر هذا الموقع للمعركة، فقد امر قواته بمهاجمة قوات ني، وأجبرها على وقف القتال.

حين صدم بلوخر في لينيي تسلم نيسنو قيادة الجيش البروسي، وأمر بالانسحاب، لا نحو نامور، حيث ينقطع الاتصال بالقوات البريطانية — النيرلاندية، وانما نحو ويفر، ليبقي على الاتصال. اتصل به ويلنغتون ليلاً وسأله ان كان يستطيع موافاته في مون سان جان في ١٨ حزيران، وجعل القوات البريطانية — النيرلاندية تتراجع الى موقع تقاطع الطرق. وغدا موقع مون سان جان مركز تجمع قواته. وترك عند التقاطع ستاراً من الخيالة، عليه ان ينسحب تدريجياً، حين يظهر الجيش الفرنسي القادم من لينيي. وبالتالي يستدرج الفرنسيون الى مواجهة الخطوط البريطانية النيرلاندية، المتمركزة على مترفعات مون سان جان.

كان ويلنغتون قد جعل مقر اركانه في قرية واترلو خلف مون سان جان. ومن هناك كان ينتظر اخبار الجيش البروسي. وقد طلب منه دعمه بلواءين على الأقل. وكان بلوخر الذي تلقى الصدمة الأولى، قد قرر ان يدفع بقواته ليل ١٧ — ١٨، من ويفر نحو الجيش البريطاني —

النيرلاندي لدعمه. ولكنه امر جيشه الا يبدأ إلا متأخراً، ليجعل الحلفاء يتلقون ثقل المعركة الأكبر.

الفرصة التاريخية

تلقى ويلنغتون ليل ١٨ حزيران، الساعة الثانية صباحا، معلومات عن دعم الماني عاجل. عندئذ قرر بدء المعركة التي حضر لها تحضيرا جيدا.

ظل طوال النهار يعمل على تحطيم هجمات الجيش الفرنسي، دون ان يقوم بهجوم معاكس. مستعينا، حسب الحاجة، بالاحتياطي.

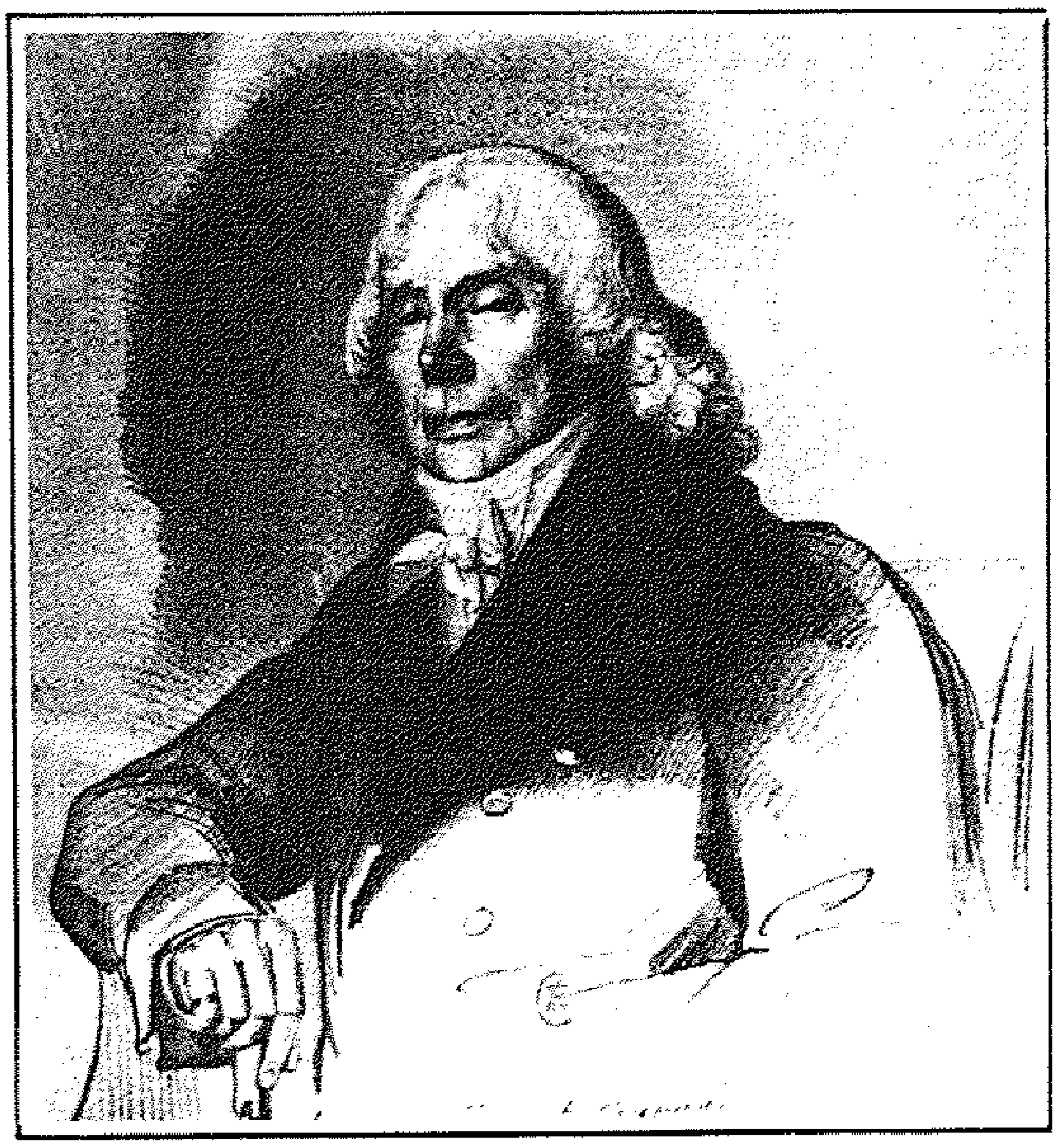
وحين قدم البروسيون، في نهاية النهار، من خلف الخطوط الفرنسية، وقع الجيش الامبراطوري في الفخ، ولم يعد باستطاعته لا الانسحاب ولا الاستمرار في القتال. بدأ ويلنغتون عندئذ هجومه العام، وإن بخسائر ضخمة جداً. لذلك تولى الجيش الألماني تحطيم بقايا الجيش الفرنسي.

وهنا بدأ الخلاف البريطاني البروسي. لقد اكتفى ويلنغتون بانكسار نابليون، ولم يكن يعتبر فرنسا عدوة. لذلك حين اتجه بجيشه نحو باريس، كان يعنيه ان يعوق تقدم الجيش البروسي نحوها، حتى لا ينتقم منها. وكان لقاء ولنغتون ــ بلوخر، مساء المعركة فرصة تاريخية لبروز مرحلة جديدة في تاريخ اوروبا، انتهى فيها الصراع البريطاني ــ الفرنسي، ليغدو صراعا طويل الأمد بين المانيا وفرنسا، استمر حتى ١٩٤٥.

من خسر المعركة؟ لقد نفي نابليون الى جزيرة القديسة هيلانة، حيث بقي حتى موته! ولم يبق له أي دور. اما فرنسا فقد عانت من نتائج واترلو، خاصة على صعيد ارضها. مع ذلك استطاعت، بعد سنوات، ان تقف على قدميها، سياسيا وعسكريا.

بروكسيل تخف لانقاذ الجمهورية

ماذا بقي من واترلو؟ الذكرى؟ بعض المرارة؟ ان تستعاد احداثها بين الحين والحين؟ المهم ان حدود فرنسا الشمالية مزقت، وأقيمت قلاع وحصون عليها، حرصا على عدم تجدد قوة فرنسا، وطموحها الى غزو هولندا وبلجيكا. وقد



□ تاليران سفير فرنسا في بريطانيا.

ضمنت هذا الواقع، والحفاظ على بلجيكا، قوى الدول الحليفة الأربع.

اصبحت مملكة البلاد الواطئة الجديدة حامية القلاع، بموافقة الحلفاء الأربعة. وألحقت بها امارة لوكسانبورغ، وجناح الرين الأيسر، ومقاطعاته، وقد كانت جزءا من فرنسا، منذ الف عام، وفي ظل كل حكم.

وأقامت عائلة اورانج نصب اسد واترلو تخليدا للانتصار على نابليون، وتوحيد الامارات البلجيكية مع هولندا، فكان رمزا لانكسار فرنسا.

في هذا الوقت، وعلى مدى خمس سنوات، كانت جيوش الحلف الرباعي تحتل فرنسا. وقد اقامت لها مؤتمرا دائما في باريس، يمثلها فيه سفراؤها، الذين كانوا يعملون جاهدين على اعادة الملكية الى فرنسا ودعمها.

بعد ثلاث سنوات قرر اعضاء الحلف الرباعي، في مؤتمر ايكس ــ لا ــ شابل، سحب قواتهم من فرنسا. مع الابقاء على الحلف خوفا من عودة القوة الفرنسية العسكرية العدائية، ودعيت السلطة الفرنسية الى ان تنضم للحلف، وهكذا اصبح خماسيا.

لقد ظن طويلا ان سبب ذلك دعم روسيا لحكومة ريشيليو. والواقع ان من الأسباب الأساسية، خلاف روسيا ــ بريطانيا. ثم ان روح استعادة الحدود الشمالية نشأت لدى

اليسار واليمين الفرنسيين على السواء. على ان تحقيق ذلك لم يحدث الا بعد ١٨٣٠، اي بعد الثورة التي فرضت الدستورية على الملكية الفرنسية. وقد ساعد الجمهوريون الفرنسيون على نيل بلجيكا استقلالها، ظنا منهم انهم يستطيعون استغلالها للقفز الى السلطة في باريس.

لندن تتراجع

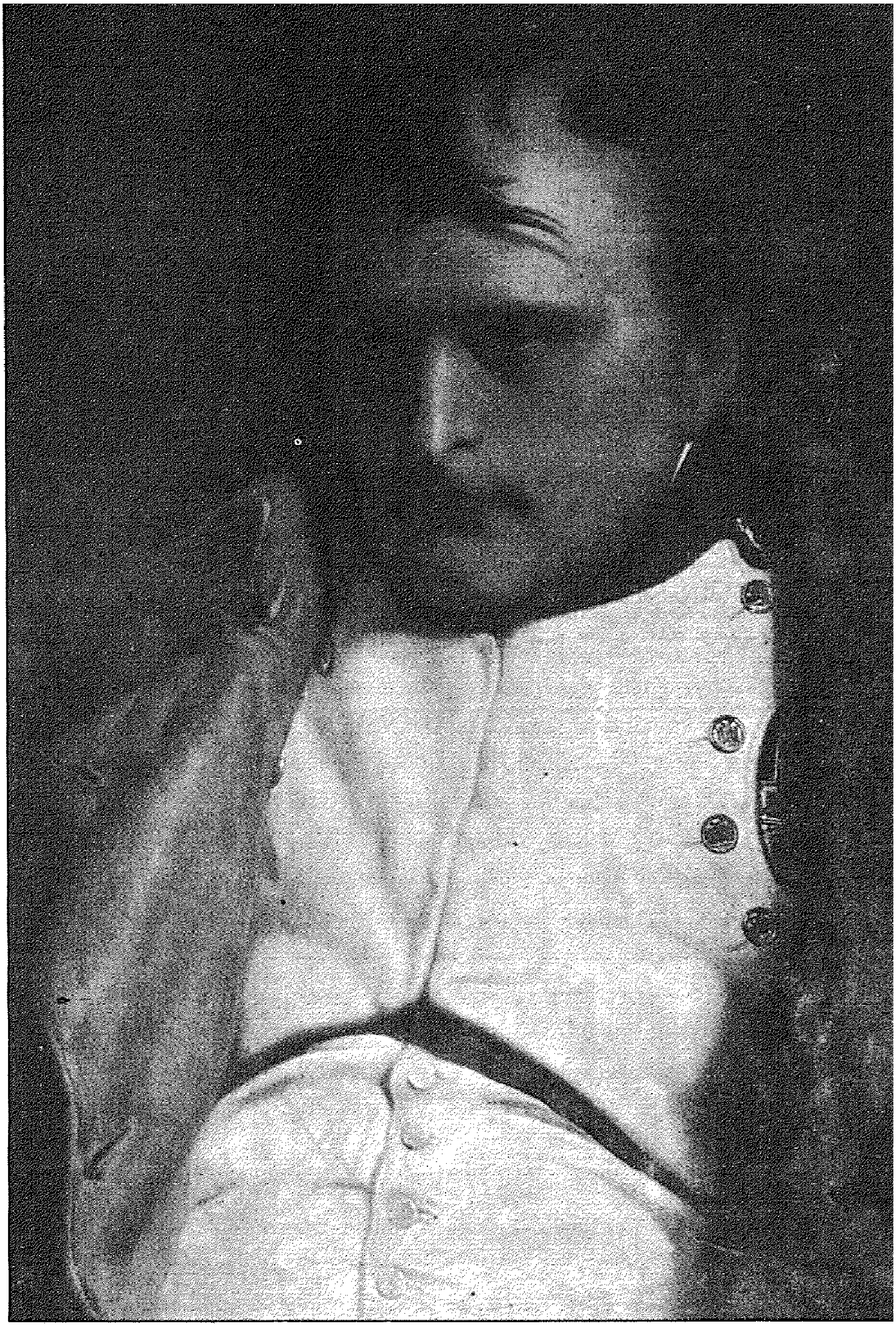
حين قامت ثورة ١٨٣٠، كانت فرنسا شارل العاشر حليفة انكلترا وروسيا في القضية اليونانية. وقد عبأ القيصر نقولا جيشه مذ علم بالأحداث في باريس. ولكن لندن وفيينا لم تريا ضرورة تدخل الحلف الرباعي في الشؤون الفرنسية الداخلية. فلقد اكد ويلنغتون ومترنيخ أن المسؤول الحقيقي عن الثورة هو الملك شارل العاشر، الذي لم يحترم القانون. وان اعادة لوي فيليب الحاكم الجديد، الدستور، طمأنتهما. ولذلك يجب ألا يتدخل الحلف الرباعي الا اذا انطلقت القوات الفرنسية خارج حدودها. وقد عقد مترنيخ مع الوزير الروسي نيسلرود اتفاقا بعدم التدخل في الشؤون الفرنسية. وهدأ ويلنغتون من روع ملك بروسيا وملك هولندا اللذين خشيا ان تجتاح الجيوش الفرنسية هولندا.

الجيوش الفرنسية خارج بلجيكا

بعد احداث ٢٥ آب في بروكسل، وحتى تشرين الأول ١٨٣٠، لم يكف ملك هولندا عن اثارة القوى الأوروبية ضد المحرضين

□ فرنسا تثار من واترلو باحتلال حصن انفير وطرد الهولنديين منه.





□ نابليون.

الفرنسيين، فقد رأى في تحريضهم تدخلا في شؤون بلجيكا الداخلية.

ورأى الملك غليوم دعوة الحلف الرباعي، دون فرنسا، للنظر في ما يجب اتخاذه من تدابير لتحييد بلجيكا. ولكن فرنسا كانت تريد ان تقول كلمتها في تغيير الاتفاقيات التي فرضت عليها في فيينا عام ١٨١٥، وخاصة ما يتصل منها بنظام توحيد المقاطعات البلجيكية مع هولندا. وقد أيدت الوزارة البريطانية فرنسا، وزعمت انه يجب الا يناقش الأمر بمعزل عن فرنسا. وهذا عقد مؤتمر لندن عام ١٨٣٠، ٤ تشرين الثاني لدراسة وضع بلجيكا.

كان هدف الحلف الرباعي الحقيقي منع الجمهوريين قلب النظام الفرنسي، ثم ضم بلجيكا الى فرنسا. وكان على بريطانيا ان تتعاون مع روسيا والنمسا وبروسيا لمنع ذلك.



□ بالمرستون وزير خارجية بريطانيا.

غير ان بريطانيا، تحالفت، خلال المؤتمر، مع فرنسا للقضاء على اثار اتفاقية ١٨١٥ الضارة بمصلحة الأخيرة. لقد اتفق تاليران، سفير فرنسا في لندن، مع وزير الخارجية البريطاني بالمرستون، الذي اقنع المؤتمر ــ ٢٠ كانون الأول ١٨٣٠ ــ بتقسيم مملكة البلاد الواطئة الى ثلاثة اقسام: هولندا، بلجيكا، امارة لوكاسمبورغ. واستمرت المفاوضات مع بلجيكا سنة كاملة لاقناعها بالتخلي عن لوكسامبورغ ولامبورغ. ولكن الأمر تطلب شهراً واحداً فحسب، لتتحالف بريطانيا مع فرنسا على تحييد بلجيكا من أجل حماية الحدود الفرنسية الشمالية. وهذا ما وضع حدا للصراع الطويل بين لندن وباريس.

تأزمت العلاقات البريطانية ـ الفرنسية قليلا حين اعطي عرش بلجيكا للدوق دو نيمور، ابن لوي فيليب. ولكن اختيار الأمير ليوبولد دو ساكس ــ كوبورغ، ارمل وريثة العرش البريطاني، والتطلع الى زواجه من احدى بنات لوي فيليب اعاد الأمل للتوازن بين لندن وباريس.

ولقد سهلت مهمة فرنسا في ضمان حياد بلجيكا اتاحة الفرصة للجيوش الفرنسية في اجتياح بلجيكا ــ آب ١٨٣١ ــ لطرد الجيوش الهولندية التي اجتاحتها اثر تعيين ليوبولد على العرش.

وقد بدا وكأن فرنسا حليفة بريطانيا الأولى. والواقع ان لندن حركت جيوشها لدعم فرنسا حين حاول حلفاؤها الآخرون التدخل. واقنعتهم بمشروعية التحرك الفرنسي. وكاد ينجم خلاف بين الحلف الرباعي. فسارع الملك ليوبولد الى حل ديبلوماسي، اذ اعلن ان الجيوش الفرنسية باقية في بلجيكا بطلب منه.

وقد تباطأت الجيوش الفرنسية في الخروج من بلجيكا، مما اقلق بريطانيا حول النوايا الفرنسية، ولكن الجيوش الفرنسية انسحبت اخيرا، فأعادت الثقة الى العلاقات الفرنسية ــ البريطانية، وجاء ذلك بعد توقيع معاهدة بين هولندا وبلجيكا ــ ١٥ تشرين الأول ١٨٣١ ــ تنص على استقلال الأخيرة.

الثأر من واترلو

لقد الغى الاتفاق البريطاني ــ الفرنسي (١٨٣١) حول بلجيكا آخر القيود المفروضة على فرنسا غداة واترلو.

وقد رفض ملك هولندا هذا الاتفاق، ودعمته روسيا والنمسا وبروسيا. ولكن بريطانيا وفرنسا، بالمقابل، وإثر زواج ليوبولد من لويز ــ ماري دورليان، اتفقتا في تشرين الأول ١٨٣٢ على مواجهة فيينا وبرلين وموسكو التي دعمت ملك هولندا في رفضه اتفاقية ١٥ تشرين الثاني ١٨٣١. وارسلتا تحذيرا لملك هولندا باخلاء حصن انفير الذي اعتبرت فرنسا وجود الهولنديين فيه مهددا لحدودها.

رضخت اكثرية الحلف الرباعي للأقلية، خوفا من حرب اوروبية، وانفجر مؤتمر لندن، وانتهى نظام الأمن الاجتماعي الذي وضع الحلفاء نصوصه عام ١٨١٥، وحل محله نظام التحالف.

طوقت الجيوش الفرنسية انفير، واحتلتها بالقوة واخرجت منها القوات الهولندية وانهت بذلك وحدة بلجيكا ولوكسامبورغ مع هولندا: وهكذا ثأر الفرنسيون من معركة واترلو. وكان قائد الحملة الماريشال سولت الذي كان رئيس اركان حرب نابليون في واترلو.

شاء الفرنسيون ازالة نصب اسد واترلو ولكن البلجيك قالوا ان هذا اثر فني ثقافي، وهو ملك الأمة، ولا يجوز تدميره. ■

مجال التوثيق والمعلومات في مكتب المتابعة

ملخص للتقرير المقدم الى اللقاء العلمي حول التوثيق والمعلومات في الادارة

□ يعترف العلم، في العصر الحديث، بقيمة التوثيق، في مجال تسهيل مهمة البحاثة والعالم، وإعداد المعلومات الضرورية لكل بحث علمي، في مختلف النشاطات والمجالات.

تقديراً منا لهذا الدور الأساسي للتوثيق، ننشر التقرير القيم الذي قدمته السيدة عائشة خليفة مطر، مسؤولة قسم الارشيف والوثائق في المنامة ـ البحرين، إلى اللقاء العلمي الذي عقد في عمان بتاريخ ١٩٨٣/٤/٢٣.

قسم التوثيق والمعلومات:

انشىء قسم التوثيق والمعلومات في مكتب المتابعة لمجلس وزراء العمل والشؤون الاجتماعية بالدول الخليجية، بناء على القرار المتخذ في اجتماعات الدورة الرابعة للمجلس والتي عقدت في الرياض خلال شهر كانون الثاني(يناير) من عام ١٩٨٢.

وأتى الاقتراح القاضي بضرورة تواجد هذا القسم ضمن الهيكل التنظيمي للمكتب انطلاقا من القناعة بأن أي عمل علمي ناجح لا بد له من ان يستند في اساه على قاعدة اساسية ومعقولة من المعلومات والبيانات والاحصائيات التي تشكل في ذاتها الأساس او الركيزة لأي عمل علمي يراد تنفيذه.

اختصاصات قسم التوثيق والمعلومات:

يختص قسم التوثيق والمعلومات بالمسائل والموضوعات المتعلقة بتوثيق البحوث والدراسات وجمع الاحصائيات وتخزين البيانات والدراسات والمعلومات المتعلقة بكافة الأنشطة الاجتماعية والعمالية في الدول الأعضاء.

ويتولى بصورة خاصة:

١ ـ جمع البيانات والاحصاءات العمالية والاجتماعية وتوثيقها.

٢ ـ متابعة اجراء وتنفيذ القرارات والتوصيات الصادرة عن دورات المجلس ذات الصلة باختصاصات القسم.

٣ ـ وضع الأنظمة ومتابعة الاجراءات المتعلقة بجمع ومعالجة وحفظ البيانات والمعلومات والاحصاءات والبحوث والدراسات ذات الصلة بالشؤون الاجتماعية والعمالية وتوثيقها.

٤ ـ توفير البيانات والمعلومات والاحصاءات اللازمة لاعداد البحوث والدراسات في المجالات الاجتماعية والعمالية وتوثيقها.

٥ ـ التعاون مع مراكز البحوث والهيئات والمنظمات الاقليمية والدولية في مجال تبادل المعلومات والبيانات والأبحاث والدراسات والوثائق.

٦ ـ اعداد ونشر وتوزيع البحوث والدراسات المتعلقة بمجالات العمل والشؤون الاجتماعية.

والأنشطة التي سينفذها المكتب في مجال التوثيق والمعلومات:

١ ـ حصر الخبرات والكفاءات العلمية العربية الخليجية.

٢ ـ توثيق دراسات وابحاث الحلقات الدراسية لرعاية المعوقين بالدول العربية الخليجية.

٣ ـ توثيق علمي لدراسات وابحاث الحلقة الدراسية لمستويات العمل العربية والدولية في ضوء تشريعات العمل المحلية.

٤ ـ توثيق علمي لدراسات وابحاث الندوة العلمية لرعاية المسنين بالدول العربية الخليجية.

٥ ـ توثيق علمي لأبحاث الندوة التقييمية لبرامج المسؤولية الوالدية في البحرين. ■

انشاء جامعة اسلامية في بنغلاديش

□ صرح مصدر رسمي بأن جامعة اسلامية سيتم انشاؤها في بنغلاديش وان ١٦ مليون دولار قد رصدت للخطة الرئيسية لهذه الجامعة.

وكانت الفكرة الأولى تقضي ببناء الجامعة في داخل البلاد الا ان الراي استقر اخيرا على انشائها في توتغي بالقرب من مركز منظمة المؤتمر الاسلامي ومركز التدريب الفني والمهني والابحاث.

ومن المتوقع ان يتم وضع اساسات الجامعة المقترحة في وقت ما بعد عيد الفطر.

وقال نائب رئيس الجامعة الاسلامية الدكتور ممتاز الدين شودري ان الجامعة الجديدة ستضم ٢٠٠٠ طالب من ضمنهم ٣٠٠ طالب اجنبي و ٤٠٠ طالبة.

وقال ان الجامعة الجديدة ستهدف الى دمج التعاليم الاسلامية مع دراسة الفنون والعلوم وستتخذ الخطوات الايجابية لدمج المبادىء والمفاهيم الاسلامية مع التعليم الحديث.

عدد جديد من مجلة الوثيقة

□ صدر مؤخرا في البحرين العدد الثالث من مجلة «الوثيقة» والتي تصدر عن مركز الوثائق التاريخية البحريني.

ويتضمن العدد الجديد مجموعة من الابحاث تغطي فترة تمتد ٣٠٠ عام كانت مجهولة في تاريخ البحرين كما يتضمن الترجمة الكاملة للتقرير الرئيسي عن قبور عالي المقببة كما يشتمل العدد الجديد على مشاهدات رحالة الماني عن الشرق منذ ٣٠٠ عام ويجيب على تساؤل معلق هو — هل سرق البرتغاليون الاثار التي كانت موجودة في القبور المقببة.. ويشرح كيف كانت هذه المقابر سكنا شتويا لأثرياء الزمن القديم بالاضافة الى دراسة كاملة عن المصاحف الأثرية الموجودة بالبحرين والتي تعود للقرن الأول الهجري.

معهد المخطوطات العربية يبدأ في فهرسة رصيده من المصورات

□ بدأ معهد المخطوطات العربية في فهرسة رصيده من المخطوطات العربية المصورة ويتولى ثلاثة من مفهرسيه القيام بهذه المهمة وهم الاساتذة: عصام الشنطي، عبد الحفيظ منصور، عباس قنة وقد انجزوا حتى الآن ما يزيد عن الف ومائتي بطاقة. ومن المتوقع صدور مجلد لبعض مقتنيات المعهد من المخطوطات المصورة في نهاية هذا العام.



اغلى رسام معاصر

□ «سلفادور دالي» اغلى رسام معاصر احتفلت اخيرا اسبانيا به احتفالا كبيرا.. فقد افتتح الملك خوان كارلوس والملكة صوفيا في متحف الفن الحديث بمدريد يضم ٤٠٠ لوحة تعبر عن تطور فن دالي او مراحله المتعددة ولكن اهم موضوع يسيطر على المعرض هو زوجته الراحلة «جالا» التي يعيش منذ وفاتها في العام الماضي في عزلة. والطريف ان المعرض يقدم اولى لوحات دالي التي رسمها سنة ١٩١٤ عندما كان عمره عشر سنوات ويقدم آخر انتاجه وهو حوالي عشرين لوحة رسمت في الثمانينات.

المعاهدة الانكلو - مصرية

وولادة دولة السودان (١٩ كانون الثاني ١٨٩٩)

قسم "التوثيق والأبحاث"

كانت كلمة السودان تطلق في الماضي على المنطقة الافريقية الممتدة بين الصحراء الكبرى والمناطق الاستوائية. اما اليوم فهي تعني تلك الدولة التي تمتد من مصر شمالا حتى زائير وكينيا واوغندا جنوبا ومن البحر الأحمر واثيوبيا شرقا حتى تشاد وافريقيا الوسطى غربا.

اما كيفية وتاريخ ولادة تلك الدولة فيعود الى معاهدة وقعت بين مصر التي كانت تدير السودان وبريطانيا التي كانت تستعمر مصر.

عقدت المعاهدة الانكلو ـ مصرية في القاهرة في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩ ووقعها عن الجانب البريطاني السير كرومر القنصل البريطاني العام في القاهرة وعن الجانب المصري وزير الخارجية بطرس غالي.

بنود تلك المعاهدة

اولا: تطلق كلمة «السودان» على كل الأراضي الواقعة جنوبي خط عرض ٢٢ و٤.

١ ــ التي لم يدخلها قط الجنود المصريون منذ عام ١٨٨٢.

٢ ــ التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت (بضم الفاء وكسر القاف) منها وقتيا ثم افتتحتها الان مصر وبريطانيا.

٣ ــ التي قد تفتحها مصر وبريطانيا في المستقبل.

ثانيا: يرفع العلمان المصري والبريطاني معا على كل اراضي ومياه السودان ما عدا مدينة سواكن حيث يرفع العلم المصري فقط.

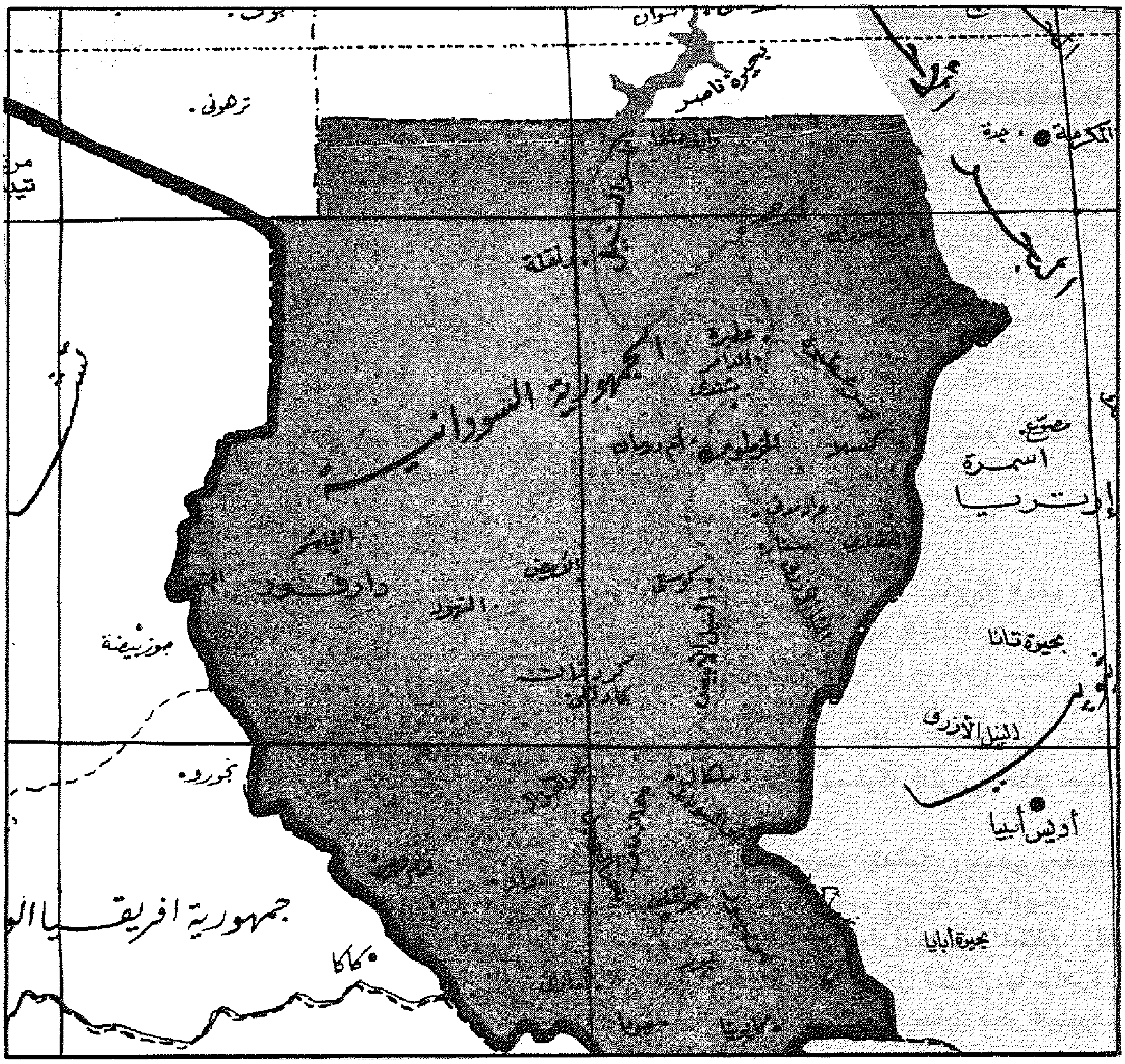
ثالثا: يعين الخديوي للسودان حاكما عاما بريطانيا لا يفصل من وظيفته الا برضى من الحكومة البريطانية ويكون له حق اصدار جميع الأوامر التي لها قوة القانون ولا يسري في السودان شيء مطلقا من القوانين المصرية كما لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة الى السودان فيما عدا مدينة سواكن.

رابعا: تسن وتبدل او تلغى القوانين والأنظمة لحكومة السودان لتنظيم انتقال الملكية بواسطة بيان أو تصريح من الحاكم العام ليبلغ فوراً الى ممثل حكومة الملكة البريطانية والقنصل العام في القاهرة ورئيس وزراء الخديوي.

خامسا: لا تطبق ولا تسن قوانين ومراسيم مصرية على السودان.

سادسا: حرية المتاجرة أو السكن بالسودان او تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اية دولة.

سابعا: تعفى البضاعة المستوردة من الأراضي المصرية من الرسوم كما تفرض رسوم على كل البضاعة المستوردة من خارج مصر. في حال دخول البضاعة الى السودان عبر مرافىء البحر الاحمر يفرض عليها رسوم لا تزيد عن تلك التي تفرض على البضاعة التي تدخل مصر.



كما تفرض الرسوم على البضاعة التي تصدر من السودان بقيم تعطى بواسطة بيان رسمي.

ثامنا: عدم امتداد سلطة المحاكم المختلطة على اي جهة من جهات السودان ما عدا مدينة سواكن.

تاسعا: ابقاء الأحكام العرفية سارية في السودان الى ان تصدر اوامر اخرى.

عاشرا: لا يفوض أو يقيم اي قنصل في السودان من دون موافقة الحكومة البريطانية.

حادي عشر: يحرم استيراد وتصدير الرقيق من والى السودان ويثبت ذلك القرار بيان رسمي.

اثني عشر: تأخذ كل من بريطانيا ومصر بعين الاعتبار قانون بروكسل المؤرخ في ٢ تموز ١٨٩٠ بالنسبة لاستيراد وبيع وانتاج الأسلحة النارية وذخائرها والمشروبات المقطرة أو الروحية.

لن نعلق على تلك المعاهدة لان مصطفى كامل زعيم الحركة الوطنية المصرية انذاك قد اوفى بتلك المهمة خير وفاء حين قال: «ان اكبر ايام الشقاء في تاريخ مصر واسوأ تذكار يهيج في نفوس المصريين الأحرار الالام والأشجان هو يوم ١٩ يناير، يوم تذكار اتفاقية السودان» ■

المراجع

— العدوي، ابراهيم: **يقظة السودان**. القاهرة: المكتبة الانجلومصرية.

— MacMichael, H., *The Sudan*. London: Ernest Benn, 1954.



المتنبّي
للأستاذ إنعام الجندي

قسم التوثيق والأبحاث

لم يعالج كتاب، من قبل، فكر المتنبي الثوري، ولا عني مؤلف بالكشف عن حقيقة دعوة أبي الطيب إلى الثورة، وحركته، مطالع شبابه، وسلوكه الثوري خلال حياته كلها.

كان معظم من كتبوا حول أبي الطيب يشيرون إلى طموحه وتعاليه، ويسعى بعضهم إلى النيل منه، لأنه طموح، وكأن الطموح مقصور على ذوي النسب أو المال أو الجاه.

وراح المؤلفون، عبر العصور، يتناقلون تلك الآراء، وكأنها الحقيقة المطلقة. ولم يحاول المؤلفون في العصر الحديث مجرد تقصي تلك «الحقيقة المطلقة» بل أخذوا بها جاهزة!

وإذا شاء بعضهم أن «يجدّد» قال إن المتنبي كان عربي النزعة بدليل ذكر السيوف والخيول العربية، وبدليل قوله كذا وكذا...

ظل الأمر كذلك حتى طلع على القارىء العربي، في السنوات الأخيرة، «من يكتشف للمتنبي أبا» ذا نسب عريق. فقد زعم بعضهم أن والد المتنبي ابن الإمام الثاني عشر «المهدي». وكأنما شاء هذا «البعض» أن يبرر ثورية المتنبي.

كتاب «المتنبي والثورة» يدين كل هذه الطروح، ويؤكد على فكر المتنبي وسلوكه الثوريين، من خلال شعر الرجل. ففيه سجل كامل لشخصيته، ومواقفه، ونظرته إلى الأوضاع في عصره، والأشخاص، والتاريخ، والمستقبل، والمصير، الخ...

والكتاب يؤكد على أن الشاعر الثائر لم يواجه أمراً، ولم يطرح فكرة، ولم يتخذ موقفاً، إلا من منطلق واحد: وهو كونه عربياً، فلم يعنه نسب إلا انتسابه العربي، ولذلك يتحدى الكتاب كل من يستطيع أن يثبت، من خلال شعر الشاعر، غير ذلك. ولهذا يشدد على أن معظم من كتبوا عن المتنبي لم يقرؤوا شعره قراءة جادة، أو قرؤوه مغرضين.

ويؤكد الكتاب كذلك، على أن المتنبي وحده، من جسد خصائص الانسان العربي، عبر نماذجه وأبرزهم سيف الدولة وشخص الشاعر. وهنا تكمن صفة الشاعر العربية فكرياً ومبدئياً.

والكتاب أول محاولة في هذا المجال، وعسى أن يكون فاتحة دراسات في هذا الشأن.

كتب وردتنا

□ **دليل الحيران وانيس السهران**
في اخبار مدينة وهران.
اصـدارات المكتبـة الوطنيـة ــ الجـزائـر،
١٩٧٩ ــ ١٣٩٩ ....تأليف: محمد بن يوسف الزّياني
تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي

□ **كتاب سير الائمة واخبارهم.**
اصـدارات المكتبـة الوطنيـة ــ الجـزائـر،
١٩٧٩م ــ ١٣٩٩هـ................................تأليف: لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر
تحقيق وتعليق: اسماعيل العربي

□ **بغية الرّواد**
في ذكر الملوك من بني عبد الواد.
اصـدارات ج ١، المكتبة الوطنيـة ــ الجزائر،
١٩٨٠ ــ ١٤٠٠ ....تأليف: أبي زكرياء يحيى بن خلدون
تقديم وتحقيق وتعليق:
الدكتور عبد الحميد حاجيات
أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر

□ **سكان ايران.**
دراسة في التغيير الديموجرافي
مايو ــ أيار ١٩٧٩/ جمادي الآخرة ١٣٩٩ ....بقلم: ب. د. كلارك
أستاذ السكان بجامعة ابردين
ترجمة: الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي
أستاذ الجغرافيا بجامعة الكويت

□ **القبائل والسياسة.**
في شرقي شبه الجزيرة العربية
يونيو ــ حزيران ١٩٧٩/ رجب ١٣٩٩ ....تأليف: ج. أ. بترسون
ترجمة: حسين علي اللبودي
مراجعة: د. محمود أبو العلا

□ **البعثة العلمية.**
إلى شبه جزيرة مسندم (شمال عُمان)
مارس ــ آذار ١٩٨٠م/ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ.....بقلم: ن. ل. فالكون
ترجمة: أ. د. محمود طه أبو العلا

□ **مدن الشرق الأوسط.**
دراسة في التغير البنيوي
مايو ــ أيار ١٩٨٠/ جمادي الآخرة ١٤٠٠هـ.....بقلم: عبد العزيز آل الشيخ
ترجمة: د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي

العددان ٦ ـ ٧
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣
ايار (مايو) ١٩٨٣

مجلة الإنماء العربي


الفكر الاستراتيجي العربي

■ الدفاع الجوي العربي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ — محمود عزمي
■ المواجهة الجوية السورية ـ الاسرائيلية ١٩٨٢ — قاسم جعفر
■ نحو استراتيجية عربية لمواجهة المأزق الراهن — د. أحمد يوسف أحمد
■ مشكلة الصواريخ المتوسطة في اوروبا — هدى حوا
■ مصر و[illegible] الدولي — د. رمزي زكي
■ سام ـ ٥: البعد السياسي العسكري — بقلم خاص

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا

MEA





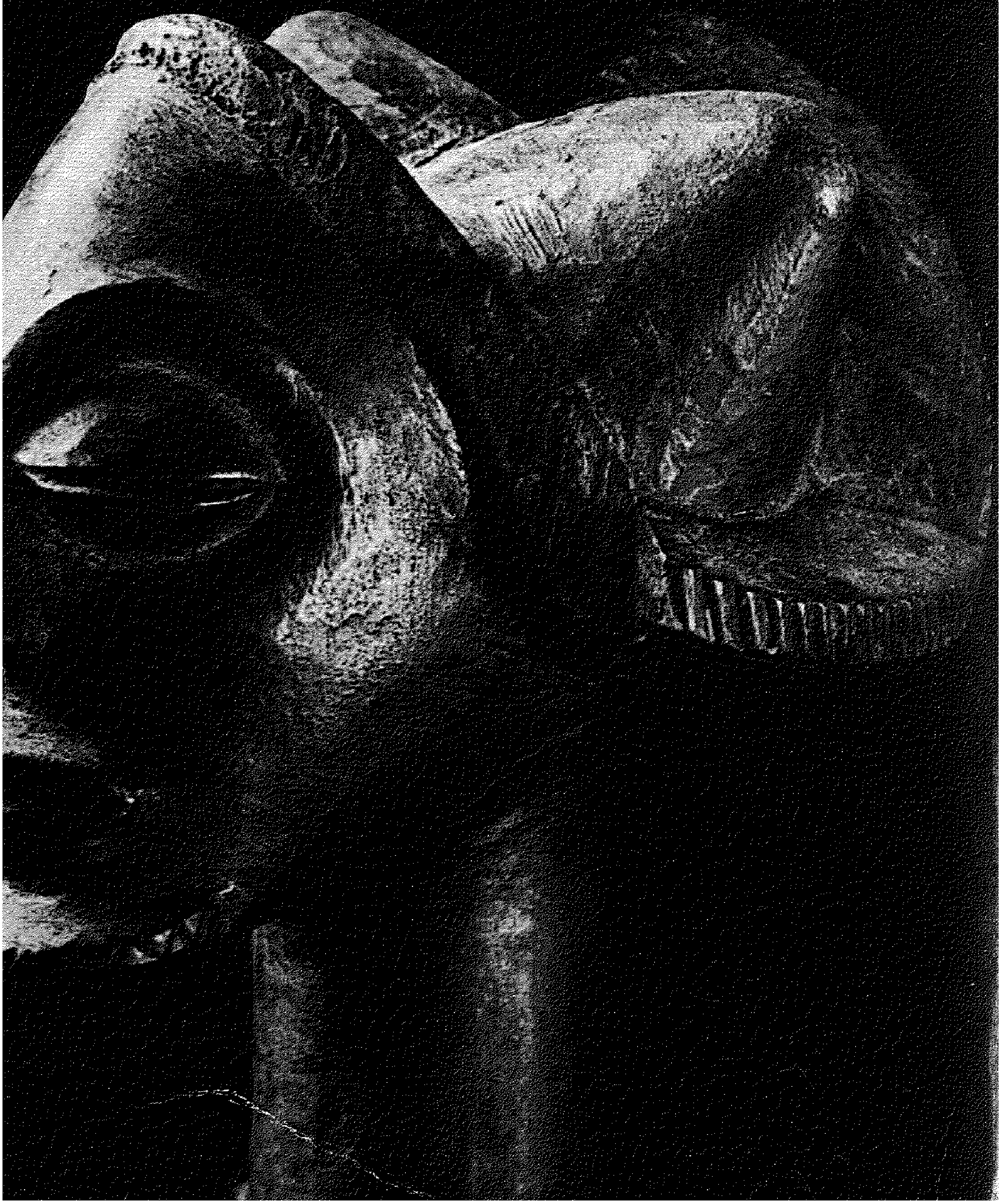
قلعة عنجر

من آثار الأمويين في لبنان

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العددان ٥٩ - ٦٠ • أيلول - تشرين الأول ١٩٨٣م . الموافق محرّم ١٤٠٤ هـ .



في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

□ مشكلة الفتوحات وفتح الشام	د. سهيل زكار	٢
□ الطرق التجارية في العصور الوسطى	د. نقولا زياده	١١
□ أبحاث هاينريش بارت في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية في افريقيا	ميلكس كلاين فرانكه	٢٣
□ الطب العربي في نظر العلماء والمؤرخين	د. اسماعيل سرور شلش	٣١
□ ترميم وإعمار الحرم الشريف في القدس عام ١٩٢٨م..	د. تيسير جبارة	٤٤
□ عشرة آلاف سنة من الحضارة تعرض في اسطنبول....	انعام الجندي	٥٢
□ وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس	عمر مسقاوي	٦٠
□ مذكرات أصبحت تاريخا: مذكرات ايدن القوات البريطانية كانت تنوي احتلال القاهرة عقب حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢؟!	انطوني ايدن	٦٤
□ أخبار التراث		٧٣
□ أيام كانت المانيا ٢٣٤ دويلة! معاهدة «وستفالي» تضع حدا لحروب الثلاثين عاما	د. رياض العالي	٧٦
□ أين الحقيقة؟ حول المذكرات المنسوبة إلى ادولف هتلر؟	د. سامي زكي	٨٤
□ آثار: التنقيب في موقع القصيص في امارة دبي ١٩٧٤...	قسم «التوثيق والأبحاث»	٩٠
□ معاهدات: معاهدة بورتسماوث ٥ ايلول ١٩٠٥........	قسم «التوثيق والأبحاث»	٩٤
□ قصص العرب: وامعتصماه!	قسم «التوثيق والأبحاث»	٩٦
□ من الأرشيف: أحمد بن حنبل		٩٨
□ رسائل الدكتوراه: «صفوة التصوف» لمحمد بن طاهر المقدسي «ابن القيسراني»............	د. غادة المقدم	١٠٠
□ القراء يكتبون: حضارات سادت ثم بادت	محمد الفاكياني	١٠٢
□ الفهرس العام للسنة الخامسة		١٠٥

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



الغلاف الأول

راس رجل من شمال انغولا ذات طابع «شوكيوي» من كتاب:

Tribal Art of Forest and Savana, Arnold Bamert — Thames and Hudson, 1980.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٥٩ ـ ٦٠ أيلول ـ تشرين الاول ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5 No. 59-60 Sept - Oct 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

كلمة...

قَطَعت مجلة «تاريخ العرب والعالم»، منذ بدء إصدارها في تشرين الثاني ١٩٧٨، مرحلة هامة من مسيرة الألف ميل. ولكن.. كنا دائماً نطمح أن يكون عطاؤنا متواصلاً بدون انقطاع أو تأخير. مرة واحدة اضطررنا خلالها إلى التأخر في الاصدار، كانت أثناء الاجتياح الاسرائيلي للبنان ومحاصرة بيروت لمدة ٧٧ يوماً.

ولكن الحرب اللبنانية المأساوية لم تتوقف بل استمرت.. وجاءت حرب الجبل، والقصف العشوائي، وإغلاق المطار لتضطرنا من جديد، إلى التأخر في إصدار العدد ٥٩.

مرة أخرى، نعود إلى قرائنا ومشتركينا الأعزاء مع هذا العدد الخاص، جاعلين منه بديلاً عن العددين ٥٩ ـ ٦٠، معتذرين من الجميع وآملين أن يتفهموا الدواعي الاضطرارية التي أدت إلى هذا الاحتجاب القسري.

ونعد الجميع بأننا سنواصل انشاء الله المسيرة على الرغم من الظروف القاسية وكلنا أمل وثقة بأن دروس الحاضر المأساوية ستنير لنا طريق المستقبل.

فاروق البربير

مُشكلة الفتوحات وفتح الشام



من الحيرة زحف خالد بن الوليد باتجاه الشام سنة ١٣ [illegible] بقية الجيوش العربية هناك ، واخترق صحراء النفود الى [illegible] اسكي شام ومنها الى تدمر ، ثم ارتد الى دمشق مفاجئا مؤخرة جيش الروم . استمر حصار دمشق ستة اشهر استسلمت على اثرها سنة ١٤ .

كيف ربح خالد بن الوليد معركة اليرموك التاريخية

د. سهيل زكّار



□ مسرح العمليات العسكرية حتى منتصف القرن الأول من كتاب «تاريخنا» الجزء الرابع.



لتفتحن الشام، ويهرب هرقل الى اقصى مملكته، فتظهرون على الشام فلا ينازعكم احد، ولتفتحن اليمن وليفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى بعده.

النبي صلى الله عليه وسلم

مغازي الواقدي: ٣/ ٤٥٠

يرتبط خلود الانسان بعظيم الانجازات التي يصنعها اثناء حياته، فمن الأعمال ما هو كالشرر يتطاير في كل مكان، فيسبب الحريق لكل ما حوله، ثم ما يلبث ان يخمد، ومن الأعمال ما يدوم تأثيره ولا ينمحي، وبهذا ينال صفة الخلود، وفي تاريخ الانسانية المديد، حدثت اعمال كبرى كثيرة، ووجد عدد لا يحصى من العظماء في السياسة والحرب والعلوم والآداب وغير ذلك، انما يلاحظ ان صفة الخلود لم تكتب الا لقلة من الرجال ارتبطت اعمالهم وانجازاتهم بعقيدة، أو وجهت من قبل ديانة من الديانات. فاذا كان الشرق أرض أول الحضارات، فهو أيضا مهد الديانات الكبرى منها والصغرى، ولقد مر بالشرق احداث كبار، وشهد تقلبات لا حصر لها ولا عد، جاءت حكومات وقامت انظمة ووضعت قوانين وشيدت قصور وصروح، ثم زال ذلك كله وبدل وطمست معالمه، وقد حل هذا كله بكل شيء الا بالديانات فما من ديانة طمست معالمها نهائيا، وما من ديانة الا واستمرت بعضا أو كلا.

وختمت الديانات جميعها بالاسلام، ذلك ان الله تعالى بعث نبيه صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق بعثه بالشريعة الكاملة الشاملة، وقد بين الله تعالى بأنه هو الذي بعث نبيه بالحنيفة السمحة وأنه جل وعلا سيحفظ هذه الشريعة حتى يرث الأرض ومن عليها.

لهذا نلاحظ في تاريخ الشرق وأجزاء كبيرة من العالم انه منذ ظهور الاسلام، أصبح كل عمل أنجز في سبيل الله قد كتب له الخلود، وكل ما سواه مقدر عليه الفناء واللعنة، ومن هذا المنطلق وعلى أساسه يمكن ان نبحث في حياة خالد بن الوليد، ونعرف سر نجاحاته وسبب خلوده المطلق.

ولد خالد بن الوليد في مكة، ربما في اواخر القرن السادس للميلاد، وفيها نشأ فكان أحد اشراف قريش في الجاهلية، وقد أسندت قريش اليه «القبة والأعنة»، فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش، واما الأعنة فانه كان يوجد على خيول قريش في الحروب».

لقد دخل خالد بن الوليد رحاب التاريخ لا بسبب وظيفته هذه، لكن حدث ذلك يوم اتصل بالدعوة الاسلامية وقامت له علاقة بها، وكان ذلك في البداية عدائيا يوم احد، لكنه ما لبث ان تحول الى شكله الصحيح وحدث ذلك كما هو مرجح سنة ثمان للهجرة، ففي هذه السنة هاجر خالد الى النبي صلى الله عليه وسلم ودخل في الاسلام، ومنذ ذلك الوقت صار أبرز قادة الأمة الاسلامية العسكريين، واعتبره النبي صلى الله عليه وسلم سيف الله سله على الكفار والمنافقين، ولهذا لم يعرف الهزيمة قط، فسيف الله لا يهزم.

ان خلود خالد بن الوليد مرتبط بدوره الذي اداه في حركة الفتوحات الاسلامية الكبرى، ولا يمكن لهذا الدور أن يفهم دون التعرف الى قضية الفتوحات، وهذه القضية هي معجزة التاريخ الانساني الكبرى ومعضلته المحيرة، التي يصعب حل جميع الغازها، وتقوم مشكلتها على عدة مسائل أهمها:

١ ــ كيف استطاعت جموع غالبيتها من بدو الصحراء في شبه جزيرة العرب، لا تتقن الا مبادىء بسيطة في القتال وليس لديها سابق تجربة في خوض معارك عظمى، ضد جيوش نظامية مدربة، ثم هي لا تملك الا بعض الأسلحة الخفيفة، غير جيدة الصنع، قهر الجيوش النظامية المدربة لأكبر امبراطوريات العالم يومذاك.

٢ ــ كيف استطاعت هذه الجموع تحويل الفتح العسكري الى احتلال دائم، مرج الأرض ومن عليها، وغير معالم الانسان في الزمان والمكان، وذلك لأول مرة في التاريخ، وجاء بانسان جديد أبدع الحضارة العربية الاسلامية.

٣ ــ هل تمت الفتوحات بناء على خطة واضحة، وهدف معلوم، ام جاء ذلك بمحض الصدفة، ونجع وتطور بعامل الزمن.

٤ ــ ما هوالمحرك الذي دفع الى الفتح، وساعد عليه، وأبقى حركته حية فيها حرارة وتدفق مستمران.

وفي محاولة للاجابة على مجموع هذه الأسئلة، وغيرها، نجد ان مؤرخي العصور الوسطى من مسلمين وغير مسلمين ــ وغالبيتهم كتب في ظل مدرسة التفسير الغيبي للتاريخ ــ عزوا امر نجاح العرب في فتوحاتهم وأرجعوا سره الى قوى غيبية، فالمؤرخ المسلم رأى في ذلك تحقيقا لارادة الله، حين بعث نبيه محمدا رحمة للعالمين، وهاديا للبشر اجمعين من كل جنس ولون، في كل بقاع الأرض، فقد وعد الله نبيه وعباده النصر، وحقق هذا الوعد حين نصرهم على كل أمم الأرض، ورأى المؤرخ غير المسلم ــ خاصة في أوروبا ــ ان سر النجاح يعود لامتلاك العرب قوة شيطانية، ولمساعدة القوى الخفية للشيطان لهم.

ولقد اعتقد المؤرخ المسلم للعصور الوسطى، ان الذي حرك العرب، ودفعهم في سبيل الفتح ومكنهم من تحويل القهر الى احتلال دائم، غير الانسان والمكان، هو الاسلام، الرسالة التي بعث الله بها نبيه محمدا، وعلى هذا كانت اعمال الفتح جهادا في سبيل الله، وكان هدف الفتح اعلاء كلمة الله، واحلال التوحيد محل الشرك، والايمان مكان الكفر، ويرى هؤلاء ان النبي صلى الله عليه وسلم قد وضع خطة واضحة للفتوح، ويدللون على ذلك بما جاء في القرآن، وفي اقواله واعماله، ثم برسائله لحكام وقته وحملاته ضد بلاد الشام، وجيش اسامة بن زيد، آخر جيوشه، الذي انطلق في مهمته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

ولقد استخف المؤرخ الحديث بهذه التعليلات، ورفضها، وبات يفتش عن اسباب اخرى، وتمت امور الرفض والتفتيش هذه اول ما تمت في اوروبا الغربية، وعلى ايدي باحثين غربيين، ثم قلدت في المشرق العربي والبلاد الاسلامية، ولم تعد اعمال المشارقة التقليد المسوخ لما تم في الغرب.

وكانت اعمال البحث في التاريخ الاسلامي قد بدأت مع تطور النهضة في اوروبا، وهذه النهضة مرت بمراحل كانت اولها اعمال التحرر من الكنيسة مع الرفض للمعتقدات والأديان، ثم تبع ذلك قيام القوميات الاوروبية ولحق هذا قيام المشاكل الاجتماعية في اوروبا مع مدارس التفسير الاقتصادي، لهذا رفضت اول الأبحاث الأوروبية العامل الديني، ورفضت معه فكرة عالمية الدعوة الاسلامية، وعزت انتصار العرب الى ضعف بيزنطة وفارس من حروبهما المستمرة، وجاء بعد هذا من قال بأن الفتوحات الاسلامية وقيام الدول العربية، ما كان الا ثمرات تحرك القومية العربية على يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، موحد العرب الأول، وقائدهم القومي الأعلى، ولحق هؤلاء من قال بأن عرب الجزيرة تحركوا نحو الفتح لضيق الرقعة الجغرافية لبلادهم، ولعدم مقدرتها على تزويدهم بالطعام، واننا لنرى في كتابات كايتاني، ثم فلهوزن، وبعد ذلك كاهن، وكابريلي ولويس وبالييف، امثلة شاهدة على هذا التطور. والعيب المميت في ابحاث كل هؤلاء ــ رغم ملامستها لكثير من جوانب الحقيقة ــ هو أن اصحابها بحثوا في تاريخ الفتوحات العربية، وتاريخ الاسلام لا لاكتشاف حقيقة ما حصل، كما تروي أخباره المواد التاريخية الاخبارية، وانما للبرهنة على صحة صورة مسبقة، قامت على عقيدة سائدة من عقائد البحث، ومدارس التفسير، ومثل هذا التطبيق هو انحراف عن الواقع، وتشويه وتزوير، فلو جمعنا كل ما لدينا من مواد اخبارية تاريخية عن اعمال الفتوح العربية، لوجدناها خالية من اخبار

تتحدث عن اية ازمات اقتصادية ومجاعات في الجزيرة زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وزمن أبي بكر، ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان نبياً للاسلام، وليس نبيا بعث للعرب فقط، نبيا وحد العرب من اجل حاجتهم لذلك واثناء نشر الاسلام ومن أجل التبشير به عالميا، واعتبر الجهاد هو العمل المراد فيه وجه الله، واعلاء كلمته، وليس غير ذلك.

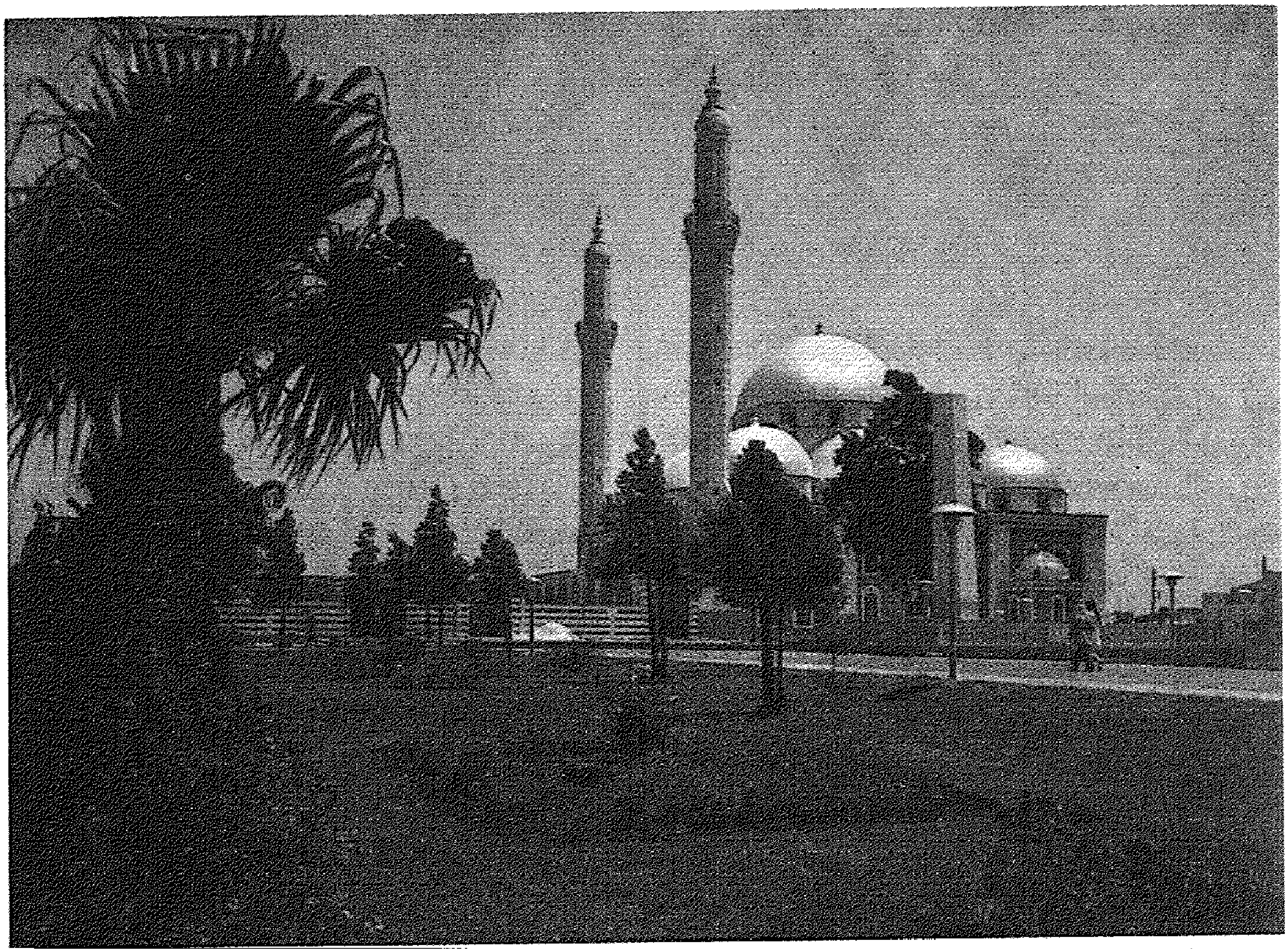
ان حدث الفتوحات هو حدث تاريخي كامل، ومعلوم ان الحدث التاريخي هو ما كان بطله انسان أو وراءه انسان، وكل حدث ليس فيه انسان ليس بتاريخ، فصراع حيوانات الغابة، واسماك المحيطات لا يمكن عده حوادث تاريخية، والانسان، هذا المخلوق العجيب، فيه مجموعة من القوى والحواس والعوامل والغرائز، وهي متقلبة غير ثابتة ومتحولة، وحياة الانسان فيها طعام، وتفكير، وحروب، وعلوم وآداب وفنون، وعبادات، وسياسة، وادارة، وغرائز مختلفة، الى غير ذلك، والانسان الذي فقد احدى حواسه أو قواه وغرائزه ليس كاملا بل فيه عاهة، وذوي العاهات بين البشر اقلية، ولهذا **فإن تعليل حدث تاريخي بطله الانسان اقتصاديا فقط أو دينيا، أو غريزيا، او.... أو... فقط فيه تشويه وبتر، واعتماده كمن يعتبر ذوي العاهات بين البشر هم الأكثرية**. ان الحدث التاريخي الكامل مثله مثل الرقم الكامل، يمكن ان يحوي نسبا من الفعاليات مختلفة ومتباينة متحولة، ولكنها غير متجمدة، ولا متبلورة، ولقيام اي حدث لا بد من محرض أو دافع، لكن هذا لا يكفي لوحده، فالشعور بالجوع غير كاف للدفع الى نيل الطعام، والشعور بالظلم والاستغلال لا يؤدي دائما الى الثورة، ثم حدوث الثورة لا يعني نجاحها، وأكل الطعام لا يعني نهاية الجوع ونيل العافية، وعليه إذا قلنا لا بد من محرض، نتبع ذلك بالقول بأنه لا بد بعد ذلك من ارادة للتنفيذ، وعزيمة على التحرك، ثم قدرة على التطبيق قائمة على خطة، وبعد هذا قد يحصل نجاح اولي، يكتب له التأثير الدائم والخلود اذا ما حول الى نجاح دائم.

ومسلم به ان المحرض على الفتوح هو الاسلام، فالفتوحات قامت اثر قيام الاسلام وباسمه وبسببه، ولا شك ان عقيدةالجهاد في الاسلام كانت هي المحرض، فالاسلام قد مزج بين المفاهيم، والفتوحات قد تمت بأيدي بشر ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال، فكان كل واحد منهم يقول «ان لربك عليك حقا، وان لجسمك عليك حقا، وان لزوجك عليك حقا، فأعطى كل ذي حق حقه»، ولعل سر نجاح المسلمين العظيم يكمن في العمل على الأرض والقلب مشدود الى السماء، ولقد استطاع المسلمون ان يعمل كل منهم في سبيل دنياه كانه يعيش ابدا، وكان العمل الدنيوي عملا في سبيل الآخرة، كأن صاحبه سيموت غدا، فالاسلام قد مزج المفهوم الدنيوي بالمفهوم الديني، فكان كل عمل يقوم به الانسان حتى متعته الفردية عملا تعبديا، يمكن ان يتقرب به الى الله سبحانه وتعالى، وفي قانون القتال عند المسلمين اذا كسب المسلم المعركة ينال كمية كبيرة من الغنائم، وثوابا عظيما، واذا ما قتل فانه يذهب شهيدا الى جنان النعيم، والشهداء في الاسلام احياء عند ربهم يرزقون.

على هذا تحرك العرب لفتح العالم تبعثهم عدة بواعث بعضها اعلى من بعض، ويتبعون عدة غايات بعضها أرفع من بعض، باعثهم الأول العقيدة، وغايتهم المثلى نشرها، لكن هذا النشر من اجل سعادة الدنيا وهناء الحاضر، وبسعادة الدنيا وهناء الحاضر يتحقق رضى الله، والقرار في الجنة حيث الهناء الأبدي والسعادة السرمدية بلا عناء ولا شقاء.

وبعد معرفة المحرض والدافع على عزيمة التحرك لنبدأ الآن بالحديث عن التطبيق الذي يرتبط بخطط القتال، والسلاح والتدريب والنظام، وما تم اثناء التحام الجيوش وبعد ذلك.

بدأت اعمال الفتوحات أولا على جبهة العراق، وكانت العراق خاضعة الى الامبراطورية الساسانية، فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واثناء انشغال المسلمين بحروب الردة، زار المدينة المثنى بن حارثة الشيباني، الذي كان واحدا من زعماء قبيلة شيبان، صاحبة الفضل في النصر يوم ذي قار، واتصل بأبي بكر، ففوضه بمبادرة العمل العسكري ضد الفرس، وعندما قضي على حركة الردة، أمر أبو بكر خالد بن



□ جامع خالد بن الوليد في حمص.

الوليد بالتوجه نحو العراق، والتعاون مع المثنى، وكان هذا سنة ١٢هـ/٦٣٣م.

وفي خلال اقل من عام واحد استطاع خالد بمعاونة المثنى، تحقيق عدد من الانتصارات على حاميات الحدود الفارسية، مع القوات التي جاءت لنجدتها، وتتوج عملها بحصار مدينة الحيرة، حاضرة المناذرة والاستيلاء عليها صلحا، وقام أبو بكر بامداد خالد بقوات جديدة، وجعله قائدا اعلى لجميع القوات العربية في جبهة العراق، لكن مكوث خالد لم يطل في العراق، حيث جاءته اوامر الخليفة بالتحول الى بلاد الشام، حيث سيقوم بجليل اعماله التي ستعطيه شهرته التاريخية الواسعة.

فحينما كانت الجيوش العربية نشطة ضد الفرس، كانت كتائب اخرى تعمل ضد الدولة البيزنطية ايضا، وقواتها في بلاد الشام، وكانت الأعمال العسكرية ضد بلاد الشام قد بدأت منذ ايام الرسول، وكانت آخر قوة جهزها صلى الله عليه وسلم قبل وفاته اراد ارسالها ضد بلاد الشام، ثم توفي، فكانت اول الجيوش التي تحركت زمن أبي بكر، وعلى الرغم من هذا فإن حروب الردة قد عطلت العمل ضد بيزنطة في الشام لفترة وجيزة وبعد القضاء على الردة بدأت الأعمال العسكرية هنا، لكن بعد أن بدأت في العراق بعدة اشهر.

ففي سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م استنفر ابو بكر العرب في بقاع الجزيرة، وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة الاف مقاتل، ثم امدها الى ان وصلت الى السبعة، وجعل على رأس هذه الجيوش يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، وأرفق هذه الجيوش عدداً من مشاهير الصحابة والمسلمين، مثل أبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن سعيد بن العاص، ويبدو ان مهمة أبي عبيدة كانت العمل بوظيفة ضابط ارتباط لهذه الجيوش الثلاثة، وصلة وصل لها بالمدينة المنورة، ولم تتحرك هذه الجيوش كتلة واحدة، وانما جاء تحركها على دفعات، كل دفعة ذهبت في اتجاه معين، ويرى

البعض ان سبب ذلك يعود الى عدم وجود خطة واضحة في ذهن أبي بكر حول مهمة هذه الجيوش، فتح أم اعمال غارة، وأن ابا بكر كانت تصله قوات قبيلة ما من قلب الجزيرة، فيدفعها نحو بلاد الشام تخلصا منها، وحتى ترى حظها، وكان يستجيب لتطورات الأحوال.

والذي يبدو ان واقع الحال لم يكن هكذا، فأبو بكر مع اعوانه في المدينة كانوا يملكون معرفة جغرافية جيدة عن بلاد الشام والعراق، مع تصور ومعرفة لا بأس بها للعالم المتحضر كله، فشبه جزيرة العرب يمكن النفاذ منها برا الى العالم إما عن طريق العراق أو عن طريق الشام، ومن العراق بعدما يجتاز المرء الدجلة يمضي الى المشرق، كما يمكن ان يسافر الانسان من العراق الى الجزيرة فأرمينية ومن ثم الى شواطىء البحر الأسود وهكذا، ومن الشام يمكن للانسان ان يمضي من جنوبه الى مصر فالشمال الافريقي مع افريقية، ثم الى اوروبا، كما يمكن للانسان ان يخترق وسط الشام الى الجزيرة فأرمينية ومن ثم الى شواطىء البحر الأسود وهكذا، ويمكن ايضا ان يماشي الانسان الساحل الشامي صعودا الى الشمال الى آسية الصغرى وحتى القسطنطينية وهكذا..

لقد ارسل ابو بكر جيشا واحدا الى العراق، ومعلوم ان هذا الجيش انقسم بعد القادسية الى قسمين واحد عسكر في الكوفة والآخر في البصرة، وكانت فتوحات ايران وخراسان وما وراء النهر مسؤولية جند البصرة، في حين ان جند الكوفة ماشوا الفرات صعودا حتى الجزيرة فأرمينية.

وايضا ارسل ابو بكر ثلاثة جيوش الى الشام، فجيش عمرو بن العاص هو الذي تولى شأن فلسطين، وهو الذي فتح مصر بعد ذلك، ومنها مضى فاتحا الى الأندلس، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان فهو الجيش الذي اجتاز طوروس بعد اليرموك، وهو الذي حاصر القسطنطينية مرارا، وجيش شرحبيل هو الذي خرق وسط الشام، ومضى الى الجزيرة حيث التحم مع القوات القادمة من العراق، وهو لا شك جيش ارمينية وجبهة الخزر.

نحن حين نرى الأمور بهذا المنظار العلمي الموثق ندرك ان قيادة المدينة كانت تنفذ خطة واضحة المعالم دقيقة للغاية استهدفت فتح العالم، ونشر الاسلام فيه، ويمكن ان نضيف بعد هذا ان ابا بكر لم يدفع قواته تخلصا منها، انما كان وراء ذلك خطة عسكرية واضحة، قامت على العقيدة القتالية لعرب شبه الجزيرة، وهذه العقيدة قد أخذت في اعتبارها طبيعة المقاتل العربي وأحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال، وايضا طبيعة القوات البيزنطية والساسانية من كافة النواحي.

لقد جند أبو بكر قواته من قبائل الجزيرة، وأفراد هذه القبائل كانوا يتقنون من الحروب الأعمال السريعة ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم، وكانت اسلحتهم خفيفة، ومؤنهم قليلة للغاية، وبكلمة موجزة، كانت قوات أبي بكر قوات غير نظامية، وغير محترفة، وقع عليها واجب قتال الجيوش النظامية لأعرق الامبراطوريات في معرفة فنون القتال والزحف والتعبئة، ولهذا كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق تجمع القوات المعادية، ثم انهاك هذه القوات، واضعاف معنوياتها، واخيرا انزال ضربة قاصمة وسريعة بها، وكان هذا ما حصل في الشام بشكل خاص.

فالى الشام ارسل أبو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتعيث في كل بقعة وتدمرها، ولتجبر قوات بيزنطة على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة، وكانت القوات العربية تتجمع بين آونة وأخرى لتنزل ضربات كبيرة بالقوات البيزنطية، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطة في اكثر من معركة كبيرة، كانت كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك.

ان عمل الوحدات الصغيرة، ضد الجيش النظامي البيزنطي، لم يوجد حلا لمشاكل التموين، وأربك العدو فقط، لكن مكّن ايضا من جمع معلومات عن الأرض والعدو، كما سهل فصل المحكومين «الرعية» عن الحكام بعدما اظهر عجز هؤلاء الحكام، وهذا ما يعلل كثرة المعاهدات التي صنعها العرب مع حكام القرى والجماعات الصغيرة والمتوفرة أخبارها في المصادر، ثم فوق هذا كله ان الغارات المتوالية لا شك قد بثت الرعب في صفوف الخصم وأنزلت معنويات جنده الى الحضيض، وجاء ذلك تطبيقا لقوله صلى الله



□ مدينة حمص (المعروفة بمدينة ابن الوليد).

عليه وسلم: نصرت بالرعب من مسيرة شهر.

يبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكا الطريق الموازي لشاطىء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة، تبوك، معان، فوادي الأردن، واصطدمت هذه القوات بجيوش بيزنطة فهزمتها، وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيما في حمص، وعندما جاءته أخبار زحف الجيوش العربية، وأنباء انتصاراتها، وهزائم قواته، حرك قوات ضخمة بقيادة أخيه تيودور ووصلت اخبار التحرك البيزنطي هذه الى العرب، فكتب أبو عبيدة بخبرها الى أبي بكر، فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد: «أما بعد، فاذا جاءك كتابي هذا، فدع العراق، وخلف فيه اهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض متخففا من اهل القوة من اصحابك، الذي قدموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة، ومن معه من المسلمين، فاذا التقيتم فأنت امير الجماعة، والسلام عليك».

واستجاب خالد للأوامر، وتحرك نحو الشام، فاجتازالصحراء بسرعة مدهشة، وكان عبوره على الطريق القديم المهجور الذي كان يصل تدمر بالعراق، وجاء هذا العبور من اعظم الأعمال العسكرية، واكثرها مغامرة وشجاعة، وهو دليل على معرفة جغرافية عميقة لدى المسلمين، فقد ظهر خالد بشكل مفاجىء في صحراء تدمر، ثم في منطقية دمشق وجنوب بلاد الشام، فهاجم بصرى، وهزم حاميتها ثم صالح اهلها، وهكذا صار سيدا لمنطقة حوران، واربك ظهور خالد هذا تيودور، وأوقعه بين نارين، فكان سبب اخفاق مهمته، وبعثت اعمال خالد النشاط والحماس بين القوات العربية، ومن حوران راسل امراء الجيوش العربية،وطلب منهم ان يلاقوه جميعا في منطقة اجنادين ليس بعيدا عن الرملة.

وفي اجنادين التقت القوات العربية المتحدة التي قاربت الخمس والعشرين الفا من المقاتلين مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تيودور، وكانت هذه القوات تفوق القوات العربية عَددا وعُددا، وهزم خالد البيزنطيين، وألحق بتيودور العار، وجعله يفر نحو أخيه، فسبب رحيل الامبراطور عن حمص نحو أنطاكية لجمع جيش جديد، وارساله ضد المسلمين لمنعهم من التقدم شمالا.

وسقط بين القتلى في اجنادين حاكم فلسطين البيزنطي، وقد حررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي، وأعادتها عربية الشعب والحكم والعقيدة، وهذه المعركة تشابه من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية بالنسبة للعراق، وقد حدثت هذه الوقائع كلها سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م وفي اواخر حياة أبي بكر.

وبعد أجنادين اصبح الطريق مفتوحا امام العرب للتحرك نحو دمشق، وقبيل مشارف دمشق، هزم العرب النجدات البيزنطية التي أرسلها هرقل في معركتين ضيقتين للغاية في مرج الصفر وفحل ووصلوا أسوار دمشق وأخذوا في حصارها.

وفي هذه الأثناء وصلتهم اخبار وفاة أبي بكر، واستخلاف عمر بن الخطاب، وافتتح عمر عهده بعزل خالد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام، لأنه كان حريصا على منع الجند من التدخل في شؤون السياسة والحكم، ويهمه مصالح الأمة فوق مصالح الفرد وشهرة البطل، وقد أحل عمر أبا عبيدة بن الجراح محل خالد، ولم يحدث

هذا العزل تأثيرا على وضع القوات العربية، اذ بقي خالد القائد الفعلي بشكل مؤثر، حيث أن أبا عبيدة كان لا يقدم على عمل الا بعد مشورة خالد، ثم بعد ذلك كان يوكل اليه تنفيذ كل ما كان يشير به عليه.

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة، سقطت بعدها سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالا فتجاوزت منطقة مدينة حماه، واستمرت بالتقدم شمالا، وأخذ المسلمون يحكمون سيطرتهم على جميع أجزاء بلاد الشام، ويطهرونها من الجيوب البيزنطية، ويعملون في سبيل اعادة تنظيمها لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام، دون ان تبذل كل ما بقي لديها من طاقات، فجند هرقل جيشا عظيما للغاية ضم جنسيات الامبراطورية: يونان، وسريان، وغساسنة، وأرمن، وزحفت القوات البيزنطية جنوبا تريد اقتلاع العرب وتحطيمهم، ووصلت اخبار التحرك البيزنطي الى أبي عبيدة وكان في منطقة حمص، فعقد مجلسا حربيا ضم كبار قادة قواته، وتباحث معهم في الأمر، فقر رأيهم على الانسحاب الى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام، ومن التراجع نحو شبه الجزيرة اذا اقتضى الحال، وقرر أيضا الكتابة الى عمر بوصف حالهم، ويطلب المدد.

وانسحبت القوات العربية جنوبا متخلية عن جميع المدن والاراضي التي اخذتها، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك، وكان لهذا الانسحاب اثره على القوات البيزنطية، حيث ولد الزهو والدعة في نفوس قادتها، كما دفعهم الى انزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب، مما زاد من نفرة السوريين وكراهيتهم للبيزنطيين.

وفي منطقة اليرموك شعر أبو عبيدة بحراجة موقف المسلمين، وعرف ان الكثير منهم يرى الانسحاب من الشام «حتى يأتيهم مدد يرون انهم يقوون على من جاءهم من الروم» «فدعا أبو عبيدة الناس فاستشارهم فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام، الا خالد بن الوليد، فانه أشار عليه بالمقام، وقال لأبي عبيدة: خلني والناس، ودعني والأمر، وولني ما وراء بابك، فأنا اكفيك باذن الله امر هذا العدو، فقال له أبو عبيدة: شأنك بالناس».

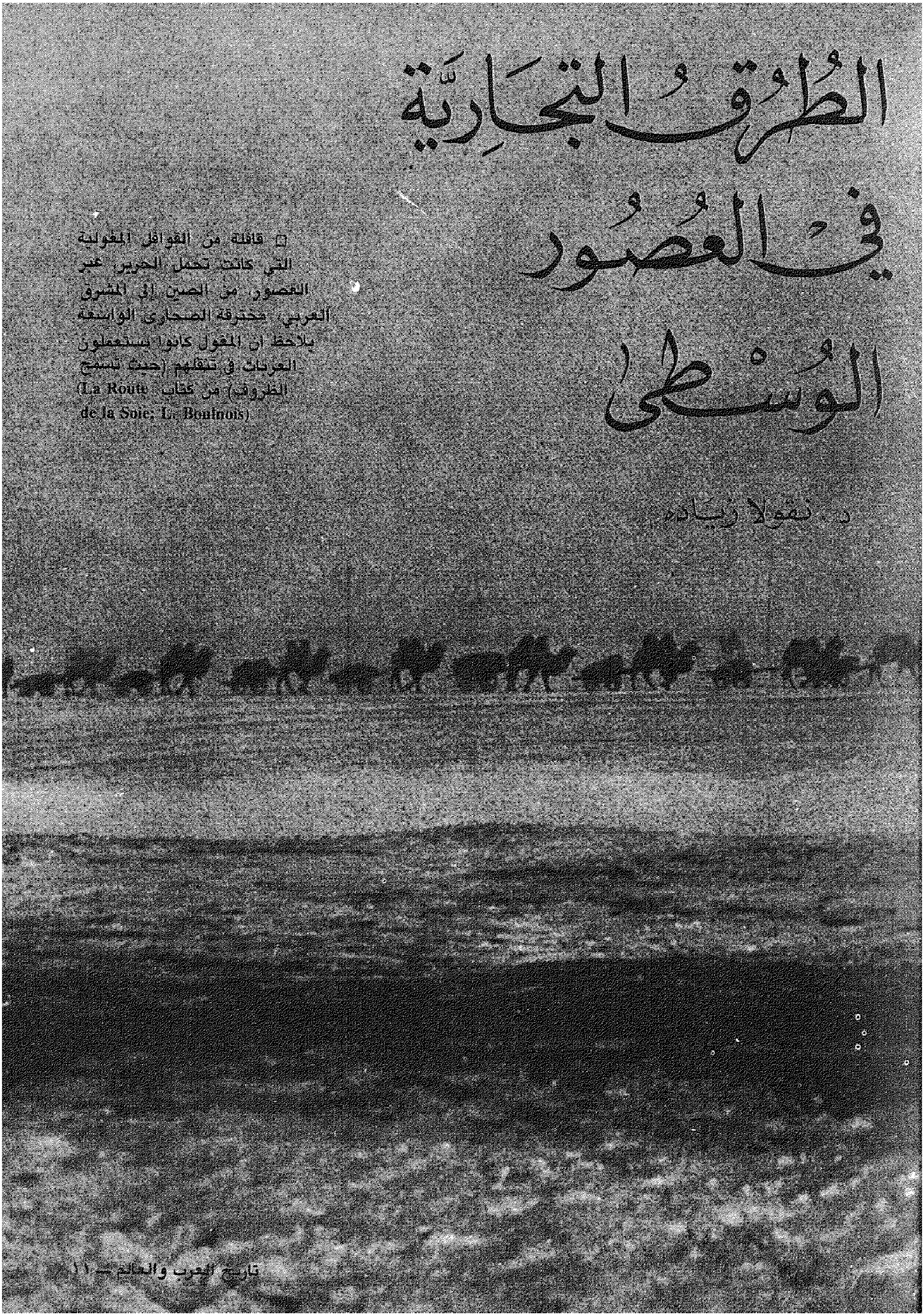
والتقت القوات العربية بالقوات البيزنطية في اليرموك، بالقرب من بحيرة طبرية، في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن وفي الأمام كان الجيش البيزنطي، ونشط خالد في اعداد خطط الحرب نشاطا كبيرا تجلت فيه عبقريته العسكرية، قام يصف القوات المسلمة «ثلاثة صفوف، وجعل ميمنة وميسرة» ثم جاء بالفرسان فقسم الخيل أرباعا (أي كراديس) تولى هو قيادة ربع (كردوس) وبعث على كل ربع قائدا من أشجع المسلمين، كما انه جعل قوات المشاة على شكل تستطيع الصمود به لفرسان البيزنطيين الثقال واستدراجهم وبعثرة جهودهم، واعتمد خالد خطة هدفت الى فصل سلاح الفرسان البيزنطي عن المشاة وأوكل الى فرسانه الخفاف هذه المهمة، وقد طبق خالد خطته بوعي وشجاعة، فسبب تحطيم القوات البيزنطية، وكان ذلك في صيف سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، ولا ريب ان القوات البيزنطية كانت على الأقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمس وعشرين الفا.

ومما لا شك فيه ان معركة اليرموك كانت احدى معارك التاريخ الانساني الكبرى، لما نجم عنها من نتائج فبعد هذ المعركة، عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل، وتابعوا زحفهم شمالا حتى جبال طوروس، وفر هرقل نحو القسطنطينية، وهو يردد: «وداعا يا سورية، وداعا لا لقاء بعده»، فقد حررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي، كما كانت المقدمة المباشرة لانحسار هذا الحكم عن مصر وشمال افريقية، وبداية قيام الوطن العربي.

وبعد الفراغ من فتوح الشام عاش خالد بن الوليد في منطقة حمص الى ان توفاه الله سنة احدى وعشرين وسمع لما حضرته الوفاة يقول: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنذا اموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت اعين الجبناء»، ودفن خالد في مدينة حمص، وما زال قبره فيها قائما، يزوره من يأتي حمص، لأنه علمها البارز، وبه باتت تعرف بمدينة ابن الوليد. ●

الطُرُقُ التجارِيَّة فِي العُصُور الوُسْطى

د. نقولا زيادة



□ قافلة من القوافل المغولية التي كانت تحمل الحرير عبر العصور من الصين إلى المشرق العربي مخترقة الصحارى الواسعة يلاحظ ان المغول كانوا يستعملون العربات في تنقلهم (حيث تسمح الظروف) من كتاب (La Route de la Soie; L. Boulnois)

التجارة حرفة قديمة، عرفتها المجتمعات منذ أن بدأت تنتج فائضا عن حاجتها، سواء في الزراعة أو الصناعة، فأخذت تتبادل سلعها فيما بينها. ومع تحسن وسائل المواصلات، البرية والبحرية، اتسع نطاق التجارة. والذي نعرفه هو أن مناطق مختلفة في العالم، في العصور القديمة والوسطى، كانت تفرض رسوما جمركية على ما يدخلها أو ما يعبرها، من المتاجر والسلع. وقد تقوم حرب بين دولتين فتمتنع التجارة بين البلدين إلى أن تنتهي الحرب.

ولما قامت الدولة العربية الإسلامية، التي امتدت من أواسط آسية وحوض السند شرقا إلى شبه جزيرة ايبيرياغربا، أصبحت التجارة في هذه الرقعة الواسعة أيسر على من يتعاطاها، وأكثر ربحا للقائمين بها وعليها، إذ كانت البضائع تنقل في هذه المنطقة دون قيود. وحتى لما تشرذمت الدولة هذه، وقامت على أنقاضها دويلات متعددة، ظل الإسلام يربط بين أجزائها، بحيث كان الحاج والتاجر وطالب العلم والرحالة الطُلَعَة يتنقل بين بلد وآخر بكثير من الحرية.

وهنا يعرض الكاتب لنواح من الطرق التجارية البحرية والبرية كما عرفت وتطورت في أواخر العصور القديمة والعصور الوسطى.

ــ ١ ــ

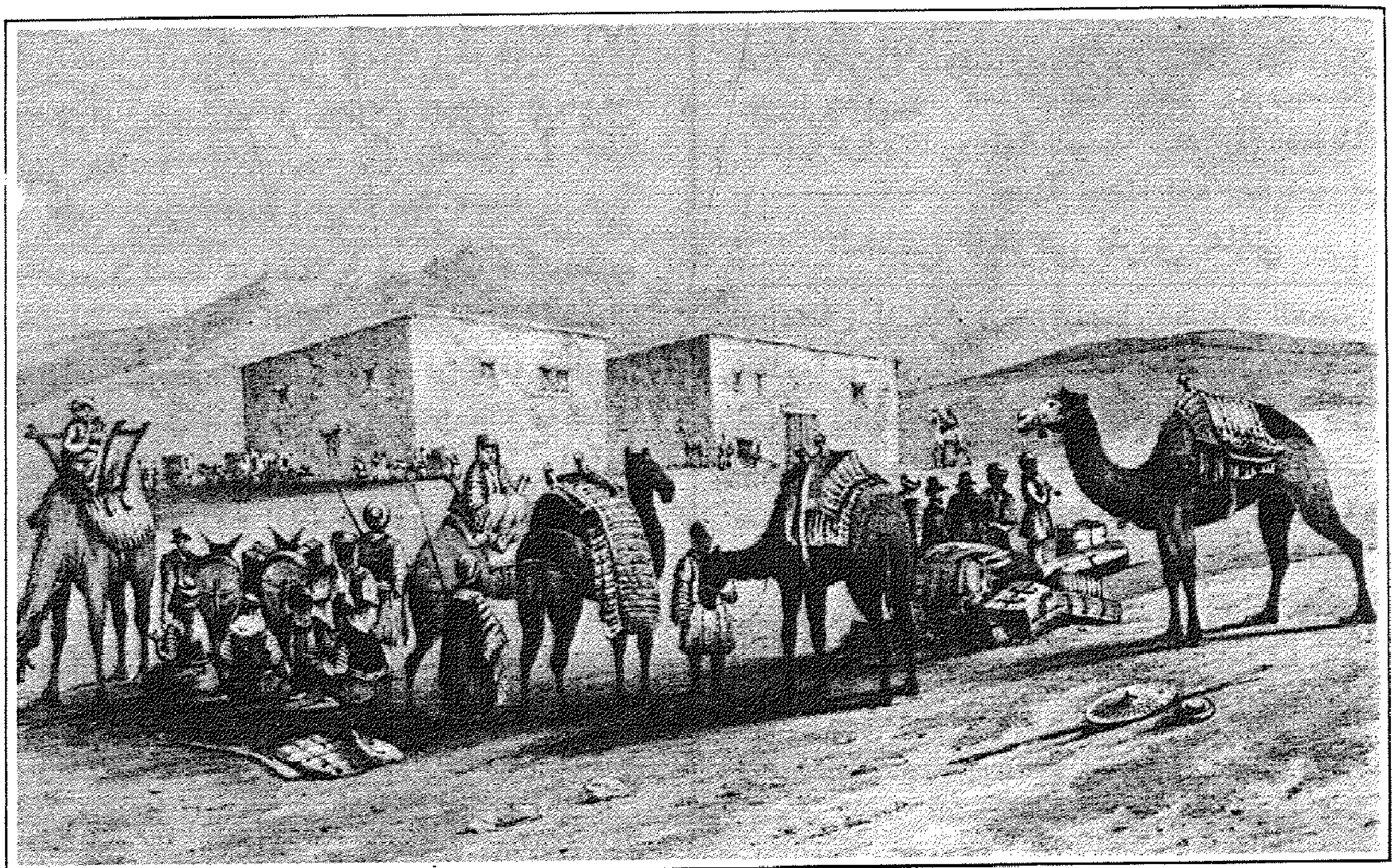
إلى الهند

مع الرياح الموسمية

البحر الأحمر، هذا البحر الضيق الواقع بين افريقية والجزيرة العربية، كان حلقة اتصال تجارية بين شاطئيه من جهة، وبين المدن الواقعة على شاطئيه والموانىء القائمة على شواطىء البحار المتصلة به بعد أن يخرج المسافر من مضيق باب المندب. فنحن إذا عدنا القهقرى في التاريخ وجدنا أن قدماء المصريين كانت لهم، منذ أواسط الألف الثالث ق.م.، صلات تجارية مع بلاد بونت. والباحثون يجمعون تقريبا على أن بلاد بونت هي إما بلاد الصومال أو اليمن، أو لعل الكلمة كانت تستعمل للدلالة على المنطقتين اجمالا. فقد كانت السفن المصرية تبنى على مقربة من السويس الحالية، ثم تتجه جنوبا حاملة ما تقدمه مصر نفسها أو ما تجمعه من جاراتها. وفي موانىء بونت كانت تفرغ حمولتها وتعود ومعها ما كان يتجمع في الجنوب من بخور وتوابل أفاويه وحيوانات أفريقية. ونقوش الدير البحري وصوره ترينا خمس سفن كبيرة أرسلتها الملكة المصرية حتشبسوت في القرن الخامس عشر إلى بونت وقد عادت من هناك محملة بالسلع المختلفة.

وبعد أن ضعف شأن الامبراطورية المصرية ظهر الفينيقيون (في القرن العاشر قبل الميلاد) في البحر الأحمر كتجار كبار. فقد أظهرت البحوث الحديثة أن أحيرام ملك صور كان له أسطولٌ تجاري هناك، وقد كانت السفن تُبْنى في المكان المعروف بتل الخُلَيفة، وهو أيلة التي يذكرها الجغرافيون العرب. ويبدو أن السفن الفينيقية كانت توغل في الأسفار وتحمل معها من بلاد «أوفير» الذهب والفضة والحجارة الكريمة وخشبَ الصندل والعاج والقرود والطواويس. ويرى فريق من الدارسين أن أوفير هذه لم تكن سوى الهند بالذات.

وكان قيام الامبراطورية الفارسية وفتوح الاسكندر بعد ذلك وتقسيم امبراطوريته ثم قيام الامبراطورية الرومانية ــ كل هذه كانت لها آثارٌ بعيدة المدى على تطور التجارة مع البحار الشرقية عبر البحر الأحمر والخليج العربي. ومن حسن حظ مؤرخي التجارة في تلك البحار أن الفترة الممتدة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثاني للميلاد قد زودتنا بمصادر مكنتنا من الحصول على صورة واضحة تقريبا لما كانت عليه التجارة البحرية والبرية في ذلك. وهذه المصادر هي: أولا مؤلف وضعه عالم اسكندري



□ كان الطريق الصحراوي من العراق إلى الهند تقوم فيه خانات للتجار ودوابهم. حيث كانت تباع مختلف البضائع. (الصورة تعود إلى القرن السادس عشر) الصورة من كتاب: (Travellers in Arabia; by Robin Bidwell)

اسمه أغاثرخيدس. ومع أن المؤلف نفسه فقد فان القسم الأكبر منه حفظ في كتابات متأخرة. والمهم أن المعلومات التي يزودنا بها مستقاة من شاهدي عيان ومقارن بعضها بالبعض الآخر. والمصدر الثاني هو كتاب الجغرافية الذي وضعه سترابون. وثالث مصادرنا دليل البحر الهندي الذي ألفه تاجر يوناني كان يعيش في مصر في أواسط القرن الأول للميلاد. أما المصدر الرابع فهو كتاب التاريخ الطبيعي من تأليف بلينيوس في أواخر القرن ذاته. وثمة تاريخ الاسكندر لأريان الذي زودنا بالمعلومات عن نيارخوس.

والذي يمكن أن نعرفه من هذه المصادر ومن نقوش أظهرتها الجزيرة العربية هو أن التجار العرب في اليمن وحضرموت وعُمان، وغيرهم من تجار الأقوام المجاورة، كانوا يركبون سفنهم من بلادهم إلى الهند ويسيرون بها في محاذاة الشواطىء. وسواء كان ابتداء الرحلة من اليمن أو من عمان، فإن السفن كانت تحاذي الشواطىء فإذا وصلت إلى الأخيرة قطعت بحر عمان في أضيق أماكنه، ثم عادت إلى محاذاة الشواطىء حتى تصل الهند. وكان الذي يحمل هؤلاء التجار، العرب منهم وغير العرب على السواء، على سلوك هذا الطريق هو أن سفنهم كانت صغيرة، وكانت الألواح فيها مربوطة ببعضها البعض بحبال من ليف جوز الهند، ولم تكن المسامير الحديدية تستعمل في بناء السفن قط. ولذلك فلم تكن السفن تقوى على مصارعة الأمواج العاتية التي يعرفها ملاحو المحيط الهندي بين أفريقية والهند.

ولكن هذا كله تغير في القرن الأول قبل المسيح على ما يخبرنا مؤلف دليل البحر الهندي. ففي ذلك القرن اهتدى هيبالوس إلى الرياح الموسمية وامكان الافادة منها في تسيير السفن إلى الهند. وقد كان لهذا الاكتشاف أثر في تطوير الملاحة في تلك المنطقة. فما الذي اكتشفه هيبالوس وماذا كان أثره؟

لقد جاء في دليل البحر الهندي أن السفر البحري كان يتم في سفن صغيرة تظل قريبة من الشاطىء حتى جاء هيبالوس الذي تنبه إلى مواقع الموانىء وأحوال البحر، ومن ذلك اهتدى إلى خير الطرق التي يمكن أن توصل السفن عبر البحر إلى الهند رأساً. ومن ذلك الحين صارت

السفن تخرج من جهات عدن أو قنا (بير علي) أو حتى من رأس التوابل في أفريقية وتتجه رأسا إلى موانيء السند أو موانيء أخرى في غرب الهند.

ولكن ما هو الاكتشاف الذي تم على يد هيبالوس؟ لاحظ هذا الملاح أن الرياح الموسمية الصيفية تهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وهي رياح قوية يمكنها أن تدفع بالسفن قدما فتصل في مدة أقصر. وقد كان هذا ممكنا في حالة واحدة وهي بناء سفن أقوى وأكبر، واستعمال الشراع المربع الذي يفيد من قوة الريح. وهذا الذي حدث.

وعندها أصبح التوقيت الزمني للسفن التي تغادر مصر إلى الهند على الوجه التالي: تغادر السفينة مصر في شهر تموز (يوليو)، فتصل جنوب البحر الأحمر وتخرج منه إلى المحيط فتدفع بها الرياح الموسمية الصيفية في شهر آب (أغسطوس) إلى شواطيء مالابار في غرب الهند، وكانت الرحلة هذه تحتاج إلى قرابة أربعين يوما، فتصل السفينة في أوائل أيلول (سبتمبر) وتعود مع الرياح الموسمية الشتوية. وظل طريق هيبالوس متبعا نحو قرنين من الزمان.

أما ما كان يتبادل به من السلع بين مصر وديار الشام والعالم الروماني من جهة وبلاد الهند وما وراءها من جهة ثانية، فيشمل الخمر والبرونز والذهب والأشياء المصنوعة التي كانت تجمع في الاسكندرية ثم تنقل بالنيل إلى قفط وبرا إلى ميوس هرموس أو برنيتشي على البحر الأحمر. فإذا كانت السفن تقصد جنوب غربي بلاد العرب فإنها كانت تلقي مراسيها في موزا (وهي مخا الحديثة) فتسلم ما معها هناك وتعود بالبخور والطيوب. أما السفن التي كانت تقصد الهند، فقد كانت تتزود بحاجتها من الماء والمؤن في قنا، إلى الشرق من عدن الحالية، وعندها تتجه السفن إلى ميسور وغيرها على شاطيء مالابار رأسا عبر المحيط. أما إذا كانت السند أو ما إليها هي المقصودة فإن السفن تحاذي الشاطيء إلى أواسط الساحل الجنوبي لحضرموت ثم تتجه إلى الهند رأسا. ويبدو أن بعض السفن كانت تخرج من باب المندب وتتجه إلى ميسور رأسا أيضا.

وبالاضافة إلى ما ذكرنا من الموانيء فقد كانت عدن وجزيرة سوقطرى وجزيرة سيلان من مراكز التجارة المهمة.

— ٢ —

الخليج العربي طريق عالمي

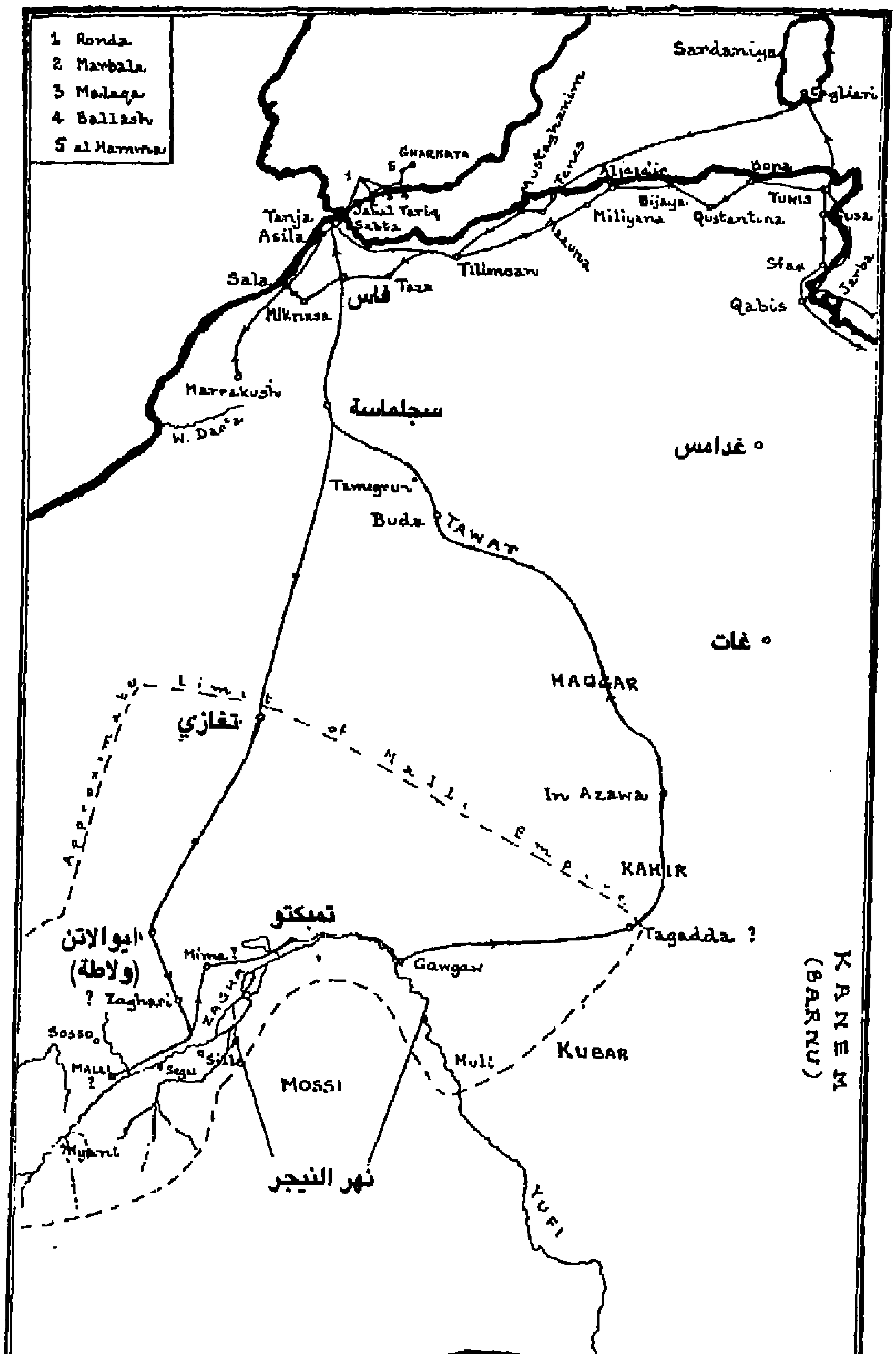
عالمان انتظما فيما بينهما حضارة العصور القديمة والمتوسطة واحتضنا ثقافتها: هما عالم البحر المتوسط وعالم المحيط الهندي. في كل منهما نشأت أساطير وازدهرت آداب وقامت صناعات وظهرت فنون. وفي كل منهما كانت هذه الأساطير والآداب والفنون ترمي إلى تمجيد الخالق والتعبير عن أشواق الإنسان وآماله وآلامه وتجسيد حاجاته الدنيوية. والخلاف بين ما عرف هناك وما عرف هنا هو خلاف في التعبير، أسلوبا وطريقا ولغة ورسما وفنا.

وعلى بعد الشقة بين هذين العالمين، وعلى ما بينهما من برار وقفار وجبال وصحار، فقد اتصل واحدهما بالآخر عبر التاريخ وعبر هذه المسافات الشاسعة. وقد تم هذا الاتصال عبر الطريقين المائيين الرئيسيين — البحر الأحمر والخليج العربي. وبسبب توسط هذا الأخير المسافات الرحبة فإنه كان طريقا أولى بعناية التاجر والمحارب والرحالة والحاج — كل أولئك وجدوا أنفسهم، عبر العصور والقرون، يتنقلون بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط جيئة وذهابا، حاملين الأسطورة والأدب والدين والعلم والمتاجر والسلع، مقايضين متبادلين بائعين مشترين. والأسواق في كل من العالمين على استعداد لتلقي ما يأتيها والاستفادة منه متاجرة وتعلما واستمتاعا.

اليس من الطريف أن السومريين، وهم أقدم شعب متحضر سكن العراق قبل آلاف السنين، عندهم أسطورة تقول بأن حضارتهم جاءتهم من الجنوب، أي من الخليج العربي، وقد حملها إليهم واحد من الأحياء البحرية نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل سمكة؟ وقد فسر الباحثون هذه الأسطورة على أنها إشارة إلى ارتباط حضاري قديم العهد بين حوض السند ووادي الرافدين! أو ليس من المهم أن يعرف أولئك الذين يستمتعون بقصص السندباد البحري أن

هذه القصص تمثل تمازجا في الخيال بين قصص عن طيور ضخمة تقطن جبال الهند المرتفعة وقصص عن تجار انتقلوا فعلا من عالم البحر المتوسط إلى عالم المحيط الهندي للتجارة فعادوا وفي جعبتهم هذا المزيج اللذيذ؟

أليس من المفيد حقا أن يتابع الواحد منا أخبار الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء في شواطىء الخليج العربي الغربية — من جزيرة فيلكة في الشمال إلى دبي في الجنوب — وفي البحرين فيجد انهم تعرفوا إلى حضارة عريقة في



□ طريق ابن بطوطة من المغرب إلى مالي □

القدم هي جماع ما اهتدى إليه الإنسان هناك ولعلها كانت ذات تأثير على الجيران كما كانت ذات تأثر بالجيران؟

ما الذي أدّى إلى قيام مدينة مثل تدمر في القرنين الثاني والثالث للميلاد؟ أليست هي التجارة التي كانت تنقل من موانىء الخليج العربي عبر هذه المدينة إلى ديار الشام؟ وما الذي أدّى، في القرنين الثالث والرابع للميلاد، إلى تدهور النقد الروماني وتنقيص قيمته؟ ألم يكن ذلك مسببا، إلى درجة ما، عن كثرة ما أنفق الرومان، من ذهبهم وفضتهم، على الحجارة الكريمة والحرير وما إلى ذلك مما كان يحمل من عالم المحيط الهندي؟ وكثرة من هذا كان ينقل عبر الخليج العربي.

وهذه الأبُلّة، في جنوب العراق، كانت فرضة للسفن الهندية والصينية حاملة ما هناك من صناعات إلى العراق وبعده إلى ديار الشام ثم غربا إلى ما تبقى من بلاد البحر المتوسط. كان ذلك قبل الإسلام واستمر في العصور الإسلامية الأولى. وقد استمر الاتجار طويلا وإن تعددت الموانىء واختلفت أماكنها.ومواقعها. ولنأخذ مثلا على ذلك فترة الازدهار الكبير في التاريخ العربي الإسلامي.

عرف الخليج العربي ازدهار التجارة فيه بشكل خاص في القرنين الثالث والرابع هـ (التاسع والعاشر م). ذلك بأن الدولة العباسية كانت تتجه شرقا. ويرى الدكتور جورج حوراني أن استتباب الأمن في الدولة الإسلامية من الجهة الواحدة، ووجود دولة قوية في الصين في الوقت نفسه، أي في أوائل عهد الدولة العباسية، يسرا للتبادل التجاري ظروفا مساعدة. فكان الخليج مسرحا لتجارة رابحة نشيطة وكان التجار ينعمون بالثروات الطائلة. وكانت الموانىء الرئيسية سيراف وعمان والبصرة. فسيراف، على ما يقول الأصطخري، كانت أغنى بلاد فارس. وقد يبلغ ملك التاجر الثري أربعة آلاف الف دينار، وقد كانت دهليز الصين، على حد تعبير المقدسي.

والبصرة كانت الأبُلّة إلى جوارها. وقد كانتا تعينان سير السفن في رأس الخليج. والأبُلّة كانت أرفق من البصرة وأرحب.

وكانت عمان أحد المراكز الرئيسية في المتاجرة بين الصين وشرق أفريقية وموانىء الخليج العربي بالذات. وقد وصف ابن حوقل عمان بقوله «ناحية ذات أقاليم مستقلة بأهلها... وقصبتها صحار وهي على البحر، وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالا. ولا يكاد يعرف على شط (بحر فارس) الخليج العربي بجميع الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار». وقد أكد ذلك المقدسي، الذي كتب بعد ابن حوقل بمدة قصيرة، بقوله «وصحار هي قصبة عمان وليس على بحر الصين اليوم بلد أجمل منه، عامر آهل طيب نزه... أسواق عجيبة».

ويبدو أن الرحلة التجارية إلى المحيط الهندي ـــ سواء في ذلك الجزء الأسيوي أو الجزء الأفريقي منه ـــ كانت تبدأ من الأبُلّة مستفيدة من أوقات المد، فتنحدر المراكب إلى سيراف حيث تجتمع السفن أيضا. وكانت السفن، فيما بعد من الأزمنة، تحمل النفاطين والمقاتلين للدفاع عن نفسها وركابها ومتاجرها ضد بعض المتلصصة. وسير السفن إلى البحار الصينية والهندية كان يتبع واحدا من طريقين إما طريق صحار (عمان) ومسقط ثم تقصد السفن ساحل مالابار بالهند، وأما الطريق المحاذي لشواطىء فارس فشاطىء السند.

وكانت المتاجر تشمل، فيما تشمل، الأقمشة الحريرية والكافور والمسك والأفاوية والعاج والحديد وقضبان النحاس.

لكن هذه الفترة لم تدم طويلا. ذلك بأن ضعف الدولة العباسية السياسي واضطراب أمر الصين حالا دون السفن الآتية من الشرق والوصول إلى الخليج بالذات، كما حال دون وصول سفن الخليج إلى الصين. وها نحن نجد أن المسعودي، الذي كتب في أواخر القرن الرابع للهجرة، يقول عن تجارة ذلك الوقت أن سفن التجار الصينيين وكذلك سفن التجار الإسلاميين من عمان وسيراف كانت تلتقي في بلاد كلة فتتبادل السلع والمتاجر، ويعود تجار الصين مع سفنهم إلى ديارهم، ويعود التجار المسلمون إلى بلادهم أيضا.

على أن الخليج العربي لم يقتصر دوره على التجار والتجارة. فالرحالون الذين ركبوا أمواجه لغير قصد التجارة كثر. فما أكثر ما اجتازه الحجاج والعلماء والسفراء. وما أكثر ما حمل العلم من الهند إلى بغداد عاصمة العباسيين، فلما أن تم للعرب في المعرفة دورهم الكبير خرجت المعرفة من ديارهم عبر خليجهم إلى الأصقاع الشرقية.

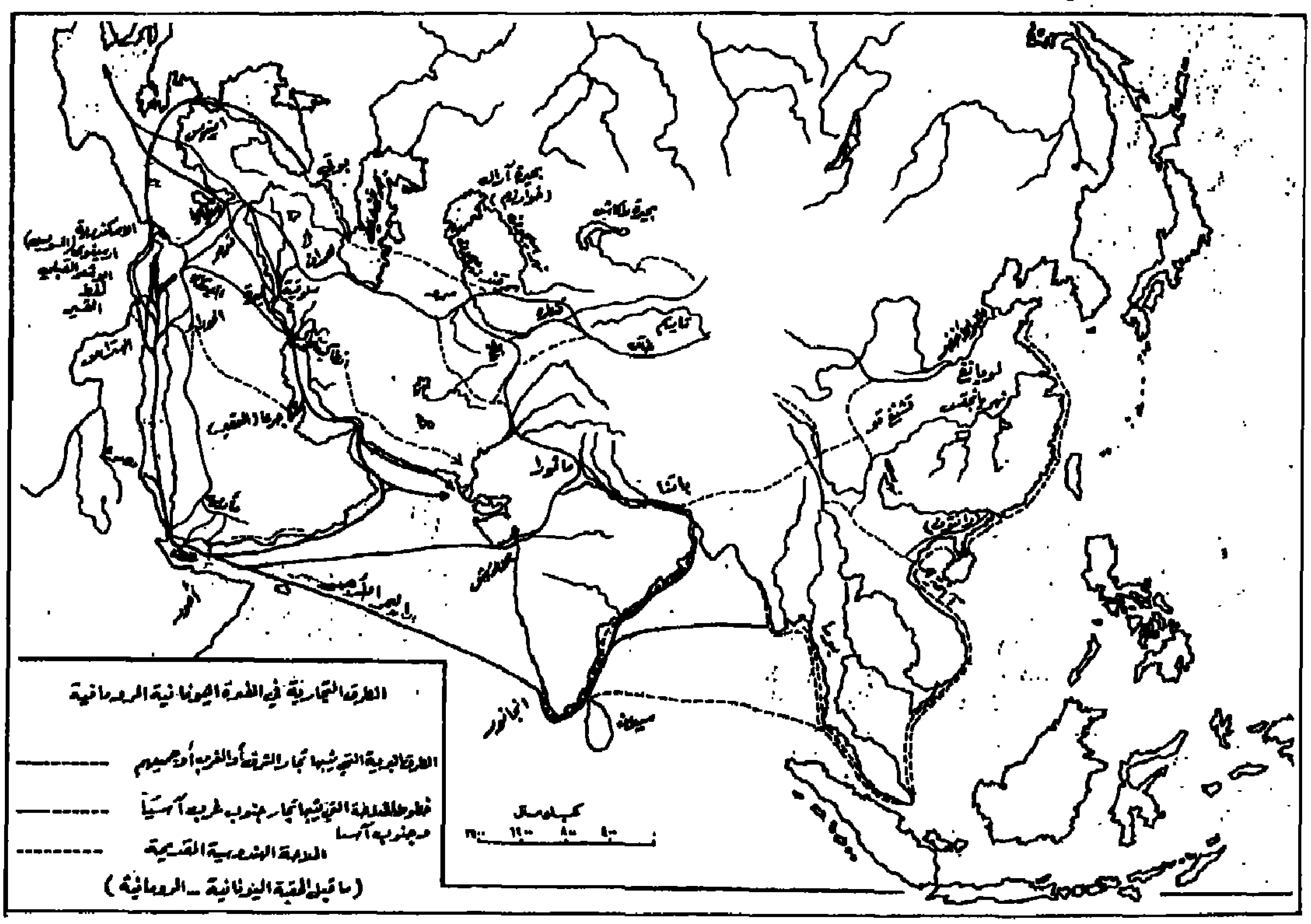
ولنذكر أيضا أن التجار حملوا إلى الهند، خاصة إلى الشواطىء الغربية، مع متاجرهم، الإسلام. فالإسلام الذي استقر في النهاية في تلك الجهات كان نتيجة هذه الرحلات التجارية الكثيرة والطويلة الأمد. ذلك بأن التجار كانوا يذهبون إلى موانىء الهند هذه مع الرياح الموسمية شرقا. وكان عليهم، بعد أن يبيعوا ما حملوا ويبتاعوا ما يرغبون فيه من متاجر، أن ينتظروا هناك حتى يتغير هبوب الرياح من الهند غربا. وهذه الفترة كانت تمتد شهورا. وكانت جماعات صغيرة من التجار المسلمين تقطن في المدن الهندية باستمرار لتقوم بالأعمال التجارية.

فهؤلاء التجار العرب المسلمون ــ المقيمون منهم والطارئون مؤقتا ــ هم الذين عرّفوا الهنود بالإسلام ونشروه بينهم.

على أن فئة أخرى من المسلمين نقلت الإسلام إلى الداخل في الهند وهي فئة المتصوفة. والذي يمكن قوله هو مع أن المتصوفة اتبعوا طرقا مختلفة في الوصول إلى الأصقاع الشرقية، فإن الكثيرين منهم وصلوها عن طريق الخليج العربي.

هذه الناحية لا تعدو كونها واحدا من الأدوار التي لعبها الخليج العربي في التاريخ وفي فترة واحدة منه. ذلك بأن التجارة بحد ذاتها كانت لها فترات متباينة من حيث النشاط أو انعدامه. وإذا نحن تذكرنا الاهتمام العالمي بالخليج العربي منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي، باعتباره الطريق الرئيسي للتجارة بين غرب أوروبة والهند وما إليها، أدركنا أننا في الواقع أمام منطقة من مناطق العالم الهامة، والتي كان لها شأن أي شأن في تاريخ العالم ــ قديمه ومتوسطة وحديثه.

□ الطرق التجارية في الفترة اليونانية الرومانية.



— ٣ —

الطرق التجارية العربية في العصور الوسطى

لعبت التجارة دورا كبيرا في حضارة العرب في العصور الوسطى. ذلك أن التجار فضلا عن أنهم كانوا ينقلون البضائع والمتاجر من مكان إلى آخر وبذلك ييسرون للناس الحصول على ما يحتاجون، فقد كانوا أيضا عاملا من عوامل نشر الاسلام كما أنهم كانوا ينقلون الكثير من الآراء والأفكار والمعارف والفنون والصناعات من قطر إلى قطر. وحرى بالذكر أن اتساع رقعة العالم الاسلامي وتنوع المنتوجات في أنحائه المختلفة كانت حافزا كبيرا للتجار على التنقل البعيد المدى. هذا بالاضافة إلى أن الأسواق الاسلامية كانت، بسبب الثراء الذي تمتعت به قرونا طويلة، على استعداد لاستهلاك الكثير من المتاجر من المناطق الخارجة عنه.

ولا يغربن عن البال أن العالم الاسلامي كان، بطبيعة موقعه الجغرافي، ملتقى الطرق الكبيرة البرية والبحرية الآتية من آسية وأفريقية وأوروبة.

وقد أجمل آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تجارة المسلمين في ذلك القرن بقوله:

«كان التجار يحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور. ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والجار، ثم يمضون إلى السند والهند والصين؛ فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك، ويرجعون إلى القلزم، ثم يتحولون إلى الفرما، ويركبون البحر الغربي، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فباعوها للروم، وربما ساروا بها إلى بلاد الفرنجة، فباعوها هناك. وإن شاءوا حملوا تجاراتهم في البحر الغربي، فخرجوا بأنطاكية، وساروا برا إلى الفرات فركبوا في دجلة إلى الأبلّة ثم إلى عمان والهند والصين، وكانوا يتكلمون العربية والافرنجية والفارسية والرومية.

وكان للتجارة العربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فضل آخر هو فتح الطريق التجاري إلى بلاد الروس في الشمال. على أنه كانت ثم بعض العلاقات قبل القرن الرابع بين بلاد الروس وبين بلاد الاسلام. فقد وصف لنا ابن خرداذبة مسلك تجار الروس من بلادهم إلى بلاد الاسلام بقوله: فأما مسلك تجار الروس، وهم جنس من الصقالبة، فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلى البحر الرومي، فيعشرهم صاحب الروم، وإن ساروا في تنيس، نهر الصقالبة، مروا بخليج مدينة الخزر، فيعشرهم صاحبها، ثم يصيرون إلى بحر جرجان، فيخرجون في أي سواحله أحبوا، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل إلى بغداد، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة، ويدعون أنهم نصارى، فيؤدون الجزية».

كانت القوافل تحمل منتجات الصين والتبت وأواسط الهند، وكانت هذه القوافل تجلب من الصين خاصة الأقمشة الحريرية وبعض الأواني الصينية مقابل المنتوجات المصنوعة في بيزنطة، وفي العالم الاسلامي. ومن التبت كانت تجلب الفراء المستوردة من سيبيريا والجلود التي تسمى جلود استراخان التي تؤثرها الطبقة الموسرة. ومن فارس ومن بيزنطية ومن الهند، كانت القوافل تجلب أنسجة وأقمشة قطنية، وجواهر وأحجارا كريمة، وروائح وأعشابا طبية، ولكن عن طريق آخر هو طريق نهر الفولجا وبحر قزوين. وكان الأرقاء البيض يأتون من روسية ومن اسكنديناوية، والعنبر يأتي من بحر البلطيق، والعسل من الشمال (وقد أوثر استخدامه على السكر) وكذلك الشموع الطويلة التي كان العالم الاسلامي يستهلك منها كميات كبيرة في مساجده. وكان طريق الهند — وهو طريق السندباد البحري — الطريق البحري، الذي يربط فارس وموزمبيق ومدغشقر بالشواطىء الشرقية والغربية للهند، وبالملايو وسومطرة، وبلاد كمبوديا. وفي ذلك الوقت كانت الميناء الكبير للصين الجنوبية كانتون التي كانت تقيم فيها جالية عربية بأعداد لا حصر لها.

ونحن إذا أخذنا ما رواه الجغرافيون العرب

عن السلع التي كانت تستورد ومصادرها وما كان يصدر منها وصلنا إلى ما يلي:

«كان الشرق يستورد من هذه البلاد المختلفة المنتجات الأكثر تنوعا. فمن أفريقية كان يستورد الأرقاء السود والعاج ومسحوق الذهب والعنبر الداكن. وفي جزرها كان يكتشف أعشابا طبية وتوابل وعقاقير، ومن الهند كان يأخذ الحديد والصلب والقصدير، ومن الملايو خشب البناء والأصباغ والمواد المعدنية وكانت بلاد كمبوديا القديمة تصدر الأخشاب الثمينة».

«وكان المسلمون يصدرون إلى الصين العاج والحلى الصدفية والنحاس والكافور الذي كان الصينيون يدفعون ثمنه غاليا. وكان التجار يعرضون، في كل مكان، كميات صغيرة من بضائع مصنوعة من زجاج وجواهر وكبريت ومنسوجات قطنية وعطور وفواكه وخضار. وكانت تجارة الخيل مزدهرة. وفي كل سنة كانت هناك عشرات الآلاف من الخيول تحْمَل من سيراف إلى شاطىء كوروماندل حيث كانت تباع إلى الهنود. وفي الحق، كان البحر المتوسط، حتى زمن الحروب الصليبية تسوده تجارة المسلمين، التي كانت تجري بين سورية ومصر من جهة، وأفريقية الشمالية واسبانية وصقلية من جهة أخرى. وكانت هذه التجارة فوق ذلك تصل إلى اليونان وايطالية وفرنسة».

والطرق التي كان التجار يتبعونها في تنقلهم من مكان إلى آخر تعددت بحيث يصعب حصرها. لكن يمكن الاشارة إلى أهمها وهي:

١ ـــ طريق الحرير وهو الطريق البري الذي كان يربط الصين بالغرب. فكان يمر بسمرقند وبخارى والري وهمذان إلى بغداد. وهناك كان ينقسم إلى شعبتين فشعبة منه تتجه إلى القسطنطينية والغرب بطريق نهر الفرات والبحر المتوسط. بينما كانت تتجه الثانية بطريق الكوفة إلى مكة والمدينة.

٢ ـــ طريق الحج الشرقي من بغداد وهذا كان يعبر الفرات عند الكوفة، ويفضي إلى الصحراء عند العذيب. وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدولة الاسلامية. ولم تكن فريضة الحج وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها أمان الطريق أيضا في حماية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تذهب إلى هناك من شتى نواحي المعمور.

٣ ـــ وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يتجه نحو القيروان، وفي ذلك الحين كانت دولة بني الأغلب الأقوياء قد أقرت الأمن ومنحت الطرق جانبا من عنايتها، فكان على طول الساحل محارس ومخافر، وكان السفر مأمونا.

وكان يخرج من مصر السفلى طريقان عظيمان إلى المغرب: أحدهما يسير بحذاء الساحل، كما كان الحال في الزمن القديم، والآخر يسير جنوبا. وكان البريد يتخذ الطريق الثاني أول الأمر (وكان يسمى طريق السكة). ثم عدل عنه بعد ذلك إلى طرابلس ومنها كان يقصد القيروان رأسا، وبعدها يسير بحذاء الساحل، وكانت الأميال معلمة. وكان هذا هو الطريق الرئيسي الذي يصل الأندلس بالمشرق.

٤ ـــ وكان ثمة إلى الشرق طريق البحر وهو الذي كان يسمى طريق الهند وكان التجار ينتقلون عبره من الصين والهند إلى الخليج العربي والبحر الأحمر. وفي الموانيء هذه كانت السفن تلقي مراسيها لتحمل المتاجر أو تفرغها حسب الحاجات والأوقات والفصول.

وقد أخرج ريسلر عن تجارة القوافل في العالم الاسلامي ما خلاصته:

«كان ما يقرب من خمسة آلاف جمل تجوس في جميع الجهات مستفيدة من الطرق إلى العالم العربي الاسلامي ناقلة المتاجر من جهة إلى أخرى. وقد أنشئت وكالات ساهرة على طول هذه الطرق: فنادق قروية ومبرات وأحواض للمياه، وفي المناطق الصحراوية أقيمت خانات رحبة وكثيرة حيث تستطيع الدواب وقوادها أن ينعموا براحتهم ويتناولوا طعامهم. وكانت هذه المنشئات تستخدم كذلك ملجأ وملاذا في اثناء العواصف الرملية التي قد تبلغ من شدتها أن تدفن قوافل بعدتها وعديدها. ففي صحراء الفرس الوسطى، اقيمت صهاريج عدة على حافة محطات القوافل والطرق، وفي كل مكان، كانت هناك إشارات تدل المسافرين وتوضح معالم الطريق. وفي البلاد

الجبلية كانت القناطر تقام بعناية فوق مجاري المياه».

وما دمنا في الحديث عن الطرق فلا علينا أن تحدثنا قليلا عن الموانىء. ففي الجزء الشرقي من العالم الاسلامي كانت سيراف، على الجهة الشرقية من الخليج العربي، أكبر ميناء منذ قيام الدولة العباسية حتى القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) ثم تغلبت عليها ميناء كيش. فقد كانت سيراف تملك أسطولا تجاريا هاما وكان لتجارها وكلاء في جزيرة بمبا، شرقي افريقية، وكيلون في الهند وكنتون في الصين. وكانت لتجار سيراف اعتمادات مالية ضخمة. فلما تهدمت سيراف بفعل الزلزال انتقلت التجارة إلى كيش على مقربة منها. وكان لكيش منافس هو ميناء عدن. وكان أسطولا كيش وعدن يتنافسان في سبيل السيطرة على تجارة المحيط الهندي. لكن أخيرا سيطرت كيش على تجارة الخليج العربي واحتكرت عدن تجارة البحر الأحمر.

ومع أن الأنهار الصالحة للملاحة كانت قليلة في العالم الاسلامي، فقد أفاد التجار من القليل الموجود مثل النيل والفرات ودجلة. وقد اهتم أولو الأمر بإقامة القناطر على الأنهار على اختلافها تيسيرا لتنقل الحيوانات والناس.

— ٤ —

مع القوافل في شمال غرب أفريقية

وصل الجمل إلى الشمال الأفريقي في أيام الرومان، لكن استعماله ظل محدودا مدة طويلة. ويبدو، من البحوث التي قام بها المعنيون بالأمر، أن الجمل انتشر استعماله هناك في أوائل العهد العربي. وقد يصعب علينا، نحن الذين ألفنا وسائل النقل والسفر الحديثة السريعة، أن ندرك تماما معنى دخول حيوان كالجمل إلى منطقة فيها الكثير من الصحارى القاحلة الجرداء التي لا تنقطها إلا بعض الواحات فقط. فهذا الحيوان الصبور القوي على الحمل أصبح صلة الوصل بين شمال أفريقية ومناطقها المدارية عبر الصحراء الكبرى.

وإذا تذكرنا أن هذا الحيوان ظل وسيلة النقل الأولى حتى القرن التاسع عشر، أدركنا مدى الخدمات التي قدمها لا للتجارة فحسب ولكن للمدنية عامة. فما أكثر ما انتقلت الثقافات مع الجمل كما انتقلت المتاجر.

والمنطقة التي نريد أن نتحدث عنها الآن هي شمال غرب أفريقية ونجد فيها خمسة طرق رئيسية للقوافل هي التي كانت تنقل عليها المتاجر في الغالب. ثلاثة منها كانت تخترق الصحراء من الشمال إلى الجنوب، واثنان كانا يجتازان شمال أفريقية من الغرب إلى الشرق.

وإذا نحن بدأنا بالطرق الثلاثة الشمالية الجنوبية الاتجاه لوجدناها كما يلي: الأولى طريق المغرب إلى تغازى ومنها إلى تمبكتو. والثاني من غدامس في ليبيا إلى الأيَر ومنها إلى سكوتو وبلاد الهوسا (الحوسا). والثالث هو طريق فزان وكوار إلى البرنو. ولنسرع إلى القول بأن كلا من هذه الطرق كانت القافلة تحتاج إلى نحو شهرين لاجتيازه، وكان كل منها تتخلله مسافات طويلة لا ماء فيها ولا كلأ، ومن ثم فان الأخطار فيها كانت جسيمة. ومع ذلك فقد أثبتت الخبرة المبنية على قرون أن هذه الطرق كانت الأقصر والأقل أخطارا من غيرها من الطرق الأفريقية.

وكانت أهم هذه الطرق الثلاثة الطريق الغربي وهو طريق تغازى تمبكتو الذي اشتهر بأنه طريق الذهب، ولكن فوق ذلك كان طريق الثقافة الاسلامية في سيرها نحو الجنوب. وكانت محطة الاعداد، إذا جاز التعبير، لهذا الطريق هي سجلماسة في جنوب المغرب، حيث كانت تهيأ الابل ويتجمع التجار تمهيدا لدخول الصحراء إلى تغازى حيث يبدأ العمل المرهق الشاق في اتجاه جنوبي تماما. والقوافل الكبرى كانت تتابع سيرها إلى تمبكتو، هذا المخبأ القائم في منحنى النيجر. ومع أن هذا الطريق معروف منذ قرون، فان مفاجآته لطراقه لم تقل مع الزمن. ففي سنة ١٨٠٥ كانت قافلة مكونة من ألف وثمانمئة جمل في طريق عودتها من تمبكتو فتعرضت للعطش الشديد فمات الرجال كلهم ونفقت الحيوانات جمعاء.

قيمة هذا الطريق التجارية كانت، في المقام الأول، في أن القوافل التي كانت تتبعه كانت تحمل الملح من المناطق الشمالية إلى الجنوب والذهب من المناطق الجنوبية إلى الشمال. فهذا

التوزيع غير المتساوي للملح والذهب هو الذي فتح أمام التجار هذا المجال الواسع للربح الذي كان يستحق كل هذه الأخطار. ويكفي أن نتذكر

أن تمبكتو، المركز الرئيسي لهذا التبادل، لم تكن ذات زرع ولا ضرع، وكانت تعتمد في الحصول على حاجاتها من الغذاء على ما ينقل إليها من

□ سوق بيت الفقيه (في اليمن) كما هي الآن، وهي شبيهة كما كانت قبل ٢٠٠ عام. من كتاب:
Travellers in Arabia; Robin Bidwell



الخارج. لكن موقعها الجغرافي جعل منها سوقا كبيرة. فاليها كان يحمل الملح والأقمشة من الشمال والذهب والأرز والذرة والعاج وجوز الكولا من الجنوب، فضلا عما كان يصل إليها من الأماكن الأخرى.

والطريق الثاني، طريق غدامس في ليبيا إلى الأيّر وبلاد الهوسا (الحوسا)، لم يكن يقل عن الأول عمرا واستعمالا. ومن المحطات الرئيسية القائمة عليه غات وأفروان، وهذه الأخيرة كانت على طريق الحاج بين غرب أفريقية والقاهرة، وأغادز ثم إلى بلاد البرنو. وقد ظل لاغادز اهميتها لأنها تتوسط منطقة غنية بالمراعي، ومن ثم فقد كانت تزود القوافل بالابل. وكانت القافلة الكبرى، في العصور المتأخرة، وتسمى أزالاي، يتولى قيادتها الوزير بنفسه. وكانت تبدأ رحلتها في شهر تشرين الأول (أكتوبر) محملة بالحبوب والقماش (الحوسي). فإذا وصلت القافلة إلى أغادز بادلت متاجرها بالملح وعادت إلى كانو، حيث يباع الملح. وقد كانت كانو (في القرن التاسع عشر مثلا) السوق الرئيسية لغرب السودان، حتى أن أهميتها زادت على أهمية تمبكتو. وقد قدر الرحالة بارت عدد سكانها العاديين بثلاثين ألفا، إلا أن العدد كان يتضاعف في المواسم التجارية الكبرى. وكان يعينها على توفير المواد الغذائية لهؤلاء الناس أنه كان يدور بها، على مسافة واسعة، مزدرع غني، بحيث أنها كانت تصدر بعض الغلال أيضا. على أن كانو، وبلاد (الحوسا) على الاجمال، كانت ثروتها وازدهارها يعتمدان على المهارة الصناعية التي كانت للسكان، وخاصة في النسيج والصباغ. ويذكرنا بارت نفسه بأن اقمشة (الحوسا) كانت معروفة في فزان شرقا والساحل الأفريقي شمالا وغرب أفريقية. كما كان تجار كانو يسيطرون على تجارة جوز الكولا.

والطريق الثالث هو الذي كان يصل بين فزان وكوار. ومثل بقية الطرق المعروفة في شمال غرب أفريقية كانت القوافل التي تطرقه تحمل الملح والذهب والقماش والحبوب؛ إلا أن هذا الطريق كان طريقا لتجار الرقيق أيضا.

أما الطريقان اللذان كانا يسيران من الغرب إلى الشرق فهما أصلا طريقا الحاج. ومع أنهما كانتا تستعملان قبل ظهور الاسلام ووصوله إلى تلك البقاع، فقد صارت لهما أهمية خاصة بعد انتشار الاسلام هناك وازدياد عدد الناس الذين كانوا ينتقلون إلى الحجاز لأداء الفريضة. وعلى كل فلا يدخلنّ في روع أحد أن الطريق كان حكرا على الحاج أو وقفا عليه، كما أنه لا يجب أن يدور في خلدنا أن الحاج كان محظورا عليه الاتجار. كلا. فقد كان كل ذلك جائزا، منفردا أو مجتمعا، ما دام المرء يحافظ على الأصول والقواعد.

واحد من هذين الطريقين كان يبدأ في المنطقة الواقعة جنوبي المغرب في غرب افريقية. ثم يأخذ الحجاج بالتجمع شيئا فشيئا حتى يصلوا إلى افروان، ومن هناك يسير الحجيج مجتمعا مخترقا عرض القارة الافريقية مارا بعين أزاوا وغات ومرزق وأوجيلة وسيوه إلى القاهرة. وحري بالذكر أن كلا من هذه المحطات إنما هي واحة، ولكن كانت الواحدة منها تختلف عن الأخرى سعة أو صناعة أو علما. ومن القاهرة يتنقل الحجيج إلى الحجاز.

وطريق الحاج الثاني كان يبدأ من أحد موانيء المغرب على الأطلسي أو المدن الرئيسية في المغرب، ثم يتجه كل من هذه الطرق الفرعية منفردة حتى تلتقي في تونس أو طرابلس، ثم تتبع الساحل إلى الاسكندرية فالقاهرة فالحجاز.

وهذه الطرق كلها، الشمالية — الجنوبية والشرقية — الغربية، كانت سبيل انتقال الثقافة من مكان إلى آخر. فالعلماء والقضاة والأدباء وأهل التصوف والمعرفة ورجال الفلك والجغرافية والأطباء — كل أولئك كانوا ينتقلون مع القوافل اما طمعا في كسب أو ابتغاء مرضاة الله أو استزادة من المعرفة. وكل واحد منهم يعطي الراغبين في طريقه مما عنده. وقد يؤثر أحدهم أن يبقى في مكان يعلم الناس شعورا منه بأن القوم بحاجة إليه.

وعندنا الكثير مما خلفه الرحالون في وصف الطرق التي اجتازوها من الغرب إلى الشرق. والبعض منهم كان يذكر أمورا خاصة، وبذلك يكون الوصف حيا. ولعل من أطرف ما نعرف وصف ابن بطوطة للطريق من طنجة إلى الاسكندرية. ●

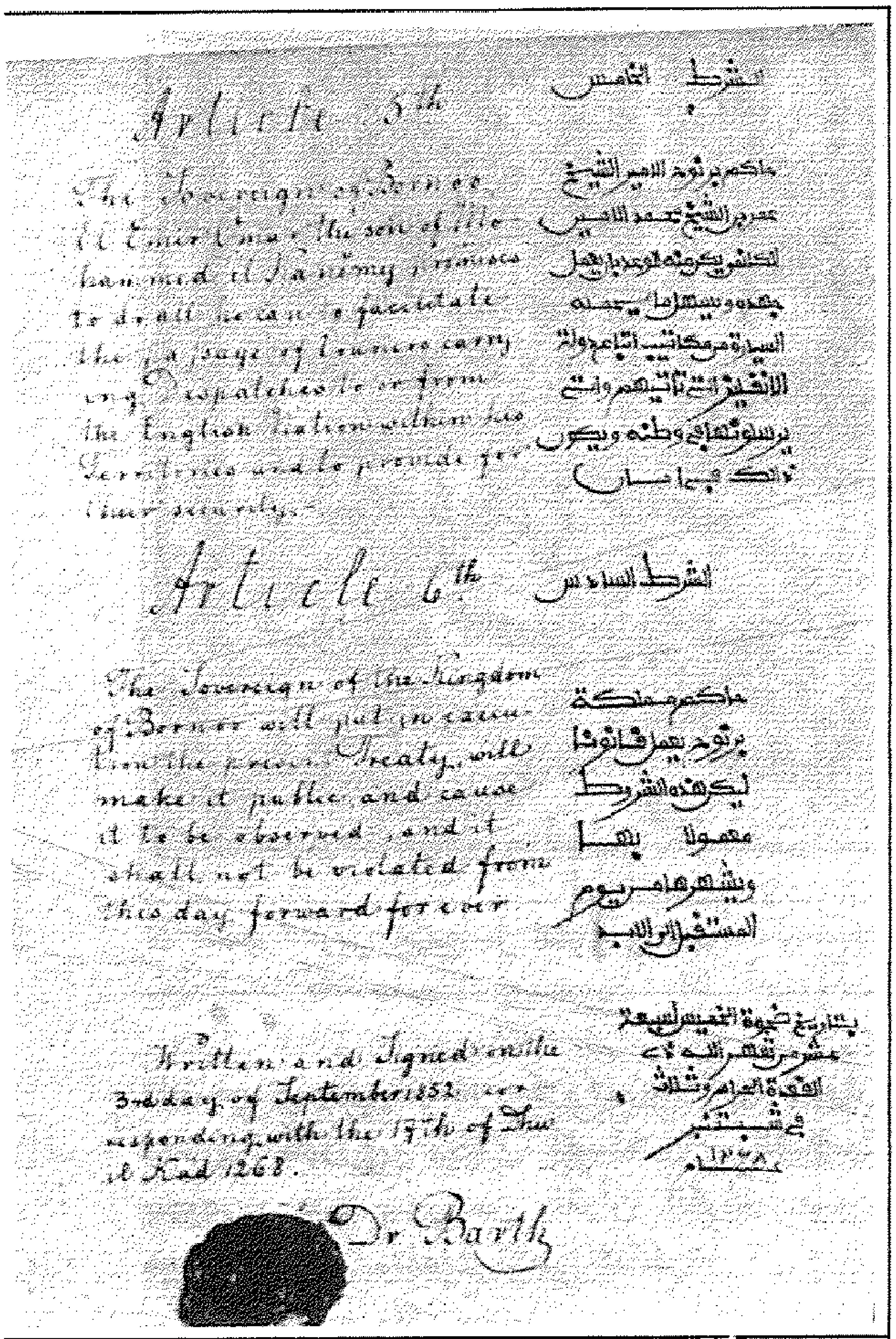
أبحاث

هاينريش بارت

في تاريخ الإسلام وانتشار اللغة العربيّة في افريقيا

ميلكس كلاين فرانكه

الحلقة الثانية


Article 5th

The Sovereign of Bornu El Emir Umar the son of Mohammed el Kanimy promises to do all he can to facilitate the passage of Couriers carrying Despatches to or from the English Nation within his Territories and to provide for their security.

Article 6th

The Sovereign of the Kingdom of Bornu will put in execution the present Treaty, will make it public and cause it to be observed, and it shall not be violated from this day forward for ever.

Written and Signed on the 3rd day of September 1852 corresponding with the 17th of Dhu el Kaad 1268.

Dr. Barth

□ عقد وقع عليه هاينرش بارت مع ملك «بورنو» (Brono) في ٣ سبتمبر ١٨٥٢ عن كتاب:

Frühe wege Zum Herzen Afrikas.
Turris-verlay, Darmstadt, 1969.

— ٣ —

دراسات حول اللغة العربية في السودان

لقد كان الاسلام واللغة العربية دوماً متصلين اتصالاً لا يمكن فصم عراه. وبما أن القرآن لا يجوز ترجمته إلى أية لغة أخرى ــ خوفاً من الله وكذلك حفاظاً لطهارة الضمير تجاه كلام الله المنزّل ــ فقد أصبح لزاماً على كل مسلم مؤمن أن يتعلم العربية إلى درجة تمكنه من فهم القرآن أو تلاوته على الأقل. ويكتب بارت عن الفولبه(٦٩): «من المؤسف أن اقامتي القصيرة لم تمكني من مراقبة مستوى الثقافة بين هؤلاء المسلمين النائين، ومع ذلك فقد وجدت اثناء سفري ان قراءة القرآن وبعض الكتب الرئيسية للاسلام(٧٠) ومعرفة جيدة للغة العربية المكتوبة منتشرة بين علية القوم بينهم. وبطبيعة الحال فلا توجد مدارس هنا، ولكنه يوجد في القرى الأكبر رجل فقيه يتجه اليه الشباب الذين يسعون للحصول على مزيد من المعرفة اكثر من مجرد ترداد بعض الصلوات، يتجهون إليه للقراءة والدرس على يديه، وكلما كان الافتقار إلى كتب اخرى أكبر كلما ازدادت حيوية استيعاب الكتاب المتيسر بين أيديهم بطبيعة الحال، ذلك الكتاب الذي يأخذ عليهم ألبابهم بلغته الشعرية العظيمة».

وفي تمبوكتو اتيحت لبارت الفرصة لحضور تدريس اللغة العربية وتعاليم الاسلام(٧١): «وخلال جزء من النهار قرأ الشيخ على تلاميذه مقاطع من حديث البخاري(٧٢)، بينما راح ابنه



□ الخط العربي: مزيج من الكوفي والثلث

الصغير سيدي محمد يكرر درسه من القرآن بصوت جهوري، وخلال المساء راح التلاميذ يجودون عدة سور من القرآن الكريم بصوت موسيقي حتى ساعات الليل المتأخرة».

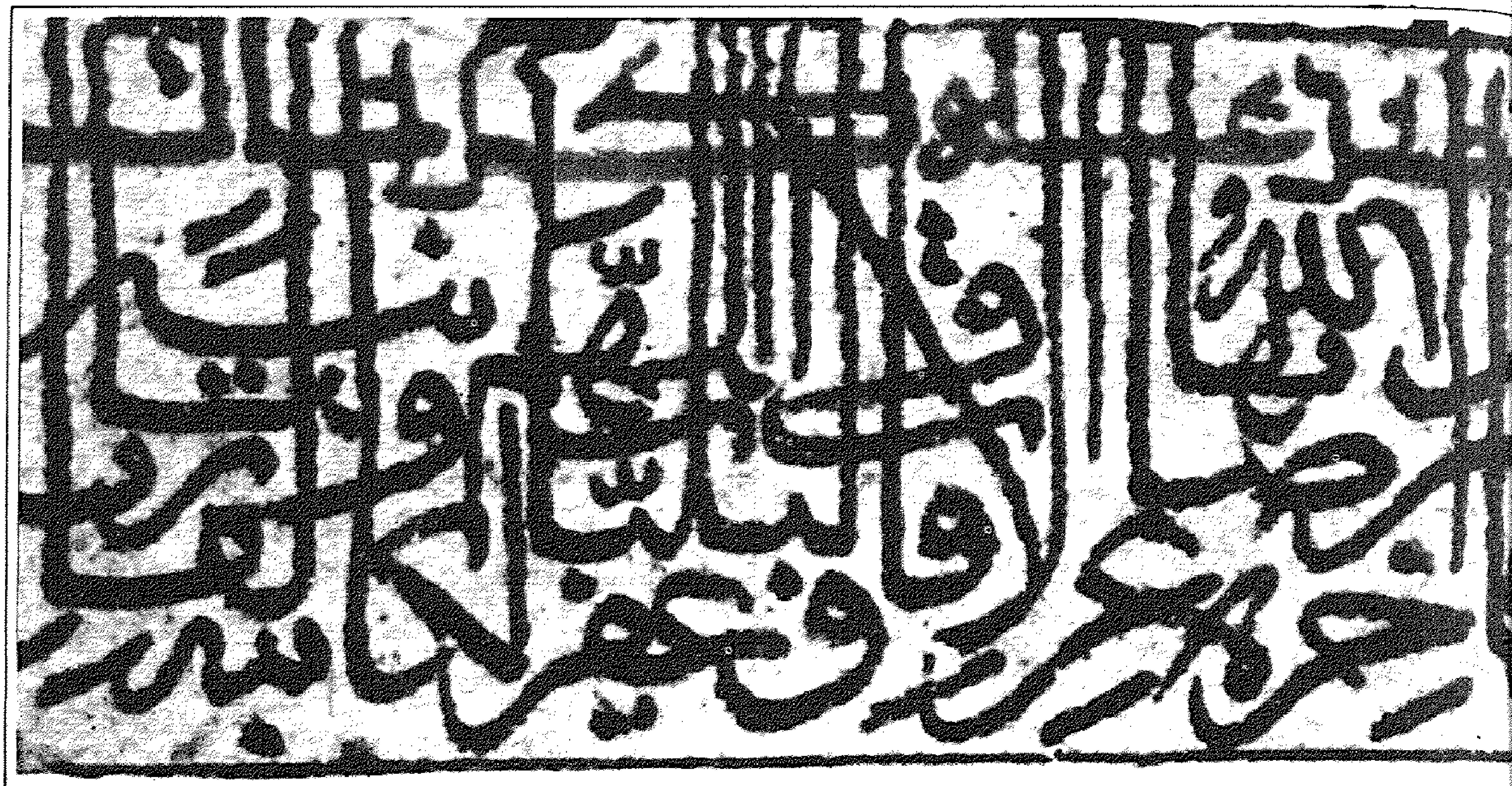
وتحتوي ملاحظات بارت على اشارات هامة حول انتشار اللغة العربية انذاك والتحديد المحلي للهجات المختلفة. وفي بعض مناطق السودان التي تكون غالبية سكانها من المسلمين استحالت اللغة العربية الى لغة عامية باستثناء استخدام اللغة الفصيحة للأغراض الدينية. وفيما يتعلق بلهجة سكان أكادس يكتب بارت(٧٣): «ان التعامل مع البربر قد مارس تأثيرا كبيرا، بحيث انتقلت من لغتهم كلمات كثيرة واندمجت في التعابير المحلية هنا، بينما يبدو ان العربية لم يكن لها تأثير كبير، فيما عدا اسماء العدد المحلية التي اختفت ابتداء من «أربعة» فما فوق. ويظهر استخدام اسماء العدد العربية في بعض اللهجات المحلية مدى تأثير التجار العرب والدور الذي لعبوه في انتشار اللغة العربية. ويكتب بارت(٧٤) حول الكانوري، «لقد تخلوا عن كلمتهم المحلية التي تعني «مائة» وهي «بيرو» واخذوا يستخدمون الكلمة العربية مية(٧٥).

ومن الكلمات العربية التي نقلها التجار العرب المسافرون «ذراع»(٧٦) و«خلق»(٧٧) و«ودع»(٧٨) وغيرها من التعابير التي تمثل وسائل الدفع والمقايضة.

وباعتناق الاسلام فقد ازداد اهتمام الفولبه باللغة العربية. ويقول بارت(٧٩) ان بعضهم كان يفهم اللغة العربية المكتوبة جيداً. ولكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث بها.

ويكتب بارت الكلمات العربية في الغالب بالحروف الألمانية مما يساعدنا على الحصول على فكرة تقريبية عن الخصائص الصوتية للهجات العربية في السودان على عهد بارت. وحسب ذلك فقد كانت القاف العربية (ق) تلفظ كحرف (g) أو جيم غير المعطشة بالألمانية(٨٠)، بما يشبه لفظ بدو الجزيرة العربية. ومن المؤسف أن بارت لم يكن دقيقاً عند كتابة الكلمات بالحروف الألمانية في بعض الحالات.

ومن الأمثلة الموجودة في كتاب بارت ندرك خاصة مميزة من خصائص اللهجات العربية في السودان، وهي دمج (الـ) التعريف مع الاسم المعرف بطريقة تسقط فيها الألف (ا) وتصبح اللام (ل) الحرف الأول للكلمة المعرفة. وهذا ما يحدث بالنسبة لقبيلة «الانصار» مثلاً التي تدعى لنصار (Lanssar)(٨١). ويحدث الشيء نفسه كذلك بالنسبة لكلمة (Loel) لول(٨٢).



وهو اسم شخص عند مسلمي السودان، وتتحول كلمة «العقل» الى (Lakal) و«الأخبار» تصبح في لغة الهاوسا (Labari)، وفي لغة سونغهاي (Laabar)[٨٣].

وهناك فئة متكاملة من الوجهة اللغوية بين عرب السودان وهي الشوا (Schua)، سكان بورنو العرب. ويكتب بارت[٨٤]: «إن لهجتهم العربية متميزة جداً، فبينما تتخذ لنفسها صفة الصفاء الأكثر بالقياس الى اللهجة الشعبية الفاسدة في المغرب وذلك بالمحافظة على صيغ الأفعال الكثيرة، الا أن لها طابعا يلفت الانتباه في بادىء الأمر بالتشكيل الحاد للكلمات واستخدام عبارة «كوتش، كوتش» بمعنى «على الاطلاق» بصورة دائمة — وكذلك كلمة «بركتك» — بحيث يحشرون هذه العبارات خلف كل ثلاث كلمات بصورة تثير الضحك».

وتزداد معرفتنا لسكان السودان العرب في ذلك الزمن بوجه خاص بما نشره بارت من الشعر بالنص العربي مع الترجمة الألمانية في المجلد الرابع من كتابه «رحلات في افريقيا»[٨٥]. اما هذا الشعر فقصيدتان لصديقه الشيخ البكاي. والقصيدة الأولى من بحر الخفيف، والثانية من بحر الطويل وكلاهما من بحور الشعر العربي القديم. ولا تعتمد القصيدتان الرائعتان على فن الشعر العربي القديم من الناحية الشكلية فحسب، بل ومن ناحية الموضوع والأسلوب أيضاً — وهذا دليل على مدى تمسك هؤلاء العرب الموزعين في الخارج بتقاليدهم الثقافية وتراثهم الأدبي. وكانت درجة الثقافة بين العرب هنا متباينة بطبيعة الحال؛ ويذكر بارت[٨٦] كيف أن إحدى القصيدتين القيت بين يدي شيخ تمكلا وأتباعه ومدى التجاوب والصدى الذي حققته القصيدة لديهم «رغم انه لا يمكن أن يحكم عليها الا من كان متمكناً من اللغة العربية، بينما لم يفهم القسم الأكبر من القوم كلمة واحدة منها».

لقد كان بارت خبيراً عارفاً بالشعر العربي. وينم اسلوبه الخاص عن ذلك. فعند زيارته الى أغاديس يصف صورة هذه المدينة بما يلي[٨٧]: «كانت العقبان تنظر بألم وشراهة من نتوءات الأسوار المتهاوية المحيطة بالمكان؛ وكما كان يبدو فانها كانت تعاني من الافتقار الى الطعام، لأنه، بعد أن خرج عدد كبير من سكان المدينة مع الجيش، أصبح نصيبها من نفايات الطعام اليومي لهؤلاء السكان قليلا يسيرا. ومن المحتمل كذلك ان بعض العقبان تبعت سكان المدينة؛ اذ أن هذه الحيوانات تدرك، عندما ترى جيشاً من الرجال المسلحين يخرجون إلى القتال، أنه سيكون لها من فتات الطعام هناك ما ستقتات به». وهذه صورة معروفة من الشعر الجاهلي، وحين

يقرؤها المرء لا يسعه إلا أن يذكر بيتاً من قصيدة مشهورة للشاعر الجاهلي النابغة الذبياني[٨٨]:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدي بعصائب

لقد كان أدب سكان السودان من العرب أوسع وأغنى مما تيسر لبارت الاطلاع عليه. ولم نحصل في اوروبا على معرفة دقيقة حول هذا الأدب إلا عندما وقعت مخطوطات ثمينة عام ١٨٩٤ بأيدي قوات الكولونيل وفيما بعد الجنرال آرشينار (Archinard). وقد أصبحت هذه المجموعة الكبيرة اليوم ملكاً للمكتبة الوطنية في باريس. ويوجد بين هذه المخطوطات عدد من مؤلفات المصلح عثمان بن فوديو، وابنه محمد بيللو، وأخيه غير الشقيق عبد الله بن محمد والأمير الحاج عمر. وفي مقال نشره (Georges Vajda) بعنوان: «مساهمة في معرفة الأدب العربي في افريقيا الغربية»[٨٩] (Contribution à la connaisance de la littérature arabe en Afrique Occidentale) أورد قائمة وشروحا موجزة لمخطوطات المؤلفين المذكورين العربية الموجودة ضمن المجموعة.

وأخيراً فاننا نود أن نشير الى التعابير الاختصاصية العربية الكثيرة من دنيا النبات في السودان والمنتشرة في جميع فصول كتاب بارت. ومن يهتم بالذات بعلم النباتات والعقاقير عند العرب سيجد معلومات قيمة في كتاب بارت. وأود أن اذكر هنا بعض هذه الأسماء فقط:

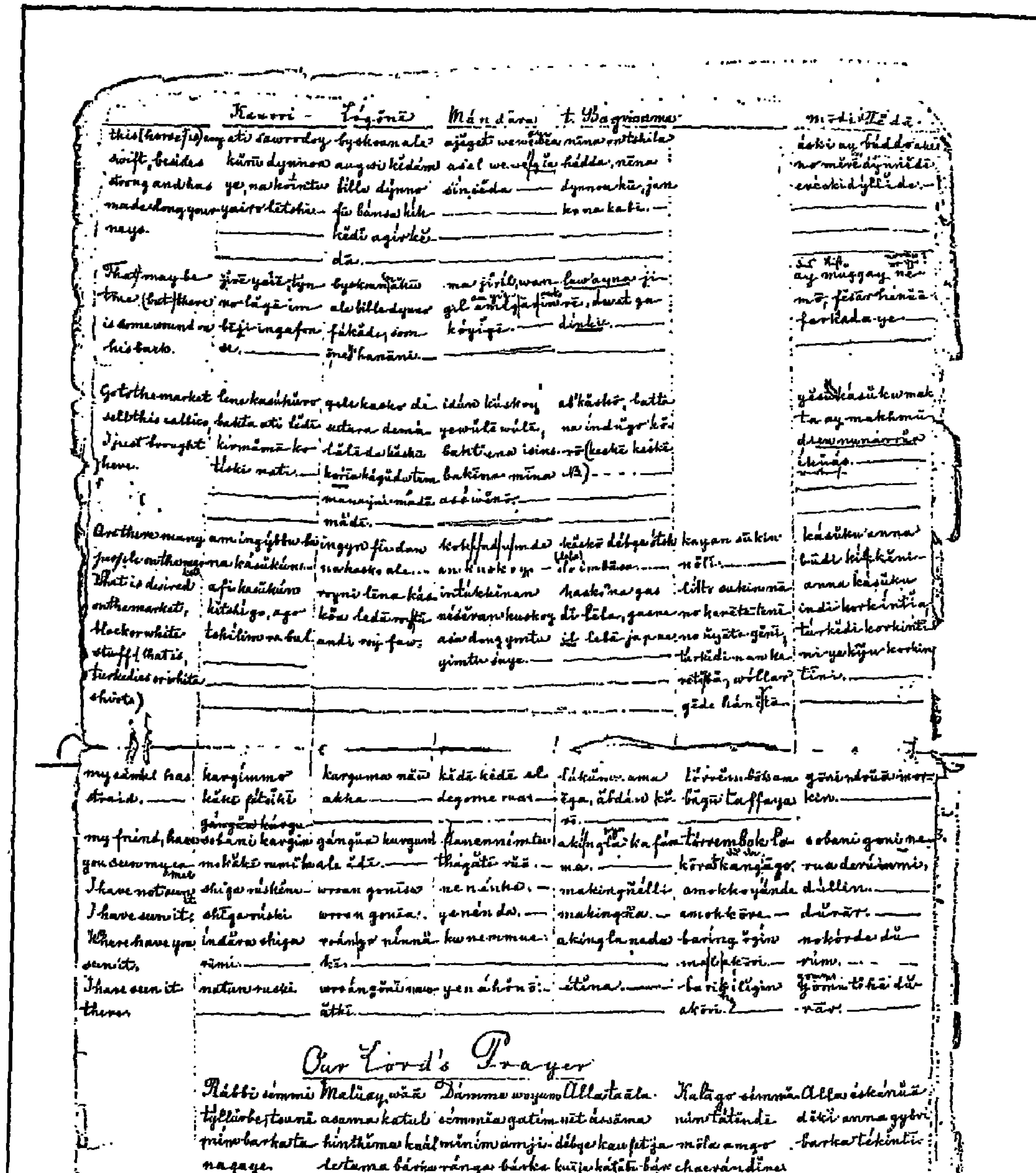
— «الدوم» «Dum» (Cucifera Thebaica — Thebanpalm; I, 419)؛
— «الخسكنيت» «Chaskanit» (Pennisetum distichum, I, 427)؛
— «الهد» (I, 591)؛
— «حب العزيز» (Erdnuss — II, 463)؛
— «الجاوي»؛ (Benzoe-Gummi — II, 595)؛
— «بوركبه» (Panicum colonum — III, 52)؛
— «شجرة الجمل» (Avena Forskalii — II, 52)؛



□ ابن خلدون

— «أم البركة» (III, 52)؛
— «أبو ديجه» (شجرة ذات ثمر يشبه المشمش — III, 313)؛
— «اللبان» (Benzoin, III, 329)؛
— «العرديب» (Tamarinde — III, 400)؛
— «حب الملوك» (III, 400)؛
— «المست» (Zea Mays).

لقد عرضنا حتى الآن مساهمة بارت في الدراسات الشرقية بايجاز. ومن هذه الأمثلة يدرك المرء مدى معرفته الواسعة في مختلف حقول علم الاستشراق الذي كان لا يزال ناشئاً في ذلك الزمن. وبغض النظر عن بعض الاستثناءات فإن الاستشراق لم يول ما يستحقه من اهتمام حتى الآن. ولعله كان سينفي عن نفسه بتواضع صفة «المستشرق» كما كان يعتقد بأنه لا يصح أن يعتبر عالماً طبيعياً أو عالم فلك[٩٠]. وفي الحقيقة فانه يستحق هذه الصفة، وإن كان من الصعب تصنيفه داخل نظام علمي معين دون غيره. فقد كان بارت يمثل ذلك النوع من العلماء الذين لا يقسمون العلم إلى حقول خاصة وإنما يضعون العلم كله دوماً امام أعينهم ويقيمون الصلات بالأنظمة العلمية الأخرى — لقد كان عالماً كلياً متعدد المعارف (Polyhistor)، كما كان يعرفه عهد الرومانتيكية.



Kanori - Logone Mandara t. Bagrimma

this (horse) is swift, besides strong and has made long journeys.

That may be true (but there) is some wound on his back.

Go to the market sell this cattle I just brought there.

Are there many people on the... That is desired on the market, black or white stuff (that is, turkedies or white shirts)

my camel has strayed.

my friend, have you seen my camel

I have not seen it

I have seen it

Where have you seen it,

I have seen it there.

Our Lord's Prayer

□ صحيفة من قاموس احضره هاينرش بارت لحفظ بعض اللغات الافريقية، وهي محفوظة في (Staatsarehive) هامبورج □

وكما هو الحال بالنسبة لكل علم، فان الاستشراق مهدد كذلك بخطر الاعتكاف، والانعزال عن بقية الأنظمة والحقول العلمية. فالسودان، مثلاً، ظل، بغض النظر عن التاريخ العربي، فترة طويلة على هامش الدراسات والأبحاث الاستشراقية. وحاول بارت منذ ذلك الحين مواجهة هذه العزلة، وذلك بنقله للأبحاث الاستشراقية من حدود الشرق الى قارة جديدة، الى عالم جديد، يحتاج الى مزيد من التقصي والاستكشاف. ويجب أن تنطلق الأبحاث المقبلة في هذا المجال من عمل بارت العظيم[٩١].

— ٤ —

ملاحظات حول ما اقتطفه هاينرش بارت من مخطوطات المؤرخين العرب ودونه في كتاب يومياته

في أحد كتب يوميات الباحث هاينرش بارت الموجود حالياً في المكتبة الوطنية في باريس توجد بعض الصفحات المكتوبة باللغة العربية.

وتحتوي مقتطفات من كتابي «تاريخ السودان» لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي[٩٢] وكتاب «تزيين الورقات» لعبد الله اخي عثمان بن فوديو. وبالمقارنة بكتابات عربية أخرى من خط بارت (كفواتيره وايصالاته) فاننا لا نرى مجالا للشك بأن المقتطفات من الكتابين المذكورين كتبت بخط بارت نفسه.

وتبلغ مساحة الصفحات المكتوبة ١٥ سم × ٨,٨ سم. أما الخط فهو مغربي. وتحتوي الصفحة الواحدة من النسخة المنقولة عن تاريخ السودان معدل ٣٦ سطراً، ومن النسخة المنقولة عن تزيين الورقات معدل ٢٨ سطراً.

وكان بارت يهدف الى نشر هذه المقاطع من المخطوطين العربيين بأسرع وقت ممكن في اوروبا، دون الانتظار حتى انهاء رحلته الاستكشافية التي استغرقت عدة اعوام في افريقيا الوسطى. وكان يرجو نشر المخطوطين بكاملهما بعد عودته. ولكنه لم يتمكن من ذلك لسوء الحظ، ومن المقطعين اللذين نسخهما على عجل في كتاب يومياته، لم ينشر، على حد علمي، إلا تاريخ السودان للسعدي. وقد أعطى بارت المقطع العربي المنسوخ إلى المستشرق (C. Ralfs)، الذي نقله الى الألمانية ونشره في المجلد التاسع من مجلة جمعية المستشرقين الألمانية (Zeitschrift der Morgenlândis-chen Gesellschaft)[٩٣]. وقد نشر الكتابان العربيان بكاملهما فيما بعد: تاريخ السودان، نشر (O. Houdas) بمعاونة (E. Benoist)[٩٤]، وتزيين الورقات، نشر (A. Brass)[٩٥].

لقد نالت الأبحاث الأفريقية بمقدار متساو بالنسبة للجغرافي والمؤرخ والمستشرق، نالت دافعا جديدا بفضل أبحاث ونشاط بارت. وبينما ظلت صورة افريقيا التاريخية حتى الآن على الشكل الذي بدت فيه في الأعمال التاريخية الكبيرة لابن خلدون وابن بطوطة وليو افريكانوس، على سبيل المثال، فقد أدى «تاريخ السودان» الى التعريف بفترات اخرى من تاريخ افريقيا. ورغم أن بارت جاء بمقتطفات فقط؛ ولكنها كانت كافية لاعطاء دفعات جديدة للأبحاث الافريقية ما زالت تتغذى عليها حتى اليوم.

ليس لمخطوطي بارت اللذين وجدا من جديد قيمة تاريخية فحسب: وإنما يقدمان سلسلة من المعلومات المغايرة والاضافات ازاء المخطوطين اللذين اعتمد عليهما (Houdas) و (Brass) فيما نشراه. فالمخطوطان اللذان استخدمهما بارت من جهة والآخران اللذان اعتمد عليهما (Houdas) و (Brass) من جهة اخرى جاءا من مصدرين مختلفين. ومما يؤسف له أنه لا بارت ولا هوداز يعطيان مزيداً من التفاصيل عن أصل المخطوطات. أما المخطوطان اللذان اعتمد عليهما (Brass) لكتابه المنشور فيعود اصلهما الى حملة (Frobenius) الاستكشافية (F) ومجموعة المستشار السري (Meier) من لايبزغ (M). وتتفق بعض الافتراضات التي قدمها (Brass) مع طريقة القراءة التي قدمها بارت فيما نسخه، بحيث تبدو هذه معتمدة على أصل أفضل. وبعض الاختلافات في نص بارت هي اخطاء وقع فيها بارت بسبب العجلة الشديدة التي كان ينسخ بها، وبسبب الظرف الصعب الذي كان خاضعاً له اثناء ذلك.

يضم ما اقتطفه بارت من تاريخ السودان ٢٢ صفحة من كتاب يومياته، ثم يتوقف في

منتصف الكتاب تماماً[٩٦]. ويكتب بارت في نهاية مخطوطه في يومياته: «إنه خليق بكثير من المعرفة الاختصاصية»، الا انه يضيف عند اتصاله برالفس[٩٧]: «لقد كانت رواية انهيار مملكة سونراي هذه محزنة بالنسبة لي الى درجة توقفت عندها عن مواصلة النسخ».

ومما يؤخذ على ما نسخه بارت انه كان يقتطف في بعض المواضع دون ترابط كاف. فكان يتوقف في وسط الجملة ثم يواصل النسخ من جديد، حيث كان الأمر يبدو له اكثر نفعاً وجدوى، دون ان يترك ما يشير الى انتقاله من موضع الى آخر. وبسبب جهله بالنص الكامل فقد كان رالفس مضطرا الى تقديم ترجمة ناقصة جدا، كان يرصف الجمل في بعض المواضع دون اي ترابط أو تسلسل.

اما مقطع بارت من كتاب تزيين الورقات فيضم ما يزيد على السبع صفحات من كتاب يومياته. ويبدو هنا مزيد من الدقة في الاقتطاف، كما ان الخط أوضح منه في تاريخ السودان. وقد وضع هنا، كما وضع هناك أيضا، خطا تحت الأسماء العلم.

وتختلف المخطوطات التي اعتمد عليها بارت وبراس في بعض الأسماء بسبب كتابة الأسماء غير العربية بالحروف اللاتينية. فصوت ج (g) يعطى في مخطوط بارت بحرف (ق) العربي، وفي مخطوطة F و M اللتين استخدمهما براس بحرف (غ) العربي (قوبر — غوبر).

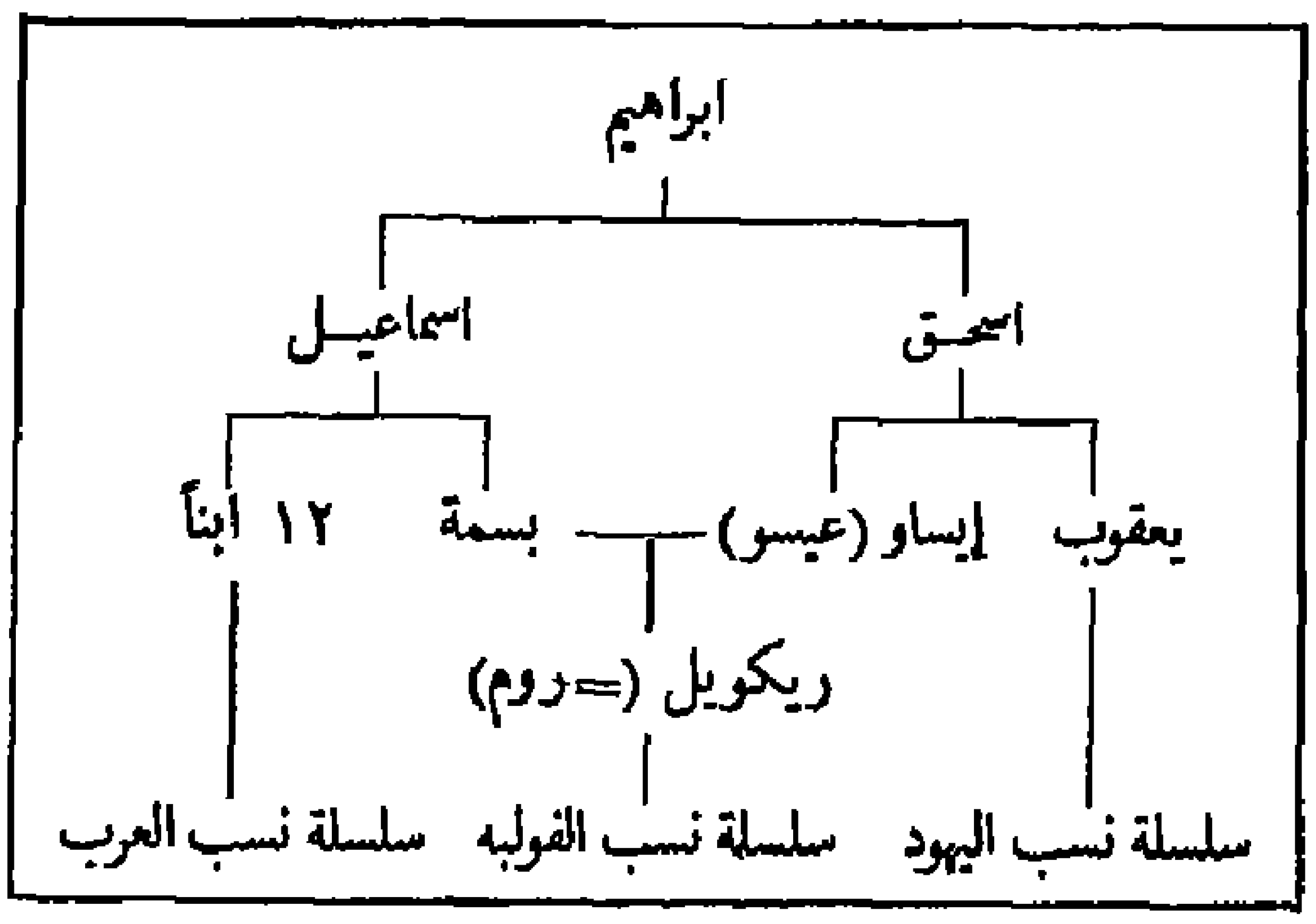
وفي كل من مخطوطة بارت وبراس فإن النص يخلو من أبيات الشعر العربية المكتوبة بين فصول الكتاب، وكذلك من الشروح الخاصة بها. وفي مكان واحد فقط ينقل بارت شرحاً لأبيات لم ينسخها، ربما بسبب بعض الأسماء الجغرافية.

ويظهر النصان العربيان لدى براس من صفحة ٢٤ الى ٢٦ بينما يظهران لدى بارت في نهاية المقطع. ويخلو نص بارت، باستثناء بعض المواضع، من المقاطع العربية التي نشرها براس على الصفحات ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، و٢٣. وهي تشتمل في الغالب على معلومات حول تاريخ الاسلام في هذه الأجزاء من السودان وكانت بالنسبة لبارت، كما لاحظ هو، قليلة الأهمية.

وتبدأ مخطوطة بارت بتاريخ نسب للفولبه غير معروف حتى الآن يجعل من روم، ابن ايساو، جد الفولبه الأصلي. ثم تتلو ذلك ملاحظات طريفة عن لغة الفولبه. واقدم فيما يلي النص الذي لا تحويه مخطوطة (F) ولا (M)، اقدمه بصورة مطابقة للأصل:

«هم توردب الذين جاؤا من فوت وهم فيما نسمع هم اخوان جميع الفلانيين ولغة الفلانيين لغتهم لأن عقبة بن عامر المجاهد الذي فتح بلاد الغرب زمان عمرو بن العاص (...) وصل اليهم وهم قبيلة من قبائل الروم فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة ابنة ملكهم اسمها بج مغ فود الفلانيين جميعا هذا ما تواتر عندنا واخذنا عن الثقاة الذين يخرجون من بلاد فوت اعني العلماء فتكلموا بلغة امهم ولم يعلموا لغة ابيهم لقلة من يتكلمه هناك في ذلك الوقت.. والأقرب انهم تعلموا بلغة امهم وليست لتوردب لغة اصلية غير تلك اللغة والله اعلم وتعلمت (؟) ان الروم هو بن عيص بن اسحق بن ابرهيم عليهما السلام وامه نسمة بنت اسماعيل عليه السلام قال ذو النسبين في كتابه التنوير: ولد اسماعيل عليه السلام اثني عشر رجالا وامرأة واحدة عمن اولاده نشر الله العرب كلها فلما حضرته الوفاة اوصى الى اخيه اسحق ان يزوج ابنته نسمة من العيص فزوجها منه فولدت له الروم وكان الروم اصفر فسميت بنوه بنا الاصفر...».

لقد جعل المؤرخون العرب منذ القدم البطارقة اي ابراهيم واسمعيل على رأس تاريخ النسب العربي. ويظهر المثل ان الفولبه ايضا اتخذت مع الاسلام عادة اشتقاق نسبهم من نظام النسب العربي التقليدي وذلك بخلق سلسلة نسب وهمية.



وكما تظهر شجرة النسب، فان تاريخ النسب العربي يماثل في القسم الأساسي منه التقاليد اليهودية التي استقى منها. واسم نسمة العربي (؟) الوارد عند بارت قد يكون مماثلا لاسم بسمة اليهودي، حيث أن نقطة الباء قد تكون جعلت للنون خطأ. وقد يكون اسم عيص IS(؟) لدى بارت كتابة خطأ لعيسو (= Esau).

وبالنسبة للمكان الذي جاء فيه «وكان الروم أصفر» فهناك ما يشبه ذلك لدى هشام بن محمد الكلبي (المتوفي عام ٨١٩ أو ٨٢١ ميلادية) وهو من ثقاة التاريخ والأنساب العربية القديمة. وقد أشار لها كتاب الأغاني لأبي فرج الأصبهاني (المتوفي ٩٦٧ ميلادية)، في المجلد ١٢، ص ١٥٠. فهناك يجري الحديث عن رجلين، قيس بن عاصم، وعمرو بن الاهتم، كان الواحد منهما يتهم الآخر امام النبي محمد بأنه ليس من اصل عربي. و«زعم عمرو بن الأهتم أنه (أي قيس) انحدر من صلب الروم؛ فقد كان أحمر». وفي هذا المثل يتضح التقليد اليهودي كأصل استندت عليه الحادثة: ففي كتاب التوراة باب ٢٥، جاء أن عيسو كان محمرا منذ الولادة. وبما ان اسماء الألوان السامية تتغير كثيرا فمن الممكن اعتبار «الأحمر» و«الاصفر» كقيم لونية متماثلة.

ترجمة: محمد علي حشيشو

هوامش

(٦٩) R.i.A.، II، ٦١١/٦١٢.
(٧٠) المقصود بذلك كتب الحديث.
(٧١) R.i.A.، IV، ٥٢٣.
(٧٢) ١٩٤/٨١٠ — ٢٥٦/٨٧٠: GAL، I، ١٥٧ وما تلاها.
(٧٣) R.i.A.، I، ٤٥٨.
(٧٤) R.i.A.، IV، ٦٣، الملاحظة.
(٧٥) مائة.
(٧٦) ذراع؛ نفس المرجع، II، ٥٣٦.
(٧٧) خلق، ج (خلكان)؛ نفس المرجع، III، ٣٣٨.
(٧٨) نفس المرجع، IV، ٢٩٢.
(٧٩) نفس المرجع، II، ٥١٧.
(٨٠) نفس المرجع، IV، ٥٥٤.
(٨١) الأنصار.
(٨٢) الأول.
(٨٣) راجع Vincent Monteil, L'Islam Noir ص ٢٢٧.
(٨٤) R.i.A.، III، ١٢٥.
(٨٥) ص ٥٨٨ وما تلاها.
(٨٦) R.i.A.، V، ٣٠٦.
(٨٧) نفس المرجع، I، ٤٩١.
(٨٨) عاش في النصف الثاني من القرن السادس — GAL، I، ٢٢.
(٨٩) Journal de la Société des Africanistes, Paris, Tome XX, Fascicule I, 229-237.
(٩٠) R.i.A.، XVIII, I.
(٩١) راجع بيكر Becker, Der Islam, I, 177.
(٩٢) بروكلمان GAL، II، ٤٦٧.
(٩٣) «Beiträge zur Geschichte und Geographie des Sudan. Eingesandt von Dr. Barth», p. 518-594.
(٩٤) Paris 1898, Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, Documents Arabes Relatifs à l'Histoire du Soudan, 326.
(٩٥) Der Islam, 1920, X, 1-73: Eine neue Quelle zur Geschichte des Fulreiches Sokoto.
(٩٦) طبعة (Houdas)، ص ١٥٨، سطر ١٢.
(٩٧) ZDMG، IX، 594، ملاحظة 147.

جبران والناس

— أنت اثنان: واحد يتوهم أنه يعرف نفسه، وواحد يتوهم أن الناس يعرفونه.
— إن شئت أن تنظر إلى سريرة امرىء، فلا تنظر إلى ما بلغه، بل إلى ما يتوق إليه.
— اهتمامنا بعيوب الناس شر عيوبنا.
— ارغب الناس في الجدل: المحقوق. أما المحق فأرغبهم عنه.
— أحسن الناس من إذا مدحته خجل، وإذا هجوته سكت.

جبران خليل جبران



□ الطبيب والفيلسوف العربي: ابن سينا

الطب العربي في نظر العلماء والمؤرخين

دراسة نقدية

د. اسماعيل سرور شلش

الحلقة الثانية

لماذا يدرس الناس تاريخ العلم؟ أليس العلم مجموعة حقائق ثبتت بالبرهان القاطع، فيكون أحدثها أصدقها وأقربها إلى الحقيقة، وماذا يعنينا من ماضي العلم؟ إن كان مخالفاً لحاضره فهو خطأ، وإن كان مطابقا له فما أغنانا عنه.

هذا رأي كثير من المشتغلين بالعلوم، وهو يدل على نظرة سطحية بعيدة كل البعد عن طبيعة العلم. ولن تجد أحداً من كبار العلماء الباحثين يجهل ما كان عليه رأي سابقيه في موضوع بحثه، وكيف تطورت الآراء فيه حتى بلغت ما هي عليه. والذين يسعون إلى كشف جديد يجب عليهم أن يدرسوا علاقة الماضي بالحاضر ليتعرفوا الطريق التي يجب أن يسيروا فيها لكي يخرجوا من الحاضر إلى المستقبل، ومن المعلوم إلى المجهول.

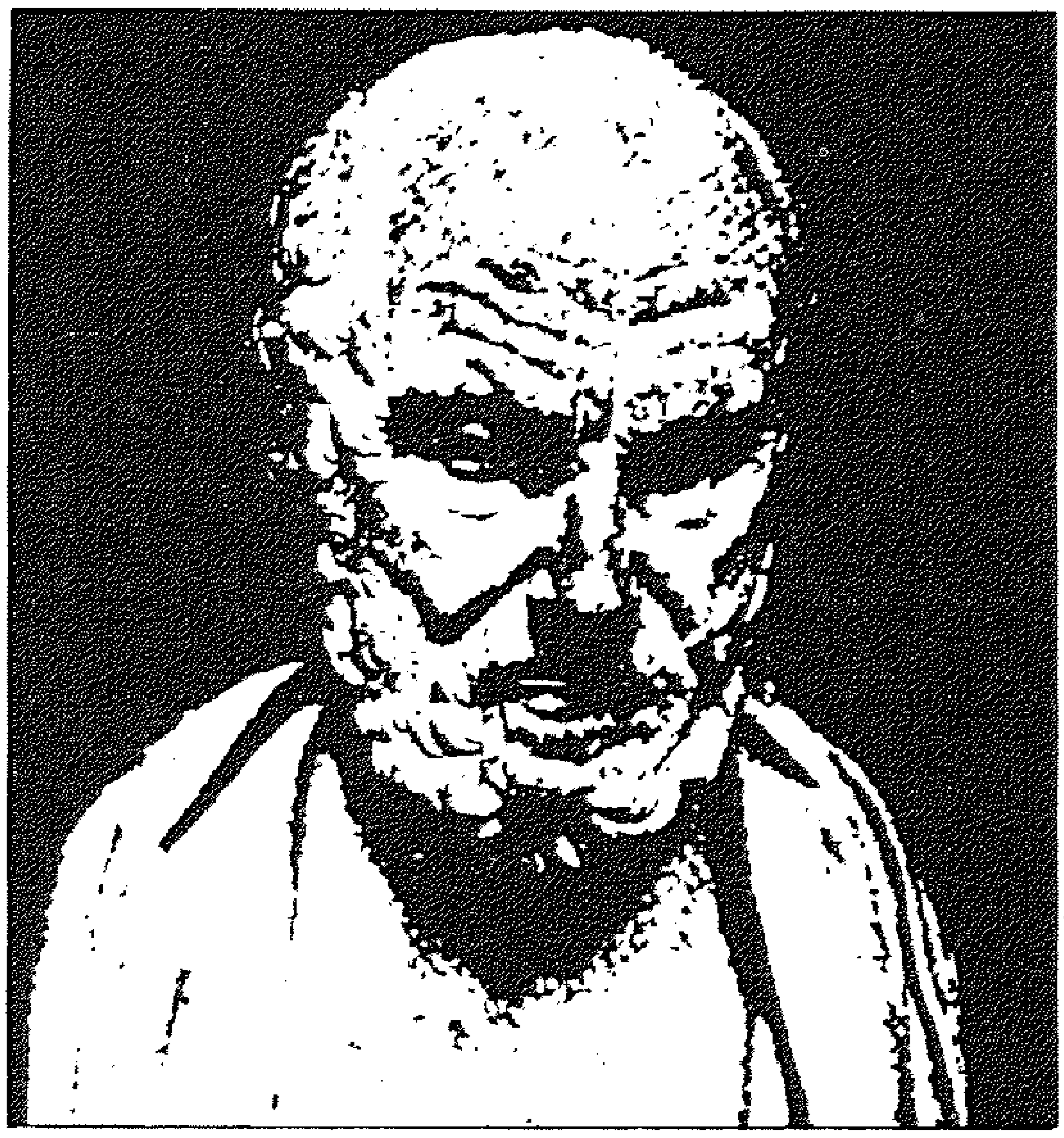
الحروب الصليبية:

جاء الصليبيون إلى الشرق، وهم يحسبون أنهم سيلقون فيه قوما كفارا جهلاء، ودهشوا غاية الدهشة حين وجدوا المسلمين يفوقونهم علما وحضارة، ورأوا من كرم العرب وسمو أخلاقهم ما جعلهم يشيدون بهم بعد حين، رغم ما كان بينهم من عداوة عارمة.

ثم حملتهم الحاجة إلى أن يلجئوا إلى الأطباء العرب. ولم يكن ذلك لأن في الشرق أمراضا لا علم لأطبائهم بها فحسب، بل كان ذلك من غير شك لما ثبت لهم من تفوق الأطباء العرب في جميع فروع الطب. واتخذ أمراء الفرنجة أطباء من نصارى العرب، فكان لعموري (غطريق الأول) طبيب اسمه سليمان بن داوود، وحذا حذوه كثيرون من كبار الفرنجة.

وقد روى مؤرخو الحروب الصليبية قصصاً كثيرة تدل على جهل الفرنجة بالطب، وتفوق العرب فيه. من ذلك قصة غطريق الأول حين أصيب بالدوسنتاريا، واعتراه من جراء ذلك ضعف شديد، وبلغ به الضعف أن اضطروا إلى حمله على نقالة حين أراد الرحيل إلى القدس. ورفض طبيبه العربي أن يعضده أو أن يعطيه مسهلا لما ثبت عندهم من تعاليم الرازي أن ضعف القوة أردأ العلامات. اما طبيبه الفرنجي ففعل به ذلك فمات من غده، وكان ذلك في يوليو عام ١١٤٧.

وروى «أسامة بن منقذ» في كتابه «الاعتبار» قصة جاء فيها أن صاحب القنطرة، وهو من أمراء الفرنجة طلب إلى عمه أن يبعث إليه بطبيب عربي، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا ما أسرع ما داويت المرضى قال: «أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة، وإمرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب فرنجي — فقال لهم — هذا ما يعرف شيئا يداويهم. وقال للفارس — أيهما أحب إليك أن تعيش برجل واحدة، أو تموت برجلين. قال: أعيش برجل واحدة، قال: أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر. فحط ساقه على قدمة خشب، وقال للفارس: إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها. فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت — ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها — أحلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبيا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس، وحكه بالملح، فماتت من وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليّ حاجة؟ فقالوا: لا. فجئت، وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه.



ابقراط: ابو الطب

عاد الصليبيون إلى بلادهم، ولم ينقلوا إليها شيئا من طب العرب رغم ما كانوا يعرفونه يقينا من تفوقهم فيه.

يتبين من ذلك أن الصليبيين لم يعملوا ما عمله أهل صقلية وسالرنو الذين نقلوا كتب الطب العربية إلى لغتهم. وقد يكون ذلك لأنهم كانوا مشغولين بالحروب، وإن كانت هناك — في الواقع — فترات طويلة من السلم، كان الفرنج يستطيعون أن يلموا فيها بالطب العربي، وعندي أن قصورهم عن هذا العمل، يرجع إلى أن نقل العلوم من أمة إلى أخرى، لا يتم إلا أن يكون بين الأمم تقارب في مستوى الثقافة ونوعها، ولم يكن لدى الصليبيين قدر كاف من الحضارة، يسمح لهم باستيعاب العلوم العربية، ومع

حاجتهم إلى الطب، فإنهم لم يريدوا أن يتعلموا ما لم يكونوا يعرفون، ولو أرادوا ذلك ما استطاعوا.

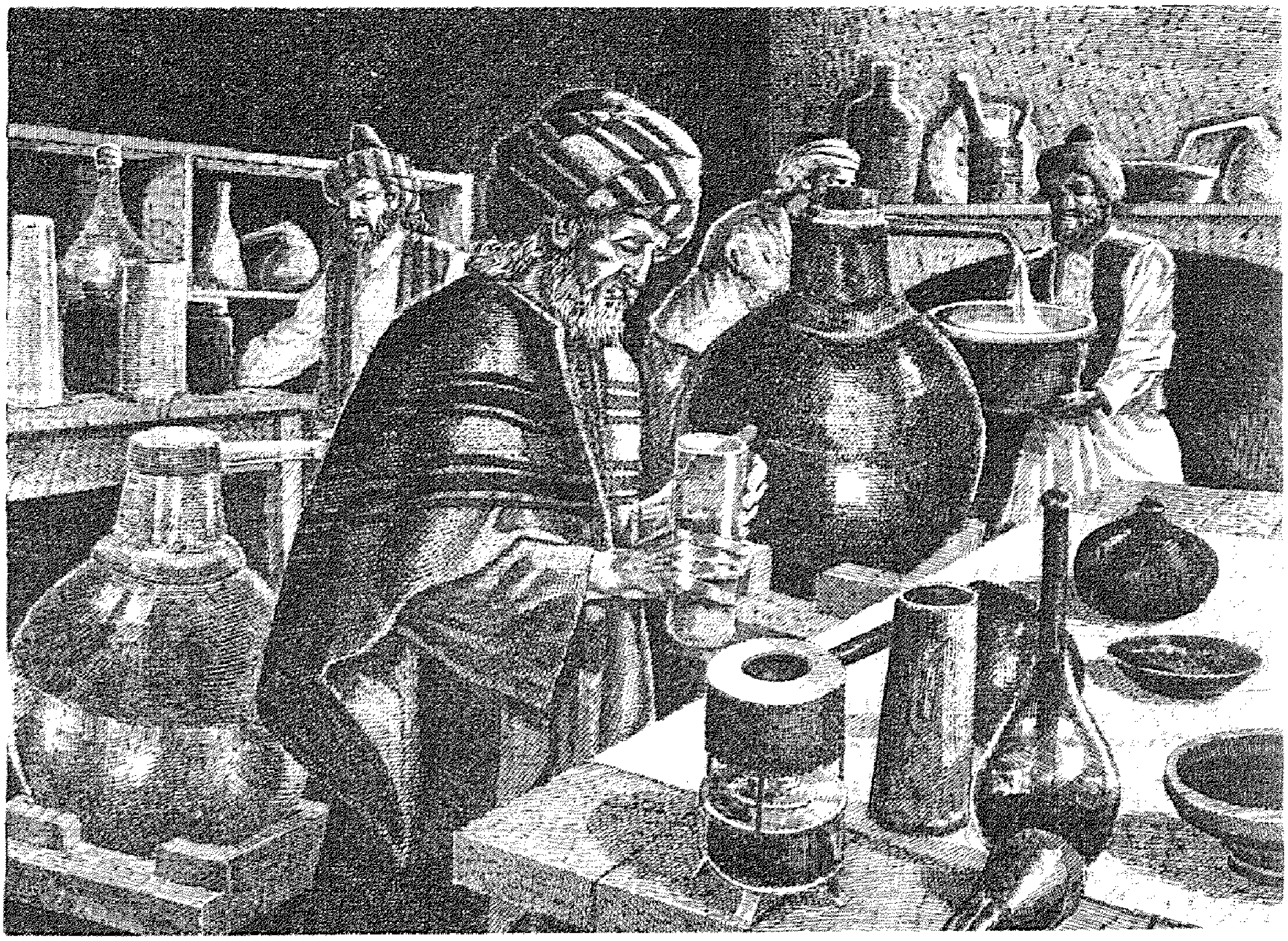
صقلية وسالرنو

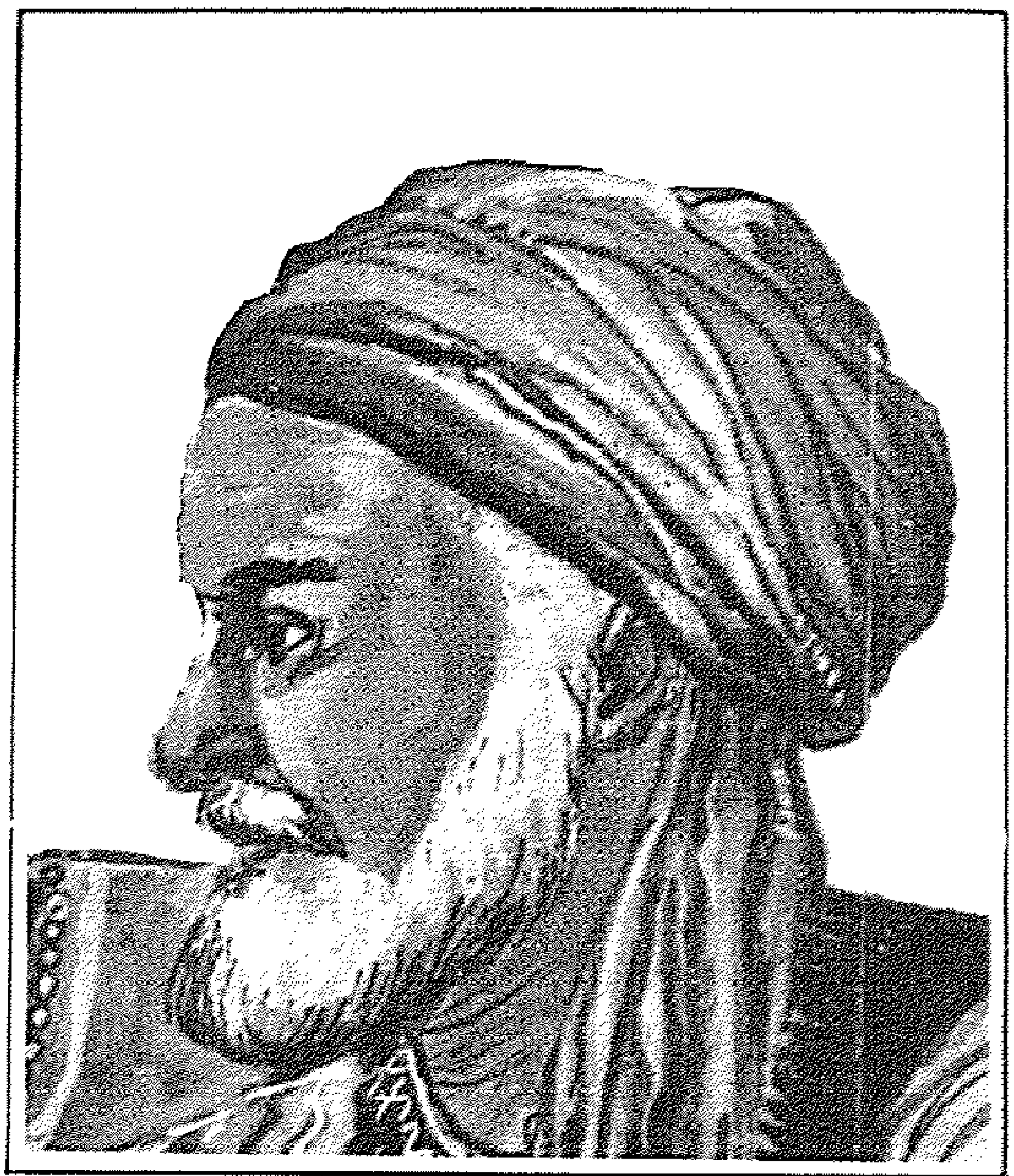
فتح العرب صقلية في أوائل القرن التاسع الميلادي، وحكموها نحو قرنين. في ذلك العصر كانت الحضارة في سالرنو وبالرمو (صقلية) مزيجا من الثقافة العربية واللاتينية والاغريقية. وكانت الصدارة بالطبع للثقافة العربية، وخاصة أن تفوق العرب في العلوم عامة، والطب خاصة، كان واضحا كل الوضوح. ولما زالت دولة العرب، وجاء الحكام النورمان، ظلت الثقافة العربية قائمة. وعني النورمان بالعلوم العربية، وخاصة ملكهم الشهير «فردريك الثاني» الذي كان يعرف العربية، ويخاطب بها ضيوفه العرب. وكان أعجوبة زمانه، علما، وحكمة، وسياسة، وكان يشجع العلماء من كل جنس، لا يفرق في ذلك بين مسلم ومسيحي ويهودي.

وكانت الصلات وثيقة جدا بين شمال أفريقيا، وصقلية وسالرنو، وكانت العلوم في شمال افريقيا في ذلك العصر مزدهرة إلى حد كبير، ولعله لم تكن تقل كثيرا عن علوم الشرق، وكان بعض المعنيين بالطب في تلك المنطقة من اليهود، وأشهرهم اسحق بن سليمان الاسرائيلي (المتوفي عام ١١٤٢)، الذي نشأ في مصر، وعاش أكثر عمره في القيروان، ونبغ من تلاميذه «ابن الجزار» واشتهر أيضاً من الأطباء «موسى بن ميمون» طبيب صلاح الدين.

ومن علماء ذلك العصر أبو منصور الهروي، وماسويه الماريديني، وكانا من العارفين بعلم العقاقير. ومنهم أيضاً «عمار الموصلي، وعلي بن عيسى، مؤلف تذكرة الكحالين، وكلاهما دمري. وألف ابن رضوان المصري كتابا مفيدا اشتهر في ذلك الوقت، سماه شرح الصناعة الصغيرة لجالينوس، وكتب ابن جزلة كتبا طبية على نحو لم يكن معروفا من قبل، حيث وضع للعلاج السريع، جداول اجمالية، يسهل على الطبيب مراجعتها.

□ جابر بن حيان





□ الزهراوي

كان النقل من العربية إلى اللاتينية يقوم به في أغلب الظن مترجمون مختلفون، يتعاونون فيما بينهم، كل فيما يحسنه، على هذا العمل الشاق.

ومن عجائب التاريخ أن حركة النقل هذه، وهي حركة على أكبر جانب من الأهمية في تاريخ العلوم والطب، دارت كلها حول رجل لا تؤهله كفايته وحدها لمثل هذا العمل، ذلك هو «قسطنطين الافريقي».

وقد دلت البحوث المستفيضة التي قام بها مؤرخو العلوم أخيرا على أن قسطنطين لم يكن عالما باللغة العربية علما واسعا، ولعله لم يرحل إلى الشرق كما كان يدعي، وعلمه باللاتينية ضعيف، ولم يكن على علم خاص بالطب. ولم يكن صادقاً في نسبة الكتب إلى واضعيها، وكانت هذه سنة شائعة بين المؤلفين حينذاك. وأغلب الظن أنه استعان بمن يعرفون العربية والعبرية واللاتينية خيرا منه. ولعله استعان كذلك بمن يعرف الطب خيرا منه.

والذي لا شك فيه أن ما عمله قسطنطين الأفريقي (١٠٢٠م ـ ١٠٨٧م) كان عملا جليلا بالنسبة إلى الأمم اللاتينية مهما تكن كفايته لهذا العمل. وأجل أعماله أنه ترجم كتاب علي بن عباس، وهو المعروف بكامل الصناعة أو الكتاب الملكي، وسمي باللاتينية (Liber Regius)، وترجمة هذا الكتاب فتح في تاريخ الطب اللاتيني. ولم تكن ترجمة قسطنطين خير ترجمة، وقد قام أسطفان الأنطاكي ـ وهو ممن رحلوا إلى الشرق في الحروب الصليبية. بترجمة أخرى للكتاب، وكان ذلك في عام ١٢٤٧م.

وأذكر أن أحد الباحثين في تاريخ الطب العربي ـ قال: إن الأمم اللاتينية عرفت الطب اليوناني وفوقه ضباب الطب العربي. وهذا أمر عجيب لأن الضباب كان مخيما ـ في الواقع ـ على الطب اليوناني، الذي لم تستطع الأمم اللاتينية أن تعرفه حقا، لما كان فيهم من قصور عن الإلمام به، ولا يشك أحد أن العرب هم الذين رفعوا الضباب عن الطب اليوناني، وهم الذين أوضحوا غوامض هذا الطب، وشرحوه، وطبقوه، وعلموه لغيرهم.

الأندلس

كان للحضارة العربية في الأندلس، بريق خلب الباب معاصريها، وكان لمظاهر المدنية فيها دواء لم يخطئه أحد من جيرانهم، على حين كانت الحضارة في المشرق عريقة أصيلة، والحضارات العريقة كثيرا ما ترزح تحت ثقل ماضيها المجيد، يحدد خصائصها الأسس العميقة التي تقوم عليها، وهذه الأسس قد لا يكون تغييرها سهلا، ولا مرغوباً فيه.

وكان العداء بين العرب ومن يليهم من الأمم اللاتينية شديدا، والحروب مستمرة، والخلافات السياسية على أشد ما تكون، ولم تمنع هذه العداوة من تبادل الفلسفة والعلوم والطب بينهم.

إتخذ الغربيون السبيل الطبيعي لتحقيق نقل العلوم العربية إليهم، وهو طريق الترجمة. وكان نجاحهم فيها أكثر شمولا، وأعمق وأدق وأكثر وضوحا من الترجمات التي تمت في سالرنو، وذلك لعدة أسباب منها أن حضارة الأندلس كانت في أغلب الظن أكثر جدة وقوة من حضارة شمال افريقيا. وكان العلماء المترجمون أقدر على فهم العربية واللاتينية، وعلى معرفة العلوم نفسها من مترجمي صقلية.

وقد عد بعض المؤرخين سبعة وثمانين كتابا ترجمها «جيرارد الكريومني» وليس من المستطاع أن تكون كلها على وتيرة واحدة.

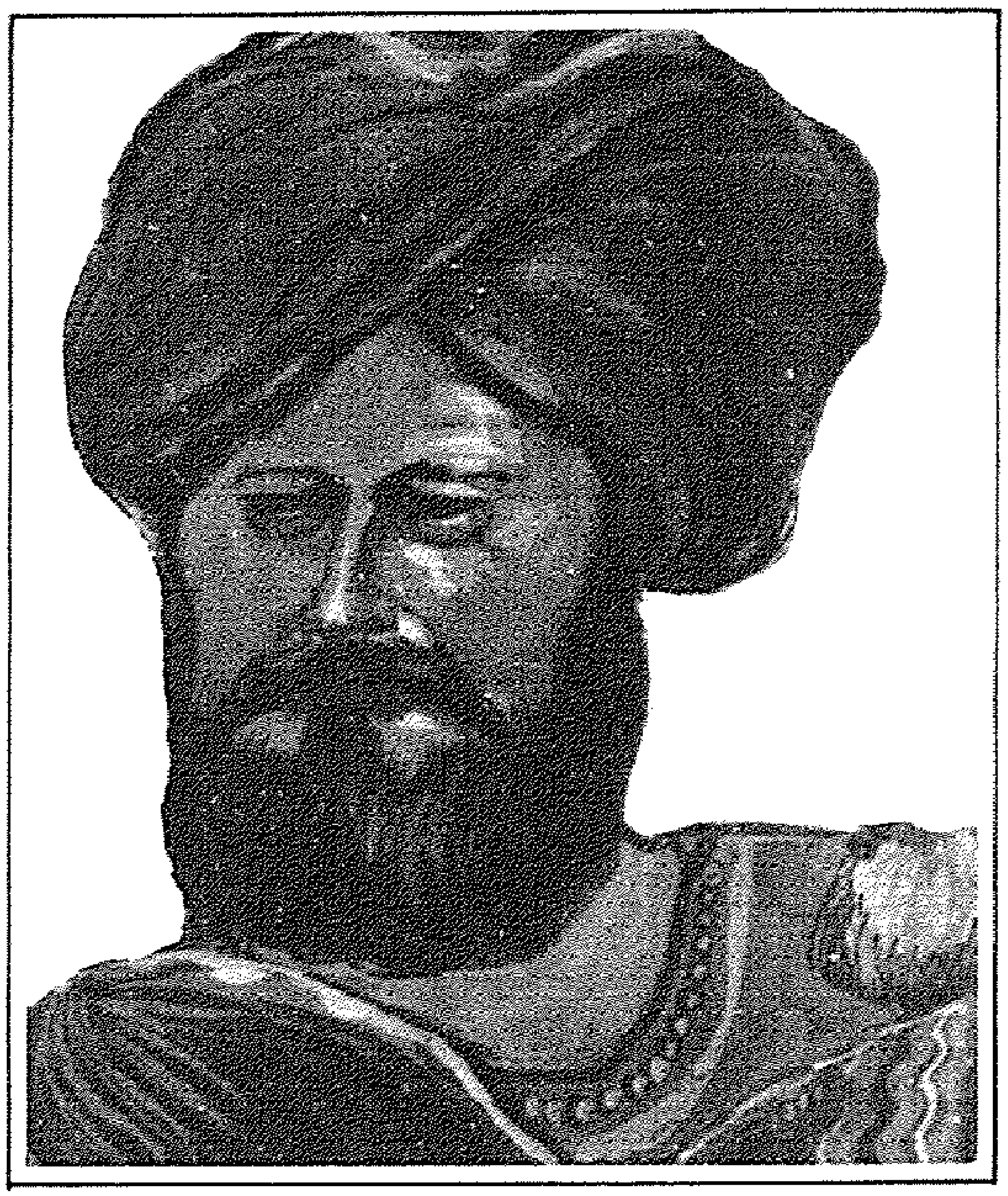
وكان «جيرارد» من غير شك أقدر من قسطنطين الأفريقي، وأغزر علما وأكثر صدقا.

كانت الحركة شاملة، ولا نحسب كتابا عربيا ذا قيمة لم يترجمه المترجمون في ذلك العصر، ترجموا الكتب الطبية الشهيرة وغيرها مما هو أقل شهرة، وعنوا كثيرا بكتب العقاقير لابن البيطار والهودي، ومأسويه الماريديني (المتوفي عام ١٠١٥م)، وكان كتابه مشهورا جدا عندهم، وكذلك ترجمة كتب علي بن عيسى، وعمار الموصلي في العيون. أما كتاب على بن العباس «كامل الصناعة» وكتاب «القانون» لابن سينا، وكتاب «الحاوي» للرازي وكتابه «المنصوري» فقد نالت عناية فائقة، وترجمت ترجمة ظلت كلاسيكية تدرس في جامعات أوروبا حتى أواسط القرن السادس عشر على الأقل.

والآن وقد ذكرنا مجمل تاريخ الطب العربي. وكيف انتقل إلى الغرب، وكيف كانت البلاد اللاتينية متعطشة إليه، إذا تركنا جانبا كل هذه التفاصيل ــ وفي رأيي أنها على أهميتها لا تحدد أثر الطب العربي في الغرب، إذا تركناها جانبا فاننا نجد أن الغربيين أفادوا من الطب العربي أموراً كثيرة.

الكتب الجامعة التي تتناول جميع العلوم الطبية، وأهمها من غير شك كتاب القانون. وقد أجمعت الأمم العربية واللاتينية قديما على الإعجاب بتأليفه، (ولا يزال يتعلم الناس في باكستان الطب كما جاء فيه)، وظل الأطباء يدرسونه في جامعات أوروبا حتى منتصف القرن السادس عشر.

وكتاب القانون عسير على من لا يروض نفسه على طريقة التفكير الطبي في العصور القديمة، وهو يمتاز بالوضوح والتنسيق، وحسن التأليف عند من يروضون أنفسهم رياضة خاصة على ذلك. وهو منظم جدا. بل لعل فيه إسرافا في التنظيم والتنسيق. ولا يشك القارىء أن مؤلفه فيلسوف ممتاز، فهو يستقصي تقسيم الأمراض أو الأعراض أو العلاج، وقد يجره هذا الاستقصاء إلى ذكر أمور لا وجود لها في الواقع، أو إلى شرح أمور نادرة جدا، حين يستدعى التقسيم المنطقي ذكر هذه الأمور. والفيلسوف يزعجه أن يغفل الأشياء التي يقتضي المنطق



□ ابن النفيس

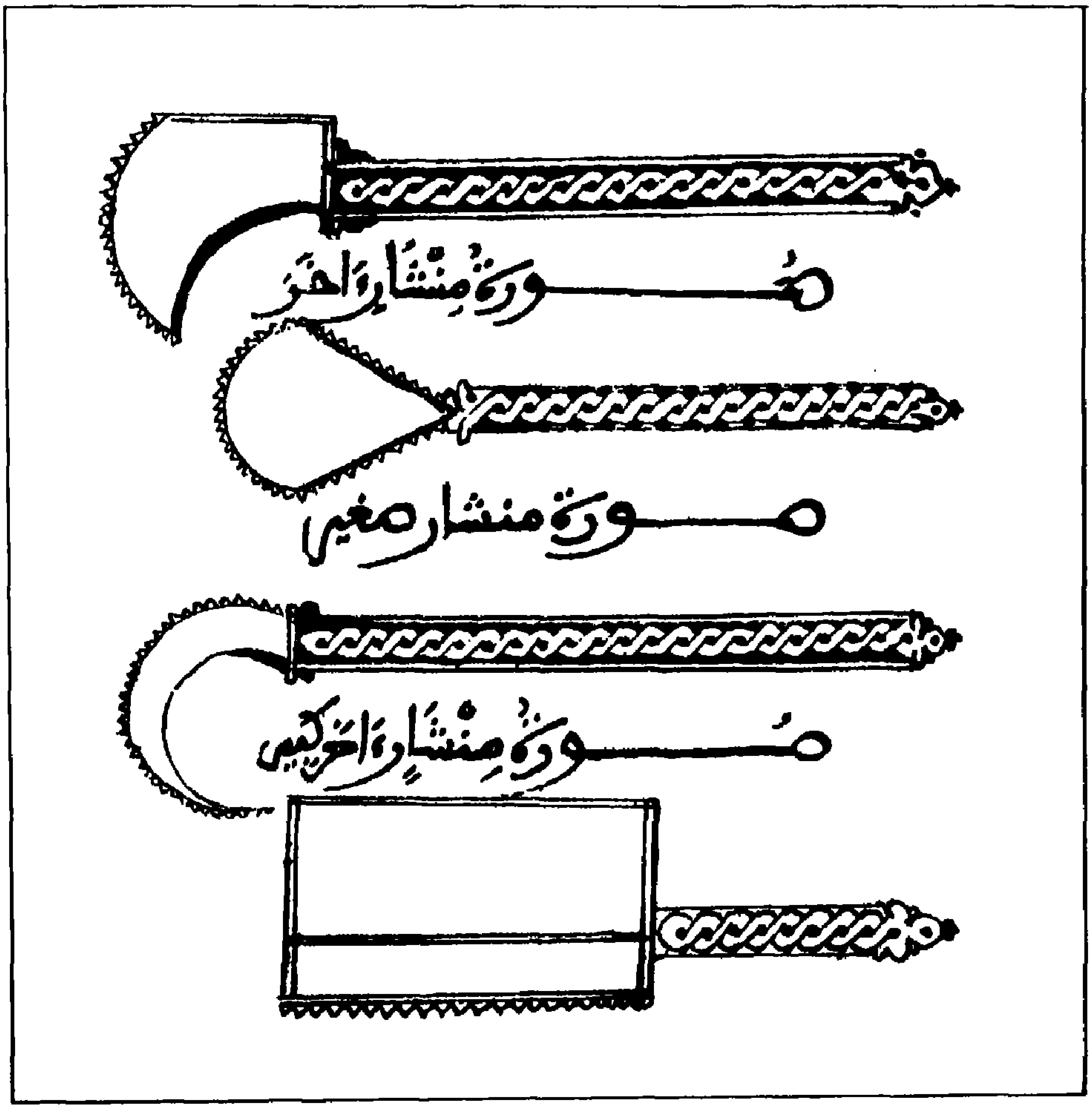
وجودها، وقد لا يزعج الطبيب في شيء أن نغفلها تماما. ولا شك أن ابن سينا كان يرى أن الفلسفة أهم من الطب.

وإن واقع الخبرة الطبية يجب الا يغير من القضايا الفلسفية الكبرى التي هي ثابتة البراهين لا تقبل النقض، ومن هنا كانت ثقة الأطباء في ذلك العصر في الكليات، وحملهم كل ظاهرة على الخضوع لهذه الكليات مهما يكن التأويل عسيرا ملتويا، وهذه سمات العلم في القرون الوسطى. وكتاب القانون ــ خير تطبيق لهذا التفكير على العلوم الطبية، وهو غاية ما يمكن أن يبلغه كتاب في الطب يقوم على هذه الأسس، وليس عجيبا أن يرضى عنه أهل ذلك العصر رضاءً تاماً.

أخذ الغربيون عن العرب علمهم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة. وكان كتاب ابن البيطار مرجعا لهم حتى أواسط القرن الثامن عشر.

وأخذوا عن العرب خبرتهم في الجراحة حيث كان كتاب الزهراوي مرجعا عند كل من مارس الجراحة في أوروبا حينذاك. وله فضل كبير في تحديد التفاصيل الدقيقة التيلا بدمنها لنجاح الجراحات، وهو أول من وصف وضع الوالدة فيما سمي بعد ذلك، وضع الـ (Waleher)، وله آلات يستأصل بها أورام الأنف وهي كالسنارة،

□ ادوات جراحية تعرد إلى القرن السادس عشر من رسالة «الزهراوي»



وله آلات أخرى لاستخراج حصاة المثانة بالشق أو التفتيت.

وأخذ الغربيون عن العرب نظام البيمارستانات. وكان العلاج فيها حسنا إلى حد كبير حتى لقد قيل إن بعض الأصحاء كانوا يدعون المرض ليقيموا فيها. وقد عني البابوات، وملوك الغرب بإقامة المستشفيات على نظام البيمارستانات العربية.

والواقع أن الطب العربي كان ناجحاً جداً، في القرون الوسطى، وكانت الأمم اللاتينية تجهل الطب جهلا يكاد يكون تاما. وكان حتما أن يأخذوه عن العرب، فأخذوا ينقلون الطب العربي كله علما وعملا إلى بلادهم. ولكن العلم التجريبي والتفكير الحديث بدأ عندهم بعد ذلك بقليل. وبذلك كتب الفصل الأخير في طب القرون الوسطى وغفا عليه الزمن.

نظرة العلماء والمؤرخين الأجانب للطب العربي

قد يقول البعض إن المعلومات القديمة لا تفيدنا بشيء، إذ ليس فيها ما يلائم العصر الحاضر، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن التراث الذي خلفه الأقدمون هو الذي بلغ به الإنسان إلى علمه الحاضر. وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة، تمهد السبيل لظهور جهود جديدة من أفراد أو جماعات أخرى، لولا ذلك ما تطورت المدنيات. فلو لم يظهر ابن النفيس ما ظهر هارفي، ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم، وعلى هذا يمكن القول: «لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر من

النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن الميلادي».

الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت. وقد قام أصحابها العرب بدورهم في تقدم الفكر وتطوره، ولم يكونوا مجرد ناقلين كما قال البعض، بل إن في نقلهم روحا، وحياة، أبعد ما يكون عن الجمود، وقد خطوا في العلوم والطب خطوات كان لها أبعد الأثر في تقدمها.

وفي هذا يقول «جورج سارتون»!: «إن بعض المؤرخين يحاول أن يبخس قدر ما قدمه العرب للعالم، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئاً»... ثم يقول سارتون: «إن هذا الرأي خطأ، وإنه لعمل عظيم أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية، ويحافظوا عليها، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة». وقال في موضع آخر «إن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم، وإنهم زادوا على العلوم التي أخذوها، ولم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء»(١٤).

ضاع كثير من مؤلفات العرب بسبب ما أتاه هولاكو وأتباعه المغول من التخريب والتدمير عندما اجتاحوا مدينة بغداد عام ١٢٥٨م، وبسبب ما فعله أمراء أسبانيا أيضا من التخريب بعد خروج العرب من الأندلس، وتناسوا أن تراث العرب العلمي كان أساس الثقافة الاوروبية من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر، وأن اللغة العربية كانت لغة العلم والفلسفة من حدود الهند وسور الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي وسهول لومبارديا غربا. ونذكر قول «نورغ» أحد أساتذة جامعة مونبلييه من خطاب ألقاه في إحدى الجامعات الأسبانية «إن أسبانيا كانت دولة قائمة بنفسها يتحلى أهلها بقوة حيوية قومية غير معهودة في غيرهم، كما أن لهم من سرعة الفكر، والاستعداد للنضال ما يجعل منهم أمة فريدة، ويرجع ذلك إلى استيلاء العرب على أسبانيا، واختلاطهم بشعبها مما أدى إلى السير بأوروبا في مضمار التقدم»(١٥).

لقد ترك العرب أسبانيا في القرن الخامس عشر، وفي ٢ يناير ١٤٩٢م جلا العرب عن غرناطة، فتركوا فيها كما قال الأديب الفرنسي «كلود فارير»: «من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون القادمة، وفي طليطلة خزانة لكتب الطب والعلوم تغذت بها بعد ترجمتها البشرية عصورا طويلة».

عاب بعض الغربيين على الأطباء العرب



□ صورة طبق الأصل لبعض الشروحات الطبية القديمة، تتناول طب الأسنان عند العرب

تعلقهم بنظرية الاخلاط، والقوى كما عرفها أبقراط وجالينوس، وقالوا إن عملهم بالأمراض مبني على نظرية القوى والأخلاط، والحرارة الغزيرة، والمشاكلة بين الجسم وما يحيط به.

ولكننا نقول إن الأطباء العرب ـــ فضلاً عن أنهم أطباء إكلينكيون من طبقة ممتازة ـــ كانوا كذلك فلاسفة وحكماء. عرفوا الكثير من أسرار النفس البشرية مما عاونهم في علاج الجسم، وكانت فلسفة العلاج ترجع إلى شخصية الطبيب وإلى قوة الايحاء. إنه من الظلم أن يبخس المغرضون قدر الطب العربي الذي عاش في ظل آراء بعيدة عن آرائنا، وأسلوب في الحياة والتفكير لا صلة له بحياتنا المعاصرة. ونظرية الأخلاط التي يعيبونها على العرب هي أقرب ما يكون إلى نظرية توازن الافرازات الهرمونية في الدم، والتي إذا ما اختل التوازن أحدثت كثيرا من الأمراض.

أما الجراحة فلم تتقدم لارتباطها بفن التشريح، ولاعتبار الجراحة من المهن اليدوية التي لا تليق بمقام الأطباء، حتى إن قسم أبو قراط نص على العبارة التالية:

«وألا استعمل المبضع ـــ ولو عن يقين ـــ في علاج المرضى بالحصيات، وإنما أعالجهم بمقتضى ما يراه ذوو الخبرة بمثل هذا العلاج».

وهنا نذكر عن ابن زهر ـــ المتوفي عام ١١٦٢م ـــ قوله إن الجراحة لا تليق بالأطباء، كما أن الطبيب لا يليق به أن يحضر العقاقير. وبذلك فصلت الجراحة عن الأمراض الباطنة في أوروبا، وتدهور حال الجراحة(١٦).

وعندما نشر الطبيب الأسباني الراهب «ميجيل سرفيتوس» وكان زميلا لفيساليوس عام ١٥٥٣م. في مجلة دينية عن «وجود مجار للدم بين القلب والرئتين» «فالشريان الدموي يحمل الدم من بطين القلب الأيمن إلى الرئتين، والوريد الرئوي يحمله من الرئتين إلى أذين القلب الأيسر». ثار عليه «جون كالفين» صاحب المذهب المعروف باسمه، وكان صاحب السلطان الديني في سويسرا، فاستدعى سرفيتوس إلى جنيف، واتهمه بالزندقة، وحكم عليه بالموت حرقا في اكتوبر ١٥٥٣. ولكن عندما ذكر «ابن النفيس» قبل ذلك بثلاثة قرون هذا الكشف الهام عام ١٢٥٨، وصحح خطأ جالينوس بقوله في كتابه «شرح تشريح القانون لابن سينا»، «وإن الحاجز البطيني خال من المسام غير نضاح، وإن القلب لا يتغذى من الدم الذي تحتويه تجاويفه، بل من الأوعية الصغيرة المنبثة في جوهره، وإن الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشرياني الوريدي ليصل إلى التجويف الأيسر من تجاويف القلب»، لم يثر عليه المسلمون، ولم ينعتوه بالكفر، ولم يحكموا عليه بالحرق حيا. وقال ابن النفيس في مقدمته لشرح الكتاب الثالث من القانون لابن سينا الخاص بالتشريح «وقد صدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة، وما في أخلاقنا من الرحمة، فلذلك ينبغي أن نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر... الخ».

وأشاد علماء الكيمياء الاوروبيون بجابر بن حيان، ولقبوه بشيخ الكيمائيين، والأستاذ الكبير، بل ذكروا عنه أقواله ومأثوراته ومنها «فما افتخرت الحكماء بكثرة العقاقير، وإنما افتخرت بجودة التدبير. فعليك بالرفق والتأني، وترك العجلة، واقتف أثر الطبيعة مما تريده من كل شيء طبيعي». وقوله أيضاً: «وأول واجب أن تعمل وتجري التجارب، لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل حتى إلى أدنى مراتب الاتقان، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلى المعرفة»(١٧).

كما أشاد «برتيلوه» العلامة الكيميائي الفرنسي بعبقرية جابر وبمنزلته العلمية في كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى (١٨٩٣م)»، وكذلك العلامة الكيميائي الانجليزي هوليمار الذي أكد صحة وجوده ومنزلته من العلم، ونوه بكتبه الأربعة التي ترجمت إلى اللاتينية حوالي القرن الثالث عشر. ومما يستحق الذكر والتقدير أن سارتون ـــ قد أشاد في كتابه «تاريخ العلم» بمنزلة جابر العلمية، بل وأرخ به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلامية.

وقد حقق «ألبرت ماجنوس» نظريات ودراسات جابر في علم الكيمياء، وكان تأثير جابر واضحاً في الموسوعة التي ألفها «فنسنت ده بوفيه». أما كتاب الكيمياء الذي ألفه «أرنولد فيلانوفا»، «ريموند لل» فهو ملىء بمقتطفات من كتب جابر، وهكذا سيطرت كيمياء العرب في أوروبا زهاء ثلاثة قرون.



☐ ابن البيطار

وقال «نيكلسون»: «وما المكتشفات اليوم لتحسب شيئا مذكورا إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء في القرون الوسطى المظلمة في أوروبا». وقال البارون «كلارادي فو»: «إن الميراث الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان استغلاله، أما العرب فقد عملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه للعصور الحديثة». ويذهب «سيديو» إلى أن العرب هم في واقع الأمر أساتذة أوروبا في جميع فروع المعرفة. وقال الطبيب الأوروبي «دي بور»: «كان الطب ميتا، فأحياه جالينوس، وكان متفرقا فجمعه الرازي». وجاء في كتاب تطور الطب لوليم أوزلد: «أن العرب أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية، وبلغت صناعة الطب عندهم حتى القرن الثاني عشر مكانة وأهمية لا نجد لها مثيلا في التاريخ». هذا وقد وضعت كلية الطب الجديدة في باريس على سطح دارها من الخارج تماثيل لعلماء الطب ومنهم الرازي وابن سينا، وابن زهر.

يقول «ولز»: «إن العرب بلغوا شأوا تفوقوا فيه على الاغريق، درسوا علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة، وكانت طرق طبهم العلمية نظير طرقنا الحاضرة، ولا نزال نحن إلى يومنا هذا نستعمل كثيرا من عقاقيرهم. وكان جراحوهم يعرفون التخدير، ويجرون العمليات الجراحية،

كما أوحت آراء «ابن الهيثم» من علماء البصريات المشهورين إلى «روجر» و «باكون» سبل البحث العلمي.

أطلع «سخاو» العالم الشهير على بعض مؤلفات البيروني، فخرج من دراستها باعتراف خطير، وهو أن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ، ويعترف «سميث» وهو من كبار الرياضيين أن البيروني كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات[١٨].

وذكر الدكتور أحمد الشطي، في كتابه «الطب عند العرب»: «أنه في عهد عبد الرحمن الثالث إزدهر العلم في قرطبة (Cordova)، وأصبحت مركزا ثقافيا وبلغ عدد الكتب في مكتبتها العامة ٦٠٠,٠٠٠ (ستمائة ألف) كتاب. وفي ذلك العهد كان حكام ليون ونافار يقصدون إليها كلما احتاجوا إلى المعالجة، وأرسلت ملكة نافار — إبنها «سانكو» ليعالج من السمنة على أيدي أطباء قرطبة. وكان يفد إلى قرطبة الطلاب من كل حدب وصوب. وممن درسوا في جامعتها من عظماء الرجال — الراهب «جوبرت» الذي أصبح فيما بعد البابا «سيلفستر».

من أهم كتابات الرازي رسالته الذائعة الصيت عن الجدري والحصبة، وقد نشر النص العربي لهذه الرسالة مصحوبا بترجمتها اللاتينية

عام ١٧٦٦م، وقد وصف نيوبرجر ــ المؤرخ الطبي المشهور هذه الرسالة بقوله: «إن هذه الرسالة تعد حلية في جيد الطب العربي، وإن لها أهمية عظمى في تاريخ الأمراض الوبائية لأنها أول بحث كتب عن مرض الجدري».

ويعتبر أبو القاسم الزهراوي (١٠١٣م) أعظم من كتب في الجراحة من أطباء العرب، وقد ضمن معلوماته في كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية مراراً. وقد سارع «جي ده شولياك» [١٣٠٠ ــ ١٣٦٨م]. بنقل. الفصول الخاصة بالجراحة من الكتاب المذكور وضمها إلى كتابه في الجراحة. وكان «فابريقوس داكو بندنتي» أستاذ التشريح في جامعة بادوا [١٥٣٣ ــ ١٦١٩م] يعتبر الزهراوي أعظم جراحي زمانه. وكانت آخر طبعة للفصول الخاصة بالجراحة في أكسفورد عام ١٧٧٨(*). وبعد ذلك باثنين وعشرين عاما أنشئت كلية الجراحين الملكية في لندن.

وهكذا كان أبو القاسم الزهراوي أول من رفع من شأن الجراحة في العالم.

وقد وصف «لانفرامك» في أواخر القرن الثالث عشر ــ بعد أن أطلع على كتاب الزهراوي ــ جراحي باريس بأنهم جهلاء، ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعته.

وقال «لكلوك» مؤرخ الطب العربي: «لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علوم الاغريق، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في العالم، ثم احتلت طليطلة في القرن الثاني عشر المركز الذي تحتله بغداد.

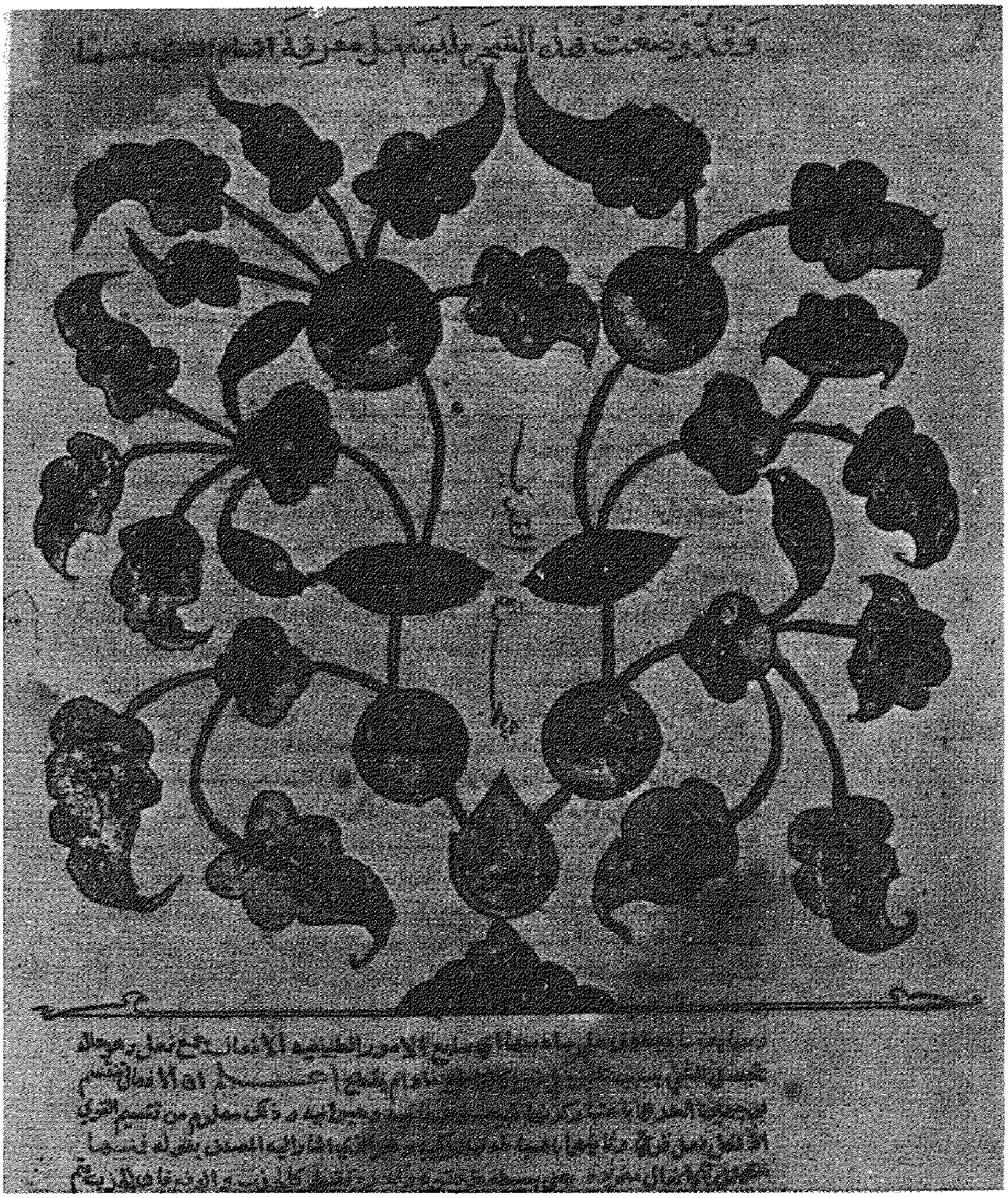
وقال أيضاً: «إنه في ذلك الوقت حصل حادثان عظيمان في قطبي العالم العربي أحدهما الحروب الصليبية التي ساقت إلى الشرق حوالي مليون أوروبي، والثاني هو زحف الأفكار العربية على الغرب عن طريق الأندلس».

وقال كذلك: «إنه كان يوجد بطليطلة تسعون كتابا مترجما من العربية إلى اللاتينية في الطب، منها أربعة لأبو قراط، و ٢٥ لجالينوس والباقي لحكماء العرب والمسلمين».

وقال المؤرخ «جرمان» من مونبليه: «اننا نشهد لكتاب العرب الذين كتبوا في الموضوعات العلمية بميزة الايضاح التام، والطريقة التعليمية، نعم إن هؤلاء كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا». وقال «برترام توماس»: «وعلى الرغم من ان الحضارة العربية لم تنبعث من العرب كجنس أو كبلد واحد، وعلى الرغم من أن عددا من علمائهم كان من أصل فارسي إلا أنه لولا العرب لما بلغت الحضارة العالمية ما بلغته اليوم».

أما القانون لابن سينا فبلغ من المكانة ما بلغته كتابات جالينوس وأبو قراط وأقر البابا كليمنت الخامس (١٣٠٩م) أن يمتحن الطلبة اجباريا في كتابي ابن سينا، والرازي للحصول على إجازة الطب، وكان كتاب القانون يدرس في جامعة مونبلييه، حتى أواسط القرن السابع عشر، وكذلك كان كتاب المؤثورات وأجزاء من أعمال «ابن رشد»، و «يوحنا سرابيون»، وكتاب تاريخ الأطباء لابن القفطي. وهناك غير ذلك ترجمات عديدة لأزمنة متأخرة كانت تستعمل بكثرة. وهكذا سقطت على تربة أوروبا الجدباء مئات من الترجمات اللاتينية عن العربية، فأخصبت تربتها. وأنشئت الجامعات والمدارس الطبية متأثرة بالثقافة العربية، ونخص بالذكر جامعة بولونيا (القرن الثالث عشر)، واشتهرت بتبني آراء ابن زهر، وجامعة بادوا (١٢٢٨) وكانت تتقبل آراء ابن رشد، وهي الجامعة التي أنجبت «فيساليوس». ثم ظهرت طبقة جديدة من الأطباء المدرسين، وكان هناك أساتذة من شمال افريقيا يدرسون الطب في جامعة سالرنو الشهيرة، فانتعش علم التشريح، وظهرت كتب جديدة في الجراحة، وأصبحت أمراض النساء والولادة في متناول أيدي الأطباء، دراسة علمية بعد أن كانت حكرا للمولدات، وانتقل علم أمراض العيون من أيدي «قداحي الكتاركتا» إلى أيدي الأطباء. وقد بلغ من شيوع التعليم بعد توفر الكتب العربية المنقولة إلى اللاتينية في الطب والعلوم أن أنشئت ثمانون جامعة بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر. أما العلوم الطبيعية فكان مقرها جامعة باريس، وكانت مؤلفات ارسطاطاليس التي قدمها إبن رشد من طليطلة أساساً للمعرفة.

وهنا عمد «روجر باكون»، و «ألبرت ماجنيس» (العظيم) على نشر بحوث العلماء المسلمين، فكان مؤلف روجر باكون ــ في البصريات مبنيا على



□ شجرة «القوى الاساسية» في جسم الانسان

كتاب «الحسن بن الهيثم» في نفس الموضوع.

وكانت فيينا حتى عام ١٥٢٠، وفرنكفورت حتى عام ١٥٨٨ تستعملان كتاب القانون لابن سينا. وكتاب المنصوري للرازي في مقرر دراسة الطب. وحتى القرن السابع عشر في ألمانيا وفرنسا كان هناك أساتذة يقومون بتدريس علوم العرب حتى ظهرت الطرق الحديثة. واستمرت الفارماكوبيا العربية سائدة حتى مطلع القرن التاسع عشر، وطبعت أجزاء من كتاب ابن البيطار (١٧٥٨م) في كريمونا، كما أعيد طبع مؤلفات مختار الأومني (١١٨٤) في الطب (وهي من مصادر عربية وفارسية) في البندقية (١٨٣٢). أما عملية قدح العين التي قام باجرائها العرب، فكانت تمارس بواسطة «برسيفال بوث» في انجلترا (١٧٨٠) وفي المانيا (١٨٢٠)[١٩].

قال «جومار» أحد العلماء الذين استقدمهم نابليون أثناء حملته على مصر «أنشىء في القاهرة منذ ستة قرون عدة بيمارستانات تضم المرضى والمجانين، ولم يبق منها سوى مارستان واحد «قلاوون»، صرف سلاطين مصر عليه مالاً كثيراً، وأفرد فيه لكل مرض قاعدة خاصة وطبيب خاص، يدخله المرضى فقراء واغنياء بدون تمييز. وكان المؤرقون من المرضى يعزلون في قاعة منفردة يستمعون لألحان موسيقية. ويدرس بالمستشفى الطب والفقه»[*]

وقال «برايس دافن»: «كانت قاعات المرضى تدفأ شتاء، وتبرد صيفا بالمراوح الكبيرة الممتدة

من طرف القاعة إلى الطرف الثاني...».

أما عن الغرب فقد جاء في كتاب «ماكس فوردو» عن هوتيل ديو ف باريس «يستلقي في فراش واحد أربعة أو خمسة أو ستة مرضى بأمراض مختلفة، أطفالا وشيوخا، ويقدم الطعام للمرضى بمقادير ضئيلة في أوقات غير منتظمة، وتتراكم الحشرات في الدار، وتفسد رائحة الهواء في قاعات المرضى؛ وتبقى جثث الموتى ٢٤ ساعة في الفراش مع الأحياء، وذباب الجيف، وكانت حجرات المجانين ملاصقة لمن أجريت لهم العمليات الجراحية».

ويمكن القول بأن الألمان من أكثر الشعوب التي نزلت إلى ميدان البحث في الطب العربي، ولا تتيسر دراسة تاريخ الطب العربي دون الرجوع إلى مؤلفاتهم. قال الفيلسوف الألماني «هومبولد»: «إن العرب لم يقتصروا على دراسة كنز المعارف الذي عثروا عليه، بل أضافوا إليه ووسعوه، وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة».

وقد كتب «بيتر باخمان» المستشرق الألماني في مؤلفه: «أبحاث ألمانية عن تاريخ الطب العربي» يقول: «يمكن أن أشبه الطب العربي بجزيرة واسعة عجيبة واقعة في المحيط، ذات جبال عالية ورياض مزدهرة، وأنهار جارفة وبساتين فائحة، كما أن فيها صحراء خالية ليس فيها من الحياة إلا ما عاش في بعض الواحات. وإذا بالمكتشفين يجتازون البحر من جميع النواحي في طلب هذه الجزيرة يرغبون في اكتشاف أسرارها، ويرومون النزول إلى معادنها، ويقصدون إلى اقتطاف أزهار رياضها. وأما الجبال العالية والرياض المزهرة والأنهار والبساتين، فهي رموز إلى أعلام الطب العربي، وإلى مؤلفاتهم الرائعة البديعة. وأما الصحراء الخالية التي فيها بعض الواحات، فهي صورة الأطباء الذين اختصروا مؤلفات متقدميهم، وشرحوها وشرحوا الشروح التي قد كتبت من قبل. وأحياناً عبروا عن فكرة جميلة جديدة، وأحيانا أقدموا على نقد القدماء، وعلى سلوك طرق لم يسلكها أحد من قبلهم.

وأما المكتشفون الذين يجتازون البحر من جميع النواحي فهم الباحثون عن تاريخ الطب العربي وأعلامه وتطوره. وهم هيئة تتألف من علماء بلدان مختلفة من جميع الأجناس والأديان. ويدل هذا الاهتمام الدولي بالطب العربي على أن الكتب الطبية العربية فيها قوة عقلية لم تزل تؤثر على الناس حتى في يومنا هذا ولن تزال في المستقبل إن شاء الله... الخ.

وأول من وضع كتابا في الطب العربي في ألمانيا كتابه «أنه توجد واجبات ثلاثة يجتهد في تحقيقها الباحثون عن الطب العربي وهي:

أولاً: وضع فهارس لجميع المخطوطات، والكتب العربية المنسوبة إلى الطب العربي وتاريخه كي نعرف نحن المستشرقين في الشرق والغرب ما هي مواد أبحاثنا المحفوظة في مكتبات العالم العربي وفي أوروبا وفي الولايات المتحدة.

ثانياً: طبع المخطوطات العربية الطبية بعد تحقيقها وضبطها.

ثالثاً: ترجمة الكتب العربية إلى لغة من لغات الغرب مع شروح وملاحظات أدبية وتاريخية حتى يسهل على علماء الغرب من غير المستشرقين الوصول إليها وإدراكها.

وفي عام ١٨٤٠م ظهر للمستشرق «فرديناند وستنفلد» من جوتنجن كتابه في «تاريخ أطباء العرب والباحثين عن الطبيعيات عندهم» جمع فيه أسماء ثلاثمائة طبيب وفهارس مؤلفاتهم، وموجز تواريخ حياتهم.

وأصدر «شتاينشنايد».. في مدينة جراتس عام ١٩٥٦ «فهرست الكتب الأوروبية المترجمة عن العربية، والمصنفة حتى نصف القرن السابع عشر». وأما الكتب التاريخية الطبية فعني بتحقيقها المستشرقان «يوحناد ويديجر»، و «أوجست ميلر»، وأصدر المحققان كتاب «الفهرست» في ليبزج. وأعيد طبع تحقيق «فليوجل» في بيروت حديثا حين صدر في سلسلة «روائع التراث العربي».

وكان علماء أوروبا يمدحون الكحالين العرب. وأول من حقق في طب أمراض العيون هو «جوليوس هيرشبرج» الذي أصدر في برلين عام ١٩٠٣ كتاب «حنين بن إسحق»، «العشر مقالات في العين»، وأتبع هذه بثلاثة مقالات أخرى عناوينها «في الآلات التي استعملها الكحالون العرب»، والثانية «في قدح العين»، والثالثة «في صور تشريح العين عند العرب»،

وجمع فيه تراجم بعض الكتب العربية في طب العيون. وأفضلها وأبدعها كما يقول «هيرشبرج» كتاب «المنتخب في علم العين» لعماد بن علي الموصلي، أما كتابه الذي جمع فيه ثمار دراساته السابقة فهو «تاريخ طب العيون عند العرب» الذي صدر في ليبزج عام ١٩٠٥م.

ومن العلماء الذين يعملون في دراسة تاريخ الطب العربي «أوتوشيليس» من بون، صدرت له عام ١٩٦٢ مقالة في تاريخ طب الأسنان عند العرب، وله أيضاً «ثلاثة أبواب في مبحث البول عند العرب»، صدرت في عام ١٩٦٤. وكذلك المستشرق «هلموت جاتجي» له بحث أسماه «نظرة إلى الطب الإسلامي في القرون الوسطى» عام ١٩٦٢، ونقل «ألفريد سيجل» كتاب فردوس الحكمة لعلي بن سهل الطبري إلى الألمانية، وأصدره في ثلاثة أجزاء عام ١٩٤١، ١٩٥١، ١٩٥٣.

وأصدر هاينرش شيبرجيس كتابه في «قبول الطب العربي في أميركا اللاتينية عام ١٩٦٤. وبحث ألبرت ديترش عن مخطوطات عربية في بعض مكتبات تركيا وسوريا، وأخرج كتابا عام ١٩٦٦ أسماه «طبيات عربية».

أما «ماكس مايدهوف» فقد اتحد في شخصيته عالم الطب، وعالم اللغات الشرقية، ولد في شمال ألمانيا عام ١٨٧٤، ودرس في جامعة هايدلبرج، وجامعة برلين، ونال الدكتوراه من شتراسبورج، ثم تخصص في طب العيون، وانتقل إلى مصر واستقر في القاهرة، فأصبحت مصر وطنه الثاني، وبقي بها حتى توفي عام ١٩٤٥. وكان يجمع بين لطف المؤانسة، وحذق المعالجة، وأحاط بعلم الطب. وبعلم الاستشراق. كما كان يبحث عن نوادر الكتب الطبية العربية في مكاتب الشرق، وحقق كتاب حنين بن إسحق «العشر مقالات في العين» مع ترجمة انجليزية له عام ١٩٣٨، وأصدر كذلك كتاب «شرح في العين» مع ترجمة انجليزية له عام١٩٣٨، وأصدر كذلك كتاب «شرح أسماء العقار» لابن ميمون عام ١٩٤٠، ونقل إلى الانجليزية خمس رسائل لابن بطلان البغدادي، ولابن رضوان عام ١٩٣٧، وكذلك مقالته الألمانية في تاريخ التعليم الفلسفي والطبي عند العرب، وله مقالات مختلفة عن ابن النفيس وغيره. ويختم «ماكس مايدهوف» كتابه «تراث الإسلام» بالعبارة التالية: «إن الطب الاسلامي قد عكس ضوء الشمس الغاربة في اليونان، وتلألأ كالقمر في سماء العصور المظلمة، وثمة نجوم سطعت من تلقاء نفسها، وأضاء سناها ظلمة هذه السماء، ثم أفل القمر وخبا ضوء النجوم في فجر عهد جديد... لكن أثرها بقي في الحضارة حيا حتى الآن.

فإذا ظهر لنا ان أثر العرب لم يعد واضحا الآن في أوروبا كما كان في الماضي، فإن هذا راجع إلى أن أوروبا وأميركا منذ القرن التاسع عشر بدأتا بالثورة الصناعية، وما نتج عن ذلك من فلسفة وسياسة جديدة تركزت على الماديات، والآن وقد أصبحت أوروبا دولا قوية بعد الثورة الصناعية، وأصبح العرب دولا ضعيفة بسبب الاستعمار والتفرقة، بدأت أوروبا تخرج كنوزاً من المعرفة تباهى بها الشرق».

على أننا لا نقطع الأمل من أن يأتي اليوم الذي توحد فيه الدول العربية قواها العلمية والاقتصادية، وتنزل إلى ميدان العلوم والصناعة، حتى تستعيد ماضيها المجيد. فإذا خلصت النيات ــ وليس هذا ببعيد ــ عندئذ تقوى المعرفة العربية ممزوجة بالقوى الروحية الكامنة فينا، فيتطلع الغرب إلينا مرة ثانية.

●

هوامش

(١٤) SARTON (G), A history of Science, Ani-cient Science-throwgh the Golden Age of Greece, Harverd, 1952.

(١٥) SARTON (G), Introduction to the History of Science, 3 vol., Baltimore.

(١٦) صاحب كتاب «اليسير في المداواة والتدبير» الذي ترجم إلى اللاتينية، فكان له أثر عظيم في تقدم الطب الأوروبي.

(١٧) جورج سارتون ــ تاريخ العلم ــ القاهرة ١٩٥٧، مؤسسة فرانكلين.

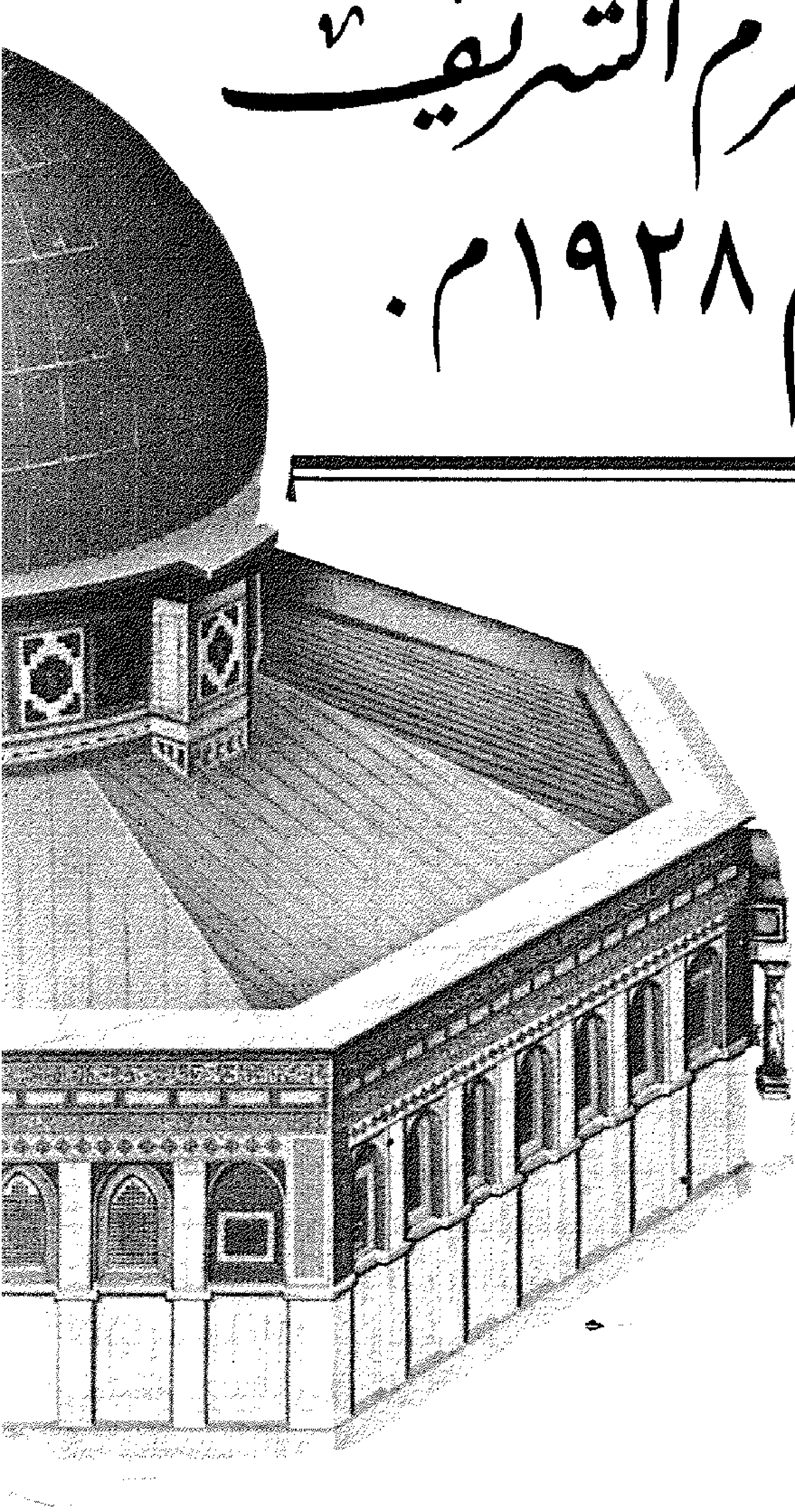
(١٨) المصدر السابق.

(★) Coldstein, (M), Internationale Bibliographie der Altaegyptischen Medizin, (1850-1930).

(١٩) المصدر السابق.

(★) Dawson (W.R), Medicin in the Legacy of Egypt. Oxford, (Clarendon) Press, 1942, p.p. 174-198.

ترميم وإعمار الحرم الشريف في القدس عام ١٩٢٨م.



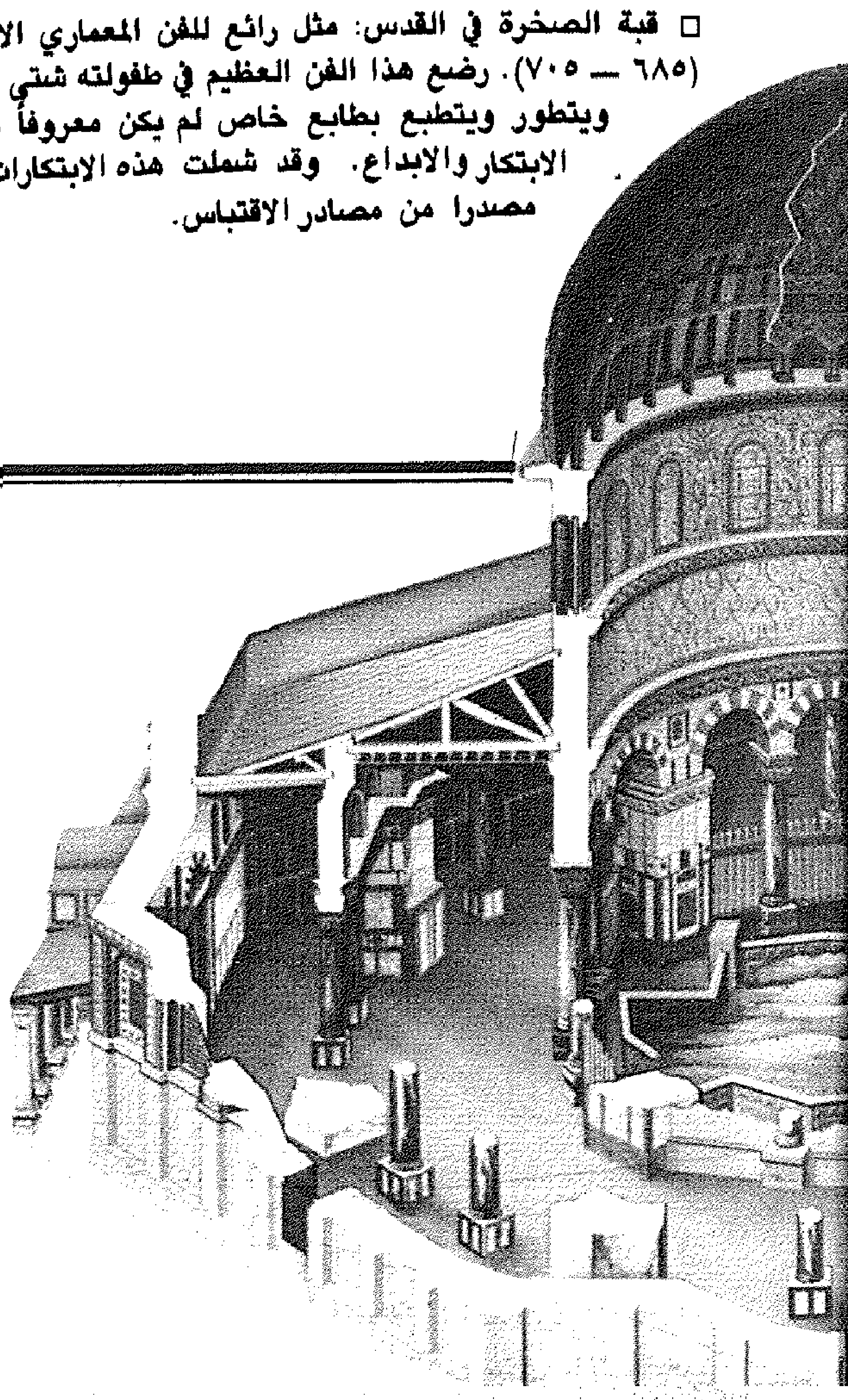
يتضمن الحرم الشريف قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك. وتعتبر هذه الأماكن الاسلامية مقدسة لدى جميع الشعوب الاسلامية في العالم. هذا وقد ورد ذكر المسجد الأقصى في القرآن الكريم. قال سبحانه وتعالى «بسم الله الرحمن الرحيم.. سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» صدق الله العظيم. وورد اسم المسجد الأقصى المبارك في الحديث الشريف، قال رسول الله (صلعم) «لا تشد الرحال إلا لثلاث، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا» لهذا تعتبر الشعوب الاسلامية المسجد الأقصى ثاني الأماكن المقدسة بعد المسجد الحرام في مكة المكرمة. ووصف الرحالة العرب والأجانب المسجد الأقصى وذكروه في كتبهم. فمثلاً وصفه الرحالة والصحفي الأجنبي (Vincent Sheean) قائلاً: «إن المسجد الأقصى أعظم بناء في العالم»[١]. وأضاف قائلاً في كتابه عن حياته الشخصية[٢] إن هذا المسجد مهم لكل الشعوب الاسلامية في العالم.

كان قد تمّ بناء قبة المشرفة زمن الخليفةالأموي عبد الملك بن مروان وذلك بتاريخ ٧٢ هجرية الموافق ٧٠٣ ميلادية. أما المسجد الأقصى فقد تم بناؤه في زمن ابنه الوليد بن عبد الملك بتاريخ ٧٤ هجرية الموافق ٧٠٥ ميلادية. وتعتبر أعمالهم هذه من أهم الأعمال الدينية التي أنجزت في عهد هؤلاء الخلفاء من بني أمية[٣].

حدثت تصدعات وتشققات في بناء الحرم الشريف نتيجة الزلازل وتيارات العوامل الجغرافية عبر التاريخ. لذلك كان الخلفاء والسلاطين الذين تعاقبوا على إدارة هذه البقعة المقدسة منذ زمن بني أمية يقومون بإصلاح وترميم وتزيين (عمل ديكور) على المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة. وكا الهدف من عملهم هذا هو لصيانة هذه الأماكن المقدسة من الدمار أولا، ثم لكي يثبتوا لشعوبهم أنهم حُماة الديار المقدسة. ونستطيع الآن مشاهدة اسماء السلاطين والخلفاء والملوك الذين قاموا بهذه الاصلاحات على جدران المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، وكذلك على أبنية مختلفة في

□ قبة الصخرة في القدس: مثل رائع للفن المعماري الاسلامي ايام الخلافة الاموية، امر ببنائه الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ـــ ٧٠٥). رضع هذا الفن العظيم في طفولته شتى الألبان من هيلينية ورومانية وبيزنطية، واخذ ينمو ويتدرج ويتطور ويتطبع بطابع خاص لم يكن معروفاً من قبل، ويتخذ لنفسه شخصية قائمة بذاتها قادرة على الابتكار والابداع. وقد شملت هذه الابتكارات جميع انواع الفنون. وغدت الفنون الجميلة الاسلامية مصدرا من مصادر الاقتباس.

د. تيسير جبارة



القدس الشريف. وهؤلاء السلاطين والخلفاء هم أمويون وعباسيون وفاطميون وأيوبيون ومماليك وعثمانيون.

وعندما انتصر الانجليز على الأتراك في الحرب العالمية الأولى، أصبحت فلسطين تحت النفوذ ثم الانتداب البريطاني. وفي بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين نزل ايرنست ريتشموند في القدس، وهو انجليزي وعضو في المعهد الملكي البريطاني للآثار، وأصبح فيما بعد مستشار الشؤون العربية في زمن صموئيل. قام ريتشموند بفحص المسجد الأقصى وتوصل إلى نتيجة أن المسجد بحاجة ماسة إلى ترميم وإعمار وإصلاح في أماكن كثيرة من الجدران. ووجد أن المواد الملصقة على الجدران بحاجة إلى ترميم لأنها بدأت في التلف. ثم قرر ريتشموند دعوة المهندس الأرمني اوهانسان لكي يأتي من دمشق للقدس وذلك لكي يقوم بإصلاح وإعادة بناء المربعات التي تكسرت على جدران المسجد والتي كانت تعطي رونقاً رائعا للمسجد»(٤).

وكتب هاري لوك ـــ حاكم مقاطعة القدس ـــ بتاريخ ٢/١١/١٩٢٠م رسالة إلى السكرتير العام في القدس قائلاً إنه بحث مع المفتي الأكبر (الشيخ كامل الحسيني) مسألة جمع الأموال للقيام بعملية اصلاح قبة الصخرة المشرفة، وقد أعجب لوك بالنداء الذي كتبه المفتي الأكبر للمسلمين في العالم، ونصحه باعادة طبعه ونشره وقال إنه على المفتي الأكبر أن يشكل لجنة اسلامية تقوم بتوزيع هذا النداء، وأضاف لوك قائلاً للسكرتير العام «إنه من المفيد جداً أن ينشر هذا النداء إلى المحمديين في مصر بواسطة شيخ الأزهر.. وأن المفتي الأكبر الذي بحث معه هذا الأمر مستعد لنشر هذا النداء»(٥).

وبعد وفاة الشيخ كامل الحسيني أصبح الحاج أمين مسؤول الشؤون الدينية في فلسطين وذلك عندما أصبح «مفتي القدس» و«رئيس المجلس الاسلامي الأعلى». لذلك قام الحاج أمين بأول اعماله الدينية العمرانية بأن قرر العمل على ترميم واصلاح الحرم الشريف وخاصة قبة الصخرة المشرفة. وكما يبدو أن ريتشموند هو أول من شجع الحاج أمين على القيام بهذا العمل وأن ريتشموند نفسه كان مهتما بهذا الأمر، والدلالة على ذلك نستخلصه من رسالته الى السكرتير العام التي أرسلها بتاريخ

٣/١/١٩٢٤م، وقد وصف في رسالته الحالة السيئة التي وصلت اليها قبة الصخرة المشرفة وأنها لذلك بحاجة إلى اصلاح وترميم وأضاف قائلاً: «قام معماري ألماني بتقديم تقرير عن هذا الموضوع قبل الاحتلال البريطاني لفلسطين، وقمت بتقديم تقرير بعد الاحتلال.. سوف يكلف هذا العمل الحاج أمين الحسيني حوالي ٢٥,٠٠٠ جنيه»(٦).

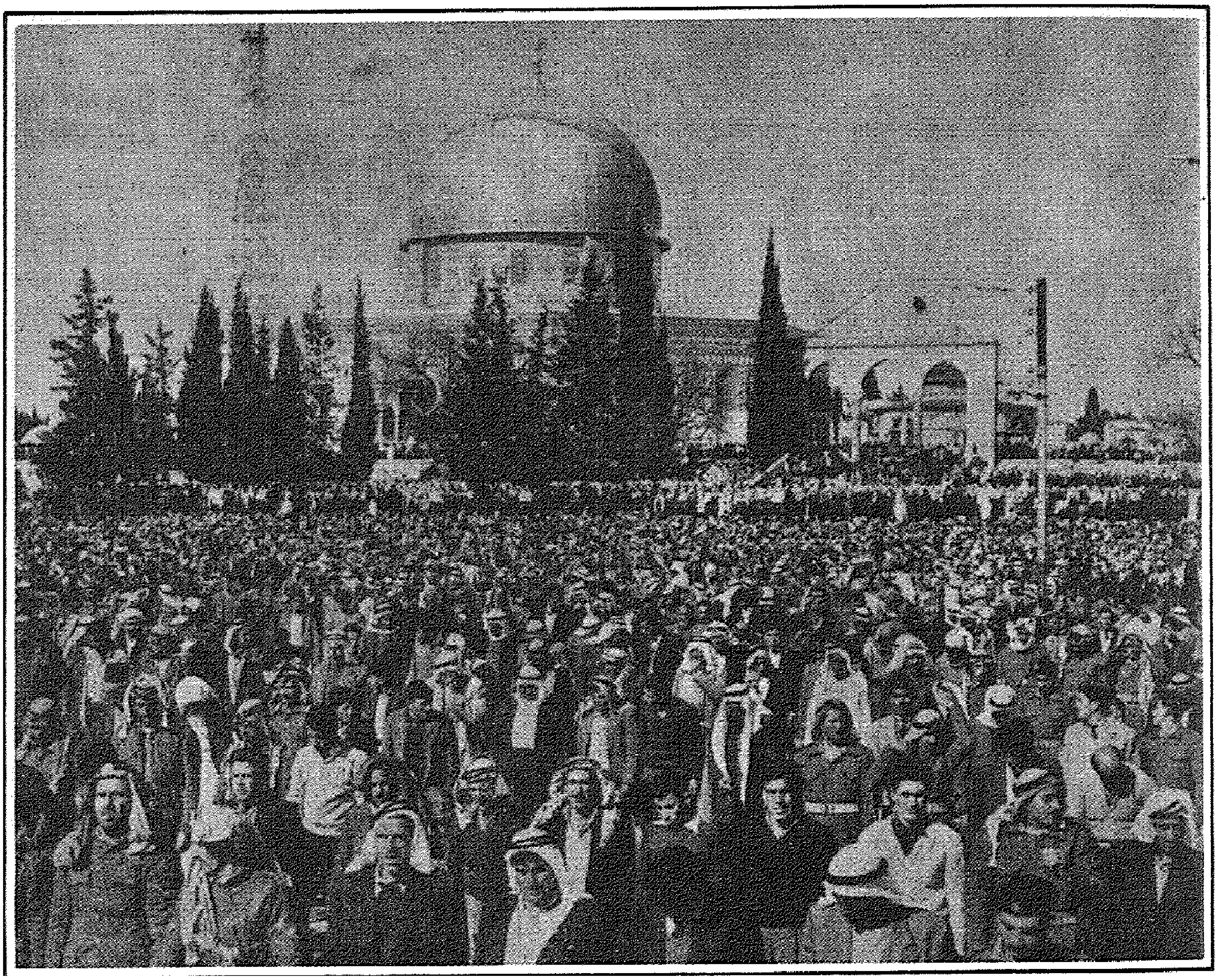
لذلك توجه الحاج أمين الحسيني بنداء إلى العالم الاسلامي طلب فيه المساعدة المادية لإعمار الصخرة المشرفة، وبدأ النداء بذكر آية من سورة الاسراء، ومما جاء في النداء أنه موجه إلى كافة العالم الاسلامي ويذكرهم أن بناء المسجد الأقصى بحاجة ماسة إلى إعمار وأضاف آية من القرآن الكريم «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»(٧) صدق الله العظيم.

استشار الحاج أمين الحسيني المهندس التركي(٨) المسلم كمال الدين وهو مشهور في تركيا، وطلب منه القدوم إلى القدس وذلك في عام ١٩٢٢م لدراسة الوضع. وعندما وصل المهندس التركي للقدس وفحص المسجد الأقصى أعطى موافقته للقيام بهذا المشروع الاسلامي فشكل لجنة من خمسة مسلمين هم: نهاد بيك، وجمال الدين بيك، وحسني بيك وكلهم من تركيا، ورشدي الامام الحسني من القدس. وترأس كمال الدين هذه اللجنة(٩).

ثم قام كمال الدين بدعوة اثنين من المهندسين الألمان للتوقيع معهم على عقد العمل ليقوموا بالأعمار والترميم في المسجد الأقصى ولكنه لم يستطع التوصل إلى نتيجة معهما وألغى العمل مع الألمان وذلك بسبب الشروط التي وضعوها وهي أن يكون جميع المهندسين من ألمانيا وطلبوا أيضا زيادة ١٧٪ من النقود. لذلك قرر كمال الدين توقيع عقد عمل مع مقاولين محليين للقيام بهذا المشروع الذي قدرت تكاليفه بحوالي ١٥٠,٠٠٠ جنيه(١٠).

كان الحاج أمين يعلم أن هذا المبلغ لم يكن متوفرا لديه لتغطية مصاريف المشروع، لذلك قام بإرسال وفود اسلامية إلى الهند ودول اسلامية اخرى لجمع إعانات لإعمار الحرم الشريف وذلك لأن ميزانية الأوقاف لا تكفي لانجاز المشروع(١١). وكان قد نصحه وشجعه بإرسال هذه الوفود رئيس الجمعية الاسلامية المسيحية بالقدس السيد .عمر البيطار، ثم. ترأس الحاج أمين بنفسه وفداً إلى الهند وسوريا والعراق ومصر، ونشط في جمع الاعانات لتغطية مصاريف المشروع وتوقع ان يعطيه هذا المشروع شهرة عالمية في جميع العالم الاسلامي. أضف الى ذلك أن النداء الذي وجهه المفتي للعالم الاسلامي استطاع اعطاءه شهرة عالمية وبناء صداقات قوية مع رؤساء الدول الاسلامية وأعتُبر رئيس فلسطين العربية الاسلامية(١٢). وعن هذه الوفود الاسلامية كتب هربرت صموئيل إلى سكرتير وزارة المستعمرات بتاريخ ١١/٨/١٩٢٢م أن الوفد الذي ذهب للحجاز تدخل في السياسة وانه هاجم سياسة بريطانيا في العالم الاسلامي(١٣).

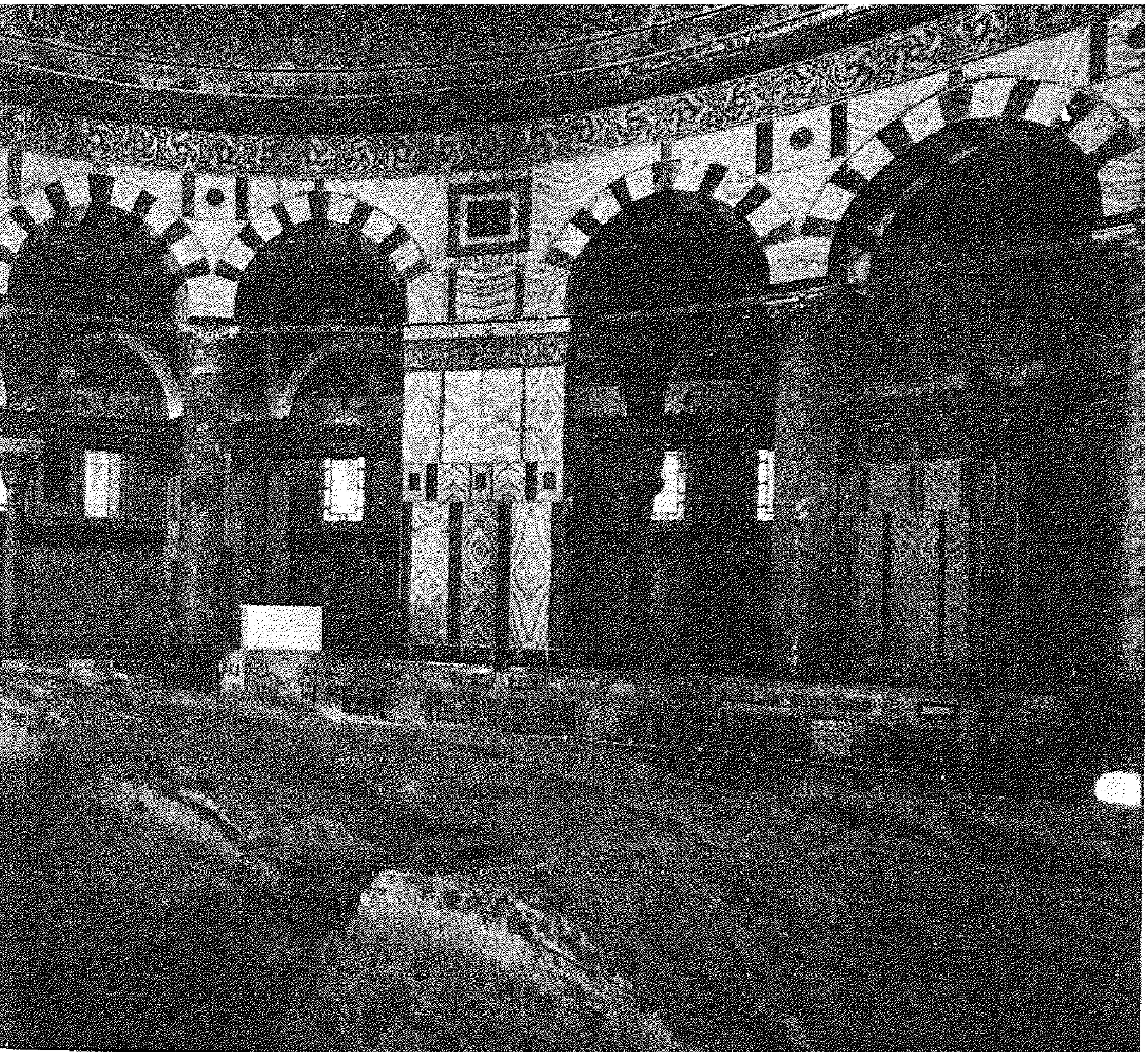
ذهب الحاج أمين الحسيني ومعه كمال الدين التركي إلى القاهرة بتاريخ ١/٢/١٩٢٣م «وذلك بغرض الاستفادة من الاجراءات التي عملتها تلك البلد فيما يخص صيانة الآثار الخاصة بالفن العربي وكذلك لتأسيس متحف للآثار العربية ومكتبة الآثار الخاصة بالفن العربي وكذلك لتأسيس متحف للآثار العربية ومكتبة للأدب العربي»(١٤). ولكن المفتي لم يحصل من مصر على كل ما أراد. وفي صيف نفس العام تراس الحاج أمين وفداً ثانياً إلى القاهرة(١٦)، وذلك لنفس الغرض. وكانت التحريات الانجليزية تراقب نشاط المفتي، لذلك أرسل اللنبي رسالة الى صموئيل في القدس بتاريخ ١٦/٦/١٩٢٣م اخبره بها عن نشاط المفتي في مصر وأضاف قائلاً انه لا يستطيع مساعدة المفتي في مثل هذه الظروف السياسية الحاضرة وأضاف اللنبي «.. لذلك أخبرت سماحته بما أن هدف النداء ديني وتاريخي ومعماري فإنني لا أستطيع مساعدته، ولكنني أكدت للمفتي الأكبر تعاطفي معه وأنني سوف أساعده حسب استطاعتي بطريقة الاعلانات في الجرائد المحلية ليلقى نداؤه الدعم الكامل»(١٧). وكان الجنرال كلايتون قد بعث برسالة للجنرال اللنبي بتاريخ ٢٨/٦/١٩٢٣م أخبره فيها بمحاولة تسهيل مهمة الحاج أمين في مشروعه هذا(١٨). وربما كان هدف الجنرالات الانجليز من محاولة



□ المصلون في المسجد الأقصى ومسجد الصخرة بعد تجديدها.

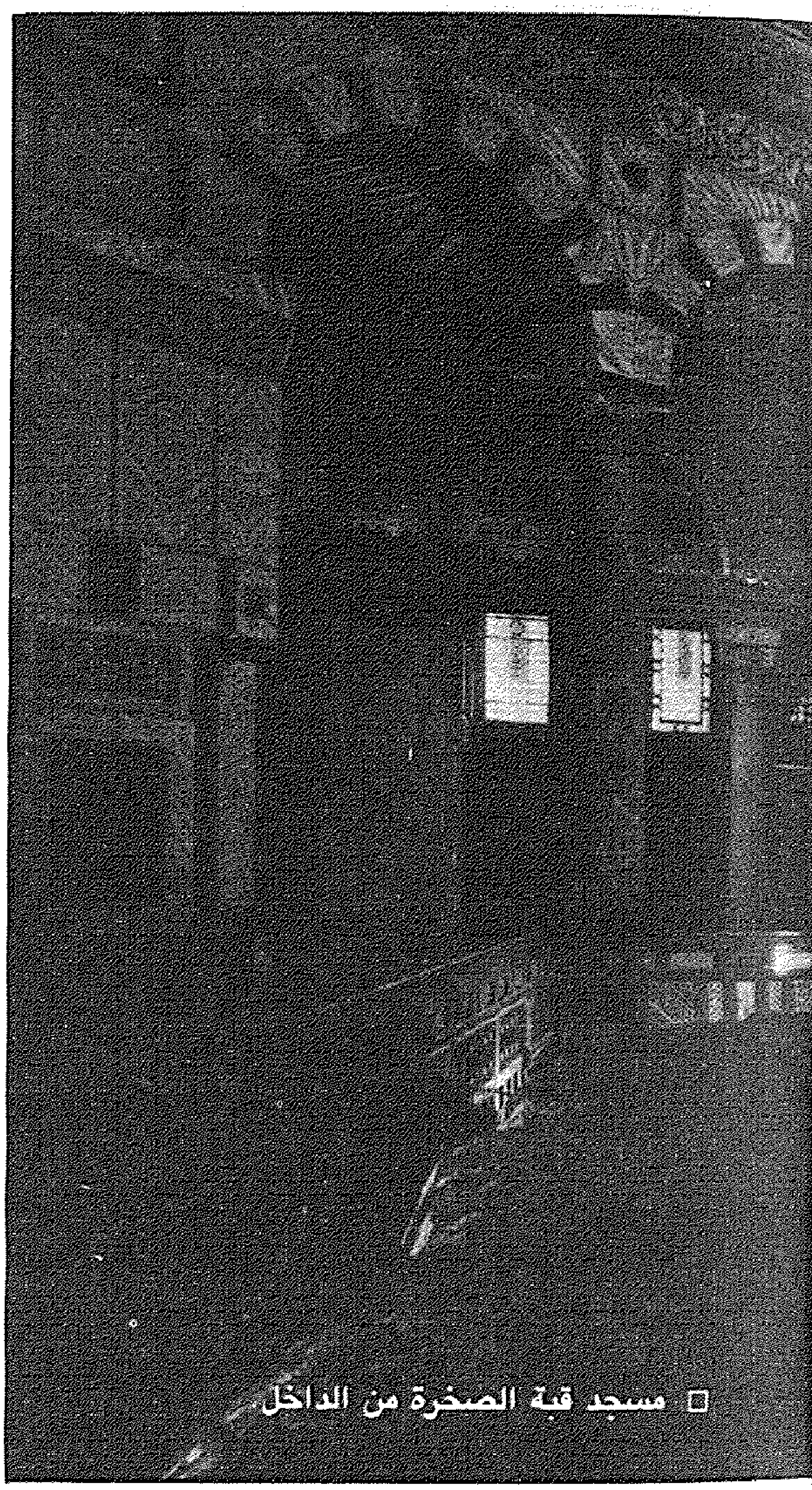
مساعدة الحاج أمين الحسيني، (إذا كان هذا صحيحاً) نشر الدعاية في الهند ومصر عن اهتمام الانجليز بالحفاظ على المقدسات الاسلامية وتعميرها. علماً أن التاريخ أثبت عكس ذلك وبدعاية الانجليز هذه تزداد قبضتهم على المسلمين في الهند ومصر وكافة العالم الاسلامي الذي يرزح تحت الحكم الانجليزي.

أما عن الوفد الفلسطيني إلى الهند فكان مكوناً من الشيخ محمد مراد والشيخ ابراهيم الأنصاري وجمال الحسيني عضو اللجنة التنفيذية. ولكن المندوب السامي صموئيل اعترض على تشكيل هذا الوفد وذلك بسبب وجود جمال الحسيني في الوفد، علماً أن الحاج أمين هو الذي عين جمال الحسيني ليكون عضواً في الوفد الذاهب للهند. وقد ذكر صموئيل أن هذا التعيين هو ضد سياسة الانجليز في فلسطين وخطر عليها[١٩] وكان قد طلب صموئيل من الحاج أمين عدم تعيين جمال الحسيني كعضو في وفد الهند، ولكن المفتي أجاب صموئيل في ١٩٢٣/٩/٢٠م بأن «الوفد سيكون عمله جمع الأموال فقط ولن يتدخل في الأمور السياسية»[٢٠]. وبدأ صموئيل يضع العراقيل امام جمال الحسيني فبعث برسالة إلى وزارة المستعمرات البريطانية بتاريخ ١٩٢٣/٩/١م ناصحاً المسؤولين هناك بالاعتراض على ذهاب جمال الحسيني للهند أو مرافقته الوفد لأنه خطر على السياسة الانجليزية، وخاف صموئيل أن يؤلب جمال الحسيني بنشاطه كل مسلمي الهند على الثورة ضد الانجليز وكذلك لا يريد صموئيل أن يعلم المسلمون في الهند عن فلسطين أي شيء، لذلك طلب صموئيل ايقاف جمال الحسيني ومنعه الاشتراك مع الوفد الفلسطيني[٢١] ولكن الحاج أمين بقي مصمما على ضرورة وجود جمال كعضو في الوفد. ولكي يُقنع صموئيل قام المفتي



وطلب من اعضاء الوفد التوقيع على عدم التدخل في الشؤون السياسية، وقد وقعها الأعضاء وقدمها الحاج أمين لصموئيل وأضاف المفتي لها وثيقة أخرى وهي ضمانه الشخصي والأكيد بأن الأعضاء في الوفد لن يتدخلوا في الأمور السياسية[٢٢]. سافر الوفد للهند ومعه جمال الحسيني، وقام الوفد بنشاط جيد لجمع الأموال لمشروع إعمار وحماية الأماكن المقدسة من التلف، وقد تبرع نظام حيدر أباد بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ لاخ أي بقيمة ٦٧٧١ جنيه[٢٣]. وطلب منه الوفد أن يرسل هذا المبلغ بالطريقة التي يجدها مناسبة إلى المجلس الاسلامي الأعلى.

وهناك وفد آخر ذهب للهند ماراً بسوريا والعراق والكويت، وترأس هذا الوفد المفتي نفسه[٢٤]. وواجه الحاج أمين صعوبة في الحصول على (فيزا = تأشيرة) للعراق من السلطات الفرنسية عندما كان في سوريا[٢٥]. واستطاع الاستفادة من رحلته هذه للهند أن بنى صداقة دائمة مع زعماء الهند المسلمين. ولكن من انزعج من هذه الرحلة هم أولاً: صموئيل الذي طلب من المفتي أن لا يتدخل في الأمور السياسية بل بالأمور الدينية التي تخص المشروع فقط. وثانياً: الكولونيل كيش الزعيم الصهيوني الذي كان قد بعث برسالة إلى ريتشموند بتاريخ ١٩٢٣/١٢/١٤م يخبره بها أنه يعارض



□ مسجد قبة الصخرة من الداخل

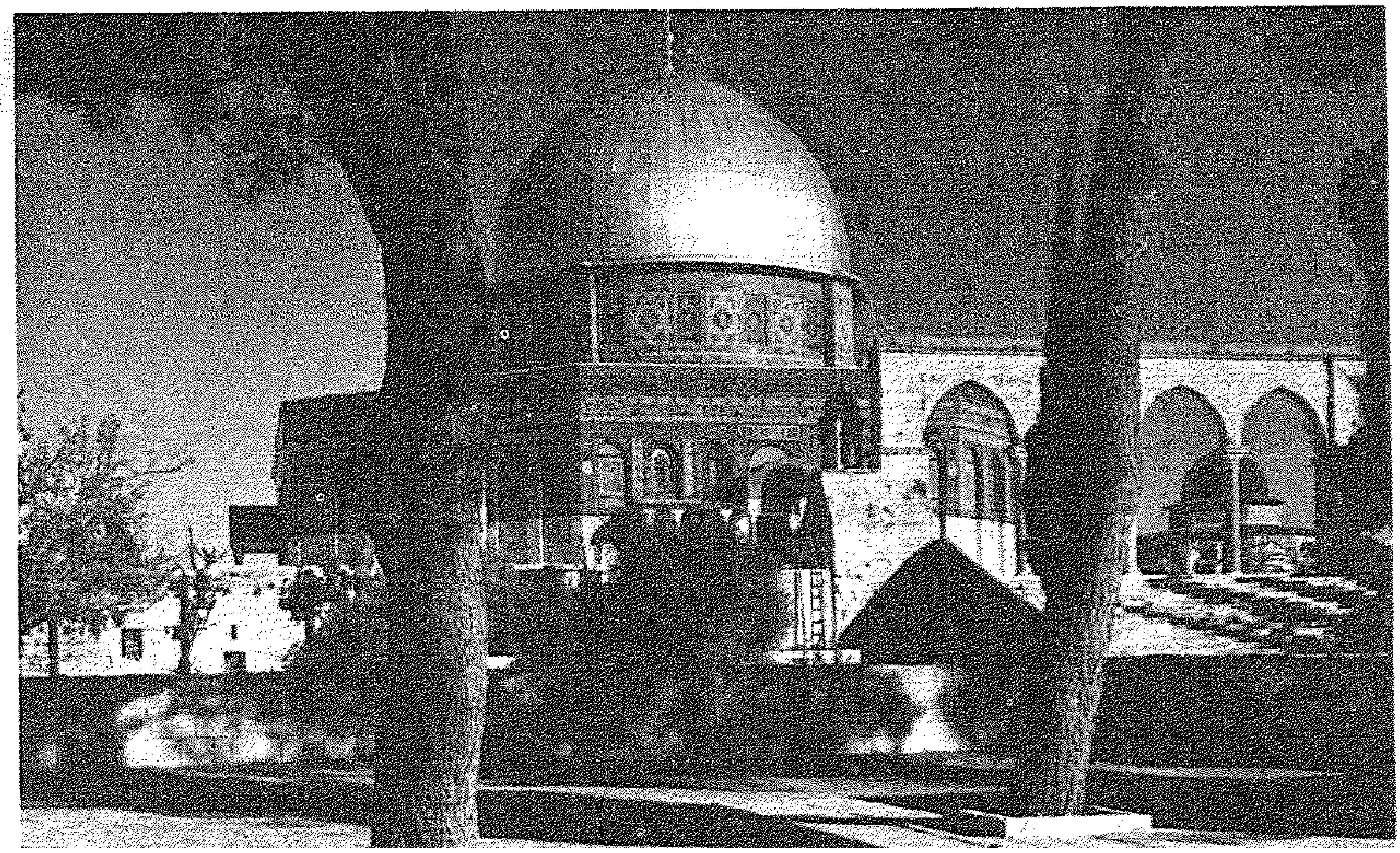
التدخلات السياسية والنشاط السياسي لوفد المجلس الاسلامي الأعلى في الهند[٢٦]. وثالثاً: المعارضون وهم من آل النشاشيبي الذين تهجموا على سياسة الحاج أمين في جمع الأموال لإعمار الحرم الشريف وكانوا يحسدونه بسبب أزدياد شهرته في العالم الاسلامي. وقالوا ان رحلته هذه فاشلة ولم يساعده في هذه الرحلة الا الشريف حسين. وأتهموه بالتصرف غير اللائق في الأمور المالية وأنتقدوه وانتقدوا اعضاء المجلس الاسلامي بسبب حصولهم على معاشات عالية[٢٧].

وكان وفد المجلس الاسلامي الأعلى للهند قد زار الشريف حسين في الحجاز وتبرع الشريف للوفد بمبلغ ١٢,٠٠٠ جنيه، ثم سلم الشريف للوفد ٥٠٠٠ جنيه كان قد تبرع بها الشعب في الحجاز لمشروع إعمار الحرم الشريف[٢٨]. وكان الوفد الاسلامي الأعلى قد سلم الشريف حسين هدية ثمينة، ثم أيدوه ليصبح خليفة المسلمين. وهناك طرق أخرى اتبعها الحاج أمين للحصول على الأموال لدعم مشروعه، عدا عن جمع الأموال من الدول الاسلامية بواسطة الوفود، حيث طلب من الحكومة رسميا في ١٧/٤/١٩٢٤م في رسالة منه الى السكرتير العام في القدس أن توافق الحكومة على فرض دفع ضريبة على كل وثيقة توقعها المحاكم الشرعية، وأن تدفع هذه الأموال إلى لجنة اعمار المسجد الأقصى[٢٩].

اعتقد الحاج أمين أن الفلوس التي جمعها من العالم الاسلامي وكذلك رصيد ميزانية الأوقاف، كل ذلك يكفي لتحقيق مشروع الاعمار. لذلك بدأ المفتي في مشروع آخر هو بناء «فندق الأوقاف» في شارع مأمن الله في القدس، وقد خصص دخل هذا الفندق لدعم مشروع اعمار المسجد الأقصى. وكان الفندق مؤلفا من ١٣٦ غرفة. وكان يظن المفتي ان دخل الفندق سيكون حوالي ٦٠٠٠ جنيه سنويا[٣٠]. وكان تفكير المفتي من ناحية تجارية في بناء الفندق، وتأكيدا لكلامنا هذا بنى الحاج أمين مخازن (حوانيت) في الطابق الأرضي ثم أقام عليها بناء الفندق، وخصص دخل هذه الحوانيت لمشروع اعمار المسجد الأقصى، وظن أن كل هذا الدخل سيكون دخلا جيدا[٣١].

أخطأ المفتي في تقدير حساباته كما كتب دروزة، لأنه صرف حوالي ٧٠,٠٠٠ جنيه لبناء هذا الفندق[٣٢]. واحتاج لجمع هذا المبلغ بأنه استدان ٣٠,٠٠٠ جنيه من البنك العثماني و١٢,٠٠٠ جنيه من خزينة الأوقاف. لذلك واجه المفتي مشكلة مالية بسبب مشروع بناء الفندق.

استمر اعمار الحرم الشريف خمس سنوات، ودعا المفتي كثيرا من الشخصيات الاسلامية في العالم الاسلامي وكذلك بعض الانجليز لحضور حفل الافتتاح (التدشين) الذي تم في ٣٠/٨/١٩٢٨م. وألقى الحاج أمين وريتشموند وهاري لوك خطبا في حفل التدشين (الافتتاح). ذكر المفتي في خطابه وأسهب عن المشروع، وشكر كل الذين قدموا المساعدة المادية وخاصة



□ قبة الصخرة في القدس.

الملك حسين (شريف مكة) الذي تبرع أكثر من اي شخص للمشروع[٣٣]. وبلغت جميع التبرعات ٩٤,٩٥٢ جنيه[٣٤] ثم استمرت تتدفق التبرعات حتى بعد نهاية المشروع. وعن التبرعات ومقدارها كتب المؤرخ الفلسطيني عارف العارف في كتابه «الصخرة المشرفة» أسماء المتبرعين والمبلغ الذي تبرعوا به للمشروع وهم:

	جنيه
الملك حسين وشعب الحجاز	٣٨,٧٦١
المجلس الاسلامي الأعلى	١٦,٤٧٨
الملك فاروق وشعب مصر	١٠,٣٠٧
الهند	٩,٢٠٧
طاهر سيف الدين ـــ الهند	٧,٨١٢
نظام حيدر آباد ـــ الهند	٦,٧٧١
الملك فيصل وشعب العراق	٦,٢٠٧
فلسطين	٤,٢٣٢
البحرين	٢,٦٨٢
الكويت	١,٣٦٣
محمرة	٠,٦١٣
سوريا	٠,٣٣٩
الفلسطينيون في الولايات المتحدة	٠,١٦٤
تركيا	٠,٠٢٠

تمّ مشروع الاعمار في عام ١٩٢٨م، ولكن حصل زلزال في فلسطين بتاريخ ١٩٢٧/٧/١١م ولكنه لم يؤثر كثيرا على البناء، بل كان خفيفا كما صرح بذلك رشدي الامام الحسيني[٣٥]. وقد تم اصلاح آثار الزلزال عام ١٩٣٦م.

هذا وقد أسس المفتي في ساحة الحرم الشريف متحفا اسلاميا ومكتبة اسلامية، وشكل في عام ١٩٣٥ لجنة اسلامية للحفريات. ●

هوامش

(١) Vincent Sheean: Personal History. Doubleday, Doran and Co., Inc., Garden City, N.Y. 1934. p. 46-8. See also; Ronald Storrs: Orientations, p. 326.

(٢) نفس المصدر Ibid.

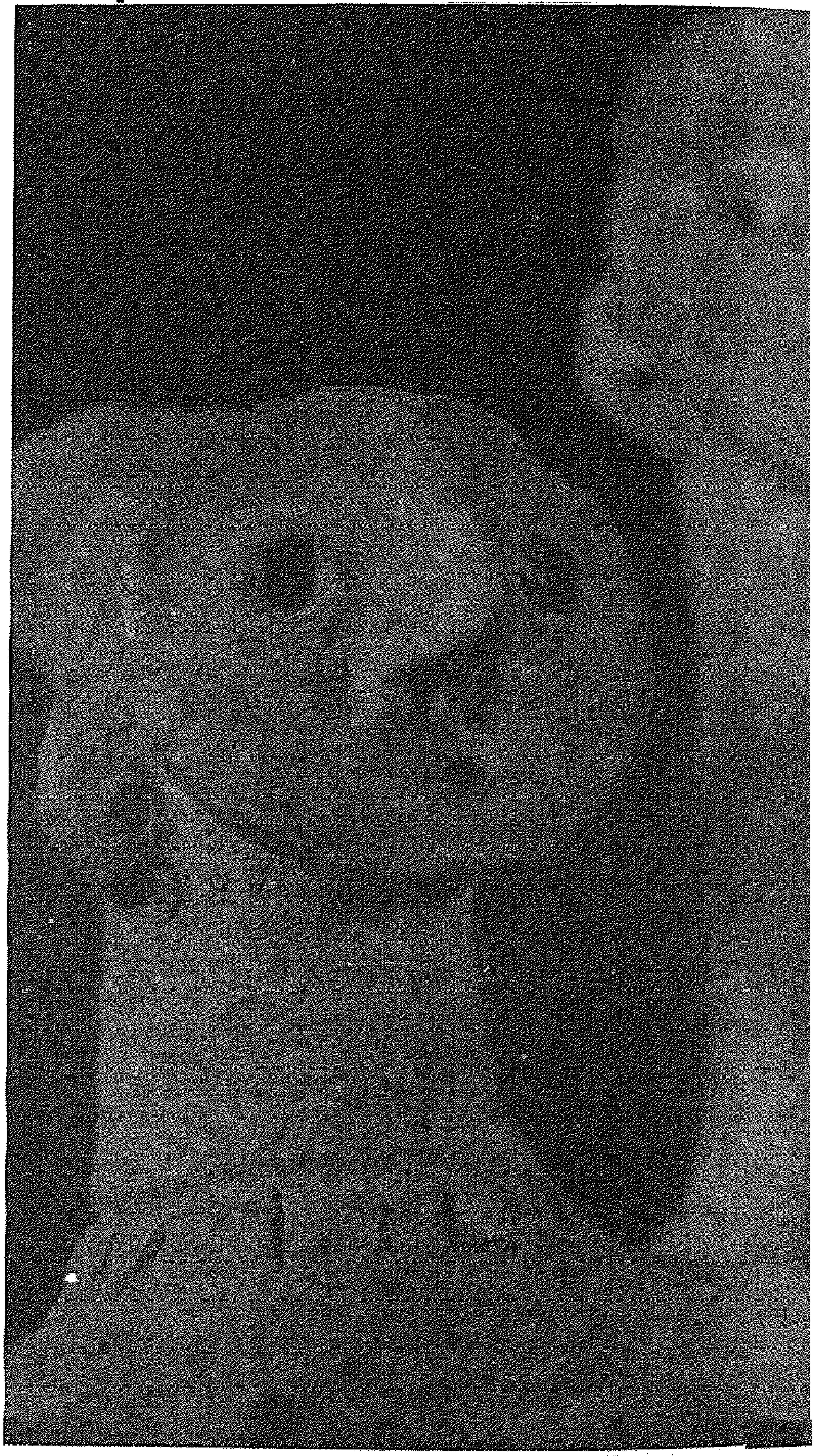
(٣) عارف العارف: الصخرة المشرفة والأماكن الاسلامية الأخرى في الحرم الشريف في القدس. المطبعة التجارية، القدس، ١٩٥١، صفحة ٢٢ (الكتاب باللغة الانجليزية). وانظر أيضاً:
Harry Luke: The Handbook of Palestine and Transjordan. MacMillan and Co., Ltd., London, 1934, p. 34, 117-119, See also: Ernest Richmond: The Dome of the Rock, Clarendon Press, Oxford, 1924.

(٤) نفس المصدر، صفحة ٤٦.
(٥) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733-56، انظر أيضاً أرشيف الوكالة اليهودية ملف رقم ١٨٤.
(٦) أرشيف الوكالة اليهودية، ملف رقم ١٨٤.
(٧) نفس المصدر، انظر كذلك أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية ملف رقم CO733/56.
(٨) ارشيف وزارة المستعمرات ملف رقم CO733/62. رسالة من صموئيل إلى تشكبيرغ تاريخ ١٩٢٣/٧/١٩م موضوعها «إعمار الحرم الشريف».
(٩) بيان المجلس الاسلامي الأعلى عن عمارة قبة الصخرة المشرفة. أرشيف مكتبة المسجد الأقصى، صفحة ٤ انظر ايضاً عارف العارف: قبة الصخرة المشرفة. صفحة ٨٦، كمال الدين كان يعمل مهندساً في جامعة اسطنبول. انظر ايضاً مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين. الجزء العاشر، صفحة ٢٧٥.
(١٠) ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733/62. رسالة من صموئيل إلى شكبيرغ بتاريخ ١٩٢٣/٧/١٩م.
(١١) جريدة فلسطين عدد رقم ١٠/٤٦٩ بتاريخ ١٩٢٢/٤/٤م.
(١٢) اوراق تيجارت الخاصة، محفوظة في جامعة سانت انطوني في اوكسفورد. صندوق رقم ١ ملف ١٢.
(١٣) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733/73. من صموئيل إلى سكرتير الدولة في ١٩٢٤/١١/٩م.
(١٤) نفس المصدر. ملف رقم CO733/43. رسالة من صموئيل إلى سكرتير الدولة بتاريخ ١٩٢٣/٣/٩م.
(١٥) أرشيف الوكالة اليهودية ملف رقم ١٨٤.
(١٦) أوراق تيجارت الخاصة محفوظة في جامعة سانت انطوني في اوكسفورد.
(١٧) أرشيف الوكالة اليهودية، ملف رقم ١٨٤.
(١٨) نفس المصدر. ربما تكون هذه الوثائق غير صحيحة في الأرشيف اليهودي. ترقبوا كتابي «الوثائق الفلسطينية في الأرشيف اليهودي».
(١٩) ملف وزارة المستعمرات رقم CO733/56. وثيقة بعنوان «الوفد الاسلامي للهند لجمع الأموال للحرم الشريف». الوثيقة مؤرخة في ١٩٢٣/١٠/٢م.
(٢٠) نفس المصدر. برقية من حاكم الهند الانجليزي الى وزارة المستعمرات بتاريخ ١٩٢٣/١٠/٥م.
(٢١) نفس المصدر.
(٢٢) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية ملف رقم CO733/56. برقية من حاكم الهند الانجليزي إلى وزارة المستعمرات بتاريخ ١٩٢٣/١٠/٥م.
(٢٣) نفس المصدر ملف رقم CO733/81. التقرير السياسي لشهر سبتمبر عام ١٩٢٤م.
(٢٤) نفس المصدر ملف رقم CO733/67. التقرير السياسي لشهر ابريل ١٩٢٤/٤/١٨م.
(٢٥) نفس المصدر ملف رقم CO733/68.
(٢٦) F.H. Kisch: Palestine Diary. Victor Gollanos Ltd., London, 1938, p. 87.
«كان كيش رئيس المنظمة الصهيونية في فلسطين من عام ١٩٢٣ ــ ١٩٣١».
(٢٧) جريدة مرآة الشرق عدد رقم ٣٤٦ بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢٤م. ناطقة باسم المعارضين.
(٢٨) جريدة الكرمل، عدد ٩٣٤ تايخ ١٩٢٣/٩/١٢م.
(٢٩) مقابلة مع الشيخ عبد الحميد السائح بتاريخ ١٩٨٠/٧/١٨م في عمان.
(٣٠) دروزة: تسعون عاما في الحياة. صفحة ١٢٢، انظر ايضا ارشيف مكتبة المسجد الاقصى «بيان المجلس الاسلامي الأعلى» صفحة ٨.
(٣١) نفس المصدر.
(٣٢) نفس المصدر. قابل مفتي القدس ومفتي حيفا والدجاني، المستر أمري (السكرتير البريطاني لوزارة الخارجية في ١٩٢٥/٥/١م وشكروه على زيارته للحرم الشريف، وطلب الحاج أمين من آمري تشكيل دولة فلسطين المستقلة وان يعامل العرب في الحقوق والعدالة كما يعامل الانجليز اليهود. فأجابهم آمري «لا يوجد هناك أية نية فيما يخص الانجليز عن هذا البلد بتحطيم العرب أو اللغة او الاقتصاد لمصلحة اليهود، ولا توجد اية نية لخلق وطن قومي لليهود على حساب سكان فلسطين ولا يوجد عندي اي شك أن المسلمين سيبقوا دائماً هم الاكثرية في هذا البلد».
انظر ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية ملف رقم CO733/102 تاريخ ١٩٢٥. مقابلة مع المفتين.
(٣٣) ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733/160/112 وثيقة رقم ٥٧٥٢٧ من هاري لوك إلى سكرتير الدولة البريطانية المستر آمري رقم الرسالة ٨٧٥ بتاريخ ١٩٢٨/٨/٣٠م.
(٣٤) جريدة الجامعة العربية بتاريخ ١٩٢٨/٨/٣٠م.
(٣٥) جريدة الجامعة العربية عدد رقم ٥١ بتاريخ ١٩٢٧/٦/٢١م.



ثمة حدث عالمي: في توبكابي، وقصور البوسفور، تعرض حتى الثلاثين من تشرين الأول، معروضات رائعة، تتناول حقبة زمنية كبيرة جداً، إذ تبدأ بالعهد الحثي، وتنتهي بآخر سلاطين عثمان. إنه وارث عظيم وأساسي.

□ كانت المرأة في العهد البرونزي نموذج الفن والدين هاتان المرأتان نموذجان على فن تلك المرحلة. الأولى: تمثال من الفضة. الثانية تمثال فخاري.



عشرة آلاف سنة من الحضارة تعرض في إسطنبول

إنعام الجندي

كان اليونان يسمون تركيا: «البلاد التي تشرق منها الشمس». إنها هضبة ضخمة، أكثر اتساعا من فرنسا. وعالم مستقل بذاته، من موانىء بحر إيجه المتالقة بالضياء إلى الجبال العالية الرطبة في المناطق الشرقية، مرورا بالبوادي، والبحيرات الداخلية في الوسط، حيث الكابادوس «ودروب الجنيات».. الأناضول: إنه مسرح العالم حيث تختلط حضارات شعوب، وتتعاقب وتتناقض أو تتلاقى، أزمان طويلة.

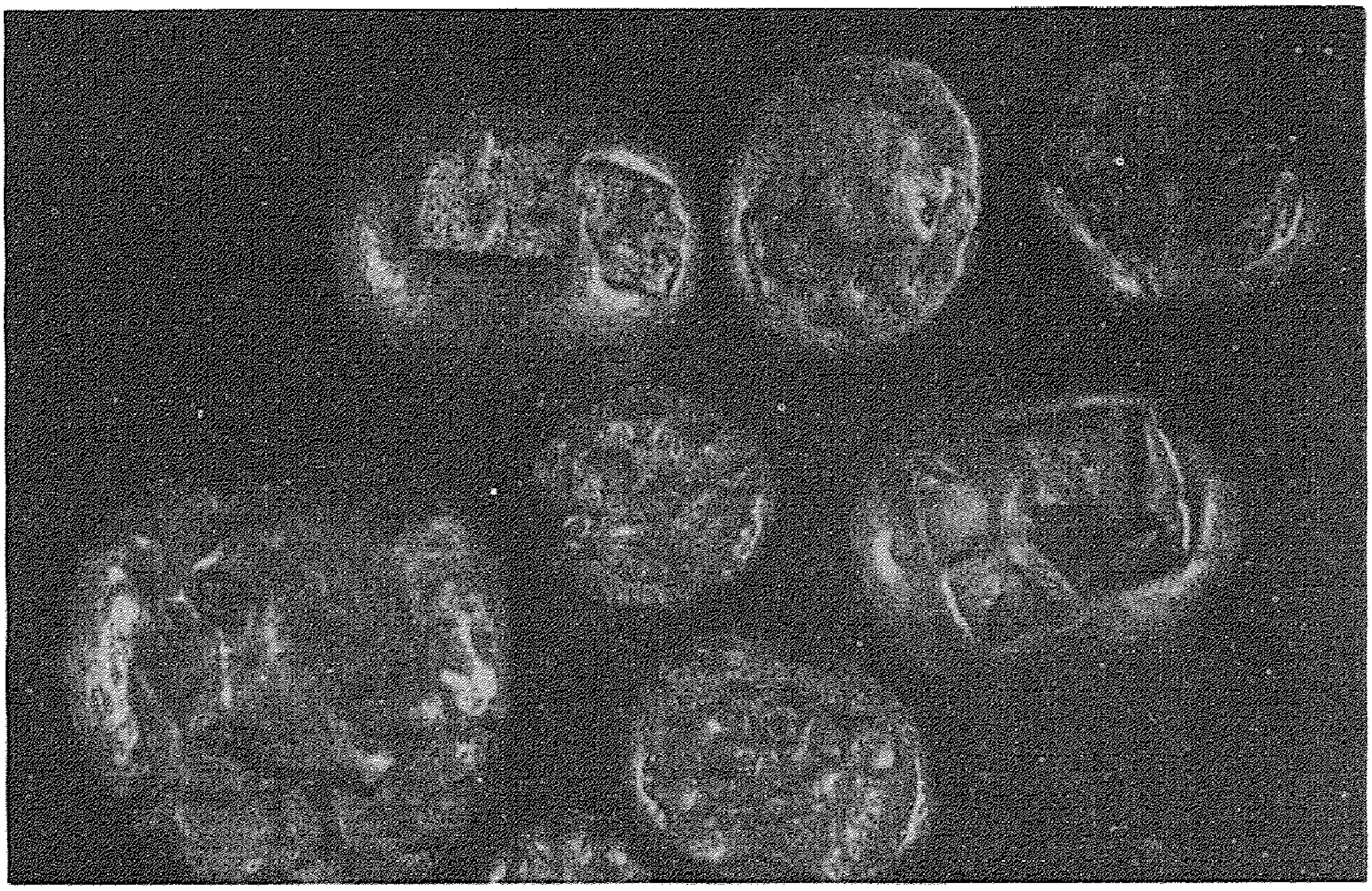
في قلب الأناضول نشأت المدينة.

بدأ كل ذلك في العصر الحجري، حين اكتشف الانسان زراعة النباتات، وتدجين الحيوانات. مضت تسعة آلاف سنة على ظهور أول مجمع سكني ببيوته المبنية بالقرميد، على بعد كيلومترات إلى الجنوب من قونية، حيث تقوم اليوم ساتال هويوك. كانت مجمعاً لا شوارع له. يعبر المرء فيه من سطح إلى سطح، وينزل من السطح إلى قلب البيت. وكان ناس ذلك المجمع يقدسون القوى الخصبة: الثور، او إلهة البحر التي تهيمن على الأرض، والنبات، والحيوانات البرية.

الألف الرابع منعصرنا: يبدأ العهد البرونزي في الأناضول، وهذه مدينة طروادة حيث كنز بريام الأسطوري الذي اكتشفه شليمان. طروادة، المركز المتقدم لصناعة المعادن التي تنقل إلى اوروبا، حيث يسعى الطرواديون للحصول على القصدير الذي نضب لديهم، راحوا يسوقون البرونز إلى سوريا، في الألف الثالث، قبل أن يعلموه أهل البقان، ومن هناك انتقل إلى اوروبا



□ عهد طروادة: أيل؛ وثور من البرونز. (النصف الثاني من الألف الثالث).



عملة من القرن السابع قبل المسيح وجدت في إيفين.

تعرض هذه الوثيقة التاريخية المأخوذة من مذكرات ايدن، للموقف البريطاني الرسمي من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهي نظراً لصدورها عن المسؤول البريطاني الأول في شن الحرب الثلاثية على مصر عام ١٩٥٦، تشير بوضوح إلى مقدمات هذه الحرب وعواملها الكامنة في انفجار التناقض بين الاصرار البريطاني على استمرار نفوذ بريطانيا الاستعماري في مصر عبر نظام فاروق وسيطرتها على القنال ونهبها لثروات الشعب المصري، من جهة، وبين إصرار جمال عبد الناصر قائد الثورة، على تصفية ركائز الاستعمار وتحرير الشعب من قيود التبعية للاستعمار الانكليزي آنذاك. تلك هي صورة الوضع آنذاك تنقلها شهادة ينطق بها المستعمرون أنفسهم.



منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية، جرت عدة محاولات لاعادة النظر في المعاهدة الانجليزية المصرية المعقودة في سنة ١٩٣٧، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل.

وكان الشعور العام في مصر شعورا بالاستياء نتيجة لحرب فلسطين ولتصرفات الملك فاروق ولانتشار الرشوة والفساد في قلب حزب الوفد. ولما تحدى الدكتور مصدق بريطانيا في سنة ١٩٥١ شجع تصرفه المصريين على التمرد. فقد حدث في اكتوبر من ذلك العام أن أعلن النحاس باشا الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، مع أنه كان باقياً ٥ سنوات لانتهائها.

وكان المتطرفون من المصريين قد بدأوا قبل ذلك موجة من الأعمال الارهابية ولا سيما في منطقة قناة السويس التي كانت ترابط فيها القوات البريطانية بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦.

أزمة السودان

وكانت الحكومة المصرية قد ألغت كذلك في اكتوبر من ذلك العام الاتفاق الثنائي المعقود في سنة ١٨٩٩ بشأن السودان، وأعلنت أن فاروق أصبح «ملك مصر والسودان». لم أوافق على ذلك التصرف وقلت وقتئذ أمام مجلس العموم أن من حق الشعب السوداني أن يقرر مصيره بنفسه وأن يحدد علاقته مع كل من مصر وبريطانيا.

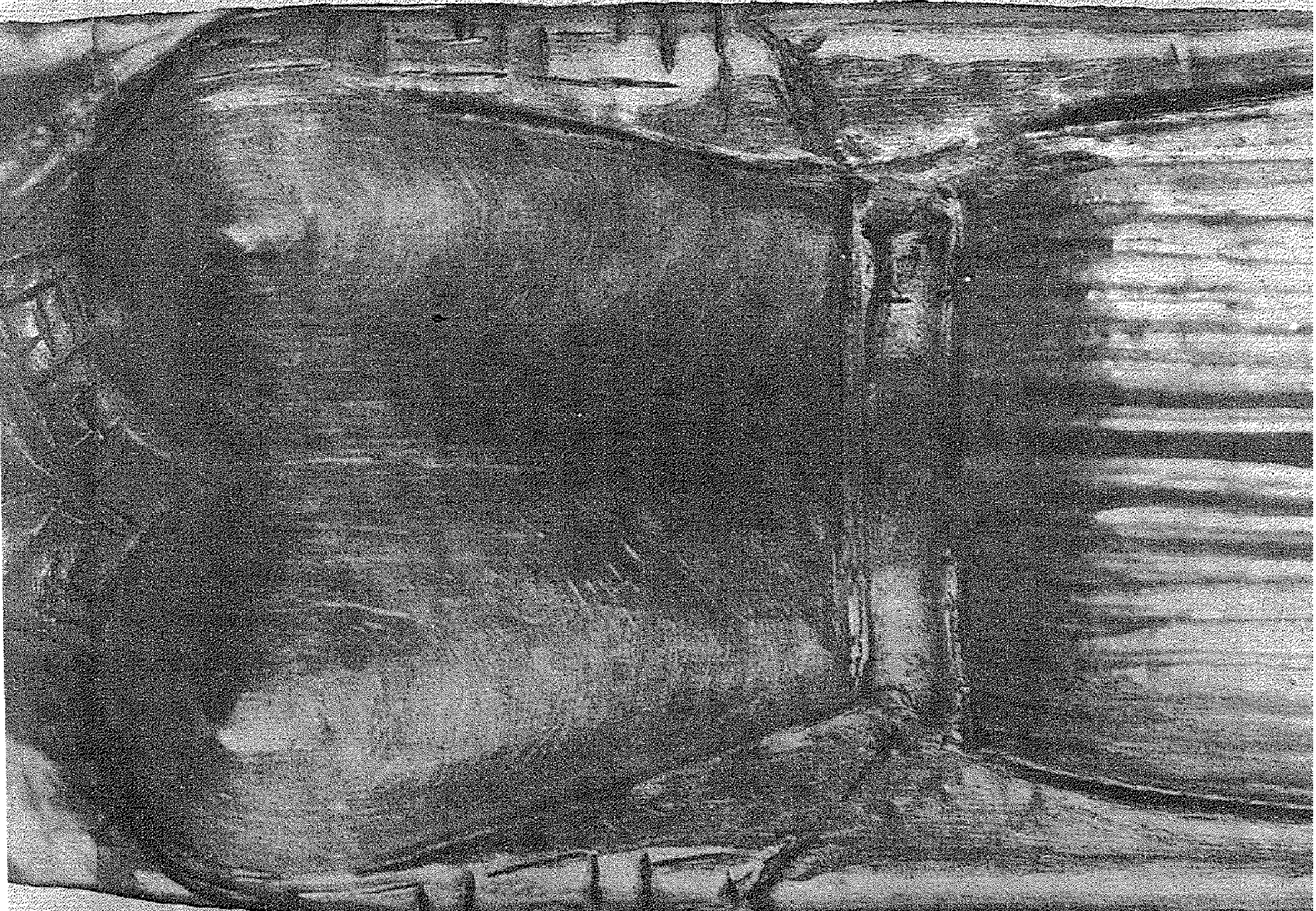
وبالرغم من هذا الايضاح عاد السفير الاميركي مرة أخرى وطلب أن تعترف بريطانيا بفاروق كملك لمصر والسودان، ولكني أوضحت له أن بريطانيا لا تستطيع أن تتخلى عن موقفها من مسألة السودان.

الغربية قبل ١٨٠٠ سنة من عصرنا.

في القرن الثالث كذلك، عبرت قبائل اناضولية إلى كريت، ليستقدم آلهتها، وبذور الحضارة الأوروبية الأولى.

القرون الأخيرة من ذلك الألف، ظهر المجتاحون الهنود الأوروبيين من الدانوب والفولغا. احرقوا المدن القديمة. ولكنهم اندمجوا في المواطنين وكونوا الطبقة النبيلة بينهم. وعند بدء الألف التالي، بسط أحفادهم المباشرون، الحثيون سلطانهم على قسم كبير من الأناضول، ثم سوريا ومصر. بعد ثلاثة عشر قرنا كانت معركة قادش على العاصي، وقد وضعت حدا لتوسعهم.

ورث الحثيون ديانة الالهة الكبرى، كما ورثت الهلينية عن الأناضول عقيدة «الأمازونات»، المقاتلات اللاتي كان اليونانيون يحلونهن على ضفاف «تيرمودون» عند نصبه على البحر الأسود.



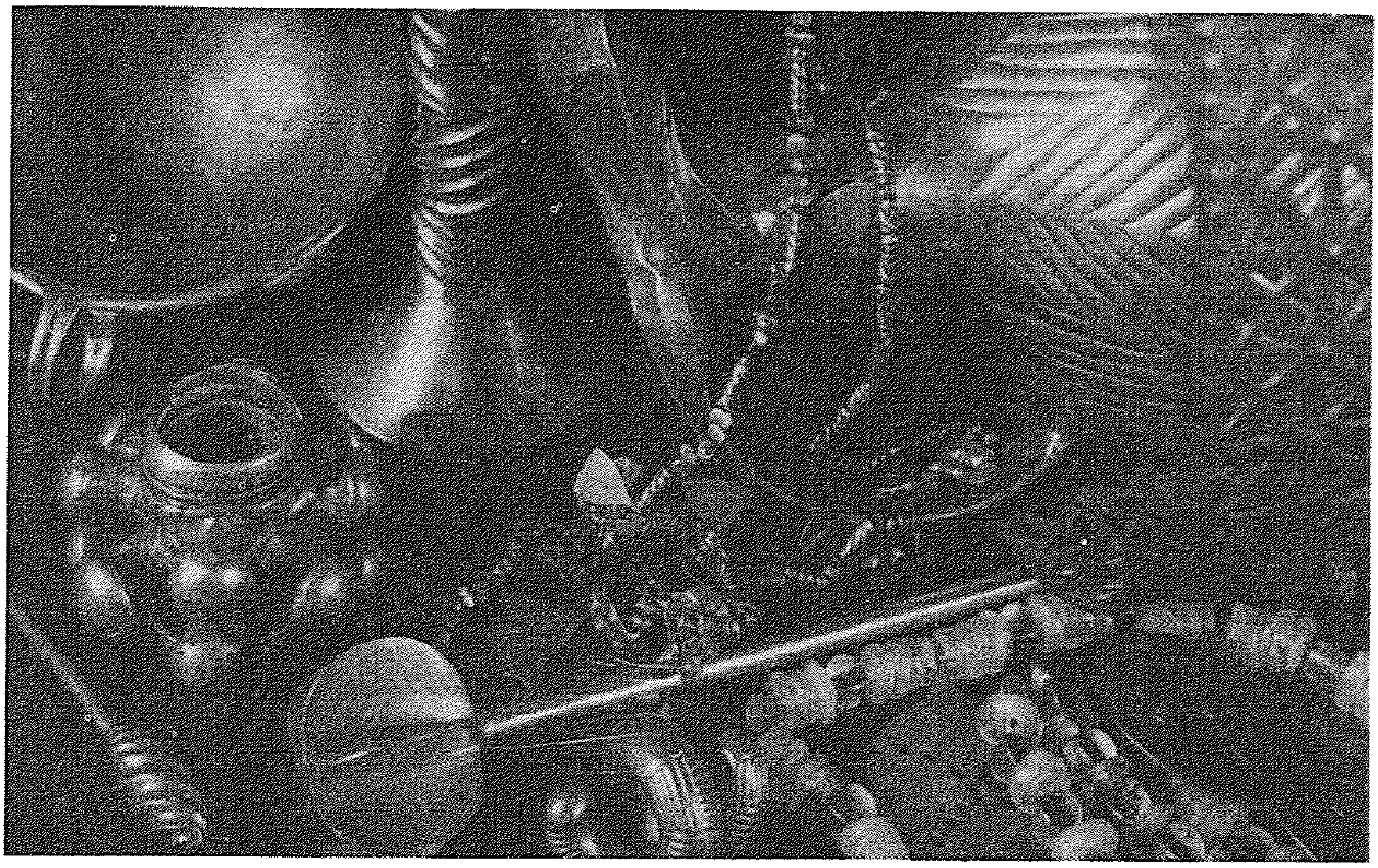
ونلقى هذه الأمازونات حتى في «إيفين»، حيث توجد الالهة الأم الأناضولية.

ثمة شيء غير معروف تماماً. وهو أننا ندين للحثيين بالثورة الاقتصادية الثالثة. الأولى: الزراعة، تدجين الحيوانات، الأواني الفخارية، الدولاب، المدينة. الثانية: تذويب النحاس والبرونز. الثالثة: الحديد. ففي مطلع الألف الثاني، بدأ الحثيون بالحدادة، ولكن بعد زوال سطوتهم السياسية، وتدمير عاصمتهم هاتوزا، بدأ عصر الحديد الحقيقي في الشرق. في قبر توت عنخ آمون (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) خنجر شفرته من الحديد. وكان هدية من ملك الحثيين إلى فرعون مصر.

نحو العام ١٢٠٠ قبل عصرنا، انهار الحثيون تحت ضربات برابرة شمال الأناضول. ثم حدثت هجمات شعوب أخرى كالهنود الأوروبيين، المتحالفين مع

□ تمثال امرأة من القرن السابع قبل الميلاد. لم يعرض من قبل.



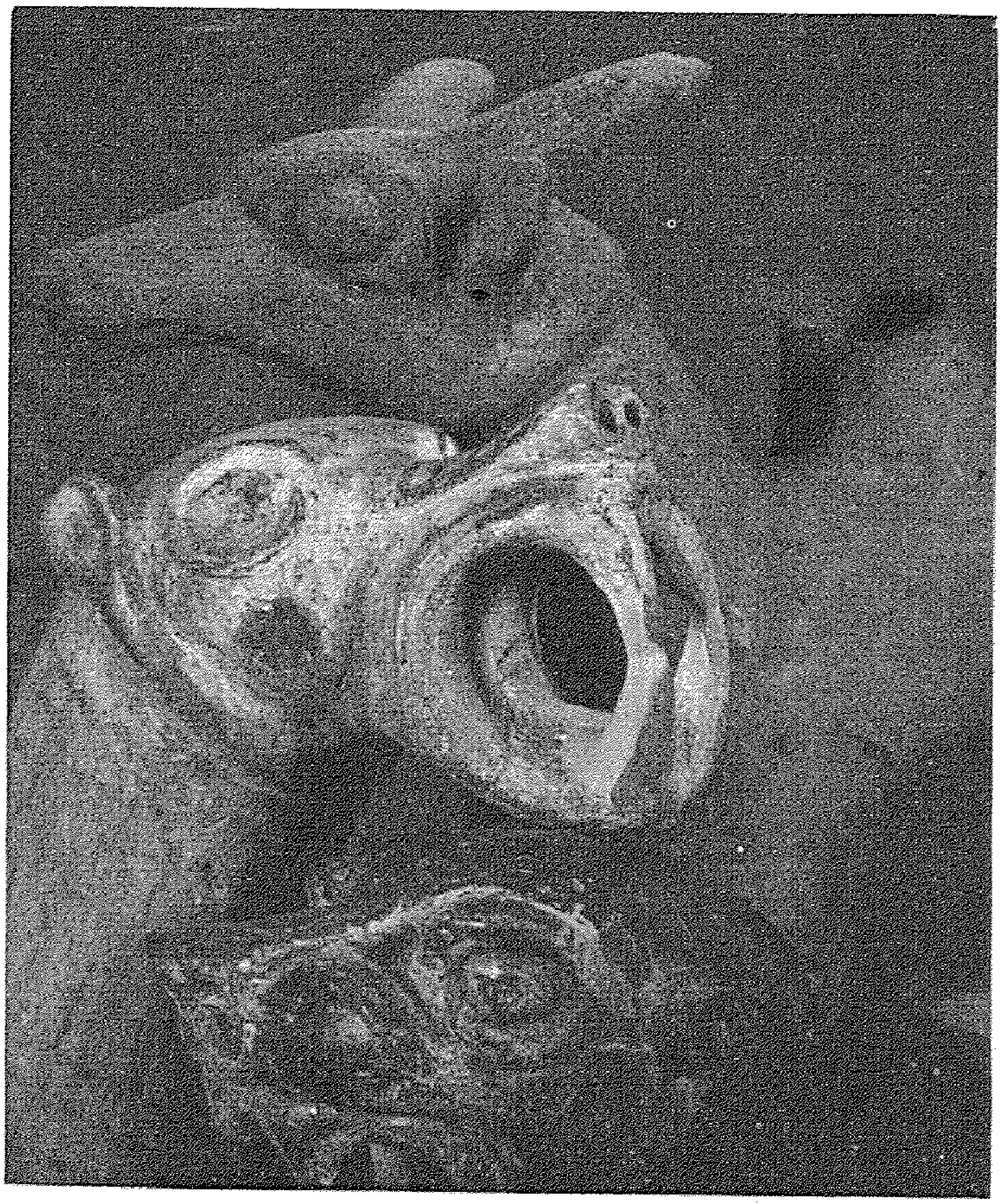


□ كنز الاكاهويوك يعود إلى العصر البرونزي.

الميثينيين، الذين سماهم المصريون «شعوب البحر» وقضى عليهم رمسيس الثالث، في الدلتا. ثم كان اجتياح الفريجيين، القادمين من شمال القوقاز. وقد أقاموا ثلاثة قرون، وجعلوا عاصمتهم غورديون، غرب أنقرة. وقد احتفظوا بتقاليدهم حتى في العهد الروماني. وكانت إلهتهم كيبيل.

ثم خضعت الأناضول للفرس قبل القرن الحادي عشر. ثم جاء دور اليونانيين، الذين أقاموا حول سواحل الأناضول وبحر ايجة، وبنوا مدن ميلي، وإزمير، وتيوس، وكلازومين، الخ.. ثم كان احتلال الاسكندر الكبير الذي ضم الأناضول إلى اليونان.

وجاء العهد الروماني فأصبحت الأناضول رومية. وانتقل إليها، في



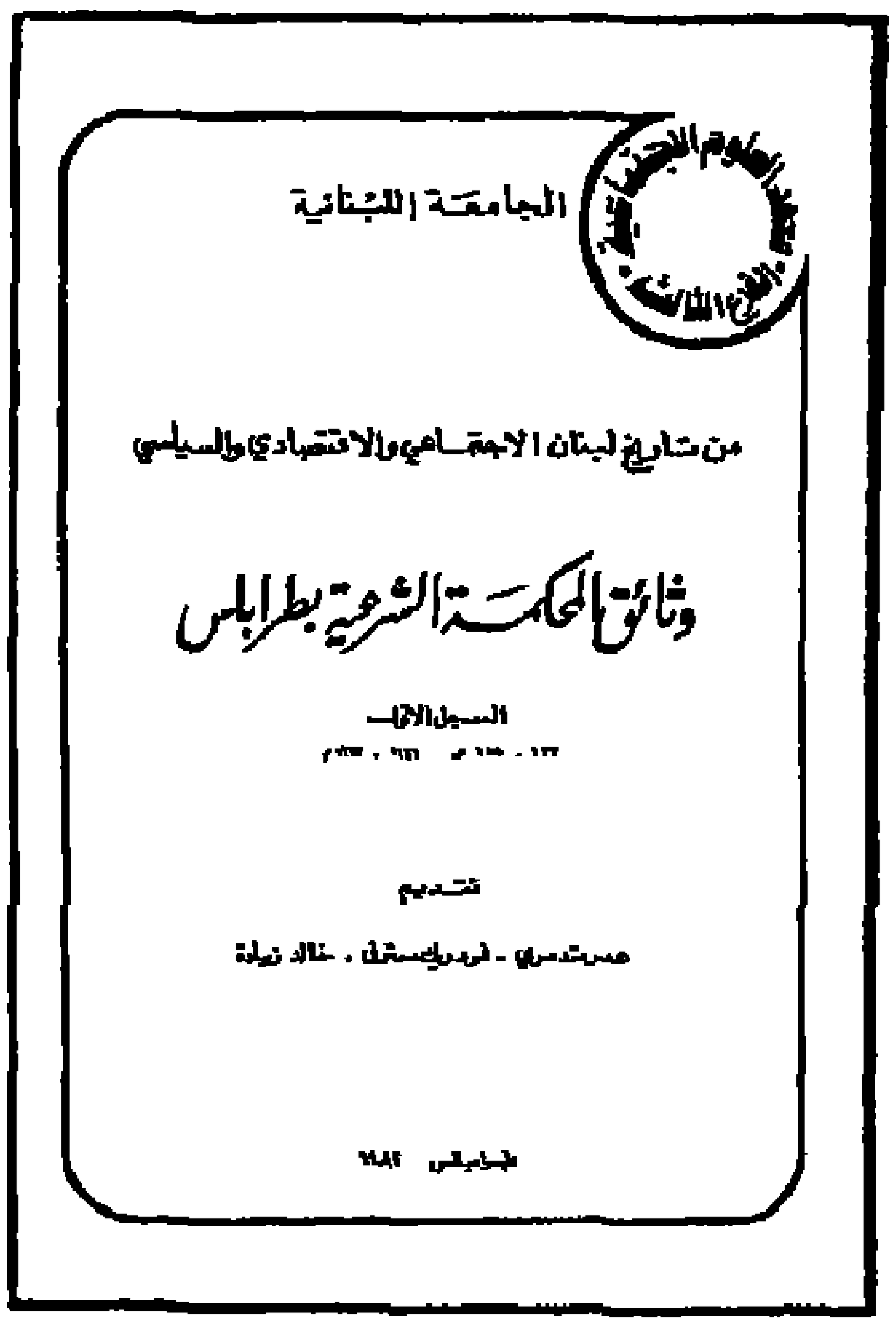
□ أوان من القرن التاسع عشر قبل عصرنا. يرى فيها أثر بلاد ما بين النهرين، وهي تمثل: أسداً وغزالاً وكلباً.

فترة من الفترات، عدد من الفلاسفة: تاليس، أناكسيمين، أناكسيمندر.

وواجهت الأناضول بعد ذلك الاحتلال العربي، عدا القسطنطينية، حتى جاء محمد الفاتح فدك أسوارها، واحتلها وأقام فيها الحكم العثماني. ●

□ رياضي شاب، من المرمر، وجد في مدينة ايدين (متحف اسطنبول).





وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس

المحامي عمر مسقاوي

قبل أن تكون الجامعة مرسوما تصدره الدولة، أو بناء تأوي إلى ارجائه نشاطاتها هي اتجاه وروح معا.

لقد قيل في الجامعة أنها كلمة المستقبل وطريقه. ولكي تكون كذلك لابد أن تتوفر فيها أصالة الانتماء إلى تراث المجتمع والرؤية المتحررة من قوالب الحاضر ومعطياته السياسية والسلطوية.

فالدولة تمنح الجامعة اعترافا بمهماتها لكنها لا تستطيع احتواءها وهي إذا فعلت تحول بين الوطن ومستقبل الثقافة فيه.

الجامعة في مفهومها الحضاري نظرة واعية تتأصل بالبحث لكنها تتجذر في أعماق المسيرة الاجتماعية: في التراث وما أعطى. والثقافة وما تركت من قسمات على صفحة الزمن. والعبقرية وما أنجزت في خطى الحضارة. والصلات الاجتماعية وما ترابط بينها من وشائج وما تعارف بينها من عادات وتقاليد.

تلك حصيلة التاريخ وذكريات المجتمع المشتركة تحتويها الجامعة في فروع اختصاصاتها تمنح الأجيال من صلابة المرتقى ثبات الأقدام ومن مدارج الثقافة وضوح الآفاق وتتّقي بها في منعطف الأحداث كل ارتباك.

وإذا كانت الجامعة اتجاها وروحا فإن وعي الروّاد والعاملين فيها كفيل بوضع هذه المؤسسة على الطريق الصحيح في خدمة الأجيال. وهذا الوعي يستمد أساسه من مصداقية الأساتذة نحو العلم والحقيقة. يعطون بمثل ما أخذوا بغير حساب للزمن وللمستقبل القريب.

في طرابلس بادرة جديرة بالتنويه أعادتنا إلى مذاق العلم في انتمائه العميق لتراث المجتمع الذي يعمل فيه وينمو.

وهي تضيء في ظلمة ما يحيط بنا بوارق أمل طالما خبت طلائعه في زحمة التهافت الذي تروج بضاعته هنا وهناك.

فحين كانت الطائرات الاسرائيلية تضرب بيروت وتجتاح الجنوب والجبل وتهدد المدن الأخرى بالخراب كان ثمة هاجس أقلق ثلاثة من شباننا معنيين بمعهد العلوم الاجتماعية وكلية الآداب والعلوم الانسانية — الفرع الثالث من الجامعة اللبنانية في طرابلس.

أما أولهما فمدير فرع العلوم الاجتماعية، الدكتور فريدريك معتوق.

وأما الثاني والثالث فهما الدكتور عمر عبد السلام التدمري الأستاذ بكلية الآداب والدكتور خالد زيادة الأستاذ بمعهد العلوم.

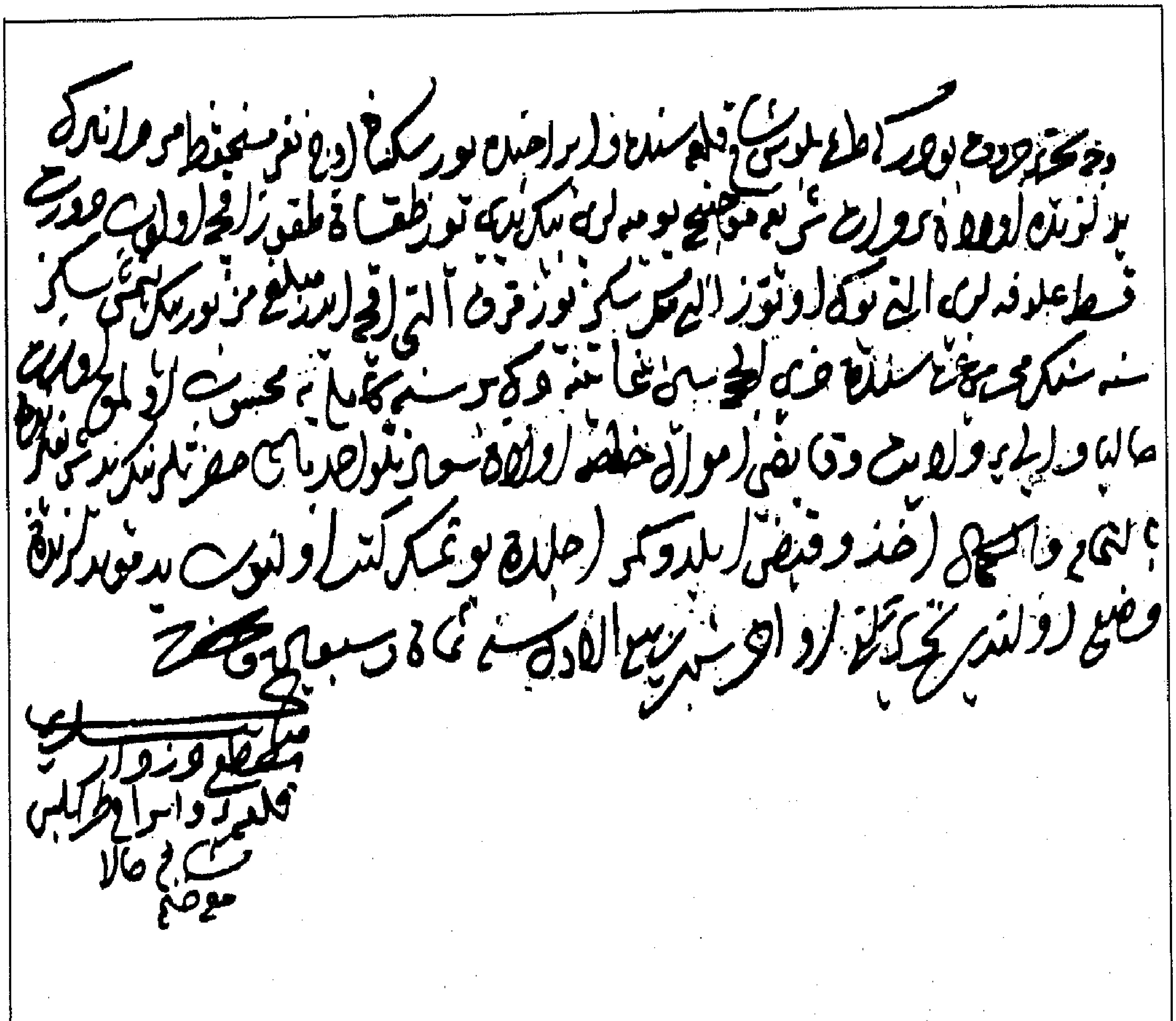
ولمتتبّع المكتبة اللبنانية الحديثة أن يعرف هؤلاء الشباب من خلال انتاجهم. فالدكتور تدمرى أخرج في بواكير نشاطه العلمي العديد من الكتب التراثية في تاريخ طرابلس على الخصوص وأضاف إلى مكتبتنا مزيدا من التعرف على تاريخنا الثقافي والحضاري. والدكتور خالد زيادة استهواه القرن التاسع عشر والثامن عشر قبله فرصد ناشئة الاتصال الغربي بالشرق وحقق الكثير من الرسائل والمؤلفات التي كتبها معاصرون لتلك الحقبة تجهلهم الجلة من الدارسين.

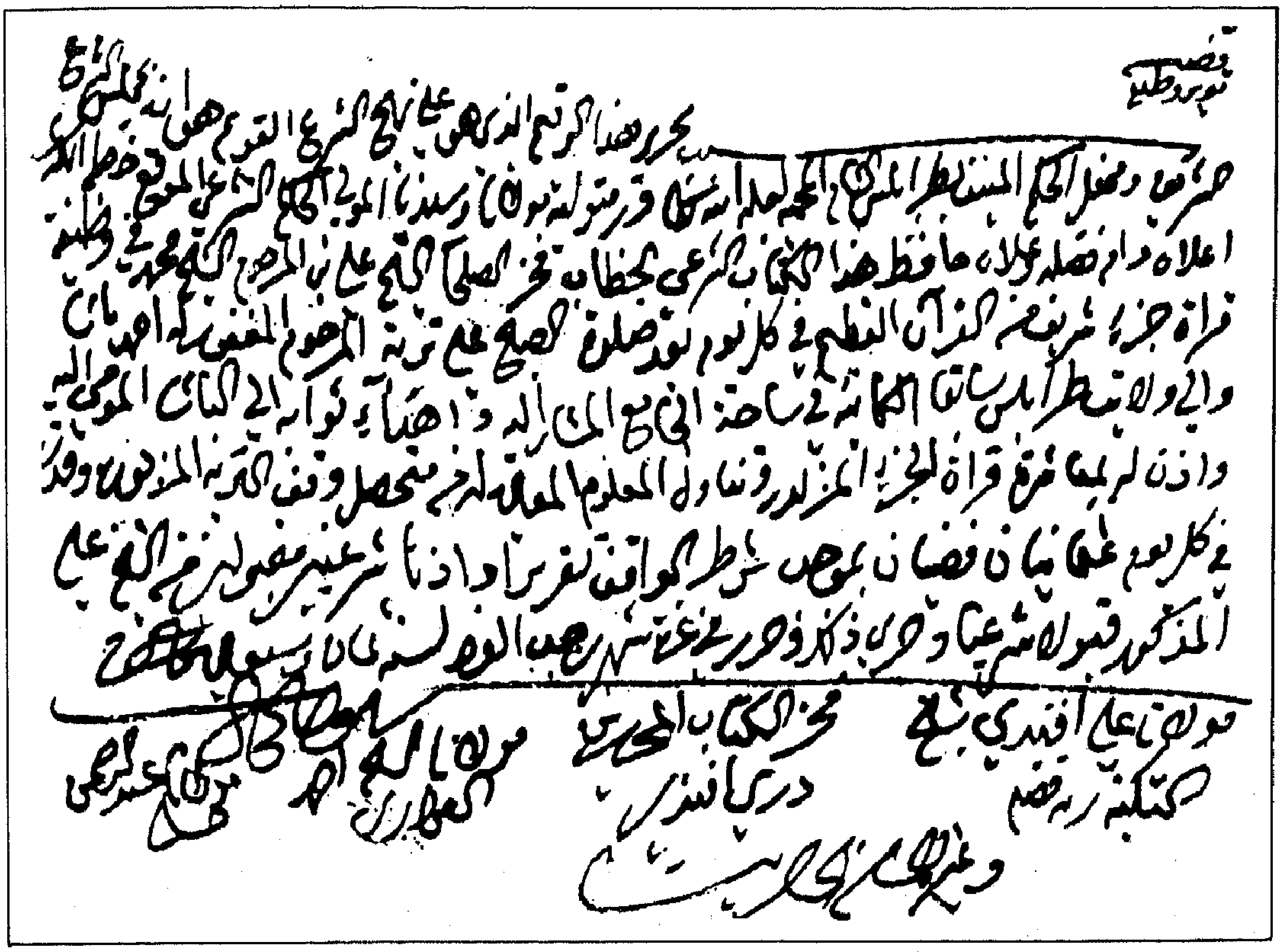
أما الدكتور فريدريك معتوق فنحن نعلم ما أنجز من جهود في إطار علم الاجتماع.

أسرع الفرسان الثلاثة إلى أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس يجمعون أحكامها ووثائقها وهي وثائق تعود إلى عام ١٠٧٧ هجرية ١٦٦٦ ميلادية.

كان العمل من أجل معهد العلوم الاجتماعية وكلية الاداب والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية ومن أجل الحركة الثقافية في مدينة طرابلس. وفي هيمنة القلق والهلع كان ثمة متأملون متوفرون بصبر وأناة على لملمة شتات صحائف المحكمة الشرعية وما سجلت من علاقات المجتمع الطرابلسي في ذلك الزمن البعيد.

لم يحملوا في أيديهم وهم في غمرة هذا الاستغراق المضني ساعة يقيسون بها جهدهم وما عملوا لأنهم لم يضعوا نشاطهم في سوق العمل، فنشاطهم اتخذ بُعْدا أوسع من آفاقهم لقد وضعوه في مستوى المخاطر التي دقت بابنا لكن في مستواها الأعمق والأبعد عن ذلك الخوف





الغريزي الذي تسورنا جميعا في الصيف الماضي.

فمن كان يفكر في معترك المخاطرات بتراث ملقى في احدى حجرات المحكمة الشرعية أو في زاوية من زوايا مؤسسة تمتد في عميق التراث؟

إن الذين فكروا في هذا التراث هم الجديرون بالخوف لأنه قلق حضاري. وهو شأن النخبة دائما. بل شأن المؤسسات.

لقد كان هؤلاء الشباب يفكرون، ويخافون، ويبادرون، ويشحذ عزيمتهم تشجيع، من أدركوا جلال المهمة وقد عبر هؤلاء الشباب عن شكرهم لهم في مقدمة السجل الأول الذي أخرجوه.

فقد وفر معهد العلوم الاجتماعية، فرع الجامعة اللبنانية بعض ميزانية البحث العلمي ليخرج السجل الأول الذي تم تصويره بكامله من أرشيف المحكمة الشرعية.

وهذا السجل حصيلة عام من الأحكام والوثائق الشرعية التي تعود إلى عام: ١٠٧٧ — ١٠٧٨ هجرية الموافق ١٦٦٦ — ١٦٦٧ ميلادية.

إنه السجل الأقدم في سجلات المحكمة الشرعية وتقول المقدمة التي وضعها الأساتذة الثلاثة الدكتور تدمري ومعتوق وزيادة:

«فالعاصفة أصابت سجلات طرابلس على السواء سنة ١٩٧٦، إبّان الأحداث المعروفة، ففقد ما فقد من السجلات هنا وهناك، وإذا كان حسن الحظ قد حمى سجلات محكمة طرابلس من كارثة حقيقية، فقد بدا جليا لبعض المهتمين أن الاعتماد على الحظ وحده لم يعد جائزا، فعادت فكرة حفظ السجلات تراود الأذهان مرة أخرى، إلا أن الموانع القديمة حالت مجددا دون التنفيذ».

ثم تستطرد المقدمة فتقول:

«وواقع الأمر، أن الفرصة الوحيدة التي كانت متاحة في ذلك الصيف الرهيب، الذي شهد الغزو الاسرائيلي للبنان، هي تصوير السجلات نسخا متعددة تحفظ في أماكن مختلفة. على أن يكون ذلك هو المهمة الضرورية العاجلة التي تسمح

على الأثر، بعمل دؤوب لفهرسة ما تتضمنه من مواد، وتوضع بعد ذلك في تصرف الدارسين والباحثين، السجلات والفهارس على السواء».

ثم يقدم لنا الأساتذة تدمرى ومعتوق وزيادة كشفا بـ ٧٠ سجلا يغطي الفترة ١٦٦٦ ــ ١٨٨٣ ميلادية.

لكن هذه الفترة اعترتها فجوات ناشئة عن فقدان بعض السجلات ويعزو الباحثون فقدان هذه السجلات إلى ضعف الرقابة وبعثرة الذين توفروا على دراسة حقبات من تلك السنين.

تقول المقدمة:

«ونذكر هنا أن المجلد الذي أعطيناه رقم ٢٩ والذي يمتد عشر سنوات بين ١٢١٥ ــ ١٢٢٥ هجرية/ ١٨٠٠ ــ ١٨١٠ ميلادية ليس بالأصل، إلا أوراقاً متفرقة من سجلات مختلفة جمعناها على هذا النحو.

ويمكننا أن نقدم تفسيرا لذلك. فالفترة المذكورة تمثل، المرحلة الأولى من حكم (بربر آغا الشهير، حاكم طرابلس آنذاك ولعل بعض دارسي تلك الحقبة قد فعلوا ما فعلوا بغياب الرقابة التي لم تكن متشددة على الدوام».

وتوضح المقدمة أهمية هذه الوثائق باعتبارها المصدر الرئيسي لمواضيع نذكر منها:

ــ إعادة تخطيط المدينة عمرانيا.

ــ دراسة شاملة للمدينة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية في فترات محددة.

ــ دراسة لعلاقات طرابلس بمحيطها الريفي.

ــ دراسات خاصة بالمناطق وتطورها: (الزاوية ــ الجبة ــ المنية ــ عكار ــ الضنية).

ــ النواحي الاقتصادية: التجارة.

ــ الأوقاف.

ــ تاريخ العائلات.

وهكذا...

وهذه المواضيع تسمح للباحث كما تقول المقدمة بدراسات لم تطرق بعد. من ذلك الادارة ــ الألقاب ــ أسلوب الانشاء ــ الأسماء ــ الثقافة ــ الوظائف العامة ــ الاشراف ــ تراجم الاعلام ــ تطور أسماء الأماكن... وغيره.

والواقع أن المحاكم الشرعية كانت فيما مضى سجل الحياة اليومية للمدينة وما يحيط بها من قرى وأرياف.

إنها الفصل في الخصومات على اختلاف انواعها وفي قراراتها عقاب المجرمين، وصفحاتها مشرعة للوصايا والأوقاف يأمن بها من يخاف على ذرية ضعفاء من بعده ويؤمن بها صدقة جارية في عقبه كل من يطمع بعد الموت في مآب حميد.

إنها صورة الحياة الاجتماعية ونمط علاقاتها وجوهر ثقافاتها.

وتتساءل المقدمة: «هل ثمة تواصل في هذا التاريخ، أم أن هنالك انقطاعا».

وتجيب:

«إن وثائق المحكمة الشرعية لتسمح بحد ذاتها بطرح التساؤل من خلال رصد حركة الحياة اليومية كما تسمح تطورات النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالبحث عن الاجابة».

وتنتهي المقدمة إلى القول:

«ألا تبدو الاستمرارية مضمونة، مع ما تحتله الرابطة العائلية والعاطفة الدينية، والمكانة الاجتماعية، من قوة تأثير تسمح برؤية الماضي في الحاضر؟»

وأخيرا يطرح الباحثون هذه الأمنية:

«نتمنى أن نكون قد قدمنا، في هذه المقدمة بعض الايضاحات المفيدة للباحث، فالمهمة التي تنتظر اكتشاف تاريخ لبنان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وإعادة كتابته، مهمة شاقة لكنها تتسم بطابع الواجب الوطني، بعدما عرفته بلادنا من ويلات ودمار. وإن عملية الأعمار، بالنسبة لنا، تبدأ من هذه النقطة بالذات».

جهد في مستوى العمل الجامعي كاتجاه وروح قبل أن يكون هيكلا وتنظيما اداريا ومرسوما. وهو في الوقت نفسه يبرز الحاجة لحفظ وتعميم ما تجلس عليه مؤسسة المحكمة الشرعية والأوقاف الاسلامية من تاريخ وتراث. فهذه مهمة لن تنتظر التأخير. ●

القوّات البريطانية كانت تنوي احتلال القاهرة عقب حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ !



□ تظاهرة في ميدان الاسماعيلية في القاهرة.

تعرض هذه الوثيقة التاريخية المأخوذة من مذكرات ايدن، للموقف البريطاني الرسمي من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهي نظراً لصدورها عن المسؤول البريطاني الأول في شن الحرب الثلاثية على مصر عام ١٩٥٦، تشير بوضوح إلى مقدمات هذه الحرب وعواملها الكامنة في انفجار التناقض بين الاصرار البريطاني على استمرار نفوذ بريطانيا الاستعماري في مصر عبر نظام فاروق وسيطرتها على القنال ونهبها لثروات الشعب المصري، من جهة، وبين إصرار جمال عبد الناصر قائد الثورة، على تصفية ركائز الاستعمار وتحرير الشعب من قيود التبعية للاستعمار الانكليزي آنذاك. تلك هي صورة الوضع آنذاك تنقلها شهادة ينطق بها المستعمرون أنفسهم.

منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية، جرت عدة محاولات لاعادة النظر في المعاهدة الانجليزية المصرية المعقودة في سنة ١٩٣٧، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل.

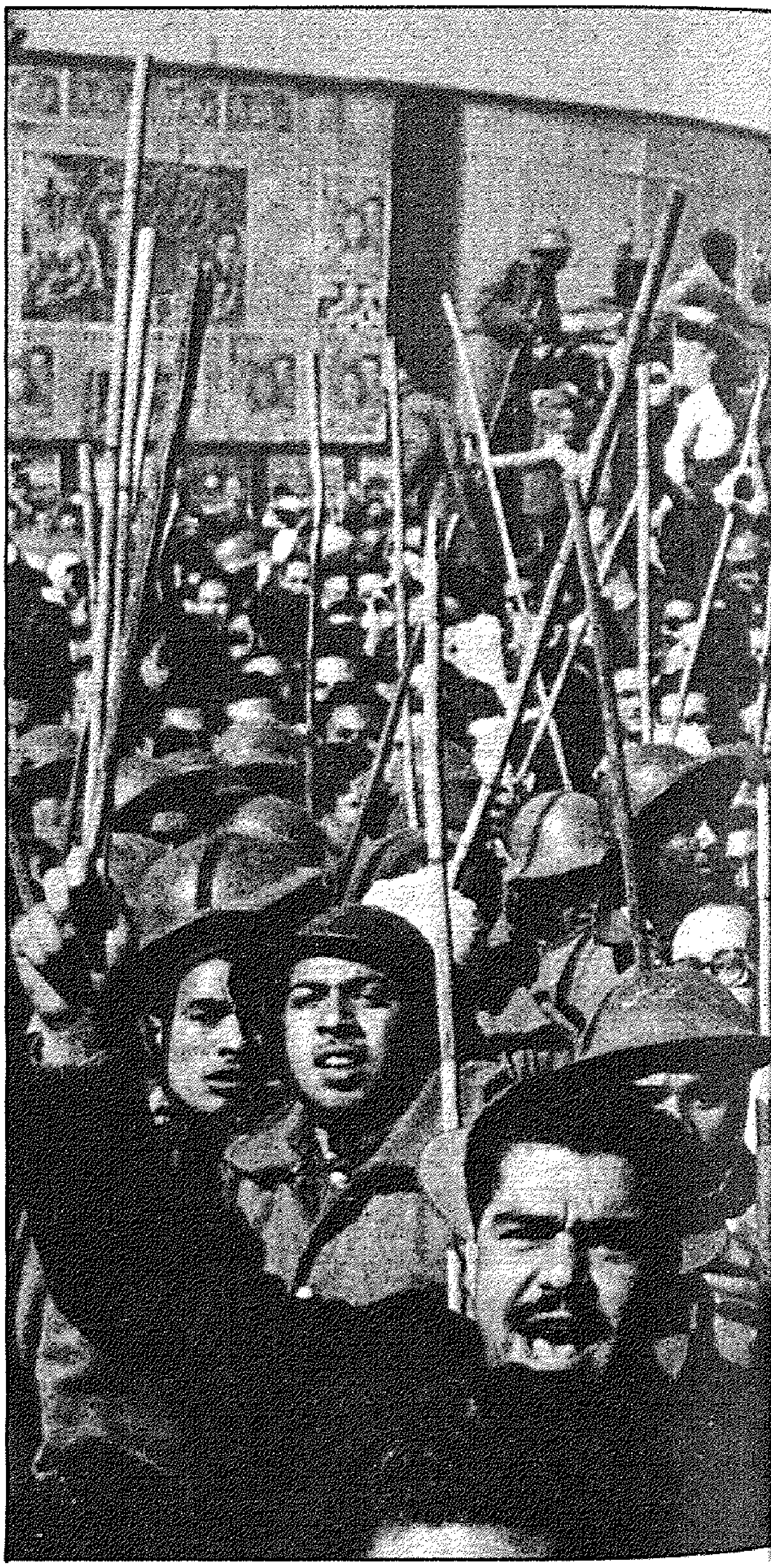
وكان الشعور العام في مصر شعورا بالاستياء نتيجة لحرب فلسطين ولتصرفات الملك فاروق ولانتشار الرشوة والفساد في قلب حزب الوفد. ولما تحدى الدكتور مصدق بريطانيا في سنة ١٩٥١ شجع تصرفه المصريين على التمرد. فقد حدث في اكتوبر من ذلك العام أن أعلن النحاس باشا الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، مع أنه كان باقياً ٥ سنوات لانتهائها.

وكان المتطرفون من المصريين قد بدأوا قبل ذلك موجة من الأعمال الارهابية ولا سيما في منطقة قناة السويس التي كانت ترابط فيها القوات البريطانية بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦.

أزمة السودان

وكانت الحكومة المصرية قد ألغت كذلك في اكتوبر من ذلك العام الاتفاق الثنائي المعقود في سنة ١٨٩٩ بشأن السودان، وأعلنت أن فاروق أصبح «ملك مصر والسودان». لم أوافق على ذلك التصرف وقلت وقتئذ أمام مجلس العموم أن من حق الشعب السوداني أن يقرر مصيره بنفسه وأن يحدد علاقته مع كل من مصر وبريطانيا.

وبالرغم من هذا الايضاح عاد السفير الاميركي مرة أخرى وطلب أن تعترف بريطانيا بفاروق كملك لمصر والسودان، ولكني أوضحت له أن بريطانيا لا تستطيع أن تتخلى عن موقفها من مسألة السودان.



دور باكستان

وكان المندوب السامي الباكستاني في لندن قد لفت نظري إلى خطورة الاعتراف ــ ولو مؤقتاً ــ بفاروق كملك مصر والسودان، وقال أن معنى هذا أن بريطانيا لم تعد مهتمة بأمر السودان، ومعناه أيضاً اعتراف ضمني بأن بريطانيا موافقة على أن يصبح فاروق ملكا على السودان ــ وهو أمر يفت في عضد السودانيين المعارضين لذلك.

وإنه لمن المؤسف ان سياسة واشنطن لم تكن على وفاق مع سياسة لندن حيال هذه المسألة. وقد ادهشني عبد الفتاح عمرو سفير مصر في لندن وقتئذ عندما صرح عقب عودته من القاهرة بأن كافري سفير أميركا في مصر يؤيد وجهة نظر مصر كل التأييد فيما يتعلق بمسألة السودان.

ومع ذلك أصررت على ضرورة التمسك بوجهة نظر الحكومة البريطانية وعملت على ايضاح وجهة النظر هذه الى الحكومة الأميركية.

حريق القاهرة

وفي أوائل عام ١٩٥٢ أصبح الموقف في منطقة القناة نوعا من الحرب العلنية بين القوات البريطانية وكتائب التحرير التي تؤيدها رسميا الحكومة المصرية. وحدث في يوم ٢٥ يناير أن مات عدد كبير من رجال البوليس المصري بالاسماعيلية بعد أن رفضوا طلب للقيادة البريطانية يقضي بأن يسلموا بنادقهم وأسلحتهم التي كانت القيادة تعتقد أنها تستخدم في الهجوم على قواتها.

وفي اليوم التالي قامت مظاهرات صاخبة في القاهرة وسرعان ما سيطر الجمهور على جزء كبير من المدينة وبدأ يشعل النيران فيه. وكان ذلك اليوم يوم سبت، وقد هجم الجمهور على الشركات والمؤسسات البريطانية ومات من رعايا بريطانيا في ذلك اليوم ١٢ شخصا.

وبينما كانت القاهرة تحترق في ذلك اليوم، كانت السفارة البريطانية ترسل التقارير تلو التقارير الى وزارة الخارجية، بينما كانت القيادة العسكرية في منطقة القناة توافي وزارة الحربية بتطورات الموقف أولاً بأول.

خطة لاحتلال العاصمتين

ووضعت الحكومة البريطانية خطة في ذلك الوقت تقضي بأن تدخل القوات البريطانية القاهرة والاسكندرية لحماية رعايا بريطانيا وممتلكاتهم هناك.

ولكن القائد البريطاني في مصر بعث يقول أنه يشك في أن تتمكن القوات الموضوعة تحت قيادته من التدخل في القاهرة والاسكندرية، ولا سيما بعد المقاومة التي أبداها رجال البوليس المصري في الاسماعيلية.

وكان معظم الوزراء متغيبين خارج لندن ما عدا لورد سيموندز وزير العدل فتشاورت معه في الأمر ووافق على أن نبلغ القائد البريطاني في مصر أن ينفذ الأوامر التي تصدر إليه بإرسال قوات إلى القاهرة والاسكندرية مهما كانت الأخطار.

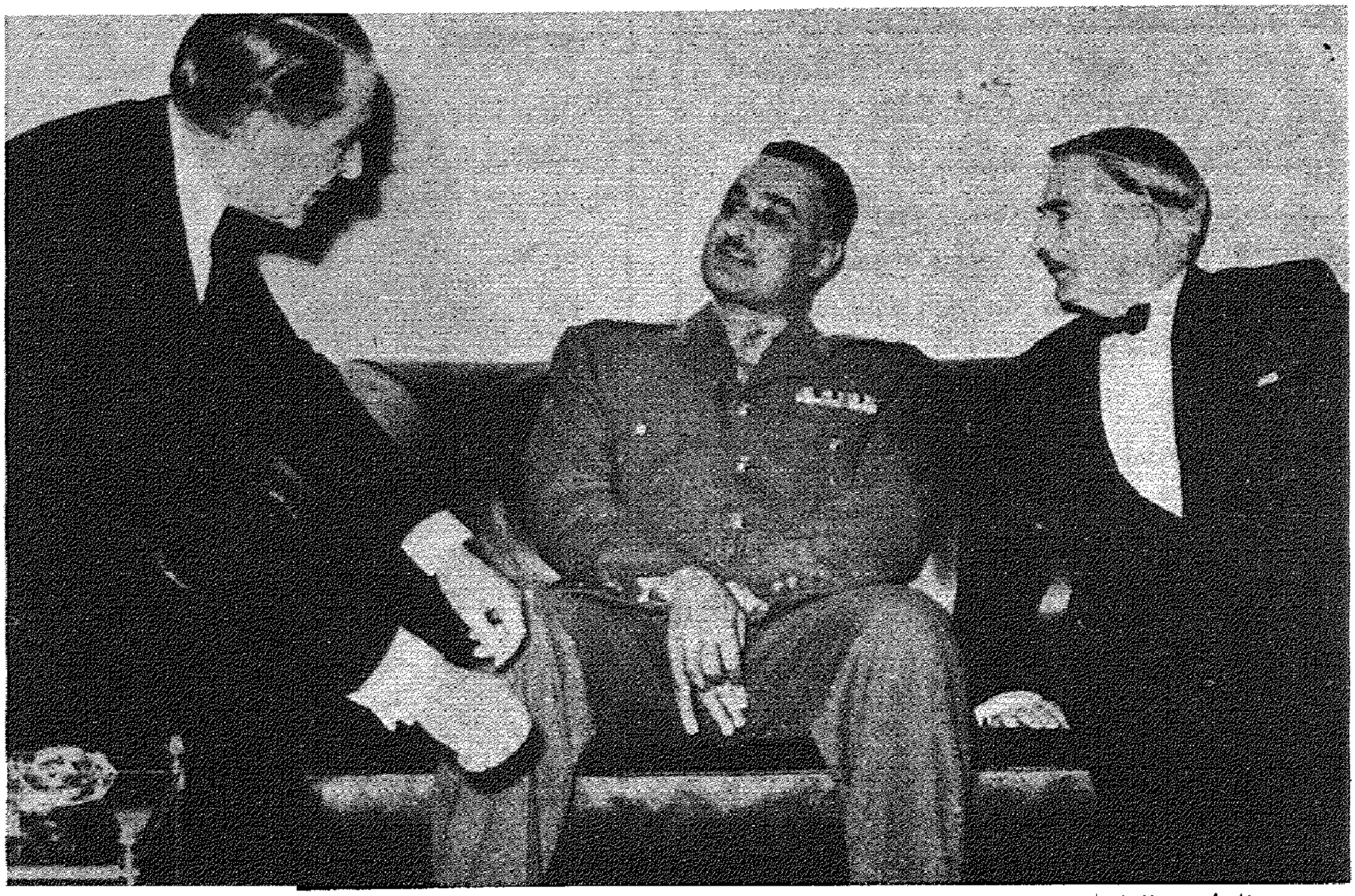
ويظهر أن علم الحكومة المصرية أن بريطانيا كانت مستعدة للتدخل بقواتها جعل هذه الحكومة تأمر جيشها بالتدخل لوقف المظاهرات وأعمال الشغب.

وفي اليوم التالي أمر فاروق باقالة مصطفى النحاس وكلف علي ماهر بتأليف وزارة جديدة، ولكن البلاد كانت على شفا الفوضى، وكان الدخان لا يزال يتصاعد مما تخلف عن حريق القاهرة.

وفي خلال الأسابيع الخمسة التي مكثتها وزارة علي ماهر في الحكم تمكنت هذه الوزارة من اعادة الأمن والنظام وأوقفت حملات الراديو وحلت كتائب التحرير وخفضت الأسعار.

ومع أن علي ماهر خدم بلاده فإن الملك عين نجيب الهلالي رئيسا للوزارة، وكان من الممكن الدخول مع وزارته في مفاوضات ولكن الأزمة التي تركها الوفد بإلغائه معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقية سنة ١٨٩٩ ظلت باقية فلم يطل أمد هذه الوزارة واستقالت في يونيه وخلفتها وزارة برياسة حسين سري بعد مؤامرة من مؤامرات رجال القصر اشترك فيها كريم ثابت وأحمد عبود وشجعهما عليها كافري السفير الأميركي في القاهرة.

وكانت الحكومة الأميركية تواصل الضغط في سبيل التفاهم مع مصر، وحدث في يونيه من ذلك



□ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يتوسط انطوني ايدن والسفير البريطاني في القاهرة.

العام أن بحثت المسألة في لندن بحضور دين اتشيسون وزير خارجية أميركا وروبرت هاو حاكم السودان وروبرت ستيفنسون السفير البريطاني في القاهرة وأوضحت لاتشيسون أن عبد الرحمن المهدي الزعيم السوداني غير موافق على أن يصبح لقب فاروق ملك مصر و «السودان».

بقيت وزارة حسين سري في الحكم أقل من ٣ أسابيع، ثم رأى فاروق أن يسترد ما فقد من شعبيته فقرر تكليف نجيب الهلالي بتأليف وزارة أخرى، ولكن الهلالي اشترط عدة شروط لقبوله تأليف وزارة. بيد أن كل هذه المحاولات جاءت متأخرة.

ثورة ٢٣ يوليو

ففي مساء ٢٢ يوليه سيطرت قوات الجيش التي كانت تحت اشراف حركة الضباط الأحرار على القاهرة. ونجحت هذه الحركة في الاسكندرية أيضا، وكان الملك بها وقتئذ وكذا الحكومة. واختار الضباط الأحرار علي ماهر ليكون رئيسا للوزارة.

وفي تلك الأثناء ظل فاروق منذ الساعة الثامنة صباحا على اتصال تليفوني مستمر تقريبا مع السفير الأميركي في القاهرة وراح يكرر على مسامعه أنه لا سبيل لانقاذه هو وأسرته إلا بالتدخل الأجنبي. ولم يطلب بالتحديد أن تتدخل القوات البريطانية ولكن الأمر كان واضحا.

بيد أني كنت قد أوضحت الى السفارة البريطانية بالقاهرة أنه ليس المطلوب من القوات البريطانية أن تتدخل لابقاء فاروق على العرش. ولهذا فإن السفارة لم ترد ردا مشجعا على الرسائل التي وجهها اليها كافري السفير الأميركي تحت الحاح فاروق عليه.

تهديد بالتدخل

وكلفت السفارة بأن ترسل مستشارها لمقابلة المسؤولين لتوضح لهم أن بريطانيا لا تريد التدخل في شؤون مصر الداخلية ولكنها لن تتردد في التدخل ـ إذا لزم الأمر ـ لحماية أرواح رعاياها.

وفي الوقت ذاته أرسلت تعليمات إلى قواتنا بمنطقة القناة لتكون على استعداد.


محمد مصدق.

ولما لم يجد فاروق من يلبي رغبته في الاستعانة بقوات أجنبية اضطر الى التنازل عن العرش ومغادرة البلاد مساء يوم ٢٦ يوليه.

وهكذا تحتم على بريطانيا أن تتعامل مع حكومة الثورة الجديدة.

وفي تلك الأثناء انضمت تركيا واليونان إلى حلف الاطلنطي فاستوجب ذلك تعديلا في الخطط الاستراتيجية وفي توزيع القوات بمنطقة الشرق الأوسط. واستقر الرأي مبدئيا على نقل مقر قيادة القوات البريطانية بالشرق الأوسط إلى قبرص.

وفي خريف سنة ١٩٥٢ أسقطت حكومة الثورة المصرية لقب «ملك مصر والسودان» فكان هذا عملا سياسيا رائعا منها رحبت به الأحزاب السودانية التي راحت تعقد بعد ذلك بأسابيع اتفاقات مع الحكومة المصرية.

تقرير المصير للسودان

وجرت مفاوضات بعد ذلك بين بريطانيا وحكومة الثورة المصرية أدت الى الاتفاق على الاعتراف بحق الشعب السوداني في أن يقرر مصيره بنفسه. ونص الاتفاق الذي عقد في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ على تأليف لجنة تتألف من أعضاء سودانيين ومصريين وبريطانيين على أن يرأسها باكستاني، وتكون مهمتها مساعدة الحاكم العام للسودان أثناء فترة الانتقال. كما تم الاتفاق على تأليف لجان أخرى مشتركة للإشراف على الانتخابات وعلى سودنة الوظائف بالسودان.

ولكن بعض اعضاء مجلس العموم أعربوا عن شكوكهم في اهمية هذا الاتفاق، وكنت أخشى لو لم يصدق البرلمان على الاتفاق، أن يلقي السودانيون اللوم علينا ويتهموننا بعرقلة الجهود المبذولة لاجراء انتخابات في بلادهم تمهيدا لتمتعهم بحق تقرير المصير. وبديهي أن مصر كانت ستغتنم الفرصة فتضاعف من حملتها علينا.

لهذا جاهدت في شرح الاتفاق ومزاياه لأعضاء المجلس إلى أن تمكنت من اقناعهم بسلامته. وكنت في الواقع أرى أن أستقيل لو لم يؤيد المجلس الاتفاق ويأخذ بوجهة نظري.

عروض مرفوضة

ثم بدأت في أوائل سنة ١٩٥٣ أهتم بتحديد احتياجاتنا في مصر وذلك بالتشاور مع زملائي الوزراء، واستقر الرأي على أن نعرض على مصر ما يلي:

١ ــ أن يتم سحب القوات البريطانية بالتدريج وعلى مراحل.

٢ ــ العمل على صون قاعدة السويس العسكرية، في زمن السلم، في حالة تسمح لنا ولحلفائنا باستخدامها زمن الحرب.

٣ ــ تأليف هيئة مصرية انجليزية لتنظيم الدفاع الجوي عن مصر.

٤ ــ أن تشترك مصر في منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط.

٥ ــ وضع برنامج لتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية لمصر من بريطانيا وأميركا.

وكان من رأيي أن كل أجزاء هذا الاقتراح مرتبطة ببعضها بعضا، وكان لا بد من التأكد من أن مصر لن تعد أي اتفاق يعقد معها مجرد قصاصة ورق، فلا تلغيه كما سبق أن ألغت معاهدة سنة ١٩٣٦.

وكان من رأيي أنه لو أمكن طمأنة فرنسا وغيرها من الدول الملاحية على استمرار حرية الملاحة بقناة السويس، فإنه يمكن في هذه الحالة ايجاد طريقة أخرى لكفالة هذه الحرية بدون حاجة إلى وجود القوات البريطانية في منطقة القناة.

كذلك كنت أرى أنه لا بد من أن تكون لأميركا صلة وثيقة بمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط.

وزرت واشنطن في مارس من ذلك العام، وتباحثت مع أيزنهاور ودلاس وبعثت الى لندن بتقرير قلت فيه أن الرئيس ايزنهاور موافق على ضرورة الاحتفاظ بقاعدة السويس وأن من رأيه أن جلاءنا عنها قبل تأسيس منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط يجعلنا معرضين لتهديدات مصر وضغطها. وقد أوضحت له أن مصر تعد مفتاح الدفاع عن الشرق الأوسط وأنه يجب أن تتضامن أميركا مع بريطانيا في حالة امكان الوصول إلى اتفاق مع مصر.

واستقر الرأي على كيفية الاتصال بمصر والتفاوض معها. ثم عدت إلى لندن، ولكن حدث أن رفضت مصر اشتراك أميركا في المفاوضات معها، وكان الرئيس أيزنهاور قد اشترط أن توافق مصر أولاً على ذلك.

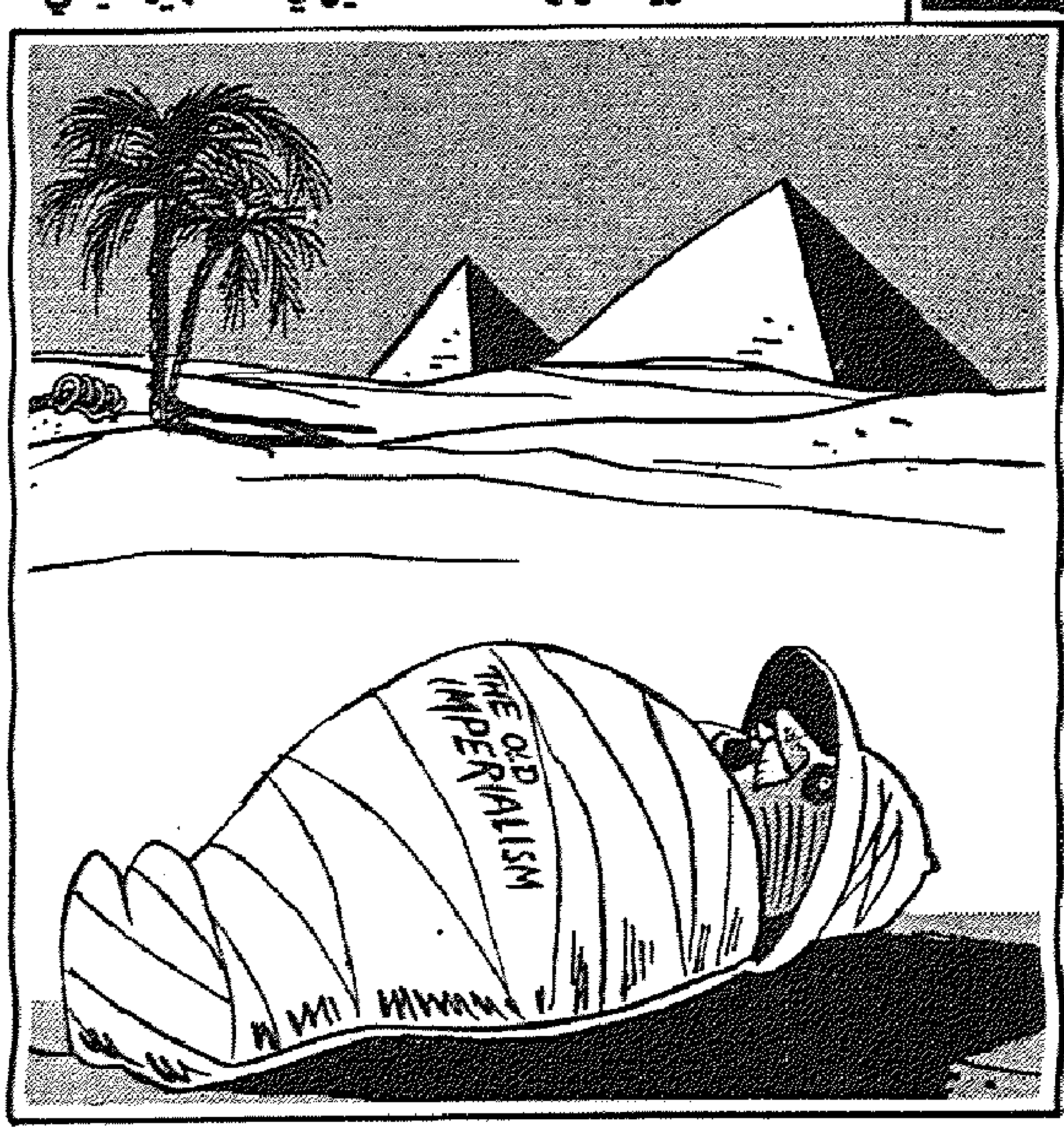
وكان رأي مصر أنه يجب أولاً الوصول الى اتفاق بشأن جلاء القوات البريطانية عن أراضيها، على أن تبحث في مسألة تنظيم الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط كلها فيما بعد.

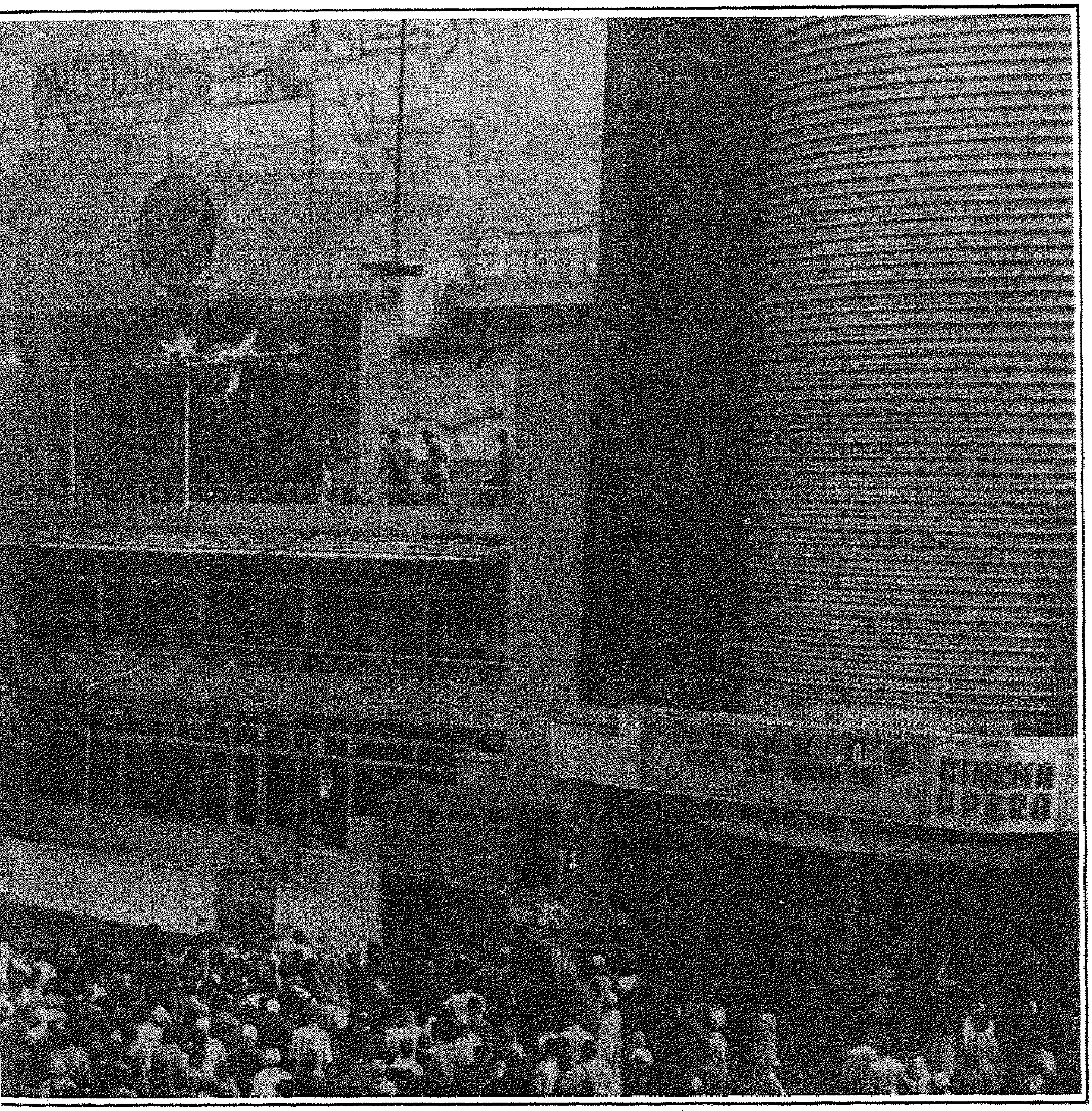
ولم تكن بريطانيا مستعدة للبحث في مسألة سحب قواتها من مصر وهي في عزلة عن أميركا، وإنه لمن سوء الحظ أن الحكومة الأميركية، وخاصة سفيرها في القاهرة، لم يضغط على



□ الملك فاروق.

□ نهاية الاستعمار: للكاريكاتورست الانكليزي الشهير فيكي.





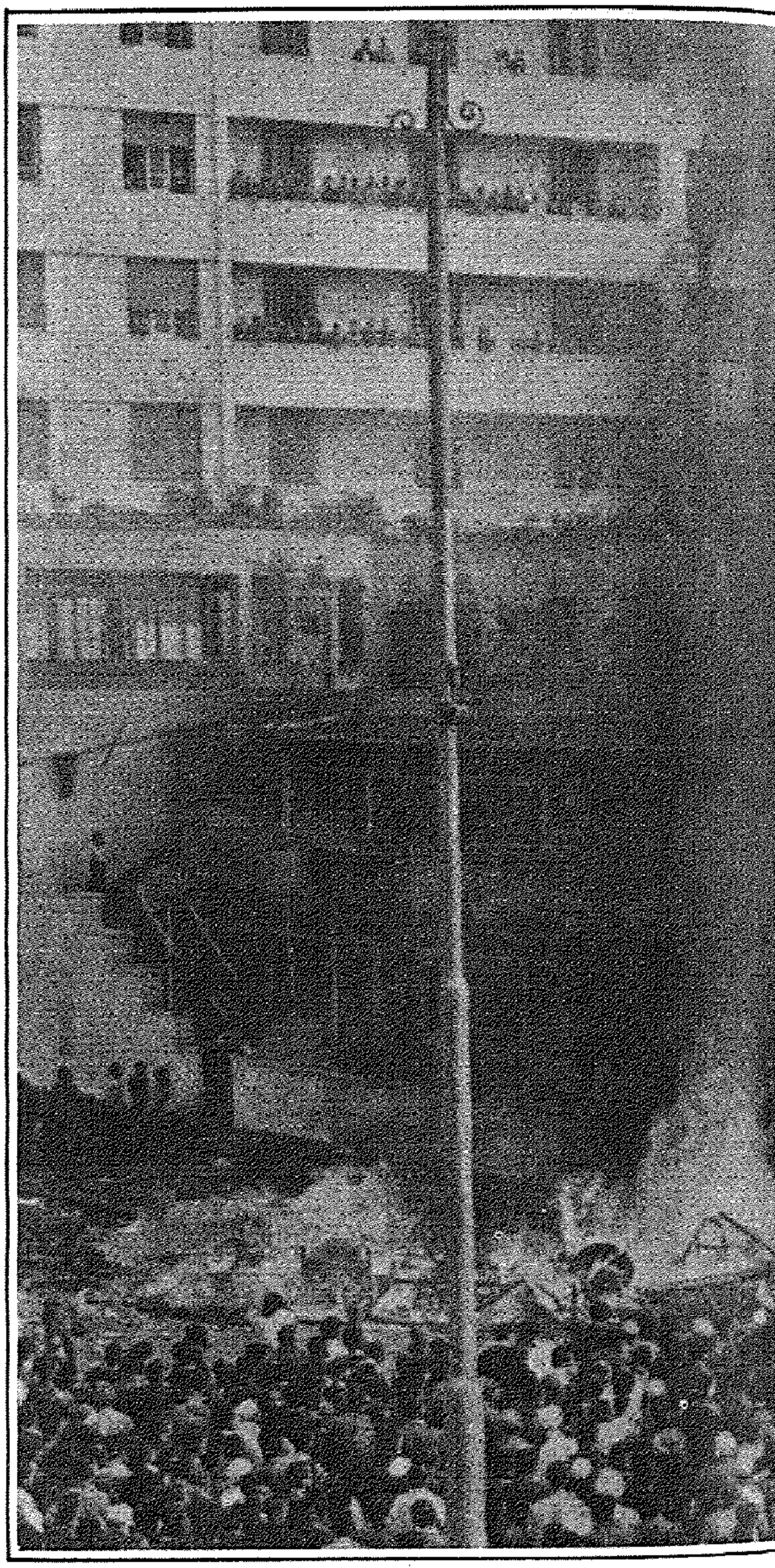
□ حريق القاهرة في ميدان الاوبرا. .

الحكومة المصرية لجعلها تقبل اشتراك أميركا في التفاوض. وأعتقد أنه لو أن أميركا تمكنت من الاشتراك معنا في ذلك الوقت مع مصر، لتغير الوضع الآن في الشرق الأوسط، مع العلم أن أميركا كانت تستطيع، بسبب مساعداتها المالية التي قدمتها لمصر والتي وعدت بتقديمها فيما بعد، أن تلح في طلب الاشتراك في المفاوضات، ولكنها تركت مصر تفعل ما تشاء وأن تضع الشروط للفصل بين مباحثات الجلاء ومباحثات الدفاع عن الشرق الأوسط، وأن تفرق بين الحليفتين بريطانيا وأميركا.

ثم مرضت بعد ذلك ومنعني مرضي ستة أشهر عن الاشتراك في أية مباحثات مصرية. وبدأ نجم الرئيس عبد الناصر يظهر وبدأت ارادته هي التي تسود في قرارات حكومة الثورة المصرية.

وأعلن مجلس الثورة المصرية قيام النظام الجمهوري في مصر وتم الاستيلاء على ممتلكات الأسرة المالكة دون دفع أية تعويضات.

وكانت تجري في تلك الأثناء مفاوضات متقطعة بين بريطانيا ومصر، وكان كل فريق يقترب من



الاتفاق على وجهة نظر الفريق الآخر. إذ اعترفت مصر بأنه ليس من الضروري أن تصبح قاعدة القناة مصرية، كما أبدت بريطانيا استعدادها لخفض عدد خبرائها الفنيين بتلك القاعدة.

ولما عدت إلى الوزارة في اكتوبر كانت المسألة المعلقة هي مسألة الوضع الخاص بالخبراء الفنيين الانجليز ومسألة الظروف التي يمكن فيها استخدام القاعدة. وقد وافق الجانب المصري على أن نستخدم القاعدة إذا هوجمت إحدى الدول العربية ولكننا كنا نريد أن يكون من حقنا استخدام القاعدة إذا وقع هجوم على ايران وتركيا.

وتعثرت المفاوضات مع مصر في ذلك الوقت وكان من رأي كثير من أعضاء مجلس العموم أن تقطع هذه المفاوضات ولكني كنت لا أزال آمل في امكان الوصول الى اتفاق مع مصر.

وكنت أرى أنه سيحتم علينا في حالة فشل التفاوض مع مصر، أن نبقى في قاعدة السويس إلى ما لا نهاية رغم عداء مصر ومحاولتها اخراجنا منها بطريقة دولية. وهو أمر غير مرغوب فيه لما ينطوي عليه من مساوىء سياسية وعسكرية واقتصادية وما قد يؤدي إليه من تدهور في العلاقات بين بريطانيا وبقية الدول العربية.

ثم أن بقاءنا بالقوة في قاعدة السويس كان سيتيح الفرصة امام مصر لاستصدار قرار دولي ضدنا، كما كان سيتيح لها الفرصة لكي تضاعف هجوم الفدائيين على القاعدة يضاف إلى هذا انه كان سيتعذر ايجاد عمال مصريين للعمل بالقاعدة. وأخطر من كل هذا أنه كان من المحتمل أن تقطع مصر مياه الشرب عن القاعدة، وهكذا كانت قواتنا ستصبح مقيدة بالبقاء في قلب القاعدة دون امكان الاعتماد عليها لاستخدامها في أية منطقة اخرى في حالة الطوارىء.

وكان الخلاف السياسي على كيفية التعامل مع مصر مستمراً بين أميركا وبريطانيا ففي نهاية ذلك العام بعث سفيرنا في القاهرة يقول أنه يبدو أن سياسة اميركا تقوم على أساس الاعتقاد بأن مصر ما زالت ضحية للاستعمار البريطاني، وأن هذا هو سبب العطف الذي تبديه أميركا نحومصر.

ولكن الحقيقة هي أن اميركا كانت تشعر بأن أهل المنطقة لا يحبونها وتخشى أن تفقد ميل حكومة الثورة المصرية نحوها، كما كانت لا تريد أن يكون دورها في المنطقة دورا قانونيا. ولهذا فإنها لم تؤيد بريطانيا حليفتها وشريكتها في حلف الاطلنطي. وكانت النتيجة أن استغل المصريون هذه الخلافات السياسية بين لندن وواشنطن.

وقررت الحكومة البريطانية الاستمرار في التفاوض مع مصر. وكانت العلاقات في هذا الوقت

تنمو وتتوثق بين تركيا وباكستان، فرأيت أن أثير مع أميركا مسألة «الحزام الشمالي» للدفاع عن الشرق الأوسط، ولا سيما أن اميركا كانت تعد برنامجا لتقديم مساعدات اقتصادية لمصر، لتجعلها تخفف من موقفها منا إلى أن تنتهي المفاوضات معها.

وفي يونيو سنة ١٩٥٤ زرت واشنطن فتباحثت مع المسؤولين هناك في هذا الأمر وتمكنت من اقناعهم بأن تستخدم اميركا برنامج مساعدتها لمصر كوسيلة لاغرائها على تعديل موقفها حتى يمكن عقد اتفاق معها. كذلك أبدت الحكومة الأميركية استعدادها لكي تعلن رسميا على الملأ انها تؤيد مبدأ حرية الملاحة بقناة السويس، وهو مبدأ كان من المقرر ان تعيد مصر وبريطانيا تأكيدهما التمسك به.

وبدأت في ذلك الوقت تظهر عوامل جديدة كان لها تأثير على العلاقات بين مصر وبريطانيا. وتبين للعسكريين في بريطانيا ان الأسلحة الذرية الحديثة تستوجب تغييرا في الخطط الاستراتيجية، وأن الاحتفاظ بقاعدة السويس لم يعد امرا ذا اهمية وخاصة أن ورش القاعدة وتموينها متوقف على المصريين.

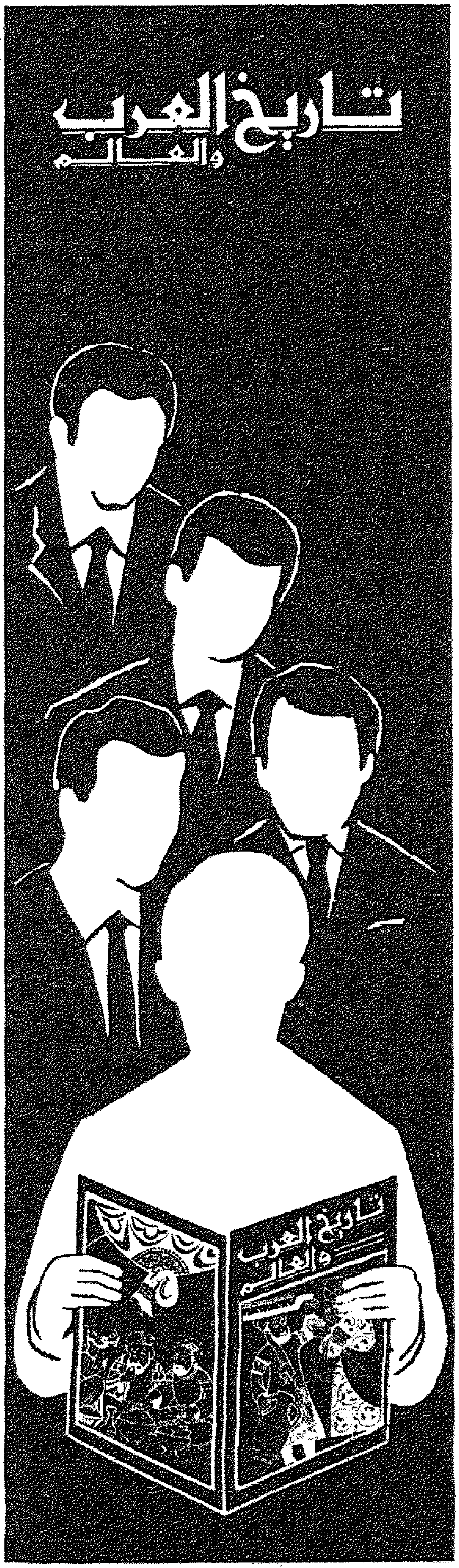
ولهذا أبدى لورد الكسندر وزير الدفاع وانطوني هيد وزير الحربية ميلهما الى الاتفاق مع مصر على اعتبار ان عقد أي اتفاق جديد معها يعد وسيلة يمكن لبريطانيا أن تتخلص بها من التزامات انقضى عهدها.

يضاف إلى هذا أن أميركا كانت تضغط علينا لكي نصل إلى اتفاق مع مصر، كما كان أصدقاؤنا في العالم العربي يريدون أن نصل إلى هذا الاتفاق.

وهكذا بدا لنا أن عقد اتفاق جديد مع مصر لا بد أن يحقق لنا مزايا كما أنه جدير بالتجربة.

وتم توقيع الاتفاق الجديد مع مصر في ١٩ اكتوبر سنة ١٩٥٤ ونص فيه على أن تجلو القوات البريطانية عن قاعدة القناة خلال ٢٠ شهرا.

والواقع ان كلا من بريطانيا ومصر لم تكن راضية عن استمرار الحالة بينهما على ما كانت عليه. بيد أن هذا الاتفاق كان ينطوي على اخطار سياسية بالنسبة لنا. ●



كنوز القارة القطبية

□ تعرف القارة القطبية الجنوبية منذ وقت طويل بقارة العلم، العلماء يعتقدون ان سجل التاريخ الجيولوجي لكرتنا الأرضية محفوظ تحت جليدها. والسفر اليها، يقارن، من بعض النواحي، بالسفر بآلة زمن خيالية عبر الماضي السحيق.

ومن ابرز معالم فصل الصيف على القارة، قيام العلماء باستكشاف جزر جرداء في بحر ويديل، عند الطرف الجنوبي لأميركا الجنوبية. وتحتوي هذه الجزر، التي تعرف باسم جيمس روس، وسنوهل، وسيمور، على سجل احفوري يعود تاريخه الى مئة مليون سنة. ويأمل العلماء في ان تقدم هذه المواد الاحفورية معلومات جديدة عن الطريقة التي انشطرت بها قارات العالم وتباعدت عن بعضها بعضا، وعن الظروف التي كانت سائدة قبل ذلك الحدث المفاجىء العنيف.

ومنذ نحو خمسين عاما عندما قدمت للمرة الأولى النظرية القائلة بأن القارات الحالية التي تشكل نصف الكرة الجنوبي كانت ذات يوم اجزاء من كتلة يابسة واحدة تسمى غوندوا نالاند، كان عدد قليل جدا من العلماء على استعداد لقبول تلك النظرية بصورة جدية. اما اليوم فإن نظرية الألواح التكتونية — وانقسام الألواح الهائلة الحاملة للمحيطات والبحار والقارات وتباعدها، مقبولة عالميا، باعتبارها احدى نظريات الجيولوجيا الحديثة.

وتحتوي الجزر الصغيرة الثلاث — كما يرى العلماء على افضل سجل محفور للفترة الجيولوجية التي تشمل انقسام غوندوانالاند والممتدة من مئة مليون سنة الى ثلاثين مليون سنة خلت. ويصف وليم زينميستر، الاستاذ بجامعة ولاية اوهايو، وقائد بعثة الاستكشاف، هذه المنطقة بأنها مفتاح فهم التاريخ الأولي للأرض.

وقد اكتشفت هذه الجزر منذ سبع سنوات. وتحتوي المواد الأحفورية فيها على مجموعة كبيرة من بقايا النباتات والحيوانات بما في ذلك بقايا طيور البطريق العملاقة التي كان طولها نحو مترين، أي ضعف طول طيور البطريق الحالية. هذا بالاضافة الى ان بقايا الحيتان المتحجرة، والزواحف البحرية الكبيرة وأسماك القرش تغطي الجزر الثلاث. وكانت بعثة سابقة قد وجدت جذوع اشجار متحجرة يبلغ سمك الواحد منها مترا تقريبا في جزيرة خالية من الأشجار في الوقت الحاضر. وتثبت بقايا النباتات والحيوانات ان هذه الجزر القطبية الجنوبية كانت قبل انقسام غوندوا نالاند وتباعد اجزائها موجودة على مسافة ابعد إلى الشمال. في مناخ اكثر اعتدالا. ●

اكتشاف بقايا السفينة تيتانيك

□ عثرت مجموعة من الباحثين بجامعة كولومبيا على ثلاث قطع من بقايا السفينة «تيتانيك» ومن المقرر فحصها قبل الرجوع الى ميناء نوفا سكوتيا في اول اغسطس القادم.

ويقوم المليونير جاك جريم بتمويل هذا البحث ويعد الثالث من نوعه خلال الأعوام الأخيرة وقد عرقلت الأحوال الجوية السيئة اتمام هذا البحث خلال الأعوام الماضية.

وكانت السفينة تيتانيك قد ارتطمت بالثلوج خلال رحلتها عام ١٩١٢ وغرقت وعليها ١٥١٣ شخصا.

اغلى اللوحات.. بالمزاد العلني



□ «اسبانيا» لوحة بالزيت على القماش للرسام ارجينز ــ ١٩١٠.

□ ما زال مصير الباخرة «فرنسا» ناقلة الركاب الفخمة التي بيعت وأعيدت تسميتها «النرويج» يحتل عناوين رئيسية في الصحف وقد عرضت في المزاد في العاشر من يوليو الماضي مجموعة من اللوحات التي كانت تزين أعظم عابرات المحيطات في العالم وعددها ٢٥٠ لوحة والتي بقيت ملكا لشركة الملاحة البحرية حتى هذا التاريخ ومنذ أن دخلت السفينة خدمة عبور المحيطات عام ١٩٦٣.

وكانت تلك اللوحات معلقة في صالونات السفينة وممراتها وغرفة الطعام وفي خمسة وثلاثين شقة فخمة في السفينة، كل منها كان مزينا بأسلوب يصور احدى مقاطعات فرنسا. وقد شارك في تحقيق هذا الغرض الفني على متن السفينة نخبة من الفنانين المعاصرين الموهوبين ومن بينهم «ايزبيري» «براير» «بيرتوم سانت اندريه» «ديسبيريه» «بيزومبيه» وغيرهم.

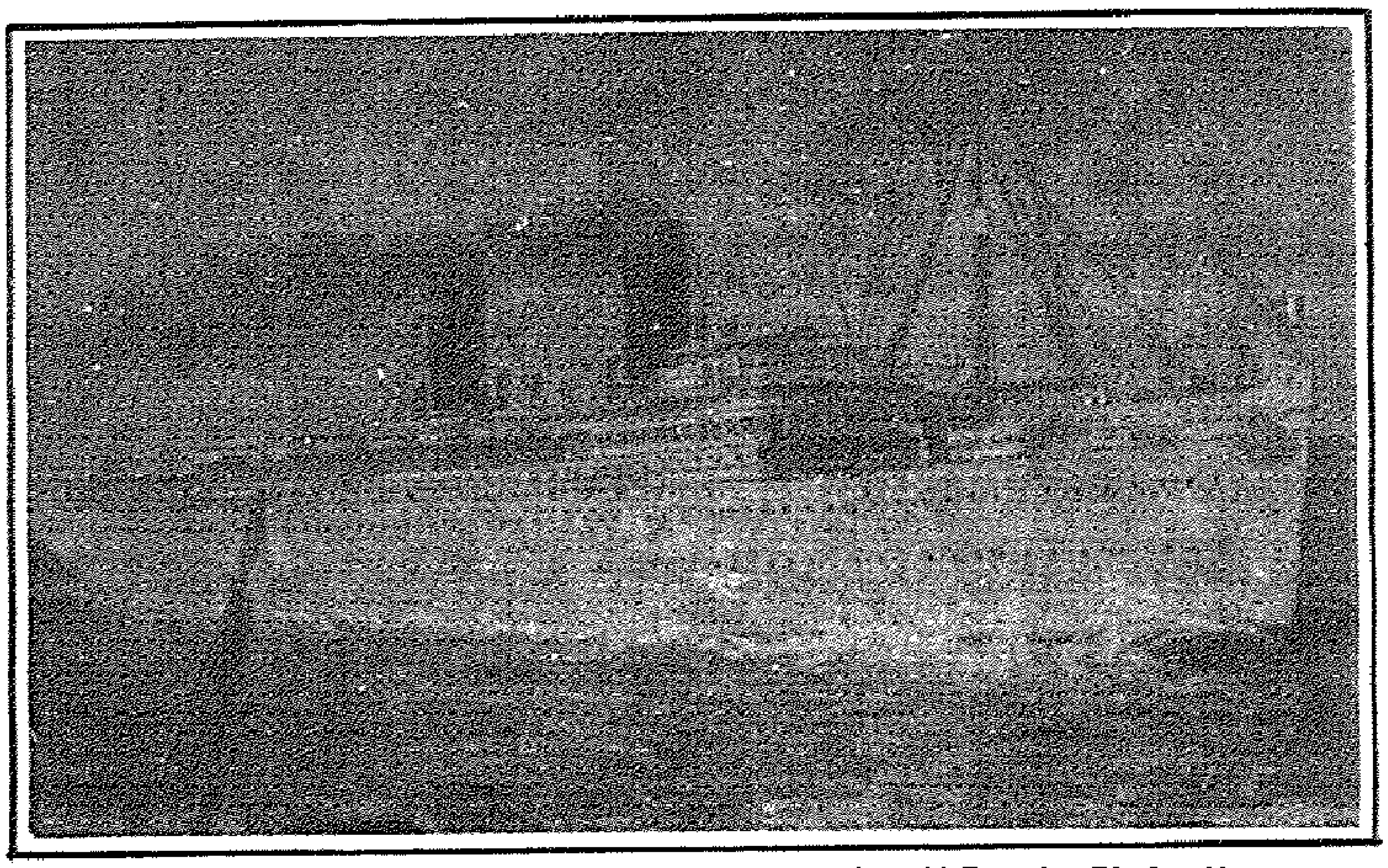
العثور على سفينة عربية في اعماق بحر مارسالا غرقت قبل ألف عام

□ قال ناطق باسم دائرة الآثار والتراث في باليرمو ان مجموعة من الغطاسين المحترفين عثرت في اعماق مياه بحر مارسالا بجزيرة صقلية على سفينة عربية غرقت هناك قبل الف عام بالضبط اي ابان الموجات الاولى للفتح الاسلامي في صقلية. وذكرت الصحف في مراسلات عاجلة من باليرمو ان اكتشاف السفينة العربية يعتبر على درجة قصوى من الأهمية العلمية ــ التاريخية اذ صرح احد الغطاسين بأن هيكلها متكامل ولم يتضرر حيث ترقد في اعماق البحر بهدوء كامل وسط مياه شفافة لا تكثر بها اسماك وأعشاب بحرية كان يمكن ان تصيب خشب السفينة بالتآكل.

وقد تمكن فريق الغطاسين بتكليف من قيادة حرس المراقبة المالية ودائرة الاثار من استخراج حمولة السفينة كاملة قبل ان يكتشفها لصوص وقراصنة التحف الاثارية الذين يبيعون مثل هذه المواد الى متاحف وهواة جمع التحف في كافة انحاء العالم. ووصفت احدى صحف الجنوب اكتشاف السفينة العربية بأنه حدث مثير بمعنى الكلمة ستعرف قيمته كاملة حين يبدأ العمل في نشل السفينة من اعماق البحر في مطلع سبتمبر القادم. وتدرس دائرة الاثار حاليا تكاليف هذه العملية الشاقة لتنفيذ توصية الخبراء بنشلها الى سطح الماء كاملة كما هي دون التأثير على هيكلها الهش بالتأكيد بعد قرون متعددة لبقائها في اعماق البحر الذي فتح الطريق للحضارة العربية نحو اوروبا وسيجري ترميم السفينة بعد البحث في الوثائق عن اسمها او اسم صاحبها في تلك الحقبة او الملك التي كانت جزءا من اسطوله انذاك لوضعها فيما بعد في معرض خاص ليشاهدها الجمهور. ●

وتضم اللوحات كذلك اعمالا لعدة فنانين ذوي باع طويل ومنها لوحتان بريشة «تشابلن مايدي» ولوحة مائية بريشة «دنويير دي سيغونزاك» لوحتان اخريان تحملان توقيع «راؤول دفي».

وتجدر الاشارة إلى أن اثنتين من الصور المعروضة للبيع بريشة الفنان «لاكروا» المرسيلي كانتا قد استخدمتا من قبل على متن ناقلة اخرى كانت تحمل الاسم ذاته عام ١٩١٢.



□ «السفينة» لوحة للرسام د. ديلابلين.



□ لوحة رائعة للرسام «لي كوينزي»

مستوطنات بشرية تاريخية في حلب يعود تاريخها للألف الأول قبل الميلاد

□ تمكنت بعثة الاثار الوطنية السورية في نهاية اعمالها التي قامت بها بإحدى قرى مدينة حلب بشمال سورية من اكتشاف عدة مستوطنات بشرية يعود تاريخها الى الألف الثاني والثالث قبل الميلاد.

اعلن ذلك مصدر سوري مسؤول وقال ان هذا الاكتشاف الأثري سيلقي اضواء جديدة على التاريخ الحضاري لمدينة حلب. وكانت البعثة الأثرية المذكورة قد اكتشفت في بداية اعمالها بالتنقيب في نفس الموقع معبدا ضخما يعود تاريخه الى الألف الأول قبل الميلاد ويحتوي على مجموعات ضخمة من التماثيل والنقوش الفنية التي تمثل الحياة الفكرية والدينية قبل ثلاثة الاف عام.

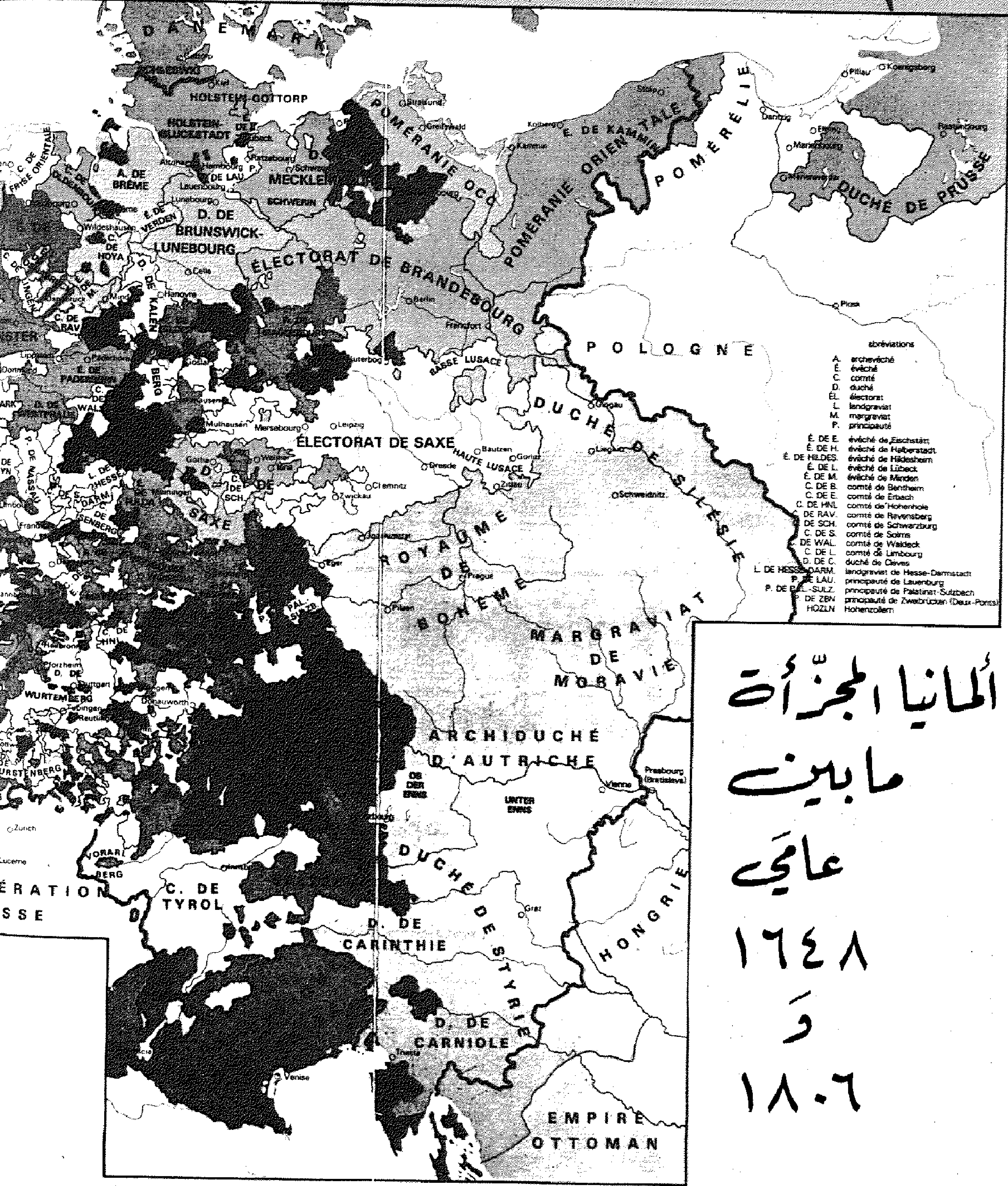
مسلة من المعدن طولها ١٣٧ قدما

□ أقام المهندس المعماري والشاعر الروسي اندريه فوزينزكي مسلة من المعدن يبلغ طولها ١٣٧ قدما في مدينة موسكو وذلك في اطار الاحتفال بمرور ٢٠٠ عام على ضم ولاية جورجيا واعتبارها من الامبراطورية الروسية.

والمسلة عبارة عن لوائح مكتوب عليها مقتطفات من الحروف الابجدية لولاية جورجيا والحروف الأبجدية الروسية وبعض قطع شعرية لمشاهير الكتاب الروس.

ومن اشهر ما كتب على هذه اللوائح مقطوعة شعرية لبوريس باسترناك الشاعر الروسي الشهير الذي توفي عام ١٩٦٠ وقام بكتابة قصة «الدكتور زيفاجو».

أيام كانت ألمانيا ٢٣٤ دولة...



ألمانيا المجزّأة ما بين عامَي ١٦٤٨ وَ ١٨٠٦

□ المانيا حين كانت ٢٣٤ دولة عام ١٦٤٨.

ومعاهدة وستفاليا تضع حداً لحروب الثلاثين عاماً

د. رياض العالي

كانت ألمانيا، مطالع القرن السابع عشر، وحتى احتلال بونابرت لها، مقسمة إلى ٢٣٤ دويلة، أو إمارة، و٥١ مدينة حرة، وعدة إقطاعيات للحرس الامبراطوري. فقد مزقتها الحروب الطائفية، بين البروتستانت والكاثوليك، والصراع بين السلالات الحاكمة في ألمانيا وأوروبا. وقد لعبت، في ما بعد، براندبورغ والنمسا، دورا هاما في التوحيد.

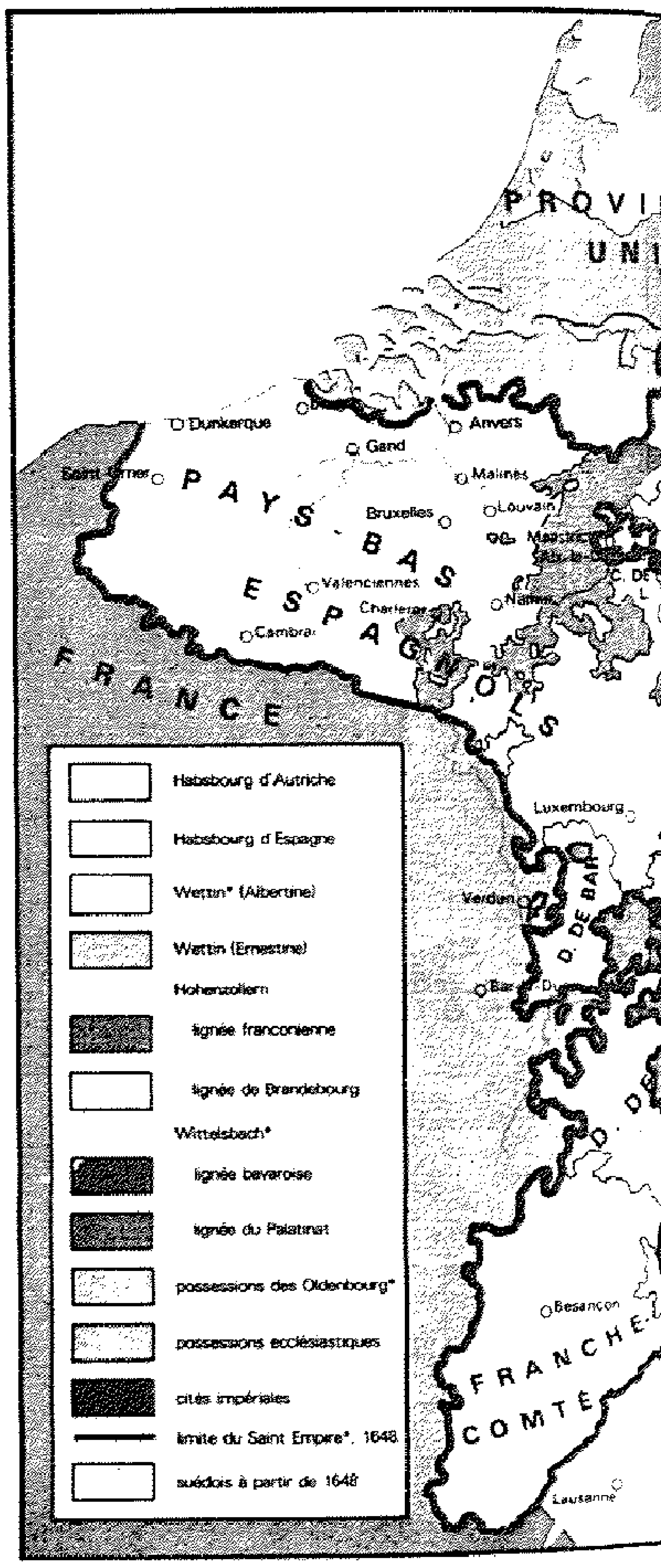
ولما احتل نابليون ألمانيا اختصر العدد اختصارا شديدا، وضم المقاطعات الصغيرة إلى مقاطعات أكبر منها، وظهرت دويلات واسعة قليلا، بينها بروسيا. وغدت الدويلات تسعاً.

تصور محفورات جاك كالّو المآسي التي عاشتها ألمانيا في ظل صراعاتها الداخلية، وصراعات الدول الأوروبية (فرنسا ـــ إسبانيا ـــ هولندا ـــ إيطاليا ـــ إسبانيا) خلال حرب الأعوام الثلاثين، فينقل ألوانا من الفواجع: النهب، الحرائق، القتل والاغتيال، الوباء، الجوع، الاغتصاب، ابتزاز الجيوش المحتلة الشعب... وقد خرجت ألمانيا من تلك الحرب منهكة مدمرة مجردة من كل قدرة...

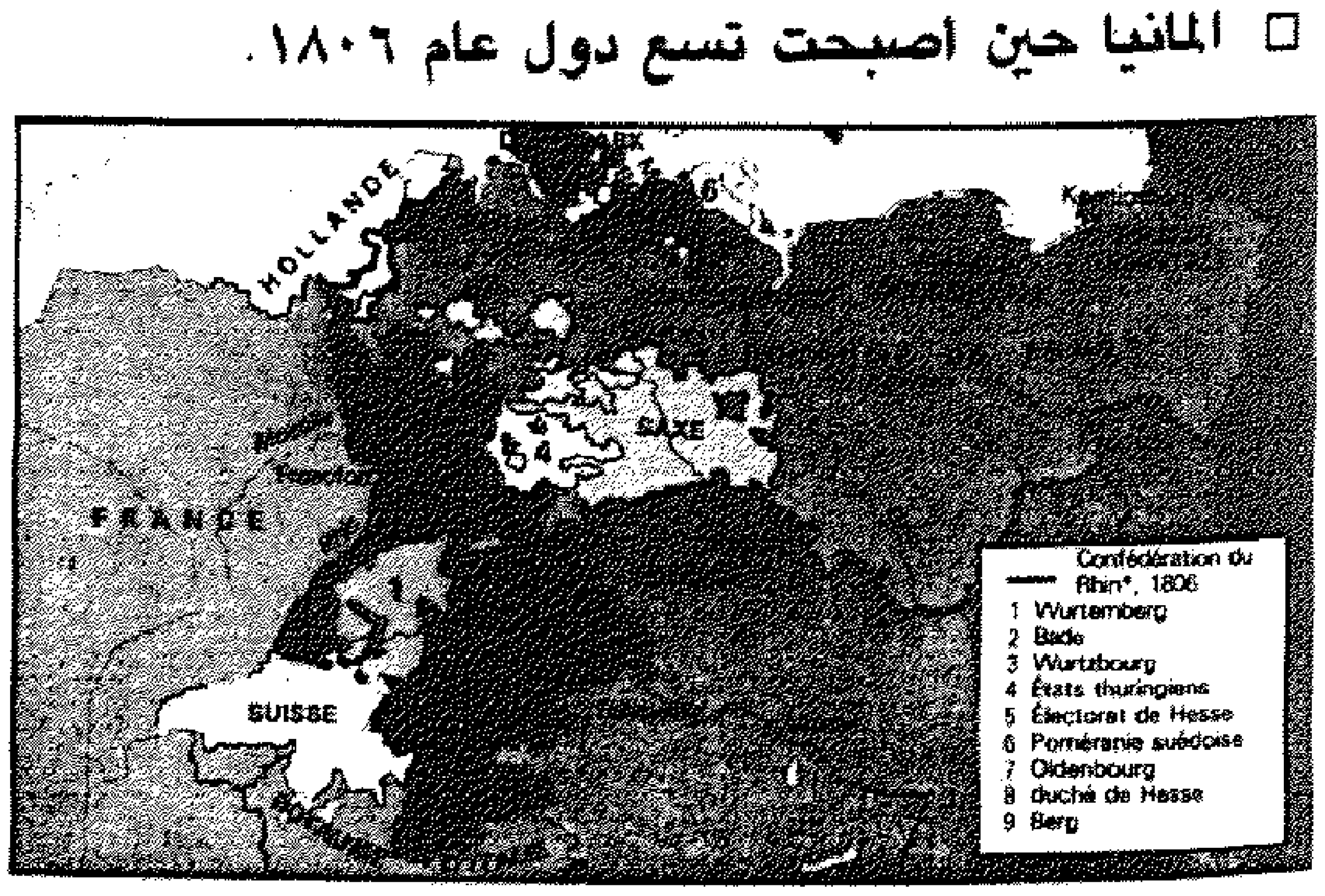
بدأت تلك الحرب عام ١٦١٨، ٢٣ أيار. ولم تنته إلا في ٢٤ تشرين الأول ١٦٥٨، بتوقيع معاهدة مونستر وأوسنابروك، المشهورة بمعاهدة ويستفالي.

بدأت بثورة بوهيميا البروتستانتية التي سحقها الامبراطور فرديناند في معركة الجبل الأبيض، فقضى على حلم البوهيم بتنصيب فريدريك الخامس على عرش بوهيميا.

غير أن تدخل القوى البروتستانتية في الشمال، ولعبة فرنسا ريشيليو، وإسبانيا دون



□ ألمانيا حين اصبحت تسع دول عام ١٨٠٦.



اوليفاريس، أطالت زمن الحرب ثلاثين عاما.

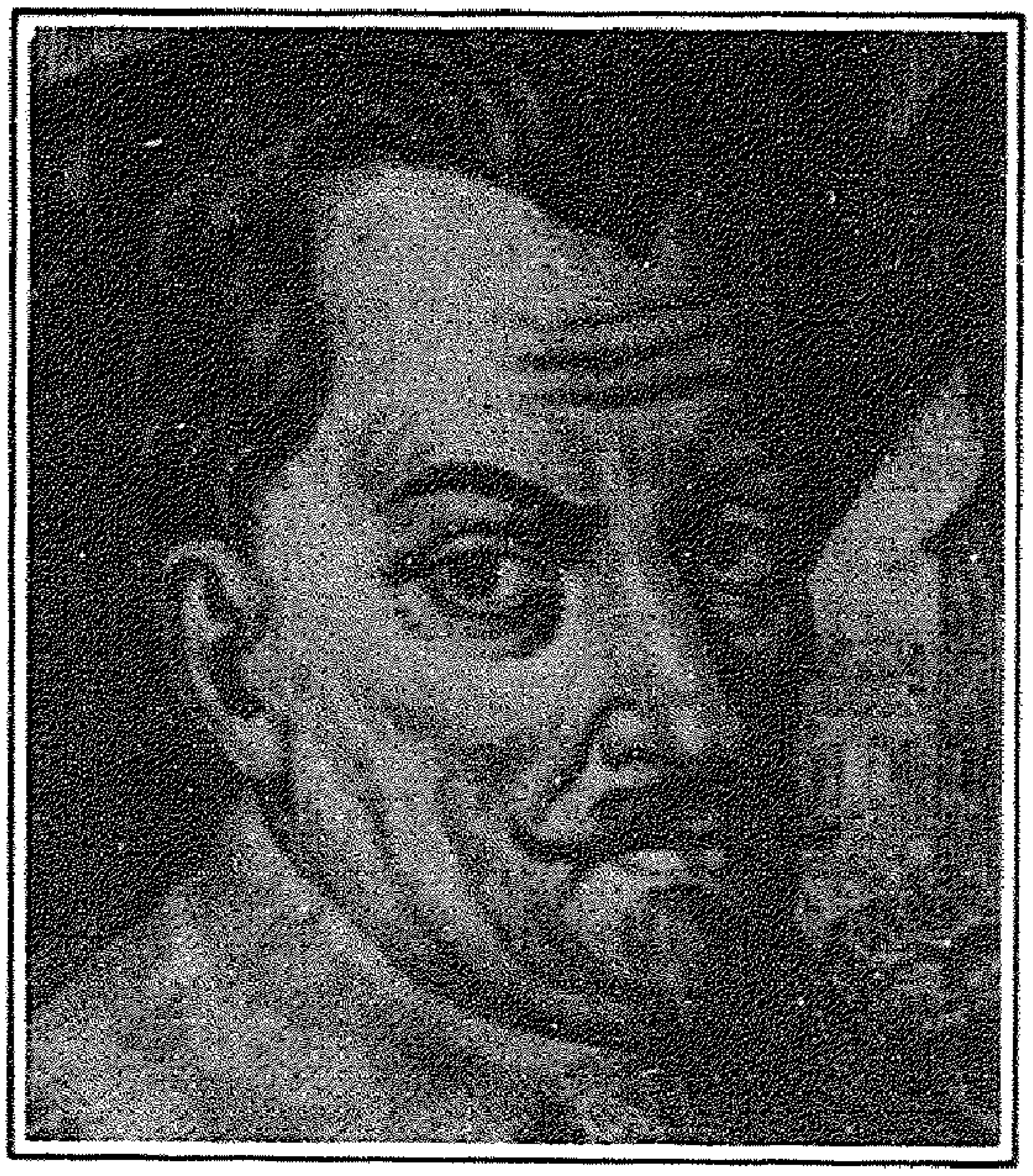
كادت انتصارات والنشتاين تتيح للامبراطور ان يقضي على الدانمرك وحلفائها من البروتستانت، ولكن تدخل ملك السويد غوستاف ادولف، وانتصار جيشه في براندفيلد ولوتزن ــ حيث قتل الملك نفسه ــ كادا يضعان حدا للحرب، غير أن الأمراء الألمان البروتستانت وقعوا صلحا مع الامبراطور، فقضي على الحلم.

قررت فرنسا عندئذ التدخل السافر ضد الامبراطورية الاسبانية، متحالفة مع هولندا، التي كانت على حرب مع فيليب الرابع، والسويد التي كان يحكمها المستشار أوكزانستيريا، دون أن تتخلى عن صداقاتها مع الدويلات الكاثوليكية في جنوب ألمانيا، خاصة البافيير.

السنة التالية هددت القوات الاسبانية باريس، بعد احتلالها كوربي، فيما جيوش الامبراطور كانت تحاصر سان ــ جان دولوسن. غير أن الوضع تحسن سريعاً بعد احتلال بريزاك، وقد احتلها ساكس ويمر حليف ريشيلو (١٦٣٨)، وسقوط بربينيان، واجتياح روسينيون (١٦٤٢) والانتصار الساحق في روكروا (٩ أيار ١٦٤٣) الذي أحرزه دوق أنجيان.

لقد كان للتضحيات الضخمة والمآسي الفاجعة التي جرتها الحرب على عدة مناطق وشعوب، الأثر المباشر في عزم حكام تلك البلاد على وضع حد لها. وقد هدأت الحمية الطائفية التي كانت شديدة في العصر السابق، وبدا من الممكن تحقيق مساومة، يتم فيها قيام توازن يضمن مصالح الحكومات جميعا.

ومنذ ١٦٤١ تقبل ملك فرنسا والامبراطور فرديناند بفكرة جمع المؤتمرين: مونستر وأوسنابروك، وقد شجع البابا أوربان الثامن ذلك. وكان من المفروض أن يحدث ذلك في ٢٥ آذار ١٦٤٢، ولكنه أجل حتى نيسان ١٦٤٤. وقد جاء المندوبون الفرنسيون إلى مونستر ولكنهم لم يجدوا أحدا. وكان الافتتاح في الرابع من كانون الأول ١٦٤٤. غير أن الأعمال لم تبدأ رأسا، ومضى وقت قبل ذلك. وقد طالب الفرنسيون باطلاق مطران تريف الذي احتجزه الامبراطور. وطالبوا بأن يمثل كل الأمراء والمدن الحرة في ألمانيا، مما يعني الاقرار بسيادتهم،



□ البرت دوق دوفريدلاند، كونت ولانشتاين. شاء ان يعتمد على جيشه الفاعل ليوحد المانيا لمصلحته. ولكن الامبراطور دبر مقتله.

وحفزهم على دعم المواقف الفرنسية. ووافق مندوبو الامبراطور وبدأت المحادثات جديا.

أصدقاء لا جيران

مثل كل حكام أوروبا تقريباً في المؤتمر، ما عدا قيصر روسيا والسلطان التركي وملك انكلترا شارل الأول، الذي كان يعاني من فشل في الحرب الأهلية التي اضطرته الى الصدام مع البرلمان.

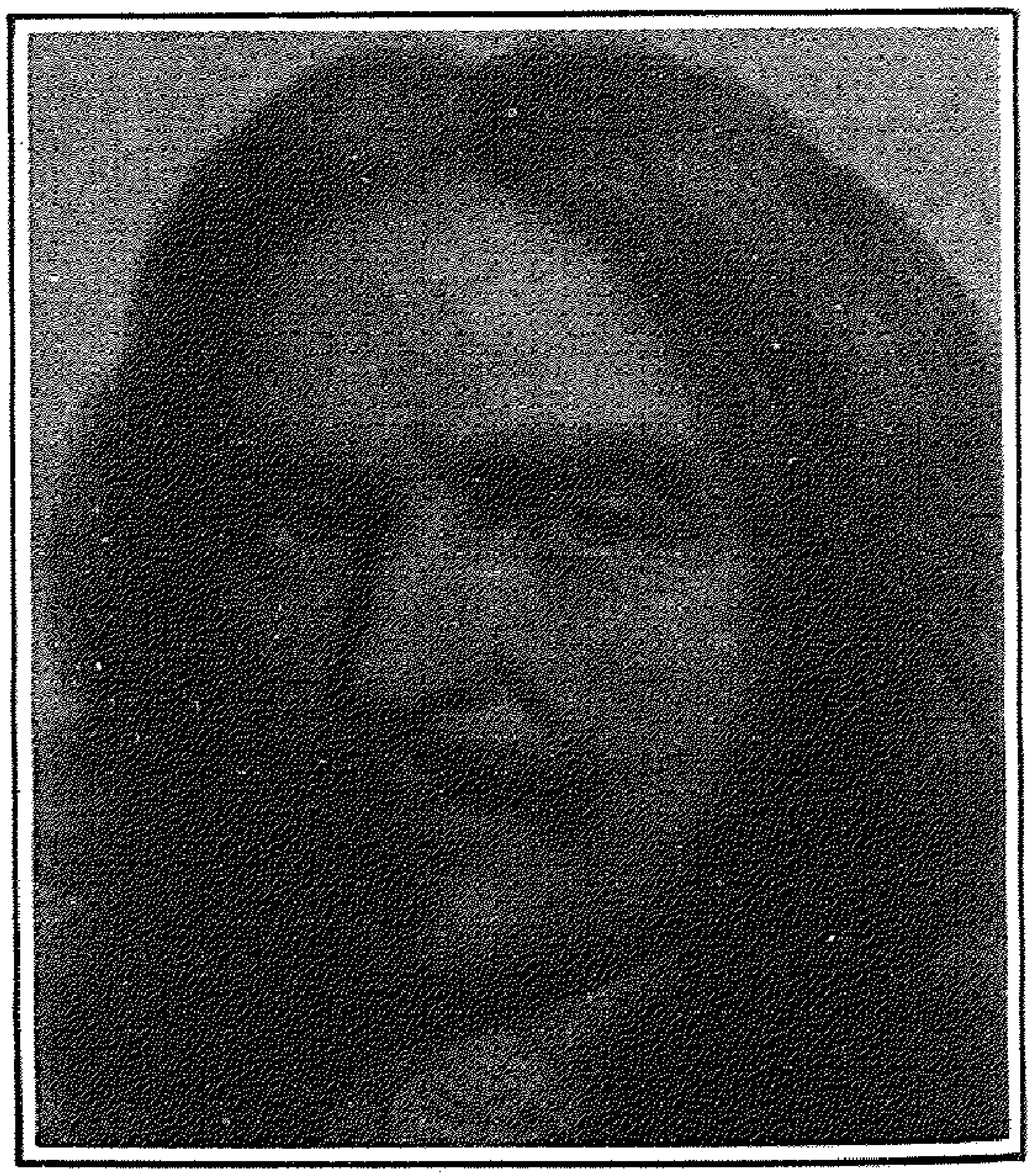
مثل السويد سالفيوس وجان أوكزانستيرنا. وكان الأول أشد اقترابا من فرنسا، من الثاني. ورئس الوفد الفرنسي هنري دورليان، دوق لونغفيل. أما المفاوضان الحقيقيان فكانا كلود دو ميسم، كونت آفو، وآبيل سرفيان.

وأرسل الاسبان لمونستر، دون غاسبار براكامونت، كونت بنيراندا. ومثل الامبراطور كونت تروتما نسدورف. وعدا مندوبي الأقطاب الأربعة في الصراع، حضر مندوبو الدويلات الألمانية، ومندوبو المقاطعات المتحدة، والبرتغال، والسافوا، وتوسكان ومانتو، وقطاعات سويسرا وفلورانسا. وقد لعب ملك الدانمرك، الذي صالح الامبراطور منذ ١٦٢٩، لعب في أوسنابروك دور



□ ملك السويد غوستاف أدولف الذي وسع اثر بلاده خلال حرب الثلاثين عاما.

□ برنارد دو ساكس وينر حليف فرنسا المخلص.



الوسيط. أما في مونستر فقد قام بهذا الدور مندوب البابوية فابيو شيجي، والسفير النمساوي كونتاريني.

كانت مهمة المؤتمرين واسعة ومعقدة. ذلك أن مصالح بعض الحلفاء كانت متعارضة. مصالح آل هابسبورغ مثلاً لم تكن متفقة دائماً مع مصالح الامبراطور. وكانت فرنسا متحالفة مع القوى البروتستانتية في السويد، والمقاطعات المتحدة، ولكنها كانت «ابنة الكنيسة البكر» لذلك كانت تتوقع دعم ولايات صديقة في المانيا الجنوبية الكاثوليكية. أما الهولانديون والمقاطعات المتحدة فكانوا يعتبرون فرنسا صديقة لا جارة، لذلك لم يكونوا يخفون أية نوايا عنها.

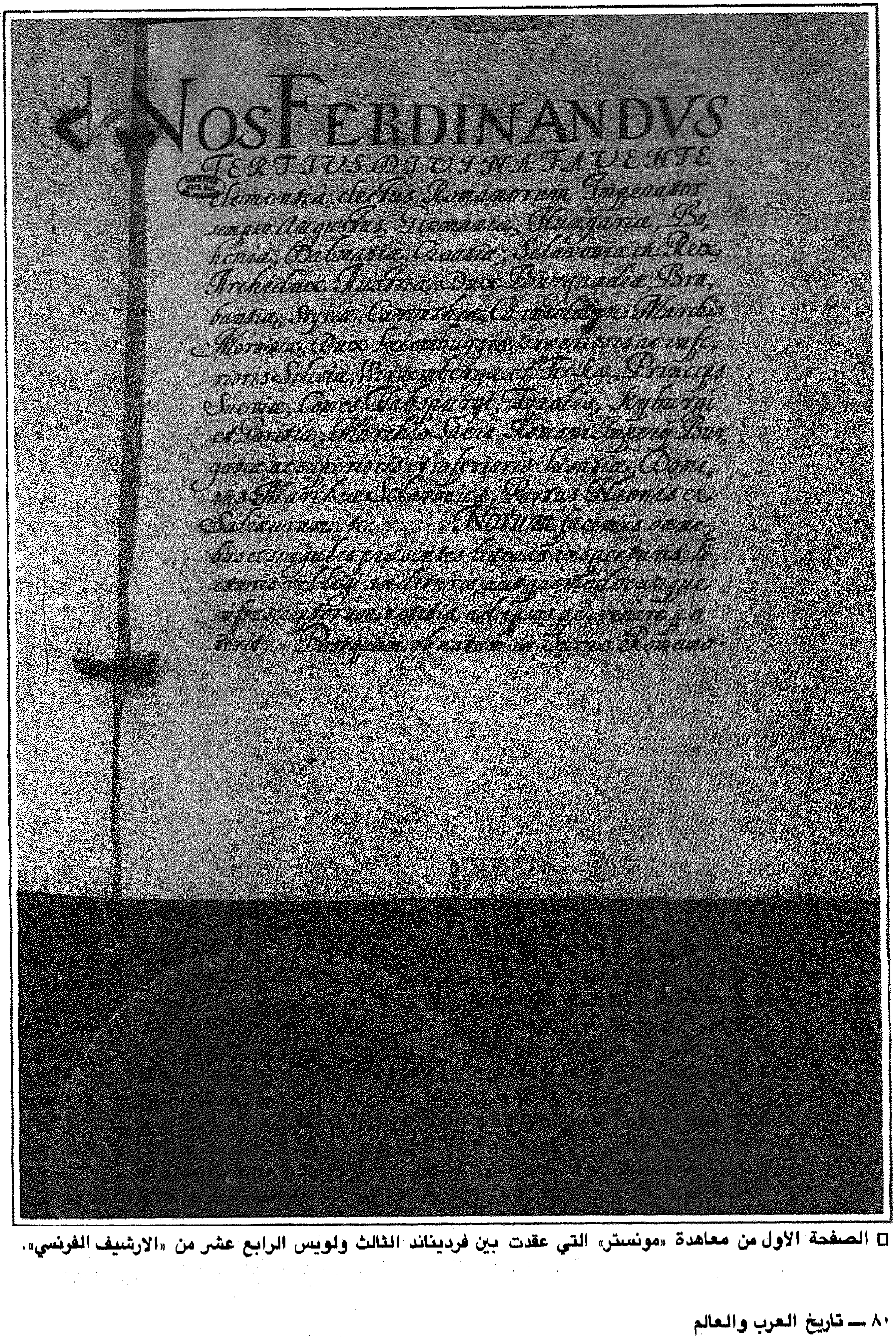
منذ ١٦٤٦ ساد السلام بين اسبانيا والمقاطعات المتحدة، وإن أجّل الهولانديون التوقيع حتى لا يغضبوا فرنسا. لقد انزعجوا من مشروع مازاران القاضي باستبدال كاتالونيا التي تحتلها الجيوش الفرنسية بالأراضي الواطئة (الهولاندية) مع انهم حصلوا على اعتراف مدريد باستقلالهم الذي ناضلوا طويلا من أجله.

تورين يجتاح البافيير

حاول مندوب الامبراطور تروتمانسدورف عزل فرنسا، بفصلها عن السويديين والأمراء الألمان. ولكنه لم يوفق. ذلك أن ريشيلو دعم المطالب السويدية حول الأراضي في ألمانيا الشمالية، التي لم تكن تعنيه، ولم يكن الأمراء الألمان لينسوا دعمه لجعلهم يمثلون في المؤتمر. ومنذ ١٦٤٦ أقر بعودة كل الألزاس إلى فرنسا.

في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٨ وقعت المقاطعات المتحدة معاهدة مع اسبانيا، اعترفت فيها اسبانيا بسيادة واستقلال الجمهورية، وتخلت لها عن أقسام من الفلاندر. فكونت برابان ولامبورغ «بلاد الجنرالية» حاجزا رادعا ضد أي هجوم متوقع من الجنوب. هذه المعاهدة، جعلت فرنسا في موقف حرج: ذلك أن الجيش الاسباني الموجود في البلاد الواطئة، بات يستطيع مهاجمة فرنسا وقد حفظ ظهره، بينما كان من قبل يحارب على جبهتين.

هذا الوضع، بالاضافة الى الانزعاج المتزايد من وطأة الحرب، حمل مازاران على تسريع الأحداث، ليعجل بالصلح مع الامبراطور. فأعطى أوامره إلى تورين لاحتلال بافيير، التي كان حاكمها قد قطع الهدنة الموقعة قبل زمن يسير مع فرنسا. بعد أسابيع أحرز الفرنسيون نصرا هاما في زوسمارهاوزن، وكان باستطاعتهم تخريب امارات ماكسيميليان.



NOS FERDINANDUS
TERTIUS DIVINA FAVENTE
clementia, electus Romanorum Imperator
semper Augustus, Germaniae, Hungariae, Bo-
hemiae, Dalmatiae, Croatiae, Sclavoniae etc. Rex,
Archidux Austriae, Dux Burgundiae, Bra-
bantiae, Styriae, Carinthiae, Carniolae, Marchio
Moraviae, Dux Lucemburgiae, superioris ac infe-
rioris Silesiae, Wirtembergae et Teckae, Princeps
Sueviae, Comes Habspurgi, Tyrolis, Kyburgi
et Goritiae, Marchio Sacri Romani Imperii, Bur-
goviae ac superioris et inferioris Lusatiae, Domi-
nus Marchiae Sclavonicae, Portus Naonis et
Salinarum etc. NOTUM facimus omni-
bus et singulis praesentes litteras inspecturis, le-
cturis vel legi audituris, aut quomodocunque
infrascriptorum notitia ad ipsos pervenire po-
terit; Postquam ob natum in Sacro Romano

□ الصفحة الأول من معاهدة «مونستر» التي عقدت بين فرديناند الثالث ولويس الرابع عشر من «الارشيف الفرنسي».



□ هنري دولاتور دوفرني، فيكونت تورين، من اقدر القادة الفرنسيين.

جـزع الامبـراطور فـرديـنانـد فـأرسـل ترونسماندورف إلى مونستر ليعقد صلحا مع فرنسا. وفي ٢٠ آب ١٦٤٨ أحرز كوندي انتصارا كبيرا في لانس على الارشيدوق ليوبولد، واقنع الجـيش الاسـبـانـي في البـلاد الواطئـة الامبراطوريين بأن من العبث متابعة القتال في الوقت الذي بلغت فيه الجيوش السويدية براغ.

نهاية حلم قديم

أخرت ضرورة تنسيق أعمال المؤتمرين توقيع المعاهدات التي وقعت أخيرا في ٢٤ تشرين الأول ١٦٤٨.

نالت فرنسا ما شاءت. فضمت اليها مقاطعات متزوتول وفردان التي احتلتها قبل مائة عام، واعترف لها بها أخيرا. وحصلت عـلى موقـع ستراتيجي هو بريزاك، فهو يشرف على الطريق التي يعبرها الاسبـان من ايطاليـا إلى البلاد الواطئة. وهو مع فيليبسبورغ يشكـلان بوابـة مثالية لألمانيا. وحظيت كذلك بـالألزاس العليا والدنيا، ولكن ستراسبورغ ظلت مستقلة. وضمّت كـذلك مـدن ديكـابـول الألزاسيـة، ولكـن الامبراطورية احتفظت ببعض حقوقها فيها. ولكن رفضت مشاريع مازاران في ايطاليا وهولاندا، فقد كانت فرنسا تهيمن على قطاعات اقتصادية هامة فيها.



□ لويس الثـانـي دوبوربـون، دوق انجيان، امـير كوندي، صاحب انتصار روكروا.

وحصلت السويد على البوميراني وسترالسند وبريم وفردين، أي أنها باتت تقيم في الدييت الامبراطوري، مع غرامة قدرها خمسة ملايين تالر.

واحتفظ ماكسيمليان دوبافيير الذي حل محل زميله في الدراسة فريدريك الخامس الذي كان يعيش في المعتقل بعد ثورة بوهيميا. وخص شارل لويس ابن ملك بوهيميا السابق، بمقاطعة بالاتينا الرينانية.

وعوض على برندبورغ ومكلنبورغ عن الأراضي التي أعطيت للسويد. أما من الناحية الطائفية فإن صلح ١٥٥٥ عمم على الكالفينيين، وحدد تاريخ ١٦٢٤ كنهاية لاقتطاع الأراضي للكنيسة.

ومنح الأمراء الألمان الحق في التحالف مع أي بلد خارجي دون الرجوع إلى الامبراطور، شرط ألا يضر ذلك بمصلحة الامبراطورية.

وقد وضع مؤتمر وستفالي نهاية للحلم القديم بتوحيد المسيحية والامبراطورية الكونية. وتمزقت حدود القرون الوسطى لتفسح المجال أمام ولادة عالم جديد هو عالم أوروبا الدول القائمة على توازن القوى.

ولكنه توازن هش، إذ أن الحروب الفرنسية الاسبانية استمرت احدى عشرة سنة، حين عقد صلح البيريني، في عهد لويس الرابع عشر.

●



□ أدولف هتلر عام ١٩٣٢.

حول المذكّرات المنسوبة الى هتلر!

د. سامي زكي

هل انطوت قصة «مذكرات هتلر»؟ هل صحيح انها كلها مزورة؟ ما هي خلفيات كل ما حدث؟ ما هذه الضجة التي اثارتها المذكرات؟ وما هذا الموقف الدراماتيكي الذي وقفه جيرد هايدمان، محرر المخبر في صحيفة شتيرن، حين اعلن فجاة، على العالم كله، إسم ذلك الرجل الذي اتاه بالمذكرات، بعد ان ظل زمناً يرفض الافصاح عن إسمه، بحجة الحرص على اسماء شخصيات لا يجب توريطها في القضية ويجب «الحرص على حياتها».

إسم الرجل الذي كشف عنه هايدمان، هو كونراد فيشر، اللاجىء من ألمانيا الديموقراطية. وقد سكن في بلتيشايم، في ضواحي شتوتغارت، ويعمل في تجارة الأدوات الحربية، القديمة خاصة، وعلى نحو أخص، ما يتصل بعصر هتلر.

كان فيشر يعلم أن هايدمان يبحث عن أوراق شخصية تعود إلى هتلر، انقذتها من كهف البناء الذي كان فيه الزعيم الألماني في الأيام الأخيرة من الحرب، طائرة أقلعت بها، ولكنها تحطمت عند قرية بورنسدورت، وهي اليوم في قطاع ألمانيا الديموقراطية.

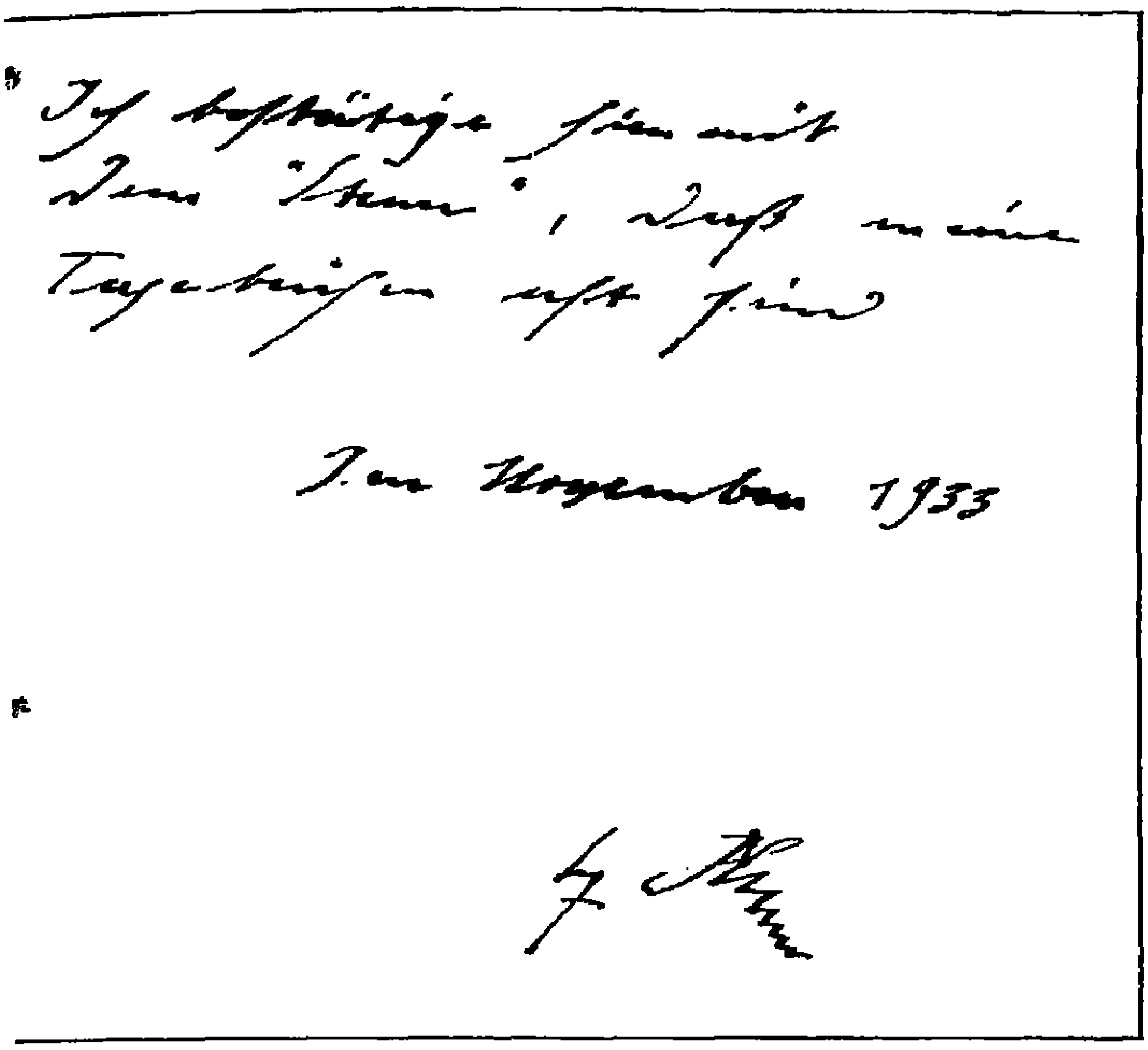
اتصل فيشر بهايدمان وأبلغه أن الأوراق قد عثر عليها جميعا، وأن من بينها وثيقة هامة جدا، وهي «مذكرات هتلر الشخصية»، وأن هذه الوثائق في حوزة صهره، مدير المتحف. وأن أخاه جنرال في الشرطة ــ وبالتالي فالقضية عائلية ــ ويمكنه تدبير تمرير الوثائق عبر الحدود، بالاتفاق مع شخص ثالث ينقل كل اسبوع تقريبا بيانويات كبيرة.

حين أعلن هايدمان عن اسم فيشر، أرسلت صحيفة شتيرن رسلها للبحث عنه في محل إقامته، ولكن الرجل كان قد اختفى. أجري بحث دقيق حول شخصيته وما يملك، ورصيده في المصارف، فإذا هو شخص غريب حقا، فقد ولد في لوبو ١٩٣٨ في الساكس.

(على بعد خمسين كيلومترا من المكان الذي تحطمت فيه الطائرة التي حاولت انقاذ أوراق هتلر). وفيشر تاجر معروف لدى عدة اشخاص محترمين، يحترفون جمع الوثائق والتحف النادرة. وقد سمي مخزنه «المتحف الحربي»، ووضع لافتة تقول: «الشجاعة والاخلاص»، وفوق كل الأبواب كاميرات لجهاز مراقبة، وحواجز من حديد مشبك.



جيرد هايدمان، محرر مجلة «شتيرن» يعلن اكتشافه مذكرات هتلر.



حقيقة فيشر

اضطر البوليس، في سبيل الدخول إلى المخزن، للاعتماد على السلالم، والعبور عبر النوافذ إلى الطابق الأول. وقد عثروا على مجموعة رائعة من التحف واللوحات والمخطوطات، والكتب القيمة، وبينها «كفاحي» لهتلر، في طبعة نادرة. وعلموا أنه يملك، عدا مخزنه، شقة من سبع غرف في ضاحية شتوتغارت الرائعة. وقد اشتراها عام ١٩٨١ بمبلغ ٦٦٠٠٠٠ مارك.

كان اسم فيشر في المدينة كوجو، وكان يظهر بمظهر مختلف عن مظهره في حياته العملية. فهو يبذر المال كملياردير. يلبس معاطف جلدية، ويعتمر بقبعات صغيرة، ذات مربعات ــ هو أصلع قليلاً ــ ويرتاد حانات «بيغال» «سيسي» و «بيربار». ويضيِّف الفتيات بالشمبانيا، التي يبلغ سعر الزجاجة منها (٢٥٠) ماركا. ويصرف ليليا حوالي ألف مارك. ويدفع شهريا كل حساباته، فتبلغ، معظم الأحيان، (٣٠٠٠٠) مارك. ويوصله السائق، فيدفع له مائة مارك بدل ثلاثة. ويقول له نادني «يا جنرالي». وقد حكم عليه عام ١٩٨٠ بغرامة قدرها ٨٠٠ مارك، لأنه أدعى لقب «دكتور» «والجنرال الدكتور» زورا.

ميردورف يعرض الوثائق

حدث أول اتصال، حول الوثائق، بين ميردورف وفيشر، عام ١٩٧٨. ولكن لنتابع أحداث هرب فيشر. حين أعلن هايدمان اسم فيشر، وتناقلت البرقيات نبأ هرب فيشر، تقدم هذا من بوليس الحدود، وقال: «لقد اتهمت بعمليات تضليل وتهريب» وأنا أضع نفسي في تصرف السلطات المحلية. إني واثق من أن «مذكرات هتلر» صحيحة مائة بالمائة. وكل ما كتب حول موضوع التزوير مختلق.

الواقع أن ميردورف، حين اتصل بفيشر عام ١٩٧٨، عرض عليه نماذج من «مذكرات هتلر» فحملها فيشر إلى جامع وثائق وتحف اسمه أوغوست فريتز ستيفل. وقد قرر أن الوثائق صحيحة، وأنها بخط هتلر، الذي لا يحسن فيشر تقليده فهو من النمط «الغوطي Gothique» الصعب التقليد. واتصل ستيفل بالبروفسور بريزك الذي كان حافظ أرشيف النازية، وكان هتلر كلفه بجمع وثائق الرايخ الثالث، مع البروفسور جاكل، الذي يعلم التاريخ الحديث في شتوتغارت. وقد أكد الاثنان أن الوثائق صحيحة ثابتة. وزاد بريزاك أنها لا بد أن تكون أخذت من الطائرة التي سقطت وهي تحمل الوثائق.

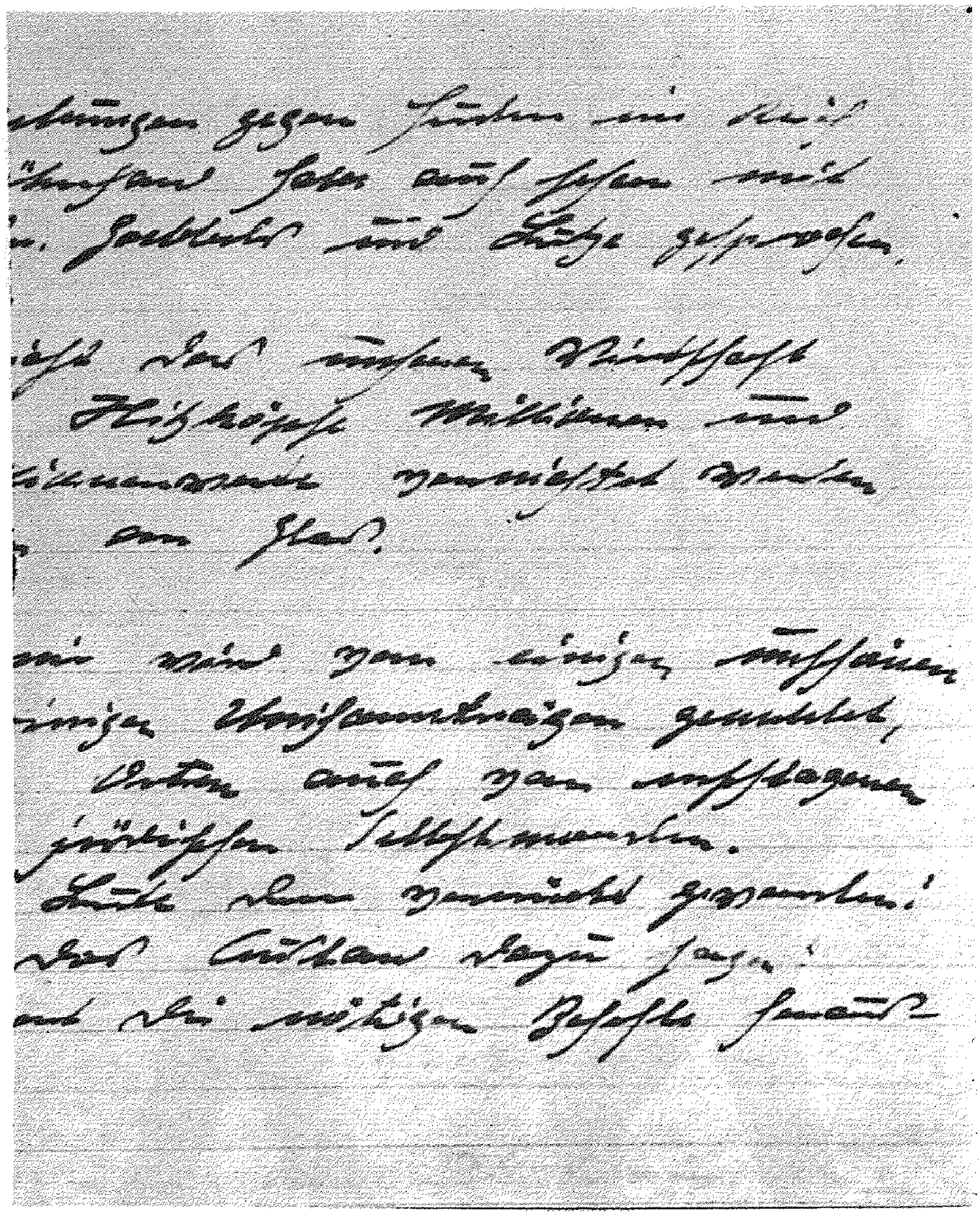
وانبأ بريزاك هايدمان بالأمر، فاتصل هذا بفيشر وألح عليه بضرورة الحصول على الوثائق.

يقول فيشر إن هايدمان دفع له مقدما (١٥٠٠٠٠) مارك. ولكني رفضت المبلغ. فأتاني ببزة كانت لغورينغ، وهذا مغر بالفعل، لذلك اتفقت معه على شراء الوثائق».

وقد نظمت عملية نقل الوثائق عبر الحدود بين الألمانيتين. فكان فيشر يأتي ببعضها، ويأتي هايدمان ببعضها الآخر. ولكن هايدمان خاف وطلب من فيشر أن يقوم بنفسه بنقل الوثائق.

خلاف حول الناحية المالية

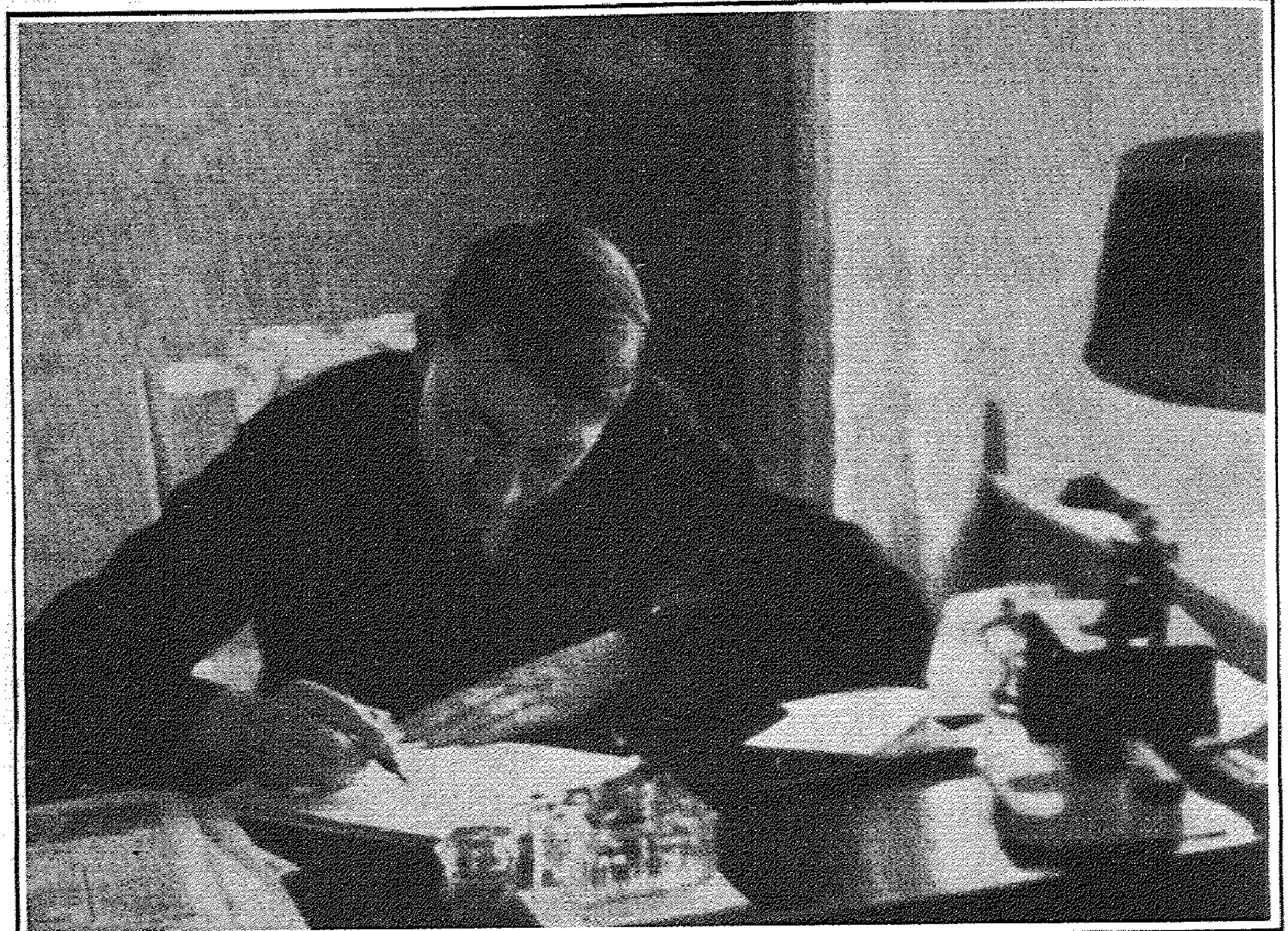
واستخدم شخص ثالث كوسيط، يسلم الوثائق في سويسرا



□ المذكرات المزورة!



□ هتلر وموسوليني



□ ادولف هتلر يكتب مذكراته.

واسمه لانزر. وهكذا حصل فيشر على باقي دفاتر المذكرات.

أما قضية الصهر، والأخ الجنرال، فكلها مختلفة، وقد تلفن فيشر من تشيكوسلوفاكيا لهايدمان يقول له إنه اختلق ذلك ليؤكد صحة الوثائق، وليحمله على شرائها، مع أنها حقيقية.

على أن فيشر وهايدمان اختلفا، عند التحقيق حول المبلغ الذي دفع للأول. تقول شتيرن إنها دفعت لهايدمان تسعة ملايين مارك، خلال فترات الشراء، وحسب الصفقة، أي كمية الوثائق المرسلة إلى المجلة. أما فيشر فيقول إنه لم يستلم إلا مليونين ونصف المليون، بما في ذلك حصته، وحصة الوسيط، وأجرة النقل، والمصاريف الأخرى. ويؤكد أن حصته بلغت ثلاثمائة الف مارك، بينما أخذ ميردورف القسم الأكبر.

أين الحقيقة؟

مهما كان من أمر الاختلاف حول المال. فهل كان فيشر غير واثق من الوثائق؟ إنه يؤكد حتى الساعة أنها صحيحة! كما أكد ذلك من قبل اثنان من المختصين بالوثائق، خاصة المتصلة بالرايخ الثالث.

ويؤكد هايدمان أنه لم يشك لحظة في صحة الوثائق. فلماذا انهار كل شيء دفعة واحدة؟ هل كان فيشر ضحية فخ نصبه ميردورف؟ ثم تبعت سلسلة الفخاخ، فوقع فيها هايدمان وشتيرن.

هل فيشر جاسوس لألمانيا الديموقراطية، نفذ مخططا ما؟

هل ميردورف قادر على تقليد خط هتلر على هذا النحو الذي لا تجد فيه خطيئة واحدة خلال مئات الصفحات؟ هل كان يستعين بجهاز تقنين يقومون بالتقليد؟

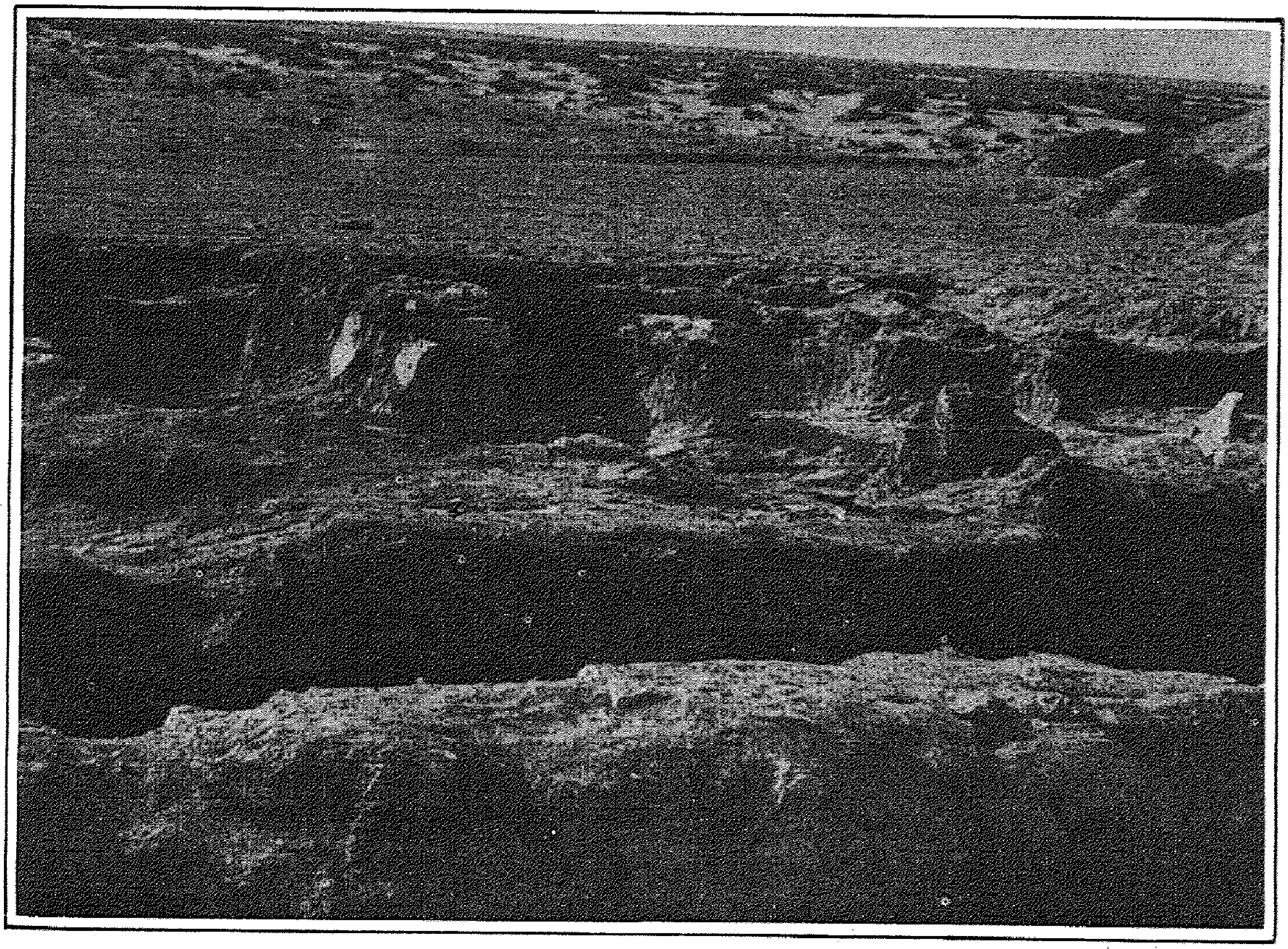
يقول العارفون إن الأسلوب هو اسلوب هتلر، فكيف، إذن، حدثت هذه الحركة المفاجئة الدراماتيكية، التي نقضت ادعاء نسبة الوثائق إلى هتلر؟

يقول محققون آخرون إن ثمة تعابير والفاظا لم يستخدمها هتلر أبدا. وإن ثمة فرقا في بعض الأحرف بين خط هتلر وخط الوثائق!

فأين هي الحقيقة؟

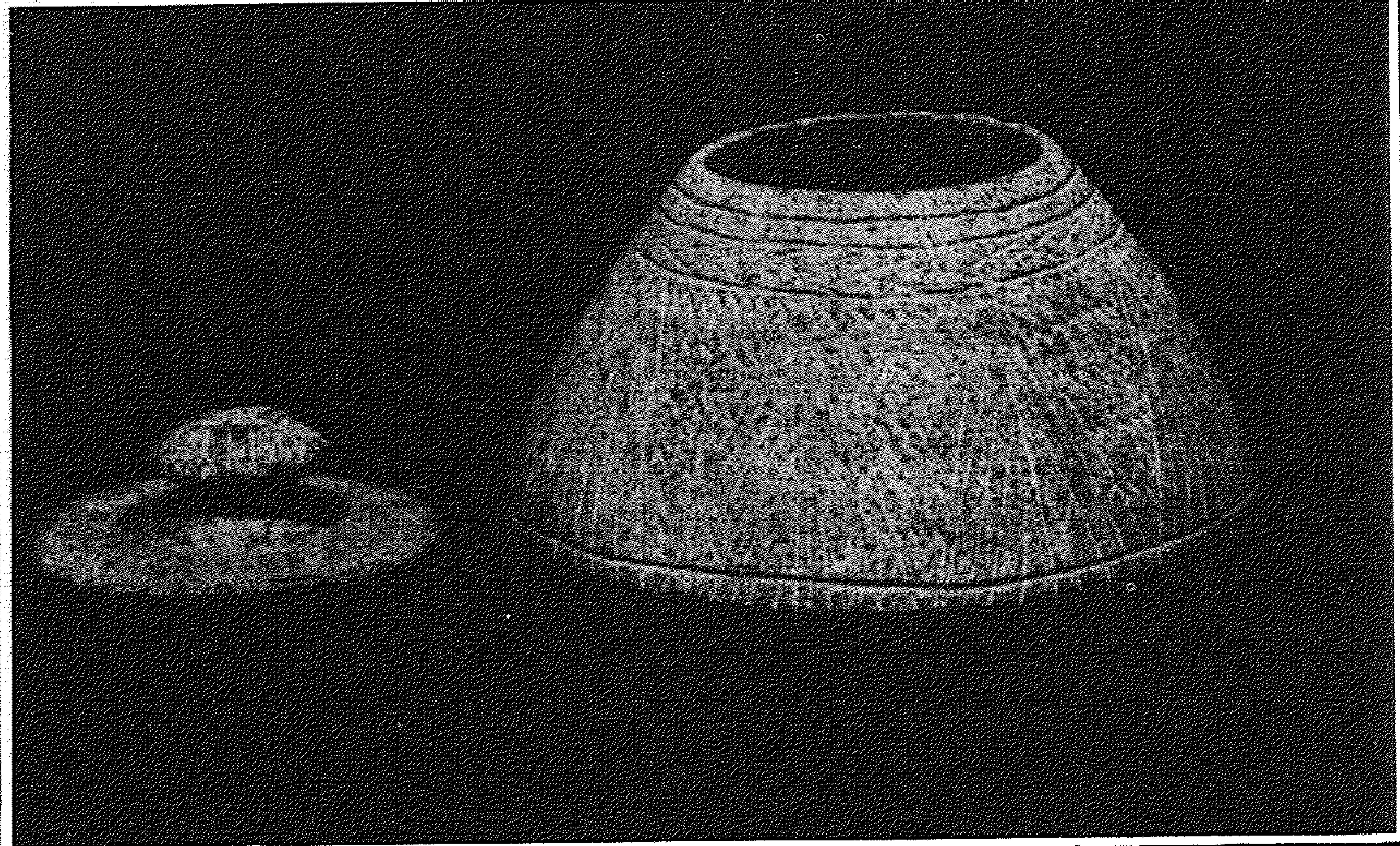
●

التنقيب في موقع القصيص في إمارة دبي



يقع موقع القصيص شرق مدينة دبي على بعد ثلاثة عشر كيلومتر ويتكون من تلول جصية صلبة متباعدة ومتباينة الارتفاع والمساحة. لا يتجاوز ارتفاع أعلاها عن سطح الأرض أكثر من مترين ملتقطاته السطحية قليلة لا تتعدى الكسر الفخارية الملونة والعادية مع كسر محززة لأواني صنعت من حجر (Steatite) على جزء من هذا الموقع أقيمت مقبرة القصيص الجديدة حيث يمكن ملاحظة بعض المخلفات الأثرية مبعثرة بين القبور المحفورة حديثا.

لقد ركزت البعثة العراقية التي تولت التنقيب في هذا الموقع عملها في مجموعة القبور القديمة



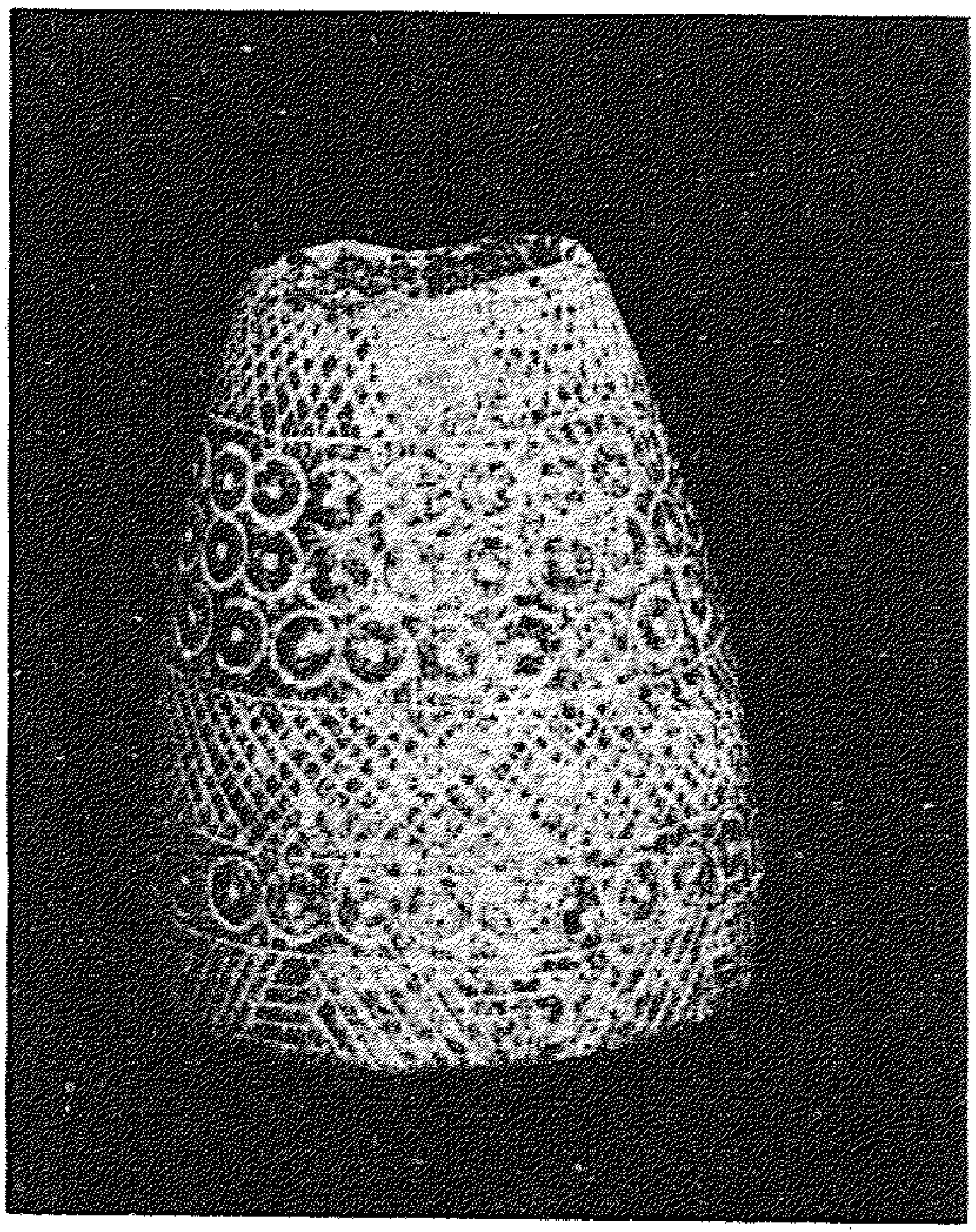
□ إناء حجري محزز مع غطاءه من موقع القصيص(١١٠٠ــ ١٠٠٠ ق. م.) □

□ كاس حجري من القصيص مزين بحزوز وصفين من الدوائر المنقطة □



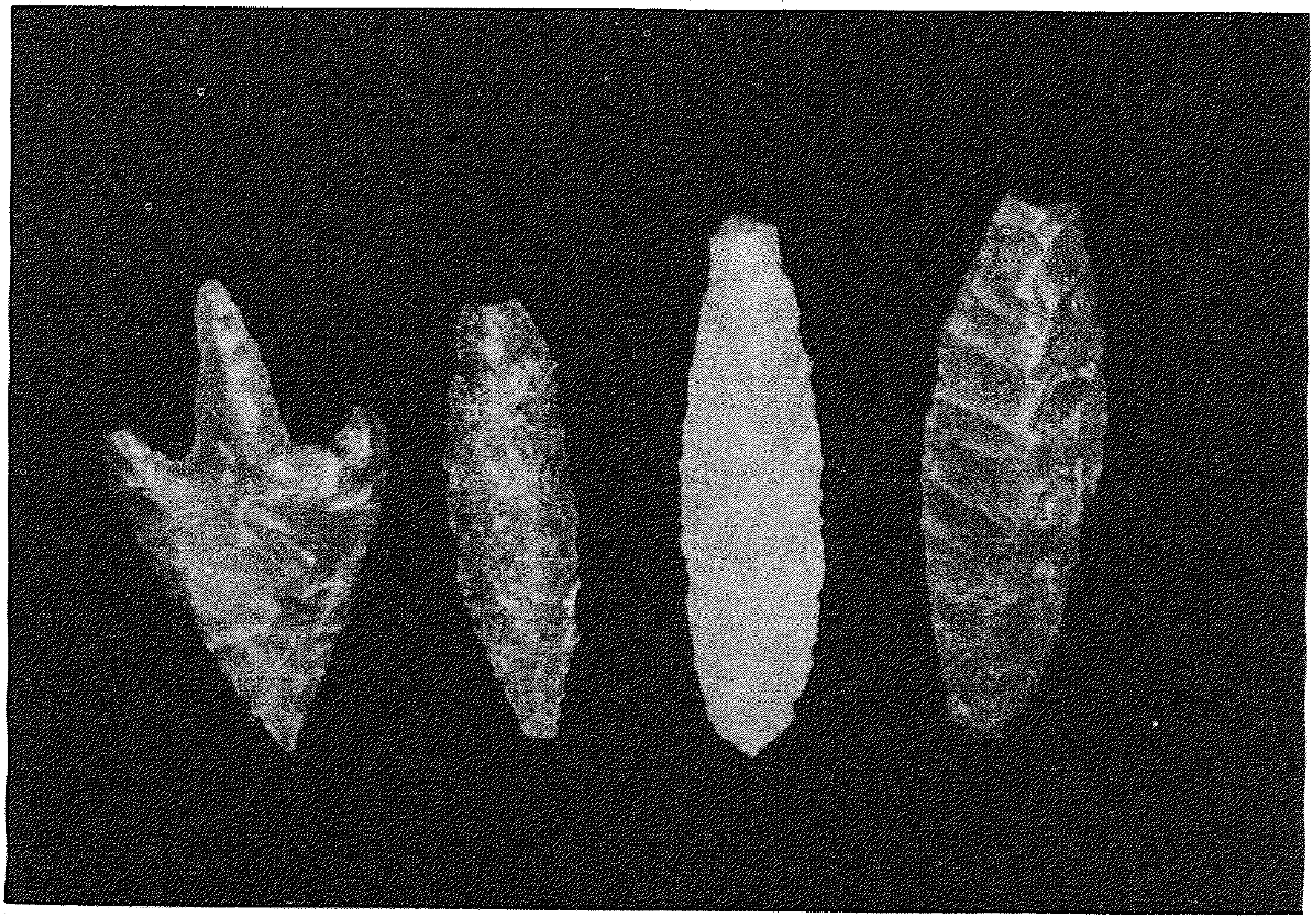
التي استطاعت أن تكشف عنها والمجاورة لسور المبرة الحديثة. وفي مناطق (أ، ب، ج) كشف ولحد الآن عن عشرين قبرا ترجع جميعا إلى فترة زمنية واحدة يمكن حصرها مبدئيا بنهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد. وذلك استنادا إلى مقارنة المكتشفات الأثرية مع مثيلاتها من بديع بنت سعود. وما يجدر ذكره أن قبور القصيص تختلف من حيث أشكالها عن القبور الأخرى المعروفة ومنها قبور حفيت وهيلي وكذلك بنت سعود، فقبور القصيص عبارة عن حفر مستطيلة أو بيضوية قطعت في الأرض ووضعت فيها جثث الموتى مزودة بالهدايا المختلفة ثم غطيت فيها بعد بأحجار مرصوفة. أما الهدايا التي زودت بها هذه المدافن فتشمل موادا حجرية وبرونزية/ نحاسية تشمل أواني وكؤوس وأكواب إضافة إلى أدوات الزينة.

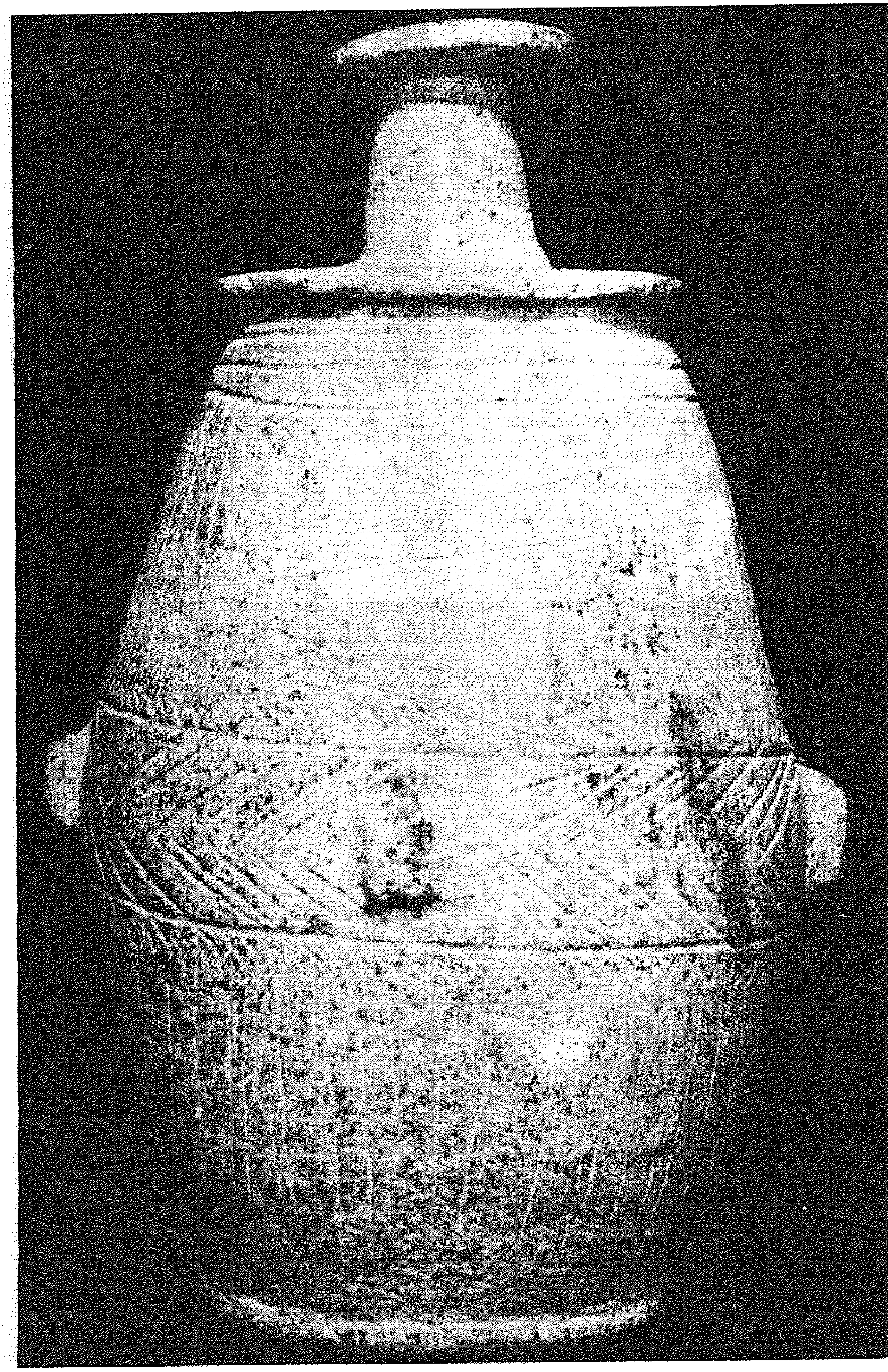
وفي النقطة (أ) كشف عن قبر واحد فقط فريد الشكل أقيم على تل صغير قليل الارتفاع وذلك بقطع خندق مستطيل الشكل ٨,٦٠ ×



□ كاس صغير من الستيتايت مزين بخطوط محززة متقاطعة وعدة صفوف من دوائر تتوسطها نقطة من موقع القصيص ــ دبي (١١٠٠ــ ١٠٠٠ ق. م).

□ رؤوس سهام حجرية مختلفة الأشكال والأحجام عثر عليها في مدافن القصيص ــ دبي □





□ إناء كبير برميلي الشكل مع غطائه. لهذا الإناء أربعة مقابض وقد صنع من حجر الستيتايت المحزز بأسلوب هندسي (١١٠٠ — ١٠٠٠ ق.م) □



□ جرة فخارية ذات مصب عريض عثر عليها في موقع القصيص ــ دبي (١١٠٠ ــ ١٠٠٠ ق. م).

٢,٥٠ م وبعمق متر واحد وضعت بداخله جثث الموتى ومتاعهم ثم أحيط بجدار من الأحجار المثبتة بالطين بارتفاع ٨٠ سم وغطي فيما بعد بالأحجار. وقد أقيمت على امتداد أحد ضلعي القبر مرافق تتكون من ثلاث غرف صغيرة تتعامد على حفرة القبر المستطيلة.

وفي النقطة (ب) المجاورة للنقطة (أ) كشف عن قبر اخر مستطيل الشكل (طوله ٥,٧٥ م وعرضه ١,٢٠ م، وعمقه ٩٥ سم) يمتد أسفل سور المقبرة الحديثة.

وفي النقطة (ج) كشف عن عدة قبور متقاربة (١٨ قبرا) وهي تشابه القبور السابقة ومن نفس العصر الزمني بدليل تشابه المواد النحاسية والفخارية والحجرية.

إن الشيء الذي يلفت النظر هو كثرة الأواني البرونزية/ النحاسية ذات المصبات الطويلة وكثرة الخرز المعمول من أحجار كريمة ورؤوس السهام البرونزية وقد عثر كذلك على مثقب طوله عشرة سنتمترات ذو مقبض من العظم ورأس مدبب من الحديد. ●

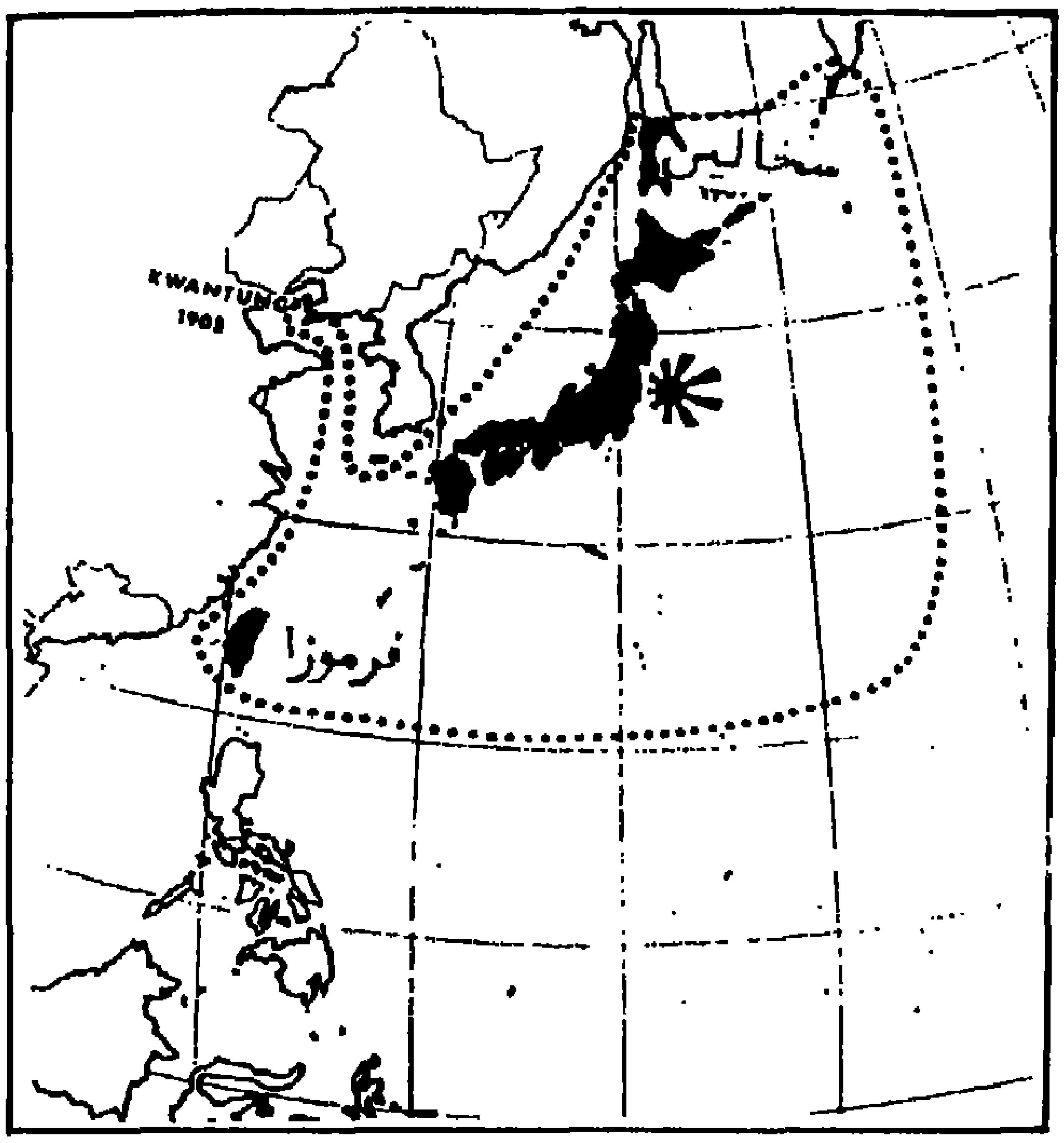
□ غطاء من حجر الستيتايت، القصيص ــ دبي (١١٠٠ ــ ١٠٠٠ ق. م).



معاهدات

مُعاهدة بورتسماوث (٥ أيلول ١٩٠٥) بين روسيا واليابان

قسم "التوثيق والأبحاث"



في ٥ ايلول سنة ١٩٠٥ وبناء على دعوة الرئيس الاميركي ثيودور روزفلت، ذهب مندوبو روسيا واليابان الى بورتسماوث، نيوهامبشاير في الولايات المتحدةالاميركية ووقعوا معاهدة بورتسماوث بين البلدين. وقد نصت المعاهدة على ما يلي:

اولا: يعم السلام والوئام من الان فصاعدا بين صاحبي الجلالة امبراطور اليابان وامبراطور روسيا وبين دولهما ورعاياهما.

ثانيا: تعترف الحكومة الروسية بمصالح اليابان السياسية، العسكرية والاقتصادية في كوريا متعهدة بعدم اعاقة او التدخل في حجم السيطرة التي تراها اليابان مناسبة لسيطرتها على كوريا.

ويفهم من ذلك، ان رعايا روسيا في كوريا يعاملون نفس المعاملة التي يلقاها رعايا الدول الاخرى. ولتلافي اي التباس، يمتنع الفريقان المتعاقدان عن القيام باي اجراءات عسكرية على الحدود الروسية ــ الكورية قد تهدد امن روسيا وكوريا.

ثالثا: تتعهد كل من روسيا واليابان باخلاء منشوريا ما عدا المنطقة التابعة لشبه جزيرة لياوتونغ المؤجرة ومن ثم اعادتها الى الصين. كما تعلن روسيا انه ليست لديها اي مصالح تمس السيادة الصينية.

رابعا: تتعهد كل من روسيا واليابان بعدم اعاقة اعمال الدول التي تتعامل مع الصين بشأن تنمية منشوريا تجاريا وصناعيا.

خامسا: تحول الحكومة الروسية الى الحكومة اليابانية بموافقة الحكومة الصينية تأجير «بورث ارثر» وتالين والمناطق المجاورة والمياه الاقليمية وكل الحقوق والامتيازات المتعلقة بالايجار

المذكور، كما تتعهد اليابان بحق الملكية للرعايا الروس في المنطقة المذكورة اعلاه.

سادسا: تتنازل الحكومة الروسية للحكومة اليابانية وبموافقة الحكومة الصينية عن خط سكة الحديد بين بورث ارثر وشانغ شون بما في ذلك جميع مناجم الفحم وجميع الحقوق والامتيازات المتعلقة بتلك المنطقة.

سابعا: يتعهد الفريقان باستعمال سكة الحديد في منشوريا لاهداف تجارية وصناعية وليس لاهداف استراتيجية.

ثامنا: تضع كل من روسيا واليابان ميثاقا يحددان فيه كيفية اتصال شبكتيهما الحديديتين في منشوريا.

تاسعا: تسلم الحكومة الروسية الجزء الجنوبي من جزيرة سخالين والجزر المجاورة الى اليابان ويكون خط العرض ٥٠ شمالا الحد الفاصل بين جنوب وشمال الجزيرة.

عاشرا: يحق للرعايا الروس في المنطقة المسلمة الى اليابان ان يبيعوا ممتلكاتهم ويعودوا الى وطنهم روسيا. واذا فضلوا ان يبقوا في تلك المنطقة فسوف تؤمن حمايتهم وحماية صناعاتهم شريطة ان يخضعوا للقوانين اليابانية. كما يكون لليابان كامل الحرية لسحب حق الاقامة او ان تنفي اي شخص غير مرغوب به بدون المس بكرامته.

حادي عشر: تتعهد روسيا بأن تسهل للرعايا اليابانيين حق الصيد في بحر اختسك وبرنغ.

اثنا عشر: تقوم روسيا واليابان بعقد اتفاقية تجارية وملاحية تقوم مقام الاتفاقية القديمة التي ألغتها الحرب.

ثالث عشر: يتم تبادل الاسرى حالما تطبق هذه المعاهدة.

رابع عشر: تصدق المعاهدة من امبراطور اليابان وامبراطور روسيا في مدة اقصاها ٥٠ يوماً من توقيع المعاهدة، ويبلغ التصديق الى امبراطور اليابان وروسيا بواسطة السفير الفرنسي في طوكيو وسفير الولايات المتحدة في بطرسبرج وعندها تصبح المعاهدة سارية المفعول. ●

المراجع

— Latourette, K.S. *The History of Japan.* New York: MacMillan, 1947.

— Wren, M.C. *The Course of Russian History.* New York: MacMillan, 1963.

عمر بن الخطاب* وغنائم المسلمين

بعث عمر سلمة بن قيس الأشجعي إلى طائفة من الأكراد كانوا على الشرك؛ فخرج إليهم في جيش أرسله معه من المدينة.

فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الاسلام أو إلى أداء الجزية، فأبوا، فقاتلهم فنصره الله عليهم؛ فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، ووجد حلية وفصوصا وجواهر، فقال لأصحابه: أتطيب انفسكم ان نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين؛ فإنه غير صالح لكم، وإن على أمير المؤمنين لمئونة واثقالا، قالوا: نعم، قد طابت انفسنا.

فجعل الجواهر في سفط[1]، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سر فإذا اتيت البصرة فاشتر راحلتين فأوقرهما[2] زاداً لك ولغلامك، وسر إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت فأتيتُ عمر وهو يُغذي الناس قائما متكئا على عصا كما يصنع الراعي، وهو يدور على القصاع؛ فيقول: يا يرفأ[3]، زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزا، زد هؤلاء مرقة.

فجلست في أدنى الناس، فإذا طعام فيه خشونة، طعامي الذي معي أطيب منه. فلما فرغ أدبر فاتبعته، فدخل دارا فاستأذنت، ولم أُعلم حاجبه من أنا، فأذن لي، فوجدته في صفة[4] جالسا على مسح[5] متكئا على وسادتين من أدم[6] محشوتين ليفاً، وعليه ستر من صوف، فنبذ إلى إحدى الوسداتين، فجلست عليهما.

فقال: يا ام كلثوم، الا تعدوننا؟ فاخرجت إليه خبزة[7] بزيت في عرضها ملح لم يدق، فقال: يا أم كلثوم، الا تخرجين إلينا تاكلين معنا؟ فقالت: إني اسمع عندك حس[8] رجل، قال: نعم، ولا أراه من أهل هذا البلد. فقالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته!

قال: أو ما يكفيك أنك أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب، وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؟ قالت: إن ذاك عندي لقليل الغناء! ثم قال: كل، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا. فأكلت قليلا، وطعامي الذي معي أطيب منه. وأكل، فما رأيت أحدا أحسن أكلا منه، ما يتلبث[9] طعامه بيده ولا فمه.

ثم قال: اسقونا، فجاءوا بعس[10] من سلت[11]، فقال: اشرب، فشربت قليلا، وإن سويقي الذي معي لأطيب منه، ثم أخذه فشربه حتى قرع القدح جبهته.

ثم قال: الحمد لله الذي اطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا؛ إنك يا هذا لضعيف الأكل ضعيف الشرب.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لي حاجة، قال: ما حاجتك؟ قلت: انا رسول سلمة بن قيس، قال: مرحباً بسلمة ورسوله، فكأنما خرجت من صلبه — حدثني عن المهاجرين كيف هم؟ قلت: كما تحب — يا أمير المؤمنين — من السلامة والظفر والنصر على عدوهم. قال: كيف أسعارهم؟ قلت: ارخص اسعار؛ قال: كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا على شجرتها؟ قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا. ثم قلت: سرنا يا امير المؤمنين حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى الذي امرت به من الاسلام فأبوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا؛ فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وجمعنا الثروة، فرأى سلمة في الأموال حلية، فقال للناس: اتطيب انفسكم أن أبعث بها إلى أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم! ثم استخرجت سفطي ففتحته.

فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر، وثب وجعل يده في خاصرته يصيح

صياحا عاليا ويقول: لا أشبع الله إذن بطن عمر — يكررها!

فظن النساء أني جئت لأغتاله، فجئن إلى الستر فكشفنه، فسمعنه يقول: لفّ ما جئت به، يا يرفأ، جأ عنقه[12]! فأنا أصلح سفطي، ويرفأ يجأ عنقي!

ثم قال: النجاء النجاء! قلت: يا أمير المؤمنين فاحملني! فقال: يا يرفأ، أعطه راحلتين من إبل الصدقة، فإذا لقيت أحداً أفقر إليهما منك فادفعهما إليه.

وقال: أظنك ستبطيء، أما والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة[13].

قال: فارتحلت حتى أتيت إلى سلمة بن قيس، فقلت: لا بارك الله فيما اختصصتني به! اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقرة، فقسمه فيهم، فكان الفص يباع بخمسة دراهم وبستة وهو خير من عشرين ألفا.

(*) ابن أبي الحديد: ٣:١٥٧.
(١) السفط: كالجوالق او كالقفة، جمعه اسفاط.
(٢) اوقر الدابة: حملها.
(٣) يرفأ: مولى عمر بن الخطاب.
(٤) الصفة من البنيان: شبه البهو الواسع.
(٥) المسح: ثوب من الشعر غليظ.
(٦) الأدم: جمع للاديم: وهو الجلد.
(٧) الخبزة: عجين يوضع في الملة حتى ينضج، والملة: الرماد والتراب الذي اوقد فيه لنار.
(٨) الحس: الصوت الخفي.
(٩) لا يتوقف.
(١٠) العس: القدم العظيم.
(١١) السلت: الشعير.
(١٢) وجأت عنقه: ضربته.
(١٣) الفاقرة: الداهية.

وامعتصماه *

وقف رجل على المعتصم[1] فقال: يا أمير المؤمنين: كنت بعمورية[2] وجارية من احسن النساء سيرة، قد لطمها علج[3] في وجهها، فنادت: وامعتصماه! فقال العلج: وما يقدر عليه المعتصم! يجييء على أبلق وينصرك! وزاد ضربها.

فقال المعتصم: وفي أي جهة عمورية؟ فقال له الرجل — وأشار إلى جهتها: ها هي ذي؛ فرد المعتصم وجهه إليها، وقال: لبيك ايتها الجارية، لبيك؛ هذا المعتصم بالله أجابك، ثم تجهز اليها في اثني عشر ألف فرس أبلق، وحاصرها.

ولما طال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له: إنا نرى أنك ما تفتحها الا في زمان نضج العنب والتين، فشق عليه ذلك واغتم، وخرج ليلة مع بعض حشمه متجسسا في العسكر يسمع ما يقول الناس، فمر بخيمة حداد يضرب نعال الخيل، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة، وهو يضرب على السندان ويقول: في رأس المعتصم! فقال له معلمه: أتركنا من هذا، مالك وللمعتصم! فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوما على هذه المدينة مع قوته ولا يفتحها، لو اعطاني الأمر ما بات غدا الا فيها.

فتعجب المعتصم مما سمع، وترك بعض رجاله موكلا به، وانصرف الى خبائه، فلما أصبح جاءوا به، فقال: ما حملك يا هذا على ما بلغني عنك؟ فقال الرجل: الذي بلغك حق، ولو وليتني الحرب فإني ارجو أن يفتح الله عليك. فقال: قد وليتك، وخلع عليه وقدمه على الحرب، ففتح الله عليه، ودخل المعتصم المدينة، ولم يثبت قول المنجمين.

ثم دعا بالرجل الذي بلغه حديث الجارية، فقال له: سر بي الى الموضع الذي رأيتها فيه، فسار به، وأخرجها من موضعها، وقال لها: يا جارية، هل أجابك المعتصم؟ ثم ملكها العلج الذي لطمها، والسيد الذي كان يملكها وجميع ماله[4].

(*) محاضرات الابرار: ٢ — ٦٣.
(١) خليفة من اعاظم خلفاء الدولة العباسية وهو فاتح عمورية توفي سنة ٢٢٧هـ.
(٢) عمورية: بلدة من بلاد الروم.
(٣) العلج: الواحد من كفار العجم.
(٤) وفي هذه يقول أبو تمام قصيدته:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب
وخوفوا الناس من دهياء داهية
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
تخرصاً واحاديثا ملفقة
ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

ثم عرض بتاريخ المنجمين في التين والعنب فقال:

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت
جلودهم قبل نضج التين والعنب

أحمد بن حنبل

قسم التوثيق والأبحاث

أحمد بن حنبل ــ هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، اشتهرت نسبته إلى جده حنبل إذ كان أشهر من أبيه فقد كان واليا للأمويين على مرخس من أعمال خراسان وكان إلى ذلك من دعاة الخلافة العباسية الذين نالهم بسبب ذلك بعض الأذى، أما والده فقد كان جنديا وقد ولد أحمد ببغداد عام ٧٨٠ (١٦٤هـ) بعد أن انتقلت إليها أمه حاملا به من مرو التي كان يقيم بها والده. ولم يلبث أن فقد أباه فكلاته أمه وأقامت على تربيته ورعايته فنشأ ببغداد وكانت عاصمة الخلافة العباسية التي زخرت بأنواع المعارف والفنون والعلوم ففيها القراء والمحدثون والفقهاء والصوفية وعلماء اللغة والفلاسفة. فكان لكل هؤلاء أثر في نشأته وثقافته ولقد جلس أول ما جلس لطلب العلم أمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة فأخذ عنه الفقه والحديث فرأى أن الحديث أصل للفقه ومعين له. فاتجه إلى دراسة الحديث وحفظه وكان للحديث مكانته ومنزلته في هذا العصر حتى لقد انتشر أصحابه في جميع البلاد الاسلامية. فابتدأ بدراسة الحديث وحفظه وروايته من ٧٩٥ (١٧٩هـ) إذ جلس إلى الامام هشيم بن بشير بن أبي حازم الواسطي المتوفي عام ٧٩٩ (١٨٣هـ) وكان في أيام حياته يتلقى الحديث من غيره أحيانا ويحضر فقد روي أنه سمع أيضا من عمير بن عبد الله بن خالد وغيره. وبعد موت هشيم أخذ يطلب الحديث ويتتبعه حيث وجده ومكث في بغداد إلى ٨٠٢ (١٨٦هـ) إذ ابتدأ رحلاته طالبا للحديث فرحل إلى البصرة وإلى الحجاز وإلى اليمن وإلى الكوفة وتوالت رحلاته إلى البلاد وتكررت فقد رحل إلى البصرة خمس مرات وإلى الحجاز خمس مرات حيث التقى بالشافعي وأخذ عنه كما أخذ عن عثمان بن عينية ثم التقى بالشافعي مرة أخرى بالحجاز وحبب إليه السفر إلى مصر ولكنه لم يوفق إلى ذلك.

وقد دأب، رضي الله عنه، في طلب الحديث وروايته حتى بعد أن بلغ مبلغ الامامة فيه ولقد قيل له في ذلك إلى متى وقد بلغت هذا المبلغ وصرت إمام المسلمين فقال: مع المحبرة إلى المقبرة.

وكان، رحمه الله، معنيا بتدوين كل ما يسمع من أحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وآثار أصحابه وفتاوى السلف من التابعين غير معتمد على حافظته وقدرته أضف إلى ذلك أن العصر كان عصر تدوين وتأليف ففيه دون الفقه ودون الحديث ودونت علوم اللغة وكان لذلك إذا حدث لا يحدث إلا من كتاب مع قوة حافظته حتى يكون على ثقة مما يروى.

ولم يكن احتفاء أحمد، رضي الله عنه، بالرواية وفتاوى الصحابة وآثارهم العلمية وما نقل من التابعين من أراء بصارف عن النظر في غيرها بل كان إلى هذا باحثا مستنبطا ناظرا في أقوال الفقهاء متخيرا منها ما تسنده النصوص فكان لذلك صاحب فتوى وصاحب رأي ونظر يقضي برأيه فيما لا يجد فيه تضامن النصوص يدل على حكمه ولذا كان الفقه والاستنباط فيه من أهدافه ولهذا التقى الحديث والفقه في أحمد، رضي الله عنه، فكان المحدث وكان الفقيه ــ غير أنه قد أثر عنه في الحديث مسنده وهو أثر من أخلد آثاره وأعظمها فائدة حوى أربعين ألف حديث اختارها من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا كان يحفظها وفيه يقول أحمد ما اختلفتم فيه من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فارجعوا إليه فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة ــ وهو قول يدل على ان هذا المسند قد جمع كل ما يصح ان يحتج به من حديث الرسول وليس نصا في ان كل ما يحويه من الأحاديث قد جانبه الضعف وان ذهب بعض العلماء إلى أن كل ما يحويه صحيح.

لقد أثر عن أحمد هذا المسند وهو عمل عظيم ولم يؤثر عنه في الفقه أي أثر وإنما أثرت اقواله

ونقلت إلينا برواية أصحابه وتكونت من ذلك مجموعة أحكام فقهية عظيمة منسوبة إليه. ويعزو ابن القيم عدم تركه لأثر فقهي مكتوب إلى أنه كان شديدَ الكراهية لتصنيف الكتب في غير الحديث ولكن الله قد علم حسن نيته فقبض له من تلاميذه وأصحابه من عني بتدوين كلامه وآرائه وفتاويه فجمع الخلال من ذلك في جامعه الكبير ما بلغ نحو عشرين سفرا كما جمع غيره كذلك مقدارا عظيما من ذلك حتى صار فقهه مذهبا له أتباع كثيرون في كثير من الأقطار الاسلامية ولعدم تركه أثرا مكتوبا في الفقه مع تركه ذلك الأثر الخالد في الحديث وهو مسنده طغت على فقهه نزعته إلى الحديث حتى لقد عده بعض العلماء محدثا ولم يعده فقهيا. ولكن الواقع أنه كان فقهياً إلى أنه كان محدثا يؤمن بذلك من نظر فيما أثر عنه من أقوال وفتاوى كونت مجموعة عظيمة من الأحكام تضمها أصول متحدة وقواعد واحدة وكلها تنبع من معين واحد وليس أدل على ذلك من أن مذهبه قد انتشر في كثير من الأقطار فهو الآن المذهب السائد في السعودية وله أتباع في سوريا والعراق واتباع قليلون في مصر.

ولقد كان، رضي الله عنه، ورعا زاهدا دينا متشددا في الحق الذي يراه مما أدى إلى تعرضه لمحنة عظيمة لقي فيها كثيرا من صنوف الأذى ومع ذلك لم تهن عزيمته وتلك هي محنة القول بخلق القرآن وخلق ألفاظه فأبى أن يقول بذلك لأنه يراه خلاف ما ورد به الأثر فسيق المأمون مقيدا مغلولا فلم يخضع وضربه المعتصم وحبسه فلم يرجع واختبره الواثق بالمنع والتضييق فلم يهن وكان لموقفه هذا أثر خالد في رفع مكانته واعتراف الناس بإمامته وتوفي عام ٨٥٥ (٢٤١هـ). ●

الندوة العالمية الثالثة

لتاريخ العلوم عند العرب

وجه معهد التراث العلمي العربي وجامعة حلب الدعوة إلى جميع العلماء والباحثين والمعنيين بالتراث العلمي العربي للمشاركة في الندوة العالمية لتاريخ العلوم عند العرب والتي ستعقد بين ١٠ و١٤ كانون الأول ١٩٨٣، والتي ستنظم بالمشاركة مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت. ولقد درج المعهد على أن يعقد مؤتمرا سنويا وندوة دولية عالمية كل ثلاث سنوات. ولقد عقد المعهد مؤتمره السابع بنيسان الماضي وخصص لبحث الخوارزمي ودوره في النتاج الفكري العلمي العربي والعالمي.

وستخصص الندوة العالمية الثالثة لبحث الانجازات العربية في مجالات الري والزراعة وستشمل أبحاث الندوة على الموضوعات التالية:

١ ــ تحليل إضافات العلماء العرب في علوم النبات والري والفلاحة من واقع المخطوطات والمؤلفات التي أسهموا بها في هذه المجالات.

٢ ــ دراسة الجهود العربية لضبط المياه وإبراز اسهامات المهندسين العرب الرواد في مجالات توزيع المياه وإقامة شبكات الري.

٣ ــ تحليل ما ورد في كتب التراث العلمي وفي ملفات الجغرافيين القدامى وغيرهم من العلماء ــ عن الزراعة من حيث ضوابطها وانماطها وأساليبها وأنواع الحاصلات الزراعية.

٤ ــ مناهج البحث التي اتبعها العلماء في تناولهم لعلوم النبات والري والفلاحة (وصفيا وايكولوجيا وتصنيفيا ومقارنا).

٥ ــ تحليل أنماط التوزيع النباتي القديم على ضوء ما ورد في كتابات علماء النبات العرب.

٦ ــ الاستخدام الانساني والقيمة الاقتصادية للنبات الطبيعي في المجالات الطبية وفي علوم العقاقير وفي الرعي.

٧ ــ دراسة أثر العلماء العرب وإضافاتهم في تطور علوم النبات والري والفلاحة كما أن المعهد وجّه دعوة إلى المتخصصين في علم النبات ومهندسي الري والأخصائيين الزراعيين وغيرهم من المهتمين بابراز الدور العربي في مجالات تخصصهم.

رسائل الدكتوراه والماجستير

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتورة «غادة المقدم عدرة» عرض لرسالتها الدكتوراه: تحقيق وتحليل «صفوة التصوف» لمحمد بن طاهر المقدسي «ابن القيسراني». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

□ **دكتوراه دولة ــ قسم الفلسفة ــ جامعة القديس يوسف ٢٤/٦/١٩٨٣.**

□ **منحتها اللجنة المؤلفة برئاسة الأب لويس بوزية، وعضوية الدكاترة، سعاد الحكيم، علي زيعور وجيرار جهامي تقدير «جيد».**

تحقيق وتحليل مخطوط «صفوة التصوّف» لمحمّد بن طاهر المقدسي (ابن القيسراني)

اهمية الرسالة:

كان المقدسي نبعا جديدا من الينابيع الصوفية الأولى لذلك انصب اهتمامي على دراسته للوصول إلى نتيجة مفيدة من كتاب الصفوة.

كشفت الدراسة لكتاب الصفوة وتحليل الفقرات عن النتائج العامة التالية:

١ ــ إن الصوفي رجل عمل وعلم ولقد سعى المقدسي لمحاربة الباطنيين أمثال الملاقيين الذين اساؤوا للتصوف.

٢ ــ انطلق المقدسي فقدم مذهبا صوفيا جديدا اعتمد على السنة وحاول الحفاظ عليها والرجوع إليها، فكان دفاعه عن التصوف دفاعا سنيا وعودة إلى النبع.

٣ ــ لم ينس المقدسي الناحية الفقهية، فإلى جانب ردة آداب الصوفية إلى سنة الرسول، فقد قيد التصوف بالقضايا العملية، كالصلاة وشروط آداب ومبطلات الأحكام الشرعية.

٤ ــ كان المقدسي عالما بالحديث وناقلا له وقد أغرم بالسفر كبقية المسلمين الساعين وراء الروحانية العلمية.

٥ ــ لم يكن المقدسي مجرد ناقلا وحافظا للأحاديث النبوية، إلا أن كتاباته كانت تحمل أفكارا مهمة تعزز الشريعة وخلفائها الذين نكل بهم في ذلك العهد قبل مجيء السلجوقيين ــ وحاول القضاء على الفرق التي ظهرت والتي حاولت الخروج عن لباب الشريعة.

الفصل الرابع: يتضمن تحليلًا لنصّ كتاب «صفوة التصوف» مع مقارنته بأُمّهات الكُتُب التي نالت شهرةً فائقة في الفكر العربي الحديث. وكان تحليلي لكتاب «الصفوة» ينقسمُ إلى قسمين؛ قسم صوفي وقسم فِقْهي.

أوضحْتُ في الأوّل مفهوم المقدسي لنشأة التصوُّف، وأخلاق الصوفية ومفاهيمهم وآدابهم عنده. وهنا نرى أنّ المقدسيَّ ربط التصوُّفَ بالشريعة، فكانت الحقيقةُ في كتابه «الصفوة» هي بيت الشريعة وبابه.

أمّا في القسمُ الثاني فكانت وقفتُنا عند المقدسي الفقيه الذي اهتمَّ بأمور الشريعة وأحكام التكاليف الدينية، فجعل التصوُّفَ مقيَّداً بالقرآن والسُنّة وأحكام مَنْ سبقه من الصحابة وزُهّاد التابعين.

الفصل الخامس: لم أُغفل شخصيةً صوفيةً كبيرةً كان لها دورٌ هامٌ ألا وهي الإمام أبو حامد الغزالي وقد عاصره المقدسيُّ واتّفق معه في كثيرٍ من الموضوعات التي كانت مدارَ نقاشٍ في ايامه وعلى الأخصّ السماع لهذا كُلِّه وجد فصل السماع لعرض آراء المقدسي والغزالي وإباحتهما للسماع؛ وإن كان الغزالي قد تحفَّظ بعضَ الشيء؛ فكان تقاربُهُما دلالةً واضحةً على أهمية المقدسي. وهو لا يقلُّ قيمةً وشأناً عن الإمام أبي حامد في دنيا التصوف.

وبهذا الفصل أختم الجزء الأول من الأطروحة.

أمّا الكتابُ الثاني من هذه الأطروحة فقد احتوى على نَصّ «صفوة التصوف» محقَّقاً للمرةِ الأولى. وكاملاً للمرة الأولى.

الفصل الأول: تحقيق صفوة التصوف نسخة المكتبة الظاهرية مع المقارنة بنسختي ليبزيغ والفاتح.

الفصل الثاني: تحقيق صفوة التصوف للزيادات التي وُجدت في نسختي ليبزيغ والفاتح.

الفصل الثالث: تحقيق صفوة التصوف للزيادات التي وُجدت في نسخة الفاتح.

الفصل الرابع: فهرس لأبواب مخطوطة الظاهرية.

فهرس لأبواب مخطوطة ليبزنغ، فهرس لأبواب الفاتح، فهرس للأبواب المشتركة للنسخ الثلاث.

أما خاتمة الأطروحة فكانت خلاصة العمل وإبراز المقدسي من حيث هو صوفي وصاحب مذهب جديد وليس مجرد ناقلا وحافظا للأحاديث النبوية الشريفة.

هيكلية الأطروحة:

تقع الأطروحة في ٦٧٩ صفحة، وجاء عنوانها معبرا عن مضمونها، وقد قسمت إلى كتابين: احتوى الأول منهما على الفصول التالية:

الفصلُ الأول: تقديمُ الكاتب: مولدُهُ، شيوخُهُ ورُواتُه؛ مؤلَّفاتُهُ المطبوعةُ والمخطوطةُ، أسفارُهُ ونشاطاتُهُ، وآراءُ الناس فيه.

الفصلُ الثاني: كان دراسةً وتحليلاً تاريخياً وعقلياً للعمر الذي عاش فيه المقدسي، وقد بذلْتُ غاية الوُسْع في الغَوص بمعرفةِ هذه الفترة للتمهيد لدراسة المقدسي، ولا أكون مُبالِغةً إذا قلت إنني أعتبرُ هذا الفصل إبرازاً لأصالة المقدسي، وتحديداً لعمق شخصيته من خلال عصره.

الفصل الثالث: بحثْتُ فيه المواقف المختلفة تجاه الصوفية من خلال مؤلَّفاتٍ مؤثِّرةٍ في الحياة الصوفية، وقد كانت لي وقفةٌ في هذا الفصل عند أصل السماع واعتمادهم على كتاب قديم، إلى جانب نظرة المقدسي إلى هذه المسألة.

أمّا كتابُ «صفوة التصوف» فقد بَيّنّا منزلتَهُ الكبيرةَ، فهو كتابٌ قيِّمٌ وله أهميتُهُ بين كتب المقدسي إذ انتحى فيه منحىً دفاعياً عن آداب السلوك الصوفي.

وهنا لا بُدَّ لنا من استعراض النشرةِ الأولى للصفوة والمآخِذ الكثيرة على ناسخِها إذ لا يمكنُنا الاعتمادُ على هذه النشرة، فقد كانت سقيمةً لعدم فهمِ مقاصد المؤلف. من هنا كانت ضرورةُ إعادة كلِّ شيءٍ إلى مصدره لتبيُّن العناصر الأوّلية للكتاب، ومن ثَمّ المحاولة لفهم البناء الفكري والمنطلَق الإيديولوجي الذي انطلقت منه الفكرة أساساً في القرنين الرابع والخامس الهجريَّيْنْ. إنَّ هذا النوع من التأليف الصوفي الذي يستندُ إلى الحديث والأثر يَضُمُّ بين جنباته تقاليدَ فكريةً عدة هي: تقليد الكِتابة الفنّية في أوساط الكُتّاب والإداريين وتقليد نصائح الملوك وتقليد الحكم والأمثال أو كُتُب السَمَر. وأخيراً التقاليد الحديثة والصوفية، ولا بُدّ من مُراعاةِ هذا كُلِّه عند نشر الكتاب ليمكن إخْراج نصٍّ صحيحٍ ومفهومٍ معاً.

لهذا انصبَّ اهتمامي بما لم يقم به ناشروا الصفوة. ●

حضارات سادت ثم بادت

(قل سيروا في الأرض وانظر كيف بدأ الخلق) قرآن كريم

محمد الفاكياني

قد يقف الانسان تجاه تلال أو جبال لا تجذب العقل، أو تثير الفكرة، فهي — على أية حال — جامدة صامتة، ومع ذلك فهي كتاب مكتوب يحوي أخبار الحياة الغابرة.

الكتاب فيه سجلات لم يكتبها أنس ولا جان، ولا هو كذلك شبيه بما يكتب الانسان.. صحيح أن الانسان في العصور القديمة قد سجل تاريخه على الصخور والأحجار، وكتبه على ورق البردي، أو جلد الغزال، لكن هذا الكتاب المرصود في الجبال أو التلال قد ظهر قبل أن يظهر الانسان بمئات الملايين من الأعوام، وفيه طبعات متقنة لبدايات الكائنات التي مهدت الأرض، وجعلتها صالحة للزرع والضرع قبل أن يظهر عليها الانسان الحكيم، وعندما جاء الانسان بدأ يقرأ ويقرأ صفحات الكتاب الذي يزن الملايين فوق ملايين من الأطنان، ومنه عرف الانسان كيف بدات الحياة، وكيف تطورت وتعقدت في نبات وحيوان، وكيف اندثرت فمنها انقرض وزال؟ ومنها ما زال يواصل الحياة؟

للتاريخ أخبار

كان أرنولد توينبي يقول كلما وقف أمام حجر يحكي له قصة حضارة قديمة: (كنت أبكي عندما أرى الحضارات تموت والانسان حولي يغني).

ولم ينس توينبي (الحجر) الذي كان يقف عنده طويلا يتأمل النقوش المحفورة على سطحه الأطلس.. علم وفكر وفن.. فكتب عن العلاقة بين الانسان والحجر، قال: (لولا الجبال وأحجارها ما عرفنا أن حضارة قامت في وقت ما، وفي مكان ما، كان الانسان ذكيا عندما قطع الأحجار من الجبل، ونقش عليها وبنى بها حضارته من الاف السنين، من الحجر شيدوا بيوتهم في الحياة والموت، وكانت الاهرامات أعظمها في رحلة الاخرة، وكان سور الصين أحد عجائب الدنيا، صمود الحجر نقل إلينا حضارة أجدادنا، وتعلمنا منهم ولكننا لم نعد نقطع الأحجار من الجبل، وإنما نصنعها لهذا ستظل حضارتهم القديمة أقوى وأبقى، فهي الأصل: لغة قدماء المصريين عاشت مع الحجر سبعة الاف من السنين.

مدن قامت فوق مدن، وعصور جاءت فوق عصور، وحضارات سادت ثم بادت، لتقوم فوقها حضارات أخرى.. هكذا التاريخ.. منذ كان هناك تاريخ.. ومنذ كانت حياة:

مدينة الاسكندرية خلدها التاريخ

الاسكندرية: هي مدينة في مصر وهي من أعظم ثغور البحر المتوسط، ذات مركز تجاري وثقافي بفضل جامعتها. أسس المدينة الاسكندر الكبير سنة (٣٣) ق. م. واشتهرت بمنارتها وعلوها فقد بلغ علو منارتها حوالي ٤٠٠ قدم، وفي عهد البطالسة أصبحت الاسكندرية أعظم مدن الشرق بل العالم انذاك من حيث ثقافتها وتجارتها. فتحها (أكتافيوس) فضمها إلى الامبراطورية الرومانية (٣٠) ق. م. ثم أصبحت مركزا مسيحيا خطير الشأن في الشرق وقاعدة مدرسة لاهوتية. وكان من ملافنتها اكليمنضوس وأوريجينوس. واشتهرت الاسكندرية بمدرستها الفلسفية بأوائل القرن الثالث وحتى ٥٢٩. ومن أساتذتها أفلوطينوس. فتح العرب الاسكندرية عام ٦٤٥ م واتخذوها مرفأ. بنى سورها المتوكل عام ٨٥٨ م على أيام خلفاء الفاطميين. كما نقل

الأقباط كرسيهم البطركي منها إلى القاهرة، وحمل إليها الاغريق مكتبة غنية تضم أكثر من اربعمائة مجلد في علوم الطب والفلسفة والفيزياء والرياضيات والعلوم، احتلها الرومان، ثم غزاها الفرس من بعدهم، جاء العرب المسلمون ناشرين الاسلام، حاملين معهم حضارة وفكرا وفلسفة جديدة، ومعهم أيضا شاع الأمن والسلام.

يحدثنا المسعودي في كتاب «مروج الذهب» عن بناء الاسكندرية وعن عجائبها:

اختيار موقع الاسكندرية

يقول المسعودي أن الاسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده سار ليختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء، حتى انتهى به المطاف إلى موضع الاسكندرية، فأصاب في موضعها اثار بنيان عظيم وعمدا كثيرا من الرخام، وفي وسطها عامود عظيم مكتوب عليه بأقلام من أقلام حمير وملوك عاد: (أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد، شددت ساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد من الجبال والأوتاد. وأنا بنيت أرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأردت أن أبنيها ها هنا كأرم، وأنقل إليها كل ذي أقدام وكرم، ومن جميع العشائر والأمم، وذلك إذ لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقم).

نزل الاسكندر متفكرا في هذا الكلام. ثم جمع الصناع من البلاد وخط الأساس، وحشد إليها العمد والرخام، وأنواع المرمر والأحجار. ويقول المسعودي تم بناء الاسكندرية سنة ٣٣٢ ق. م. وقد كتب على أبوابها هذه العبارات:

(هذه الاسكندرية، أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور) فقد بنيتها وأحكمت بناءها وشيدت أسوارها. وقد أتاني الله من كل شيء علما وحكمة، وسهل لي وجوه الأسباب، فلم يتعذر علي شيء في العالم مما أردته، ولا امتنع عني شيء مما طلبته.. لطفا من الله عز وجل، وصنعا بي، وصلاحا لي ولعباده من أهل عصري والحمد لله رب العالمين.

هذا ورسم الاسكندر بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الأحداث في مستقبل الزمان: من الآفات، والعمران، والخراب، ما يؤول إليه نهاية العالم

يقول المسعودي: إن بناء الاسكندرية طبقات، وتحتها قناطر مقنطرة، عليها دور المدينة، يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به المكان حتى يذور تلك القناطر التي تحت المدينة، وقد عمل لتلك العقود مخاريق، وتنفسات للضياء ومنافذ للهواء.

ويقول المسعودي: كانت الاسكندرية تضيء بالليل من غير مصباح، لشدة بياض الرخام والمرمر، وإن أسواقها وشوارعها وأزقتها، مقنطرة لئلا يصيب أهلها شيئا من المطر.

هذا وقد كان عليها سبعة أسوار من كافة أنواع الحجارة المختلفة الألوان، وبينها خنادق، وبين كل خندق وسور فاصلان، وقد علق على جدران الاسكندرية أقمشة من الحرير الأخضر والأسود، لاختطاف بياض الرخام خوفا على أبصار الناس لشدة بياضها.

فلما انتهى بناؤها، وسكنها أهلها، كانت افات البحر وسكانه — على ما تواردت الأخبار من المصريين والاسكندريين — تخطف بالليل أهل هذه المدينة، فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير.

صنع التماثيل

لما علم الاسكندر بذلك غضب غضبا عظيما وقد اتخذ الترتيبات، فجمع الكهان والمنجمين والفلكيين وأصحاب الطلاسم، وطلب منهم عمل الطلاسم وتعليقها على أعمدة المدينة من كافة أطرافها وهي لا تزال باقية من اثارها حتى الآن، وكان شكل العواميد على هيئة شجر السرو، وقد بلغ طول العامود ثمانين ذراعا وهو مصنوع من النحاس، وجعل على الأعمدة هذه التماثيل، وكان كل تمثال يعلّم عند انخفاض درجات الحرارة وارتفاعها.

وذكر المسعودي: أن أصحاب الطلسمات كانوا من المنجمين والفلكيين، وقد صنعوا أيضا أرصادا للشمس والفلك فإذا ارتفع الفلك درجة من الحرارة أو انخفض درجة في مدة يذكرونها من السنين نحو ستماية سنة، فكان فعل

الطلسمات منها النافعة ومنها المانعة ومنها الدافعة.

منارة الاسكندرية

يقول المسعودي: إن منارة الاسكندرية التي بناها الاسكندر بن فيليبس المقدوني. وبعض المؤرخين يقولون أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها.

وبعضهم قال: إن الذي بنى مدينة روما هو الذي بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها وقد أضيفت إلى الاسكندرية لشهرته بالاستيلاء على اكثر ممالك العالم فشهرت به. ويوجد في الاسكندرية تمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس أينما اتجهت من الفلك، فإذا ارفعت الشمس ارتفعت سبابته، وإذا انخفضت انخفضت يده سفلا، ويدور معها حيث دارت.

كما يوجد تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو على قرب منه من نحو البلد أي نحو ليلة، صرخ ذلك التمثال بصوت هائل يسمع من مسافة ميلين أو أكثر. فيعلم أهل المدينة أن العدو قد اقترب ودنا منهم فيرمقونه بأبصارهم ويأخدون حذرهم.

ويوجد تمثال أيضا كلما مضى من الليل او النهار ساعة سمعوا له صوتا جميلا بخلاف ما سمعوا في الساعة التي قبلها، وكان لهذا الصوت طرب وشجى عظيم.

هدم منارة الاسكندرية

بلغ ارتفاع المنارة حوالي ألف ذراع وقد وضع مرآة في رأس المنارة والتماثيل جلوس حولها. فإذا نظروا إلى العدو في البحر، في ضوء تلك المرآة صوتوا ونشروا أعلاما مختلفة الأشكال والألوان فيراها عن بعد وعلى مسافة ميلين أو أكثر من ذلك كما ينذرون البلد، فلا يكون للعدو عليهم سبيل.

يقول المسعودي: كان أحد ملوك الروم في زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان قد أرسل إليه خادما من خاصة خدمه ذا رأي ودهاء، وجاء مستأمنا إلى بعض الرى وبرفقته أشخاص ومعهم الات الهدم، فجاء إلى الوليد فأخبره أنه يريد الاسلام فأسلم على يد الوليد، وتقرب منه ومن قلبه، وقدم إليه دفائن قد استخرجها من بلاد دمشق وغيرها من بلاد الشام، وكتب كان حملها معه فيها صفة تلك الدفائن. فلما رأى الوليد تلك الدفائن والكتب قال للوليد: إنه يوجد (تحت منارة الاسكندرية أموال الأرض وكنوزها، وذلك أن الاسكندر احتيو على الأموال والجواهر التي كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام، فبنى لها البناء تحت الأرض، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب، وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجواهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة).

فبعث الوليد مع الخادم بجيش من خاصة جيشه حماية له، فهدم نصف المنارة من أعلاها، وأزيلت المرآة، فضج الناس أهل الاسكندرية وغيرها، وعلموا أنها مكيدة وحيلة انطلت على الوليد.

ولما شعر الخادم بانتفاضة الشعب أخذ ما يحتاج إليه وفر هاربا في الليل في مركب قد أعده لذلك. فنجا بحياته وحياة الآخرين معه.

هذا وبقيت المنارة على وضعها الحالي إلى هذا الوقت، ويقول المسعودي: إن حول منارة الاسكندرية في البحر غواصين يخرجون منه قطع اللؤلؤ والجواهر وغيرها من عجائب البحر. ويقال أن ما خلف الاسكندر من أواني الشراب والطعام وأواني المائدة، كسرتها أمه عند موته ورمت بها في ذلك الموضع من البحر.

ومنهم من قال أن الاسكندر اتخذ ذلك الموضع ليغرق من الجواهر حول المنارة لكيلا يخلو الناس من حولها، وأن يكون ذلك المكان مطلوبا فيكون الموضع على دوام الأوقات والأزمان معمورا بالناس.

لمحة خاطفة عن حياة الاسكندر

كان الاسكندر عالما فذا، وفارسا عظيما، وكانت تهابه وتخافه جميع ملوك الأرض، وبلغت حاشيته ووزراؤه ما ينوف عن ثلاثين حكيما وفيلسوفا، ولا يستطيع أن يغلبه أحد بالعلم من هؤلاء الحكماء لغزارة علمه واطلاع معرفته. وكان يجمع هؤلاء الحكماء ويستريح إلى كلامهم ولا يصدر أمرا أو حكما إلا عن رأيهم ومشورتهم. ●

الفهرس العام للسنة الخامسة

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
تاريخ لبنان			
■ نصوص تاريخية عن السيل الجارف في بعلبك ٧١٧هـ/١٣١٧م. والريح العاصفة في أعمال طرابلس	د. عمر عبد السلام تدمري	٤٩	٣٧
■ فن العمارة الاسلامية في لبنان	تعريب: عبد الأحد حناوي	٤٩	٥٣
■ مهمات تاريخية في الشرق: البعثة العسكرية الاميركية لاستكشاف لبنان وأنهاره	د. ابراهيم فريد الدُّر	٥٠	٤٤
■ العثمانيون وبنو المطرجي	فضل المقدم	٥٠	٥٢
■ في أساس الصمود	معالي اللاستاذ روجيه شيخاني	٥٢	٣
■ لبنان والسياسة الخارجية	معالي الأستاذ جوزف أبو خاطر	٥٢	٤
■ عملية الاعمار الكبرى بين الشعب والدولة	د. محمد عطا الله	٥٢	١٠
■ نشأة السياحة اللبنانية ومراحل تطورها	الشيخ حبيب كيروز	٥٢	٢٢
■ دور الاعلام في لبنان الجديد	محمد البعلبكي	٥٢	٢٨
■ المؤسسات السياسية في لبنان	د. بهيج طبارة	٥٢	٣٢
■ من المتصرفية إلى الجمهورية	د. نقولا زيادة	٥٢	٣٨
■ الجامعات في لبنان	د. محمد المجذوب	٥٢	٤٤
■ بيروت: ذكريات.. وواقع	جبران التويني	٥٢	٥٠
■ تضامن المجتمع اللبناني	د. باسم الجسر	٥٢	٥٦
■ ١٩٤٣ ـ ١٩٨٣، أربعون عاماً من الاستمرارية الدستورية	د. داوود الصايغ	٥٢	٧٤
■ الثوابت في النظام السياسي اللبناني وفي المجالس النيابية، الهيئة الانتخابية الموحدة	د. انطوان مسرة	٥٢	٨٠
■ الرياضة في لبنان خلال نصف قرن	ناصيف مجدلاني	٥٢	٨٦
■ من ذكرياتي عن الانتداب الفرنسي على لبنان سنة ١٩٣١	جان سرور	٥٤	٥٦
■ نصوص مختارة من سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس	د. عمر عبد السلام تدمري	٥٥	٢٦
■ صفحة مطوية من تاريخ جبل عامل النضالي، مقاومة سياسة الجزار التدميرية (١٧٧٥ ـ ١٧٨٥)	د. حسين سلمان سليمان	٥٥	٤٤

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ أدباء من لبنان، «عبد الحي البعلي»	د. أسامة عانوتي	٥٥	٤٠
■ الانتماء الاجتماعي والمسألة الحضارية في فكر جبران	د. وجيه كوثراني	٥٦	٤٢
■ أحداث اليوم.. تاريخ الغد النص الرسمي الكامل للاتفاق اللبناني ــ الاسرائيلي	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٦	٨٣
■ النظام السياسي اللبناني في ديالكتيك الحرب والسلام	د. جوزيف مغيزل	٥٧	١٨
■ بعلبك صدّرت حكامها البوريين ملوكاً لدمشق	د. حسن عباس نصر الله	٥٧	٥٨
■ النزاعات الدولية: اثرها وتأثيرها على لبنان	د. باسم الجسر	٥٨	١٠
■ علماؤنا: الشيخ محمد كامل البابا	فضل المقدم	٥٨	٦٣
■ وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس	عمر مسقاوي	٥٩ ــ ٦٠	٦٠

تاريخ فلسطين

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ المشروع الاسرائيلي لشق قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت	د. محمد المجذوب	٥٤	٢
■ ١٥ أيار: ١٩٤٨	السفير د. حليم أبو عز الدين	٥٥	١٦
■ ترميم وإعمار الحرم الشريف في القدس عام ١٩٢٨م	د. تيسير جبارة	٥٩ ــ ٦٠	٤٤

حضارة عربية

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ مقتطفات طريفة وحيل مسلية ومفيدة في مخطوطة «كتاب الحيل» لأبناء موسى بن شاكر	د. منى سنجقدار شعراني	٤٩	١٨
■ الفكر العربي الاسلامي، أعلاما ومؤلفات	د. نقولا زيادة	٤٩	٢٩
■ ابن خلدون والتطور العمراني في المغرب الاسلامي	د. الحبيب الجنحاني	٥٠	٢
■ الفكر العربي الاسلامي، اعلاما ومؤلفات	د. نقولا زيادة	٥٠	١٤
■ الفكر العربي الاسلامي، اعلاما ومؤلفات	د. نقولا زيادة	٥١	١١
■ أهل الاسلام	د. خالد زيادة	٥١	٣٢
■ التماثيل والدمى المتحركة عند العرب (الحلقة ١)	د. منى سنجقدار شعراني	٥٣	٢
■ العلاقة بين التراث الحضاري الاسلامي ونمو المدينة العربية	دارة الملك عبد العزيز	٥٣	٢٢
■ الفكر العربي الاسلامي، اعلاما ومؤلفات	د. نقولا زيادة	٥٤	٨
■ التماثيل والدمى المتحركة عند العرب (الحلقة ٢، والأخيرة)	د. منى سنجقدار شعراني	٥٤	١٨

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ المحتسب.. في العصر العباسي	اعداد: كارولين ستون رسوم: بني وليامس ترجمة: «تاريخ العرب والعالم»	٥٤	٤٤
■ العربي وفرسه	هلموت فون فولتكه	٥٤	٤٨
■ الفكر العربي الاسلامي، اعلاماً ومؤلفات	د. نقولا زيادة	٥٦	٢٩
■ رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم	تأليف: أبي بكر محمد بن زكريا الرازي اعداد: د. محمود الحاج قاسم محمد	٥٧	٦٨

التاريخ العربي الاسلامي

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ المدفعية عند العرب في أوائل القرن السابع عشر	د. سهيل زكّار	٤٩	٢
■ تجارب رجال الاصلاح في تونس مع الأحداث التركية في بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر	د. أحمد عبد السلام	٤٩	٤٥
■ جبل طارق: معقل اسلامي عبر القرون الوسطى (الحلقة ١)	د. أمين توفيق الطيبي	٥١	٢
■ جبل طارق: معقل اسلامي عبر القرون الوسطى (الحلقة ٢ والأخيرة)	د. أمين توفيق الطيبي	٥٣	١٣
■ جذور التفكير بالحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام	د. حسين سلمان سليمان	٥٤	٢٨
■ الثورة السورية الكبرى، ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ (الحلقة ١)	بقلم: د. ادمون رباط تعريب: د. محمد المجذوب	٥٥	٢
■ صقلية الاسلامية.. ومهد الحضارة العربية النورماندية	جيان لويجي سكارفيوني وبول لاند	٥٥	٣٦
■ الثورة السورية الكبرى، ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ (الحلقة ٢)	بقلم: د. ادمون رباط تعريب: د. محمد المجذوب	٥٦	٢
■ الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا، خلال العصر الحديث	د. عبد الجليل التميمي	٥٦	١٦
■ الثورة السورية الكبرى، ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ (الحلقة ٣ والأخيرة)	بقلم: د. ادمون رباط تعريب: د. محمد المجذوب	٥٧	٢٥
■ مخطوط «تاريخ الملك الأشرف قايتباي» وغزوات المماليك إلى قبرص	د. عمر عبد السلام تدمري	٥٧	٣٩
■ الأحزاب السياسية الدينية، مثل الخوارج والشيعة في القرن الأول الهجري	د. رضوان السيد	٥٨	٢
■ الطب العربي في نظر العلماء والمؤرخين (الحلقة ١)	د. اسماعيل سرور شلش	٥٨	١٥

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ المبادلات التجارية لبلدان المشرق والمغرب العربي في الربع الأول من القرن التاسع عشر	د. حسين سلمان سليمان	٥٨	٣٨
■ أبحاث هاينريش بارت في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية في افريقيا (الحلقة ١)	ميلكس كلاين فرانكه	٥٨	٥١
■ مشكلة الفتوحات وفتح الشام	د. سهيل زكّار	٥٩ ـــ ٦٠	٢
■ الطرق التجارية في العصور الوسطى	د. نقولا زيادة	٥٩ ـــ ٦٠	١١
■ أبحاث هاينريش بارت في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية في افريقيا (الحلقة ٢ والأخيرة)	ميلكس كلاين فرانكه	٥٩ ـــ ٦٠	٢٣
■ الطب العربي في نظر العلماء والمؤرخين (الحلقة ٢ والأخيرة)	د. اسماعيل سرور شلش	٥٩ ـــ ٦٠	٣١

في الآثار والحضارات

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ المدافن الأثرية في بديع بنت سعود	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٠	٨٤
■ التنقيب في مليحة في امارة الشارقة	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٣	٧٨
■ أبو ظبي وعلاقتها الحضارية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٤	٨٢
■ المدافن الأثرية في جزيرة أم النار	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٥	٧٦
■ التنقيب في موقع قطارة	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٦	٨٠
■ تطور حياة البدو في الجزيرة العربية في ضوء المادة الأثرية	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٧	٢
■ آثار: التنقيب في موقع القصيص في إمارة دبي ١٩٧٤	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٩ ـــ ٦٠	٨٨

تاريخ أوروبا والعالم

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ مصطفى آتاتورك بين الأسطورة والحقيقة	د. رياض العالي	٤٩	٦٥
■ ١٨٢٠٠٠٠ قتيل في حرب الكوريتين	د. سامي زكي	٤٩	٧٤
■ غانة في التراث العربي القديم	نادية عبد العزيز	٥٠	٥٦
■ قصة الكساد الاقتصادي الكبير: ١٩٢٩ ـــ ١٩٣٣	د. يوسف شبل	٥١	٢٦
■ انفجار مدمرة كيتشنر، عملية خيانة أم حادث طبيعي!	شذا عدرة	٥٣	٥٨
■ أوروبا تحت الاحتلال	ابراهم عامر	٥٣	٧١
■ كيف تم اغتيال كنيدي؟	د. رياض العالي	٥٤	٧٢
■ ايفا بيرون من راقصة إلى سدة الحكم في الأرجنتين	شذا عدرة	٥٥	٦٢
■ انقلاب ١٩ بروميير الذي حمل نابليون إلى سدة الحكم	بقلم: آلان دوكو تعريب: د. رياض العالي	٥٦	٦٤
■ اغتيال ملك يوغوسلافيا	د. رياض العالي	٥٧	٧٨

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ من رسائل نهرو إلى ابنته: كيف فرضت انكلترا الأفيون على الصين؟	جواهر لآل نهرو	٥٨	١٨
■ معركة واترلو	د. رياض العالي	٥٨	٨٠
■ أيام كانت المانيا ٢٣٤ دويلة! معاهدة «وستفالي» تضع حداً لحروب الثلاثين عاما	د. رياض العالي	٥٩ ـ ٦٠	٧٦
تاريخ الفنون			
■ سيراميك الشرق المسلم	ترجمة د. سامي زكي	٥٩	٧٠
■ تطور الكتابة العربية وارتباطها بالفن التشكيلي	عاطف مصطفى	٥٤	٣٥
■ بيكاسو كما عرفته.. علاقة بيكاسو بلوحاته حالة عشق ووله	بقلم: موريس ريميز تعريب: د. سامي زكي	٥٦	٧٣
■ تحف تعرض لأول مرة في الذكرى المئوية الثانية لأول منطاد	د. سامي زكي	٥٨	٤٦
تاريخ الطوابع			
■ قصة «اسطورية» في عالم هواية جمع الطوابع	ميشال اسطفان	٤٩	٨٦
■ تاريخ الطوابع: الطوابع ذات الموضوعات الخاصة............................	ميشال اسطفان	٥١	٨٢
توثيق ومعلومات			
■ وثائق من التاريخ: الوجه الآخر للاستشراق	غادة المقدم عدرة	٥٠	٦٤
■ حول وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس	د. حسين سلمان سليمان	٥٣	٤٢
■ ارشيف المحكمة الشرعية في طرابلس	فاروق حبلص	٥٣	٥٠
■ حول نشر السجل الأول من وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس	د. عمر عبد السلام تدمري	٥٣	٥٦
■ وثائق من التاريخ: من تاريخ المسألة الشرقية: العلاقات بين فخر الدين وتوسكانا	غادة المقدم عدرة	٥٣	٦٤
■ وثائق من التاريخ: هجرة الطائفة اليهودية من العراق............................	غادة المقدم عدرة	٥٤	٦٢
■ أهمية الوثائق العربية في الدراسات التاريخية	بشير عثمان أحمد	٥٥	٧٠
■ مجال التوثيق والمعلومات في مكتب المتابعة	عائشة خليفة مطر	٥٨	٨٨
■ المعاهدة الانكلو ـ مصرية وولادة دولة السودان ١٩ك٢. ١٨٩٩م	قسم التوثيق والأبحاث»	٥٨	٩٠
■ معاهدة بورتسماوث: ٥ أيلول ١٩٠٥	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٩ ـ ٦٠	٩٤
بريد القراء			
■ المنستير: ماضيها ومعالمها التاريخية والأثرية ...	محمد الفاكياني	٥٠	٩٤

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ الأسر التنوخية الحاكمة في اللاذقية وجبْلة	هاشم عثمان	٥١	٩١
■ اهرامات الجيزة بالقاهرة	عبد الله محمد حاج عبدو	٥١	٩٥
■ العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية (١١٧١ ــ ١٢٥٠م)	محمد الفاكياني	٥٤	٨٧
■ جمال الدين الأفغاني	صبحي منذر ياغي	٥٥	٩١
■ موقعة العقاب	محمد عبد العزيز عثمان	٥٧	٨٥
■ حضارات سادت ثم بادت	محمد الفاكياني	٥٩ ــ ٦٠	١٠٢

رسائل الماجستير والدكتوراه

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ تاريخ مدينة ماري في الألفين الثالث والثاني ق.م.	فاطمة هدايات عصافيري	٥١	٨٦
■ الاتجاه الاسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين	منجد مصطفى بهجة	٥٣	٨٦
■ «صفوة التصوف» لمحمد بن طاهر المقدسي «ابن القيسراني»	د. غادة المقدم عدرة	٥٩ ــ ٦٠	١٠٠

مراجعات كتب

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ مذكرات سليم علي سلام للدكتور حسان علي حلاق	عرض الدكتور محمد أمين فرشوخ	٤٩	٨٨
■ الزير سالم أبو ليلى المهلهل للباحث في شؤون التراث، شوقي عبد الحكيم	عبد الباقي شناق	٥٠	٩٠
■ الأسس البيولوجية لسلوك الانسان	د. ابراهيم فريد الدُّر	٥٧	٩٢
■ المتنبي: للأستاذ انعام الجندي	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٨	٩٢

متفرقات

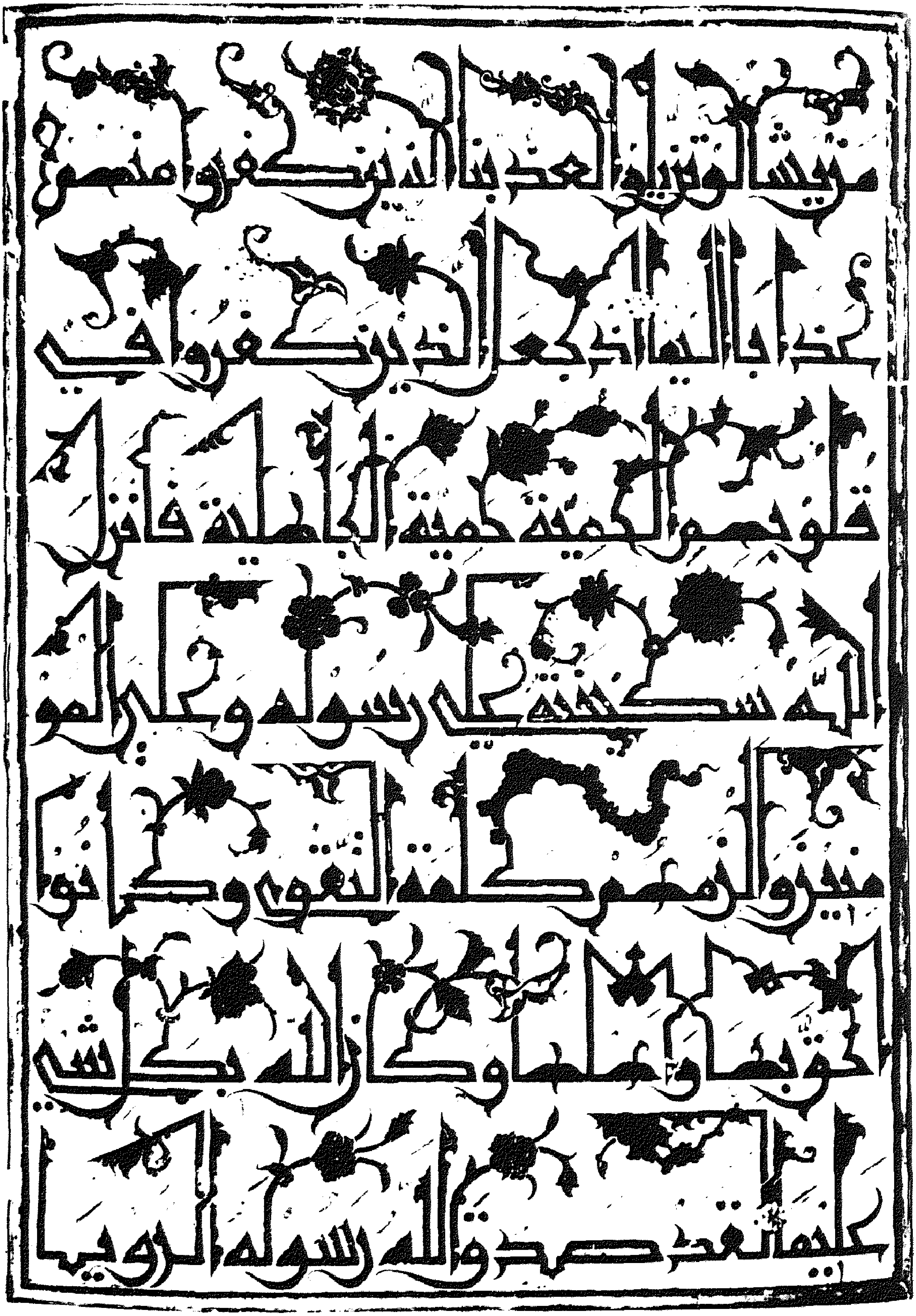
الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ المؤتمر السادس لتاريخ العلوم عند العرب: العرب والترجمة	احمد عبيدلي	٥٠	٧٨
■ تلك الأيام: مذكرات وذكريات	السفير د. حليم أبو عزالدين	٥٠	٢٦
■ من مذكرات الدبلوماسيين: سفير بريطاني يقابل السلطان العثماني	نجدة فتحي صفوة	٥٠	٣٩
■ هل مات ستالين موتاً طبيعياً؟	د. رياض العالي	٥٠	٧٢
■ أحداث اليوم.. تاريخ الغد	السفير د. حليم أبو عزالدين	٥١	٢٠
■ ظاهرة ولادة النجوم واحتضارها والنجوم المتغيرة والمزدوجة	نقولا شاهين	٥١	٣٨
■ صورة المرأة في الف ليلة وليلة	فيبكه فالتر	٥١	٤٨
■ مهنة الصحافة الخطرة في عهد النظام الملكي في فرنسا	د. رياض العالي	٥١	٦٢

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ ورقة من تاريخ الاستشارق في ألمانيا، إرنست ترمب (١٨٢٨ ــ ١٨٨٥)	آنا ماري شيمل	٥٣	٣٣
■ الخطة العلمية لعام (١٩٨٢ ــ ١٩٨٣) جامعة البصرة	مركز دراسات الخليج العربي	٥٣	٨٤
■ أقدم محكمة في العالم قوانينها عربية	د. رياض العالي	٥٥	٢٢
■ أزمة النفط ومستقبل الاقتصاد	د. يوسف صايغ	٥٥	٣٥
■ سباق سيارات بين بكين وباريس عام ١٩٠٧ ...	د. سامي زكي	٥٥	٨١
■ فانوس رمضان	د. عثمان خيرت	٥٦	٥٢
■ قراقوش.. والفكاهة عند المصريين	د. محمد أمين فرشوخ	٥٦	٥٩
■ أزياء العرب	انطوانيت اديب باسيلي	٥٧	٤٨
■ تاريخ الألعاب الاولمبية الحديثة	د. يوسف شبل	٥٨	٧٢
■ عشـرة آلاف سنة من الحضـارة تعـرض في اسطمبول	انعام الجندي	٥٩ ــ ٦٠	٥٢
■ ذكريات اصبحت تاريخا: مذكرات ايدن	انطوني ايدن	٥٩ ــ ٦٠	٦٤
■ أين الحقيقة؟ حول المذكرات المنسوبة إلى ادولف هتلر؟	د. سامي زكي	٥٩ ــ ٦٠	٨٢
■ من الأرشيف: أحمد بن حنبل	قسم «التوثيق والأبحاث»	٥٩ ــ ٦٠	٩٨

• إلى المشتركين الكرام •

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.
وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة



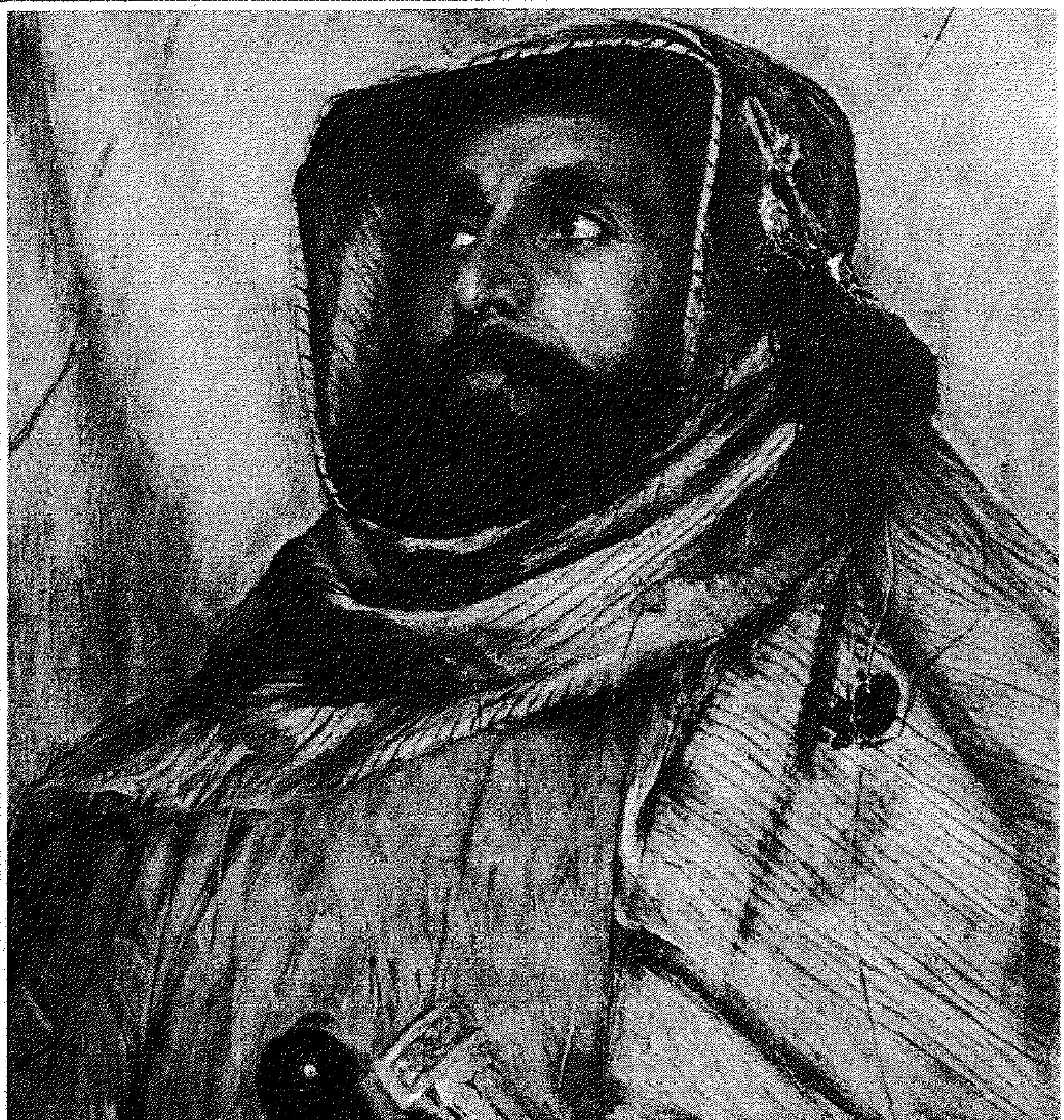
من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم
عذابا اليما اذ جعل الذين كفروا في
قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل
الله سكينته على رسوله وعلى المو
منين والزمهم كلمة التقوى وكانوا
احق بها واهلها وكان الله بكل شي
عليما لقد صدق الله رسوله الرويا

□ صفحة من القرآن الكريم بالخط الكوفي.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السادسة • العدد ٦١ • تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٣م • الموافق صفر ١٤٠٤هـ



تاريخ العرب والعالم

العدد ٦١ تشرين الثاني ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥-ب بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات — تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 6 No. 61 Nov. 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

□ الافتتاحية
فاروق البربير ١

□ غزاة بحر الشام وامراؤه في العصر العباسي (الحلقة الأولى)
د. عمر عبد السلام تدمري ٢

□ الشرق الساحر في لوحات الرسامين الغربيين
اقتباس: د. محمد المجذوب ١٢

□ صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة
د. محمد حميد الله ٢٤

□ اخبار التراث ٣٥

□ الحماية العثمانية للتجار الفرنسيين في بلاد الشام
د. حسين سلمان سليمان ٣٦

□ قصص العرب: بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد ٤٧

□ كيف تم تحرير باريس في ٢٣ — ٢٦ آب ١٩٤٤؟
د. رياض العالي ٤٨

□ ذكريات أصبحت تاريخاً: كيف حاول الانتداب الفرنسي فرض معاهدة على سورية ولبنان؟
جان سرور ٥٤

□ قياس أبعاد الاجرام السماوية عن الارض وعن بعضها البعض
نقولا شاهين ٦٠

□ دنقلا العرضي عبر التاريخ
عبد العال أحمد عثمان ٧٠

□ سباق نحو القطب الشمالي بين روسيا واميركا
د. سامي ذكي ٧٦

□ معركة بواتيه أو بلاط الشهداء
هلا صبحي طبارة ٨٦

□ من الأرشيف: الابجدية
«قسم التوثيق والأبحاث» ٩٠

□ القراء يكتبون: عمار بن علي الموصلي
فاضل خليل إبراهيم ٩٤

«تاريخ العرب والعالم» في عامها السادس

ليس في العالم منطقة تناوبها الدهر برفعه وخفضه كبلاد العرب، حتى ليصعب على السائح العادي حين يمر بها اليوم، وهي في حالتها الحاضرة من التفكك والتجزئة، أن يفطن إلى أن هذه الأقطار العربية الشاسعة الغنية بمواردها، كانت في الماضي مهد الحضارة من علوم وفنون وديانات، وأنها كانت طريق التجارة العالمية بين آسيا وافريقيا، وأوروبا.. حتى أن الأستاذ ويليام هاس المؤرخ الشهير استشهد بها قائلا:

«إنها البلاد التي وقعت فيها معظم حوادث التاريخ الضخمة، وإننا فيما يتعلق بتاريخ الحضارة العربية نعلم ان كثيرا من معارفنا قد أتتنا رأسا من بلاد الشرق الأوسط، وأنه ليس هناك شيء عندنا لا يمكن أن نرجع بأصوله إلى الشرق الأوسط..».

وللتاريخ طريقة خاصة وغريبة في تعيين الوقت، وتوقيت الحوادث.. فلقد مضت أجيال قبل أن تتحرك أكثرية العالم التي أنشئت الحضارات الأولى، في آسيا وأفريقيا، وتفطن إلى أن لها دورا يجب أن تلعبه في مصير العالم.. في مصير عالمها وعالم الآخرين أيضا.. الذين استولوا على أرضهم واستعمروهم واستغلوهم..

ولقد بدأ هذا الليل الطويل المظلم في تاريخ آسيا وافريقيا في القرن الخامس عشر، عندما غادرت سفن القراصنة الأوروبيين مرافئها في المحيط الاطلنطيكي للاستيلاء على مدن الشعوب الأخرى وثرواتها.. ثم بدأت المحاولات الأولى للسيطرة الأوروبية على الشرق..

ثم جاء التجار وأصحاب المعامل، ليحلوا محل القراصنة، واستولوا على آسيا وأفريقيا بالحديد والنار.. ثم جاء بعد هؤلاء أصحاب الأموال من رجال القرن الحاضر الذين أرادوا تطويق العالم كله، خصوصا المستعمرات وأشباه المستعمرات، بشركات مالية ليفيدوا من ثرواتها وخيراتها.

وظهرت على الأثر امبراطوريات ــ كانت عبارة عن سجون لمئات الشعوب وملايين من الناس ــ لا تغيب الشمس عن الأرض التي تملكها..

وفجأة، أخذ مجرى التاريخ يتبدل، وابتدأ من أول القرن الحاضر، بدأت موجة من الانتفاضات الشعبية، تعيد الأجانب إلى حدودهم.. وانحسرت عن سمائنا سحب الاستعمار والاستعباد التي كانت تظلل أرضنا العربية مدى مئات السنين..

ثم بدأت أسس الامبراطوريات القديمة تنهار.. وأخذ العرب يهزون سلاسلهم، ثم انبعثوا يقفون على اقدامهم.. وراحوا يكتبون تاريخهم من جديد..

ولكن على الرغم من هذا الانبعاث، فإن الاستعمار ترك الكثير من بصماته في الوطن العربي على جميع المستويات، ولعل أبرز «انجازاته» كانت اسرائيل التي زرعها في قلب الوطن، والتي أصبحت تهدد جميع الانجازات التي حققها العرب خلال النصف القرن الماضي.


ولكن.. على الرغم من هذا الواقع المؤلم والخطير فإن الأمل والايمان بمستقبل عربي مشرق لا بد أن يستمران.

إن الشمس لا بد أن تشرق غدا، والطقس سيزداد حرارة في الشهور القادمة، والأشجار التي نراها في الحدائق ستورق وتثمر.. وعجلة التاريخ مهما تباطأت ستكمل دورتها..

ومجلة «تاريخ العرب والعالم»، وهي تدخل عامها السادس ستواصل رسالتها لاعادة بحث وتقويم تاريخنا وتراثنا القومي وثقافتنا على أسس علمية وموضوعية، وذلك بهدف الوصول إلى رؤية موضوعية لتطورنا القومي والحضاري والانساني.

وكلنا أمل وثقة وإيمان بأن تاريخ الغد سيكون أكبر معبر عن آمال وطموحات المواطن في جميع أرجاء الوطن العربي.

فاروق البربير




غزاة بحر الشام

وأمراؤه في العصر العباسي

د. عمر عبد السلام تدمري

الحلقة الأولى

في هذه الدراسة نعود لوصل ما انقطع من هذا الموضوع[1] الذي يستعرض أسماء الغزاة في «بحر الشام» والأمراء الذين كان لهم دورهم في الذود عن السواحل العربية، ومن خلال العرض نؤرخ لفترة من الصراع (العربي ـ البيزنطي)، تعتبر من أكثر الفترات التاريخية غموضا في تاريخ ساحل الشام ولا يخفى أن انتقال مركز الخلافة من دمشق إلى الأنبار ثم بغداد، كان سببا أساسيا في ندرة المعلومات عن الوقائع التاريخية ومجريات



الحوادث التي شهدتها هذه المنطقة، ولذا كان على الباحث المؤرخ لهذه الفترة أن لا يكتفي باعتماد المصادر التاريخية البحتة فحسب، بل يجدر أن يستعين بكل مصدر غير تاريخي يساعد على إنماء معلوماته وإثرائها بالوقائع التي توفر له مادة وفيرة يمكن أن يؤلف بينها، ويؤلف منها. ومن هنا تأتي أهمية كتب التراجم والطبقات، وكتب الأدب ودواوين الشعراء، وكتب الحديث والفقه، وكتب الرحلات والجغرافيا، وغيرها، في رفد كتب التاريخ بالمعلومات الثرّة.

في عهد أبي جعفر المنصور

عندما توفي «أبو العباس» المعروف بالسّفاح، أول خلفاء العباسيين في سنة ١٣٦هـ. وصل الخبر إلى «عبد الله بن علي» وهو في الدّرب[٢] متوجها يريد غزو البيرنطيين، فدعا الناس لمبايعته بالخلافة، ولكن أبا جعفر المنصور تخلص منه، واغتنم الامبراطور «قسطنطين» فرصة انشغال المنصور في تثبيت ملكه، فقام بحملة إلى ملطية[٣] قادها بنفسه ودخل المدينة فقهر أهلها وهدم سورها في سنة ١٣٨هـ[٤]. وقيل (١٣٩هـ)، فغزا «العباس بن محمد بن علي» الصائفة ومعه «صالح بن علي» الذي بنى ما كان البيزنطيون هدموه من ملطية[٥]. ويبدو أن الامبراطور كان يرغب في فداء الأسرى الذين لديه، والمنصور يأبى ذلك، مما دفع بالامام الأوزاعي «عبد الرحمن بن عمرو» لأن يكتب إلى الخليفة رسالة شديدة اللهجة يحثه فيها على المبادرة إلى الفداء، وقد حفظ لنا «أبو نعيم الأصبهاني» نص الرسالة في مصنفه الخاص برجال الزهد والتصوف، المعروف بـ «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، والنص غير موجود في المصادر التاريخية المعروفة.

قال «أبو نُعَيم»:

«لما خرج «ابراهيم» و «محمد» على أبي جعفر المنصور، أراد [من] أهل الثغور أن يعينوه عليهما، فأبوا ذلك، فوقع في يد ملك الروم الألوف من المسلمين اسرى،ـ وكان ملك الروم يحب أن يُفادي بهم، ويأبى أبو جعفر ـ فكتب الأوزاعي إلى [أبي] جعفر كتابا:

«أما بعد، فإن الله تعالى استرعاك أمر هذه الأمة لتكون فيها بالقسط قائما، وبنبيه صلى الله عليه وسلم في خفض الجناح والرأفة متشبها، وأسأل الله تعالى أن يُسكن على أمير المؤمنين دهماء هذه الأمة، ويرزقه رحمتها، فإن سايحة المشركين غلبت عام أول، وموطؤهم حريم المسلمين، واستنزالهم العواتق والذراري من المعاقل والحصون، وكان ذلك بذنوب العباد، وما عفا الله عنه أكثر، فبذنوب العباد استنزلت العواتق والذراري من المعاقل والحصون، لا يلقون لهم ناصرا، ولا عنهم مدافعا، كاشفات عن رؤوسهن وأقدامهن، فكان ذلك بمرأى ومسمع، وحيث ينظر الله إلى خلقه، واعراضهم عنه، فَلْيَتَّقِ الله أميرُ المؤمنين ولْيَتَّبِعْ بالمُفادات بهم من الله سبيلا، ولْيَخْرُجْ من مَحَجَّة الله تعالى، فإنّ الله تعالى قال لنبيّه: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا)[٦]. والله يا أمير المؤمنين مالهم يومئذ فَيْءٌ موقوف، ولا ذمة تؤدي خراجا إلا خاصة أموالهم، وقد بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني لأسمع بكاء الصبي خلفي في الصلاة فأتجوز فيها مخافة أن تفتتن أمه» فكيف بتخليتهم يا أمير المؤمنين في أيدي عدوهم يمتهنونهم ويتكشفون منهم ما لا نستحله نحن إلا بنكاح؟ وأنت راعي الله، والله تعالى فوقك ومستوف منك، يوم توضع (الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)[٧]. فلما وصل إليه كتابه أمر بالفداء»[٨].

وكان الامام الأوزاعي من جملة المكتتبين في ديوان ساحل الشام المنقطعين للرباط والغزو، وقد خرج في غزوة إلى أرض الروم حول سنة



□ الإمام الأوزاعي.

١٤٠هـ، وأبلى فيها بلاء حسنا، وأفاض بعلمه وفقهه على أصحابه من الغزاة فاشتهر فضله وكثر الثناء عليه، وفي ذلك يقول «اسماعيل بن عياش» عالم أهل حمص: «انقلب الناس من غزاة الندوة سنة ١٤٠ فسمعتهم وهم يقولون: الأوزاعي اليوم عالم الأمة»(٩).

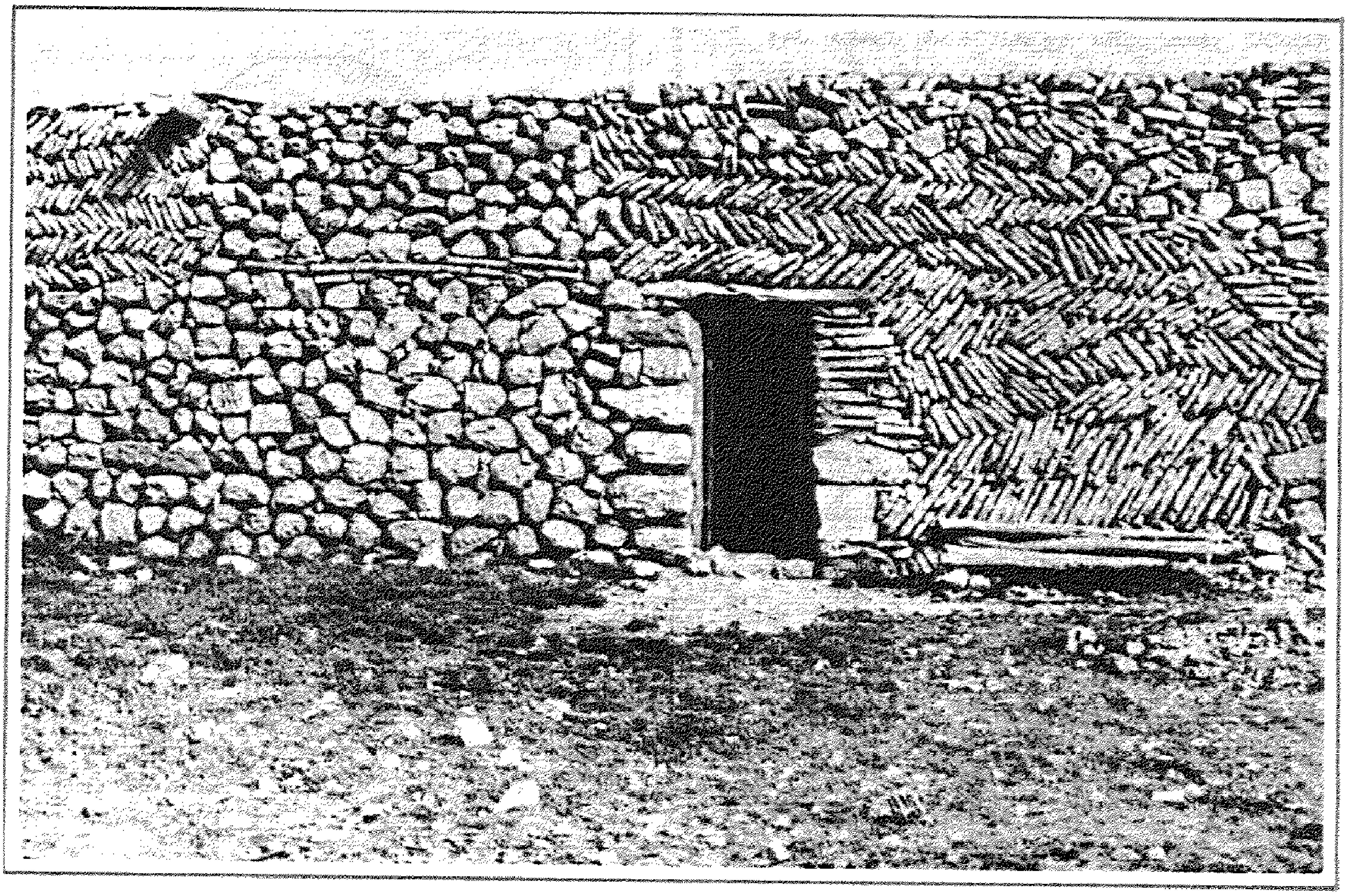
وهدأت الجبهة الشمالية بين العرب والبيزنطيين إلى سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م. لانشغال أبي جعفر بأمر ابني عبد الله بن الحسن،، ولكن بعضهم ذكر أن «الحسن بن قحطبة» غزا الصائفة مع «عبد الوهاب بن ابراهيم الامام» في سنة ١٤٠هـ/٧٥٨م. وأقبل الامبراطور «قسطنطين» في مائة الف فنزل جيحان(١٠)، وهناك بلغه كثرة المسلمين، فأحجم عنهم. وانقطعت الصوائف بعد ذلك إلى سنة ١٤٦هـ(١١).

وفيما كان البيزنطيون يضغطون على منطقة الثغور في الشمال، كان أسطولهم يتجمع في قبرس حيث انطلق منها نحو ساحل الشام، فأتى إلى مدينة اللاذقية وأحرقها(١٢)، وواصل هجومه على الساحل حتى نازل طرابلس ودخلها في سنة ١٤٠هـ/٧٥٨م(١٣) ولكنه لم يطل الاقامة عندها، حيث ارتد إلى قبرس. ولم تمدنا المصادر التاريخية بتفاصيل أوسع عن تلك الغزوة.

وقد دفعت هذه الغزوة بأبي جعفر للانتقال إلى دمشق بعد زيارته لبيت المقدس ليكون على كثب من أوضاع مدن الساحل. وهناك قام باتخاذ بعض التدابير لدعم الساحل واتخاذ الاجراءات الكفيلة بحمايته، فعزل «يونس بن الليث العبسي» عن غازية بحر الشام، وولى مكانه «العباس بن سفيان الخثعمي»(١٤). ووجه إلى مدينة صيدا «نصر بن حرب» وكان في حرسه(١٥). واستقبل الأميرين التنوخيين اللخميين: «المنذر بن مالك» و «أرسلان» وقد قدما عليه من بلاد المعرة، فرحب بهما واختارهما وعشيرتهما للسكنى في «لبنان» بعد أن سمع بشجاعتهم، ليحفظ بهم طريق الساحل، حيث تفاقم خطر أنباط الجبل ووصلوا بتعدياتهم إلى حمص وحماه، وعجز عمال البلاد عن القضاء على سطوتهم لتحصنهم في الجبال. وطلب من التنوخيين أن يسكنوا في الجبال القريبة من بيروت إذ كانت خالية، ورغبهم بالاقامة هناك بأن انعم عليهم باقطاعات معلومة في «لبنان» موثقة بمرسوم(١٦).

وتتبع المنصور في رحلته من بيت المقدس إلى الرّقة، حصون سواحل الشام ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها(١٧)، وخاصة مدينتي اللاذقية وطرابلس اللتين تعرضتا لغزوة الأسطول البيزنطي. وفعل مثل ذلك بمدن الثغور، فأمر ببناء ثغر المصيصة، ففرغ بناؤه في سنة ١٤١هـ(١٨) وولى «وزير بن عبد الحميد النضري» غازية بحر الشام لفترة، ثم عزله بعد أن ولى «صالح بن علي» جند دمشق والأردن والبحر، فأعاده صالح وولاه البحر من جديد(١٩)، ثم ولي البحر بعده «عبد الله بن سعد»(٢٠).

ويظهر أن النظام الدفاعي الذي كان متبعا أيام الدولة الأموية، كان لا يزال معمولا به حتى هذا الوقت، وهو أن تأتي الأجناد من المناطق الداخلية إلى الساحل فتلبث فترة قصيرة في المدن والثغور، ثم لا تلبث أن تعود إلى قواعدها في دمشق أو حمص أو بعلبك، أو تخرج للغزو في بلاد الروم، ولا يبقى في الحصون الساحلية سوى العدد القليل من المرابطين، من أهل تلك البلاد، مسلمين وأهل ذمة. ولما كان الوضع

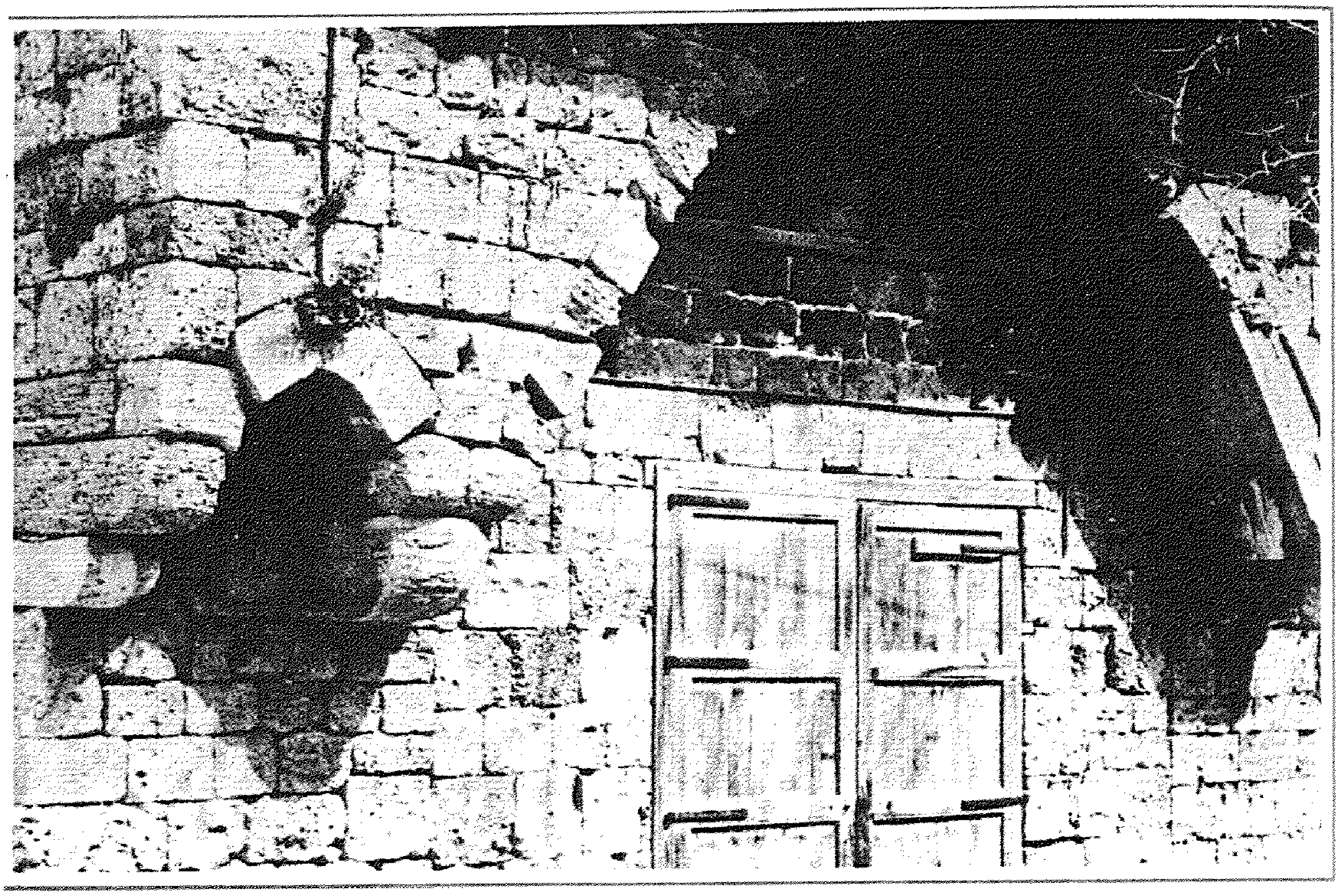


□ بيت قديم في جبّولة، البقاع ـــ لبنان.

مستمرا على هذا الحال مما يجعل الساحل عرضة للغزوات البحرية، فقد انبرى الامام الأوزاعي لانذار الخليفة العباسي بخطورة الأمر في الساحل، وطلب منه أن يأمر بتخصيص أعطيات سنوية لأهل الساحل حتى يقووا على المرابطة وحراسة الأبراج والحصون الساحلية، وأن يرفع من قيمة تلك الأعطيات من عشرة دنانير إلى أكثر من خمسة عشر دينارا في السنة، وأن يعجل بدفع الأعطيات التي استحقت للمرابطين بعد أن انتهى العام دون أن يصلهم شيء منها. وقد حفظ لنا «ابن أبي حاتم الرازي» في كتابه عن رجال الحديث وتجريحهم وتعديلهم ، النص الكامل لكتاب الأوزاعي إلى الخليفة العباسي بهذا الخصوص، وهو غير موجود، أيضا، في أي مصدر تاريخي آخر، نختصر منه ما يلي:

«... وقد كان أمير المؤمنين ـــ حفظه الله ـــ قصر بأهل الساحل على عشرة دنانير في كل عام سلفا من عطياتهم، وأمير المؤمنين ـــ أصلحه الله ـــ إن نظر في ذلك عرف أنه ليس في عشرة دنانير لامرىء ذي عيال عشرة أو أدنى من ذلك أو أكثر كفاف. وإن قوِّت عشرة وقتِّر على عياله، فربما جمع الرجل عشرته في غلاء السعر في شراء طعام لعياله ما يجد منه بدا، ثم يُدان بعد ذلك في أدامنهم وكسوتهم وما سوى ذلك من النفقة عليهم في عشرة لقابل. ولو أجرى عليهم أمير المؤمنين ـــ أصلحه الله ـــ في أعطياتهم سلفا في كل عام خمسة عشر دينارا ما كان فيها عن مصلح ذي عيال فضل ولا قدر كفاف.

وأهل الساحل بمنزل عظيم غناؤه عن المسلمين، فإنه لا يستمر لبعوث أمير المؤمنين فصول إلى ثغوره، ولا سياحة في بلاد عدوهم، حتى يكون من وراء بيضتهم وأهل ذمتهم بسواحل الشام من يدفع عنهم عدوا إن هجم عليهم. وإنهم، إذا كان القيظ، تناوبوا الحرس على ساحل البحر رجالا وركبانا. وإذا كان الشتاء، قاسوا طول الليل وقرّه ووحشته حرسا في البروج، والناس خلفهم في أجنادهم في البيوت والادفاء، فإن رأى أمير المؤمنين ـــ حفظه الله ـــ أن يأمر لهم في أعطياتهم قدر الكفاف، ويجريه عليهم في كل عام فعل، وقد



□ بيت قديم في جبل لبنان.

تصرمت السنة التي كانت تأتيهم فيها عشراتهم ودخلوا في غيرها حتى اشتدت حاجتهم وظهر عليهم ضـرهـا، وهم رعيـة أميـر المـؤمنين والمسؤول عنهم، فإنه راع وكل راع مسؤول عن رعيته»[٢١].

ولا شك أن هذا الكتاب كان له دوره المؤثر في سيـاسة المنصـور، حيث اتجه لاسكـان التنوخيين في «لبنان» وقتذاك، مقتديا بسياسة معاوية الذي أسكن المدن الساحلية جماعة من الفرس وغيرهم قبل ذلك بمائة عام تماما.

«ثورة» المنيطرة وأسبابها

من الملاحظ أن جميع الذين أرخوا لهـذه الفترة من تاريخ ساحل الشام أعيتهم الحيل في قلة المصادر وندرة المعلومات، فلم يكتبوا مطلقا عن سياسة المنصور، الدفاعية والاقتصاديـة التي نفذها بعد عودته من رحلته إلى الحج سنة ١٤٠هـ في بلاد الشام، ولا سيما الساحل منها، والعذر في هذا أن المصادر التاريخية القديمة لا تأتي بأية تفصيلات عن تلك الرحلة، فالطبري يكتفي بالقول أن أبا جعفر المنصور خرج حاجا، فأحرم من الحيرة، ثم رجع بعد ما قضى حجّه إلى المدينة فتوجه منها إلى بيت المقدس... ولما قدم أبو جعفر بيت المقدس صلى في مسجدها ثم سلك الشام منصرفا حتى انتهى إلى الرّقة، فـنـزلهـا[٢٢]. وكـذا قـال «اليـعـقـوبـي»، و «المسعودي» ومؤرخ مجهول، و «ابن الأثير» وكل من أتى بعدهم من المؤرخين ونقل عنهم.

إن معلومة عادية، كهذه، لا تعطي أي إشارة على الدوافع والأسباب المباشرة التي أدت إلى ظهـور حركـة التمـرد والعصيـان على الدولة العباسية في «جبل لبنان».

ولكن، هناك رواية، انفرد بها مؤرخ رومي من نصـارى مدينـة مَنْبِج يـدعى «أغـابيـوس بن قسطنطين الرومي المنبجي» في كتاب له باسم «العنوان المكلل بفضائل الحكمة» أرسله إلى «رجل فاضل يقال له عيسى بن الحسين»[٢٣]، يمكن أن تكون مؤشرا مهما لتوضيح السبب المباشر للثورة، رغم أن النص المخطوط لهذا الكتـاب نشر مضـطربا دون تحقيق وضبـط، واعتراه التقديم والتأخير، وخاصة في النص

الذي نستشهد به هنا، وهو:

«... إن المنصور مضى بجيوشه كلها وسار إلى الجزيرة وأقام بها أياما. ثم عبر الفرات، وصار إلى فلسطين، فعسف الناس جميعا، والزمهم نوائب وكُلّف لم يتقدمه فيها أحد من الملوك، وضيق عليهم تضييقا شديدا، حتى لم يبق إنسان من صانع، ولا طواف ولا حمال ولا حفار القبور ولا فلاح ولا متصدق ولا صنف من صنوف الناس حتى الزمهم الخراج، وأخذ أموالهم، واشتد بالناس البلاء، وبلغ الجهد حتى أن بعضهم حفر القبور وأخذ الجيف وطحنها وأكلها، وذبحت الكلاب وشويت وبيعت في الأسواق، وفنيت الدراهم من أيدي الناس ولحقهم من البلاء ما لا يوصف. ومن تمام المكروه عليهم أنه خرجت لهم طواعين...»(٢٤).

إنه، لا شك، نص وحيد فريد في موضوعه، وقد يتساءل البعض عما إذا كان المنبجي مصدر ثقة فيما أرخ له، فنقول إن المؤرخ العربي المعروف بالمسعودي لم يتهمه أو يضعف من شأنه، بل أشاد بكتابه حيث قال: «وأحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والأنبياء والأمم والبلدان وغير ذلك، كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي»(٢٥).

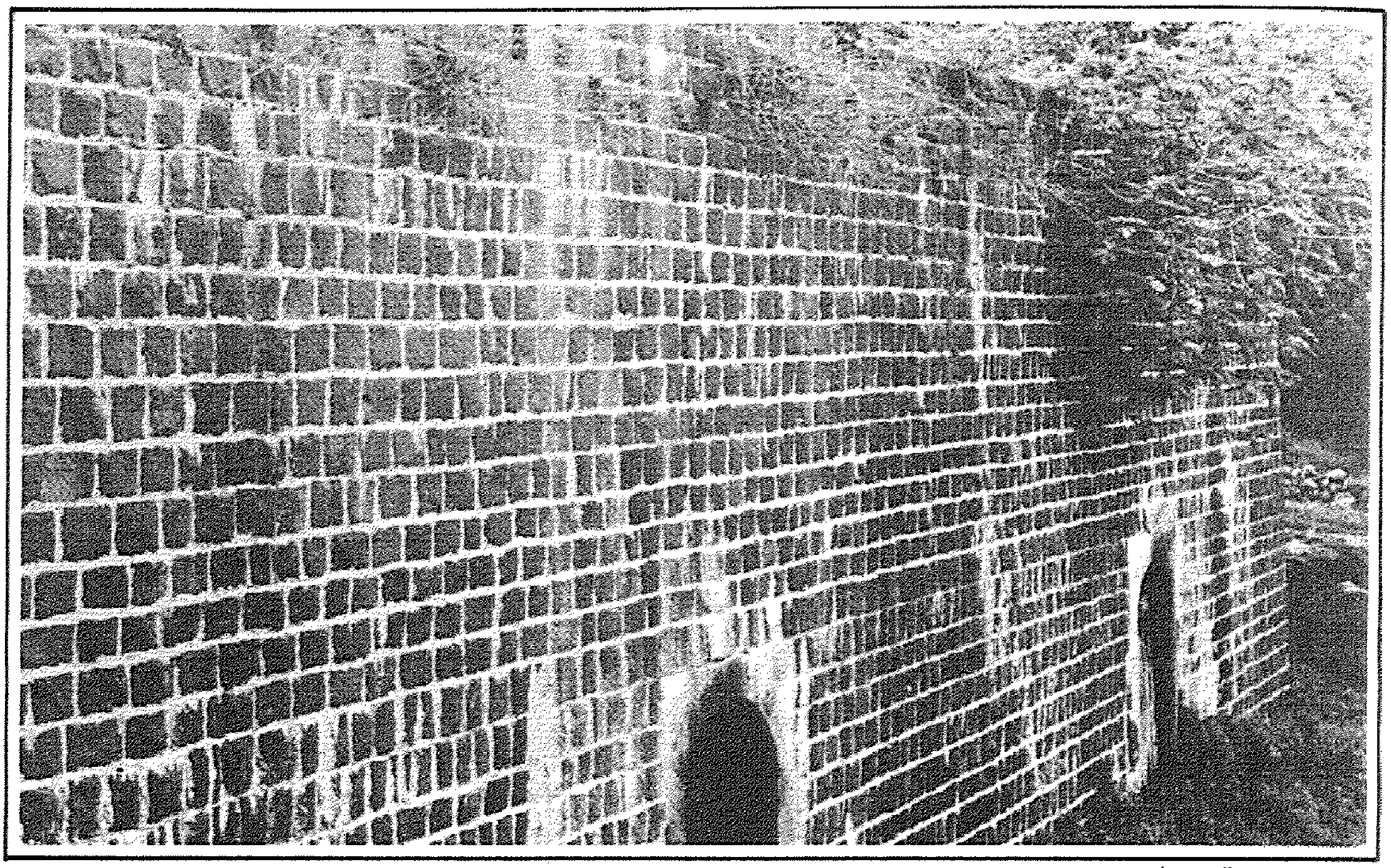
إذن، فالمؤشر بات واضحا، وهو سياسة الضرائب المباشرة التي فرضتها الدولة العباسية بحيث اثقلت كاهل «الناس جميعا» دون تفرقة بين مسلم ونصراني، حسب مفهوم رواية المنبجي.

ولدينا إشارة أخرى تدعم هذا التوجه في تحليلنا لأسباب الثورة، وهذه الاشارة واردة عند المؤرخ الحافظ «ابن عساكر الدمشقي» في تاريخه، يقول فيها إن الخليفة المنصور أرسل في سنة ١٤٠ أو ١٤١ هـ كبار المعدلين من الفقهاء لاجراء تعديل في ما تحصله الدولة من عائدات مالية عن الأراضي، فأرسل «عبد الله بن يزيد» إلى حمص، و «اسماعيل بن عياش» إلى بعلبك، وغيرهما من الفقهاء العدول إلى بقية المدن، فعدلوا ما بقي بيد الأنباط من بقية الأرض على تعديل مسمى، ولم تعدل الغوطة في تلك السنة. وكان أهلها يؤدون العشر، فأعفاهم المنصور من أداء الخراج، ووضع الخراج على ما بقي من أرضها بأيدي الأنباط(٢٦).

والأنباط أو النبط هم السريانيون كما ينقل «المسعودي»(٢٧)، أو هم من بقايا الآراميين كما يقول المستشرق «هنري لامنس» واعتنقوا النصرانية(٢٨).

لقد وضح مما سلف أن السياسة المالية والاجراءات المتشددة في تحصيل الخراج كانت السبب المباشر للثورة، وقد استغلت الدولة البيزنطية هذه الأوضاع لتؤلب نصارى جبل لبنان ليثوروا على الخلافة العباسية، ونجحت في التحالف مع جماعة منهم، فيما بقي جماعة أخرى خارج هذا التحالف، وهذا اثبتته وقائع حركة المنيطرة وما نتج عنها.

أما عن وقائع تلك الحركة، فيعتمد على «البلاذري» و «ابن عساكر» في الوقوف على تفاصيلها الأسلسية التي تحكي أنه ظهر في جبل لبنان رجل يدعى «بندار»(٢٩) من أهل المنيطرة في سنة ١٤٢هـ/ ٧٦٠ أو ٧٦١م. ونادى بنفسه ملكا، ووضع التاج على رأسه واظهر الصليب. فاجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم من أهل الذمة، وأعلنوا عصيانهم وامتناعهم عن أداء الخراج للدولة العربية، وخرجوا في طلب «اسماعيل بن الأزرق» العامل على خراج بعلبك وقصدوا قتله. وظهر أن تحركهم لم يكن ابن ساعته، وإنما كان يهيأ له منذ مدة، ولعلهم بدأوا بذلك منذ سقوط الدولة الأموية المتسامحة مع غير المسلمين، وانتقال الخلافة للعباسيين الذين استخدموا البطش والعنف وسفك الدماء في اقامة ملكهم، ولم تؤاتهم الفرصة للتحرك علانية إلا في هذا الوقت، وشجعهم على ذلك البيزنطيون في غزواتهم الناجحة إلى ساحل الشام والتي هاجموا فيها اللاذقية وطرابلس(٣٠). فخرجوا بجموعهم المنظمة والمشحونة بالسلاح، بحيث «أمسك الناس عن قتالهم رهبة»(٣١)، فاستفحل أمرهم، وسبوا بعض قرى البقاع فقتلوا المسلمين وأخذوا ما وجدوا من المغانم. وعاد «بندار» فكتب إلى أهل بعلبك يتهددهم وينذرهم بمسيره إليهم ويأمرهم بالطاعة له، — وهذا يعني أنه نصّب نفسه ملكا في جبل لبنان —، وعندما رفض أهل بعلبك إنذاره جاءهم في نحو من

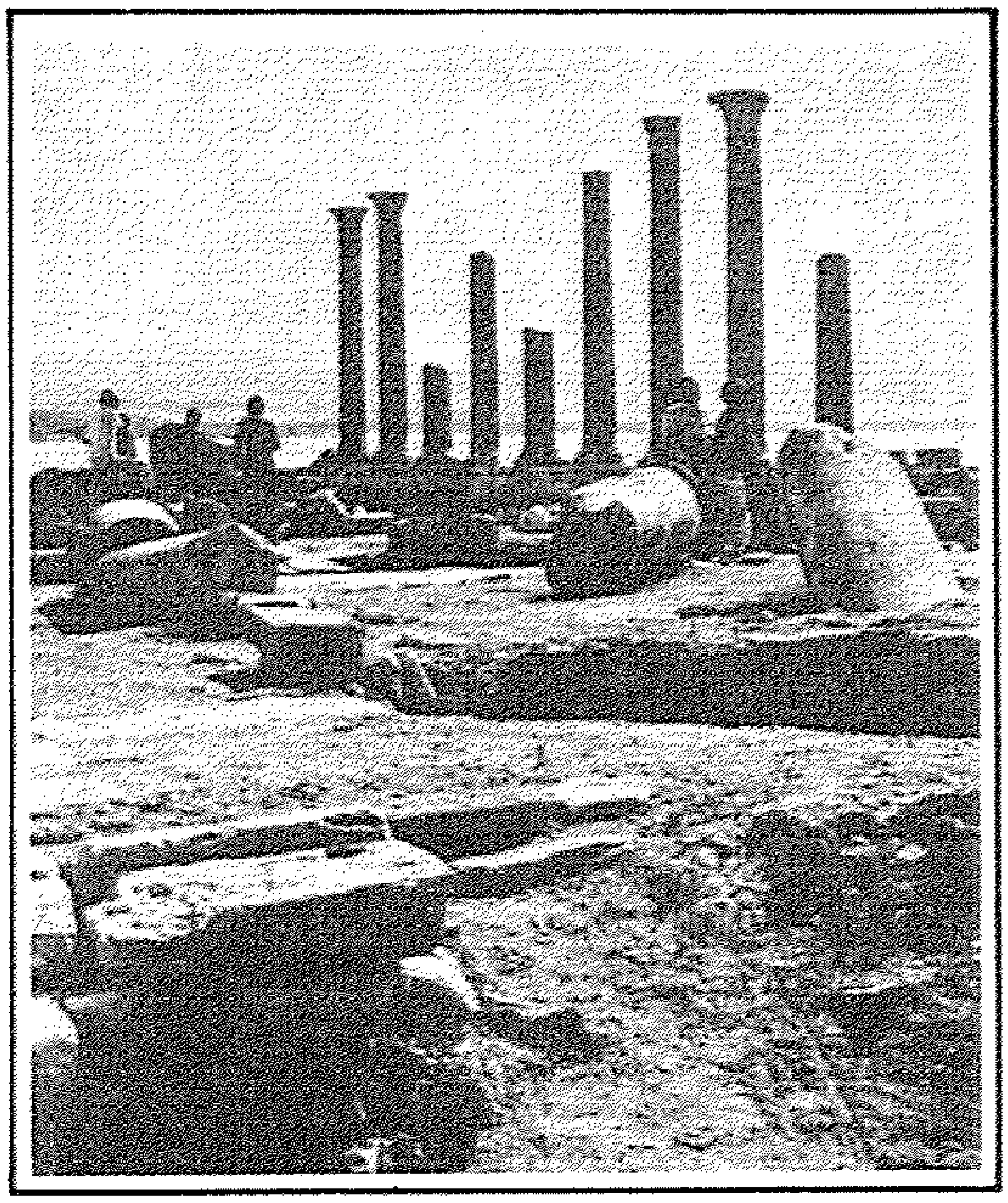


□ البيرة، عكار.

خمسة آلاف رجل، وكانوا قد تأهبوا لدفعه عن مدينتهم، وقاموا بتنفيذ خطة دفاعية ناجحة، حيث أخرجوا خيلا لهم إلى أسفل الجبل المجاور للمدينة لتكمن للمهاجمين، وعندما وصل المهاجمون إلى المدينة ووقع القتال، أظهر أهلها الهزيمة وأطمعوهم فيهم وهم يفرون باتجاه الجبل، فأمعن الأنباط في طلبهم حتى بعدوا، وعند ذلك خرجت الخيل من ورائهم وأحاطت بهم، ووقع القتل في أقفيتهم حتى لقي عدد كبير منهم مصرعه، وانهزم من بقي منهم إلى ناحيتهم واعتصموا بقلعتهم المنيطرة.

ورأى «صالح بن علي الهاشمي» أمير الشام ومصر وقتذاك أن يستأصل شأفة الخارجين على الدولة، فكتب إلى عامله على دمشق «رياح بن عثمان المري» يأمره بانفاذ الخيل إليهم لقتالهم، فخرج جمع غفير من الناس من أهل الديوان وغيرهم من التجار والمطوعة، وعقد عليهم لابنه «يزيد بن عثمان»[٣٢] وكتب إلى صاحب بعلبك ليخرج بأهلها، وكتب إلى «الوليد بن عثمان المرّي» الوالي على ساحل دمشق (ويقصد به ساحل لبنان) ليقوم بتجبيش من كان بالساحل من أهل الديوان المكتتبين وغيرهم، حتى اجتمع على الأنباط ومن معهم جمع ضخم من أنحاء بلاد الشام، فصعدوا جبل لبنان، وهاجموهم في المنيطرة، وواقعوهم أسفل قلعتها وشددوا الضغط والتضييق عليهم حتى ألجأوهم إلى الاعتصام بالقلعة، فامتنعوا فيها لبعض الوقت. وحين أيقن «بندار» أن سقوط القلعة بات وشيكا في قبضة المسلمين قام بالتسلل منها مع جماعة من أصحابه وفروا تحت جنح الظلام إلى الساحل حيث أبحروا إلى بلاد الروم. وتمكن المقاتلة من أهل بعلبك أن يعتلوا سور قلعة المنيطرة الخلفية؛ وينقضوا على من فيها، وما هي لحظات حتى سقطت بأيديهم. وتحول المهاجمون بعد ذلك إلى قرى الأنباط في جبال لبنان فدخلوها. وكتب صالح بن علي إلى الولاة يأمرهم باخراج من بقي من أنباط لبنان من قراهم في الجبال وتفريقهم في بلاد الشام وقراها[٣٣]. وهذه هي المرة الثانية التي يقتحم فيها المسلمون جبال لبنان، وكانت المرة الأولى في عهد الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان».

ولقد نتج عن تعقب النصارى الخارجين على الدولة العباسية أن أجلي عدد من أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا للخارجين، فأبعدوا



□ الآثار القديمة على ساحل صور.

بجريرتهم دون ذنب اقترفوه، مما دفع بالامام الأوزاعي وهو مرابط في بيروت لأن يكتب رسالة مطولة إلى «صالح بن علي» اختصرها كل من «أبو عُبيد القاسم بن سلام» و «البلاذري»، نكتفي بما أورده منها «ابن سلام» حيث مهد لها بقوله:

«... وقد كان نحو من هذا قريبا إلى الآن في دهر الأوزاعي بموضع بالشام، يقال له جبل اللبنان، وكان به ناس من أهل العهد، فأحدثوا حدثا، وعلى الشام يومئذ صالح بن علي، فحاربهم وأجلاهم، فكتب إليه الأوزاعي ـــ فيما ذكر لنا محمد بن كثير»[٣٤] عنه برسالة طويلة فيها:

قد كان من إجلاء أهل الذمة من اهل جبل لبنان، مما لم يكن تملأ عليه خروج من خرج منهم، ولم تُطبق عليه جماعتهم، فقتل منهم طائفة، ورجع بقيتهم إلى قراهم، فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة فيخرجون من ديارهم وأموالهم، وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة، ثم يبعثهم على أعمالهم، فأحق ما اقتدي به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى. وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه)[٣٥]. من كانت له حرمة في دمه، فله في ماله والعدل عليه مثلها. فإنهم ليسوا بعبيد، فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة، يرجم محصنهم على الفاحشة، ويحاص[٣٦] نساؤهم نساءنا من تزوجهن من القسم، والطلاق، والعدة، سواء. ثم ذكر رسالة طويلة»[٣٧].

ويبدو أن «اسماعيل بن الأزرق» عامل الخراج في بعلبك وضع في السجن لأمر غير معروف، كما حبس أحد أعوانه ويدعى «يزيد بن يحيى الخشني» وطالت مدة حبسه، حتى كتب الأوزاعي إلى أبي عبيد الله وزير المنصور يحثه على تخليصه من السجن بأن يكتب المهدي إلى والده الخليفة بذلك، كما كتب الأوزاعي إلى المهدي مباشرة لتخليص ابن الأزرق من السجن، وجاء في نص كتابيه:

«... إن يزيد بن يحيى الخشني في حبس أمير المؤمنين أصلحه الله، وكان من أعوان ابن الأزرق، ولم يبلغني عنه سوء قرف به، وقد طالت إقامته فيه. فإن رأيت ـــ رحمك الله ـــ أن يكون من المهدي كتاب إلى أمير المؤمنين ـــ أصلحه الله ـــ فيه يذكر من أمره ما نرجو تخلصه به مما هو فيه من ضرر الحبس، فعلت...».

«... وقد كان ـــ أصلح الله الأمير ـــ اسماعيل بن الأزرق في ولايته على بعلبك، فلم يبلغنا عنه إلا عفافا وقصدا، وقد كان من عقوبة أمير المؤمنين ـــ أصلحه الله ـــ إياه في بشره وشعره، ووضعه في الحبس قبله، ما قد علم الأمير، فلم يبلغنا أن ذلك كان عن خيانة ظهرت منه ولا وصف بها، إلا أن يكون تعلق عليه لضعف...»[٣٨].

ومما يحكى عن «ابن الأزرق» أن الامام الأوزاعي كتب إليه مرة في رفع الخراج عن بيت من أهل الذمة في البقاع أدوا إليه خدمة، فلما وصل كتابه إلى ابن الأزرق وضعه على عينيه وقضى للذمي بما رغب[٣٩].

ويظهر أن مسؤولية «ابن الأزرق» المباشرة على تنفيذ السياسة المالية في جبل لبنان، جعلته في مقدمة المستهدفين في حركة الخارجين على الدولة، كما يحتمل انه سجن بعد تلك الحركة لظروف لم تسعفنا المصادر عنها●

الحواشي والمصادر:

(١) انظر حلقتين سابقتين من «غزاة بحر الشام وامراؤه في العصر الأموي» نشرتا في العددين ٣٨ و ٣٩ (كانون الأول ــ ديسمبر) ١٩٨١ و (كانون الثاني ــ يناير) ١٩٨٢ من المجلة.

(٢) الدرب: إذا أطلق لفظ الدرب أريد به ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه كالدرب. وإياه عنى أمرؤ القيس بقوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنـا لاحقـان بقيْصـرا
(معجم البلدان)

(٣) مَلَطْية: بلدة من بلاد الروم مشهورة الذكر تتاخم الشام. (معجم البلدان).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤١٧.

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٧/٤٩٧ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٥/٤٨٦.

(٦) سورة النساء: الآية ٧٥.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٨) حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/١٣٥، وانظر: تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي ٦/٢٣٣.

(٩) المعرفة والتاريخ للفنسوي ٢/٤٠٨.

(١٠) جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفربيا بإزاء المصيصة. (معجم البلدان).

(١١) الطبري ٧/٥٠٠؛ ابن الأثير ٥/٥٠٠.

(١٢) يسمي المؤرخ المنبجي غزاة اللاذقية: الخزر (٢/٢٨٠).

(١٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط التيمورية) ج ١٣/٥٩٥، التهذيب ٥/٣٤١.

(١٤) تاريخ دمشق ٣٤/٣٤٠.

(١٥) كان محدثا حدث بمدينة صيدا، وأخذ عنه محمد بن عقبة الصيداوي. (الطبري ٨/٧٩).

(١٦) أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ــ عجاج نويهض ــ ص ١٩، عروبة لبنان ــ محمد جميل بيهم، ص ٢٢، العرب والعروبة ــ دروزه ــ ج ١/١٥٨، روض الشقيق ــ شكيب ارسلان ــ ص ٢٤٠.

(١٧) فتوح البلدان للبلاذري، ق ١/١٩٣.

(١٨) الطبري ٧/٥٠٩، ابن الأثير ٥/٥٠٠.

(١٩) تاريخ دمشق ٤٥/٢٣٩.

(٢٠) تاريخ دمشق ٢٩/١٩٦.

(٢١) تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم الرازي، ج ١/١٩٣ ــ ١٩٥.

(٢٢) الطبري ٧/٥٠٣، ٥٠٤، تاريخ اليعقوبي ٢/٣٧٠، مروج الذهب للمسعودي ٣/٣١٤، العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤرخ مجهول ٣/٢٢٧، ابن الأثير ٥/٥٠٠.

(٢٣) نشره «لويس شيخو» سنة ١٩٠٧ بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت.

(٢٤) كتاب العنوان للمنبجي ٢/٢٧٧، ٢٧٨ و ٢٨٠ (وقد ورد النص في الأصل بالورقة رقم ١٢٧ أ، ثم انقطع وجاءت تكملته في الورقة ١٢٩ ب).

(٢٥) التنبيه والاشراف للمسعودي، ص ١٣٢.

(٢٦) تهذيب تاريخ دمشق ١/١٨٥.

(٢٧) مروج الذهب ١/٢٠٧.

(٢٨) تسريح الابصار وفيما يحتويه لبنان من الآثار، ج ٢/٤١.

(٢٩) ورد اسمه عند الشدياق في (أخبار الأعيان في جبل لبنان): «الياس»، وعند الدكتور عادل اسماعيل في Histoire du Liban du XVIIs. à no Jour, T. 1 p. 184, N. 379, Paris 1955.
ورد اسمه «ثوادوروس».

(٣٠) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتي ٢/١٦٧.

(٣١) تاريخ دمشق ١٣/٥٩٥.

(٣٢) ويكنى أبا الورد، وقد ولي على حوران وقت فتنة أبي الهيذام سنة ١٧٦هـ. (تهذيب تاريخ دمشق ٧/١٩٠).

(٣٣) فتوح البلدان ق ١/١٩٢، تاريخ دمشق ١٣/٥٩٥، ٥٩٦، التهذيب ٥/٣٤١، خطط الشام، محمد كرد علي ١/١٨٠، ١٨١، لبنان في التاريخ، د. فيليب حتي ٢٢٧.

(٣٤) كان مولى لثقيف، من صنعاء الشام وأصله من ناحية اليمن، نشأ بدمشق، وسكن المصيصة، روى كثيرا عن الامام الأوزاعي وتوفي في أواخر سنة ٢١٦هـ. على الأرجح. (التاريخ الكبير للبخاري ١/٢١٨، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/٦٩، ٧٠، الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/٤٨٩، كتاب المجروحين والضعفاء لابن حبان ١/١٤٤، تاريخ دمشق ٣٩/٢٣٠ ــ ٢٣٩، الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ٢٩٩، تهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤١٥ ــ ٤١٧ وانظر ترجمته في «موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي، ق ١، ج ٤/٣٣٢ رقم (١٥٧٥)، طبعة المركز الاسلامي للاعلام والانماء، بيروت.

(٣٥) رواه أبو داود في السنن عن صفوان بن سُليم، عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله، عن آبائهم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». قال الحافظ المنذري: والأبناء مجهولون.

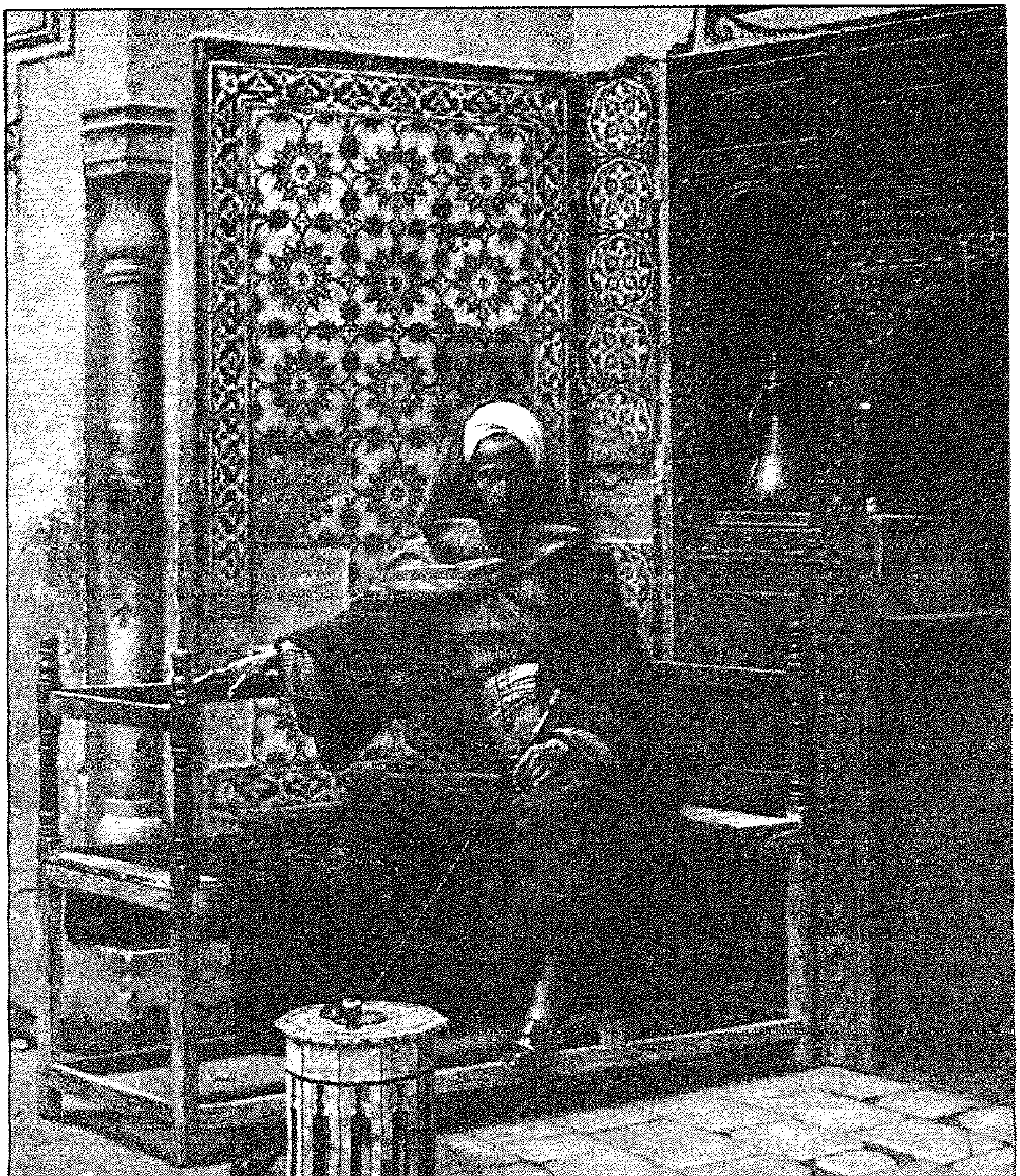
(٣٦) يُحاص: من المُحاصة، وهي المساواة في الحصص أي النصيب والمقدار.

(٣٧) كتاب الأموال لابن سلام، ص ٢٤٧، ٢٤٨، فتوح البلدان ق ١/١٩٢.

(٣٨) تقدمة المعرفة ١/١٨٩.

(٣٩) تقدمة المعرفة ١/٢١٠.

الشرق الساحر



□ امام مقهى مغربي. لوحة للرسام دوكشن (عام ١٩٠٣)

في لوحات الرسامين الغربيين ٧

بقلم: ميشيل فرييه
اقتباس: د. محمد المجذوب

وقف الأوروبيون في القرن التاسع عشر مسحورين مذهولين أمام تلك المشاهد الشرقية:

- **مشهد الأسواق الشعبية، المتموجة بالحركة والحيوية، والحافلة بالصخب والجلبة.**
- **مشهد الشوارع الضيقة في المدن القديمة، الآهلة بالسكان والآسرة بالروعة.**
- **مشهد المواكب البشرية في أيام الأعياد، حيث يختلط الحابل بالنابل.**
- **مشهد الفسيفساء التي تتبرج بها المساجد ذات المآذن الشامخة.**
- **مشهد الفيافي الشاسعة المغمورة برمال متحركة تحرقها شمس ساطعة.**

وأوحت هذه المشاهد التي يتميز بها العالم الاسلامي إلى الفنانين الغربيين، في ذلك العصر، أعظم اللوحات الفنية الباهرة المثيرة. وكان هؤلاء الفنانون المستشرقون من البريطانيين والنمساويين والألمان، وخصوصا من الفرنسيين. وخلال النصف الثاني من القرن الماضي، أنتجت المحترفات الباريسية كمية هائلة من اللوحات الشرقية أدى نجاحها إلى إنشاء **«صالون الرسامين المستشرقين الفرنسيين»**، في عام ١٨٩٣.

ومع أن هذا الانجذاب نحو الشرق كان قد بدأ قبل عصر النهضة في أوروبا، فإن الرسم الشرقي (أو المستشرقي) لم يصبح شعبيا إلا في القرن الثامن عشر. وكان الفنانون آنذاك يقتصرون في لوحاتهم على رسم بياني أو وصفي للطبيعة، أو على تصوير كلاسيكي للأشخاص، أو على وضع لوحات تمثل أوروبيين يرتدون الملابس على الطريقة الشرقية. إن مشهد **«الصيد في تركيا»** الذي رسمه الفنان جان باتيست **فانمور** (J.B. Vanmour) (في عام ١٧١١) يمثل منظرا تقليديا لمجموعة من الناس. وفيه نرى السلطان أحمد الثالث محاطا بالأمير والحاشية وكبير الخصيان الأسود. و **فانمور** فلامندي أمضى القسم الأكبر من حياته في القسطنطينية حيث كان يعيش مع حاشية السلطان. ولوحة **«الأمير بشير الشهابي الثاني، حاكم لبنان، يقدم الولاء لابراهيم باشا»**، التي رسمها **أوبيز** (G.E. Opiz)، تتبع نفس التقليد باشارتها إلى حادثة تاريخية معروفة وتصويرها لأشخاص من السهل التعرف إليهم.

وخلال القرن التاسع عشر طرأ تغيير عميق على طابع اللوحات الشرقية. وفي النصف الثاني منه، أصبحت هذه اللوحات شعبية للغاية. وتعليل هذه الظاهرة يكمن في أمرين: التوسع الاستعماري ونمو التجارة، اللذين أسفرا عن قيام مبادلات متزايدة ومتسارعة مع الشرق، مما أثار حماسة الجماهير وإقبالها على الفن الشرقي.

وكان للسياسة دور فعال أيضا في هذا المجال. ومن الأقطار الشرقية التي أتيح للرسامين المستشرقين زيارتها: المغرب، والجزائر، وتونس، ومصر، والأرض المقدسة، وسوريا، ولبنان، وتركيا، وإيران. وخلال القرن، أصبح العديد من هذه الأقطار — لا سيما تركيا ومصر والجزائر —



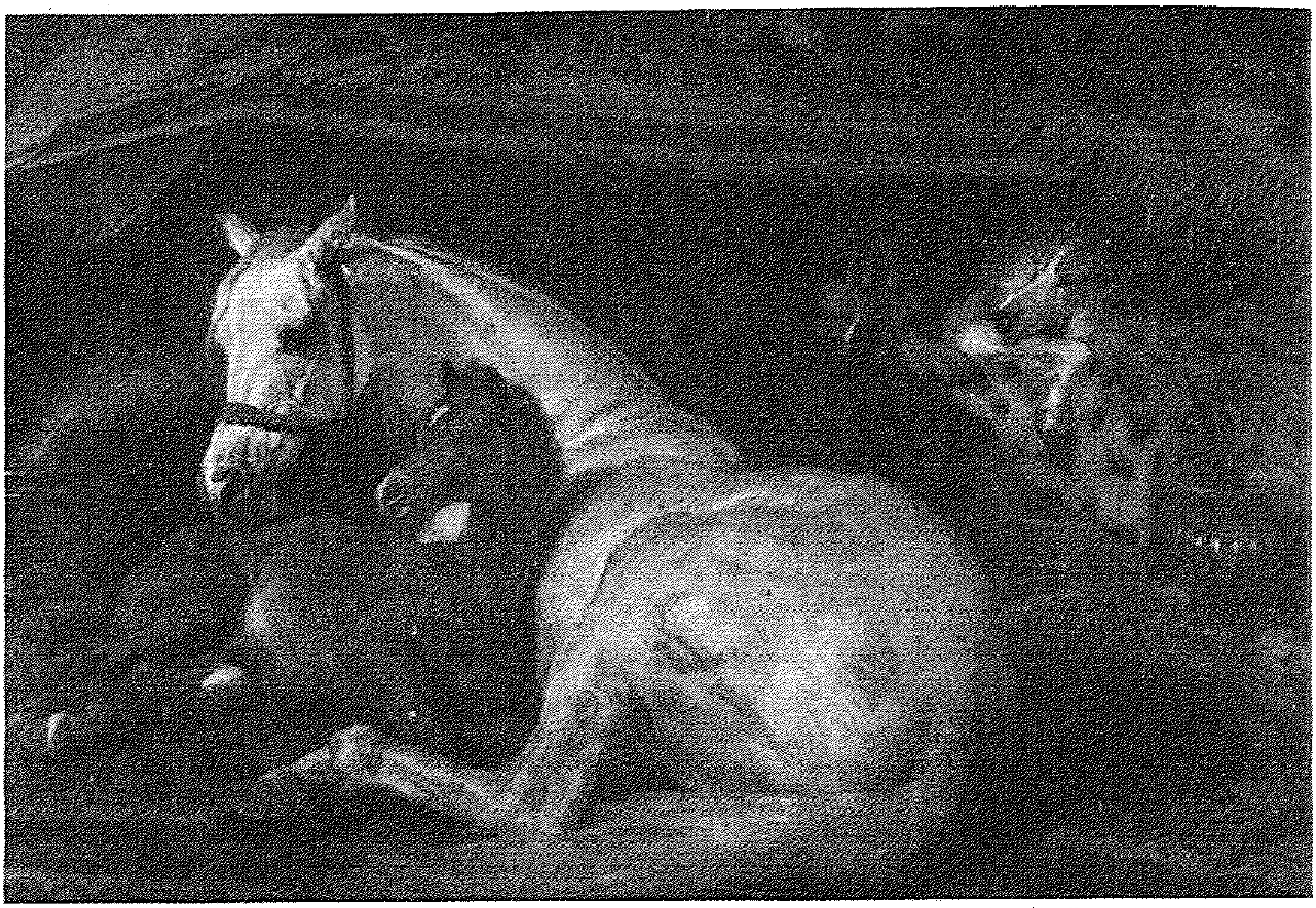
□ تنقيبات حول أبي الهول، للرسام سددون (عام ١٨٥٦).

مركزا لانطلاق الأحداث والتقلبات السياسية.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، شغلت «**المسألة الشرقية**» السياسيين الأوروبيين، ولا سيما الفرنسيين والانجليز منهم. وكانت هذه المسألة تتمحور حول احتمال تصفية الامبراطورية العثمانية التي كانت تعيش في فترة انحطاط كامل. وظلت مصر تحت النفوذ الفرنسي إلى أن احتلتها الجيوش البريطانية في عام ١٨٨٢. وسيطر الفرنسيون على الجزائر بعد استيلائهم على عاصمتها في عام ١٨٣٠. ولعل ذلك يفسر السبب في أن العديد من الفنانين الفرنسيين والانجليز هم الذين وضعوا غالبية اللوحات الشرقية.

وساعد الاحتلال، والاستعمار، وفرض النمط الأوروبي، وتحسين وسائل المواصلات، وتحسن الظروف المحلية، على جعل الطريق إلى هذه الأقطار ممهدا أمام الرحالة والفنانين الغربيين. وفي عام ١٨٦٠، دشن **توماس كوك** (Thomas Cook) رحلات منظمة إلى مصر، وأوصل زبائنه إلى أسوان. وكان في القاهرة، منذ عام ١٨٤٠، فنادق مريحة. وكان العديد من السياح الأوروبيين، في ذلك العصر، قد اعتادوا رؤية أبي الهول واهرامات الجيزة التي برزت في لوحات رائعة أبدعتها ريشة الفنان توماس **سدون** (Th. Seddon).

وكان للأدب الرومانسي تأثير مهم كذلك، فهو الذي حث الغربيين على محبة الأشياء المجلوبة من الخارج وتذوق الأساطير الشرقية. إن قصص الحريم والسلاطين والباشوات القساة التي رواها الشاعر **بايرون** (Byron)، وقصة «**قبلة خان**» Kubla Khan التي كتبها الشاعر صامويل تايلور **كولريدج** (S.T. Coleridge)، في عام ١٨١٦، والقصة «**لالا روخ**» Lalla Rookh التي نشرها الشاعر توماس **مور** (T. Moore)، في عام ١٨١٧، وقصة الرحلة إلى الشرق «**أيوثن**» Eothen التي وضعها الكاتب **كينجليك** (A.W. Kinglake)، في عام ١٨٤٤... إن هذه القصص ضاعفت من تعلق الجمهور بالقصة الشرقية، وقدمت إليه صورة خادعة، وإن تكن



□ الخيمة العربية. للرسام لاندسير.

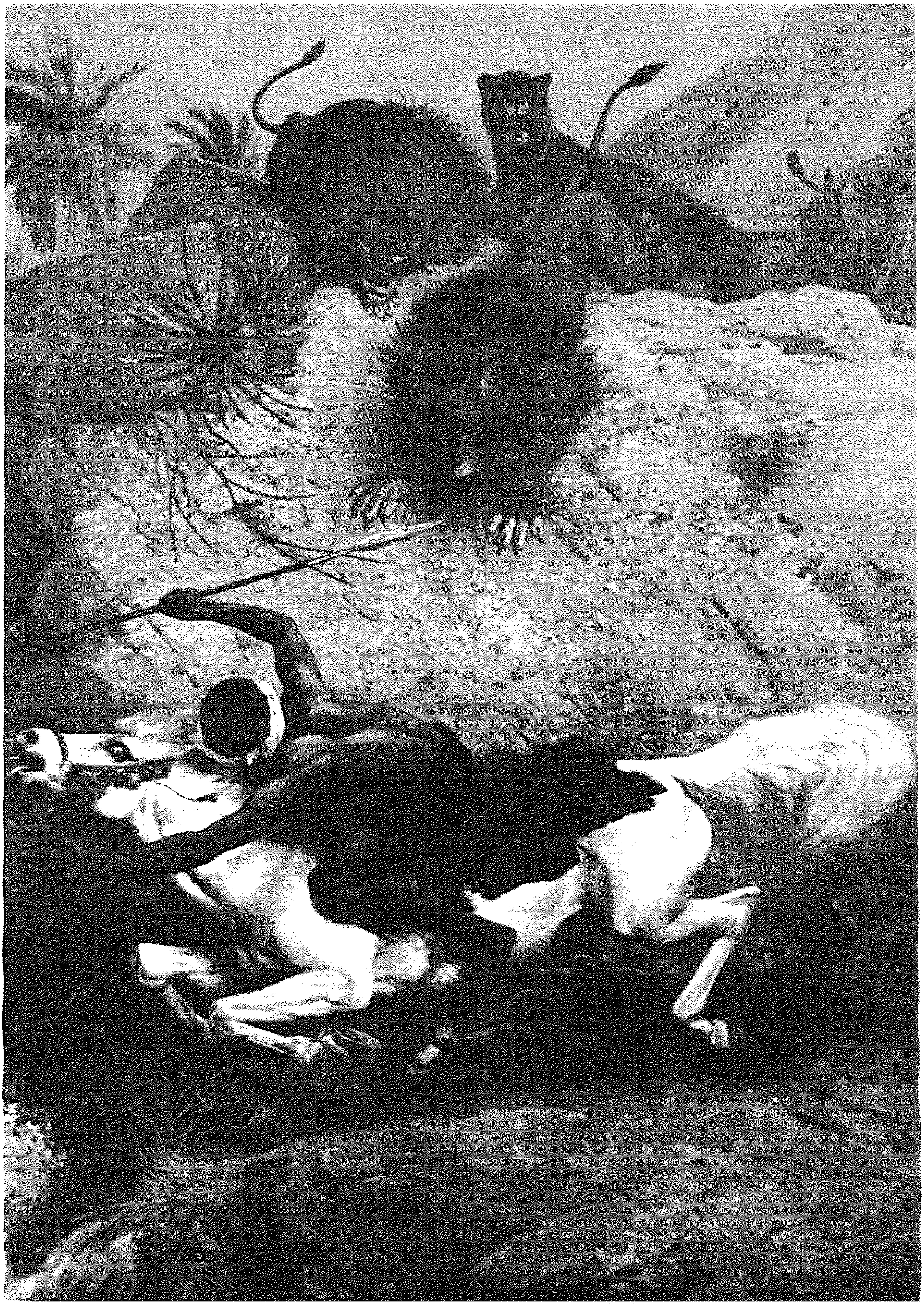
ملونة، عن الحياة في هذه الأقطار الشرقية. وهذا النوع من الأدب كان يتناقض، بشكل ملموس، مع التكنولوجيا العملية والجادة التي كانت سائدة في أوروبا في القرن الماضي.

وظهرت ترجمات لقصة **«ألف ليلة وليلة»** في أقطار غربية كثيرة. وفي عام ١٨٥٩، نشر **ادوارد فيتزجرالد** (E. Fitzgerald) اقتباسه الشعري لأعمال **عمر الخيام**، فتكون بذلك مناخ، عبر الأدب والاتصالات المتزايدة بالشرق، أثار اهتمام الفنانين واسترعى انتباه الجمهور.

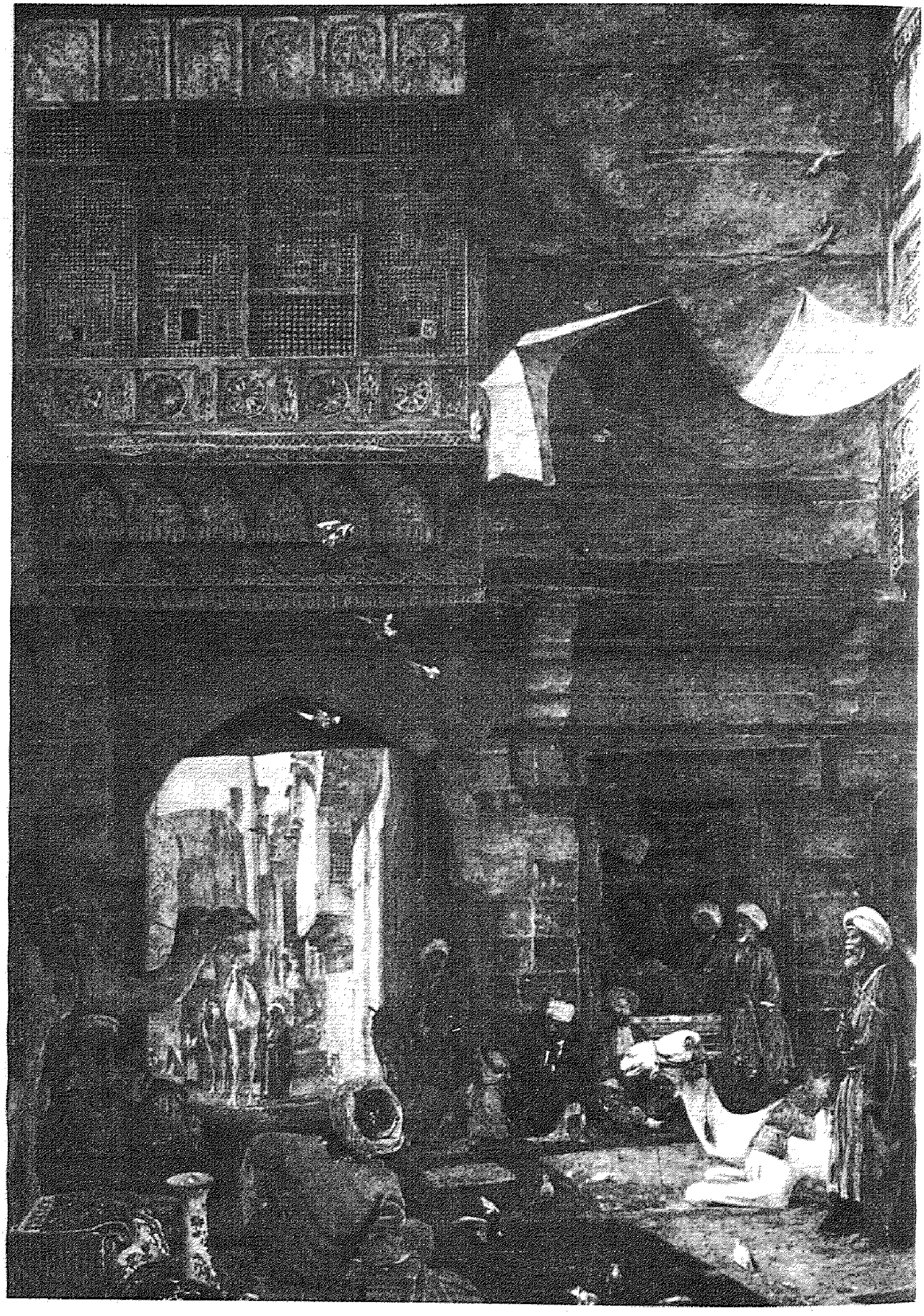
وكان هناك تياران كبيران: الأول قام على المشاهد الوهمية، والثاني على المشاهد الحقيقية. ففي نهاية القرن، وعندما ترسخ «الانفتاح» على الشرق، أصبحت اللوحات أكثر واقعية، بعد أن كانت الأعمال الفنية الأولى التي ظهرت قبل ذلك مجرّد استذكارات خيالية.

ومما لا شك فيه أن أعظم تحفة في الرسم الشرقي التخيلي هي لوحة **«موت سردانابال»** للفنان **دولاكروا** (Delacroix) (عام ١٨٢٧) التي استوحاها تقريبا من مسرحية مأساوية للورد بايرون (في عام ١٨٢١). ففي اللوحة نرى سردانابال، ملك آشور، يشاهد، وهو يحتضر، المجزرة التي تتعرض لها محظياته وخيله. ويتم التعبير عن القوة المستبدة والدم والفجور والموت العنيف بمجموعة من الأشكال المتموجة والألوان العميقة الغنية. وعندما رسم **دولاكروا** هذه اللوحة لم يكن قد زار الشرق بعد. ولهذا كانت الحلى والملحقات المرسومة هندية. وجاءت اللوحة التي رسمها الفنان **انجرس** (Ingres) (في عام ١٨١٤)، والتي تحمل إسم **«المحظية الكبرى»**، عملا باردا وجامدا وتقليديا، وكذلك بعيدا عن العالم الشرقي الحقيقي، مثل لوحة دولاكروا عن الطاغية. أما بالنسبة إلى الفنان **بونينجتون** (R.P. Bonington) الذي وضع لوحات مائية رائعة تمثل أشخاصا شرقيين، فإنه لم يذهب في رحلاته إلى أبعد من البندقية.

ومع ذلك، فخلال القرن ازداد عدد الرسامين الذين قاموا برحلات، شاقة أحيانا، إلى الشرق. فقد أقام الفنان **دوكان** (A. Descamps) في



□ الذعر الرهيب. للرسام ستروت.



□ شارع في القاهرة، قرب باب اللوق. لوحة للرسام لويس (عام ١٨٥٥).

ازمير، في عام ١٨٢٨، وكان له تأثير كبير في الجيل الأول من الرسامين المستشرقين. وزار **دولاكروا** المغرب والجزائر في عام ١٨٣٢. وذهب الفنان **فرومنتان** (E. Fromentin)، عدة مرات، إلى الجزائر والصحراء، حيث عاش مع قبيلة بدوية. وفي عام ١٨٥٤، سافر الفنان **جيروم** (J.L. Gérôme) إلى تركيا واليونان، ثم إلى مصر. وزار كذلك فلسطين وسورية وسيناء وإفريقية الشمالية. وأتيح أيضا للفنانين **ارنست** (Ernst)، **ودوتش** (Deutsch)، **وفرنية** (Vernet)، **وبوورنفايند** (Bauernfeind)، **ولوجسديل** (Lagsdail)، **ولويس** (Lewis)، **وسدون** (Seddon)، **وجودال** (Goodall)، **وهانت** (Hunt)، زيارة الشرق والتمتع بمناظره الخلابة والتعرف إلى بعض عاداته وتقاليده.

وتركت زيارة هذه الأقطار تأثيرا كبيرا وانطباعات متعددة في جميع هؤلاء الرسامين. وإزاء الحرارة اللاهبة، والشمس المحرقة، والألوان المتفاعلة الرائعة، والفن المعماري الاسلامي المتناسق، وزخارف الزينة التجريدية، وبهاء القصور والمساجد، والأزقة الخلابة، والأزياء المتنوعة، والعادات الغريبة في العالم الاسلامي، تجلت ردة فعل الرسامين برسم يشع بألف لون استطاع، على مر الأيام وبفعل الاحتكاك اليومي بالحياة الشعبية، أن يكتسب خبرات ويغتني بتفاصيل واضحة كانت ثمرة تأمل دقيق.

وفي لوحة الفنان أرنست **«مغربي يتأمل مجوهراته بإعجاب»**، نرى تكاملا بين موضوع الكنوز الشرقية وموضوع الوضع الداخلي ذي السمات الأجنبية المطلوبة: الخزف الملون، والباب المرصع، وصندوق الحلى بخشبه الموشى، والسجادة بألوانها الحمراء والخضراء الملطفة والعميقة، والمغربي بقفطانه الأبيض الفاتن المصنوع من الحرير الوردي المفضض. وهذا الغنى في الخزف والسجاد، وفي حواجز الهواء، والخشب المقطع، نجده كذلك واضحا في لوحة **ارنست التي تمثل «داخل المسجد»**.

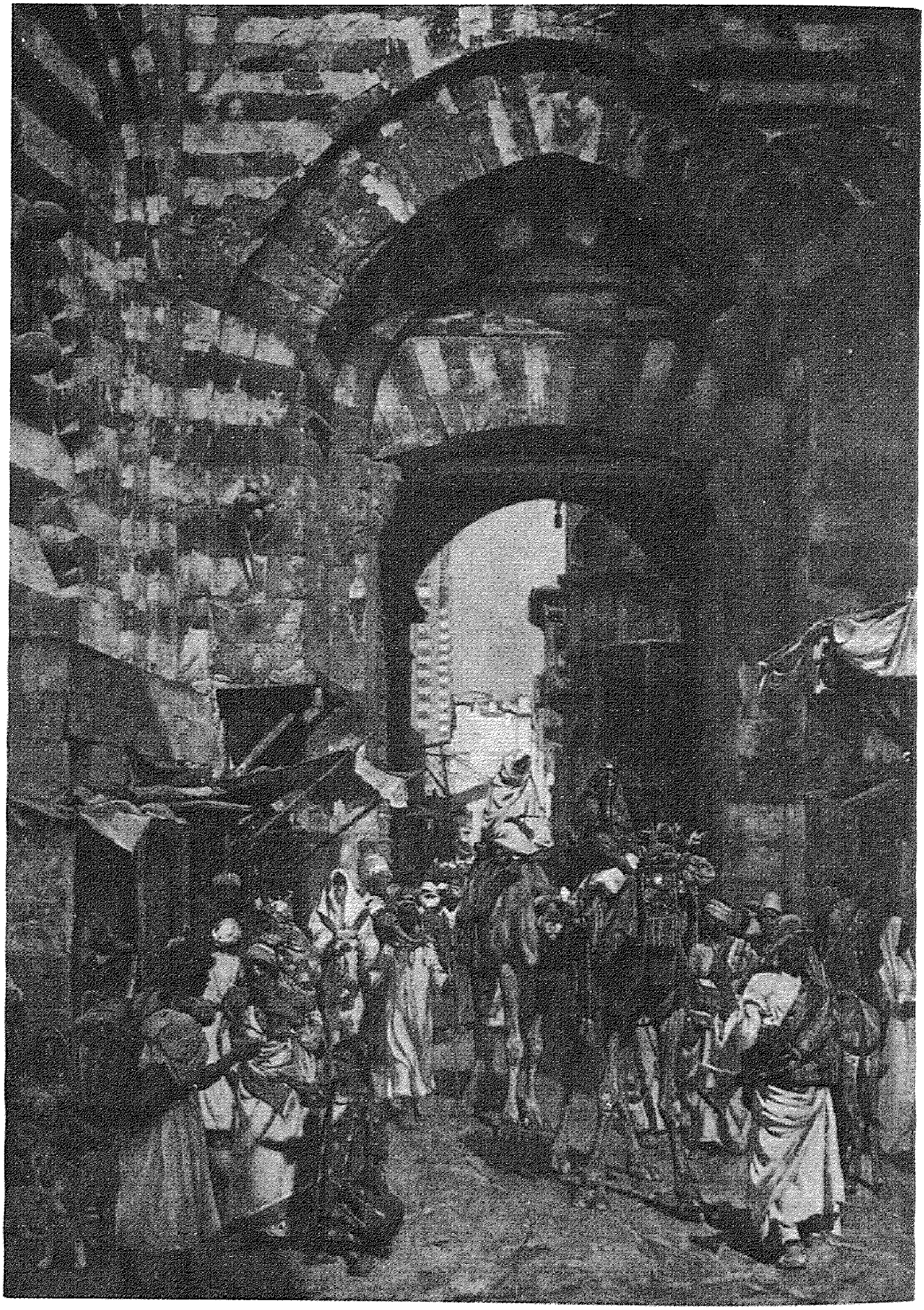
والألوان المفضلة لدى الرسامين كانت: الأحمر الرماني، والقرمزي، والأخضر الزمردي، واللازوردي، والأزرق الفيروزي، وبشكل خاص ذلك الأزرق الفيروزي النابض بالحياة الذي نلمحه غالبا في الخلفيات، كما يبدو، مثلا، في لوحة **«لعبة النرد أو الطاولة»** للفنان **فون أوتنفلد** (R.Von Ottenfeld) (في عام ١٨٩٠)، وفي لوحة **«ساحر الأفاعي»** للفنان **جيروم**.

هناك لوحات عن الصحراء، مثل لوحة **«العرب المسافرون في الصحراء»** للفنان **فرنيه** (عام ١٨٤٣)، ولوحة **«النوبي يقود جملا»** للفنان **جودال** (عام ١٨٨٥). وهناك أيضا لوحات عن الشارع، مثل لوحة **«أبواب الخليفة»** للفنان **لوجسديل** (عام ١٨٨٧). وهذه اللوحات تستند إلى تجارب وخبرات عاشها الفنانون. وهي عفوية وتلقائية تماما. وبعض الرسامين، كشارل **ويلدا** (Wilda)، أقام محترفه في القاهرة. والرسام **لويس** (Lewis) عاش فيها عشر سنوات تقريبا كباشا حقيقي «آكل لأوراق اللوتس الذابلة، وحالم، وخامل، ومتناس كل شيء وسط سحابة من التبغ».

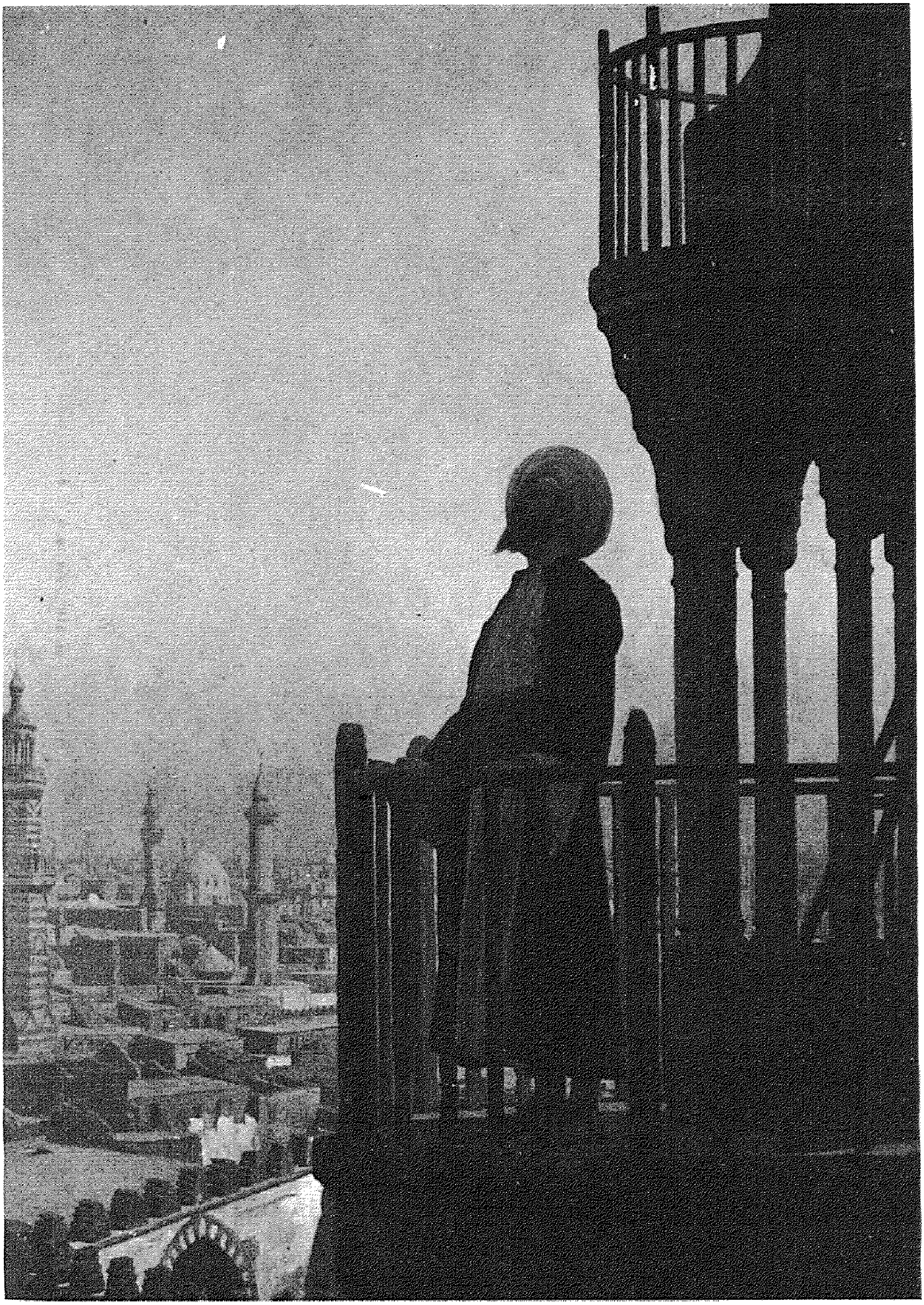
ويتميز الرسامون المستشرقون عن غيرهم من الفنانين الأكاديميين، في ذلك العصر، بواقعيتهم. ومع هذا، فإن اللوحات الأكثر واقعية لا تخلو من بعض الرومانسية بكثافة الوانها وروعة تركيبها.

وواقعية بعض اللوحات الشرقية لم ترتكز على الملاحظة والرصد فقط، بل اعتمدت كذلك على الصور الفوتوغرافية وملحقاتها. ومحترفات الفنان **دوتش** في باريس وجنوب فرنسا كانت مزينة بأصفى طراز إسلامي، وحافلة بالمشربيات (النوافذ المشبكة) والمأطورات المصنوعة من الخشب المنحوت، والخزفيات الملونة.

وبعض اللوحات القماشية، كلوحة **«آلام الحب الضائعة»** للفنان **لونج** (E. Long) (عام ١٨٥٥)، قد وضعت بأمانة في بيئة تاريخية محددة، في حين أن غيرها، كاللوحات التي تمثل مشاهد الحريم والتعذيب والموت، كان ثمرة الخيال أو التخيل. فأمكنة الحريم هي دائما أمكنة محفوفة بالأسرار بالنسبة إلى العالم الخارجي، وللأسياد وخصيانهم وحدهم حق الدخول إليها. ولم يسمح للغربيين يوما بالتسلل إليها. ولهذا فإن مشاهد الحريم، رغم استنادها إلى وصف حقيقي وواقعي، لم تكن إلا ثمرة الاستعانة بالنماذج



□ ابواب الخليفة. لوحة للرسام لوجسديل (عام ١٨٨٧).



□ الأذان. لوحة للرسام جيروم.



□ داخل مسجد رستم باشا في القسطنطينية. لوحة للرسام ارنست.



□ عرب مسافرون في الصحراء. اللوحة للرسام فرنيه (عام ١٨٤٣).

(الموديلات)، أو مجرد ابتكار كيفي وخيالي، كلوحة «**الحمام التركي**» للفنان **انجرس** (عام ١٨٦٢).

أما مشاهد التعذيب والموت التي كانت تسر الكثيرين فقد كان لها غالبا جانب سادي، كلوحة «**السجين**» للفنان **باراتي** (F. Baratti) (عام ١٨٨٣). «**الاعدام دون محاكمة في عهد الملوك المغاربة في غرناطة**» للفنان **رينو** (H. Regnault) (عام ١٨٧٠)، حيث نرى دما أحمر قانيا يسيل من رأس مقطوع، وينساب فوق درجات السلم، وفي الخلف منظر قصر الحمراء الرائع. ولعل اللوحة الأكثر إبهاما في هذه الحقبة هي لوحة «**ساحر الأفاعي**» للفنان **جيروم**. وهي تمثل أفعى تلتلف حول جسد عار لأحد الفتيان.

ومع كل هذا، فمن الخطأ اعتبار فناني القرن التاسع عشر وأصحابهم الهواة فئة تملكها هوس الانعتاق نحو الشرق. لقد اهتموا، بإخلاص، بعادات العالم الشرقي التي تختلف كل الاختلاف عن عاداتهم. وصور ذلك العصر تثبت لنا أن حالة الرعدة التي تصيب مدخن الحشيشة، كما رسمها **دوتش** في لوحته «**أمام مقهى مغربي**»، كانت مشهدا عاديا مألوفا، وإن

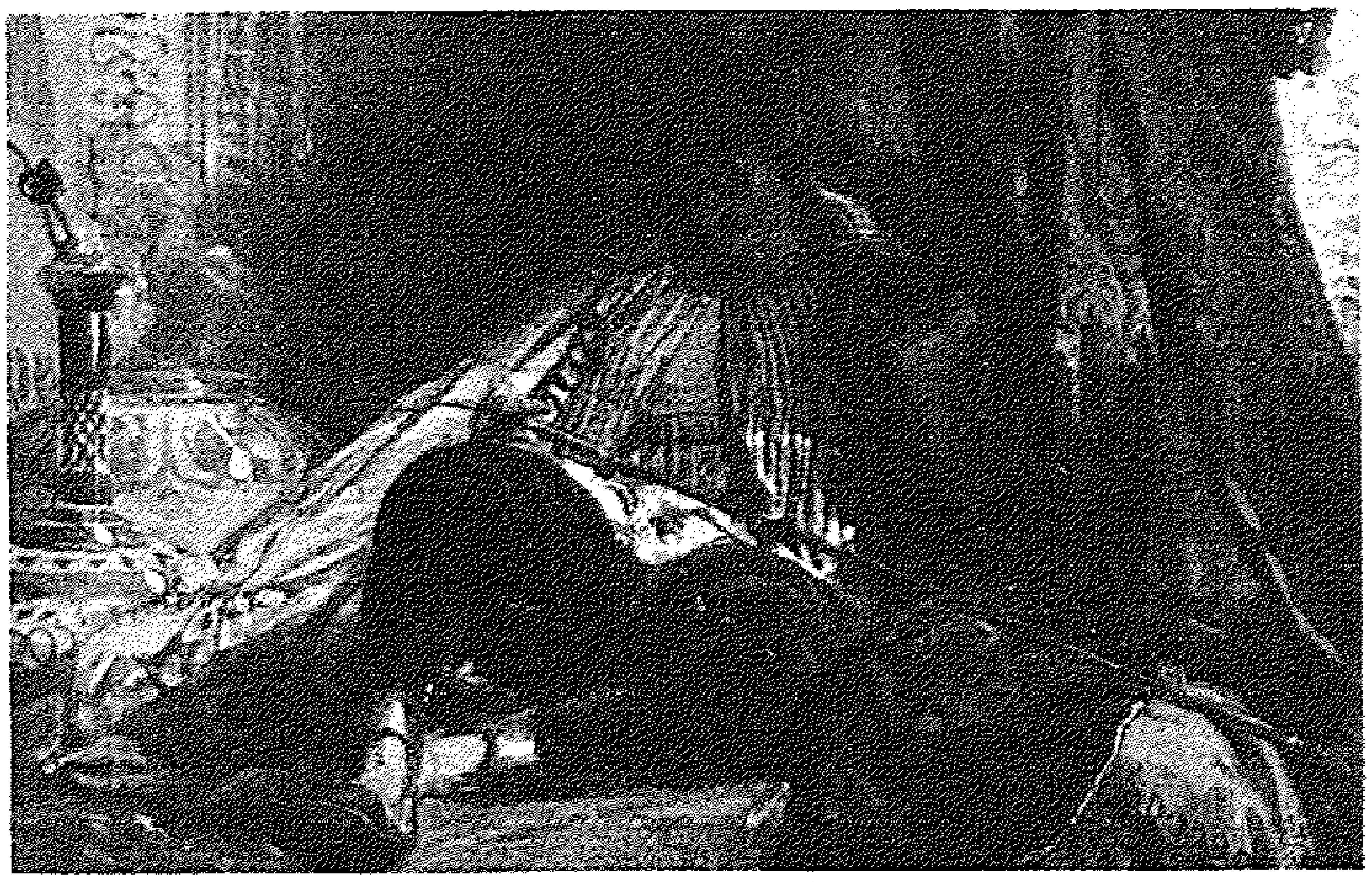
الرسوم التي تمثل الحراس، والباعة المتنقلين، ولاعبي الطاولة الذين كانوا أحيانا يدخنون النرجيلة، كانت مشاهد حية تستمد حقيقتها من الواقع.

والواقعية الفوتوغرافية التي تجلت في العديد من اللوحات الشرقية، ولا سيما في تلك التي ظهرت في أواخر القرن الماضي، تدل على أن الفنانين لم يجدوا غضاضة في استخدام آلات التصوير، فالفنان **جيروم** حمل معه جهاز التصوير الشمسي في رحلته الأولى إلى مصر، والفنان **جوتييه** (Gautier)أثنى على دقة التصوير في لوحاته في المعرض الفني لعام ١٨٦٥.

وكان هناك شركات للتصوير الشمسي، كشركة **بون فيس** (Bon fils) وأولاده، مارست نشاطا مهما في الشرق الأوسط ابتداء من عام ١٨٦٠. فلوحة «**الشارع في يافا**» للفنان **بوور نفايند**، التي تتضمن التفاصيل الدقيقة للمنازل، والرفوف التي تحمل الفواكه، ومناظر الطبيعة في الخلف، والبنت فاطمة التي تضع يدها على الجدار كعلامة ترحيب، وكذلك لوحة «**المبيض**» للفنان **ويلدا** (عام ١٨٨٤)... هي لوحات قريبة من الصور الشمسية التي التقطت وسجلت، في تلك الفترة، نفس المشاهد. ونذكر أن شركة **كوداك** (Kodak) أنزلت، في عام ١٨٨٨، إلى السوق جهازها التصويري النقّال الذي مكّن السائح من حمله في يده والتقاط ما يحلو له من صور الناس والآثار والمناظر.

وفي نهاية القرن الماضي سجل الرسم الشرقي في الغرب تدنيا في النوعية والرواج. بسبب ازدهار السياحة واختزال المسافات وتطور وسائل النقل وتحسن إنتاج التصوير الشمسي، فقد الشرق أسراره في أعين الأوروبيين. بل إن انتشار النمط الغربي في العالم قد أحدث انقلابا في نمط الحياة الشرقية.

لقد استطاع التصوير الشمسي أن يعرض على الملأ بأمانة، وإن اتسمت بالقسوة، وبموضوعية، وإن حفلت بالفجاجة، صورا عن العالم الشرقي الحزين والفقير والقلق كان الرسم، في لوحاته، يحاول، ببراعة ومهارة، التخفيف من واقعيتها وحدتها. ومع ذلك، وعلى الرغم من التطورات الحديثة في عالم الآلة، فإن اللوحات التي أبدعتها ريشة الموهوبين من الرسامين المستشرقين في القرن المنصرم ما زالت تقدم إلينا صورة مدهشة عن البلاد الاسلامية. والشرق الذي سجل الرسامون المستشرقون ملامحه سيبقى دائما مكانا حافلا بالثراء السحري والجمال والأسرار.



□ تركي يستريح. لوحة للرسام بوننجتون (عام ١٨٢٦).

[كان الاعتماد في كتابة هذا المقتبس على الكراس الذي نشرته دار فلامايون (Flammarion) الفرنسية، بعنوان: «الرسامون المستشرقون»]

صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة

د. محمّد حميد الله

إن العرب قبل الاسلام لم يعتنوا كثيرا بالوثائق المكتوبة، حتى إن اول كتاب عرفه التاريخ باللغة العربية هو القرآن الكريم. ولكن اعتناء الاسلام بها منذ أول أمره ما يدهش المؤرخ، كما سنرى فيما يلي:

روي عن نبي الاسلام: «إن أول ما خلق الله القلم»[1]. إن كلمة «القلم» توجد في كثير من اللغات السامية. وبما أن اليونان أخذوا علم الخط من الفينيقيين. فلا بد ان كانوا قد استعاروا كلمة «قلم» أيضا منهم، فقالوا χάλαμος ومنه (Calame) بالفرنسية.

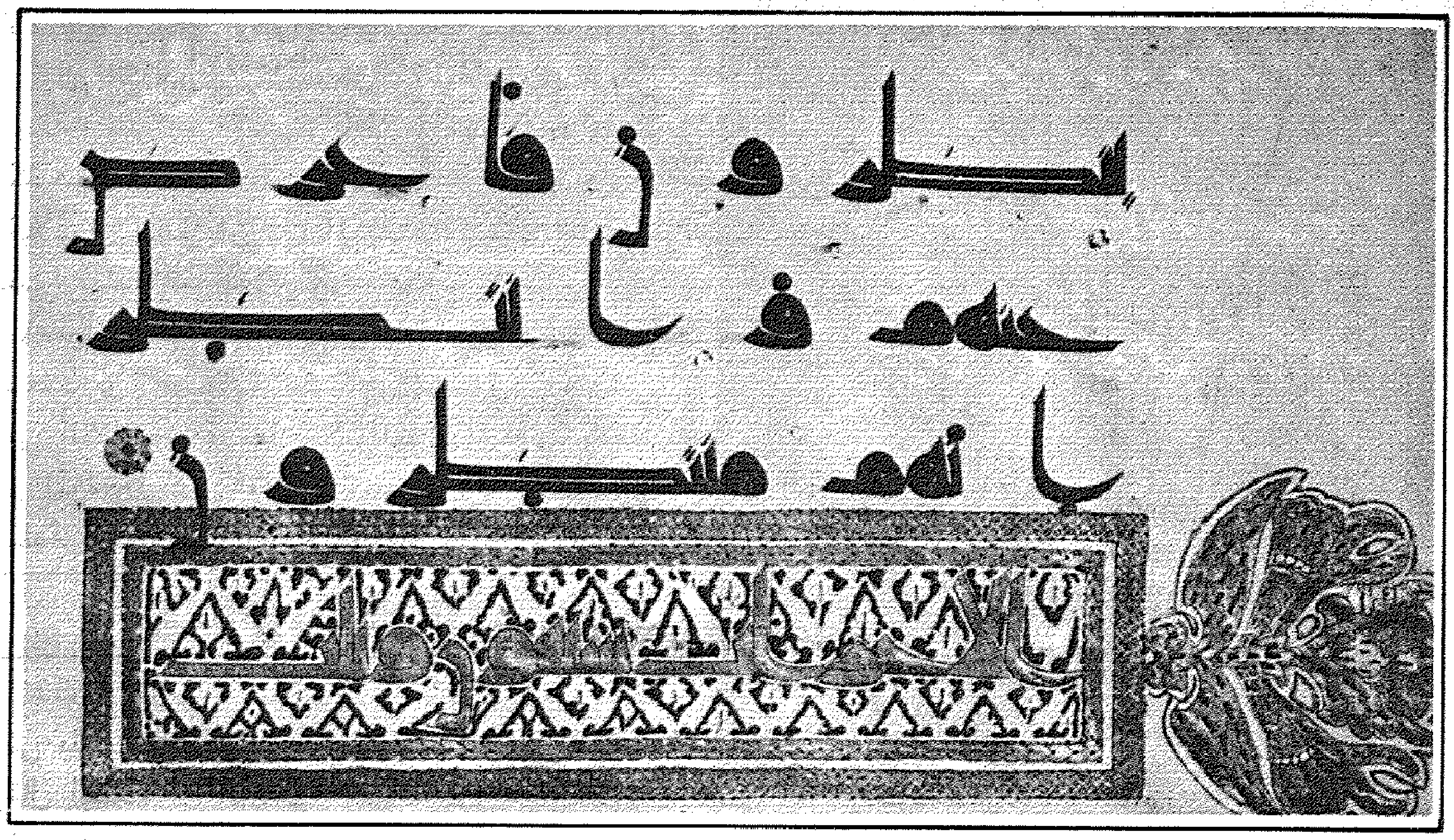
روي عن ابن إسحاق انه قال: سمي اخنوخ «إدريس»، لأنه اول من خط بالقلم ودرس الكتب[2]. ولكن لا نعرف كيف كان هذا الخط.

«روى ابن إسحاق في الكتاب الكبير، عن شهر بن حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: أول من كتب بالقلم إدريس. وعنه، عليه السلام، أنه قال: أول من كتب بالعربية إسماعيل. وقال أبو عمرو: هذه الرواية أصح من رواية من روى أن أول من تكلم بالعربية إسماعيل، عليه السلام»[3].

«عن أبي ذر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر، أربعة (يعني من الرسل) سريانيون: آدم، وشيث، ونوح، وخنوخ وهو أول من خط بالقلم. وأنزل الله على خنوخ ثلاثين صحيفة»[4].

الخط العربي قبل الاسلام

إن البلاذري (المتوفي ٨٩٢م) من أقدم من حفظ لنا روايات العرب عن تأريخ خطهم. فقد بوب بابا في «أمر الخط» في آخر كتابه المسمى «فتوح البلدان» (ص ٤٧١ ـــ ٤٧٤). فروي عن محمد بن السائل الكلبي، والشرقي بن القطامي، وقال: «اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقّة، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة. فوضعوا الخط، وقاسوا الهجاء العربية على هجاء السريانية. فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار. ثم تعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار... وتعلم بشر (أخو أكيدر بن عبد الملك) الخط من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه ـــ (فعلم رجلين هناك، ثم رجلا في الطائف، وآخر في ديار مضر، وناسا في الشام) ـــ وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين أيضا رجل من طابخة كلب. فعلمه رجل من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يثرب[5]



□ صحيفة لقرآن بالخط الكوفي، موطنه العراق او سوريا، القرن الثامن، محفوظ في متحف دالم، برلين.

فأقام بها، وعلم الخط قوما من أهلها».

أما ابن النديم (المتوفي ٩٩٥) فقال في أول كتابه، كتاب الفهرست: «اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي: (ألف) فقال هشام بن محمد الكلبي: أول من صنع ذلك قوم من العرب العاربة (ومن أسمائهم وأخذوا الحروف: أبجد هوز حطي كلمن صعفص قرست). ثم وجدوا بعد ذلك حروفا ليست من أسمائهم، وهي الثاء، والخاء، والذال، والظاء، والغين، والشين، فسموها الروادف... (ب) وقال ابن عباس: أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال... سكنوا الأنبار... وهم مرامرة بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة... فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الأعجام»[٦].

وللروايتين أهمية. فما يتعلق بالأولى، فقد نعرف أن حروف الهجاء السامية القديمة (في السينائية، والفينيقية، والبابلية، والعبرانية وغير ذلك) تنتهي بالتاء؛ وزيادة ثخذ ظغش (حسب الهجاء العربي المغربي) خاصة بالعربية — ولا أبحث ههنا في الهجاء العربي المشرقي حيث الترتيب: سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ — وما يتعلق بالرواية الثانية عن وضع علامات الإعجام، فسنبحث فيها فيما بعد.

نماذج هذا الخط القديم

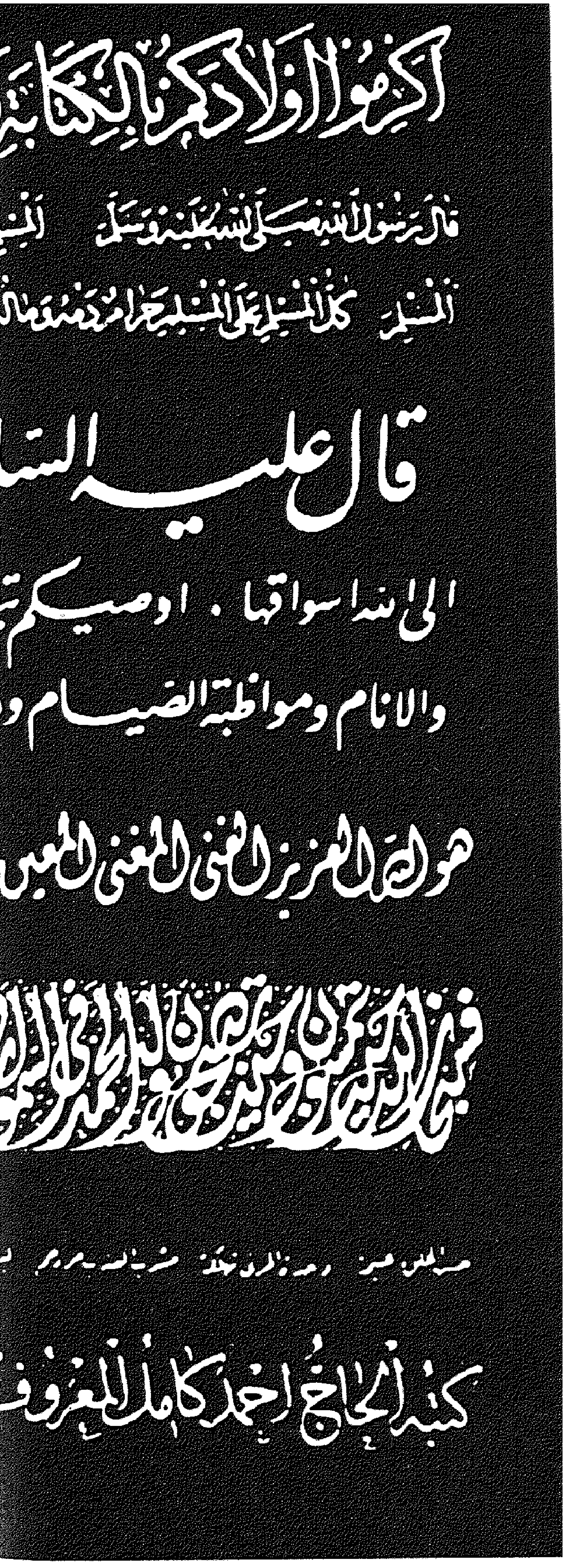
ومن عجيب ما نرى هو أن أقدم نماذج الخط العربي، كما نعرفه الآن، توجد خارج جزيرة العرب، في النمارة، والحران وزبد[٧].

نشر علم الخط في مكة

رأينا آنفا أن بشر بن عبد الملك بن الحن هو معلم المعلمين للخط العربي. وهذا ما قال البلاذري[٨] عن أعماله في مكة: «ثم أتى مكة في بعض شأنه، فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب. فسألاه أن يعلمهما الخط. فعلمهما الهجاء، ثم أراهما الخط. فكتبا». وقال ابن النديم[٩] بل هو حرب بن أمية (بدل سفيان). ولعل الحق مع ابن النديم، فكل يقول[١٠] إن بشرا تزوج من الصهباء بنت حرب. (ولعل سفيان بن حرب المذكور عند ابن أبي داود، هو أبو سفيان بن حرب).

ولا بد أن نبي الاسلام رآهم جميعا لما كان صبيا أو شابا.

وقال ابن النديم[١١]: «وكان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب (المتوفي ٥٧٨م) في جلد



أدم، فيه...، قال: وكان الخط يشبه خط النساء».

قال البلاذري[١٢] «دخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب». وسماهم؛ ونجد أكثرهم بين كتّاب النبي في المدينة المنورة. وذكر البلاذري أيضا أن بين المكيات الكاتبات: الشفاء بنت عبد الله العدوية، وحفصة العدوية أم المؤمنين، وأم كلثوم بنت عقبة، وعائشة بنت سعد بن عبادة وكانت تقول: «علمني أبي الكتاب»، وكريمة بنت المقداد. وقال: عائشة أم المؤمنين كانت تقرأ المصحف ولا تكتب، وأم سلمة أم المؤمنين كانت تقرأ ولا تكتب.

الخط في المدينة

ذكرنا آنفا عن البلاذري أن بشر بن عبد الملك اتى يثرب فأقام بها وعلم الخط قوما من أهلها. وقال أيضا: «إن الكملة (وهم من جمعوا الكتاب والرمى والعوم) في الجاهلية من أهل يثرب: سويد بن الصامت، وحضير الكتائب». ثم روي[١٣] عن الواقدي: «كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلا، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون، وهم...».

فلو كان يهودي علم المدنيين الخط، فانه علم الخط العبراني. فلما هاجر النبي إلى المدينة، وهاجر معه أهل مكة، فإن الخط العربي انتشر هناك حينذاك. والله أعلم.

العصر الاسلامي

أوامر القرآن

كان نبي الاسلام اميا، كما أكد القرآن وقال (سورة ٢٩، آية ٤٨): «وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون». وكيف لا يفتخر الاسلام أن أول وحي أوحى إليه كان في أمر القراءة وثناء القلم (سورة ٩٦: آية ١ ــ ٥):

«اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم».

فكان من أول اطباق هذا الأمر كتابة الوحي، وحفظ القرآن بواسطة الخط[١٤]. وله أهمية


احب البلاد الى الله مساجدها وابغض البلاد
في السر والعلانية وبقلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام وهجران المعاصي
قيام وترك الشهوات على الدوام ومصاحبة الصالحين الكرام وخير الكلام ما قل ودل

خاصة، فإن كل ملة تعتني بدينه أكثر من أي شيء آخر. فاهتم المسلمون بالقرآن المكتوب جد الاهتمام ولم يزالوا في اتقان الخط وتجميله. ولا شك أن الخط المستعمل للقرآن هو من أجمل خطوط العالم. وأيضا من اتقنها لصحة التلفظ وعدم إمكان الابهام، (فكلمة HAMID مثلا يمكن أن نقرأها: حمد، وحميد، وحامد، وحاميد؛ ولا يوجد مثل هذه الامكانات والابهامات في الخط العربي مع إعرابها). وأول ما فعل النبي بعدما هاجر، هو بناء مسجد، وخص فيه صفة للتعليم، فعين أساتذة لتعليم الكتابة مثل عبد الله بن سعيد بن العاص، وعبادة بن الصامت[١٥].

ومن أول ما نزل من القرآن بعد الهجرة آية المداينة (سورة ٢، آية ٢٨٢)، فأمر بوجوب كتابة المعاقدات المالية إذا كانت إلى أجل. وقال النبي عليه السلام[١٦]: «ما حق امرىء مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». ومن ألطف ما روي[١٧] عن النبي الأمي هو أنه لما أسر الأسارى في بدر، طلب الفداء من كل واحد منهم؛ فمن كان يعرف الكتابة، جعل فدائه تعليم عشرة غلمان من المسلمين الكتابة. (وفيه جواز المعلم المشرك لتعليم المسلمين).

ذكر الطبري[١٨] أن النبي ، عليه السلام «بعث معاذ بن جبل معلما لأهل البلدين: اليمن وحضر موت». وقال ايضا[١٩]: «وكان معاذ معلما يتنقل في عمالة كل عامل». وأيضا[٢٠] «ومعاذ بن جبل يعلم القوم بتنقل في عمل كل عامل».

الكتابة بالعبرانية وغير ذلك

قبل أن نطالع تطور الخط العربي، يجب أن نذكر أن المسلمين احتاجوا منذ العصر النبوي إلى خطوط سوى الخط العربي.

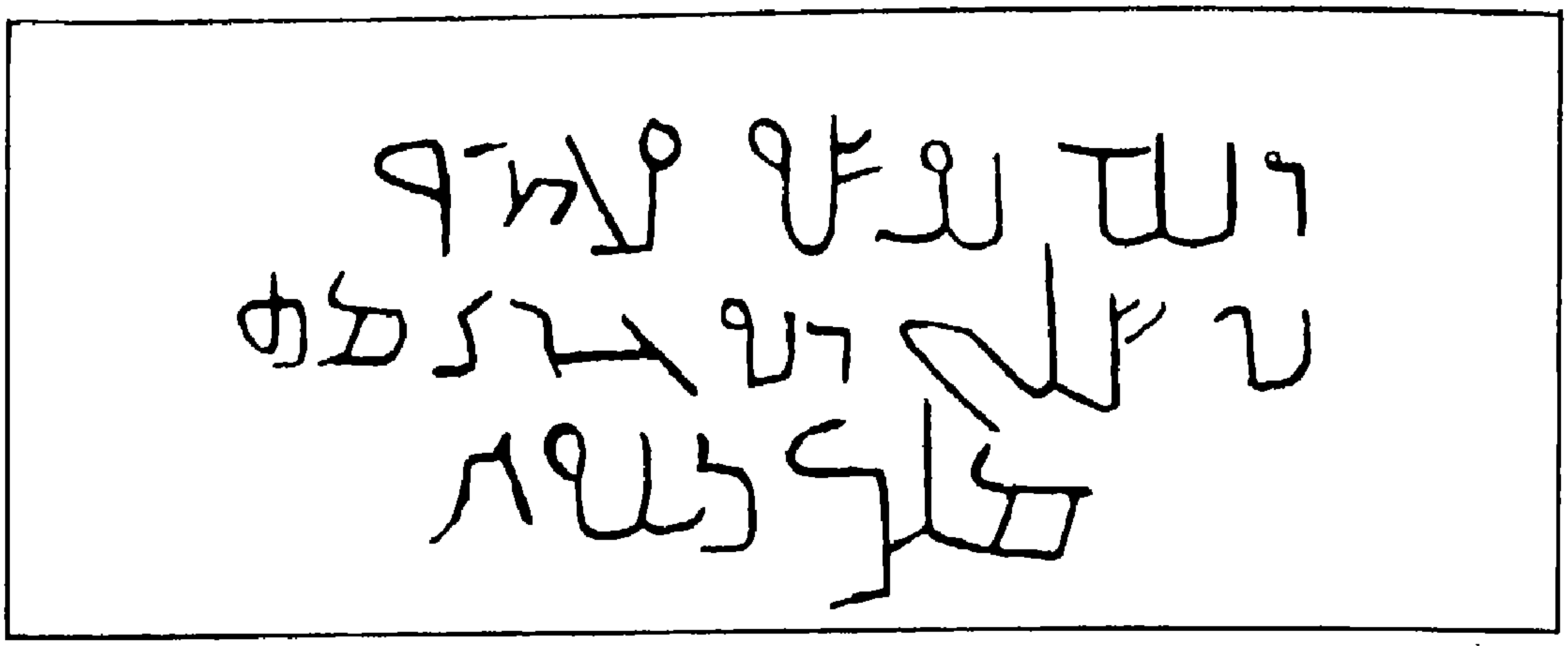
ذكر المسعودي[٢١] أن زيد بن ثابت كان «يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي وكان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية. تعلم ذلك بالمدينة عن أهل هذه الألسن». وذكر عدد من المؤرخين[٢٢] أن النبي، عليه السلام، قال لزيد: «اتحسن السريانية؟ فإنها تأتيني كتب». قلت: «لا». قال: «فتعلمها». فتعلمتها في تسعة عشر يوما. — وكأن المراد بالسريانية هي العبرانية، فإن اليهود كانوا يستعملون الخط العبراني مهما كانت اللغة التي يتكلمون بها.

ذكر ابن حنبل[٢٣] عن «عبد الله بن عمرو بن العاص قال: رأيت فيما يرى النائم لكأن في إحدى اصبعي سمنا وفي الأخرى عسلا، فأنا العقهما. فلما أصبحت، ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: تقرأ الكتابين: التوراة والفرقان. فكان يقرأهما». وذكر ابن سعد[٢٤] «... رأيت عبد الله بن عمرو يقروء بالسريانية». وروي ابن كثير[٢٥] في تفسيره: «قال النبي، عليه السلام: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج. ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو. ولهذا كان عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما؛ بما فهمه من هذا الحديث من الاذن في ذلك».

ذكر ابن ماجة[٢٦] «أن النبي، عليه السلام، قال يوما لأبي هريرة: أشكمت درد؟ (ألك وجع في البطن؟)». ولكن لم يرو شيء عن كتابته بالفارسية. نعم ذكر السرخسي[٢٧]: «روي أن الفرس كتبوا إلى سلمان، رضي الله عنه، أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية. فكانوا يقرءون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية». وفي النهاية حاشية الهداية[٢٨]: «روي أن الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية. فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: بنام يزدان بخشايندهء بخشايشكر. فكانوا يقرأون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم بالعربية. وبعد ما كتب، عرض على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم بعثه إليهم. ولم ينكر عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، كذا في المبسوط».

إن كتابة أبرهة على السد في مارب[٢٩] بالخط الحميري (المسند)، وأبرهة مات عند ولادة نبي الاسلام. فالراجح أن هذا الخط كان رائجا بين اهل اليمن، فمن أسلم منهم مثل أبي هريرة كان لا بد يعرف ذلك الخط. وأنا وجدت كتابات بذلك الخط في المدينة على العقيق عند بئر عروة.

كان للنبي، عليه السلام، ختم يختم به مكاتيبه. ولكن ذكر ابن سعد[٣٠] أن النبي



□ نقش «أم الجمال» احد النقوش الاربعة المشهورة، تعود إلى ما بين سنة ٢٥٠م وسنة ٢٧١م.

لما عاهد مع أكيدر (أخي بشر بن عبد الملك) صاحب دومة الجندل، وكان في الأصل من أهل الحيرة، وكتب الكتاب «ختمه بظفره». والختم بالابهام معروف في جميع العالم. أما الختم بالظفر فهو أمر يتعلق بالعراق خاصة. فقد نجد هناك كتابات على اللبنات، فيها علامة مثل الهلال الصغير في آخر النص ويقول الكاتب أو فريق المعاهدة: ختمته بظفري[٣١]. ولذلك ختم النبي، عليه السلام، بظفره، على طلب أكيدر.

حاجات الخط العربي

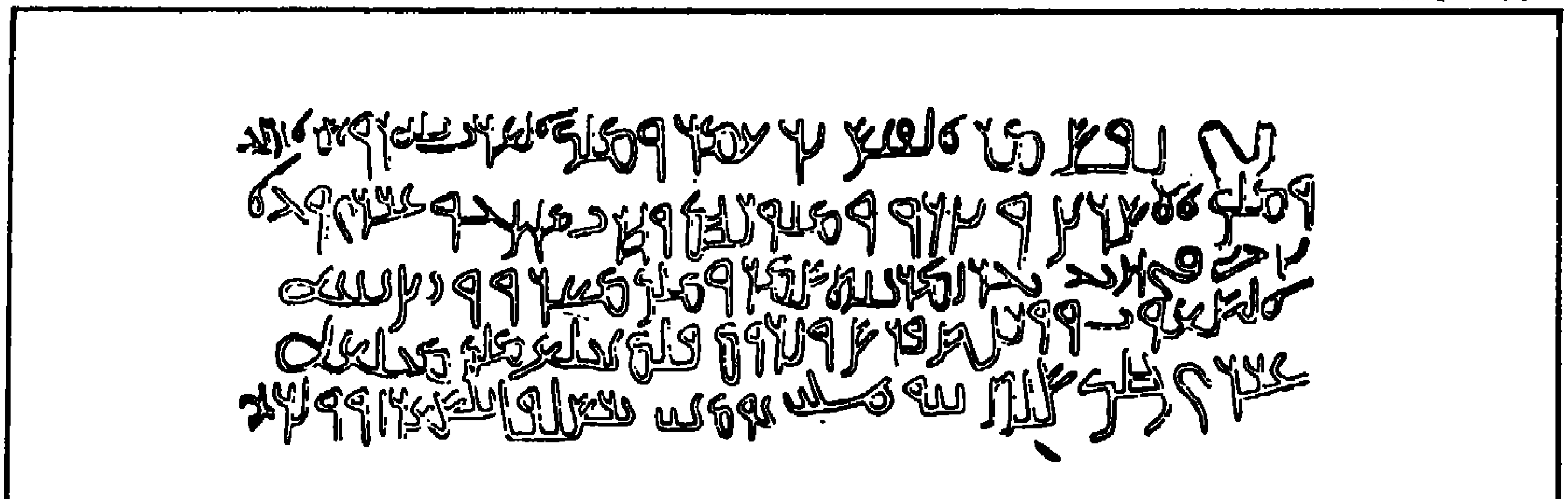
إحتاج المسلمون أولا إلى أن يكتبوا القرآن. وأمر القرآن المسلمين أن يكتبوا جميع المداينات[٣٢]. واحتاج النبي أيضا كرئيس الدولة إلى من يكتب له أموال الزكاة والمغانم، ومن يكتب له إلى الملوك وفي سائر ما يعرض له من الحوائج[٣٣].

أما الصحابة، فسوي القرآن وحوائجهم من العقود المالية، بدأوا يكتبون الأحاديث منذ حياة النبي[٣٤] وزاد شغلهم بها بعدما توفي. ونسمع عن كتب السير والتاريخ والفتاوى (الفقهية) منذ عصر الخلفاء الراشدين[٣٥].

تطور الخط

كلما زادت حاجة الناس إلى المكاتبات، زاد اعتناؤهم بالتدقيق والاتقان. والفرق بين خط الكتابات من قبل الاسلام والخط الموجود الآن الذي ننشر به هذه المجلة هو الرقش (أي النقاط المميزة بين بـ تـ ثـ نـ يـ، جـ حـ خـ، إلى غير ذلك). والاعراب (أي حركات الفتح والكسر والشدة والسكون وغيرها). وبدون هذين يهم على القارىء مراد الكاتب. ويروى عن سيدنا عمر أنه قرأ مرة «فأتوا أن يضيفوهما» بدل «فأبوا أن يضيِّفوهما»، كما ورد في القرآن. وذكر

□ نقش «اننمارا» احد النقوش الاربعة المشهورة، وينقش عادة على الاضرحة، (٣٣٨م)، ويمثل شعراً للشاعر العربي امرؤ القيس.



السيوطي[٣٦] أن سيدنا عثمان كتب مرة إلى أهل مصر تولية رجل ثم قال: «فإذا جاءكم فاقبلوه»، فقرأه الناس «فإذا جاءكم فاقتلوه»، فكان سبب الفتنة وشهادة سيدنا عثمان فإن الثائرين لم يصدقوه حين حلف أنه لم يكتب بأمر القتل.

فمتى بدأ العرب بإيجاد هذه الأمور من ا قش والاعراب؟ الظاهر أن الناس لما احتاجوا ، حل هذه الصعوبات، فكر كل واحد، وتحصلت ـتراحات عديدة، ولم يبق ما بقي إلا بعد طول نجربة ومسابقة بين اقتراحات مختلفة. وهذا معنى النزاع فيمن أوجد هذه الايجادات. رأينا فيما سبق أن ابن النديم ينسب الاعجام إلى ما قبل الاسلام. وذكر الداني[٣٧] أن إيجاد الاعراب ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي، وإلى نصر بن عاصم الليثي، وإلى خليل بن أحمد. وينسب أيضا إلى يحيى بن يعمر والحجاج بن يوسف. وكل هذا لئلا يلحن (أي يغلط) الناس في قراءة القرآن. وحكي الداني[٣٨] أيضا أن الاعراب كان أولا بواسطة النقاط مختلفة الألوان، وكذلك الفرق في محل النقطة. فلما صعب هذا، أوجدوا الأشكال ليميزوا بين الرقش والاعراب وكلاهما بمداد واحد.

هذا ما روى المؤرخون المتأخرون. ولكن من حسن حظ العلم لم تتلف جميع الوثائق القديمة، واكتشف بعضها منذ قريب. وهذه الوثائق تصحح بعض ما روى المؤرخون ،، وتخبر عن بعض ما لم يخبروا. فلنبحث عن الرقش والاغراب على حدة:

الرقش

إن حروف الهجاء العربية تحتوي على (٢٨) حرفا على عدد منازل القمر. أما الأشكال فهي نصف هذا العدد كما سنرى في الجدول التالي:

١ ـــ بـ، تـ، ثـ، نـ، يـ ـــ جـ، حـ، خـ ـــ د، ذ ـــ ر، ز ـــ سـ، شـ ـــ صـ، ضـ ـــ ط، ظ ـــ ع، غ ـــ ف، قـ ـــ كـ ـــ لـ ـــ مـ ـــ و ـــ هـ.

ولا تتميز إلا بالنقاط.

نشر جورج مايلس[٣٩] مقالة مصورة عن كتابة وجدت على سد قريب الطائف، نقروء عليها: في ستة أسطر ما يلي:

«هذا السد لعبد الله معوية/ أمير المؤمنين، بنيه(=بناه) عبد الله بن صخر/ بإذن الله لسنة ثمن وخمسين. ا/ اللهم اغفر الله معوية ا/ميـر المؤمنين وثبته وانصره ومتع ا/ لمؤمنين به. كتب عمرو بن حباب».

ويقول صاحب المقال إنه يوجد رقش على إحدى عشرة كلمة، يعني في السطر الأول على ى من معاوية؛ وفي السطر الثاني على ب و ن و ى من بنيه (أي بناه)؛ وفي السطر الثالث على ث و ن و ى من ثمن وخمسين؛ وفي السطر الرابع مع احتمال الرقش على كلمة «اغفر»؛ وفي السطر الخامس على ث و ب و ت من «ثبته»، وكذلك ن من «وانصره»، و ت من «متع»؛ وفي السطر السادس على ن و ى (مع احتمال ن) من «المؤمنين»، و ب من «كتب»، و ب الثانية من «حباب» (ما يمكن أن نقرأ خباب أو جناب أيضا، والرجل غير معروف). هذا على كتابة من السنة ٥٨، ولكن نجد الرقش على بردى أقدم من هذا. فقال آدولف كرومان[٤٠]: «ولو انه اعتقد منذ برهة، على أساس ما ذكره المؤلفون العرب، أن إيجاد الرقش أي تنقيط الحروف لم يحدث قبل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة... ولكن الحقيقة أن أقدم بردى (بابيروس) موجود ومؤرخ سنة ٢٢ للهجرة المطابقة سنة ٦٤٣ للميلاد المسيحي (من ذخيرة الأمير الكبير راينر، كما نشر في دليل معرض ويانا ١٨٩٤، رقم ٥٥٨) يرينا الرقش على الحروف خ، ذ، ز، ش، ن». وهذا البردى من خلافة سيدنا عمر بن الخطاب، وعليه نص عربي مع ترجمة يونانية، عثر عليه في بلدة أهنس في مصر، ويذكر الجنود البرية والبحرية، والخيل، ومن بالأسلحة الخفيفة ومن بالأسلحة الثقيلة. وهذا نص القسم العربي منه كما قرأه كرومان:

سطر ١ ـــ بسم الله الرحمن الرحيم. هـذا ما أخذ عبد الله

٢ ـــ ابن جبير وأصحبه من الجزر من اهنس: أخذنا

٣ ـــ من خليفة تذرق ابن أبو قير الأصغر ومن خليفة إصطفن ابن أبو قير الأكبر خمسين شاة



□ نص اندلسي مغربي

٤ ــ من الجزر، وخمسة عشر شاة أخرى أجزرها أصحب سفنه وكتئبه وثقلاه في

٥ ــ شهر جمدي الأول من سنة اثنين وعشرين. وكتب ابن حديدة».

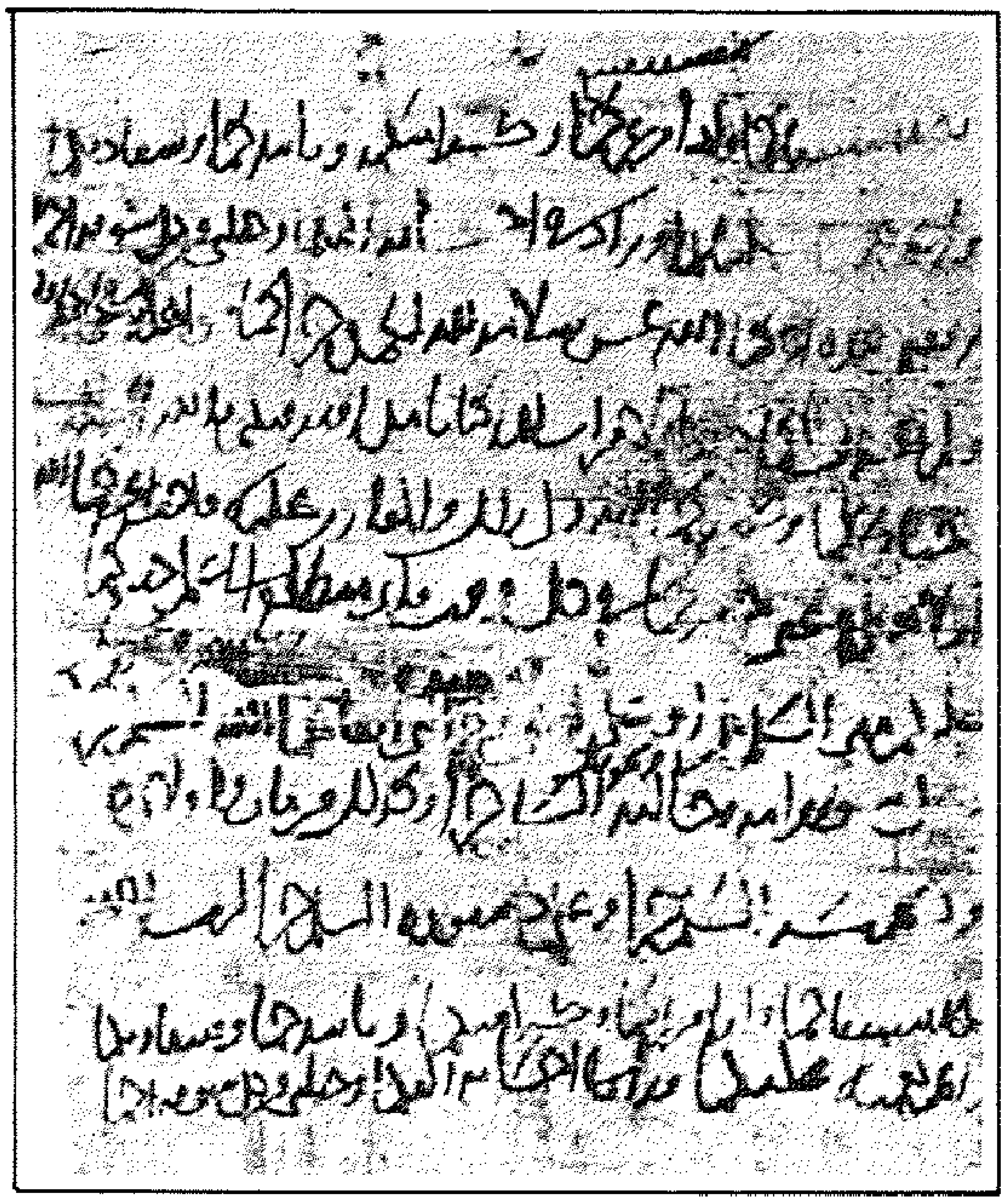
ونجد في كتاب گرومان صورة هذا البردى وترجمة النص اليوناني ومعلومات أخرى. ونشر گرومان مقالا آخر[٤١] فيه صور بينها بردى مؤرخ «سنة اثنتين وعشرين»، وبردى آخر غير مؤرخ (أرخه گرومان ٢٢ ــ ٧٥هـ)، وآخر من سنة ٥٧ للهجرة كلها مرقوشة ظاهر الرقش.

الرقش في العصر النبوي

رأينا آنفا أن كتابة معاوية على سد الطائف مرقوشة. ومعاوية يعزو الرقش إلى النبي، عليه السلام. وجدت ذكره في تدريب الراوي للسيوطي (ص ١٥٢)، وحقق لي استاذان كريمان صبحي الصالح ويوسف العش أن نفس الرواية توجد أيضا في مخطوطتين: في تاريخ دمشق لابن عساكر (الجزء السادس، ورقة ٢ ــ ٣)، وفي الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (ورقة ٥٥)، الأولى منهما في دمشق والأخرى في الاسكندرية. وتذكر هؤلاء المصادر:

«عن عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال: كتبت بين يدي معاوية كتابا. فقال لي: يا عبيد ارقش كتابك؛ فإني كتبت بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رقشته ــ (وفي رواية السيوطي: كتبت بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا معاوية ارقش كتابك) ــ قال عبيد: قلت: وما رقشه (وفي رواية ابن عساكر: مارقشته) يا أمير المؤمنين؟ قال: اعط كل حرف ما ينوبه من النقط».

نرى من هذا أن الرقش كان معروفا في أواخر العصر النبوي (فإن معاوية صار كاتبا له بعد فتح مكة في سنة ثمان للهجرة) نعم لم يراعه الناس تماما في جميع ما يكتبون، كما نرى في برديات عصر سيدنا عمر أيضا. ولكن لا شك أن الرقشة عرفها الناس منذ العصر النبوي، فقد روى ابن الأثير[٤٢] أن النبي، عليه السلام، قال: «إذا اختلفتم في الياء والتاء فاكتبوها بالياء» (مثل ليعلم ولتعلم). ويعاضده ما روى الداني[٤٣] عن

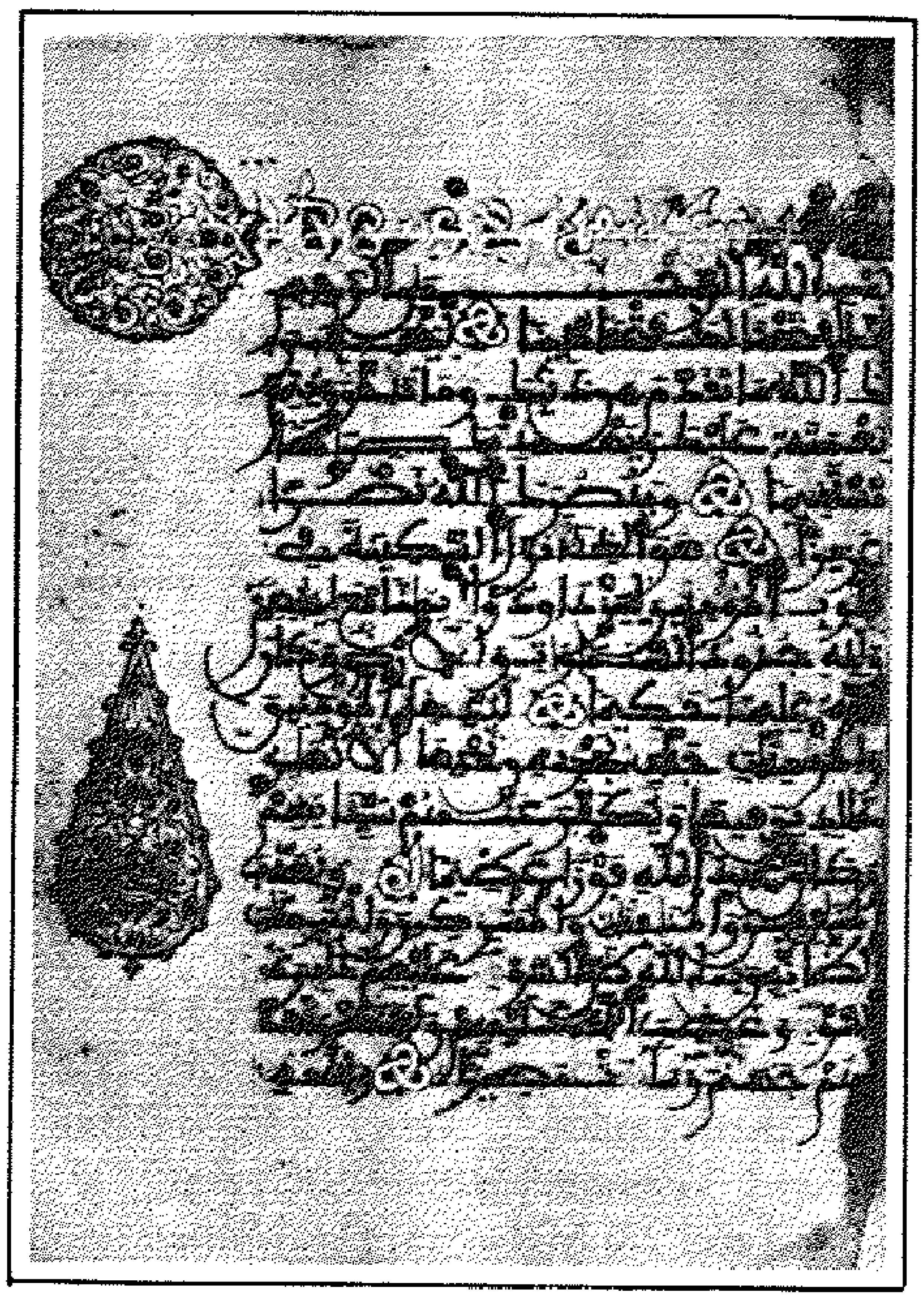


□ قرطاس مصري، حول ٨٠٠م يحتوي على مكتوب خاص.

يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجردا في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء، وقالوا: لا بأس به هو نور له».

الاعراب

من المحتمل أن الاعراب شيء متأخر من العصر النبوي واحتاج الناس إليه لما الحنوا في قراءة القرآن. فيقال[٤٤] إن أبا الأسود الدؤلي اختار رجلا من عبد القيس فقال: «خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فأنقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف. وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره. ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك». وعزي الداني هذه الحكاية إلى ولاية زياد زمن معاوية، ولكن نقل بالهامش الدكتور عزة حسن، محقق كتاب الداني عن كتاب «الايضاح في الوقف والابتداء» لأبي بكر الأنباري (ورقة ١٦ ــ ١٧) أن عمر بن الخطاب أمر أبا الأسود فوضع النحو. وأبو الأسود من التابعين توفي في سنة ٦٩ للهجرة وكان تلميذ سيدنا علي أيضا.



□ صحيفة من القرآن الكريم، بالخط المغربي.

ولكن لما نرى أن رسم القرآن (في سورة ١٢، آية ٣٢) «ليكوناً» بدل «ليكونن»، وكذلك «إذاً» بدل «إذن» (١٢/١٤)، وأيضا «لنسفعاً» بدل «لنسفعن» (٩٦/ ١٥) إلى غير ذلك، يمر ببالنا أن التنوين على الأقل من عصر النبي، عليه السلام. ويؤكد هذا أن رسم القرآن (في ٨٨/٢١) «نجي» بدل «ننجي». وبالعكس أيضا يرسم في القرآن (٤٧/٥١) «بأييد» ويتلفظ «بأيد».

ولكن لا نجزم به. وصرح الداني[٤٥] أن لأهل المدينة كان طريق خاص للاعجام، ثم تركوه وأخذوا طريق أهل البصرة. ولم يصل إلينا إلى الآن وثائق كافية لنعرف تطور حركات الاعراب وأشكاله.

ولا بأس بالاشارة أن الخط العربي يحذف الألف كثيرا، فيكتب بسم الله الرحمن الرحيم وكان وجب أن يكتب «بإسم اللاه الرحمان الرحيم». ولكن هذا أمر قديم ونجده قبل الاسلام أيضا، لا بالخط العربي فحسب، بل أيضا بخطوط سامية أخرى. مثلا يوجد كتابة أبرهة في مارب على السد وهي بالخط الحميري (المسند) فكتب «مسحه ورح قدس» ويجب أن نقرأ «مسيحه وروح قدس»، فهذا الخط يحذف الواو والياء أيضا. كأن الناس لم يحتاجوا إلى حروف العلة وكفاهم الحروف الصحيحة.

ويجب أن ينسب أيضا إلى أقدم العصور الاسلامية زيادة حرف الألف في صيغة الجمع من الماضي والمضارع (مثل فعلوا، يفعلوا). وسبب رأيي هذا هو أن القرآن يستعمله أحيانا ويتركه أحيانا، وأيضا يستعمل حيث لا نستعمل الألف الآن، مثلا:

ما كنت تتلوا (بدل تتلو) ٤٨/٢٩.

ما نشوا (بدل ما نشاء) ٨٧/١١. (وكذلك الضعفوا، الشفعوا، العلموا بدل: الضعفاء، الشفعاء، العلماء).

وهذا يدل أن هذا من أول أمر الكتابة. وبما أن رسم سيدنا عثمان للقرآن لم يغير — ونعم ما فعل المسلمون — وصل إلينا نماذج بدء الكتابة العربية.

النقود

يوجد في متاحف العالم نقود إسلامية من جميع العصور، منها ما ينسب إلى سيدنا عمر وإلى سيدنا معاوية. وعلى مؤرخ الخط العربي أن لا ينساها. وبما أني لم أشتغل بهذا الموضوع، أكتفي بالاشارة إليه.

الخلاصة

إن الروايات عند المؤرخين، والحقائق في الوثائق القديمة مثل أوراق البردى والكتابات على الحجر وما ينسب من المكتوبات إلى النبي[٤٦]، وكذلك النقود (الدراهم والدنانير وغير ذلك) تدل على تطور سريع للخط العربي. فرقش الحروف وعلامات الاعراب بدأت منذ العصر النبوي، وتم تطورها في عصر الصحابة. وما دام لم يكن هناك وسائل الكتابة بالماكينات، كفى للغة العربية خطها الذي ورثته منذ العصر النبوي والخلافة الراشدة. وهذا الخط لا يماريه أحد في الجمال، والاتقان والاقتصاد، فإن الخط العربي نوع من الاختزال يأخذ مكانا أقل مما تأخذ خطوط أخرى. فلو اعتنى صانعو المطابع ومهرة الخط العربي فتعاونوا لأمكن إيجاد الآلات اللازمة لكتابة الخط العربي المشكل (المعرب) مع سرعة العمل وجمال الفن. والله المستعان.

هوامش

(١) الجامع للترمذي (كتاب التفسير. سورة ٦٨، وايضا كتاب القدر رقم ١٧)؛ وسنن ابي داوود (كتاب السنة باب القدر. حديث رقم ١٠)؛ ومسند ابن حنبل. ج ٥، ص ٣١٧.

(٢) نقله البلاذري في انساب الأشراف، ج ١، ص ٣؛ روض الانف للسهيلي، ج ١، ص ١٠؛ تاريخ الطبري. طبعة ليدن، السلسلة الأولى، ص ١٧٤.

(٣) السهيلي. ج ١، ص ١٠.

(٤) تاريخ الطبري أيضا. ص ١٧٤.

(٥) كذا «يثرب» في أصل المخطوطة، وغيره دخويه في طبعة ليدن فاقترح «يتردد»، وهذا بدون حاجة.

(٦) كذا عن ابن النديم؛ وفي «المحكم في نقط المصاحف» للداني. ص ٣٥، عن هشام الكلبي «اسلم بن خدرة اول من وضع الاعجام والنقط».

(٧) كتابة الملك امرىء القيس اللخمي في النمارة في شرقي حوران المؤرخة ٣٢٨ للميلاد المسيحي، ونقش زبد في جنوب شرقي حلب المؤرخ ٥١٢م، ونقش حران في اللجا المؤرخ ٥٦٨، ونقش أم جميل من عين العصر، فراجع:
Ph.Kh.Hitti, *History of the Arabs, pp. 70, 88*
طبعة خامسة، ص ٧٠، ٨٨؛ وللنصوص
Rép. Chronolog. d'épigraphie arabe
رقم ١ — ٤، ٤ مكرر.

(٨) فتوح البلدان. طبعة ليدن، ص ٤٧١.

(٩) الفهرست. الباب الأول.

(١٠) راجع أيضا كتاب المصاحف لابن أبي داوود، ص ٤ — ٥.

(١١) الفهرست. الباب الأول.

(١٢) فتوح البلدان. ص ٤٧١ — ٤٧٢.

(١٣) أيضا، ص ٤٧٣ — ٤٧٤.

(١٤) راجع لتاريخ كتابة القرآن في العصر النبوي مقدمتي لترجمة القرآن الفرنسية، طبعة ثالثة، باريس، ١٩٦٣، حيث ذكر المراجع ايضا.

(١٥) اسد الغابة لابن الأثير. ج ٣، ص ١٧٥؛ الاستيعاب لابن عبد البر. رقم ١٦٢٧؛ الاصابة لابن حجر. رقم ١٧٦٩، ولعبادة بن الصامت. راجع التراتيب الادارية لعبد الحي الكتاني. ج ١، ص ٤٨، عن ابي داوود.

(١٦) صحيح البخاري. كتاب ٥٥، باب ١؛ طبقات ابن سعد. طبعة ليدن، ج ٤، ق ١، ص ١٠٨.

(١٧) كتاب الأموال لأبي عبيد. رقم ٣٠٩؛ طبقات ابن سعد. ج ٢، ق ١، ص ١٤؛ مسند ابن حنبل. ج ١، ص ٢٤٧، (أو رقم ٢٢١٦)؛ السهيلي. ج ٢، ص ٩٢.

(١٨) تاريخ الطبري. السلسلة الأولى، ص ١٨٥٢.

(١٩) أيضا، ص ١٨٥٣.

(٢٠) أيضا، ص ١٩٨٣.

(٢١) التنبيه للمسعودي. طبعة ليدن، ص ٢٨٢ — ٢٨٤.

(٢٢) تذكرة الحفاظ للذهبي. ج ١، ص ٢٩ — ٣٠؛ كتاب المصاحف، لابن أبي داوود. ص ٣.

(٢٣) مسند ابن حنبل. ج ٢، ص٢٢٠ (أو رقم ٧٠٦٧).

(٢٤) طبقات ابن سعد. ج ٤، ق ٢، ص ١١.

(٢٥) تفسير ابن كثير. ج ١، ص ٤.

(٢٦) سنن ابن ماجة كتاب الطب. باب ١٠ (او رقم ٣٤٥٨).

(٢٧) كتاب المبسوط للسرخسي. ج ١، ص ٣٧.

(٢٨) لتاج الشريعة، طبع بهامش الهداية، نشرها عبد الحي اللكنوني، كتاب الصلاة.

(٢٩) مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦، ٤/١، ص ١٨٦ — ٢١٩، مقالة جواد علي مع صورة الكتابة والترجمة.

(٣٠) طبقات ابن سعد. ج ٢، ق ١، ص ١٢٠.

(٣١) Oluf Krückmann, *Neue babylonische Rechts-und Verwaltungstexte,* Leipzig 1933, Text 37, Tafel 28; Meissner, *Babylonien und Assyrien,* I, 179; Ch. Edwards, *The Hammurabi Code, p. 11.*

(٣٢) القرآن: سورة ٢، آية ٢٨٢: «إذا تداينتم بدين إلى اجل مسمى فاكتبوه».

(٣٣) التنبيه والاشراف للمسعودي. ص ٢٨٢ — ٢٨٤.

(٣٤) راجع مقدمة صحيفة همام بن منبه، خاصة النشرة الانكليزية:
Sahifah Hammamibn Munabbih, Centre Culturel Islamique de Paris, N°. 2 (1960).

(٣٥) كان رجل جاء بمجموعة فتاوى سيدنا علي وعرضها على ابن عباس.

(٣٦) تدريب الراوي للسيوطي. ص ١٥١.

(٣٧) المحكم. ص ٣ — ٦.

(٣٨) أيضا، ص ٤.

(٣٩) George C. Miles, *Early Islamic Inscriptions near Ta'if in the Hijaz,* (Journal of Near Eastern Studies, 1948, VII/4, p. 240.

(٤٠) Adolf Grohmann, *From the World of Arabic Papyri* (Cairo, 1952), p. 82, 113 — — 114.

(٤١) *The Problem of Dating Early Qur'ans* (Der Islam, Berlin, 1958, XXXIII/3, p. 220, plate II).

(٤٢) أسد الغابة، لابن الأثير. ج ١، ص ١٩٣.

(٤٣) المحكم للداني. ص ٢، ١٧، ٣٥.

(٤٤) المحكم للداني. ص ٤.

(٤٥) أيضا، ص ٧.

(٤٦) راجع لصور ثلاثة منها: (إلى المقوقس، والمنذر بن ساوي، والنجاشي) كتابي *Le Prophete de l'Islam* وصورة المكتوب إلى كسرى، نشرت في جريدة الحياة، بيروت، المؤرخة ٢٢/٥/١٩٦٣، مع مقالة صلاح الدين المنجد.

المخطوطات العربية في مدينة حلب:

تتوزع المخطوطات العربية في مدينة حلب بالجمهورية العربية السورية بين ثلاث مكتبات رئيسية وعدد من المكتبات الخاصة والبيوت والمساجد.

جاء ذلك في رسالة بعث بها الأستاذ ظافر يوسف، المعيد بقسم اللغة العربية في جامعة حلب إلى معهد المخطوطات العربية في الكويت وتحدث فيها عن المكتبات هناك فقال:

□ المكتبة الوقفية الاسلامية (الأحمدية).

وتقع خلف الجامع الأموي الكبير عند بوابة السوق المقبي، يديرها الشيخ أحمد محمد سردار منذ عام ١٩٦٧، ويبلغ عدد المخطوطات العربية فيها ٥٢٥٠ مخطوطا، تتناول مختلف العلوم، وتتوزع موضوعاتها على النحو التالي: القرآن الكريم وتفاسيره ـ علوم القراءات ـ الحديث ـ أصول الفقه ـ التصوف ـ اللغة العربية (التي تعد أوفر الأقسام حظا، فتضم المعاجم اللغوية والنحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب والدواوين الشعرية)، إضافة إلى التاريخ ـ الطب ـ الحكمة ـ المنطق ـ الفلسفة ـ الفلك ـ الحساب ـ والروحانيات.

وقد وضع الأستاذ أحمد سردار فهارس وسجلات لهذه المكتبة، لم تطبع بعد.

□ المكتبة المارونية.

تضم هذه المكتبة ١٥٣٦ مخطوطا أقدمها يعود إلى سنة ١٣٤٢، وأحدثها يعود إلى سنة ١٨٠٠. وهذه المخطوطات تتناول مختلف العلوم الإنسانية. وأهمها: «شرح مقامات الحريري» للشريشي، و «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، و «شرح الألفية» لأبي المكارم الطرزي، و «شرح ألفية ابن المضيف»، و «شرح البديعة» لابن حجة الحموي، و «شرح ديوان المتنبي» لمؤلف مجهول، و كليلة ودمنة»، و «العقد الفريد» للملك السعيد الظاهر بيبرس، وهو غير كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، و «ديوان ابن الفارض»، وغيرها.

□ مكتبة معهد التراث العربي العلمي.

تضم ٣١٥ مخطوطة أصلية، وأكثر من ألفي مخطوطة مصورة، جميعها في موضوعات علمية كالطب والفلك والميكانيكا والرياضيات والفلسفة، وهذه المخطوطات مفهرسة وإن لم تنشر فهارسها بعد.

وتحتوي هذه المكتبة على ١٠٧٦٥ كتابا عربيا وأجنبيا تعني كلها بتاريخ الحضارة العربية، وبخاصة جانب العلوم منها. كما تضم عددا كبيرا من البحوث والمقالات التي نشرت حول ما قدمه العرب في مجال العلوم.

اكتشافات أثرية في السعودية:

● اكتشفت في قرية «صفاقة» جنوب شرقي منطقة الدوادمي شمال غرب الرياض عدة آلاف من الأدوات الحجرية المختلفة التي تعود إلى العصر الأشولي الأوسط وذلك أثناء عمليات حفر تجري هناك.. وقد لاحظ فريق من خبراء الآثار التابعين للادارة العامة للآثار أن مواقع هذه الأدوات توجد على شاطىء واد سحيق القدم، حيث عثر على مواقع شلالات مياه قديمة بالقرب من قاطع طويل يتجه من الشرق إلى الغرب.

كما اكتشفت منطقة أثرية شمال مدينة المذنب التي تقع غير بعيد عن مدينة الرياض، وقد احتوت المنطقة المكتشفة على مقابر وبيوت سكنية قديمة جدا وقطع فخارية وأجزاء من الأدوات الشعبية التي كانت تستخدم في غابر الزمان، وبعض البوابات والمداخل التي تحتوي على ملامح فنية.

الحماية العثمانية للتجار الفرنسيين

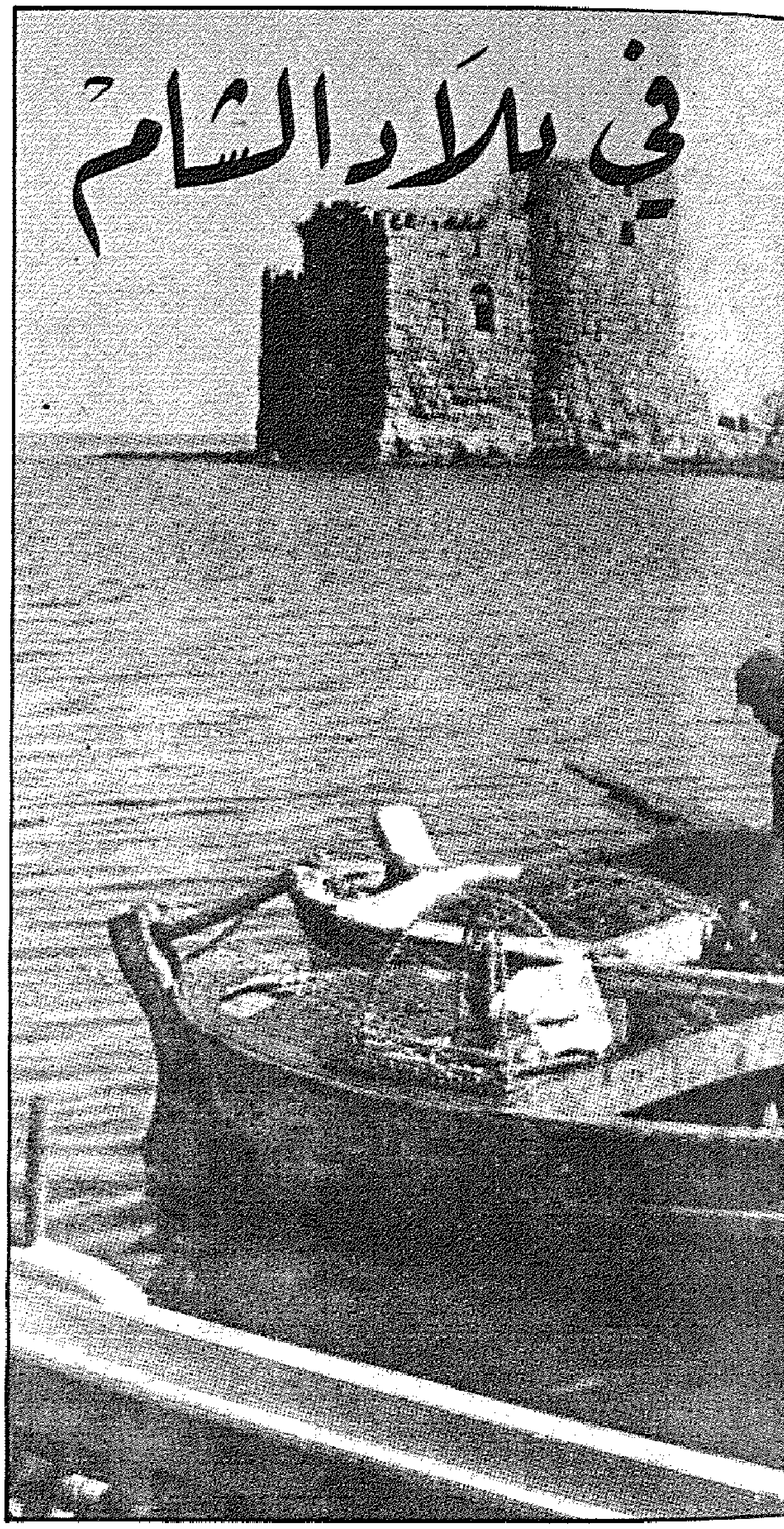
د. حسين سلمان سليمان



معاهدة الامتيازات

لم تشكل حركة التبادل التجاري مع مصر والمغرب وبلاد العرب الجنوبية، إلا نسبة ضئيلة من العلاقات التجارية لبلاد الشام مع تلك البلاد، في حين تركز الجانب الأكبر من حركة المبادلة التجارية الشامية مع الدول الأوروبية. وكانت تقوم بها جاليات استقرت في مختلف المدن والموانىء العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر، بموجب معاهدة الامتيازات التي عقدها الملك الفرنسي فرنسوا الأول (١٥١٥ ــ ١٥٧٤) مع السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) سنة ١٥٣٥. ثم لم تلبث أن تطورت هذه المعاهدة بعقد اتفاقات أخرى، ضمنت كلها لرعايا فرنسا، حرية الملاحة والتجارة والسفر مع تركيا[1]، ولم يسمح السلطان العثماني إلا للبنادقة والانجليز والهولنديين من الاستفادة من هذه الامتيازات[2].

وأوكلت مسؤولية معاملات تجارة فرنسا مع العثمانيين، إلى هيئة مميزة على رأسها وزير البحرية، كانت ترد إليها الرسائل بدون انقطاع



من المراكز القنصلية الفرنسية في المشرق. مما يدل على مدى يقظة وعناية الوزير بكل تفاصيل المهمة التي أسندت إليه، ومعرفته التامة بكل ما يحصل في الموانىء العثمانية، وأسماء رعايا الملك الفرنسي المقيمين في هذه الأنحاء البعيدة. وساعد الوزير موظف ذو سلطة مطلقة، مقره في غرفة تجارة مرسيليا، التي انشئت في عام ١٦٥٠، بهدف الاهتمام بصورة رئيسية فقط بتجارة المشرق، لأن المدينة كانت مستودعا لتلك التجارة(٣).

وكان ينوب في المشرق عن غرفة تجارة مرسيليا، سفير أو قنصل أو نائب قنصل، وكان الأول يسهر على تنفيذ الأوامر الملكية والقرارات الوزارية. ويعين القنصل الملك أو السفير حسب أهمية المركز، ومن واجباته تبادل الرسائل معهما، وأن يخضع لسلطتهما وتمثيلهما أمام التجار، الذين كان يتم اختيارهم بدقة متناهية. إذ لم يكن يسمح لأي تاجر فرنسي بالاقامة في المشرق، ما لم يكن مصحوبا باذن صادر من غرفة تجارة مرسيليا. وهذه لا يمكنها منح الاذن أو تجديده لأي تاجر، إلا بعد التحري عنه بدقة، ولا تسلمه الاذن إلا بعد تقديم ضمانات، والأفضلية للشباب المنحدرين من عائلات عريقة في حقل التجارة. ولا يسمح لهم باستصحاب زوجاتهن إلا إذا كن في سن متقدمة، كما يحظر عليهم اصطحاب فتياتهن الغير متزوجات، وإنما يجب ابقاءهن في أحد الأديرة. كما حظر على التاجر الفرنسي المقيم في المشرق، أن يتزوج من نساء البلاد، نظراً لعادة المشرقيات القريات التزين بأحجار كريمة يقارب قيمتها من ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قرش، يمكن أن تشكل ثروة في أيدي زوجها إذا استثمرت في التجارة. كما نصت القوانين على العديد من الأمور المنوعة، وذلك لابعاد التجار عن كل ما من شأنه أن يسبب لهم مضايقات. ولهذا الهدف نفسه نظم الوزير حياة التجار الخاصة، فحرم عليهم لعب الميسر، وترك الزي الأوروبي، والتجمع في أماكن التسلية، وكل من يخالف هذه الأوامر يحق للسفير أو القنصل تسفيره إلى فرنسا(٤).

الحي والخان الفرنسي

وشكل الفرنسيون في كل أسكلة(٥) طائفة أو تجمع واحد يعيشون فيه متضامنين، وأقاموا في المدن الكبرى في حي خاص، بحيث أن الفرنسي الذي يدخله يعتقد أنه في وطنه. إذ لا يشاهد في هذا الحي، ما يشاهد في باقي أحياء المدن الشرقية، من قصور وأكواخ، وشوارع ضيقة متسخة، وفوضى سائدة في كل مكان، فشوارع الحي الفرنسي مقتنى بها جيدا، مضاءة بالليل، ويسهر على تأمين السكان حراس خصوصيين، وتلتف المنازل حول الكنيسة، ويرفرف فوق منزل القنصل العلم الفرنسي(٦).

وفي المدن الصغرى يتجمع الفرنسيون في مبنى واحد يدعى الخان، وهو عبارة عن بناء كبير في وسطه ساحة كبيرة مربعة الشكل تدعى الحوش، ويحيط بهذا الحوش رواق على الجوانب الأربعة، ويرتفع الرواق على أعمدة، وينزل التجار في غرف الطابق العلوي المطلة على الحوش. وخصص الدور الأرضي ليكون مستودعات ومخازن لبضائع الفرنسيين المقيمين في الخان(٧). وقدصمم الخان بطريقة تسمح له بصد أي هجوم قد يتعرض له، فأبوابه صلبة متينة، وجدرانه سميكة قادرة على مقاومة الحريق والصمود أمام الحصار وحفظ الطائفة من الأذى. واعتادت الطائفة أن تقفل أبواب الخان، بعد أن تتزود بالمؤن اللازمة، بمجرد أن يظهر وباء في البلاد، فتعزل نفسها لمدة عدة أشهر عن كل اتصال مع المدينة الموبوءة، وأحيانا أخرى أن تهاجر جميعها، وتختار مقرا مؤقتا في بعض الأماكن المرتفعة المجاورة(٨). وقد ترك لنا الدبلوماسي الفرنسي (Paradis) وصفا للخان الفرنسي في صيدا وما كان يجري به من نشاط تجاري خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

«... **يقيم القنصل والتجار في صيدا في خان واسع ولطيف، احدى حسناته انه حصين لحمايته من هياج شعبي. ويعتبر القنصل بالنسبة للجالية، الشخصية الأولى في المدينة بعد الباشا. والتجارة مفيدة لكل السكان، وللحاكم الذي تعود إليه عائدات الجمرك...**»(٩).

ويعيش الفرنسيون في هذه الأحياء والخانات أشبه بحياة الرهبان والجنود، فيتوجب عليهم قلة الخروج من هذه الأماكن المخصصة لسكناهم، وعدم الاختلاط بالسكان إلا بهدف التجارة. وهناك ظروف يتوجب فيها على الطائفة الفرنسية أن تتخطى حدود الحي أو الخان، للقيام بواجب تحية باشا جديد، وتوجيه احتجاج، أو الاشتراك باحتفال. فتظهر كجسم واحد، مصطفة في شوارع المدينة في مظهر شبه عسكري، يتقدمهم العلم الفرنسي وعلى رأسهم القنصل ممتطيا جواده وسط انكشاريته(١٠).

وكانت خزينة الطائفة بمثابة منجم لا ينضب في نظر الباشا والمتسلم(١١) والموظفين وقادة



□ فرنسوا الأول.

الانكشارية(١٢)، فهو وسيلة استرزاق تثير عندهم الطمع والاغراء. ففي البداية جرت العادة أن يسحبوا مبالغ على شكل هدايا، تطلب بالحاح تحت اسم «عادة»، وهي غالبا ما تكون مطالب متشددة تحت حجج مختلفة، فأي فرنسي يدخل إلى الخان في ساعة متأخرة يتهم بأنه كان يغازل سيدة مسلمة، فيفرض الباشا على الطائفة كلها غرامات مرتفعة جدا، ويتكرر هذا السلوك دائما إلى حد أنه اخترع تعبير خاص للدلالة عليها، وصارت كلمة ظلم تعني في لغة الطائفة الفرنسية تنكيد تعسفي، وأحيانا يرفع الباشا ضرائب الديوان دون سبب ودون حساب. ومع ذلك فلم تكن الطائفة تقف مكتوفة الأيدي ازاء البلية النازلة عليها، دون أن تدافع عن نفسها، فتحتج وتناقش وتستعمل حيل ومؤامرات وتدخل في صراع، أحيانا تصل فيه إلى نتائج ايجابية وأحيانا أخرى تخرج منه خاسرة، وتلجأ إلى السفير الفرنسي في الأستانة، ليستصدر من الباب العالي(١٣) أمر بوقف المظالم المذكورة(١٤).

براءة شغل المنصب

وانقسمت المؤسسات الفرنسية في المشرق، إلى قنصليات عامة ونيابة قنصليات، وكانت حلب مركز قنصل عام فرنسا في بلاد الشام، ويخضع لسلطته قنصل في طرابلس وآخر في صيدا، نقل

مصادر الوثيقة: أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية.
وحدة الحفظ: المراسلات السياسية سجل رقم ٣٢ (C.P. Tuquie -ièces Divers en lanque Arabe.)
عنوان الوثيقة: غينر يشغل منصب قنصل طرابلس مكان والده المتوفي.

قدوة الملة المسيحية وعمدة طايفة العيساوية محبنا المحتشم وكيل قونسلوس طايفة الفرنساوية بمحروسة طرابلس حالا شارلو كيز ختمت عواقبه بالخير والرشاد.
بعد السؤال عند خاطركم والاستفسار عند أحوالكم المنهى لمحبتكم وصلنا تحريركم المتضمن موت والدكم قونسلوس طرابلس وأن بحسب القوانين المرتبة من جانب دولتكم ملتزمين تنوبوا بمكان والدكم وتتعاطوا وكالة القونسلية وأبقيتم اخيكم في اللاذقية وكيلا بمكانكم والتمستم من طرفنا المساعدة واجرا المحبة كما كانت بيننا وبين والدكم جميع ذلك صار معلومنا وتأسفنا على موت والدكم لكون شاهدنا منه السلوك الحسن بمدة اقامته ولكن هذا تقدير العزيز الحكيم (؟) بحوله تعالى تنالوا رتبته من طرف دولتكم وبخصوص المساعدة والاسعاف الذي يلزم وإلى محبينا طايفة الفرنساوية بمنه تعالى ما يصير من طرفنا اغضاء به ودايما مهما جد لكم من المسولات المقتضى تحريرها لطرفنا عرفونا عنها وبحوله تعالى مقرونة بالاسعاف من لدنا هذا ما لزم تحريره لمحبتكم والسلام على من اتبع الهدى ٢١ شوال ١٢٢٧.

وهو طبق أصله

محرره
حنا
(؟)
كاتب عربي

من مجموعة د. حسين سلمان سليمان.

الأخير بعد عام ١٧٧٦ إلى عكا وتحولت صيدا إلى نيابة قنصلية، ثم أقيمت في بيروت قنصلية سنة ١٨٢٢. ولا يمكن لأحد أن يشغل أي من هذه المراكز، إلا بموجب «براءة»[١٥]، يستحصل عليها السفير الفرنسي في الأستانة من الباب العالي. ومن أهم واجبات من يشغل هذا المنصب، السهر على تنفيذ مبادىء نظام الامتيازات، واعلام السفير الفرنسي في الأستانة بكل ما يحصل من أمور هامة في الولاية التي يقيم فيها، وأن ببيانات دورية عن حالة الملاحة والتجارة في الدائرة التابعة له. وأن يدرب أحد أبنائه أو أقربائه على الأعمال القنصلية، ودراسة اللغات الشرقية وعلى الأخص التركية، ونقله باستمرار من ولاية لأخرى لاستكمال معارفه، وحين تبرز كفاءاته يرشحه رؤساؤه لمنصب نائب قنصل أو قنصل ويؤكد ذلك رسالة من السفير الفرنسي في الأستانة إلى حكومته[١٦].

«... اقترح أن يعين لولاية عكا قنصل واحد يقيم في بيروت، أرشح لهذا المنصب السيد (ديبون) الذي يجيد لغة وعادات البلاد، وهما أمران يكفيان لتسهيل أعماله، كما ادار سابقا بشكل مرض نيابة قنصلية اللاذقية وبيروت...»[١٧].

واحتاجت الأعمال القنصلية في الأساكل المشرقية إلى مترجمين، ونظرا لتعرض أبناء البلاد المحليين من نصارى ويهود لظلم السلطات العثمانية أثناء قيامهم بواجباتهم؛ استعين بفرنسيين يؤتى بهم في سن العاشرة، فيوضعون في أديرة الآباء الكبوشيين في أزمير وأنقرة، لاجادة لغة البلاد وللعمل فيما بعد كمترجمين، ولكن الاستعانة بهؤلاء لم تسد الحاجة. فعقد اتفاق مع الباب العالي جاء فيه أن المترجمين من ابناء البلاد، يتمتعون بحماية الدولة التابعة لها السفارة أو القنصلية، على أن يقوموا بأعمال الترجمة، ويعفون من كل الضرائب التي يدفعها الرعايا من خراج وخلافه ولا يخضعون للقضاء العثماني، ويتمتعون بكل الامتيازات التي يتمتع بها أبناء الدولة الحامية، ويتم اختيارهم من قبل

السفراء والقناصل، بعد موافقة الباب العالي بموجب براءة. ثم لم تلبث أن امتدت الحماية، إلى الوكلاء القنصليين وإلى خدام السفارة أو القنصلية[١٨].

وقد أستعين بالوكلاء القنصليين منذ نهاية القرن السابع عشر، فقد اقتضت مصلحة حماية المصالح الفرنسية البسيطة في بعض الموانىء العثمانية، أن تعهد الحكومة الفرنسية إلى نصارى من أبناء البلاد، بمهمات وكلاء قنصليين. ولم يكن لهم لقب قنصل ويقومون بأعمال غير مهمة للغاية، وليس لهم أية سلطة حقوقية على أبناء الطائفة الفرنسية في الميناء، ولا صلاحيات رسمية مع السلطات العثمانية. وحددت وظيفتهم في استقبال قباطنة السفن الفرنسية الذين يرسون في الأسكلة، وتزويدهم بالمؤن وتسهيل اصلاح مراكبهم عند الحاجة، واعطاءهم معلومات عن حالة الملاحة مقابل رسم معين من قباطنة المراكب المذكورة[١٩].

ومن بين الذين أسند إليهم منصب نائب قنصل فرنسا في حلب سنة ١٦٥٥ الشيخ أبانوفل نادر الخازن من كسروان، ثم عين سنة ١٦٦٢ قنصلا في بيروت وتوارث أحفاده هذا المنصب حتى سنة ١٧٥٨[٢٠]، وظل هذا المنصب شاغرا إلى سنة ١٧٨٧ حين شغله الشيخ سعد الخوري مدبر أمير جبل الدروز يوسف الشهابي[٢١].

وكما ذكرنا فقد كان يتم تعيين المحمي العثماني من هؤلاء بموجب براءة صادرة عن السلطان أو الباب العالي، وتكون ملكا للسفارة التي أعطيت لها، وإذا توفي حاملها أو أوقف عن العمل، يستخدمها السفراء كتجارة رابحة، فيبيعونها إلى تجار محليين أغنياء مقابل مبلغ متواضع، ويصبح هؤلاء الأخيرون معفون من الضرائب والملاحقة القضائية. وصارت هذه البراءات تسلم للقادر على شرائها، وغالبا ما كانت تمتد إلى عائلة المستفيد منها ووراثية. وبذلك تحولت من وسيلة لتسهيل أعمال السفراء والقناصل، إلى أداة سياسية. واستخدمتها روسيا في وقت متأخر في اليونان، فصار لها معاهدة كوتشك قينارجة[٢٢] (Kûchük Kaynarja) سنة ١٧٧٤ أكثر من سبعة ملايين زبون من أرمن ويونان[٢٣].

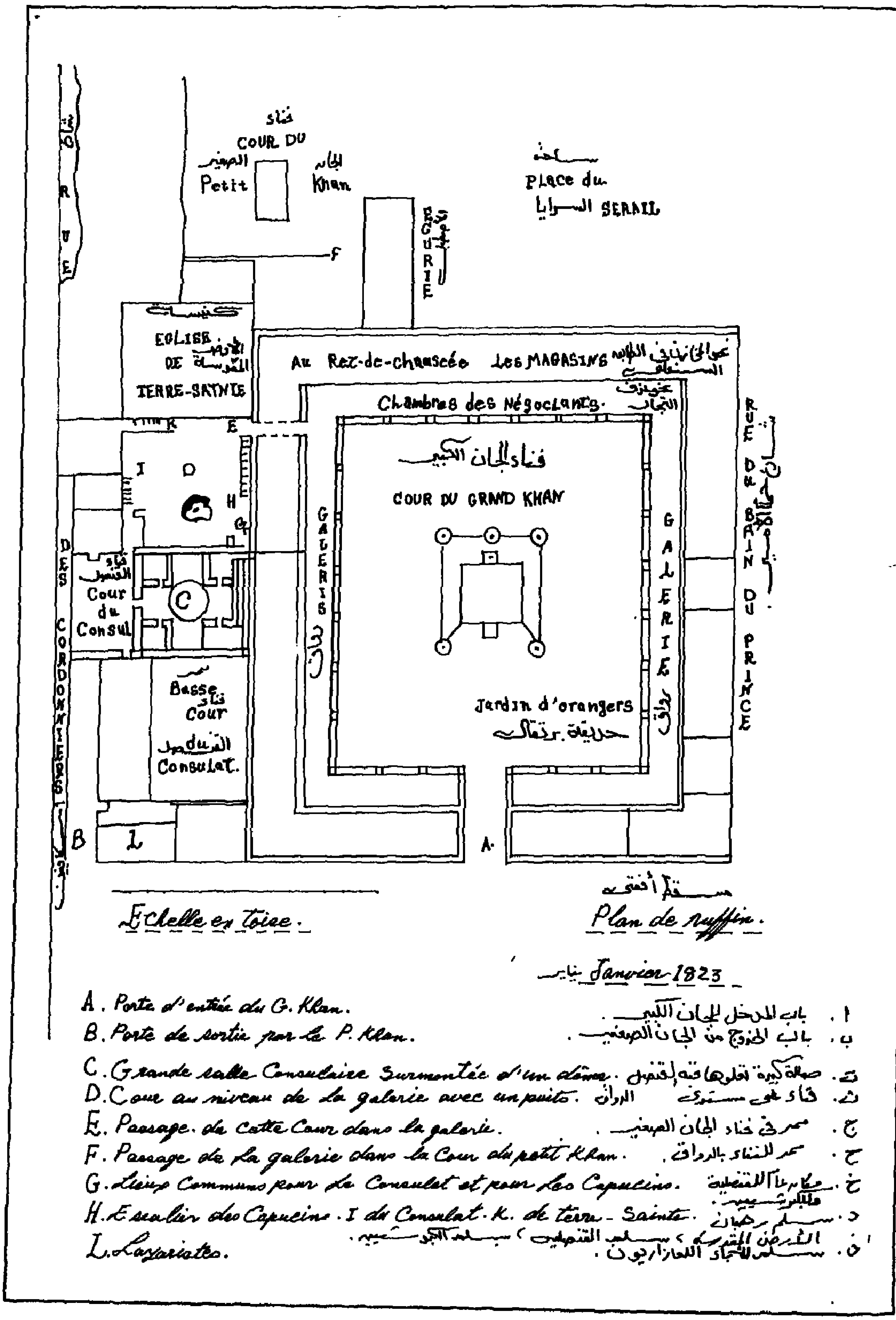
وتمتع المحمي العثماني بموجب البراءة، بالحقوق نفسها التي منحتها الامتيازات لطوائف القوى الحامية. من حرية الاقامة، والتجول في كل أطراف الامبراطورية العثمانية، وحرية التجارة والحرية الدينية وحرمة المنازل، والحصانة في القضاء المدني والجزائي. والاعفاء من الضرائب التي يدفعها النصارى واليهود من رعية السلطان، ومن الخدمة العسكرية[٢٤]. ولذا فليس غريبا أن يقول القنصل الفرنسي (هنري غيز)[٢٥]. بأن أجمل أحلام العربي أن يحصل على براءة، وأن يبذل في سبيل ذلك بكل ما يملك من قوى ووسائل، وبأن يتهافت على شرائها كل مستطيع، مهما بلغ ثمنها. ويؤكد ذلك أيضا تعهد كتبه على نفسه أحد النصارى إلى القنصل الفرنسي في يافا سنة ١٨٢٢.

«... لقد تكلمت أنا المحرر اسمي... مع... قنصل دولة فرنسا، وطلبت منه أن يشرفوني في برايا شريفة... حماية دولة فرنسا... قدر ما يكون غرش حكم البرايا الشريفة التي يخرجوهم... ندفعه حالا بزيادة...»[٢٦].

دور المبشرين النصارى

ومن أهم الواجبات الملقاة على القناصل الفرنسيين ونوابهم في بلاد الشام، حماية رجال الدين الكاثوليك والموارنة، الذين كانوا يتعرضون كغيرهم من سكان بلاد الشام، لظلم السلطات المحلية العثمانية، مما دفع ملكي فرنسا لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ــ ١٧١٥) ولويس الخامس عشر (١٧١٥ ــ ١٧٧٤) إلى اصدار براءات، من الباب العالي إلى الولاة العثمانيين، بعدم ازعاج الموارنة واعلامهم بأن هذه الطائفة تحت الحماية الفرنسية[٢٧]. وبالرغم من هذه الحماية فقد كان للروم في معظم المدن العثمانية، الحق في طرد أتباع الكنيسة الموحدة، وعلى الأخص في طرابلس واللاذقية وأنطاكية، فيقوم هؤلاء باللجوء إلى المبشرين والقناصل الفرنسيين، حيث يجدون الحماية والمعاملة اللائقة[٢٨].

فقد استفاد المبشرون النصارى من نظام الامتيازات الأجنبية المعقود بين فرنسا والدولة العثمانية، فتوافدوا على بلاد الشام للقيام بالتبشير تحت الحماية الفرنسية. فتقربوا من



مسطح القنصلية الفرنسية في صيدا

السكان وأظهروا التواضع أمامهم، وتكلموا معهم بلغتهم، وزاروهم في المناطق النائية. وتمكنوا بمرونتهم ومهارتهم من اكتساب رضى الولاة وعالجوهم في مرضهم، وانشأوا المستشفيات وافتتحوا المدارس. ووجدوا في البداية مصاعب كبيرة، ولكن ما لبثوا أن صاروا مقبولين ومطلوبين، فانتشروا تدريجيا في كل الولايات الشامية، تسندهم حماية فرنسا التي كانت تشجعهم وتعمل لصالحهم[٢٩].

وكانت فرنسا المستفيد الأول من انتشار هؤلاء الرهبان، فقد ظهرت في الشرق كملجأ للنصارى عامة. وكان المبشرون يقوون هذا الشعور، عن طريق الدعاية المستمرة، بأن سيادة الملك الفرنسي الذي لا يقهر وحدها القادرة على تخليص النصارى[٣٠].

وبازدياد أعداد المبشرين حققت فرنسا مكاسب في المشرق عن طريقهم، فزالت اللغات الايطالية واليونانية وانتشرت اللغة الفرنسية، كما جنت التجارة الفرنسية مكاسب كبيرة، فقد كانوا بمثابة عملاء يمدون الحكومة الفرنسية بما يعلمون عن البلاد التي يعيشون فيها، من حيث انتاجها وحاجاتها والمجالات «التي يمكن لتجارتنا أن يحققوا فوائد منها، وبفضل جهودهم المستمرة وتجاربهم تمكنت تجارتنا أن تروج سلعنا وبأسعار مرتفعة»[٣١]. فنشطت تجارة مرسيليا مع بلاد الشام، وحققت ازدهارا لم تشهده مدينة في العالم[٣٢].

احتكار المعاملات التجارية

وبذلك تركزت تجارة بلاد الشام بيد الطائفة الفرنسية، يساعدها في ذلك بداعي المصلحة والتعاطف الديني الواحد، النصارى من أهل البلاد وكذلك اليهود، فاحتكروا معا كل المعاملات التجارية في حين لم يتعاط بها إلا قلة من أبناء البلاد المسلمين. وليس مرد ذلك إلى أمور دينية أو اهمال، ولكن بسبب الصعوبات التي كانت تضعها الحكومة العثمانية. فبدلا من أن يعطي الباب العالي إلى رعاياه الأفضلية في ممارسة النشاط التجاري، حظي بهذا المكسب الأجانب، الذين نجحت حكوماتهم في تخفيض الضريبة إلى ٣ ٪ من قيمتها، في حين كان يدفع أبناء البلاد ٧ ٪. كما أعفي الفرنسيون من دفع ضريبة على البضائع التي استوفي عليها رسم في أحد الموانىء العثمانية، في حين كان يدفع هذه الضريبة رعايا السلطان[٣٣].

وساعدت هذه الحماية، على بروز عدد من التجار المحليين من النصارى أبناء البلاد، فصاروا يمارسون التجارة مع أوروبا بأسمائهم، مستفيدين من الخفض النسبي للرسوم المفروضة على صادراتهم ووارداتهم، وتمكنوا بهذه الطريقة أن يعرضوا بضائعهم، بأسعار أقل من تلك التي يعرضها منافسوهم المتمتعون بالجنسية العثمانية[٣٤]، فحققوا بذلك أرباحا طائلة. مما دفع بعض التجار ممن لم يتمتعوا بالحماية الفرنسية، السعي إلى استعارة اسم أحد الوكلاء القنصليين، وصاروا يمارسون التبادل التجاري مع مرسيليا، مقابل أن يدفعوا للوكيل تعويضا ماليا قدره ٥ ٪ من قيمة الفاتورة. مما أثار قلق وكيل تجارة فرنسا في دمشق، فكتب إلى حكومته منبها، في أن الخطر الناجم من هذا التطور ليس في كمية البضائع التي سوف يصدرها هؤلاء، ولكن من الخبرة التي سوف يكتسبونها عبر علاقتهم المباشرة مع مرسيليا[٣٥]. وأكد ذلك أسعد الخياط[٣٦] المعاصر لهذه الفترة التاريخية بقوله:

أثار ذلك حسد التجار الأجانب فقالوا يتاجرون أيضا في هذه القارة من العالم، ومن يتكهن فقد يتنور هؤلاء ويتبعون طريق أسلافهم الفينيقيين، ويقبضون على عنان التجارة في الشرق والغرب.

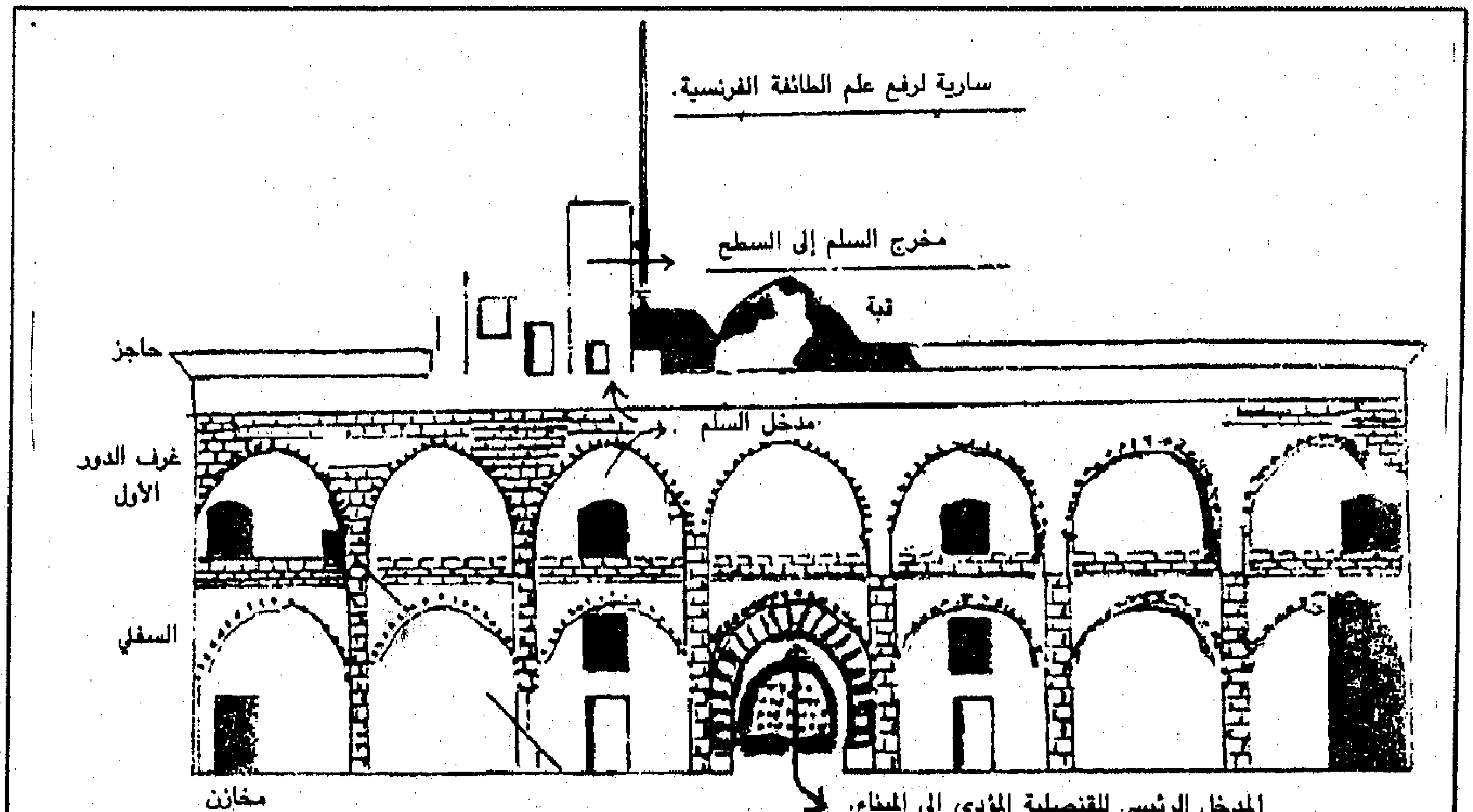
المبادلات التجارية مع أوروبا

وكانت كل بالة قماش تخرج من مصانع اللانفسدون والبروفانس لترسل إلى المشرق، تخضع للتدقيق قبل أن تعطي الاذن بالتصدير. ولكي ترسل إلى الموانىء العثمانية يجب أن تخرج من مرسيليا فقط الباب الوحيد المفتوح نحو المشرق، حيث تخضع مرة ثانية للتدقيق، ثم تعطي الاذن بالتصدير، من مؤسسة تشرف على البضائع المرسلة إلى الشرق، وينحصر عملها بمنع تراكم البضائع في الأساكل لكي لا يؤدي



□ لويس الرابع عشر.

□ واجهة مبنى القنصلية الفرنسية في صيدا.
نقلا عن ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مجموعة المراسلات القنصلية تركيا (C.C) سجل رقم ٢٧. وضعه القنصل (Ruffin) في كانون الثاني (يناير) عام ١٨٢٣.





□ تاجر فرنسي من اساكل المشرق.



□ السلطان سليمان القانوني.

ذلك إلى انخفاض أسعارها، لأن التصدير يجب أن يتناسب مع الاستهلاك(٣٧).

واستورد التجار الفرنسيون من أوروبا عن طريق موانىء بلاد الشام، الصلب والابر وحجر الشب ومراسي المراكب والكحل والفضة وخشب البرازيل والبقيم (نوع من القرنيات) والحبال والبن الأميركي والأوراق البيضاء والسمراء والنيلة والمرجان والدبابيس والقصدير والحديد الأبيض وقضبان الحديد على أنواعها والبلاتين والفضة والبنادق والمسدسات والبارود والخردق والرصاص والكبريت وورق اللعب (كوتشينة) والعباءات والأجواخ الرقيقة والساتان والمخمل ودودة القرمز وحجر الشب والخردة والنيلة والنرنجيل والأشربة وخلافها من أشكال الأطعمة والسكر والساعات الذهبية والقرنفل. وكان يجري نقل جانب كبير من هذه السلع المذكورة عن طريق القوافل إلى دمشق وبغداد، فتبادل عليها بسلع أخرى مطلوبة من التجار الأوروبيين، مثل القمح والزيت والحرير وقطن عكا والصمغ، والعقاقير التي تأتي من اليمن عن طريق القوافل القادمة من مكة، وكذلك سلع الهند وفارس من مجوهرات وريش وأقمشة، يضاف إليها منتجات مقاطعات مرتفعات وساحل لبنان، من قطن وحرير وعفص ورماد وشمع واسفنج وزيت، وأرز من مصر، وتصدر جميعها إلى أوروبا(٣٨).

وقدرت حركة طرابلس التجارية لعام ١٨٢٥ بالفرنك الفرنسي:

ثمن زيت ٢ مليون.
ثمن صابون ١ مليون.
ثمن أحزمة حرير ٥٠٠ ألف.
ثمن اسفنج ٣٣٠,٠٠٠.
ثمن قلي ٢٠٠,٠٠٠.
ثمن برتقال وليمون ٥٠,٠٠٠(٣٩).

ويستدل من حركة التبادل التجاري مع أوروبا، بأن الفوائد التي كانت تعود من ورائها ضئيلة، فقد تألفت الواردات من المواد الصناعية والكماليات للأغنياء، على حين أن الصادرات تتكون من مواد خام غير مصنعة، مما كان يعود بالضرر على الصناعة والرخاء الاقتصادي لبلادنا، يضاف إلى ذلك أنها أرهقت توازننا النقدي، ويحتمل أن يكون هذا أحد الأسباب للهبوط في قيمة العملة الفضية في القرن الثامن عشر(٤٠). ●

الهوامش

(١) Dambman et Noel Verney, Les Puissances étrangères dans le Levant, en Syrie et en Palestine. Paris, 1900. pp. (79-80).
(٢) Vandal, (A)., Une Ambassade Française en Orient sous Louis XV..., p. 17.
(٣) Ibid. pp. (17-19).
(٤) Ibid. pp. (19-21)
(٥) الأسكلة. ميناء او مدينة مشرقية كان يتم فيها مبادلات تجارية مع الغرب.
(٦) Vandal. op.cit. pp. (21-23).
(٧) جان سوفاجيه. دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر. تع. فؤاد افرام البستاني، المشرق م ٣٤، ص ٢٠١، سنة ١٩٣٦.
(٨) Vandal. op.cit. pp. cit. pp.(23-26).
(٩) PARADIS, (Jean Michel, Venture de) Observation sur la côte de Syrie M.S. conservé à la Bibliothèque National de Paris N 9135/n.a.F.., ff (68v-70v).
(١٠) Vandal. op.cit. p. 23.
(١١) المتسلم. شغل هذا المنصب موظفان كان كلاهما بمثابة نائب للوالي، فقد أطلق هذا اللقب على حكام السناجق أو المقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة، وايضا على نائب الوالي في عاصمة الولاية.

(١٢) الانكشارية. حرف المؤرخون العرب هذه الكلمة عن اصلها التركي، فأصبحت تعرف بالانكشارية، ويكاد يكون القصد من تحريفها هو تعريبها، ويبدو أن شكل كتابة الكلمة قد ساعد على تحريفها، فهي تكتب «يكنجري» وتلفظ «يني تشري»، لأن حرف ك في اللغة التركية القديمة يلفظ نونا، وحرف ج الفارسية يلفظ تاء وشينا. وعليه فان كلمة «يكنجري» مؤلفة من مقطعين الأول «يكني» بمعنى جديد أو حديث، والثاني «جري» بمعنى جندي، فيكون المعنى: الجند الجديد او العسكر الجديد. عبد العزيز عوض. الادارة العثمانية، ص ١٣.

(١٣) الباب العالي. كناية عن مبنى كبير أقيم في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٤٨ ــ ١٦٨٧)، خصص جناح منه ليقيم به الصدر الأعظم مع اسرته وخدمه وحرسه، وخصصت باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة الذين يقومون بتصريف مهامها. وغدا اسم هذا المبنى «باشا قابيي» أي بوابة الباشا، و «بابي عالي» أي بوابة عليا، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي.

(١٤) Vandal. op.cit. pp. (26-27).

(١٥) براءة. من كلمة براءة العربية بمعنى ميزة أو اعفاء، وبالتالي شهادة تعطى الاعفاء أو الميزة. انظر: جب وبون، هاملتون وهارولد. المجتمع الاسلامي والغرب. تر. احمد عبد الرحيم مصطفى، جزءان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ ــ ١٩٧١. ج١ ص ١٧٤.

(١٦) دار الوثائق القومية في باريس، مجموعة (B7. 452 Marine) Ordonnance du Roi.

(١٧) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة المراسلات التجارية والقنصلية (C.C.C) الصادرة عن الأستانة بتاريخ ١٣/٩/١٨٢٧ رقم ٤٥.

(١٨) Pelissé du Raussas, (G)., Le Regime des Capitulations dans L'Empire Ottoman, 2vols, Paris, 1902-1905. Voir pp. (23-27).

(١٩) Ibid. pp. (27-28).

(٢٠) رينيه ريستلهوبر. تقاليد فرنسا في لبنان. حريصا، سنة ١٩٢١ انظر ص (١٤٨ ــ ١٥٦)؛ راجع نص الوثيقة لدى Ismail. op.cit. t. 4, p. 35.

(٢١) شيبان الخازن، تاريخ شيبان. مخ.، نشر في مجلة **الأصول التاريخية**، م ٣، سنة ١٩٥٨، انظر ص (٣٠٢ ــ ٣٠٣)؛ ادوارد لكوروي. احمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين. تر، جورج مسره، ساو باولو (البرازيل)، سنة ١٩٢٤؛ راجع النص الكامل لرسالة البراءة في بطرس غالب. صديقه ومحاميه، بيروت، ١٩٢٤، ص (٢٤٠ ــ ٢٤١).

(٢٢) اعترفت تركيا باستقلال شبه جزيرة القرم عنها، فضمتها الامبراطورة كاترين إلى روسيا بعد ذلك بتسع سنوات. كما سمح لروسيا بانشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية، والحق لرعاياها التجارة في املاك هذه الدولة، وإقامة كنيسة ارثوذكسية في القسطنطينية، وحق رعاياها بالحج إلى الأراضي المقدسة المسيحية التي تقع في الممتلكات العثمانية. عمر عبد العزيز عمر. دراسات في تاريخ العرب الحديث، ج ١، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧١، انظر ص ١٢٢.

(٢٣) Rausas. op.cit. pp. (33-34).

(٢٤) Ibid. p. 57, Wood, Alfred. A History of the Levant Companie, Oxford University presse, 1955. See p. 135.

(٢٥) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، ج ١، ص (١٤٩ ــ ١٥٠).

(٢٦) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (BE.1) محفظته رقم ١٢، تقرير صادر من بيروت بتاريخ ؟/١٠/١٨٢٨.

(٢٧) أنظر النص الكامل لهذه الوثائق لدى: Ismaîl, Adel., Documents Diplomatiques et Consulaires..., 28 vols, Ed., des œuvres politiques et historiques, Beyrout, 1975-1983. Voir t. 4, pp. (22-26) et t. 5, pp. (175-179).

(٢٨) Guys, Henry., Exquise de l'état politique et Commercial de la Syrie, Paris, 1862. Voir pp. (110-143).

(٢٩) Vanda. op.cit. pp. (9-12).

(٣٠) Ibid. p. 15.

(٣١) Lamy, Etienne. La France du Levant, Paris, 1900. Voir. pp. (273-274).

(٣٢) Julliany, Julles. Essai sur le commerce au Marseille Jusqu'en 1841, 3 Vols., Paris, 1842-1843. Voir V. 2, p. 266.

(٣٣) Loc.cit.

(٣٤) جب وبون. المجتمع الاسلامي والغرب. ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى، جزءان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١ ــ ١٩٧٢. انظر ج ٢، ص (١٦٢ ــ ١٦٣).

(٣٥) أرشيف غرفة تجارة وصناعة مرسيليا، مذكرات عن تجارة دمشق، تقرير مؤرخ في ٢٠/١/١٨٢٦.

(٣٦) صوت من لبنان، تر.، مخائيل صوايا، بيروت، سنة ١٩٥٧، أنظر ص ٣٠.

(٣٧) Vandal. op.cit. pp. (27-30).

(٣٨) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة المراسلات التجارية والقنصلية (C.C.C) الصادرة عن حلب بتاريخ ١٠/٧/١٨١٦ و ٢٥/٢/١٨٢٥.

(٣٩) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D.) Turquie وثيقة رقم ٣٦ مؤرخة في ١/٩/١٨٣٣.

(٤٠) جب وبون. مرجع سابق، ج ٢، ص (١٥٨ ــ ١٥٩).

بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد (*)

لما أراد عبد الملك بن مروان الخروج إلى العراق لقتال مصعب[1] بن الزبير، وأخذ في جهازه أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية، امرأته، في جواريها، وقد تزينت بالحلي، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ لو قعدت في ظلال ملكك، ووجهت إليه كلبا من كلابك لكفاك أمره، فقال: هيهات! أما سمعت قول الأول:

قومٌ إذا ما غزَوْا شدُّوا مآزرَهم
دونَ النساء ولو باتتْ بأطهارِ

فلّما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواريها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي ربيعة؛ كأنه ينظر إلينا حيث يقول:

إذا ما أراد الغزوَ لم يَثْنِ همَّهُ
حَصَانٌ عليها نظْمُ دُرٍّ يزينُها
نَهَتْهُ فلما لم تَرَ النَّهْيَ عاقَهُ
بكتْ فبكى مما دهاها قَطينُها[2]

ثم خرج يريد مصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق، وخالف عليه، فقيل له: ما تصنع؟ أتريد العراق وتدع دمشق؟ أهل الشام أشد عليك من أهل العراق. فرجع مكانه، وحاصر أهل دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده، وأن له مع كل عامل عاملا ففتح له دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد، فأرسل اليه عبد الملك: أن أخرج للحرس أرزاقهم. فقال: إذا كان لك حرس فان لنا حرسا أيضا، فقال عبد الملك: أخرج للحرس أرزاقهم.

فلما كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار. أن ائتني أبا أمية حتى أدبر معك أمورا، فقالت امرأته: يا أبا أمية؛ لا تذهب إليه، فانني أتخوف عليك منه، فقال: والله لو كنت نائما ما أيقظني! قالت: والله ما آمنه عليك، وإني لأجد ريح دم مسفوح؛ فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها.

فخرج وخرج معه أربعة آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يقدر على مثلهم، مسلحين، فأحدقوا بخضراء دمشق، وفيها عبد الملك، فقالوا: يا أبا أمية، إن رابك ريب فأسمعنا صوتك، ثم دخل، فجعلوا يصيحون: يا أبا أمية؛ أسمعنا صوتك — وكان معه غلام أسحم[4] شجاع — فقال له: إذهب إلى الناس فقل لهم: ليس عليه بأس؛ فقال له عبد الملك: أمكراً عند الموت أبا أمية! خذوه، فأخذوه ثم قال له عبد الملك: إني أقسمت إن أمكنتني منك يد أن أجعل في عنقك جامعة[5]، وهذه جامعة من فضة، أريد أن أبر بها قسمي، وطرح رقبته في الجامعة، ثم نتره[6] إلى الأرض بيده، فانكسرت ثنيته[7]، فجعل عبد الملك ينظر إليه، فقال عمرو: ولا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر.

وجاء المؤذنون فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين — لصلاة الظهر — فقال لعبد العزيز ابن مروان: اقتله حتى أرجع إليك من الصلاة، فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه، قال له عمرو: نشدتك[8] الرحم يا عبد العزيز الا تقتلني من بينهم، فجاء عبد الملك، فرآه جالسا. فقال: ما لك لم تقتله؟ لعنك الله، ولعن أماً ولدتك! ثم قال: قدِّموه إلي، فأخذ الحربة بيده فقال: فعلتها يا بن الزرقاء، فقال له عبد الملك: إني لو علمت انك تبقى ويصلح لي ملكي لفديتك بدم الناظر، ولكن قلما اجتمع فحلان في ذَوْد[9] إلا عَدَا أحدهما على الآخر، ثم رفع إليه الحربة فقتله وقَعَدَ يَرْعَد، ثم أمر به فأدرج في بساط وأدخل تحت السرير.

وأرسل إليه قبيصة[10] بن ذؤيب الخزاعي فدخل عليه، فقال: كيف رأيك في عمرو بن سعيد الأشدق، فقال — وقد أبصر قبيصة رِجْلَ عمرو تحت السرير: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين، واطرح رأسه، وانثر على الناس الدنانير يتشاغلون بها، ففعل، وافترق الناس.

(*) العقد الفريد: ٣ — ١٥٢، الأمالي: ١ — ١٤.
(١) انظر صفحة ١٦٨.
(٢) القطين: الخدم.
(٣) الجهاز — بالفتح والكسر — للمسافر: ما يحتاج إليه.
(٤) الأسحم: الأسود.
(٥) الجامعة: الغل.
(٦) النتر: الجذب بجفاء.
(٧) الثنية من الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.
(٨) نشدتك: سألتك.
(٩) الذود من الابل: ما بين الثلاث إلى العشر.
(١٠) صحابي من الفقهاء الوجوه، كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام، وتوفي بدمشق سنة ٨٦هـ.

كيف تمّ تحرير باريس في ٢٣-٢٦ آب ١٩٤٤؟

د. رياض العالي



الذعر على الجمهور المقاوم.

كان الوضع العسكري بين الأول والخامس عشر من آب ١٩٤٤ يتطور لمصلحة الجيوش التي انزلت في النورماندي منذ السادس من حزيران. وقد سمح اختراق آفرانش للاميركيين إمكانية الخروج أقوياء من رأس الجسر والتغلغل داخل أرض فرنسا. كان الجيش الثالث يتقدم بقيادة باتون نحو برست ونانت، ثم ينعطف نحو الشرق. وكانت القوى الفرنسية العاملة من الداخل، تستخدم الاختراق الأميركي، وتجمع السجناء، وتؤمن تغطية جناح الفرق الأميركية الأيمن. وقدم فرنسيون آخرون يدعمون الجيش الثالث: ونزلت الفرقة الثانية المؤللة التي يقودها لوكلرك، في الأول من آب، مستعجلة الصدام مع العدو.

ولم يكن باتون أقل رغبة في إعطاء لوكلرك فرصة التحرير. وانضم اللواء الثاني إلى القوى التي كانت تحاول تطويق الجيش السابع الألماني بالتعاون مع الكنديين والبريطانيين، المتقدمين من الشمال إلى الجنوب باتجاه فاليز. كانت تلك أول معركة على الأرض الفرنسية، للواء الثاني، الذي ربح المعركة إلى جانب اللواء الأميركي الخامس، وحرر آلانسون. وهكذا خرج الجيش الفرنسي منتصرا ضد الجيش المؤلل التاسع الألماني، مثبتا كفاءته، رغم أن الجيش الألماني كان ما يزال قويا يرهب جانبه، يشهد بذلك الهجوم المضاد الذي قاده فون كلوج واسترجع فيه مورتان. وكانت رئاسة أركان الحلفاء تنتظر انقشاع الضباب لتجعل الطيران الحليف يتدخل



في المعارك. ذلك أن كفاءة الجندي الألماني، واستخدامه الأرض على نحو مثالي، تطلب تحويل الأرض إلى «سجادة قنابل» قبل البدء بالهجوم الشامل، وهذا ما كان يزعج الباريسيين الذين كانوا يستعجلون التحرير.

بعد الخامس عشر من آب، واستيلاء الكنديين على فاليز، بدأ انهيار خطوط العدو. وساهم اللواء الثاني الفرنسي في الهجوم الأميركي نحو السين. في الوقت ذاته تمكن الحلفاء من إنزال قوات على الكوت دازور، دحرت الألمان إلى داخل فرنسا. كان إيزنهاور يطمع في كسب الوقت وقطع طريق العودة إلى ألمانيا، على الجيش الألماني. وكان يقدر أن معركة من أجل باريس لا بد أن تضيع الكثير من الوقت والمحروقات. وقد طوق الحلفاء العاصمة من الجنوب، وقد أمل أيزنهاور أن تستسلم الحامية الألمانية في باريس مع مقدم الخريف. فذلك أفضل من تعريض الجنود الأميركيين لحرب شوارع لا بد فيها من خسائر كبيرة.

غير أن انكسار الألمان في بروتاني ونورماندي والكوت دازور أثار حماسة الروح الوطنية في الجماهير، وحرض المقاومة على التفكير في الانتقام للمقاومين الذين ماتوا في المعارك أو السجون.

كان وضع السكان في باريس قلقا، وكانت الأحداث تتلاحق. فالبطالة، والتموين بلغا حد الكارثة، بسبب تعذر وسائل النقل وقلة المحروقات. وفي الوقت ذاته كانت قوافل السيارات العسكرية تخترق باريس ذهابا

وإيابا، وتعزز الأمن، ومراكز الدفاع عن باريس. ومنذ آب حدث نقص كبير في تموين الغاز، وكانت الكهرباء تنقطع باستمرار. وأصبح استخدام المترو متعذرا، في حين أن وسائل النقل الأخرى قليلة جدا. وكان بعضهم يسرق الدراجات ليصلوا إلى غاياتهم في المدينة. وكانت المقاومة توشك أن تيأس من تقدم الحلفاء من باريس رغم الاشاعات عن تحرير قطاعات من الأرض ومندن. وقد بدا للمقاومة أن لندن وواشنطن لا تستعجلان تحرير باريس. مع ذلك كانت الآمال كبيرة بقرب التحرير.

انقسام المقاومة

حتى ١٩ آب، موعد بدء التمرد في باريس، كان ثمة خلاف بين قادة المقاومة، حول الثورة



□ سفير السويد نوردلينغ رسول السلام.

مباشرة، أو انتظار اقتحام جيوش الحلفاء أبواب باريس، والاتفاق معها على التحرك. وكان الداعون إلى الثورة مباشرة، الشيوعيين. أما الآخرون فيمثلون المقاومة الملتفة حول دوغول. وكان لابد من توحيد المقاومة بدمج الطرفين وتوزيع المهمات بينهما. ورغم الجهود خلال نصف آب الأول، فإن مهمة التوحيد لم تنجح تماما.

لم يكن يشك في زعامة دوغول المقاومة، وكان رئيس الحكومة الموقتة. وكان الجنرال كونيغ، يقود، باسمه كتائب الفرنسيين، في المنفى، التي



□ لوكليرك يدخل باريس متوكئا على عصاه.

لم يكن اندماجها وثيقا. وكان القناصة الشيوعيون، يميزون أنفسهم عن المقاومين التابعين لدوغول. لأنهم كانوا أكثر انضباطا، وأشد عنفا، وتمسكا بالارادة الثورية. فقد كان المقاومون يفضلون طاعة لجنة العمل التي يعين اعضاءها مجلس المقاومة الوطني الذي يرئسه جورج بيدو، الطموح إلى أن يكون الناطق الرسمي في مخاطبة الحلفاء في لندن، والحكومة المؤقتة الموجودة في الجزائر، التي لم يعترف بها الحلفاء حتى ذلك الوقت.

كان دوغول قد عين مندوبين أمثال الكسندر بارودي المفوض العام في فرنسا، وخليفة بولّارت، وجان مولان، وأمثال شابان دلماس، المفوض العسكري الوطني. وكان الهدف تطويق مبادرات القوات التي يقودها كونيغ، ومنح فرنسا المحررة إدارة مهيأة، متفقة رغباتها. وكان هذا العمل التحضيري ضروريا لدوغول الذي كان يشعر، مع أوائل آب، أن مجلس المقاومة الوطني، يحاول مشاركته الحكم بعد التحرير. في هذا الوقت كان بعض الفيشيين يتحركون سرا، عبر نواب لم يقوموا بأي نشاط منذ احتلال فرنسا.

أتي بإدوار هريو وزوجته، تحت حماية لافال والألمان إلى أوتيل دوفيل في باريس. الثالث عشر


DERNIÈRE MINUTE :
Grenoble vient d'être occupé par les troupes alliées qui se trouvent ainsi à plus de 200 km. de la côte

Ce soir
GRAND QUOTIDIEN D'INFORMATION INDÉPENDANT

PARIS EN PLEINE INSURRECTION

Le Grand Palais en flammes — Des barricades dans tous les quartiers

COMBATS DANS LES IIe, Ve, XIIIe, XVIIIe ET XXe ARRts

LA BATAILLE DE PARIS

Débarquement dans la région de Bordeaux
Anéantissement définitif de la poche d'Argentan
Poussée alliée vers la banlieue sud de Paris

LES ALLIÉS débarquent dans la région de Bordeaux

1940 DÉFENSEUR - 1944 JUSTICIER

LE PEUPLE DE PARIS EN ARMES

Parisiens, vous pouvez fabriquer des armes

□ جريدة سوسوار —
الخميس ٢٤ آب ١٩٤٤.



من آب ١٩٤٤، أراد لافال أن يدعو مجلس النواب والشيوخ إلى اجتماع، على أساس إقامة حكم انتقالي، يستبعد منه المتطرفون. ولكن رئيس مجلس النواب لم ينجرف في اللعبة، فاقتاده الغستابو إلى ملجأ ماريفيل قرب نانسي، واعتقل لافال في ١٩، وبيتان في ٢٠ منه.

اما مبادرات لجنة باريس للتحرير، المتصلة بمجلس المقاومة الوطني، فكانت تزعج دوغول.

السابع من آب ١٩٤٤ اجتمعت اللجنة في سان — مور، برئاسة النقابي تولي، ووافقت على أن يكون مدير الشرطة، الرجل الذي يختاره دوغول، وبارودي وفلوري، وتفضيله على مارّان الشيوعي. اليوم نفسه درست لجنة العمل الوضع في المنطقة الباريسية، ولاحظت تقدم التحرك في المصانع ومخازن السكك الحديد. وقد بدا أن الخلاف بين اللجنة ورئاسة أركان كونيغ وشيك الوقوع.

بدء التمرد

بدأ عمال السكك الحديدية، في ١٢ آب، إضرابا شل نقل الألمان. ووقعت احداث دامية بينهم وبين الألمان الذين جردوا ٣٧٥ شرطيا من أسلحتهم، بتهمة التساهل. لذلك قررت لجنة تحرير الشرطة الاضراب العام في ١٥ آب الساعة السابعة صباحا. اليوم التالي أعدم الألمان، في غابة بولونيا ٣٥ مقاوما.

استمر التوتر في منطقة باريس. وشلت خدمات الشرطة والمراكز شللا تاما في ١٦ آب، حين اجتمعت اللجنة الباريسية للتحرير، في «فانف»، وأعلنت الثورة العامة، وهي تحلم «بكومونة» جديدة.

اليوم نفسه كانت التعليمات التي حملها شابان دلماس مناقضة تماما. فالحلفاء كانوا ينوون تطويق باريس، لذلك كان كل تمرد مبكر ينطوي على مخاطر كبيرة، قد يدمر باريس نفسها.

ولكن الكولونيل رول، ومساعده غير الشيوعي الكولونيل ليزي، أخذ مبادرات مختلفة وأمر باحتلال المباني الرسمية جميعا، ومهاجمة الجيوش الألمانية. وكانت دائرة الشرطة هدف الهجوم الأول، في الساعة السابعة صباحا.

تسلم لويزي رئاسة شرطة باريس، مكان بوسيير الذي عينته فيشي.

ورغم تسلح لجنة العمل الضئيل، فقد أخذت على عاتقها تحرير باريس، ووضع الحلفاء أمام الأمر الواقع.



□ حرس القيادة الألمانية في باريس يستسلم.

احتلت المقاومة عدة مراكز رئيسية في باريس، واضطر ألكسندر بارودي للموافقة على بدء الثورة رغم الأوامر التي صدرت إليه، لتأخيرها. وتحدث إلى شابان دلماس، فوجدا أن لجم اندفاعة قوات كونيغ مستحيل، لذلك أبرقا إلى لندن يطلبان العون. بعد الظهر حمل أنباء إنذارات موجهة إلى مندوبي الجنرال دوغول الذين كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون التعويل على الجيوش الأميركية قبل أسبوع. تحركت مصفحات فعزلت مركز قيادة الشرطة. واستعاد الألمان بلدية نويي. وبدا أن فون شولتز قرر إعادة الوضع إلى نصابه بكل قسوة.

أصبح الوضع حرجاً. فقد استبعدت لجنة العمل. وأبدى الألمان قدرة كبيرة على تحطيم الثورة «في البيضة» وفي الوقت ذاته كانت عشرون فرقة ألمانية سلمت من معارك نورماندي واجتازت السين، وانعطفت نحو بونتواز وميلان، ولكن شولتز لم يكن يعول عليها. كان همه الوحيد الدفاع عن باريس ضد الحلفاء. لذلك نظم خطوط الدفاع، ووضع مضادات المصفحات على طوق باريس الغربي. وجعل ثلاثين ألف رجل بينهم مظليون يؤمنون الحماية مزودين بمدافع ٨٨ الخطيرة.

وبقيت لديه داخل باريس خمسة آلاف جندي مع مختلف الأسلحة الثقيلة والسريعة.

هدنة العشرين من آب

اليوم الذي أعلنت فيه الثورة، كان الألمان قد قرروا حسم الأمر في عشرين مركز استناد. ولكن شولتز لم يكن راغباً في معركة شوارع. وفي الوقت ذاته بدأ تدخل دبلوماسيي الدول المحايدة، لتجنيب باريس كارثة لا يدري أحد مداها. وقام نوردلنغ سفير السويد بوساطة لدى شولتز بالافراج عن مساجين كان الألمان ينوون ترحيلهم إلى ألمانيا. فوافق القائد الألماني على ذلك، شرط تهدئة الوضع داخل باريس. غير أن المقاومة كانت بدأت معاركها، فاندفعت القوة الألمانية بعنف، من كل مراكز الاستناد، لتقصف وتقتل فإذا وضع المقاومة لا تحسد عليه. وتدخل سفير السويد ثانية بوقف إطلاق النار حرصاً على باريس ومعاهدها، فوافق شولتز على التفاوض مع أقطاب المقاومة. وجرى الاجتماع في منزل السفير السويدي. وعلمت لجنة العمل أن اتفاقاً تم بوقف إطلاق النار، دون معرفتها، وقد وقع الاتفاق — ومدته ٤٨ ساعة — شابان دلماس، ورولان بري، وليو هامون. ولم تسمع بعد إلا طلقات متفرقة، رغم أن أركان رول حاولت تأجيل الهدنة، وأمرت قادة البوليس بعدم نشر نبأ الاتفاق على الهدنة.

أوقف الغستابو، صدفة، سيارة كان فيها بارودي، رولان بري، ولافون. ولكن شولتز أطلق سراحهم.

في هذا الوقت كان مودل مصرا على استتباب الأمن بأي ثمن. ووعد بتعزيزات. ولكن القوات الألمانية كانت قد تركت الاليزيه، والوزارات، مبقية فيها بعض الكوماندوس. الواحد والعشرين من آب. احتل موراندا وزوجته أوتيل ماتينيون. وقد قدم حرس لافال إليه سلاحهم. والتاريخ نفسه اجتمعت لجنة المقاومة الوطنية لدرس مسألة الهدنة. واختصم شابان دلماس والمندوب الشيوعي تيّون. وجمع جورج بيدو اللجنة وقرروا رفض الهدنة. ودعي الشعب إلى إقامة المتاريس.

وضع المقاومة الحرج

منذ ٢٢ آب غدت المعارك شديدة. ولئن لم يكن لدى الألمان إلا ١٥٠ مصفحة، فقد جعلوا من الأبنية التي يقيمون فيها قلعات حصينة، وكانوا يقاتلون شبرا فشبرا. وراحت قواتهم تلاحق سيارات قوات كونيغ، فيما امتلأت الشوارع بالمتاريس.

تلقى شولتز أوامر هتلر بتحويل باريس إلى ركام. ولكنه لم يفعل، واتصل بلويزي وباورودي وأفهمهما أنه لن يسلم باريس لقناصة، ولا بد من انتظار قدوم الجيوش الأميركية. وذكرهما أن ثمة فرقتين قادمتين لتمزيق المقاومة. وعلم أيزنهاور بذلك. فسمح للجنرال لوكليرك باجتياز مائتي كيلومتر تفصله عن باريس تدعمه الفرقة المدفعية الرابعة الأميركية.

بدأ لوكليرك تحركه، مخالفا أوامر رئيسه الجنرال جيرو. واتجه صوب أرباجون، في الطريق إلى باريس، مستندا إلى تأييد دوغول.

٢٣ آب كانت باريس مسرحا لمعارك طاحنة حول مراكز استناد القوات الألمانية. واحترق الغران بالي (القصر الكبير) وتزايدت المتاريس، غير أن شولتز رفض تدمير باريس. ولكن المقاومة ضعفت جدا في ٢٤ آب، وخاصة لنقص المؤن والسلاح.

كان لوكليرك على علم بمأساة المقاومة. أرسل برقية يشجع على الثبات. وقد بلغت العربات (٤ آلاف) منطقة رامبولي، ٢٣ آب مساء. وفي الوقت ذاته حطت طائرة دوغول في نورماندي. ثم التقى لوكليرك في رامبويي الساعة ١٨، وشجعه على الهجوم في اليوم التالي لتحرير باريس.

٢٤ آب كانت الفرقة الثانية المدرعة تسلك إلى باريس طريقين: فقسم منها بقيادة بيّوت سلكت محور أرباجون ــ لونجومو، باتجاه جانتيي. والثاني بقيادة لانغلاد، وسلكت طريق تراب ــ فرساي، جسر سيفر على أمل لقاء القسم الأول في ساحة الكونكورد.

قاومت القوات الألمانية تقدم قوات لوكليرك في فريسن وويسو وتوسو لونوبل، ودمرت بعض المصفحات.

الساعة الواحدة والعشرين، دخلت قوات الكابتن درون باريس من باب إيطاليا، واتجهت صوب أوتيل دوفيل، وبدأت الأجراس تقرع.

قرر شولتز ألّا يدّمر أي بناء، وألا يغادر باريس.

باريس محررة

الفرقة الثانية المصفحة في باريس صباح ٢٥ آب. جرت معارك أخرت تحرير كل باريس. هاجم الكومندان ماسو أوتيل ماجستيك. واستسلم شولتز لليوتنان كارشي. ودخلت قطعات أخرى باريس.

الكي دورسي، ومجلس الشيوخ ظلا يقاومان. اقتيد شولتز إلى مقر البوليس حيث قدم له لوكليرك بيان الاستسلام فوقعه إلى جانب توقيع لوكليرك. وشاء الكولونيل رول توقيعها فسمح له لوكليرك بذلك. وجه شولتز أوامره بوقف مقاومة جنوده.

الساعة السادسة عشرة وصل دوغول محطة مونبارناس، وأبدى انزعاجه لتوقيع رول على بيان استسلام شولتز.

الساعة ١٨ دخل دوغول رئيس الحكومة المؤقتة وزارة الدفاع وطرد منها لجنة العمل.

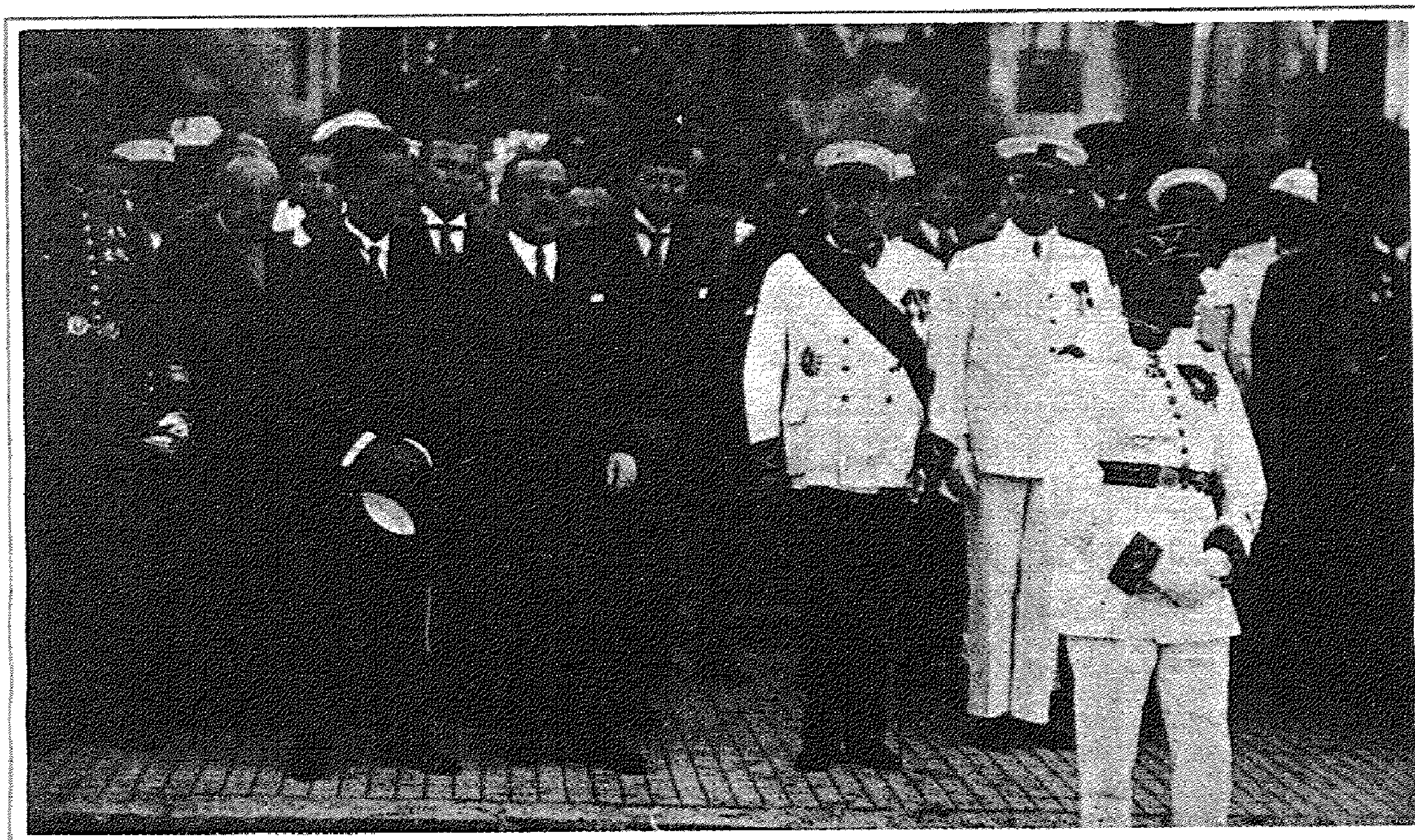
والساعة ذاتها، استسلمت القوات الألمانية حين تأكدت من أوامر شولتز.

اكتشفت الجماهير جثث من أعدموا في غابة بولونيا، فثارت ثائرتها وحاولت الانتقام من الأسرى الألمان. ولكن أوامر دوغول صدرت بالتصدي لذلك.

جرى عرض النصر يوم السبت ٢٦ آب، وكان دوغول في طليعة المحتفلين. ●

جان سرور

كيف حاول الانتداب الفرنسي فرض معاهدة على سوريا ولبنان



□ الرئيس اميل اده مع بعض ضباط الانتداب الفرنسي ويبدو في الصورة الرئيس عادل شهاب.

انتهى الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان مع نيل كل من البلدين الشقيقين استقلاله ــ لبنان في العام ١٩٤٣ وسوريا في العام ١٩٤٥ ــ وترك وراءه الكثير من الذكريات والصفحات المليئة بأخبار النضال الوطني من أجل التحرير والاستقلال.

من هذه الصفحات واحدة تحكي قصص محاولة استبدال الانتداب بمعاهدات سلم وصداقة مع الدولة الافرنسية، وأخرى تكشف الستار عن صلات تعاضد وتفاهم كانت قائمة بين حزب الكتلة الوطنية السورية وحزب الاستقلال الجمهوري في لبنان، وكان الدافع لهذا الترابط إدراك كل منهما أن أوضاع بلديهما واحدة ومصيرهما واحد كما أن معاناتهما من السيطرة الأجنبية متشابهة، الأمر الذي فرض على الحزبين التعاون والتفاهم ومساندة أحدهما للآخر لمقاومة سلطة الانتداب التي كانت بدورها تعرف حق المعرفة أن مصالح البلدين مترابطة بدليل أنها أنشأت لهما إدارة مالية واحدة سميت دائرة المصالح المشتركة وهي تشمل واردات

الجمارك والموانىء وحصر التبغ والتنباك والسكك الحديدية ومراقبة الشركات ذوات الامتياز، وكانت توزع حاصلاتها بين البلدين بنسب معينة بعد اقتطاع نفقات جيوش الاحتلال منها.

وكان الحزبان يتدارسان شؤون السياسة كلما دعت الحاجة إلى ذلك مع محافظتهما على السرية الواجب اعتمادها خشية أن يذهب العلن بفوائد التضامن.

وتجدر الاشارة هنا أن رئيس حزب الاستقلال الجمهوري الشيخ عزيز الهاشم كانت له آراء حول وضع البلدين وضرورة إقامة اتحاد سياسي واقتصادي بينهما، وقد جاء هذا في كتاب جريء وضعه باللغة الافرنسية عنوانه (سياسة لا وجدان) وتسبب نشر هذا الكتاب في نقمة المفوضية العليا عليه فأوعزت إلى الحكومة بإقالته من وظيفة كان يشغلها في القضاء اللبناني هي وظيفة محقق.

وكان من أبرز ما أعطى التفاهم بين الحزبين التعاون في معالجة مشكلة كانت على قدر كبير من الأهمية هي مشكلة مشروع عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا تحل محل الانتداب، حاول المفوض السامي آنذاك السيد (بونسو) تحقيقها بتدابير خاصة مهّد لها بتدابير زعم أنها توصله إلى ما يريد وفيما يلي تفاصيل ذلك:

وكان المفوض المذكور يعلم أنه من الصعب نجاح مشروعه وفي الساحة رأي عام وطني وكتلة وطنية ذات نفوذ وسيطرة على الحكم، فعطل الدستور؛ وبعد فترة دعا إلى انتخابات نيابية جعل موعدها منتصف عام ١٩٣٢ وجهد على أن لا تنال الكتلة فيها سوى عدد قليل من المقاعد بحيث تبقى عاجزة عن تحقيق أي عمل معارض لما ينوي إجراءه، وتم له ما أراد بفضل الهيمنة في الاشراف على صناديق الاقتراع الذي أسفر عن سبعة عشر مقعدا فقط للكتلة من أصل ٦٨ مقعداء وتبع ذلك انتخاب صاحب الأكثرية صبحي بركات رئيسا للمجلس ومحمد علي العابد رئيسا للجمهورية وتولى حقي العظم رئاسة الحكومة.

ثم سافر المفوض إلى باريس للتشاور مع حكومتها في طرح مشروع المعاهدة، وعاد بعد حين ولم يلبث أن دعا الحكومة إلى التفاوض في المشروع غير أن «بونسو» لم يتمكن من إنجاز مهمته لأن الحكومة الفرنسية نقلته إلى بلد آخر وعينت مكانه الكونت (دي مارتيل) الذي قدم في شهر تموز ١٩٣٣ إلى مقره في بيروت وبعد وصوله بأيام قليلة دعا الحكومة السورية إلى استئناف التفاوض من أجل المعاهدة، وأنجز المشروع بسرعة وتم التوقيع عليه في بيروت.

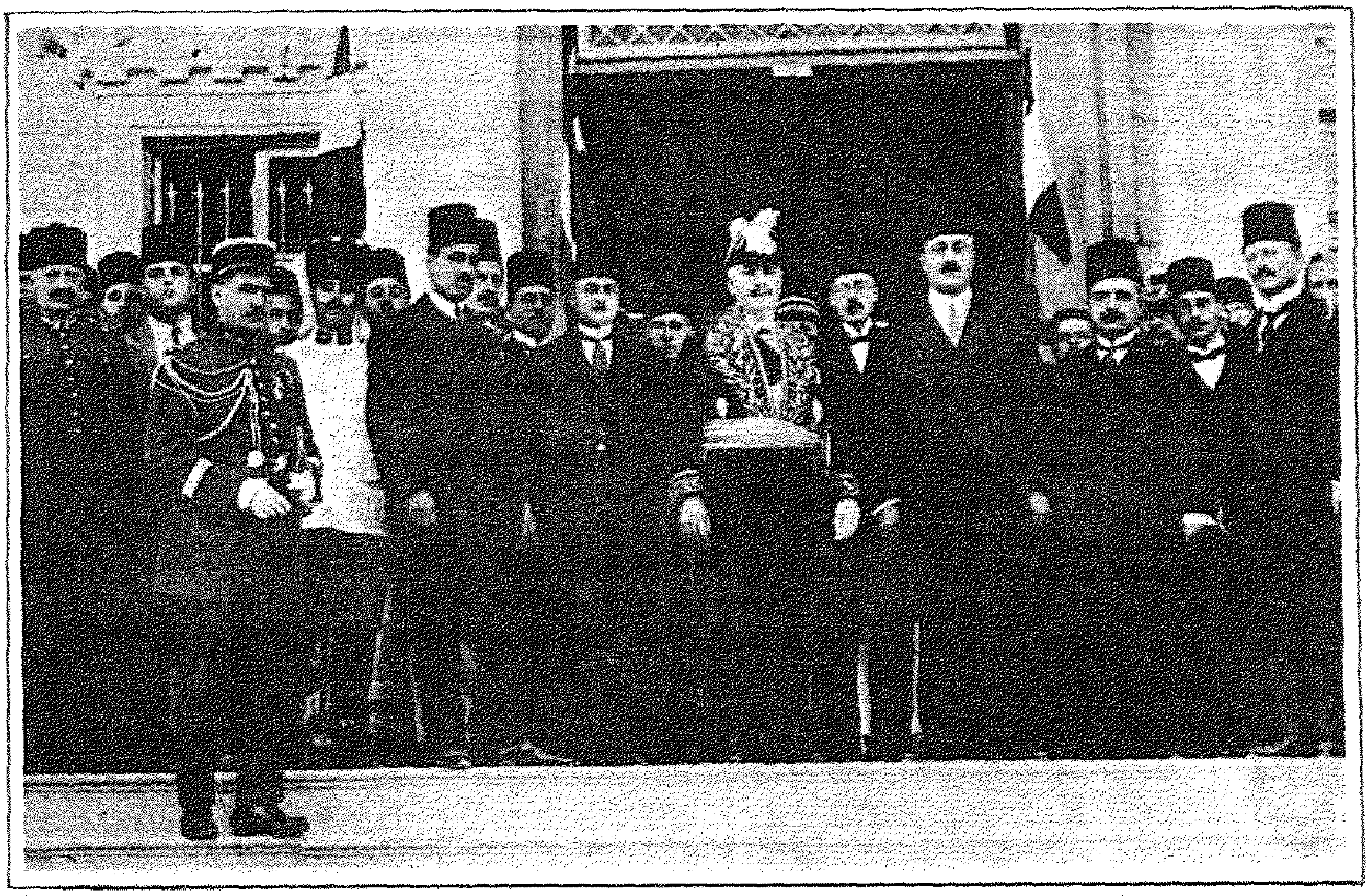
□ الشيخ عزيز الهاشم.



موقف الكتلة من المشروع

إلا أن الكتلة أعلنت رفضها له بعد أن اتضح لها أنه يتعارض مع مصلحة البلد الراغب في الاستقلال لأنه يتضمن مواد تبقي السيطرة العسكرية في مناطق معينة من البلاد، إضافة إلى ضمان الاستقلال الاداري والمالي لحكومتي اللاذقية وجبل الدروز.

وأثار التوقيع على المشروع الرأي العام الشعبي وعاشت دمشق مدة حياة قلق واضطراب واشتد نشاط الكتلة التي وإن كانت قليلة العدد في المجلس إلا أنها تبقى مالكة زمام الشعب



□ على مدخل سراي دمشق عام ١٩٢٨، من اليمين إلى اليسار: اسكندر البستاني، عبد القادر العظم، يوسف الحكيم، الداماد احمد نامي، شاكر الحنبلي، هنري بونسو، حقي العظم، خليل رفعت، محمد المسالخي (مرافق الداماد)، نقولا شاهين، نصوح بابيل.

وسيدة الكلمة وجرت تظاهرات في مختلف المدن السورية كانت تقاوم بعنف وتوقع ضحايا دون أن تخفف من نشاط الشعب ونقمته.

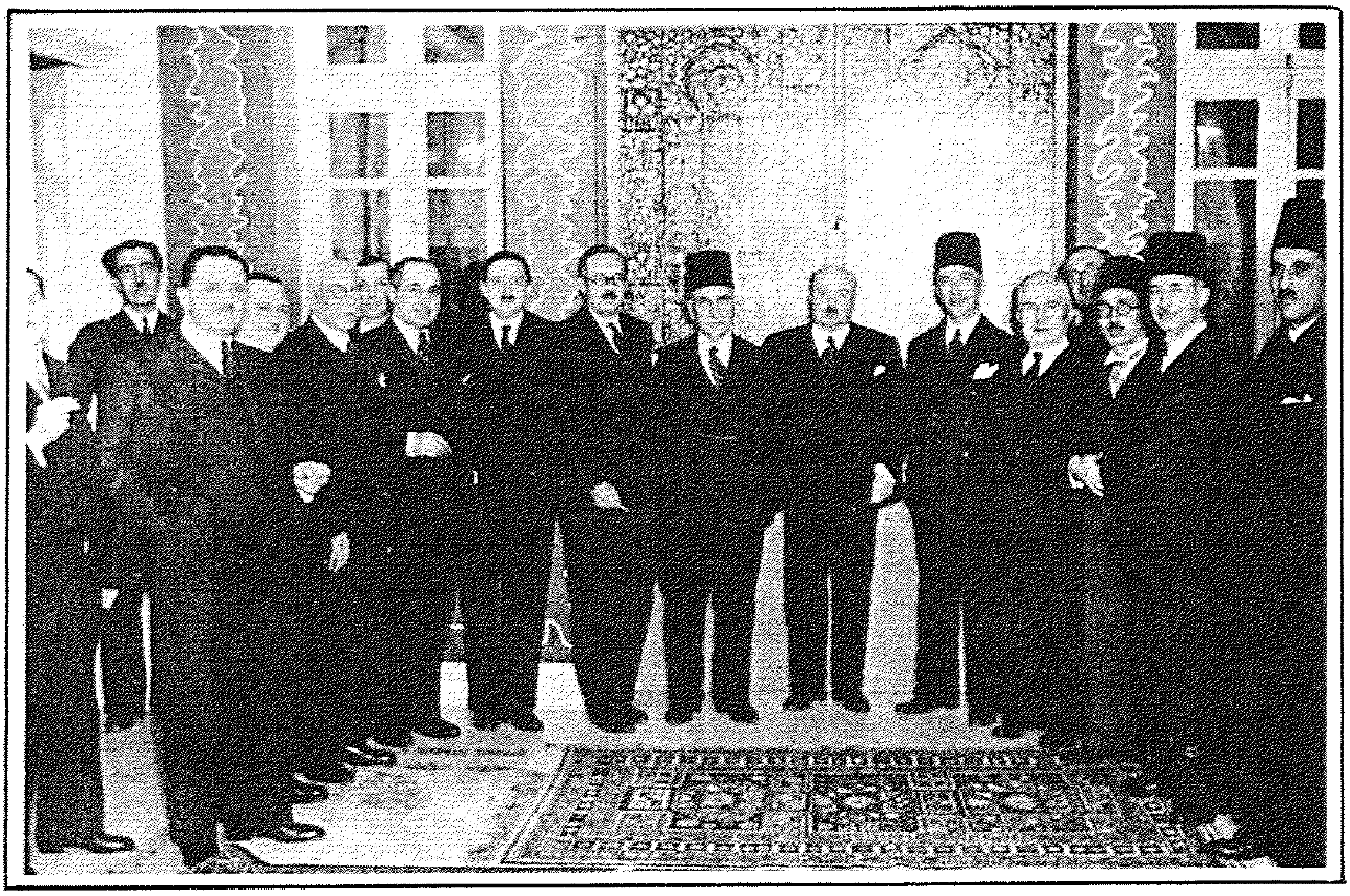
في هذه الأثناء كان حزب الاستقلال الجمهوري في لبنان يراقب تطور الحال في البلد الشقيق ويولي اهتمامه بما يجري تحسبا لما يمكن أن يعد للبنان، وارتأى أن يوفد إلى دمشق نائب الرئيس عادل الصلح بغية تتبع الحوادث عن كثب والاتصال بالكتلة لأخذ رأيها فيما يجب أن يفعل لمساندتها.

وذهب عادل الصلح في مهمته وباشر اتصالاته فتبين له أن الكتلة ترى ضرورة معالجة الأمر مع صبحي بركات زعيم الأكثرية في المجلس، وطلبت إليه أن يحاول إقناعه برفض المشروع اعتمادا على صلة قرابة وصداقة شخصية تربطه به.

وعمل مندوب الحزب بما طلب منه وكثف من اتصالاته مع نسيبه رئيس المجلس، ودامت المحاولة بضعة أيام شعر بعدها أنه بات مرتاحا لنجاح مهمته دون أن يطلب من الرجل إعطاء جواب صريح عن رأيه تاركا له أمر الاحتكام إلى ضميره وإحساسه الوطني.

وجاء يوم طرح المشروع على المجلس فإذا بالوضع في دمشق قد بلغ منتهى الشدة وأقفلت المدينة إقفالا تاما واتجهت الأنظار إلى الندوة تترقب ما سوف يصدر عنها.

وبالمناسبة أذكر الحادث الآتي: شئت في ذلك اليوم العصيب أن أذهب والصديق روفائيل أبو جودة إلى دمشق بدافع الفضول لمشاهدة المدينة الثائرة واستقصاء الأخبار دون تكليف من الحزب، وهناك رأينا ما يدعو للاعجاب في تحركات الجماهير في الشوارع المؤدية إلى دار المجلس وتوزع الشرطة في زوايا الطرق وهي على أتم الاستعداد لمقاومة الجماهير، ولم نتمكن في هذا الجو المشحون بالحذر من الاتصال بأحد ممن قصدنا الاجتماع بهم فقفلنا عائدين إلى بيروت قبل أن نعرف ما سوف يسفر عنه الوضع ـــ وفي بيروت بلغنا أنه ساعة انعقاد الجلسة وفيما كان النائب جميل مردم يتلو مذكرة كان قد توصل إلى جمع تواقيع عدد كبير من النواب عليها مطالبين برفض المشروع بدخل



□ حفلة استقبال المفوض السامي الكونت دي مارتل في ١٩٣٥/١/٢٢ في منزل عطا الايوبي، من اليمين: شكري القوتلي، سعد الله الجابري، جميل مردم بك، فارس الخوري، عطا الأيوبي، الكونت دي مارتل، هاشم الاتاسي، ديليلي ويلوح، ادمون حمصي، سعيد الغزي، بهجت الاتاسي.

مندوب المفوضية مقاطعا وأبرز قرارا بوقف أعمال المجلس بضعة أيام، وبدا من هذا القرار أن المفوضية عمدت إلى إصداره بعد أن استشعرت ميل عدد كبير من النواب إلى رد المشروع — غير أن رئيس المجلس رفض تبلغ قرار المفوضية ومضى في الجلسة التي انتهت بالتصويت على الرفض.

وكانت دهشة رجال الانتداب من موقف صبحي بركات بالغة التأثر لأنهم كانوا يظنون أن الرجل يعمل بإرادتهم فإذا به يقف ضدهم.

العمل لمعاهدة ثانية

وبدا بعد هذا الفشل أنهم أحجموا عن طرح مشروع مماثل مع لبنان كما كان متوقعا.

هذا ما كان من أمر المحاولة الأولى لعقد معاهدة مع سوريا ويأتي الحديث عن المحاولة الثانية بعد عرض الحالة التي كانت تعانيها البلاد في ذلك الحين إذ كانت الضائقة الاقتصادية التي اجتاحت أوروبا في الثلاثينات قد وصلت سوريا ولبنان، وكان من الطبيعي أن يكون تأثيرها على البلدين أشد منه في أوروبا نظرا إلى أن الحكم فيهما كان عاجزا عن اتخاذ التدابير التي تحد من تأثيرها على الشعب، فالتجارة في انخفاض ومزاحمة البضاعة الأجنبية للبضاعة الوطنية تشل كل مسعى محلي من أجل الصمود، والشباب يعاني من بطالة وجمود والمفوضية العليا لا تبالي بما هو جار في البلاد ولا تهتم باتخاذ إجراءات ترفع الضيق عن الشعب.

وهذا ما دفع بالحزبين إلى إعلان الاضراب في البلدين معا واجتمع تجار بيروت في نادي حزب الاستقلال بتاريخ ١٩٣٥/٥/٢ لتدارس الأمر واتفقوا على عرض شكواهم بواسطة الحزب إلى المراجع المختصة كما عرضوا أن يسلموا مفاتيح متاجرهم إلى السيد (لافون) مندوب المفوضية العليا في لبنان تدليلا على ما يعانون من اشتداد الضائقة.

وقام الحزب بإيصال الشكوى إلى السلطات المحلية والسلطات الافرنسية بواسطة الأحزاب الراديكالية والاشتراكية التي سبق التفاهم معها



□ مظاهرات في ساحة المرجة بدمشق ضد الانتداب الفرنسي.

عندما قام وفد للحزب بزيارة باريس في العام ١٩٣٣ بقصد إطلاع الفرنسيين على ما كان يجري من قبل الذين يتولون مهام الانتداب من ممارسات وسوء إدارة.

وكانت الاضرابات تتوالى في البلدين منها إضراب في سوريا دام شهرين متواليين وكان من الطبيعي أن يتأثر به لبنان بالنظر للترابط الحياتي بين البلدين.

في هذا الوقت أخذ الوضع يتبدل في فرنسا عندما فازت الجبهة الشعبية التي يراسلها (ليون بلوم) بتولي الحكم، وبدأ أن تعليمات جديدة وصلت إلى المفوض دي مارتيل الذي أخذ بنتيجتها التقرب من جماعة الكتلة شيئاً فشيئاً وصولا إلى دعوتهم للتفاوض معه في بيروت لأجل عقد معاهدة جديدة تختلف عن الأولى، بين فرنسا وسوريا تحل محل الانتداب وبعد مفاوضات لم تدم طويلا تم الاتفاق على مبادىء معاهدة تدرس في فرنسا.

وسافر وفد الكتلة إلى باريس برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية فارس الخوري وسعد الله الجابري وجميل مردم وأدمون حمصي ونعيم الانطاكي، وتبعهم فيما بعد رياض الصلح والتقوا

هناك المفوض دي مارتيل مع وفد فرنسي من كبار السياسيين وجرت مفاوضات دامت ما يقارب الخمسة أشهر أسفرت عن اتفاق على مشروع معاهدة تم التوقيع عليها في أول تشرين الأول ١٩٣٦ وهذا أهم ما تضمنه المشروع(*).

من مظاهر الفرح في لبنان:

وقابل الناس هذه الظاهرة بفرح وسرور خفف بعض الشيء من حال القلق والتوتر الذي كان سائدا في البلدين وللتعبير عن رضا الشعب اللبناني بهذا الاتفاق أقام حزب الاستقلال الجمهوري حفلة كبرى في باحة فندق بيت مري الكبير الخارجي وكان موسم الاصطياف ما زال قائما شاركت فيها وفود كثيرة من القرى المجاورة وتضمنت الحفلة خطبا وأزجالا ورقص دبكة ولعبة سيف وترس وعزف موسيقى من فرقة بيت مري وأطلقت الأسهم النارية بكثرة، هذا في الوقت الذي كانت تجري فيه حفلات ابتهاج في مختلف المدن السورية.

المعاهدة مع لبنان

ولما كان من المفروض أن تعقد معاهدة مماثلة مع لبنان فقد دعا دي مارتيل أثر عودته من باريس إلى مفاوضات لدرس مشروع معاهدة، اشترك فيها أميل اده رئيس الجمهورية وعدد من السياسيين برئاسة الشيخ بشارة الخوري وبعد مفاوضات قصيرة جرى التوقيع على مشروع معاهدة مدتها خمس وعشرون سنة، غير أن هذا المشروع لم يكن على مستوى المشروع مع سوريا في نقاط عدة أهمها الشؤون العسكرية التي تتعارض مع الاستقلال الأمر الذي أوجب اعتراض الحزب وانصرف إلى انتقاده في الصحف وفي أوساط الشعب.

ولما تحول المشروع إلى المجلس النيابي دعا الحزب إلى إقفال المدينة والتظاهر أمام المجلس النيابي في محاولة لرد المشروع.

غير أن البرلمان اللبناني لم يتأثر بهذه المحاولة وأقر المشروع الذي كان وراءه الرئيس أميل اده وعدد من النواب المحازبين له.

ولما جاء دور البرلمان الفرنسي للنظر بالمشروعين: الفرنسي السوري والفرنسي اللبناني قضى بردهما معا في جلسة واحدة متأثرا بآراء العسكريين في فرنسا الذين لم يروا فيهما ما يتوافق مع مصلحة الدولة ومكانتها العسكرية.

وهكذا قضى برلمان فرنسا على جهود مضنية دامت أكثر من أربع سنوات! ●

أهم نقاط المعاهدة(*)

- إلغاء الانتداب وإعلان استقلال سوريا.
- تسليم القوى العسكرية المؤلفة من عناصر سورية إلى الحكومة السورية.
- تسحب فرنسا قواتها البرية من سورية على أن تبقى بصورة مؤقتة لمدة خمس سنوات في موقعين في الشمال والجنوب.
- يكون لفرنسا في سوريا مطاران بعيدان عن المدن.
- تعقد سوريا معاهدة مع فرنسا مدتها ٢٥ سنة تتعهد فيها فرنسا بالدفاع عن سوريا ضد كل اعتداء خارجي.
- عندما يصدق البرلمان السوري على المعاهدة تبدأ الحكومة السورية استلام الصلاحيات التي بعهدة المفوض السامي.
- تجري المفاوضة بعد تصديق المعاهدة على المصالح المشتركة وتستلمها سوريا عند انتهاء المفاوضة.
- تذيع الحكومة السورية تصريحا باستعدادها للمحافظة على الحقوق العامة المنصوص عنها في الدستور السوري.
- يكون التمثيل الخارجي من حقوق سوريا في كل مكان على أن يعهد إلى قناصل فرنسا بالمحافظة على حقوق السوريين في المراكز التي لا تنشىء سوريا فيها قنصليات.
- تكون القوانين والمعاهدات والاتفاقات الجمركية والاقتصادية حرة، وأما السياسة منها فباستشارة متبادلة فيما كان منها يضر لمصلحة الحليف الآخر.
- حقوق الرعايا الفرنسيين في سوريا تؤسس على قاعدة الدولة الأكثر رعاية، كما تكون كذلك حقوق السوريين في فرنسا ومستعمراتها.
- يجري انتقال الحقوق والواجبات الناشئة من العقود والمعاهدات التي عقدتها فرنسا باسم سوريا ولحسابها إلى الحكومة السورية.

قياس أبعاد الأجرام السماوية في الأرض وعن بعضها البعض

نقولا شاهين

فالمتر وهو أساس وحدات الطول في النظام المتري، يحدد بكونه المسافة بين علامتين على عارضة من سبيكة «بلاتينيوم — ايريديوم»، وذلك عندما تكون الحرارة معادلة لدرجة الجليد الذائب أي درجة الصفر المئوية، وهذه العارضة محفوظة في المكتب الدولي للأوزان والمقاييس في مدينة «سفر» في فرنسا. ولكي يعاد صنع هذه العارضة في حال ضياعها أو إتلافها، جعلها المصممون معادلة لجزء من عشرة ملايين جزء من المسافة بين القطب وخط الاستواء، على دائرة كبيرة بين المركزين، وقد تبين أن هذا التحديد الأخير ليس مطابقا للواقع. وقد أصبح المتر حديثا يحدد على ضوء طول موجة الخط الأحمر في طيف عنصر «كادميوم» عندما يكون الهواء جافا، والحرارة ١٥ درجة مئوية فوق الصفر، والضغط ٧٦٠ مليمترا من الزئبق.

هذا مثل عن تطور وحدة القياس، وهناك الكثير من وحدات القياس المختلفة التي ظهرت كنتيجة ملحة لحاجة العلم إليها، ومن هذه الوحدات تلك التي استعملها العالم الفلكي ابن الصوفي في دراساته الفلكية، والتي جاءت بنتائج دقيقة وصحيحة حسب رأي العلماء الأوروبيين. ومن هذه الوحدات القياسية: الرمح ويساوي ١٤ درجة، والذراع ويساوي ١/٦ رمح أو درجتين و ٢٠ دقيقة، والشبر ويساوي ١/٣ ذراع أو ٤٠ دقيقة و ٤٠ ثانية، والاصبع ويساوي ١/٣٢ ذراع أو دقيقة و ١٦ ثانية.

وقد أشار «ابن الصوفي» إلى إحدى هذه الوحدات في وصفه الدب الأصغر:

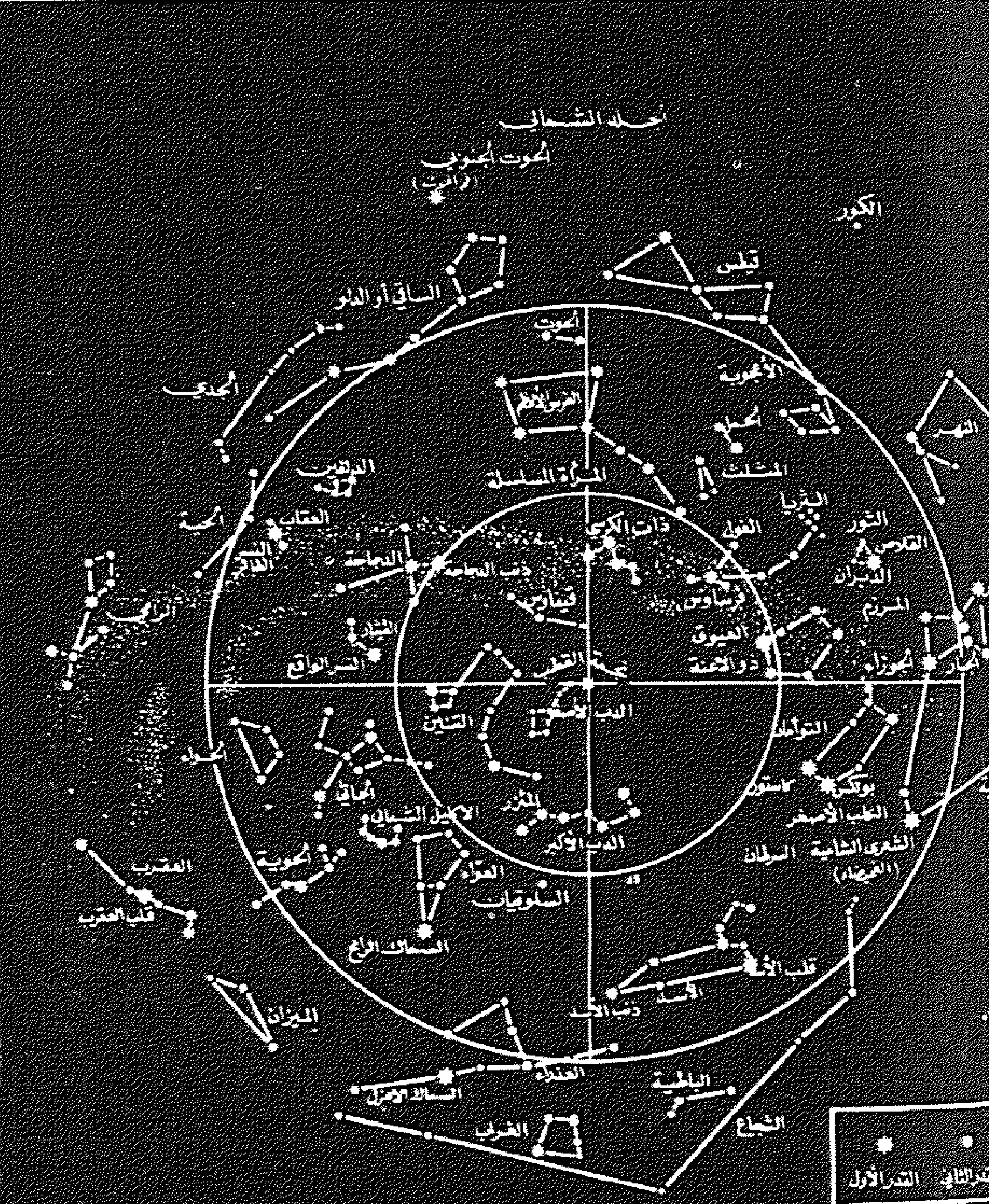


□ يستخدم هذا المسلاط الطيفي — Spectrum projector، في تقويم نوعية انبثاق الخيوط الطيفية.

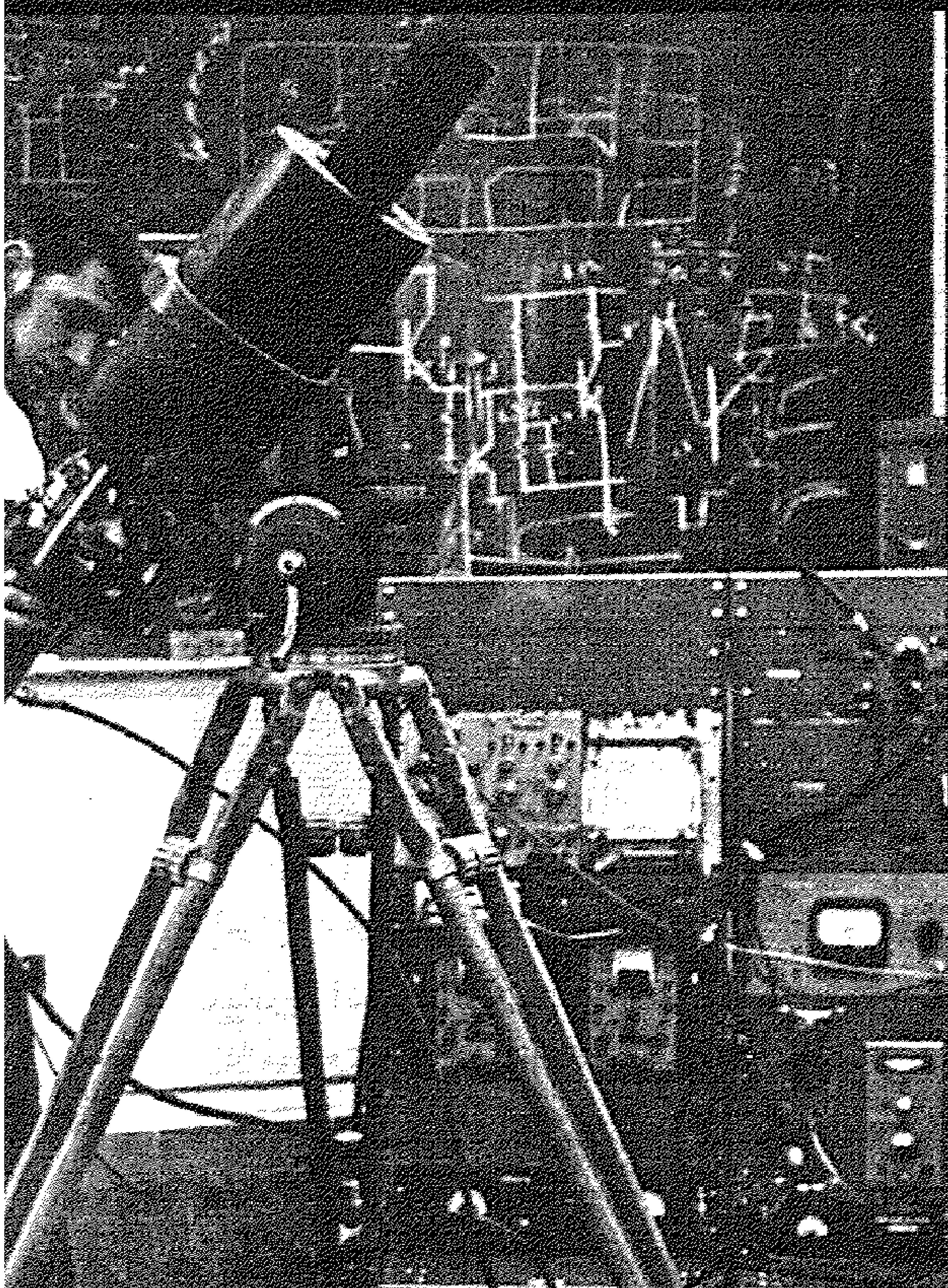
في جملة الصورة كوكبان
مقدار ما بينهما شبران
سمتهما العرب بفرقدين
ترى دويمن أنور الاثنين

وفي عالم النجوم وغيرها من الأجرام السماوية، يحتل قياس البعد عن الأرض المرتبة

ليس من اليسير اثبات حقيقة من الحقائق العلمية دونما اللجوء إلى استخدام وحدات ومقاييس دقيقة تثبت الأبعاد العلمية التي بنيت عليها تلك الحقيقة. ومع أنه أتى على علم الفلك حين كانت فيه المقاييس مبنية على وحدات بدائية غير متطورة إلا أن تلك الوحدات أعطت نتائج ظلت لأزمان طويلة أساسا لكثير من الحقائق العلمية. ومع مرور الزمن تقدمت الوسائل العلمية الخاصة باجراء المقاييس إلى حد تسنى لعلماء الفلك بفضلها دراسة الظواهر الطبيعية وغيرها من الأمور الفلكية المبهمة.



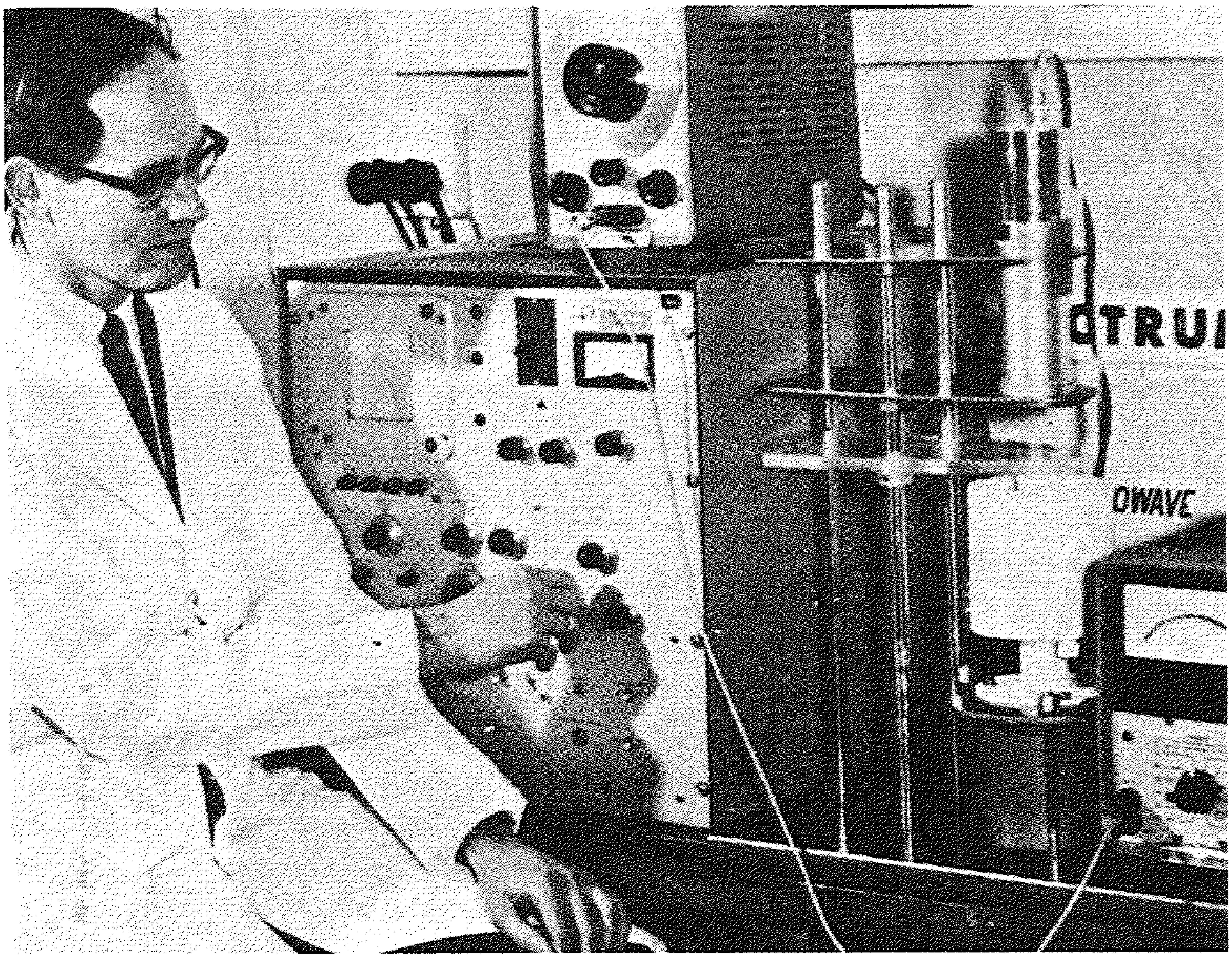
□ خريطة تبين مواقع البروج الرئيسية والنجوم ذات القدر الأول



□ جهاز «سبكتروفوتوميتر» من الوسائل العلمية المتطورة المستخدمة في دراسة الجزء المؤين من جو الأرض الذي يبدأ على ارتفاع ٢٥ ميلاً تقريبا

الأولى بين المعلومات الرئيسية. وبعدم معرفة هذا البعد، يتعذر علينا معرفة مقاييس فلك الجرم بشكل دقيق، ومعرفة حجمه وكتلته إلى غير ذلك من الحقائق الفلكية. ومن المعلوم أن ظاهرتي خسوف القمر وكسوف الشمس يتوقفان على حجم القمر والبعد بينهما في حالات مختلفة، لأن طول الظل الذي يتسبب في حدوث هاتين الظاهرتين، يتولد من أشعة الشمس التي تنعكس على سطح الأرض أو سطح القمر في أوضاع مناسبة.

وللتوصل إلى معرفة الأبعاد في علم الفلك، لجأ الفلكيون إلى قواعد معروفة في علم الهندسة



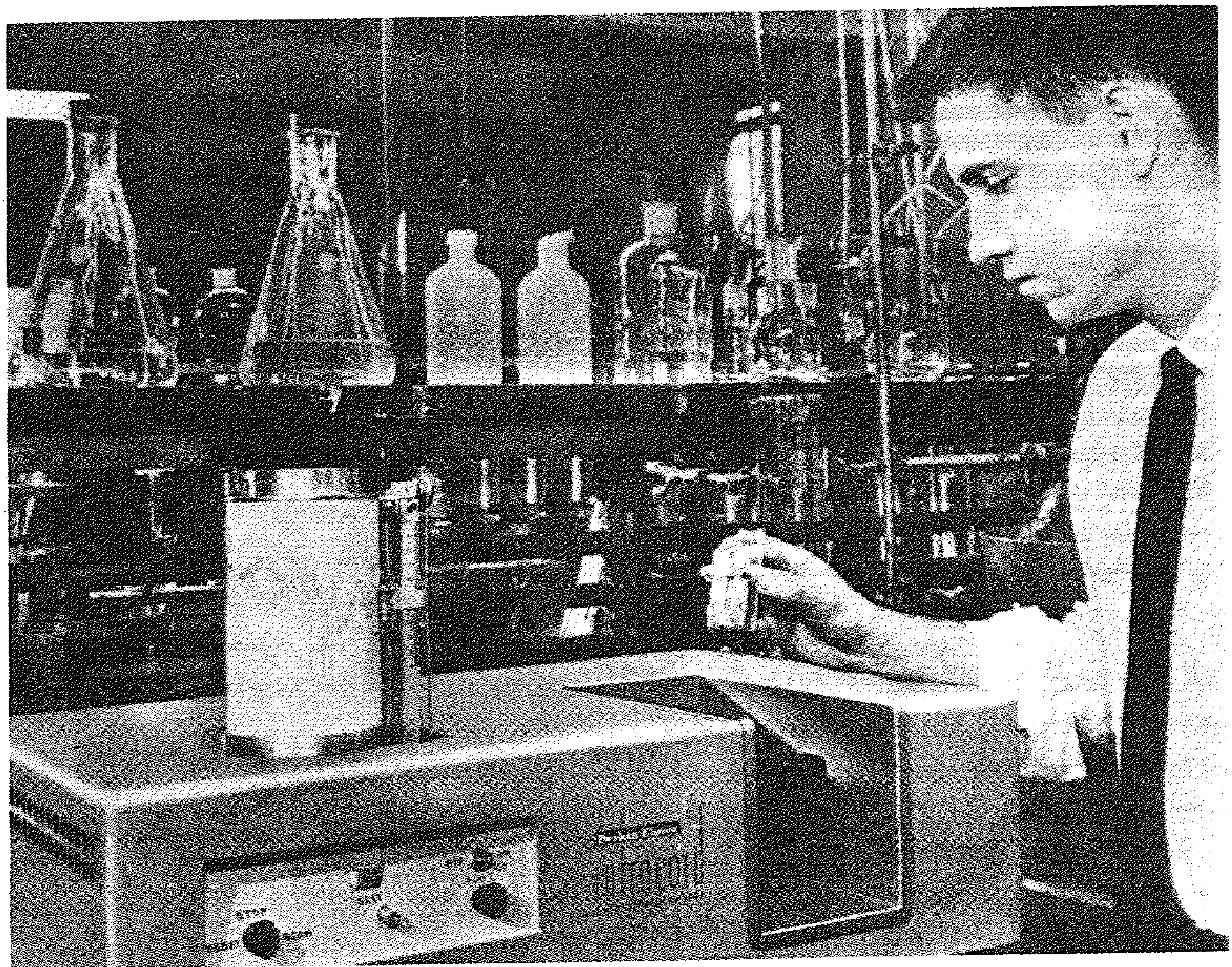
□ «المطياف ـ Spectroscope» من الأجهزة العلمية الدقيقة التي يستعين بها العلماء في دراسة التحليل الطيفي للألواح الفوتوغرافية.

لقياس المسافات على الأرض، وطوروها بشكل يتلاءم مع الأجرام البعيدة المدى. ولما كانت معرفة قطر الأرض من الركائز الأساسية التي تقوم عليها عمليات قياس أبعاد الأجرام، فقد بذل العلماء جهودا كبيرة لتحقيق ذلك. وقد توصل أبناء موسى بطلب من الخليفة المأمون إلى معرفة دورة الأرض عن طريق مقياس درجة من خط الهاجرة، فوجدوا أنها تساوي نحو ٢٤٠٠٠ ميل كما جاء في أخبار الأوائل. وفي ضوء هذه الحقيقة العلمية، تسنى للعلماء تعيين مقدار قطر الأرض، كما هو معروف في علم الهندسة.

بعد القمر والشمس عن الأرض

بعد أن وصل الرواد إلى سطح القمر في ٢١ تموز (يوليو) عام ١٩٦٩، ازداد تطلع الانسان إلى فهم الكثير عن طبيعة هذا الجرم. ومن المعروف أن معدل بعد القمر عن الأرض يبلغ نحو ٤٠٠ ٣٨٤ كم، وقد استطاع العلماء تحديد هذا البعد من خلال طريقة تعرف في الأوساط الهندسية بطريقة التثليث. وقد اعتمد اليونانيون هذه الطريقة في قياس بعد القمر عن الأرض، فوجدوا أن ذلك يساوي ضعف قطر الأرض ثلاثين مرة.

لنفرض أننا نرغب في تعيين المسافة بين نقطة حيث يقف أحد المراقبين وبين القمر، معتمدين على الطريقة الهندسية المألوفة. يتم الاتفاق مسبقا مع مراقب عند نقطة مقابلة على سطح الأرض، ويصبح تعيين اتجاه القمر من النقطتين في الوقت نفسه. ويتمكن المراقب الأول من تعيين المسافة بينه وبين المراقب الثاني، ومن معرفة طول وعرض المركزين، وهكذا يصبح لدينا قاعدة المثلث والزاويتين المحاذيتين، ويكون كل ضلع مساويا للمسافة بين مركز المراقبة والقمر. غير أن الملمين بالأمور الهندسية يعلمون أن حل هذه



□ «سبكتروفوتوميتر» جهاز يستخدم لقياس شدة الضوء النسبية بين مختلف اجزاء الطيف.

المسألة هو أمر سهل ويحتاج إلى بعض التعديلات البسيطة، نظرا لكون القمر جسما متحركا بالنسبة إلى كوكب الأرض، ولأسباب أخرى يعني بها الفلكيون من حيث دقة العملية.

وعندما نصل إلى قياس بعد الشمس والكواكب السيارة بطريقة «التثليث» الهندسية، حيث يرسم خطان من طرفي قاعدة أرضية إلى الجرم السماوي نجد أن قطر الأرض لا يصلح كقاعدة لأن الزاوية التي تتكون عند التقاء الخطين، تصبح صغيرة جدا ولا يمكن قياسها بشكل دقيق. لذلك راح الفلكيون يبحثون عن قاعدة أطول بكثير من قطر الأرض، فوجدوا ضالتهم المنشودة في قطر مدار الأرض حول الشمس، وهو يساوي ٣٠٠ مليون كيلومتر أي أنه يكبر قطر الأرض بأكثر من عشرين ألف ضعف. وقد اتخذت هذه القاعدة أساسا في قياس بعد الكواكب السيارة عن كوكب الأرض.

لكن مثل هذه العملية تقتضي إجراء مقاييس لهذه الأبعاد في أوقات مختلفة بينها ستة أشهر، وهذا ما يفسح المجال أمام الأرض لتقطع نصف المسافة في مدارها حول الشمس، وبذلك يتمكن المراقبون من رسم خطين من طرف القاعدة التي هي قطر مدار الأرض حول الشمس، إذ تتألف زاوية عند ملتقى الخطين تدعى زاوية الاختلاف ويسهل قياسها نظرا لكبرها، وتصبح القضية موقوفة على حل أضلاع المثلث. وقد تمكن الفلكيون من قياس بعد الشمس عن الأرض بدقة فائقة، كما توصلوا إلى أن الأرض تكون عند أقرب بعد لها عن الشمس في ٣ كانون الثاني (يناير) من كل سنة، وعند أقصى بعد لها عنها في ٤ تموز (يوليو) من كل سنة، أي بفرق في كلتا الحالتين يبلغ نحو مليونين ونصف مليون كم. أما معدل بعد الأرض عن الشمس فهو نحو ١٥٠ مليون كيلومتر، وشكل مدارها اهليلجي

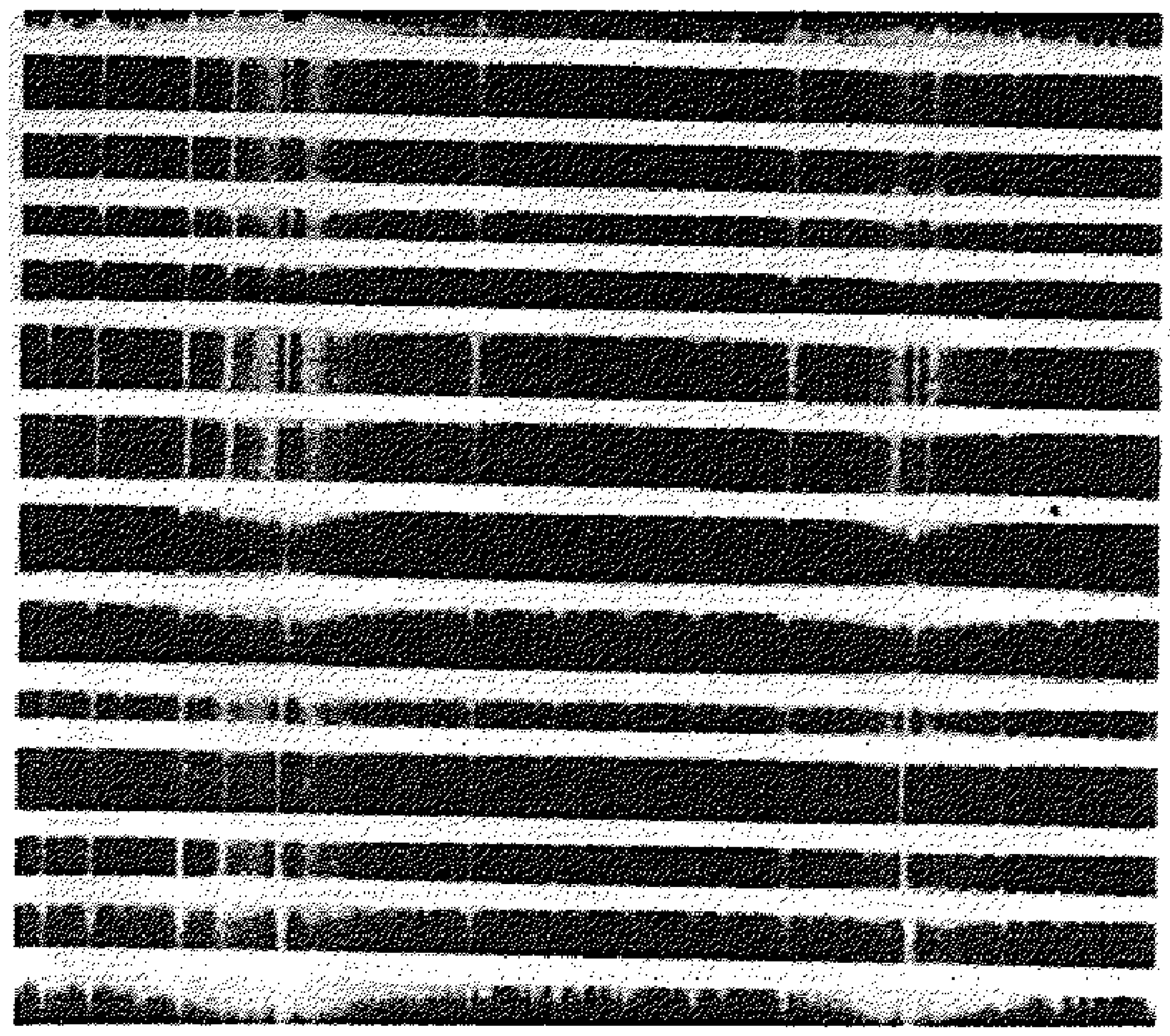
وتقع الشمس في أحد محرقيه.

وهناك طرق أخرى لمعرفة بعد الشمس عن الأرض، منها تلك التي تعتمد على بعد النجيمات التي تقترب كثيرا من الأرض، وتبلغ صحة هذه الطريقة نحو جزء من ٢٠٠٠٠، فكانت النتيجة أن معدل بعد الشمس عن الأرض يبلغ ٩٢,٩١٣,٠٠٠ ميل (الميل يساوي ١,٦١ كم). ويعتقد أن انعكاس أشعة الرادار عن سطح الكواكب السيارة القريبة والشمس، سيكون مكملا للطرق السابقة، لأن الأشعة هذه تنطلق بسرعة الضوء. ومن خلال معرفة الزمن اللازم لوصول هذه الأشعة إلى جرم سماوي والعودة منه بسبب الانعكاس، يتم تعيين المسافة بين الشمس والأرض وذلك بضرب نصف الزمن بالثواني بسرعة الضوء. هذا يذكرنا بقياس المسافة بين مركز ما وجبل أو بناية، عن طريق الصدى الذي يحدث بسبب ارتداد أمواج الصوت المنطلقة من المركز، وقد استخدمت هذه الطريقة في قياس عمق البحار أيضا.

وقد تم بالفعل قياس بعد كوكب الزهرة عن كوكب الأرض عن طريق الأمواج الراديوية كما تم مسحها عن طريق هذه الأمواج وانعكاسها، فأصبح العلماء بذلك مطلعين على طبيعة سطحها وما يغلفه من غيوم. ولما هبط رواد الفضاء على سطح القمر كان من بين أهدافهم العلمية تركيز صف من المرايا العاكسة، تصوب نحوها أشعة لازر من تردد يبلغ نحو ١٠٠ مليون ذبذبة في الثانية، وذلك حتى يتمكن الفلكيون من تعيين المسافة بين الأرض والقمر بدقة لا متناهية، وقد تم بالفعل قياس هذه المسافة بخطأ لا يزيد على متر واحد. ومن المنتظر أن تقوم استراليا بقياس هذه المسافة عن طريق جهاز لازري، تبلغ تكاليفه نحو مليون دولار استرالي، وذلك لتمكين العلماء من تحديد حركات قطبي الأرض، والحركات غير المنتظمة في دورانها.

أبعاد النجوم عن طريق اختلاف النجم السنوي والتصوير الضوئي

يواجه الفلكيون صعوبات عديدة في عمليات قياس أبعاد النجوم، لأن الطرق المستخدمة في قياس أبعاد الشمس والقمر والكواكب السيارة،



□ **صورة لاطياف عدد من النجوم يستعين بها العلماء لمقارنة إشراقها الظاهري بإشراقها الحقيقي وذلك لتحديد أبعادها.**

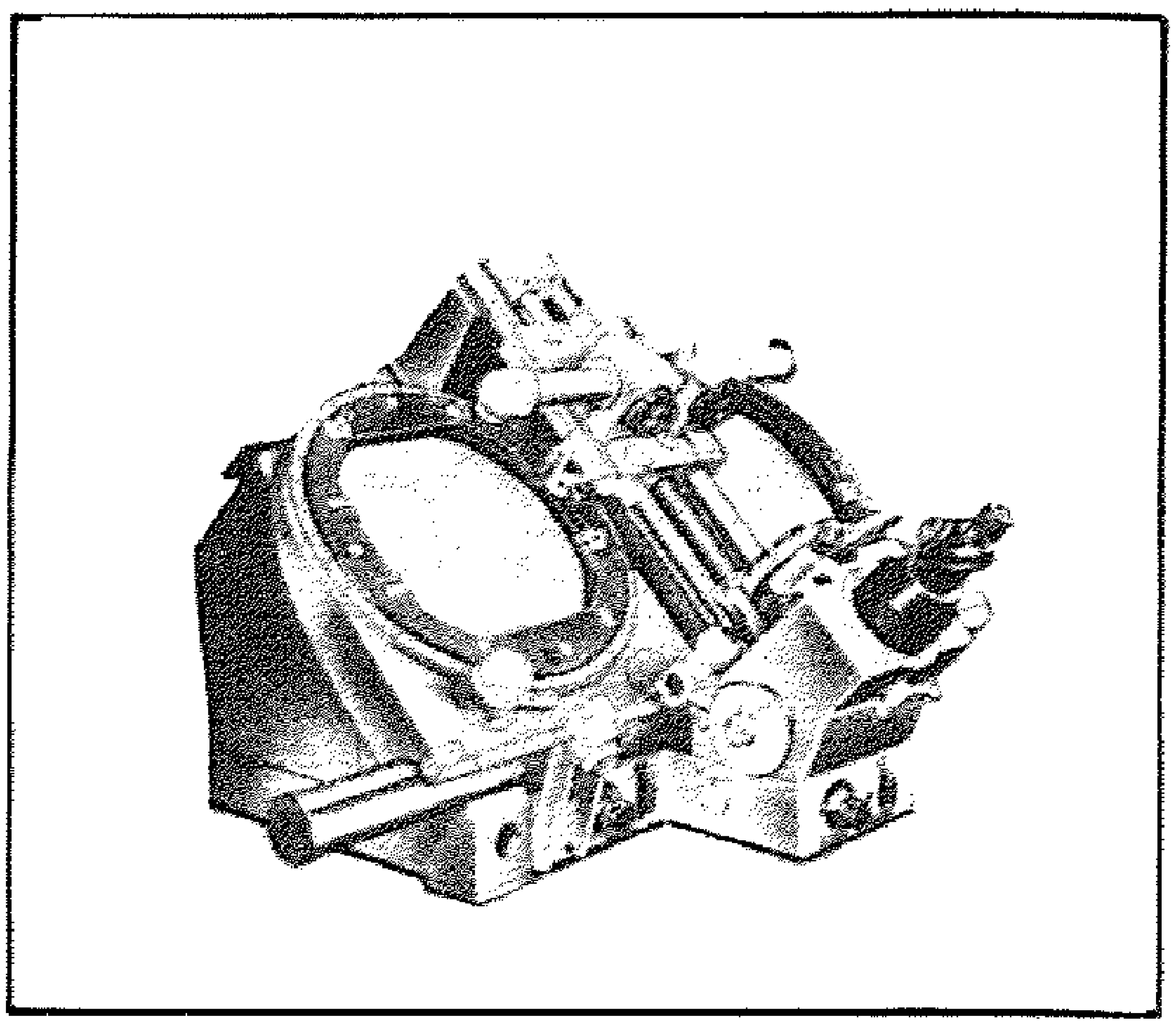
تصبح محدودة عندما ندرك أن أقرب نجم إلى الأرض يبعد عنها نحو ٣٨ ألف بليون كيلومتر، لذلك يغدو من غير الممكن قياس اختلاف النجم السنوي، أي الزاوية عند النجم التي يقابلها قطر فلك الأرض، بالطرق الهندسية المألوفة. هنا كان لا بد من اتخاذ وحدة خاصة لقياس أبعاد النجوم وهي المعروفة باسم «بارساك» وهي تساوي ٣٠٠٠٠ بليون كيلومتر. عند هذا البعد يصبح مقدار اختلاف النجم السنوي ثانية واحدة. ولما كان هذا الاختلاف يتناقص تدريجيا مع بعد المسافة، فإن مقدار اختلاف أقرب نجم إلينا وهو «الفا قنطوروس» يصبح نحو ٠,٧٦ من الثانية. وهناك معادلة بسيطة لاستخراج المسافة بعد معرفة الاختلاف بالثواني وهي:

$$\text{المسافة} = \frac{١}{\text{الاختلاف}}$$

(المسافة هنا هي بالبارساك).

لقد اعتنى علماء الفلك بقياس الاختلاف السنوي للثوابت، وأول من نجح في ذلك العالم الفلكي «بسل» في كونغسبرغ، ومما يشير إلى دقة الأجهزة المستخدمة أنه لو اختلف بعد نجم عن بعد نجم آخر بحيث يقتضي مليون سنة لكي يكمل دورة واحدة، فإن تلك الحركة يمكن كشفها في نصف سنة.

أما «بسل» فقد اخترع آلة سماها، «هيليومتر» وأكملها عمليا «فراونهوفر». وعندما أخذ هذا الأخير يرصد نجما مزدوجا يعرف باسم «٦١/

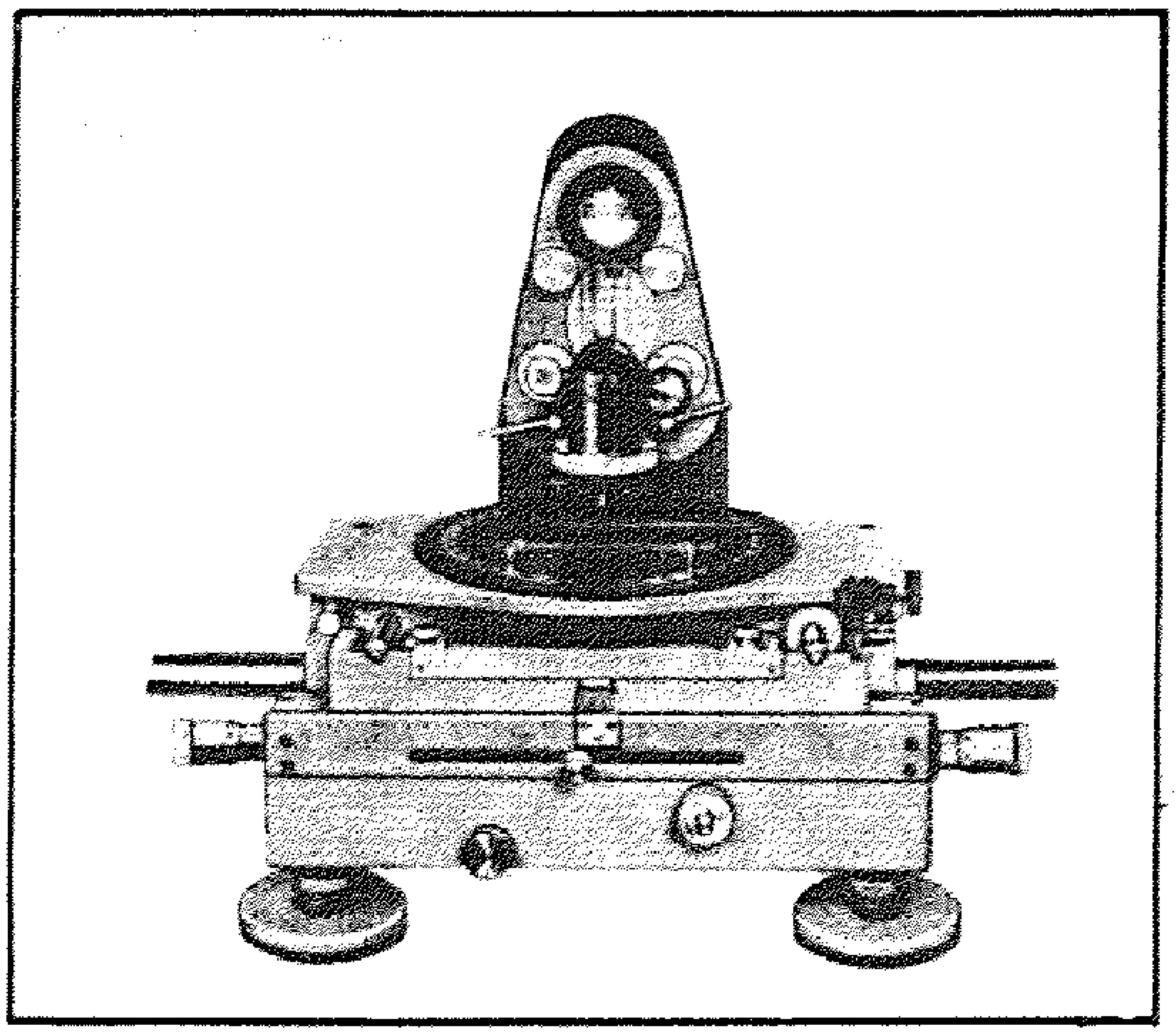


□ مقياس ضوئي لدراسة الالواح الطيفية وتقويم نوعيتها.

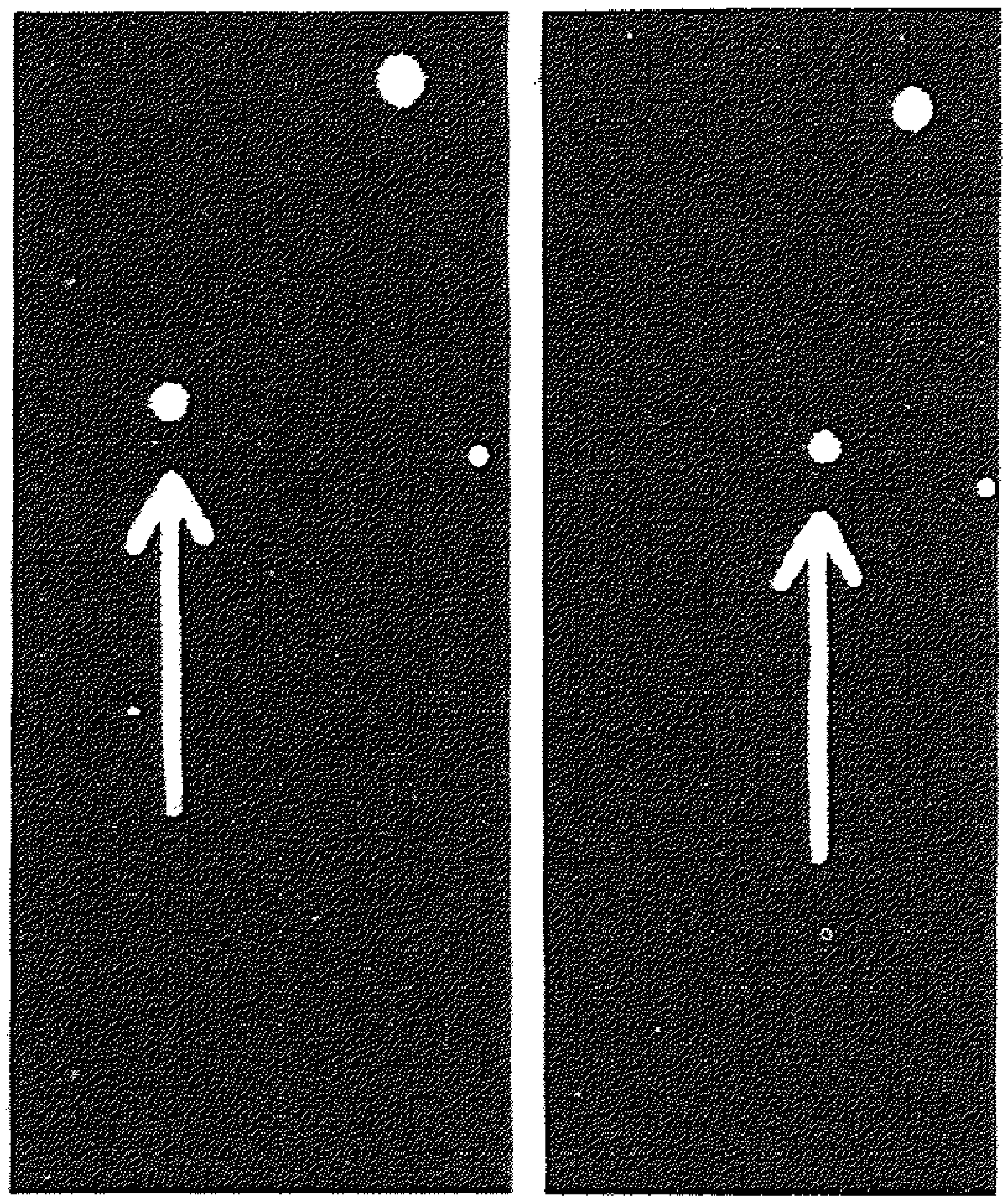
الدجاجة» من أواسط آب (أغسطس) سنة ١٨٣٧ إلى أواخر أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٣٨م، اكتشف أن هناك اختلافا بسيطا جدا في عملية رصد هذا النجم. ثم أعاد الرصد سنة أخرى وثالثة، فتبين له أن الاختلاف صحيح ويبلغ ٠,٣٤٨ من الثانية.

إن الوقت الذي يقضيه علماء الفلك في مراقبة النجوم عبر المراقب لا يساوي سوى القليل بالنسبة إلى ما يقضونه في تحليل الصور الضوئية. إذ أن الصورة التي تغطي مساحة تبلغ بضعة أضعاف حجم القمر، تحتوي على عشرات آلاف النجوم. ومع تقدم نظام التلقائية في عمل الآليات، توصل العاملون في المراصد الانجليزية عام ١٩٧٠ بالتعاون مع بعض الشركات إلى صنع جهاز يوجهه دماغ الكتروني، يستطيع تحديد مركز ١٠٠٠ نجم وقياس درجة لمعانها في الساعة. وفي الأشهر الثلاثة الأولى من العمل، تمكن هذا الجهاز من تعيين مواقع أكثر من ربع مليون نجم، بالاضافة إلى قياس لمعان وحرارة ٤٠ ٠٠٠ نجم آخر استنادا إلى اللون بواسطة مرشحات ضوئية مختلفة.

هذا وقد كان للألواح الفوتوغرافية دور كبير في تسجيل أوضاع النجوم، وتحديد مواقعها ومعرفة أبعادها. لكن الضوء الضعيف المنبعث عن نجم ما يظل لعدة ساعات ذا فعالية على اللوح الفوتوغرافي، فيحدث انطباعا يمثل مصدر



□ يستخدم هذا الجهاز في دراسة الألواح الفوتوغرافية المأخوذة للنجوم، وفي تقدير مدى انتقالها بالنسبة إلى مركز معين.



□ صورتان للكوكب السيار «بلوتو» تبينان حركته خلال ٢٤ ساعة. وهو يبعد نحو ٥٨٧٠ مليون كلم عن الارض.

الضوء، وتظل الصورة تمثل ذلك الواقع على مر السنين، فيتمكن الفلكيون من مقارنته مع حدث آخر. ونظرا لأهمية هذه الطريقة في تعيين مراكز النجوم لمعرفة أبعادها، قام عدد من المراصد الفلكية في بلدان مختلفة بوضع دليل لعدد من النجوم لغاية القدر الحادي عشر يبلغ ستة ملايين، سيكون في متناول علماء الفلك إلى أجل

طويل، يمكنهم من تعيين مواصفات وضع هذه النجوم مع مرور الأيام.

ومعلوم أن الزمن هو العنصر الأساسي لرصد تحركات النجوم القريبة بالنسبة إلى البعيدة منها، فكلما طال الزمن ازدادت قدرة التحرك بين نجم وآخر. لذلك نرى علماء الفلك يلجأون إلى صور تفصلها أزمنة تقدر بزهاء ٥٠ عاما كي يتسنى لهم معرفة تحركات النجوم البعيدة للغاية وذلك باتخاذ مركز خلفي هو أحد المجرات المتناهية في البعد. ومع تقدم وسائل الرصد الحديثة، اكتفى علماء الفلك بالتقاط صور لتلك النجوم البعيدة المدى مرة كل ٢٠ سنة أو ٢٥ سنة، على أمل التوصل إلى معرفة تفاصيل دورة مجرتنا حول نفسها، لأن المجرات الأخرى لا تسهم في هذه الحركة.

تحركات الأرض والمجرة (الطريق اللبنية) على ضوء مقاييس حديثة

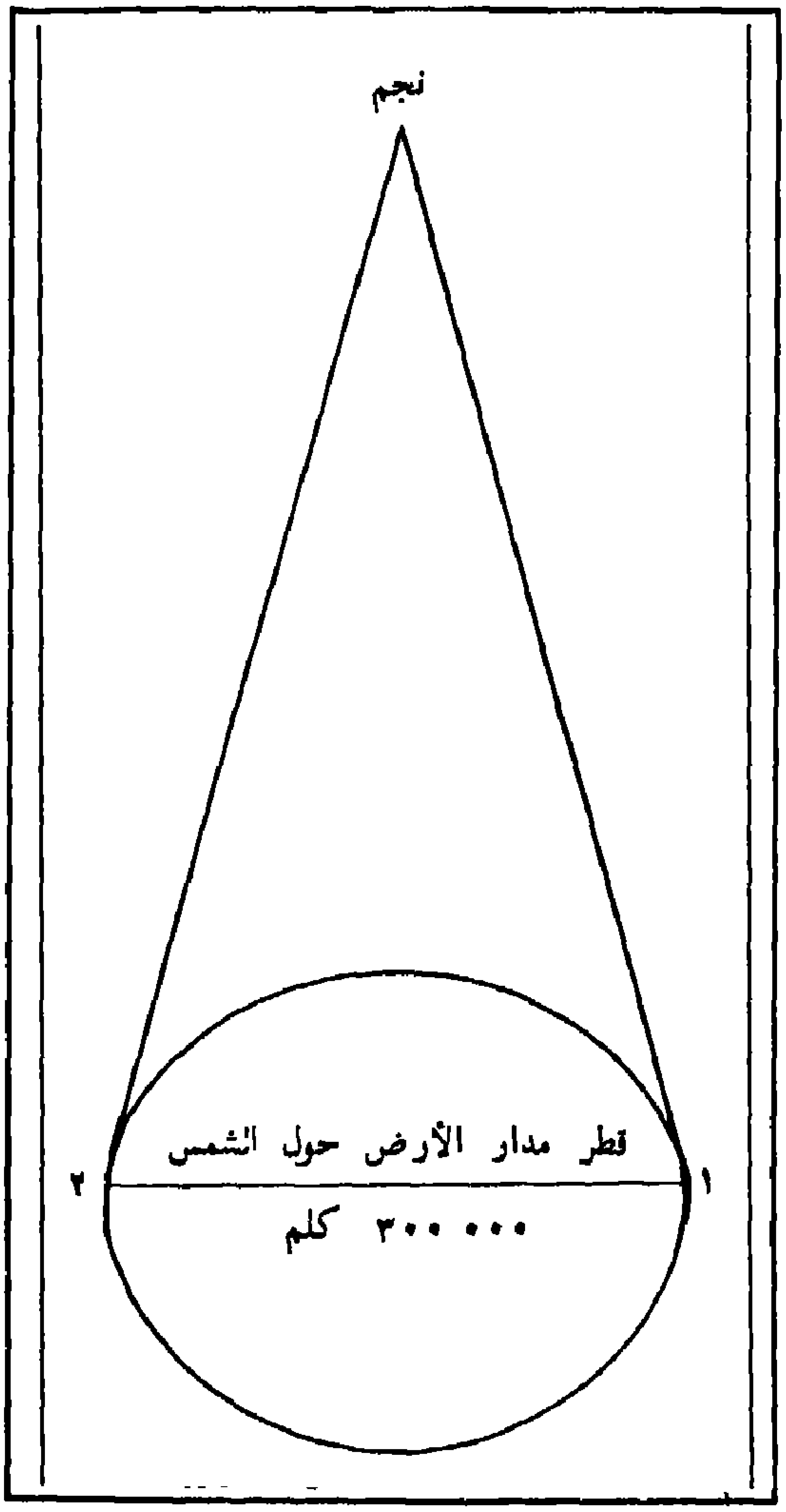
كان من بين الأهداف الكامنة وراء هبوط رجال الفضاء على سطح القمر، وضع جهاز للمواصلات مكون من ١٠٠ مرآة مهمتها استقبال حزم من أشعة لازر تبثها محطات معينة، وإرسالها إلى الأرض. وتستمر هذه التجربة مدة عشر سنوات لمعرفة المسافات بين الأرض والقمر في أزمنة مختلفة أثناء دوران القمر حول الأرض، وكذلك التغيرات التي يحتمل حدوثها في مدارات وأزمنة دوران هذين الجرمين.

ومع أن الفلكيين تمكنوا منذ زمن بعيد من معرفة سرعة الأرض في دورانها حول الشمس وهي ١٠٧٢٨٠ كم في الساعة، وكذلك سرعة دوران النظام الشمسي حول مركز مجرتنا وهي ٦٠٠ ٧٦٩ كم في الساعة، بالاضافة إلى معرفة سرعة دوران المجرة حول مركز تجمع جبار مؤلف من ٢٥٠٠ مجرة مجاورة لمجرتنا وهي ٠٠٠ ١٦٠ ٢ كم في الساعة، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى معرفة سرعة الأرض ومجرتنا بالنسبة إلى هذا الكون الشاسع الفسيح. وتوضيحا لضخامة هذه الأبعاد، نكتفي بالاشارة إلى أن الشمس والكواكب السيارة تحتاج إلى ٢٠٠ مليون سنة بسرعة ٦٠٠ ٧٦٩ كم في الساعة لتدور مرة واحدة حول مركز المجرة.

لقد عجز علماء الفلك عن قياس سرعة الأرض ومجرتنا بالنسبة للكون المحيط بنا، لأنه لم يكن لديهم مرجع يعتمدون عليه في هذا المجال، الأمر الذي لا بد منه في قياس كل سرعة لجسم متحرك. غير أن فلكيا أميركيا في الثانية والثلاثين من عمره ويعمل في جامعة ستانفورد، قد توصل إلى حل هذه المعضلة معتمدا على ظاهرة مجال الاشعاع الذي يغلف جميع أجزاء الفضاء، وهو ضعيف للغاية وله تردد عال.

وبواسطة مرقبين راديويين أقيما على رأس جبل عال باتجاهين معاكسين، صار مسح أرباع

□ رسم يبين كيفية إجراء قياس خط الاتجاه من الأرض إلى النجم بعد أن يكون قد مر ستة اشهر على قياس الاتجاه الأول عندما تكون الأرض في النقطة المقابلة من قطر مدارها.



مختلفة من الفضاء بشكل يمنع حدوث أي خطأ يتولد عن تركيب الأجهزة الالكترونية. وبعد الحصول على معلومات تم جمعها في مدة ٢٣ يوما، تمكن هذا العالم الفلكي من معرفة سرعة الأرض باتجاهها نحو ربع الاشعاع.

دور المطياف في قياس أبعاد النجوم بمساندة الاشراق

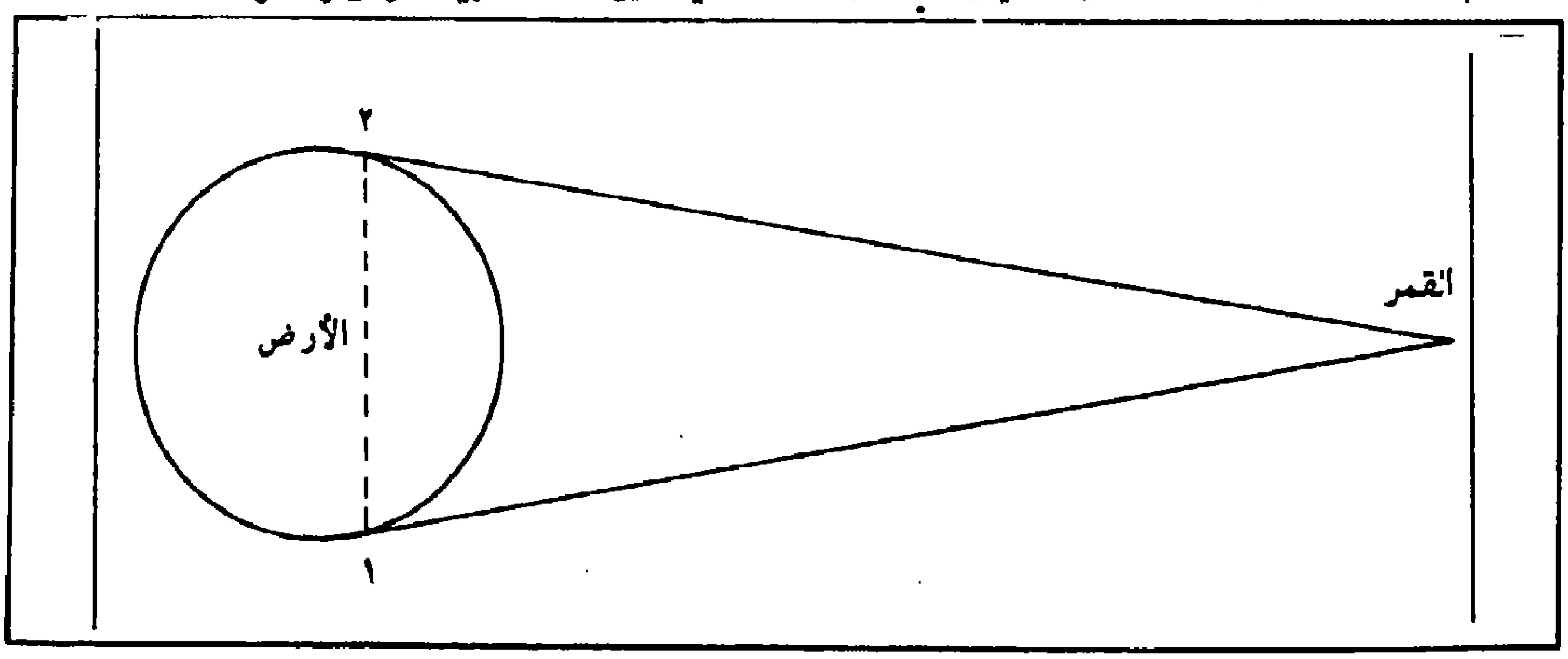
يوالي العلماء تحقيق انتصارات عديدة في شتى الحقول العلمية ومن بينها حقل الفلك، إذ تمكن العلماء من تعيين بعد النجم المعروف برقم ٦١ في كوكبة الدجاجة، ومقدار ذلك عشر سنوات ضوئية. ولقد تطورت معدات التصوير الحديثة وأصبح بالامكان قياس أبعاد جميع النجوم الواقعة ضمن دائرة يبلغ نصف قطرها ٥٠٠ سنة ضوئية قياسا علميا دقيقا. أما مقياس أبعاد النجوم الواقعة خارج هذه الدائرة، فإن أساليب التصوير وما يرافقها من معدات دقيقة، تقف عند هذا الحد حيث يصبح المطياف مع ما يرافقه من معدات، الوسيلة الوحيدة في قياس الأبعاد الشاسعة.

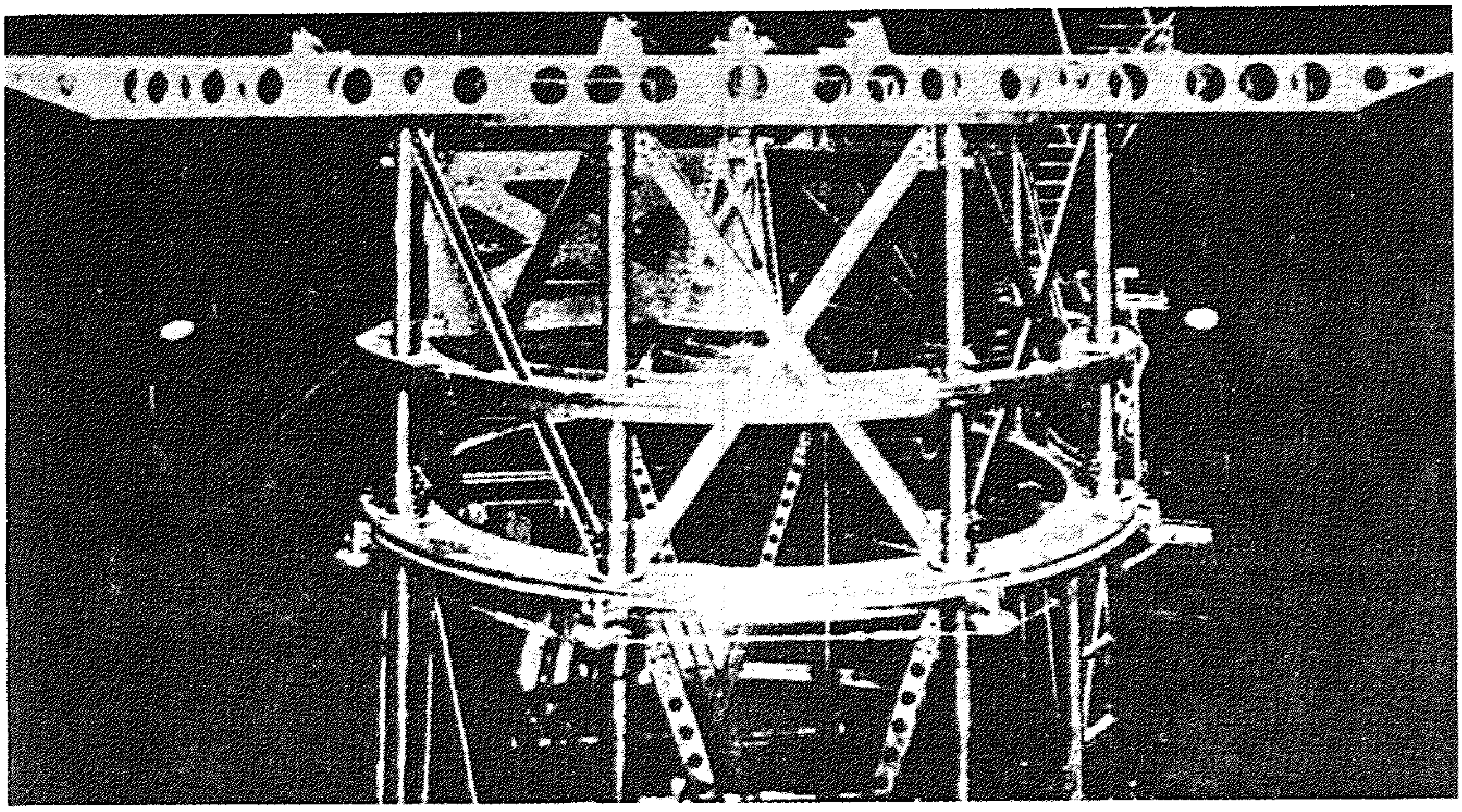
والمعروف في علم البصريات أنه إذا مر شعاع نور نجم من النجوم في المطياف، فإن هذا الشعاع يتحلل إلى الألوان التي يتألف منها، وينتشر على شكل حزام عريض من النور، يتخلله عموديا عدد كبير من الخطوط الضيقة المظلمة. وقد أطلق على هذه الظاهرة اسم «الطيف». وبذلك غدا المطياف وسيلة أساسية لمعرفة مقدار حرارة النجوم ومقدار قوة شعاع نورها ومدى بعدها، وكذلك معرفة سرعة اقترابها أو ابتعادها من كوكب الأرض.

وقد أصبح معروفا عن طريق المطياف أن التجمع النجمي في برج «هرقل» يقترب من الأرض بسرعة ٣١٣ كيلومترا في الثانية. ويتألف هذا التجمع أو العنقود من نجوم تبلغ كتلتها ما يساوي كتلة ١٠٠ ٠٠٠ شمس كشمسنا. وهذه النجوم تتحرك باستمرار بالنسبة إلى بعضها البعض. أما قوام هذه العملية فهو الحيود إلى الاحمرار أو البنفسجي في خطوط الطيف، فعندما تحيد الخطوط إلى الاحمرار، فمعنى ذلك أن الجسم أخذ في الابتعاد، وعندما تحيد الخطوط نحو البنفسجي فذلك دليل على أن الجسم آخذ في الاقتراب. ومن خلال معرفة مقدار نسبة الحيود في خطوط الطيف، يتم تعيين مقدار الاقتراب أو الابتعاد على نمط ما يحدث لأي مصدر من مصادر الصوت، الأمر الذي نلاحظه عند اقتراب أو ابتعاد القطار عنا، من اختلاف في ارتفاع درجة صفيره الذي يتولد عن تغير ظاهري في عدد الاهتزازات التي تصدر منه في الثانية.

وهناك طريقة أخرى مساندة للطرق التي مر ذكرها لقياس الأبعاد السماوية تم اكتشافها حديثا. وتقوم هذه الطريقة على أساس وجود نجوم يتغير إشراقها تغيرا دوريا، فكأن كلا منها قلب ينبض بانتظام، وهي تعرف بالمتغيرات القيفاوية. فإذا راقبنا قيفاويين متغيرين لهما دورة تغير واحدة، وكان إشراق أحدهما الظاهري

□ علم المثلثات من الوسائل العلمية التي يعتمد عليها العلماء في تعيين المسافة بين الأرض والقمر.





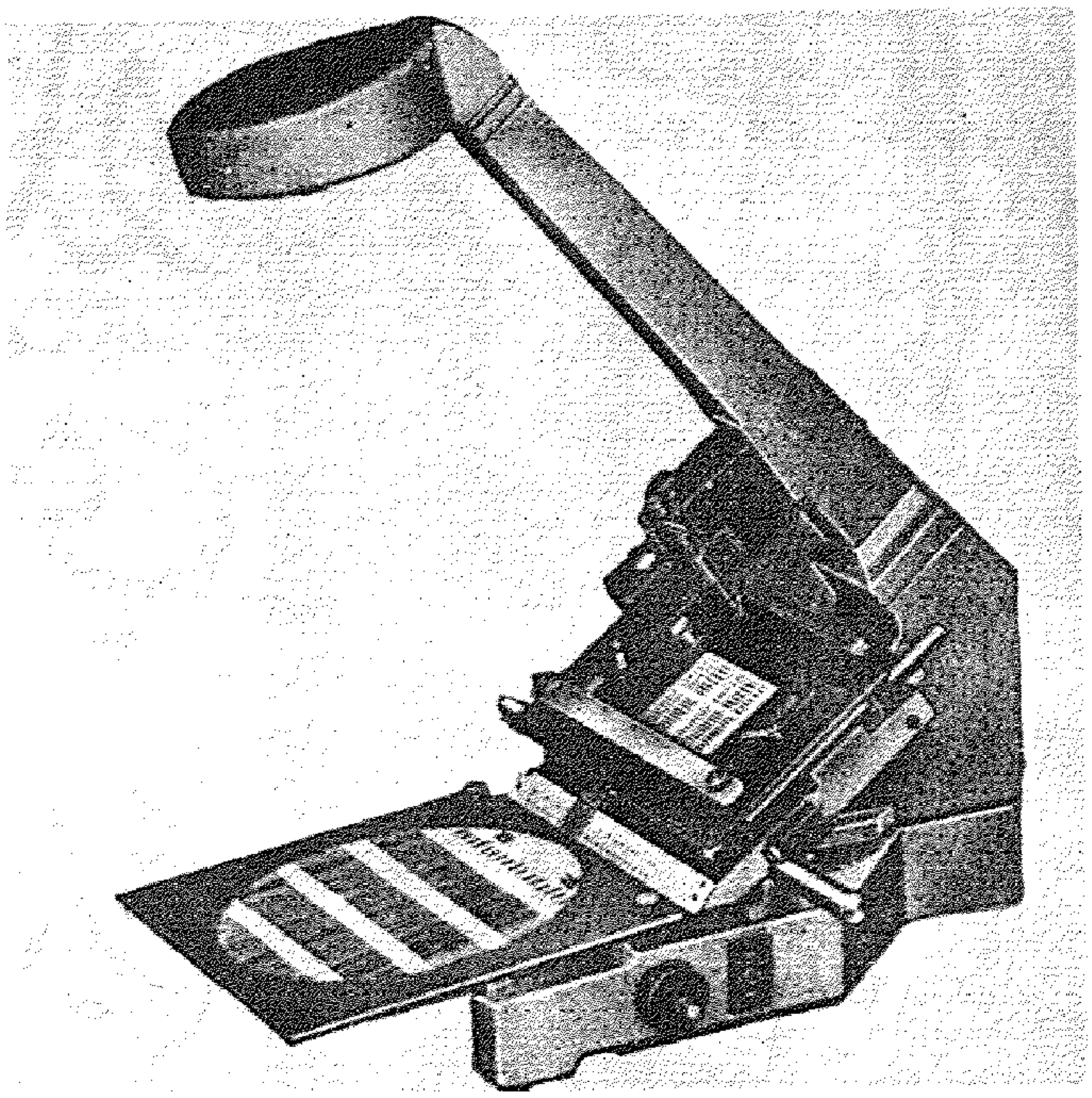
□ جهاز «انترفيروميتر ـ Interferometer» أو مقياس التداخل، وهو اداة تستخدم ظواهر التداخل الضوئي لتحديد طول الموجة ومعامل الانكسار لدى قياس الأبعاد بين الكواكب والنجوم من على سطح الأرض.

يفوق إشراق الآخر مائة ضعف، فإنه يمكن القول بأن أقلها إشراقا هو أبعد من الآخر بمقدار عشرة أضعاف، وإذا كان أحدهما يقع في مجموعة معينة من النجوم وعرف بعدها عن الأرض بالوسائل السالفة الذكر، فإنه يصبح بالامكان استخراج بعد الآخر. وقد طبق العلماء هذه الطريقة على نجوم ومجرات عديدة، فأصبح لديهم رصيد هائل من القياسات الكونية.

وبإدخال جهاز «التداخل ـ Interferometer» على المراقب الضوئية، تسنى للفلكيين معرفة مقاييس فلكية تفوق تصور العقل البشري. ومن محاسن هذا الجهاز تمكين العلماء من قياس قطر النجم المعروف بمنكب الجوزاء (٣٤٤ مليون كم)، وقطر النجم السماك الرامح (٣٣,٥ مليون كم). وقطر النجم قلب العقرب (٦٤٠ مليون كم). وقد أمكن تحقيق ذلك عن طريق مرآتين صغيرتين توضعان على الحرف العلوي وعلى مقربة من طرفي العارضة بحيث تجمعان إشعاعين من الضوء. ومن تداخل هذين الاشعاعين يمكن تعيين قطر المصدر.



□ «مقياس الطيف ـ Spectrometer» من الادوات الفعالة التي تسهم في تحليل الكثير من المعلومات التي تساعد على دراسة الألواح الفوتوغرافية.



□ جهاز خاص بعرض الألواح الطيفية بغية تدقيقها وتعيين مراكز الأطياف.

تعرف إلى سماء بلادك

وضعت الخرائط على أنواعها لتوضيح مواقع معالم الأرض من جبال وسهول وبحار وأنهار، ومدن ومراكز تساعد على الأسفار وضبط المسافات بين مكان وآخر. وكان هذا أمرا سهلا نظرا لتمكن الانسان من الوصول إلى بقاع الأرض القريبة والنائية. وقد أسهمت الأقمار الاصطناعية أخيرا، في ضبط المسافات بشكل دقيق مما زاد في معرفة ما يحتاج إليه المهندسون في تخطيط مواقع ما كان مجهولا إلى يومنا هذا، من مواقع مراكز الثروات الطبيعية المختلفة التي تحتضنها الأرض.

وهناك ناحية لا بد من التعرف إليها في حياتنا الخاصة والعامة، وذلك في القبة الزرقاء التي تعشقها الأقدمون وأكبوا على دراستها ووضع خرائط لها، وأطلقوا أسماء الأبراج على بعض تجمعاتها، وحددوا مواقع النجوم بشكل دقيق حسبما تيسر لهم من وسائل.

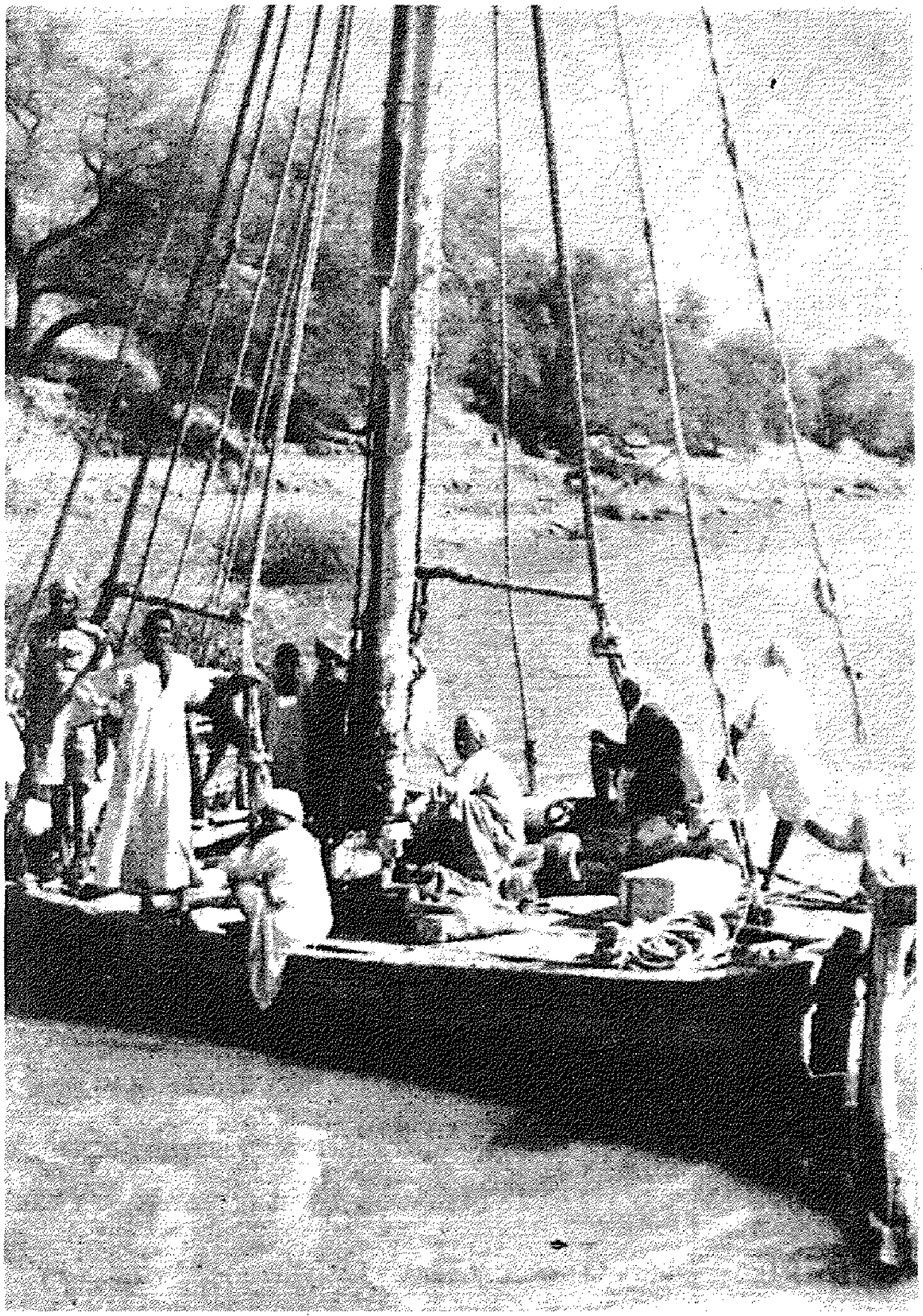
وبسبب دورة الأرض يتغير وضع النجوم والأبراج من فصل إلى آخر، كما يتغير وضع الشمس الذي يسبب الفصول، لذلك تظهر تجمعات النجوم في أوقات مختلفة من السنة وتغيب لتعود ثانية إلى وضعها الأول، فأصبح بعض الأبراج يعرف بأبراج الصيف أو الخريف أو الشتاء أو الربيع.

وليس من العسير على من أراد تتبع ظهور الأبراج الرئيسية، وما فيها من نجوم بارزة، أن يتعرف إلى نجم القطب الشمالي الفلكي، لأن هناك علاقة ثابتة بين هذا النجم وبرج الدب الأكبر أو بنات نعش، التي اتخذها الأقدمون من بابليين ومصريين وعرب، وسيلة يهتدون بها في أسفارهم.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا، أن مشاهدة النجوم في النصف الشمالي من القبة الزرقاء، تزداد وضوحا كلما اتجهنا شمالا من خط الاستواء ويختفي بعض ما كان ظاهرا منها في النصف الجنوبي من القبة الزرقاء. وينطبق الشيء نفسه على من يتجه جنوبا من خط الاستواء، إذ يشاهد ما كان منحجبا عنه قبلا من الأبراج الجنوبية، تاركا وراءه بعض الأبراج الشمالية. وعندما يقترب المشاهد من أحد القطبين، يستطيع رؤية بعض الأبراج بصورة دائمة. وهناك كثير من التحركات النجمية، تبدو كواقع حقيقي لمن يدقق في تعيين مراكز النجوم وتجمعاتها وتحركاتها. ●

دنقلا العجوز عبر التاريخ

عبد العال أحمد عثمان



□ بحارة وتجار من دنقلا، وقد لعب هؤلاء دورا بارزا في انفتاح جنوب السودان الاقتصادي خلال القرن التاسع عشر.

أصل اسم المدينة:

يذكر السيد محمد سعيد أحمد عبد الله حديثا منسوبا إلى السيد (حسن احميدي)[١] أن (دنقل) معناها في اللهجة الدنقلاوية الطوب الأحمر[٢] ولما كانت دنقلا العجوز في معظمها مبنية بالطوب الأحمر وكان يقيم فيها الحاكم العام) حيث كان المظلوم يقول لخصمه سوف أشكوك في الدنقل أي في المكان الذي يقيم فيه الحاكم والمبنى من الطوب الأحمر ويرى أنه بمرور الزمن حرف الاسم إلى دنقلا والكلمة مشتقة أصلا من دنقل.

ولكن بما أني دنقلاوي وأجيد لهجة الدناقلة فإن كلمة دنقل لا تعني الطوب الأحمر فقط إنما تطلق أيضا على كل شيء صلب قوي ومن هنا ربما سميت دنقلا العجوز (بدنقل) ثم حرفت إلى دنقلا لأنها تقع في أرض صخرية صلبة مرتفعة أو ربما كان الحاكم المذكور قاسيا صلبا في حكمه وسمي (بدنقل) ويؤيد قولي هذا وصف يونيه (الطبيب الذي مر بالبلاد في طريقه إلى الحبشة سنة ١٦٩٨)، إذ يقول (وصلنا إلى دنقلا فأذن لنا الملك بالدخول وبيوتها مبنية بناءا رديئا وطرقاتها شبه مهجورة وقصر الملك في وسط المدينة وهو مبعث رهبة في نفوس العرب الذين هم سادة هذه المنطقة)[٢].

اما دنقلا الحالية العرضي فيرى الدكتور مكي شبيكة (أن المماليك اتخذوا من مراغة الواقعة شمال دنقلا عاصمة لهم وسموها دنقلا الجديدة)(٣).

وهناك رأي آخر يتداوله أهالي المنطقة وهو أن دنقلا مكونة من (دنق) ومعناها بلهجة الدناقلة النقود. (ولا) النافية ويقال أن سان المدينة كانوا يقولون (دنق لا) عند حضور جامعي الضرائب أي لا توجد نقود ثم حرفت العبارة إلى دنقلا.

وللتمييز بين دنقلا الحالية وعاصمة المقرة فإن الأخيرة تسمى دنقلا العجوز والأولى دنقلا وقد تسمى العرضي أو الأوردي، ويقال أن اسماعيل باشا وضع فيها أورديا (أي فيلقا من العساكر) فاطلق عليها اسم الأوردي وحرف إلى العرضي)(٤).

نشأة المدينة:

تعتبر مدينة دنقلا من المدن السودانية الحديثة حيث بدأ ظهورها على مسرح التاريخ بعد سقوط دولة المقرة المسيحية التي كانت تتخذ من دنقلا العجوز عاصمة لها. ويبدو أن المدينة بدأت كقرية زراعية إذ أن المصدر الوحيد للحياة فيها هو النيل الذي تطل عليه المدينة مباشرة من جانبه الغربي بالاضافة إلى خصوبة تربتها التي تعتبر من طمى النيل حيث كانت تتفرع ترعة قديمة من النيل من جنوب المركز وتصب شمال الديم الحالية ومما يرجح نشأتها الزراعية أيضا أن المباني القديمة نسبيا تقع إلى الغرب بمسافة من النيل بينما شاطىء النيل مبانيه حديثة ومعظمها مباني حكومية وهذا يدل على أن السكان اتخذوا من مكان المباني القديمة مسكنا لهم بينما استخدموا الأراضي القريبة من النيل للزراعة يضاف إلى كل ذلك وجود الجنائن وسط مباني المدينة.

ثم بدأت تظهر التجارة بما نسبة لوقوعها في منطقة غنية بالسلع الزراعية التي كان لا بد لها من سوق، فناسب موقع دنقلا خلق سوق وسط وزادت أهميتها التجارية مع مرور الزمن بعد إزالة الصخور التي كانت تعوق الملاحة بين كريمة وكرمة(٥) وبعد فتح حياض دنقلا حيث أخذت المراكب تسير في النهر صاعدة وهابطة وهي محملة بالبضائع بين كريمة ودنقلا بالاضافة إلى الطريق البري الذي كان يربط بينهما بالجمال وبينها وبين أم درمان كذلك.

وصف المدينة:

تشبه مدينة دنقلا مستطيلا يمتد طوله من الشرق إلى الغرب وعرضه من الشمال إلى الجنوب ويأخذ في الاتساع لناحية الغرب حيث الأراضي الواسعة التي تلتقي بالسلسلة الجبلية.

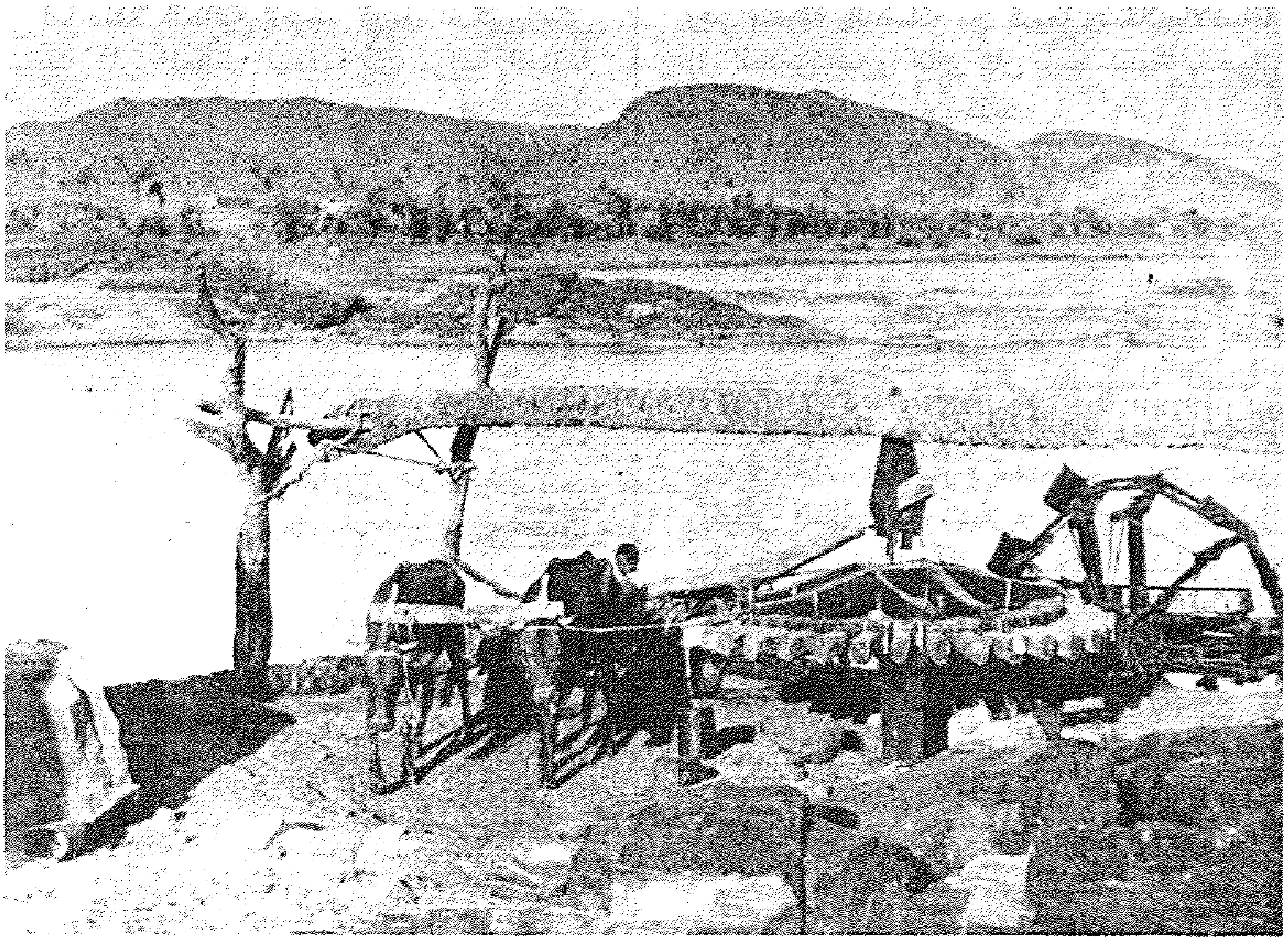
أما شوارع المدينة فمنتظمة، ومن أشهرها شارع النيل وهو شارع قصير يمر ما بين النيل والمباني المطلة عليه، وشارع المستشفى وهو أول شارع غرب الشارع السابق. وهذا الشارع يعج بالحركة الدائبة لمروره بالسوق والمنطقة التجارية، أما شارع المسرح فيتجه من الغرب إلى الشرق واكتسب اسمه حديثا بعد افتتاح المسرح في يناير ١٩٧٨ وشوارع المدينة عموما مشجرة بأشجار النيم وتشق الجداول الشوارع لري الجنائن داخل المدينة وأشجار الزينة والنخيل داخل بعض المباني الرسمية كالمستشفى والمجلس وأقيمت لهذا الغرض طلمبة على النيل حيث تجاور مبانيها مباني البريد والبرق.

السكان:

تشمل كلمة دناقلة سكان المنطقة الواقعة ما بين الدبة جنوبا وكرمة شمالا دون تمييز لأصل القبائل وإن كان الدناقلة النوبيون هم اقدم السكان وأكثرهم عددا وعند بداية نشأة المدينة كانوا أساسا نواة السكان ومن الصعب تمييزهم اليوم عن الآخرين بسبب الاختلاط فالمماليك بعد اتخاذهم مراغة عاصمة لهم تصاهروا معهم بعد أن أعادوا زوجاتهم إلى مصر(٦)، وكذلك الحال مع القبائل الأخرى، وفيما يلي نستعرض بعض القبائل:

(أ) الدناقلة:

يشكلون أغلب السكان وما زالوا محتفظين بلهجتهم بالرغم من استخدامهم للغة العربية وانتشار التعليم ومتطلبات الحياة المدنية، غير أن تأثير اللغة العربية في لهجتهم تبدو اليوم واضحة.



□ دنقلا الزراعية، حيث النيل هو مصدرها الوحيد للحياة.

وأهم ما يميزهم الهجرة إلى داخل البلاد وخارجها لدرجة أضرت بالمدينة وعاقت نموها العمراني، أما دافعهم إلى الهجرة فهو عجز المهن المتوفرة بالمدينة على استيعابهم لعدم قيام الصناعة بشكل واسع بها فدنقلا مدينة تجارية ولم يألف الدناقلة النوبيون التجارة وهم يتركزون حاليا في أطراف المدينة حيث تقع بعض الأراضي الزراعية كما يقومون بزراعة جزيرة المساكين.

وقد قفز عدد المهاجرين حسب احصاء نشر بمجلة الشباب العدد ٢٦٨، ١٩٧٨ من ٣٥١١ مهاجرا في سنة ١٩٥٦ إلى ٦٢٧٥ في سنة ١٩٧٣.

(ب) القبائل الأخرى:

يقطن المدينة قبائل أخرى وبأحجام مختلفة وأبرزها مجموعة السكان المعروفة محليا باسم (الحلب) أو (الفلاليح) يستخدم الاسمين الدناقلة ويقصد بهما كل ذي بشرة صفراء وهم بالطبع لا ينتمون إلى قبيلة واحدة ومنهم القناوية ويعني أنهم قدموا من صعيد مصر من قنا ثم النزهية والسيسبين.

والحلب يمثلون أغنى طبقة إذ يعمل أغلبهم بالتجارة والمقاولة ويتركزون في وسط المدينة، وبالاضافة إلى هؤلاء هناك مجموعات صغيرة من قبائل المناطق المحيطة بمنطقة دنقلا كالمحس وعرب الكبابيش.

المراحل التاريخية للمدينة:

١ ـ عهد المماليك:

لم تظهر دنقلا العرضى على مسرح التاريخ إلا بعد سقوط دنقلا العجوز ولم تذكر المراجع أهمية لها في العهد المسيحي فبعد سقوط دنقلا العجوز على أيدي المماليك عقد الشايقية صلحا معهم يحتل بمقتضاه المماليك كل البقعة الغربية للنيل ما بين الخندق جنوبا والحنك شمالا واختاروا

مـراغة عـاصمـة لدارهم ومملكتهم الجـديـدة وسرعان ما ازدهرت المدينة الجديدة التي سموها دنقـلا الجديـدة وقد اهتم المـاليك بـالزراعة وخاصة انتاج القمح وقام من كان معهم من مهرة الصناع بصنع المراكب وأصبح في عهدهم لدنقلا الجديدة مركز تجاري ممتاز ولا زالت صناعة المراكب هذه تتم في جزيرة لبب الواقعة جنوب المدينة وبعد مرور أشهر على إقامة المماليك في عاصمتهم الجديدة تصاهروا مع سكان البلاد بعد أن بعثوا بنسـائهم لمصر وأصبح لدنقـلا اتصال بمصر في عهدهم. وبعد أن استقروا بها حوالي عامين بدأوا بحملات تأديبية لتسويـة حساباتهم مع من يقتسمون معهم الملك والسيادة وهم الشايقية.

«سير المماليك حملة في يناير ١٨١٢ اتجهت من مراغة إلى دار الشايقية وبينما كانت هذه الحملة تشق طريقها كانت فرقة من الشايقية قد وصلت إلى مراغة وأوقعت خسـائر فـادحة في ما خلفه المماليك من أمتعة وممتلكات في مراغة».

«وعند سماع المماليك بنبأ الاغارة انقسموا إلى فرقتين كانت احداها تحت امرة ابراهيم بك ورجعت إلى مراغة والأخرى بقيادة عبد الرحمن بك إلى دار الشايقية وعادت هذه الأخيرة بعد أن نشبت بينهـا وبين الشـايقية معـركة في حلة حتانى(٧).

٢ ــ العهد التركي:

تظهر وتتضح أهمية دنقلا العرضى مع الحكم التركي حيث دخل جيش محمد علي دنقلا بقيادة ابنه اسماعيل باشا دون مقاومة تذكر لأن الأهالي ذاقوا الأمرين من الشايقية والمماليك وفوق ذلك فهم شعب شغلوا بفلاحة الأرض(٨). وعند قدوم اسماعيل باشا كان بمراغة عاصمـة المماليـك ثمانون رجلا فأتى عشرون منهم مسلمين وفر الباقون إلى شندى.

اختار اسماعيل باشا دنقلا عاصمة للبلاد بدل دنقلا العجوز فوضع فيهـا أورديا أي فيلقـا عسكريا. وقد جاءت تسمية المدينة فيما بعـد بدنقلا الأوردي كما ذكر.

بقي اسماعيل بدنقلا.. يخـاطب الشايقيـة بتسليم أسلحتهم وخيولهم ولما رفضـوا زحف نحوهم في عصر ٤ نوفمبر عام ١٨٢٠ وعين بدنقلا مديرا.

ولما كان هم محمد علي جلب الرجال والذهب فقد أرسل الدفتردار خمس ألف من الأسرى من اقليم كردفان في قوافل تشمل كل واحدة منها الألف إلى دنقلا ليرسلهم مديرها بعد ذلك إلى



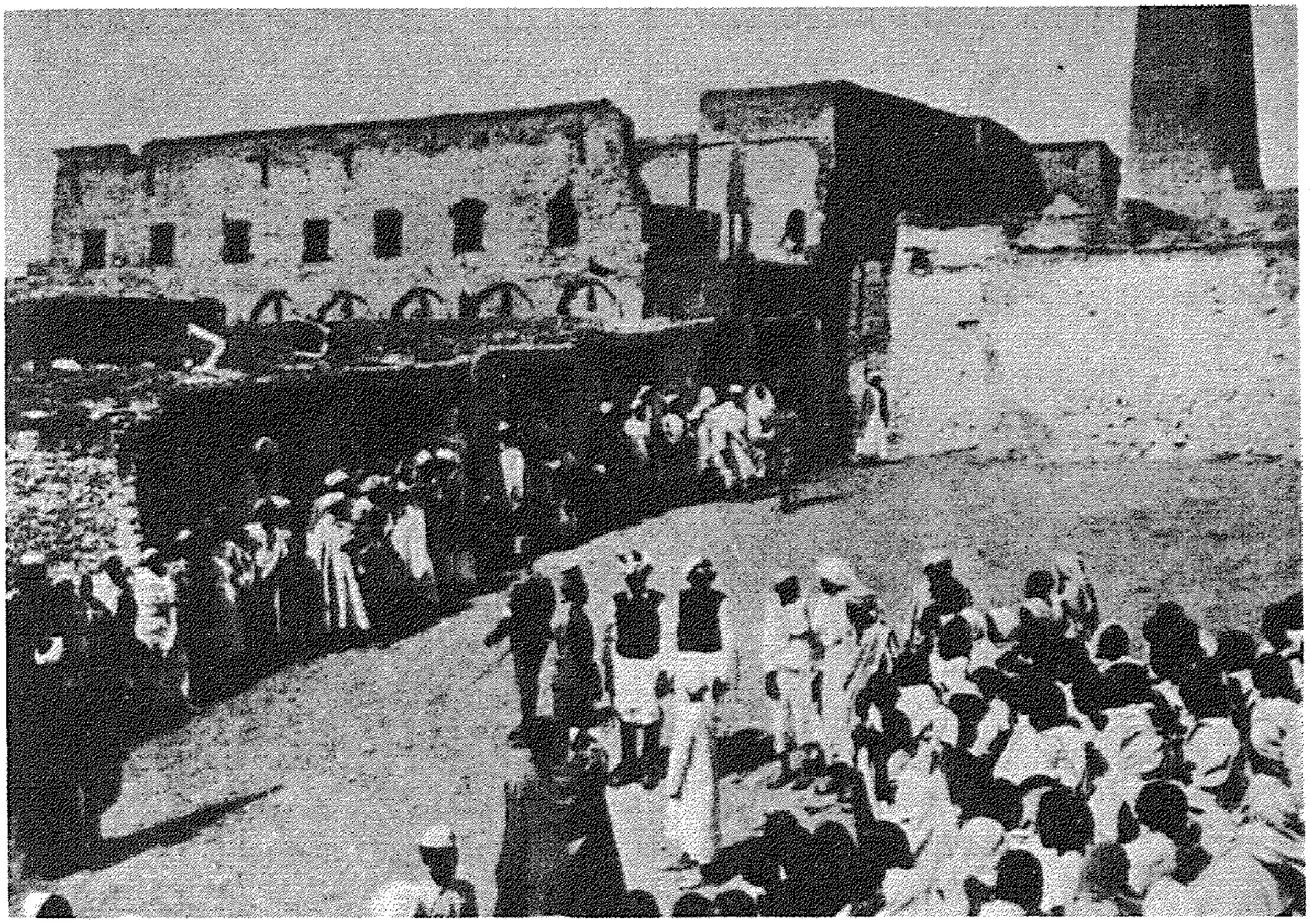
□ احد امراء دنقلا، الأمير يونس.

المحروسة كأسرى النصوب فقويت صلة دنقلا بمصر في ذلك العهد. ومن ناحية العمران فإن المدينة لم تشهد إضافات في عهدهم سوى أن جعفر باشا مظهر أنشأ ضبطية لحفظ الأمن كما أنشأ اسماعيل أيوب مدرسة بها.

٣ ــ دنقلا والمهدية:

«بعد الانتصارات التي حققها جيوش المهدي على قوات غردون بعثت حملة الانقاذ بقيادة وسلى إلى الخرطوم ولكن الحملة اقفلت راجعة بعـد سماع مقتل غردون. تراجعت الحملة نحو دنقلا وأسند المهدي تعقبهم لعامل بربر محمد الخير ولكن الانجليز أخلوا دنقلا قبل وصوله فبعث محمد الخير بابن أخيه عبد الماجد محمد خوجلي لاحتلالها وفعلا تم له ذلك وأعلن ضم دنقلا إلى الأراضي المهدية».

وعنـد زحف النجومي عـلى مصر شرع في ترحيل جيشه إلى دنقلا منذ أوائل أبريل ١٨٨٦م



وبقي بها في انتظار الاشارة من الخليفة بالزحف. واتخذ مكانا بالديم على بعد ثلاثة أميال شمال مركز الأوردي وعلى نحو ميل غرب النيل.

«أما مركز دنقلا القديم فقد هدمه الدراويش(٩) عند دخولهم البلاد وبنوا بأخشابه ديمهم وجعلوا من مركز المديرية شونة للغلال(١٠). ولم يكن الوئام يسود بين رؤوس الأنصار في دنقلا إذ كان النجومي ومساعده قيدوم على خلاف دائم مما جعل الخليفة يبعث بأمناء لبحث اسباب النزاع». وحكموا بأن يعود مساعد إلى أم درمان وعين الخليفة يونس الحكيم اميرا عاما لدنقلا يقيم فيها. ثم تحرك الأمير عبد الرحمن من دنقلا صوب مصر في ٣ مايو سنة ١٨٨٩ مع أربعة آلاف مقاتل وسبعة آلاف من النساء والأولاد(١١).

وعند حملة كتشنر لاسترجاع السودان من قبضة المهدية كان ود بشارة في دنقلا عاملا عليها له الادارة المدنية والعسكرية والتقى بجيش كتشنر عند بلدة الحفير التي تقع إلى الشمال من دنقلا ثم عاد ودبشارة بعد أن أخلاها ليرابط في عاصمته دنقلا، أما كتشنر فقد عبر بجيشه إلى

□ سرايا الحكومة في دنقلا، وهو المبنى الوحيد الذي كان يتكون من طابقين بالمدينة.



إحدى قرى دنقلا، ١٨٩٨م.

البر الغربي وواصل زحفه جنوبا صوب دنقلا ليحاصرها من الجانب الصحراوي أي الغربي، وتصلها البواخر من الناحية الشرقية، وقبل أن يطل الجيش البري على دنقلا كان الأسطول الخديوي يطلق قذائفه على أنصار المهدي في المنازل وفي المعتصمات من الطوابى ولم يترك لهم زمنا يتممون حصونهم ويحسنون مواقعهم. وبينما هم في معركة متصلة مع الطوابى إذا بالجيش البري يظهر في الأفق وينتشر حول المدينة محاولا احتضانها بين فكي كماشة. أما ودبشارة فقد انسحب تجاه الدبة بعد أن ترك فرقة قليلة العدد من الجهادية تحمي ظهورهم أثناء انسحابهم. ووجد الجيش البري عندما أطل على المدينة أن جنود الأسطول النيلي سبقوهم باحتلال الجزء الأكبر منها وعلى أثر ذلك رفرف العلم المصري على بناية المديرية دلالة على سقوط دنقلا.

٤ ـ دنقلا والحكم الثنائي: ١٨٩٨ ـ ١٩٥٦

هنا تبرز أهمية دنقلا وتزدهر من الناحية العمرانية والتجارية والادارية. حيث اتصلت المدينة بالعالم الخارجي وبالعاصمة بعد إنشاء



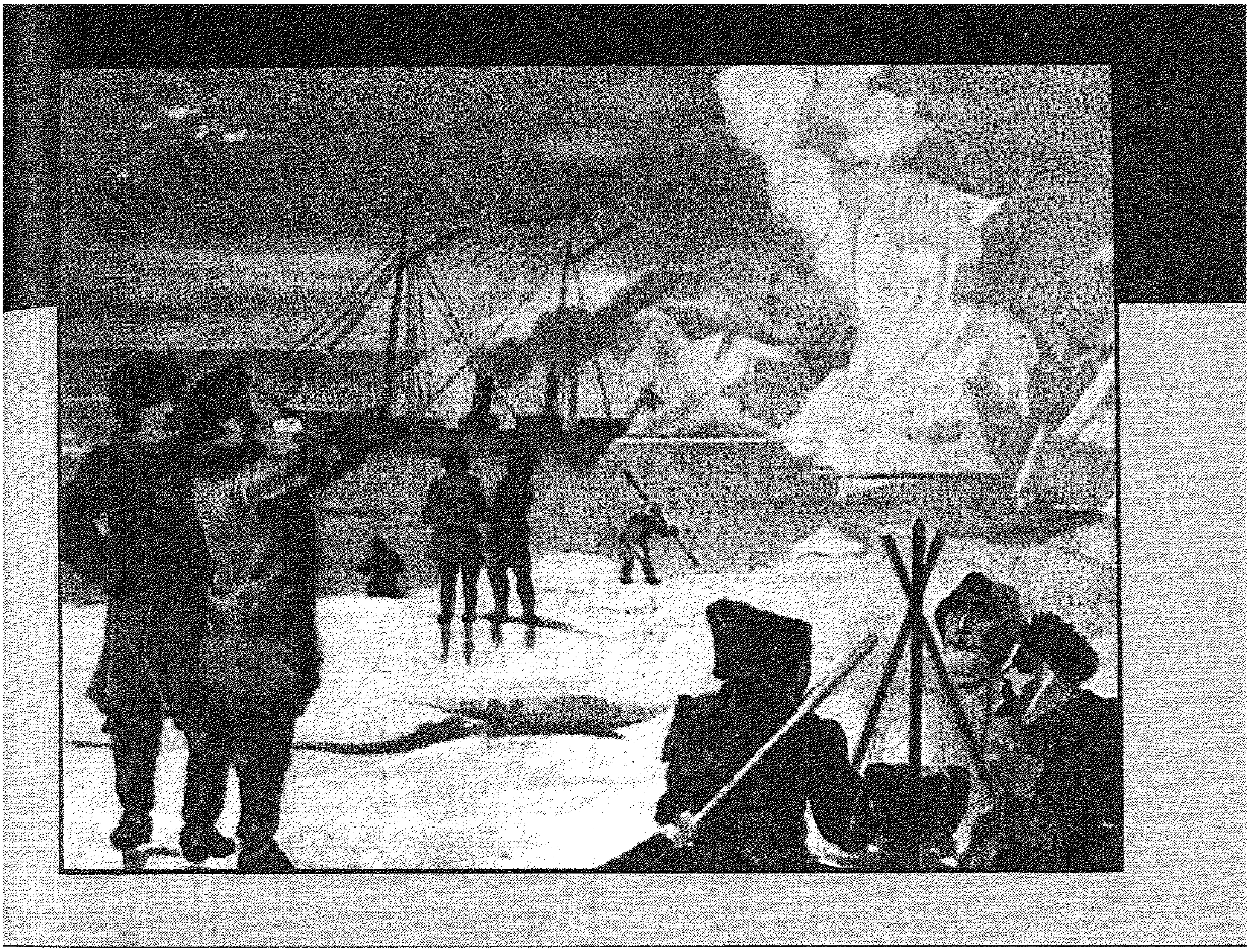
خط سكة حديد أبى حمد كريمة في ٨ مارس سنة ١٩٠٦ ليكمل الملاحة النهرية بين كريمة ودنقلا. كما اعد مهبط جديد في فبراير ١٩٥٠م وبدأت الخطوط الجوية السودانية رحلاتها بانتظام(١٢).

«وفي مجال العمران تم تشييد مستشفى دنقلا والسجن العام ولكن سرعان ما نقل الأخير إلى مروى وبدأ العمل في بناء محكمة دنقلا ومنازل البوليس في سنة ١٩٠٨(١٣). اما سرايا الحكومة فيذكر المستر أي. جي كارتون (أن تشييده تم بعد عودة الاحتلال وجلب له الخشب عن طريق كرمة) ويقع المبنى على النيل مباشرة من طابقين وهو المبنى الوحيد الذي يتكون من طابقين بالمدينة وقد استخدم كاستراحة بعد الاستقلال واليوم يستخدم كمدرسة ثانوية عليا للبنات».

وفي سنة ١٩٠١ أخذت الحكومة تنشيء مسجدا في المدينة وقد تم بناؤه سنة ١٩٠٥ من الأجر دفعت الحكومة ٨٣ ج من جملة تكاليف والباقي جمع من الاكتتاب وفي سنة ١٩١١ تم بناء مسكنين للبوليس ورصيف حجري للنهر للوقاية من شر الفيضان والهدام وفي مجال التعليم افتتحت مدرسة بدرجة كتاب في سنة ١٩١٣ بسعة ٩٠ تلميذا». ●

الهوامش

(١) يعمل حاليا مساعد المحافظ للشؤون الدينية بالمديرية الشمالية.
(٢) نولكز: الشايقية، ترجمة د. عبد المجيد عابدين.
(٣) د. مكي شبيكة: السودان في قرن.
(٤) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان.
(٥) تقارير الحالة المالية والادارية في السودان ١٩١١.
(٦) د. مكي شبيكة: السودان عبر القرون.
(٧) نوكلز: الشايقية، ترجمة الدكتور عبد المجيد عابدين.
(٨) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان.
(٩) كذا يطلق نعوم شقير والمؤرخون الأجانب هذا الاسم على أنصار المهدي.
(١٠) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان.
(١١) دكتور مكي شبيكة: السودان عبر القرون.
(١٢) تقارير الحالة المالية والادارية في السودان ١٩٥٠.
(١٣) تقارير الحالة المالية والادارية في السودان ١٩٠٨.



ثلاث طرق ممكنة

لقد عرفت منطقة القطب الشمالي قبل منطقة القطب الجنوبي، ولكن صعوبات بلوغ تلك المناطق كانت كبيرة جداً، والتضحيات في سبيلها أكبر. فمنذ القرن السادس عشر، قام البحارة الأوروبيون بمحاولات لبلوغ القطب سالكين الطريق الشمالية الغربية، وكان الهدف منها الوصول عبر الباسفيك إلى الهند. فالايطالي جان كابو اكتشف، وهو يبحث عن طريق الهند، اللابرادور والأرض الجديدة. بعد زمن يسير سار جاك كارتيي عبر مضيق سانت ـ لوران. واتصل البريطاني مارتان فروبيش بالاسكيمو، واكتشف جون ديفيس الممر الذي يفصل غروونلاند عن أرض بافن.

في مطلع القرن السابع عشر، عرف هنري هودسون خليج هوسون وبلغ الدرجات ٨٠، ٢٣ شمالا، من خطوط الطول والعرض، على شاطىء غروونلاند الشرقي. في الشمال الشرقي من أوروبا، كان البريطانيون والهولنديون الرواد. فالسيرهوغ ويلوفبي ورفاقه ماتوا من البرد خلال محاولتهم الاقامة شتاء، شمال لابوني. ريتشارد شانسلّر بلغ البحر الأبيض. بورو وصل أول من وصل إلى شواطىء زامبل الجديدة. ويلّم بارنت تخطى هذه الأرض، شمالا، وتوغل في بحر قارا، آملا في الوصول إلى الصين ليعود منها بأقمشة الحرير. وخلال رحلة ثالثة اكتشف جزيرة الدب وسبيتزبرغ، شمال لابوني. وقد اضطر إلى تمضية الشتاء في زامبل الجديدة، فأضاع سفينته ومات على طريق الرجوع. ومنذ ١٦١٦ أعلن بافن الذي بلغ مضيق لانكستر، والأرض التي أطلق عليها اسمه: «لأنه لا بد من التخلي عن الأمل في اكتشاف طريق شمالية غربية إلى القطب». وخلال قرنين، تخلت الأميرالية

سباق نحو القطب الشمالي بين روسيا وأميركا

د. سامي زكي

تميز القرن التاسع عشر برحلات الاستكشاف إلى افريقيا، وأوستراليا، وآسيا الوسطى، في الوقت الذي كان فيه التوسع الاستعماري قد جعل من اوروبا سيدة كوكبنا الصغير.

كان الحافز إلى الاستكشاف متعدد الوجوه: الفضول العلمي، المشاعر الوطنية، الفوائد التجارية، الرغبة في التبشير، حب السفر والرحلة الخ... وقد اكتشفت كل اسرار الأرض جغرافيا، ما عدا سرا واحداً، هو القطب الذي بقي مجهولا حتى مطالع القرن العشرين. فلم يبلغه احد، لانه وسط مسافات وكتل ضخمة جليدية. والحال واحدة بالقياس إلى القطب الشمالي والقطب الجنوبي. الواقع ان الصعوبات كثيرة ابرزها البرد الشديد، القطاعات الثلجية الضخمة المتحركة، الليل الشتوي الطويل. مع ذلك بدات محاولات بلوغ القطب الشمالي منذ القرن السادس عشر. أما القطب الجنوبي فتاخرت محاولات بلوغه.

كان الابحار في المياه القطبية شديد الخطورة، يدل على ذلك اختفاء السفينة (فرانكلين) عام ١٨٤٧، وكارثة السفينة (جانيت) عام ١٨٨١، وهي التي حملت بعثة (دولونغ) الأميركية، في سبيل البحث عن طرق إلى القطب.

على أن الراي العام الأوروبي كان إلى جانب القيام بالاستكشافات، رغم الضحايا الكبيرة، مما شجع على «السباق الحثيث» إلى القطب.

البريطانية عن كل محاولة تجاه تلك الأصقاع. بينما بدأت بعثات روسية تستكشف فعرفوا شواطىء المحيط المتجمد السيبيرية.

بلغ الدانمركي بيرنغ، الذي عمل لدى بيرلوغران، المضيق الذي يفصل أميركا عن آسيا، وقد سمي باسمه.

عاود البريطانيون البحث عن طريق شمالية غربية غداة حروب الثورة والامبراطورية. وقاد اختفاء جون فرانكلين عدة بعثات، إلى أرخبيل كندا الشمالية، وقد أحرزت تقدما حاسما في مجال معرفة تلك المناطق، التي انطلقت منها الحملة الظافرة على القطب. فقد فرض بلوغه خيارات ثلاثة بين الطرق: شمال الأرض الأميركية، الطريق التي تعبر مضيف ديفس، وبحر بافن ومضيق سميث الذي يفصل غرونلاند عن أرض إلمير. شمال أوروبا، بدءا من سبيتزبرغ وأرض فرنسوا جوزيف التي اكتشفها عام ١٨٧٣ النمساويان جوليوس فون بيتر، وكارل وبيرتش. شمال شرق آسيا عبر البحار المطلة على شواطىء سيبيريا الشرقية. وكانت أفضل اختراقات، تلك التي سلكت الطريقين الأخيرتين.

تقدم البريطاني كونستانتان ج. فيبس، عام ١٧٧٣ شمال سبيربرغ وبلغ درجتي الطول والعرض (٨٠°، ٤٨′) شمالا.

بعد سنوات، بلغ أحد مرافقي بروتون كريغولين، الفيكونت دوباجس، درجة (٨٢°) شمالا. البريطاني ويليام سكورسبي بلغ (٨١°، ٣٠′) شمالا. عام ١٨١٧ توقفت سفينتا دوروتي وقائدها ديفيد بوشان، وترنت ويقودها جون فرنكلين، توقفتا بسبب قطاعات الثلج المتحركة، التي يبدو أنها تمنع كل محاولة وصول إلى القطب. كان لا بد لبلوغ القطب من ترك السفن في مكان صالح للرسو، وأن يمضي المستكشفون



□ مساحات من الجليد في القطب الشمالي.

سيرا، أو بوسائط الزحافات وما أشبه مما يصنع خصيصا لمثل هذه الرحلات.

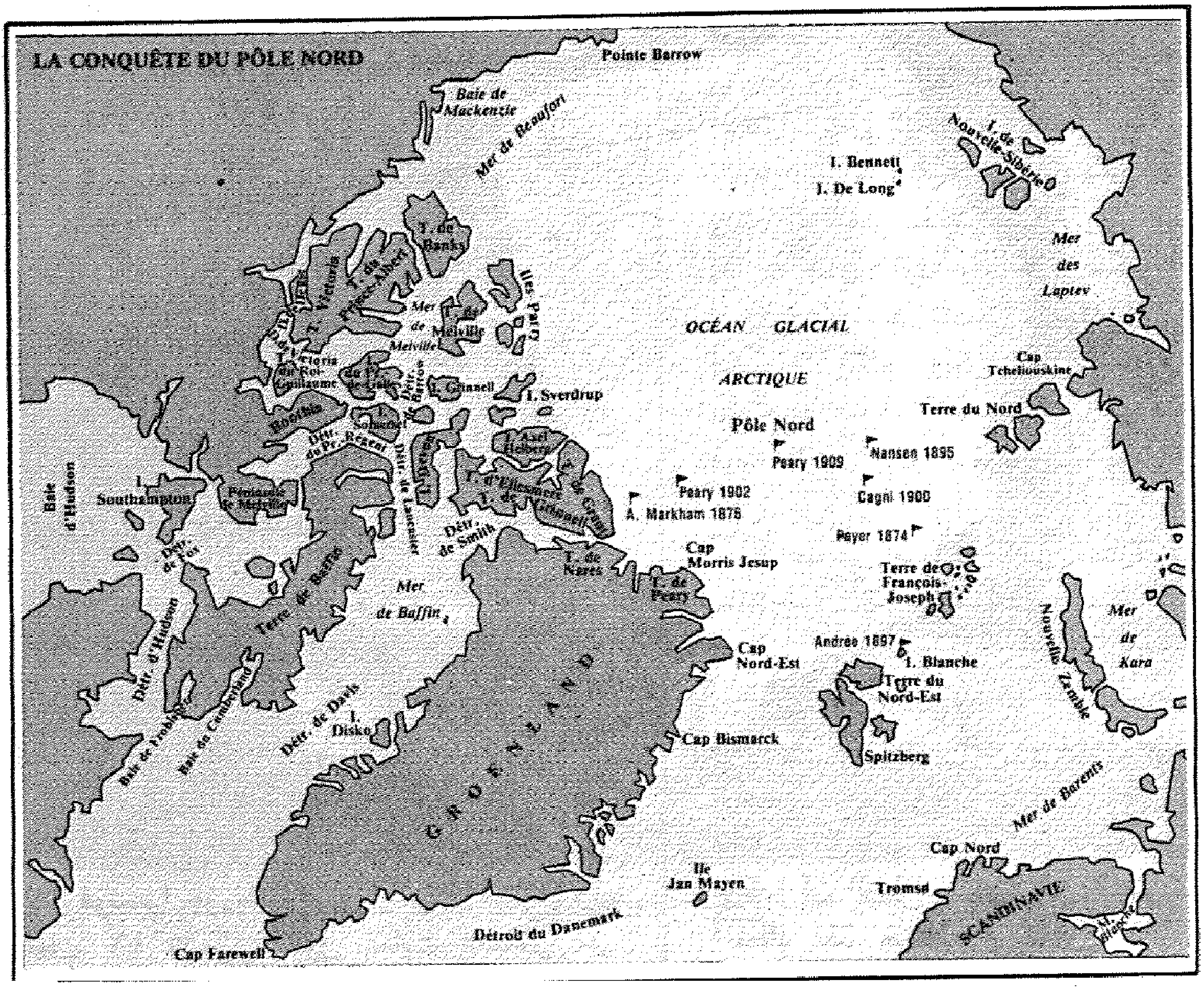
عام ١٨٢٧، ترك وليام إدوارد باري انكلترا، على سفينة هيكلا. ثم ترك سفينته شمال سبيتزبرغ، وحاول التقدم على قطاع ثلجي متحرك، يجعل سطحه غير الثابت السير عليه صعبا جدا. وعندما أدرك أن المسافة التي قطعها، بعد بذل جهود جبارة، ألغيت تماما بسبب انجراف القطاع، قرر أن يتوقف بعد أن وصل إلى درجتي (٨٢°، ٤٥′) شمالا.

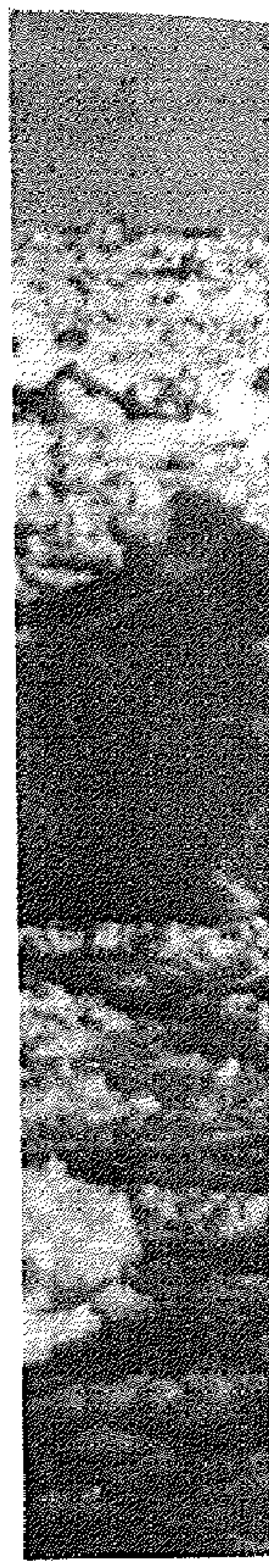
عام ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠، تقدمت الجرمانيا، سفينة الألماني كارل كولدوي إلى شواطىء غرونلاند، وبلغت مضيق بيسمارك، ولكنها لم تستطع التقدم شمالا. عام ١٨٧٢، فشلت حملة السويدي نوردن سكيولد، فشلا ذريعا، وكانت تنوي التقدم نحو القطب. بزحافات تجرها وعول.

الأشهر التالية بلغ النمساويان بير ووبيريشن بسفينتهما نيغتوف أرض فرانسو جوزيف، واندفعا بالزحافات إلى درجتي (٨٢°، ٥٠′) ش. عام ١٨٧٩ قاد الليوتنان دولونغ، من مضيق بيرنغ حملة مولها غورون بينيت، مالك النيويورك هيرالد. وسرعان ما حوصر بالثلج، وأصيبت سفينته (جانيت) إصابة فادحة، وظلت هائمة سنتين، قبل أن تتحطم عام ١٨٨١. وقد أهلك فريقه أنه شتا مرتين على مستوى الدرجة (٧٧°) شمالا. حاول الانسحاب صوب مصب الليـنا. وقضى الانجراف الثلجي على الجهود الخارقة التي بذلها. وعند ظهرت المياه دمرت العاصفة زورقا، وبلغ الثاني حدود سيبيريا، حيث احدى القبائل التي أنقذت ثلث الفريق.

أما فريق دولونغ الذين بلغوا منطقة صحراوية فقد ماتوا الجوع، في محاولة الوصول إلى أرض معمورة.

عثر على بقايا السفينة جانيت على الشواطىء الشرقية من غرونلاند. وكان كولدوي لاحظ أن بقايا حرجية تقدم من سيبيريا. كل هذه الدلائل عززت الاعتقاد أن تيارا في المحيط المتجمد يتجه





□ خارطة القطب الشمالي.

صوب الشمال الغربي، مارا شمال أرض فرانسوا جوزيف وسبيتزبرغ. «جوا القطب على الأغلب». ولوحظ أن الحطام الذي وصل شواطىء غرونلاند الشرقية، قد جرف نحو الجنوب بالتيار المحاذي لتلك الأرض الواسعة.

استنتج فريتدريوف نانسن، وهو المعروف برحلاته إلى الشواطىء الغروئلاندية، استنتج «أن كل هذه الملاحظات تقدم برهانا لا يدحض على وجود تيار كبير ينطلق من محيط سيبريا المتجمد، ويصل إلى الشاطىء الشرقي من غرونلاند مارا بالحوض القطبي». لذلك وضع مخططا وهو أن يبلغ «جزر سيبريا الجديدة، ثم يتقدم إلى أبعد حد ممكن نحو الشمال، شاقا معبرا عبر الثلج، ثم يترك التيار يجرف سفينته نحو الشمال الغربي، تيار المحيط المتجمد المنطلق من سيبريا إلى غرونلاند».

صدم طموح مثل هذا المشروع أفكارا كثيرة، ولكن نانسن بدأ العمل رأسا، ليعد لهذه المسيرة الشجاعة في المجهول. كان يردد: «البحث عن نقطة حسابية تشكل القطب، لا تقدم إلا نفعا جزئيا». كان، رغم التنافس الدولي، أو الصراعات القومية، يعتقد أن الارادة وحدها، هي الفاعلة في النهاية. ولا بد أن تدفع بقوأك إلى الأبعاد الممكنة، بحثا عن قمة العالم. أضف إلى ذلك ما في المحاولة من رد اعتبار للنفس، وارضاء غرور.

بنى نانسن سفينة فرام، لتكون مقاومة لعوامل الطبيعة، وأعد للرحلة بعناية فائقة، وترك كريستيانا (أوسلو) في حزيران ١٨٩٣.

دخل بحر كارا في آب. وبلغ رأس تشيليوسكين، وفي نهاية أيلول حاصرت كتل الثلوج السفينة. وكان الانجراف نحو الشمال خلال الشتاء بطيئا جدا. في شهر شباط، والحرارة خمسون درجة تحت الصفر، بلغت السفينة درجة العرض (٨٠°). وظهرت الشمس في ١٦ شباط، بعد ليل دام ١١٢ يوما. ولكن تحرك السفينة ظل بطيئا. وحسب نانسن أن التقدم إن ظل على هذه الوتيرة، فإنه لن يصل



□ نانسن احد المخاطرين في بلوغ القطب.

غرونلاند إلا بعد ثماني سنوات.

وقرر: «عدم النشاط هذا يثير الغضب. وأرى ألا بد من تمارين قاسية. وأن يترك الانسان نفسه لقوى الطبيعة العمياء تقوده، دون أن يتدخل، يستلزم طاقة تفوق طاقة القتال عشر مرات». الربيع التالي، بعد شتاء آخر، تخطى أرض فرنسوا جوزيف. فقرر أن يتجه مباشرة إلى القطب ١٦ تشرين الأول غابت الشمس من جديد، وكان عليه أن يشتو شتاء آخر بعد أن بلغ درجة العرض (٨٢°) شمالا.

نانسن يفشل على طريق القطب

الخامس من كانون الثاني ١٨٩٥، وسط ليل قطبي، أوشكت سفينة فرام أن تطحن تحت كتلة ضخمة من الثلج. ولكنها قاومت الضغط، فيما كان بحارتها قد أخلوها.

١٤ آذار، بلغ نانسن درجة العرض (٨٤°). فمضى مع جوهانسن في الزحافة نحو القطب: «كانت رحلة طويلة خطرة، لم يسبق أن غامر بشر بمثلها. ولم يكن لدينا أي خط للرجعة. وفي أثناء تقدمنا نحو الشمال، كانت فرام تتابع انجرافها. لذلك كان مستحيلا لقاؤها. ولم يكن لنا إلا أن نتابع المسير إلى الأمام. وكان البرد شديدا (٤٤ تحت الصفر). وكانت الأرض المليئة بالمفاجآت تحول دون التقدم».

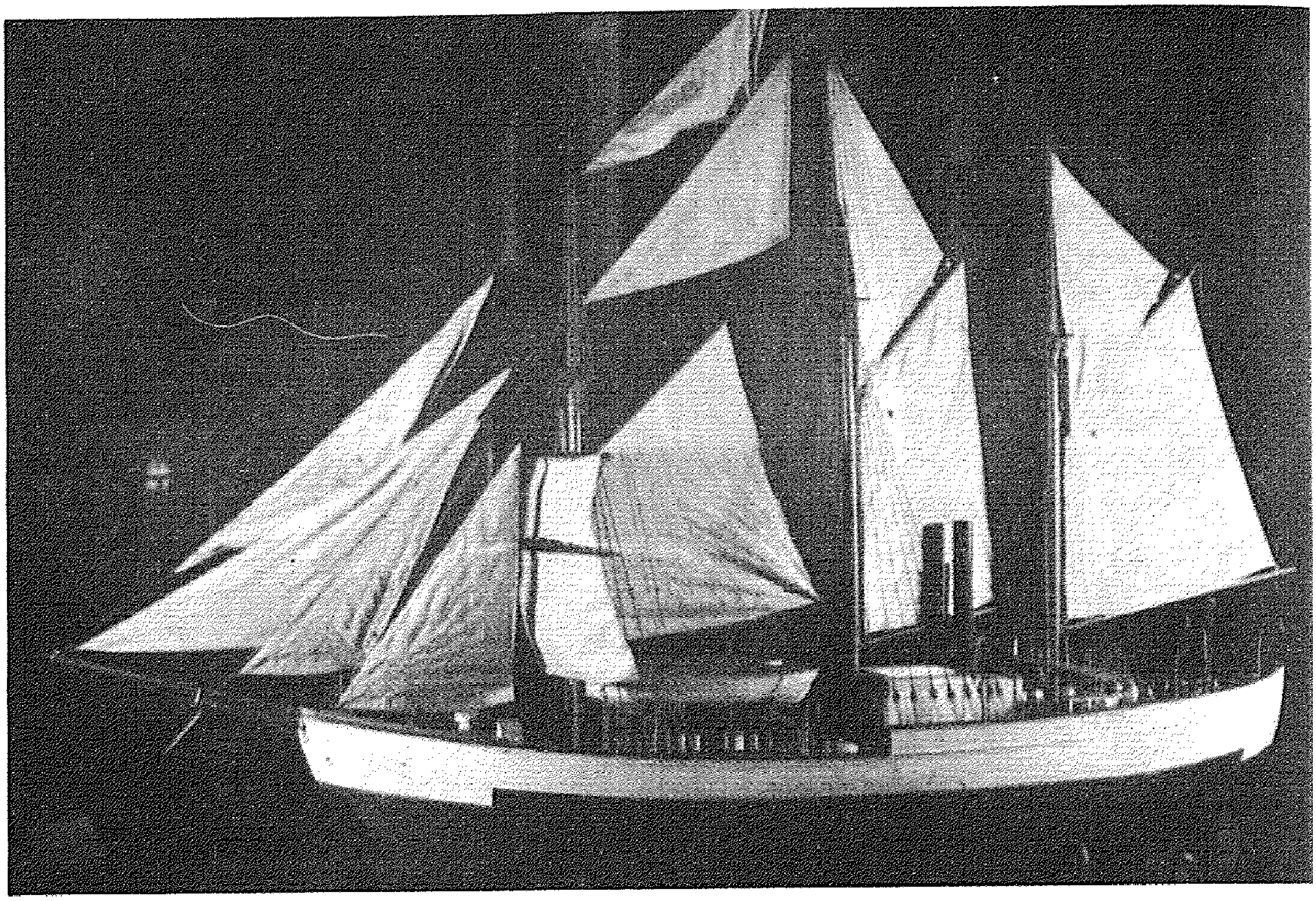
الثامن من شباط قرر نانسن ورفيقه أن من المستحيل التقدم، وقد أرهقت قوى الطلاب، وعزما على العودة إلى رأس فلايجلي، شمال أرض فرانسوا ــ جوزيف. وبلغا درجة العرض (٨٦°) ودرجة الطول (١٤′)، مسجلين رقما قياسيا في الاقتراب من القطب. وكانت العودة خطرة مع قدوم الشتاء. وكان لا بد من ذبح الكلاب لأكلها، وقتل الفقمات تجنبا للجوع. ولم يصلا الأرض إلا في شهر آب. ولم تكن ممكنة العودة إلى النروج، فاضطر نانسن ورفيقه إلى قضاء شتاء آخر بين الثلج. ولكن، بعد أسابيع كان اللقاء ببعثة بريطانية، أتاحت لهما العودة إلى النروج. فيما كلف «أوتو سفردروب» بقيادة فرام إلى سبيتزبرغ.

في طريق العودة التقى بحارة فرام بفريق سالومون أندريه، الذي أعد منطادا لبلوغ القطب.

كان سالومون يجهل كل شيء عن الرياح القطبية. كان يقدر أنها ستدفعه من الجنوب إلى الشمال، على مسافة ١١٠٠ كم وعلى خط مستقيم. نصح سفردروب بعدم القيام بالرحلة، مؤكدا أن الرياح لا تهب من الجنوب. ولكن قائد المنطاد نفذ خطته في تموز ١٨٩٧، بمنطاده (النسر). وجدت بقايا من النسر بعد أشهر من ذاك. وعام ١٩٣٠ اكتشفت الباخرة النرويجية براتفاغ جثة أندريه. وكان فريقه بعد أن بلغ الجزيرة البيضاء، على بعد ٨٠٠ كم من القطب، قد قرر قضاء الشتاء فيها. ولكنه لم يحمل معه ثيابا كافية، فمات جميع أفراده من البرد والجوع.

١٨٩٨ حاول الأميركي والترويلمان، ولكن تحطم فخذه حال دون تجاوزه الدرجة (٨٢°).

السنة التالية قامت محاولة الايطاليين. وأولهم لويس ــ آميدي دوسافوا، دوق أبروز، وابن عم الملك فكتور عمانوئيل الثالث. وقد قرر أن يمضي إلى القطب من طريق أخرى، هي شمال الاسكا على الباخرة «النجمة القطبية». بلغ رأس فلايجلي. ثم شتا في خليج تبليتز. ومن هناك، في الربيع التالي أبحر القبطان أمبرتو كانيي مع تسعة رفاق، وخمسة وأربعين كلبا. وقد بترت أصابع كف دوق أبروز اليسرى فلم يستطع المساهمة في الحملة على القطب. انقسم الرفاق إلى فريقين، ضاع أحدهما في طريق العودة. ولما حالت الثلوج دون استمرار كانيي، قرر العودة



□ الباخرة فرام التي استخدمت اكثر من مرة في مغامرات بلوغ القطب.

بعد أن حطم الرقم القياسي الذي حققه نانسن، فقد بلغ الدرجة (٣٤′، ٨٦°).

محاولة بيري

فشلت محاولتان أميركيتان في السنوات التالية. في هذا الوقت كان الأميركي بيري يعد محاولته.

منذ أن اكتشف بافن مضيق سميث، لم يحاول أحد المسير على نفس الخط. فكل المحاولات سلكت طريق لانكستر، لتجد في النهاية الطريق الشمالية الغربية. والمحاولات عديدة، منذ ١٨٥٢، ولكنها فشلت جميعا، وانتصر أخيرا الضابط البحري الأميركي روبرت إدوين بيري.

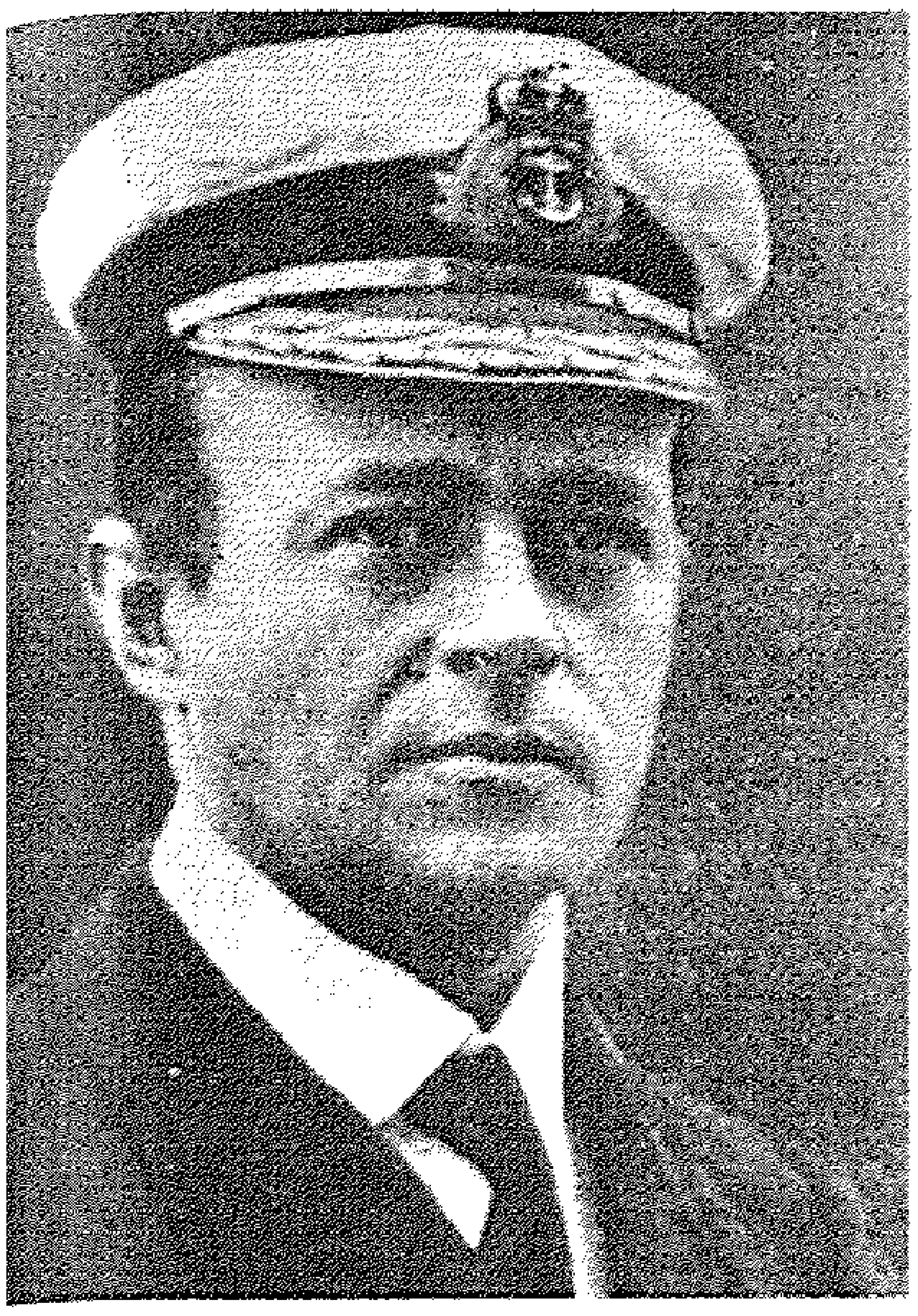
قضى سنة مع الاسكيمو في مضيق سميث، العام ١٨٩١ ــ ١٨٩٢، مع خادمه الأسود ماتيو هانسن. ثم رحل إلى شواطىء غرونلاند، ثم عاد إلى الولايات المتحدة وأطلع الجمعية الجغرافية الأميركية على مخططه، الذي يقضي بإقامة قاعدة على مستوى قناة روبسن. وأن يصحبه بعض من السكان المحليين.

بدأ الرحلة على الباخرة وندرود، التي عادت بنانسن، وبلغ إيلسمير، وبلغ الأرض التي حملت اسمه، وعمّد رأس موريس جيزوب، وهو اسم رئيس نادي (بيري أركتيك كلاب).

وصل عام ١٩٠٢ الدرجة (١٧′، ٨٤°). ومن أجل بلوغ القطب كان عليه أن يجعل قاعدة الانطلاق متقدمة.

ولكنه رأى أن الباخرة وندرود غير قادرة على التحمل. فاستخدم الباخرة تيودور روزفلت. عام ١٩٠٦ فشلت محاولة جديدة. عام ١٩٠٨ وصل بيري الدرجة (٠٦′، ٨٧°)، وترك الباخرة روزفلت، ومضى أواسط شباط بالزحافات، استراح في مخيم كولومبيا، ثم تابع رحلته. الثالث عشر من آذار كانت درجة الحرارة (٥٥) تحت الصفر. تقدم فريق لفتح الطريق، وإقامة مراكز استراحة لأولئك الذين يبذلون جهودا كبيرة. كان الطقس مؤاتيا، ولكن رفاق بيري من الأوروبيين كانوا يكرون عائدين، خوفا من نقص المؤن.

٣٠ آذار لم يبق مع بيري وهانسن إلا أربعة اسكيمو، وأربع زحافات، وأربعين كلبا.



□ سكوت قبل موته.



□ بيري قاهر القطب الشمالي.

أصبح الثلج مسطحا. الخامس من نيسان بلغت البعثة الدرجة (٢٥′، ٨٩°). قطعت أكثر من خمسين كيلومترا في أقل من نصف نهار. اليوم التالي وصل بيري القطب وحقق الانتصار الأول في التاريخ، وكتب بيري: «أخيرا بلغنا القطب، حلمي وهدفي منذ عشرين سنة. أخيرا القطب لي».

منذ السابع من نيسان، كر الرجال عائدين، وكانوا يمضون كل يوم ست عشرة ساعة سيرا، وقد وصلوا مخيم كولومبيا في ٢٣ نيسان.

في هذا الوقت كان فريدريك كوك، الذي ساهم في رحلة بيري (١٨٩١) إلى غرونلاند، وفي رحلة البلجيكي أدريان دوغرلاش إلى الأنتار كتيك، كان فريدريك كوك يقوم برحلة نحو القطب بدأت عام ١٩٠٧. ثم استأنف الرحلة عام ١٩٠٨ في شباط. ثم ظهر ثانية عام ١٩٠٩، الثامن عشر من نيسان، أي قبل بيري بأسبوع، ومعه اثنان من الأسكيمو. ولكنه فقد كلابه وزحافاته. فأضاع وقتا كبيرا. التقى السفينة روزفلت في نيسان ١٩٠٩. وقد زعم أنه بلغ القطب قبل بيري، ولكن تبين أن روايته فيها الكثير من المزاعم.

ارتياد القطب الجنوبي

كان القطب الجنوبي أقل خطورة من الشمالي الذي بدأت الرحلات نحو قبل الأول بكثير. فلم تبدأ الحملات إلى الجنوبي إلا القرن الثامن عشر.

من أوائل من حاولوا، الأيكوسي الكسندر دالريمبل. ثم جان باتيتس بوفيه، ثم عام ١٧٧٢ مالوان ماريون دو فريسن الذي بلغ جزر كروزي. واكتشف بروتون كرغلويلن الجزر التي تحمل اسمه.

وقام جيمس كوك بمحاولة عام ١٧٧٤، فبلغ درجة (١٦′، ٧١°) جنوبا، عام ١٨٣١ أدرك جون بسكو أرض إيدربي. ١٨٣٣ بلغ بيتر كامب سواحل إيدربي.

ومع ذلك، وحتى عام ١٨٤١ لم يتجاوز أحد الدرجة (٢٠′، ٧٤°) جنوبا. غير ان المحاولات



□ سكوت يبلغ القطب مع رفاقه.

استمرت. ومن أشهرها رحلة روس التي ساعده فيها النرويجي روالد آموندسن، والبلجيكي دوغرلاش.

رحلة سكوت الأولى

عام ١٩٠١ قام البريطاني روبرت فالكون سكوت برحلته الأولى على الباخرة ديسكفري. وفي الوقت ذاته قام الألماني البروفسور فون درايغالسكي.

بلغ سكوت مع بداية ١٩٠٢ مضيق ماكموردو، عند قدمي البركانين ايربوس وتيرور. ثم انطلق نحو القطب مع إرنست شاكلتون والدكتور ويلسون، وبلغوا الدرجة (١٧′، ٨٢°) جنوبا. وكانت العودة شاقة فلم يصلوا الباخرة ديسكفري إلا عام ١٩٠٣. شتا سكوت مرة ثانية في طريقه إلى القطب الجنوبي، ودرجة الحرارة (٥٥) تحت الصفر.

أما الرحلة الألمانية فبلغت شاطىء غيوم الثاني، وعادت إلى أوروبا عام ١٩٠٣. وتعددت الرحلات التي كانت أشبه بالمحاولات التجريبية، حتى كان عام ١٩٠٩. انطلق هذا العام من انكلترا، آب ١٩٠٧ على الباخرة نمرود، الأرلندي أرنست شاكلتون، واصطحب معه خيولا (بونية) وتراكتور. في نهاية شباط ١٩٠٨ حط الرحال في مضيق ماكموردو، وعادت السفينة نمرود وحدها.

أقام شاكلتون مخزنا للأطعمة على بعد ٢٠٠ كيلومتر من نقطة الاشتاء. نهاية تشرين الأول، بدأ الرحلة الخطرة. ففي بداية كانون الأول ماتت الأحصنة جميعا. فراح الرحالة ورفاقه يجرون بأنفسهم، فلا يقطعون في اليوم أكثر من خمسة كيلومترات. يوم الميلاد كانوا على ارتفاع ٢٨٥٠ مترا، وعلى بعد ٥٠٠ كيلومتر من القطب.

السادس من كانون الثاني بلغوا الدرجة (٠٨′، ٨٨°). وأقاموا مستودع تموين. كانت الريح تهب بسرعة ١٣٠ كلم في الساعة. ودرجة الحرارة (٤٠) تحت الصفر. واجهتهم عاصفة ثلجية أرهقتهم.



Le Petit Journal

LES ENTREVUES DE SOUVERAINS

GUILLAUME II ET ÉDOUARD VII

ENCORE UN AUDACIEUX

AU POLE NORD EN BALLON

Formidable Incendie

A IVRY-SUR-SEINE

UN ATTENTAT

LES ÉVÉNEMENTS DU MAROC

LE GÉNÉRAL DRUDE À CASABLANCA

□ جريدة لو جورنال. الثلاثاء ١٣ آب ١٩٠٧.

اضطروا إلى العودة بسبب البرد والديزانتري، ونقص المؤن، فبلغوا قاعدتهم الأولى في الأول من آذار. لقد فشل شاكلتون وهو على مسافة غير كبيرة من القطب.

مباراة سكوت ـ أموندسن

آب، عام ١٩١٠، اتجه أموندسن على الباخرة فرام نحو القطب الجنوبي. وبلغ خليج الحيتان عام ١٩١١. أقام قاعدة المشتى. وذبح عددا كبيرا من الفقمات، وحفظ لحمها في المستودع.

وكان كلما قطع مسافة أقام مستودعا للمؤن. كانت درجة الحرارة في الشتاء (٦٠) تحت الصفر. انطلق مع أوائل أيلول، ولكن كلابه لم تكن لتحتمل حرارة أقل من خمسين درجة تحت الصفر. لذلك لم تبدأ الرحلة جديا إلا في العشرين من تشرين الأول ١٩١١.

قطع المنطقة التي بلغها روس من قبل، في السابع عشر من تشرين الثاني. جعل مراحل السير كل ست ساعات مرحلة ينام بعدها مع رفاقه مثلها، ثم يستأنف السير. وكان عليه أن يتسلق جبالا يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف متر.

الثامن من كانون الأول تخطوا مرحلة شاكلتون. الرابع عشر منه حطوا الرحال في القطب.

كانت طريق العودة ميسرة. وقد ساعدهم على تحملها مخازن المؤن التي تركوها من قبل. الخامس والعشرين من كانون الثاني بلغوا نقطة الاشتاء، حيث كانت تنتظرهم الباخرة فرام.

كان روبرت فالكون سكوت، قد نهض من انكلترا نحو القطب الجنوبي، قبل أموندسن بشهرين. وبلغ مضيق ماكموردو في كانون الثاني ١٩١١. أقام قاعدة الاشتاء، ومخازن للمؤن. على أن الطقس السيء أزعج البريطانيين، الذين فقدوا الكثير من أحصنة (البوني).

علم سكون أن أموندسن على الطرف الثاني من خليج الحيتان، فقرر الاسراع قبله نحو القطب. وبدأ المسير في ٢٧ تشرين الأول ١٩١١، ليقطع ١٣٧٠ كم تفصله عن القطب.

لم يكن يتقدم أكثر من ١٥ كيلومترا في اليوم. وكان الطقس يعاكسه ورفاقه. وماتت كل الأحصنة. وكان عليه تجاوز الكتلة الثلجية (بيردمور) وهو يجر مع رفاقه الزحافات. الواحد والعشرين من كانون الأول أطل على الهضبة القطبية. فسار مع أربعة من رفاقه، بمعدل (٢٤) كيلومترا في اليوم، يصحبه القبطان واتس، والدكتور ويلسون، والملازم بوير، وصف الضابط إيفانس. السابع عشر من كانون الثاني بلغوا القطب فوجدوا النروجي أموندسن مغروسا هناك.

كانت العودة صعبة جدا بسبب قدوم فصل الشتاء، ومرض إيفانس، السادس عشر من آذار تجلدت أطراف واتس. وخاف أن يعوق رحلة رفاقه فيعرضهم للخطر، فتركهم ومضى إلى المجهول. أما الثلاثة الباقون فراحوا يقاومون العواصف، وهم على علم أن مخزن المؤن غير بعيد.

ولكن العاصفة كانت تشتد، وتحرمهم المقاومة. وقد ماتوا واحدا بعد الآخر. وظلوا هناك جثثا هامدة، حتى ١١ تشرين الثاني التالي، حين قام رفاقهم الذين ظلوا في مضيق ماكموردو بالبحث عنهم، فوجدوا جثثهم في خيمة من مخيم (وان توم كامب).

وقد ترك سكوت قبل موته عدة رسائل، جعلتها السلطات البريطانية، نموذجا يقرأ على كل الطلاب، يصور الشجاعة، والصبر والجلد. ●

كتب وردتنا

□ **الإنسان العربي والعلم**
دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... سمير عبده

□ **برمجة الموثق في عملية التوثيق**
دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... د. محمد قبيسي

□ **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**
دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... د. حسن شميساني

□ **الموضوعية والتحليل في البحث الاجتماعي**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... د. معن خليل عمر

□ **الحياة وعجائبها**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... اميل خليل بيدس

□ **الأنا وأواليات الدفاع**
دار الطليعة ــ بيروت .... آنا فرويد
ترجمة: جورج طرابيشي

□ **تاريخ الفلسفة ــ الجزء الثالث**
العصر الوسيط والنهضة
دار الطليعة ــ بيروت .... اميل برهييه
ترجمة: جورج طرابيشي

□ **الرجولة وايديولوجيا الرجولة في الرواية العربية.**
دار الطليعة ــ بيروت .... جورج طرابيشي

□ **الأسس النظرية لعلم الاجتماع السياسي.**
دار الطليعة ــ بيروت .... د. محمد فايز عبد أسعيد

□ **الارهاب السياسي**
بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الانسانية
دار الطليعة ــ بيروت .... د. ادونيس العكره

□ **التراث العربي المجلد الأول**
التذكرة الحمدونية
معهد الانماء العربي .... تصنيف: ابن حمدون
تحقيق: د. احسان عباس



معركة بواتييه

أو بلاط الشهداء

١١٤هـ - ٧٣٢م

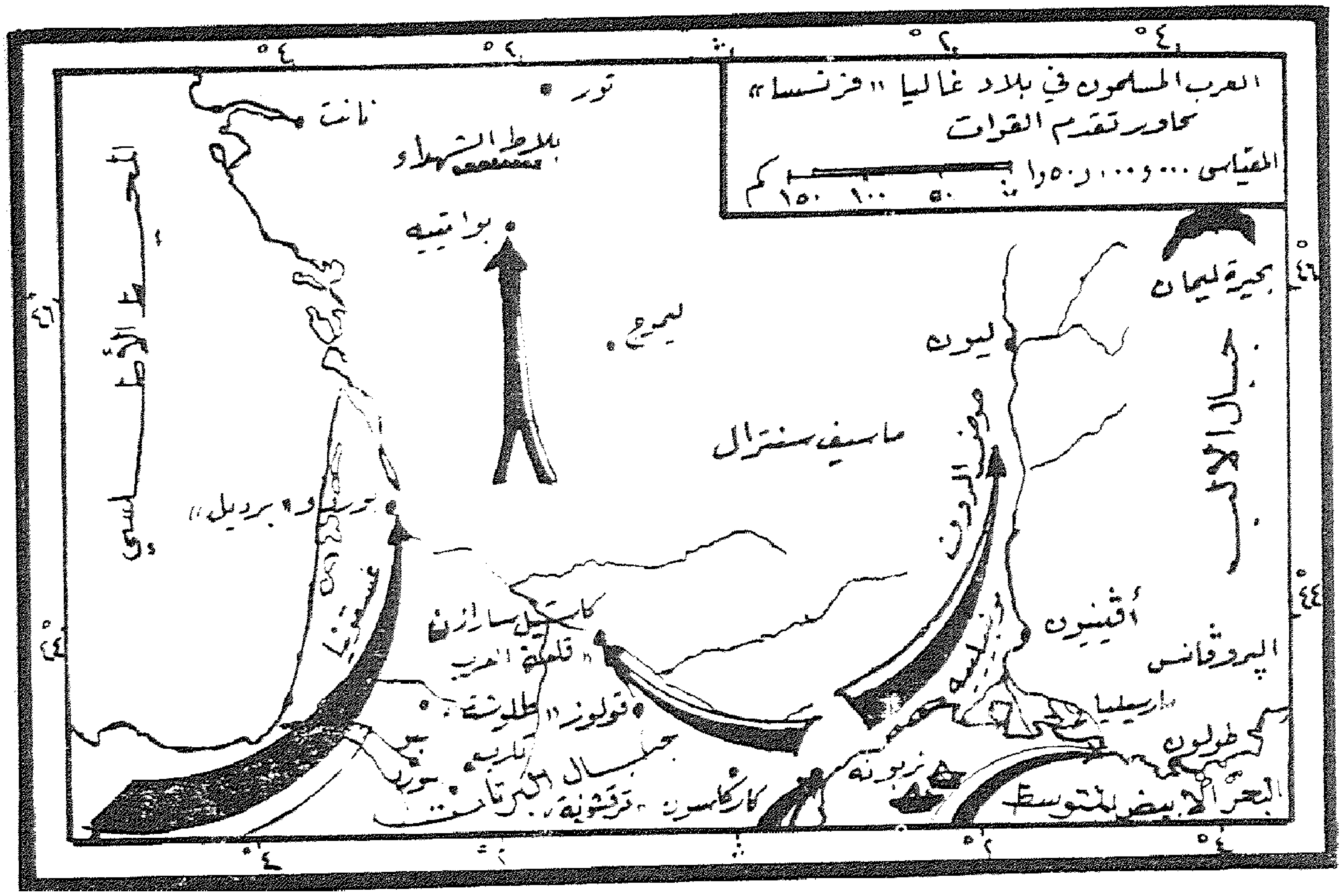
هلا طبارة

هذه هي المعركة التي دارت في أواسط فرنسا عند فرعي نهر «اللوار» في العام ٧٣٢م (١١٤هـ) بين جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتيل وانتهت بانسحاب جيش المسلمين. فكانت خاتمة المعارك واخر محاولة لحمل رسالة الاسلام الى الأمم الاوروبية.

معركة بلاط الشهداء في التاريخ

تطرح هذه المعركة المشهورة التي تلعب دورا هاما في التاريخ الاسلامي عدة تساؤلات، منها: المسؤوليات التي القيت على عاتق قادتها، والتفسيرات الدينية والعقائدية والسياسية والجغرافية والبشرية التي اعتمدت، كما تطرح تفسيرات جذرية عن المصالح والعقليات في تلك الحقبة من التاريخ، ومنها التناقضات والاختلافات الشاسعة في تقييم هذه المعركة ونتائجها بين المؤرخين القدامى والمحدثين من عرب واجانب فيما نجد ان بعض المؤرخين العرب امثال ابن الاثير والمقري وابن خلدون، وامثالهم يذكرون احداث هذه المعركة باختصار، ونجد ان المؤرخين الاجانب يعتبرونها من معارك التاريخ الحاسمة التي بلغت بقائدها شارل مارتيل مرتبة «القداسة».

وقد حذا بعض المؤرخين العرب المحدثين حذو القدامى، فاعتبرها البعض من معارك التاريخ الحاسمة بحيث انها اوقفت التقدم العربي ـ الاسلامي في اوروبا في حين اعتبرها البعض الآخر مماثلة لغيرها من المعارك في اهدافها ومسيرتها ونتائجها. فلكل من الفريقين وجهات نظره ومبرراته واجتهاداته.



الحكم العربي في الاندلس

تعاقب على حكم الاندلس بعد مقتل عنبسة بن سحيم الكلبي ستة من الولاة لم تتجاوز مدة ولايتهم الاشهر القليلة باستثناء يحيى بن سلمة الكلبي الذي تجاوزت مدة ولايته السنتين، الامر الذي لم يسمح لهؤلاء الولاة بوضع المخططات وبمتابعة مسيرة الغزو في فرنسا الى ان اختير عبد الرحمن الغافقي واليا. فما ان انتهى من الاصلاحات الادارية واعادة تنظيم الجيش حتى حشد الطاقات وانطلق بجيشه الى فرنساء بعد ان اختار محورا جديدا لهجومه متخذا بامبلونا قاعدة له.

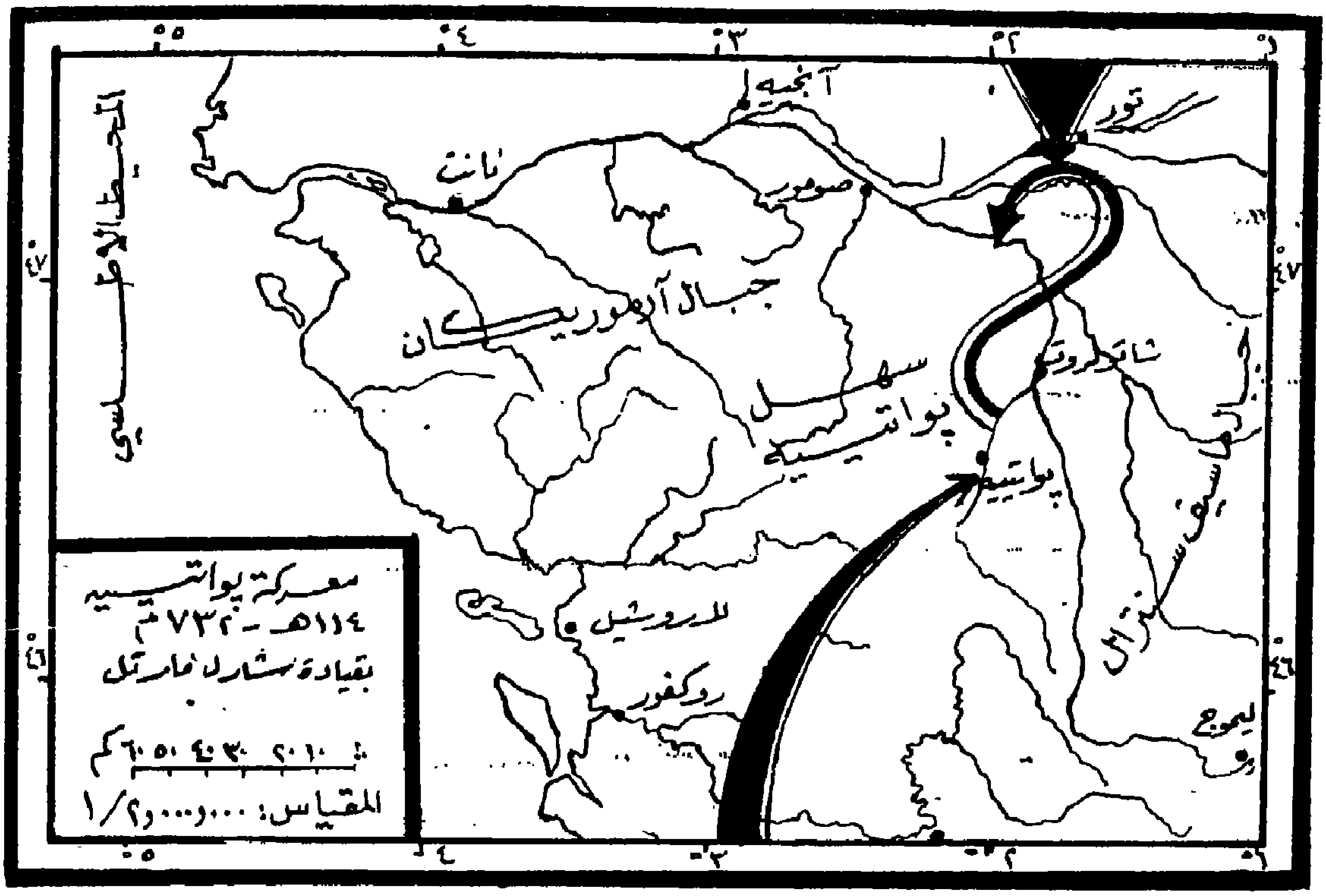
ومما يلفت النظر في هذه المعركة، ان عبد الرحمن الغافقي، اعظم الولاة في عصر الدولة الأموية، كلف قيادة اعظم واخطر حملة اسلامية سيرت لفتح فرنسا، كما انه يعتبر بحق من اعظم قادة العرب المسلمين والفاتح المسلم الذي وصل الى اقصى ما وصلت اليه الفتوحات الاسلامية في قلب القارة الاوروبية.

ومن المؤكد ان معركة «بواتييه» (عاصمة بواتو من مقاطعة فيين) تعتبر من المعارك المصيرية التاريخية الحاسمة في تاريخ اوروبا التي دارت بين الجيوش العربية والجيوش الافرنجية، وبين الشرق والغرب، وبين الاسلام والمسيحية، فقد وضعت هزيمة الجيوش الاسلامية فيها حدا لفتوحاتهم في اوروبا، فكانت بداية صدهم وتوقفهم عند الاندلس.

لقد عرفت هذه المعركة عند مؤرخي الغرب بمعركة «بواتييه» و «تور»، في اواسط فرنسا عند فرعي نهر «اللوار» (كلين وفيين) وعند مؤرخي المسلمين بمعركة «بلاط الشهداء» وذلك نظرا الى كثرة من استشهد فيها من القادة المسلمين من عرب الاندلس.

الحوادث التي سبقت المعركة

بعد ان سادت دعوة الاسلام من السند شرقا الى المحيط الاطلسي، وبعد ان افتتحت الجيوش الاسلامية شبه الجزيرة الاسبانية، عبرت جبال «البيرينيه» (البرتات او البرت كما سماها العرب). وكان حاكم ولاية البيرينيه الغربية رجلا يدعى «منوزا» او مونز» (أو مونوسه)، وكان زعيما مسلما ثائرا من البربر. وكان الدوق اودو امير ولاية «اكوتين» الفرنجية يرقب الفرص بعين



ساهرة لاحداث ثغرة في صفوف المسلمين. فاتصل سراً «بمنوزا» وعقد معه محالفة سرية وزوجه ابنته «لامبجيا». وعندما بلغ عبد الرحمن الغافقي ما قام به منوزا ووقف على مشاريع «اودو»، شن حملة قوية على منوزا وهزمه في معركة جرت بين نهري «الجازول» و «الدودوي» مما اجبر فلول جيش الفرنجة على التقهقر نحو الشمال. وعندما بلغ الدوق «اودو» مقتل حليفه المسلم وهزيمة جيشه، اخذ يستعد ويتأهب للدفاع عن مملكته، وبدأت القوات القوطية والافرنجية تهاجم القواعد الاسلامية في الولايات الشمالية. ولما شعر عبد الرحمن الغافقي بالخطر الذي بدأ يهدد الولايات الشمالية ويهدد الاندلس، سار في اوائل شهر رمضان عام ١١٤هـ الموافق شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ٧٣٢م في جيش ضخم ضم الكثير من عرب وبربر واعتبر اعظم جيش سيره الفاتحون المسلمون الى فرنسا فاجتاز به سلسلة جبال «البيرينيه» من منطقة باب ـ شرورا (ممرات رونسيفال). وهكذا دخلت الجيوش الاسلامية فرنسا حاملة رسالة الاسلام. ومن ثم تابع عبد الرحمن الغافقي زحفه باتجاه امارة «اكويتين» الواقعة جنوب غربي فرنسا. وتمكن من الاستيلاء على العاصمة «بوردو» (بردال بالعربية) على نهر «الغارون» بعد معركة قصيرة دارت بينه وبين اودو، دوق اكويتين، انتصر فيها عبد الرحمن الغافقي.

ثم تابع الجيش الاسلامي تقدمه بعد ذلك شرقا نحو نهر «الرون» مخترقا ولاية «بورجونيه» وتمكن من الاستيلاء على «ليون» و «بوزنصون» كما تمكنت سراياه من الوصول الى «صانقي» التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل. ثم اتجه عبد الرحمن وجيشه غربا الى ضفاف نهر اللوار وبذلك تم له فتح نصف فرنسا الجنوبي من الشرق الى الغرب.

تفاصيل المعركة

وصل عبد الرحمن الغافقي في زحفه الى السهل الواقع على ضفاف نهر «اللوار» جنوبي مدينة «تور» دون ان يلقى مقاومة تذكر، وكان محور مسيرته بيغور وبيارن وتارب واوليرون. فاستنجد «اودو» بزعيم الافرنج الكبير شارل

مارتيل (أي شارل المطرقة) فقاد الجيوش الافرنجية التي ضمت مختلف العشائر الجرمانية والافرنجية واتجه نحو تور لملاقاة عبد الرحمن الغافقي والجيوش الاسلامية المتقدمة. فوصلها قبل وصول عبد الرحمن اليها. ثم تابع زحفه حيث التقى بطلائع المسلمين وقواتهم المتقدمة على مسافة عشرين كيلومترا الى الشمال الشرقي من بواتييه. وعندما رأى عبد الرحمن جحافل الجيوش الافرنجية بقيادة شارل مارتيل اثر الارتداد من ضفاف النهر الى السهل جنوبي مدينة تور. غير ان شارل مارتيل عبر بجيشه الضخم النهر وعسكر الى يسار الجيش الاسلامي وهناك مكث يرقب ويتأهب منتظرا مبادرة الجيش الاسلامي الى الهجوم. وقد مر اسبوع والجيشان احدهما في مواجهة الاخر. وكان شارل مارتيل قد نظم قواته على شكل لم يمكن سهام العرب من احراز اي نصر منذ بداية المعركة.

وفي اليوم التاسع، أعاد عبد الرحمن الغافقي تنظيم قواته وانطلق بهجوم قوي ساحق على جيش الافرنجة المتمركز حيث دارت رحى معارك ضارية استمرت عشرة ايام. وعندما بدأت بشائر النصر تلوح اصابه سهم فسقط عن جواده، وتمكنت القوات الافرنجية في نهاية المعركة من التسلل الى مؤخرة المعسكر الاسلامي ومهاجمته وانزال الهزيمة به. ولما علم الجند باستشهاد قائدهم دب الذعر واضطروا الى الانسحاب تحت جنح الليل جنوبا متجهين نحو قاعدتهم في سبتيمانيا.

وقد اسفرت هذه المعارك عن استشهاد الاف الجنود في ساحة المعركة من القادة والابطال المسلمين.

ونظرا للصعوبات في التأريخ لتلك الفترة، فان تقديرات المؤرخين الغربيين والمؤرخين العرب بالنسبة الى خسائر الجيشين تختلف كثيرا ولذلك اثرنا عدم ذكرها. وقد تم انسحاب المسلمين من فرنسا نهائيا عام ٧٥٩م.

الاسباب الرئيسية للهزيمة

١ ــ الانهاك والارهاق الذي حل بالجيوش الاسلامية بعد اشهر طويلة كانت مليئة ومشحونة بالمعارك والغزوات والحروب المتلاحقة المستمرة والمسافات الشاسعة التي عبروها.

٢ ــ انهماك وانشغال الجند بالغنائم العظيمة التي استولوا عليها وصعوبة حملها ونقلها.

٣ ــ بعدهم عن قاعدتهم مما حال بينهم وبين الحصول على الامدادات.

٤ ــ أخطاء الطلائع الاسلامية في تقدير عدد جيش الافرنجة وعدته.

٥ ــ المفاجأة التي فوجيء بها عبد الرحمن الغافقي بجيش الافرنجة الضخم المتمركز عند نهر اللوار بقيادة شارل مارتيل وتصديه له.

ملاحظة

ثمة رأي يقول، ان البربر اغتالوا الغافقي. والسبب انهم طالبوا بالعودة الى مواطنهم بعدالغنائم الكثيرة التي غنموا، لانهم لم يعودوا بحاجة الى غنائم جديدة. ويبدو أنهم وعدوا بالغنائم، فكانت غايتهم من المعركة.

والواقع، أن الغافقي كان منتصرا، ويعد العدة للقضاء نهائيا على جيش مارتل. فلما اغتيل اجتمع القادة وخافوا من مذابح بين العرب والبربر، فقرروا الانسحاب ليلا.

ومن الأدلة على ذلك، أن مارتيل فوجيء بعدم وجود الجيش العربي في اليوم التالي فقرر ارسال جيش لملاحقتهم. وقد بلغهم في البيرينيه، فطوقوه وأفنوه عن اخره. وثمة ملحمة مشهورة حول ذلك!

من الأرشيف...

لغويات

الأبجدية

قسم التوثيق والأبحاث

الأبجدية هي الألف باء أو حروف الهجاء وتسمى ابجدية نسبة إلى ترتيب حروف الهجاء في اللغة اليونانية التي تبدأ بالفا (أ) ثم بت (ب) ثم جاما (ج) ثم دلتا (د)، وهو ترتيب قائم في كافة اللغات الأوروبية ولكن مع اعلال ج إلى C (بقيمة صوتية ك إن كانت جامدة، والأبجدية ارقى وسيلة من وسائل التعبير عن الصوت بالكتابة أو بالرمز المرئي. والغرض من ترجمة الصوت إلى رمز مرئي هو تسجيل الكلام بقصد حفظه من الضياع أو ايصاله لمن لا يستطيع سماعه بسبب بعده في المكان أو الزمان، وذلك قبل اهتداء الانسان إلى التسجيل الصوتي. وقد عرفت الانسانية وسائل أخرى لترجمة المنطوق إلى مرسوم أو المسموع إلى مرئي، وهي المراحل الأولى من تاريخ الكتابة وبعضها يستعمل حتى اليوم عند بعض الشعوب المتخلفة وعند بعض الشعوب المتقدمة المحافظة على تراثها القديم. وهذه الوسائل من اربعة انواع:

١ – «الكتابة بالصورة» او «البكتوجراف».

٢ – «كتابة الفكرة» او «الايديوجراف».

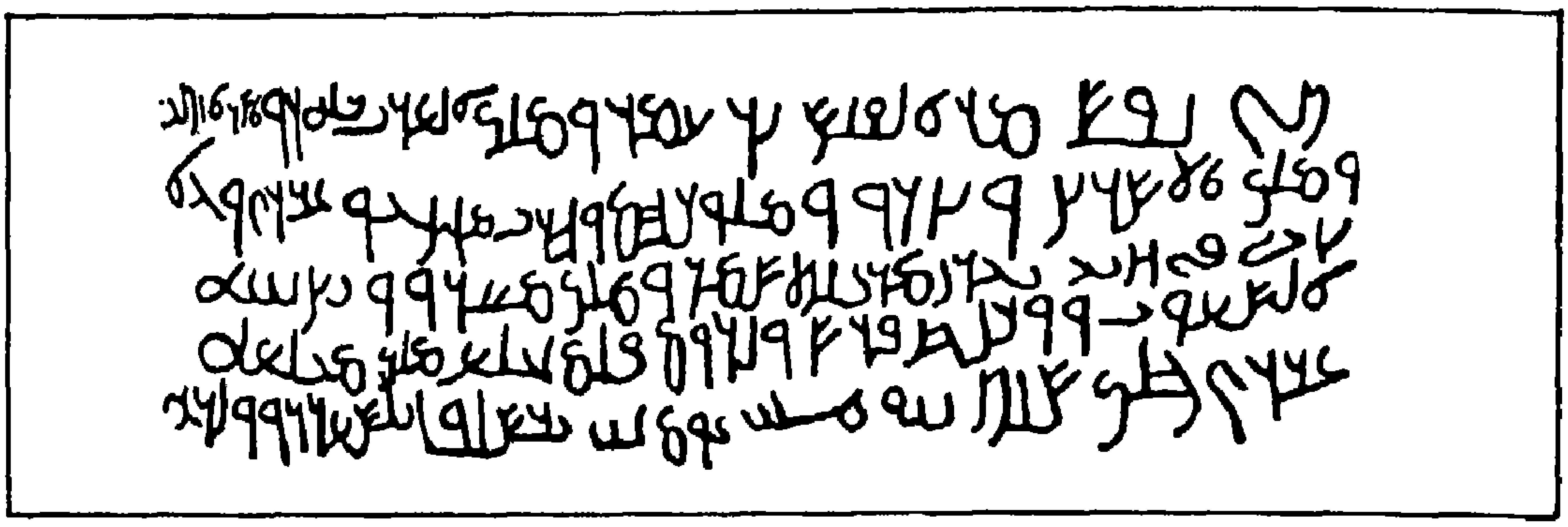
٣ – «الكتابة المقدسة» او الهيروغليف، وإن كانت الهيروغليفية في الواقع تدخل في باب الأبجديات.

٤ – الكتابة المقطعية وهي مراحل سابقة على ظهور الأبجدية بالمعنى المفهوم.

وهناك ستة شعوب استعملت ما يسمى بالكتابة الانتقالية او الكتابة الوسطى وهم السومريون والبابليون اصحاب الخط المسماري، والمصريون والحيثيون والصينيون وشعب المايا والازتيك في أميركا. والتغير التاريخي الذي حدث مؤديا إلى ظهور الأبجدية بالمعنى الناقص ثم بالمعنى الكامل من البكتوجراف او الايديوجراف كان بوجه عام ان الصورة الرامزة لشيء ما، كالدين مثلا، اي رسم العين، اصبح يمثل لا العين وحدها ولكن اي صوت «عين» في اي كلمة، كما لو قلت، للتوضيح فقط «رجلين فاردين» فكتبت كلمة «فارعين» برسم فأر + رسم عين. امتدت هذه الطريقة في التدوين حتى شملت استغلال صور المعاني المتعددة التي يعبر عنها الصوت الواحد. فلأن العين مثلا تعني العين التي ترى وتعني ايضا نبع الماء كتب الصوت «عين» في أي كلمة احيانا برسم العين التي ترى واحيانا برسم النبع وهكذا. ثم لم تعد الدقة في الرمز هدفا اساسيا إذ قدمت عليها السرعة في الكتابة فلم يكتف برسم عين الانسان للتعبير عن صوت «عين» ولكن استعملت رسوم الأشياء القريبة اسماؤها في النطق من اسم «عين» من باب التيسير والسرعة. وواضح أن الرسم الرمزي كعين الانسان اصبح لا يمثل «الشيء» ولكن مجرد «الصوت»، ثم التقى برسم العين رسما تقريبيا وربما خاطئا من باب السرعة ما دام المراد ليس عين الانسان ولكن مجرد الصوت. ويظن أن هذا سبب ظهور الهيراطيقية – وهي كالرقعة أو الكتابة الشخصية – من الهيروغليفية أو الكتابة المقدسة المتقنة التي نجدها في نقوش المعابد.

ولكن الأستاذ ففربيه في «تاريخ الكتابة» يعزو ظهور الهيراطيقية إلى تأثير أدوات الكتابة نفسها على مجرى الرسم ودقته ويرى أن دقة الهيروغليفية ناتجة من حفرها بالازميل على الحجر او نقشها على سطوح ثابتة بأدوات صلبة، أما الهيراطيقية فلم تظهر إلا باستعمال ورق البردى والاقلام البسط واشباهها من أدوات مرنة لا تعين على استقامة الخطوط ودقة الأقواس ولكن تعين على التصرف والكتابة العاجلة.

وتاريخ الأبجديات الأوروبية المعروفة اليوم يرجع إلى حوالى ١٠٠٠ ق.م. فقط ويستقصى من أقدم النقوش اليونانية. والمشكلة عند العلماء هي حالة الأبجديات الأوروبية قبل تاريخ اليونان المسجل. والبعض يفترض أن الأبجدية اليونانية مأخوذة من الأبجديات السامية ويستدلون على ذلك بتشابه أسماء الحروف اليونانية: «الفا. بيتا. جاما دلتا» (أ ب ج د) باسمائها العربية: «الف. بيث. جميل. دالث»، ولكن ربما كانت هذه التأثيرات دائرية أي بالتناوب او كانت هناك أصول مشتركة أوغل قدما، أصول حامية لا سامية، بل ومصرية على وجه التعيين.



«تي نبش مرء تعيش بر عمرو ملك العرب كله دو اسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب محجو عكدي وجء بزجى بي حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو وبنن بنيه الشعوب ووكلهن برشو لروم بلم يبلغ ملك مبلغه عكرى هلك ٢٢٣ يوم ٧ بكشلول بلشعد دوولده ذي نفس.

«(ذا قبر) امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي اسر التاج وملك الاسدين ونزارا وملوكهم (؟) (؟) وجاء (؟) في (؟) نجران مدينة شمر وملك ابنيه ومعد وبنان (على) الشعوب (؟) فرس الروم فلم يبلغ ملك مبلغه (؟) هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كسلول بالسعد الذي ولده».

(نقش الشاهد على قبر امرؤ القيس).

وأقدم نماذج معروفة من الأبجدية السامية حتى ١٩٢٠ كانت النقش المعروف «بحجر مؤاب» وهو نقش للملك ميشا ملك مؤاب في الشام وعمره من القرن ٩ ق.م. ثم نقش اكتشف في قبرص كتب زلفي إلى الاله بعل كبير آلهة لبنان القديمة.

الأبجديات السامية تنقسم إلى سامية جنوبية وسامية شمالية. والسامية الجنوبية تنقسم إلى ٤ أنواع: السبأية أو الصافية (وجدت في اليمن) واللحيانية (وجدت في شمال الحجاز (والثمودية وجدت في حوران) والصنوية (وجدت بجوار دمشق)، واكثرها يقرأ من اليمين إلى الشمال وأقلها من الشمال إلى اليمين ثم من الشمال إلى اليمين سطرا بعد سطر. وفي الأبجدية السبأية ٢٩ حرفا وأقدم نقش بها من القرن ٦ ق.م. ويظن أنها ليست منحدرة من ابجدية مؤاب ولكن تنحدر وإياها من أصل يحدده جاردنر بكتابة سينا. ففيها ٣ حروف مشتركة مع أبجدية سينا وهي] (ب) و □ (ف) في السبأية و + (ت ١ في الثمودية. ويرى البعض ان راي جاردنر مجرد افتراض لأن حروف أبجدية سينا لا تزال مجهولة القيمة الصوتية.

وأهم تطوير أحدثه اليونان كان تخصيص بعض الحروب السامية المستعارة، وهي ٢٢ حرفا، لتستخدم حروف حركة بدلا من سواكن، ثم اضافة بعض الحروف. وأقدم نقش يوناني عثر عليه في جزيرة ثيرا ويرجع إلى القرن ٩ أو ٨ ق.م. والنقوش اليونانية في ابو سمبل وترجع إلى القرن ٧ ق.م. ثم نقش من كورنيث ونقش من أثينا من القرن ٦ ق.م. واقدم نقوش ثيرا تقرا من اليمين إلى الشمال وبعضها حلزوني في الاتجاهين بالتبادل سطرا بعد سطر ويسميه اليونان «برسترو فندون»، وبعضها من الشمال إلى اليمين. وفي جميع الأبجديات اليونانية تستخدم أ، هـ، ع في مقام حروف الحركة باعتبارها حروفا تنفسية.

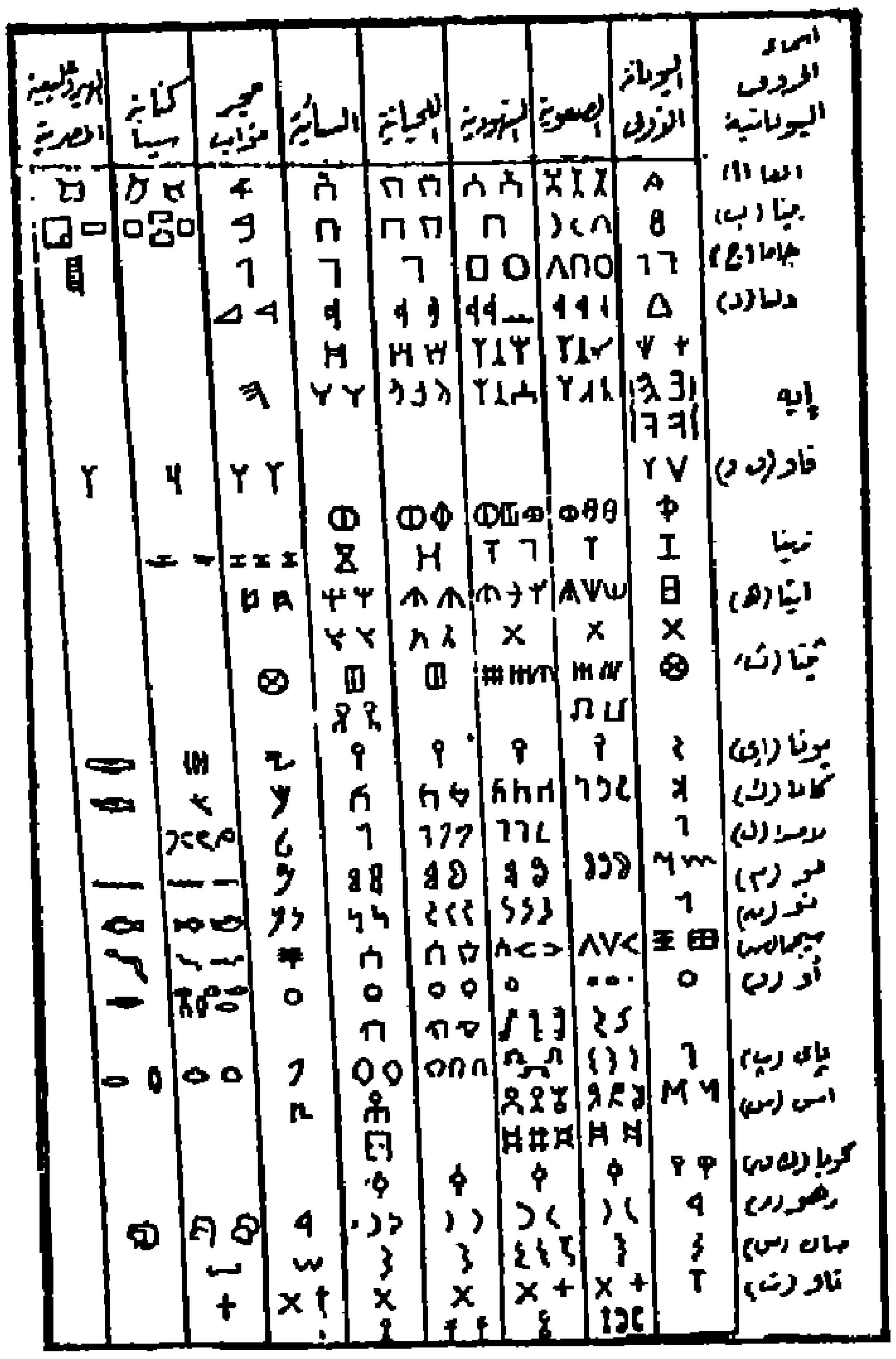
وقد نشأت في آسيا الصغرى عدة ابجديات موازية لليونانية منها أبجدية ليديا (واقدم نص منها من القرن ٤ ق.م.) وعدد حروفها ٢٦ ولكن بعضها لا تعرف بعد قيمته الصوتية. ومنها الابجدية الخلقيدية أو اليونانية الغربية التي نقلها إلى ايطاليا المستوطنون اليونانيون فيما يسمى بالاغريق الكبرى. وكان يظن حتى وقت قريب أن الأبجدية اللاتينية، أم اكثر الأبجديات الأوروبية الحديثة مقتبسة من الأبجدية الخلقيدية نتيجة الاتصال باليونانيين المستوطنين في جنوب ايطاليا. ولم يحسب أحد حسب تأثير أوروبا في الأبجدية اللاتينية بسبب ضآلة علم الناس بحضارتها. اما الآن فمعروف انه كانت في ايطاليا ٦ أبجديات هي:

١ ــ اللاتينية (حول روما).
٢ ــ الفالسكية.
٣ ــ الاترورية.
٤ ــ الأومبرية.
٥ ــ الأوسكية (وكلاهما مستمدتان من الاترورية).
٦ ــ الميسامية (في كالاتريا وهي يونانية الأصل).

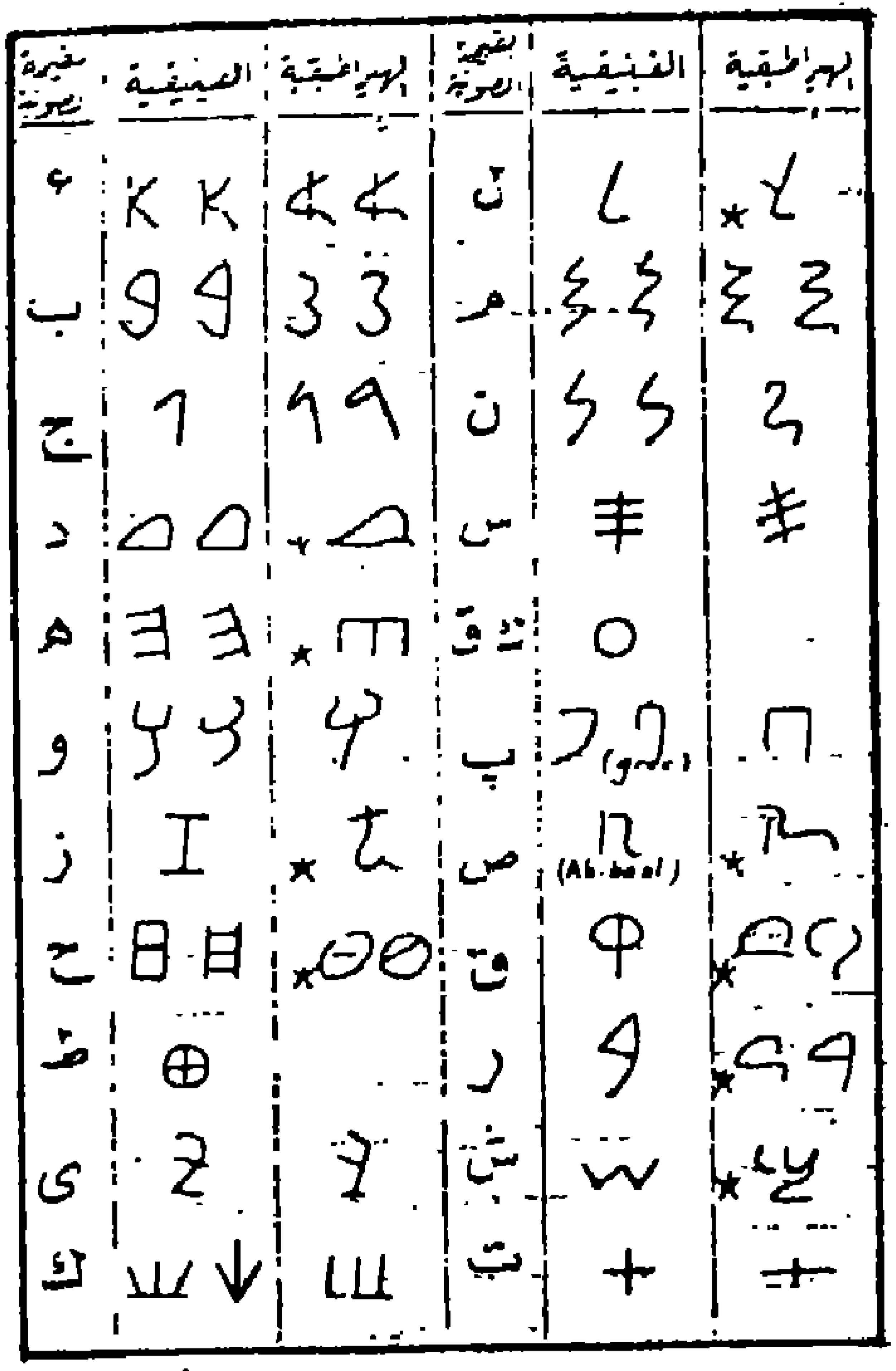
وهذه الأبجديات موزعة حسب مناطق في ايطاليا، وكانت الاترورية تحيط باللاتينية من ثلاث جهات، وهذا يفسر تأثيرها فيها كما يفسر تأثير اترورية في حضارة الرومان.

والراي السائد الآن في منشأ الاترورية أنها انتقلت إلى ايطاليا بانتقال أصحابها إليها من آسيا الصغرى غالبا في القرن ٩ ق.م.

أما الكتابة العربية فقد تطورت من الكتابة النبطية التي ازدهرت بين ٣٠٠ و ٢٠٠ ق.م وهي فرع من الكتابة الارامية، وأقدم كتابات عربية



□ الحروف اليونانية والمصرية القديمة.



الابجدية المصرية القديمة والفينيقية

معروفة هي نقوش معبد الروم من القرن ٣ أو ٤ ولكنها اقرب إلى النبطية منها إلى العربية وكذلك نقش مداين صالح (سنة ٢٦٧) ونقش ام الجمال وهو من لغتين (سنة ٣٠٥). اما نقش النجارة سنة (٣٢٨) فعربية خالصة ولكن ابجديته نبطية.

واقدم نص منها وجد في تيماء شمال غرب شبه جزيرة العرب ويرجع إلى القرن ٥ ق.م. وهناك نقوش أحدث اسمها النقوش النبطية وترجع من سنة ٩ ق.م. إلى سنة ٧٥ ميلادية كما أن هناك النقوش الجرافيتية على صخور جبل الطور، وكلاهما بين تطور الأبجدية النبطية حتى القرن ٣.

وفي أوائل العصر الاسلامي كان هناك نوعان من الكتابة العربية الكوفية والفشكية (النسخ). والأولى بطل استعمالها إلا من الاغراض الرسمية حيث لا يمكن استعمال الخط الكورسيف (المقوس). والكتابة النشكية هي أصل الكتابة العربية الحديثة. واستعمل المسيحيون في شمال سوريا نوعا من الأبجدية يسمى استرانجيلو نقلها المبشرون النشاطرة إلى وسط آسيا، واشتق منها عدد كبير من الأبجديات التي امتدت شرقا حتى بلغت منشوريا.

واقدم نصوص آرامية ترجع إلى ٨٠٠ ق. م. تقريبا، وقد وجدت في سندجرلى بشمال سوريا وابجديتها لا تختلف كثيرا في هذه المرحلة عن ابجدية حجر مؤاب. وقد استعملت في الأشورية كخط كورسيف (مقوس) جنبا إلى جنب مع الخط المسماري المستقيم. وتتميز الآرامية باتجاهين احدهما تحول الزوايا إلى اقوس والثاني فتح رؤوس الحروف.

واكتمل هذان الاتجاهان في الفترة الفارسية وتبلورا بالذات في البرديات الآرامية في مصر بين ٥٠٠ و ٢٠٠ ق. م. وتطورت الآرامية ايضا إلى الأبجدية العبرية الحديثة المربعة وإلى ابجدية تدمر.

وظهرت في آسيا الصغرى بين ١٠٠٠ و ٥٠٠ ق. م. مجموعة من الأبجديات المستمدة من أصل واحد والبعض يرجح أنها مرحلة قديمة من الآرامية، وكانت الأبجدية اليونانية بفرعيها الشرقي والغربي احد هذه الابجديات.

والرأي الشائع هو ان الأبجدية الفينيقية كانت ذات أثر مباشر في نشأة الأبجدية اليونانية أو في تطويرها على الأقل، ولكن واضح من هذا الجدول ان الآرامية اولى بهذا الوصف. وأيا كان الأمر فمنشأ السامية الشمالية من فينيقية وآرامية، هو موضع الجدل الأكبر بين العلماء، ولا تزال نتائجه معلقة حتى اليوم.

والنظرية المصرية تقول ان الأبجدية الفينيقية مأخوذة عن الهيروغليفية أو الهيراطيفية المصرية وأهم دعاتها لنورمان وروجيه ولوزاتو ومونتيه وكورت زيته واقدم نص فينيقي معروف هو حجر بيلوس (جبيل الحالية بلبنان) ويرجع إلى نحو ١٥٠٠ ق.م. ومن أهم ما قيل إلى جانب مقارنات أشكال الحروف ان حفائر سوريا بعد ١٩١٨ (راس شمرا) تدل على أن أثر الحضارة المصرية القديمة في فينيقيا عامة وفي بيلوس خاصة موغل في القدم فهو

يترامى إلى ٣٠٠٠ ق.م. على الاقل، وربما قبل ذلك في عصر طبنة، وأنه في ببلوس ذاتها بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ ق.م. وهي فترة ظهور الابجدية الفينيقية، كان الناس في ببلوس ذاتها يقرأون المصرية القديمة ويتداولونها تداول اللغة المألوفة.

هناك أيضا النظرية الاكادية التي تحدد المصدر بحضارة بابل القديمة او حضارة سومر واكاد وأهم دعاتها ديكه وبايزر وديليتش وتسيمرن وفقريبه إلى حد ما. وهناك النظرية الابجدية التي ترد الكتابة الفينيقية إلى ابجدية قبرص المقطعية أو إلى اية حضارة مينوس بجزيرة كريت، وأهم دعاتها برايتوريوس وآرثر ايفانز وفريز وشنايدر ودابيه. أما شابوتييه فقال ان ابجدية فينيقيا مأخوذة عن هيروغليفية مصر من خلال كتابة كريت. وهناك النظرية الفلسطينية التي ترى أن الفلسطينيين لم يبتكروا الابجدية وإنما نقلوها من بحر ايجه إلى فينيقيا حول ١٩٠٠ ق.م. وأهم دعاتها جونتر شوخارت. وهناك النظرية البروتوسينائية (أي كتابة سينا الأصلية) وهي امتداد للنظرية المصرية والكتابة البروتوسينائية هي النقوش التي اكتشفها فلندرز بيترى في ١٩٠٤ و ١٩٠٥ في هضبة سرابة خادم بحوض المناجم وسط شبه جزيرة سينا وتاريخها غير محدد فمناجم سينا كانت تستغل كمحاجر للفيروز في فترتين هما الأسرة ١٢ (أي نحو ٢٠٠٠ ق.م.) والأسرة ١٨ (أي نحو ١٥٠٠ ق.م.) ويرى بيتري وجريم انها من الفترة الأخيرة، اما زينه فيعود بها إلى الأسرة ١٣ أو ١٤ أو إلى عصر الهكسوس، وينسبها بوتان إلى الأسرة ١٢ وهو الرأي الذي استقر عليه العلماء اليوم. والنقوش محفورة في مدخل المحاجر وعلى التماثيل في معبد الربة حتحور اوهاتور حامة المنطقة ولقبها «سيدة الفيروز». واكتشاف وثائق بروتوسينائية في فلسطين جدد الاهتمام بها وخصص لها مكانا مستقلا في تاريخ الأبجدية وهناك فريق مثل ايسلر ويراستون يرى أن البروتوسينائية موازية للفينيقية لا سابقة عليها ويفترض وجود أبجدية سامية أصلية (بروتوسامية) أو ما قبل سامية كانت هي المصدر.

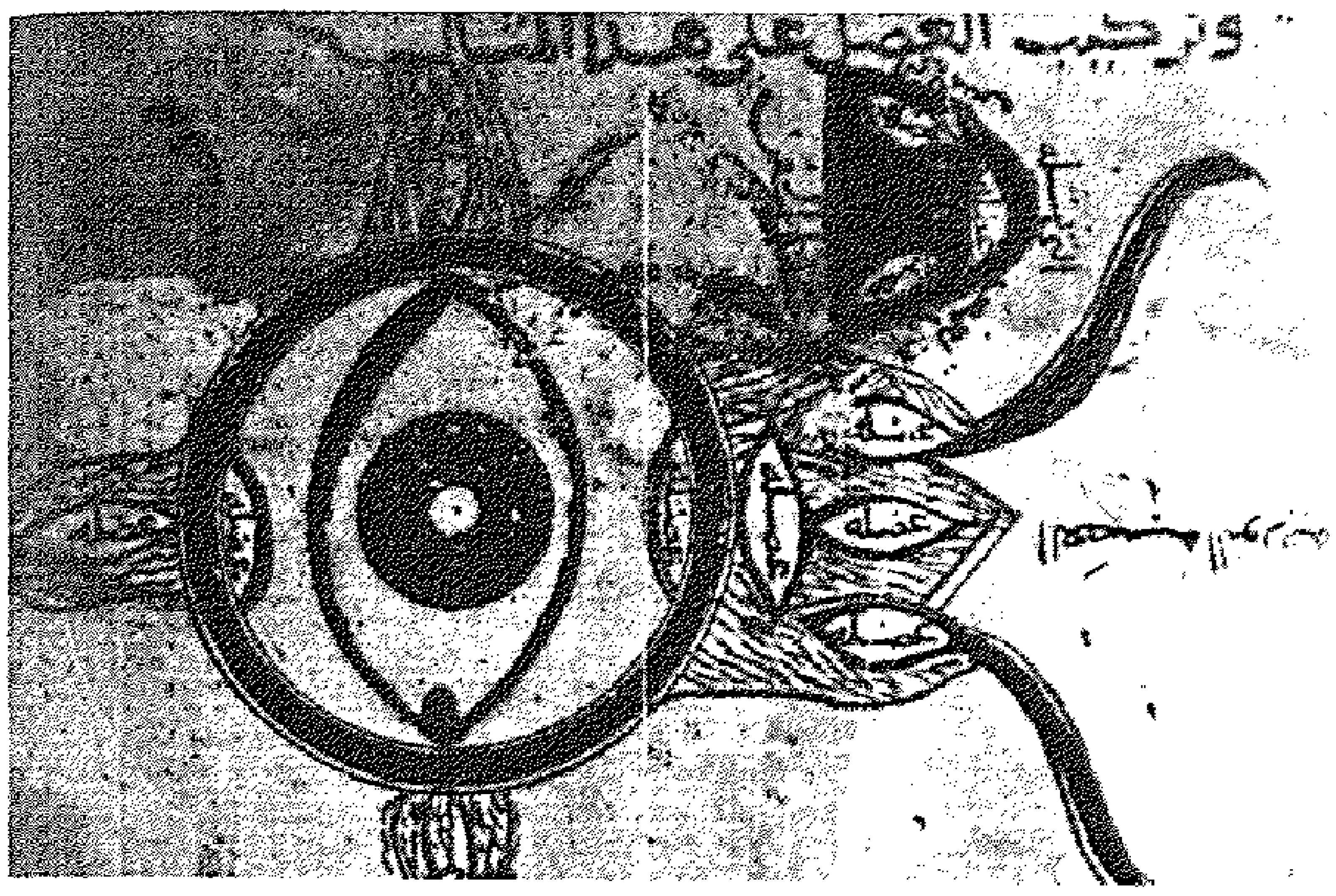
وأخيرا فهناك نظرية الخلق الابتكاري وهي تقول أن الفينيقيين ابتكروا ابجديتهم بأنفسهم ولم يأخذوها عن احد ودعاة هذا الرأي هم فايل وجروت ودوسو وسوندوال ودبرينجر. ●

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة



أعلام في الطب العربي

عمّار بن علي الموصلي

من مشاهير أطباء العيون عند العرب

فاضل خليل ابراهيم

يزخر التراث العلمي العربي، بالعديد من الشخصيات العلمية، التي كان لها الدور الكبير في رفد هذا التراث، بمساهمات مبدعة وأصيلة. ففي مجال الطب، ظهر لدينا أطباء اختصوا في جوانب طبية معينة، منها طب العيون، الذي اشتهر فيه الطبيب أبو القاسم عمار بن علي، وعُرف في أوروبا باسم (Cana musli)(١).

وُلد عمار في الموصل، وإليها نُسب، ثم سافر في طلب العلم إلى خراسان وفلسطين، واستقر أخيرا في مصر، حيث أخذ يمارس الطب، وذاعت شهرته في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي(٢) (٣٨٦ ــ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ــ ١٠٢٠م)، وقد توفي فيها سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م.

يعتبر الموصلي من اكبر أطباء العيون أصالة وإبداعا، فقد أشاد به ابن أبي أصيبعة بقوله: «كان كحالا مشهورا، ومعالجا مذكورا، له خبرة بمداواة أمراض العين ودربة بأعمال الحديد»(٣). كما قال عنه المستشرق الدوميلي: «وكان من أعظم أطباء العيون في عالم العرب»(٤).

وتقرن شهرته هذه، بكتابة الموسوم بـ «المنتخب في علاج أمراض العين»(٥)، وعرف أيضا باسم «المنتخب في علم العين، وعللها، ومداواتها، بالأدوية»(٦). وهو الآن لا يزال مخطوطا في عدد من مكتبات العالم.

وتظهر أهمية الكتاب وفائدته الكبيرة، في احتوائه على الكثير من الملاحظات والاشارات المبتكرة(٧)، إضافة إلى المعلومات التي يذكرها الموصلي عن العمليات التي عملها بنفسه، من ذلك ذكره لست طرق لاجراء عملية القدح للماء النازل في العين «مرض الساد ــ Cataract»(٨)، كانت إحداها بالمص(٩). حيث استعمل أنبوبا زجاجيا دقيقا، ليدخله في مقدمة العين، ويفتت به العدسة المعتمة، ثم تمتص هذه العدسة المفتتة. وكانت هذه العملية هي أول عملية حديثة «للساد»، وظلت سائدة في الشرق، ولم يعرفها الغرب في القرون الوسطى. وقد توصل العلم الحديث إلى استعمال هذه الطريقة(١٠).

ويمتاز الكتاب ومؤلفه أيضاً، بطريقته العلمية في الكلام عن الأمراض وتصنيفها، فهو يصف المرض وتشخيصه، ويبين أعراضه وعلاجه في

الفصل الواحد، كما هو الحال في عصرنا الحاضر، خلافاً لمن سبقوه، إذ كانوا يذكرون أعراض الأمراض كلها في فصل، والتشخيص في فصل، والعلاج في فصل آخر[11].

وقد أصبح هذا الكتاب، منهجاً للتعليم في طب العيون في جامعات الغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر[12]، حيث ظهرت له هناك، ترجمات لاتينية، من أشهرها ترجمة داود الارميني (David Hermenus)، التي طبعت في باريس سنة ١٩٠٤م وفي نابولي سنة ١٩٢٣م. كما اشتهرت له ترجمة المانية، نشرها هيرشبرج (J. Hirschberg) وليبرت (E.J. Lippert)[13].

* * *

المصادر والهوامش

(١) الدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، الطبعة الأولى، دار القلم ١٩٦٢م، ص ٢٤.

(٢) فرات فائق خطاب: الكحالة عند العرب، وزارة الاعلام، العراق ١٩٧٥م، ص ٢٨.

(٣) انظر كتابه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية ١٨٨٢م، ج ٢ ص ٨٩.

(٤) انظر المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٥) حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الموصل ١٩٧٥م، ص ٦٤.

(٦) ابن ابي أصيبعة: المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٩.

(٧) حنين بن إسحاق: العشر مقالات في العين، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢٨، ص ١١.

(٨) الساد: فقد البصر الناتج عن فقدان شفافية العدسة العينية، والتي هي جسم شفاف، في الأحوال الاعتيادية لا يمكن رؤيتها. ولكنها تظهر كقرص ابيض وراء البؤبؤ عند إصابة العين بهذا المرض.

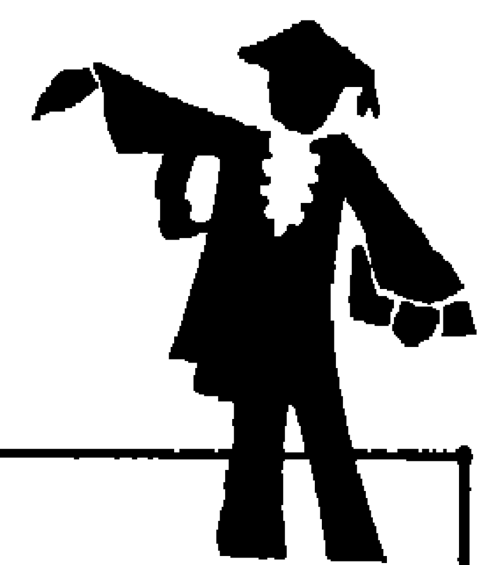
(٩) محمود الحاج قاسم: طب العيون عند العرب، مقال في مجلة المورد العراقية م ٤، عدد ٢، ١٩٧٥، ص ٥٠ ــ ٥١.

(١٠) عبد المنعم عبد الحميد: الساد «الماء الأبيض» بين القديم والحديث، مقال في مجلة الجامعة، تصدرها جامعة الموصل، العدد ١٥، السنة الثانية ١٩٧٢م، ص ٦٨ ــ ٦٩.

(١١) محمود الحاج قاسم: المصدر السابق، ص ٥٢.

(١٢) عبد الحميد العلوجي: تاريخ الطب العراقي، بغداد ١٩٦٧، ص ٥٤٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٣٧.



«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

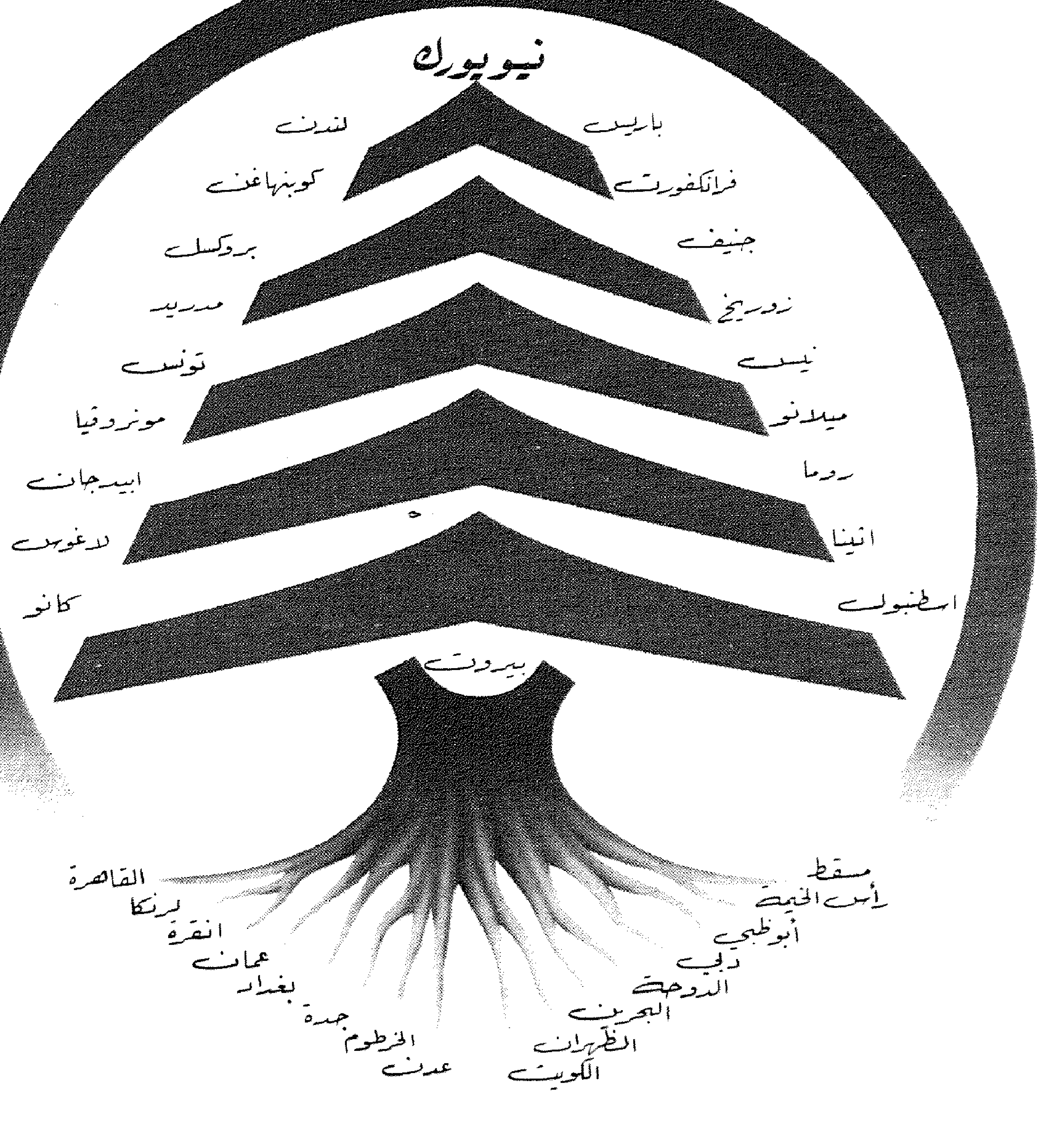
يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تدعو أصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية والأجنبية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الألف كلمة والألف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة إلى مكان وزمان تقديمها وإسم الأستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب أمام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى أن تحقق بعضاً من الأهداف والتي أهمها:

- أولا – التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.
- ثانياً – التعرف على توجهات الجامعات العربية والأجنبية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.
- ثالثا – توفير جانب من البيبليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا

MEA





من روائع المجوهرات التونسية التقليدية من كتاب «مجوهرات تونسية»، كليمنس سوجيه



الغلاف الأول

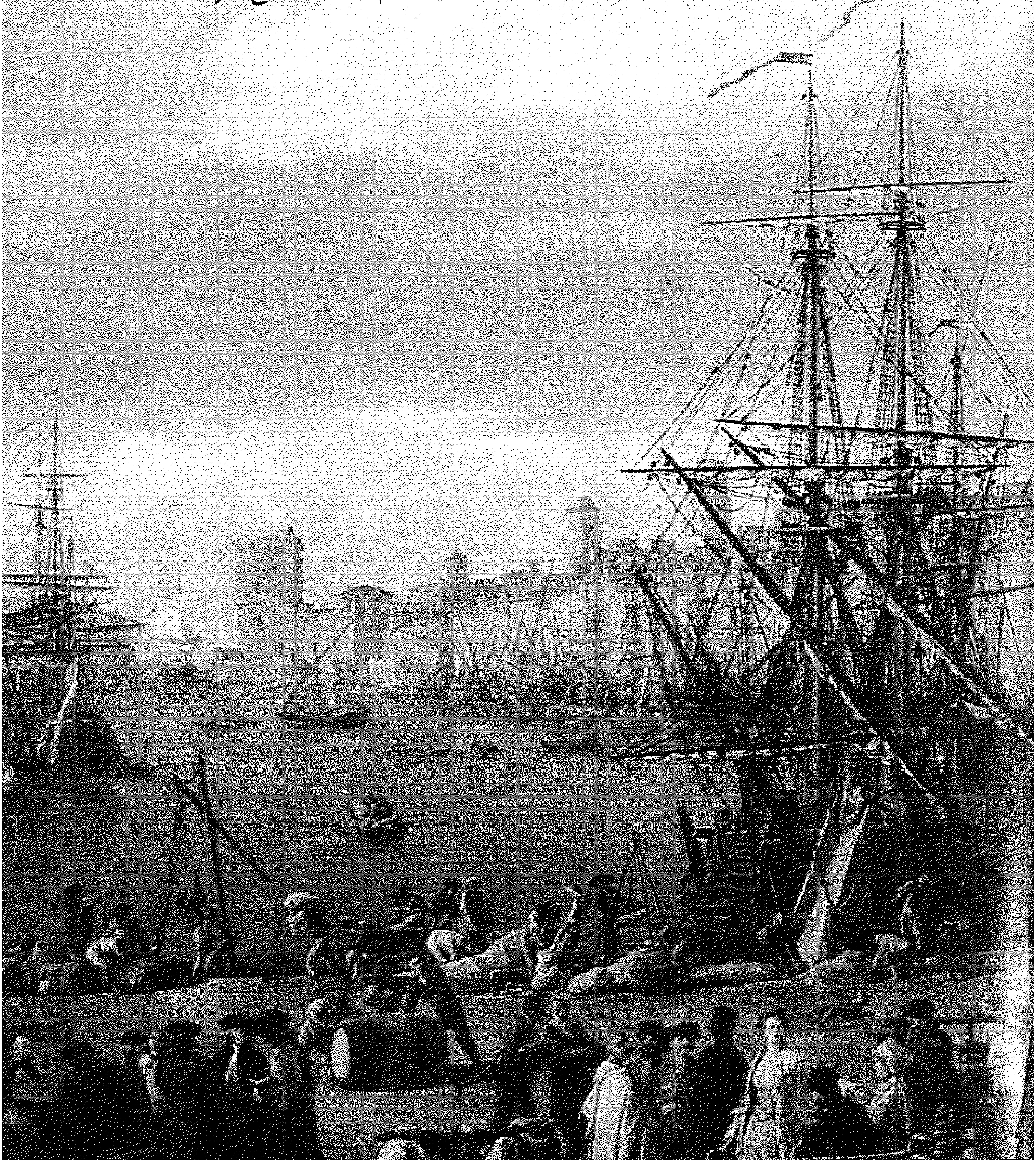
□ الغلاف الأول
عساس عربي
للرسام بتي
(عام ١٨٨٣)

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السادسة • العددان ٦٢ - ٦٣ • ك١ - ك٢ (يناير) ٨٣ - ١٩٨٤م. • الموافق ربيع الثاني ١٤٠٤هـ.



□ مدينة صـور: حضارة ونضـال ضد الأجنبي منذ آلاف السنين.



تاريخ العرب والعالم

العددان ٦٢/٦٣ ــ ك١/ك٢ ــ ٨٣/١٩٨٤م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الاردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 6 - No. 62/63 - Dec./Jan. 83/1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

□ هجـرة الكفـاءات العـربيـة (الحلقـة الأولى)
إعداد: الأستاذ انطوان ب. زحلان........ ٢

□ الطرق التجارية في العصور الوسطى سلع ومتاجر
د. نقولا زيادة ١٥

□ غزاة بحر الشام وامراؤه في العصر العباسي (الحلقة الثانية)
د. عمر عبد السلام تدمري..................... ٢٦

□ العَجَلُ او الدولاب بين التاريخ والبيولوجيا
د. إبراهيم فريد الدّر............................ ٣٥

□ ذكريات أصبحت تاريخاً:
ايدن: «لقد أظلم الجو في وجهنا عندما أمم ناصر قناة السويس»
انطوني ايدنْ ٤٢

□ مـوقف المانيـا من مشروعي تـدويـل القدس وإعادة توطين اليهود في فلسطين (١٨٤٠ ــ ١٨٨٦)
د. عبد الرؤوف سنّو............................ ٤٨

□ البيمارستانات في التاريخ العربي ونظام العمل فيها
د. مؤنس محمود غانم ٦٤

□ مغامرة عبور الأطلسي
رائدا الطيران: الكوك وبراون
إعداد: سعيد كريديه............................ ٧٠

□ فلورنسا: أطول متحف في العالم!
إعداد: انعام الجندي ٧٨

□ القراء يكتبون:
معاوية بن أبي سفيان: ما له وما عليه
فارس عينه ٨٨

□ اخبار التراث ٩٢

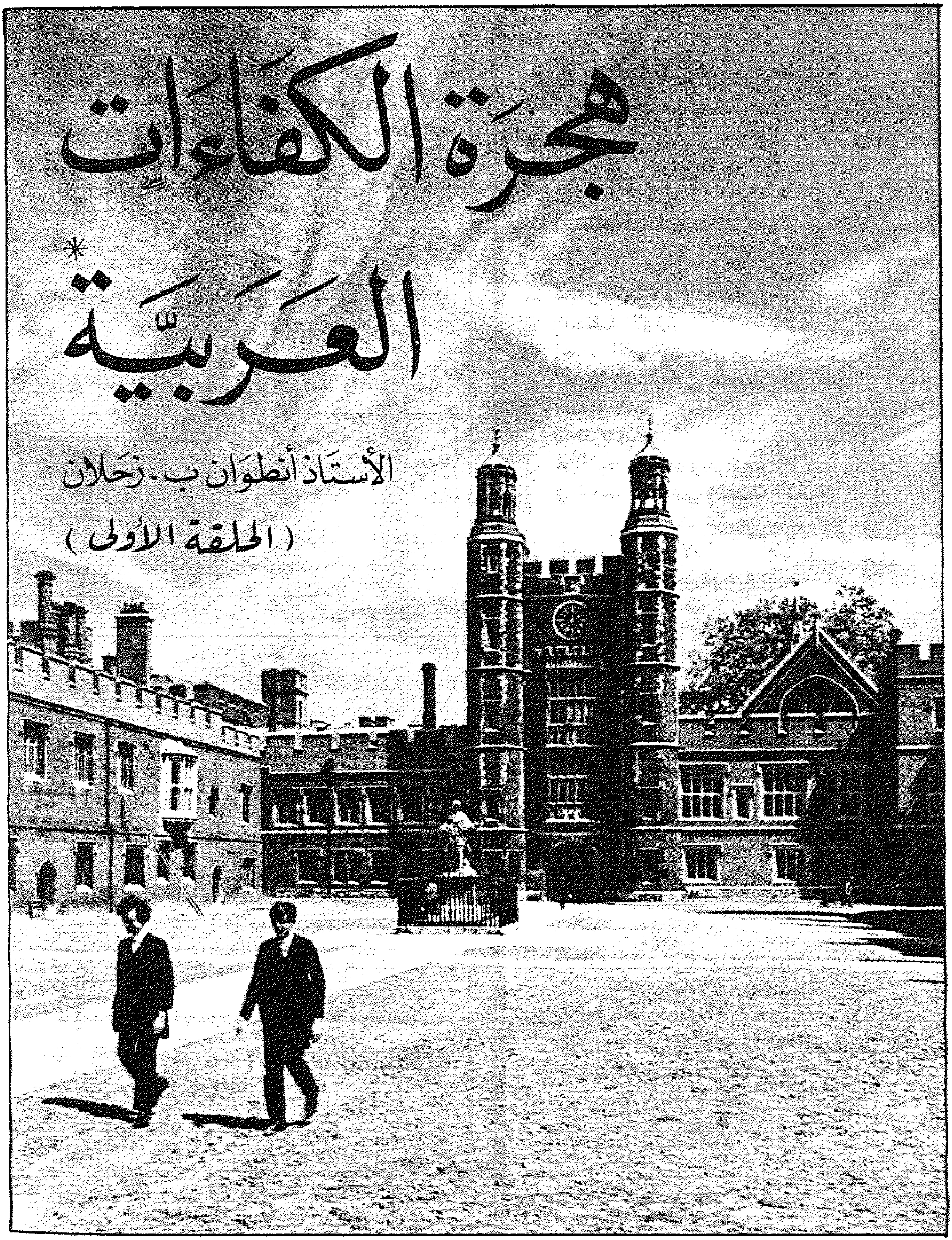
□ من الأرشيف: لافاييت
«قسم التوثيق والأبحاث» ٩٤

□ كتب وردتنا ٩٦

هجرة الكفاءات العربية *

الأستاذ أنطوان ب. زحلان

(الحلقة الأولى)



□ جامعة ايتون ـ انكلترا.

□ الأستاذ انطوان ب. زحلان: استاذ زائر ـ جامعة سكس.

(*) يشكل هذا البحث موجزا عن الدراسة التي قدمت إلى ندوة السكان والتنمية في منطقة اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا والتي عقدت في عمان، الأردن، بين ١٨ و ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨.

تتضمن هذه الدراسة المعلومات المتاحة عن تحركات القوى العاملة العربية ذات المستويات العالية. ولقد تناولنا فيها التعقيدات الخاصة بالتدفقات، وكذلك النقص وعدم الدقة في المعطيات. اضف إلى ذلك، ان صورة كمية لتدفقات القوى العاملة العربية ذات المستويات العالية قد رسمت على سبيل التجربة.

وبنيت هذه الصورة على أساس افتراضات مؤداها ان افراد القوى العاملة ذات المستويات العالية الذين يسكنون الولايات المتحدة بشكل دائم يبلغ تقريبا ثلاثة اضعاف عدد المهاجرين إليها، في حين بلغ عدد المهاجرين إلى كندا وفرنسا وبريطانيا والبلدان الأوروبية الأخرى على التوالي ١ و ٢ و ١ و ٠,٥ من المرات لعدد القوى العاملة ذات المستويات العالية المهاجرة إلى الولايات المتحدة.

وقد تم تقدير ذوي الكفاءات العالية من القوى العاملة العربية حسب نوع دراستهم. وتقدر نسبة المهندسين والعلماء والأطباء الذين هاجروا بـ ٢٣ و ١٥ و ٥٠ بالمئة على التوالي. كما قدرت نسبة حاملي شهادة الدكتوراه بـ ٢٤٠٠٠ اي بزيادة تبلغ ١٠ بالمئة سنويا. وتبلغ نسبة الهجرة عند فئة الأطباء حوالي ٣٣ بالمئة.

وقد تم البحث في أسباب هجرة الكفاءات على ضوء وجهات النظر لفئات مختلفة من البلدان. ويتساءل الكاتب في ختام البحث عن سبب بقاء هذا العدد من أصحاب الكفاءات ذات المستويات العالية في بلدانهم، وليس عن سبب هجرتهم. ويؤكد على الأهمية التي يجب إعطاؤها لطريقة الاستفادة من هذه المجموعات استفادة كلية.

مقدمة

إن الهجرة العالمية للقوى البشرية ذات المستويات العالية وهجرة الكفاءات أو العقول والنقل العكسي للتكنولوجيا، تسميات ثلاث شائعة اليوم لظاهرة قديمة قدم التاريخ[1]. وأصبحت هذه الظاهرة خلال العقدين الماضيين، موضع اهتمام وأهمية كبيرين للبلدان المتقدمة بالاضافة إلى وكالات الأمم المتحدة والبلدان الأقل نموا. أما نوع الاهتمام بهذه الظاهرة ونوعيته فيختلفان اختلافا كبيرا من بلد لآخر. وقد صدر عن حكومة الولايات المتحدة، وعن الباحثين في أمريكا، أكمل السجلات في هذا الموضوع فضلا عن تأمين تدفق شامل ومستمر من الدراسات والكتابات حول هذه الظاهرة. وقام عدد من وكالات الأمم المتحدة بإعداد دراسات حول هذا الموضوع، ومن بينها على سبيل المثال، معهد الأمم المتحدة للتدريب والبحث، ومنظمة الصحة العالمية، ومؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية. أما في العالم العربي، فإنه لم يتم سوى نشر قليل من المعلومات الاحصائية المحلية، ولم توضع سوى دراسات قليلة جدا في هذا المضمار، وسنناقش ذلك بالتفصيل بعد قليل.

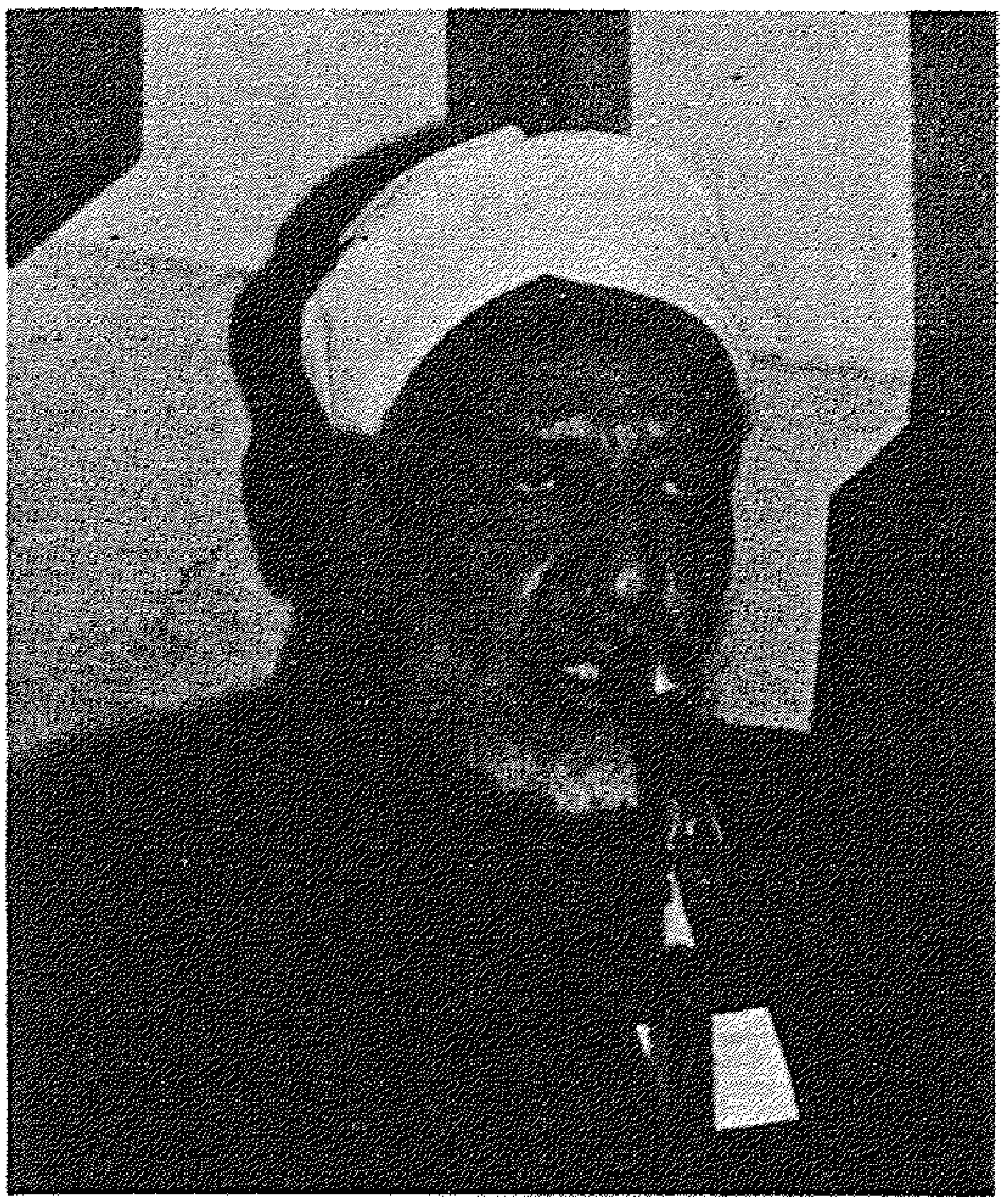
وقد تم خلال العقدين الماضيين اكتشاف مجموعة كبيرة من النواحي والأبعاد الجديدة لقضايا الهجرة، كما طرحت مجموعة جيدة من التأويلات المتعلقة بالهجرة وأسبابها. وتشير كل الدلائل إلى أن الهجرات البشرية مستمرة، وإن الكتابات حول الموضوع ستظل حيوية، وستبقى موضوعا قائما بذاته. وقد أصبح هذا الموضوع في مرحلة متقدمة من التكوين.

وسنعنى، في هذه الدراسة، بهجرة القوى البشرية العربية ذات المستويات العلمية العالية، ونركز اهتمامنا على مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما أصبح تدفق هجرة هذه الفئة من القوى البشرية أمرا محسوسا. وسنورد في هذه الدراسة المعلومات المتوافرة ونناقش ما فيها من قصور. وقد ارتأينا النظر في تدفق القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى الولايات المتحدة لأنها مصدر أكمل المعلومات حول هجرة هذه الفئة من الكفاءات. وقد حاولنا أيضا ربط تدفقات الهجرة هذه بمؤشر أو أكثر من مؤشرات أسواق القوى البشرية في الولايات المتحدة والعالم الثالث. وهناك نهج ثان رائج بعض الرواج، يقوم بدراسة قوى الدفع والجذب، أي مناقشة وتحليل القوى التي تدفع القوى البشرية ذات المستويات العالية

خارج أوطانهم، والقوى التي تجذبهم إلى البلدان المتقدمة. وهناك دراسات ممتازة في هذا الشأن. وما سنحاوله هنا هو رسم صورة لتدفق القوى البشرية في العالم العربي. وهذه الصورة التي سنخرج بها، ستستند بالضرورة إلى التأويل والاستقراء ونظام تحليل الكميات. وسنكون عرضة إلى بلوغ استنتاجات لا مبرر لها إذا ما وضعنا نصب أعيننا الطبيعة التجريبية للمنهج فضلا عن قصور البيانات والشكوك التي تكتنفها. وعلى الرغم من مواطن قصوره الواضحة فإن لهذا المنهج عدة مزايا، فهو يضع الموضوع برمته في منظور واقعي، وبذلك يصبح نوع البيانات التي نحن في حاجة ماسة إليها أكثر وضوحا. وتصبح تعقيدات الحركة العالمية للقوى البشرية ذات المستويات العالية أكثر جلاء.

ان حركة القوى البشرية تفقد الكثير من معناها إذا ما نوقشت بمعزل عن موارد تلك القوى ذات المستويات العالية في مجتمع ما، وعن الظروف والمشكلات لهذه القوى والقدرة المتوافرة لتعليم قوى بشرية إضافية، يضاف إلى ذلك تحليل مفصل، نسبيا، للمجموعات المحترفة المشاركة في هذه العملية. ولن تصبح مناقشة هجرة الكفاءات العربية (هجرة العقول) ذات معنى إلا بعد أن ندرس موارد القوى البشرية ذات المستويات العالية. ولحسن الحظ ان البيانات عن إنتاج القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية في الجامعات العربية تدعمها وثائق تزيد عن الوثائق التي تدعم هجرة العقول.

وبعد أن يتم تحليل كل العوامل المشار إليها سابقا، نستطيع معرفة ما إذا كانت تدفقات الهجرة الراهنة تدعو إلى القلق، كما نستطيع إيجاد البدائل التي يجب اتخاذها. ومن الطبيعي اننا سنجد أن الشكوك العديدة التي تكتنف قاعدة بياناتنا وفهمنا المحدود للعمليات الانمائية الأكثر عمقا سيولدان عددا من التفسيرات والاستنتاجات المعقولة. وفي عالم المعرفة غير الكامل هذا، تكون هجرة العقول مسبرا حساسا للعمليات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في مجتمعات البلدان المتقدمة والنامية على السواء. كما أنها تلقي ضوءا على كلا المجتمعين فضلا عن سلوك الأفراد.



□ الشيخ احمد محمد زباره، عضو في فريق الكتاب بالقسم العربي باذاعة صوت اميركا.

البيانات والمعلومات

إن السجلات السنوية المفصلة عن مهاجري القوى البشرية ذات المستويات العالية، حسب فروع المعرفة ومستوى التعليم والسن والعمل والأسباب والظروف المرتبطة بالهجرة، هي عناصر اساسية لدراسة المشكلة دراسة مفصلة. وقد أسهمت وكالات الحكومة الامريكية في توفير المعلومات الضرورية للمساعدة على التفكير في المشكلة على نحو واقعي. ومثل هذه البيانات مستقاة أساسا، من وزارة العدل الامريكية، ومصلحة الهجرة والتجنيس — وتقوم هذه الوكالة بنشر معلومات إحصائية سنوية عن العمال المهاجرين وغير المهاجرين في امريكا. وقد تم الوصول إلى بيانات هذه الوكالة بهدف إعداد دراسات مفصلة للكونغرس الامريكي، وتم توسيعها في السبعينات من قبل المؤسسة القومية الامريكية للعلم (National Science Foundation) في مسحها للقوى البشرية العلمية الامريكية التي تتضمن بيانات واضحة من العلماء والمهندسين والأطباء والأجانب. وفي مقابل ذلك، لم تنشر الحكومات والمؤسسات العربية سوى معلومات أولية ضئيلة جدا.



□ ادموند موصللي: استاذ الموسيقى العربية بجامعة «تورتوسترن».

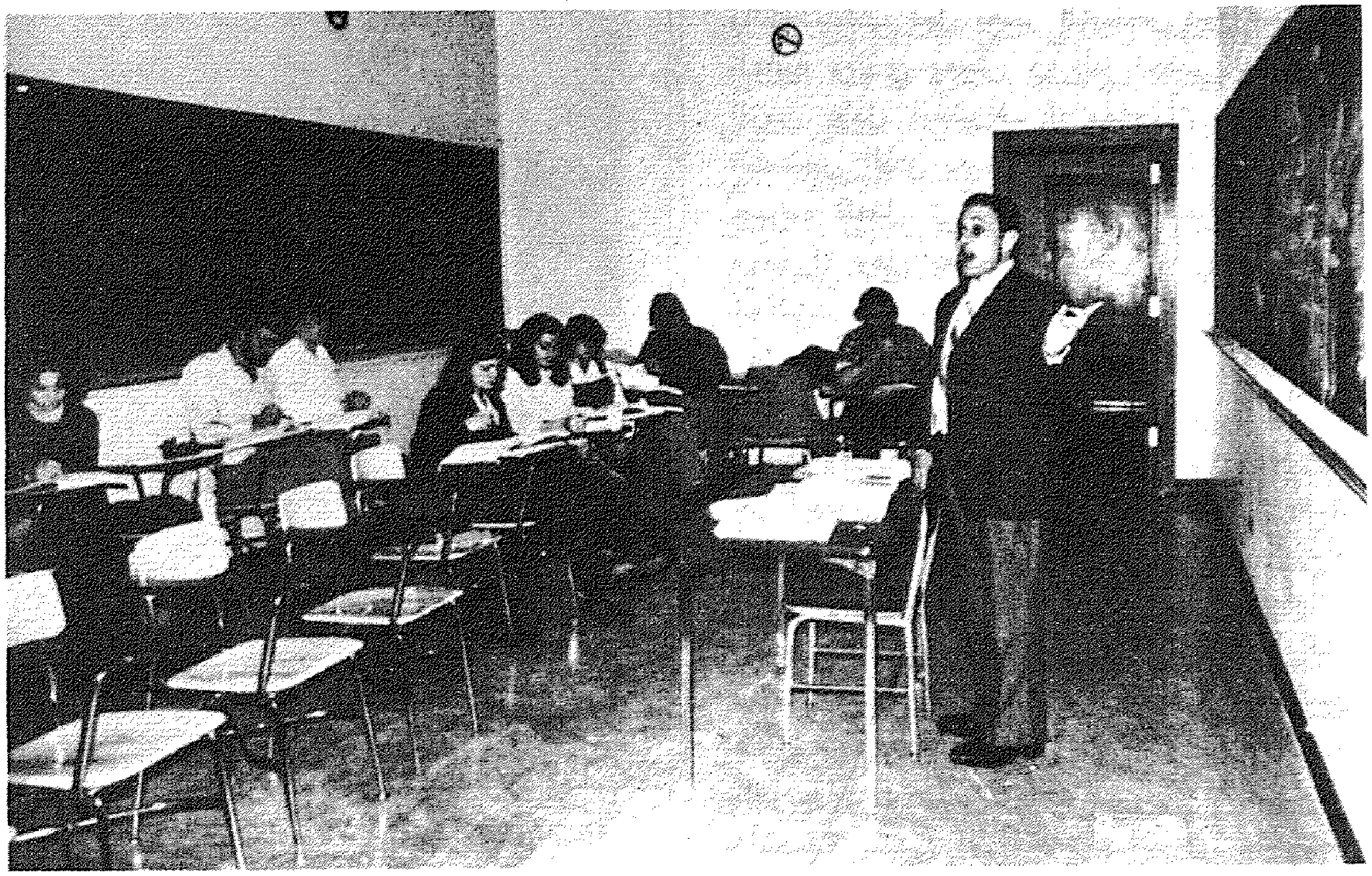
من هم أصحاب الكفاءات (العقول)

من المفروض أن تشير عبارة «القوى البشرية ذات المستويات العالية» هنا، إلى خريجي الجامعات من حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه. والعلماء الذين تشير الاحصاءات إليهم هم حملة هذه الدرجات العلمية الثلاث. وبالطبع ليس بالضرورة أن تتوافر لكل حامل شهادة المعرفة القيمة، كما أنه ليست كل أنواع المعرفة مفيدة للبلدان الأقل نموا. وبذلك فليست كل العقول المهاجرة مفيدة بالضرورة للوطن أو حتى للبلد المضيف، كما أن عدم الاستفادة من «عقل» ما، لا يعني بالضرورة أن الشخص ذاته غير مفيد. ويجب الملاحظة أيضا ان حقيقة نجاح القوى البشرية ذات المستويات العالية في مجتمع منظور لا تعني بالضرورة ان هذه القوى البشرية قد أصبحت أكثر أو أقل كفاءة لوطنها. ولم ينجز، حتى الساعة، إلا القليل جدا فيما يتعلق بالناحية النوعية لهذه المشكلة.

ما هو الاستنزاف أو الهجرة

ان ما يمثله الاستنزاف أو الهجرة هو مسألة تطرح مشكلات في غاية الصعوبة تتعلق بالبيانات والتحديدات. فهل يعتبر الشخص ذو المستويات العالية والذي يعيش في بلد أجنبي لفترة من الزمن عامل استنزاف او مهاجراً؟ وهل يعد الشخص الذي يعيش في بلده ولكنه يكرس كل جهوده للعمل في مشروعات في بلدان أجنبية مهاجرا؟ وهل يعتبر الشخص الذي يوجد في الولايات المتحدة بموجب تأشيرة تبادل الزوار مهاجرا أم ان المهاجرين هم أولئك الأشخاص الذين طلبوا تأشيرة هجرة وحصلوا عليها؟ ان جانبا كبيرا من التحليل والمناقشة في كل ما كتب عن الموضوع في العالم يعني بالمهاجرين. بيد ان النسبة المئوية للقوى البشرية العربية ذات المستويات العالية المقيمة في البلدان الغربية، اما بموجب تأشيرة تبادل الزوار أو تأشيرة إقامة دائمة، تفوق نسبة الذين يتمتعون بتأشيرة هجرة. وفي تقديري أن ثلث القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية في الولايات المتحدة ينتمي إلى فئة المهاجرين. لكنه من المستحيل القيام بتقييم دقيق لتدفقات المهاجرين حسب فئاتهم دون القيام بعمل ميداني شامل. ويكفي هنا أن نضرب مثلا موضحا بسيطا على هذه الحقيقة. ان بيانات مصلحة الهجرة والتجنس الامريكية تبين انه تم قبول ٩٢٠٠ مصري من غير المهاجرين في الولايات المتحدة في عام ١٩٧٦، ومن هؤلاء ينتمي ٢٧٠ إلى فئة زوار برامج التبادل (باستثناء زوجاتهم وأطفالهم)، في حين ان ١٤٦٠ منهم كانوا ينتمون إلى فئة «الأجانب المقيمين في امريكا والمتوقع رجوعهم إلى بلادهم»، وفي خلال العام ذاته، تم قبول ١٨٢٤ مهاجراً مصرياً، كان ٥٣٦ منهم ينتمون الى فئة العمال الفنيين والتقنيين وما شابههم (PTK)، و٧٥ ينتمون الى فئة المديرين والاداريين. وقد تم في السنة المالية لعام ١٩٧٥ قبول ١٥٧ عالما ومهندسا وطبيبا وجراحا مصريا في الولايات المتحدة. غير أنه لا تتوافر أية معلومات فيما يتعلق بعدد المصريين المقيمين بالولايات المتحدة بوصفهم زوارا بموجب برنامج التبادل.

وبسبب تغير هذه الأرقام من سنة إلى أخرى يصعب علينا تقييم الاتجاهات أو الخروج باعداد اسية تقريبية. وعلى سبيل المثال، فقد بلغ عدد اللبنانيين المقيمين في امريكا والمتوقع رجوعهم إلى



□ ارنست عبد المسيح: مدير مركز دراسات الشرق الادنى وشمال افريقيا التابع لجامعة «ميشيغن» في مدينة «آن اربور».

بلادهم ٣٦٤١ شخصا في عام ١٩٧٧، وكان عددهم ٦٩٨ شخصا في عام ١٩٧٦. وقد تكون الحرب الأهلية اللبنانية مسؤولة عن هذا التغير الكبير. أما الاحصاءات المصرية المتعلقة بالموضوع فقد كانت ٢٦٩٧ شخصا في عام ١٩٧٧، و ١٤٦٠ في عام ١٩٧٦.

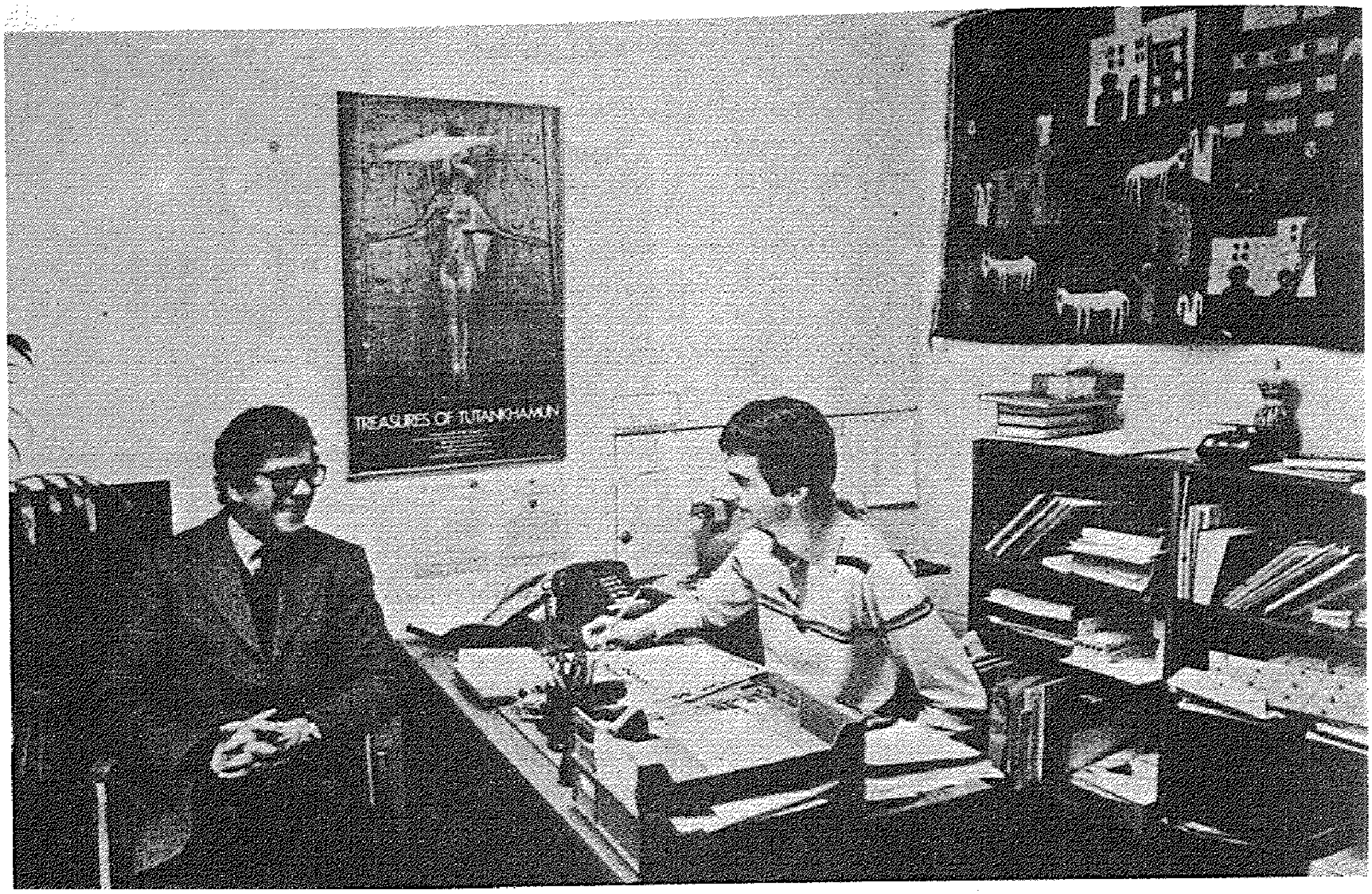
وقد ركزت دراسات هجرة الكفاءات على بلدان مثل الولايات المتحدة ثم كندا والمملكة المتحدة، لأنها مصدر أكمل إحصاءات في هذا المجال. ولسوء الحظ فنحن لا نملك، حتى الآن، رقما ولو تقريبيا، لتدفقات الهجرة في اتجاه بلدان أخرى أو حتى في اتجاه وكالات الأمم المتحدة. وقد علمنا أن ٩٠١٩١ عالما ومهندسا وطبيبا وجراحا وطبيب أسنان تم قبولهم في الولايات المتحدة مهاجرين من العالم النامي، في الفترة ما بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٧، مقابل ١٥٣٤١٨ مهاجرا في سائر البلدان الأخرى. وقبلت كندا (بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٧٢) ٥٦٥٩٨ شخصا من البلدان الأقل نموا و ٢١٦١٣٩ شخصا من البلدان الأخرى. أما المملكة المتحدة فقد قبلت بين (١٩٦٤ ــ ١٩٧٢) ٨٤٠٤٠ شخصا من البلدان الأقل نموا، و ٣٨٠٧٥١ من سائر البلدان الأخرى (UNCTAD 1975 table A-2). وباختصار، فإن مهاجري البلدان الأقل نموا يشكلون ٣٠ بالمئة من إجمالي القوى البشرية المهنية التي تم قبولها في هذه البلدان الثلاثة، في حين كانت البقية الباقية من بلدان متقدمة أخرى.

اتجاه التدفقات

يجدر بنا في سبيل البحث، أن ننظر إلى تدفقات القوى البشرية ضمن إطار واسع، إذ أن بعض هذه التدفقات ليس هجرات عبر حدود دولية، ولا تحركات جسدية.

١ ــ التدفقات إلى الداخل

تخضع القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى ثلاثة تدفقات متميزة داخل المجتمع المحلي. فبامكانها أن تتكشف عن حركة نزوح من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، وعن تغيير من



□ ابراهيم ابراهيم: مدرس في مركز الأبحاث العربية المعاصرة في جامعة «جورجتاون». ويبدو في الصورة وهو يستقبل احد الطلاب في مكتبه.

المهنة المكتسبة إلى غيرها من الأعمال، أو عن تغيير في نوعية المهارات المكتسبة.

إن خريجي الجامعات في كل البلدان الأقل نموا، ينجذبون نحو المراكز الحضرية بغض النظر عن مكان ولادتهم. وقد بذلت بعض البلدان جهودا كبيرة لتغيير اتجاه التدفق نحو المراكز الحضرية. أما في العالم العربي، فقد وجه القطاع العام بعض الاهتمام بالمناطق الريفية. لكن التركيز كان منصبا على تنمية الضواحي الحضرية، إلا إذا كانت إحدى المناطق المعينة تملك موارد طبيعية خاصة بها.

والنوع الثاني من التحرك أو التغيير هو عندما يصبح شخص درّب ليكون مهندسا زراعيا، على سبيل المثال، تاجرا في المبيدات الحشرية أو الجرارات، أو عندما يصبح خريج الفيزياء كاتبا مكلفا بالتخزين. وليس هناك معلومات دقيقة كثيرة عن هذا النوع من التغيير، ولكن يعتقد أن الهجرة المهنية تحدث على نطاق كبير في العالم العربي.

والنوع الثالث من التغيير هو تغيير نوعية المهارات، اما للأفضل أو للأسوأ، وهذا هو نوع آخر من التدفق لم يحظ باهتمام كبير في البلدان الأقل نموا. ونعتقد أن هناك علاقة قوية بين هذه العمليات الداخلية وبين التدفق إلى الخارج.

٢ ــ التدفقات الاقليمية

لقد نما تدفق القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية نحو البلدان المنتجة للنفط بعد الحرب العالمية الثانية بشكل مواز لنمو دخل النفط. واجتذبت دول الخليج والمملكة العربية السعودية والجماهيرية العربية الليبية والجزائر المدرسين والمهندسين وأساتذة الجامعات والبيروقراطيين والموظفين الطبيين. وتقديرنا أن مجمل هذه التدفقات يبلغ حوالي ١٠٠٠٠٠ شخص عربي من ذوي المستويات العالية، ومن المحتمل ان يكون أكثر من نصف هذا العدد من المدرسين. واجتذبت العراق أيضا فريقا صغيرا من القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية، وهاجر عدد كبير منها إلى لبنان، لكن



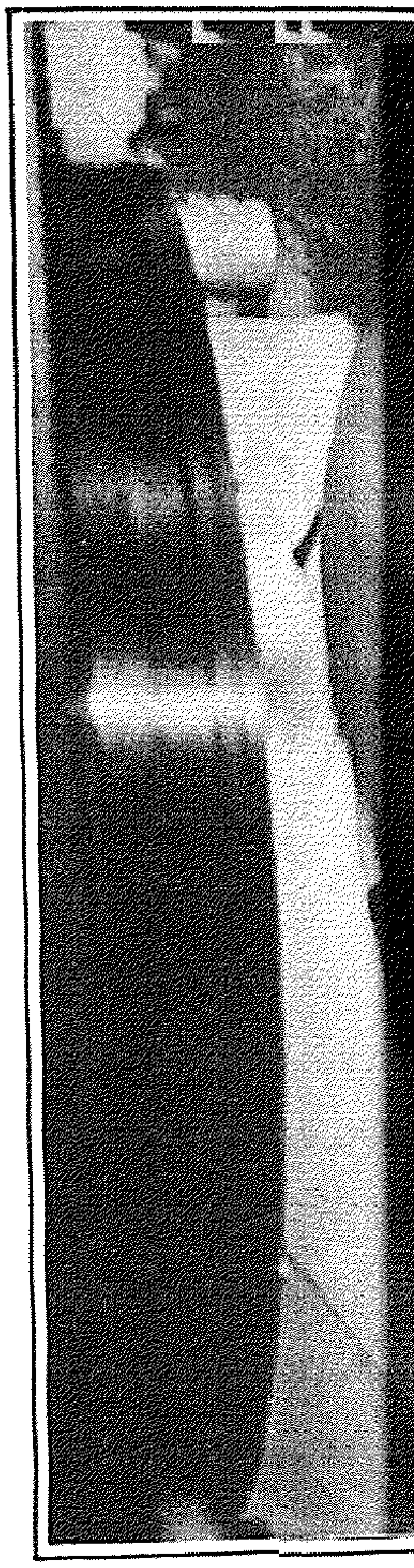
المهاجرين إلى العراق ولبنان لا يشكلون أكثر من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ من القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية.

٣ ـ التدفقات الدولية

ستشير التدفقات الدولية هنا، لغرض هذه الدراسة، إلى كل التحركات من دولة عربية إلى البلدان الأخرى الأقل نموا أو إلى البلدان المتقدمة. فكثير من الدراسات الدولية عن هجرة الكفاءات تهتم بفئة ثانوية فقط أي بحركة الهجرة من البلدان الأقل نموا إلى البلدان المتقدمة.

المهن والهجرة

ان حركة القوى البشرية ذات المستويات العالية تعتمد اعتمادا كبيرا على التدريب المهني والتخصص كما تعتمد على البلد الذي تتوجه إليه. فدول الاوابيك (منظمة الدول العربية المصدرة للنفط)، مثلا، تجتذب المدرسين، والمحامين، والمهندسين والأطباء. ويتم استخدام المهندسين في الأشغال المدنية (ومعظمها إنشاء المباني) وشق الطرقات وفي بعض الأشغال العامة، ولا يشارك سوى قلة منهم في الأبحاث. وقد يبلغ عدد حاملي شهادة الدكتوراه العرب الذين يعملون في جامعات الكويت وقطر وأبو ظبي والمملكة العربية السعودية واليمنين والجزائر حوالي ٢٠٠٠ شخص. وخلافا لذلك، فإن الولايات المتحدة تجتذب الأطباء والباحثين، ومع ذلك فلا يشكل الباحثون والمهندسون سوى جزء صغير من مجمل المهاجرين من حاملي الدكتوراه والأطباء. أما أولئك الذين يهاجرون إلى الدول العربية الأخرى فقد لا يجيدون أحيانا أية لغة أجنبية بسبب دراستهم بالمعاهد العربية فقط.



□ حمدي محمد: استاذ ورئيس قسم المواد الطبية وطب الأسنان بجامعة «فلوريدا»، ومؤسس القسم عام ١٩٧٤. وهو احد من خمسة اقسام من نوعه في الولايات المتحدة الاميركية.

لكن باستثناء الأطباء، فإن معظم المهاجرين إلى الدول العربية تلقوا جزءا من علومهم أو معظمها في الخارج. وقد يعود سبب هجرة بعض الأطباء الذين سافروا بغية التخصص أنهم مكثوا في بلد التخصص بعد أن طاب لهم العيش فيه.

حقائق وأرقام

سنحاول في هذا القسم تقديم مسح للمعلومات الراهنة، ومناقشة حدودها وربطها ببعض العوامل الرئيسية المؤثرة في عمليات الهجرة.

الولايات المتحدة الامريكية

بإمكان تدفق القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى الولايات المتحدة أن تسلك طرقا كثيرة، وأوضحها هو طريق «الهجرة». وهناك دراستان بالعينة ــ واحدة حول القوى البشرية العراقية ذات المستويات العالية المقيمة بالولايات المتحدة الامريكية للدكتور الشكراني، والثانية حول العلماء والمهندسين المصريين في الولايات المتحدة مأخوذة عن مسح قامت به مؤسسة العلم القومية الامريكية أظهرتا ان «طريق الهجرة» ليس الطريق المهيمن عند العرب. وسنقدم معلومات كافية لنبين أن العدد الفعلي للقوى البشرية العربية ذات المستويات العالية العاملة في الولايات المتحدة أكبر مما تشير إليه أرقام الهجرة بثلاثة أضعاف أو أكثر.

وفيما يتعلق بالفترة الممتدة بين ١٩٦٢ و ١٩٦٧، فقد اعتبرت العراق والأردن وفلسطين ولبنان وسورية ومصر ــ مصدرا لـ ٨٠ إلى ٩٠ بالمئة من المهاجرين العرب إلى الولايات المتحدة. ومن بين الـ ٢٣٠٩١ شخصا الذين تم قبولهم خلال هذه الفترة كمهاجرين، ينتمي ٣٥٨٧ منهم إلى فئة الاختصاصيين والعمال الفنيين وما شابههم (PTK)، وتشمل هذه الفئة القوى البشرية ذات المستويات العالية وغيرها من القادرين على إنجاز مهمات تقنية وإدارية. ومن بين الـ ٣٥٨٧ شخصا، هناك ١١٣٢ مهندسا وعالما طبيعيا وعالما اجتماعيا وطبيبا (Whelan 1974, table 5, p. 49).

وفي عام ١٩٦٥ عدل القانون العام رقم (٤١٤) الذي أصدره الكونغرس الثاني والثمانون في دورته الثانية، النظام القومي للحصص، أو الحصص النسبية (الكوتا)، بتغييره إلى نظام أفضليات. وقد أصبح هذا التعديل نافذا في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٥ وأدى إلى مضاعفة المعدل خلال سنتين[٢]. وتمت مراجعة قوانين الهجرة مرة ثانية (بموجب مرسوم ١٩٦٥) في عام ١٩٧١. وتطالب المراجعات، التي نجمت عن مستوى البطالة المرتفع في الولايات المتحدة، بالا يسمح للمهاجرين بالدخول إلى الولايات المتحدة إلا إذا كان لديهم عرض محدد للعمل، أو إذا كان دخولهم لن يؤثر سلبيا على الفئات الفنية المحلية.

وقد ادت مراجعة عام ١٩٧١ إلى تدني عدد العلماء والمهندسين المهاجرين إلى الولايات المتحدة. ويعطي الجدول رقم (١) الرقم العربي لعام ١٩٧٦. وتبين الفترة الممتدة بين ١٩٧٢ ــ

١٩٧٦ ان هناك انخفاضا في الأرقام فيما يتعلق بعدد الاختصاصيين والعمال الفنيين وما شابههم. وقد انخفض عدد المهنيين بنسبة ١٢ بالمئة في العام ١٩٧٤ و ٩ بالمئة في العام ١٩٧٥، وارتفع بنسبة ٢٥ بالمئة في العام ١٩٧٦، وكل هذه النسب هي بالمقارنة مع نسب العام ١٩٧٢. وتوازن الجداول بين العدد السنوي للمهاجرين الطبيين الذين يبلغ معدلهم أكثر من ٣٠٠ طبيب وبين الرقم ٢٧٥ الذي يمثل مجموع الخمسة أعوام بالنسبة للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧. وبالرغم من أن عدد المهاجرين من المهندسين العرب كان مرتفعا نسبيا، فقد انخفض بعد العام ١٩٧٢ وظل عددهم حتى العام ١٩٧٦ (وهو آخر عام نملك إحصاءاته) أقل من مستوى العام ١٩٧٢. أما الزيادة الشاملة في الهجرة العربية من ١٢١٨١ في العام ١٩٧٦ إلى ١٦٧٦١ في العام ١٩٧٧، وهي زيادة بنسبة ٣٨ بالمئة في عام واحد، فتعكس زيادة مقابلة لها في عدد القوى

الجدول (١). المهاجرون الى الولايات المتحدة حسب بلد الاقامة الاخير السنة المالية ١٩٧٦

البلد	المجموع	الاختصاصيون والعمال الفنيون وما شابههم	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
البحرين	٩١	٢٠	١	—	٢	—	—	—	١	—	—	—	—	—
العراق	١ ٢٥٦	٦١	١	١	١٠	٣	—	—	١١	١	١	١	٣	١٤
الاردن وفلسطين	٢ ٤١٦	١٣٥	—	٢	١٧	١	١	—	٢٢	٢	٣	—	٣	٢٥
الكويت	٢٧٠	٥٦	١	١	٦	—	—	—	١٤	—	١	—	١	٦
لبنان	٤ ٩٩٧	٤٥٥	٤	٤	٤٦	٤	٥	١	١٥٢	١٠	٦	٥	١٥	٤٤
عمان	٩	٢	—	—	١	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قطر	١٨	٦	—	—	—	—	—	—	٣	—	—	—	—	١
المملكة العربية السعودية	٢٤٦	٥٢	—	—	٩	—	—	—	١٤	—	—	—	—	٥
سورية	٦٨١	١٣٠	١	—	١٢	—	١	—	٨٠	٣	—	٣	١	١١
دولة الامارات المتحدة	١٩	٣	—	—	١	—	—	—	١	—	—	—	١	—
اليمن (عدن)	٣٤	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
اليمن (صنعاء)	٤٢٣	١	—	—	—	—	—	—	—	—	—	١	—	—
الجزائر	٣٧	١٢	١	١	—	—	—	—	٥	—	١	—	١	٢
مصر	١ ٣٧٩	٤٠٨	٧	٣	٨٣	٥	٢	—	١٠٤	١١	٢٠	٥	١٥	٣٢
ليبيا	٧٩	٢٩	١	١	٥	—	—	—	١٤	—	٢	—	١	—
موريتانيا	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
المغرب	١٦٠	٣٣	٢	—	٣	١	—	—	٣	—	١	—	٢	٤
الصومال	٢٠	٢	—	—	—	—	—	—	١	١	—	—	—	—
السودان	٢٢	٤	—	—	٢	—	—	—	—	—	—	—	١	—
تونس	٢٤	٦	—	—	١	—	—	—	١	—	—	١	—	٢
	١٢ ١٨١	١ ٤١٥	١٩	١٣	١٩٨	١٤	٩	١	٤٢٦	٢٨	٣٥	١٦	٤٤	١٤٦

مفتاح رموز الجدول (١)

المجموع = مجموع الوافدين

PTK = مجموع الاختصاصيين والعمال الفنيين وما شابههم.

٢ = مجموع المهندسين المعماريين.

٣ = مجموع الاختصاصيين بعلم الحاسب الالكتروني.

٤ = مجموع المهندسين.

٥ = مجموع المحامين والقضاة.

٦ = مجموع الاختصاصيين بالرياضيات.

٧ = مجموع الباحثين والخبراء في العمليات والتطبيقات العملية.

٨ = مجموع أطباء الصحة والأسنان وأصحاب المهن المشابهة.

٩ = مجموع الباحثين بشكل عام ودون تحديد.

١٠ = مجموع علماء الأحياء والطبيعة.

١١ = مجموع علماء الاجتماع.

١٢ = مجموع اساتذة الكليات والجامعات.

١٣ = مجموع المعلمين، ما عدا اساتذة الكليات والجامعات.

البشـرية المـؤهلة. وقد بـدأت دائرة الهجـرة والتجنس الامـريكية منـذ عام ١٩٧٤ في نشر تحليل مفصل لأرقـام الاختصاصيـين والعمال الفنيين وما شابههم الأمر الذي يسـاعد عـلى دراسة الهجرات إلى الولايات المتحدة فيما يتعلق بفئات ثانوية جد متخصصة.

ويوضح الجدول (٢) عدد المهاجرين حسب بلد المنشأ وبلد الاقامة الأخير، فضلا عن عدد الزائـرين المقبولين بمـوجب بـرامـج التبـادل، والأجانب المقيمين في بلد الهجرة والمتوقع أن يعودوا إلى بلد المنشأ، وذلك فيما يتعلق بالولايات المتحـدة. ومن الجلي أن الدول العـربية ذات النسبة العالية من الهجرة إلى الولايات المتحدة تملك أيضا عددا مرتفعا من «الأجانب المقيمين في بلد الهجرة والمتوقع أن يعودوا إلى بلد المنشأ». ويحافظ كثير من أصحاب الكفاءات على جنسيتهم الأصلية ويقيمون في الولايات المتحدة بموجب فئة من فئات التأشيرات الممنوحة هناك. ولا يعـد

الجدول (٢) المهاجرون المقبولون في الولايات المتحدة في السنة المالية ١٩٧٧ حسب بلد : المقبولون في الولايات المتحدة حسب بلد المنشأ في السنة المنتهية في ٣٠ ايلول/ سبتمبر ١٩٧٧

	المنشأ	آخر اقامة	العدد المقبول	زوار برنامج التبادل	الأجانب المقيمون في المهجر العائدون الى بلاد المنشأ
البحرين	٨	٤٩	—	—	—
العراق	٢٨١١	٦٣٤	٧٧٨٩	٨١	٧٨٣
الاردن	٢٤٩٤	٢٩٠٩	١٠٠٩١	١٥٦	٢٥٨١
فلسطين	٣٨١	٢٩	—	—	—
الكويت	١٦٠	٥٤٧	٥٨٣١	٢٠٨	١٢
لبنان	٥٦٨٥	٥٤٩٨	٢٤٤٠٣	٨٤	٣٦٤١
عمان	٩	١١	—	—	—
قطر	١٣	٣٧	—	—	—
المملكة العربية السعودية	٥٥	٢١٩	٢٠٣٩٧	٣٦٧	١٦١
سورية	١٦٧٦	١١٧٠	٧٨٠٣	١٣٨	٨٤٣
دولة الامارات المتحدة	١٣	٨١	—	—	—
اليمن (عدن)	٤٨	٢٦	—	—	—
اليمن (صنعاء)	٣٧٦	٣٥١	—	—	—
الجزائر	٨٩	٥٧	٨٨٦٨	٦٥٨	٦٧
مصر	٢٣٢٨	٣٢٨٠	٢٠٩٣٤	٥٨٨	٢٦٩٧
ليبيا	٦٥	١١٠	٥٨٢٧	٦٣٣	٨٢
موريتانيا	٢	٥	—	—	—
المغرب	٤٠١	١٦٠	٨٠٥٨	١٢١	٤٠٣
الصومال	٢١	١٦	—	—	—
السودان	٤٨	٣٩	١٤١٠	١٠٨	٥٢
تونس	٧٨	٢٦	٣٢٩١	١٥٤	٩٦
المجموع	١٦٧٦١	١٥٢٥٤	١٢٤٧٠٢	٣٢٩٦	١١٤١٨

هؤلاء الأفراد من بين «المهاجرين» على الرغم من اعتبارهم عمليا من العقول المستنزفة. وقد وجد علي الشكراني عند دراسته لعينة من الطلاب العراقيين في الولايات المتحدة في عام ١٩٦١ ان ٤٠ بالمئة فقط منهم عادوا إلى العراق بعد عشر سنوات، وان ٩٠ بالمئة كانوا مستخدمين استخداما كاملا في الولايات المتحدة، إلا أن ٣٤ بالمئة فقط منهم حصلوا على الجنسية الامريكية، في حين حافظ الثلثان الباقيان من أولئك الذين يعيشون في الولايات المتحدة على جنسيتهم العراقية (Shakrani 1971). وهناك مصدر ثان للمعلومات بهذا الشأن، وهو الدراسة التي أعدتها المؤسسة الوطنية للعلم بشأن خصائص العلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة ومواقفهم (National Science Foundation 1973). وقد كانت العينة المختارة لمهنيين ما يزالون غير مؤهلين للتجنيس، ثم تم اختيار عينة عشوائية بلغت ٧٩٨٦ من بين الـ ٥٦٣٠٠ الذين دخلوا الولايات المتحدة بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠. وكان من بين الـ ٧٩٨٦ مهاجرا، ١١١ مصريا. ومن المحتمل انه كان هناك عرب آخرون في العينة لكنهم سجلوا تحت عنوان: «آخرون من الشرقين الأدنى والأوسط» (ومجموعهم ١٧٣) أو «آخرون من افريقيا» (ومجموعهم ٩٤). وحيث أن هاتين الفئتين تشتملان على عدد من غير العرب فإننا سنوجه اهتمامنا إلى نتائج العينة المصرية.

قدم ٥٤ مصريا المعلومات التالية عن وضعهم لدى دخولهم إلى الولايات المتحدة: طلاب تبادل (٦)، زوار تبادل (٦)، طلاب لا ينتمون إلى برنامج التبادل (١٨)، عمال وقتيون (٨)، سياح (١٢)، حملة تأشيرات مؤقتة أخرى (٤). (National Science Foundation 1973, table B-3).

ولم يصل الـ ١١١ مصريا إلى الولايات المتحدة مباشرة من مصر، وعدد الذين وصلوا إلى الولايات المتحدة مباشرة يبلغ نصف هذا العدد أي (٥٥). أما الباقون فقد قدموا إلى الولايات المتحدة عن طريق المانيا (٤) واليونان (٢) وايطاليا (٢) والمملكة المتحدة (٤) وبلدان أخرى في أوروبا الغربية (٢) وكندا (١٢) وشمال ووسط أمريكا (٢) وكولومبيا (٢) وبلدان أخرى في الشرقين الأوسط والأدنى (٢) واستراليا (٢) وبلدان أخرى (٢) ومهاجرون لا ينتمون إلى دولة وآخرون لم يبلغوا عن جنسيتهم (٢١). (National Science Foundation 1973, table B-2). وتشير بعض المعلومات الاحصائية المستقاة من المؤسسة الوطنية للعلم إلى أن حوالي ٩٠ بالمئة من المهاجرين العرب إلى الولايات المتحدة والذين ينتمون إلى فئات المهندسين والعلماء والأطباء يأتون إلى الولايات المتحدة من أوطانهم (1973, table D-2). غير أن الجدول رقم (٢) يكشف بوضوح عن الاختلاف الكبير في الأوضاع القائمة في العالم العربي. فعلى سبيل المثال، هناك ٣٨١١ مهاجرا تم قبولهم في الولايات المتحدة عام ١٩٧٧ ولدوا في العراق، ولكن ٦٣٤ منهم كان العراق لهم آخر مكان لاقامتهم، وينطبق الوضع ذاته على سورية ولكن بنسب مختلفة أي ١٦٧٦ و ١١٧٠ مما يشير إلى فرق أقل بين الفئتين. أما فيما يخص البلدان المنتجة للنفط فإن عدد المهاجرين المولودين فيها أقل بكثير من عدد أولئك الذين كان آخر مكان لاقامتهم هو أحد هذه البلدان.

وتدل المعلومات المبينة سابقا على تعقيد الاحصاءات، وعلى الحاجة إلى بيانات أكثر تفصيلا لتقييم أنواع مختلفة من فئات هجرة الكفاءات، ومن هنا يبدو من الصواب الافتراض أن مجموع عدد العقول العربية المستنزفة في الولايات المتحدة وحدها يبلغ ثلاثة أضعاف عدد «المهاجرين» العرب إليها.

دول مضيفة أخرى

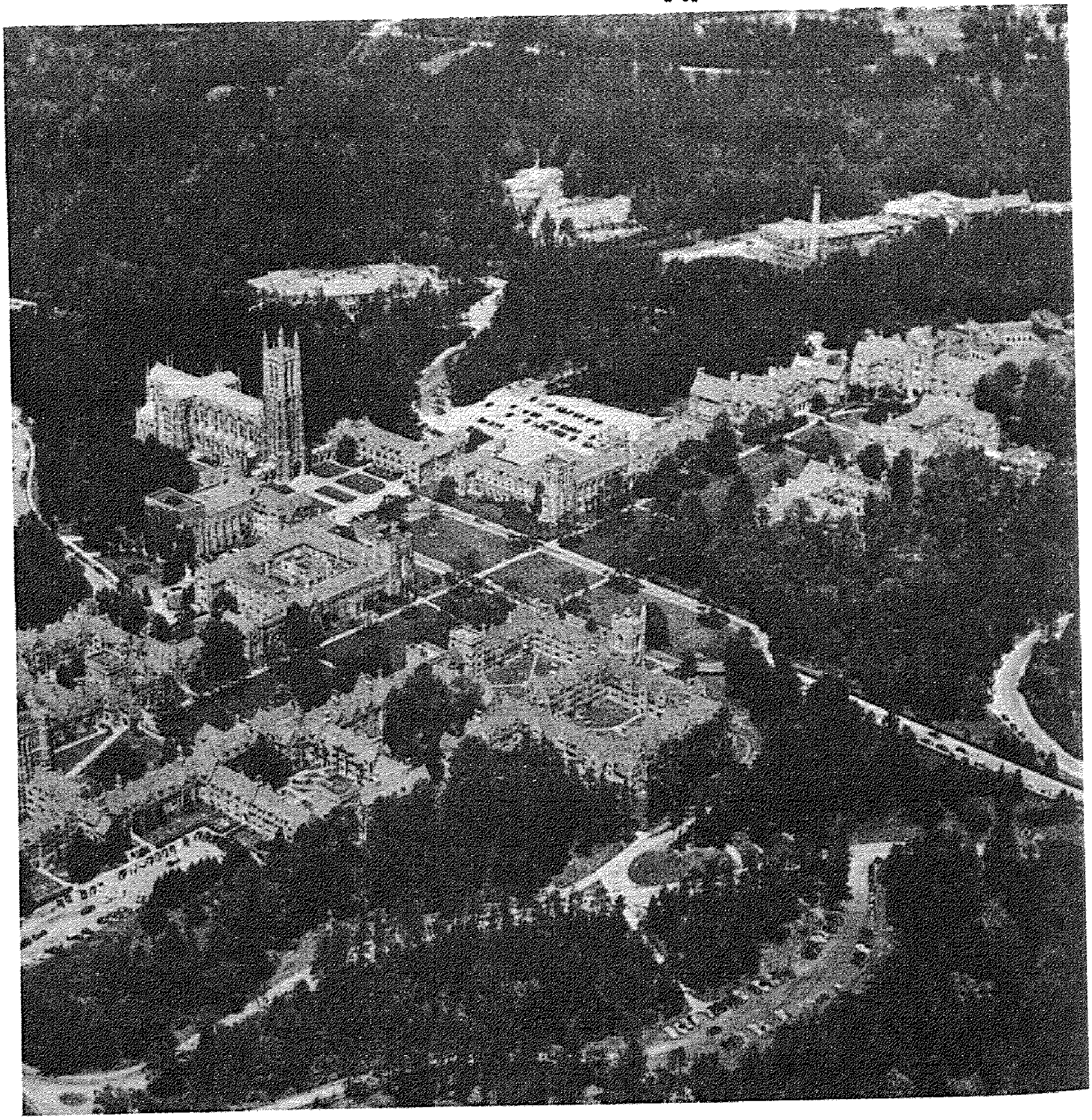
وفي عام ١٩٧٦ هاجر ٨٨٦٠ عربيا إلى كندا، ٨١ بالمئة منهم من اللبنانيين ومن ضمن هؤلاء ١٠٧ من العاملين في حقل الطب، كان من بينهم ٧٢ لبنانيا. ووجد (Watanabe) أن عدد المهاجرين من المهندسين والاختصاصيين في العلوم الطبيعية والفيزيائيين إلى الولايات المتحدة وكنذا وفرنسا من العراق وفلسطين ولبنان وسورية ومصر بين عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٦، كان على التوالي ٣٩٦٨٢٩ و ٢٨٦ (Watanabe 1969, p. 401). ويذكر مصدر آخر ان مجموع

عدد «العلماء والمهندسين والفيزيائيين والجراحين وأطباء الأسنان وغيرهم» من المصريين الذين هاجروا إلى كندا خلال الفترة ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢ قد بلغ ٢٢٥١ شخصا (UNCTAD 1975, table A-2).

وتمثل كندا مرحلة في الطريق إلى إتمام الهجرة إلى الولايات المتحدة. لذلك فمن العسير تحديد عدد المهاجرين الذي تم إحصاؤهم مرتين: مرة لدى دخولهم كندا، ومرة ثانية لدى دخولهم الولايات المتحدة. ويبدو أن كندا تجتذب اللبنانيين في المقام الأول، كما تجتذب بدرجة أقل آخرين من الدول العربية الناطقة بالفرنسية.

ولغرض المناقشة يبدو الافتراض بأن هجرة الكفاءات إلى كندا تستقطب ثلث الهجرة إلى الولايات المتحدة معقولا. اما فرنسا فتطرح مشكلة صعبة لأنها تتيح فرصا تعليمية كبيرة[٣] فيما يتعلق بالمغرب العربي ومصر ولبنان وسورية فضلا عن كونها بلدا مضيفا لقوة عاملة عربية كبيرة[٤]. وعندما بلغت الحرب الأهلية اللبنانية

□ جامعة ديوك ــ الولايات المتحدة الاميركية



الجدول (٣). الهجرة العربية العالمية

الوجهة	الوحدات
١ ـــ الولايات المتحدة ـــ المهاجرون	١ (وحدة مرجعية)
٢ ـــ الولايات المتحدة ـــ باقي التأشيرات لغير المهاجرين	٢
٣ ـــ كندا	١
٤ ـــ فرنسا	٢
٥ ـــ المملكة المتحدة	١
٦ ـــ البلدان الاوروبية الأخرى	٠.٥
المجموع	٧.٥

ذروتها منحت الحكومة الفرنسية المواطنين اللبنانيين تسهيلات استثنائية للعمل. وقد قدر (Bouvier) و (Desbruyères) ان نسب المهاجرين الجزائريين والمغاربة والتونسيين من خريجي الجامعات في فرنسا في عام ١٩٦١ كانت حوالي ٠,٥، ١,٥ و ٣,٢ على التوالي (Bouvier and Desbruyères 1970) . قد تكون هذه النسب ارتفعت نظرا للفرص التعليمية الأكبر التي اتيحت لسكان المغرب العربي منذ ذلك الحين وقد يتراوح عدد القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية في فرنسا بين ٢٥ و ٣٥ الفا من أصل مجموع يزيد على ١,٢ مليون مهاجر في عام ١٩٧٩.

وكقاعدة عامة، فإن كل هجرة كبيرة ومستمرة للقوى البشرية ذات المستويات العالية تسبقها أو تصاحبها هجرة فئات من القوى البشرية لا تتمتع بالمستوى ذاته من الكفاءات. ويكاد حجم الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة يعادل حجم الهجرة إلى فرنسا. وتتشابه المجموعات الطلابية العربية في البلدين. وستكون مقارنة الوضعين بالتفصيل أمرا مثيرا عندما تتوافر المعلومات الاحصائية عن المجتمعات العربية في فرنسا.

اجتذبت المملكة المتحدة والمانيا والبلدان الاسكندنافية بدرجات متفاوتة العمال والفنيين العرب. وفي الجدول (٣) تقدير ترتيبي يستند إلى الحقائق من ناحية، وإلى تقييم ذاتي للبيانات الناقصة من ناحية ثانية. وقد تم اعتماد عدد العرب الذين تم قبولهم بصفتهم مهاجرين في الولايات المتحدة في فترة معينة، كوحدة مرجعية ١، وكل التدفقات الأخرى الواردة من الجدول هي مضاعفات لهذه الوحدة.

وبتعبير آخر، يفترض أن حوالي ٤٠ بالمئة (٣ من ٧,٥) من كل العقول المستنزفة التي تستقر في الولايات المتحدة وكندا والمملكة المتحدة، يعادلها عدد مساو من القوى البشرية العربية ذات المستويات العالية. وبالامكان رفع أو خفض الأرقام الواردة في الجدول (٣)، والرقم ٧,٥ هو تقدير تقريبي يساعدنا على أخذ فكرة واقعية فقط عن الأرقام التي هي في طور الدراسة.

●

الهوامش

(١) انظر: (Dedijer 1961) للاطلاع على النظرة التاريخية للموضوع.

(٢) من أجل بيانات ١٩٥٦ و ١٩٦٢ ـــ ١٩٦٦ انظر: U.S. Congress, House (1967) ومن أجل بيانات ١٩٦٧، انظر: U.S., Congress, House (1968).

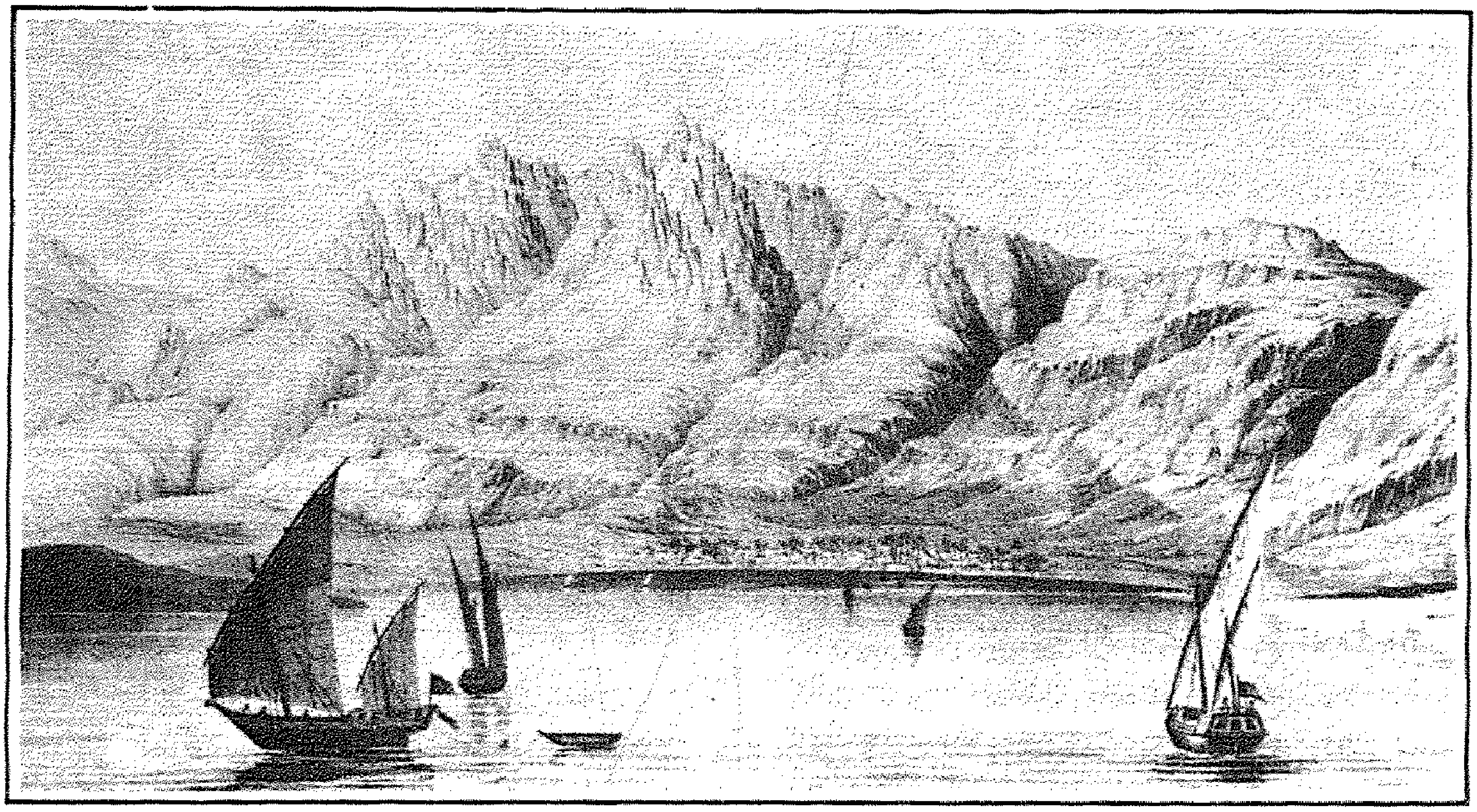
(٣) خلال عامي ١٩٧٥ ـــ ١٩٧٦ كان في فرنسا ٢٤ الف طالب جامعي من المغرب العربي ولبنان، انظر: France. Ministère de l'Education (1977).

(٤) ازداد عدد الجزائريين والمغاربة والتونسيين في فرنسا من ٤٠٠٠٠ (١٩٤٦) إلى ٢٢٧٠٠٠ (١٩٥٤) إلى ٤١٠٠٠٠ (١٩٦٢) إلى ٦١٩٠٠٠ (١٩٦٨) إلى مليون و ١١٠٠٠٠ (١٩٧٥). انظر: France. Ministère du Travail (1977).

الطرق التجارية في العصور الوسطى[1]

سلع ومتاجر

د. نقولا زيادة



□ كان لسوقطرى دور تجاري كبير في العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة فهي جزيرة يخرج منها العنبر ودم الأخوين، كما انها كانت محطة هامة بين شرق افريقية وجنوب الجزيرة. وقد تشتو فيها السفن الشراعية القادمة من الهند إذا فاجاتها عواصف المحيط الهندي القوية.

كثيرة هي السلع والبضائع والمتاجر التي تنتقل في الدنيا من بلد إلى اخر. وليس هذا بالأمر الحديث في العالم. ذلك أن البيع والشراء وتبادل السلع، هو جزء من التطور الحضاري في تاريخ البشرية. بدأ التبادل محليا، وأخذ ينتشر مع انتشار الحياة المدنية، فتتسع رقعة التبادل، وتتنوع وسائل نقل السلع، وتتطور أساليب تسديد الفواتير.

وفي المقالين التاليين يتناول د. نقولا زيادة ثماني سلع كان لها في حياة الانسان شأن خاص. فيعالج في الأول منهما: الملح والتوابل والأخشاب والبن. أما في الثاني فيتحدث عن: البخور والذهب والحرير والرقيق.

□ نقولا زيادة: يحمل شهادة دكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن. درّس في الكلية العربية في القدس، وعمل أستاذ للتاريخ العربي في الجامعة الاميركية ربع قرن وله من المؤلفات بالعربية: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٤٣)؛ والرحالة العرب (القاهرة، ١٩٥٧)؛ ولمحات في تاريخ العرب (بيروت، ١٩٦٢).

وقد ترجم عدة كتب عن الانكليزية منها: تاريخ البشرية (لارنولد توينبي، بيروت، ١٩٨١ — ١٩٨٢).

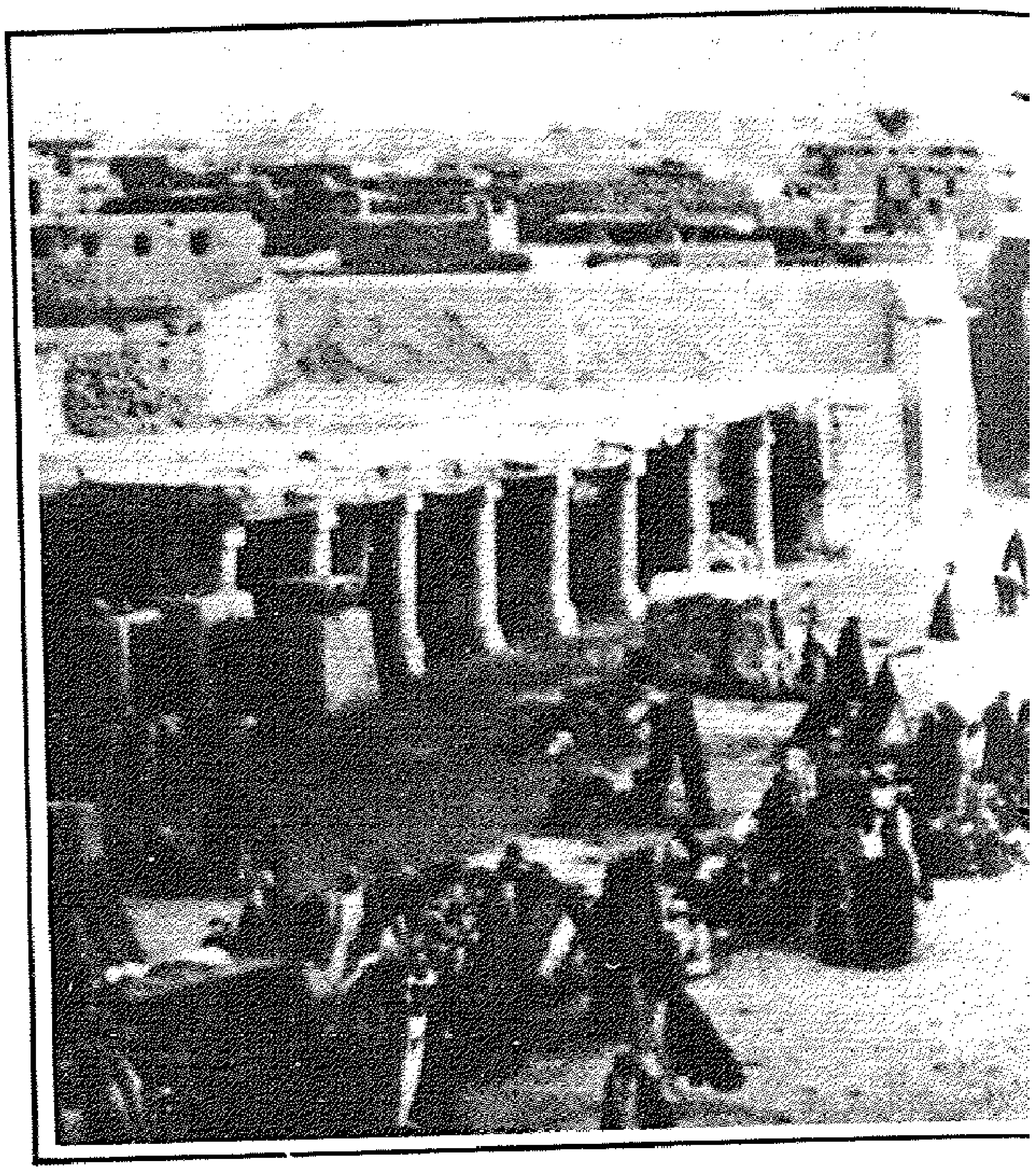


□ سوق في الهفوف (الاحساء). هنا كانت تتجمع تمور هجر وتوابل الهند وعطورها وبعض المصنوعات الاوروبية التي كانت تحمل إما برا (عبر الصحراء السورية وبادية نجد) او بحرا عن طريق عمان والخليج العربي. الصورة من كتاب: (Travellers in Arabia; by Robin Bidwell)

١ ــ الملح

نعرف جميعنا أن الملح مادة لا يستغنى عنها في الطعام. هذه حقيقة توصل الانسان إلى معرفتها في العصر الحجري الحديث، أي قبل مدة تتراوح بين عشرين ألفا وأربعين ألفا من السنين. أما قبل ذلك فقد كان يحصل على الملح من أكله لحوم الحيوانات التي يقنصها نيئا أو مشويا. فلما تعرف إلى الآنية وأخذ يطهو اللحم سلقا وجد أن اللحم يخسر ما فيه من الملح في المرق، فأخذ يبحث عن ملح الطعام حيثما وجده. والمعروف عند المؤرخين أنه في العصر البرونزي، أي قبل نحو ستة الاف سنة، أصبح الملح واحدا من اهم السلع التجارية في العالم. ولعل أكثر القراء قد مر بهم إسم مدينة سالزبرغ في النمسا باعتبار موسمها الموسيقي العالمي، ولكن قد لا يعرف الكثيرون أن معنى اسمها «مدينة الملح» وأنها كانت مركزا للحصول على الملح الصخري حتى منذ العصر الحديدي أي قبل نحو ثلاثة الاف سنة!

وليس من اليسير أن نذكر جميع المراكز التي كانت تزود المناطق المختلفة بالملح، ولا الطرق التي كانت هذه السلعة تنقل عبرها. ولكن لا بد لنا من الاشارة إلى بعض منها بالنسبة إلى الأزمنة المختلفة. فالذي اتفق عليه المؤرخون هو أن بدء الامبراطورية الرومانية كان مرتبطا بتجارة الملح. ففي القرن الثامن ق. م. كان الرعاة الفقراء من اللاتين، الذين كانوا يقطنون حول نهر التيبر في إيطالية، يحصلون على الملح من المستنقعات القريبة من مصب النهر، وكان ما عندهم يزيد عن حاجاتهم. لذلك اخذ أفراد من القبيلة اللاتينية يحملون إلى جيرانهم في الشرق الملح الذي كانوا يحتاجونه. وتطور الأمر إلى أن أصبحت المتاجرة بالملح عبر جبال إيطالية شرقا تجارة رابحة، وضُمَّتْ إليه سلع أخرى. وأراد هؤلاء التجار المحافظة على أسواقهم وأعمالهم فانتقل أفراد من القبيلة وأنشأوا جوالي لاتينية هي التي صارت حاميات عسكرية وسمي الطريق الأصلي طريق الملح وقد جر ذلك إلى أن فتحت رومه المناطق المختلفة تدريجا، وأصبحت المدينة الصغيرة أصلا، عاصمة لدولة تشمل إيطالية



بأجمعها تقريبا، ثم، نتيجة للفتوح الخارجية، عاصمة للامبراطورية الرومانية.

وقد روى هيرودتس أن الملح كان مصدر ثروة كبيرة لمناطق متعددة في ليبيا في العصور القديمة. وكان اليونان يحملون ما يلزمهم من الملح من شواطىء البحر الأسود. وكانت الهند تزود جيرانها بحاجاتهم من الملح، الصخري والبحري، لمدة طويلة حتى قبل وصول الاسكندر الكبير إلى تلك الديار.

وفي ديار العرب كان لتجارة الملح دور كبير في الثروة التي عرفتها تدمر في الأزمنة الغابرة. فقد كانت أرضها غنية به وكان ينقل منها إلى بلاد الخليج العربي، كما كان ينقل غربا إلى بعض المناطق السورية.

وفي العصور الوسطى كان ثمة طرق معينة تنقل عليها سلع تجارية مختلفة، إلا أن أهمها كان الملح. فمن هذه الطريق الذي كان يصل بين جنوب فرنسة وحوض نهر الرون. كما أن تجار الملح كانوا مسؤولين عن النشاط الكبير بين البندقية وأواسط أوروبة. والواقع أن عظمة البندقية بدأت لما تعلم أهلها أن يستخرجوا الملح من الأهوار التي كانت المدينة تتوسطها. وقد روى ماركوبولو، الرحالة الأوروبي الذي زار أواسط اسية في القرن الثالث عشر، أن تجارة الملح كانت رائجة في بلاد المغول، حتى أن الضريبة التي كان الامبراطور يحصلها من تجار الملح كانت المورد الرئيسي للخزينة. وبهذه المناسبة فإن روسية القيصرية وفرنسة قبل الثورة الفرنسية كانت الحكومة فيها تفرض «ضريبة الملح» التي كان بموجبها يُفْرض على كل شخص في البلاد أن يبتاع كل سنة مقدارا معينا من الملح، لأن هذه المادة كانت التجارة فيها حكرا على الحكومة. وكان المجرمون في روسية يستخدمون في حفر مناجم الملح لمصلحة الدولة.

ويبدو أن الصحراء الواقعة بين المغرب وغرب السودان كانت تجارة الملح فيها مصدر ثروة كبيرة. ومن حسن حظنا أن ابن بطوطة، الرحالة المغربي الكبير، قد زار تلك الأصقاع في القرن الثامن/ الرابع عشر وترك لنا وصفا لتَغازى والملح الذي فيها، قال:

«فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تَغازى وهي قرية لا خير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين. ولا يسكنها إلا عبيد مَسوَّفَة الذين يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلمساسة، ومن لحوم الجمال المجلوب من بلاد السودان [الغربي]. ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح. ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالا. وبالملح يتصارف السودان كما يُتَصارَف بالذهب والفضة. يقطعونه قطعا ويتبايعون به. وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر.

وتغازى هذه كانت المصدر الوحيد للملح في الأجزاء الداخلية وفي السودان الغربي. وكان استخراج الملح مقصورا على قبيلة مسوفة، وكان يقوم بذلك عبيدهم.

وفي أوائل القرن العاشر/ السادس عشر زار تلك الأصقاع الصحراوية الحسن الوزان المعروف

باسم ليون الافريقي. ويحدثنا الحسن عن تجارة الملح في تغازى فيقول أن العبيد كانوا يستخرجونه لقبيلة مسّوفة، وتحمله القوافل إلى تنبكتو جنوبيا ومالي غربا. وقد كان ثمة مركز للاتجار بالملح هو غُوا عاصمة مملكة سُنفي على نهر النيجر. ومع أن هذه المدينة كانت مركزا لجميع أنواع السلع التي تنقل إليها من الشمال والغرب والجنوب والشرق، فإن أغلى أنواع المتاجر فيها هو الملح، وأهمها بالنسبة إلى السكان.

قصة الملح وتجارته وطرقه قصة طريفة، والذي أوردناه هنا منها إنما هو نقط من بحر.

٢ ـ التوابل

لا يكاد الواحد منا يذكر كلمة التوابل حتى يتصور المآكل المختلفة التي يحسن طعمها الفلفل والبهار والكمون والكراوية، والأشربة المنوعة التي تتمتع النفس بمذاقها وقد أضيفت إليها القرفة وجوزة الطيب وحب الهال والقرنفل. وهذه الأحاسيس التي تغرينا بالأكل ليست حديثة العهد على البشر. ذلك بأن هذه الأنواع المتعددة من التوابل معروفة في منطقة جنوب شرق اسية والقارة الهندية من أقدم العصور. وقد وجدت التوابل طريقها إلى بابل ومصر وفلسطين والمدن السورية واللبنانية منذ أن عرفت التجارة الطرق التي تسير عليها. وكلما انتشرت التجارة غربا، وكلما تعرف الناس إلى مباهج الحضارة، كانت التوابل والعطارة تنتشر بين الناس. فعرفها اليونان تجارا ونشروها في الطوارىء التي انشأوها في حوض البحر المتوسط، كما كان الفينيقيون قد نقلوها إلى الأماكن التي استقرت فيها جالياتهم مثل قرطاجة وغيرها. فلما قامت الامبراطورية الرومانية أصبحت التوابل معروفة في شمال البحر المتوسط وحتى في بقاع أوروبية كثيرة. وكان من المعروف أنه حيثما يحل جيش روماني ينقل معه الفلفل والقرفة على أقل تعديل.

وكان أن عرف التاريخ هذه الامبراطورية العربية الاسلامية الواسعة، فصارت مدنها أسواقا كبيرة للتوابل على اختلاف أنواعها. وقلما نجد كتابا في فن الطبخ أو فن مزج الأشربة وضع في حدود هذا الملك العريض إلا وفيه وصفات متعددة للتابل الذي يجب أن يستعمل لتجويد مأكل أو مشرب. والمنطقة التي حرمت استعمال التوابل في الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادي إلى القرن العاشر هي أوروبة الغربية التي انقطعت التجارة بينها وبين أجزاء البحر المتوسط في تلك الفترة.

وكان ثمة ثلاثة طرق رئيسية تنتقل التوابل عبرها من مكان إنتاجها إلى أسواقها الواقعة إلى الغرب من تلك المناطق. اثنان من هذه الطرق كانا بحريين عبر الخليج العربي والبحر الأحمر. والطريق الثالث كان بريا عبر أواسط اسية إلى شمال العراق فالامبراطورية البزنطية. أما الأسواق الرئيسية فقد كانت في العصور الوسطى مثلا، توجد في رقعة من الأرض محدودة بالقسطنطينية والاسكندرية غربا وسمرقند وحوض السند شرقا. في هذه الرقعة من الدنيا كانت تقوم، في أوقات مختلفة، نينوى وبابل وممفيس والقدس وغزة ودمشق وانطاكية وصور وكافا وهرمز والبصرة وبغداد. فإذا اتسعت رقعة التجارة والتجار وجدنا الأسواق في رومة والبندقية وجنوا ومرسيليا وبرشلونة وغرناطة وقرطبة ولندن وبْروج ولُبِّك.

وجدير بالذكر أن استعمال التوابل في المآكل كان يقتبس بسرعة. فإن القبائل الجرمانية التي اغارت على الامبراطورية الرومانية في القرنين الرابع والخامس للميلاد استساغت استعمال الفلفل حتى أن الريك طلب، كجزء من الفدية التي كان على رومة أن تقدمها له، ثلاثة الاف رطل من الفلفل.

وكان للحروب الصليبية أثر كبير في تنشيط التجارة بين الشرق والغرب. وكانت التوابل فيما استعمل، ونشطت تجارتها كثيرا. وفي الفترة التي تلت هذه الحروب كانت خمس مدن في المشرق المراكز الرئيسية لهذه التجارة وهي القسطنطينية ودمشق وبغداد والقاهرة والاسكندرية. كما كانت البندقية وجنوا وبيزا وأمالفي ومرسيليا مراكز توزيعها في الغرب. أما تونس وتلمسان وفاس فكانت النقط التي تنطلق منها تجارة التوابل إلى افريقية الغربية والوسطى. وليس من قبيل المصادفة أن نجد، حتى يوم الناس هذا، أن كلا من الموصل وحلب



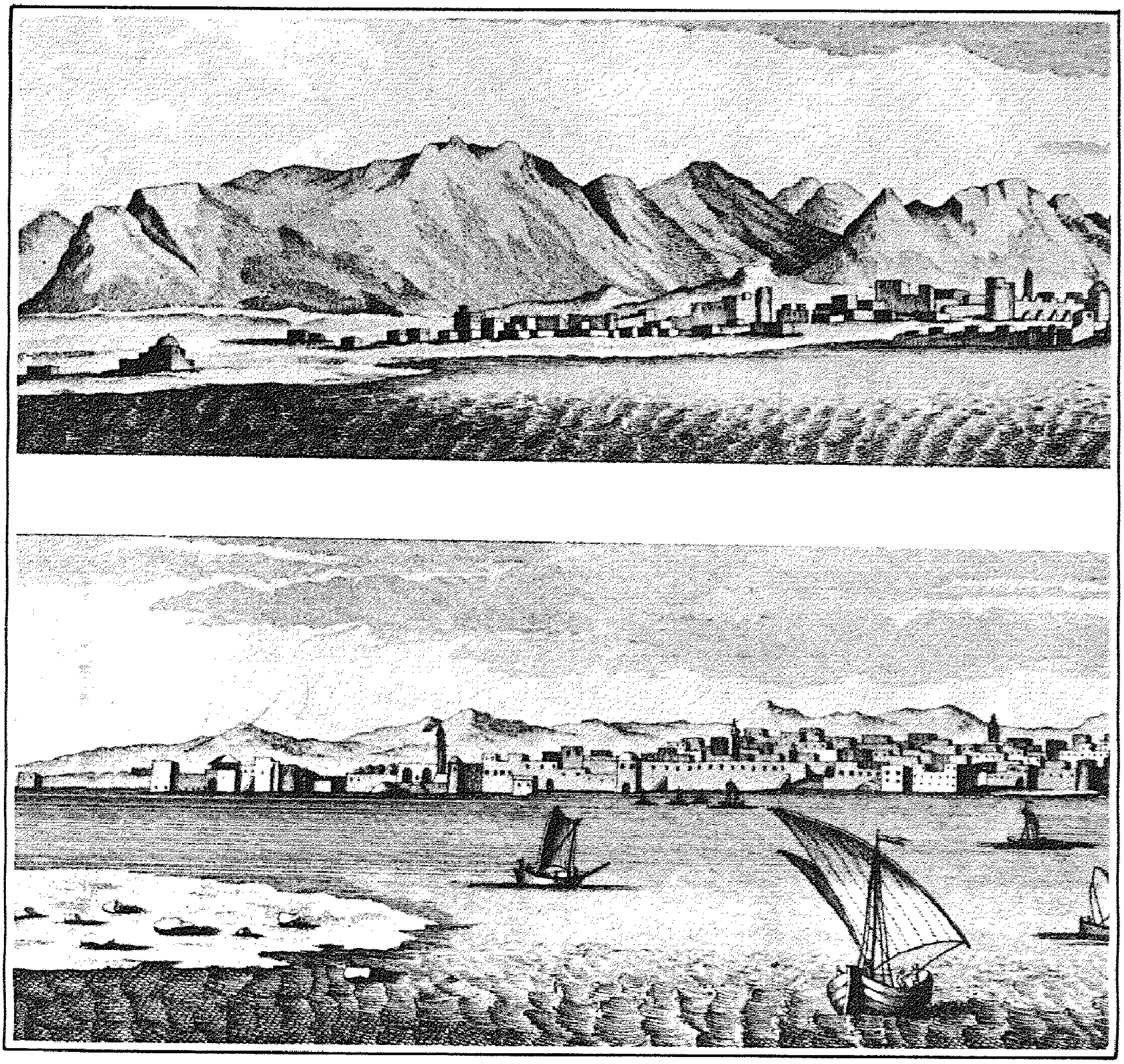
□ «سوق التوابل» في أحد موانىء البحر الاحمر.

ودمشق والقدس والقاهرة وتونس وتلمسان وفاس ومراكش وطنجة فيها سوق تسمى سوق العطارين.

وفي أواسط آسية كانت سمرقند واحدا من المراكز الهامة لتجارة التوابل وغيرها. فقد ورد في كتاب «سونيا هاو» عن تجارة التوابل أن بضائع الهند كانت تنقل إلى القسطنطينية عن طريق نهر الكنج حتى مدينة أغرا، ومن ثم إلى سمرقند التي تسمى «عروس مدن اسية الوسطى». ففيها كان يلتقي الشرق والغرب حتى أن عدد التراجمة فيها بلغ مئة وثلاثة مترجما. وقد سجل رحالتان فرنسيان زارا تلك المدنية أنهما شاهدا في سمرقند هنودا وفرسا وعرب وأتراكا وأجناسا أخرى من الناس لهم متاجر يتبادلون فيها كميات كبيرة من الأقمشة الحريرية المزركشة بالذهب والأخشاب وصوف الجمال والحجارة الكريمة والتوابل المتعددة الأصناف.

وكانت التوابل، في القرن الثالث عشر مثلا، تحمل من الاسكندرية إلى الموانىء الايطالية ومن هناك تجتاز جبال الألب وتنحدر إلى وادي نهر الراين حيث تنقل إلى الأراضي المنخفضة. أما من القسطنطينية فكانت التوابل تتجه نحو مدن بحر البلطيق. وكانت بْروج أكبر مركز لتوزيع التوابل في شمال غرب أوروبة. ففيها كان يلتقي تجار بريطانية وفرنسة وألمانية. وكان التبادل، على العموم، يدور بين التوابل والصوف.

في سنة ١٣٠٠ أدخل المماليك نظام الاحتكار في تجارة التوابل. ذلك بأن الفائدة التي كانت تُجْنى من التجارة فيها، والأرباح التي كان يحصل عليها كانت مغرية. ولما كان المماليك يسيطرون على ديار الشام ومصر والحجاز فقد أمر السلطان بأن تحمل جميع التوابل التي تنقل بحرا إلى مصر، وحتى ما كان ينقل منها إلى هرمز في الخليج العربي. كما أن السلطان فرض على



□ صورة قديمة لميناء ينبع، ترجع إلى عام ١٧٦٢، مرسومة من مكان يقع على الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة. الصورة من كتاب: (Travellers in Arabia; by Robin Bidwell).

جميع السفن التي كانت تحمل الحجاج من الشرق أن تأتي معها بكميات من التوابل إلى جده حيث تنقل إلى القاهرة، إما عبر البحر الأحمر أو عن طريق الحج البري عبر مكة وشمال الحجاز وسيناء. ولكي نتصور الأرباح التي كانت تجنى من تجارة التوابل بالنسبة إلى سلاطين مصر فلنذكر أن أي كمية من التوابل التي كانت تصل إلى ساحل مصر على البحر الأحمر كان ثمنها يرتفع مئتين بالمئة عندما تصل الاسكندرية. وقد قدر الزمن اللازم لشحنة من التوابل في رحلتها من جزر ملّوك في جنوب شرق اسية إلى لندن بنحو سنتين.

وظلت تجارة التوابل تعتمد على الطرق الشرقية حتى اكتشف فاسكو دي غاما الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند. عندها تحولت التجارة الأوروبية في التوابل وغيرها عن الشرق وصارت هذه البضائع تنقل إلى البرتغال رأساً، ومنها إلى أنحاء أوروبة المختلفة. إلا أن هذا لم يكن في مصلحة المدن الايطالية التي خسرت بذلك موردا كبيرا من مواردها. لذلك اهتمت بإعادة النشاط إلى التجارة البرية بالاتفاق مع العثمانيين الذين كانوا قد احتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ واحتلوا الشرق العربي وشمال افريقية وضموا كل هذه

البلاد إلى امبراطوريتهم فيما بعد. وقد نجحت المحاولة، لذلك نجد أنه منذ أوائل القرن السابع عشر، أي بعد مرور قرن وبعض القرن على وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي بحرا، تعود التجارة البرية في التوابل إلى الكثير من نشاطها السابق. وتعود القوافل تحمل إلى موانىء بلاد الشام ومصر وحتى القسطنطينية نفسها التوابل والعطور والطيوب وغير ذلك من منتوجات الشرق البعيد عبر إيران والخليج العربي. وتعود إلى أسواق العطارين روائحها الزكية وألوان توابلها المنعشة. ويعود الناس إلى تطييب مآكلهم ومشاربهم بالتوابل على نطاق واسع، بحيث لم يكن يخلو بيت من نوع منها.

٣ ــ الأخشاب

في رقعة الأرض الممتدة من أواسط اسية إلى المغرب واسبانية أنشأ العرب امبراطوريتهم. وفي عصور ازدهارها، التي دامت قرونا طويلة، كانت الصناعات الخشبية ناشطة في أنحاء هذه الدولة العربية الاسلامية فقد أُغرِم القوم بالأثاث الجميل الذي تطلبته ثروتهم الكبيرة. وكثرت المنابر والمحاريب في مئات المساجد التي بنيت. وكثيرا ما زخرفت جدران المساجد وسقوفها والقباب المحيطة بها بالخشب المحفور.

وكان على الدولة العربية موحدة، أو الدويلات التي قامت فيما بعد، أن ترد عن نفسها عادية البيزنطيين أولا والصليبيين ثانيا ثم المدن الأوروبية ثالثا. وهذه كلها كانت لها أساطيل، فكان لا بد من اتخاذ الأساطيل وتجهيزها بالسفن لتقوم بواجبها. وكانت بعض هذه الأساطيل تتكون من مئات السفن المختلفة حجما ونوعا فكان يلزمها كميات كبيرة جدا من الأخشاب القوية. يضاف إلى ذلك أن بعض مناطق هذه الرقعة الواسعة كانت تعنى بصناعة السكر والصابون وسبك المعادن وما يجري مجراها من الصناعات. وهذه كلها كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من الأخشاب للوقود.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه المنطقة الواسعة بالذات لوجدناها فقيرة نسبيا في الغابات والأخشاب. فالغابات التي كانت تكلل المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين هي امتداد شرقي لغابات منطقة بنطس على البحر الأسود، التي تمتد إلى مرتفعات البرز. كما أن الغابات الموجودة في ديار الشام، بما في ذلك غابات سورية الشمالية ولبنان، هي امتداد جنوبي لغابات الأناضول. وهناك بعض مناطق الغابات في صقلية والجزائر والمغرب. أما العراق وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا والصحراء فليس فيها أشجار حرية بالذكر.

فإذا أجلنا بصرنا في المناطق المجاورة لبلاد الدولة العربية الاسلامية وجدنا ثروة في الغابات في شمال حوض البحر المتوسط وفي الدولة البزنطية. أما في الشرق فهناك غابات الهند الغربية،وخاصةخشب الساج أو التيك في سواحل مالابار.

ولنذكر أن غابات البحر المتوسط الشرقية كانت قد استهلك أكثرها في العصور القديمة. فالحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين ومصر كانت قد جردت جبال لبنان وقسما كبيرا من جبال سورية الوسطى من أخشابها إذ استعملت في بناء الهياكل والسفن. والفينيقيون انفسهم قطعوا الكثير من أخشاب جبال لبنان لبناء سفنهم التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط والتي وصلت إلى البحر الأحمر في القرن العاشر ق. م. وزاد الطلب على أخشاب لبنان وجبال اللاذقية في الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والحادي عشر، بحيث أنه لم يبق من غابات الأرز والصنوبر سوى أشجار قليلة هي ذكرى العصور الغابرة.

فما هي الوسائل التي لجأ إليها أولو الأمر لسد حاجات الصناعات والأسطول ونواعير الري في هذه الرقعة الواسعة من الأرض؟

إذا نحن أخذنا مصر في أيام الفاطميين والمماليك مثلا وجدنا أن الدولة نظمت الأمور تنظيما دقيقا. فكل قطعة من الأخشاب التي كانت تحتاج لبناء الأساطيل كان أمر استغلالها منوطا بالدولة. ومثل ذلك يقال عن الاغالبة في تونس. فقد كان الناس يُقْطَعُون الأراضي في صقلية بعد احتلالها، شرط أن يقطعوا الأشجار ويبعثوا بأخشابها إلى تونس. ثانيا كانت السفن تغير على مناطق الغابات لتحصل منها على بعض حاجاتها. ومثلنا على ذلك الغارت البحرية التي كانت تُشَنُّ

بين الحين والآخر على شواطىء الأناضول ودلماشيا.

على أن الطريقة المثلى الفعالة للحصول على الأخشاب كانت شراءها من خارج نطاق الدول العربية الاسلامية. فأخشاب أرمينية كانت تُعَوَّم في نهر دجلة إلى بغداد والعراق الأدنى. وكانت تُبْتَاع كميات كبيرة من خشب الساج أو التيك من الهند. فتصل إلى الخليج العربي ومنه إلى العراق، كما كانت تنقل إلى مصر عبر البحر الأحمر. وكان مكان وصولها في القاهرة يسمى ساحل الخشبات. وكان خشب الساج الهندي يعتبر خير ما يستعمل في بناء البيوت ببغداد وبالمشرق بأجمعه. وكان خشب الصنوبر يقوم بمثل ذلك في حوض البحر المتوسط. وقد روى المقدسي الجغرافي، وهو من أهل القرن العاشر للميلاد، أن مدينة سيراف على الخليج العربي كانت أبنيتها تتكون من طبقات عديدة، وكانت من خشب الساج الثمين. ويضيف إلى ذلك قوله: «وقد بنيت دورها من خشب الساج والآجر وتُشْتَرَى الدار الواحدة بفوق المئة ألف درهم».

وقد كان استيراد خشب الساج أو التيك معروفا قبل العرب بمدة طويلة. فقد روى ثيوفرستوس حول سنة ٣٠٠ ق. م. أن خشب الساج كان يصل إلى البحرين من الهند. ولكن لا شك أن الحاجة إليه ازدادت أيام العرب.

اما من أوروبة فكان العالم الاسلامي يستورد الصنوبر والشربين من جبال الألب وامتداداتها. وكانت مدينتا البندقية وأمالفي تقومان بدور الوسيط. وقد كانت الامبراطورية البزنطية تجرب أن تحول دون وصول الخشب إلى جنوب البحر المتوسط وشرقه. ففي سنة ٩٧١م صادرت القسطنطينية ثلاث سفن بندقية كانت تحمل أخشابا اثنتان منها كانتا تقصدان المهدية في تونس والثالثة كانت متجهة إلى طرابلس في ليبيا.

وعلى كل فإن قوانين المنع لم تكن تطبق إلا فيما ندر، وخاصة عند التجار البنادقة. وعند الحاجة فقد كانت الأخشاب تُهَرَّب: ذلك أن السوق السوداء كانت أكبر أرباحا من التجارة النظامية.

يتضح من هذا أن المنطقة التي قامت فيها الدولة العربية الاسلامية وخليفاتها كانت في وضع خاص. فقد كانت تعتمد في الحصول على لأخشاب اللازمة لها على مناطق نائية والطرق إليها كانت تتعرض لتقلبات سياسية واقتصادية كثيرة. وقد كانت الأموال التي تنفق للحصول على الأخشاب كبيرة. وكان التجار يطلبون ثمن بضاعتهم ذهبا في غالب الأحيان.

والطريق التجارية الآتية من الشمال التي كان تجار الأخشاب يتبعونها كانت تنقل عليها أيضا الفراء والعسل والقطران.

٤ — البن

تعرف شعوب العالم من أقصاه إلى أقصاه القهوة اليوم، ويتناولها الملايين من الناس صباحاً ومساء وما بينهما، وتقدم بأشكال مختلفة وبأكواب متفاوتة الحجم، مغلية مع السكر حينا وبدونه حينا، ممزوجة بالحليب طورا وبدونه طورا. وقد أصبحت القهوة شيئا مألوفا حتى أن أصلها وتاريخها وتوزعها وانتشارها قلما تخطر على بال الشاربين.

وحتى عندما تسأل أحد من الناس عن القهوة، فالذي يدور في خلد المسؤول هو أن البن يأتي من البرازيل، ذلك لأن تلك الديار فاقت غيرها حديثا في زراعة البن وتصديره. وكم من مقهى ظهر في العقود الأخيرة، حتى في ديار العرب، يحمل إسم البرازيل، حتى ليخيل إلينا أن الكثيرين من شبابنا لا يربطون بين القهوة والبن واليمن أبدا.

ويبدو أن القهوة وما يكسبه المرء من شربها من نشاط ويقظة وتنبه أحاطت تاريخها بالكثير من الأساطير، وإن لم تجعل هذه الأساطير السماء مصدرا للقهوة، كما عملت بالنسبة إلى بعض المشروبات الأخرى. فقد روت القصة أن كالدي، وهو من أهل القرن التاسع (هـ)، كان يعجب من النشاط الذي يصيب الماعز التي يراعاها في مواسم معينة في السنة، ولاحظ أن ذلك يعقب الوقت الذي تأكل فيه حبوبا صغيرة لنبتة تنمو في سفوح الجبال التي تنتشر الماعز فوقها. واستخار كالدي الله وأكل من هذه الحبوب، فأصابه نشاط ويقظة وتنبه وأخذ يخبر الناس عنها. أما أين كان كالدي هذا فأمر تحار القصة في تعيينه. ويبدو لنا أن رقاعا مختلفة في الدنيا ادعته، وأرادت



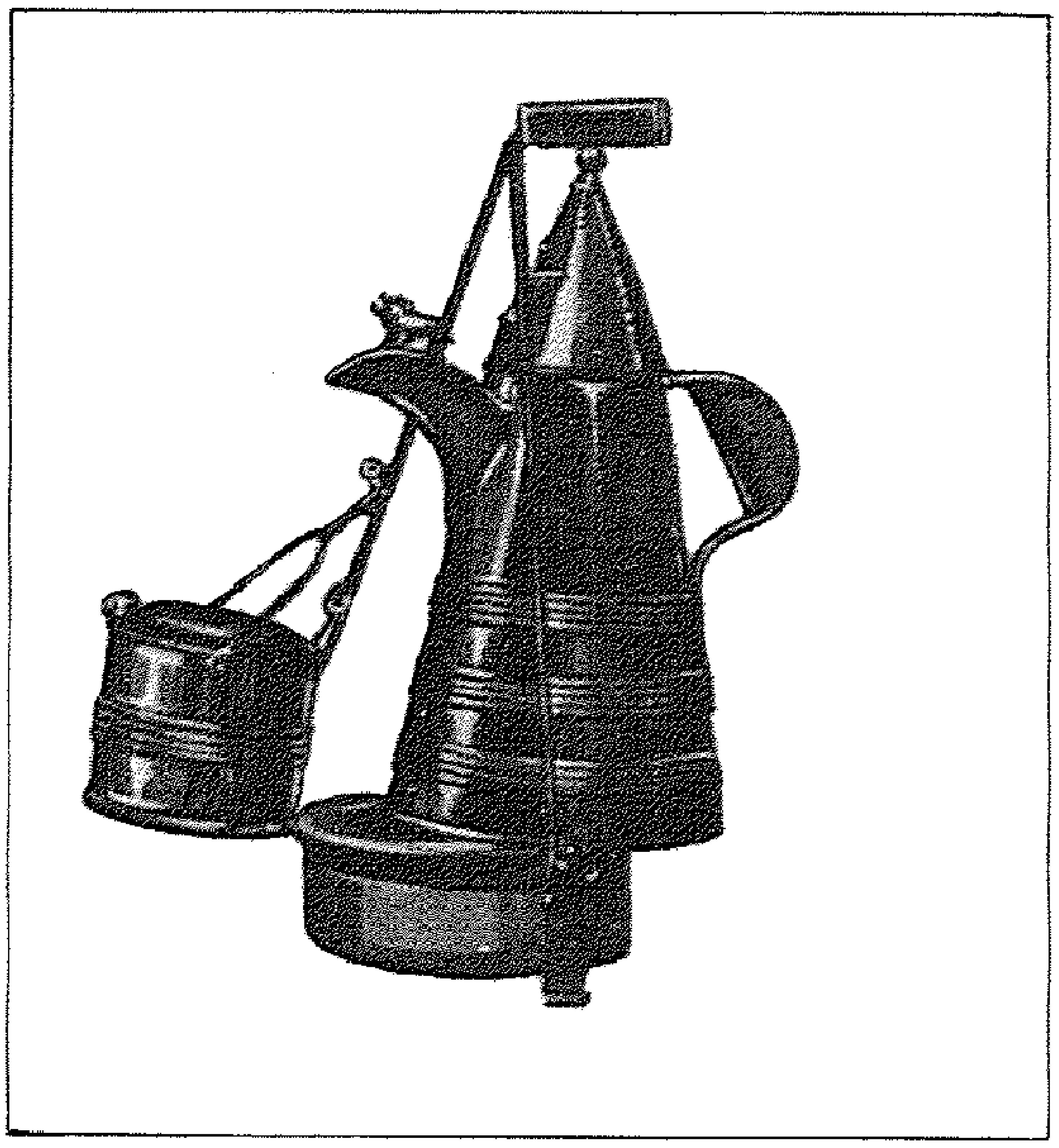
□ مدام «دو باي».. تشرب القهوة التي كانت مشروب الطبقة الارستقراطية في بدء انتشارها في اوروبا.

الأسطورة أن تطيب خاطر الجميع، فوهبته اليمن حينا، والحبشة حينا اخر، ولعل غيرهما مُنِحَه في وقت ثالث.

ولعل الأمر الذي عليه أولئك الذين عنوا بدراسة تاريخ البن وانتشار شربه هو أنه ينمو حبا بريا في فوح الهضاب الأثيوبية إلى يوم الناس هذا. أما المكان الذي أعطى العالم شرب رحيق البن فهو اليمن على الأرجح.

فقد جاء في كتاب الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة الذي حققه ونشره الدكتور جبرائيل جبور، في ترجمة أبي بكر الشاذلي ما نصه: «أبو بكر ابن عبد الله الشيخ الصالح العارف بالله تعالى الشاذلي المعروف بالعيدروس وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن. وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن على عادة الصالحين، فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته، فوجد فيه تجفيفا للدماغ واجتلابا للسهر وتنشيطا للعبادة، فاتخذه قوتا وطعاما وشرابا وارشد اتباعه إلى ذلك. ثم انتشرت العادة في اليمن ثم إلى بلاد الحجاز ثم إلى الشام ومصر». وأبو بكر الشاذلي هذا توفي في أوائل القرن العاشر للهجرة (أوائل القرن السادس عشر للميلاد).

ونحن نعرف أن الأتراك احتلوا ديار الشام ومصر في مطلع القرن نفسه، ويبدو أنهم حملوا البن وشرابه المعروفة بالقهوة معهم إلى ديارهم. «والظاهر أن الكثيرين من العارفين بالله والزهاد والمتعبدين وجدوا في القهوة ما وجده فيها



□ ركوة عربية ذات موقد فحمي
(مصنوعة من النحاس الأصفر والأحمر).



□ ركوة فضية.

أبو بكر الشاذلي فأدمنوا على شربها. ولعل هذا هو واحد من أسباب انتشارها انتشارا كبيرا.

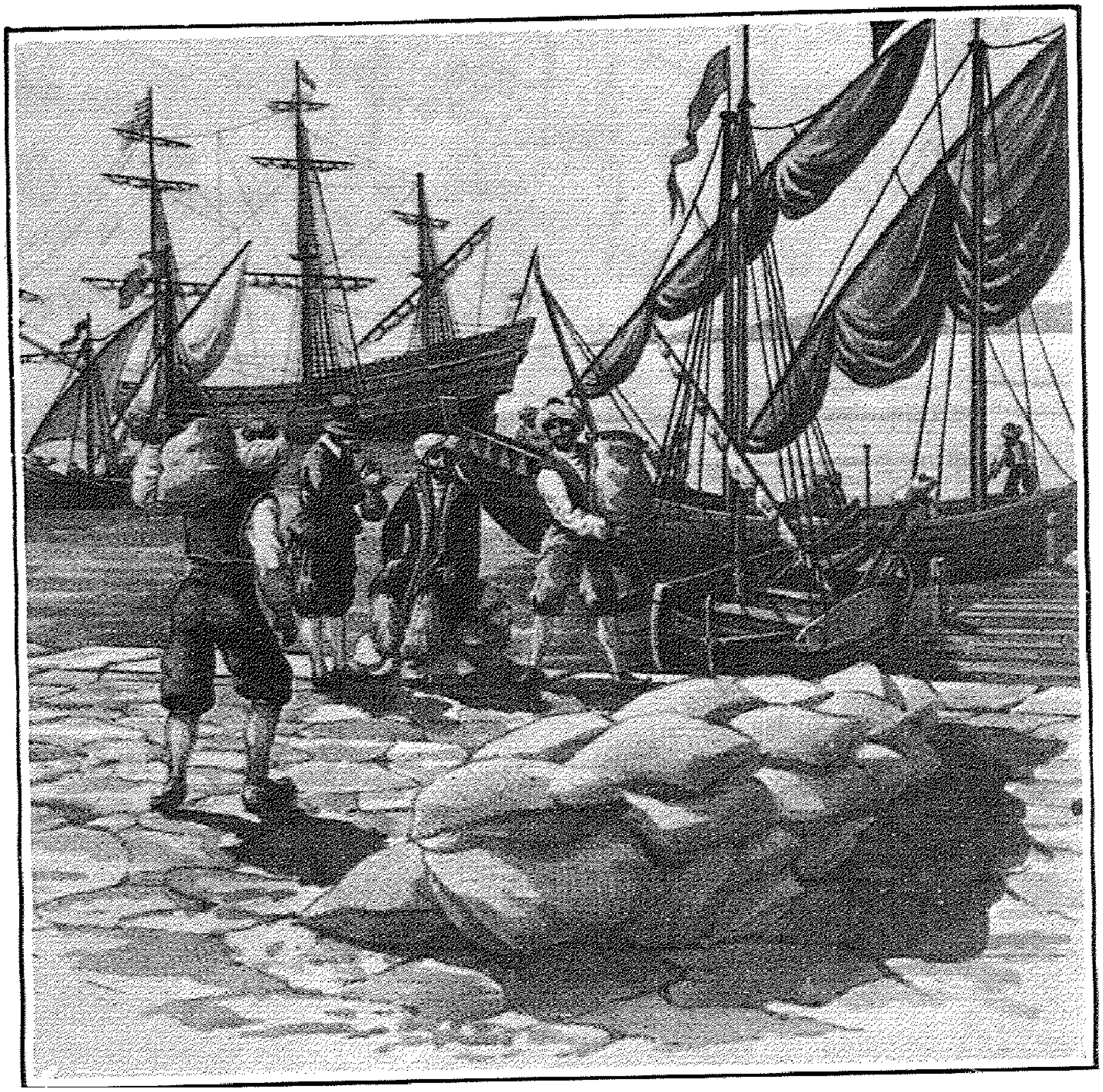
على أن انتشار هذا المشروب لم يتم بدون خلاف بين الفقهاء حول تحريمه وتحليله. وقبل أن نعرض لهذه النقطة نود أن نذكر أنفسنا بأن كلمة قهوة كانت من قبل تستعمل للخمر في الشعر العربي. والشواهد على ذلك كثيرة لا يتسع لها المقام هنا.

ونعود ثانية إلى الكواكب السائرة لننقل عن المؤلف نجم الدين الغزي روايته عن الخلاف، قال: «واختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة وفي أمرها حتى ذهب إلى تحريمها جماعة ترجح عندهم أنها مضرة. وآخر من ذهب إليه بالشام الشيخ العيتاوي، ومن الحنفية القطب بن سلطان، وبمصر الشيخ النباطي تبعا لأبيه. والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة». ومن الشعر الذي يرجع إلى تلك الفترة والذي يدل على اختلاف أولئك العلماء حول موضوعها بيتان لأحد الفقهاء، هما:

قهوة البن حرام قد نهى الناهون عنها!
كيف تدعوها حراما! وأنا أشرب منها

ذاع أمر شرب القهوة وانتقلت إلى عرب المشرق وتركية، وصارت شرابا مقبولا سائغا للجيش العثماني. وفي سنة ١٥٢٩ حاصر السلطان سليمان القانوني مدينة فينا بجيش كبير. ومع أن الحصار كان شديدا فإن السلطان لم يتمكن من فتح العاصمة النمسوية. ثم أرغم على فك الحصار والتقهقر مسرعا. فترك الكثير من الذخائر والمؤن، وبينها أكياس كثيرة من حب البن كان الجيش قد حملها معه لاستعماله. وغنم الجيش النمساوي هذه الحبوب مع ما غنم، وسئل الأسرى الأتراك عن هذا الحب الأخضر الصغير. فأرشدوا آسريهم إلى طريقة صنعه، فأعجب به النمساويون وأقبلوا عليه. ومن ثم انتشر إلى بقية أنحاء أوروبة، وكانت انتشار القهوة سريعا. ففي سنة ١٦٥٢ فتح أول مقهى في لندن حيث كان الناس ينعمون بشرب القهوة. وانتشار الشراب وعادته على يد الأتراك يوضح لنا السر في تسمية القهوة في أوروبة عامة «التركية».

وظلت اليمن البلاد الأولى لتصدير البن وقتا طويلا إلى أن انتشرت زراعته في شرق الأرض ومغربها. وكان ثمة ميناءان تخرج منهما السفن محملة بالبن. فمن زبيد كان البن يحمل إلى مصر



□ اخذ البنُ العربيُ يشحَنُ إلى اوروبا بكميات كبيرة في اواسط القرن السابع عشر. حتى ان إسم مُخا وهو اهم موانيءاليمن حينئذ اصبح مرادفا للفظ القهوة في اوروبا.

وتركية وأوروبة بطريق البحر الأحمر والسويس والقاهرة والاسكندرية. كما كانت السفن تحمل البن من مخا إلى العراق والهند وما والاها وإلى غرب أوروبة بطريق رأس الرجاء الصالح. وقد نقل هذه الأخبار السائح دانيال الذي زار تلك البقاع من الساحل اليمني حول سنة ١٧٠٠ للميلاد.

على أن الأمر لم يستمر لمخا. فقد تعرضت لحرب وهجوم دمرا الكثير من مينائها ومبانيها وأخاف التجار القادمين إليها. لذلك انتقلت تجارة البن بعد ذلك منها إلى لحيا. فقد حدثنا أوفيتون عن ذلك فقال: «لما كانت ميناء مخا قد أصابها التدمير مؤخرا.. فإن الجماعة التي كانت قد اعتادت على الاتجار معها أصبحت تخشى على متاجرها، ولذلك فضلت الانتقال إلى مدينة أخرى هي مدينة لحيا»، الواقعة على نحو سبعين ميلا إلى الشمال من الحديدة. وأصبحت لحيا تجذب إليها السفن القادمة من الهند وغيرها. ثم لما عمر ميناء عدن أصبح تصدير البن من أعماله الرئيسية.

وقد كان وصول السفن التي تحمل البن إلى البصرة شيئا ينتظره التجار دوما، إذ كانت تصل في وقت معين. وفي دار المحفوظات العامة بلندن وثيقة ترجع إلى سنة ١٧٢١، يقول فيها مرسلها «قد وصل أسطول البن المكون من بضع عشرة سفينة إلى البصرة بأمان».

من أوروبة انتقل شراب القهوة إلى العالم الجديد. ولعل أول مقهى فتح في نيويورك كان سنة ١٧٣٧. وبانتشار زراعة البن في أميركة الجنوبية زاد إنتاجه كثيرا وعم استعماله العالم الجديد.

أما في بلادنا فلا يزال البن المحبب عند شريبي القهوة هو البن العدني، الذي أصبح ينتقل إلينا بطريق ذلك الميناء منذ مطلع القرن التاسع عشر.

●

غزاة بحر الشام وأمراؤه في العصر العباسي

د. عمر عبد السلام تدمري

(الحلقة الثانية)



عند منتصف القرن الثاني كان قادة المنصور يزحفون الى القندهار عند حدود الهند الثانية بعد ان احتلوا الاراضي الجبلية جنوب بحر الخزر . فيما بعد وصلت الجيوش الاسلامية الى كشمير في السفح الشمالي الغربي من جبال الهملايا .

سنة ١٤٥ بدأ المنصور بناء مدينة بغداد ، وما لبث ان اصبحت مدينة اسطورية وتزعمت حركة النهضة العربية . تولى علماء بغداد تحقيق اعظم الدراسات في مختلف العلوم والفنون فكانت اساسا لعصر النهضة في اوروبا .

في هذه الدراسة نعود لوصل ما انقطع من هذا الموضوع الذي يستعرض أسماء الغزاة في «بحر الشام» والأمراء الذين كان لهم دورهم في الذَّوْد عن السواحل العربية، ومن خلال العرض نؤرخ لفترة من الصراع (العربي ــ البيزنطي)، تعتبر من أكثر الفترات التاريخية غموضاً في تاريخ ساحل الشام. ولا يخفى أن انتقال مركز الخلافة من دمشق إلى الأنبار ثم بغداد، كان سبباً أساسياً في ندرة المعلومات عن الوقائع التاريخية ومجريات الحوادث التي شهدتها هذه المنطقة، ولذا كان على الباحث المؤرخ لهذه الفترة أن لا يكتفي باعتماد المصادر التاريخية البحتة فحسب، بل يجدر أن يستعين بكل مصدر غير تاريخي يساعد على إنماء معلوماته وإثرائها بالوقائع التي توفر له مادة وفيرة يمكن أن يؤلف بينها، ويؤلف منها. ومن هنا تأتي أهمية كتب التراجم والطبقات، وكتب الأدب ودواوين الشعراء، وكتب الحديث والفقه، وكتب الرحلات والجغرافيا، وغيرها، في رفد كتب التاريخ بالمعلومات الثرَّة.

د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، أستاذ التاريخ الإسلامي ــ الجامعة اللبنانية ــ فروع طرابلس.



في الربع الأخير من القرن الثاني استقل الادارسة عن العباسيين وانشأوا دولتهم في المغرب ، مفتتحين مرحلة تفسخ الخلافة العباسية الى دويلات في الشرق وفي الغرب .

بعد قيام الدولة الاموية التي تمكن عبد الرحمن الداخل من توطيدها غربا في الاندلس ، شهد القرنان الثالث والرابع تجزؤ الخلافة العباسية الى دويلات اخرى في الشرق : فظهرت الدولة الاخشيدية في مصر سنة ٣٢٨ وارثة حكم ابن طولون فيها ، واستطاع مؤسسها محمد بن طغج ان يضم اليها سورية وفلسطين في فترة لا تتجاوز السنتين . ثم ظهرت في شمالي سوريا الدولة الحمدانية التي اشتهر اميرها سيف الدولة برعايته للشعر والفنون والاداب .

الانتقام من البيزنطيين

كان على العباسيين، بعد أن أخمدوا حركة الخارجين في جبل لبنان، أن يلتفتوا إلى أهل قبرص الذين ساعدوا البيزنطيين في غزوتهم إلى اللاذقية وطرابلس، ولذلك خرج إليها غازيا أمير البحر الشامي «العباس بن سفيان الخثعمي» في سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م. فكان أول جيش للمسلمين يغزوها منذ قيام الدولة العباسية، كما يؤكد «ابن عساكر»(٤٠).

وكان عبد الملك بن مروان قد زاد في أيامه على أهل قبرص ألف دينار فوق ما كانوا يؤدونه للدولة الأموية بموجب صلح معاوية، فأسقط عمر بن عبد العزيز تلك الزيادة، ولما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك عاد ففرض الألف الزائدة من جديد، إلى أن فُتحت الجزيرة في هذه السنة، فأسقط أبو جعفر الزيادة وقال: «نحن أحق من أنصفهم» وردهم إلى صلح معاوية(٤١).

أما اللاذقية ونواحيها فقد ظلت تحت سيطرة البيزنطيين منذ حملتهم البحرية في سنة ١٤٠هـ حتى خرج «معيوف بن يحيى الحجوري»(٤٢) في غزوة صائفة سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م. فوصل إلى حصن من حصون الروم ليلا وأهله نيام، فسبى وأسر من كان فيه، ثم قصد اللاذقية المحترقة ــ وكان البيزنطيون قد عمروها ــ فسبى منها ستة آلاف، سوى الأسرى من الرجال(٤٣).

وواصلت الدولة العباسية ضغطها على الدولة البيزنطية حتى اضطر الامبراطور «قسطنطين» أن يطلب الصلح من الخليفة المنصور وأن يؤدي إليه الجزية في سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م(٤٤).

وفي سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م انتهى صراع الخليفة والامبراطور بوفاتهما، ولكن دون أن ينتهي صراع الدولتين.

في عهد المَهْدي

في عهد الخليفة المهدي ابن المنصور (١٥٨ ــ ١٦٩هـ/٧٧٥ ــ ٧٨٥م) تجددت غزوات المسلمين البحرية عن طريق مواني الشام. وتشير المراجع التاريخية إلى غزوتين في سنتين متتاليتين قام بهما أمير البحر «الغمر بن العباس الخثعمي»(٤٥) في سنة ١٦٠ و ١٦١هـ. ولكننا لم نعرف وجهة هاتين الغزوتين(٤٦). وكان «الغمر» قد ولي غازية بحر الشام بعد «عامر بن ربيعة السلمي» في الفترة الأخيرة من عهد المنصور.

وحول ذلك التاريخ استشهد الشيخ الزاهد «ابراهيم بن أدهم» وهو يقاتل في موقعة جرت في احدى جزر بحر الشام(٤٧)، فحمل إلى مدينة صور ودفن فيها، حسب قول أبي نُعيم الأصبهاني(٤٨). مع أن المشهور أن قبره في مدينة جبلة(٤٩). وكان «ابن أدهم» قد خرج في عدة غزوات بحرية كما يبدو من «حلية الأوليا»، وكان معه في بعضها:

«بقية بن الوليد»(٥٠).

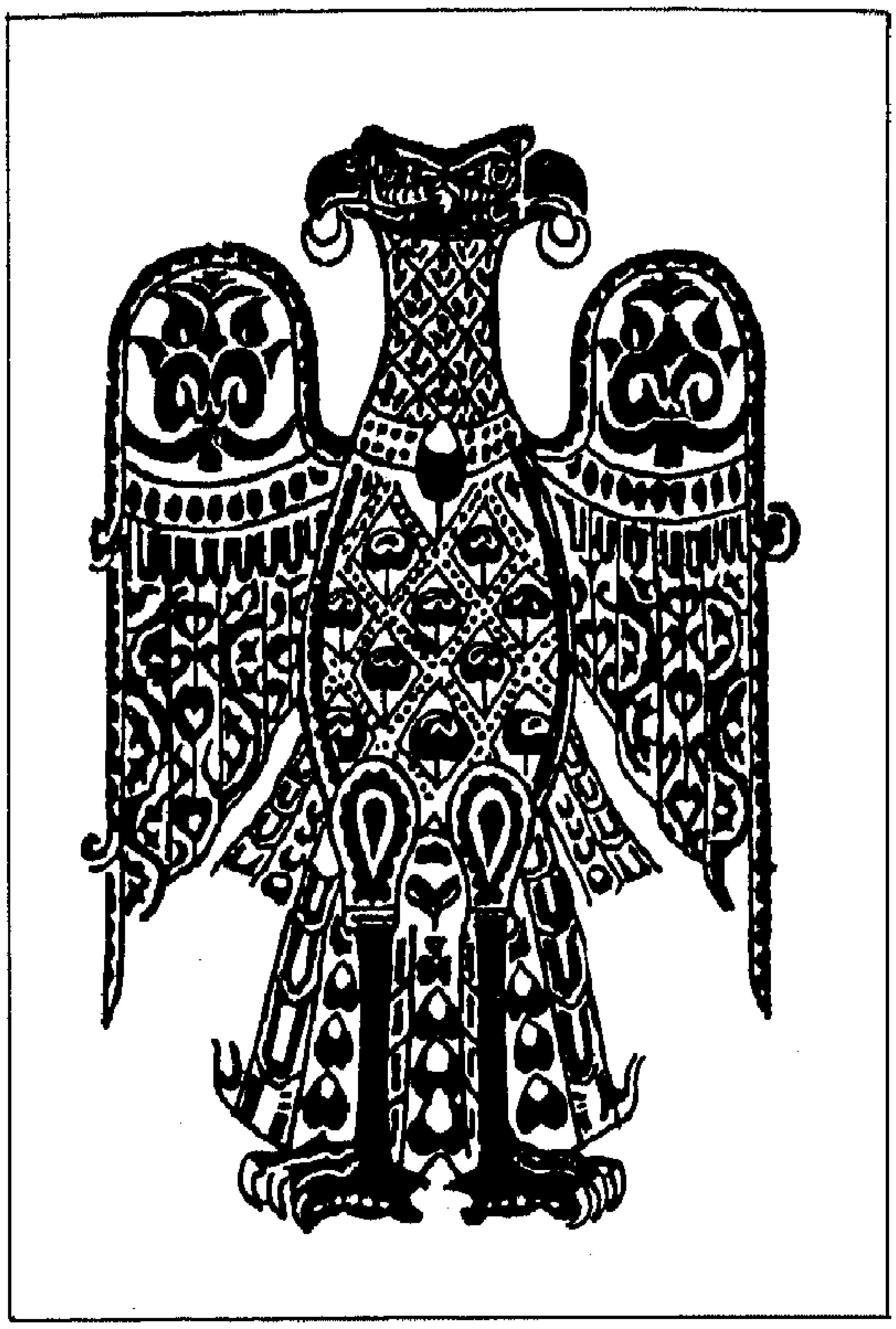
و «أبو رجاء الهَروي»(٥١).

و «فديك»(٥٢).

و «أبو المرتد»(٥٣)

وغزا «ابن أدهم» غزوتين في البحر ولم يأخذ سهمه من الغنائم أو يفترض، وذلك زيادة في الزهد(٥٤). وقيل إنه كان يغزو مع «حميد بن معيوف الهمداني»(٥٥). ثم أوكل أمر الغزو في ساحل الشام إلى «عبد الله بن الأسود المحاربي» ثم إلى «جرير بن عبد الله العبسي»(٥٦) وإن كانت المراجع التاريخية لا تفصح عن جهودهما بشيء.

ولقد حدث في سنة ١٦٣هـ/ ٧٨٠م أن سار المهدي إلى بيت المقدس، يرافقه الأميران اللخميان «المنذر» و «أرسلان»، فاغتنم النصارى خروج الأميرين من لبنان، وقاموا بمهاجمة قوافل التجار والمسافرين بالساحل بين طرابلس وبيروت، وبيروت وصيدا، وحين عاد الأميران قاما بمهاجمة المتمردين (حسب تعبير الشدياق) في عدة مواقع، كان أشهرها موقعتان، احداهما عند نهر سمي بنهر الموت بين بيروت وجبيل، لكثرة ما وقع فيه من قتلى. وكانت الأخرى عند انطلياس على الساحل شمالي بيروت، قتل فيها من الفريقين أكثر من ثلاثمائة رجل، وانتهت بانتصار الأميرين وابعاد خطر المتمردين عن الساحل(٥٧). وعندما قام



□ شعار الدولة البيزنطية.

المتمردون في سنة ١٧٤هـ/ ٧٩١م بمداهمة الأمير «مسعود بن أرسلان اللخمي» في قرية «سن الفيل»[٥٨] قرب بيروت التقاهم خارجها وأنزل بهم الهزيمة وقتل كثيرا منهم، وشن هجوما على بعض قراهم السفلى وأحرقها[٥٩].

وعاد المسلمون والبيزنطيون في سنة ١٧٤هـ/٧٩١م إلى تبادل الغزوات البحرية، فغزا البيزنطيون إلى ساحل الشام، ورد المسلمون عليهم بغزوة مماثلة في البحر[٦٠]. ونقض أهل قبرص الصلح مع المسلمين حول سنة ١٧٤هـ، فأراد والي الثغور «عبد الملك بن صالح بن علي» في خلافة «هارون الرشيد» (١٧٠ ــ ١٩٣هـ/ ٧٨٥ ــ ٨٠٨م) أن ينقض صلحهم لينتقم منهم، وقبل أن يُقدم على ذلك كتب إلى الفقهاء يستشيرهم، فلم يوافقوه على رغبته، رغم أن أهل الجزيرة «لم يفوا للمسلمين قط»[٦١].

وفي ذلك يقول «أبو عبيد بن سلام»:

«ثم كان بعد ذلك حدث من أهل قبرس، وهي جزيرة في البحر، بين أهل الاسلام والروم، قد كان معاوية صالحهم وعاهدهم على خرج يؤدونه إلى المسلمين، وهم مع هذا يؤدّون إلى الروم خرجا أيضا. فهم ذمّة للفريقين كليهما، فلم يزالوا على ذلك، حتى إذا كان زمان عبد الملك بن صالح على الثغور، فكان منهم حدث أيضا، أو من بعضهم، رأى عبد الملك أنّ ذلك نكث لعهدهم، والفقهاء يومئذ متوافرون. فكتب إلى عدة منهم يشاورهم في محاربتهم، فكان ممّن كتب إليه: اللّيث بن سعد، ومالك بن انس، وسفيان بن عيينة، وموسى بن أعين، واسماعيل بن عيّاش، ويحيى بن حمزة، وأبو اسحاق الفزاري، ومخلد بن حسين، وكلهم اجابه على كتابه.

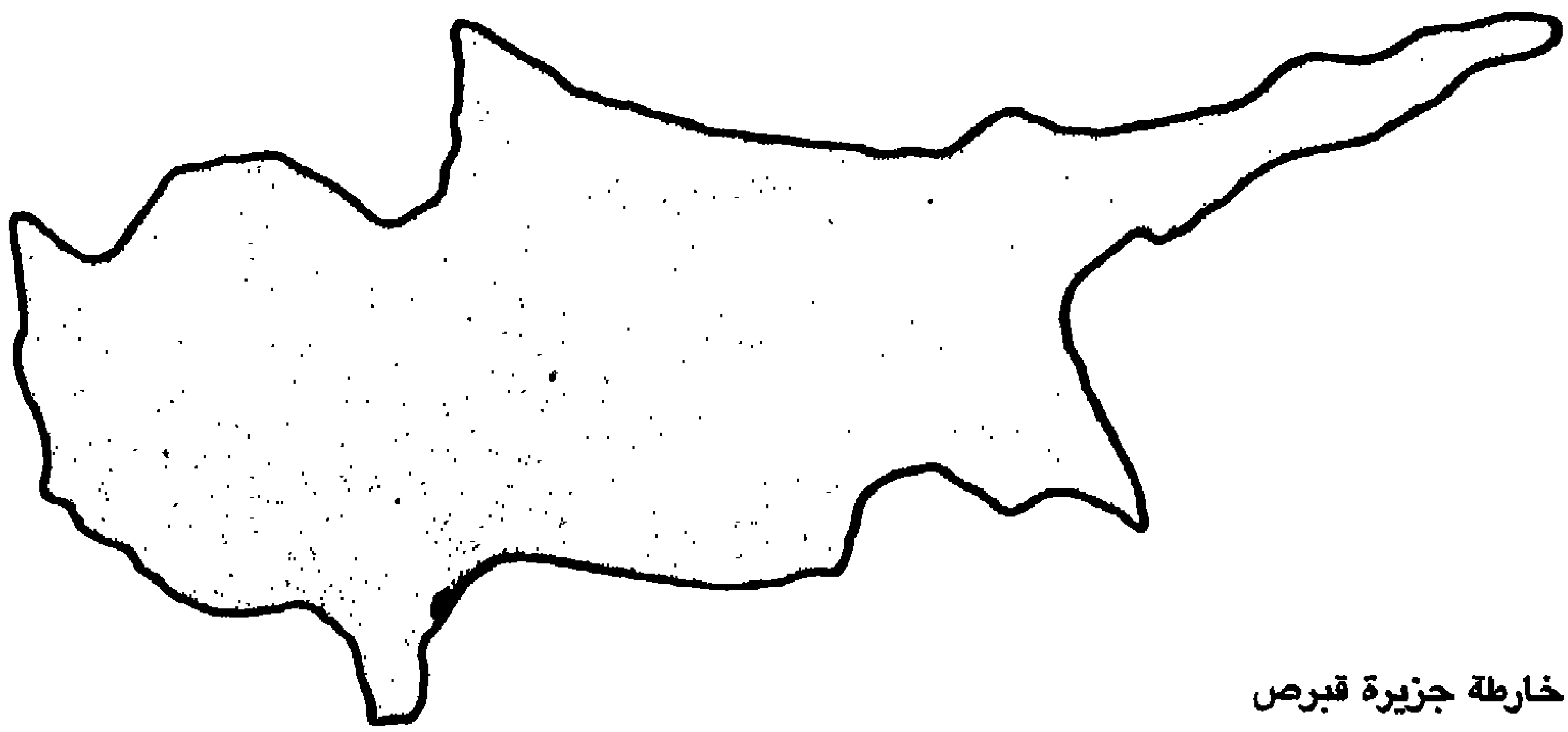
قال أبو عبيد: فوجدت رسائلهم إليه قد استخرجت من ديوانه، فاختصرت منها المعنى الذي أرادوه وقصدوا له. وقد اختلفوا عليه في الرأي إلا أنّ من أمره بالكف عنهم والوفاء لهم، وإن غدر بعضهم، أكثر ممنّ أشار بالمحاربة».

وقد اعتمد معظم الفقهاء في ردودهم على ما ذهب إليه الامام الأوزاعي وأفتى به قبلهم.

«... وقد كان الأوزاعي يحدّث أن المسلمين فتحوا قبرس فتُركوا على حالهم، وصالحوهم على اربعة عشر الف دينار، سبعة آلاف للمسلمين، وسبعة آلاف للروم، على أن لا يكتموا المسلمين أمر عدوّهم، ولا يكتموا الروم أمر المسلمين. فكان الأوزاعي يقول: ما وفى لنا اهل قبرس قطّ. وإنا نرى أن هؤلاء القوم أهل عهد، وأن صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم، وإنه لا يستقيم نقصه إلا بأمر يُعرف به غدرهم ونكث عهدهم.

قال أبو عبيد: فأرى أكثرهم قد وكدّ العهد ونهى عن محاربتهم حتى يُجمعوا جميعا على النكث، وهذا أولى القولين بأن يتّبع، وأن لا يؤخذ العوامّ بجناية الخاصة، إلا أن يكون ذلك ممالأة منهم ورضى بما صنعت الخاصة، فهناك تحلّ دماؤهم»[٦٢].

ونعود إلى أحداث سنة ١٧٤هـ/٧٩١م فنجد فيها: تحرك المتمردين في جبل لبنان، وغزو البيزنطيين إلى ساحل الشام، ونقض أهل قبرص للصلح، وكل هذه الأحداث الخطيرة وقعت في سنة واحدة، وفي وقت واحد ربما. ولنا أن نلتفت



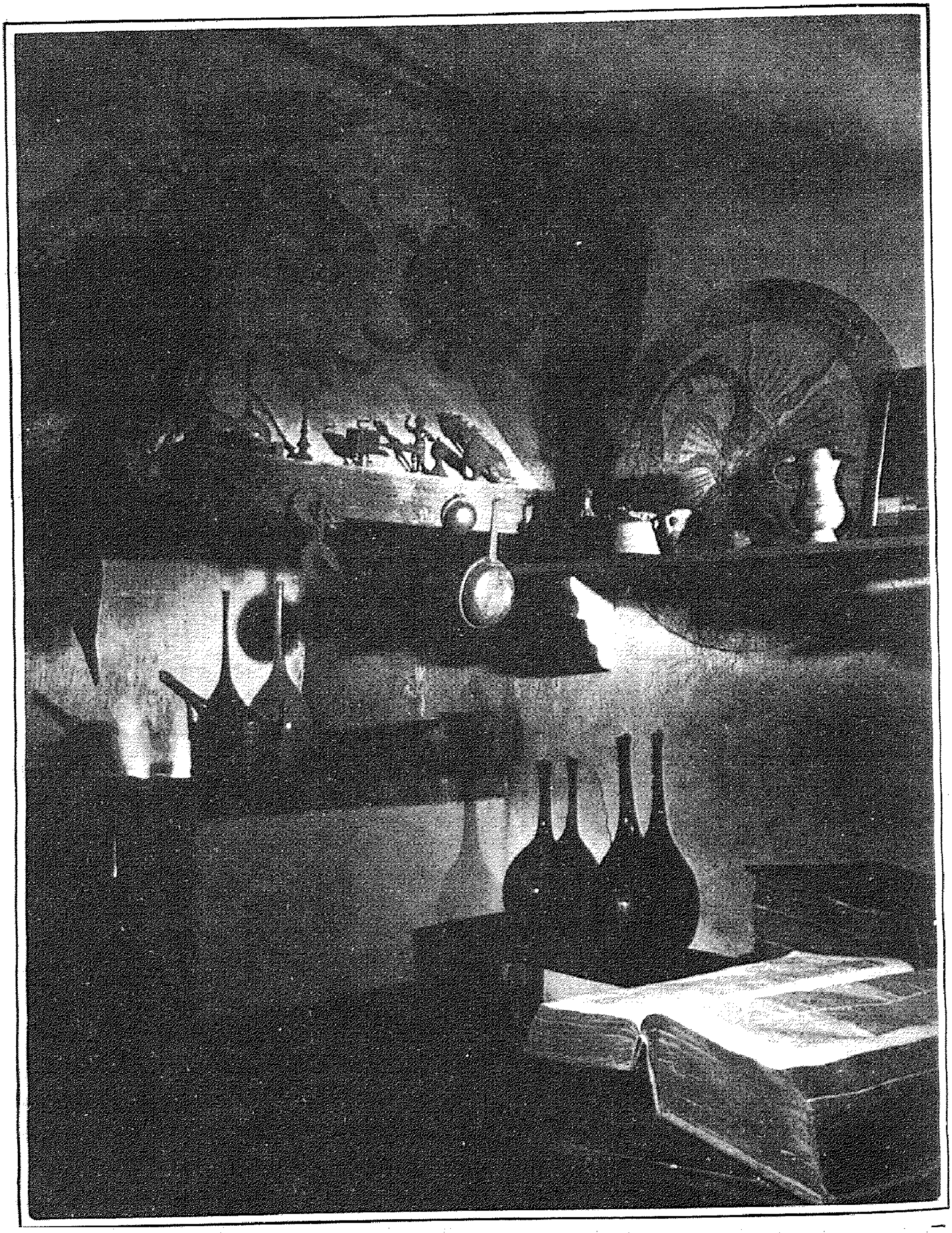
خارطة جزيرة قبرص

دائما إلى أوضاع الدولة العربية في الداخل وما تشهده من فتن واضطرابات، لنتفهم سر التوقيت في التحرّك المناوىء للمسلمين على امتداد الساحل الشامي أو بعضه. ففي هذه السنة شهدت بلاد الشام بما فيها البقاع والمناطق الشرقية من «لبنان» قيام فتنة واسعة بين القيسية واليمنية، وكان مثير تلك الفتنة «عامر بن عمارة بن خُريم الناعم» المعروف بأبي الهيذام المرّي[٦٣]، وهو يتزعم القيسية، واستمر إوار الفتنة مستعرا أكثر من سنتين (١٧٤ ــ ١٧٧هـ)، اشترك فيها أهل البقاع[٦٤] والجولان والأردن من اليمنية وحلفائهم، وكان فيهم جماعة من أهل ساحل الشام أيضا، حيث يذكر «ابن عساكر» أسماء بعض المشاركين ومن بينهم «أحمد» وقيل «محمد» وأخوه «زيد» ابنا «معيوف الهمداني»[٦٥]، ونرجّح أن «أحمدا» و «محمدا» تصحيف لاسم «حُمَيْد» الذي كان يتولى الغزو في بحر الشام، ومعهم أيضا «ابن العمر السكسكي» كما جاء عند «ابن عساكر»[٦٦] والذي نرجح أنه هو «الغمر بالغين المعجمة) بن العباس الخثعمي السكسكي» الذي كان أميرا لبحر الشام أيضا وغزا في سنتي ١٦٠ و ١٦١هـ كما مرّ. والأرجح أن قرية «السكسكية» القريبة من مدينة صور منسوبة إليه وإلى أبناء قبيلته «السكاسك» العربية.

وكان اليمنيون في نواحي الشام أكثر جمعا من القيسية، فامتلأ بهم البقاع والجولان، وجاء «أبو الهيذام» بالمضرية القيسية من نواحي العراق والتقى الطرفان في قتال بالقرب من دمشق، فدمرت أثناء ذلك كثير من القرى والبلدات حول دمشق وحمص وغيرها[٦٧]..

وفي سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م قصد البيزنطيون ساحل بيروت، فجاؤوا بسفنهم إلى «عين التينة» على ساحل البحر قرب ضريح الامام الأوزاعي المتوفي سنة ١٥٧هـ في قرية حنتوس، وعادوا وقد أسروا من هناك الأمير «عمر بن أرسلان اللخمي» مع ثلاثة من أصحابه[٦٨]، وظلوا في الأسر حتى فودي بهم في سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م ولما أشاد القاسم بن هارون الرشيد لأبيه بمواقف الأمراء اللخميين وشجاعتهم وقهرهم للمتمرّدين أرسل إلى الأمير «ثابت بن نصر الخزاعي» أمير الثغور الشامية، وإلى باقي عمال الشام أن ينادوا في البلاد بالرحيل إلى لبنان وسكناه لتشتد قوة الأمراء اللخميين على المتمردين[٦٩].

وكان على المسلمين أن يلتفتوا دائما نحو قبرص التي ما انفكت تقلق أمن الساحل الشامي بتواطؤ أهلها مع البيزنطيين. وكان تحرك السفن البيزنطية نحو الساحل يتوافق مع كل تحرك يقوم به المتمردون في لبنان، مما يوحي بتنسيق حربي ينفذ بدقة هنا وهناك. وكان المسلمون يواجهون ذلك بالاكثار من الغزوات البحرية، وبتطويق المتمردين في الجبال عن طريق وضع



□ العرب أول من استخدموا التقطير والتكليس، ووصفوا بدقة أساليب التبخير والترشيح والتبلور. وإليهم يعود الفضل في استحضار الكثير من المركبات الكيماوية وغيرها مما لا يزال يستخدم في عصرنا الحاضر.

أما تجارب العلماء العرب أمثال الرازي وابن حيان فهي التي وضعت الحد الفاصل بين السحر وبين الكيمياء، وافتتحت طريق العلم الاختباري الحديث في معامل مجهزة بما يحتاج إليه الباحث من مرشحات وقوارير دقيقة وأنابيق مفرغة من الهواء.

حزام من القبائل العربية حولهم لمنعهم من الاتصال بالأساطيل البيزنطية.

وبالرغم من أن فقهاء المسلمين أشاروا على «عبد الملك بن صالح بن علي» حول سنة ١٧٤هـ بعدم نقض صلح أهل قبرص ـ مع تكرار نقضهم هم وممالأتهم للبيزنطيين على المسلمين(٧٠) ـ فإنهم عادوا وأحدثوا ما يوجب قتالهم، ولذلك خرج إليهم «حُميد بن معيوف الهمداني» في سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م ـ وكان يلي سواحل بحر الشام إلى مصر ـ ونزل الجزيرة بأسطول ضخم «فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفا، فأقدمهم الرافقة(٧١) فتولى بيعهم (أبو البختري القاضي) الذي تولى على صيدا(٧٢)، وكان بين الأسرى أسقف قبرص، فبلغ ثمنه لوحده ألفي دينار(٧٣).

وواصل «حُميد بن معيوف» من قبرص غزوه في البحر، فنزل على «إقريطش» (كريت) وفتح بعضها(٧٤). ومن ناحية أخرى، استولى جيش «الرشيد» على «هرقلة»(٧٥) في أرض الروم، مما أجبر الامبراطور «نقفور» (١٨٧ ـ ١٩٨هـ/٨٠٢ ـ ٨١١م)، في آخر الأمر، أن يعقد صلحا مهيناً للامبراطورية، حسب تعبير «وليم لانجر»(٧٦).

وعاد «هارون الرشيد» ووفى بصلحه مع أهل قبرص بعد أن استقاموا وأمر برّد من أسر منهم فردّوا(٧٧).

* * *

ويشهد لبنان مع بلاد الشام ثورتين عارمتين ضد الخلافة العباسية، الأولى في سنة ١٩٥هـ عرفت بثورة أبي العميطر(٧٨)، والثانية في سنة ٢٢٦هـ وعرفت بثورة «المبرقع»(٧٩). ويلاحظ اننا لا نقف على شيء من الغزوات البحرية في ذلك الوقت، وتتلاشى أخبار ساحل الشام بشكل ملفت في جميع المصادر التاريخية وغيرها، حتى سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م. حيث جرت بين الأمير «هاني بن مسعود بن أرسلان» والمردة حروب كثيرة انتصر فيها عليهم، ولذلك لقب بالغضنفر أبي الأهوال، وبلغ خبره الأمير «خاقان التركي»، فكتب إليه كتابا يشكره فيه على ما فعل، ويحثّه على مواصلة التيقظ والتصدي للمردة، ويخبره انه بلغ حسن سلوكه إلى مسامع الخليفة. ثم توفي الأمير «هاني» في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وتولىّ إمارة بلاد الغرب المشرفة على بيروت «ابراهيم بن اسحاق بن أرسلان». وحين قدم الخليفة «المتوكّل على الله» إلى دمشق سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م سار إليه الأمير «ابراهيم» فعقد له المتوكل لواء وكتب له توقيعا بولاية الغرب(٨٠).

ثم نطالع، أن زلزالا قويا ضرب سواحل الشام ومدنه في سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م فيقول اليعقوبي عنه:

«أصاب الشام كلّه زلازل، حتى ذهبت اللاذقية وجبلة، ومات عالم من الناس، حتى خرج الناس إلى الصحراء، وأسلموا منازلهم وما فيها، واتصل ذلك شهورا»(٨١).

وقيل: «زلزلت: بالس، والرّقة، وحرّان، ورأس عين، وحمص، ودمشق، والرّها، وطرسوس، والمصّيصة، وأذنة، وسواحل الشام، ورجفت اللاذقية فما بقي منها منزل، ولا أفلت من أهلها إلا اليسير. وذهبت جبلة بأهلها»(٨٢).

وقد اهتم المتوكل العباسي باعادة بناء ما تهدم وتحصين ما تشعّث من الحصون، فأمر في آخر سني خلافته ٢٤٧هـ/٨٦١م بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة(٨٣).

ويبدو أن ميناء صور لم يفقد أهميته ودوره كقاعدة مهمة على ساحل بحر الشام، فقد وصلنا عن أحداث سنة ٢٥١هـ أن «عيسى بن الشيخ» جد الأسرة العربية التي حكمت صيدا مدة من الوقت(٨٤)، طلب من الخليفة «المستعين بالله» توجيه ما يحتاج إليه من السلاح ليكون عدّة له في بلده بفلسطين حتى يقوى به جنوده على الغزو، وأن يكتب إلى صاحب صور في توجيه اربع مراكب إليه بجميع آلتها الحربية لتكون قبله إضافة إلى ما عنده منها(٨٥).

كذلك، احتفظت طرابلس بأهمية موقعها ودورها الرئيسي على ساحل الشام، واعتزّت مع أختها صور بأنهما أخرجتا أعظم بحّارين مسلمين في ذلك العصر، أدخلا الرعب في قلوب البيزنطيين فترة طويلة، هما: «ليو الطرابلسي» و «دميان الصوري»، ويستحقان دراسة مستقلة، في أعداد مقبلة، إن شاء الله. ●

الهوامش

(٤٠) تاريخ دمشق ٣٤/٣٤٠، التهذيب ٢٢٣/٧.
(٤١) فتوح البلدان ق ١/١٨٣.
(٤٢) هو من مواليد قرية حجور التي تدعى عين ثرماء قرب دمشق. وكانت له فيها قصور معجبة، احرقها المضرية في فتنة أبي الهيذام (١٧٤ ــ ١٧٧هـ) راجع تهذيب تاريخ دمشق ١٩٤/٧ طبعة «دار المسيرة».
(٤٣) الطبري ٤٣/٨، ابن الأثير ٦٣٠/٥.
(٤٤) الطبري ٤٦/٨.
(٤٥) ويقال له: «السكسكي».
(٤٦) الطبري ١٢٩/٨ و ١٤٠، تاريخ دمشق ٣٤/٣٤٠، البداية والنهاية لابن كثير ٤٦/٦ و ٥٥.
(٤٧) ابن كثير ١٤٤/١٠.
(٤٨) حلية الأولياء ٩/٨، وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، وفيه أن وفاته كانت سنة ١٤٠هـ نقلا عن أبي سلمان الداراني (٣٢/١).
(٤٩) اختلف في مكان وفاته ومدفنه، فقيل إنه دفن في بعض الجزائر ببلاد الروم، ويحدد الامام البخاري حصن «سوفنن» من بلاد الروم، ويؤيده في ذلك «ابن حبان» و «ابن عساكر»، وانفرد «أبو نعيم» بالقول بدفنه في صور، وجاء في حاشية احدى نسخ «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي أن وفاته كانت في الساحل قريبا من طرابلس، وذهب بعضهم إلى أنه توفي بدمشق ودفن في مرج غوطتها. (انظر عنه ترجمة موسعة في موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي، ق ١، ج ٢٠٠/١، رقم الترجمة (٧)، وأنظر أيضا البحث الذي قدمناه للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية المنعقد بدمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م بعنوان «الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي إلى الحروب الصليبية» وقد نشرته مجلة «دراسات تاريخية» بدمشق، العدد الخامس ١٤٠١هـ/١٩٨١م، صص ٧٧ ــ ٩٨).
(٥٠) حلية الأولياء ٥/٨.
(٥١) حلية الأولياء ٦/٨.
(٥٢) حلية الأولياء ٧/٨.
(٥٣) حلية الأولياء ٧/٨.
(٥٤) حلية الأولياء ٣٨٨/٧.
(٥٥) ورد في «الحلية»: «احمد بن معيوف»، والتصحيح عن (فتوح البلدان ٢٧٩/١). وابنه هو «محمد بن جميد بن معيوف» وقد سمع: محمد بن المعافى الصيداوي المحدث. (تاريخ دمشق ٤٢٣/٣٧) ومن احفاده: عبد الواحد بن محمد بن عمرو بن حميد.. قاضي عين ثرماء، روى عن: خيثمة بن سليمان الأطرابلسي محدث الشام (معجم البلدان ١٧٧/٤).
(٥٦) تاريخ دمشق ٨٦١/١٩.
(٥٧) أخبار الأعيان في جبل لبنان للشدياق ٤٩٦/٢.
(٥٨) سن الفيل (Shend Filla) = العاج. بلدة تبعد عن بيروت ٥ كيلومترات، قيل إن أحد القادة الصليبيين ويدعى «سان تيوفيل» (Saint Theophille) كان فيها حوالي سنة ١٢٠٢م فعرفت به. وعندما استرجعها المسلمون حرفوا الاسم إلى «سن الفيل». (أنظر: إعرف لبنان، عفيف بطرس مرهج، بيروت ١٩٦٦، ج ١، دون أرقام للصفحات).
(٥٩) أخبار الأعيان ٤٩٦/٢.
(٦٠) الروم وصلاتهم بالعرب، د. اسد رستم، ج ٢٩٧/١.
(٦١) فتوح البلدان ق ١٨٣/١ ــ ١٨٦.
(٦٢) راجع كتاب الأموال، ص ٢٤٨ ــ ٢٥٤، فتوح البلدان ق ١٨٣/١ ــ ١٨٦.
(٦٣) توفي سنة ١٨٢هـ.
(٦٤) تهذيب تاريخ دمشق ١٨٢/٧ و ١٨٤.
(٦٥) تهذيب تاريخ دمشق ١٨٠/٧ و ١٨٤.
(٦٦) تهذيب تاريخ دمشق ١٨٤/٧.
(٦٧) راجع تفاصيل هذه الفتنة وأسبابها في: تاريخ اليعقوبي ٤١٠/٢ وفيه ان أبا الهيذام قتل سنة ١٧٦هـ وهو مخالف للروايات الأخرى، الطبري ٢٣٩/٨ حوادث سنة ١٧٤هـ و ٢٥١، ٢٥٢ حوادث سنة ١٧٦هـ و ٢٦٢، ٢٦٣ حوادث سنة ١٨٠هـ، ابن الأثير ١٢٧/٦ ــ ١٣٢ حوادث سنة ١٧٦هـ، تهذيب تاريخ دمشق ١٧٩/٧ ــ ١٩٦، البداية والنهاية ١٦٨/١٠ حوادث سنة ١٦٨هـ.
(٦٨) اخبار الأعيان ٤٩٦/٢، محاسن المساعي في مناقب الامام الأوزاعي، نشرها شكيب ارسلان، ص ٢٠ (الحاشية).
(٦٩) أخبار الأعيان ٤٩٧/٢.
(٧٠) الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر، ص ٣٠٦.
(٧١) الرافقة: بلد متصل البناء بالرقة على ضفة الفرات.
(٧٢) هو قاضي القضاة للرشيد، اسمه «وهب بن وهب القرشي»، وولي المدينة المنورة، وكان موجودا حتى أيام محمد الأمين ابن هارون الرشيد سنة ١٩٢هـ ويعرفه السمعاني في (الانساب ١٩٩/٨) بصاحب صيدا (أي قاضيها) ومن أحفاده: الحسن بن أحمد بن أبي البختري الصيداوي خطيب صيدا، كان بها سنة ٣٠٥هـ (تاريخ دمشق ٣٧١/٩، التهذيب ١٥٢/٤) وقد ذكر «ابن حبان» إن أبا البختري قاضي القضاة انتقل إلى صيدا في آخر عمره. (كتاب المجروحين ٧٤/٣ و ٨٠، الانساب (الطبعة المصورة) ٤٣٩ أ) وكان الرشيد سأله: أين اتخذت لولدك من بعدك؟ قال: بالشام.

قال الرشيد: هذا مأواه الفتن وفيه العصبية. قال ابو البختري: إنه بلد أرضه طعام وسماؤه أدام. (تاريخ دمشق ٤٤/٢٨٤).

(٧٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٣١، الطبري ٨/٣٢٠، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢/١٣٣، الحدود الاسلامية البيزنطية، فتحي عثمان ٢/١٦٢.

(٧٤) فتوح البلدان ق ١/٢٧٩، مروج الذهب ١/٩٨.

(٧٥) هرقلة: مدينة بآسية الصغرى، كانت قاعدة مملكة الروم لعهد الفتح الاسلامي.

(٧٦) موسوعة تاريخ العالم، وليم لانجر ٢/٤٨٦.

(٧٧) فتوح البلدان ق ١/١٨٣.

(٧٨) أنظر عنها: الطبري ٨/٤١٥، ابن الأثير ٦/٢٤٩، ابن عساكر ٣٥/١١٠ و٣٨/١٠٥ و ٣٥٥ و ٤٥/٥١٨ و ٥٣١، التهذيب ٢/١١٣، ابن كثير ١٠/٢٢٧، مرآة الجنان لليافعي ١/٤٤٨، النجوم الزاهرة ٢/١٥٩، خطط الشام ١/١٥٤، ١٥٥.

(٧٩) أنظر عنها: الطبري ٩/١١٦، المعرفة والتاريخ ١/٢٠٧، ابن الأثير ٦/٥٢٢، ابن كثير ١٠/٢٩٥، خطط الشام ١/١٦٤، ١٦٥، تاريخ بلاد الشام، د. عبد العزيز الدوري ٣٢.

(٨٠) أخبار الأعيان ٢/٤٩٨.

(٨١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩١.

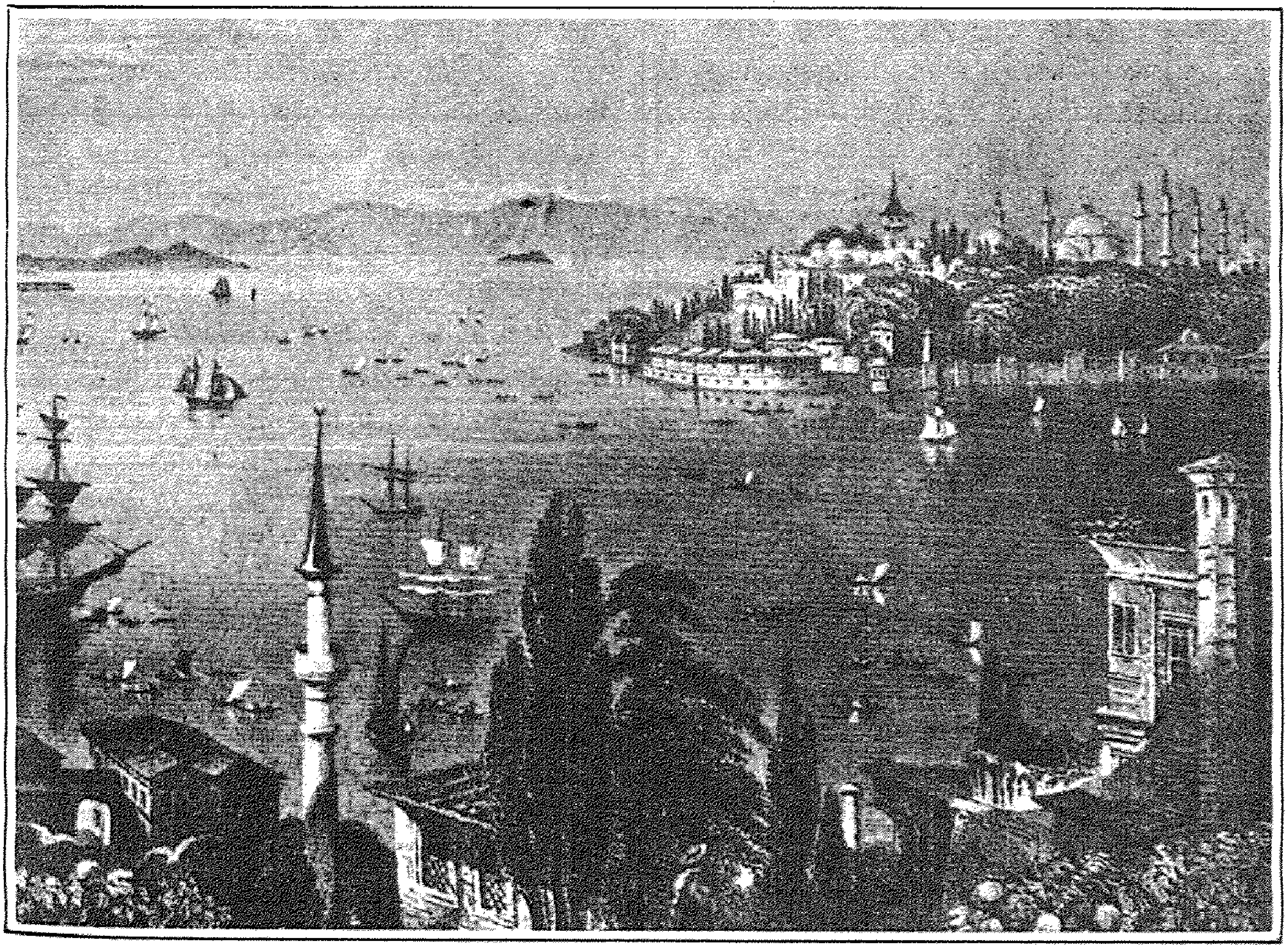
(٨٢) الطبري ٩/٢١٣.

(٨٣) فتوح البلدان ق ١/١٤٠ و ١٩٣.

(٨٤) راجع دراستنا عن هذه الأسرة في العدد ٢٣ (أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٠) من المجلة، ص ٢٣ ـ ٣٠.

(٨٥) الطبري ٩/٣٠٨، ابن الأثير ٧/١٦٣.

□ استانبول، نظرة من سراي بورنوس على بحر المرمر، القرن التاسع عشر.

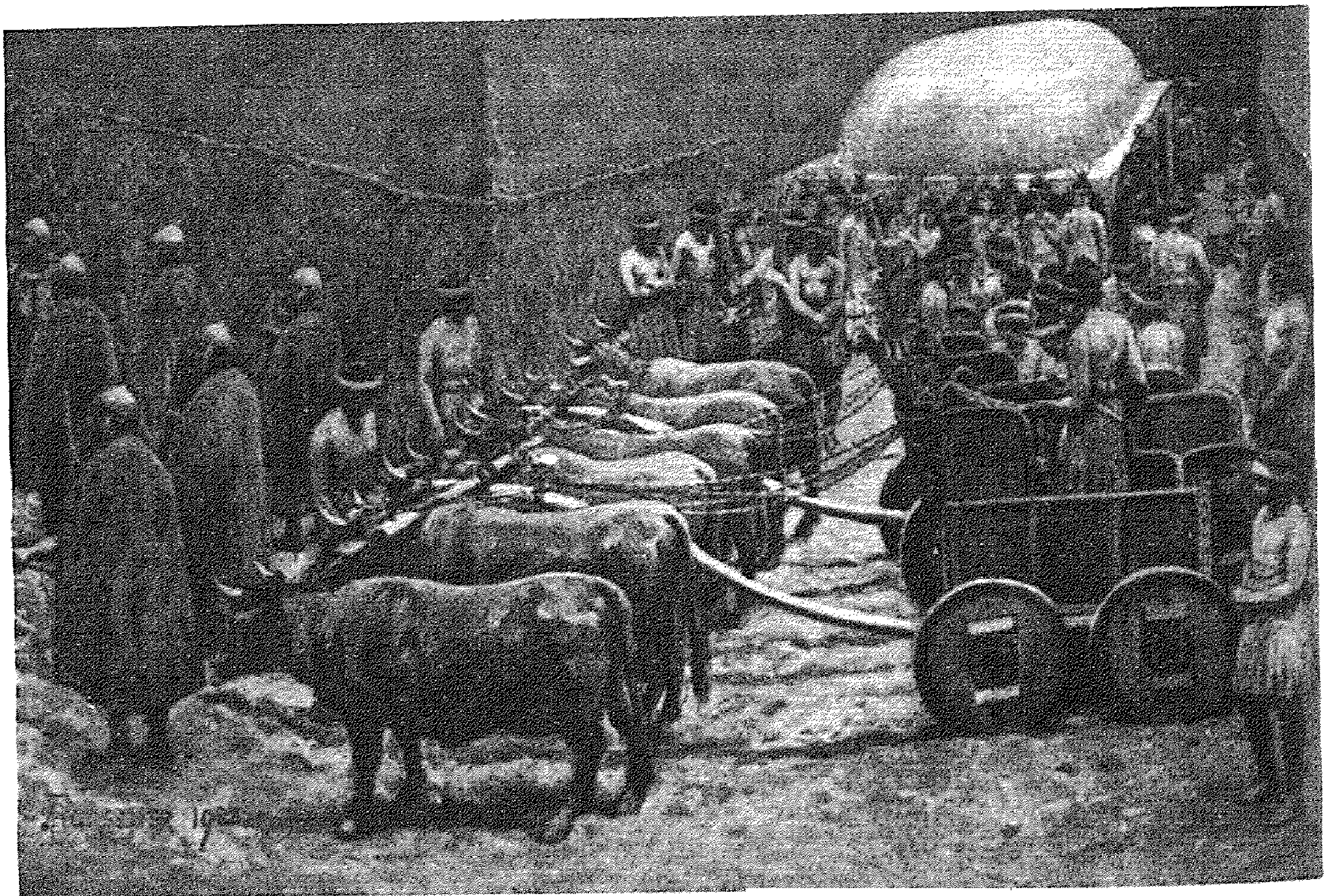


العَجَل أو الدّولاب
بَين التّاريخ وَالبيُولوُجيا

د. ابراهيم فريْد الدّر

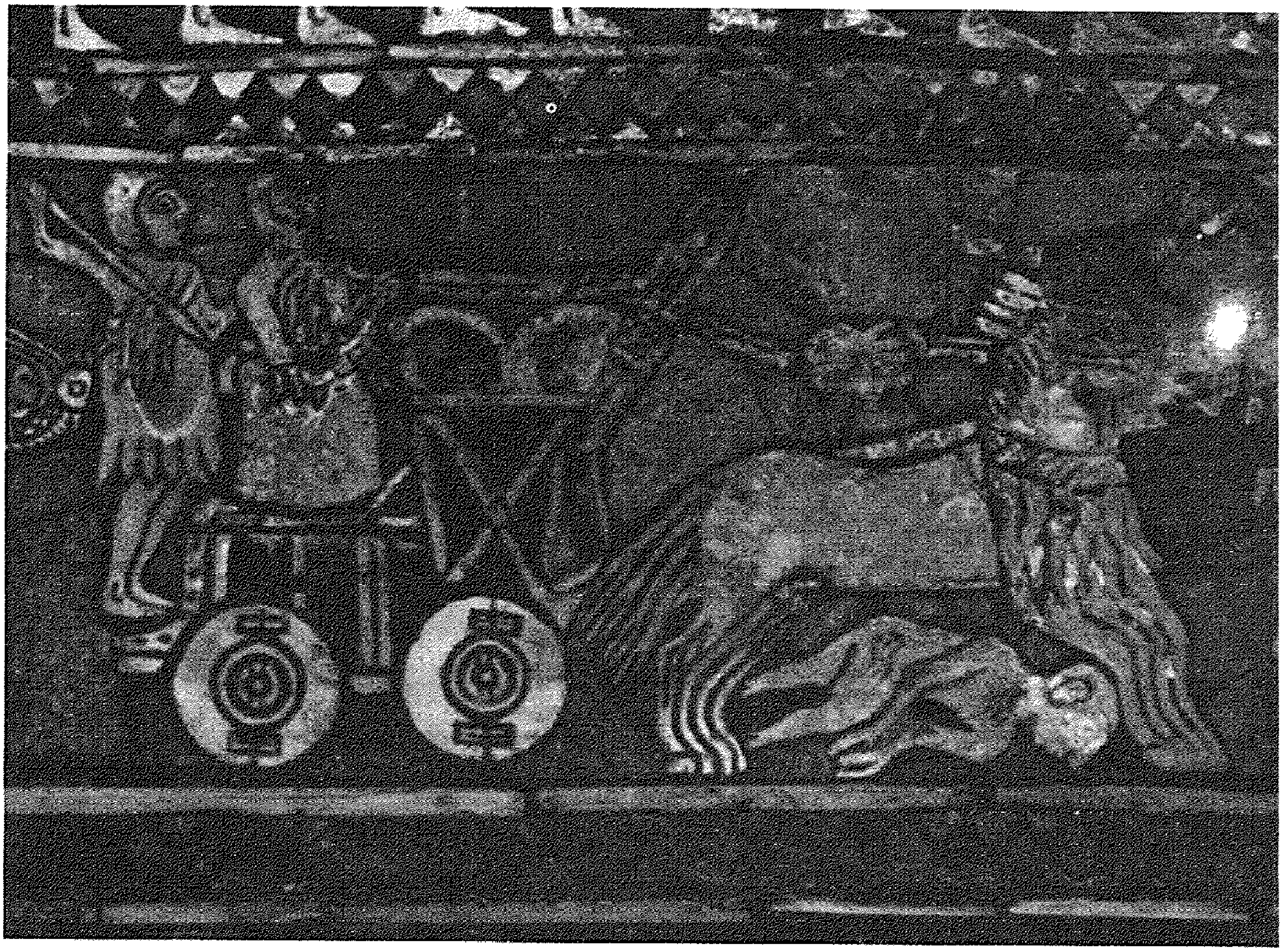
تطوّر تاريخي لكن التطوّر البيُولوجي كانَ ضِدّه!

ليس من السهل ترتيب الاختراعات العظيمة بحسب أهميتها، لكن اختراع العَجَل (الدولاب) هو على رأسها. لذلك سعى الخبراء طويلا ليعرفوا متى ومن صمم هذا الشيء العجيب! ولقد اشتد الجدل إلى أن جلت الأبحاث هذا الغموض، من عهد قريب. والعجل يثير كثيرا من الجدل سأحاول معالجة قليلٍ منه.



□ القبور الملكية ــ موكب قرباني بعجلات بدائية.

□ د. إبراهيم فريد الدر: استاذ الكيمياء الحياتية في كلية الطب في الجامعة الاميركية ــ بيروت.



□ صورة من اور لمقدمة لوا من الجند، مركبة حربية بعجلات بدائية، من ٥٠٠٠ سنة. «المتحف البريطاني».

ولع الانسان بالجدل، وغريزة الفضولية وغروره تدفعه إلى أسئلة المفاضلة مثل «من أول من اخترع كذا، وأي الاكتشافات أعظمها..».

دخول النار حياة الانسان حدث تاريخي جليل، لكن استعمال العَجَل أو الدولاب سبيلا إلى النقل والترحال يبقى أعظم تطور في تاريخ التقنية. لذلك دأب العلماء في معالجة أسئلة كثيرة حول هذه الآلة البسيطة في تركيبها، والعظيمة في عملها وأثرها.

شاهد الانسان أشكالا دائرية كثيرة: الشمس والقمر يزينان السماء، الفواكه على الشجر، والحجر «يكرج» على الأرض، فلماذا تأخر الانسان في استغلال الشكل الدائري، ولم يخترع العجل للتنقل إلا من ٦٠٠٠ سنة فقط!

لماذا يعود الفضل إلى أهل العراق باختراع العجل، بينما حضارات ثانية أهملت الشكل الدائري، وجعلت منه ألعابا للصغار فقط.

ومخلوقات البحر والأرض والسماء! لماذا لم يظهر منها ما يسير على عجلات، ولماذا لم يتطور منها ما يندفع بقوة الدوران المروحي. كانت الطبيعة سباقة إلى كل الاختراعات المفيدة لتنقل الانسان، فالمخلوقات الات تستعمل مبدأ الاحتراق المضبوط في حياتها وتنقلها، وتستعمل الطيران، والغوص والدفع الصاروخي، والمظلات. كلها ظهرت قبل الات الانسان بأجيال طويلة.

لكن الشيء الوحيد الذي لم تزود الطبيعة به مخلوقاتها هو العجل، أعظم سبيل إلى التنقل البشري. لماذا لم يظهر فأر على براثنه عجلات! ولماذا لم يظهر سمك بمحركات تدور. أما الانسان فقد استغل كليهما أرضا وبحرا وجوا.

ولماذا استعملت العرب حجر الرحى أو الطاحون لطحن الحبوب، وللري، ولم تستعمل العربة بدولاب، مفضلة الجمل للترحال وحمل الأثقال!

ليست أسئلة تافهة، ولا جوابها سهل فالعلماء انهمكوا، ولا يزالون، عاكفين على معالجة هذه الأمور.

من اخترع العَجَلْ؟

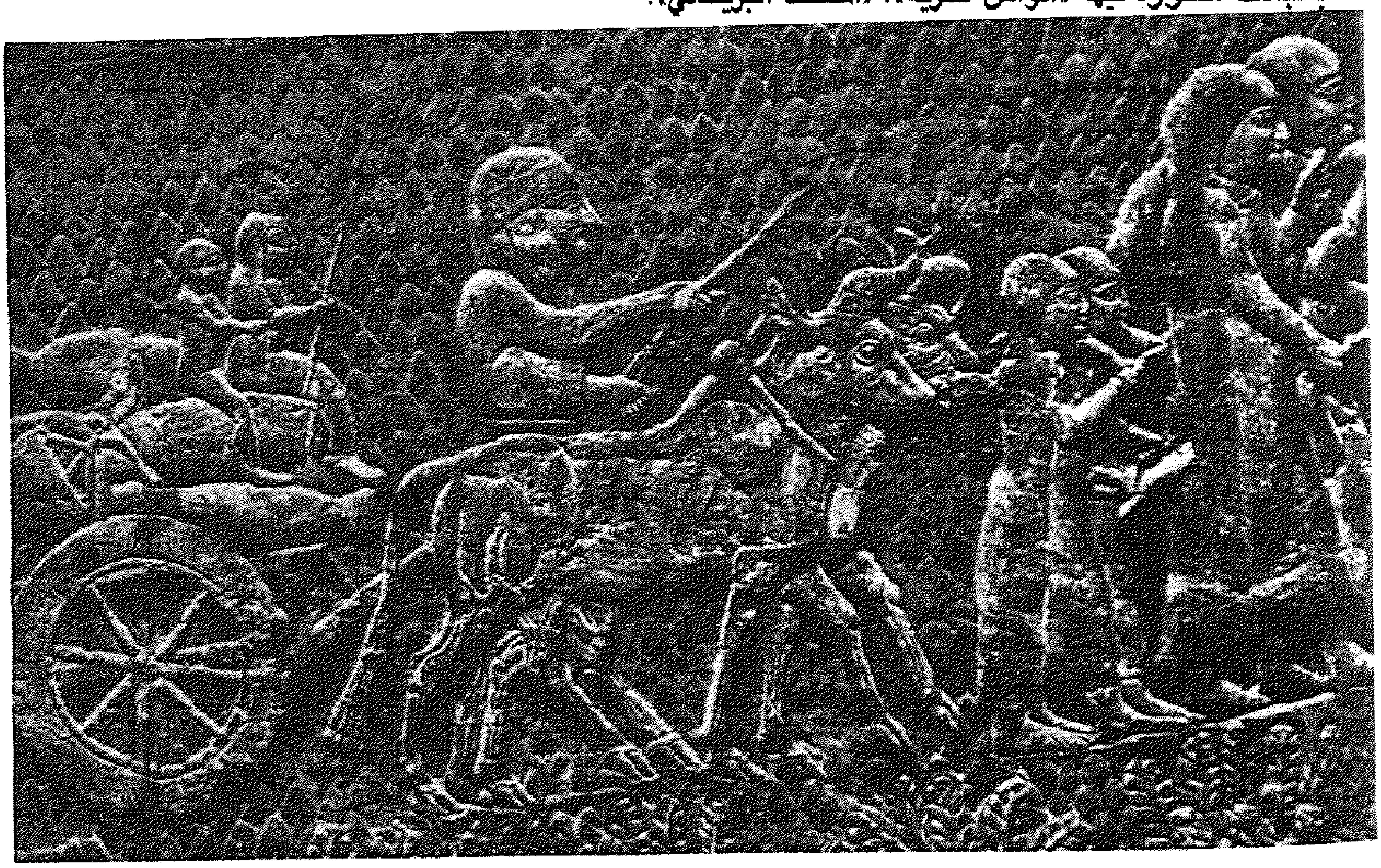
لم يكن السؤال محسوما حتى ظهر هذا البحث في أوائل ١٩٨٣ بعد جهد دام طويلا شاركت فيه مؤسسات وجيهة مثل متاحف جامعة بنسلفانيا وبريطانيا وفرنسا. ومزيد من البحث ينتظر نهاية الحرب العراقية الايرانية.

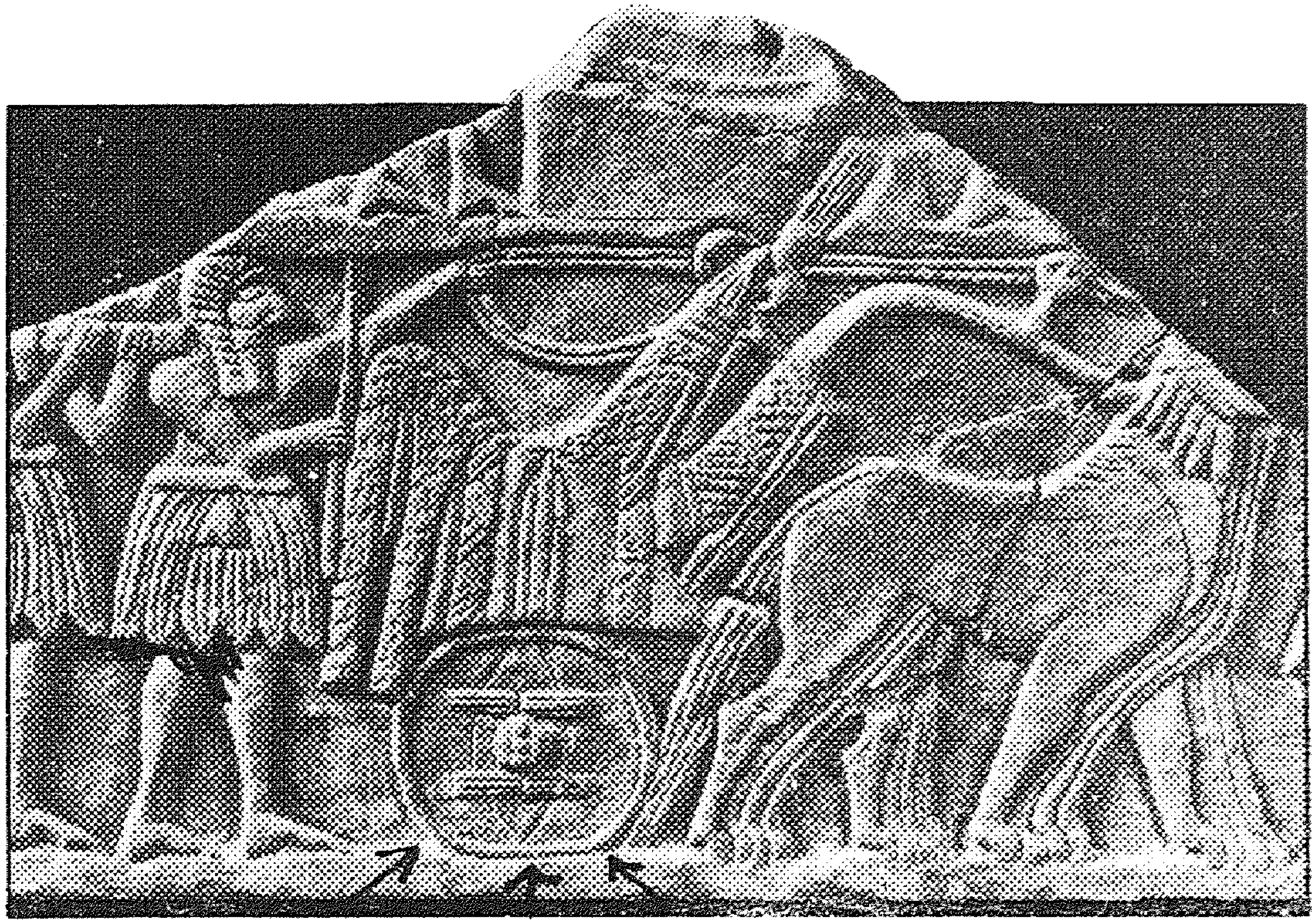
استعملت الحضارة المكسيكية القديمة (مايا) حوالي ٩٠٠ م البكر المحزز كلعبة دراجة للأطفال، لكن الدولاب لم يدخل عالم النقل والتنقل إلا في بلادنا من قبل ٦٠٠٠ سنة! والفراعنة بعدئذ طوقت الحجارة الضخمة أيضا بخشب مستدير لحدلها أو كرجها. والطرق حُدِلَت بجذع الشجر.

تدل البحوث التاريخية والحفريات الأثرية أن العجل ظهر لأول مرة في العراق (بلاد ما بين النهرين) من قبل ستة الاف سنة. ولقد أيدت هذا القول مجلة علمية رفيعة تصدر في فرنسا إسمها مجلة «البحث العلمي». يؤكد التحليل الذي ظهر في عدد اذار ١٩٨٣ أن الحضارات في القارتين الأميركيتين لم تعرف الدولاب إلى أن احضره كولومبوس معه! صحيح أن أطفال الحضارة القديمة في المكسيك استعملت العابا تدرج، إلا أن العجل لم يدخل بنية العربات. والثابت أيضا أن استعمال العجل كان حدثا فريدا إذ لم يعرف له أثر في حضارات مجاورة، أو سابقة، لمدنية العراق.

اقترحت صاحبة البحث، ماري ليتُّوار، نموذجا لأول عربة قوامها لوح من الخشب يدرج على بكر لنقل الأثقال. ولم يكن البكر مثبت في الخشب إذْ جاءت فكرة المحور أو القطب بعدئذ. لذلك كان البكر ينقل من اخر اللوح إلى مقدمته كلما درجت «العربة»! بعد ذلك رُبطت مدارج (كجذع الشجرة المستدير) إلى مؤخرة الألواح الخشبية كما كان يستعملها الهنود في السهول لجر الأثقال وغيرها. أما العربة الرومانية بعجلين فكانت الحدث الجديد في وسائل النقل للبشر والبضائع. إذن من البكر والمدارج ظهر العجل ومحوره الذي يصل ما بين العجلين معا.

□ صورة من نينوى تدل على اسرى حرب في حصار «لقش». تعود للقرن السابع قبل الميلاد. انتبه إلى العربة بعجلات منظوره فيها «اقواس قطرية». «المتحف البريطاني».





حفرٌ يدل على عَجَل «ما بين النهرين» مصنوع من قطع خشب كثيرة، وهو كاللوح لا فراغ فيه

تعتقد الخبيرة أن سكان الشرق الأوسط لم تستعمل البكر أو المدرج كما استعمله الهنود، لأن منطقة رملية كبلادنا لا تسمح باستعمال مدارج غير ثابتة. لذلك لم يستعمل الهنود عجلات أو عربات بدواليب، بينما ظهرت تلك العجلات في العراق أول ما ظهرت. وفي أور عاصمة السومريين اكتشفت عربات بأربعة دواليب في «قبر الملوك» يرجع تاريخها إلى ما قبل ٤٥٠٠ سنة.

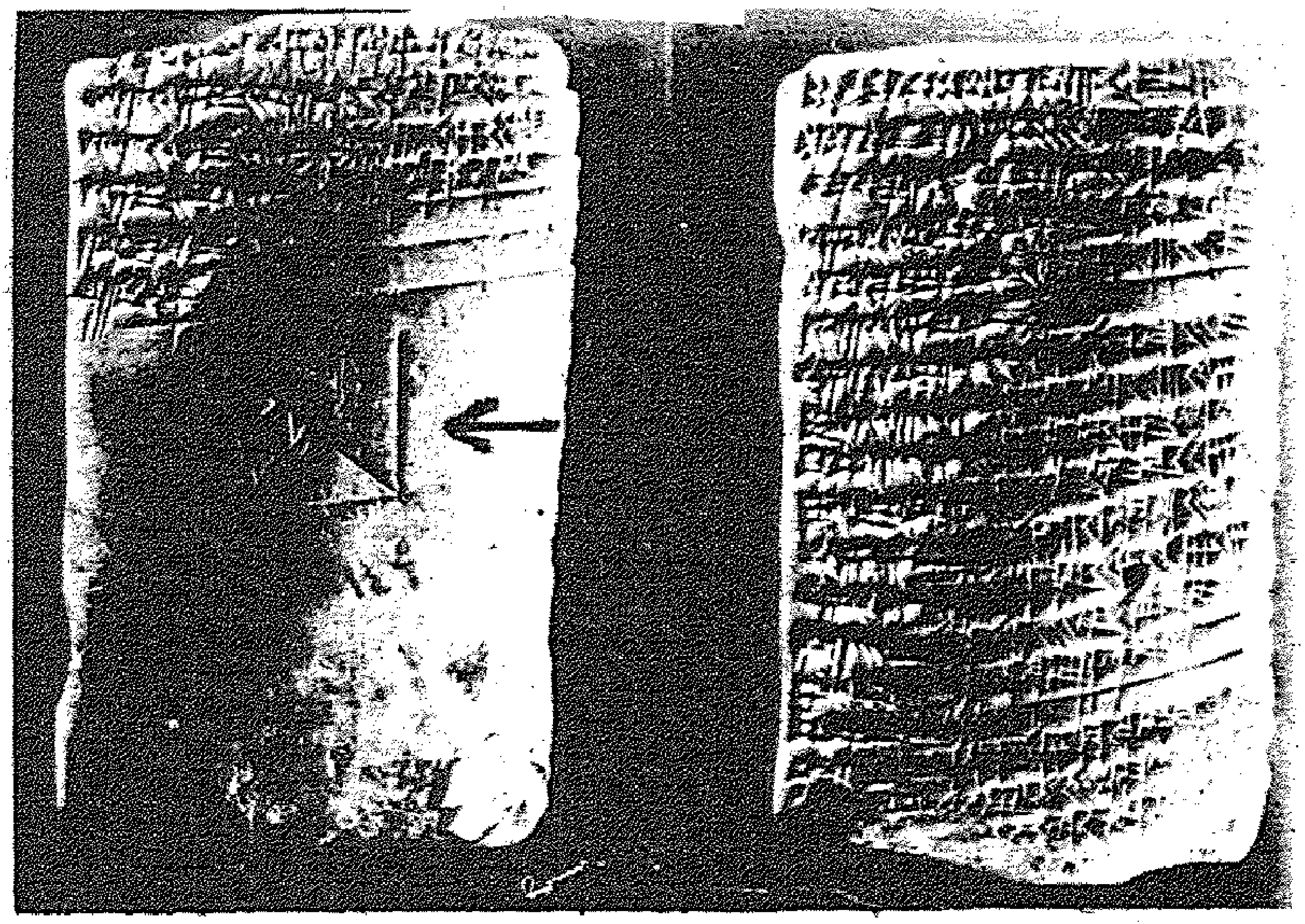
ولقد وجد علماء الآثار في «قبر الملك» بالاضافة إلى اثار «صاحب القبر» أدوات وما يدل على منزلته العظيمة. ومن بين الأشياء كانت دواليب للعربات. الدولاب طبق أو طوق خشبي مكون من قطع خشبية أدخلت في بعضها كالاسفين.

ومما يدل على تقدم التقنية العراقية انذاك وجود صور على لوحات اللِّبن لأكواب وأوعية اسطوانية وغيرها من أدوات مستديرة.

راية الحرب والسلم، المكتشفة في القبر، كانت مصنوعة من قوقعة السلحفاة، وعليها نقش يدل على مراتب الجنود، وعليها أيضا عربتان بأربعة عجال. يقف على مؤخرة العربة محارب يحمل الرمح والدرع. ويبدو أن هذه الراية كانت تحمل على عمود يطاف بها خلال الاحتفالات الوطنية. ويظن الخبراء أن هذه العربة كانت أشبه بمصفحات العصر الجديد! لكن المرجح أن بنية العربة كانت غير ملائمة للحرب نظرا لسهولة اختراقها، ولربما كانت سيارة الملوك في العصر البائد.

يقول لنا الخبراء أن الثيران كانت تجر العربات مما يرجح استعمالها خارج ميدان الحرب، فالثور غير مرغوب فيه في ساحات القتال! ولا ريب في أن الاستعراضات العسكرية ضمت تلك العربات، كما يفعل إنسان الصاروخ والدبابة! لا بد من التذكير بأن الأفراد الصغيرة لعائلةالحصان كالحمار المتوحش الآسيوي (الفرا) لم تُعرَف إلا حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، أما الحصان المعروف فلم يأت من سهول أميركا إلا بعد ذلك بكثير، فلا عجب إذا بقي الثور والحمار من دواب النقل والجر. والثور الخصي مثالي في وداعته وسهولة تعاونه ضمن فريق من مجموعة عاملة في الأشغال الشاقة! حتى بعد قدوم الحصان بثلاثة الاف سنة بقي تركيب النير غير ملائم لبنية الحصان، ولم يكن سهلا ضبط الحصان بالنير ذلك أن للنير حلقات

اللوحة رقم (١)



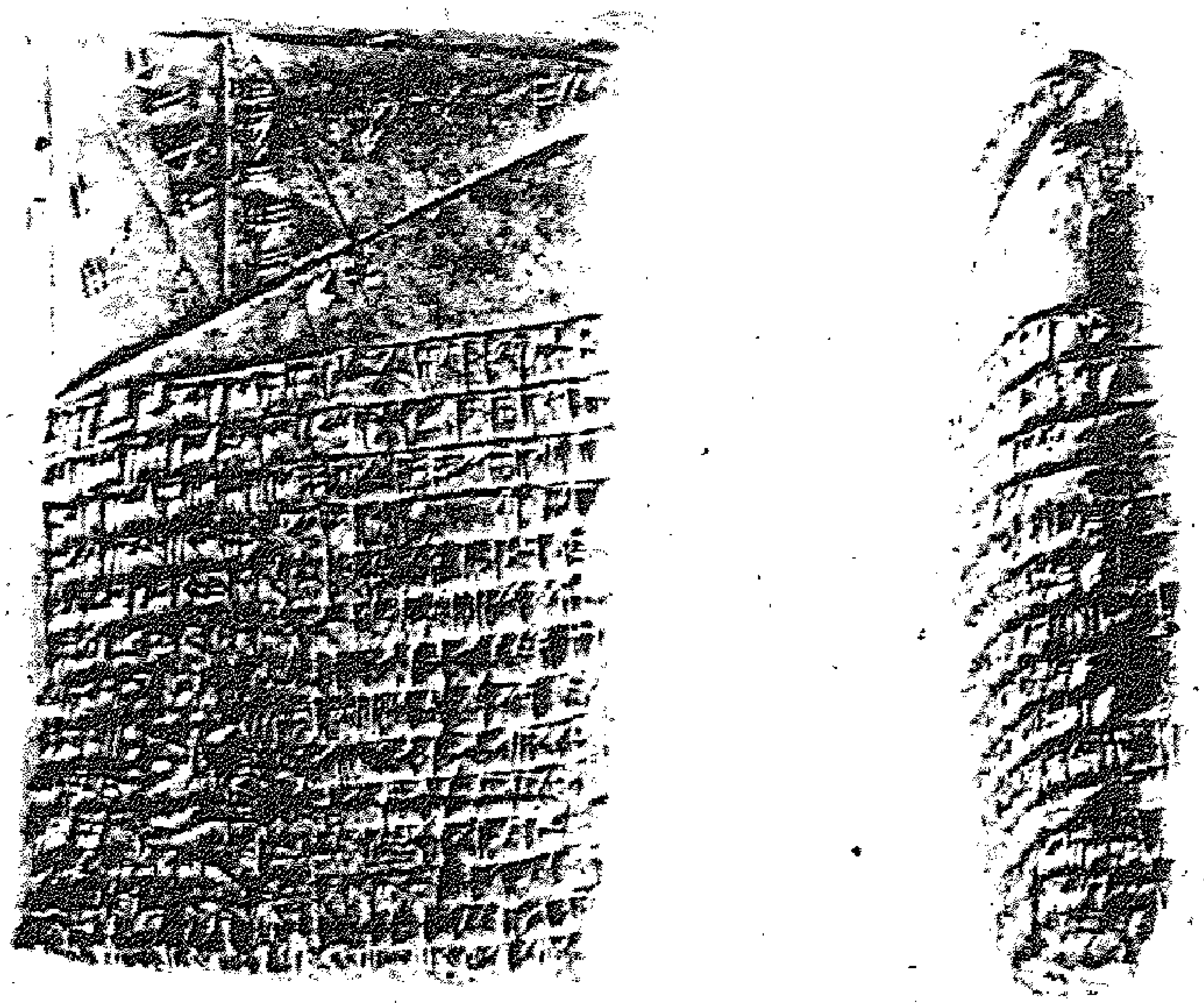
يـوجـد في متحف بغـداد لوحتـان مـرقـومتـان (IM 55 357) و (IM 67 118) يرجع تاريخيهما إلى الفي سنة قبل الميلاد.

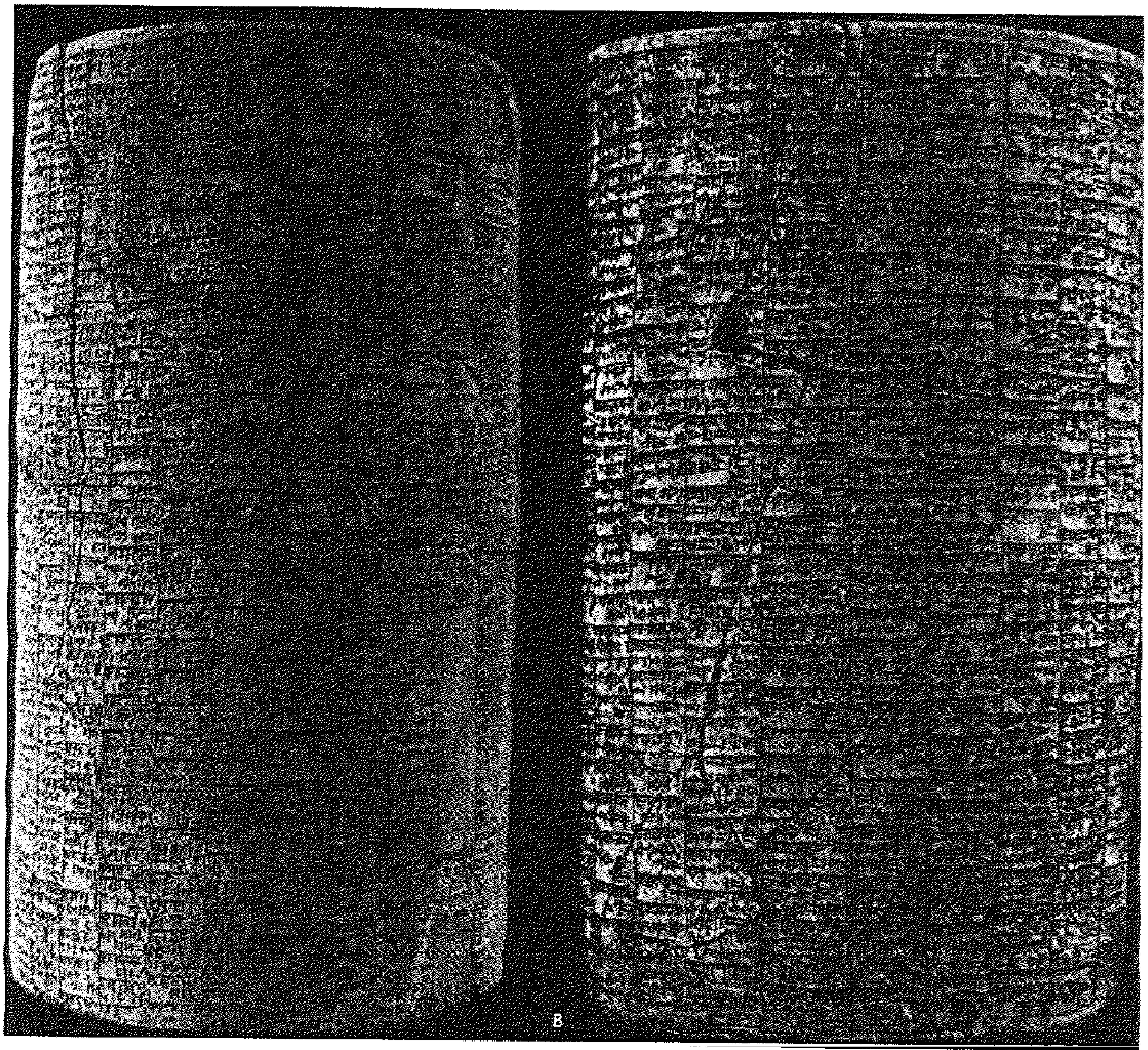
اللوحة الأولى: يسجل عالم الرياضيات انذاك طريقة معالجته لمسالة في الجبر تضم مجهولين، ولقد استعمل العلاقة ما بين مربع القطر ومربع الضلعين الاخرين لمثلث بزاوية قائمة، ولقد رسم الصورة إلى شمالك. هذه النظرية معروفة باسم فيثاغورس.

اما اللوحة الثانية: (لاحظ المثلث في اعلى الصورة إلى شمالك) فهي شرح واف لصفات المثلثات المتشابهة والمثلثات بزوايا عمودية. ولقد لجا إلى البرهان بإنزال عمود من الزاوية القائمة إلى القطر، كما هو مبين في الصورة. وهذه هي هندسة إقليدس. ولقد قام علماء العراق بهذه الحسابات قبل الاغريق بالف وخمسمئة سنة.

المهم ان العلوم عند حضارة ما بين النهرين تطورت إلى حد جعلت اهلها يسخرون العلم في خدمة التقنية فجاء الدولاب فخر الاختراعات.

اللوحة رقم (٢)





□ لقش ــ اسطوانتا جوديا Gudea تعودان للقرن الثاني والعشرين قبل الميلاد. «متحف اللوفر».

مستعملة لأنف الثور.

في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، نرى تغيرا في دابة النقل، إذ يظهر على أختام الأشوريين والبابليين من أيام حمورابي، المشرع الشهير، عربات تجرها دواب لها ذيل هو ذيل الحصان المعروف الآن. ويظهر في الصورة أيضا رجال قابضين على الرسن والمقود المعروفين في عربات الخيل الجديدة. ويظهر أيضا الدولاب ذو الاضلاع في قطر الدائرة.

الدواليب الأولى مصنوعة من ثلاث قطع خشبية، ذلك أن أشجار المنطقة كانت صغيرة، وجذعها الواحد لا يكفي لقطر العجل الذي كان يبلغ مترا واحدا، ولم يكن من المستطاع استعمال الجذع كله لأن جوفه لم يكن صلبا. لذلك كان الجذع يُقطَع على طوله، ويؤخذ منه القسم الخارجي، وبالتالي لم تكن القطعة الواحدة لتصنع طوقا كاملا. أما الدواليب المصنوعة من جذع كامل فلم توجد إلا على الحدود بين العراق والمناطق الشمالية.

ما زالت بعض التفاصيل مجهولة ولا سيما تلك المتعلقة بربط العجلات إلى محاور ملصوقة إلى العربة. لكن الحرب العراقية الايرانية الحالية قطعت الأبحاث، ولا بد من انتظار نهايتها لمعرفة نهاية القصة التاريخية للدولاب العجيب!

الطبيعة والدولاب

تفسير إهمال الطبيعة للدولاب، وغيابه من أعضاء الجسم في مخلوق أو اخر يستند إلى

قواعد الفيزياء وقوانين الحركة والاحتكاك كما يستند إلى حسابات الطاقة المستهلكة، وما على المخلوق أن يدفعه من ثمن للسير على دولاب، وما مدى فعالية هذا النوع من التنقل بالنسبة إلى السير على رجلين. وهكذا نستطيع التقرير عما إذا كان التطور البيولوجي في صالح العجل أو ضده. هل من قيمة بقائية لمخلوق يسير على عجل أم احتمال بقائه أكبر من غير عجل!

أرفقت جدولا يدل على الوحدات الحرارية (كيلوكالوري) التي يستهلكها المخلوق أو الآلة لكل غرام من الوزن ولكل ميل من السير بحسب طبيعته:

الصرصور	٦٥
الفأر	٤٠
النحلة	١٤
الأرنب	٥
الحصان	٠,٦
الرجل الماشي	٠,٧٥
السلمون	٠,٤٠
رجل على دراجة غير نارية	٠,١٥
طيارة	٣
سيارة كاديلاك	٠,٨

يدل الجدول على أن الثمن (الطاقة المستهلكة) يقل بارتفاع وزن المتنقل، والثمن أقل للسابح منه للطائر، وللطائر أقل منه للسائر من المخلوقات الدنيا. والثمن أعلى للآلة المصنوعة منه للمخلوق الكبير. أقل سبل التنقل كلفة من حيث الطاقة هي الدراجة، أو أن تركب حوتا ! ويدل الجدول على انه من الأرخص للفأر أن يسير على دواليب!

لكن الثمن ليس مقياسا سليما في كل الأحوال التي يمر فيها الحيوان، ولا يصح لأنواع البيئة التي تحيط بالمخلوقات.

الأوعية الدموية التي تغذي النسج، والممرات العصبية التي تتخلل الجسم وتنقل الأوامر إلى أعضائه لا تستطيع أن تمر في مفصل دوار وهذا مؤيد بوجود مخلوقات تتنقل بما يشبه المحور والدولاب أو الدفع المروحي، لكن ليس لها أعصاب وهي خالية من الدم. وهذا ما نجده في بعض الجراثيم. إلا أن هذه الحجة لا تثبت بقوة ذلك أن بعض أعضاء المخلوقات الدموية العصبية تخلو من كليهما، مثل الشَّعْر والمخلب وقشر السمك. فلماذا لا يظهر أيضا دولاب من غير دَم أو عصب! وليس من الصعب أن يُجَهَّز الفأر بمثل دراجة التزلق، إنما يستطيع إظهارها وإخفائها كما يفعل القط في مخالبه، أو كالطائرة حين تحط وحين تحلق.

لذلك، اعتراض قائم على العصب والدم لا يثبت ولا بد من أسباب وجيهة خفية حالت دون تطور العجل في المخلوقات.

قام عالم يسأل «لماذا ينبغي للحيوان أن لا يتطور بدولاب» أي إن الجواب هو في التفتيش عما إذا كان بقاء الحيوان أصلح بلا عجل فيه، أو عما إذا كان العجل ذا قيمة بقائية لمن أو لما حظي به. يبدو أن الحسابات المفصلة تدل على أن التطور لم يكن في جانب الدولاب، وكان من الأفضل للحياة أن تستغني عن عضو دوَّار!

الدولاب غير مفيد في أرض متقلبة بين وعر ورمل ووحل. ولو ظهر مخلوق بدولاب لكان سيقضي عليه. والدولاب خطر في بيئة ترتفع وتنخفض والدولاب لا ينفع صاحبه حين يسير على أرض مخضرة، مع ما يرافق السير من دوران وانثناء. ولو وُجِد فأر بدراجة تزلق لاضطر أن يخفيها ليستطيع التحرك. واسأل نفسك أتحب السير على قدميك أو على عجلات التزلق!

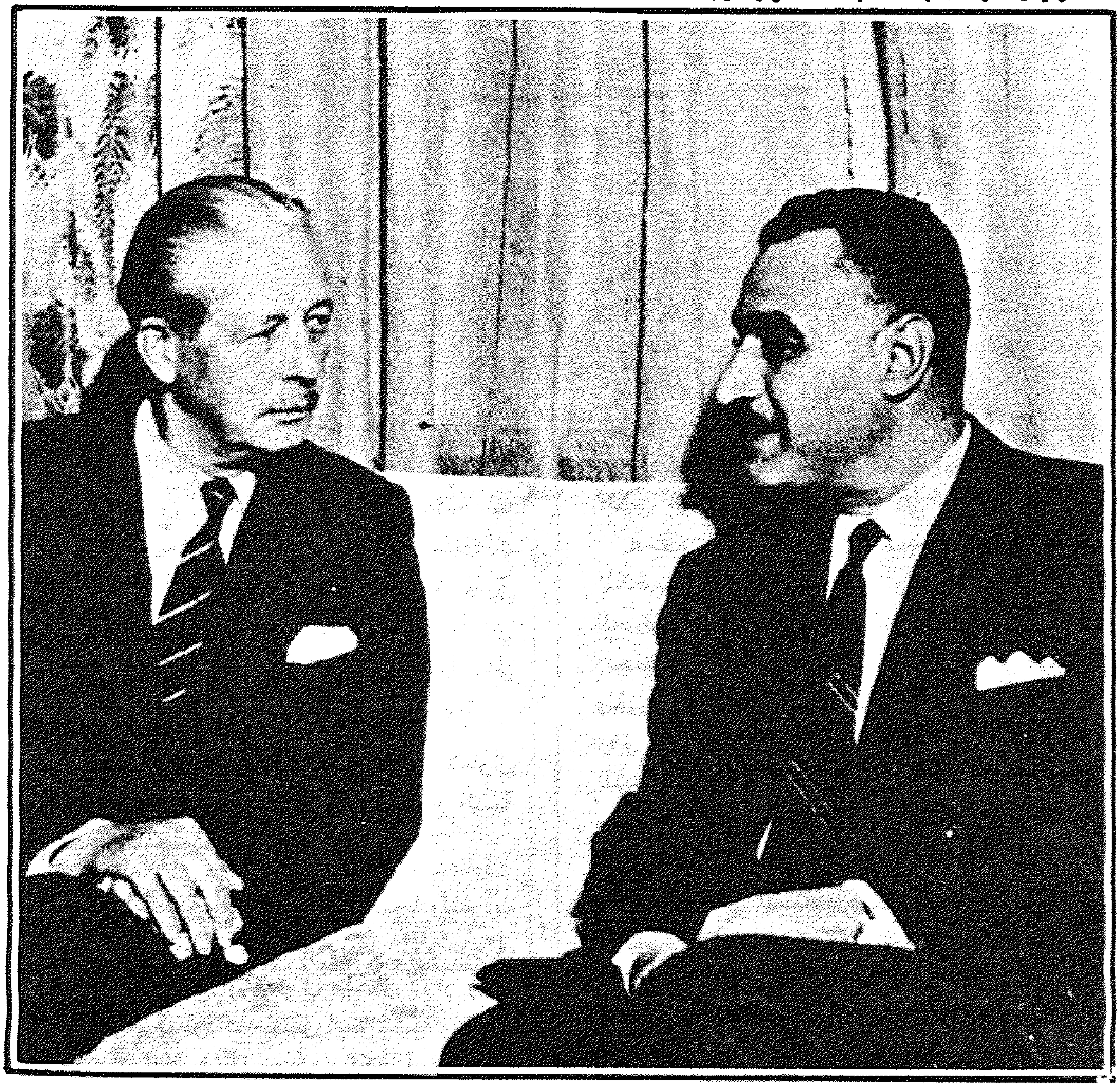
هذه الاعتبارات تفسر ابتعاد بعض الحضارات عن الدولاب واكتفت به كلعبة للصغار، ولجأت إلى اللاما كما في أميركا الجنوبية، أو الجمل كما في الصحراء العربية. ولقد نجح الجمل كحامل للأثقال من ١٥٠٠ سنة، وهو في تلك الأزمان أفضل من عربة تجرها الثيران على الرمال، وبقي الدولاب للطحن والري وصنع القدور، واستغنوا عن كلفة تمهيد الطرق الضرورية للدولاب!!

صحيح أن البيئة فرضت غياب الدولاب، لكن الحضارة التي ترفض أن تخضع للبيئة، فتغيرها لتلائم ما تريده الحضارة، هي التي ستتقدم وتنمو وتتطور؛ فتكسب فخر الاختراع وذكر الأجيال! ●

انطوني إيدن: لقد أظلم الجوّ في وجهنا عندما أمم ناصر قناة السّويس!

أنطوني إيدن[٧]

□ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وهارولد ماكميلان.



تعرض هذه الوثيقة التاريخية المأخوذة من مذكرات ايدن، للموقف البريطاني الرسمي من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهي نظراً لصدورها عن المسؤول البريطاني الأول في شن الحرب الثلاثية على مصر عام ١٩٥٦، تشير بوضوح إلى مقدمات هذه الحرب وعواملها الكامنة في انفجار التناقض بين الاصرار البريطاني على استمرار نفوذ بريطانيا الاستعماري في مصر عبر نظام فاروق وسيطرتها على القنال ونهبها لثروات الشعب المصري ــ من جهة وبين إصرار جمال عبد الناصر قائد الثورة، على تصفية ركائز الاستعمار وتحرير الشعب من قيود التبعية للاستعمار الانكليزي آنذاك. تلك هي صورة الوضع آنذاك تنقلها شهادة ينطق بها المستعمرون انفسهم.

لم يدرك كثيرون اخطر نقطة ضعيفة في هذا الاتفاق. لقد كانت مصر تعد نفسها انها لا تزال في حالة حرب مع اسرائيل. ولم ينص في الاتفاق على شيء يحد من مطامع مصر في المستقبل، ولم يكن ثمة ما يستوجب التمسك بالنص على الحد من تلك المطامع، بل كان المأمول بفضل التعاون بين بريطانيا واميركا، ان يؤدي هذا الاتفاق الى تحسين العلاقات بين اسرائيل والدول العربية.

ايدن يقول في مذكراته:

الجو أظلم في وجه بريطانيا بعد تأميم قناة السويس.

يروي ايدن في الفصل السابع من مذكراته الظروف التي أصبح فيها رئيسا للوزارة البريطانية عقب استقالة تشرشل في أبريل سنة ١٩٥٥، كما يروي الأزمات التي صادفته عقب توليه الوزارة مباشرة، ولم يفته ان يخص دلاس بـابـه فيـه فـسـرد بعض الصعوبات التي واجهته عند التعامل معه في المجال الدولي.

قال ايدن أن تشرشل اعتزل رياسة الوزارة يوم ٥ أبريل سنة ١٩٥٥ وانه ــ أي ايدن ــ توجه في اليوم التالي إلى قصر بكنجهام ليقبل يد الملكة شكرا بمناسبة توليه هذا المنصب.

وقال انه لم يكن يطمع في رياسة الوزارة، وان كل تفكيره واهتمامه كان مركزا في وزارة الخارجية أو وزارة المستعمرات، لانهما الوزارتان المعنيتان بشؤون الكومنولث والامبراطورية. ومع أنه سبق أن فاز بتأييد الأغلبية في الاستفتاء الذي جرى في سنة ١٩٣٨ لمعرفة رأي الشعب فيمن يمكن أن يتولى رياسة الوزارة، فانه في الواقع لم يكن يفكر جديا في تولي هذا المنصب.

ويقول ايدن وأول مرة فكرت فيها جديا فيه كانت في ديسمبر سنة ١٩٤٠. فقد توفي وقتئذ لورد لوتيان سفير بريطانيا في واشنطن، وأدى ذلك الى تعديلات وزارية وحدث أن أبلغني وقتئذ تشرشل أنه يجب أن أعد نفسي لأخلفه في رياسة الوزارة إذا حدث ما يمنعه من الاستمرار في هذا المنصب.

وكنت أشغل في ذلك الوقت منصب وزير الدولة لشؤون الحرب، وكان تشرشل يتولى بنفسه شؤون وزارة الدفاع علاوة على رياسة الوزارة. ولم تكن لوزارة الخارجية أهمية تذكر وقتئذ، إذ كانت معاملاتها مقصورة على بعض الحكومات «المنفية»، ولم يكن ثمة أي مجال لأي نشاط دبلوماسي على نطاق واسع.

وكان لورد هاليفاكس يشغل منصب وزير الخارجية. وحدث أن زارني في وزارة الحربية ليبحث معي مسألة من يمكن تعيينه سفيرا لبريطانيا في واشنطن. وكان من رأيه أنه لابد من اختيار أحد شخصين لهذا المنصب: اما هو واما انا. ولم أكن أود الابتعاد عن لندن باعتبارها مركز السياسة والأحداث في ذلك الوقت، فأوضحت له موقفي. وقبل هو أن يتولى ذلك المنصب. وعلمت فيما بعد أن تشرشل لم يكن يود أن أتولاه.

ثم انتقلت إلى وزارة الخارجية. وفي يونيه سنة ١٩٤٢ كتب تشرشل رسميا إلى القصر الملكي طالبا اخذ قرار من القصر بأن أكون خليفته في رياسة الوزارة. ولعل هذه الخطوة كانت السبب في أني لم أبتهج كثيراً عندما توليت الرياسة، إذ كنت على علم بذلك قبل حدوثه بزمن طويل.

وبعد أن توليت رياسة الوزارة، فكرت في حل البرلمان وإجراء انتخابات عامة جديدة لأني كنت أريد أن أواجه الأحداث الدولية وأنا متمتع بتأييد شعبي، مع أن حزب المحافظين كانت له الأغلبية في البرلمان.

ولكني ترددت في طلب حل البرلمان لعلمي أن الشعب لا يميل إلى إجراء انتخابات عامة بلا مبرر جدي، ولأني شخصياً كنت أطمع في أن أشترك في أول مؤتمر تقرر عقده من أقطاب روسيا وأميركا وفرنسا وبريطانيا.

ومع ذلك قررت في النهاية أن أطلب إلى الملكة أن توافق على حل البرلمان واستقر الرأي على إجراء الانتخابات في يوم ٢٦ مايو.

وقبل جل البرلمان. كنت قد قررت ألا أجري اي تعديل في الوزارة، وان ابقي كل وزير في وزارتـه، لأني كنت أريد أن تسير الأمور في الحكومة في يسر وسهولة، ولكن كان منصب وزير الخارجية قد خلا بعد أن أصبحت رئيسا للوزارة، وكان لابد من شغل هذا المنصب فورا، وكان الشخص الذي يجب أن يشغله هو لورد سالزبري إذ أنه سبق أن تولاه بالنيابة في سنة ١٩٥٣ أثناء مرضي، وقد تولاه بكفاءة وجدارة.

إلا أني قررت عدم اختياره لمنصب وزير الخارجية لعدة اعتبارات منها أنه يحسن ألا يتولى شؤون هذه الوزارة عضو في مجلس اللوردات، لأنه مضطر في كثير من المناسبات أن يتكلم في مجلس العموم، ومجلس العموم يختلف عن مجلس اللوردات في كيفية مناقشة المشاكل الدولية، فمجلس اللوردات متحفظ عادة ومقدر لمسؤوليته عن الآراء التي تعلن فيه.

وكنت أخشى أن أجد نفسي مضطرا إلى مواجهة مجلس العموم بنفسي للرد على أسئلة الأعضاء ولتقديم البيانات الرسمية لهم، وهو عمل كان سيرهقني إلى جانب عملي كرئيس للوزارة.

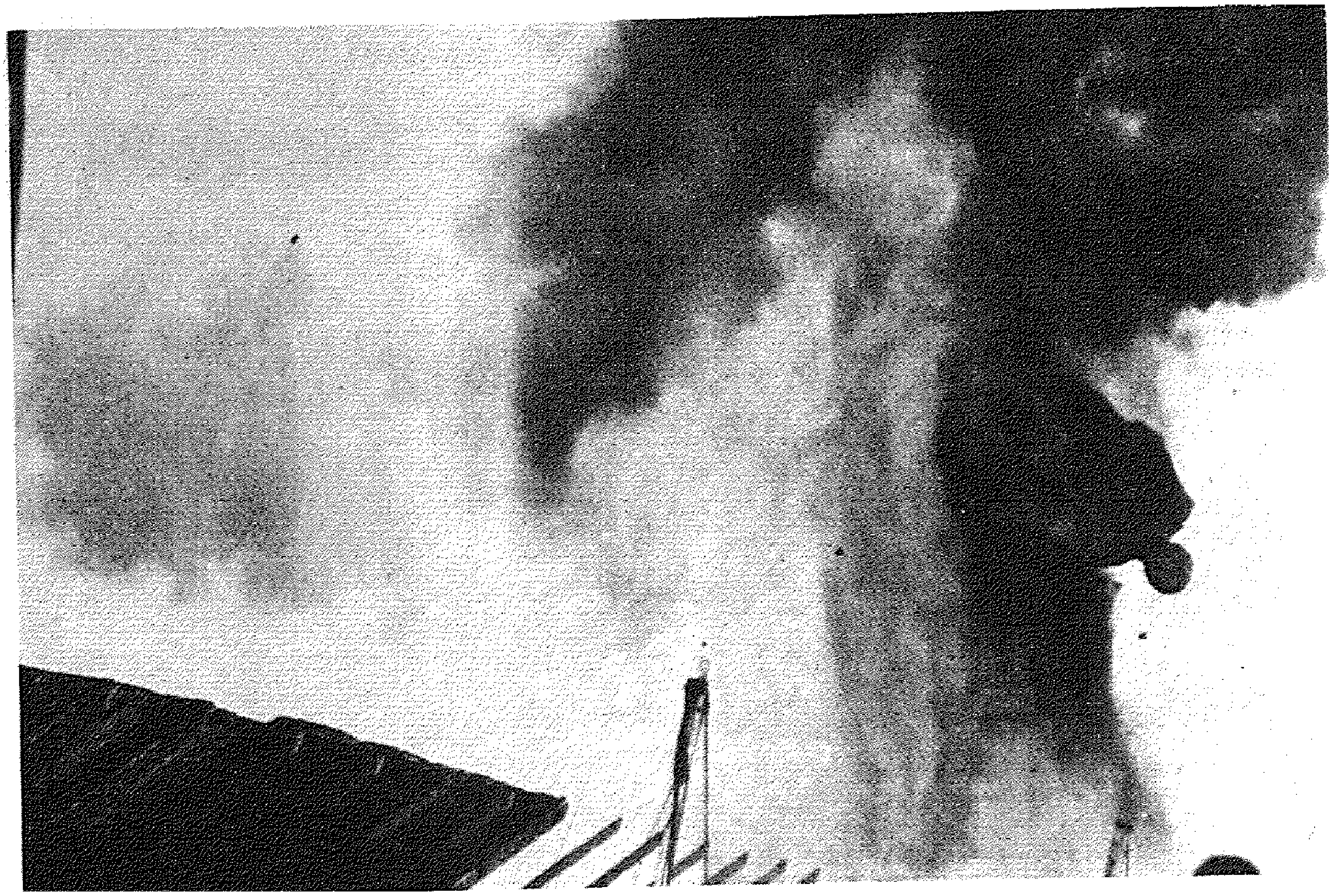
لهذا كله فضلت أن أختار لمنصب وزير الخارجية شخصا ينتمي إلى مجلس العموم ويمكنه التفاهم مع أعضاء المجلس والرد عليهم واحتمالهم. ووقع اختياري على هارولد مكميلان وكان يشغل من قبل منصب وزير الاسكان ثم وزير الدفاع.

وأسفرت نتيجة الانتخابات عن فوز جديد لحزب المحافظين إذ أصبح عدد أنصاره ٢٤٥ عضوا أي أن الأغلبية التي أصبح يتمتع بها صارت ٦٠ صوتا بعد أن كانت ١٧ صوتا فقط في المجلس السابق.

وكانت الانتخابات قد جرت وعمال الموانىء مضربون عن العمل. وبعد أن ظهرت نتيجة الانتخابات، أضرب عمال السكك الحديدية. وكان سبب الاضراب خلافات بين العمال وأصحاب الشركات، ورأيت أن من الحكمة ألا تشتبك الحكومة مع نقابات العمال، وأوعزت بطريقة غير رسمية إلى ضرورة عدم قيام العمال بأي إضراب إلا بعد أن تقترع النقابات على ذلك، بشرط أن يكون الاقتراع سريا، حتى يمكن لكل عامل أن يبدي رأيه بحرية وهو مطمئن، وبشرط ألا يبدأ الاضراب إلا بعد انقضاء ٢١ يوماً من اليوم الذي يتخذ فيه القرار بوجوب الاضراب، على أن تبذل خلال هذه المدة جهود للتوفيق وللتحكيم بين العمال وأصحاب الشركات، أسوة بما هو متبع في اميركا.

وقد أثرت هذه الاضرابات على الحالة الاقتصادية في البلاد، ولاسيما على ميزان المدفوعات، فقرر وزير المالية الحد من المصروفات ولكن رفع المرتبات والأجور قبل ذلك كان له تأثير على رفع الأسعار ومع ذلك أمر وزير المالية البنوك بأن تحد من القروض التي تعطيها إلى عملائها.

وكان إضراب عمال الموانىء في الفترة من مايو إلى يوليه قد عطل تجارة الصادر وأضعف الانتاج الصناعي في البلاد بدرجة خطيرة. يضاف إلى هذا أن احتياطي الذهب والدولار في بريطانيا بدأ ينقص بما يزيد على ١٠٠ مليون دولار شهريا. وهكذا كان علي أن أتولى الرياسة والبلاد تحاول جاهدة أن تفعل الكثير بأقل إمكانيات محدودة.



□ الجماهير تحطم وتشعل النار في تمثال فرديناند ديليسيبس بعد تاميم قناة السويس.

وقد اهتممت رغم كل شيء بمستقبل الصناعة في بريطانيا وبامكانيات توفير الوقود المولد للطاقة حتى يمكنها أن تستمر وأن تزدهر، وكنت أود لو أمكن الاعتماد على الطاقة الذرية لتحقيق هذا الغرض، ولكن تبين أن توليد الطاقة الذرية ما زال غالي التكاليف ومع ذلك فقد أصررت على ضرورة الاستمرار في الجهود المبذولة في سبيل تمكين البلاد من الاعتماد على تلك الطاقة يوماً ما.

وفي ديسمبر سنة ١٩٥٥ اجريت تعديلا وزاريا فنقلت مكميلان من وزارة الخارجية إلى وزارة الخزانة واخترت سلوين لويد لتولي وزارة الخارجية ووالتر مونكتون لتولي وزارة الدفاع.

وكانت المشكلة الاقتصادية أهم مشكلة داخلية تواجه الحكومة وكان لابد من اتخاذ بعض الاجراءات للحد من الاستيراد من الخارج حتى لا يتبخر ما لدى البلاد من احتياطي من الذهب والدولار. وكذا لجعل الجمهور لا يقبل على شراء السلع الأجنبية. وكان من رأي خبراء الحكومة أنه يجب عدم فرض ضرائب جديدة على شراء السلع الأجنبية، وانما يجب العمل على تحسين السلع المحلية بحيث يشتد الاقبال عليها عن طيب خاطر وارتياح، وحتى يمكن لهذه السلع أن تجد لنفسها أسواقا خارجية، فبذلك يمكن لبريطانيا أن تحصل على العملات الصعبة اللازمة لها لتعديل ميزان مدفوعاتها، وإلا فان النتيجة ستكون سيئة بالنسبة للمصانع البريطانية وللعمال الذين يعملون بها.

وقد استقر الرأي على عدم فرض أية قيود علنية حتى لا تثير غضب الرأي العام، على أن نوعز من حين إلى حين إلى البنوك بأن البلاد ليست في حاجة الى استيراد أنواع معينة من السلع الأجنبية، فتتصرف البنوك مع عملائها على ضوء هذا الايعاز، فيقل الاستيراد من الخارج، وبالتالي لا يتبخر ما لدى البلاد من عملات صعبة.

وفي الوقت ذاته عملت الحكومة على خفض نفقاتها بمقدار ٧٥ مليون جنيه، وهكذا بدأ الجو «الاقتصادي» يتحسن بعد أن انقضى علي في رياسة الوزارة ١٥ شهراً.



□ العلم المصري يرفرف فوق خط بارليف عام ١٩٧٣.

ولكن الموقف الدولي لم يخل من اضطرابات، أهمها الأزمة التي أثارها ناصر عندما أعلن يوم ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ تأميم قناة السويس. ان هذا الحدث جعلنا كدولة من الدول الملاحية نواجه أزمة خطيرة، فقد أظلم الجو في وجهنا من الناحية الاقتصادية والسياسية والتجارية، وكذا من الناحية الدبلوماسية.

وبعد ان وصل ايدن في مذكراته إلى مسالة تأميم شركة قناة السويس، قطع سرد ذكرياته، وراح يتحدث عن بعض الساسة الانجليز والأجانب ممن عمل معهم وقت ان كان وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزارة. فتكلم عن رايه في ارنست بيفان وآتلي وجيتسكيل ومنزيس ودين اتشيسون وستالين ودالاس ومولوتوف:

وقال ايدن عن دالاس

كنت قد اتصلت بدالاس وقت عقد معاهدة الصلح مع اليابان، ولكن اشتراكي معه في مؤتمر برلين الذي عقد في يناير سنة ١٩٥٤ كان أول فرصة حقيقية للاتصال به كزميل، بيد أن تجاربي معه بعد ذلك لم تكن تجارب سعيدة الحظ، مع اني سبق أن تعاملت مع ٤ من وزراء خارجية أميركا قبله، وكانت علاقتي بهم ودية، رغم أننا كنا نختلف أحيانا في الآراء، فقد كان من النادر حدوث سوء تفاهم بيني وبينهم.

وأما الحالة مع مستر دالاس فقد كانت مختلفة، إذ كان من الصعب علي أن أتبين — على وجه التحديد — ما يعني بأقواله وتصريحاته، وبالتالي كان من الصعب استنتاج أي شيء يمكن أن نبني عليه سياستنا، وهذا بالطبع كان أمراً سيئاً بالنسبة لبريطانيا في علاقاتها مع أميركا.

إن دالاس درس الشؤون الدولية دراسة طويلة ولكن تجاربه العملية في المجال الدولي كانت قليلة.

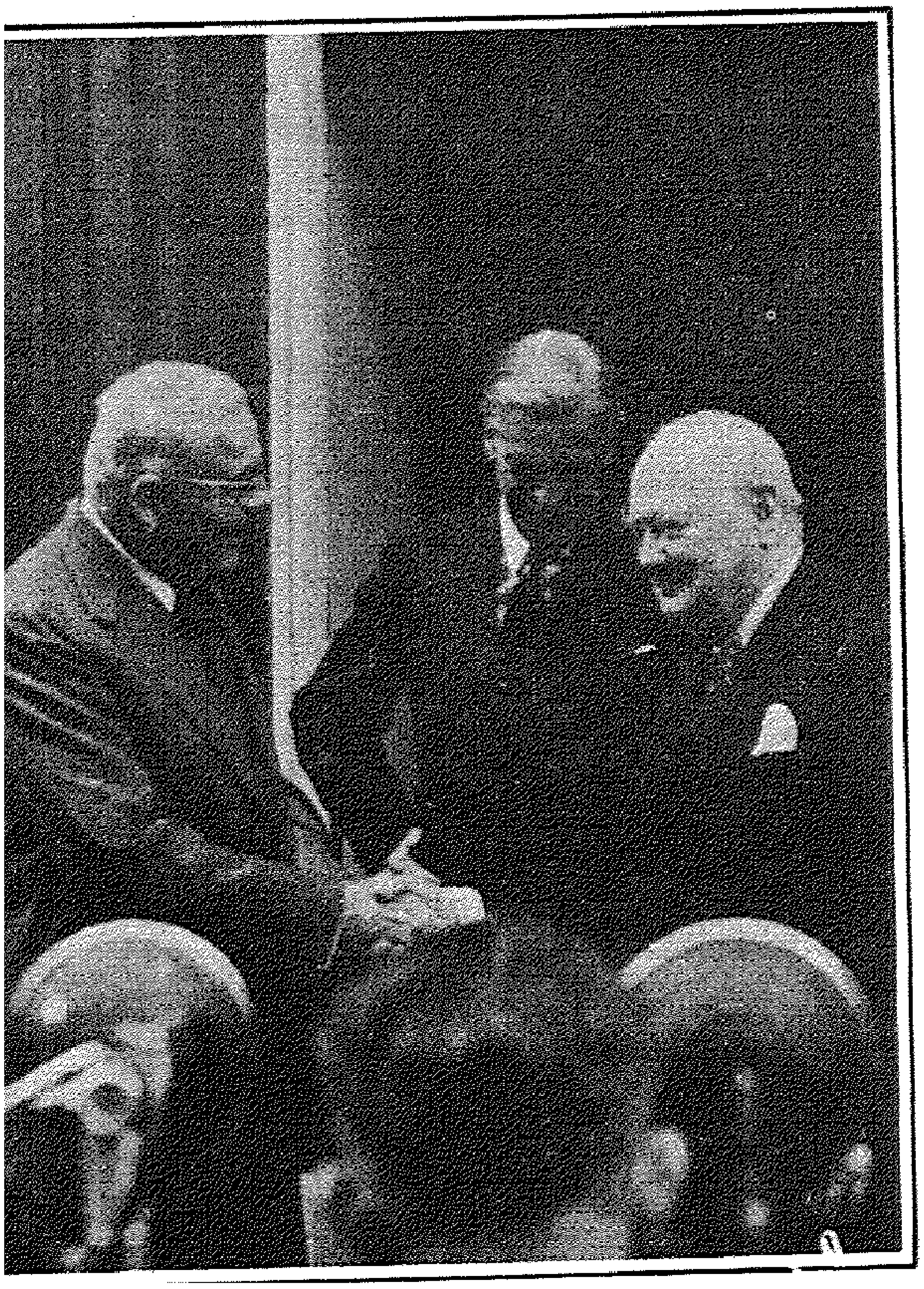
وقد حدث أن قررت أن اتخذ اجراءات معينة اعتقادا مني أنها ستجعل سياستنا متمشية مع سياسة الحكومة الأميركية، وكان ذلك بناء على تصريحات كان دالاس قد أدلى بها أثناء أزمة السويس، فقد حدث أن صرح بفكرة إنشاء هيئة

من الدول الملاحية التي تستخدم قناة السويس، وسميت هذه الفكرة وقتئذ «هيئة المنتفعين»، ولكن تبين فيما بعد أنه لم يكن يقصد بتلك الفكرة ما فهم منها في بادىء الأمر وقبل ذلك حدث أثناء قيامي بجولة في عواصم أوروبا الغربية في سبتمبر سنة ١٩٥٤، أن تدخل دالاس فجأة وبلا تمهيد وزار بون وأجرى مباحثات على حدة مع اديناور.

ولست أدري سبب وقوف أميركا في عهد دالاس موقف الفتور من حلف بغداد حتى في أحرج الأوقات مع أن المفهوم أن فكرة إنشاء «حزام شمالي» بالشرق الأوسط، يكون حلف بغداد النواة الأولى لتكوينه وانشائه، من وحي أميركا.

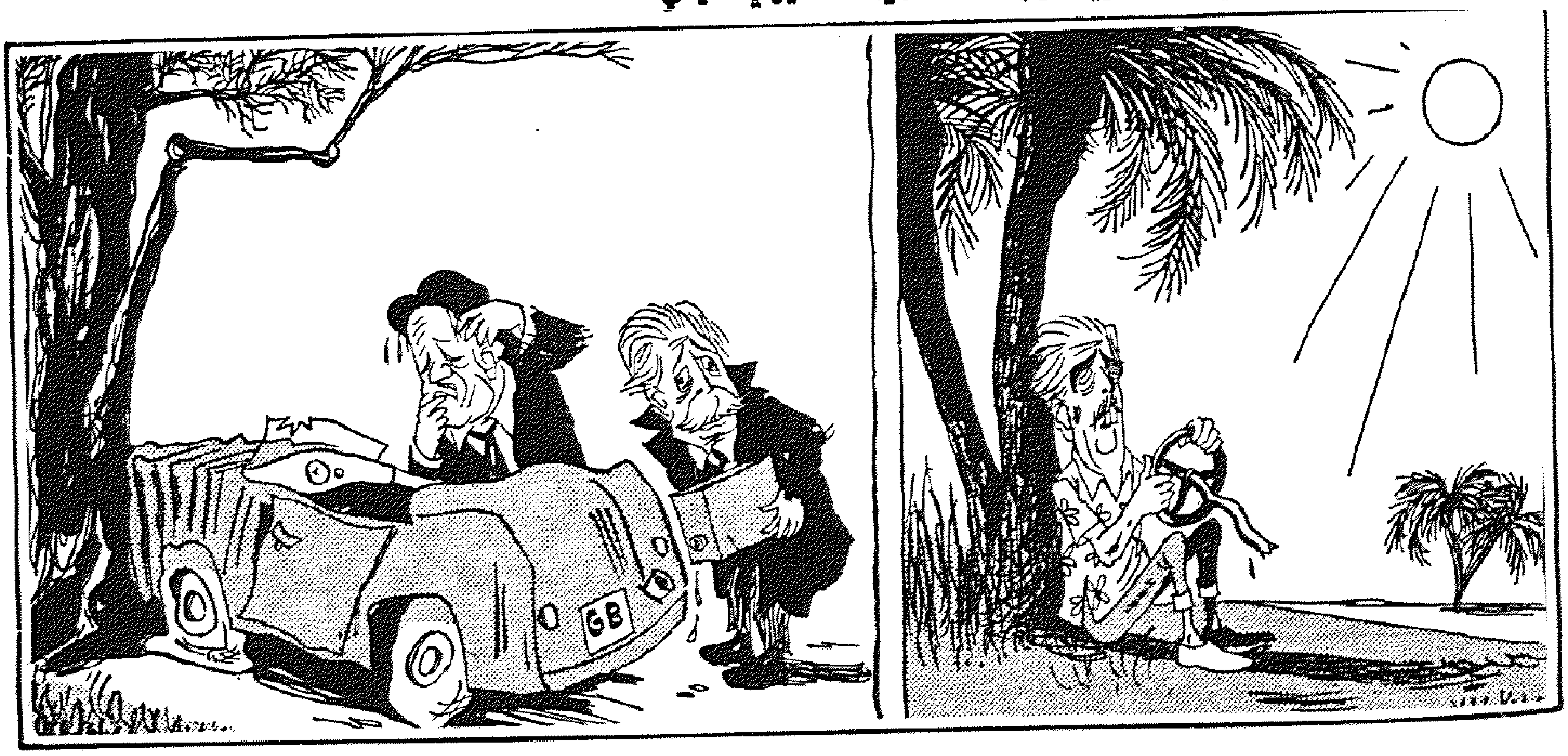
والظاهر أن دالاس رغم اهتمامه بالسياسة الدولية لم يكن يكترث بنتيجة تصريحاته وافعاله. وقد كانت له مواقف متناقضة فقد حدث أن هاجم الاستعمار بشدة. كما حدث أن آثر الوقوف على الحياد في بعض المنازعات الحرجة.

ان تصرفات دالاس كانت تعني أنه يجب على حلفاء أميركا أن يخضعوا لرأيها، ولكن من الواضح أنه لا يمكن لأي حلف أن يصبح قويا بهذه الطريقة. ●



□ تشرشل وايدن (في الوسط) مع جون فوستر دالاس.

□ نهاية مغامرة السويس، للكاريكاتورست الشهير الانكليزي «فيكي».



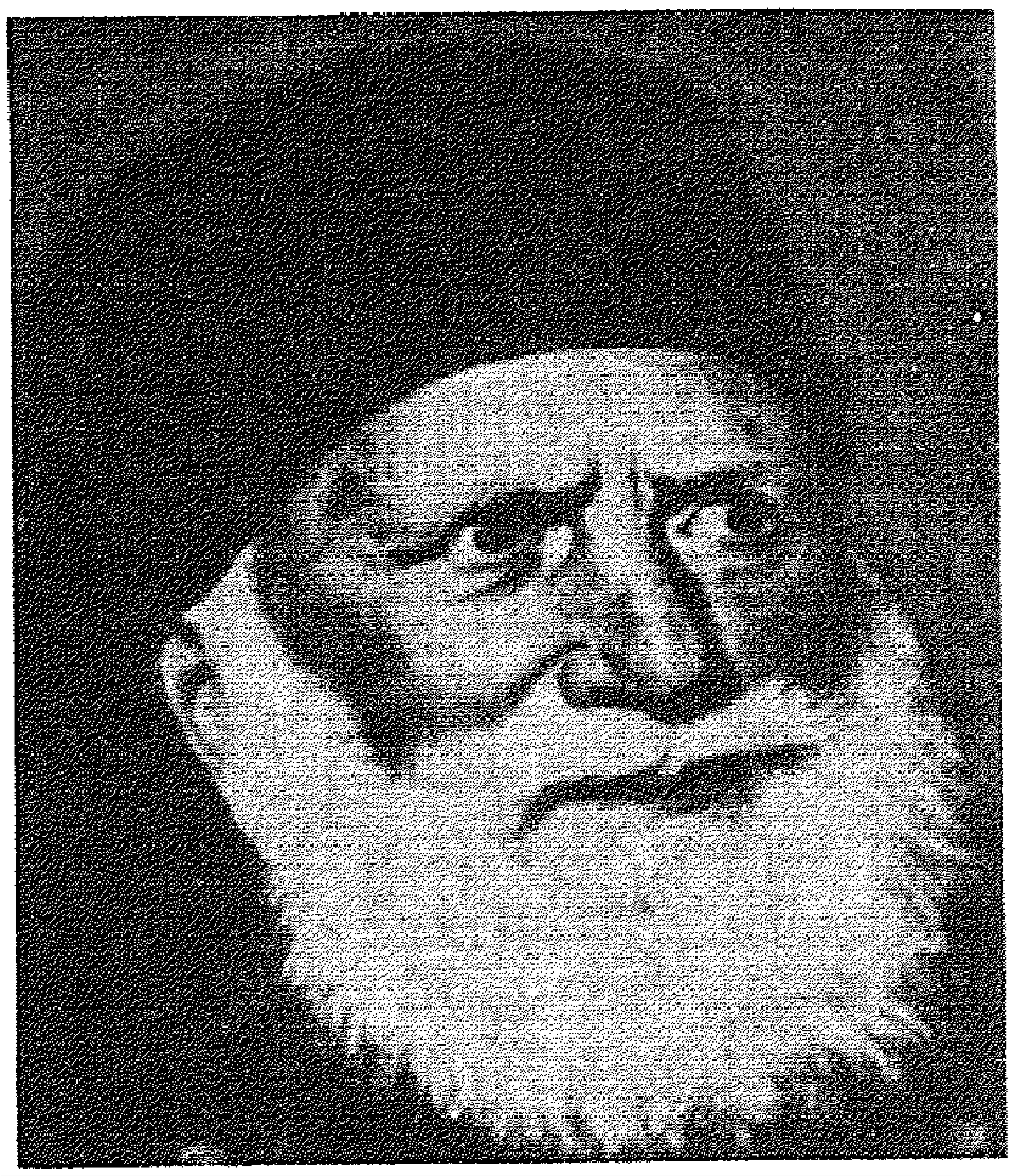
موقف ألمانيا من مشروعي تدويل القدس وإعادة توطين اليهود في فلسطين (١٨٤٠ - ١٨٨٦)

د. عبد الرؤوف سنّو

تعتبر الأزمة الشرقية (١٨٣١ ــ ١٨٤٠) وانقاذ الدولة العثمانية عن طريق التدخل المباشر للدول الاوروبية نقطة تحول هامة في سياسة التغلغل الامبريالي الاوروبي في الدولة العثمانية. فمعاهدة بلطاليمان التجارية (١٨٣٨) بين بريطانيا والدولة العثمانية وما تبعها من معاهدات مماثلة بين بقية الدول الأوروبية والدولة العثمانية، وكذلك اقامة القنصليات الاوروبية في القدس لممارسة سياسة التدخل المباشر في شئون الدولة العثمانية وفلسطين خاصة، والضغط على الباب العالي لاصدار المراسيم لصالح رعاياه المسيحيين والمستوطنين الاجانب، كانت آثارها السياسية والاقتصادية وخيمة على الدولة العثمانية. ان ما يهمنا في هذه الدراسة ليس تتبع هذه التطورات، إنما آثارها التي انعكست على منطقة سوريا وفلسطين فيما يتعلق بالسياسية الالمانية في هذه المنطقة.

ولقد سبق وصاحب التغلغل الاوروبي في المنطقة السورية وفود الارساليات التبشيرية الاوروبية والأمريكية مستفيدة من سياسة التسامح الديني التي اتبعها محمد علي في سوريا وفلسطين، وكذلك من سياسة «غض النظر» للدولة العثمانية عن نشاطات الارساليات التبشيرية كثمن لارجاع سيطرتها على المنطقة من قبل اوروبا. ففي ١٨٣٣ استقر المبشرون الانكليز في فلسطين مركزين عملهم بين اليهود، فيما هبط الامريكيون بيروت في العام التالي حاصرين نشاطهم بين اتباع الكنائس الشرقية. وكانت أهم الجمعيات الانجلو سكسونية التي استقرت في منطقة سوريا وفلسطين هي «المجلس الامريكي لمدراء الارسالية الخارجية «ومركزها بوسطن. (American Board of Commissioners for Foreign

□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ــ جامعة برلين الحرة. دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية ــ جامعة كاسل.



□ محمد علي باشا.

(Mission) و «جمعية التبشير الكنائسية» المعروفة بـ (C.M.S.) و «جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود» الشهيرة بـ «جمعية يهود لندن» (L.J.S.). أما بروسيا البروتستانتية فلم تبدأ أي نشاط تبشيري ثقافي في سوريا وفلسطين قبل الاربعينات من القرن الماضي. وحوالي نفس الوقت عاد الجزويت الى منطقة سوريا وفلسطين للدفاع عن المواقع الكاثوليكية العريقة أمام «التغلغل البروتستانتي». اما روسيا الارثوذكسية فلم يكن لها أي نشاط فعال قبل الثمانينات من القرن التاسع عشر.

ومنذ البداية ارتبطت الأهداف التبشيرية للارساليات مع المصالح القومية والسياسية لدولهم في المنطقة[1] وهكذا أصبحت المنطقة وبشكل خاص فلسطين وسوريا معرضة للمنافسات والخلافات الدينية السياسية التي تورطت فيها الدول الأوروبية مباشرة أو غير مباشرة، عن قصد أو بدون قصد. فتعين الفاتيكان لفاليرغا في ١٨٤٨ بطريركا لاتينيا على القدس بعد انقطاع طويل رغم معارضة فرنسية شديدة، واحداث السلط ونابلس الطائفية في أوائل الخمسينات من القرن الماضي كانت كلها انعكاسا للصراعات الدينية السياسية. وكان تتويج ذلك حرب القرم (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) التي اندلعت بسبب حماية المسيحيين في الدولة العثمانية وخاصة الأماكن المقدسة في فلسطين.

«المانيا» والمسألة الشرقية

حتى حدوث الأزمة المصرية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر كانت بروسيا المملكة الالمانية الكبرى لا تعيرُ المسألة الشرقية اهتماما كبيرا. فقد كانت اهتماماتها منحصرة في سعيها للحصول على مكانة مناسبة لها في «التجانس الأوروبي». والواقع ان المحاولات التي جرت منذ القرن ١٨ وأوائل القرن الماضي بين بروسيا والدويلات الالمانية من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى لعقد اتفاقات تجارية ومعاهدات صداقة لم تؤد إلى نتائج عملية على الصعيد التجاري أو السياسي، وذلك لأسباب أهمها: تخلف الصناعة الالمانية نسبيا عن غيرها من الصناعات الأوروبية، تمزق السوق الداخلي الالماني، التمزق السياسي والتجزئة الاقليمية، الحصار القاري عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن الماضي، عدم تقدير الباب العالي لدور بروسيا الاوروبي، وأخيرا افتقار الدويلات الالمانية إلى بحرية قوية تحمي أسطولها التجاري في منطقة البحر المتوسط من هجمات دويلات شمالي افريقيا. وقد عطلت هذه العوامل كل امكانية لقيام علاقات المانية عثمانية متينة، وكذلك مع الساحل الشرقي للبحر المتوسط حيث توجد سوريا وفلسطين الخاضعتان للاستعمار العثماني[2].

ودفعت الأسباب الاقتصادية وهي إقفال البحر الأسود للملاحة التجارية بسبب الحرب الروسية ــ العثمانية (١٨٢٦ ــ ١٨٢٩) بروسيا إلى التدخل لأول مرة بالمسألة الشرقية عن طريق إيفاد الجنرال فريدريش كارل فرديناند موفلنغ (Friedrich Karl Ferdinand Mueffling) للتوسط بين الدولتين في مفاوضات السلام في ادرنة ١٨٢٩. وبموافقة فريدريش فلهلم الثالث، ملك بروسيا، وصل إلى استانبول (١٨٣٥) الضابط البروسي هلمت فون مولتكة في زيارة تستغرق ستة شهور. ولكن هذه الزيارة تحولت إلى إقامة اربع سنوات قضاها في تدريب الجيش العثماني. وفي (١٨٣٧) وصل ضباط



□ فريدريش فلهلم الرابع

آخرون للعمل في الجيش العثماني كمستشارين عسكريين. ورغم ان البعثة العسكرية البروسية لم تلعب دورا كبيرا في تقوية العلاقات بين الدولتين، إلا أنها لقيت أستحسانا من قبل الدوائر العثمانية.

وبارتقاء فريدريش فلهلم الرابع (Friedrich Wilhelm IV.) عرش بروسيا ١٨٤٠ كانت الدول الأوروبية مجتمعة في لندن لبحث أفضل الوسائل لتحجيم مصر. وهنا أخذت بروسيا تشارك للمرة الأولى بفعالية في المسألة الشرقية. وكانت الفرصة مواتية لها حيث أن فرنسا المؤيدة لمحمد علي كانت في هذه المرحلة خارج قاعات المؤتمر. وقد انتقد محمد علي بشدة سماح الدول الكبرى لبروسيا «الضئيلة الشأن» سياسيا واقتصاديا بالاشتراك في قرارات المؤتمر. إلا أن محمد علي لم يدرك أن اشتراك بروسيا في مؤتمر لندن كان بهدف الحفاظ على تجانس وحدة الموقف الأوروبي، ومبدأ توازن القوى الأوروبي بشكل عام وللسياسة النمساوية بشكل خاص. وهكذا تورطت بروسيا في المسألة الشرقية ولم تعد باستطاعتها التراجع.

مشروع بروسي فاشل لتدويل القدس وحماية عسكرية أوروبية على الأماكن المقدسة في فلسطين

كما ذكرنا، فقد بدأت الارساليات التبشيرية الأجنبية تكثف نشاطاتها في منطقة سوريا وفلسطين منذ الأزمة المصرية. وقد استمر وفود الارساليات إلى المنطقة دون توقف حتى الحرب العالمية الأولى. وفي هذا الاطار من العلاقات نمت الاهتمامات البروسية الكنيسة السياسية والثقافية. فالأولى مورست من قبل الدولة والثانية حملت على أكتاف المبشرين. وفي كلا الحالتين قصد فيها تقوية النفوذ الالماني في المنطقة. وسوف نكتفي هنا بدراسة السياسة الكنيسة البروسية الرسمية في فلسطين.

قبيل نهاية حكمه في (١٨٣٩) رفض ملك بروسيا فريدريش فلهلم الثالث دعوة مستشاره أرنست أوغست كازيمير درشاو (Ernst August Kasimir Derschau) للتدخل في فلسطين لأجل حماية المسيحيين. فالمسألة كانت برأي الملك على درجة كبيرة من الخطورة بالنسبة للعالم المسيحي بحيث انها تستدعي عناية خاصة، وان بروسيا ليست في وضع سياسي ودولي لتنفيذ مثل هذه الخطوة منفردة[٣].

وبتسلم فريدريش فلهلم الرابع العرش كانت الأزمة المصرية وقرب انهيار الدولة العثمانية كممثلة للعالم الاسلامي تجاه الغرب قد أيقظت في المانيا ذكرى الحروب الصليبية. فعلت أصوات تعلن أن الوقت قد حان الآن لانتزاع الأراضي المقدسة من سيطرة المسلمين واعادتها إلى السيطرة المسيحية[٤]. وفي هذه الظروف وجدت الدوائر الالمانية المهتمة بأوضاع فلسطين تجاوب الملك لمشروعاتها الدينية والاستيطانية في فلسطين، وفي مقدمتها «الأخوة جرلاخ» (Bruder Gerlach) وجوزيف ماريا فون رادوفيتز (Joseph Maria von Radowitz) الذي ارتقى أعلى المناصب العسكرية رغم كاثوليكيته، وأخيراً كريستان كارل يوزياس فون بونسن (Christian Carl Josias von Bunsesn) الذي كان مقرباً للملك ومحبباً إليه، حيث كان يناقش معه نظرياته الدينية[٥].

ففريدريش فلهلم الرابع «الرومانسي على العرش» كانت تشده منذ صغره علاقة خاصة بفلسطين. وكان يؤمن بالحق الالهي للأمراء والملوك وبأن للأمير سلطة على الدولة والكنيسة معا، إذ يوحدهما بشخصه. وكان فريدريش فلهلم

الرابع يأمل منذ كان وليا للعهد بخلق كنيسة بروسية على الطراز الانكليكاني. وفي سبيل ذلك كان يرى ضرورة تقارب الكنيسة البروسية من الكنيسة الانكليكانية ليكون ذلك مقدمة لقيام كنيسة بروتستانتية عالمية متحدة(٦).

وقبل إعادة سوريا وفلسطين إلى السيطرة العثمانية، كانت الدول الأوروبية منشغلة بمصير البلدين. أما الحكومة البروسية فكانت مقتنعة بأن هذه الفرصة يجب ألا تمر دون حصول الدول الأوروبية على مكاسب دينية سياسية في المنطقة. وكانت أولى الخطوات التي سارت فيها المذكرة التي قدمتها إلى الحكومة النمساوية في ٦ آب (١٨٤٠) «حول إمكانية وضرورة تأمين وضمان ممارسة المسيحيين في الأماكن المقدسة لعبادتهم عند قبر المسيح». صاغها المبعوث البروسي في لندن هاينريش فون بولوف (Heinrich Von Buelov) ووزير الثقافة يوهان البرت فريدريش ايشهورن (Johann Albert Friedrich Eichhorn) إلا أن الحكومة النمساوية لم تعر المذكرة أي اهتمام(٧).

ويبدو أن الدوائر الروسية الرسمية تبادر إلى علمها بالتحرك البروسي، فسارعت إلى تحذير الحكومة البروسية من مغبة التسرع في طرح مشروع غير مدروس يرمي إلى تدويل القدس، أو إقامة دولة مسيحية في المدينة المقدسة أو تجميع يهود العالم في مدينة «سليمان». وتطرقت المذكرة الروسية إلى صعوبة تحقيق المشروع البروسي مستندة إلى قلة عدد المسيحيين في القدس وإلى تفرقهم وتنازعهم فيما بينهم وبالتالي عدم تمكنهم من إقامة دويلة مسيحية أو تحمل مسئولية سياسية. كما توقعت المذكرة أن يقاوم المسلمون أي مشروع يرمي إلى وضعهم تحت السيطرة المسيحية. اما موقع فلسطين الجغرافي بعيدا عن أوروبا فكان يلعب دورا سيئا في حال أرادت الدول الأوروبية أن تسرع بحريا لنجدة مسيحيي القدس في حال تعرضهم للخطر. وأخيرا وليس آخرا لاحظت الدوائر الروسية ضرورة التوصل إلى اتفاق بين الدول الأوروبية من جهة والباب العالي من جهة اخرى كشرط أساسي للبدء في تنفيذ المشروع.



□ السلطان عبد المجيد.

(F.O. 64/235, Memorandum delivered by the Russian Government to the Prussian Government in Oct. 1840 communicated to the Chevalier Bunsen August 1841).

ومر الربع الأخير من عام ١٨٤٠ دون حدوث اية تطورات بالنسبة للسياسة البروسية تجاه فلسطين. إلا أن هذا لم يمنع اهتمام دوائر بروسية الرسمية والصحافة الالمانية وبعض الجمعيات التبشيرية بالمسائل الدينية السياسية في فلسطين.

ولكن انسحاب المصريين من سوريا وفلسطين عند نهاية عام ١٨٤٠ حرك الحكومة البروسية من جديد ــ فعادت إلى نشاطها السابق محاولة استغلال المناسبة لدفع سياستها الفلسطينية إلى منعطف جديد، عن طريق طرق باب غير النمسا صامة اذانها عن التحذيرات الروسية. ففي ٨ شباط (١٨٤١) توجهت الحكومة البروسية بمذكرة إلى الحكومة البريطانية تتعلق بمشروع فرض «حماية دينية على الأماكن المقدسة، وبحث المسألة الفلسطينية وتحرير كل المسيحيين عن طريق المفاوضات». هذه الأفكار البروسية لم تلق أي تجاوب من قبل الحكومة البريطانية(٨).

وبالرغم من خيبة الأمل عاودت الحكومة البروسية بعد أسبوع اتصالاتها بعواصم الدول الأوروبية الكبرى لندن، بطرسبرغ، باريس وفينا

مقدمة مشروعا اخرا معدلا. ففي مذكرتين منفصلتين لبولوف ورادوفيتز تتضمن تصورات ملك بروسيا، جرى الحديث عن مشروع بروسي لتدويل القدس وضواحيها بوسائل سلمية ووضعها تحت الحماية العسكرية المشتركة للدول الخمسة[٩].

ففي مذكرته طالب بولوف أن توضع الكنائس والأديرة والتكيات والمؤسسات التابعة للطوائف الدينية الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستانتية تحت الحماية الدولية. كما طالب بتحسين أوضاع رعايا السلطان غير المسلمين، عن طريق تحريرهم من الضرائب ومنحهم قضاءا مستقلا. ولضمان تأمين تنفيذ هذه البنود رأى بولوف ضرورة إقامة ثلاثة ممثلين أوروبيين في القدس، الأول يعين بالتناوب من قبل النمسا وفرنسا كممثلتين للكاثوليكية في المشرق، الثاني يعين من قبل روسيا كممثلة للارثوذكسية، أما الثالث فيعين بالتناوب من قبل بروسيا وانكلترا ويكون ممثلا للبروتستانت. واختتم بولوف اقتراحاته بأن يكون لكل دولة فرقة عسكرية قوامها ٦٠ جنديا تتمركز في القدس لحماية الأماكن المقدسة والسهر على تنفيذ هذه القرارات[١٠].

أما رادوفتيز فتعهد في مذكرته تأمين حماية لليهود في فلسطين إذا رغبوا ذلك، وكذلك تعليم أبنائهم[١١]. أما المقترحات التي وجهها إلى لندن وكانت تحتوي على إضافات غير مذكورة في المذكرات التي وجهت إلى العواصم الأوروبية الأخرى، فكانت تقترح على بريطانيا تعاون مشترك مع بروسيا كي يحصل البروتستانت في فلسطين على حق تشييد مستشفا ودار عبادة لهم، وان يخصص جبل صهيون للارسالية البروتستانتية وحدها[١٢].

هذه العروض رفضت جملة وتفصيلا من قبل الدول الكبرى. فإلى جانب أن الدول الأوروبية رأت في المقترحات محاولة بروسية «للتغلغل» في الشرق عن طريق استخدام المسائل الدينية، فقد رأت تلك الدول أن العروض تحمل تهديدا للتوازن الذي ضمن لها حقوقا وامتيازات في المنطقة[١٣]. كذلك رفضت كل من الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية المشروع، حيث لم يكن متوقعا إعطاء موافقتهما على قيام كنيسة



□ بالمرستون

بروتستانتية في فلسطين وتكون مساوية معهن. أما القرار البريطاني الذي علقت بروسيا عليه الآمال الكبيرة، فجاء مخيبا لها. فاللورد بالمرستون، وزير الخارجية البريطانية، لم يجد سببا يدعو بلاده لقبول المقترحات، خاصة أن بلاده تتمتع بوضع دولة حامية في فلسطين، كما أن مرسوم خطي شريف كلخانة (١٨٣٩) قد أزال الفوارق بين المسيحيين والمسلمين، وان على المرء أن يسهر على تطبيق هذا المرسوم[١٤]. ويعود موقف بريطانيا إلى أنها لم تك تعير في ذلك الوقت المسائل الدينية في الشرق ومساواة الكنيسة البروتستانتية بغيرها من الكنائس الأخرى الأهمية التي كانت تعيرها للاستفادة من الوضع الذي نتج عن تحجيم مصر وتطوير تجارتها في الدولة العثمانية وضرب نفوذ دول أوروبية أخرى في مقدمتها روسيا، وأخيرا تأمين خطوط مواصلاتها الاستراتيجية مع الهند[١٥]. وكل هذا لم يك في وسع بروسيا تقديمه لبريطانيا في سياستها الامبريالية في الشرق العربي والدولة العثمانية ولا مشروع تدويل القدس كذلك.

وأخيرا لم يكن متوقعا الحصول على موافقة الباب العالي على مشروع التدويل والحماية العسكرية الأوروبية على الأراضي المقدسة. فالسلطان العثماني كونه «خليفة» وحامي الأماكن

المقدسة للاسلام مكة، المدينة والقدس، كان لا يستطيع ولا يسمح له باقتطاع أراض إسلامية مقدسة والتنازل عنها لدول مسيحية. فتجارب الدولة العثمانية في ولاياتها مع النمسا وروسيا كان لا يمكن تكرارها في فلسطين. وفي هذا المعنى رفض الباب العالي بعد عودة سيطرته على سوريا وفلسطين مشروعا بريطانيا ــ يهوديا لشراء الأراضي في فلسطين وتوطين اليهود عليها[١٦].

مشروع بروسي جديد للقدس: مطرانية القدس الانكليزية البروسية وإعادة توطين اليهود في فلسطين

مطرانية القدس: على الرغم من المعارضة البريطانية لمشروع تدويل القدس، فقد ظل فريدريش فلهلم الرابع متمسكا بموقفه بأن بريطانيا هي الحليف الطبيعي لبروسيا البروتستانتية، وكان يشد عزيمته في ذلك نظريته الدينية حول الوحدة العالمية للكنائس البروتستانتية. ورأى الملك أن إرسال «بعثة خاصة» مزودة بتعليمات جديدة إلى البلاط الانكليزي برئاسة بونسن المعروف لدى الدوائر البريطانية السياسية والكنيسة والمتزوج من سيدة من عائلة بريطانية مرموقة، كفيل بأن يحقق مشاريعه.

وفي منتصف (١٨٤١) وصل البارون بونسن إلى لندن «كمبعوث فوق العادة ومفاوض مطلق الصلاحيات». وبعد عدة أسابيع من المفاوضات مع الحكومة البريطانية والسلطات الكنسية حول أوضاع البروتستانت في الدولة العثمانية ووجوب إرغام الباب العالي على الموافقة على حماية بروسيا وبريطانيا للبروتستانت في الأراضي المقدسة، قدم بونسن مشروع ملكه حول «كيفية منح الكنيسة الانكليزية... الكنيسة البروسية مركزا اخويا مساو لها في الأراضي المقدسة»[١٧]. وأخيرا رغم كل الاختلافات الكنسية بين الكنيستين البروسية والانكليكانية إقامة «مطرانية بريطانية بروسية مشتركة في القدس»[١٨].

وعلى الصعيد الدبلوماسي اقترح بونسن أيضا قيام تحرك مشترك في استانبول، وذلك للحصول على اعتراف الدولة العثمانية بالطائفة البروتستانتية «كملة» في الدولة العثمانية. كذلك رأى بونسن ضرورة إلحاق جمعية يهود لندن في المطرانية المزمع تأسيسها، وذلك لتحقيق الأهداف التبشيرية والكنسية من وراء مشروع المطرانية. ولهذا دعا بونسن جمعية يهود لندن التي كانت تعمل بين يهود فلسطين وتمتلك منذ عام ١٨٣٩ قطعة أرض ومستشفى على جبل صهيون للانضمام إلى المطرانية.

وفي بداية آب (١٨٤١) وضعت اللمسات الأخيرة على اتفاقية تأسيس المطرانية. وتبعا لذلك فقد تقرر أن تكون «مطرانية كنيسة انكلترا وايرلندا المتحدة في القدس» مطرانية انكليزية، على أن يعين المطران بالتناوب من قبل بروسيا وبريطانيا بعد موافقة رئيس أساقفة كانتربوري على تعينه وان يكون تابعا للكنيسة الانكليكانية. أما رجال الدين الالمان الذين قد يتبعون المطرانية فوجب إعادة تكريسهم من جديد وفقا لتعاليم ال (٣٩) للكنيسة الانكليكانية. وتقرر أن تشمل صلاحيات المطران الروحية والكنسية كل المؤسسات والجمعيات والافراد المرتبطين بالمطرانية في كل من فلسطين، سوريا، كلدانيا، مصر والحبشة[١٩].

ولتأمين انطلاقة ناجحة للمطرانية تبرع ملك بروسيا بمبلغ ١٥٠٠٠ استرليني من جيبه الخاص، ليكون وقفا للمطرانية على أن يخصص فوائد المبلغ لدفع نصف مرتب المطران السنوي. أما الجانب البريطاني فقد تبرع بمبلغ ٢٠ الف استرليني، دفعت منها جمعية يهود لندن مبلغ ٣٠٠٠ استرليني. وتقرر أن تكون الاتفاقية سارية المفعول باحتلال المطران لكرسي المطرانية، وهذا ما حدث في كانون الثاني (١٨٤٢).

ورغم قبول الحكومة البروسية لوضع متدن في الاتفاقية مع الشريك البريطاني وما سبب ذلك من معارضة داخلية شديدة في بروسيا، وكذلك موقف الدول الكبرى الرافض للاتفاقية، إلا أن الحكومة البروسية كانت لديها مبرراتها السياسية الخارجية والداخلية التي حملتها على قبول هذا المركز المتدني وأهمها: ان تكون هناك جماعة بروتستانتية المانية في فلسطين تحت مظلة المطرانية وحمايتها ــ بناء كنيسة بروتستانتية في القدس ــ انتزاع اعتراف الدولة العثمانية بالملة البروتستانتية. وبفعل هذه المظلة تمكنت بروسيا

من تحقيق هذه الأهداف وأهمها: استقرار الجمعيات التبشيرية الالمانية البروتستانتية في الشرق، كما أن مرسوم بناء كنيسة بروتستانتية في القدس أمكن الحصول عليه في (١٨٤٥) ودشنت «كنيسة المسيح» في (١٨٤٩). أما انتزاع اعتراف الدولة العثمانية بالملة البروتستانتية فلم يصدر قبل (١٨٥٠) وتم الحصول عليه بفضل الدبلوماسية الانكليزية وليس البروسية.

إعادة توطين اليهود في فلسطين: إلى جانب الدوافع الكنسية السياسية لتأسيس مطرانية القدس، لعبت الدوافع البروسية الداخلية وأعني بها مسألة إعادة توطين اليهود في فلسطين دورا هاما في مشروع تأسيس المطرانية. وللحصول على فهم واضح لسياسة فريدريش فلهلم الرابع في إعادة توطين اليهود ينبغي التطرق إلى أوضاع اليهود في بروسيا ودويلات المانيا وموقف الحكومة البروسية والراي العام الالماني منهم، وكذلك المشاريع البريطانية ــ اليهودية لاعادة توطين اليهود، والتي أثرت كثيرا على تصورات فريدريش فلهلم الرابع بالنسبة «للمسألة اليهودية» في المانيا.

اليهود في بروسيا والمانيا: لم يؤد مرسوم تحرير اليهود الالمان وإعطائهم المواطنة البروسية في (١٨١٢) إلى المساواة الكاملة بين اليهود والألمان. فقد ظل دخول الوظائف الرسمية محظرا عليهم[٢٠]. وخلال حرب التحرير ضد السيطرة الفرنسية كانت المعاناة القومية للالمان قد وصلت إلى ذروتها. فدعا فريدريش لودفيغ يان (Fried-rich Ludwig Jahn) إلى «حرب صليبية مقدسة» ضد كل الغرباء من فرنسيين ويهود[٢١]. فقد نظر إلى اليهود على انهم «جسم غريب» في المجتمع الالماني وانهم يشكلون «دولة داخل دولة» كما وصفهم الفيلسوف الالماني يوهان غوتليب فيختة قبل عقدين من الزمن. والواقع أن فيختة قد دعا الالمان بالفعل إلى معاملة اليهود كبشر. إلا أنه أوضح ذلك قائلا:

«اما ان نعطيهم (اي اليهود) حقوق المواطنة، فانني لا أرى اية وسيلة سوى ان نستبدل في احدى الليالي رؤوسهم برؤوس أخرى خالية من اية افكار يهودية. ولكي نحمي انفسنا منهم فانني ايضا لا ارى وسيلة سوى ان نفتتح لهم أرض الميعاد ونرسلهم جميعا إلى هناك»[٢٢].

هذه النظرة العدائية ضد اليهود وجعل فلسطين مركزا لتجميع اليهود لم تقتصر في الواقع على الفلاسفة ورجال الفكر الالمان. فكثير من الالمان رأوا في اليهود «شعبا فاسدا» عديم الاصالة «مشحونا بميول شريرة شاذة»[٢٣].

وإلى جانب العوامل النفسية لعب التحول الاقتصادي والاجتماعي في المانيا من جراء التصنيع دورا في تغذية روح العداء ضد اليهود. فخلال عصر فردريش الثاني (١٧٤٠ ــ ١٧٨٦) تمتعت الرأسمالية اليهودية «بامتيازات خاصة» في حقول النشاطات الصناعية والمالية واستثمار الأراضي، وذلك تقديرا لدعمها المالي للدولة البروسية خلال حربها ضد النمسا وروسيا (حرب السبع سنوات ١٧٥٦ ــ ١٧٦٣). وما أن حل القرن التاسع عشر حتى كانت الرأسمالية اليهودية الالمانية قد دعمت نفسها في شتى المرافق الاقتصادية.

ففي مجال النشاطات المصرفية امتلك اليهود الالمان منذ بداية القرن ١٩ في برلين وحدها ٣٠ مؤسسة بنكية من أصل ٥٢. وعندما تأسست اول بورصة في برلين كان خمسة من أصل تسعة من الموقعين على أول جداول الأسعار من اليهود. وفي عام ١٨٣٧ بلغت حصص رجال البنوك اليهود في شركة خطوط حديد الراين الثلثين. وفي مقاطعات أخرى من المانيا كبافاريا هسن هامبرغ فلم يكن الوضع أفضل عليه من بروسيا[٢٤].

وفي مجالات التجارة والصناعة لعب اليهود ايضا دورا قياديا. فاليهودي جوزيف مندلسون كان أحد مؤسسي «تجمع تجار برلين» الذي مثل تجارة برلين، ظل لمدة عشرين عاما في مركز القيادة للتجمع[٢٥]. كما شارك اليهود في تكوين الصناعة الالمانية الناشئة في برلين ــ في مجالات الصناعات المعدنية، والنسيجية والجلدية[٢٦]. ولم تجد الرأسمالية الالمانية الناشئة في المزاحمة اليهودية خطرا عليها فحسب، بل كانت هناك المنافسة اليهودية الدولية الممثلة باسم «روتشيلد» التي دقت ناقوس الخطر للرأسمالية الالمانية[٢٧]

أما في دوائر الارستقراطيين الاقطاعيين فقد لقي مرسوم (١٨١٢) كل استنكار من جانبهم:

إذ خشوا أن يمتلك «المال اليهودي» أراضيهم وأن تصبح «براندنبورغ ــ بروسيا نموذجا جديدا للدولة اليهودية». وسرعان ما استعر الموقف ضد اليهود بحدوث الأزمة الزراعية في عام ١٨٣٨، مما أدى إلى موجة اعتداءات من قبل المزارعين ضد اليهود[٢٨].

وكان نصيب الالمان الحرفيين من المنافسة اليهودية أشد. فبعد تقسيم بولندا الأخير (١٧٩٥) ازداد عدد سكان بروسيا اليهود مئة الف شخص، ومن ضمنهم العديد من العمال المهنيين[٢٩]. ولعبت مراسيم التآخي مع اليهود دورا في اشتغال الكثيرين من اليهود الجدد في بروسيا في أعمال «إنتاجية»[٣٠]. فمثال ذلك كان اقليم شليسين العليا. ففي (١٨٢٧) كان هناك ٨، ١٥ ٪ من اليهود العاملين في الأعمال المهنية. وفي (١٨٤٣) ارتفعت النسبة إلى ٧، ٢٥ ٪[٣١]. ومنذ رفع الحصار القاري عن أوروبا عادت المنتوجات البريطانية الرخيصة تغزو الأسواق الالمانية منافسة البضائع المحلية، بحيث تهددت الأسس الاقتصادية لكثير من العمال الالمان الحرفيين. وسرعان ما انقلبت إلى موجة عدم رضى اقتصادية أخذت طابعا معاد لليهود[٣٢].

ويقسم دارسو التاريخ الألماني في النصف الأول من القرن الماضي الرأي العام الألماني بالنسبة للمسألة اليهودية إلى تيارين: تيار الليبراليين الذين رأوا أن إعطاء اليهود المساواة الكاملةمع ألالمان قد تربط اليهود أكثر بالدولة البروسية ويخفف تطلعاتهم «القومية». أما التيار الثاني فكان تيار المحافظين الذين نظروا إلى اليهود على أنهم «غرباء» وأن اليهودية كديانة هي مناقضة للتعاليم المسيحية. ولكنهم اشترطوا تنصر اليهود لقاء منحهم المواطنة الكاملة[٣٣].

وفي هذا الاطار لتنصير اليهود في بروسيا والمانيا وقعت مهمة التنصير على عاتق «جمعية نشر المسيحية بين اليهود» التي تأسست في ١٨٢٢ وكانت شقيقة لجمعية يهود لندن. ولقد حصلت الجمعية على دعم حكومي بروسي[٣٤]. ولم يكن رئيسها سوى الجنرال البروسي كارل فون فتزليبن (Karl von Witzleben)[٣٥]. كما تأسست جمعيات مماثلة في الأعوام اللاحقة، في بازل،كولونيا، لايبزيغ. وحتى منتصف الاربعينات من القرن الماضي لم تتمكن جمعيات تنصير اليهود في بروسيا من كسب أكثر من ٢٠٠٠ يهودي إلى البروتستانتية. ومن المعتقد ان هؤلاء قد تنصروا ليسهل عليهم دخول الوظائف الرسمية[٣٦].

وهكذا لم تؤد مراسيم تحرير اليهود وإعطائهم المواطنة الالمانية وتنصيرهم إلى حل المسألة اليهودية في المانيا ــ وظلت الحواجز النفسية والعنصرية والقومية والاجتماعية والاقتصادية تفصل بينهم وبين الالمان. وأصبحت الحاجة ملحة لحل جذري للمسألة. وفي هذه الظروف اعتلى فريدريش فلهلم الرابع العرش. وكما أسلفنا سابقا فقد كان مهتما بالمسألة اليهودية وبأوضاع المسيحيين في فلسطين منذ صغره. الا يجب أن تكون فلسطين الحل الذي يوصل المسألة اليهودية في المانيا إلى حل مرض؟ وإذا استثنينا مشروع نابوليون خلال حملته المصرية (١٧٩٨/١٧٩٩)، لاعادة توطين اليهود في فلسطين فإن دوافع هذه الخواطر «الفريدريشية» جاءت من قبل بريطانيا.

المشاريع الانكليزية ــ اليهودية لتوطين اليهود في فلسطين

عند نهاية الثلاثينات من القرن التاسع عشر وبشكل خاص الفترة من (١٨٣٨ ــ ١٨٤٠) طورت في بريطانيا مشاريع متعددة هدفها قيام استيطان يهودي في فلسطين. ومن الشخصيات البريطانية البارزة التي لعبت دورا هاما في هذا المجال اللورد اشلي (Ashley) الذي عرف فيما بعد بـ «ايرل اوف شافتسبري»، الذي كان أكثر الرجال نفوذا في جمعية يهود لندن. وبسبب قرابته إلى اللورد بالمرستون أمكنه أن يبحث مع الحكومة البريطانية إمكانية وضع اليهود في الدولة العثمانية تحت الحماية البريطانية[٣٧]. وخارج جمعية يهود لندن وعلى النقيض لسياستها في تنصير اليهود، كان موسى مونتيفيوري يعمل لكي يحتفظ اليهود بعقيدتهم الدينية وضد تنصيرهم، وكان لا يقل نفوذا عن اللورد اشلي لدى الدوائر الحكومية البريطانية. فبعد زيارة إلى فلسطين قبل حل المسألة المصرية ضغط على الحكومة البريطانية

ليس فقط لأجل حماية ما يقرب من سبعة آلاف يهودي في فلسطين، بل أيضا أن تدعم الحكومة البريطانية هجرة يهود أوروبا وشرائهم للأراضي في فلسطين والاستيطان عليها[٣٨].

لم يك اللورد بالمرستون في الواقع بعيدا عن المشاريع اليهودية، بل نراه يؤيدها ويشجعها. فبالمرستون نظر إلى هجرة اليهود إلى فلسطين من زاوية المصالح الاقتصادية والسياسية البريطانية. وكان يرى أن استيطان اليهود الأوروبيين في فلسطين برأسمالهم وخبراتهم سوف يؤدي إلى ازدهار اقتصادي في المنطقة مما يساهم في استقرار الامبراطورية العثمانية وتكون نتائجه تدعيم النفوذ البريطاني في منطقة الليفانت حيث تقوى التجارة وتزدهر[٣٩]. ولأجل ذلك، أي تدعيم المصالح الامبريالية البريطانية في المنطقة عن طريق دعم المشاريع الاستيطانية اليهودية، جاء تأسيس القنصلية الانكليزية في القدس، أول قنصلية أوروبية هناك، وذلك بعد إلحاح طويل من جمعية يهود لندن[٤٠]

فريدريش فلهلم الرابع و «إعادة توطين الشعب اليهودي في فلسطين»

خلال إقامته في لندن عامي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ استطاع بونسن أن يوطد علاقاته مع ممثلي جمعية يهود لندن وان يتطلع على مشاريعها الاستيطانية في فلسطين[٤١] وهذا ما يحملني على الاعتقاد بأن المشروع البروسي الأول لتدويل القدس قد حيكت خيوطه في لندن من قبل بونسن والجماعات اليهودية، وبعبارة أوضح، أن الجماعات اليهودية المهتمة بقضايا الاستيطان في فلسطين أرادت أن تستغل بونسن ومن ورائه السياسة البروسية في سبيل تنفيذ مشاريعها الاستعمارية. ان رسالة بعث بها مك كول (McCaul) أحد زعماء جمعية يهود لندن إلى بونسن في أيلول ١٨٣٩، أي قبل عام تقريبا على المشروع البروسي لتدويل القدس توضح العلاقة بين مشروع التدويل البروسي والجهود الاستيطانية اليهودية في فلسطين يقول مك كول:

«انا لا أعرف ما يمكن عمله لأجل القدس، كما لا أحب التدخل في المسائل السياسية، ولكن الا يمكن تحويلها (القدس) إلى «مدينة حرة» مثل فرانكفورت أو كراكو (Cracow) تحت حماية الدول العظمى؟.. الا يستطيع الملوك المسيحيون أن يقدموا شيئا قليلا من الحرية المسيحية إلى يهودي مسكين ظل سجينا لفترة طويلة»[٤٢].

وفي السنتين التاليتين على هذا الخطاب توافق أن كان بونسن مبعوثا في سويسرا، وهناك ناقش مسألة إقامة مستوطنة بروتستانتية في فلسطين مع جمعية التبشير في بازل». ويمكن للمرء أن يستنتج من خلال مراسلات بونسن في هذه الفترة انه كرس وقتا كبيرا للقضايا الفلسطينية. وبقيام جماعة بروتستانتية في القدس تابعة لجمعية يهود لندن رأى بونسن ذلك إشارة على «انبعاث صهيون». وكان تطور الأزمة المصرية تقوي استنتاجاته[٤٣]. وفي ٣ آب (١٨٤٠) كتب بونسن إلى غلادستون، (Gladstone) النائب البريطاني المحافظ ووزير الاستعمار ورئيس الوزارة اللاحق، يقول:

«انه من غير المؤكد الا نرى مشيئة الله في تاسيس كنيسة انكليزية وجماعة مسيحية من المرتدين على جبل صهيون في القدس. الا تريد ان تفعل شيئا لاستغلال الأحداث السياسية التي تتحكم بها مشيئة الله والتي تصادفها إشارات على انبعاث صهيون؟»[٤٤].

وفي ١٧ ايلول، أي بعد شهر ونصف، بعث بونسن بتقرير إلى برلين حول خطة لشراء الأراضي في فلسطين لأجل اليهود المتنصرين بحثها مع اللورد اشلي. كتب بونسن يقول:

«بالاضافة إلى ذلك كتبت إلى اللورد اشلي ايضا معالم خطة أرادها الله، لأجل امتلاك قطعة أرض في فلسطين لليهود المتنصرين، وخصوصا فقراء القدس منهم، إذا ما تحرك في داخلهم الايمان»[٤٥] **(المسيحي)**.

وبعد إرسال بونسن في حزيران (١٨٤١) إلى لندن على رأس البعثة البروسية المفاوضة، تأكد لبونسن أن مشيئة الله تلعب دورا كبيرا في تطوير الأمور لصالح المسألة اليهودية. فالأزمة المصرية كانت قد انتهت وها هي الدولة العثمانية مدينة للدول الأوروبية بسيادتها واستقلالها، بعدما تزعزعت «الخلافة الاسلامية». وبعد إنهائه للمفاوضات الناجحة حول تأسيس المطرانية مع

La formation de colonies allemandes et Anglaises en Turquie & l'introduction de l'élément protestant serait sans contredit un moyen puissant de civilisation et de prospérité pour ces contrées et de leur consolidation sous le sceptre Ottoman, un bienfait pour les pauvres allemands qu'on laissait vendre et immoler jusqu'à présent dans l'autre hemisphère et un débouché de commerce pour les produits de l'industrie des pays originaires. Cependant une forte population étant la plus grande

richesse

□ وثيقة تتعلق بالمستعمرة المزمع انشاؤها في تركيا من قبل بروسيا وانكلترا.

الانكليز كتب إلى زوجته يقول «**هذه هي إذن... البداية التي حققت لاعادة تأسيس اسرائيل**»[٤٦].

لم يكن فريدريش فلهلم الرابع في الواقع في البداية قد وصل في أهدافه من وراء المطرانية إلى الحد الذي قطعه بونسن. ففي رسالة له إلى بونسن مؤرخة ٢٦ آب (١٨٤١) قال فريدريش فلهلم الرابع إلى بونسن بأن مشاريعه (أي مشاريع بونسن) «**لاعادة توطين الشعب اليهودي**»في فلسطين تلتقي في الواقع مع أمنياته «**التي تختلج في أعماقه**»، إلا أنه لم يفكر بموضوعية في هذه المسألة، سوى أن تصبح المطرانية «**عن طريق الصبر والتواضع مركزا لليهود المتنصرين**»[٤٧].

ولكن بونسن سرعان ما وضح للملك بأن مشاريعه لاعادة توطين اليهود ما هي إلا إلهاما استمده منه.

«**أنت يا صاحب الجلالة انرت بفنك كل ما كان مظلما امامي... وأصبحت أرى الآن كيف وضعت الأفكار وحيكت لتكون اساسا وهدفا في الخطة لأجل اسرائيل**»[٤٨].

كان بونسن مقتنعا أن كثيرا من اليهود المتنصرين في المانيا وكذلك بروتستانت المان يطوقون للاستيطان في فلسطين[٤٩]، بعد أن تقوم بروسيا بمساعدة بريطانية بشراء الأراضي لاستيطان اليهود عليها وأن تكون المستوطنات اليهودية زراعية[٥٠]. ولم يغفل عن بال بونسن ان الاستيطان اليهودي الالماني في فلسطين سيؤدي إلى ازدهار التجارة الالمانية مع سوريا وفلسطين[٥١]. وبالفعل فخلال محادثات بونسن في لندن بعث بالمرستون إلى السفير البريطاني في استانبول يطلب إليه أن يتعاون مع المبعوث البروسي هناك لأجل الحصول على إذن من الباب العالي لاستيطان أوروبي بروتستانتي في أراضي الدولة العثمانية وكذلك شراء الأراضي وحماية المستوطنين الأوروبيين[٥٢].

وبعد مرور شهرين على ذلك، كلفت الحكومة البروسية في خريف (١٨٤١) الوزير البروسي في استانبول، كونغسمارك (Koenigsmarck) دراسة إمكانية الاستعمار في ممتلكات الدولة العثمانية. وفي تقرير له مؤرخ ٦ تشرين الأول (١٨٤١) اقترح كونغسمارك إنشاء منظمة تأخذ على عاتقها مهمة تسفير الراغبين في الاستيطان في الدولة العثمانية وتوطينهم في مستعمرات. ومع ان كونغسمارك لم يذكر «فلسطين» صراحة كمركز للاستيطان، إلا أن المرء يمكن أن يفهم أن فلسطين كانت أيضا نقطة السياسة الاستعمارية. ورأى كونغسمارك أن يكون للمستعمرين «الاشراف الكامل على مستوطناتهم». كما حذر الحكومة البروسية بأنه لن يكون في مصلحتها أو في مصلحة المانيا استثمار أموال كثيرة في المشروع، حيث أن الصناعة الالمانية الناشئة لا تزال بحاجة إلى الرأسمال الالماني للبقاء داخل البلاد، بل من الأفضل تشجيع الفقراء الالمان واليهود للاستيطان في الدولة العثمانية. وان ذلك يحقق ٣ أهداف: نشر الحضارة في منطقة استيطان الالمان، مما يدعم الدولة العثمانية ــ توطين الفقراء الالمان ــ ازدهار التجارة والمنتجات الصناعية البروسية[٥٣].

كان فريدريش فلهلم الرابع على استعداد لدعم هجرة اليهود إلى فلسطين «بالشكل المناسب» فقط «عندما يتم التحقق منهم (اليهود) من قبل السلطات وتثبت جدارتهم، وبشكل خاص، ان يثبت مسبقا إيمانهم بالعقيدة البروتستانتية طبقا لتعاليم إقرار أوغسبورغ[٥٤]. وبعد عودة اليهود المتنصرين إلى فلسطين كان ينبغي أن تقدم لهم الحماية البروسية القنصلية[٥٥]. وهكذا التقت أهداف تأسيس القنصلية البروسية في القدس (١٨٤٣) مع الأهداف التي تأسست لأجلها القنصلية البريطانية في القدس عام ١٨٣٨ وهو حماية اليهود الوافدين إلى فلسطين والمقيمين فيها. وتقرر أن تؤمن القنصلية البروسية لليهود «حقوقا توازي حقوق الرعايا البروسيين» المتواجدين في فلسطين[٥٦].

وإذا كان موضوع عودة اليهود إلى فلسطين بدعم بروسي مشروطا (بتنصرهم المسبق، فإنه جدير بالذكر أن الساسة البروسيين لم يحاولوا أن يضعوا العقبات أمام عودة اليهود المتنصرين إلى فلسطين كيهود واحتفاظهم «بقوميتهم اليهودية». ويعلق هاينريش ابكن الذي أرخ لتأسيس المطرانية وكان مقربا من الملك وبونسن،



□ المطران مايكل سلومون الكسندر اول مطران بروتستانتي للقدس ١٨٤٢ ـــ ١٨٤٦م.



□ المطران صموئيل غوبات، مطران القدس الانجليكاني ١٨٤٦ ـــ ١٨٧٩م.

انه وجب إعادة اليهود إلى فلسطين «كأمة يهودية»(٥٧) وفي هذا المعنى تحدث بونسن عن مستقبل اليهود في فلسطين «كشعب» أو أمة(٥٨).

فشل مشروع تنصير اليهود وإعادتهم إلى فلسطين وحل المطرانية

رغم كل الجهود التي بذلت لاعادة اليهود المتنصرين إلى فلسطين أو تنصير اليهود المحليين، إلا أن أحدا من السياسيين الالمان جو البريطانيين لم يعر أوضاع اليهود أنفسهم أو الأوضاع في فلسطين اعتبارا جديا. فاليهود المقيمين في فلسطين كان ارتباطهم بفلسطين ارتباطا دينيا، ولذا فقد وقفوا من المبشرين الذين كانوا معظمهم من المرتدين اليهود موقفا معارضا لجهودهم التبشيرية اتسم بالاستياء من قيام ابناء جنسهم وديانتهم بمحاولات ردهم عن دينهم(٥٩).

ولهذه الأسباب لم تتمكن مطرانية القدس منذ تأسيسها وحتى وفاة المطران الكسندر من تنصير اكثر من أربعين يهوديا. وخلال مطرانية خليفته غوبات (Gobat) لم يتعد عدد اليهود المتنصرين اكثر من ٦ ـــ ٧ أشخاص سنويا. ان الاعتقاد القائل بأن تنصر اليهود إلى البروتستانتية لم يكن بدوافع دينية، بل كان بفعل عوامل اقتصادية مادية، لا يمن استبعاده كليا، خاصة إذا علمنا أن معظم يهود فلسطين كانوا يعيشون في فقر شديد(٦٠). ولقد حاولت الزعامات اليهودية الأوروبية المتنفذة التي كانت تعارض تنصير أبناء جنسها أمثال مونتيفيوري، روتشيلد، كريميو إصلاح الأحوال المعيشية لهؤلاء اليهود عن طريق إنشاء مؤسسات خيرية ومدارس لهم وتعليم ابنائهم الصناعات المهنية لكي تكون لهم أسس اقتصادية تجعلهم «يقاومون» محاولات إغرائهم وتنصيرهم. لكن تقدما ملحوظا في هذا المجال لم يحدث مع ذلك قبل السبعينات من القرن الماضي، أي قبل تأسيس «الاليانس الاسرائيلي».

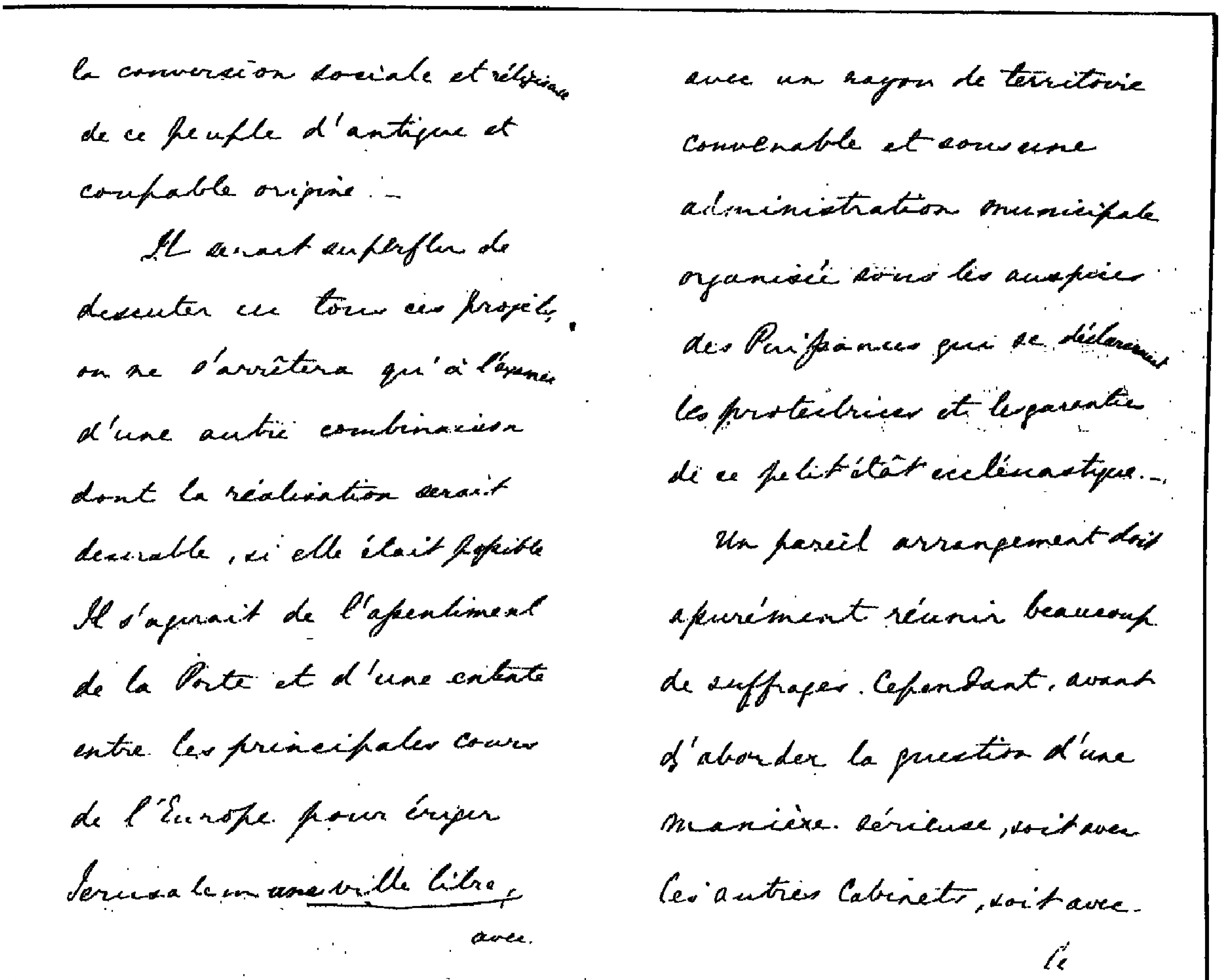
وتحت هذه الظروف كانت عودة اليهود الأوروبيين إلى «أرض الميعاد» أقل جاذبية. وكان الافتراض الخيالي الذي تبنته جمعية يهود لندن والسياسيين الالمان والانكليز بأن اليهودي الأوروبي سوف يقدم على التنصر ومن ثم يهاجر إلى فلسطين، متناسين أو متجاهلين أن تنصر اليهودي الأوروبي كانت الخطوة الأساسية

لتحطيم الحواجز الفاصلة بينه وبين المجتمع الأوروبي والاندماج فيه وبذلك تصبح العودة إلى فلسطين عديمة الجاذبية.

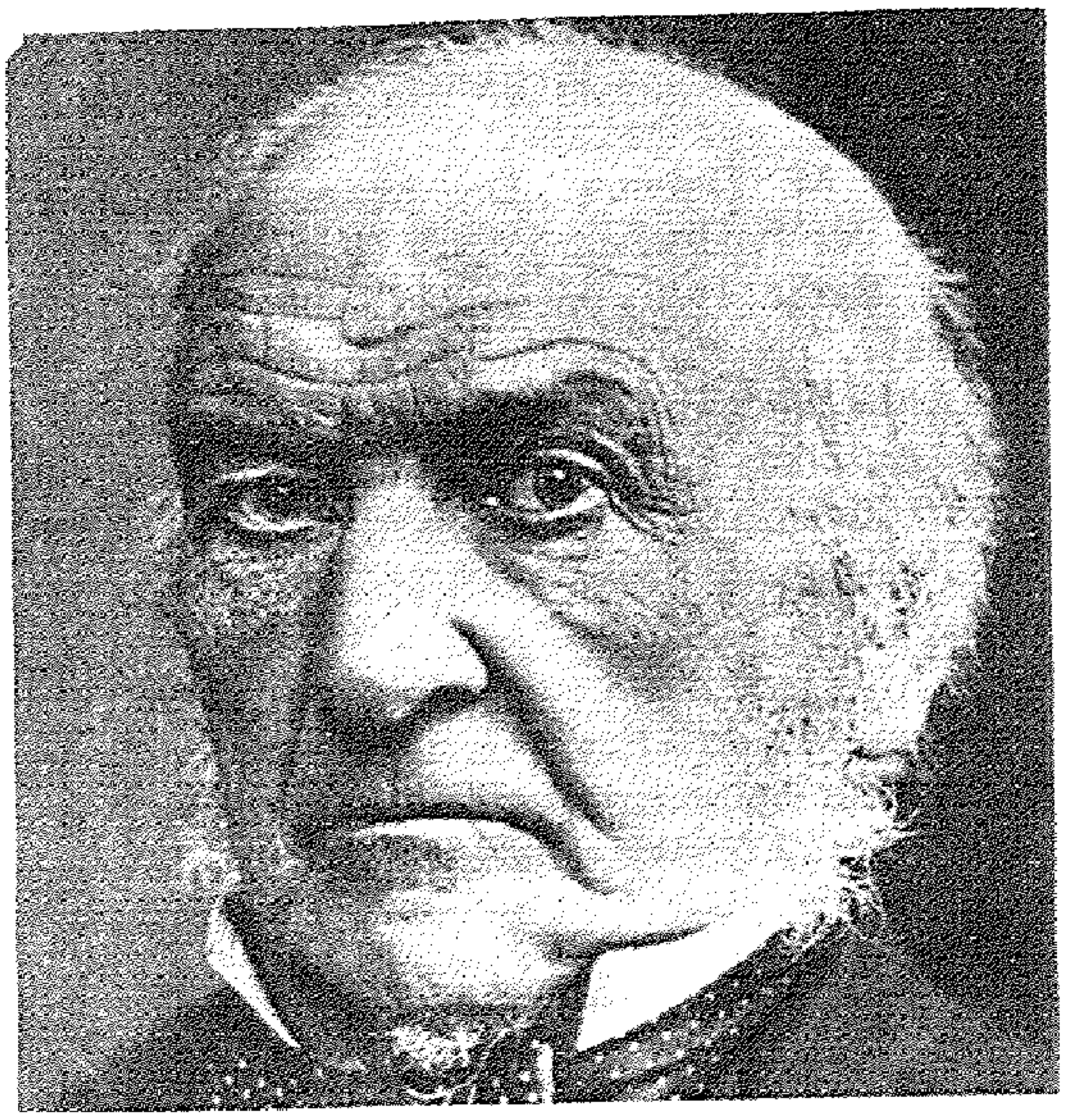
وفي عام ١٨٨٦ انسحبت المانيا الوريثة الشرعية لبروسيا في اتفاقية المطرانية من الشراكة مع بريطانيا. وأسباب ذلك عديدة أهمها: معارضة الحكومة الالمانية للفيتو الانكليزي على تعيين المطارنة من قبلها ـــ مسألة تكريس الرهبان الالمان طبقا للبنود الـ ٣٩ للكنيسة الانكليكانية ـــ الخلافات بين الرهبان الالمان والمطارنة رؤساء المطرانية ـــ نمو الروح الاستقلالية لدى الجماعة الالمانية في القدس وتزايد عدد أفرادها ومؤسساتها عن تلك للانكليز، وأخيرا ازدياد الوعي القومي للالمان منذ الثمانينات من القرن الماضي، أي منذ بدأت المانيا تلعب دورها الامبريالي العالمي وتنافس بريطانيا وتتقرب إلى الدولة العثمانية مما أثر على العلاقات الالمانية البريطانية في مناطق كثيرة من العالم ومنها فلسطين التي لم تكن قد حسمت امبرياليا بعد.

ورغم الفشل والنجاح فقد كان لمطرانية القدس الفضل الأول في اعتراف الدولة العثمانية بالطائفة البروتستانتية مما كان له أفضل الأثر في تغلغل العمل التبشيري في الدولة العثمانية وخاصة العمل التبشيري البروتستانتي الالماني. أما بالنسبة لحركة الاستيطان اليهودية في فلسطين فقد فتح مشروع المطرانية أعين الرجالات اليهودية فيما بعد على أهمية الحصول

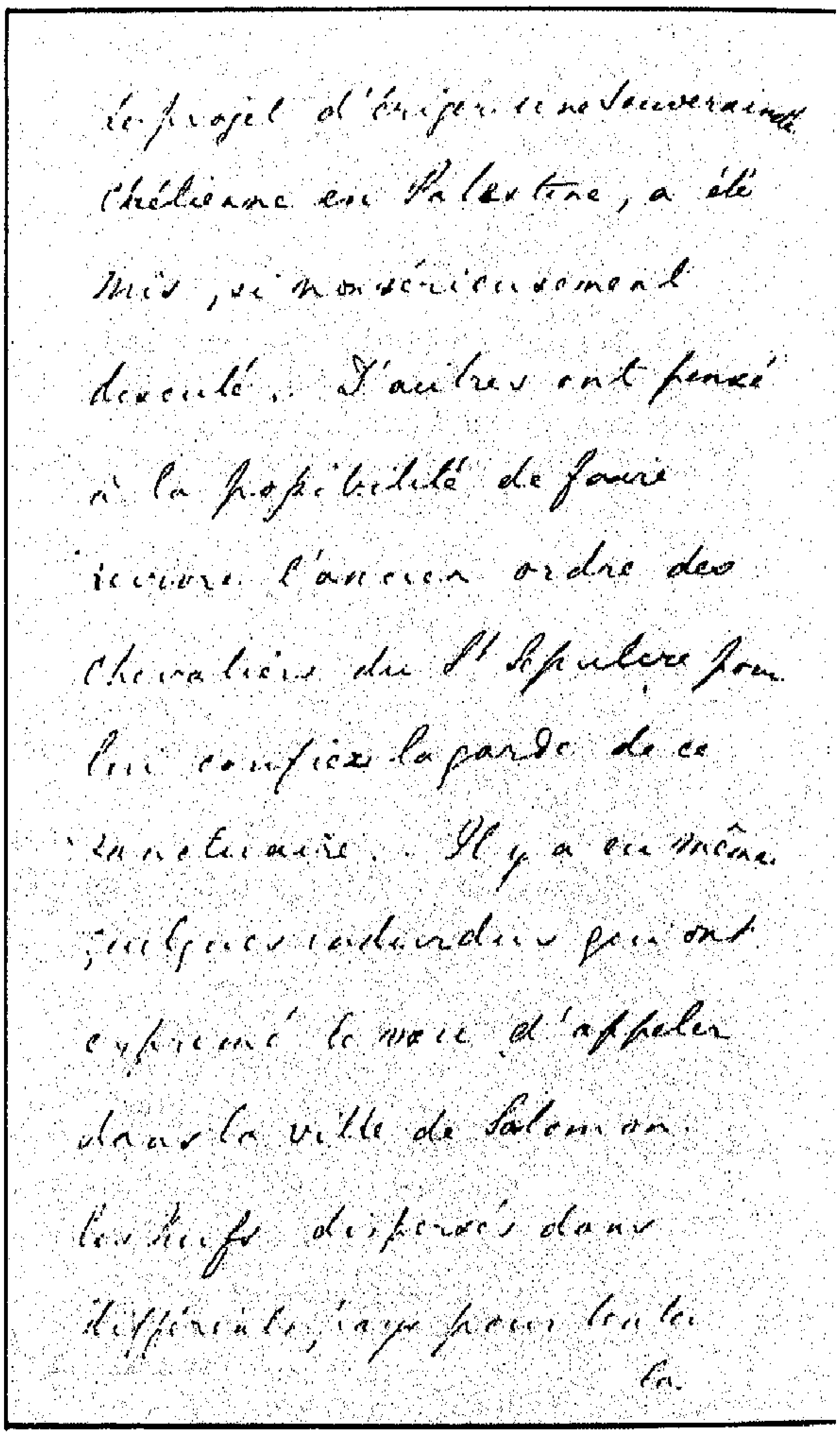
□ وثيقة «مشروع» تدويل القدس التي ارسلتها الحكومة الروسية لحكومة البروسية عام ١٨٤٠.


la conversion sociale et religieuse
de ce peuple d'antique et
coupable origine. —
Il serait superflu de
discuter ici tous ces projets,
on ne s'arrêtera qu'à l'examen
d'une autre combinaison
dont la réalisation serait
desirable, si elle était possible
Il s'agirait de l'assentiment
de la Porte et d'une entente
entre les principales cours
de l'Europe pour ériger
Jerusalem une ville libre,
avec

avec un rayon de territoire
convenable et sous une
administration municipale
organisée sous les auspices
des Puissances qui se déclareraient
les protectrices et les garantes
de ce petit état ecclésiastique. —
Un pareil arrangement doit
assurément réunir beaucoup
de suffrages. Cependant, avant
d'aborder la question d'une
manière sérieuse, soit avec
les autres Cabinets, soit avec
le



□ غلادستن



Le projet d'ériger une souveraineté
chrétienne en Palestine, a été
mis, [illegible]
discuté. D'autres ont pensé
à la possibilité de faire
revivre l'ancien ordre des
Chevaliers du St Sépulcre pour
lui confier la garde de ce
sanctuaire. Il y a eu même
quelques individus qui ont
exprimé le voeu d'appeler
dans la ville de Salomon
les Juifs dispersés dans
différents pays pour [illegible]
[illegible]

على دعم أوروبي لمشاريعها الاستيطانية في فلسطين واستغلال التناقضات الامبريالية الأوروبية في سبيل ذلك وهذا مما سيؤدي فيما بعد إلى نشوء الحركة الصهيونية. ●

المراجع

(١) انظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٧، دراسة أوروبية حديثة مماثلة عن الارتباط بين التبشير والمصالح الاستعمارية للدول الأوروبية في القرن التاسع عشر.
Karl Hammer: Weltmission und Kolonialismus. Sendungsideen des 19. Jahrhunderts im Konflikt, Muenchen 1978.

(٢) Abdel-Raouf Sinno: Deutsche Interessen in Syrien und Palaestina, 1841-1898, Aktivitaeten religioeser Institutionen, wirtschaftliche und politische Einfluesse, Berlin 1982, p. 13ff.

(٣) Friedrich Nippold: Christian Carl Josias Freiherr von Bunsen. Aus seinen Briefen und nach eigener Erinnerung geschildert von seiner Witwe, Vol. II, Leipzing 1869, p. 200.

(٤) Arbeit und Aufgabe der evangelischen Kirchen in Jerusalem, Berlin 1895, p. 9.

(٥) عن حياة بونسن السياسية وعلاقته مع الدوائر الدينية والسياسية في المانيا وبريطانيا انظر:
Wilma Hoecker: «Der Gesandte Bunsen als Vermittler zwischen Deutschland und England», in: Goettinger Bausteine zur Geschichts-wissenschaft 1 (1951), p. 79ff.

(٦) انظر على سبيل المثال: رسالة فريدريش فلهلم الرابع عندما كان وليا للعهد إلى بونسن، ٢٥ آذار، (١٨٤٠)، في:
Leopold von Ranke: Aus dem Briefwechsel Friedrich Wilhelms IV. mit Bunsen, Leipzig 1873, p. 59f.; Religion in Geschichte und Gegenwart, Vol. V, 3. ed., p. 563; R.W. Greaves: «The Jerusalem Bishopric, 1841», in: English Historical Review, 64 (July 1949).

(٧) Nippold, op. cit., p. 200

(٨) Ibid, pp. 200-201

(٩) J. Hajjar: L'Europe et les destinées du Proche-Orient (1815-1848), Paris 1970, p. 352ff.

(١٠) F.O. 64/235, Buelow to Palmerston, 6. March 1841.

المقصود هنا ضريبة الجزية.

(١١) Nippold, op. cit., p. 201.

(١٢) F.O. 64/235, Buelow to Palmerston, 6. March 1841.

(١٣) حـول مـواقف الدول الأوروبيـة من المشـروع البروسي، انظر:

The Cambridge Modern History, Vol. XI: The Growth of Nationalities, Cambridge 1909, p. 311; Heinrich von Treitschke: Deutsche Geschichte im neunzehnten Jahrhundert, Vol. V, Leipzig 1894, p. 121; «Das anglikanisch-evangelische Bisthum im Jerusalem», in: Beilage zur Allgemeinen Zeitung, Muenchen, No. 38, 15 Feb. 1899, p. 1; Nippold, op. cit., p. 201.

(١٤) Nippold, op. cit., p. 201

(١٥) Greaves, op. cit., p. 333; Isaiah Friedman: «Lord Palmerston and the Protection of the Jews in Palestine 1839-1851», in: Jewish Social Studies, 30 (1968), p. 23.

(١٦) F.O. 78/390, Palmerston to Pomsonby, No. 134, 11 Aug. 1840, and F.O. 195/185, Ponsonby to Palmerston, No. 19, 21 Jan. 1841, in: Hyamson: the British Consulate in Jerusalem in relation to the Jews of Palestine (1838-1914), Vol. I, London 1939, p. 33ff.

(١٧) نقلا عن:

Heinrich Abeken: Das evangelische Bisthum in Jerusalem. Geschichtliche Darlegung mit Urkunden, Berlin 1842, p. 33.

(١٨) F.O. 64/235, Bunsen to Palmerston, 15 July 1841.

(١٩) تم الاتفاق النهائي بشأن تأسيس المطرانية في بداية كانون أول ١٨٤١. انـظر الاعلان الرسمي عن المطرانية بتاريخ ٩ كانون اول ١٨٤١ في:

W.H. Hechler: The Jerusalem Bishopric, London 1883, documents-part, p. 107.

(٢٠) حول اوضاع اليهود في المانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر انظر:

Ernest Hamburger: Die Juden im oeffentlichen Leben Deutschlands 1848-1918, Tuebingen 1968, p. 6ff.; Hans Liebeschuetz and Arnold Paucker (ed.): Das Judentum in der Deutschen Umwelt 1800-1850. Studien zur Fruehgeschichte der Emanzipation, Tuebingen 1977.

(٢١) Erwin Roth: Preussens Gloria im Heiligen Land. Die Deutschen und Jerusalem, Muenchen 1973, p. 61.

فـريدريش يـان كان أحـد مؤسسي «الحـركة التورنية» في المانيا في بداية القرن التاسع عشر. ومن أهـدافها القضـاء عـلى التجـزء السيـاسي والاقليمي ومحاربة الفرنسيين والغرباء.

(٢٢) Joh. Gottlieb Fichte: Beitrag zur Berichtigung der Urteile des Publikums ueber die franzoesische Revolution. Erster Teil: Zur Beurteilung ihrer Rechtmaessigkeit, von Gentz, ed. Richard Schottky, Hamburg 1973, pp. 114-115.

(٢٣) Egmont Zechlin: Die deutsche Politik und die Juden im Ersten Weltkrieg, Goettingen 1969, p. 23.

(٢٤) Simon M. Dubnow: Die neueste Geschichte des Juedischen Volkes (1789-1914), Vol. I, Berlin 1920, pp. 21-22; Jacob Lestschinsky: Das wirtschaftliche Schicksal des deutschen Judentums. Aufstieg-Wandlung-Krise-Ausblick, Berlin 1936, pp. 16-29.

(٢٥) Kurt Zielenziger: Die Juden in der deutschen Wirtschaft, Berlin 1930, pp. 58-59, 64-192.

(٢٦) Ibid, pp. 23-25

(٢٧) Gustav Mayer: «Early German Socialism and Jewish Emancipation», in: Jewish Social Studies, 1 (1939), p. 419;

وانـظر ايضـا: حسـان حلاق، مـوقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية. بيروت ١٩٧٥، ص ٣٠ ــ ٣١.

(٢٨) Zechlin, op. cit., p. 23

(٢٩) Lestschinsky, op. cit., p. 42; Hamburger, op. cit., p. 7.

(٣٠) Jacob Toury: «Der Eintritt der Juden ins deutsche Buergertum», in: Liebeschuetz und Paucker (ed.), op. cit., pp. 139-242.

(٣١) Ibid, p. 227

(٣٢) Zechlin, op. cit., p. 22

(٣٣) انظر على سبيل المثال الشروط التي وضعت على يهود بوزن (بوزنان) لقاء منحهم المواطنة البروسية في:

Stefi Wenzel: Juedische Buerger und Kommunale Selbstverwaltung in preussischen Staedten, Berlin 1967, p.163.

(٣٤) Isaak Markus Jost: Neuere Geschichte der Israeliten von 1815 bis 1845, Berlin 1846, p. 292.

(٣٥) Hajjar, op. cit., p. 8

(٣٦) Jost, op. cit., p. 312

(٣٧) Friedman, op. cit., p. 29; F.O. 195/165, Palmerston to Ponsonby, No. 251, 25 Nov. 1840, in: Hyamson, op. cit., Vol. II (1941), pp. LXVII-LXXIII.

(٣٨) حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين في القرن الماضي، انظر وليم فهمي: الهجرة الصهيونية إلى فلسطين المحتلة. القاهرة ١٩٧١، ص ١٦ وما بعدها. انظر ايضا:

Tolkowsky: The Gateway of Palestine. A History of Jaffa, London 1924, p. 160; Hyamson, op. cit., Vol. I, pp. 4-6; Friedman, op. cit., LXVIII-LXXI.

(٣٩) Friedman, op. cit., pp. 33-34

(٤٠) Ibid, pp. 23-41

وكتاب هيامسون، الجزئين الأول والثاني.

(٤١) Nippold, op. cit., Vol. II, pp. 1-3

(٤٢) نقلا عن:

Kurt Schmidt-Clausen: Vorweggenom-

mene Einheit: Die Gruendung des Bistums Jerusalem im Jahre 1841, Berlin-Hamburg 1965, p. 89.

(٤٣) انظر رسالة بونسن إلى اشلي المؤرخة ٢ آب ١٨٤١ في:
Nippold, op. cit., Vol. II, p. 151.

(٤٤) Ibid, pp. 120-121

(٤٥) Ibid, p. 151

(٤٦) In Nippold, Vol. II, p. 171

تاريخ الرسالة هو ١٩ تموز ١٨٤١ — اصبح بونسن فيما بعد (Vizepatron) لجمعية يهود لندن بسبب مواقفه المؤيدة لعودة اليهود إلى فلسطين. انظر:

A.L. Tibawi: British Interests in Palestine 1800-1901. A Study of Religious and Educational Enterprise, London 1961, p. 96.

(٤٧) نقلا عن: .Ranke, op. cit., pp. 94-95

(٤٨) Ibid, p. 95

(٤٩) Mordechai Eliav: «German Interests and the Jewish Community in Nineteenth-Century Palestine», in: Studies on Palestine during the Ottoman Period, ed. of Moshe Ma'oz, Jerusalem 1975, pp. 426-427.

(٥٠) انظر مذكرات بونسن بتاريخ ٢٩ نيسان ١٨٤١ في:
Nippold, op. cit., Vo. II, pp. 199-200.

وايضا:
«Das anglikanisch-evangelische Bisthum, op. cit., p. 3.

(٥١) Abeken, op. cit., pp. 4-8

(٥٢) F.O. 78/429, Palmerston to Ponsonby, No. 187, 26 July 1841.

(٥٣) تقرير كونغسمارك موجود في مذكرة بونسن إلى ابردين، وزير خارجية بريطانية بعد بالمرستون في:
F.O. 64/241, Bunsen to Aberdeen, No. 53, 17 Jan. 1842.

(٥٤) Hechler, op. cit., documentspart, p. 125

(٥٥) Walter Holsten: «Israel und Palaestina im Missionsdenken des 19. Jahrhunderts», im: Evangelische Theologie, Muenchen, 14 (1954), p. 214.

(٥٦) انظر رسالة قنصل عام بروسيا لسوريا وفلسطين إلى القنصل البروسي في القدس بتاريخ ١٣ حزيران ١٨٤٢ في:
Mordechai Eliav: Die Juden Palaestinas in der deutschen Politik, 1842-1914, Tel-Aviv 1973, p. XVI.

(٥٧) Heinrich Abeken: Ein schlichtes Leben in bewegter Zeit, aus Briefen zusammengestellt,3 ed., Berlin 1904, pp. 122-123.

(٥٨) Nippold, op. cit., Vol. II, pp. 13-14

(٥٩) Bernhard Neumann: Die Heilige Stadt und deren Bewohner in ihren naturhistorischen, culturgeschichtlichen, socialen und medicinischen Verhaeltnissen, Hamburg 1877, pp. 284-186.

(٦٠) Ibid, pp. 376-378

● كل عمل ضد الاستعمار عمل عربي. وكل عمل من أجل الحرية عمل عربي.

(جمال عبد الناصر)

● ان اسرائيل بموقفها الحالي.. تعمل على نهايتها، إن لم يكن في القريب.. فهو قطعاً في المستقبل..

(جورج براون)

● إننا نطالب الأمم المتحدة بالتدخل لوقف الأعمال غير الأخلاقية التي تجري في القدس المقدسة بعلم وبموافقة السلطات الاسرائيلية.. ومنها انتشار المواخير وعلب الليل وأماكن المقامرة والأعمال المنافية للأخلاق.

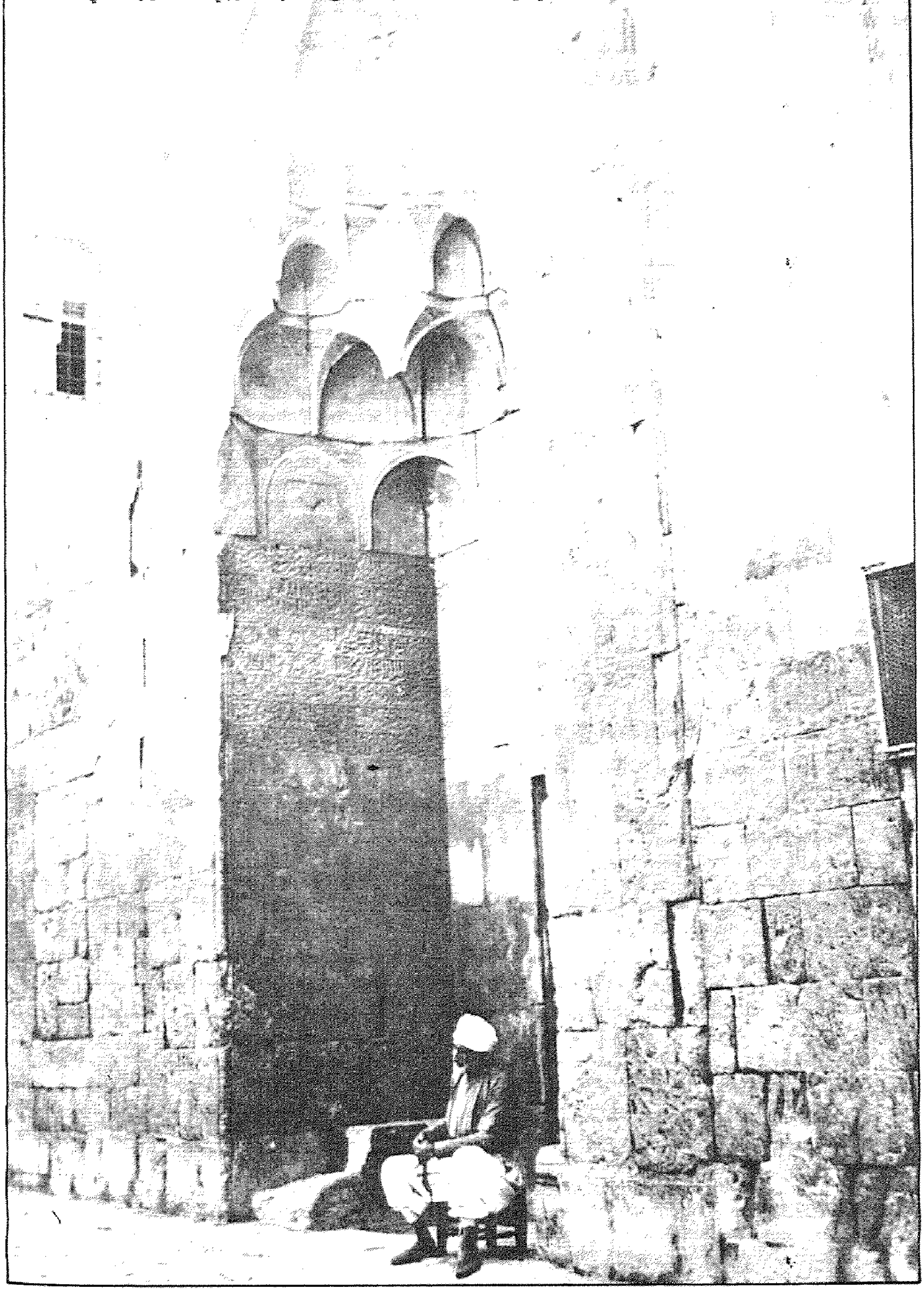
(من رسالة لمجلس الكنائس العالمي)

● أن على الولايات المتحدة التزاماً أدبياً وقانونياً نحو اسرائيل.. وهو التزام يجب أن يبقى مهما كانت الظروف.

(روبرت كيندي)

● إنني أؤيد انشاء وطن قومي لليهود.. ولكن ألم تكن هناك طريقة أفضل لتحقيق ذلك؟

(ليستر بيرسون)



□ مستشفى، أرغون كاميلي، في حلب. من كتاب «تاريخ الطب العربي» للدكتور سامي حداد.

البيمارستانات

في التاريخ العربي ونظام العمل فيها

د. مؤنس محمود غانم

يعتبر العرب أول الشعوب التي أسست المشافي (البيمارستانات) في تاريخ البشرية، ولم يكن عند العرب في أيام الجاهلية أية مستشفيات إلا أنه في السنة الخامسة للهجرة (٦٢٧م) عندما حدثت معركة الخندق أقام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم خيمة في مسجد المدينة لرفيدة الأسلمية، ولما جرح سعد بن معاذ، رضي الله عنه، أرسله إليها وقال لأصحابه صلوات الله عليه:

[اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب].

أما أول مستشفى في الاسلام فقد بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك[1] سنة ٨٨ للهجرة (٧٠٦م) وجعل فيه الأطباء ثم أمر بحبس المجذومين حتى لا يختلطوا بالناس.

وفي أيام الخلافة العباسية كثرت المستشفيات في بغداد وفي الأمصار، وقد بنى هارون الرشيد مشفى سنة ١٩٣ للهجرة (٨٠٩م)، والمعتضد سنة ٢٧٩ للهجرة، والمقتدر سنة ٣٠٦ للهجرة، ومعز الدولة بن بويه سنة ٣٥٥ للهجرة وأخوه عضد الدولة سنة ٣٧٢ للهجرة.

ونالت مصر في بناء المشافي عناية كبيرة: فقد بنى الأمويون مستشفى في الفسطاط. ثم بنى الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل العباسي مشفى، ثم بنى أحمد بن طولون فيها المستشفى الأعلى، وكافور الأخشيدي بنى المستشفى الأسفل سنة ٣٤٦ للهجرة.

وعندما استولى الفاطميون على مصر من الأخشيديين وبنوا القاهرة والجامع الأزهر بنوا قربه بيمارستان القشاشين. ثم لما قامت الدولة الأيوبية الفاطمية بنى صلاح الدين المستشفى الناصري في القاهرة وبيمارستان الاسكندرية. وبعدها جاءت دولة المماليك في غمرة الحروب الصليبية، فبنى السلطان قلاوون المنصور البيمارستان الكبير المنصوري (مارستان قلاوون أو دار الشفاء) سنة ١٢٩٠ للميلاد فكان أعظم المستشفيات وأوسعها وانشطها.

وكثرت المستشفيات في سورية وفلسطين في أيام الأيوبيين والمماليك من انطاكية شمالا إلى غزة جنوبا وذلك استجابة للحاجة الملحة التي أوجدتها الحروب الصليبية، وكان أشهرها البيمارستان الكبير النوري في دمشق الذي بناه نور الدين محمود سنة ١١٧٣م (٥٦٩ للهجرة).

أما المغرب العربي فقد كان أحد ضواحي قرطبة في الأندلس يدعى ربض المرضى (الربض هـو الضـاحيـة) ولكن لم يـرد ذكـر صـريـح للمستشفيات في الأندلس وفي المغرب كله قبل القرن السابع للهجرة.

أنواع البيمارستانات

أولا ــ مـشــافي الجــذام: أول من بـنـى مستشفى لمعـالجة المجـذومين كـان الوليد بن عبـد الملك الأموي[٢]. أمـا في أوروبا فلم تبن مستشفيات للجذام قبل القرن الثاني عشر، وقد نقلها الصليبيون عن سوريا ومع ذلك ففي عام ١٣١٣ أمر الملك فيليب بحرق جميع المجذومين في فرنسة.

ثانيا ــ مستشفيات المجانين: بدىء بإقامة مشافي خاصة للبلهاء والمجانين منذ القرن الأول الهجـري وكان لهـؤلاء أيضـا محـل خـاص بمعالجتهم في المستشفيات العامة حيث أفردت لهم غرف خاصة ذات نوافذ مشبكة بقضبان الحديد. وفي هذا الوقت كان المجانين في أوروبا يقيدون بسلاسل الحديد، والعلاج الوحيد لهم عندما ترتفع أصواتهم بالصراخ هو الضرب.

ثالثا ــ المستشفيات النقالة: وكان يدعى أيضا (البيمارستان المحمول) وهـو ذاك الذي يجهز بالأدوية والأغذية ويرسل إلى المناطق النائية أو عند حدوث الأوبئة. ويقول الدكتـور أحمد عيسى في كتـابه «تـاريـخ البيمـارستـانـات في الاسلام»: [والراجح أن العرب هم أول من أنشأ البيمـارستان المحمـول وهـو مستشفى مجهـز بجميع ما يلزم المرضى من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين. ينقل من بلد إلى آخر من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة، أو التي يظهر فيهـا وباء أو مـرض معـد]. وأول من أسس البيمارستان المحمول هو الوزير علي بن عيسى بن الجراح في أيام الخليفة المقتدر سنة ٣٣٥ للهجرة وذلك بإشارة من سنان بن ثابت بن قرة، وقد كتب هذا الوزير إلى سنان ما يلي: [فكرت في من في السواد من أهله فإنه لا يخلو أن يكون فيه مرضى لا يشرف عليهم متطبب لخلو السواد من الأطباء، فتقدم مد الله في عمرك بإنفاذ متطببين وخزانة للأدوية والأشربة يطوفـون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إليه ويعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون إلى غيره][٣].

رابعا ــ مأوى للعميان والأيتام والنساء العاجزات: وقد بناها المأمون الخليفة العباسي في المدن الكبيرة[٤].

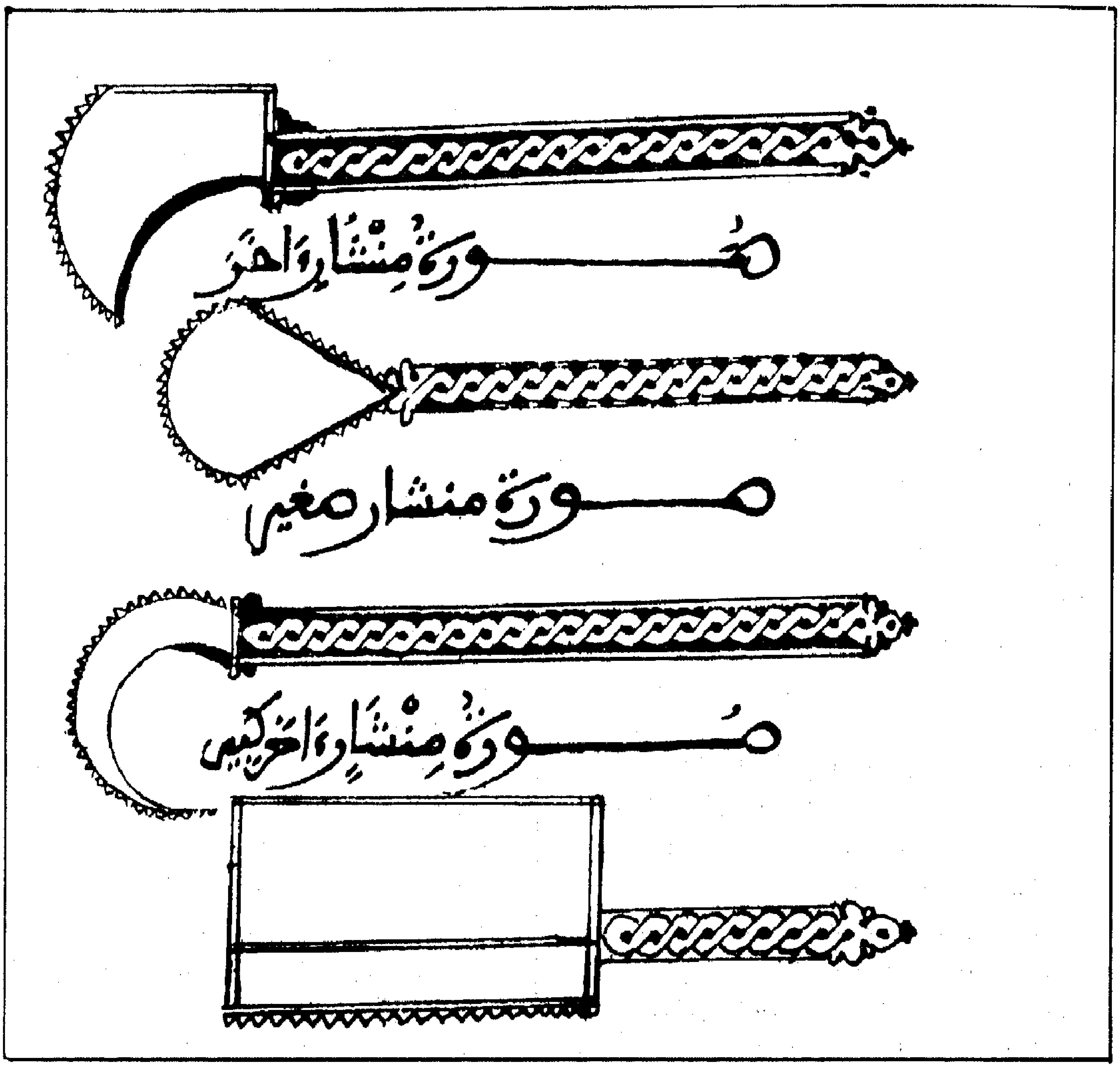
خامسا ــ المرضى في السجون: كتب الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنـان بن ثابت رئيس أطباء بغداد ما يأتي [فكرت مد الله في عمرك في أمر من الحبوس وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منـافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم وتحمل إليهم الأدويـة والأشربـة ويطوفـون في سائـر الحبوس ويعالجون فيها المرضى][٥].

سادسا ــ محطات الاسعاف: وكانت تقام بالقرب من الجـوامع حيث تـزدحم الجماهـير للصلاة، وهناك يقوم الأطباء والصيادلة بعلاج المصابين بالحوادث والأمراض[٦].

سابعا ــ مستشفيات الجيش: كان للجيش أطباء مخصوصون ما عدا أطباء الخليفة والقواد والأمراء[٧] وكانت هذه المستشفيات متحركة على ظهـور الجمال والبغـال، وكانت النسـاء تقوم بتمريض الجرحى من الجنود حتى يشفوا. وفي ذلك الوقت كانت خدمة الجرحى في جيوش أوروبا تقع على عاتق زملائهم أو تسند إلى المومسات اللاحقات بالجيش.

ثامنا ــ المستشفيات العمومية: تبنى في المدن الكبيرة من السلطنة الاسلاميـة كبغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة وبعض المدن في المغرب والأندلس[٨] وسوف نتوسع في بحث المستشفيات العموميـة لأنها جـديرة في البحث ولتبيـان فضل العـرب في إنشـاء تلك المجمعات الصحية الرفيعة المستوى.

إن اختيار موقع المستشفى كان يلقى العناية الفائقة ولم يكن اعتبـاطيا وإنمـا بعد الدرس والبحث. وقد جاء في كتاب طبقات الأطباء:



□ ادوات العمليات الجراحية في إحدى رسائل الزهراوي، القرن السادس عشر، المكتبة الوطنية ــ باريس.

إن عضد الدولة استشار الرازي ليختار له مكانا لبناء البيمارستان العضدي، فطلب الرازي أن يعلق في كل ناحية في جانبي بغداد شقة لحم، واعتبر الناحية التي لم يتغير فيها اللحم فأشار بإقامة المستشفى عليها(٩).

نظام البيمارستان

كانت البيمارستانات تسير على نظام تام وعلى أصول مرعية لا تقل عن النظام الحديث والأصول الحديثة وإن كانت هذه تفوقها في الآلات والأدوات والأساليب التي تسود المستشفيات في هذا العصر مما يتناسب وتقدم الطب.

يفحص المرضى قبل دخولهم المستشفى في القاعة الخارجية (العيادة الخارجية) فمن خفت علته أسعف وكتب له العلاج وصرف له من صيدلية المستشفى، أما الباقون فكانوا بعد أن تقيد أسماؤهم في سجل المرضى يدخلون الحمام ويغتسلون ثم يلبسون ثيابا مطهرة نظيفة، أما ثيابهم التي جاؤوا بها فتحفظ في المخزن حتى خروجهم. ويقبل في المستشفى كل الناس المرضى الغني والفقير على السواء، بغض النظر عن الدين أو اللون أو الجنسية، ومهما بلغت مرحلة المرض وهذا الأمر قد نستغرب منه في عصرنا الحديث عصر المساواة. ونذكر فقرات من وقفية المستشفى المنصوري الذي بناه منصور بن

قلاوون سنة ١٢٩٠: [وتقيم المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويفرق على القوي والضعيف والغني والفقير والمأمور والأمير والمترف من غير اشتراط تعويض من الأعواض بل لمحض فضل الله الكريم][١٠].

يدير البيمارستان غالبا أحد الأمراء أو الأشراف أو عظماء الدولة[١١]، ويكون المدير على جانب عظيم من الكفاءة والثقافة، وهو يتولى الاشراف على مخازن الملبوسات والمهمات والمأكولات والأدوية.

وكان الاهتمام بمراقبة الأرزاق والجرايات وتوزيعها قائما، والمتعهد الغشاش يتم عقابه بشدة كما فعل الوزير عيسى بن علي بن الجراح مع مدير أرزاق البيمارستان العضدي بناء على شكوى الساعور (العميد) سنان بن ثابت الطبيب المعروف: [... عرفني أكرمك الله ما لمسته في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة البيمارستان خاصة مع الشتاء واشتداد البرد فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعمل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى بالدثار والكسوة والفحم؛ واعن بأمر المستشفى أفضل عناية]. أما تغذية المرضى والعناية بطعامهم فحدث عنه ولا حرج، والحقيقة أنه لا يسع المرء اليوم إلا أن يعجب لشدة حرص السلطات في ذلك الزمن على الاهتمام بتغذية المرضى، إذ كانت علامة الشفاء عند الأطباء هي أن يأكل المريض رغيفا ودجاجة كاملين في كل وجبة، وكان المرضى قبل خروجهم من البيمارستان يعطون بذلة ثياب ومبلغا من المال، لهذا تكثر حالات (التمارض)، ومن ذلك أن شابا أعجميا تظاهر بالمرض، ولكن أمره لم يخف على الطبيب الفاحص فأدخله المستشفى رغم ذلك وأبقاه ثلاثة أيام وبعدها جاء إليه وقال ممازحا (إن مدة الضيافة العربية قد انتهت).

وصف البيمارستان

كانت المستشفيات (البيمارستانات) تنقسم إلى قسمين، قسم للرجال وقسم للنساء، وكل قسم يحتوي على غرف وقاعات منها ما هو للعيون والجراحة والكسور والتجبير، وبنفس الوقت كان قسم الأمراض الداخلية ينقسم إلى غرف منها للحميات ومنها لحوادث الاسهال ومنها للأمراض العقلية، ولم تخل المستشفيات من أقسام خاصة للناقهين، والمياه جارية في أغلب الأقسام. وكانت مؤثثة بأحسن الأثاث وقد قيل أن المستشفى المنصوري كان يماثل أثاث قصر الخليفة وقصور الأمراء. وننقل هنا ما قاله ابن جبير[١٢] الرحالة الشهير في وصف المستشفى الذي بناه صلاح الدين في القاهرة:

ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا. أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا وعين قيما من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق لهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المريضات، ولهن أيضا من يكفلهن.

ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين، ولهم أيضا من يتفقد كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها.

والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء والمثابرة عليها غاية التأكيد.

ويلحق بكل بيمارستان أطباء وجراحون وأطباء عيون وكذلك مجبرون وطلبة يتعلمون مهنة الطب، وكان المرضى يرقدون في أسرة مزودة بأغطية، وكان الطبيب يزور المرضى كل يوم، والمناوبة واجبة على الأطباء كبيرهم وصغيرهم ورفيعهم ووضيعهم، وقد تمتد إلى ثمان وأربعين ساعة. وتجري المشاورات بين الأطباء فيما يختص بالمرض وذلك كلما دعت الحاجة، وكان أكبر الأطباء سنا يتقدم غيره في الكلام.

ويحكي ابن المطران وهو طبيب صلاح الدين المشهور وعميد أطباء دمشق والمستشفى النوري أنه رأى أثناء زيارته للمرضى رجلا به استسقاء زرقي قد استحكم به فقصد إلى بزله وكان في ذلك الوقت في البيمارستان ابن حمدان الجرائحي

وله يد طولى في العلاج فعزموا على بزل المستسقي. قال فحضرنا وبزل الموضع على ما يجب فجرت مائية صفراء وابن المطران يتفقد نبض المريض فلما رأى أن قوته لا تفي بإخراج أكثر من ذلك أمر بشد الموضع وأن يستلقي المريض ولا يغير الرباط أصلا.

ووجد المريض خفة وراحة كبيرة. وكانت عنده زوجته فأوصاها ابن المطران أن لا تمكنه من حل الرباط ولا تغيره بوجه من الوجوه إلى أن يبصره ثاني نوم. فلما انصرفنا وجاء الليل قال لها زوجها: إنني قد وجدت العافية وما بقي بي شيء وإنما الأطباء قصدهم أن يطولوا بي فخلي الرباط حتى يخرج هذا الماء الذي قد بقي وأقوم في شغلي، فأنكرت عليه قوله ولم تقبل منه. فعاودها بالقول وكرر ذلك عليها مرات ولم يعلم أن بقية المائية إنما جعلوا إخراجها في وقت آخر مراعاة لحفظ قوته وشفقة عليه. فلما حلت الرباط وجرت المائية بأسرها خارت قوته وهلك.

والواقع أن العرب أيضا هم أول من بدأ بالتدريس الطبي في المستشفيات بطريقة علمية[١٤]، وأول من اقام العيادات الخارجية، وأول من اهتم بإدارة المستشفيات وضبط حساباتها، وأول من أوجب فحص الأطباء قبل الترخيص لهم بمعاطاة الطب، كما كانوا أول من الحق بالمستشفيات الصيدليات القانونية وأكثر من ذلك فإنهم أوجبوا على الأخصائيين أن يقدموا امتحانا خاصا ويحصلوا على ترخيص خاص بالفرع الذي تخصصوا به، الأمر الذي لم ندرك مكانه حتى يومنا هذا رغم تكرار الطلب والالحاح على ذلك[١٥].

وفي الخاتمة نقول أنه رغم هذه اللمحة المختصرة عن المستشفيات العربية (البيمارستانات) لا يمكننا أن نحكم على مقدار أثرها في مستشفيات العصر الحاضر، ولكن في نفس الوقت لا يمكن إلا أن نعجب بكثرة التشابه بينهما من جهة الادارة والفرش والعناية بالمرضى. لذلك فالمستشفيات العربية تعطينا دروسا مفيدة حتى أيامنا هذه. ●

المراجع

(١) تاريخ العلوم عند العرب، د. عمرفروخ. صفحة ٧٢ وما بعد.
(٢) المقريزي: الجزء الثاني، الصفحة ٤٠٥.
(٣) ابن ابي أصيبعة: الجزء الاول، صفحة ٢٢١.
(٤) ابن خلكان: الجزء الأول، صفحة ٤٩٣.
(٥) ابن ابي أصيبعة: الجزء الأول، صفحة ٢٢١.
(٦) المقريزي: الجزء الثاني، الصفحة ٢٤٠.
(٧) ابن ابي أصيبعة: الجزء الثاني، صفحة ٢٤٠.
(٨) تاريخ البيمارستانات في الاسلام، د. احمد عيسى بك. صفحة ١٠١.
(٩) تاريخ التمدن الاسلامي، الجزء الثالث من المجلد الثامن، صفحة ٢٠٢.
(١٠) إدارة المستشفيات في المجتمع الاسلامي، محاضرة على مدرج محمود سعدة في كلية الطب بدمشق، د. نشأت الحمارنة.
(١١) ابن ابي أصيبعة: الجزء الأول، صفحة ٢٢١.
(١٢) رحلة ابن جبير، الصفحة ٥١.
(١٣) ابن ابي أصيبعة: الجزء الثاني، صفحة ١٧٩.
(١٤) الصيدلة علم وفن وإنسانية، د. جورج وهبة العفي. صفحة ٧٤.
(١٥) مختارات من تاريخ الطب، د. نشأت الحمارنة. صفحة ٣٢٢.

جبران والناس

— أنت اثنان: واحد يتوهم انه يعرف نفسه، وواحد يتوهم أن الناس يعرفونه.
— إن شئت أن تنظر إلى سريرة امرىء، فلا تنظر إلى ما بلغه، بل إلى ما يتوق إليه
— اهتمامنا بعيوب الناس شر عيوبنا.
— ارغب الناس في الجدل: المحقوق. اما المحق فأرغبهم عنه.
— احسن الناس من إذا مدحته خجل، وإذا هجوته سكت.

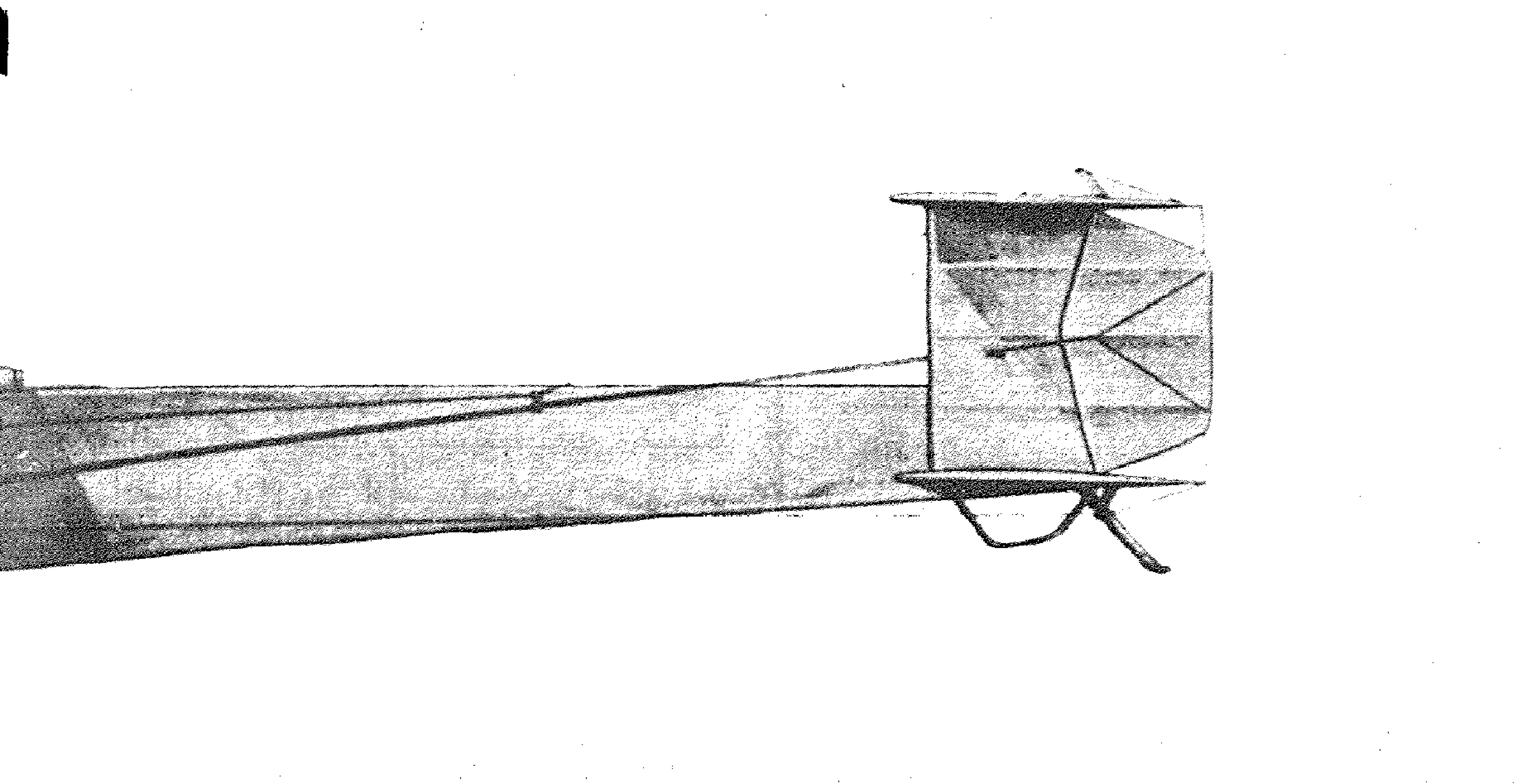
جبران خليل جبران

مُغامرة عُبُور الأطلسِيّ

رائدا الطيران: الكوك وبراون

إعداد: سَعيد كريديّه

□ صورة جانبية لطائرة فيمي التي طارا فيها عبر المحيط.



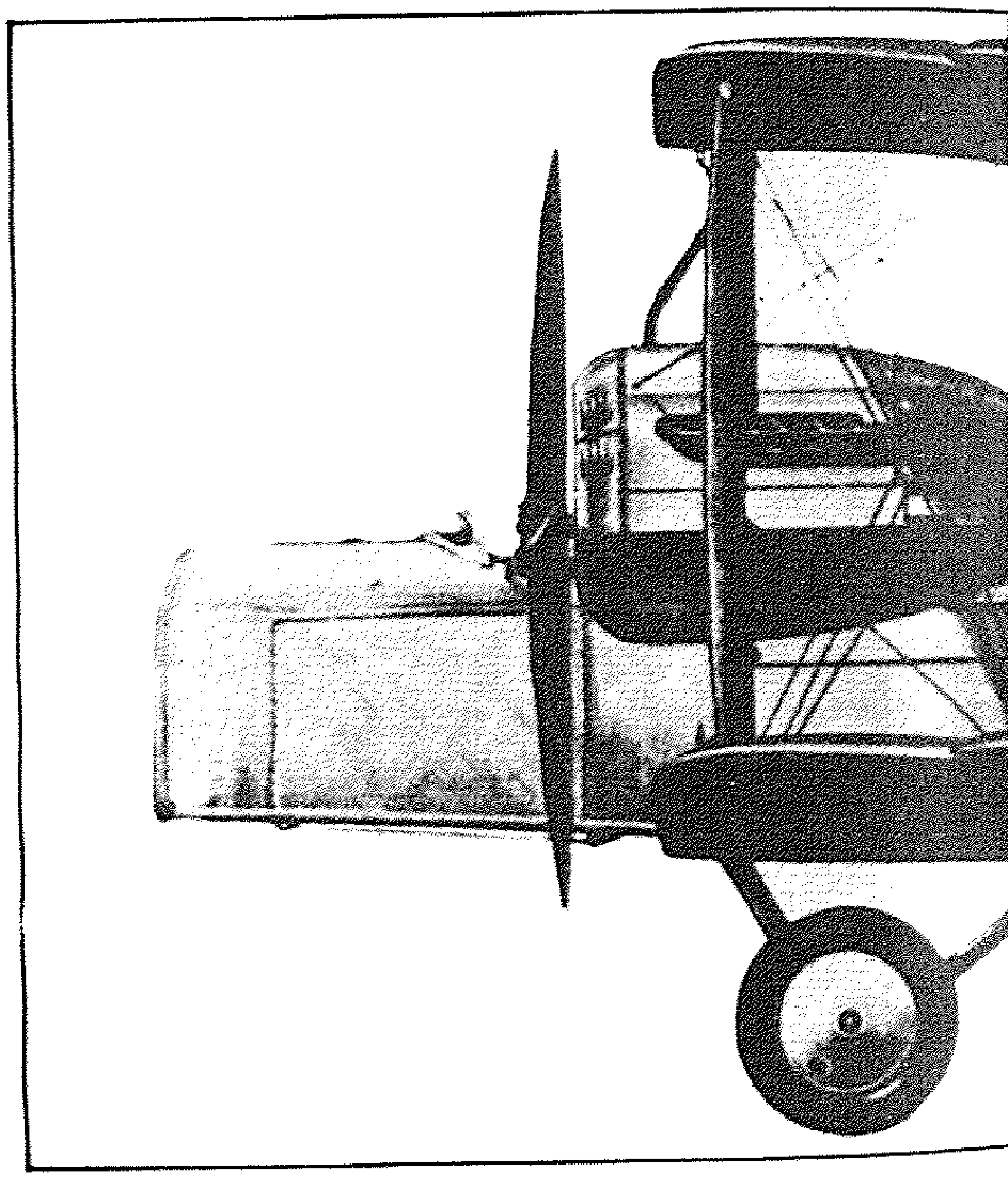
الاستعدادات التقنية

عندما يسأل معظم الناس من كان أول شخص طار فوق الأطلسي يجيبون: «شارل لندبرغ». لقد قام لندبرغ برحلته عام ١٩٢٧ بعد أن تقدم علم الطيران تقدما ملحوظا بالمقارنة بعام ١٩١٩. فقد كان لدى لندبرغ على سبيل المثال مجموعة كاملة من التجهيزات التي تسهل الطيران في السحب. بينما عندما عبر الكوك وبراون الأطلسي لم تكن فكرة الطيران بواسطة آلة قد راجت بعد.

استعمل الكوك وبراون طائرة تسمى فيمي وهي ذات سطحين وصنع معامل فيكر البريطانية. كانت فيمي مصممة بالأصل لتكون قاذفة قنابل، إلا أن الحرب انتهت قبل أن تدخل سماء المعركة. كان جناحا الطائرة مربوطين بدعامة وسلك معدني انسيابي في ثلاث جوانب مع مجموعة أخرى من الدعامات تصل وسط الجناح الأعلى بجسم الطائرة. وكان للطائرة محركان قدرة كل واحد منهما ٣٥٠ حصان ماركة رولس

□ سعيد كريديه: باحث في العلوم الاجتماعية.

أضحى عبور المحيط الأطلسي دون توقف خلال السنوات الثلاثين الأخيرة عملاً روتينياً. إلا ان الأمر لم يكن بهذه السهولة للطيارين الأوائل الذين عبروا المحيط، بل كان عملا فذا فيه جرأة ومهارة استحق عليهما تهليل العالم. كان هذا شأن الرائدين: جون الكوك وأرثر براون. فعلى أثر عبورهما المحيط في حزيران (١٩١٩) منحهما الملك جورج الخامس لقب «فارسين» وحصلا على جائزة مالية قدرها ١٠٠٠٠ جنيه استرليني من صحيفة الديلي ميل اللندنية. لكن عام ١٩١٩ كان عام أفول الحرب العالمية الأولى حيث كان العالم متخما بالأبطال. لذلك لم تذكر إنجازات واسمي هذين الطيارين إلا نادرا.



رويس، أخذا مكانهما بين جناحي فيمي على بعد عشرة أقدام من جانبي جسم الطائرة ليحركا أربع مراوح خشبية. كانت المحركات قوية وأنشط من التي استعملها لندبرغ بعد ثماني سنوات وكان للطائرة أربعة دواليب موزعة على مجموعتين تحتوي كل واحدة منهما على اثنين ركبا تحت الجناح الأسفل. وفي مؤخرتها ذيل ذو سطحين يشبه العلبة ويحتوي على زحافة ليصون الطائرة من الأذى عند الاقلاع أو الهبوط. كما احتوت الطائرة على زحافة في المقدمة للسبب نفسه. كان طول الجناح ٢٨ قدما والوزن الاجمالي ١٣٠٠٠ باوند أي نصف حجم (٣ ـ د. س. ـ DS-3).

وكانت الطائرة في شكلها الأصلي تتسع لأربعة ربان مع مدفعين في الأمام. لكن طائرة الكوك وبراون عدلت لتجعل ربان الطائرة والملاحين جنبا إلى جنب بدلا من أن يكونوا واحداً تلو الآخر. وقد زودت بخزان وقود إضافي ليؤمن لها الطوفان في حالة الهبوط الاضطراري على الماء.

جرب الكوك طائرته في انكلترا في نيسان كما أشرف مع بروان على تركيب قطعها وبعد عشر ساعات من الاختبار فككت الطائرة وشحنت في صناديق إلى (New Foundland) (نيوفاوندلاند) بكندا حيث أعيد تجميعها وجهزت للطيران ثم اختبرها الكوك وبراون مرتين وأعلناها صالحة للامتحان الكبير.

سيرة الرائدين

ولد جون الكوك، الربان، من تاجر أحصنة في مانشستر عام ١٨٩٢،وكان يتمتع بخبرة فائقة في الطيران بالنسبة لعصره. تعلم الطيران عام ١٩١٢ ومارس التحليق باستمرار منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى جانب السرب الملكي، وحتى عام ١٩١٧ حتى سقطت طائرته قرب استانبول، أثناء قصفه للمدينة، ووقوعه أسيراً بيد الأتراك. إلا أنه ظل في ذهن الناس الطيار الجريء المتيقظ المتفاخر والطائش.

أما ارثر براون زميله الذي كان أكثر حزماً وقلقا تجاه الصعاب فقد ولد في غلاسكو عام ١٨٨٦ من أبوين احتفظا بجنسيتهما الأميركية. نشأ ارثر فيمانشستر وأصبح مهندسا لشركة وستنغهوس. خدم خلال الحرب مع الفيلق الملكي

للطيران كمراقب وطيار. كما أهل لمنصب ملاح بحري.

استغل براون التقنية الملاحية التي تعلمها في البحر معتمدا على التقدير دون استعمال الآلات الفلكية. وكان يستعمل خريطة مركيتر (Mercator) لتعيين المواقع على الخريطة مستعملا أقلاما ومساطر ولوائح معينة تستخدم في السفن بالاضافة إلى مقياس أبليارد (Appleyard). ولم يكن معينه إلا تأشيرات السماء التي تعطيها آلة سكستانت.

بدء الرحلة

عين براون خطوط مكانه بعد أن أخذ المناظر بواسطة آلة بيكر (Baker) البحرية التي أدخل القائد ت.ي. بيكر تعديلات عليها في تلك السنة.

وكانت هذه الآلة تحتوي على فيلم شفاف ممدود بين بكرتين ومحمول على قاعدة في أعلى خارطة الملاحة، كما اتفق مع زميله على أن يقوم هو بالعمل الحسابي والتخطيط ويتولى الكوك القيادة.

في ١٤ حزيران كان كل شيء جاهزا لاتمام الرحلة. وفي الساعة ١٢ و ٤٣ دقيقة أقلع الكوك من نيوفاوندلاند، وحضر الاقلاع ممثل رسمي من نادي الطيران الملكي في ميدان لستر.

كانت الطائرة مملوءة بالوقود وحلقت على ارتفاع منخفض بمعدل يقل عن ١٠٠٠ قدم لتبدأ برحلة طولها ١٦٤٥ ميلا بحريا.

لم تحظ رسالة الاقلاع التي أرسلت إلى انكلترا بنصيب وافر من الاهتمام والحماس. لكن توقف جهاز الراديو عن العمل بعد عبور ساحل

□ الكوك وبراون يتاهبان للقيام برحلتهما الملحمية غير المعلنة عبر الاطلسي.





□ آرثر براون.



□ جون الكوك.

نيوفاوندلاند أعطى لبراون الحرية للتركيز على الملاحة. اهتم الكوك بوجهة سير براون وحافظ على ارتفاع ثابت. وهذا الأمر كان عملاً صعباً آنذاك، بعدم توفر الجيروسكوب الموجه ولقلة التجهيزات اللازمة في الطائرة. في هذه الأثناء انشغل براون في آلة قياس الارتفاع.

وبعد ٢٠ دقيقة من عبور الساحل وكانت الساعة ١٢ و ٥٨ دقيقة ألقى براون نظرة الى الشمس ووجد أنهما كانا في المسار السليم.

صعوبات الرحلة

كانت أول صعوبة واجهت الرحلة هي ظهور الضباب وخاصة بالنسبة لطائرة مثل فيمي لا تحمل الجيروسكوب وحيث كان يتطلب على الربان تكثيف تركيزه على القيادة. لقد حاول الكوك تفادي الضباب بالتحليق فوقه إلا انه اصطدم بطبقة أخرى من الغيوم مما جعل براون يركز اكثر على تقديراته الشخصية لأن الغيوم منعت الوصول إلى إشارات سماوية.

انطلق البخار في الجانب الأيمن للمحرك على شكل ذيل ساطع من اللهب دون أن يمس الأجنحة أوجسم الطائرة. حاول الكوك التحليق فوق الغيوم كي يتسنى لبراون رؤية الشمس وبعد محاولات عدة وفاشلة تمكن الكوك من إنجاز هذه المهمة وفسح المجال لزميله لرؤية الشمس التي كانت تتطابق مع تقديراته.

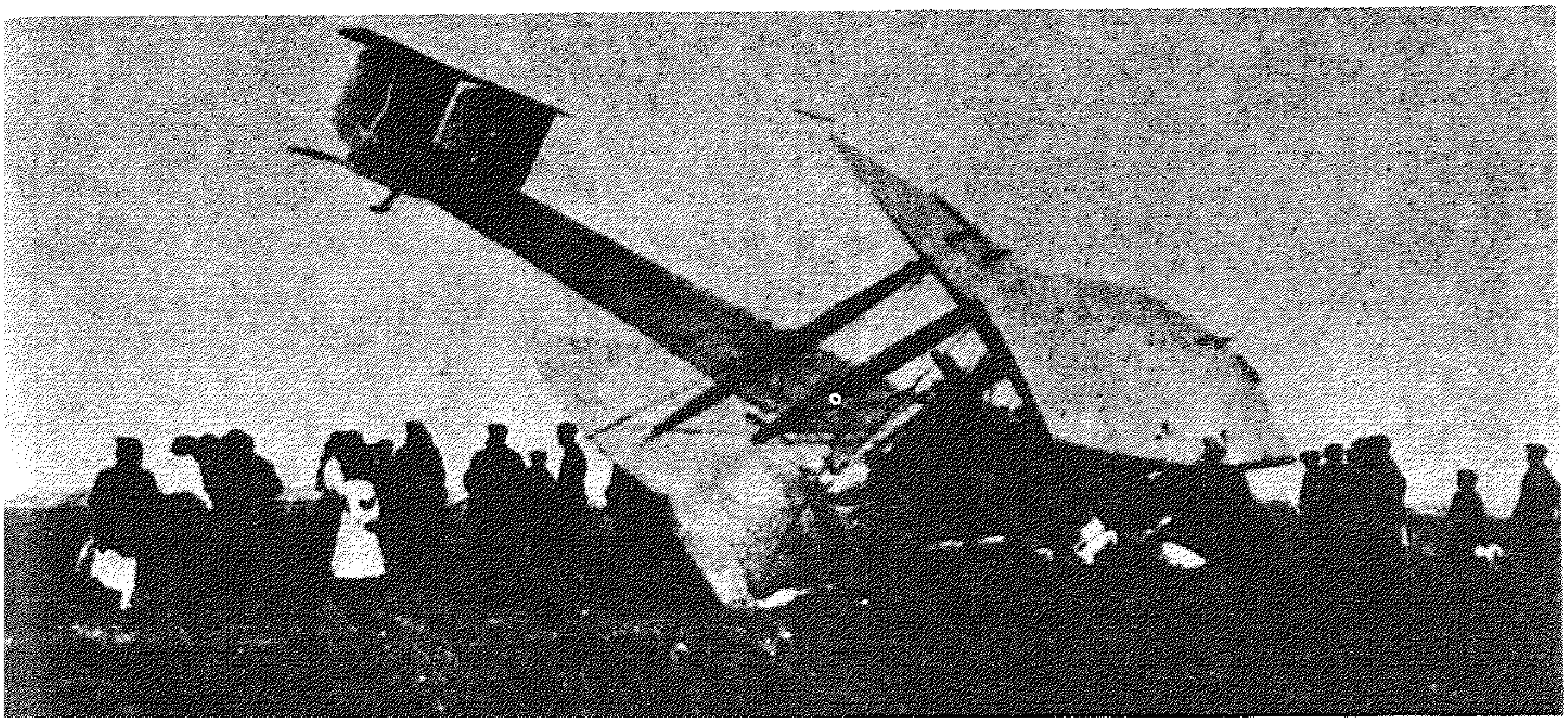
خيم الظلام وانخفضت الحرارة مما أدى إلى انعدام الحرارة الكهربائية في أركان الطائرة. أصم أذنيهما صوت المحرك وضايقهما اللهب على الطائرة مما صعب على براون قراءة الملاحظات على المعدات.

بعد منتصف الليل سلم براون رسالة إلى الكوك قائلا:

«يجب أن أرى النجوم». ولتحقيق ذلك انتظر براون تحليق الطائرة في جو صافٍ ليعين مكان النجوم في تلك اللحظة أشار «العداد» داخل الطائرة إلى انهما قطعا ٨٥٠ ميلا بحريا في ١٠٤ عقدات، وانهما تجاوزا نقطة اللارجوع. بعد ذلك تناولا طعامهما وشربا القهوة. لقد انتهت أسوأ المجازفات على طريق الرحلة.

وعند الفجر هطل المطر ومعه الغيوم والرياح. حاول الكوك تجنب تلك الغيوم قدر المستطاع إلا انه لم يكن لديه اي أمل بالتحليق فوقها لأن طائرته لا تستطيع أن ترتفع فوق ٦٠٠٠ قدم. لكنه خاطر أخيرا واخترق الجدار الغيمي.

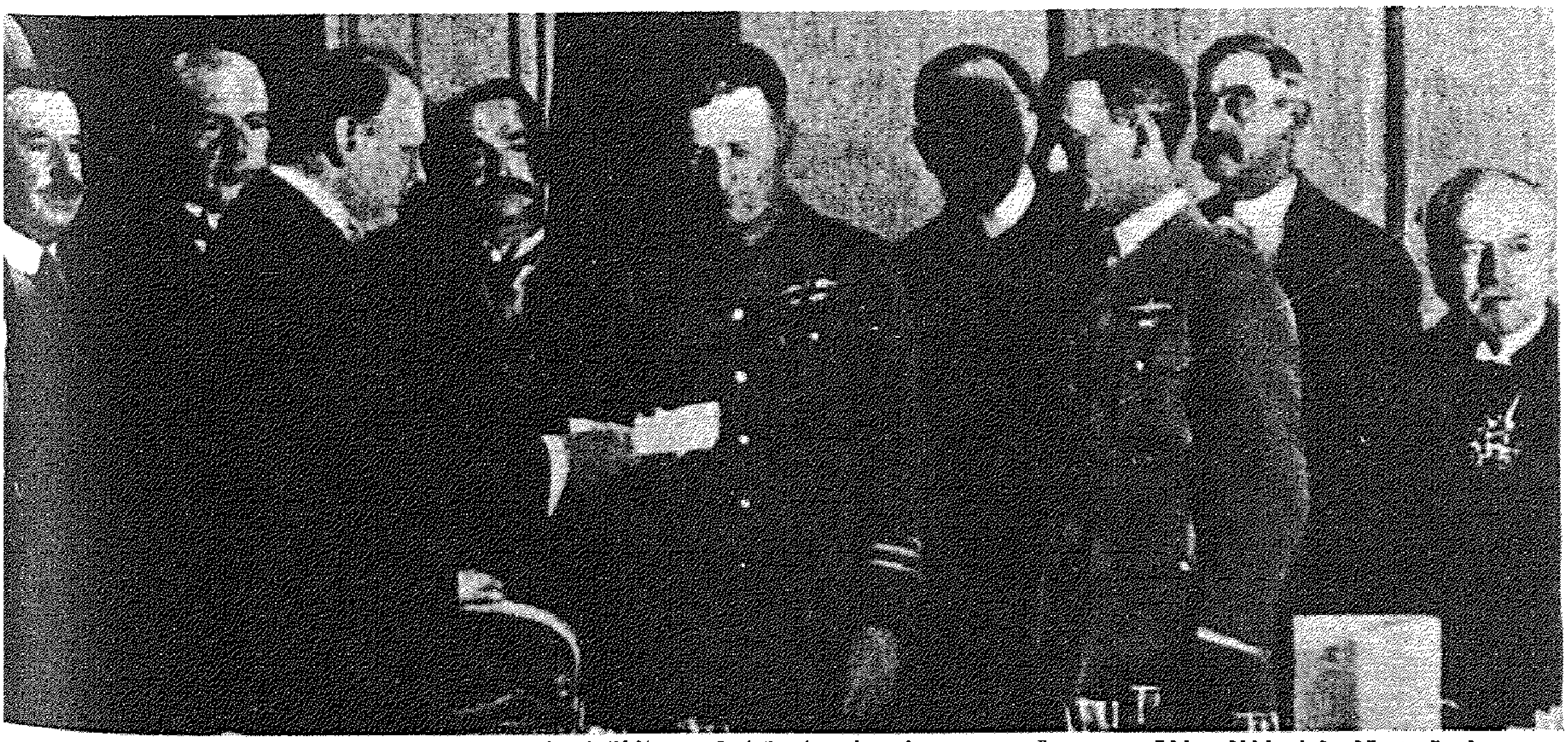
وفي هذا الخضم من الغيوم لاقى الكوك وبراون مصاعب عدة وخطيرة كالمطر والبرق وبالرغم من ذلك كافح الكوك لكي يبقي طائرته



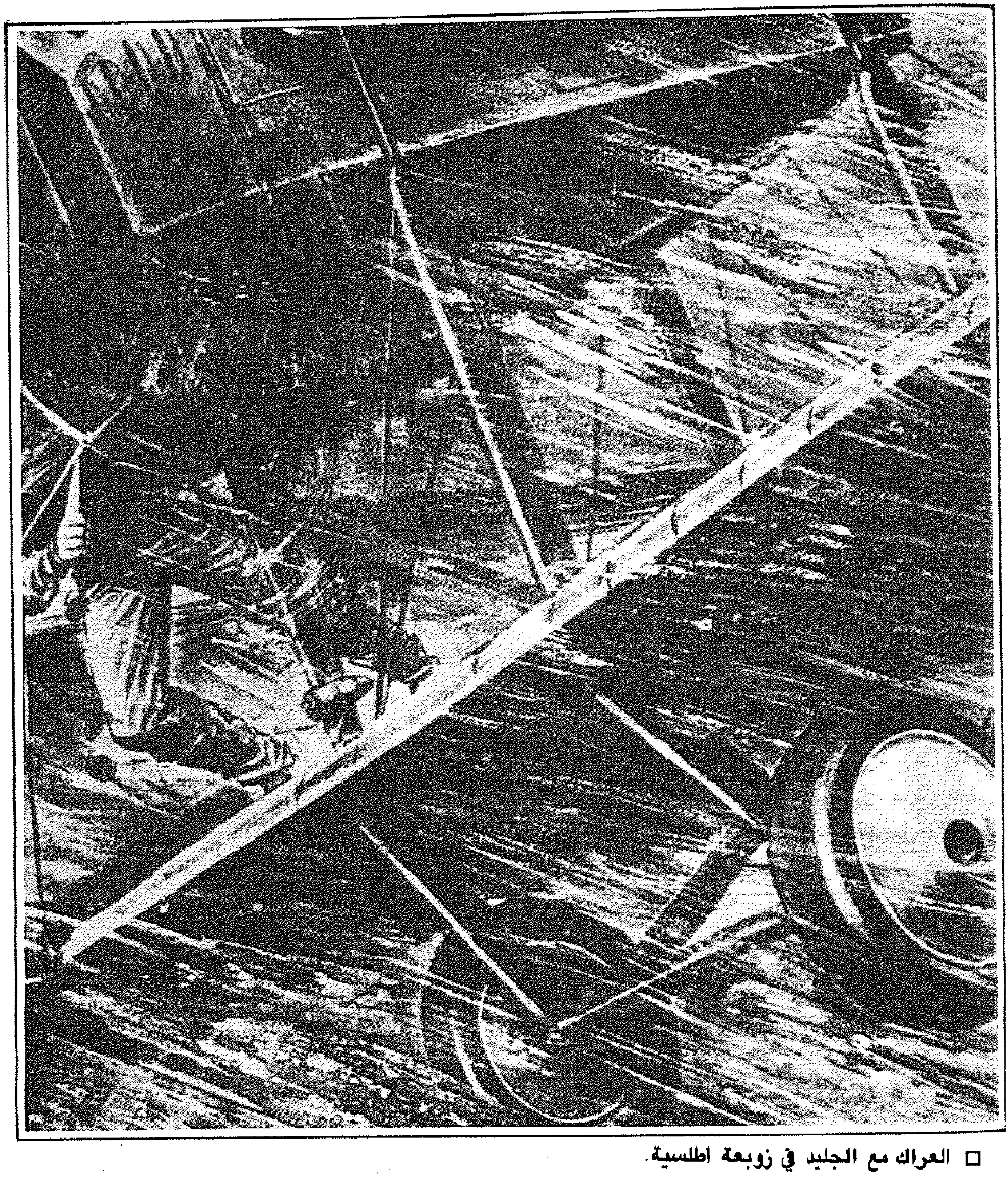
□ هبوط معاكس في مستنقع ايرلندي.

تحت سيطرته مستعملا كل التجهيزات. وكان يحافظ على علوه البالغ ٤٠٠٠ قدم رغم طيرانه في الغيم. وبعد مشكلة الغيوم أتت مشكلة جديدة. لقد وقعت الطائرة ضحية العواصف مما أدى الى تجمد عقرب السرعة كما كان التياران الهوائيان الأيمن والأيسر يؤرجحان عقرب الألبيمتر الى الخلف والى الأمام. ولم يستطع الكوك الحفاظ على سرعة الطيران بدون أفق طبيعي أو اصطناعي، فهوت فيمي لتغطس لولبيا.

في هذه الأثناء لم يستطع الكوك بدون معدات تساعده إلا أن يخنق المحرك. وأظهر عقرب الارتفاع أنهما فقدا ٢٠٠٠ قدم وما زالا يهبطان. إنها سرعة رهيبة رأى الرجلان الموت بعينيهما عندما كانت فيمي تنبثق من الغيوم وتتوجه إلى البحر. كانت الطائرة مقلوبة رأسا على عقب وقريبة من الماء لدرجة أنهما تعرضا لرذاذ الأمواج التي لطمت أجنحة فيمي عندما حاول الكوك تجليس الطائرة. لكن الكوك استطاع التغلب على هذه المعضلة وحافظ على توازن الطائرة وأعادها إلى مرحلة الصعود لكن المطر تابع سقوطه مع قليل من الثلج وبعد صراع عنيف استطاع الكوك أن يصل إلى ٨٥٠٠ قدم



□ ونستون تشرشل الملاح المتحمس، يقدم ١٠٠٠٠ جنيه استرليني مكافأة لكوك وبراون.



□ العراك مع الجليد في زوبعة اطلسية.

وبدأت المحركات تفقد القوة. أما الفتحات الهوائية فقد سدها الثلج وخاصة فتحة المحرك الذي كان في حالة يرثى لها.

في ظل تلك الظروف الصعبة ترك براون مكانه وأخذ يكسر الجليد عن فتحة المحرك بسكين حمله بأصابعه المثلجة، بينما المطر يتساقط على وجهه. وبعد أن لقيت عمليته نجاحا عاد الى مكانه وأخذ قسطا من الراحة إلا انه لاحظ أن المحرك أخذ يتباطأ فترك ركنه وخرج الى الجانب الآخر من الطائرة ليزيل الجليد.

لقد كرر تلك العملية سبع مرات حتى حافظ على سلامة المحركات وكانت هذه من أصعب مراحل الرحلة.

لقد سمح عمل براون هذا الى جانب انخفاض الثقل في الطائرة من جراء احتراق قسم كبير من الوقود سمح لفيمي أن تحلق على ارتفاع ١٠٠٠٠

قدم. بعد ذلك دخلت الطائرة مرة أخرى في الغيوم، لكن هذه المرة لم تدم طويلا إذ انقشع الجو وذاب الجليد وطارت فيمي بارتياح تنتظر أول رؤية للأرض.



□ نصب رائدي الطيران، جون الكوك وارثر براون.

نهاية الرحلة

في الساعة ٨ و ١٥ دقيقة ظهرت لطخة في الأفق. انها ايرلندا وحين اقتربا رأى براون الشاطىء الايرلندي وخاصة كليفرن. وعندما اقتربا أكثر رأى الكوك حقلا واسعا قرر الهبوط عليه رغم معارضة السلطة هناك. لكنه لم يأبه بأحد، اقترب من الحقل ولامست العجلات الأرض، كان الحقل مستنقعا مما جعل العجلات تغرز والطائرة ترتد إلى مقدمتها.

لكن الكوك وبراون لم يصابا بجروح. ونزل الرائدان من الطائرة تحت حراسة عسكرية وأخذا إلى لندن.

كانت الرحلة قد استغرقت ١٦ ساعة و ١٢ دقيقة، ١٥ ساعة و ٥٧ دقيقة من الشاطىء إلى الشاطىء.

وفي لندن استقبل الرائدان بحفاوة من قبل الناس. ونال الكوك وبراون عشرة آلاف جنيه استرليني كجائزة قدمتها صحيفة الديلي ميل وتوجها الى قصر باكنغهام، مقر الملك جورج حيث منحهما هذا الأخير لقب «فرسان» وكافأهما بصليب الطيران الجوي وهي أول مرة يعطى فيها هذا الوسام إلى مدنيين، إذ حصل لندبرغ عليه بعد ثمان سنوات.

نهاية الكوك وبراون

لقي الكوك مصرعه في عام ١٩١٩ قرب شاطىء ديفرار على النورماندي أثناء قيامه برحلة إلى باريس. أما براون فاستقر في الويلز وأصبح مديرا عاما لمصانع فيكرز وعاش حتى عام ١٩٤٨ وقد تزوج وتوفي ولده الوحيد في الحرب العالمية الثانية.

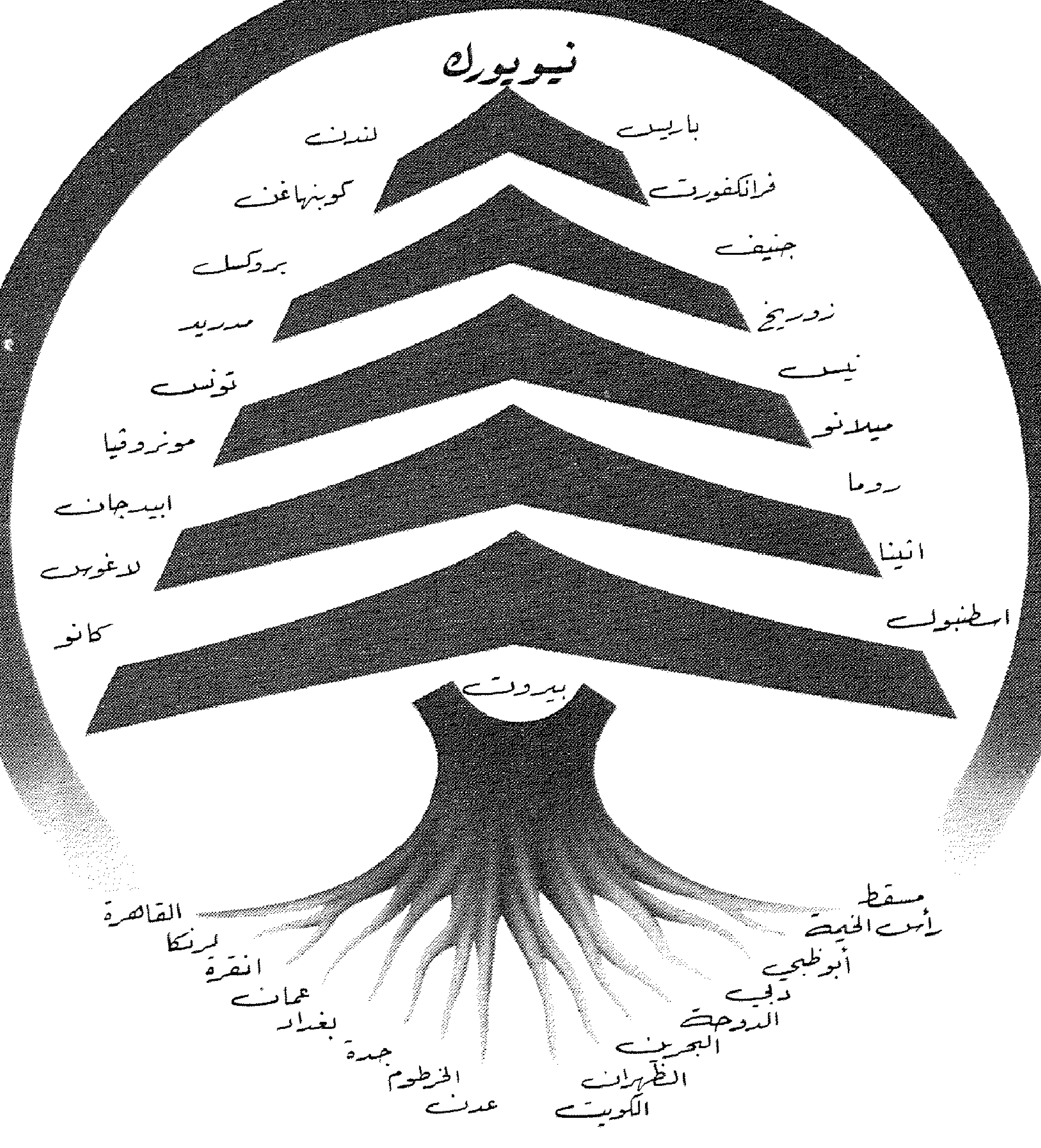
استطاعا بأبسط المعدات أن يقهرا الأطلسي الذي كثيرا ما أودى بحياة كثير من الطيارين المدربين إنهما يستحقان تقديراً أكثر مما أعطيا.

لقد عبَّد هذان الطياران الطريق للندبرغ ولكل قادة الطيران المعاصر.

فلا أحد يستحق منزلة مرموقة في بانتيون الملاحة الجوية أكثر منهما.

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا

MEA



فلورنسا



□ اليزابيث فيجي لوبران (١٧٥٥ ــ ١٨٤٢).

أطول متحف في العالم!

إعداد: إنعام الجندي

هل زرت متحف فلورنسا؟ وهل شهدت ما فيه من بدائع، خاصة بدائع عهد آل مديتشي، والصور الشخصية؟ يقول جان فرّي، أحد من زاروا المعرض، وكتبوا عنه: ستتمنى أن تعود إليه لألف سبب وسبب!

طول المتحف كيلومتر، فهو أطول متحف في العالم، كما أنه المتحف الوحيد الذي بني فوق ضفتي نهر، فشكل جسرا يدعونه جسر فيتشيو. ولئن ظل خلال أربعة قرون، العمود الفقري لمدينة فلورنسا، فإنه ما يزال آية من آيات الابداع، ومتعة فنية ليس بعدها من متعة.

لا تمهد شهرة فلورنسا، ولا أمجاد رساميها إلى زيارة أي شخص، قصر آل مديتشي (Les Offices)، ثمة ثلاث مفاجآت تنتظرك: التناغم في صالة بوتيشلي، فخامة الرواق، واتساع قاعات العرض.

يعود بناء المتحف إلى العام ١٥٦٠م، ولكن قاعة بوتيشلي خطط لها عام ١٩٧٥، ولم تدشن إلا بعد ثلاث سنوات. وإنك لا تكاد تصدق حداثة القاعة، لأن فخامة توازنها وتناسقها تشعرها أنها من عصور سحيقة.

يغريك هذا الشعور بالسلام والهدوء الذي لا تشعر به في المتاحف الأخرى التي تعج بالزائرين، وبعد أن تدخل تلك القاعة الواسعة (٢٠م×١٥م) لن تنسى أبدا ذلك الاحساس العجيب بالطمأنينة النفسية.

وأكثر ما يؤثر فيك هذه الحميمة بين كل لوحة، وكل عمل فني، وبين قاعة بوتيشلي فهي بفضائها وقبتها واتساعها، عمل فني اخر، كأنه لوحة معلقة بين اللوحات، على جدار ما.

في هذا المناخ الأسطوري، تَمْثُلُ لوحتا «مولد فينوس» و «الربيع» بكل ما فيه من روعة وجمال. وإذ ترى ذلك يخيل إليك أن بوتيشلي كان أكثر الناس سعادة، ولكنه كان طوال حياته يعاني من البؤس القاتل، وكأنه شاء أن يحقق الجمال، ويهرب من أزماته بريشة تصنع أساطير الفن، وبدائع الحلم، بالألوان.

يتحفك الرواق بعالم اخر، فثمة على بعد خطوات، كنوز لا تخطر على بال. ففي عام ١٥٨٤م، أي بعد خمسة عشر عاما من اكتمال البناء، كانت القاعة الثمانية الأضلاع، ذات السقف المصدف، ترمز إلى مجدال مديتشي، في معبد للفن، يضم في ما يضم خمس لوحات لرافاييل، ومائة وعشرين درجا مليئة بالتحف الثمينة. ويقوم وسطه مكتب فخم من الآبنوس المرصع بالذهب والحجارة الكريمة، كان الزوار يأتونه من كل أوروبا ليشهدوا روعته.

ولقد أعيد ترميم الرواق، وما فيه من تحف، عام ١٩٧١، فعاد إليها رونقها وجمالها. ترى فيه أعمال أنيولو برونزينو (١٥٠٣ ــ ١٥٧٢) رسام الصور الشخصية المبدع، ومنها «البنت الصغرى» التي تدهش بألوانها الحريرية. و «جان مُديتشي» الطفل السمين الذي يحمل

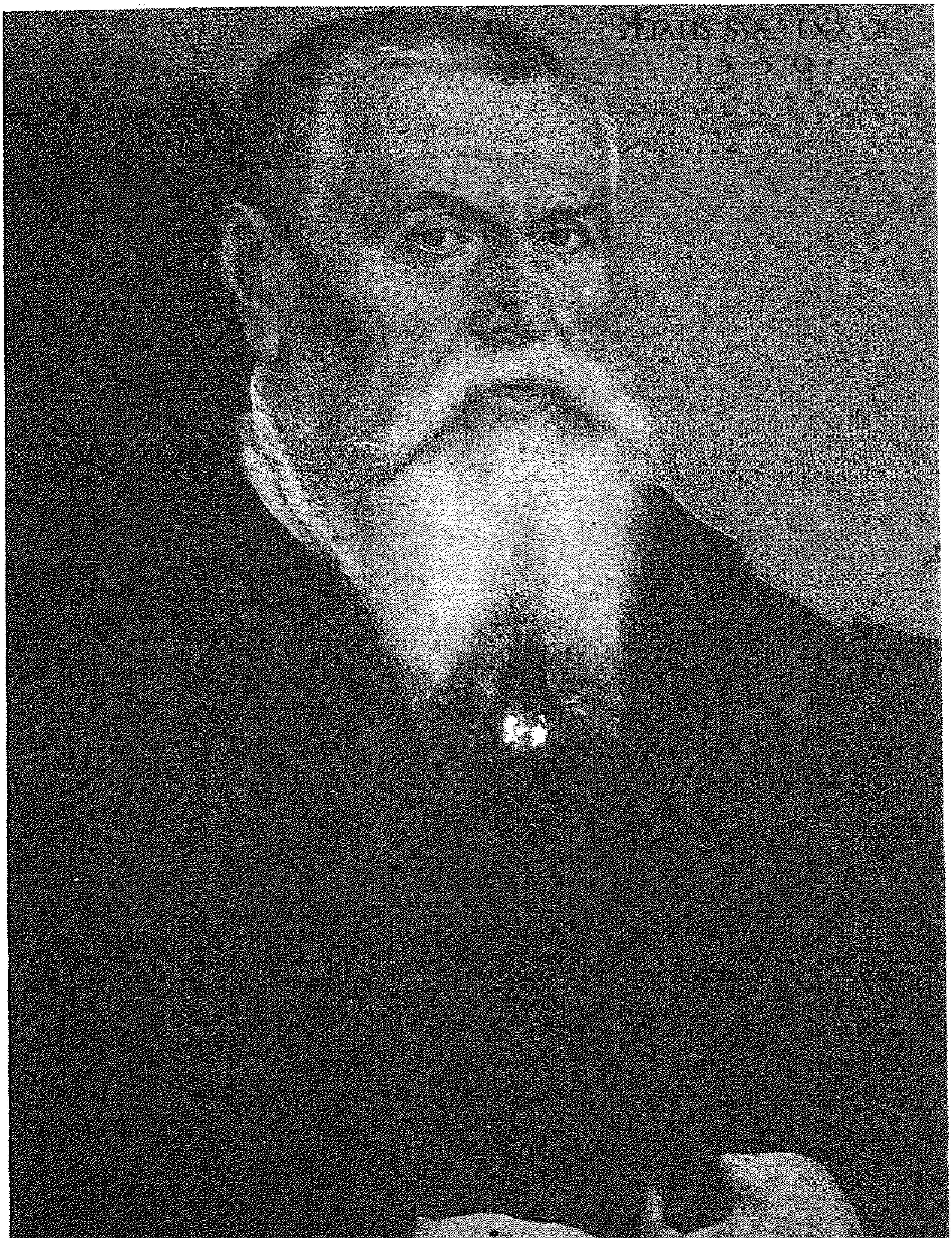
□ إنعام الجندي: استاذ في الأدب العربي، له العديد من الكتب في الأدب العربي والترجمات.



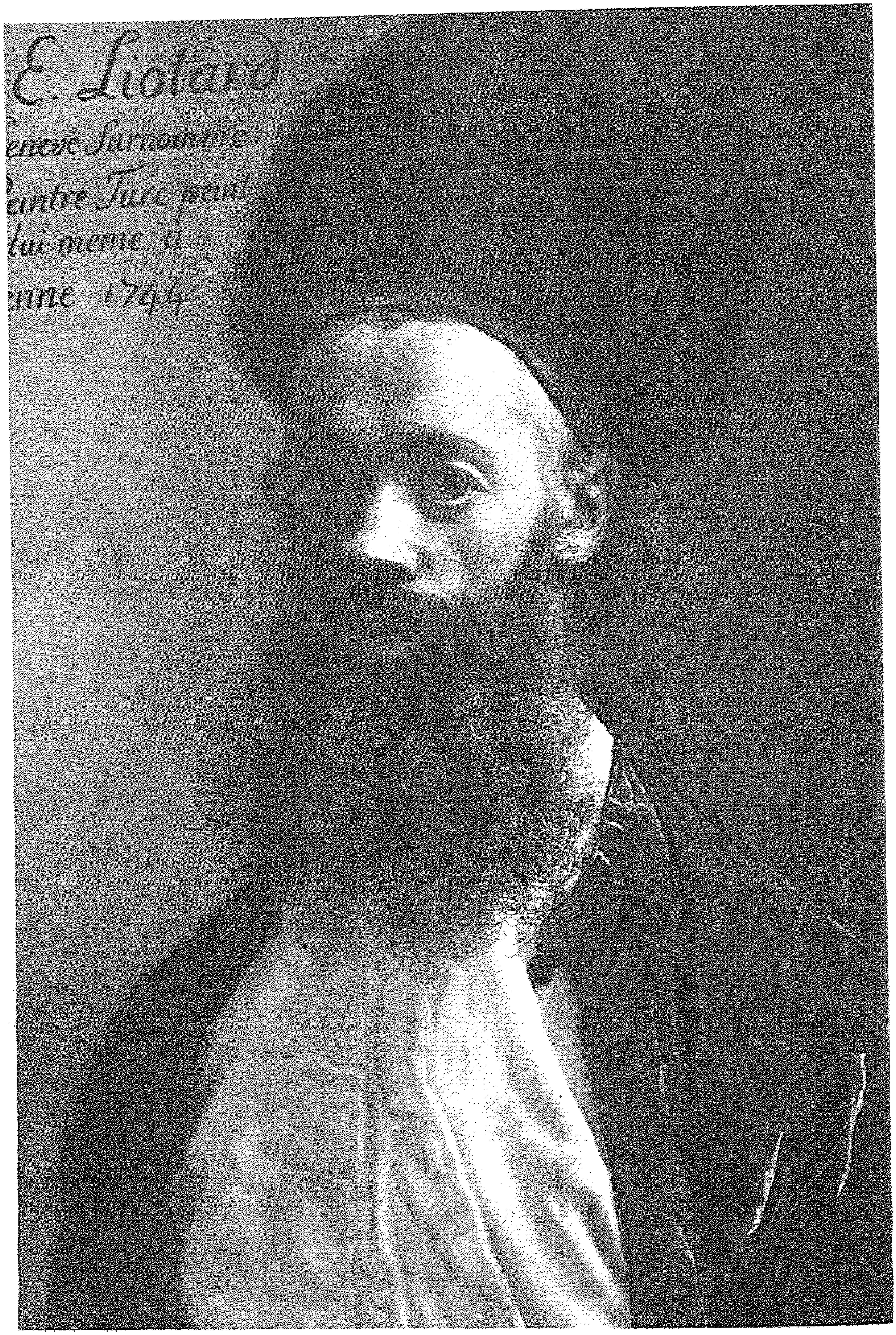
□ كاميل كارو (١٧٩٦ ــ ١٨٧٥).



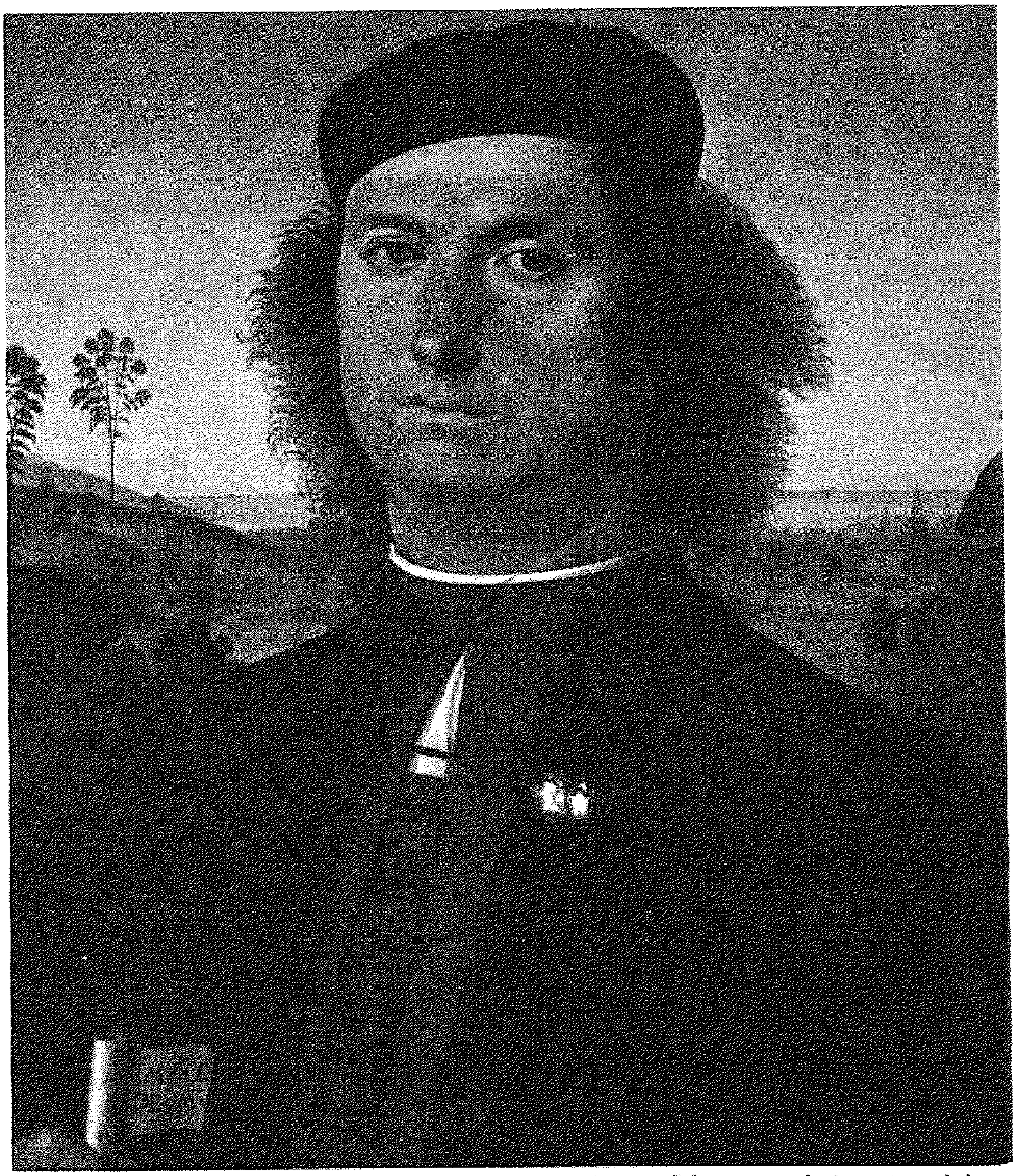
□ انيولوبرونزينو (١٥٠٣ ــ ١٥٧٢)



□ لوكاس كراناش (١٤٧٢ ـ ١٥٥٣).



□ جان اتين ليوتار (١٧٠٢ ــ ١٧٨٩).



□ فرنسيسكو ديلي اوبيري بريشة بيروجان.

عصفوراً بيده اليمنى، فتكتم أنفاسك لروعة واقعيتها، فخوف العصفور المرتعش يتناغم، على نحو من الأنحاء، مع هدوء الطفل المنتصر، رغم تضاد الحالين. وإنك لتطالع فيها كل براءة العالم، وكل قسوته في آن معا، وقد تجسدت في لوحة مساحتها ربع متر. وثمة تمثال فينوس آل مديتشي التي كان الزوار يقبلون يدها عندما يأتون لزيارة المتحف في القرن الثامن عشر.

ولنتوقف عند بعض اللوحات:

تتويج العذراء (٢٣٧ سم × ٤٤٧ سم) للورانزو موناكو (توفي عام ١٤٢٥) يدهشك فيها العمق الشاعري في تشكيل بسيط، يغيظك ويذهلك، لكأن الأشخاص يحملهم النور كما في سراب: إنه السحر.

العذراء وابنها (٢٠٩ سم × ٢١٣ سم) لدومنيكو فنيزيانو (توفي عام ١٤٦١) تمنح



□ الأميرة الصغيرة بريشة برونزينو.



□ زهور انفير بريشة زبيل وقيل لفان هويسم وهي مرسومة على الزجاج.

الاحساس أنك أمام جدار من المرمر، رسمت عروقه اللوحة.

معركة سان رومانو، لباولو أوتشلو، رغم عتمتها، تعد من رائع المتحف. كذلك لوحة «الرماح» لفيلا سكيز التي تجعلك تفكر «بغرنيكا» بيكاسو: بالحصان في وسط اللوحة، وبالحصان المقتحم على اليمين.

ثم صورة باتيست سفورزا، وصورة مونتيفلترو. ثم لوحة الأم دولوروزا (٥٥ سم × ٣٣ سم) لجوس فان كليف (توفي عام ١٥٤٠) وصورة ليون العاشر (١٥٤ سم × ١١٩ سم) لرافاييل (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠). وتدهشك لوحات «الطبيعة الميتة»: ذهب الناقوس، وزخرفة كتاب، في عاصفة من الأرجوان.

ثم لوحة «فينوس أوربان» (١١٩ سم × ١٦٥ سم) لتيتيان (توفي عام ١٥٧٦).

لقد حافظ آل مديتشي حتى زوال حكمهم (١٧٣٧م) على المتحف، ورعوه بكل ما أطاقوا من عناية فنية. وقد أصدر اخر أمير منهم مرسوما يقضي بجعل القصر وما فيه من لوحات وروائع، ملكا لفلورنسا.

يشرف على المتحف البروفسور لوسيا نوبيرتي، ولكنه لا يتفرغ إلا للقضايا الهامة. أما المشرفة الحقيقية فهي السيدة كاترينا كانيفا. ولا يعاونها إلا مهندس، وثلاثة كتاب للحفاظ على الآثار. وثمة ١١٠ يعملون في الحراسة والادارة. وتستغرب كيف يستطيع عدد قليل جدا من المختصين الحفاظ على الآثار الفنية التي تغطي كيلومترات من الجدران، بينما ظاهر المتحف مهمل. على كل حال، يبدو أن عدد التقنيين العاملين في كل متاحف إيطاليا لا يوازي عدد العاملين في متحف متروبوليتان في نيويورك. هذا، مع العلم أن المتحف يحتاج إلى أعمال كثيرة جدا، خاصة وأن عدد الزوار يتزايد عاما بعد عام. لقد كان عام ١٩٤٩ مائة ألف، ثم بلغ نصف مليون عام ١٩٦٠، أما اليوم فالعدد ١٨٠١٠٠٠.

ثمة مفاجأة ثالثة، وهي البهو الطويل الذي يصل متحف قصر مديتشي بقصر بيتي. طوله ستمائة متر، وقد علقت اللوحات على جداريه، وهي في معظمها صور لأشخاص، أو صور رسمها فنانون لأنفسهم. وتعد أجمل مجموعة في العالم. يجتاز البهو نهر الآرنو على جسر فيتشيو، ويتبع مخططا مدهشا، إذ يطالعك كل لحظة بجو خاص، ومنظور جديد. لقد بناه فاساري ليستخدمه البلاط، عام (١٩٦٥م). وقد حول منذ مائة عام إلى متحف. عام ١٩٧٣ اتخذ شكله الحالي. مع العلم أن هذه الأعجوبة الفنية، يجهلها معظم الناس، حتى النقاد الفنيين، وقلما ذكرتها معاجم الفن، أو كتب الأدلة. أضف إلى ذلك أن البهو لا حراس له، لذلك لا تسمح إدارة القصر بأكثر من زيارتين في اليوم، وحسب موعد سابق، شرط أن تكون الزيارة جماعية لا إفرادية.

كان أول من بدأ بتجميع اللوحات الكاردينال ليوبولد دو مديتشي (١٦١٧ ـ ١٦٧٥). وكان يوصي على صور شخصية، أو يقبل هدايا على نحو صور شخصية. وقد تشكلت لجنة لقبول تلك الصور أو رفضها، وما يزال معمولا بهذا التقليد.

تجد هناك صورا شخصية رسمها لأنفسهم كالو، لوبران، ريغو، لا رجيليير، بوشاردون، كوبيل، دولاكروا، وغيرهم كثير. كما تجد فيها كل المدارس الفنية، في أروع بدائعها.

«من كان غنياً في دخيلة نفسه، فقلما يفتقر إلى شيء من خارجها».

جوته، الشاعر الألماني

«إذا وجدت الرأس صحيحا والبدن سليماً، فخذ في علاج النفس».

افلاطون



معاوية بن أبي سفيان... ما له وما عليه

فارس عينه

كانت لمهابة وشخصية الرسول العربي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم أثرا بالغا في توحيد القبائل العربية تحت راية الاسلام. وكان الخليفة أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين يمضي على طريق الرسول (صلعم)... ثم أتى بعده عمر بن الخطاب كرم الله وجهه ثاني الخلفاء الراشدين، الذي كان لشخصيته القوية... واتباعه الدقيق لتعاليم الاسلام أثرا بالغا في المجتمع الاسلامي المبني على قبائل لم تشتد بعد فيها الروح القومية... وما زالت للعصبية القبلية فيها موضعا ذو مكانة. وهذه كانت من بين أهم الأسباب التي كانت مدعاة للتفكك الذي أصاب هذه الدولة الفتية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان وعهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وكذلك أدى هذا التعصب القبلي إلى انهيار دولة بني أمية وانهيار دولة الأندلس. فعثمان بن عفان كان ذو شخصية ضعيفة أمام قومه الذين طمعوا في أموال وأراضي الدولة الاسلامية والذين كانوا يريدون لهم كل ما يخطر على بالهم ولو على حساب بيت المال والمسلمين. وما كان لعثمان أن يقف في وجههم كما كانت الحال في عهد عمر بن الخطاب. فبدأ التفكك والانحلال في الدولة الاسلامية وظهرت للسطح ثانية العصبية القبلية التي لم تكن قد اختفت بعد كليا، وبدأ التناحر بين القبائل العربية يظهر بشكل جلي واضح، وعندما اغتيل الخليفة عثمان بن عفان في داره... وجاء علي بن أبي طالب خليفة على المسلمين... هكذا كانت الأحوال... ضعفا وتناحرا وتنابذا... فما أتاح لوالي دمشق معاوية بن أبي سفيان الذي كان واليا على الشام لعشرين سنة خلت، حيث وطد دعائمه هناك بشكل قوي نظرا لما يتمتع به من صفات الحلم والدهاء السياسي والكرم والسخاء بلا حدود... وعندما اغتيل

عثمان بن عفان وولي مكانه على الخلافة علي بن أبي طالب... دخل معاوية المعركة ضد علي بن أبي طالب حاملاً قميص عثمان ومتهماً عليا بالتواطؤ في قتل الخليفة عثمان بن عفان... وبفضل ما يتمتع به معاوية من دهاء سياسي وحنكة حلفاءه وخاصة عمرو بن العاص الذي ظهر في قضية التحكيم مع أبو موسى الأشعري... بأنه من دهاه العرب... وكان ما كان من اختلاف جنود علي بن أبو طالب وانشقاقهم وظهور الخوارج الذين نجحوا في قتل الامام علي بن أبي طالب ولم ينجحوا في قتل معاوية بل أصابوه إصابة بسيطة... وتم بعد ذلك أن تنازل الحسين بن علي عن الخلافة لمعاوية حقنا لدم المسلمين وذلك بعقد صلح مع معاوية.

وبدأ معاوية بن أبي سفيان عمله الدؤوب ليوحد كلمة المسلمين من وراءه وليوطد دعائم حكمه وخلافته الذي اتخذ من دمشق مركزا لها. وكان معاوية يستعين برجال وولاة من دهاة العصر واستطاع من قبل أن يجذب عمر بن العاص إلى جانبه في صراعه مع الامام علي.

ومما هو ملفت للنظر أن عهد معاوية الذي امتد زهاء عشرين سنة لم يميز هذا العصر بأي عمل عسكري أو فتح إسلامي جديد ما عدا انه كان أول حاكم مسلم ركب البحر بأسطول كبير بلغ عدده ١٧٠٠ سفينة فاتحا قبرص ورودس وبعض الجزر اليونانية. ولم يكن جهد معاوية، كما لم يكن لديه هما أن يوسع رقعة الدولة الاسلامية المترامية الأطراف، بفتوحات جديدة. بل كان جل همه أن يوحد كلمة لمسلمين من وراءه وأن يوطد دعائم حكمه... ويحمي دولته المتسعة... ويؤمن لها مصروفاتها من خلال تشجيع الناس على الزراعة والقيام بالأعمال التجارية والعمرانية على عكس عمر بن الخطاب الذي كان يؤمن موارد الدولة من الفتوحات الاسلامية... وهذه السياسة كانت تدفع الناس للانشغال بالأرض وانتاجها وتنمية مواردها ومواردهم من إبل وماشية ومنتوجات زراعية مبتعدين عن الجهاد في سبيل الله، قاصدين الدنيا ليجاهدوا فيها لتكبر ثرواتهم وممتلكاتهم.

ومن الملفت للنظر أيضا أن معاوية كان كارها للحروب الخارجية وكذلك للحروب والمناوشات



الداخلية، لأن همه كما أسلفنا أن تهدأ أمور ملكه ليوطدها لنفسه ولولده يزيد من بعده. ومن اجل ذلك عقد معاهدة سلام مع الروم دافعا لهم الجزية!!!؟

وفي أمور معاوية الداخلية نراه يمد يده ويتحالف مع رجال لا يكن لهم أي مودة أو محبة ولكنه كان واثقا من قدرتهم وحنكتهم السياسية كعمر بن العاص ليديروا دفة الحكم في الولاية ويبايعوه وينصروه دائما.

ولسنا نجد تصويرا أدق لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعره ما قطعتها».

وما يميز شخصية معاوية الى جانب إلمامه التام بكل ميول كل مَنْ له علاقة به وكذلك فإنه يدرسه نفسيا ويشرحه تشريحا ويكون صورة

قيقة عن كل رجل يتعامل معه. إلى جانب هذه الميزة لهامة فانه كان من القدرة والحنكة بحيث أنه يوقع أعدائه في مشاكل لا تقوم لهم قائمة بعدها. كذلك كان يوقع بين أقاربه مخافة اجتماعهم عليه كما فعل مع سعيد بن العاص ومروان بن لحكم.

وعندما فكر معاوية بأمور الدولة الاسلامية ن بعده، وجد نفسه يجهز ابنه يزيد، على علاته، خلافته.

واستنفر معاوية كل دهاءه وحنكته السياسية خبرته واستطاع ان يأخذ البيعة من المسلمين يزيد كخليفة له، وبهذا العمل يكون أول حاكم سلامي أدخل الوراثة في هذه الدولة العربية لاسلامية الفتية.

ومن الجدير بالذكر أن معاوية كان أول حاكم عربي إسلامي يدخل البريد وينظمه تنظيما دقيقا اكثر مما كان لدى الروم والفرس وذلك بهدف جمع معلومات وأخبار الأمصار والولايات البعيدة بأسرع وقت ممكن ليتمكن من إدراك ما يمكن ادراكه ومعالجته بالسرعة المطلوبة.

وكذلك كان معاوية أول حاكم عربي مسلم طبق نظام قيد الولادات والوفيات في سجلات وكذلك أمر بمعرفة كل وافد جديد إلى أي بلد، وطبق نظاما مستحدثا وهو ديوان الخاتم، كل ذلك حتى يدبر أمور دنياه ومملكته وقد أثبت معاوية بتدابيره أنه رجل إداري من الطراز الأول. وكان أول حاكم يطبق قانون منع التجول بعد ساعة معينة من الليل وذلك بواسطة عماله في بعض الأقطار الاسلامية.

ويعد المؤرخون معاوية وعماله الثلاثة، في العراق والحجاز ومصر، من أعظم دهاقنة العرب ومن ذلك قول أحدهم:

«ما رأيت أثقل حلما ولا أطول إناة من معاوية... ولا رأيت أغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص... ولا أشبه سرا بعلانية من زياد، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج من أبوابها كلها».

وكان معاوية مقبلا على دنياه يعب منها عبا ومسرفا وباذخا فقلد الروم في لبس الحرير والديباج على عكس من سبقه كعمر بن الخطاب والصديق. وكان يحافظ على نفسه أشد المحافظة وهو أول حاكم إسلامي أمر بادخال الحراس إلى المسجد ليقوموا بحراسته عند الصلاة. وهو أول من أدخل الوراثة في الحكم الاسلامي بعد أن كانت أمور الخلافة شورى بين العرب كأعظم وأعرق ديمقراطية عبر التاريخ.

وكان هم معاوية الأهم أن يؤمن دنياه ويدبر الأمور لابنه من بعده ويهون كل شيء في سبيل ذلك... وكان رجل دنيا وناس حيث الدليل على ذلك جاء من شقيق الامام علي كرم الله وجهه «عقيل» حينما غادر الحجاز تاركا الامام علي ملتحقا بمعاوية الذي أكرمه بسخاء ما بعده سخاء عندها قال عقيل كلمته المشهورة: «إن أخي خير لي في ديني، ومعاوية خير لي في دنياي». وذلك لأن الامام علي وقف بوجه أخيه ولم يعطه شيئا من أموال وأملاك المسلمين فتركه وذهب لمن يعطي بكرم وسخاء.

وهكذا استطاع معاوية بكل ما يملك من دهاء وقوة وحلم وسياسة أن يثبت ملكه حتى أنه كان أول من استعمل السم للتخلص من أعدائه السياسيين.

وفي أواخر أيامه عندما اشتد به المرض قال لمن حوله:

«إن رسول الله (صلعم) كساني قميصا فرفعته، وقلم أظافره يوما فأخذت قلامته، فجعلتها في قارورة، فاذا مت فالبسوني ذلك القميص، وقطعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفي فمي، فعسى الله يرحمني ببركتها ثم قال: اتقوا الله عز وجل فان الله سبحانه يقي من اتقاه ولا واقي لمن لا يتقي الله» ثم قضى وكانت وفاة معاوين بن أبي سفيان في الشهر السابع من سنة ٦٠هـ الموافق في نيسان سنة ٦٨٠م.

تاركا وراءه الأمة العربية الاسلامية وسط مهب الرياح بامرة ملك لا يستطيع شيئا إزاء هول الخلافات والفرقة والضياع. ●

المصادر:

(١) العبقريات الاسلامية، للأستاذ عباس محمود العقاد.
(٢) معاوية في الميزان، للأستاذ عباس محمود العقاد.
(٣) معاوية بن ابي سفيان وعصره، للأستاذ عمر أبو النصر.

● لجنة إحياء التراث الاسلامي في وزارة الأوقاف العراقية

□ شكلت لجنة إحياء التراث الاسلامي عام ١٩٦٩م ضمن قسم الدراسات والبحوث الاسلامية في دائرة الارشاد والاعلام الديني التابعة لوزارة الأوقاف العراقية لتقوم بإبداء الرأي في نشر وإحياء التراث الاسلامي والاشراف على طبع ونشر المخطوطات المتوفرة في مكتبات الأوقاف ووضعها بين أيدي العلماء والأدباء والباحثين. وفي عام ١٩٧٠م صدر أول كتاب من نتاج أعمال اللجنة وهو كتاب «طبقات الشافعية» ثم صدر كتاب «شفاء الغليل» للغزالي و «المقرب» لابن عصفور. ثم صدرت عن اللجنة تباعا مجموعة من الكتب القيمة في شتى ميادين المعرفة في سلسلتين: إحداهما لاحياء التراث الاسلامي، والأخرى للمطبوعات الحديثة. وقد بلغ عدد كتب السلسلة الأولى ٦١ كتابا والثانية ٢٧ كتابا وهناك ٢٧ كتابا قيد الطبع.

● المؤتمر السابع لتاريخ العلوم عند العرب يصدر توصياته

□ عقد معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب في شهر ابريل ـ نيسان الماضي ولمدة يومين مؤتمره السنوي السابع لتاريخ العلوم عند العرب، احتفل خلاله بمرور اثنتي عشر قرنا على ميلاد العالم العربي أبي عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي، وذلك بالتعاون مع الجمعية السورية لتاريخ العلوم.

ناقش المؤتمر في خمس جلسات اثنتين وعشرين ورقة عمل، جميعها ابحاث اصيلة لم تنشر سابقا، تبحث في تاريخ العلوم والطب والتكنولوجيا عند العرب، وهي:

ـ الخوارزمي: حياته ـ عصره ـ علومه، للدكتور محمد التونجي.

ـ مكانة الخوارزمي في تاريخ الحضارتين العربية والانسانية، لفريد جحا.

ـ الخوارزمي عالما في الجغرافيا الفلكية والرياضية، لصلاح الدين خالدي.

ـ جبر الخوارزمي من خلال كتاب الجبر والمقابلة، لمحمد يحيى خراط.

ـ علاقة السيمياء بالطب، للدكتور زهير الباب.

ـ فصل من كتاب تاريخ الطب والأطباء في حلب الشهباء «الطب والأطباء في حلب في القرن التاسع عشر»، للدكتور إسحق الكيالي.

ـ مخطوط «ما لا يسع الطبيب جهله»، وهو كتاب في علم الأدوية من القرن الثامن الهجري «عرض لمخطوطاته»، للدكتور أحمد مضر صقال ودرية الخطيب.

ـ طب الجلد عند الرازي، للدكتور حنا بشور.

ـ التأرجح اللساني في النقل الأول للغة الرياضيات إلى العربية، للدكتور محمد سويسي.

ـ نظام الحسبة عند العرب، لكمال شحادة.

ـ تاريخ طب الأطفال عند العرب، للدكتور حسام الشعار.

ـ الخوارزمي والأرقام، لمحمد علي الزركان.

ـ الموسوعة النباتية لجزيرة العرب، للدكتور محمد نذير سنكري.

ـ رسل العرب في بعث الكيمياء، للدكتور محمد وليد كامل وشفاء الزعيم.

ـ علاقة النجوم في حياة الانسان، لرياض الجابري.

ـ الالفاظ الطبية في كتب اللغة، لمحمد شحادة كرزون.

ـ الدمعة في طب العيون عند العرب، للدكتور صلاح محمود غانم.

ـ الجسأ في كتب الكحل، للدكتور مؤنس غانم.

ـ النجوم في الفلك الحديث، اصولها وتطورها: للدكتور عبد الرحيم بدر.

ـ الأوقاف العددية والعلوم الخفية، لمحمد علي خياطة.

ـ الخوارزمي مصادره وبيئته، لمحمد عبد الحميد حمد.

ـ الحيوانات المجترة في التراث العربي، للدكتور مروان السبع.

وفي نهاية أعمال المؤتمر صدرت عدة توصيات.

● «قصة الطب العربي» في شريط وثائقي

أخرج الدكتور توما شماني رئيس تحرير مجلة «عالم اليوم» في بغداد شريطا سينمائيا وثائقيا علميا تاريخيا يروي احداث «قصة الطب العربي» بكاملها بأسلوب سهل، ابتداء من العصر الجاهلي ثم الطب النبوي والأموي حتى ازدهار الطب في الدولة العباسية.

يتطرق الشريط إلى عهود الطب العربية الثلاثة، ثم عهد سيطرة الكتب العربية على اوروبا. كما يتحدث عن الصيدلة والجراحة عند العرب،

وتدوين السريريات ونشر الادبيات الطبية وحركة تدوين الأحداث الطبية، إضافة إلى طرق انتقال الطب العربي إلى أوروبا.

الدكتور توما شماني قال في رسالة بعث بها إلى المعهد أنه أطلق على الشريط إسم «إشراقة الطب العربي» وتحدث فيه عن جهود عدد من الأسر والعلماء المسلمين الذين قدموا خدمات جليلة في هذا المجال، منهم: اسرة بختيشوع، وحنين بن إسحاق، وآل قرة، والدمشقي، والرازي، وابن سينا، والزهراوي، وابن زهر، وابن النفيس، وابن البيطار، والانطاكي، وابن الخطيب، وابن خاتمة، وابن أبي أصيبعة، ثم الداخواري.

● «الكتاب المغربي» مجلة جديدة

أصدرت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر في الرباط بالمملكة المغربية مجلة جديدة بعنوان «الكتاب المغربي» وهي مجلة بيبلوغرافية نقدية تجمع كل ما يصدر في المملكة المغربية أو عنها من كتب ومجلات، يديرها الدكتور محمد حجي الأستاذ بجامعة محمد الخامس في الرباط.

احتوى العدد الأول من الحولية المتخصصة عدة أبواب تحليلية استهلت بدراسة عن الكتاب المغربي للدكتور محمد عزيز الحباني.

في باب عرض الكتب قدمت المجلة ملخصا لمجموعة من الكتب التي صدرت مؤخرا في المغرب، وأشارت في باب اخر إلى مجموعة من الكتب الحديثة وصفتها حسب العلوم: الفلسفة، الديانات، العلوم الاجتماعية اللغات وعلوم اللسان، العلوم البحتة، العلوم التطبيقية، ثم الفنون، والآداب، والتاريخ والجغرافيا.

الباب الأخير عرّف بعدد من المجلات المتخصصة في المغرب في مجالات: البحوث الاسلامية، الادب والدراسات اللغوية والفنون، العلوم الاجتماعية «حقوق — اقتصاد — إحصاء — إدارة» العلوم الاجتماعية «فلسفة — اجتماع — تاريخ — جغرافيا»، العلوم الدقيقة والتطبيقية، التربية والتعليم، ثم عرف بعدد من المجلات المتنوعة.

هذا والحقت المجلة بفهارس لاسماء المؤلفين والناشرين ودور الطبع في المغرب، وبنبذة عن مشروع معلمة المغرب الذي يتحدث عن كل ما يتعلق بأرض المغرب وسكانه وتاريخه وحضارته.

● مدير المعهد يشارك في اجتماعات المجلس التنفيذي للمنظمة

شارك الدكتور خالد عبد الكريم جمعة، مدير معهد المخطوطات العربية، في اجتماعات الدورة الثانية والثلاثين من اجتماعات المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذي انعقد في مدينة سوسة التونسية في الثامن عشر من شهر يوليو (تموز) الماضي ولمدة عشرة أيام، وقدم تقريرا خلال الاجتماع عرض فيه الخطوات التنفيذية التي تمت بخصوص برامج المعهد ومشروعاته في النصف الأول من هذا العام.

وقد اقر المجلس خلال اجتماعاته مشروعات المعهد الجديدة التي سيبدأ تنفيذها في العام القادم.

كما اقر المجلس عددا من مشروعات المنظمة وأجهزتها. ومن المشروعات المهمة التي اقرت:

— وضع موسوعة الفكر التربوي الاسلامي.

— صندوق لمساعدة الطلبة المتضررين بسبب الكوارث والحروب.

— تمويل جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الاسلامية.

— تنفيذ ووضع استراتيجية تطوير الثقافة العربية.

— دعم صندوق صيانة مدينة القيروان.

— وضع مشروع الموسوعة العربية الكبرى في حيز التنفيذ.

— المساهمة في برنامج البحر الأحمر وخليج عدن.

— المساهمة في برنامج الحزام الأخضر لدول شمال أفريقية.

— المباشرة في وضع استراتيجية تطوير العلوم في الوطن العربي.

— إنشاء قاعدة للمعلومات في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم باستخدام الحاسب الآلي.

● الفهرست

صدر العددان السادس والسابع من «الفهرست» الذي يتميز بشمولية لائحة مصادره التي تضم ١١٥ دورية (الملحق رقم ١) تصدر في مشرق العالم العربي ومغربه وتعالج مختلف حقول المعرفة والعلوم الانسانية.

يتميز «الفهرست» أيضا بنظام التكشيف العلمي الدقيق، الذي يوائم بين قوانين الفهرسة الحديثة، ومتطلبات لغتنا ونتاجنا الفكري، وبسهولة الوصول إلى محتويات الدوريات المدرجة على لائحة مصادره.

تاريخ لافاييت*
١٧٥٧ - ١٨٣٤



□ لافايت برفقة جورج واشنطن على الجبهة عام ١٧٧٧.

ولد بمقاطعة اوفرن بفرنسا في ٦ أيلول ١٧٥٧ وينتمي إلى اسرة ذات ثراء واسع وقد قتل والده في معركة مندن في ١٧٥٩ ثم توفيت امه وهو في سن ١٣ فترك صبيا يتيما ذا ثروة كبيرة. وتزوج في سن ١٦ من ماري ادريان دي نواي التي توفيت في ١٨٠٧.

دخل لافاييت الحرس الملكي ووصل إلى رتبة كابتن حين أعلنت المستعمرات الانجليزية في اميركا استقلالها فكانت نواة دولة الولايات المتحدة، واحس لافاييت بالعطف على الثورة الأميركية فاستطاع عن طريق المندوب الأميركي في باريس، سيلاس دين، أن يعقد اتفاقا في ٧ كانون الأول ١٧٧٦ يدخل بمقتضاه لافاييت الخدمة العسكرية الأميركية برتبة ماجور جنرال. وكانت الأنباء التي ترد عن الموقف العسكري في أميركا تقول أن القوات الأميركية تتكبد خسائر فادحة واخذ أصدقاء لافاييت يحرضونه على العدول عن عزمه — ومن ناحية أخرى كان السفير البريطاني في فرساي يضغط على الحكومة الفرنسية لمنع لافاييت حتى صدر أمر ملك فرنسا بمنعه فعلا، وضبط لافاييت وهو يحاول الهرب من بوردو. على أن لافاييت استطاع الهرب من فرنسا إلى إسبانيا متخفيا في طريقه إلى أميركا ونزل بجوار جورج تاون ثم أسرع إلى فيلادلفيا.

وقدم لافاييت نفسه إلى الكونجرس الأميركي الذي أصدر قرار في تموز يوليو بقبول خدماته وتعيينه في رتبة ماجور جنرال في قوات الولايات المتحدة. وفي اليوم التالي التقى لافاييت بواشنجتون الذي أصبح له صديق العمر حتى أن لافاييت أطلق على ابنه الأكبر إسم جورج واشنجتون جوتييه دي لافاييت. وخاض لافاييت أولى معاركه في براندي واين في ١١ أيلول ١٧٧٧ وجرح، وبعد ذلك بقليل حصل لافاييت على ما كان يتوق إليه وهو قيادة فرقة ورغم منصبه الجديد إلا أن فرقته في الواقع لم تضع عددا كبيرا من المقاتلين وخلال ١٧٧٨ أبلى لافاييت بلاء حسنا أشاد به الكونجرس الأميركي.

غير أن معاهدة التجارة والتحالف الدفاعي بين فرنسا والولايات المتحدة في ٦ شباط ١٧٧٨ تبعها مباشرة إعلان الحرب من جانب انجلترا على فرنسا، فدخلت فرنسا طرفا في الحرب إلى جانب الولايات المتحدة بصورة

رسمية. وعندئذ طلب لافاييت أن يسمح له إزاء الموقف الجديد بزيارة فرنسا لاستشارة الملك في توجيه خدماته. وبالفعل ترك أميركا في ١١ كانون الثاني ١٧٧٩ واستقبل في فرنسا استقبال الأبطال العائدين وعين برتبة كولونيل في فرقة الفرسان الفرنسية.

وغاب لافاييت عن فرنسا فترة ستة شهور واستمر يحارب في صفوف الثوار الأميركيين حتى أنهت معركة يوركتاون عمله العسكري في الولايات المتحدة. وفي ٢٠ كانون الثاني ١٧٨٣ أعلنت الهدنة بين الأطراف المتحاربة في الوقت الذي كان فيه لافاييت يفكر في تبني مشروع حملة مشتركة بين الاسبان والفرنسيين لمهاجمة بعض جزر الهند الغربية البريطانية.

وفي ١٧٨٧ احتل لافاييت مكانا في مجلس النبلاء وكان وحده يطالب الملك بدعوة مجلس الطبقات، وهكذا اصبح زعيما من زعماء الثورة الفرنسية. وفي ١٧٨٩ انتخب لمجلس الطبقات. ثم اختير نائب الرئيس في الجمعية الوطنية وفي ١١ تموز ١٧٨٩م قدم إعلان الحقوق المعدل من وثيقة جفرسون (المفكر السياسي للثورة الأميركية).

واختير لافاييت قائدا من قواد الحرس الوطني الجديد في باريس. وهو صاحب فكرة الشارة الفرنسية المثلثة الألوان (الكوكارد) التي ارتبطت بالثورة الفرنسية ــ وألوان التريكولور في العلم الفرنسي المثلث الألوان الازرق والأبيض والأحمر وكانت الوان باريس هي الأحمر والأزرق فاقترح هو إضافة اللون الملكي الفرنسي وهو اللون الأبيض لترمز الالوان مجتمعة إلى فرنسا الجديدة.

وفي السنوات الثلاث التي تلت حتى سقوط الملكية الدستورية في فرنسا في ١٧٩٢ كان تاريخ لافاييت في الحقيقة هو تاريخ فرنسا نفسها.

وفي الجمعية التأسيسة طالب بإلغاء السجن التعسفي وبالتسامح الديني، والتمثيل الشعبي وبضرورة إقامة الحاكم على نظام المحلفين وبتحرير الرقيق تحريرا تدريجيا وبحرية الصحافة والغاء القاب النبلاء ووقف ظلم الطبقات الدنيا. وفي شباط ١٧٩٠ رفض القيادة العليا للحرس الوطني للملكة. وفي أيار الف (جمعية ١٧٩٠) التي اصبحت فيما بعد في ١٧٩٢ نادي الفويان وهم جماعة الملكيين الدستوريين المعتدلين.

كان صديقا للحرية ولكنه يحترم النظام ايضا وحين هرب لويس السادس عشر إلى فارين أصدر امره بالقبض عليه وبعد ذلك بقليل أصبح ليفتنانت جنرال في الجيش ولكنه اعتزل الخدمة العسكرية.

وفي كانون الأول ١٧٩١ حين كانت ثلاثة جيوش تستعد لتهاجم النمسا وضع لافاييت على رأس واحد منها ولكنه كان يعارض بشدة استفحال نفوذ حزب اليعاقبة (الجمهوريين المتطرفين).

وفي ١٩ آب ١٧٩٢ اعلنت الجمعية لافاييت خائنا فهرب إلى ليج ببلجيكا وهناك قبض عليه باعتباره من أنصار الثورة الفرنسية ودعاتها فأسر خمسة اعوام في سجون بروسيا اولا ثم في سجون النمسا.. وفي معاهدة كامبيو فورميو (١٧٩٧) اشترط بونابرت إطلاق سراح لافاييت فعاد إلى فرنسا في ١٧٩٩ وفي ١٨٠٢ صوت ضد قنصلية نابليون لدى الحياة وكذلك في ١٨٠٤ صوت ضد منح نابليون لقب امبراطور.

ومن ١٨١٨ إلى ١٨٢٤ كان لافاييت نائبا عن إحدى المقاطعات الفرنسية يتكلم ويصوت دائما في جانب العناصر الليبرالية ثم منذ ١٨٢٥ إلى وفاته كان نائبا في مجلس النواب عن مقاطعة اخرى وإبان ثورة ١٨٣٠ عاد إلى قيادة الحرس الوطني. وفي ١٨٣٤ القى اخر خطاب له نيابة عن المهاجرين البولنديين وتوفي في باريس في ٢٠ ايار ١٨٣٤.

●

* هو المركيز جوزيف دي موتييه
(Joseph du Matier Lafayette

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج. إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة اقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد. وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد

الإدارة

■ كتاب «الكافي في "بيزرة»
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ الطبعة الأولى
١٩٨٣ ــ ٤٢٣ صفحة ...... تأليف: عبد الرحمن بن محمد البلدي
حققه وقدم له وعلق عليه:
إحسان عباس وعبد الحفيظ منصور

■ معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث ــ الجامعة اللبنانية
الصورة التقليدية للمجتمع المديني
قراءة منهجية في مجلات محكمة طرابلس الشرعية
في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر
دار الانشاء ــ طرابلس ١٩٨٣ ــ ١٧٩ صفحة ...... د. خالد زيادة

■ **افريقيا والراي العام العربي**
دراسة تحليلية لاتجاهات الصحف العربية نحو افريقيا
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ٢٢٥ صفحة .... د. عواطف عبد الرحمن

■ **وعي الوعي أو الحكم المسبق والمسالة التربوية**
نصوص فلسفية عربية
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ١٨٤ صفحة .... د. انطوان ج. خوري

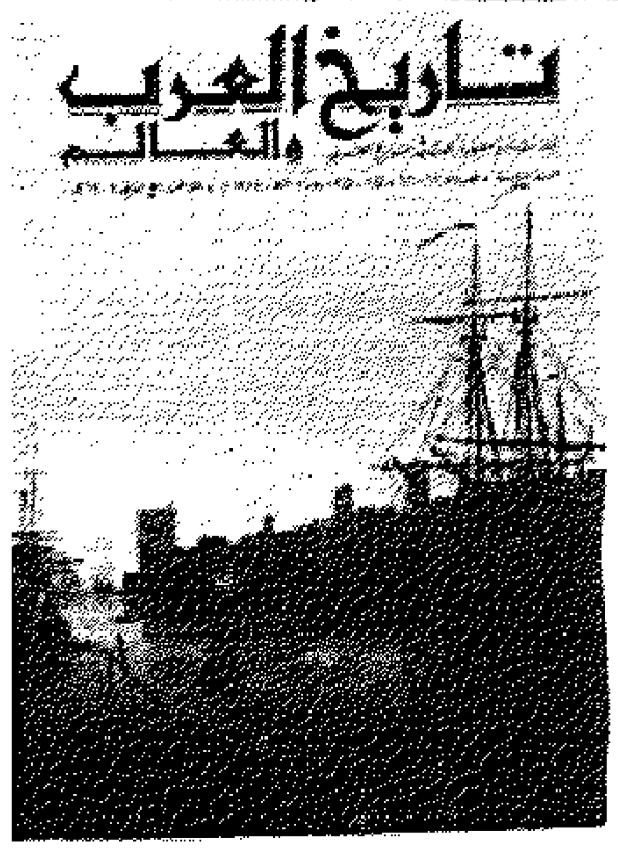
■ **فرانز فانون**
رؤيته لدور الكاتب والأدب الافريقي باللغة الفرنسية
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ١٥٧ صفحة .... د. سعاد شيخاني

■ سلسلة الكتب العلمية الميسرة
مبادىء تنظيم المدينة
معهد الانماء العربي ــ بيروت ــ ١٩١ صفحة ....
مصطفى فواز

■ **صندوق النقد الدولي والمساهمة السعودية**
معهد الانماء العربي ــ الطبعة الأولى ــ بيروت
١٩٨٣ ــ ٢٤٦ صفحة .... د. عز الدين صالحاني



□ حي من أحياء المدينة المنورة القديمة. تبدو فيه البيوت ونوافذها ذات المشربيات، والميدان الذي يكون سوقا عامة في ساعات الصباح، ثم تجمع منه السلع والمتاجر، ليعود ميدانا ومتنفسا للحي.



الغلاف الأول:
□ مرفأ مرسيليا التجاري كان همزة الوصل بين اوروبا والشرق الأوسط. (الصورة ماخوذة من مجلة «Histoire Magazine»، العدد ٣٧، ١٩٨٣).